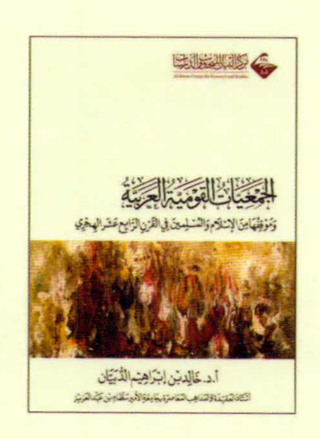


الجمعيات القومية العربية

وموقفها من الإسلام والمسلمين في القرن الرابع عشر الهجري

أ.د. خالد بن إبراهيم الدبيان

أستاذ العقيدة والمذاهب المعاصرة بجامعة الأمير سطام بن عبد العزيز



الجمعيات القومية العربية

ضمن المراحل التاريخية التي تعرضت فيها الأمة الإسلامية لهجوم شرس من كيد الأعداء؛ مرحلة نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر الهجري، والتي برزت فيها أفكار تدعو إلى وحدة الأمة تحت شعار جاهلي هو شعار القومية العربية، وحرية مطلقة وعقيدة وثنية.

وتولى تصدير هذه المبادئ ونادى بها جمعيات سمَّت نفسها (جمعيات إصلاحية)، وقد كان لمنهج هذه الجمعيات وما قدمته من طروحات أثر عظيم على عقيدة الأمة الإسلامية، وعلى الطبقة المثقفة والشابة منها خاصةً. وفُتِنت هذه الطبقة بشعارات براقة وساعد على تقبل هذه الشعاراتِ الواقعُ الانهزاميُّ الذي تعايشه الأمة في القرن الرابع عشر الهجري.

ورغبة في كشف حقيقة مبادئ ونظم وأعضاء الجمعيات القومية العربية، جاء هذا الكتاب بياناً لمناهج ومعتقدات هذه الجمعيات، وتوضيحاً للأبعاد الفكرية والعقدية التي تسعى إلى تحقيقها، وكشفاً لحقيقة دورها في إجهاض جملةٍ من المفاهيم الشرعية.





مكتب مجلة البيان
ص.ب ٢٦٩٧٠ - الرياض - ١١٤٩٦
www.albayan.co.uk
sales@albayan.co.uk
هاتف : ٠٠٩٦٦١١٤٥٤٦٨٦٨



ردمك :٧-٠٥-٨١٩١-٦٠٣-٩٧٨



وموقفها من الإسلام والمسلمين في القرن الرابع عشر الهجري

إعداد

أ.د. خالد بن إبراهيم الدُّبيّان

أستاذ العقيدة والمذاهب المعاصرة بجامعة الأمير سطام بن عبد العزيز

ح مجلة البيان، ١٤٣٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الدبيان، خالد إبراهيم عبد الله

الجمعيات القومية العربية وموقفها من الإسلام والمسلمين في القرن الرابع عشر الهجري./ خالد إبراهيم عبد الله الدبيان، - الرياض، ١٤٣٧هـ

ص ٩٦٦؛ ١٧× ٢٤ سم

ردمك: ٧ - ٠٥ - ٨١٩١ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ - الإسلام والقومية ٢ - الإسلام - المذاهب السياسية ٣ - القومية العربية - نقد أ. العنوان

ديوي ٢١٤.٣٢٠٥٤ ١٤٣٧/٩٩٥٧

رقم الإيداع: ١٤٣٧/٩٩٥٧

ردمك: ٧ - ٠٥ - ٨١٩١ - ٦٠٣ - ٩٧٨





المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وخيرته من خلقه، وأمينه على وحيه، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، ورضي الله تعالى عن الصحابة الميامين وعمَّن سار على نهجهم واتبع طريقتهم إلى يوم الدين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[1].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[2].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[3].

أما بعد:

ثبت في صحيح البخاري عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أنه قال: [كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي، فَقُلْتُ:

(١) سورة آل عمران، رقم الآية (١٠٢).

(٢) سورة النساء، رقم الآية (١).

(٣) سورة الأحزاب، رقم الآية (٧٠ - ٧١).

يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ، فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: نَعَمْ. قُلْتُ: وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: نَعَمْ وَفِيهِ دَخَنٌ. قُلْتُ: وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ: قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ. قُلْتُ: فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: **نَعَمْ دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا. قَالَ: هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا**. قُلْتُ فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ: تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ. قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلا إِمَامٌ؟ قَالَ: فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ][1].

بيّنَ هذا الحديثُ الصحيحُ الداءَ والدواءَ. فبيّن الرسول ﷺ الداء بأنه سيظهر في الأمة **دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا، وهُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا**، وفي مقابل هذا الداء بين ﷺ الدواءَ وهو لزومُ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامِهِمْ. فإن لم يَكُنْ هناك جَمَاعَةٌ وَلا إِمَامٌ. فيجبُ اعْتِزَالُ الْفِرَقِ ودعاةِ النار.

وقد مرت فترات من تاريخ الأمة الإسلامية تعرضت فيها الأمة لسهام الأعداء في أعظم قضيةٍ تتعلق بوجودها وتمكينها في الأرض، ألا وهي مسألة العقيدة، فمرةً محاولةٌ لتبديل المنهج الرباني بمنهج عقلاني، وأخرى ببث الشُّبَهِ في مصدر تلقّي العقيدة، ومرة تحت ستار شعارات براقة ظاهرُها السلامةُ، وباطنُها الكفرُ والزندقة.

ومن ضمن المراحل التاريخية التي تعرضت فيها الأمة الإسلامية لهجوم شرس من كيد الأعداء؛ مرحلة نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر الهجري، والتي برزت فيها أفكار تدعو إلى وحدة الأمة تحت شعار جاهلي هو **شعار القومية العربية، وحرية مطلقة وعقيدة وثنية.**

(١) صحيح البخاري، كتاب الفتن، بَاب كَيْفَ الأَمْرُ إِذَا لَمْ تَكُنْ جَمَاعَةٌ، رقم الحديث (٦٥٥٧).

وتولى تصدير هذه المبادئ ونادى بها جمعيات سمَّت نفسها (جمعيات إصلاحية)، ولتحقيق مآربها قامت بوضع منهج لها حددت فيه:

أ) أهداف الجمعيات الإصلاحية.

ب) شروط الالتحاق بهذه الجمعيات.

ج) المطالبة بالاستقلال والانفكاك عن الدولة العثمانية.

د) أسلوب التعامل مع المعارضين لأهداف هذه الجمعيات... إلخ.

فكان لمنهج هذه الجمعيات وما قدمته من طروحات أثر عظيم على عقيدة الأمة الإسلامية، وعلى الطبقة المثقفة، والشابة منها خاصةً. وفُتِنت هذه الطبقة بشعارات براقة، وساعد على تقبل هذه الشعاراتِ الواقعُ الانهزاميُّ الذي كانت تعايشه الأمة في القرن الرابع عشر الهجري.

ورغبة في كشف حقيقة مبادئ ونظم وأعضاء الجمعيات القومية العربية، فقد اخترت هذا البحث: (**الجمعيات القومية العربية وموقفها من الإسلام والمسلمين في القرن الرابع عشر الهجري**) موضوعاً لرسالة الدكتوراه في كلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى. وذلك للأسباب التالية:

» أسباب اختيار الموضوع:

أولاً) تسليط الضوء على حقبة زمنية من تاريخ أمتنا الإسلامية عرضت عليها أفكار ومعتقدات تخالف الكتاب والسنة.

ثانياً) بيان المناهج والمعتقدات التي تنادي بها الجمعيات التي تسمي نفسها جمعيات إصلاحية، وعرضها على الكتاب والسنة.

ثالثاً) توضيح وبيان الأبعاد الفكرية والعَقَديّة التي تسعى إلى تحقيقها الجمعيات القومية العربية.

رابعاً) كشف دور الجمعيات القومية العربية في القضاء على مفهوم الخلافة الإسلامية، وإسقاط الدولة العثمانية التي تنادي بالخلافة الإسلامية، ودور الجمعيات القومية في هيمنة الدول الاستعمارية على بعض البلاد الإسلامية.

خامساً) الاقتداء بسلف الأمة في بيان معتقدات وأباطيل أهل البدع والزنادقة،كما في كتب الأئمة كأحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، واللالكائي، وابن بطّة... إلخ، عليهم رحمة الله تعالى.

سادساً) التعريف بأعضاء الجمعيات القومية العربية، ممن كان لهم دور في تسطير أنظمة وقوانين هذه الجمعيات خاصة.

وقد بين الشاطبي المنهج الشرعي في كشف أهل البدع بأسمائهم، فقال: (لا ينبغي للراسخ في العلم أن يقول: هؤلاء الفرق هم بنو فلان وبنو فلان، وإن كان يعرفهم بعلامتهم بحسب اجتهاده، اللهم إلا في موطنين:

الأول: حيث نبّه الشرع على تعيينهم كالخوارج، فإنه ظهر من استقرائه أنهم متمكنون تحت حديث الفِرَق[1]، ويجري مَجْراهم من سلك سبيلهم.

الثاني: حيث تكون الفرقة تدعو إلى ضلالتها وتزيينها في قلوب العوام ومن لا

---

(١) يقصد الشاطبي رحمه الله بحديث الفرق قول الرسول ﷺ: [افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى أَوْ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَتَفَرَّقَتِ النَّصَارَى عَلَى إِحْدَى أَوْ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً]، سنن أبي داود، كتاب السنة، بَاب شَرْحِ السُّنَّةِ، رقم الحديث (٣٩٨٠) وانظر: مسند الإمام أحمد بن حنبل، ٢/ ٣٣٢.وسنن ابن ماجة، كتاب الفتن، بَاب افْتِرَاقِ الْأُمَمِ، رقم الحديث (٣٩٨١).

علم عنده، فإن ضرر هؤلاء على المسلمين كضرر إبليس، وهم من شياطين الإنس، فلا بد من التصريح بأنهم من أهل البدعة والضلالة، ونسبتهم إلى الفرق إذا قامت له الشهود على أنهم منهم... فمثل هؤلاء لا بد من ذكرهم والتشهير بهم، لأن ما يعود على المسلمين من ضررهم إذا تُركوا، أعظم من الضرر الحاصل بذكرهم والتنفير عنهم)[١].

سابعاً) لم أجد على حدّ علمي مَنْ استقصى الكتابة في هذا الموضوع المهم، وإن كان قد كُتب في جوانب منه، وقد بينت في التمهيد أبرز الدراسات (العلمية) التي قدمت في هذا الموضوع.

» صعوبات في أثناء كتابة البحث:

لقد واجهتني في أثناء بحثي في موضوع الجمعيات القومية العربية صعوباتٌ، أسأل الله أن يجزي من أعانني على اجتيازها خير الجزاء، فمن ذلك:

١. أن بعض أمور الجمعيات القومية العربية تتسم بالسرية التامة، مما يجعل التعريف بحقيقة الجمعيات وبيان مبادئها السرية من الأمور المتعسرة.

٢. لاقيتُ أثناء كتابة التعريف بالجمعيات القومية شخصياتٍ كان لها دور مؤثرٌ في الحركة العلمية المعاصرة كتحقيق بعض كتب السلف ونشرها. وكان لهذه الشخصيات دورٌ بارزٌ في السعي إلى تأسيس الجمعيات القومية العربية؛ مما جعلني أتحقق أولًا من نسبة بعض الآراء إليها. مع التأكيد على أن الله قد كتب العصمة لرسله، وكما قال بعض السلف عن أنفسهم: (كلٌ يؤخذُ منه ويرد عليه إلا صاحب هذا القبر) مشيراً إلى قبر رسول الله.

٣. أن كثيراً من الدراسات العلمية كتبها أصحابها تحت تأثير النزعة القومية

---

(١) الاعتصام، الشاطبي، ٢/ ٢٢٦ و٢٢٩، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

العربية، مما يجعل الاستفادة من هذه الدراسة محدودة في جوانب معينة.

٤. ظهور تناقض واضحٍ في مواقف أعضاء الجمعيات القومية العربية في كثير من الحالات التي يجب أن تُتّخذَ فيها مواقفُ محددة، والتناقض والاختلاف في اتخاذ المواقف المحددة يؤثر في تقويم مواقف الجمعيات من الأحداث.

٥. مواقف العلماء المعاصرين للجمعيات القومية تجاه آراء ومبادئ الجمعيات من أهم ما يفيد الباحث ويساعده، ولكن للأسف بعد البحث تبين لي ندرة المواقف الحاسمة والفتاوى القاطعة من مبادئ الجمعيات، وذلك لفشو تيار القوميات وتعاون أربابها فيما بينهم على إسقاط كل من يعارضهم غالباً، ولقيام دول تتبنى هذه المذاهب، وكثير من الناس يسايرهم أو يغض الطرف عنهم رغبة أو رهبة.

ولكن الحق لا يضيع بالكلية، كما قال رسول الله ﷺ: [لا يَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ][١]، وقال البخاري: (وَهُمْ أَهْلُ الْعِلْمِ)[٢]. فقد أبقى الله من العلماء - رغم قلتهم - شوكةً في حلوق القوميين كما سيتضح في ثنايا البحث.

٦. إن الحيرة التي كانت تمتلكني - إزاء الأخطاء الإملائية واللغوية والنحوية وضعف السبك في الكلام الذي اقتبسته من كتب القوميين كبيرة - فكنت أتردد بين ما تمليه الأمانة العلمية في نقل النصوص؛ من تركها على حالها، وبين ما ينبغي أن يكون عليه النص سليماً، فهديت إلى أن أصحح ما كان جسيماً من الخطأ وما يكتمل به

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، بَاب قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ يُقَاتِلُونَ»، رقم الحديث (٦٧٦٧).

(٢) المصدر نفسه.

المعنى المراد دون مساس بفكرته الجوهرية.

ومعلوم أن هذا الضرب من الكتب، دون الكتب العلمية التي تحظى بالعناية من أصحابها ومن قبل أهل المطابع، فضلاً عن أن أغلب كاتبيها من غير المتخصصين، ويكتبون بلغة الصحفي والسياسي.

خطة البحث

بعد توفيق الله تعالى، ثم توجيه وإرشاد شيخي الفاضل الدكتور علي بن نفيع العلياني، المشرفِ على الرسالة، احتوت خطة الرسالة على: مقدمة وتمهيد، وأربعة أبواب، وخاتمة.

أما **المقدمة** فقد ألمحت فيها إلى الموضوع، وأهميتِهِ والأسبابِ التي دعت إلى اختياره، وبعض ما اعترضه من عقبات.

وأما **التمهيد**: فقد اشتمل على الأمور التالية:

أولاً) الدراسات الموجودة عن موضوع الجمعيات القومية العربية، وجرى تقسيمها إلى قسمين:

القسم الأول: الدراسات العلمية عن هذا الموضوع، وأقصد بها: الرسائل والأبحاث العلمية التي استطعت الاطلاع عليها.

القسم الثاني: الكتابات التي أصدرها أعضاء الجمعيات القومية العربية في موضوع الجمعيات. وتعتبر مذكراتُ أولئك الأعضاء من أهم مصادر التعريف بنظم ومبادئ تلك الجمعيات.

ثانياً) عرض موجز للحالة العَقَديّة للأمة الإسلامية في القرن الرابع عشر الهجري.

أما الباب الأول: فكان موضوعه: التعريف بالجمعيات القومية العربية، وأبرز رجالها ومبادئها.

وقد عقدت فيه أربعةَ فصول:

الفصل الأول: التعريف بجمعيات القومية العربية.

والجمعيات القومية التي عَرّفتُ بها، هي: الجمعيات التي كانت في الفترة التاريخية منذ إعلان الدستور العثماني وقيام الدولة العربية الأولى في دمشق والحجاز.

وقد ذكرت جمعيات قبل هذا التاريخ وذلك لأهميتها وارتباطها بالجمعيات القومية، كما عرّفت بحزب البعث العربي وذلك لموقعه المؤثر في تاريخ الفكر القوميّ، ومما يحتويه التعريفُ بالجمعية: نظامَ الجمعية، وذكرَ المؤسسين لها، وتاريخَ التأسيسِ، وأبرزَ الأعضاء.

الفصل الثاني: أهم أسباب نشوء هذه الجمعيات:

بينت في هذا الفصل أبرزَ أسباب نشأة الجمعيات القومية العربية، وانقسامها إلى قسمين: أسباب رئيسة، وأسباب فرعية.

الفصل الثالث: الأهداف العامة للجمعيات القومية العربية.

سعت الجمعيات القومية العربية لتحقيق مآرب وأهداف، تطمع في تحقيقها على واقع الأمة، إذ بينت هذه الأهداف التي صرح المؤسسون عن بعضها.

الفصل الرابع: أبرز رجال الجمعيات القومية في القرن الرابع عشر.

كانت بعض الآراء والأفكار التي نادى بها بعض مفكري العرب في القرن الرابع عشر الهجري عاملاً من عوامل تأسيس أهداف الجمعيات القومية، ولهذا خصصت هذا الفصل لترجمة بعض رجال الجمعيات القومية العربية، وتناوَلتُ في الترجمة، الأمور التالية:

١) تعريف موجز بالشخصية الذاتية.

٢) اتجاهها العقدي.

٣) أهدافها وآراؤها في القومية.

٤) آثارها العلمية والعملية في تأسيس الجمعيات القومية العربية.

أما الباب الثاني فموضوعه: موقف الجمعيات القومية من العقيدة الإسلامية.

وفيه خمسة فصول: **الفصل الأول: موقف الجمعيات من مصادر العقيدة الإسلامية:**

وقد عرضت في هذا الفصل موقف الجمعيات القومية العربية من مصادر العقيدة وهي: أ - القرآن الكريم، ب - السنة النبوية الصحيحة،ج - الإجماع.

الفصل الثاني: موقف الجمعيات من أصول العقيدة الإسلامية:

وبعد بيان وعرض موقف الجمعيات القومية من مصادر العقيدة، عرضت أيضاً موقفها من أصول العقيدة، حيث قسمت هذا الفصل إلى مباحث كالآتي:

أولاً) موقفهم من التوحيد. والكفر بما يناقض توحيد الطلب والقصد[1]، ويشمل ما يلي:

١) موقفهم من توحيد الأديان

٢) موقفهم من تحكيم الشريعة، وتعظيمُهُم لقوانين الجاهلية.

ثانياً) عقيدة الولاء والبراء.

ثالثاً) نبوة النبي محمد ﷺ وسيرته.

---

(١) انظر: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن القيم، ٣/ ٤٤٩، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٣٩٢هـ.

الباب الثالث: موقف الجمعيات القومية العربية تجاه الدعوات الإصلاحية المعاصرة لها. وينقسم هذا الباب قسمين:

القسم الأول: موقفهم من الدولة العثمانية والخلافة الإسلامية.

القسم الثاني: موقفهم من دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب.

الباب الرابع: موقف العلماء المعاصرين من هذه الجمعيات.

بعد بيان المبادئ والقوانين، وتوضيح المواقف من مسائل العقيدة، ختمت البحث بموقف العلماء المعاصرين من هذه الجمعيات، ثم بينت دور العلماء في تحذير الأمة من الأفكار والمعتقدات المنحرفة.

الخاتمة: وقد أنهيت الموضوع بخاتمة موجزة حوت أهم النتائج التي توصلت إليها في هذا البحث.

منهجي في البحث: الحقيقة أن البحث موضوع واحد ذو شقين، أولهما: التعريف بالجمعيات القومية. وثانيهما: موقف هذه الجمعيات من الإسلام والمسلمين، وانتظمت مادة البحث في ذلك من خلال اعتماد المناهج التالية:

أولاً) المنهج التاريخي: وهذا المنهج سلكته في كتابة الباب الأول من الرسالة، حيث جرى الحديث عن تاريخ وتتبع أطوار نشأة الجمعيات القومية، وسيرة موجزة عن أبرز المؤسسين لها.

وقد بذلت قدراً من الجهد في محاولة التوفيق بين أقوال أعضاء الجمعيات القومية العربية المدونة في مذكراتهم الخاصة وبين نظام ومبادئ الجمعيات.

ومن أجل أن يكتمل التعريف بالجمعيات القومية العربية وأسباب نشأتها فقد عرفت بأهم الجمعيات التركية، وذلك لارتباطها بأسباب النشأة.

ورغبة في بيان تأثير المدارس التنصيرية والمحافل الماسونية على الجمعيات القومية، فقد أرّختُ بصورة موجزة لهذه المدارس والمحافل الماسونية.

ثانياً) المنهج الوصفي: ويراد بهذا المنهج بيانُ مبادئ وأهداف الجمعيات القومية العربية، وعرضُ ما نادت به من آراء وأفكار، مع التركيز على الجوانب العقدية المنصوص عليها في الباب الثاني.

لقد كانت أغلب مصادر معلوماتي - عن موقف الجمعيات القومية العربية - هي كتابات أو مذكرات أعضاء الجمعيات أنفسهم، كما استقيت معلومات من المجلات والصحف والدوريات المعاصرة ذات الاتجاه القومي.

وأثناء وصف مواقف الجمعيات القومية العربية، سلكت المنهج التالي في العرض:

١) أعرض موقف الجمعية وأبينه.

٢) ثم أردف بعد ذلك آراء أعضاء الجمعيات القومية العربية.

٣) فإن لم أجد للجمعية موقفاً في موضوعات البحث اقتصرت على موقف الأعضاء المنتسبين لها.

ثالثاً) المنهج النقدي: وذلك بنقد المواقف والآراء التي تحتاج إلى النقد لدى الجمعيات القومية العربية وهي أكثر من أن تحصر، وما وصفته في الباب الأول قمت بنقده في الباب الثاني والثالث.

وأثناء نقد مواقف الجمعيات القومية العربية أستدل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ثم أنقل فتاوى وأقوال علماء القرن الرابع عشر الهجري، فهم الذين قد عاصروا الجمعيات القومية العربية، وعلموا مكرها وبطلان مناهجها.

وأما منهجي في صياغة البحث فقد حاولت أن ألتزم بما يلي:

٣) عزو الآيات القرآنية وذكر اسم السورة ورقم الآية.

٤) تخريج الأحاديث الشريفة بالإحالة إلى اسم الكتاب واسم الباب ورقم الحديث، وإذا كان الحديثُ ثابتاً في صحيحي البخاري ومسلم أو أحدهما اقتصرت على ذلك، فإن لم يكن أذكر من صحّح الحديث من العلماء.

٥) ترجمت لأبرز الأعلام الوارد ذكرُهم بالكتاب، وحرصت أن تكون الترجمة - قدر المستطاع - محصورة في أعضاء الجمعيات القومية العربية. وقد جعلت التراجم في مكان واحد، وعند ذكر العلم أشير إلى رقم ترجمته.

٦) اجتهدت في كتابة التاريخين الهجري والميلادي معاً في جميع الرسالة.

٧) وضعت فهارس في آخر الرسالة لبعض الوثائق والمصادر، وفهرس الموضوعات.

وفي ختام هذه المقدمة أتقدم بالشكر الجزيل لوالديّ الكريمينِ غفر الله لهما ورحمهما وأسكنهما الجنان العالية، وأعانني على برِّهما والإحسانِ إليهما. كما أتوجه بالشكر والعرفان بالجميل إلى شيخي الأستاذ الدكتور/ علي بن نفيع العلياني، الذي تفضلَ بالإشرافِ على هذا البحثِ وإبداءِ التوجيهاتِ والنصائح، والذي كان لي شرف التتلمُذِ على يديهِ، فأسألُ اللهَ تعالى أن يجزيَه خيرَ الجزاءِ، وأن يباركَ في وقتهِ وعملهِ.

كما أقدم أزكى الشكر وأطيبه لكلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى، ولقسم العقيدة رئيساً وأعضاء لرعايتهم هذا البحث ومتابعة خطواته، فجزاهم الله خير الجزاء.

وأدعو الله أن يجزي بالخير كل من قدم لي مساعدة في هذه الرسالة.. كما آمل من القارئ الكريم التواصل العلمي وإرسال ما لديه من اقتراح أو استدراك على البريد الإلكتروني:

Dr.khalied.d@gmail.com

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

تمهيد



أولاً) الدراسات حول موضوع الجمعيات القومية العربية

إن مما ينبغي بيانه عند الكتابة في موضوع الجمعيات القومية العربية، ذكر دراسة موجزة للقارئ عن الدراسات التي تناولت القومية العربية.

وبتتبعي لتلك الدراسات رأيت أن المبشرين بالفكرة القومية قد انطلقوا من مقر الجمعيات القومية العربية، فكانت تصدر المبادئ والنظم والأهداف القومية العربية، واعتبرتِ الدراساتُ بداية تاريخ القومية العربية من تاريخ تأسيسها.

ومن خلال الاطلاع على مظان مصادر البحوث والدراسات الجامعية لم أقف على من خصص موضوع الجمعيات القومية وبيان موقفها من الإسلام والمسلمين بالبحث. والدراسات التي وجدتها كانت تتناول جوانب معينة من تاريخ الفكر القومي، ومن أبرزها ما يلي:

أولاً) العرب والترك في العهد الدستوري العثماني (١٩٠٨م - ١٩١٤م)، للدكتور توفيق برّو، وهي دراسة مُقَدَّمة لمعهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة، لاستحقاق درجة الماجستير.

واختار الباحث الفترة الزمنية بين (١٣٢٦ - ١٣٣٣هـ، ١٩٠٨م - ١٩١٤م) لأنها الفترة التي نشأت فيها الجمعيات القومية، وقال الباحث عن دراسته: (هي أول محاولة علمية أكاديمية لدراسة علاقة العرب بالترك، في فترة الحكم الدستوري التي مر بها العهد العثماني)[١].

(١) العرب والترك، توفيق برو، ٩، طلاس، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩١م.

والباحث تناول علاقة العرب بالترك، وهو متأثر بالفكرة القومية العربية، ويدافع عن مبادئ الجمعيات القومية العربية، فضلاً عن أنّ البحث متعلقٌ بالأمور السياسية كمطالبة العرب بالحكم الذاتي، أو إشراكهم في المجالس النيابية.

ثانياً) جمعية العربية الفتاة السرية - دراسة وثائقية (١٣٢٧ - ١٣٣٦هـ، ١٩٠٩ - ١٩١٨م) - تأليف الدكتورة سهيلة الريماوي -: وتتمثل الدراسة المذكورة بأنها ملخصُ دراساتٍ علميةٍ سابقة تتعلق بالحياة الحزبية في سوريا لمرحلة تاريخية محددة، وبدراسة الوثائق عن تأسيس جمعية العربية الفتاة السرية، وقد استطاعت الباحثة أن تجمع أكبر عدد ممكن من الوثائق المتعلقة بتأسيس الجمعية[١].

وبتتبعي لدراسة الباحثة لاحظت أن الدراسة كانت مركزة على الجانب التاريخي في نشأة الجمعية، وتتبع أسماء الأعضاء المنتسبين لها، واقتصر البحثُ على جمعية الفتاة فقط، ووصفت الباحثة الجمعيةَ بأنها: (مؤسسةٌ سياسية انتظمتْ عدداً من المواطنين العرب اجتمعوا حول هدف سياسي)[٢]. ولكن النظر في مبادئ الجمعيات القومية لا يحصر الهدف على الجوانب السياسية فحسب، بل يضم إليها القضايا الثقافية والفكرية.

ثالثاً) (طالب النقيب: دوره في تاريخ العراق الحديث) لحسين الشلاة.

وهي رسالة دكتوراه مقدمة لجامعة القاهرة عام ١٩٧٠م، بين الباحث فيها دور طالب النقيب في تأسيس الجمعيات القومية، وهو من أبرز مؤسسي الجمعيات القومية العربية في العراق.

---

(١) بتوفيق من الله تعالى استطعت الحصول على وثائق مهمة عن تاريخ وتأسيس الجمعيات القومية، من مكتبة محب الدين الخطيب بالقاهرة.

(٢) جمعية العربية الفتاة السرية، سهيلة الريماوي، ٢٥، دار مجد لاوي، عمان، الأردن.

والدراسةُ بحثٌ في سيرة طالب النقيب، مع ذكرٍ موجزٍ تاريخي عن جمعية البصرة الإصلاحية. وجمعية البصرة التي أسسها طالب النقيب سنة ١٩١٢م - وهي متزامنة مع جمعية بيروت الإصلاحية -. وبعثت القنصلية البريطانية في العراق إلى السفير البريطاني في الآستانة سنة ١٩١٣م، خطة جمعية البصرة الإصلاحية، وذكرت أن هذه الجمعية يرأسها طالب النقيب[١].

رابعاً) الأوضاع الثقافية في تركيا في القرن الرابع عشر الهجري - دراسة وتقويم - للدكتور سهيل صابان - وهي رسالة علمية قُدّمت لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية لاستحقاق درجة الدكتوراه.

وبيّن الباحث فيها التيارات الثقافية الوافدة على الأمة الإسلامية، وما نتج عن هذه الأفكار والمعتقدات من ظهور عقائد دخيلة على دولة الخلافة (الدولة العثمانية)، كما أوضح الباحث تأثير الجمعيات الماسونية على معتقدات وأفكار النخبة الثقافية، وقيام هؤلاء النخبة بتبني المبادئ الماسونية والدعوة إليها.

ومن المباحث المهمة في الرسالة نشأة القومية التركية، والتي يقابلها القومية العربية، والصراع الداخلي في الاتجاهات الثقافية، وموقف هذه القوميات من الوحدة الإسلامية.

وتخلو الدراسة من الحديث عن الجمعيات القومية العربية؛ وذلك لمنهجية البحث وتخصصه بالقضايا الثقافية في تركيا.

خامساً) مقومات النهضة في الفكر القومي العربي - دراسة نقدية في ضوء الإسلام - عثمان العامر - وهي دراسة علمية قدمها الباحث لقسم الثقافة بكلية الشريعة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، لنيل درجة الدكتوراه.

---

(١) انظر: طالب النقيب، دوره في تاريخ العراق الحديث، حسين الشلاة، ٢١٦. وانظر: نص الرسالة في العراق في الوثائق البريطانية، فؤاد قزانجي، ١٠٧.

أوضح الباحث - على سبيل الإيجاز - دورَ الجمعيات القومية في نشر الفكر القومي منذ ظهوره على أيدي الجمعيات القومية العربية، فممّا قال: (لقد كان لهذه الجمعيات والأحزاب التي ظهرت قبل الحرب العالمية الأولى دور كبير في تأجيج الشعور القومي لدى العرب، حيث أحدثت تحركاً شعبياً وتفاعلاً عربياً، نتيجة بثها الوعي القومي على نطاق واسع)[1].

ولم يتطرق الباحث إلى تأثير الجمعيات العربية في واقع المسلمين، والبحث عن مبادئ الجمعيات القومية. وإنما ذكر أبرز المؤسسين لها، ولأهمية حزب البعث العربي الاشتراكي في نهضة الفكر القومي العربي، أعطاه مجالاً واسعاً في بحثه.

إن ما ذكْرتُه من دراسات جامعية قد يكون أبرز ما تيسّر لي الحصول والاطلاع عليه حول موضوع: (الجمعيات القومية العربية). وتلك المباحث تناولت تأسيس ونُظُم الجمعيات - وغالباً ما كان البحثُ متأثراً بميول ومنهج كاتبه - دون بيان موقف الجمعيات القومية العربية وأثر نظم ومبادئ الجمعيات على الإسلام والمسلمين.

وقد استفدت من أبحاث منشورة عن القومية العربية، من أبرزها:

١) نقد القومية العربية - للشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز:

لقد بيّن الشيخ ابن باز أن فضل العرب مرتبط بدينهم الإسلام، وأن شرف العرب بشرف التزامهم بالإسلام، ثم بين أنّ بداية الانحراف كان بسبب انتساب بعض أبناء المسلمين إلى الدعوة الجاهلية وشرف العروبة، وأوضح الشيخ دور نصارى العرب في هذا المجال. وأكّد على اختلاف الإسلام عن القومية العربية قائلاً: (إن الإسلام يخالف أسسهم التي بنوا القومية عليها، ويخالف صريحَ كلامهم ويباين ما يقصدونه

---

(١) انظر: مقومات النهضة في الفكر القومي العربي، دراسة نقدية في ضوء الإسلام، عثمان العامر، ١/ ٢٦، رسالة دكتوراه لم تنشر.

من تكتل العرب على اختلاف أديانهم تحت راية القومية)، ثم انتقد القومية ومخالفتها العقيدة من أربعة أوجه بينها الشيخ مستدلاً على هذا بالكتاب والسنة[1].

٢) حزب البعث تاريخه وعقائده: تأليف سعيد بن ناصر الغامدي.

قصر الباحث حديثه عن الجمعيات القومية، حيث ذكرها على سبيل العد الرقمي، أمّا البحث التفصيلي فقد كان عن حزب البعث العربي ومؤسسيه،(عفلق والبيطار) وبيّن مخالفة مبادئ حزب البعث العلمانية للعقيدة الإسلامية[2].

٣) فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام: صالح بن عبدالله العبود.

أصل البحث رسالة ماجستير مقدمة لكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة الملك عبدالعزيز، تناول الباحث فيه أصل الفكرة القومية ومنشأها، وتتبع تطور الفكرة القومية عند ثلاث شخصيات من رجال الفكر القومي وهم: (ساطع الحصري، ومعروف الدواليبي، ومصطفى الشهابي)، وعرض تطور الفكرة القومية عندهم وأثرها على الإسلام.

كما تتبع دور اليهود في نشر الفكرة القومية والسعي لإسقاط فكرة الخلافة الشرعية والقضاء على الوحدة الإسلامية، وبين أثر الحملات التنصيرية والمدارس التبشيرية على عقول أبناء المسلمين مع التركيز على دور نصارى العرب في هذا المجال. وفي نهاية البحث أوضح الباحث المَخْلص والمفاز، قال: (لا مخلص ولا مفاز حق إلا بالإسلام، كما هو الحق والواقع الذي ليس بعده إلا الضلال والخيال)[3].

---

(١) نقد القومية العربية على ضوء الإسلام والواقع، عبدالعزيز بن عبدالله بن باز، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، ١٤٠٠، الطبعة الرابعة.

(٢) حزب البعث تاريخه وعقائده، سعيد بن ناصر الغامدي، دار الوطن، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

(٣) فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام، صالح بن عبدالله العبود، دار طيبة، الرياض.

كما تم الاطلاع على كتب حول موضوع الجمعيات القومية العربية كتبها أعضاء الجمعيات القومية، ورغبة في توسيع الفائدة أشير لأبرز هذه الكتب.

١) **كتاب ثورة العرب**: يتضمن مرحلةً تاريخية سرية لأعضاء الجمعيات القومية العربية[١]، ولذا أبهم مؤلف الكتاب بعبارة (بقلم: أحد أعضاء الجمعيات القومية العربية)، وطبع الكتاب في مطبعة المقطم بمصر سنة ١٩١٦م.

في هذا الكتاب بيان عن تاريخ علاقة العرب بالترك، وموقف الجمعيات العربية من المطالبة بالدستور - الدستور العثماني -، ثم تأسيس الجمعيات القومية العربية، وبيان بأسماء الجمعيات العربية، وذكر أنظمة ومبادئ الجمعيات، وعرَض الكتابُ للخلاف بين الجمعيات القومية وجمعية الاتحاد والترقي، الذي كان من نتائجه ثورةُ الحسين بن علي وتحالفه مع الدول الصليبية[٢].

٢) **نشأة الحركة العربية الحديثة**: لمحمد عزة دروزة. يعتبر مؤلفه من مؤسسي الجمعيات القومية العربية، ولهذا كان في كتابه المذكور تفصيلاتٌ دقيقة عن تطور الحركة العربية الحديثة، والتي من مراحلها تأسيس الجمعيات القومية العربية. قال المؤلف عن مرحلة تأسيس الجمعيات: (لقد عشنا هذه الفترة، وكنا واعين ومندمجين في أحداثها.. وإن الواعين العرب بدؤوا بذلك في وقت مبكر، وبكلمة أدق عقب إعلان الدستور بمدة وجيزة.. وقد كانت تكتلاتهم متنوعة، منها العلني ومنها السري. وفيما يلي شرح مستفاد من الميسور من المصادر، وما وعته الذاكرة وتلقفته الأذن، وما مارسناه شخصياً من التكتلات العربية)[٣].

---

(١) انظر الباب الأول، الفصل الأول من الرسالة، ص(٤٦).

(٢) ثورة العرب مقدماتها، أسبابها، نتائجها، أحد أعضاء الجمعيات القومية العربية.

(٣) انظر: نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة.

٣) **الجمعيات العربية وفكرها القومي.** ملامح الوعي القومي عند العرب منذ مطلع القرن التاسع عشر الميلادي، وحتى قيام الحرب العالمية الأولى[١].

٤) **مذكرات أعضاء الجمعيات القومية:** تحتوي مذكرات أعضاء الجمعيات القومية معلومات مهمة، ومن المعروف عن تاريخ الجمعيات أنها تتسم بطابع السرية، ولذا لجأ الكثير من أعضائها إلى الاحتفاظ بالمعلومات حتى ظهرت بصور مذكرات تروي وتصف الأحداث.

ومن هذه المذكرات المهمة عن تاريخ الجمعيات القومية العربية:

أ) مذكرات سليم علي سلام (١٨٦٨ - ١٩٣٨م)[٢].

ب) مذكرات محب الدين الخطيب، وهي تحمل عنوان: سيرة جيل[٣].

ت) مذكرات عوني عبدالهادي، أوراق خاصة[٤].

ث) مذكراتي نصف قرن من تاريخ العراق والقضية العربية - توفيق السويدي[٥].

ج) خبراتي في الحكم - حسن الحكيم، سجل حافل بالوثائق التاريخية عن الجمعيات القومية العربية[٦].

---

(١) انظر: الجمعيات العربية وفكرها القومي، عماد عبدالسلام رؤوف، مركز دراسات الوحدة العربية.

(٢) انظر: مذكرات سليم علي سلام (١٨٦٨، ١٩٣٨)، قدم لها وحققها: حسان علي حلاق.

(٣) انظر: مكتبة محب الدين الخطيب بالقاهرة. ونشرت هذه المذكرةَ مجلة الأوقاف الإسلامية، دمشق، المجلد الأول سنة ١٩٤٦م.

(٤) انظر: مذكرات عوني عبدالهادي، أوراق خاصة، إعداد: خيرية قاسمية.

(٥) دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى.

(٦) إدارة مجلة الشريعة، عمان، الطبعة الأولى، ١٣٩٨هـ

ح) مذكراتي على هامش القضية العربية - أسعد داغر[١].

خ) مذكراتي عن الثورة العربية - فائز الغصين[٢].

د) مذكراتي عن الثورة العربية - أحمد قدري[٣].

ذ) مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى والثورة العراقية - تحسين العسكري[٤].

ر) نصوص قرارات المؤتمر العربي الأول - محب الدين الخطيب[٥].

ز) مذكرات جمال باشا[٦]. ويعد جمال الخصم الألد لأعضاء الجمعيات القومية العربية، وفي مذكراته معلومات مهمة عن هذه الجمعيات[٧].

---

(١) القاهرة، ١٩٥٩م.

(٢) دمشق، ١٩٥٦م.

(٣) دمشق، ١٩٥٦م.

(٤) بغداد، ١٩٣٦م.

(٥) جمع وترتيب محب الدين الخطيب، القاهرة، مطبعة البسفور، الطبعة الأولى، ١٣٣١هـ.

(٦) أثناء الحرب العالمية الأولى تولى جمال باشا قيادة الجيش الرابع الذي كان مقره في دمشق. وقد كتب ذكرياته عن مجريات وأحداث الحرب، وذكر معلومات مهمة عن دور الجمعيات القومية العربية في الحرب.

(٧) انظر: مذكرات جمال باشا، تعريب على أحمد شكري، دار البصري، بغداد، الطبعة الأولى، ١٩٦٣.

ثانياً) الحالة العقدية للأمة الإسلامية في القرن الرابع عشر الهجري

إن العقيدة الصحيحة هي الدرع الواقي ضد الأفكار والمبادئ المنحرفة، ولهذا كانت دعوة الرسل عليهم أفضل الصلاة والسلام أول ما دعت إلى العقيدة، وعلى سبيل المثال وليس الحصر أذكر الآيات الواردة والسنن الثابتة في أن أول ما دعت إليه الرسل هو العقيدة، فمن ذلك: قوله تعالى عن نبيه نوح عليه السلام: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[١].

وقال تعالى عن نبيه هود عليه السلام: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[٢].

وقال تعالى عن نبيه صالح عليه السلام: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾[٣].

وقال تعالى عن نبيه شعيب عليه السلام: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾[٤].

وقال عن نبيه عيسى عليه السلام: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾[٥].

---

(١) سورة الأعراف، رقم الآية (٥٩).

(٢) سورة الأعراف، رقم الآية (٦٥).

(٣) سورة الأعراف، رقم الآية (٧٣).

(٤) سورة الأعراف، رقم الآية (٨٥).

(٥) سورة المائدة، رقم الآية (١١٧).

إن دعوة الرسل أول ما تطالب العبد بتحقيقه: هو توحيد الله تعالى، والكفر بالطاغوت، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انفِصَامَ لَهَا﴾[1]، قال ابن كثير: أي (مَنْ خَلَعَ الأنداد والأوثان وما يدعو إليه الشيطان من عبادة كل ما يُعْبد من دون الله، ووَحّدَ الله فعبده وحده، وشهد أن لا إله إلا هو، ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾، أي فقد ثبت في أمره واستقام على الطريقة المثلى والصراط المستقيم)[2].

وقَالَ أَنَسُ بن مالك: وَهُوَ دِينُ اللَّهِ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ وَبَلَّغُوهُ عَنْ رَبِّهِمْ قَبْلَ هَرْجِ الأَحَادِيثِ وَاخْتِلافِ الأَهْوَاءِ. وَتَصْدِيقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ فِي آخِرِ مَا نَزَلَ، يَقُولُ اللَّهُ: (فَإِنْ تَابُوا)، قَالَ: خَلْعُ الأَوْثَانِ وَعِبَادَتِهَا، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوا الزَّكَاةَ﴾، وَقَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾[3].

قال الشيخ عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ: دلت الآيات على أن الحكمةَ في إرسال الرسل دعوتُهم أممَهم إلى عبادة الله وحده، والنهي عن عبادة ما سواه، وأن هذا هو دين الأنبياء والمرسلين[4]. وقد قال رسول الله ﷺ: [أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلا بِحَقِّ الإِسْلامِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ][5].

(١) سورة البقرة، رقم الآية (٢٥٦).

(٢) تفسير ابن كثير، ١/ ٤٦٠، مطبعة الشعب، القاهرة.

(٣) سنن ابن ماجة، المقدمة، رقم الحديث (٦٩).

(٤) فتح المجيد، الشيخ عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ، ١٧.

(٥) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب (فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ)، رقم الحديث (٢٤).

وفي سيرة الرسول ﷺ تطبيقاً لهذا المنهج النبوي، فقد قال عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي الزِّنَادِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: أَخْبَرَنِي رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: رَبِيعَةُ بْنُ عَبَّادٍ مِنْ بَنِي الدِّيلِ، وَكَانَ جَاهِلِيًّا، قَالَ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فِي سُوقِ ذِي الْمَجَازِ(١)، وَهُوَ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا: **لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ** تُفْلِحُوا. وَالنَّاسُ مُجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ، وَوَرَاءَهُ رَجُلٌ وَضِيءُ الْوَجْهِ، أَحْوَلُ، ذُو غَدِيرَتَيْنِ(٢). يَقُولُ: إِنَّهُ صَابِئٌ كَاذِبٌ، يَتْبَعُهُ حَيْثُ ذَهَبَ. فَسَأَلْتُ عَنْهُ، فَذَكَرُوا لِي نَسَبَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَالُوا لِي: هَذَا عَمُّهُ أَبُو لَهَبٍ](٣).

وقد وقف جعفر بن أبي طالب أمام النجاشي مبيناً له حالهم في الجاهلية، والمنهج الدعوي الذي جاء به الرسول، فكان مما قال جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: أَيُّهَا الْمَلِكُ كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولاً مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالَ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ..)(٤).

---

(١) سوق ذي المجاز: المَجَازُ الموضع، وكذلك المجازة؛ وذو المجاز: موضع سوق بعرَفَة على ناحية كبكَب عن يمين الإمام على فرسخ من عرفة كانت تقوم في الجاهلية ثمانية أيام، وقال الأصمعي: ذو المجاز ماء من أصل كبكب، وهو لـهُذَيل وهو خلف عرفة. [ينظر معجم البلدان، ياقوت الحموي، حرف الميم].

(٢) غديرتين: مثنى غديرة، وجمعها غَدَائرُ وهي: الذَّوَائبُ، وقال الليث: كل عَقِيصَةٍ غَدِيرة.ينظر: (تهذيب اللغة، الأزهري، ٨/ ٦٧، باب العين والذال.

(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل، ٣/ ٤٩٢ و ٤/ ٣١٤.

(٤) المصدر نفسه، ١/ ٢٠١ - ٢٠٢.

وقد بعث الرسول ﷺ معاذاً رضي الله عنه إلى اليمن، وأمره أن أول ما يبدأ بدعوتهم إلى العقيدة، فقال لمعاذ: [إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى، فَإِذَا عَرَفُوا ذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا صَلَّوْا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً فِي أَمْوَالِهِمْ، تُؤْخَذُ مِنْ غَنِيِّهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فَقِيرِهِمْ، فَإِذَا أَقَرُّوا بِذَلِكَ، فَخُذْ مِنْهُمْ وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ][1].

ولما قدم وفدُ عبدالقيس عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فطلبوا من الرسول أن يعلمَهم ما يُدْخلهم الجنة، ويَدْعون مَنْ وراءهم، قال لهم: [آمُرُكُمْ بِأَرْبَعٍ وَأَنْهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ، آمُرُكُمْ بِالإِيمَانِ بِاللَّهِ، وَهَلْ تَدْرُونَ مَا الإِيمَانُ بِاللَّهِ؟ شَهَادَةُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، وَإِقَامُ الصَّلاةِ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَتُعْطُوا مِنَ الْمَغْنَمِ الْخُمُسَ. وَأَنْهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ: لا تَشْرَبُوا فِي الدُّبَّاءِ وَالنَّقِيرِ وَالظُّرُوفِ الْمُزَفَّتَةِ وَالْحَنْتَمَةِ][2].

ومن الأدلة على أن الرسل أول ما تدعو إليه؛ الدعوة إلى العقيدة، حديث ضمام ابن ثعلبة حينما وفد إلى رسول الله، وعرض على رسول الله ما بلّغهم مبعوث رسول الله ﷺ، فكان مما قال ضمام: (أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ إِلَهِكَ وَإِلَهِ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ وَإِلَهِ مَنْ هُوَ كَائِنٌ بَعْدَكَ آللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ نَعْبُدَهُ وَحْدَهُ لا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَأَنْ نَخْلَعَ هَذِهِ الأَنْدَادَ الَّتِي كَانَتْ آبَاؤُنَا تَعْبُدُهَا مِنْ دُونِهِ؟ قَالَ: اللَّهُمَّ نَعَمْ، قَالَ: فَأَنْشُدُكَ بِاللَّهِ إِلَهِكَ وَإِلَهِ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ وَإِلَهِ مَنْ

(١) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، بَاب مَا جَاءَ فِي دُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ أُمَّتَهُ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، رقم الحديث (٦٨٢٤).

(٢) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، بَاب (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ)، رقم الحديث (٧٠٠١). ومعنى الدُّبَّاءِ: وعاء من القرع، الواحدة دباءة. وَالنَّقِيرِ: وعاء من أصل النخلة. وَالْحَنْتَمَةِ: جرار تعمل من الطين. فجميعها أوعية كانت عند العرب، تختلف في مادة صنعها. تستعمل في الخمر. ينظر: (غريب الحديث، أبو عبيد ابن سلام، ٢/ ١٨١).

هُوَ كَائِنٌ بَعْدَكَ آللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ نُصَلِّيَ هَذِهِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ؟ قَالَ: اللَّهُمَّ نَعَمْ، قَالَ: ثُمَّ جَعَلَ يَذْكُرُ فَرَائِضَ الإِسْلامِ فَرِيضَةً فَرِيضَةً)[١].

وباستقراء سور القرآن الكريم يُلاحَظُ أن الغالب على آيات السور المكية تأصيلُ العقيدة والإيمان بالله تعالى، وبعد تأصيل التوحيد والإيمان بالله نزلت الأحكام العملية التعبدية، كما قالت عائشة رضي الله عنها: (أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنَ الْمُفَصَّلِ، فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الإِسْلامِ، نَزَلَ الْحَلالُ وَالْحَرَامُ، وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ لا تَشْرَبُوا الْخَمْرَ، لَقَالُوا: لا نَدَعُ الْخَمْرَ أَبَدًا. وَلَوْ نَزَلَ لا تَزْنُوا، لَقَالُوا: لا نَدَعُ الزِّنَا أَبَدًا)[٢].

وأما السور المدنيّة فقد استمر بيان وعرض العقيدة في آياتها، مع بيان الأحكام وتشريع الحلال والحرام، وبيان فرضية الجهاد وما يتعلق به من أحكام كالجزية والأنفال والأسرى وغيرها. كما بينت السور المدنية صفات أهل النفاق، وحقيقة النفاق والمنافقين.

وإن استمرارَ القرآن في الحديث عن قضية العقيدة في السور المدنية، وفي الكلام الموجه للمؤمنين خاصة، الذين آمنوا واستقر الإيمان في نفوسهم حتى أنشؤوا أمة مسلمة، ودولة مسلمة، وجيشاً مسلماً يقاتل في سبيل الله، أمرٌ قاطعُ الدّلالة على أن قضية - العقيدة - لها أهميتها الذاتية[٣].

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل، وسنن الدارمي، كتاب الطهارة، بَاب فَرْضِ الْوُضُوءِ وَالصَّلاةِ، رقم الحديث (٦٥٠). وثبت مجيء ضمام على رسول الله ﷺ في صحيح البخاري، كتاب العلم، بَاب مَا جَاءَ فِي الْعِلْمِ وَقَوْلِهِ تَعَالَى: (وَقُل رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا) الْقِرَاءَةُ وَالْعَرْضُ عَلَى الْمُحَدِّثِ، رقم الحديث (٦١).

(٢) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، بَاب تَأْلِيفِ الْقُرْآنِ، رقم الحديث (٤٦٠٩).

(٣) واقعنا المعاصر، محمد قطب، ١٧، مؤسسة المدينة، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

إذاً فالعقيدة هي أساس البناء وهي الواقية من الأفكار والعقائد المنحرفة، ولما كان البحث يتناول واقع المسلمين في عصر نشأة الجمعيات القومية، فسوف أبين بصورة موجزة الحالة العقدية للأمة الإسلامية في القرن الرابع عشر الهجري.

إن العصر الذي نشأت فيه الجمعيات القومية العربية، وقدّمت فيه الجمعيات مبادئها، وسنّت في الأمة قوانينها، يعتبر من عصور الانحطاط التي مرتّ بها الأمة، وظهرت فيها غربة الدين - إلا ما رحم الله - في واقع المسلمين، كما قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ [إِنَّ الدِّينَ بَدَأَ غَرِيبًا وَيَرْجِعُ غَرِيبًا فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ مِنْ بَعْدِي مِنْ سُنَّتِي][1].

لقد أصبح المتمسك بدينه في القرن الرابع عشر الهجري، غريباً في مجتمعه، لغياب بعض السنن، وظهور كثيرٍ من البدع في واقع بعض المسلمين في هذا القرن، فمن أمثلة ذلك:

انتشارُ أعلام الإلحاد، وتتبع معتقدات المغضوب عليهم والضالين، وذلك على أيدي نخبة سمت نفسها: (الفئة المثقفة) أو (الطائفة المتنورة)، وهي حقيقة مظلمة بظلمات الشك والإلحاد، وقد قال محمد محمد حسين: لقد رأيت الإلحادَ والانحلالَ يشتعل ويسري سريان النار في يابس الحطب، ورأيت دعاته يستفحل أمرُهم في كل مكان، ورأيت الناس مشغولين بالجدل والنقاش حول ما يثيرونه من موضوعات يسترون مآربهم الهدامة من ورائها تحت أسماء خلابة براقة، كالنهضة، والتحرر، والتطور، ومتابعة ركب الحضارة[2].

---

(١) سنن الترمذي، كتاب الإيمان، بَاب مَا جَاءَ أَنَّ الإِسْلامَ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا، رقم الحديث (٢٥٥٤). قَالَ الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(٢) حصوننا مهددة من داخلها، ١١، دار الرسالة، السعودية، الطبعة الثانية عشرة، ١٤١٣هـ.

كما أصبح من معالم واقع كثير من المسلمين في القرن الرابع عشر الهجري ضعف عقيدة (الولاء والبراء) فقد ضعفت عند كثير من الناس هذه العقيدة التي تُبرز شخصية المسلم واعتصامه بدينه، ومن أبرز أسباب غياب عقيدة الولاء والبراء من واقع المسلمين المعاصرة: أن التشريع الذي فيه الحُكْم الفَصْل بين الكافر والمسلم قد استُبعد عن واقع المسلمين، فسُنَّت لهم شرائع وقوانين جاهلية.

ومن أمثلة ذوبان الولاء والبراء أنْ هَرَعَ كثيرٌ من المسلمين إلى الانتساب في مدارس الإرساليات التنصيرية، بعد أن أُجيزَ قيامُ هذه المدارس في بعض الأقطار الإسلامية.

لقد حوى التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في بيروت والولايات العثمانية كثيراً من الوثائق التي تدل على عدم استشعار المجتمعات الإسلامية لعقيدة الولاء والبراء في القرن الرابع عشر الهجري[١]. كما رضي بعض المسلمين بالانتساب إلى المدارس التنصيرية، وأن يتلقّى أبناءُ المسلمين الثقافات والمبادئ النصرانية[٢].

كما أصبح العكوفُ على القبور وبناء الأضرحة عليها معلماً بارزاً في حياة كثير من المسلمين في القرن الرابع عشر الهجري، ويندر أن تخلوَ بلدةٌ من بلاد المسلمين إلا وفيها (مزار) أو (ضريح) أو أي مَعْلم من معالم الوثنية. ويذكر محمد الغزالي: أنّ أحد التقارير المرفوعة ذُكِرَ فيه: إنّ الحكومة الإنجليزية قد اهتمت بالحالة الدينية في مصر، فكان مما طمأنها على إيمان المصريين أن ثلاثة ملايين مسلم زاروا ضريح أحمد البدوي بطنطا[٣].

---

(١) انظر: التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في بيروت والولايات العثمانية، حسان حلاق، الدار الجامعية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

(٢) انظر هذا الموضوع (التبشير والاستعمار في البلاد العربية) لعمر فروخ. و(الإسلام وأوضاعنا القانونية) لعبدالقادر عودة، ٧٥، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٨٦هـ.

(٣) عقيدة المسلم، محمد الغزالي، ٧٩، دار الكتب الحديثة، مصر، ١٩٧٦م.

وقد كان للصحف والمجلات النصيبُ الأكبر في نشر المعتقدات والمبادئ المنحرفة، وهي تعتبر من أبرز المنابر الإعلامية للجمعيات القومية العربية.

ومن أمثلة دَوْر الصحف والمجلات العربية في نشر المعتقدات المنحرفة دعوة صحيفتي (المفيد) و(القبلة) العامةَ والخاصةَ إلى إحياء المولد النبوي[١]. ونُصبت المنابرُ لإحياء المولد النبوي، كما أصبح السلاطين والحكام يصدرون أوامرهم بإحياء بدعة المولد[٢].

ومما ظهر في واقع بعض المسلمين في القرن الرابع عشر الهجري تأثرُهُم بمبادئ وطقوس الصوفية، وقد سطّر الشيخ محمد خضر ما شاهده من انحرافات في واقع عصره، فقال: انظر بعينك إلى أذكارهم وأورادهم وأحزابهم وتوسلاتهم وإلى منكرات موالدهم وأفراحهم وخياتينهم (طهور أولادهم)، ثم انظر إلى ما يصنعونه في مآتمهم من النياحات واللطم والصراخ والنوح والعديد[٣]، والعويل وتسويد الوجوه ولطم الخدود، وشق الجيوب والتغالي في الأكفان.. ثم أَمِعْنِ النظرَ فيما يعملونه من التهاليل بما يسمونه (السبحة) للميت والعتاقة والختمة وطلعة رجب وشعبان.. تجدهم يتعبدون بدين قد بدلوه تبديلاً وغيروه وشوهوه تشويهاً[٤].

---

(١) مختارات المفيد، العدد ٩١٩، ٢٩، شباط، ١٩١٢، ص:٤٦. وجريدة القبلة، العدد٥٢، السنة الأولى، بتاريخ ١٩/ ٤/ ١٣٣٥هـ، ص:٢، بعنوان: الإسلام والجامعة العربية.

(٢) انظر: تاريخ الاحتفال بالمولد النبوي من عصر الإسلام الأول إلى عصر فاروق الأول، حسن السندوبي، ١٩٨، الطبعة الأولى، الاستقامة، القاهرة، ١٣٦٧هـ.

(٣) أي العدُّ على الميت، وهو ما ينشد من أقوال تبعث الحزن، وتظهر الجزع على الميت لإثارة أحزان السامعين.

(٤) المنحة المحمدية في بيان العقائد السلفية، محمد خضر، ٨، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

كما انقلبَ كثيرٌ من المفاهيمِ الشرعيةِ في واقع بعض المسلمين في القرن الرابع عشر الهجري، فمن ذلك انقلاب مفهوم (التوكل على الله) انقلب إلى (تواكل)، فهُجِرت الأسباب وأباح بعضهم التسول لأنفسهم، وقالوا: إن المتوكل هو من أراح نفسه من كد النظر، ومطالعة السبب، سكوناً إلى ما سبق له من القسم مع استواء الحالين عنده. وهو أن يعلم أن الطلب لا ينفع، والتوكل لا يجمع[١]، ولهذا تركوا السعي في الأرض واستغلال ما فيها من خير للدعوة إلى الله، وكفاف النفس[٢].

وفي مقابل انقلاب هذه المفاهيم تمكنت بعض العقائد الباطنية المنحرفة كالدُّروز والنُّصيرية في القرن الرابع عشر الهجري أن تتولى المناصب القيادية في بلاد الشام، وتسللت فئات منهم إلى أقطار العالم الإسلامي بصورة مستشارين وخبراء. يقنن ويخطط ما تمليه عليه عقيدتُه الباطنية، مقتدين بذلك سنّةَ آبائهم أصحاب العقائد الباطنية عبر تاريخ الأمة[٣].

ومن الأمور التي فرط فيها المسلمون في القرن ذاته استيطان اليهود فلسطين واحتلالهم للمسجد الأقصى، وكان ذلك بمكر من الجمعيات الماسونية والقومية[٤].

---

(١) مدارج السالكين، ابن القيم الجوزية، ٣/ ٤٧٧.

(٢) لمزيد من التفصيل في هذا الموضوع ينظر كتابي: (مفاهيم ينبغي أن تصحح)، و(هل نحن مسلمون؟)، لمحمد قطب.

(٣) لمزيد من التفصيل في هذا الموضوع ينظر: دراسات عن الفرق في تاريخ المسلمين، أحمد جلي. وكتاب: الحركات الباطنية في العالم الإسلامي، محمد أحمد الخطيب.

(٤) لمزيد من التفصيل في هذا الموضوع ينظر:

١. مذكراتي، عبدالله بن الحسين بن علي.
٢. كارثة فلسطين، عبدالله التل.
٣. اليهودية والصهيونية، أحمد عبدالغفور عطار.
٤. خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية، عبدالله التل.

ويروي الأستاذ عبدالله التل - وكان في حينه قائداً للقوات العربية في القدس - ما دار في الحوار الانهزامي بين عبدالله بن الحسين واليهود، فقد قال التل: إن الملك عبدالله بن الحسين قال: (أنا ملك عربي لا أخلف وعداً ولا أخوان عهداً، تعرفون نواياي وشعوري نحوكم، ورأيي أن لا يقف أحد بيننا الآن بعد أن خمدت الفتنة وانتهى لكم الأمر - تقسيم فلسطين - وأنتم تعلمون أننا لم نحاربكم ولم نعتد على ما خُصّص لكم، وأنتم تعلمون أننا اتفقنا على أسس سبقت، ولكم الآن مطالب حقة). قال التل: وهكذا سجل بهذه الفقرة الصغيرة اعترافاً خطيراً آخر وهو اتفاق جلالته معهم على (أسس سبقت) وأنه يكتفي بما في يديه ويترك ما بأيديهم، وبذلك اعترف بالأمر الواقع في فلسطين قبل أن يحلم به اليهودُ أنفسُهُم[١].

وعلى نفس الخطى سار الملك فيصل بن الحسين، حينما توجه - لحاييم وايزمن الزعيم اليهودي، ورئيس الوكالة اليهودية في فلسطين، بالقول: (إننا نرحب بالاستيطان اليهودي على أسس إنسانية، بشرط أن يخضع للحدود التي يفرضها احترام صالح السكان أصحاب البلاد وحقوقهم الاقتصادية والسياسية)[٢].

ومن نتائج هذا الاحتلال السعي إلى تهويد المسجد الأقصى وتحقيق إقامة مدينة يهودا العظمى المزعومة[٣]،كما قُرّر في فهم بعض المسلمين أن سلاح وطرد اليهود عن المسجد الأقصى هو السلاح القومي، ولهذا أدرج في واقع المسلمين عبارات (الجهاد العربي) أو (الكفاح والثورة العربية) أو (شهيد العروبة).

قال الشيخ عبدالعزيز بن باز: إن القضية الفلسطينية قضية إسلامية أولاً وأخيراً،

---

(١) كارثة فلسطين، عبدالله التل، ٤٦٠ - ٤٦١، مطبعة مصر، ١٩٥٩م. (بتصرف يسير)
(٢) صك المؤامرة، جميل عطية، ٩٦، دار الفتى العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩١م.
(٣) انظر: الكتاب المقدس، سفر التكوين، الإصحاح (٢٣) فقرة (٢، ١٦).

ولكن أعداء الإسلام بذلوا جهوداً جبارة لإبعادها عن الخط الإسلامي، وإفهام المسلمين من غير العرب، أنها قضية عربية، لا شأن لغير العرب بها، ويبدو أنهم نجحوا إلى حد ما في ذلك. ولذا فإنني أرى أنه لا يمكن الوصول إلى حل تلك القضية إلا باعتبار القضية إسلامية[١].

إن حركة الغزو الرهيبة المنظمة على العالم الإسلامي أراد الكفار من خلالها - كما يقول الشيخ الدكتور علي العلياني - أن ينصبوا لأبناء المسلمين رايات يتكتلون تحتها بدلاً من الراية الإسلامية، وكان من تلك الراياتِ القوميةُ العربية، فأصبح من تأثر بالكفار من أبناء المسلمين يوالون لأجلها، ويقاتلون لأجلها، ويسالمون لأجلها، في حين أنهم لا يوالون لأجل الإسلام، ولا يعادون لأجله، ولا يقاتلون لأجله، وبهذا العمل الخبيث استطاع أعداء الله صرف المفهوم الحقيقي للجهاد الإسلامي عن وجهته في أذهان أبناء المسلمين[٢].

---

(١) مجموع فتاوى ومقالات متنوعة، عبدالعزيز بن عبدالله بن باز، ١/ ٢٨١.

(٢) أهمية الجهاد، علي بن نفيع العلياني، ٣٩٨، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.

الباب الأول:

التعريف بالجمعيات القومية العربية وأبرز رجالاتها ومبادئها

ويحتوي على:

» الفصل الأول: التعريف بالجمعيات القومية العربية.

» الفصل الثاني: أهم أسباب نشأة الجمعيات القومية العربية.

» الفصل الثالث: الأهداف العامة للجمعيات القومية العربية.

» الفصل الرابع: أبرز رجالات الجمعيات القومية العربية في القرن الرابع عشر.



الفصل الأول:

التعريف بالجمعيات القومية العربية

ويحتوي على:

» تمهيد.

» المبحث الأول: الجمعيات القومية العربية خلال المشروطية الأولى.

» المبحث الثاني: الجمعيات القومية العربية خلال المشروطية الثانية.



سيقتصر الحديث في هذا الفصل على التعريف بالجمعيات القومية العربيـة من دون مناقشة لمواقفها تجاه مسائل العقيدة، حيث خصص لذلك بابٌ مستقل نظراً لأهمية تلك المواقف. وفي الفصل الثاني سيكون الحديث عن أهم أسباب نشأة هذه الجمعيات.

تمهيد

كان الشعور الديني عند الناس قبل القرن الرابع عشر الهجري هو الأصل، فكان ولاء الأمة للخليفة ولاءً دينياً. ومن خلال تتبع نشأة الجمعيات القومية العربية يلاحظ أن الهدف من إنشائها قد طُلي بأهداف علمية واجتماعية وأدبية. وإنما الأصل في إنشائها هو غرض سياسي؛ وبالتحديد المطالبةُ بالتحرر من الحكم الاستعماري التركي - بناء على زعمهم - للبلاد العربية، لذا اتخذت بعض الجمعيات صفة السرية.

» نشوء الجمعيات السرية:

لم يكن نشوء الجمعيات أمراً غريباً، أو مستحدثاً في تاريخ الدولة الإسلامية وحياتها، فقد عرفت الدولة الإسلامية قبل ذلك نشوء عدة جمعيات سياسية باطنية من أمد طويل[1].

إن الفرق الباطنية تكونت عن طريق جمعيات سرية، واستطاع أهلها أن يحيكوا المؤامرات ويضعوا الخطط للثورة والخروج على الخليفة.. فهم يبثون في الظاهر بعض الظُلامات والشكاوى من الولاة إلى الخليفة، ويخططون في الباطن للقضاء على الخلافة الإسلامية[2].

ومن خلال تتبع نشأة الجمعيات القومية العربية في القرن الرابع عشر الهجري، يظهر أن المنهج والأسلوب الذي سلكه هؤلاء في تأسيس جمعياتهم هو المنهج الذي سلكه أهل الجمعيات الباطنية، في تأسيس جمعياتهم، وهذه بعض الأمثلة على ذلك:

(١) جمعية العربية الفتاة السرية دراسة وثائقية، سهيلة الريماوي، ٥٨.

(٢) دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين، أحمد جلي، ٢٧، مركز الملك فيصل، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

١) اتخذت الجمعيات الباطنية قديماً وحديثاً (آل البيت) ستاراً لمقاصدهم في هدم الخلافة الإسلامية، والقضاء على الوحدة المبنية على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ[١]، وهذا المسلك اتخذته الجمعيات القومية العربية في القرن الرابع عشر الهجري، فقد ناصر أعضاء الجمعيات القومية ثورة الشريف حسين بن علي[٢]، وساروا في طليعتها خلال مراحلها الأولى، وذلك بعد أن سبروا القادة العرب في ذلك العصر، فتم اختيار الشريف حسين قائداً للثورة العربية[٣]. والحسين بن علي من سلائل آل البيت[٤].

٢) ضمت الجمعيات الباطنية بين أعضائها عقائد مختلفة، فكانت تضم في صفوفها: أبا إسحاق الصابي الحراني، وهو من عبدة النجوم(الصابئة)، ويحيى بن عدي النصراني، وماني المجوسي، وأبا سليمان المنطقي السجستاني الإسماعيلي[٥].

وهذا الخليط من العقائد المنحرفة نجده عند الجمعيات القومية العربية في القرن الرابع عشر الهجري، فكانت تضم بين صفوفها: عبدالكريم الخليل الرافضي[٦][٧]، وعادل أرسلان[٨]،

---

(١) انظر:

١. عبدالله بن سبأ وأثره في أحداث الفتنة في صدر الإسلام، سليمان العودة، دار طيبة، الطبعة الأولى.
٢. دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين، أحمد جلي.
٣. الحركات الباطنية في العالم الإسلامي، محمد أحمد الخطيب، ٤٣٥، مكتبة الأقصى، عمان، الأردن، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ.

(٢) انظر الترجمة رقم (٢٠).

(٣) انظر: الهاشميون والثورة العربية الكبرى، ٢٥. وانظر: العرب والعثمانيون، عبدالكريم عثمان، ٥٤٥.

(٤) تاريخ الدولة السعودية، أمين سعيد، ٢/ ١٠٦، دار الكاتب العربي، بيروت، ١٩٦٤م.

(٥) الحركات الباطنية في العالم الإسلامي، محمد أحمد الخطيب، ٤٣٥

(٦) انظر الترجمة رقم (٤٥).

(٧) الحركة العربية، سليمان موسى، ١٠٢.

(٨) انظر الترجمة رقم (٤٠).

وفؤاد حمزة الدّرزيين[1][2]، ونجيب عازوري وفارس نمر[3] النصرانيين[4]، ونسيم ملول اليهودي[5].

٣) السعي لإسقاط الخلافة الإسلامية كان من أبرز مقاصد الفرق الباطنية، وقد كان لتفتيت العالم الإسلامي الذي عمل على تنفيذه أتباع الباطنية، أثرٌ بالغُ الخطورةِ على التطورات السياسية فيه خاصةً وهو يواجه الصليبيين والتتار. ولما تحرك الصليبيون صوب الجنوب كانت سياستهم التقليدية تقوم على مخالفة الفاطميين الشيعة بمصر لمناهضة الخلفاء العباسيين[6].

وكان بعض أعضاء الجمعيات القومية العربية في القرن الرابع عشر الهجري يسعون للمقصد نفسه، وهو ما يسمونه بالتحرر من الاستعمار التركي للبلاد العربية[7]، فدعوا إلى رابطة عربية تجمع بين المواطنين، على اختلاف مذاهبهم. واستُوحي التاريخُ المشترك والمنجزاتُ الحضارية العربية المشتركة، من المذاهب كافةً، لجمع أبناء الأمة وراء هدف واحد، يؤكد الهوية القومية للعرب، في سبيل وحدتهم وتحررهم ورقيهم[8]. وقد شارك بعض أعضاء الجمعيات القومية مشاركة ميدانية في إسقاط السلطان عبدالحميد[9].

---

(١) انظر الترجمة رقم (٥٢).

(٢) يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ١١٩ والأعلام، الزركلي، ٥/ ١٥٩.

(٣) انظر الترجمة رقم (٥٥).

(٤) نشوء القومية العربية، زين نور الدين زين، ٦٠، وحركة اليقظة العربية، محمود منسي، ١٠٠.

(٥) أوراق محب الدين الخطيب في القاهرة.

(٦) الحركات الباطنية في العالم الإسلامي، محمد أحمد الخطيب، ٤٤٥.

(٧) البلاد العربية والدولة العثمانية، ساطع الحصري، ٢٩، معهد الدراسات العربية العالمية، ١٩٥٧م.

(٨) العرب والعثمانيون ١٥١٦، ١٩١٦، عبدالكريم رافق، ٥١١.

(٩) انظر: مذكراتي على هامش القضية العربية، أسعد داغر، ٣٤، عن دور عزيز علي المصري في إسقاط السلطان عبدالحميد.

٤) كان للجمعيات السرية والتي تضم بين صفوفها من اليهود، والنصارى، والمجوس أثرٌ فعالٌ في نشر عقائد الفرق الباطنية وتضليل المسلمين بها، وذلك لما امتُحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدي العرب، وكانت العرب أقل الأمم عند الفرس خطراً، تعاظمهم الأمر، وتضاعفت لديهم المصيبة، وراموا كيد الإسلام بالمحاربة، فأظهر قوم منهم الإسلام، واستمالوا أهل التشيع بإظهار محبة أهل بيت رسول الله، واستشناع ظلم علي، ثم سلكوا بهم مسالك شتى حتى أخرجوهم عن الإسلام[١].

ومن أبرز اليهود عبدُالله بن سبأ، فقد قال المحققون من أهل العلم: إن ابن السوداء كان على هوى دين اليهود، وأراد أن يفسد على المسلمين دينهم بتأويلاته في علي وأولاده لكي يعتقدوا فيه ما اعتقدت النصارى في عيسى عليه السلام[٢]. وقال عنه ابن كثير: (ابن السوداء وكان أصله ذمياً فأظهر الإسلام، وأحدث بدعاً قوليةً وفعليةً، قبّحه الله)[٣].

هذا أثر الجمعيات السرية في نشر العقائد الباطنية، وعن أثر الجمعيات السرية في الجمعيات القومية العربية، فإن أهم الجمعيات السرية في القرن الرابع عشر الهجري هي المحافل الماسونية[٤].

ولأهمية موضوع تأثير المحافل الماسونية على الجمعيات القومية العربية تناولته بالبحث في الفصل الثاني عند الحديث عن أسباب نشأة الجمعيات القومية.

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم، ٢/ ٢٧٣، دار عكاظ للنشر، جدة، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ.

(٢) الفرق بين الفرق، البغدادي، ٢٣٥، دار المعرفة، بيروت.

(٣) البداية والنهاية، ابن كثير، ٧/ ١٨١. وانظر: عبدالله بن سبأ، سليمان العودة، ٤٦.

(٤) لتأثير الأنظمة الماسونية وانتساب أعضاء الجمعيات القومية فيها والدعوة لمبادئها سأتوسع في المادة العلمية في الفصل الثاني. انظر ص (١٥٦) من الرسالة.

وقد ذكر الباحثون في تاريخ الماسونية في الوطن العربي، أن الماسونية قد دخلت إلى دمشق على يد الأمير عبدالقادر الجزائري بعد عودته من مصر للإقامة في دمشق تنفيذاً لاتفاقه مع السلطات الفرنسية، حيث شارك في إنشاء أول محفل ماسوني سوري في دمشق، كان تابعاً لمحفل شرق إيطاليا الأعظم.

وكان الأمير الجزائري قد انتسب إلى الجمعية الماسونية أثناء زيارته الطويلة لمصر على يد الأمير حليم باشا[١] - ابن محمد علي باشا -[٢]. وانتظم في سلكها بمحفل الأهرام التابع للشرق السامي الفرنساوي، ووافقت مشارِبَه من كل الوجوه، فأحبها وأحب أهلها، ومال إليها وإليهم كثيراً، وكان لا يخفي نفسه، وطالما جاهر أنّه من أعضائها[٣].

ومن تصريحات الجزائري تأييداً للأفكار الماسونية: (إني أعتبر منظمة البنائين الأحرار (الماسونية) كأول مؤسسة في العالم، وفي رأيي أن كل رجل لا يجاهر بالعقيدة البنائية (الماسونية) يعد رجلاً ناقصاً، وأؤمل يوماً أن أرى فيه انتشار مبادئ الفرنساسونية في العالم، ويومئذ فإن كل الشعوب ستعيش في سلام وأخوة)[٤]. وقد حاز الأمير عبدالقادر الجزائري من المحفل الأكبر المشار إليه لقب (الأستاذ الأعظم الشرقي)[٥].

وفي تاريخ الحركة العربية يعتبر الأمير عبدالقادر الجزائري من أوائل القوميين العرب الذين تولوا مبدأ استقلال البلاد العربية عن الدولة العثمانية، حيث قامت حركة

---

(١) انظر الترجمة رقم (٣٠).

(٢) الماسونية مالها وما عليها ماضيها وحاضرها، سعيد الجزائري، ٣٤٦، مؤسسة النوري، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

(٣) الماسونية والماسونيون في الوطن العربي، حسين عمر حمادة، ١٠٤، دار قتيبة، دمشق.

(٤) الأمير عبدالقادر الجزائري في السنوات الأولى من إقامته بدمشق، عبدالجليل التميمي، ٤٥٣، جامعة دمشق، كلية الآداب، مطبعة الطرابيشي، ١٩٧٩م.

(٥) الماسونية ذلك العالم المجهول، عبدالحليم الياس الخوري، ٥٧، دار العلم للجميع، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٥٤م.

استقلالية في ولاية سوريا بين (١٨٧٧و١٨٨٠م)، (١٢٩٤و١٢٩٧هـ)، وذلك خلال الأوضاع المضطربة التي تمر بها الدولة، فاتصل أحمد الصلح ببعض العاملين المؤيدين وبعض أصحاب الزعماء في صيدا، ثم سافروا إلى دمشق، واتصلوا ببعض أصحاب الرأي والمكانة فيها، ثم قصدوا بعد ذلك إلى (دُمَّر)، مصيف عبدالقادر، وقضوا في ضيافته ثلاثة أيام تباحثوا خلالها معه في الأوضاع المرتبكة في البلاد، وتقرر في الاجتماع العمل لتحقيق استقلال البلاد الشامية (وهي ما تعرف اليوم بسوريا والأردن وفلسطين) وقدّم أحمد الصلح اقتراحاً بترشيح الأمير عبدالقادر ملكاً على هذه البلاد، فوافق المجتمعون على هذا الاقتراح[١].

» محافل الماسونية في سوريا[٢]:

كان أول محفل ماسوني تأسس في بيروت عام ١٨٦٢م (١٢٧٩هـ)تحت رعاية الشرق الأعظم الأسكتلندي، وعرف [بشرق فلسطين رقم ٤١٥] وكانت لغته الرسمية الفرنسية، وكانت تديره الأيدي الصهيونية، وتوقفت أعماله سنة ١٨٨٨م (١٣٠٥هـ). وفي سنة ١٨٦٩م (١٢٨٦هـ) تأسس في بيروت أيضاً محفل آخر تحت رعاية الشرق الأعظم الفرنسي عرف [بشرق لبنان] وكانت لغته الرسمية هي العربية، ورئيسه نقولا حجي، وكاتب أسراره الأستاذ شاهين مكاريوس[٣] - أحد أعضاء جمعية بيروت السرية -[٤]، فانضم إليه كثيرون من أعيان البلاد وعلمائها ورجالاتها على اختلاف مذاهبهم[٥].

---

(١) نشوء القومية العربية، زين نور الدين زين، ٦٧.
(٢) نعني بسوريا البيئة الطبيعية للبلاد الجغرافية التي تشمل (الشام، الاردن، لبنان، فلسطين، العراق).
انظر: الماسونية ذلك العالم المجهول، عبدالحليم الياس الخوري، ٥٧.
(٣) انظر الترجمة رقم (٣٤).
(٤) الماسونية والماسونيون في الوطن العربي، حسين حمادة، ١٧٨.
(٥) الماسونية ذلك العالم المجهول، عبدالحليم إلياس الخوري، ٥٣.

وأخذت محافل الماسونية بالانتشار، ومن هذه المحافل:

- محفل زهرة الآداب: أنشئ في بيروت سنة ١٨٧٣م (١٢٩٠هـ).

- محفل السلام: أنشئ في بيروت بعد عام ١٩٠٠م (١٣١٨هـ) تحت رعاية المحفل الأكبر الأسكتلندي، وكان محترمه الأستاذ إسكندر البارودي[١].

- محفل إبراهيم الخليل: تأسس في دمشق عام ١٩٢٤م (١٣٤٢هـ)، ومؤسسوه هم: داؤود المارديني، مصطفى القباني، مصطفى شوقي، عثمان سلطان[٢].

محفل العروبة: أنشئ في مدينة حمص السورية، رئيسه بشير المعصراني، وآخرون[٣].

وفي فلسطين: أنشئ محفل ماسوني عام ١٨٧٣م (١٢٩٠هـ) هو محفل [سليمان الملوكي الأساسي] نمرة (٢٩٣) وتوالى بعده على مجيء الثلاثين عاماً التالية مدُّ أذرعِ المخطط الماسوني حتى غطت شبكةُ محافل الماسونية جميعَ مدن فلسطين[٤].

وفي العراق: أُسّس في البصرة المحافلُ التالية:

- محفل (ما بين النهرين) سنة ١٩١٨م (١٣٣٦هـ).

- محفل (بابل) سنة ١٩٢٢م (١٣٤٠هـ).

- محفل (صدق الوفاء)[٥].

---

(١) انظر الترجمة رقم (٥).

(٢) الماسونية ذلك العالم المجهول، عبد الحليم إلياس الخوري، ٥٣.

(٣) الماسونية والماسونيون في الوطن العربي، حسين حمادة، ١٥٨.

(٤) الماسونية في منطقة ٢٤٥، أبو إسلام أحمد عبدالله، ٤٢-٤٧ (بتصرف)، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

(٥) المصدر السابق نفسه، ٤٤.

» التعريف بالجمعيات القومية العربية:

لقد ظهر الشعور القومي عند نخبة من الشباب العربي، والغالب أنهم من النصارى أو الدروز، وأول قطر عربي ظهرت فيه الجمعيات بيروت، ثم ظهر في دمشق، ثم أخذ ينتشر في سائر الأقطار العربية. وهذا الترتيب يساير اليقظة الأدبية الحديثة في الشام[1].

(١) القومية العربية تاريخها وقوامها ومراميها، مصطفى الشهابي، ٤٥، جامعة الدول العربية، الطبعة الثانية، ١٩٦١م.

المبحث الأول: الجمعيات القومية خلال المشروطية الأولى[1]

١) الجمعية العلمية السورية:

الصفة البارزة لهذه الجمعية أنها سرية، وقد تكونت على أنقاض جمعيتين سابقتين لها، وهما (جمعية الآداب والعلوم) و(الجمعية الشرقية). وقد ارتبطتا بالحملات التنصيرية التي تولت رعايتهما.

ولارتباط الجمعية العلمية السورية بالجمعيتين، يحسن التعريف بهما تعريفاً مختصراً.

أولاً) جمعية الآداب والعلوم: ارتبطت هذه الجمعية بالبعثة التبشيرية الأمريكية، وقدم اليازجي والبستاني اقتراحاً إلى البعثة الأمريكية بتأليف جمعية تهدف إلى بذل الجهد لمسايرة انتشار التعليم في المدارس وظهور العناية الحديثة بالعلوم.

وحُقِّق المشروعُ المقترحُ، فأنشئت سنة ١٨٤٧م (١٢٦٣هـ) في بيروت باسم (جمعية الآداب والعلوم) وكان من أعضائها: اليازجي والبستاني، وكذلك أيلي سميث،

---

(١) يقسم عهد الجمعيات عموماً في الدولة العثمانية إلى قسمين: المشروطية الأولى وهي إعلان الدستور الذي أصدره السلطان عبدالحميد الثاني: وتبدأ من تاريخ ١٨٧٦م. وأصدر السلطان عبدالحميد رفع الدستور وتعطيله بتاريخ ١٨٧٨م.

والمشروطية الثانية: هي المرسوم الذي أصدره السلطان عبدالحميد من تاريخ ١٩٠٨م بإعادة الدستور. وفي خلال هذه المرحلة أسقط السلطان عبدالحميد، وانتقل الحكم إلى جمعية الاتحاد والترقي. وتمزقت الدولة العثمانية حتى سقطت كمسمى دولة، وتحولت إلى جمهورية علمانية، على يد مصطفى كمال أتاتورك ١٩٢٤م.

انظر: الأوضاع الثقافية في تركيا في القرن الرابع عشر الهجري، رسالة دكتوراه، سهيل صابان، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ص ٨.

وكرنيليوس فنديك[١]، وعدة أعضاء من الأمريكان، وانتسب إليها رجل إنجليزي كان يقيم في بلاد الشام هو الكولونيل تشرشل[٢]. ولم يشترك فيها عضو مسلم، فأكثرهم من النصارى السوريين المقيمين في بيروت[٣].

ولتحقيق الغاية من إنشاء الجمعية فقد كان لها مكتبة صغيرة وكان القيِّمُ عليها اليازجي، وكان البستانيُّ سكرتيراً لها. وكان يُعقد لها اجتماعاتٌ يقدِّم أحدُ أعضائها بحثاً في كل اجتماع[٤].

ثانياً) الجمعية الشرقية: وهي جمعية فرنسية، أسست سنة ١٨٥٠م (١٢٦٦هـ) على الأسس نفسها التي قامت عليها جمعية الآداب والعلوم. وكان الروح المحرك لها هو هنري دو يرونيير[٥]. وكانت تعقد اجتماعات دورية تلقى فيها بعض الأبحاث.

---

(١) كرنيليوس فنديك طبيب، هولندي الأصل ولد في أمريكا عام ١٢٣٣هـ، أرسله مجمع المرسلين الأميركيين للتنصير في بلاد الشام، وهو في الحادية والعشرين من عمره، وتأثر به طائفة كبيرة من أبناء المسلمين، توفي عام ١٣١٣هـ. انظر: (الأعلام، الزركلي، ٥/ ٢٢٣).

(٢) السير ونسون تشرتشل، ولد في قصر بلنهايم في أكسفور شاير عام ١٨٧٤م، وتخرج من كلية هارد عام ١٨٩٥م. وعمل ضابطاً في الجيش ومراسلاً حربياً في كوبا والهند، كما اشترك في المعاهد الحربية خاصة في الهند، وفي آخر حملة بريطانية على السودان وذلك في معركة أم درمان. وفي عام ١٨٩٩م، استقال من الجيش. زاول السياسة منذ عام ١٩٠٠م، وتم انتخابه عضواً في مجلس العموم، عين تشرتشل قائداً للبحرية سنة ١٩١١م، وكانت لتشرتشل اتصال وترتيب مع أعضاء الجمعيات القومية العربية، حيث مد الحركة القومية بالمال بصورة مساعدات مقدمة من بريطانيا، وبنهاية الحرب العالمية الأولى عين تشرتشل وزيراً للحربية والطيران عام ١٩١٨م، عاد إلى رئاسة الوزراء سنة ١٩٥١م، وكان عمره ٧٧ عاماً، منح لقب فارس من قبل الملكة، كما منح جائزة نوبل في الآداب. وفي عام ١٩٦٥م، أصيب بسكتة دماغية ومات بعد ذلك بتسعة أيام، وقد بلغ ٩٠ عاماً، من مؤلفاته الأزمة العالمية. انظر: (الموسوعة العربية العالمية، ٦/ ٣٠٧، حرف التاء).

(٣) يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ١١٦، ١١٧ (بتصرف).

(٤) المصدر السابق نفسه، ١١٧ (بتصرف).

(٥) قال جورج أنطونيوس: (هنري دو: يسوعي فرنسي، ولد سنة ١٨٢١م، وصل بيروت سنة ١٨٤٩م وبدأ فور وصوله بتعلم اللغة العربية، وقد أكسبه اطلاعه الواسع ونشاطه المتوثب نفوذاً كبيراً في الشام، وتبوأ منزلة وقيمة بفضل الجهود التي يبذلها. توفي بفرنسا سنة ١٨٧٢م). [يقظة العرب، حاشية ١١٨].

وكان بعضُ أعضاء الجمعية الشرقية من السوريين، وبعضهم الآخر من الأجانب، وكانوا جميعاً من النصارى. وقد انفرط عقدها في وقت واحد مع جمعية الآداب والعلوم[1].

لم يدون في سجل جمعية الآداب والعلوم والجمعية الشرقية سوى المؤسِّسَيْن لها: اليازجي والبستاني، وبقية الأعضاء كانوا مثلهما من العرب النصارى.

ويعتبر القوميون[2] عدم تسجيل المسلمين العرب فيها راجعاً إلى - ما يسميه القوميون - بالتعصب الديني في ذلك العصر، إلا أنه تحت إلحاح وتأثير مطالب البستاني واليازجي للعرب جميعاً، ومناشدتهم على اختلاف عقيدتهم أن يتحدوا لخدمة لغتهم، تقدم المسلمون باقتراح يتضمن موافقتهم على الاشتراك في تأليف جمعية جديدة تتحد فيها جهود العقائد الدينية جميعها لخدمة العلم، على شرط ألا يكون للمبشرين أي أثر فيها[3].

وهكذا أنشئت الجمعية العلمية السورية في سنة ١٨٥٧م (١٢٧٣هـ)، وبلغ أعضاؤها ١٥٠ عضواً، وكان جميع أعضائها عرباً ليس فيهم أجانب[4].

وقد اشترك فيها زعماء عرب من مختلف العقائد، وكان من أعضاء مجلس إدارتها الدرزي الأمير محمد أرسلان الذي بقي عدة سنوات رئيساً لها، وحسين بيهم[5]، ونصارى من جميع الطوائف. فكانت الجمعية العلمية أول جمعية يشترك فيها أعضاء من أهل الدينين[6].

---

(١) يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ١١٨ (بتصرف).
(٢) المصدر السابق نفسه، ١١٩.
(٣) المصدر السابق نفسه، ١١٩.
(٤) القومية العربية تاريخها وقوامها ومراميها، مصطفى الشهابي، ٤٥.
(٥) انظر الترجمة رقم (٢١).
(٦) يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ١١٩.

وقد نالت الجمعية العلمية اعتراف الحكومة بها سنة ١٨٦٨م (١٢٨٥هـ)، وفسحت المجال للاشتراك فيها حتى ضمت أعضاء كثيرين من الأشخاص البارزين الذين يقطنون خارج البلاد، وخاصة في القسطنطينية والقاهرة[١].

مبادئ وتنظيمات الجمعية:

كانت غايات الجمعية ووسائلها وأنظمتها كلها على غرار جمعية الآداب والعلوم، والتي حددها العربيان النصرانيان نصيف اليازجي، وبطرس البستاني، وهي إبراز فكرة القومية العربية في إطار عام أساسه أن للعرب عامة - مسيحيين ومسلمين - تراث مشترك وحضارة عريقة تمتد جذورها إلى ما قبل الإسلام، ولا بد من التنقيب عنها والكشف عن جذورها التاريخية، والعمل على تطويرها لتساير روح العصر[٢]، كما يقول اليازجي والبستاني.

ولنشر الفكر القومي في المجتمع أصدر بطرس البستاني ببيروت صحيفة أسبوعية باسم (نفير سوريا)، وهي أول صحيفة سياسية نذرت جهودها من أجل الدعوة إلى الوحدة والتكاتف ونبذ التعصب، وهي مؤلفة من صفحة واحدة كان يوجه فيها إرشاداته وآراءه كمبدأ فصل الدين عن الدولة[٣].

وبعد ثلاث سنوات أنشأ بطرس البستاني (المدرسة الوطنية) لكي تزود التلاميذ من مختلف الأديان بتعليم قومي، وأصدر أيضاً (الجنان): وهي مجلة أدبية سياسية نصف شهرية، كان هدفها - كنفير سوريا - محاربة ما يسميه القوميون (التعصبَ)، والدعوةَ إلى

---

(١) المصدر السابق نفسه، ١١٩.

(٢) تاريخ العرب الحديث، عبدالوهاب أحمد عبدالوهاب، ٣٥٥، دار القلم، دبي، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

(٣) سليم البستاني، ميشال جحا، ٢٣، سلسلة الأعمال المجهولة، رياض الريس للكتب والنشر.

التفاهم والوحدة من أجل خير الوطن، وكان شعارها: الوطنية من الإيمان[1].

ومن المبادئ التي دعت إليها الجمعية العلمية السورية ونقلتها إلى المجتمع الإسلامي ونشرتها مجلةُ الجنان: (إن أمس الأمة العربية هو أمس أمة لم تَفْنِ كلَّ زمانِ حياتها. ولذلك لا بد لها من غد تعوض فيه ما خسرته من الحياة في الأمس. وهذا إنما يتم بالاتحاد بواسطة العصبة الجنسية الموافقة للعصبة الوطنية. ولا أمل لنا بالعصبة الدينية لأن زمان النبوة قد مضى وقد تركنا الدين) [2].

وانطلاقاً من مبدأ التسامح الديني، ووجوب الولاء على أساس وطني قومي، أكدت الجمعية عن طريق صحيفتها (الجنان) بأنه (لا بد من أن تكون في معابدنا إسلام وأرمن ودروز وموارنة وروم وكاثوليك ونصيرية وسريان، وغير ذلك، وفي ميادين الأعمال لنا راية واحدة استبداد الحال لنا إنما يكون بالاجتماع حولها بالغيرة والحمية والصداقة)[3].

وكان النشاط الثقافي للجمعية محصوراً [بنخبة] بدأت على ما يبدو تتعرف على أفكار أوروبا وتتمثلها وفق الصيغ التعبيرية التي قدمتها الحضارة الغربية التوسعية نفسها (مدنية، حضارة، علم،... إلخ) لهذا فإن الموضوعات التي تضمنتها بعض المحاضرات التي نظمتها الجمعية تعكس بوضوح محاولة التمثل هذه. ولعل إيراد أمثلة من عناوين المحاضرات وأسماء المحاضرين يبدو مفيداً في هذا السياق:

---

(١) حركة اليقظة العربية في الشرق الآسيوي، محمود منسي، ٦٥، دار الفكر العربي، ١٩٧٨م.

(٢) مجلة الجنان ١٨٧٠، ص٦٧٣ - ٦٧٧، نقلاً عن كتاب سليم البستاني، ١١٦.

(٣) افتتاحية ج٦، مجلة الجنان ١٨٧٤م، ص١٨١ - ١٨٣، نقلاً عن كتاب سليم البستاني، ١٢٢.

اسم المحاضر	عنوان المحاضرة
حنين الخوري	حاجات العقل
	الزراعة
	تاريخ الحضارة الأوربية
المركيز موسى دي فريج	التجارة
	الحضارة
سليمان شحادة إبراهيم ثابت	واقع التعليم حاجات الحضارة[1]

كما نشرت الجمعية العلمية في المجتمع العربي بعض مبادئ القومية العربية، وذلك عن طريق إبراهيم اليازجي ومعه عدد قليل من أعضائها، حيث ألفوا وهم في ميعة الصبا حلقة وطنية سرية انطلق منها قصائدُ وطنية ثورية نظمها إبراهيم اليازجي، وأشاد فيها بمجد العرب وحضارتهم، وسُمُوِّ لغتهم وتراثهم الأدبي، وحذّر العرب من أضرار التفرق والتخاصم الديني، وندد بحكم الترك. ومما جاء من القصائد:

أي النعيم لمن يبيت
على بساط الذل جالس
ولمن تراه بائساً أبداً
لذيل الترك (بائس)

(١) الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي - وجيه كوثراني - ١٣٤ - منشورات بحسون الثقافية - ١٩٨٦م.

ولمـــن أزمـــتـــه بـكـــف عـــداه

يـظـلـــم وهـــو آيـــس

ومنها:

فـالـترك قـوم لا يـفـوز

لـديـهـم إلا المـشـاكـس

أو لـسـتـم الـعـرب الـكـرام

ومـن هـم الـشـمُّ المـعـاطـس

وفيها يخاطب بني قومه:

لا دولـة لـكـم يـشـتـد أزركـم

بهـا ولا نـاصـر للخطب ينتدب

أقـداركـم في عـيـون الـترك نـازلـة

وحقكم بين أيـدي الـترك مغتصب(١)

ومن خلال ما سبق عن تنظيم ومبدأ الجمعية العلمية: فهي تعتبر من أوائل المخططات السرية لبث الفكر القومي في المجتمع المسلم، وقد لا يحتاج إلى دليل أنها كانت من تصميم وإنشاء الحملات التنصيرية، والتي أقيمت على غفلة من المسلمين من جانب، ومن جانب آخر لأغراض علمية أو طبية.. إلخ من الأغراض التي استغلها النصارى للدعوة إلى زعزعة المجتمع الإسلامي.

وقد أثنى القوميون على مبادئ الجمعية العلمية، فقالوا: إنها استطاعت أن تجمع بين العقائد المتناحرة، وتوحدها في رابطة إيجابية فعالة، تعمل لتحقيق أهداف مشتركة..

(١) القومية العربية تاريخها وقوامها ومراميها، مصطفى الشهابي، ٤٥.

وأصبح الحافز لهم إلى العمل هو اهتمامهم بتقدم البلاد على أساس الوحدة الوطنية. كما أصبح الرابط الذي يؤلف بينهم هو اعتزازهم بالتراث العربي[(١)].

٢) جمعية بيروت السرية (الجمعية السرية):

أنشئت جمعية بيروت السرية (الجمعية السرية) عام ١٨٧٥م (١٢٩٢هـ)، ويعزى إنشاء هذه الجمعية إلى بعض الطلاب العرب في الكلية الأمريكية السورية؛ وكانوا جميعاً نصارى، ولكنهم أدركوا قيمة انضمام المسلمين والدروز إليهم، فاستطاعوا أن يضموا إلى الجمعية نحو اثنين وعشرين شخصاً ينتمون إلى مختلف الطوائف الدينية[(٢)].

وقد استطاعت الجمعية النفوذَ إلى داخل محافل الماسونية، فقد كان بعض الأعضاء البارزين في هذه الجمعية السرية قد انضموا إلى عضوية هذه المحافل الماسونية، وكانوا يأملون أن يستميلوا المسلمين، بعد أن يكونوا قد انضموا إلى عضوية هذه المحافل الماسونية، للانتماء إلى الجمعية السرية[(٣)].

من خلال تتبع تاريخ الجمعيات يتضح أن هناك صفة ظاهرة في تأسيس الجمعيات، وهي أن الثانية تنشأ على أنقاض الأولى وهكذا، وقد يكون السبب عائداً إلى منهجية التأسيس وهي السرية، ومنهجية المبادئ، فحينما يكشف أمر ونظام الجمعية الأولى تحل الجمعية وينتقل الأعضاء إلى مسمى جمعية ثانية. وهذا هو منهج الجمعيات الماسونية على السواء.

ولهذا فقد ضمت جمعية بيروت السرية نخبة من العلماء والأدباء على السواء، وكان أكثرهم من تلامذة اليازجي والبستاني، وجميعهم من مريديهما[(٤)].

---

(١) انظر: يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ١١٩.
(٢) المصدر السابق نفسه، ١٤٩. وانظر: نشأة الحركة الحديثة، محمد دروزة، ٩٤.
(٣) نشوء القومية العربية، زين نور الدين زين، ٦١.
(٤) يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ١٥٩.

ويؤكد فارس نمر النصراني - أحد مؤسسي هذه الجمعية - على أن فكرة (القومية) لم تكن بعد قد وَجَدتْ طريقها إلى وجدان العامة من الناس في الشرق الأدنى. إذ كان ولاء الناس - كما كانت جميع الروابط والعلاقات الاجتماعية - يقوم على أساس ديني طائفي[1].

» مبادئ وتنظيم الجمعية:

كما ذكر في بداية الحديث عن الجمعية أنها سرية، وتولى إنشاءها نصارى العرب، تحت توجيه وإرشاد الكلية الأمريكية السورية التي صارت (الجامعة الأمريكية). وكان للجمعية فروع في دمشق وطرابلس وصيدا.

إن الهدف من إنشاء الجمعية قد طبع بطابع سياسي صرف، وهو المطالبة بالانفصال عن الحكم التركي، وإعطاء سورية استقلالاً ذاتياً خاصاً بالعرب[2].

وقد برر أعضاء الجمعية أن هذا الهدف كان نتيجة للشعور الذي وُجد عند مؤسسي الجمعية وجلهم من النصارى، وهو احتقار الأتراك لهم، واعتبارهم أدنى شأناً منهم، مما جعلهم يشعرون بالإهانة، غير أن العربي المسلم عندما كان يتكلم عن الإمبراطورية العثمانية كان يستطيع أن يقول: إنها إمبراطوريته، لأنها كانت إمبراطورية إسلامية[3]. لذا أدرك النصارى العرب لزوم رفع شعار لا يختلف عليه المسلم والكافر، فلم يكن هنالك من قاسم - كما يقول فارس نمر - مشترك بين المسلمين العرب والمسيحيين العرب سوى (العروبة) فالعروبة كشعار، كان في وسعها أن تثير في نفوس العرب شعوراً بالقومية، وأن توحد أيضاً بين المسلمين العرب والمسيحيين العرب الناقمين على الأتراك[4]، فاللواء

(١) نشوء القومية العربية، زين نور الدين زين، ٦٠.
(٢) يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ١٥٨.
(٣) نشوء القومية العربية، زين نور الدين زين، ٦٠
(٤) يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ٦١, ١٥٠.

المرفوع الوحدة والتكاتف والتناصر والتآخي، على أساس قومي عربي.

لتحقيق هذا الهدف المطلي بشعار القومية رأت الجمعية أن تخرج من طي السرية والكتمان، الذي كان مقصوراً على الاجتماعات السرية التي كانوا يتبادلون فيها الآراء ويبحثون الخطط، وعلى نشر أفكارهم السياسية بوسائلهم واتصالاتهم الشخصية، فعزموا على توسيع نطاق دعوتهم، واختاروا الوسيلة الوحيدة التي كان من الممكن أن تتاح لهم في ظل الحكم - الذي قالوا عنه - الاستبدادي التركي اليقظ، وهي لصق المنشورات في الشوارع من غير أن يكون عليها ما يدل على مصدرها[١].

» منشورات جمعية بيروت السرية:

ذكرت أكثر المصادر القومية التي تحدثت عن الجمعية، أمثلة عن المنشورات التي قامت بكتابتها وتوزيعها في المجتمع، ومن هذه المنشورات.

المنشور الثاني، الذي كتب في أعلاه العبارة التالية: [(إعلان) وتحتها صورة سيف مسلول]، وكتب تحته البيت التالي:

لنطلبن بحد السيف مأربنا

فلن يخيب لنا في جنبه أرب

يقول المنشور: (يا أبناء سورية: قام موسى (عليه السلام) مصلحاً فقال المصريون: إن به جنة. وقام سقراط[٢] مصلحاً فقتله اليونان، وقام عيسى (عليه السلام) فقال اليهود: به شيطان. وقام محمد ﷺ مصلحاً فقال عرب الجاهلية: إنه مجنون. وأنتم

---

(١) المصدر السابق نفسه، ١٥٠.

(٢) إيراد سقراط الوثني في مصاف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مشعر بالتسوية بينهم، وهذا أمر مخالف لنصوص الكتاب والسنة ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦] انظر: درء تعارض العقل والنقل، ابن تيمية، ٢/ ١٥٩، وموسوعة الملل والنحل، الشهرستاني، ١٦٢.

تقولون: إن صاحب هذا الإعلان [بل قولوا: أصحاب] هو سكران، وإن كلامه هذيان، فإن كان سكرانكم يعتني بأموركم فهو خير من صاحيكم الذي لا يهمه أمركم ولا حفظ ناموسكم، ويااليتكم كلكم سكارى. نحن الذين يحيون الليل بإعمال دولاب الأفكار، ويقضون النهار باستكشاف الحوادث والأخبار، فلولا موتنا لما كنا للترك أذلاء عبيداً، ولولا شقاقنا لم نكن عند الإفرنج حجارة وحديداً، أين نخوتكم العربية؟ أين حميتكم السورية؟ عودوا يا قوم والعود أحمد، ولا تقنطوا من رحمة الله، فلن يخفى القمر، ومن يعش ير).

وقد لخصت الجمعية مطالبها بالنقاط التالية:

(بعد التشاور مع زملائنا في جميع أنحاء البلاد، فقد تم وضع برنامج سننفذه ولو بحد السيف إذا اقتضى الأمر)، وأهم النقاط في ذلك البرنامج هي:

١) منح سورية الاستقلال مُتّحدةً مع جبل لبنان.

٢) الاعتراف باللغة العربية لغة رسمية في البلاد.

٣) رفع الرقابة والقيود الأخرى التي تحد من حرية التعبير ونشر التعليم.

٤) استخدام القوات المجندة من أهل تلك البلاد في المهام العسكرية الداخلية فيها فقط.[1] كما كان للشعر دور في نشر مبادئ الجمعية، فقد انتشرت قصائدها ومما انتشر:

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب
فقد طما الخطب حتى غاصت الركب

(١) يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ١٥٥. وذكر المؤلف تفصيلًا تاماً عن هذه المنشورات، وقام بتحليلها ودراستها.

أقــدارکــم في عـيــون الـــترك نــــازلـة
وحقكم بـين أيـــدي الـــترك مغتصب
صـــبراً هـيــا أمـــة الـــترك الـتــي ظلمت
دهـــــراً فــعــمّا قـلـيـل تـرفــع الحجـب
لـنـطـلـبـن بـحـد الـســـيـف مـأربـنـا
فـلـن يخـيـــب لـنـــا في جـنـبـه أرب

وفيما عدا الشعراء، أدى المدرسون والكّتابُ من أعضاء هذه الجمعية دوراً كبيراً في ترويج مبادئها وشعاراتها، وكان عددهم اثني عشر رجلاً عند تأسيسها، فلم يلبث أن قفز إلى سبعين، من أبرزهم إلياس حبالين الماروني المذهب مدرساً للغة الفرنسية في كلية بيروت الأمريكية من عام (١٨٧١ - ١٨٧٤)، (١٢٨٨ - ١٢٩١هـ)[١]، وقد اعتنق مبادئ الماسونية، كان ثورياً في أفكاره، وكان بعد أن يختصر درس الفرنسية في صفوفه، يعود إلى موضوع السياسة فيكلم الطلاب عن وجوب التحرر من الأتراك والتخلص من حكومتهم الفاسدة الظالمة. وهكذا أصبح الطلبة وجميعهم نصارى من أشد أتباعه إخلاصاً وولاءً، وراحوا ينشرون أفكاره بين الطلاب[٢].

ويقول عنه فارس نمر النصراني وهو - أحد معاصريه -: (.. كان يُدَرّس شبان سورية اللغة الفرنسية ولكنه وقف جهده على إرضاعهم لبان الحرية وإضرام نار البغض بين ضلوعهم للسلطة الاستبدادية سياسيةً كانت أم طائفية. وشاركه في هذا الفضل رجال العشيرة الماسونية في سورية من مسلمين ومسيحيين. فيا طالما سهروا الليالي، وبذلوا

---

(١) العرب والترك، توفيق برو، ٤١.
(٢) نشوء القومية العربية، زين نور الدين زين، ١٩٦ (حاشية).

الرخيص والغالي لإعداد أبناء سورية لقبول المبادئ الحرة والنظامات الدستورية[1].

ومن خلال تتبع آراء الجمعية السرية نجد أنها أضفت عليها القضايا السياسية عن طريق المطالبة بالانفصال عن الدولة العثمانية، وهي ضمن مناقشة موضوعات الباب الثالث إن شاء الله تعالى.

والذي ينبغي أن يسطر في سجل هذه الجمعية أنها فكرة نصرانية ولدت في محافل الماسونية، وصنعتها أيدٍ نصرانية، ولذا يذهب بعض القوميين أن غاية الجمعية قد جاءت مبكرة جداً[2]، فكان تأثيرها على المجتمع الإسلامي ضعيفاً جداً؛ لذا كان مآل الجمعية في زمن ١٨٨٢ - ١٨٨٣م (١٢٩٩ - ١٣٠٠هـ) أن أوقفتِ الجمعيةُ السرية - التي ظلت تعمل سراً دون أن يعلم أحد بها - نشاطها وأحرقت وثائقها، واعتبرت نفسها جمعية منحلة [3].

٣) جمعية رابطة الوطن العربي:

تعتبر جمعية رابطة الوطن العربي من أوائل الجمعيات التي نادت بالانفصال عن الدولة العثمانية، ومؤسسها نجيب عازوري، وهو عربي نصراني، تولى منصب نائب متصرف القدس بين عامي ١٨٩٩ - ١٩٠٤م (١٣١٧ - ١٣٢٢هـ)، ثم اختلف مع رئيسه كاظم بك متصرف القدس بسبب سوء الإدارة العثمانية فاستقال، وقام بجولة في

---

(١) مجلة المقتطف ج ٣٦ مارس ١٩١٠م، ص ٢٥٠ - ٢٧٠، الكاتب فارس نمر. نقلًا من كتاب نشوء القومية العربية، زين نور الدين زين، ١٩٦ (حاشية).

(٢) يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ١٥٦. وانظر:

١. نشوء القومية العربية، زين نور الدين زين، ٦٩.
٢. القومية العربية، مصطفى الشهابي، ٤٨.
٣. العرب والترك، توفيق برو، ٤٣.

(٣) نشوء القومية العربية، زين نور الدين زين، ٦١.

مدن الشام لمدة شهرين بعد استقالته، ودعا إلى إنشاء حزب سياسي جديد أسماه رابطة الوطن العربي[١].

وبسبب أن دعوته إلى القومية العربية، قد خرجت في وقت مبكر، وكان المجتمع على ولائه للخليفة، لم يجد مناصراً لدعوته، فهاجر إلى فرنسا وأسس عام ١٩٠٤م جمعية رابطة الوطن العربي في باريس بالاشتراك مع يوجين يونج، أحد موظفي مصلحة الاستعمار الفرنسي السابقين[٢].

ولم أجد من الكتاب الذين كانت لهم كتابات عن الجمعيات القومية من اهتم بهذه الجمعية، فقد ذهب بعضهم إلى أنها أثارت شيئاً من الاهتمام في أوربة في ذلك الحين، ولكن أثرها في الحركة العربية نفسها كان ضئيلاً[٣]. وكان السبب في ذلك كما ذكر سابقاً أن المبدأ الذي دعت إليه كان غريباً على المجتمع المسلم، وأيضاً: ظهورها في عاصمة أجنبية - باريس - وبلغة أجنبية كان أمراً في ذاته يدعو إلى شلها والحد منها[٤].

ومن أجل نشر مبادئ جمعية رابطة الوطن العربي فإن نجيب عازوري ألف كتاباً لمناصرة فكرته والتي أوجزها بعبارة (الاستقلال الذاتي للبلاد العربية) - وسمى الكتاب [يقظة الأمة العربية]، كتبه باللغة الفرنسية. وقد تُرجم إلى اللغة العربية[٥]، إلا أن أعضاء الجمعيات القومية العربية كما انتقدوا الجمعية كذلك لم يهتموا بالكتاب، فقد قال مصطفى

---

(١) حركة اليقظة العربية، محمود منسي، ١٠٠.

(٢) المصدر نفسه، ١٠٠.

(٣) يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ١٧٣.

(٤) المصدر نفسه، ١٧٣. وانظر:

١. القومية العربية، مصطفى الشهابي، ٥٩.

٢. نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ١٠٢.

(٥) يقظة الأمة العربية، نجيب عازوري، تعريب أحمد بو ملحم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

الشهابي[1] عنه: (أنا على يقين من أن كتاب العازوري لم يكن عند أحد من شباب جمعية النهضة العربية، ولا عند أحد ممن ألفوا عقب إعلان الدستور العثماني - المشروطية الثانية - الجمعيات والمؤسسات القومية العربية المختلفة. وفي سنة ١٩١١م (١٣٣٠هـ) وجدته يباع في إحدى مكتبات باريس فاشتريته ودللت بعض الرفاق من الطلاب العرب عليه، فلم يهتموا به، لأنهم كانوا قد شبوا عن الطوق، وعرفوا من شؤون القومية العربية وواجباتهم فيها ما لم يعرفه غيرهم)[2].

وقد أصدر نجيب عازوري في سنة ١٩٠٧م (١٣٢٥هـ) هو وجماعة من الكتاب الفرنسيين في باريس مجلة شهرية عنوانها [الاستقلال العربي] لم تعش أكثر من سنة وبعض السنة، هدفها تعريف الغرب بالقضية العربية. وقد صدر العدد الأول منها في أبريل ١٩٠٧م، والعدد الأخير في سبتمبر ١٩٠٨م، وفيها ذكر عازوري أن جميع ما يسعى إليه العرب سوف يتم تحقيقه.

ورغم أن المجلة قد لفتت الأنظار في أوربا في ذلك الوقت، إلا أنها فيما يختص بالحركة القومية العربية كان تأثيرها لا يكاد يذكر[3].

» مبادئ وتنظيم الجمعية:

إن كتاب (يقظة الأمة العربية) لنجيب عازوري قد احتوى مبادئ الجمعية، ومن خلال دراسة الكتاب المذكور لبيان مبادئ الجمعية نستنتج ما يلي:

١) القدح بالسلطان عبدالحميد: لقد شغل كتاب يقظة الأمة العربية صفحات كثيرة بقدح السلطان عبدالحميد والدولة العثمانية، فمما جاء في كتابه: (كيف يجرؤ التركي

---

(١) انظر الترجمة رقم (٦٦).

(٢) القومية العربية، مصطفى الشهابي، ٥٩.

(٣) حركة اليقظة العربية، محمود منسي، ١٠٣.

عبدالحميد الادعاء بأنه خليفة، وكيف يكون خليفة ولا يفهم العربية.. هو قاتل كاذب يسرق رعاياه، ويحكم بالإعدام على حجاج مكة، يوفر الحماية للمجرمين)[1]. وبتعبير مختصر عرف الدولة العثمانية بأنها (جماعة من قطاع الطرق يقودهم مجرم، فهي لا تكتفي فقط بألا تعمل شيئاً لتحسين وضع الفلاح، ولكنها تعمل بانتظام لتخريب هذا البلد التعيس تدريجياً. لا أمن ولا سلام ولا عدالة في تركيا)[2].

٢) فصل الدين عن الدولة: لقد نادى بوجوب فصل السلطة المدنية عن السلطة الدينية، وإقامة إمبراطورية عربية تمتد من الفرات ودجلة إلى خليج السويس، ومن المتوسط حتى بحر عمان[3].

وقد علل عازوري وجوبَ فصل الدين عن الدولة بقوله:

أ - إن سيادة خليفة الإسلام على كافة مسلمي الأرض المجتمعين في دولة واحدة أمر يبدو مستحيلاً دائماً.

ب - إن أحد الأسباب الرئيسية لسقوط الإمبراطورية العربية العظيمة هو تركيز السلطتين المدنية والروحية والجمع بينهما في يد واحدة.

ج - إن خليفة نبي الله يجب أن يتمتع بنفوذ أو هيبة روحية بلا منازع، ويجب أن يبقى محترماً لا ينتقد طوال حياته، ولا يُرتقى إلى سلطته، ويجب أن تبقى عظمته مستقلة[4].

٣) دعوة فرنسا لاستعمار البلاد العربية: (لا يملك أحد الحق في حكمنا غير فرنسا، ولن يُهتف بحرارة لأي دولة غيرها إذا نزلت في البلدان العربية، يوم يتقرر تجزئة

---

(١) يقظة الأمة العربية، نجيب عازوري، ٢٢٠.

(٢) المصدر السابق نفسه، ٦١.

(٣) المصدر السابق نفسه، ٢١٩.

(٤) يقظة الأمة العربية، نجيب عازوري، ٢٢٠.

الإمبراطورية التركية. ومع أن الدول الأخرى لا يمكنها أن تسمح بالسيطرة على شعب غمرته فرنسا بفضلها حين يدعوها كي تنقذه من العبودية)[1]. (لا يقبل الألبانيون وهم شعب شديد المراس وغيور على استقلاله، أبداً بأي احتلال أجنبي مهما كان.. نحن خلاف ذلك في سوريا مسيحيين ومسلمين نحن المسحوقين، نستقبل بفرح أول دولة تأتي لتنتزعنا من العبودية)[2].

وتخصيص فرنسا دون غيرها من الدول، لأن فرنسا تمتلك حقوقاً ومصالح أكثر من غيرها في شطري الإمبراطورية العثمانية الأوربي والآسيوي. لفرنسا عدا الإرساليات التي لا تحصى وبيوت التعليم والأيتام والمستشفيات والمدارس.. رؤوسُ أموالٍ ضخمة تستثمر في مشاريع.

إن حقوقها أكثر وأقدم، ومصالحها أهم وأكثر تمركزاً في البلدان العربية عن سواها في المناطق. إن مقام فرنسا ونشاطاتها في بلاد الرافدين وسوريا وفلسطين يتحديان كل مزاحمة[3].

٤) الثناء على الأفكار والمبادئ النصرانية: لقد أكثر عازوري من الإطراء على المبادئ الكافرة فمما قال: (تعتبر فرنسا مشعل الحضارة والحرية الأسطعَ إشعاعاً، إلى جانب كونها حامية المقهور، المأوى السخي للفكر والقيم الإنسانية. وعندما يخمد هذا المشعل سيعاني العالم إلى مدى طويل قلقاً عاماً)[4].

ويتميز النظام الإنكليزي باللامبالاة الكلية حيال كل ما يتعلق بالأخلاق والروح،

---

(١) المصدر نفسه، ١٣٤.

(٢) المصدر نفسه، ١٥٠

(٣) المصدر نفسه، ١٢١.

(٤) المصدر السابق نفسه، ١١٦.

وبالحفاظ على الأديان والطوائف والمؤسسات الغربية والعجيبة التي يسمح لها بالعمل على قدم المساواة... هذه مملكة الحرية المطلقة[١].

٥) الدعوة إلى توحيد الأديان: لقد شارك نجيب عازوري بمحافل الماسونية، وأسس محفلاً ماسونياً في القاهرة، وأصبح مدير جريدة مصر اليومية فترة من الزمن[٢]، ولهذا فإن مبدأ توحيد الأديان قد تبناه من منطلق عقائدي وليس من منطلق الاتحاد من أجل استقلال البلاد العربية، ومن أقواله في هذه القضية (إن قاطني هذه البلدان - العربية - الشاسعة لا يتميز بعضهم عن البعض الآخر إلا بالأديان والطوائف والمذاهب التي لا تحصى، أرجوك أن تحصي: مسلمون سنيون، مسلمون شيعة، ونصيريون، ودروز، وموارنة... وكاثوليك إنها حقيقة شائنة... التعصب الديني ليس سوى تطور في المصلحة الشخصية.. إن التعصب القومي شعور عفوي وفطري تقريباً كمثل الشعور العائلي الذي يأخذه بعين الاعتبار كل سياسي، والذي يوجب إبعاد كل قضية دينية[٣].

إن الجمعيات القومية العربية، سالفة الذكر كانت قبل إعلان الدستور وإلزام السلطان عبدالحميد بإعلانه، وتسمى هذه الفترة بالمشروطية الأولى. وليست هي الجمعيات الوحيدة التي أنشأها القوميون في المجتمع الإسلامي، لكن ما ذكر يعتبر من أبرز الجمعيات في طرح المواقف القومية واتخاذ الأساليب لها.

---

(١) المصدر نفسه، ١١٧.

(٢) الثورة العربية ١٩٠٦ - ١٩١٦م، آجن جنك، ١/ ٣٣. (نقلًا من مقدمة كتاب يقظة الأمة العربية، ١٩)

(٣) يقظة الأمة العربية، نجيب عازوري، ١٦٧.

المبحث الثاني: الجمعيات القومية خلال المشروطية الثانية:

سبق التعريف بالمشروطية الثانية بأنها، هي: المرسوم الذي أصدره السلطان عبدالحميد من تاريخ ١٩٠٨م بإعادة الدستور. وفي خلال هذه المرحلة أسقط السلطان عبدالحميد، وانتقل الحكم إلى جمعية الاتحاد والترقي، حتى كان تمزق الدولة العثمانية وسقوطها كمسمى دولة، وتحولت إلى جمهورية على يد مصطفى كمال أتاتورك ١٩٢٤م.

وتعد هذه الفترة في تاريخ الحركة القومية من أخصب فتراتها في تأسيس الجمعيات القومية، حيث صدر القرار الدستوري بحرية تأسيس جمعيات قومية، وتمكن من قيادة الدولة من تشربت قلوبهم وتأثرت عقولهم بالمبادئ الصليبية والماسونية[١]. ومن الجمعيات القومية العربية التي تأسست في هذه الفترة، ما يلي:

١) جمعية الإخاء العربي العثماني:

إن تأسيس جمعية الإخاء العربي وما يليها من الجمعيات القومية العربية في فترة المشروطية الثانية. كانت الدولة العثمانية تمر بحالة تختلف عن الأحوال التي ظهرت فيها الجمعيات سابقة الذكر. فإن تاريخ ١٩٠٨م (١٣٢٦هـ) يعتبره القوميون عصر الانفتاح والحرية الفكرية والعقائدية، حيث أعلن الدستور، وأطلق سراح جميع المعتقلين السياسيين، ورفعت القيود التي كانت مفروضة على المنفيين والمبعدين. وبعكس ذلك: اعتقل صناديد عهد الاستبداد، وبدأ البحث عن مصادر الثروة التي اكتنزوها، وضروب المظالم التي ارتكبوها[٢]، فكان هذا التاريخ بداية عهد تهميش الخليفة وإسقاط السلطان

(١) انظر: الأوضاع الثقافية في تركيا في القرن الرابع عشر الهجري، رسالة دكتوراه، سهيل صابان، ص ٨.
(٢) البلاد العربية والدولة العثمانية، ساطع الحصري، ٩٥، جامعة الدول العربية، ١٩٥٧م.

عبدالحميد من الحكم، وانتقال زمام أمور الدولة إلى جمعية الاتحاد والترقي، والتقرب من العالم الغربي.

لقد أجمع[١] الذين دونوا تاريخ القضية العربية على أن جمعية الإخاء العربي هي أول جمعية عربية تأسست بعد إعلان الدستور العثماني في سنة ١٩٠٨م، وأنشأت نادياً لها.

وقد افتتحت الجمعية رسمياً وسط مظاهر الحماسة في اجتماع كبير عقدته الجالية العربية في القسطنطينية، وحضره أعضاء من جمعية الاتحاد والترقي[٢]، بل إن أبرز المنشئين لجمعية الإخاء العربي هم من كبار موظفي العرب في العهد الحميدي، خافوا على مناصبهم في الدور الجديد فاستعانوا ببعض الشبان المتحمسين وأسسوا هذه الجمعية للدفاع عن مناصبهم[٣].

ومنهم: شفيق المؤيد العظم[٤]، وصادق المؤيد العظم[٥]، وشكري الأيوبي[٦] (من دمشق)، وشكري الحسيني (من القدس)[٧] وتأسست لجمعية الإخاء العربي فروعٌ خارج إستنبول في سورية والعراق، وأخذت الإعانات تتوارد للجمعية من أنحاء شتى، فعلى ما ذكره شكري الحسيني أن أحد نصارى العرب والمقيم في أمريكا بعث مكتوباً ذكر فيه أنه سيرسل ألف دولار لتصرف في سبيل تشكيلات الجمعية[٨].

---

(١) الثورة العربية الكبرى، أمين سعيد، ١/ ٧، مطابع عيسى البابي الحلبي، مصر.

(٢) يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ١٧٧.

(٣) الثورة العربية الكبرى، أمين سعيد، ١/ ٧.

(٤) انظر الترجمة رقم (٣٦).

(٥) انظر الترجمة رقم (٣٩).

(٦) انظر الترجمة رقم (٣٧).

(٧) نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ٣٥٠.

(٨) إيضاحات عن المسائل السياسية التي جرى تدقيقها بديوان الحرب العرفي المتشكل بعاليه، جمال باشا، ٩ طنين، ١٣٣٤هـ.

» مبادئ وتنظيم الجمعية:

أصدرت جمعية الإخاء العربي، مجلة باسمها وتولى أحد مؤسسيها إصدارها، فكانت إحدى الوسائل التي بينت فيها الجمعية مبادئها وقوانينها، والتي يمكن إيراد بعضها بما يلي:

١) نصت المادة الأولى: جمعية الإخاء العربي العثماني نشأت في دار الخلافة مؤلفة من أبناء العرب العثمانيين على اختلاف مللهم ونحلهم.

٢) يحق لكل فرد من أبناء العرب - والعربي كل من ينتسب إلى العرب مولداً وموطناً - أن يكون عضواً في جمعية الإخاء العربي العثماني، بشرط أن يكون متصفاً بحسن الخلق والشهرة، غير محكوم عليه بجرم جنائي، أو إفلاس احتيالي، ولا ساقط من الحقوق المدنية.

٣) مقصد جمعية الإخاء العربي العثماني هو: معاونة جمعية الاتحاد والترقي في سبيل المحافظة على أحكام القانون الأساسي (الدستور)، وجمع كلمة الملل المختلفة العثمانية بدون تفريق في الجنس والمذهب. وتمكين الرابطة الجامعة بينهم، وذلك لأجل خدمة الدولة العثمانية وإصلاح الشؤون المختلة.

٤) السعي لإعلاء شأن الأمة العربية، واتخاذ جميع الوسائط والتدابير لنشر أنوار العلوم والمعارف بين أبنائها كتأسيس مدارس وطبع جرائد..

٥) إقناع أهل البداوة للإقلاع عن عاداتهم المستهجنة وعداواتهم المستعرة بينهم، وإسكانهم في محلات ثابتة، وتعويدهم على مزاولة العوائد والحرف الحضرية، وتنوير عقولهم بالعلم.

٦) صيانة حقوق أبناء العرب جميعاً من الغدر والاعتساف وتبليغ شكاياتهم، ومستدعياتهم إلى مراجعها الرسمية.

٧) السعي في تأييد العدل والحرية والمساواة بين عناصر الأمة العثمانية وإزالة الضغائن وسوء التفاهم من بينهم[١].

ومن منطلق إبراز الدور القومي العربي فقد التزمت الجمعية مهمة استقبال نواب العرب حين قدموا من البلاد العربية إلى الآستانة للمرة الأولى، فأعدت لهم الحفلات واستقبلهم أعضاؤها والطلاب العرب واحتَفَوْا بهم[٢].

ومما يلاحظ على مبادئ الجمعية أنها تعلن مبدأ وفاق العرب والترك جميعاً، وبخاصة أنها تأسست في بداية حكم جمعية الاتحاد والترقي[٣].

ويرى بعض القوميين أن الجمعية لم تقم بنشاط مؤثر في مجال المنهج الذي رسمته، عدا بعض حفلاتٍ لاستقبال نواب العرب فإنها سجلت من دون ريب حقيقة بدء بروز الفكرة القومية بمعالمها الواضحة في هذا الدور، وتحفز العرب للانتفاع بالأفق الذي فتحه إعلان الدستور أمامهم، والنهوض بكيانهم القومي[٤].

إن أبرز ما يجب أن يشار إليه[٥] في مقاصد وأهداف جمعية الإخاء العربي، النقاط التالية:

١) (معاونة جمعية الاتحاد والترقي): لقد وضعت جمعية الإخاء العربي يَدَها في يد جمعية الاتحاد والترقي[٦]، والتي كان أكثر أعضائها ماسونيين، بل إن أبرز مؤسسي جمعية

---

(١) الثورة العربية الكبرى، أمين سعيد، ٧. وانظر:
* نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد دروزة، ٣٥١.
(٢) المصدر السابق نفسه، ٨. وانظر:
* القومية العربية، مصطفى الشهابي، ٦٨.
(٣) انظر: الحكومة العربية في دمشق، خيرية قاسمية، ١٨.
(٤) حول الحركة العربية الحديثة، محمد دروزة، ١/ ٢٦.
(٥) في الباب الثاني، إن شاء الله، سيكون الحديث عن موقف الجمعيات القومية من العقيدة الإسلامية.
(٦) سيأتي الحديث - إن شاء الله - عن جمعية الاتحاد والترقي في الفصول القادمة.

الاتحاد والترقي من أعضاء محفل (ما كدونيا ريزورتا) الشهير في (سلانيك) وكان تابعاً لإيطاليا، أمثال: طلعت باشا، وكاظم باشا، وما نياسي زاده رفيق[1].

٢) إعانة جمعية الإخاء العربي لجمعية الاتحاد والترقي كانت محصورة في (المحافظة على أحكام القانون الأساسي - الدستور -)، ولم تنفرد جمعية الإخاء العربي بالمحافظة على أحكام الدستور، وإنما جميع الجمعيات القومية كانت تطالب بالعمل بالدستور.

إن الدستور المطالب به إنما هو من صنع مدحت باشا، الذي أكثر القوميون الثناء عليه والتمجيد له، والذي روجت له الدعاية الماسونية في أنحاء الشرق العربي والغربي على أنه البطل العظيم حامل لواء الإصلاح والحرية في السلطنة العثمانية، وسمته (أبو الدستور)[2]. وفي الباب الثاني - إن شاء الله - تفصيل لهذه القضية.

٣) ومما تجب الإشارة إليه عن مبادئ جمعية الإخاء العربي في مسألة الأصل الذي يعتصم به بين الناس جميعاً، هو (جمع كلمة الملل المختلفة العثمانية بدون تفريق في الجنس والمذهب)، إن جمع الكلمة أمر قد حثت عليه الشريعة ونهت عن الفرقة، وإنما المبدأ الذي دعت إليه جمعية الإخاء العربي وغيرها من الجمعيات (بدون تفريق في الجنس والمذهب)، هو الشعار ذاته الذي نادت به الجمعيات القومية العربية.

٤) إظهار المبدأ القومي، والدفاع عن حقوق الأمة العربية. كانت جمعية الإخاء العربي من أوائل الجمعيات التي نادت بهذا المبدأ بقرارها (صيانة حقوق أبناء العرب جميعاً).

---

(١) الأوضاع الثقافية في تركيا في القرن الرابع عشر الهجري، سهيل صابان، رسالة دكتوراه لم تطبع، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. وانظر: الماسونية عقيدة المولد وعار النهاية، محمود الشاذلي، ٢٣٦، مكتبة وهبة، مصر، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

(٢) اليهودية والماسونية، عبدالرحمن الدوسري، ٧٠، دار السنة، الخبر، ١٤١٤هـ، الطبعة الأولى.

ويرى القوميون أن هذه الجمعية لم تستطع أن تحقق شيئاً من ذلك، حيث فَقْدُ التجانس، واختلاف التفكير، وتفاوت العقيدة الوطنية فيهم، فهي لم تكد تولد ١٩٠٨م حتى أغلقت الحكومة أبوابها سنة ١٩٠٩م[١]. وألغوا جريدتها (الإخاء العثماني)، بدعوى وقوع بعض ما لا يناسب في سورية، وظهور الأفكار الرجعية في تشكيلاتها وأعضائها[٢].

٢) جمعية المنتدى الأدبي:

لم تعش جمعية الإخاء العربي طويلاً، فنشأ على أنقاضها جمعية المنتدى الأدبي، وهي من الجمعيات العلنية، وكان تاريخ نشأة المنتدى في سنة ١٩٠٩م (١٣٢٧هـ)[٣]، ومؤسسوه خليطٌ من الشيعة كعبدالكريم قاسم خليل، الذي تولى رئاسة المنتدى فترة طويلة حتى أغلق سنة (١٩١٥م - ١٣٣٤هـ)[٤] والمنتسبين إلى أهل السنة، ونصارى العرب منهم (رفيق سلوم[٥] وأسعد داغر[٦])[٧].

وهذا الخلط العقائدي يعده بعض القوميين من مفاخر المنتدى الأدبي، فقد كان طابع العروبة هو الطابع المميز له، فاجتمع في رحابه المسلم السني والشيعي والدرزي والمسيحي على اختلاف الطوائف إخواناً متحابين، هدفهم مجد العروبة وبعثها[٨].

---

(١) القومية العربية، مصطفى الشهابي، ٦٨. وانظر:
١. حول نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ٣٥٢.
٢. العرب والترك، توفيق برو، ١٠٧.
(٢) إيضاحات عن المسائل السياسية التي جرى تدقيقها بديوان الحرب العرفي المتشكل بعاليه، جمال باشا، ١٠.
(٣) الثورة العربية الكبرى، أمين سعيد، ١/ ٨.
(٤) الحركة العربية، سليمان موسى، ١٠٢.
(٥) انظر الترجمة رقم (٢٨).
(٦) انظر الترجمة رقم (٤).
(٧) ذكرياتي على هامش القضية العربية، أسعد داغر، ٣٥.
(٨) نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ٣٥٥.

وبظهور هذا المنتدى يلاحظ اختلاف طرح الجمعيات القومية لمبادئها، فكان المنتدى يمثل أحد الأساليب الجديدة والمناسبة للحال والواقع الذي أنشئ فيه لإحياء وبعث القومية العربية، واستقطاب أبناء العرب ممن يظهر عليهم النبوغ.

ويقول مصطفى الشهابي - أحد أعضاء المنتدى الأدبي - كان مباءة العروبة في عاصمة الدولة، ففيه كان الطلاب الجدد يتلقون خطط الأتراك الاتحاديين الرامية إلى تسيّد القومية التركية والقضاء على القوميات السائرة في الدولة[١].

» مبادئ وتنظيم الجمعية:

من خلال تتبع آراء أعضاء الجمعيات القومية العربية، نجدها تتفق على أن حركة المنتدى الأدبي قد نجحت إلى حدٍ كبير، وقد ظل المنتدى مزدهراً نشيطاً في سبيل الفكرة والحركة العربية وأهدافها إلى سنة ١٩١٥م.

فيرى أكثر أعضاء الجمعيات أن المنتدى كان من أهم مظاهر نشاط الحركة العربية الحديثة بعد الدستور ومغذياتها. ومن أهم عوامل ازدياد ذلك النشاط، واتساع دائرة الفكرة والتكتل حولها[٢]. فكان في المنتدى الأدبي أبرز الشخصيات التي قامت على جماجمهم النهضة العربية[٣].

والمنهج الذي سار عليه المنتدى الأدبي هو إعلان الولاء والوفاق العربي التركي، وقد سمح به الاتحاديون - حيث قد صدر قانون يحظر قيام الجمعيات والأحزاب ذات الأهداف القومية السياسية -[٤]. فوضعوه زمناً تحت رعايتهم، لأن أهدافه لم تكن سياسية

---

(١) القومية العربية، مصطفى الشهابي، ٧١.

(٢) نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ٣٥٥.

(٣) مذكراتي على هامش القضية العربية، أسعد داغر، ٣٥.

(٤) الحركة العربية الكبرى، سليمان موسى، ٣٢.

علنياً[1]، فكانت تقام فيه حفلات يدعى إليها رجال مشهورون من الترك رسميون وغير رسميين، ويخطب فيها بصدد ذلك، بل كان يعقد في المنتدى ندوات يشهدها شباب من الترك مع شباب من العرب، فتجري فيها الأحاديث والمناظرات حول الأمجاد القومية التركية والعربية، وينبه على عدم التعارض بين اهتمام كل فريق بمجد قوميته ونمو عواطفه القومية تحت لواء (العثمانية)[2].

وكانت أهداف المنتدى القومية تبرز على الملأ فيما كان يلقى فيه من محاضرات وخطب، وما كان يقام فيه من حفلات، وما كان ينشر في مجلته من بحوث ومقالات وقصائد وأناشيد وطنية[3].

لقد كانت السمة الظاهرة في نشاط المنتدى الأدبي، هي المناشط الأدبية والتعليمية، فقد كان أعضاء المنتدى يمثلون بعض الروايات العربية التاريخية، كرواية صلاح الدين الأيوبي في مسرح دار الفرح، ورصدوا ريعها له فدرت عليهم أرباحاً زائدة[4].

وقد قدّم رئيس المنتدى الأدبي للنواب العرب خطة تتعلق بإصلاح المدارس الابتدائية في دوائرهم، وأبرز فيها الجانب القومي، واقترح عليهم برنامجاً يرمي إلى إنهاض البلاد العربية على دعامتين:

١ - توثيق عرى الإخاء بين العرب على اختلاف أديانهم وطوائفهم حتى لا يذكر الواحد منهم في السياسة والوطنية غير عروبته الشريفة.

---

(١) يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ١٨٤.

(٢) نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ٣٥٥.

(٣) القومية العربية، مصطفى الشهابي، ٧١.

(٤) الثورة العربية الكبرى، أمين سعيد، ١/ ٨.

٢ - توحيد طرق التعليم في البلاد العربية حتى تتربى النفوس تربية واحدة ليسير جميع العرب في طريق واحدة وإلى غرض واحد.

فاستصوب النواب البرنامج، وتعهدوا بتنفيذه بالتآزر مع المنتدى الأدبي، الذي تعهد بتضحيات مادية وأدبية، وبتطوع أعضاء المنتدى الأدبي المثقفين للتدريس في المدارس، علاوة على وظائفهم أو أعمالهم العادية(١).

لم يكن للمنتدى الأدبي صحيفة تخدم أغراضه في الفترة الأولى من تأسيسه، إنما كان الأعضاء يكتبون في الجرائد العربية التي كانت تصدر في الآستانة، كجريدة الحضارة، والجرائد التي تصدر في سورية والقاهرة، وأراد مع ذلك أن ينشئ مجلة خاصة به، غير أنه قد صدرت مجلة باسم (لسان العرب) فأراد رئيس المنتدى أن تكون هذه المجلة ناطقة باسم المنتدى، وأن يكون اسمها (المنتدى الأدبي) وأشرف عليها أحمد عزت الأعظمي(٢). وكانت مجالَ أقلام ونفثات شباب العرب وشعرائهم وأدبائهم وعلمائهم في كل ما له صلة بالعروبة وتاريخها وحقوقها ولغتها وأمانيها، وبالتالي مظهراً من مظاهر الفكرة ودعامة من دعائم حركتها(٣).

لقد كان المنتدى الأدبي حينئذ مرتعاً للأفكار القومية، وبث الولاء للقومية، ومما جاء في إحدى المناظرات الثقافية في المنتدى: إننا عرب قبل كل شيء، المسلم عربي، والمسيحي عربي...و..و.. أجل إننا عرب قبل أن نكون مسلمين، والمسيحي عربي قبل أن يكون مسيحياً...و...و... وقد تركنا مسألة الديانات والعبادات إلى الجوامع والكنائس(٤).

---

(١) العرب والترك، توفيق برو، ٢٦٦.

(٢) انظر الترجمة رقم (١).

(٣) نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ٣٥٦، وانظر: العرب والترك، توفيق برو، ٢٦٣.

(٤) جريدة الأهرام، عدد ١٠٦٨٢، بتاريخ ٢٢/ ٤/ ١٩١٣، انظر كتاب: العرب والترك، توفيق برو، ٢٦٥.

ويحدث أسعد داغر - أحد الأعضاء المشاركين في المنتدى - عن أحد اجتماعات المنتدى الأدبي، والتي نوقش فيه قضية وجوب السعي إلى إنقاذ العرب: بالاستناد إلى فكرة الجامعة الإسلامية، أو أن القومية هي الأساس الذي يجب أن تقوم عليه الدول منذ الآن، وأن الجهود كلها يجب أن توجه إلى خدمة الفكرة العربية مجردة من كل شيء؟

فكان الرأي الذي اتخذه المنتدى وصرح به العضو، حيث قال: يمكنني إعلانه الآن على رؤوس الأشهاد أنه لم يكن بين أصدقائي الذين قامت النهضة العربية على أكتافهم أو على جماجمهم، سواء في سورية أم العراق أم فلسطين أم لبنان أم غيرها، من يفكر في اتخاذ الفكرة الإسلامية أساساً للوحدة والاستقلال. بل إنهم جميعاً كانوا يعملون على تعزيز الروح القومية البحتة، وإحياء مجد العرب على أساس هذه الروح[1].

ولأسباب كثيرة من أبرزها التصادم بين العرب والترك[2] انحرف المسار الفكري والمنهجي للمنتدى الأدبي، فتحول إلى مركز سياسي فأصبح يبث الدعوة إلى الانفصال عن الترك وإعلان الاستقلال العربي، ويلقى فيه خطابات موضوعها تلقين التاريخ للطلبة بشكل يبعث على فكرة الاستقلال.

وقد صرح بعض مؤسسيه بأن للمنتدى تعليمات خفية لا يعلمها سوى أعضائه المؤسسين الذين كانوا يسعون وراء تلك التعليمات، منها: إن الأتراك يحكموننا مع أنهم أقل نفراً. والغاية من تأسيسه: أن يجمع كل الطلاب العرب ويبث فيهم فكرة القومية ونهضة العرب بأية واسطة كانت، ولو بمساعدة الدول الأجنبية التي تؤدي إلى احتلال أو حماية. وكان هؤلاء كلما انتهى فريق منهم بدروسه حمل هذه الأفكار وبثها حيث يتعين

---

(١) مذكراتي على هامش القضية العربية، أسعد داغر، ٤٦.

(٢) الحكومة العربية في دمشق، خيرية قاسمية، ١٨.

من البلاد العربية[١].

وقد اطلعت جمعية الاتحاد والترقي على النشاط السري للمنتدى الأدبي، كوجود النشرات التي تحرض العرب على الاستقلال وقتل الأتراك، وهي ترد للمنتدى ضمن الجرائد التي ترسل إلى مدير مجلة المنتدى ومحررها. وقد وجِدَ في المنتدى رسائل[٢] تثبت أن له نشاطاً مع شباب في الخارج يعتمد عليهم فيما يُبث له من الأفكار.

وبعد هذه المعلومات عن المنتدى أصدرت جمعية الاتحاد والترقي قرارها في المنتدى الأدبي، وهو: أن المنتدى قد سمم أفكار الشبان الأبرياء الذين كانوا أثناء دوامهم على المكاتب في الآستانة يسعون لتأمين مستقبلهم وهم بسكينة تامة، حتى جعل بعضهم خادمين لآمال رجال اللامركزية تمام الخدمة. فكان السبب في إعدامهم نتيجة المحاكمة الأخيرة[٣].

صدر القرار ضد المنتدى الذي أعلن في بداية تأسيسه - وغيره من الجمعيات القومية - على مساندة جمعية الاتحاد والترقي لتحرير البلاد من الخلافة الإسلامية، وتحرير المجتمع من سلطة الدين والشرع. وقد انتشر أعضاؤه المتابعون في البلاد العربية يبثون رسالته فيها[٤]، كأسعد داغر، والذي عمل في جامعة الدول العربية مديراً للمكتب الصحفي، وقد سعى من خلال منصبه الإعلامي إلى دعوة أعضاء الجمعيات القومية العربية للعمل في الجامعة، وأن يمدوا الجامعة بآرائهم وأفكارهم، فقد كتب إلى نبيه العظمة[٥] عام ١٩٤٦م (١٣٦٦هـ) ومما قال له: (إذا كنتم تعتقدون أن جامعة الدول العربية هي الأمل الوحيد لنا - وأنا أعتقد ذلك - فأرجو أن تقوموا بالواجب نحوها)[٦].

(١) الإيضاحات عن المسائل السياسية، جمال باشا، ١٢ (بتصرف).
(٢) انظر صور الرسائل في: الإيضاحات عن المسائل السياسية، جمال باشا.
(٣) الإيضاحات عن المسائل السياسية، جمال باشا، ١٦ (بتصرف).
(٤) القومية العربية، مصطفى الشهابي، ٧١.
(٥) انظر الترجمة رقم (٦٨).
(٦) الرعيل العربي الأول (حياة وأوراق نبيه العظمة)، جمع خيرية قاسمية، ١٣٤.

٣) الجمعية القحطانية:

يغلب على جميع الجمعيات القومية أن الداعي إلى تأسيسها أهداف علمية أو أدبيه أو اجتماعية... إلخ، ولكن ظهر لدى القوميين فكرة تخصيص الجانب العسكري من قادة أركان حرب وضباط بنشاط قومي ذا صبغة سرية، فكانت جمعيتا (القحطانية) و(العهد) تقومان بهذا الدور، وقد أنشئت الجمعيةُ القحطانية السرية سنة ١٩٠٩م (١٣٢٧هـ) في إستنبول، وانتظم كثير من ضباط العرب في سلكها، كما ضمت أيضاً بعض المدنيين[١].

وتشمل قيمتها في هذا التاريخ الذي عند جميع القوميات عموماً والقومية العربية خصوصاً عصر التحرر من الحكم المستبد، وتطبيق الحكم الدستوري الحر، وتظهر قيمتها في تاريخ الحركة العربية أنها حاولت أول محاولة معروفة لضم الضباط العرب في الجيش التركي ليزداد التعاون في ميدان الحركة القومية[٢]، وكان من مؤسسي الجمعية القحطانية، خليل باشا حمادة وزير الأوقاف، وعبدالحميد الزهراوي[٣]، وعزيز علي المصري بكباشي[٤] أركان حرب، وسليم الجزائري بكباشي[٥] أركان حرب، وانضم إليها عزة الجندي[٦]، وعبدالكريم الخليل، وعادل أرسلان[٧].

---

(١) خبراتي في الحكم، حسن الحكيم، ٤٢. وانظر: الثورة العربية الكبرى، أمين السعيد، ١/ ١٠.

(٢) يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ١٨٦.

(٣) انظر الترجمة رقم (٤١).

(٤) انظر الترجمة رقم (٤٨).

(٥) انظر الترجمة رقم (٣١).

(٦) انظر الترجمة رقم (٤٧).

(٧) انظر:

١. خبراتي في الحكم، حسن الحكيم، ٤٢.
٢. الثورة العربية الكبرى، أمين سعيد، ١/ ١٠.
٣. الإيضاحات، جمال باشا، ١٧.

وقد كان سبب كثرة المنتسبين إلى الجمعية القحطانية أن نظام الانتساب مفتوح لكل أحد دون استئذان من المركز، مع الإبقاء على سرية نظامها وبرامجها[١] التي لا يطلع عليها كل أحد إلا بشرط من كانت وطنيته فوق مستوى الشبهات، وكان ممن يوثق بكتمانه السر[٢].

وكان من سرية الجمعية القحطانية أنها مارست نشاطها السياسي بصورة شفهية، ولذا لم أجد - خلال بحثي - وثائق مكتوبة عنها كما في أغلب الجمعيات القومية. ومن أمثلة مبدأ السرية بين أعضائها هي: أن يضغط المُسلِم على أحد أصابع يد المسلم ثم يضع الشاهدة والوسطى على الذراع الأيسر ويخفي بقية الأصابع، ويهجي كلمة هلال عند المحادثة، فإذا قال الأول: (هاء)، قال الثاني: (لام)، ثم يقول الأول: (ألف)، فيقول الثاني: (لام)[٣].

» مبادئ وتنظيم الجمعية:

انطلاقاً من التكوين الحزبي للجمعية ولكونها بفئة الجيش خاصة، واتخاذها مبدأً وتنظيماً يتناسب مع طبيعة تكوين الأعضاء، وأنها ظهرت في عصر تغلبت فيه جمعية الاتحاد والترقي على السلطان عبدالحميد، وانطلاقاً من تصريح بعض أعضاء الجمعيات عن غاية الجمعية القحطانية، يمكن تلخيص مبادئها بما يلي:

١) بث المبادئ الصحيحة بين أبناء الأمة، وجمع الكلمة وتوحيد الصفوف.

٢) أن تؤلف الولايات العربية مملكة واحدة تصبح جزءاً من إمبراطورية مزدوجة

---

(١) الإيضاحات، جمال باشا، ١٧.

(٢) يقظة العرب، جورج إنطونيوس، ١٨٦.

(٣) الثورة العربية، أمين السعيد، ١/ ١٠.

تركية عربية[١].

٣) إيقاظ العرب من سباتهم وتذكيرهم بماضيهم وبكيانهم القومي الحاضر.

٤) العمل على رفع مستوى العرب الثقافي والاجتماعي والاقتصادي.

٥) حثهم على التضامن والمطالبة بما لهم من حقوق مضاعة في الدولة[٢].

ويظهر من هذه المبادئ أثر التكوين الحزبي للجمعية القحطانية، إذ يغلب على مبادئها الطابع السياسي من حيث المطالبة بالحقوق المضاعة، وجمع الكلمة وتوحيد الصفوف، وتأليف ولايات عربية. وهذه المبادئ قد وثقت برباط القومية العربية وتأصيلها بالمعتقد القومي، مع الحرص على تأكيد هذا الجانب والاهتمام به ثقافياً واجتماعياً واقتصادياً.

وقد ظلت الجمعية القحطانية تنادي بهذه المبادئ وتعمل على تحقيقها في المجتمع المسلم حتى قرب قيام الحرب العالمية الأولى وبالتحديد عام ١٩١٣م (١٣٣٢هـ)، عندها انضم أعضاؤها إما إلى جمعية (العهد) أو (الفتاة) وإما إلى كلتيهما، فانصرف معظم نشاطهم إلى تينك الجمعيتين[٣].

٤) الجمعية اللامركزية:

أُنْشِئت الجمعية اللامركزية في تاريخ ١٩١٢م[٤] (١٣٣٠هـ)، مع التأكيد على أن فكرة الحكم المركزي واللامركزي من أهم القضايا التي شغلت الجمعيات القومية.

---

(١) خبراتي في الحكم، حسن الحكيم، ٤٢.

(٢) القومية العربية، مصطفى الشهابي، ٦٩.

(٣) المصدر نفسه، ٦٩.

(٤) نشوء القومية العربية، زين نور الدين زين، ٩٢.

ولقد ناصر القوميون مهاجرة الأتراك في مؤتمر باريس ١٩٠٢م (١٣٢٠هـ) الذي ناقش موضوع الحكم المركزي واللامركزي، وفي هذا المؤتمر ظهر تياران متناقضان، أحدهما: ينادي بالحكم المركزي وهم أعضاء جمعية الاتحاد والترقي، والآخر ينادي بالحكم اللامركزي.

وبعد إسقاط السلطان عبدالحميد رفع شعار الحكم اللامركزي، وأن الدستور والحكم المركزي لا يجتمعان، إلا أن جمعية الاتحاد والترقي - والتي بيدها الحكم - أخذت تطبّق برنامجها المركزي، وتقضي على من ينادي بضد الحكم المركزي[(١)].

ولسوء إدارة الحكم الاتحادي وظهور الضعف على الدولة في مقاومة الغزو الإيطالي. وبعد حرب البلقان[(٢)] التي كانت قد انتهت في ذلك الحين إلى ضياع ست ولايات أوروبية، وانسحاب الـ(٥٥) نائباً الذي كانوا يمثلون تلك الولايات في مجلس (المبعوثان)[(٣)]، وجد العرب أن الدولة أصبحت مقتصرة على الولايات العربية والولايات التركية مع وجود أقليات من الكرد والأرمن[(٤)].

وبناء على هذه الحال أسست جماعة من السوريين - كان بينهم لبنانيون وفلسطينيون هاجروا إلى القاهرة - حزباً سياسياً بمعرفة الحكومة التركية، أطلقوا عليه اسم (حزب اللامركزية الإدارية العثماني)[(٥)].

---

(١) مجلة دراسات تاريخية، لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق، العدد١١، سنة ١٤٠٣هـ، مفهوم اللامركزية، سهيلة الريماوي.

(٢) انظر تاريخ حرب البلقان، يوسف البستاني.

(٣) مجلس المبعوثان: هو مجلس النواب العثماني وهو المعروف باسم (مجلس مبعوثان عثماني) الذي نص على تأسيسه الدستور العثماني. [ينظر إلى مذكرات سليم علي سلام، ١٣٠].

(٤) الحركة العربية، سليمان موسى، ٣٥.

(٥) نشوء القومية العربية، زين نور الدين زين، ٩٤.

وتولى رئاسة الحزب والهيكل الإداري له عدد من الشاميين المقيمين في مصر، ومع هذا لم يكن عملهم مقتصراً على الشام، فقد أسسوا أيضاً فروعاً للحزب في العراق، ولكنهم لم يتجاوزوا الولايات العربية إلى غير العربية(١).

وقد فوضت الجمعية عبدالكريم خليل - رئيس جمعية المنتدى الأدبي - أن يؤسس فرعاً للحزب يقوم برنامجه على اللامركزية في صيدا وصور وبعض مناطق جبل عامل(٢).

» مفهوم الحكم اللامركزي:

قدمت الجمعية اللامركزية تعريفاً لمفهوم الحكم اللامركزي، هو: توزيع السلطة الإدارية على المراكز المختلفة المؤلف منها الجسم السياسي الاجتماعي، عوضاً عن حصرها في جزء واحد مركزي، ليتيسر لكل جزء الاهتمام بتدبير شؤونه الخاصة بنفسه عن علم، مع حفظ الصلة بالمركز حرصاً على مصلحة الكل(٣).

» مبادئ وتنظيم الجمعية:

من خلال دوافع إنشاء جمعية حزب اللامركزي، نجد أن أهدافها ذات شقين، الأول: أن تُبيِّنَ للحكام في تركية مدى الحاجة إلى اللامركزية الإدارية في الدولة، والثاني: أن تعبئ الرأي العام العربي لتأييد اللامركزية(٤).

ولذا حرص أعضاء الجمعية اللامركزية - قبل أن تكون الجمعية علنية - استغلال

---

(١) القومية العربية، مصطفى الشهابي، ٨١.

(٢) الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي، وجيه كوثراني، ٢٤٤، بحسون الثقافية، ١٩٨٦م.

(٣) جريدة المحروسة، مقالة بقلم شبلي شميل بتاريخ٢٥/ ١٩١٣م، بعنوان اللامركزية والعمران. (نقلاً من مجلة دراسات تاريخية العدد ١١ لعام ١٤٠٣هـ، مقال سهيلة الريماوي.

(٤) يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ١٨٥.

تصريح الدولة العثمانية لجمعية الحرية والائتلاف، فانضموا تحت مظلتها لفتح فروع للجمعية اللامركزية[١].

وبعد أن صرحت الحكومة الاتحادية للجمعية، قدمت الجمعية اللامركزية برنامجاً لا يخرج عن تحقيق هذا الهدف. وكانت مواد النظام الأساسي للجمعية تكفل قيام جهاز حزبي محكم. وقد وكل أمر الإشراف عليها لجنة من عشرين عضواً يقيمون في مصر تتألف من بينهم هيئة إدارية مكونة من ستة أعضاء[٢]. ومواد البرنامج[٣] ما يلي:

المادة الأولى: أُلِّف حزب سياسي باسم (حزب اللامركزية الإدارية العثماني).

المادة الثانية: القصد من تأليف هذا الحزب بيان محسنات الإدارة اللامركزية في السلطنة العثمانية للشعب العثماني المؤلف من عناصر ذات أجناس ولغات وأديان وعادات مختلفة، والمطالبة بكل الوسائل المشروعة بحكومة تُؤسس على قواعد اللامركزية الإدارية في جميع ولايات الدولة العثمانية.

المادة الثالثة: ليس هذا الحزب خفياً وليس فيه ما يعد من الأسرار، فهو ينشر مقصده المبني على المطالبة باللامركزية الواسعة جهراً وعلانية دون خشية من أحد، لاعتقاده يقيناً أن الدولة لا تبقى في العالم السياسي إلا إذا بنيت حكومتها على أساس اللامركزية الإدارية.

المادة الرابعة: إن الدخول في حزب اللامركزية مباح لكل عثماني بلغ العشرين من العمر، على شرط:

أن يكون أولاً: من المتمتعين بجميع الحقوق المدنية.

---

(١) نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ٣٧١ (حاشية).

(٢) يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ١٨٥.

(٣) من المفيد عرض برنامج الحزب كاملًا ليعطي صورة عن التنظيم الداخلي والمنهج للعلاقات الخارجية.

ثانياً: غير محكوم عليه بحكم مخل بالشرف.

ثالثاً: غير مشتهر بسوء السيرة.

رابعاً: أن يقبل القواعد المبيّنة في برنامج الحزب.

المادة الخامسة: يكفي لمن يريد الدخول في الحزب أن يكون دليله أحد أعضاء الحزب مع موافقة لجنة الإدارة المحلية على ذلك. ولا يجوز قبول عضو مادام من حزب يخالف هذا الحزب في المبدأ والغاية.

المادة السادسة: للمنتمي إلى الحزب أن يستقيل من عضويته في أي وقت.

المادة السابعة: على العضو أن يدفع إلى الفرع المسجل فيه اسمه راتباً شهرياً أقله قرشان، ويقبل الحزب التبرعات، ويعفي الفقراء من الراتب.

المادة الثامنة: لا يقيد الحزب أعضاءه بشيء غير قواعد البرنامج السياسي الذي وضعه لأجله.

المادة التاسعة: على النواب (المبعوثين) المنتمين إلى الحزب أن يسعوا بكل ما في وسعهم لتنفيذ قواعد الحزب في المجلس.

المادة العاشرة: لا يسوغ لأحد من المنتمين إلى الحزب مراجعة الحكومة باسم الحزب من تلقاء أنفسهم، وإذا ثبت على أحد الأعضاء مثل هذا السلوك يمحى اسمه من سجل الحزب.

المادة الحادية عشرة: إن مركز الحزب العام في مصر القاهرة، ويجوز لكل بلد أو قرية اجتمع فيها عشرة من أهلها على مبدأ اللامركزية الإدارية أن يؤسسوا فرعاً له، ويخبروا المركز العام بذلك.

المادة الثانية عشرة: تتألف اللجنة العليا للحزب من ٢٠ عضواً ينتخب منهم رئيس ونائب رئيس وسكرتير ومساعدان له، وأمين للصندوق. ويجوز لهذه اللجنة أن تضم إليها من ترى فيه فائدة للحزب.

المادة الثالثة عشرة: إذا غاب الرئيس ونائبه يرأس الجلسة أحد أعضائها.

المادة الرابعة عشرة: كل فرع من فروع الحزب يتبع المادتين ١٢و١٣ في تأليف لجنته الإدارية وانتخاب الرئيس والسكرتير وأمين الصندوق.

المادة الخامسة عشرة: يعقد كل فرع مؤتمراً فرعياً محلياً في شهر يونيو(حزيران) من كل سنة، يحضره جميع أعضاء الفرع، وتعقد اللجنة العليا مؤتمراً حزبياً عاماً في مصر القاهرة في شهر نوفمبر (تشرين الثاني) من كل سنة يحضره أعضاء اللجنة العليا، وأفراد الحزب في المركز العام، ومندوبون ترسلهم اللجان الفرعية.

المادة السادسة عشرة: يرسل كل فرع للمؤتمر العام مندوباً من قبله.

المادة السابعة عشرة: تنتخب كل لجنة إدارية رئيسها وسكرتيرها وأمين صندوقها من أعضائها بالاقتراع السري، وتُرفع إلى المركز العام في القاهرة نتيجة الاقتراع.

المادة الثامنة عشرة: على اللجان الإدارية الفرعية أن تسعى بكل الوسائل المشروعة لنشر مبادئ الحزب وتعميمها بين الناس، وتكثير أفراد المحازبين، والاجتهاد في سبيل انتخاب نواب لمجلس المبعوثين وللمجالس العمومية والإدارية والبلدية من الأكفاء الذين على مبدأ الحزب.

المادة التاسعة عشرة: اللجنة العليا تضع تعديل القوانين واللوائح للحكومة اللامركزية، وتسعى مع سائر اللجان والأفراد إلى إقناع الشعب والحكومة بها.

المادة العشرون: على اللجان الإدارية الفرعية أن تتخذ دفاتر لقيد قراراتها وأسماء الأعضاء وموظفي فروع الحزب وأمواله.

المادة الحادية والعشرون: تجتمع اللجان كلما قضت الحال بدعوة من الرئيس أو نائبه، والعضو الذي لا يحضر الاجتماع أربع مرات متواليات من غير عذر يعد مستقيلاً من عضوية اللجنة.

المادة الثانية والعشرون: على السكرتير وأمين الصندوق في كل لجنة أن يقدما إلى تلك اللجنة في آخر كل سنة كشفاً ببيان إيرادات الفرع ونفقاته عن تلك السنة، وعلى كل لجنة أن ترسل صورة من هذا الكشف إلى اللجنة العليا.

المادة الثالثة والعشرون: لا تعد مذكرات اللجان قانونية إلا إذا اجتمع نصف أعضائها على الأقل، وإذا كررت الدعوة اكتفي بمن حضر.

المادة الرابعة والعشرون: للجنة كل فرع الحرية التامة في أعمالها إلا ما قيدتها به قرارات اللجنة العليا أو المؤتمر العام.

المادة الخامسة والعشرون: على لجان الفروع أن ترسل إلى اللجنة العليا كل ثلاثة شهور كشفاً يحوي أسماء الذين دخلوا في خلال هذه المدة في الحزب، وأسماء الخارجين منه وسبب خروجهم، والمتنقلين من مكان إلى مكان، وكشفاً آخر يحوي بيان أعمالها في المدة المذكورة.

المادة السادسة والعشرون: على اللجنة العليا أن تراقب سير أعمال لجان الفروع وحسن تنفيذ قوانين الحزب.

المادة السابعة والعشرون: على اللجنة العليا أن تهيئ لائحة عن الحزب وأحواله، بناءً على ما يرد إليها من اللوائح والكشوف من لجان الفروع وترفعها إلى المؤتمر العام.

المادة الثامنة والعشرون: تجتمع الجمعيات العمومية والمؤتمر العام في مواعيدها المقررة حسب المادة (١٥)، ويرأسها في كل مكان رئيس اللجنة الإدارية، وأما المركز العام فينعقد برئاسة اللجنة العليا.

المادة التاسعة والعشرون: تنظر كل جمعية عمومية في نتيجة الحسابات وفي بيان لجنة الإدارة عن أعمالها في السنة الماضية، وتصادق على الحسابات الختامية، وتقرر ما يجب العمل به في السنة المقبلة، وتنتخب نصف أعضاء مجلس الإدارة وتفض بعد انتهاء عملها.

المادة الثلاثون: على سكرتير كل لجنة إدارية أن يقوم بضبط المحاضر ومقررات الجمعية العمومية. وعلى سكرتير اللجنة العليا ومساعديه أن يقوموا بضبط أعمال المؤتمر العام.

المادة الحادية والثلاثون: من خصائص المؤتمر العام الاطلاع على بيان اللجنة العليا عن أعمال الحزب في السنة الماضية، ورؤية حساباتها والتصديق عليها، والمذاكرة في كل ما يرفع إليه عن أعمال السنة المقبلة وتقريرها.

المادة الثانية والثلاثون: كل تغيير وتبديل في برنامج الحزب السياسي الأساسي من حقوق المؤتمر العام، ولا يتم ذلك إلا بطلب تحريري من اللجنة العليا أو لجنة من لجان الفروع، ويعمل بغالبية الآراء.

المادة الثالثة والثلاثون: على اللجنة العليا ولجان الفروع تنفيذ ما يقرره المؤتمر العام، كل منها فيما يخصه[١].

وأخذت جريدة المنار[٢]، - وصاحبها عضو من أعضاء هذا الحزب - على عاتقها أمر الدفاع عن مبادئه، ونشر بياناته، وشرح مبادئه، والطعن في مبدأ مركزية الحكم الذي

---

(١) ثورة العرب مقدماتها أسبابها نتائجها، أحد أعضاء الجمعيات، ٥٧ - ٦٢، مطبعة المقطم، مصر، ١٩١٦م.
(٢) جريدة المنار، رشيد رضا، المجلد ١٦، الجزء ٨، ص٦٣٤ - ٦٤٠ وفي صفحات متعددة من المجلة.

اتخذه الاتحاديون خطة لهم[1].

إن برنامج جمعية اللامركزية يلتقي مع مبادئ جمعية الحرية والائتلاف، ولكن يزيد عليها بكونه أكثر وضوحاً ودقة في تحديد حقوق العناصر.

وقد قال رشيد رضا عن منهج الجمعية اللامركزية: (يجب أن يكون طلاب الإصلاح كافةً على رأي واحد في القواعد الإجمالية التي تطلب من الحكومة المركزية، لأن التفرق ضعف والاجتماع قوة، وحزب اللامركزية الإدارية في مصر لم يتعرض في برنامجه للتفصيل، لأن الاتفاق عليه متعذر، فعسى أن يكون هو الجامع للجميع)[2].

وكان لحزب اللامركزية دور مهم في مؤتمر باريس العربي فقد قررت لجنة المؤتمر أن ترتبط هذه اللجنة بحزب اللامركزية الإدارية في مصر بصفة رسمية، وفي تاريخ ٤ نيسان أرسلت كتاباً إلى اللجنة العليا لحزب اللامركزية الإدارية في القاهرة تعرض عليها فيه أن تكون لجنة الحزب قدوة المؤتمر ومصدر عمله، وتقترح عليها انتخاب من يمثلها في المؤتمر وأنها ستعهد برئاسته إلى أحد ممثلي الحزب.

ومما جاء في الرسالة: (إلى رئاسة حزب اللامركزية وأعضائه الكرام: نحن الجالية العربية في باريس، نقدم إليكم عواطف الشكر والمنة لتأليفكم حزب اللامركزية الإدارية، فقد جمعتم في برنامجكم الأماني التي يرتادها أبناء العرب لسعادتهم وترقيهم في كل حين.... ذلك ما حمل الجالية على الاجتماع والبحث عن التدابير الواجب اتخاذها لوقاية الوطن المحبوب من الطوارئ، وإصلاح أمور بلادنا على قاعدة اللامركزية.... فتكرموا علينا بالمؤازرة برأيكم حتى إذا كانت فكرة المؤتمر صالحة في نظركم بعثتم ممثلاً عن مركزكم لنبوئه المكانة الرفيعة، ونعضده على الغاية المنشودة.

---

(١) العرب والترك، توفيق برو، ٣٥٩.

(٢) جريدة المنار، رشيد رضا، المجلد ١٦، الجزء ٤، ص٢٨٠.

وقد جاء رد الجمعية اللامركزية بما يلي: حضرات أعضاء لجنة المؤتمر العربي الكرام في مدينة باريس: تلقت اللجنة العليا لحزب اللامركزية بكل سرور وامتنان ما جاء في كتابكم الكريم من اعتمادكم على إخوانكم من أعضائها وإقراركم الانضمام إليها، وأن يكون المؤتمر الذي عزمتم على عقده باسمها وللغرض الذي تألف الحزب لأجله هو اللامركزية الإدارية... وقد أقرت على إرسال مندوبين من قبلها لحضور المؤتمر على أن يكون لهم حق النظر والمشاركة معكم في موضوعات المؤتمر حتى تكون موافقة لمبادئ الحزب وبرنامجه)[1].

ومن أبرز موضوعات المؤتمر العربي الأول: ضرورة الإصلاح على قاعدة اللامركزية، الذي أكد فيه على أن المطالبة بالحكم اللامركزي لا يعني الانفصال عن الترك، وإنما يريدون به إصلاحاً ينهض بالبلاد من عثرتها، حتى ولو كانت الهيئة الحاكمة اليوم من صميم قريش.

فطالبو اللامركزية ينادون بحكومة يتساوى فيها جميع العثمانيين في الحقوق والواجبات، فلا يستأثر فريق بحق من الحقوق، ولا يحرم فريق من حق من الحقوق، لا بداعي الجنس، ولا بداعي الدين، عربياً كان أم تركياً، أرمنياً أم كردياً، مسلماً أم مسيحياً، إسرائيلياً أم درزياً[2].

إن اشتراك النصارى في الجمعيات القومية، أو حتى في تأسيسها مسألة معروفة جيداً. ولكن اشتراك اليهود ووضع اعتبار لهم في تلك التشكيلات مسألة مريبة في تلك الجمعيات القومية، وبناء على تحقيق مبدأ اللامركزية في الحكم نرى الدكتور (نسيم

(١) المؤتمر العربي الأول، صور عن اللجنة العليا لحزب اللامركزية بمصر، القاهرة، ١٣٣١هـ، ١٩١٣م.

(٢) المؤتمر العربي الأول، صور عن اللجنة العليا لحزب اللامركزية، ٩٨، ١٠٦.

ملول) أحد سكان يافا اليهود ينضم عضواً عاملاً إلى تشكيلات حزب اللامركزية منذ عام ١٩١٣م (١٣٣١هـ).

ونرى محمد الشنطي - أحد معتمدي اللامركزية - يكتب من فلسطين إلى مركز الحزب في القاهرة بأنه أدخل بعض اليهود في عضوية اللامركزية(١).

وأثناء انعقاد المؤتمر العربي الأول في باريس عام (١٩١٣م) تجاهل المؤتمر أمر الخطر الصهيوني على فلسطين مع أنه وردت إلى المؤتمر عشرات رسائل التأييد والتنديد بالخطر الصهيوني، وقد دعا مرسلوها إلى اتخاذ موقف حازم من الهجرة اليهودية، وإن من مجموع (٣٨٨) رسالة وردت إلى المؤتمر كانت (١٣٩) رسالة وردت من فلسطين(٢).

وقد حملت جريدة (الكرمل) نداءً عاماً لكل من يهتم بمصير فلسطين جاء فيه: (أيجوز لنا يا طلاب الإصلاح أن يتمنى بعضكم في مؤتمر باريس أن يكون محط مهاجري الروملِّي(٣). في الأناضول لتخفيف الشقة عن السوريين.. قولوا كلمة لمندوبي الحكومة إن تمليك الأراضي للجمعيات الصهيونية.. يضعف القومية العربية، وبالتالي الجامعة العثمانية)(٤).

يعد أعضاءُ الجمعيات القومية الجمعية اللامركزية من الجمعيات التي ساهمت في يقظة الأمة العربية، ونادت بطرح قوي في المطالبة بحقوق العرب في الدولة العثمانية،

---

(١) أوراق محب الدين الخطيب في القاهرة.

(٢) مواقف عربية من التفاهم مع الصهيونية، [١٩١٣ - ١٩١٤م]، شؤون فلسطينية، بيروت، العدد ٣١ بتاريخ ١٩٧٤م، ص: ١٣٥.

(٣) الروملِّي: تعرف باسم بلاد الروم، وهو اسم أطلقه الأتراك على الإقليم المؤلف من: تراقيا، ومكدونيا بين البلقان والبحر الأسود، وبحري مرمرة وإيجه وسلسلة جبال البلقان. وكانت الروملِّي تؤلف ولاية واحدة بلغ عدد سناجقها (٢٤).

(٤) البعد القومي للقضية الفلسطينية، إبراهيم إبراش، ٣٠، مركز دراسات الوحدة العربية.

وذلك باتباع النظام اللامركزي[١].

إن تبني جمعية اللامركزية مقررات المؤتمر العربي الأول، قد كان له الأثر في نشر أهداف الجمعية، إلا أن موقف الدولة العثمانية من الاستجابة لقرارات المؤتمر، ومحاولة استمالة رئيس المؤتمر[٢]، كان من أبرز انهيارات الجمعية اللامركزية.

وللتوافق المنهجي بين جمعية الحرية والائتلاف التركية تأسيساً، وبين جمعية اللامركزية العربية تأسيساً، فإن الجمعيتين تدعوان إلى الحكم اللامركزي، وكان هذا من أكبر الدوافع التي جعلت جمعية الاتحاد والترقي تبطش بأعضاء الجمعية اللامركزية. فعمدت جمعية الاتحاد والترقي إلى مراقبة نشاط أعضاء جمعية اللامركزية.

وخلال البحث والمراقبة عثرت جمعية الاتحاد والترقي على وثائق تدين بها أعضاء جمعية اللامركزية، واتفق أن كان هناك رئيس الائتلافيين صادق بك، وكان يتردد على رفيق العظم - رئيس الجمعية اللامركزية - فجرى بينهما شبهُ اتفاق بحيث يكون الحزبان معاً على قلب الاتحاديين، وأنهم إذا توافقوا أقاموا صدراً أعظم[٣].

---

(١) القومية العربية، مصطفى الشهابي، ٨٠. وانظر:
١ - مجلة دراسات تاريخية، مقال سهيلة الريماوي، العدد الحادي عشر، ربيع الثاني ١٤٠٣هـ، ص١٥٢.
٢ - الحركة العربية، سليمان موسى، ٣٤.
٣ - الحكومة العربية في دمشق، خيرية قاسمية، ٢١.

(٢) انظر:
١ - مذكراتي على هامش القضية العربية، أسعد داغر، ٦٥، ٦٧. وكان من نتائج قرارات المؤتمر: عدم قبول المناصب في الدولة العثمانية، وقد قبل عبدالحميد الزهراوي عضويةً في مجلس الأعيان.
٢ - مجلة دراسات تاريخية، العددان الخامس عشر والسادس عشر، ١٩٨٤م، مقال سهيلة الريماوي، صفحات من تاريخ الجمعيات.

(٣) الإيضاحات عن المسائل السياسية، جمال باشا، ٤٤.

ولقد اعترف أحد مؤسسي الجمعية اللامركزية بأن الاتفاق الأول بين اللامركزية والائتلافيين كان بقصد إقامة وزارة ائتلافية في أثناء الحرب البلقانية لتكون عوناً على تنفيذ هذه الغاية التي هي من متممات تقسيم الدولة العثمانية.

ومن الأمور التي أُدينت بها جمعية اللامركزية: اتصال الإنكليز - سنة ١٩١٤م (١٣٣٢هـ) وقبل نشوب الحرب العالمية الأولى - بالجمعية اللامركزية من أجل أن تقوم الجمعية اللامركزية باستطلاع مواقف زعماء العرب، والكشف عن الخطة التي يسيرون عليها. وأنشأ الإنكليز اتصالات محدودة مع قادة حزب اللامركزية بمصر، وكان رشيد رضا وكيل الحزب، ورفيقُ العظم رئيسَه، ومحبُّ الدين الخطيب[١] مساعدَ أمينه العام[٢].

وبناء على هذه القضايا نفذت جمعية الاتحاد والترقي حكم القتل في بعض أعضاء اللامركزية، وذلك في سنة ١٩١٥م (١٣٣٣هـ) وعدّوه من الأحزاب الثائرة على الدولة[٣]، وانفرط عقد الجمعية اللامركزية سنة ١٩١٦م (١٣٣٤هـ)[٤].

ومن خلال تتبع آراء مؤسسي الجمعية اللامركزية نجد التناقض في منهجية الحكم والسياسة، فمن المؤسسين للجمعية شبلي شميل وهو نصراني المعتقد[٥]، والذي إليه يعزى نشر مذهب النشوء والارتقاء في الشرق العربي، وقد وصف هذا المذهب فقال: (والحق أَنَّ فَضْلَ داروِنَ العظيمِ ليس في فِكْرةِ وضع أساسِ هذا المذهب، بل بتأييدِه له بالأدلة العلمية الطبيعية، وجَعْلِه صالحاً لأن يطبق على الأحياء وحدها، بل لأن يشمل الطبيعية كلها)[٦].

---

(١) انظر الترجمة رقم (٥٨).

(٢) أسرار الثورة العربية الكبرى، أمين سعيد، ٣٧، ٣٨، دار الكاتب العربي.

(٣) القومية العربية، مصطفى الشهابي، ٨٢.

(٤) مجلة دراسات تاريخية، العددان الخامس عشر والسادس عشر، ١٩٨٤م.

(٥) انظر الترجمة رقم (٣٥).

(٦) المعاصرون، محمد كرد علي، ٢٤٦، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٤٠١هـ.

وقد تبنى شبلي شميل المبدأ الاشتراكي في الحكم، فقد قال: (إن الاشتراكية نتيجة لازمة لمقدمات ثابتة لا بد من الوصول إليها، لو بعد تذبذب طويل. الاشتراكيةُ كالاجتماع نفسه ذاتُ نواميس طبيعية تدعو إليها). وفي مقابل دعوته إلى الاشتراكية، هاجم الدين، فقال: (إن أوربا أصبحت قوية عندما حطم الإصلاح الديني والثورة الفرنسية سيطرة رجال الدين على المجتمع)[(١)].

ولوجود أعضاء نصارى في الهيئة الإدارية للجمعية تأثيرٌ على منهج فكرة اللامركزية في الحكم، وقد بين رئيس الجمعية أن الأعضاء المسيحيين يستدرجوننا إلى الرضا بالاحتلال الفرنسي والعمل له، وأن أمين سر الجمعية أخبره: بأنه أتى رجل مسلم غير معروف إلى خليل - خليل أيوب وهو نصراني - يقول له: (لماذا أنتم تشتغلون مع رفيق - رفيق العظم رئيس الجمعية - وأصحابه؟ فقال له: نحن نريد أن نتخذ هؤلاء المسلمين آلة للاحتلال الفرنسي)[(٢)].

ومطالبة الجمعية اللامركزية بالحكم المركزي تختلف مبررات المؤسسين لهذا المطلب، فمنهم من يرى أن اللامركزية داخل الحكم العثماني، الذي هم أصحاب الملك[(٣)]، وأن كل ولاية من ولاياتها تعد جزءاً من السلطنة، لا ينفك عنها بحال من الأحوال[(٤)].

بينما هناك رأي آخر يرى بأن الدولة ليست علاقتها بنا - العرب - حتى اليوم علاقة غاصب، سالب، ناهب، طامس[(٥)]. فإن كانت حكومتنا تظن أنها تستطيع أن تحكمنا

---

(١) العرب والعثمانيون ١٥١٦، ١٩١٦، عبدالكريم رافق، ٥١٨، أطلس، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٧٤م.
(٢) مجلة دراسات تاريخية، العددان الخامس عشر والسادس عشر، ١٩٨٤م، مقال سهيلة الريماوي.
(٣) مجلة دراسات تاريخية، العددان الخامس عشر والسادس عشر، ١٩٨٤م، مقال سهيلة الريماوي.
(٤) مجلة المنار، مجلد ١٦، ج٢، فبراير١٩١٣م، ص٢٢٧. وهو نص البيان.
(٥) معنى الكلمات التالية:

١. سالب: السلب هو ما يأخذه أحد القرنين في الحرب من قرنه مما يكون عليه ومعه من سلاح وثياب ودابة وغيرها، وهو فاعل بمعنى مفعول: أي مسلوب وفيه حديث: (من قتل قتيلاً فله سلبه) النهاية=

اليوم كما حكمتنا في الماضي، ولم تخش انتفاضتنا عليها، أفلا تخشى الذين ينازعونها البقاء من خارج وهي بهذا الضعف وهم بتلك القوة[1]. وحينما تختلف مبررات المطالبة بالحكم اللامركزي يختلف المنهج والأسلوب في تحقيقه وتنفيذه.

٥) جمعية العهد:

في أثناء فترة تقديم قرارات المؤتمر العربي الأول إلى الدولة العثمانية، واستبطاء الإصلاحات التي قدمها أعضاء الجمعيات القومية للدولة، ظهرت جمعية العهد في سنة ١٩١٣م.

فكان ظهور جمعية العهد والعلاقات بين الترك والعرب متأزمة، وأيضاً كان البرنامج الإصلاحي المقدم من جمعية اللامركزية لم يرق للمتطرفين من شبان العرب وضباطهم الذين رأوا أن يكون الإصلاح تاماً، وأن ينجز لا بالتدرج بل فوراً، وأن يسير على نظام اللامركزية التامة[2].

وقد تولى تنظيمَ وإنشاءَ جمعية العهد عزيزُ بن علي المصري، الذي عين في هيئة أركان حرب الجيش الثالث في مقدونية. وهناك انضم إلى جمعية الاتحاد والترقي، وكان أحد الضباط الذين قادوا الثورة العسكرية سنة ١٩٠٨م، واشترك في الزحف على القسطنطينية. وكان نفوذه أعظم كثيراً من مستوى رتبته العسكرية، وسبب ذلك أنه كان يحاضر في وقت ما في كلية الأركان، فاستطاع أن يستميل قلوب الجيل الناشئ من ضباط

=في شرح غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، ٢/ ٣٨٧ مادة (سلب) أنصار السنة المحمدية، باكستان).

٢. النهب: الغارة والسلب، ومنه قول الرسولﷺ: (ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس إليها أبصارهم وهو مؤمن)، النهاية في شرح غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، ٥/ ١٣٣ مادة (نهب) وانظر: لسان العرب، ابن منظور، ١/ ٧٧٣، مادة (نهب)، دار صادر، بيروت.

(١) جريدة الأهرام، ١٠٥٧٨ في ١٧/ ١٢/ ١٩١٢م (نقلًا من كتاب العرب والترك ٣٦٢).

(٢) العرب والترك، توفيق برو، ٤٥٢.

الجيش. فأنشأ جمعية العهد، ولم يقبل فيها من المدنيين أحداً.

ولما كان العنصر العراقي أكثر العناصر عدداً في الجيش العثماني لذلك كان له قوته في مجالس جمعية العهد، وأنشأ لها فروعاً في بغداد والموصل(١). وقد تولى أمين سر جمعية العهد رشدي بن صالح ملحس(٢)(٣).

والصفة الأخرى لجمعية العهد أنها سرية، وتربط بينها وبين الجمعيات الأخرى - كالجمعية اللامركزية خاصةً -، روابطُ تحقيق الأهداف من الحكم اللامركزي.

ويرى أعضاء الجمعيات أن إنشاء هذا الحزب قد أحدث ضجة شديدة في دوائر الآستانة، لما عرف عن مؤسسه من الصلابة والقوة ولأنه تأسس في ظرف توترت فيه الصلات بين الاتحاديين والشبيبة العربية، وأنه لقي تأييداً من الشبان الضباط العرب الذين التفوا حوله(٤).

» مبادئ وتنظيم الجمعية:

إن الخطوة التي سعى إليها أعضاء الجمعيات القومية عند تأسيس جمعية خاصة بالقطاع العسكري تنبئ بأن مرحلة الوفاق بين العرب والترك قد انتهت. جرى تأسيس هذه الجمعية السرية التي أقسم أعضاؤها على أن لا يبوحوا بشيء عنها، وأن يعملوا لإدراك أغراضها. ووضع لها برنامجٌ يتناسب مع تخصّص أعضائها جاء فيه:

المادة الأولى: إن جمعية العهد جمعية سرية، أنشئت في الآستانة، وغايتها السعي للاستقلال الداخلي لبلاد العرب، على أن تظل متحدة مع حكومة الآستانة اتحاد المجر

(١) يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ١٩٦.
(٢) انظر الترجمة رقم (٢٦).
(٣) الأعلام، الزركلي، ٣/ ٢١.
(٤) الثورة العربية الكبرى، أمين سعيد، ٤٧.

مع النمسا. وهذه المادة تتوافق مع المبدأ العام في تأسيس الجمعيات القومية العربية، وهو الدعوة إلى الحكم اللامركزي.

المادة الثانية: ترى جمعية العهد ضرورة بقاء الخلافة الإسلامية وديعة مقدسة بأيدي آل عثمان، مع سلب حقيقة ومضمون الخلافة الشرعية كمرحلة أولية وتَعْقُبها المرحلةُ النهائية وهي إلغاء الخلافة، كما سأبينه إن شاء الله في الباب الثالث.

المادة الثالثة: لما كانت الجمعية تعتقد أن الآستانة رأس الشرق وأن الشرق لا يعيش إذا اقتطعتها دولة أجنبية، فهي تُعنى عناية خاصة بالدفاع عنها وتعمل للمحافظة على سلامتها.

المادة الرابعة: لما كان الترك يؤلفون من ٦٠٠ سنة المخافر الأمامية للشرق أمام الغرب، فعلى العرب أن يعملوا للحصول على ما يؤهلهم لأن يكونوا القوى الاحتياطية الصالحة لهذه المخافر.

المادة الخامسة: على رجال العهد أن يُفْرِغوا قصارى جهدهم في إنماء المزايا المحمودة، وبث الدعوة للتمسك بالأخلاق الفاضلة، فالأمة لا تحتفظ بكيانها السياسي القومي ما لم تكن مجهزة بالأخلاق الصالحة القويمة[1].

وقد استنتج بعض من كتب عن هذه الجمعية بأن مفهوم استقلال العرب عن الدولة العثمانية، ليس واضح المعالم عند عزيز علي مؤسس الجمعية، مما يؤكد أن صفة الارتجال هي التي كانت تطبع جمعية العهد[2].

---

(١) الثورة العربية الكبرى، أمين سعيد، ٤٧.
(٢) العرب والترك، توفيق برو، ٤٥٤.

ولذا كان أعضاء الجمعية قد تطلعوا من خلال برنامجهم إلى المحافظة على العروبة والإسلام؛ الإسلام من خلال الاحتفاظ بالسلطنة والخلافة؛ والعروبة من خلال إعلان الاستقلال الذاتي، لا الإداري فحسب، بل السياسي أيضاً للولايات العربية. إذا أرادوا أن يكون للعرب دولة تجسم ذاتيتهم وقوميتهم، على أن تكون هذه الدولة في نطاق دولة أكبر هي الدولة العثمانية. ويكون السلطان - الخليفة - سلطاناً للعثمانيين من عرب وترك، وملكاً للعرب في آن واحد. وبذلك تقوم مملكة عربية مستقلة، ويعود الملك العربي قائماً بذاته، ولكن هذه المملكة تبقى متصلة بالتاج العثماني، وبسائر الأجزاء العثمانية الأخرى في الشؤون العامة المشتركة[1].

ويذهب [عزيز علي] إلى أنّ كل جماعة من جميع القوميات المختلفة يجب أن تبتكر النظام الأنسب لها في الحكم. وأما قضية الدين وما يتعلق به من شرائع وأحكام فقد قال بوجوب التسامح الديني إلى أبعد حد في النظام الجديد، وأن معرفة الله من قبل جميع الطوائف يمكن أن تكون القاسم المشترك بينها، فيستغني عن بقية التفاصيل مع الزمن ومع الرقي، وبهذه الكيفية تتوحد الأديان واللغات[2].

إن قضية الدين التي هي في ميزان الله أهم القضايا وأول الضرورات، وقد اتفقت الأمة بل سائر الملل على أن الشريعة وضعت للمحافظة على الضروريات الخمس: وهي الدين، والنفس، والنسل، والمال، والعقل[3].

وهذه الضروريات الخمس والتي من أهمها الحفاظ على الدين، هي من الضروريات التي لا بد منها في قيام مصالح الدين والدنيا، بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا

---

(١) المصدر نفسه، ٤٥٢ بتصرف.

(٢) المصدر نفسه، ٤٥٤.

(٣) الموافقات في أصول الشريعة، ١/ ٣٨.

على استقامة، بل على فساد وتهارج وفوت حياة، وفي الأخرى فوت النجاة والنعيم، والرجوع بالخسران المبين[١].

فمبدأُ جمعيةِ العهد الحِرصُ والمطالبةُ الشديدةُ والتنظيمُ الدقيقُ على الحكم واستقلالُ البلاد العربية، وأما القضية الأساسية في الحياة وهي (الدين) تترك للزمان والرقي ويكتفى بمعرفة الله. ولأهمية هذه القضية وغيرها من القضايا العقائدية خصص لها باب مستقل لمناقشتها.

إن تنظيم جمعية العهد ظهر بصورة تناسب التنظيم العسكري فهي جمعية سرية، وقد كان لها أثر في البلاد العربية[٢]، ومن أبرز الآثار ما يلي:

١) وجود علاقة ببعض أعضاء جمعية الاتحاد والترقي:

كان لجمعية العهد: علاقة ببعض أعضاء جمعية الاتحاد والترقي، فحينما تم اعتقال عزيز علي[٣]، كان من ضباط الترك من يخلص إليه، ويعطف على قضيته، منهم الضابطان مصطفى كمال بك (أتاتورك فيما بعد)، وفتحي بك، سكرتير جمعية الاتحاد والترقي، اللذان صادقهما في طرابلس الغرب. وقد جاء في جريدة المؤيد أنهما بعثا ببرقيتي احتجاج إلى أنور بك لاعتقاله إياه[٤].

وبعد وفاة الملك فيصل بن الشريف حسين: تم اجتماع بحضور كمال أتاتورك، ونوري السعيد، وقد أبلغ أتاتورك نوري السعيد أن الوقت قد حان بعد وفاة الملك فيصل

---

(١) المصدر السابق نفسه، ٢/ ٨.
(٢) انظر القومية العربية، مصطفى الشهابي، ٨٠.
(٣) انظر: مذكراتي على هامش القضية العربية، ٤٩.
(٤) العرب والترك، توفيق برو، ٤٥٦.

أن تتفقوا على زعامة ياسين الهاشمي[١]، الذي كان زميلًا لأتاتورك على مقاعد الدراسة العسكرية، فوافق السعيد، وتشكلت وزارة ياسين الهاشمي عام ١٩٣٥م (١٣٥٣هـ)[٢].

٢) تأييد ثورة الشريف حسين على الدولة العثمانية:

بلغ عدد الأعضاء المشاركين ٣١٥ ضابطاً من جملة ٤٩٠ ضابطاً[٣]، وبلقاء سري تم بين أبرز المؤسسين لجمعية العهد مع الشريف فيصل بن الحسين قدموا له قراراً اتخذته الجمعية، وهو إعلان الثورة ضد الدولة العثمانية، وأن غاية العرب هو الاستقلال حفاظاً على كيان البلاد العربية أعداء الترك، أما إذا كانت البلاد عرضة لخطر الاستعمار الأوربي فالجمعية تعمل مع أحرار العرب للدفاع عن البلاد العربية جنباً إلى جنب مع الترك.

أبلغت جمعية العهد الشريف فيصل بن الحسين بأن سوريا لا تحتاج إلا إلى عزم الحسين على ترؤس الحركة التحريرية[٤].

وقد تم في هذا اللقاء انضمام الشريف فيصل إلى الجمعية، وقد أعجب فيصل إعجاباً شديداً بتنظيم جمعية العهد، إذ كان زعماؤها قادرين على أن يوقدوا نار الثورة في صفوف الجيش حينما يشاؤون، وذلك لأن الجنود العرب كانوا الأكثرية الغالبة في الفرق العثمانية المعسكرة في بلاد الشام حيئنذ، كان قوادهم ومعظمهم أعضاء في الجمعية مستعدين أن يلبوا نداء هؤلاء الزعماء فيزحفوا مع جنودهم[٥].

---

(١) انظر الترجمة رقم (٧١).
(٢) دولة الاستعارة القومية، حسن العلوي، ٨٠، دار الزوراء، لندن، ١٤١٤هـ
(٣) الحركة العربية، سليمان موسى، ٣٤.
(٤) مذكراتي عن الثورة العربية، أحمد قدري، ٣٨، دمشق، ١٩٥٦م.
(٥) يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ٢٤١.

٣) تقديم مشروع حدود البلاد العربية خلال الحرب العالمية الأولى:

قدمت جمعيتا (العهد) و(الفتاة) لفيصل بن الحسين خطة عمل اتفقتا عليها. ووضعوا ميثاقاً يتضمن الشروط التي يطالب الزعماء العرب بتحقيقها لكي يؤازروا بريطانية العظمى على تركية، واتفقوا على أن يحمل فيصل هذا الميثاق إلى مكة ويطلب من والده أن يعرف من الحكومة البريطانية: هل تقبل هذه الشروط أساساً للعمل المشترك...؟ وقد استخدم الشريف حسين نصوص الميثاق حينما استأنف مباحثاته مع بريطانية العظمى[١].

٤) مناصرة أعضاء جمعية العهد لحكومة الشريف فيصل:

ومن آثار جمعية العهد خلال الثورة ضد الدولة العثمانية: أن عزيز علي المصري عهد إليه بالمسؤولية المترتبة على الشؤون العسكرية والسيطرة الفعلية على العمليات الحربية، وبدأ بتكوين جيش مدرب نظامي[٢].

وقد كان لأعضاء جمعية العهد دور في تنظير السياسة العسكرية لبعض البلاد العربية، ويُخَصُّ من أعضاء جمعية العهد الضباطُ العرب العراقيون، فقد شكلوا نسبة كبيرة في الجيش العربي، وكان على رأسهم الفريق جعفر العسكري[٣] الذي عين قائداً عاماً لجيش الحجاز. وكان معظم هؤلاء الضباط في جيش فيصل بن الحسين الذي دخل سوريا وحررها أثناء الحرب وأقام حكومة عربية[٤].

---

(١) المصدر السابق نفسه، ٢٤٣، ٢٤٤.
(٢) الحكومة العربية في دمشق، خيرية قاسمية، ٣١.
(٣) انظر الترجمة رقم (١٥).
(٤) تأسيس الجيش العراقي، رجاء حسين الخطاب، ٢٣، الدار العربية، بغداد، الطبعة الثانية، ١٩٨٢م.

ومن أعضاء جمعية العهد ياسين الهاشمي الذي شغل منصب رئيس هيئة أركان الجيش العربي، في حكومة الملك فيصل بن الحسين[(١)]. وقد طرح ياسين الهاشمي خلال فترة رئاسته في آذار ١٩٣٥م برنامجاً برزت فيه الاتجاهات الآتية:

١) التأكيد على الوحدة الوطنية وتجاوز التناقضات القبلية والطائفية.

٢) التأكيد على الوحدة العربية، والتلويح بإمكانية الاستفادة والاقتداء بالنظامين الألماني والإيطالي، كنموذج لنظام الحكم في العراق، وتبني تنشيط العلاقات بين العراق والأقطار العربية.

٣) إيجاد تحالف سياسي مع بعض الأطراف السياسية التقليدية الأساسية (جعفر العسكري، نوري السعيد، رشيد عالي)[(٢)].

٥) مناصرة بعضهم لبعض في العمل القومي:

شُكِّلَت في العراق حكومةٌ انتقالية برئاسة عبدالرحمن النقيب[(٣)]، تضمنت وزارة للدفاع أسندت إلى الفريق جعفر العسكري، الذي أخذ على عاتقه استدعاء زملائه المشتتين في سوريا والحجاز. وأولئك الذين انسحبوا مع الجيش العثماني من العراق أمام الحملة البريطانية، أو أولئك الذين تركوا الجيش العثماني وبقوا في العراق[(٤)]. وبسبب هذا التجمع القومي في الجيش العراقي ظهرت كتلة من الضباط أطلقت على نفسها كتلة الضباط القوميين سنة ١٩٢٧م (١٣٤٦هـ)[(٥)].

(١) الحكومة العربية في دمشق، خيرية قاسمية، ١٤٣.

(٢) تأسيس الجيش العراقي وتطور دوره السياسي من ١٩٢١ - ١٩٤١م، رجاء حسين الخطاب، ١١٩.

(٣) ولد سنة ١٨٤١م، من أسرة تنسب إلى الطائفة القادرية، وتوفي سنة ١٩٢٧م. انظر (وجوه عراقية، توفيق السويدي، ٣٤).

(٤) المصدر نفسه، ٢٥.

(٥) المصدر نفسه، ٥١.

وحينما رفضت الحكومة البريطانية استقلال العراق، وبدأت الدعاية القومية، وكانت أكبر حملات الدعاية تلك التي قامت بها جمعية العهد العراقي في الموصل، التي أدخلها جميل المدفعي[(١)]، وهو مواطن من الموصل، وعضو في حكومة فيصل. وكانت الجمعية على اتصال بالجمعية الأم في دمشق، وتشمل عدداً كبيراً من المثقفين، وتظهر عداوة للإدارة البريطانية على شكل احتجاجات ومنشورات ضد الحكومة تدعو للثورة، وتطور النشاط القومي من الاستياء إلى التحدي الصريح[(٢)].

٦) الوصول إلى رئاسة الدولة:

ومن أخطر آثار جمعية العهد أن بعض أعضاء الجمعية، والجمعيات القومية العربية الأخرى، قد وصل إلى رئاسة بعض الدول العربية[(٣)]. أمثال فيصل بن الحسين، ونوري السعيد[(٤)]، وتوفيق السويدي[(٥)]، وجميل المدفعي[(٦)]، وهاشم الأتاسي، وشكري القوتلي[(٧)].

ومنذ سنة ١٩١٤م قبيل الحرب العالمية الأولى، شعرت حكومة الاتحاد والترقي بتكتل ضباط من العرب في حزب سياسي، فعُقِدَ اجتماع خاص في دار وزارة الحربية

---

(١) انظر الترجمة رقم (١٦).

(٢) الحكومة العربية في دمشق، خيرية قاسمية، ١٨٨.

(٣) ينظر عن تولي بعض أعضاء جمعية العهد رئاسة بعض الدول:

١. العراق وقضايا الشرق العربي القومية، ممدوح الروسان، ١١.

٢. خبراتي في الحكم، حسن الحكيم، ٧، ٢٧، مجلة الشريعة، عمان، الطبعة الأولى، ١٣٩٨هـ.

٣. تأسيس الجيش العراقي وتطوره السياسي من ١٩٢١ - ١٩٤١م، رجاء الخطاب، ١١٩

٤. الحكومة العربية في دمشق، خيرية قاسمية، ١٨٨.

٥. مذكراتي نصف قرن من تاريخ العراق والقضية العربية، توفيق السويدي، ٢٣، دار الكتاب العربي.

(٤) انظر الترجمة رقم (٦٩).

(٥) انظر الترجمة رقم (١٢).

(٦) العراق وقضايا الشرق العربي القومية ١٩٤١ - ١٩٥٨م، ممدوح الروسان، ١١ - ١٢.

(٧) خبراتي في الحكم، حسن الحكيم، ٩ - ١٩.

حضره الصدر الأعظم سعيد حليم باشا، فدرسوا التدابير الواجب اتخاذها لمقاومة الحركة العربية خاصة وجمعية العهد عامة، وقرروا المواد الآتية:

١ - إقصاء الضباط العرب المقيمين في الآستانة، وعددهم كما ظهر من كشوف وزارة الحربية ٤٩٠ ضابطاً ينتمي ٣١٥ منهم للعهد. إلى المناطق التركية، كالأناضول[١]، فلا يعود في إمكانهم القيام بأي عمل يساعد على زيادة الجفاء بين العرب والترك.

٢ - تولية القيادة في البلاد العربية إلى الضباط الترك، وإقصاء الضباط العرب عنها والاستغناء عن خدمتهم بقدر الإمكان.

٣ - الإسراع في تنفيذ سياسة تتريك العناصر.. إلخ[٢].

فبعثرت جمعية الاتحاد والترقي كبار الضباط في الولايات التركية وسلبتهم قيادة الجند في الولايات العربية، وفي سنة ١٩١٦م (١٣٣٤هـ) قتلت من أعضاء جمعية العهد[٣] وانحلت عرى الجمعية بعد زوال الحكومة العربية الفيصلية من الشام، فقد لبث كثير من ضباطه يعملون فرادى في الحركات القومية[٤].

٦) الجمعيات الإصلاحية:

أنشئت جمعيات قومية تنادي بإصلاح البلاد العربية، وكان هذا سنة ١٩١٢م، وبروز هذا المسمى (الإصلاحية) كان من آثار الجمعية اللامركزية.

---

(١) الأناضول: شبه جزيرة وهي على امتداد الغرب من قارة آسيا. وهي تشكل ٩٧٪ من أراضي تركيا في الوقت الحاضر. ويطلق اسم الأناضول اليوم على الأراضي التركية الواقعة في آسيا. انظر: دائرة المعارف الإسلامية، مادة الأناضول، ٣/ ١٠٦.

(٢) الثورة العربية الكبرى، أمين السعيد، ١/ ٤٧.

(٣) القومية العربية، مصطفى الشهابي، ٨٠.

(٤) انظر عن أبرز أسماء أعضاء جمعية العهد: نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ٤٧٨.

وظهور الجمعيات الإصلاحية كان في ظرف سقوط حكومة الاتحاد والترقي، وقيام حكومة معارضة له برئاسة أحمد مختار باشا، وكان من أركانها كامل باشا. فنشأت الجمعيات الإصلاحية في بيروت، ودمشق، وحلب، وبغداد، والبصرة[١].

تختلف آراء بعض الكتاب في سبب نشأة هذه الجمعيات الإصلاحية، فمنهم من يذهب إلى أن سبب النشأة هو طلبُ والي بيروت رفعَ تقريرٍ إلى الحكومة الجديدة بما يدور على ألسنة الناس والصحف من اهتمام باللامركزية وتطلُّعٍ إليها. فأصدرت الحكومة أمراً إليه، ثم إلى ولاة البلاد العربية الأخرى وغيرها تأمرهم بأن يطلبوا من أعيان البلاد ومستنيريها تنظيم وتقديم لوائح بمطالبهم، فكان ذلك وسيلة لقيام جمعيات باسم (الجمعيات الإصلاحية)[٢].

ومن الكتاب من يعلل سبب تأليف جمعيات الإصلاح بقوله: (لما كانت أكثرية سكان بيروت من الموارنة فقد أوجس مسلمو بيروت - وهم أقلية - شراً من الحركة الجديدة التي ظهرت في فرنسا إزاء سورية، وخافوا من أن تستغل الأكثرية الموارنة وهي معروفة بالعطف عليها، ولما ظهر من عجز الدولة وخوفاً من أن تحتل فرنسا البلاد متذرعة بسوء الإدارة وبما لها من نفوذ أدبي ومصالح اقتصادية، فاجتمع أعيان بيروت وكبارها ونوابها وبحثوا الموقف، وأبلغوا الوالي العثماني رغبتهم في إدخال الإصلاحات العاجلة، فرفع أمرهم إلى الباب العالي[٣]، ببرقية قال فيها: (وإذا لم تأخذ بالإصلاح الصحيح فالبلاد مفلتة من يدنا لا محالة). فأجابه يومئذ الصدر الأعظم[٤]، بأن يدعوَ الشعبَ إلى تقديم

(١) نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ٣٩٩.

(٢) المصدر السابق نفسه، ٣٩٩.

(٣) الباب العالي هو: أحد المسميات في الترتيب الإداري الداخلي للدولة العثمانية، وقد كان من إنشاء السلطان محمد الفاتح، ويقصد بالباب العالي نفس الحكومة العثمانية. انظر: (تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد بك، ١٧٧)، و(معجم الدولة العثمانية، حسين مصري).

(٤) الصدر الأعظم هو: رئيس الوزراء. ينظر: (معجم الدولة العثمانية، حسين مصري).

مطالبه للنظر فيها[1].

وأياً كان السبب فإن القضية الأساسية كانت منذ نشأة الجمعيات الإصلاحية هي المطالبة بحكم لا مركزي، ولذا قدمت لوائح بالإصلاحات المطلوبة على هذا الأصل. وكان هذا المطلب يروق لحزب الحرية وائتلاف الحزب الحاكم في ذلك الوقت.

» مبادئ وتنظيم الجمعية:

بعد أن أذن الصدر الأعظم بتقديم مطالب البلاد العربية، قدمت الجمعيات الإصلاحية المطالب والتنظيمات المقترحة. ولقد كانت بيروت هي المسرح الأقوى والأبرز لهذه الحركة، حيث صارت جمعيتها هي المذكورة أكثر دون غيرها في صدد ذلك. وكان قيامها في أواخر سنة ١٩١٢م، وأعضاؤها خليطٌ من أعيان المسلمين والنصارى[2]. فعقدت أول اجتماع لها في مقر بلدية بيروت ضمت ٨٤ شخصاً (رجال أعمال، ومحامين، وصحفيين)، وفي نهاية الاجتماع تشكلت لجنة مؤقتة من ٢٥ عضواً تحددت مهمتها بلائحة المطالب الضرورية لإصلاح أوضاع الولاية ومتابعتها[3]. وهذه المطالب تحدد البعد التنظيمي لدى الجمعيات الإصلاحية، وسنذكر أبرز هذه اللوائح:

مادة أساسية: الحكومة العثمانية حكومة دستورية نيابية.

المادة الثانية: للوالي صفتان قانونيتان: الأولى تمثيل الحكومة المركزية، وتولي جميع الأعمال المتعلقة بكيان السلطنة وشؤونها الأساسية.

---

(١) الثورة العربية الكبرى، أمين سعيد، ١/ ١٨. وانظر:

١. العرب والترك، توفيق برو، ٣٦٤.

٢. الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي، وجيه كوثراني، ١٨٧.

(٢) نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ٣٩٩.

(٣) الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي، وجيه كوثراني، ١٨٨. وانظر: نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ٣٩٩

والصفة الثانية تمثيل الولاية التي يرأسها، ويتولى جميع الأعمال المتعلقة بشؤون الولاية طبقاً لقرارات المجلس العمومي.

المادة الثالثة: يؤلف في الولاية مجلس عمومي من ثلاثين عضواً ينتخب نصفهم من المسلمين، والنصف الآخر من غير المسلمين، لمدة أربع سنوات، وهم ينتخبون منهم رئيساً لهم بالاقتراع السري.

» **وظائف المجلس العمومي:**

١) تقرير جميع أعمال الولاية الداخلية والمذاكرة فيما يُعرض عليه من قبل الوالي أو لجنة المجلس أو عشرة من أعضائه.

٢) وضع الأنظمة الداخلية بشرط أن لا تمس شؤون السلطنة الأساسية.

٣) عقد القروض التي لا تتجاوز قيمتها نصف الواردات المختصة بالولاية.

٤) حق استيضاح الوالي، وطلب عزله، ولا يتداخل المجلس العمومي في الشؤون السياسية العامة مطلقاً.

المادة الخامسة: ينتخب المجلس العمومي بالاقتراع السري لجنةً من أعضائه، واحد منهم من كل لواء، واثنان من مركز الولاية لمدة سنة واحدة، فتجتمع بإدارة مستشار المجلس العمومي.

المادة السادسة: الوالي وحاكم الشرع في مركز الولاية.. تعينهم الحكومة المركزية على شرط معرفتهم اللغة العربية معرفة تامة، ويستثنى من هذا الشرط والي الولاية لمدة خمس سنوات من تاريخ وضع مواد هذه اللائحة موضع الإجراء.

المادة السابعة: تعين الحكومة المركزية مستشارين من الأجانب على شرط معرفتهم إحدى اللغات الثلاث، اللغة العربية أو التركية أو الفرنسية. وتعين أيضاً مفتشاً أجنبياً عاماً لكل لواء من الولاية يخول حق تفتيش أية دائرة كانت في اللواء، ويكون مرجعُه مستشارَ مركزِ الولايةِ الداخلةِ تلك المسألةُ المراجَعُ فيها، ضمن دائرة اختصاصه.

يعين المجلس العمومي من الدول التي ترضاها الحكومة المركزية مستشارين للدوائر الآتية: وهي مجلس الولاية العمومي والعدلية والنافعة والمعارف والبلدية والبوليس. ويلبس هؤلاء المستشارون الشعار العثماني في أوقات العمل. أما مدة الاستشارة والتفتيش فخمس عشرة سنة، ويمكن تجديدها.

المادة الحادية عشرة: لا علاقة للإدارة ولا للمجلس العمومي في الأوقاف، بل يسلم كل وقف إلى مجلس الملة المنسوب إليها لاستخدامه بموجب قانونها (بناءً عليه جميعُ أوقاف المسلمين في الولاية تسلم إلى مجلس ملَّتهم أسوة بباقي الطوائف)

المادة الثالثة عشرة: يؤلف مجلس يسمى مجلس المستشارين ويكون أعضاؤه: رئيس المجلس العمومي وجميع مستشاري الدوائر في مركز الولاية.

» وظائف مجلس المستشارين:

١) تفسير مواد النظام الذي تضعه الحكومة المركزية كدستور لحكومة الولاية ومجلسها العمومي.

٢) تفسير القرارات والأنظمة التي يضعها المجلس العمومي.

٣) النظر والحكم في وجوب عزل الموظف أو عدمه.

٤) النظر والحكم بناء على طلب الوالي أو أحد المستشارين في كل خلاف في الرأي يقع بين أحد المستشارين والمجلس العمومي، أو إحدى لجانه، أو أية دائرة كانت، ويكون

حكمه مبرماً، ويرأس هذا المجلس والي الولاية، وينوب عنه في غيابه رئيسُ المجلس العمومي، أو مستشار هذا المجلس.

المادة الرابعة عشرة: إن اللغة العربية تعتبر الرسمية في جميع المعاملات داخل الولاية. وتعتبر أيضاً لغة رسمية كاللغة التركية في مجلس النواب والأعيان.

المادة الخامسة عشرة: تخفض الخدمة العسكرية إلى سنتين، وتُقضى الخدمة أيام السلم في الولاية[1].

وفي منتصف فبراير (شباط) سنة ١٩١٣م (٩/ ٣/ ١٣٣١هـ) أذاعت جمعية بيروت الإصلاحية خطتها التي تضمنت المبادئ السابقة، وحظيت بتأييد شعبي كبير في أقاليم الشام وبغداد والبصرة والقاهرة، كما أرسلت البرقيات إلى حكومة الآستانة تعتبر البرنامج تعبيراً عن الأماني في كافة الأقاليم العربية[2].

وممن أيد لوائح جمعية بيروت الإصلاحية جمعيةُ اللامركزية، فقال رشيد رضا: (إنني لأشكر لإخواني أهل بيروت هذا العمل الإصلاحي الذي أقيم على أساس الاتفاق بين مسلميهم ونصاراهم، قد بذل الأولون في استمالة الآخرين ما لم يبذله غيرهم من الناس، وهو أنهم رضوا أن تكون قلة النصارى في الولاية مساوية لكثرة المسلمين في الاشتراك بإدارة حكومتهم، فهذا برهان عملي قاطع على تساهل من يُعَدّون أشد المسلمين عصبية في سورية. وقد صدق ظني في أهل بيروت إذ فضّلْتهم على جميع أهل بلادنا فيما كتبته عنها عند زيارتي لها بعد إعلان الدستور)[3].

---

(١) ثورة العرب، أحد أعضاء الجمعيات القومية، ٦٢ - ٦٧ (بتصرف).

(٢) حركة اليقظة العربية، محمود منسي، ١٦٤.

(٣) المنار، رشيد رضا، المجلد ١٦، الجزء٤، ص ٢٨٠.

» القضاء على جمعية بيروت الإصلاحية:

خلال وضع وتخطيط اللوائح التنظيمية لجمعية بيروت الإصلاحية، استولت جمعية الاتحاد والترقي على حكم الدولة، وأسقطت حكومة الائتلافيين[١]. وكانت جمعية الاتحاد والترقي تختلف في المنهج الإصلاحي بالنسبة للحكم اللامركزي مع حكومة الائتلافيين، مما ترتب على ذلك أن الحكومة الجديدة رفضت[٢] البرنامج الإصلاحي المقدم من جمعية بيروت الإصلاحية. وذكرت في الصحف:

(بما أن الجمعية التي تشكلت منذ شهرين ونصف من بعض الذوات في بيروت باسم الجمعية العمومية الإصلاحية، والتي اتفق أن أعطي لها (إيصال) من مقام الولاية، قد كان تشكيلها مغايراً لقانون الجمعيات، فضلاً عن أن بعض المطالب التي أخذ هؤلاء يطالبون بها، باسم الاصلاحيات، هي منافية أيضاً لأحكام القانون الأساسي، وبناء عليه فقد صار من الطبيعي منع دوام واجتماع هذه الجمعية. هذا وقد شرع بتطبيق قانون إدارة الولايات الذي نظمته الحكومة السنية وفقاً لقاعدة توسيع المأذونية وتفريق الوظائف فجاء جامعاً الإصلاحات لبيروت ولسائر الولايات العثمانية، وعليه نعلن منع اجتماع الجمعية المذكورة)[٣].

وبينت حكومة الاتحاد والترقي (أن وحدة السلطنة تنحصر في شخص جلالة السلطان، دين السلطنة الرسمي هو الإسلام، ولغتها الرسمية هي التركية، فالدين الرسمي واللغة الرسمية لا يمكن أن يكونا غير لغة الملك ودينه، ولكن هذا لا يمنعنا من التوسع في استعمال اللغة العربية في المسائل الإدارية والقضائية المرتبطة بحياة الجمهور في

---

(١) انظر: العرب والترك، توفيق برو، ٣٧٥.
(٢) انظر: المنار، رشيد رضا، المجلد١٦، الجزء ٨، ص٦٣٥.
(٣) جريدة المفيد، ١٢٤٨، بتاريخ٩/ ٤/ ١٩١٣.(نقلًا من كتاب العرب والترك، توفيق برو، ٣٨٨)

الولايات التي تتكلم بالعربية)[١].

لقد عد القوميون إلغاء جمعية بيروت الإصلاحية إلغاءً للحرية، فقد أذاع أعضاء الجمعية بياناً ذكروا فيه: إن قرار الدولة إنما هو مصادرة للحرية الاجتماعية، وخنق للفكرة الإصلاحية، فضلاً عن أنه مناف لأحكام القانون الأساسي. وبينوا بأن الجمعية الإصلاحية في بيروت جمعية فكرية، لا جمعية إنفاذ بالقوة والضعف. فعلى فرض مخالفة رأيها في الإصلاح لرأي الحكومة، فإنما يحق للحكومة عدم العمل بآرائها، ولكن لا حق لها بمصادرتها. لذلك نحتج أمام الوطن والتاريخ على عمل حضرة الوالي، هذا الذي عبث بمصلحة الوطن. وخالف به أحكام الدستور، ونيات جلالة السلطان)[٢].

كما أرسلت الجمعية اللامركزية من مصر برقية إلى الصدارة العظمى ذكرت فيها: (مصادرةُ والي بيروت لجمعيتها الإصلاحية في عملها القانوني استبدادٌ منكر، مضيع لآمال الأمة، موجب للتقاطع بين الهيئتين. تداركوا سوء العاقبة بعزل الوالي ونقض عمله، ولا تسنوا للشعب سنة سيئة بمخالفة القوانين)[٣].

ويصف القنصل البريطاني العام في التقرير الذي كتبه حال الناس عند علمهم بقرار الحكومة الاتحادية، فيقول: (أمس صدرت جميع جرائد بيروت، باستثناء جريدة واحدة، وعلى صفحتها الأولى قرار الوالي بإلغاء الجمعية وإقفال النادي، ضمن إطار أسود دلالة على الحداد، وتركت الصفحات الأخرى بيضاء، وبعد ثلاثة أيام أقفلت المخازن في بيروت احتجاجاً على القرار)[٤].

---

(١) العرب والترك، توفيق برو، ٣٨٦.

(٢) جريدة المؤيد، عدد٦٩٦٣، بتاريخ١٦/ ٤/ ١٩١٣م. (نقلًا من كتاب العرب والترك، توفيق برو، ٣٨٩).

(٣) جريدة الأهرام، عدد ١٠٦٧٦، بتاريخ ١٥/ ٤/ ١٩١٣م. (نقلًا من كتاب العرب والترك، ٣٩١).

(٤) نشوء القومية العربية، زين نور الدين زين، ٩٩.

» تقويم المنهج الإصلاحي:

إن لوائح جمعية بيروت الإصلاحية تتفق[1] مع لوائح وتنظيمات الجمعيات الإصلاحية الأخرى. وعند المقارنة بين ما قدمته هذه الجمعيات وجمعية اللامركزية من تنظيمات قد لا يوجد اختلاف كبير بينهما سوى أن الجمعيات الإصلاحية وضعت ضمن موادها العنصر الأجنبي عن طريق مستشارين في بناء الاصلاح، بل جعلت لهم صلاحيات مطلقة، فيخول لهم حق تفتيش أية دائرة كانت في اللواء.

ومن الصلاحيات المخولة للمستشارين: تفسير مواد النظام الذي تضعه الحكومة المركزية كدستورٍ لحكومةِ الولاية ومجلسها العمومي. وهذه الصلاحيات حددت بأن تكون مدة الاستشارة والتفتيش خمس عشرة سنة ويمكن تجديدها[2].

إن تعيين أجانب كمستشارين ومفتشين في الولايات العربية، لم تسلم من الجدل والنقاش، فقد قال محمد جميل بيهم وهو أحد المطلعين على ما جرى في داخل الجمعية من نقاشات: كانت وجهات نظر البيروتيين مختلفة، خصوصاً لوجود فئة ذات وزن كانت حريصة على التخلص من الحكم العثماني، والسعي لاستقلاله تحت حماية فرنسا. وكان المسلمون من جهة أخرى، مع حرصهم على اللامركزية وتأمين حقوق العرب في السلطنة، يضنون بالدولة العثمانية، ولا يرضون عنها بديلاً من الدول الأجنبية. ولما كان لا بد من تقارب وجهات النظر بين طلاب الإصلاح من أنصار فرنسا وأنصار اللامركزية تَجْمَعُ بين شروط اللامركزية وبين وجود مستشارين أجانب في جهاز حكومة الولاية بالإضافة إلى مفتش أجنبي لكل لواء)[3].

(١) الثورة العربية الكبرى، أمين سعيد، ١/ ١٨. وانظر: ثورة العرب، أحد أعضاء الجمعيات القومية، ٦٨.

(٢) عن هذه القضية انظر: نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ٤٠٥.

(٣) قوافل العروبة ومواكبها خلال العصور، محمد جميل بيهم، ٢/ ٢٢، بيروت، ١٩٥٠م.

ويؤيد الرأي القائل (بوجود فئة ذات وزن كانت حريصة على التخلص من الحكم العثماني، والسعي لاستقلاله تحت حماية فرنسا) أن جمعية بيروت الإصلاحية قد شرطت في تعيين الأجانب معرفتهم إحدى اللغات ومن ضمنها اللغة الفرنسية.

ولقد كانت مخاوف الدولة العثمانية من تأثير فرنسا على البلاد العربية، قبل ظهور جمعية بيروت الإصلاحية. فقد كتب السلطان عبدالحميد في مذكراته، أن العلاقات بين الدولة العثمانية وفرنسا (بدأت تسير نحو الأحسن بعد تعيين سفير لجمهورية فرنسا لدينا. وقد علمت أنه اتصل عن طريق ملحقه العسكري بعدد كبير من ضباطنا. كما وُفّق إلى اجتذاب عدد من النظار - الوزير - وبعض كبار الموظفين في الباب العالي. حتى إن شيخ الإسلام قام بزيارة إلى السفارة الفرنسية، الأمر الذي لم يكن معهوداً من قبل)[(١)].

وذكر أمين سعيد في كتابه عن الثورة العربية، أن بعض العناصر المسيحية الموالية لفرنسا في بيروت أرادت استغلال الحركة الإصلاحية لخدمة هذه الحكومة، فتقربت من زعماء الحركة، وتظاهرت بالإخلاص لهم والرغبة في الخدمة الوطنية، عاملة سراً على توسيع الخرق بين الدولة والإصلاحيين[(٢)].

ولا يعني هذا عدم الأخذ مطلقاً بشورى الكافرين، إنما المأخذ على تنظيم جمعية بيروت الإصلاحية أنهم منحوا المستشارين من الأجانب من الحقوق ما لا يطلب من مثلهم، وما هو خطر عظيم على مستقبل البلاد، ولم يجعلوا لأنفسهم عليهم سلطة تبيح لهم مؤاخذتهم إذا أخطؤوا، ومعاقبتهم إذا أذنبوا، على أن مؤاخذة الضعيف للقوي بالحق والقانون تكاد تكون متعذرة، فكيف إذا كان القوي صاحب سلطة مطلقة لا توجب

---

(١) السلطان عبدالحميد الثاني، مذكراتي السياسية، ١٣١، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٢هـ.
(٢) الثورة العربية الكبرى، أمين سعيد، ١/ ٢٤.

عليه للضعيف حقاً، ولا تفرض عليه مؤاخذة؟[١].

٧) جمعية العربية الفتاة السرية:

يعتبر أعضاء الجمعيات القومية أن أكثر الجمعيات شمولاً للفكر القومي، وأشدها تأثيراً في الحركة العربية ونهضة العرب، هي جمعية الفتاة العربية السرية.

ولقوة تأثير السرية في منهج الجمعية اختلف في تاريخ نشأتها، على ثلاثة أقوال:

القول الأول: إن تاريخ نشأة جمعية الفتاة ١٩٠٨م ففي مذكرات أحمد قدري[٢] - وهو أحد المؤسسين -: (إننا بدأنا في تكوين جمعية العربية الفتاة بعد إعلان دستور سنة ١٩٠٨م بأربعة أيام لا أكثر)[٣]. وبهذا التاريخ قال مؤسسٌ آخر وهو عوني عبدالهادي[٤]، وأكد على: أن تكون السرية طريقاً في تأسيس الجمعية[٥].

القول الثاني: إن تاريخ نشأة جمعية الفتاة ١٩٠٩م، واستند هذا القول إلى وجود منشورين للجمعية بعنوان (الصرخة الأولى) و(الصرخة الثانية)، وعلى كراس يشتمل على منهجها، فَوُجِدَ على الوثائق الثلاث ختماً للجمعية تاريخه ١٩٠٩م، ووُجِد على كراس المنهج أن تأسيسها كان في الرابع عشر من تشرين الثاني سنة ١٩٠٩م. واستند هذا القول أيضاً: إلى أن توفيق الناطور، وهو أحد المؤسسين للجمعية ومن أكثرهم همة ونشاطاً، قال بهذا التاريخ[٦].

---

(١) المنار، رشيد رضا، المجلد١٦، الجزء٤، ص ٢٨٠.

(٢) انظر الترجمة رقم (٢).

(٣) ذكرياتي عن الثورة العربية الكبرى، أحمد قدري، ١١.

(٤) انظر الترجمة رقم (٥١).

(٥) انظر: عوني عبدالهادي، أوراق خاصة، إعداد خيرية قاسمية، ٩.

(٦) نشوء القومية العربية، زين نور الدين زين، ٩١.

القول الثالث: يذهب أصحاب هذا القول إلى أن تاريخ نشأة الجمعية في سنة ١٩١١م. ففي مذكرات عوني عبدالهادي ما يدل على هذا، فقد قال موصياً جميل مردم بك[(١)] أثناء سفره إلى أمريكا: بأن يغتنم فرصة اجتماعه بإخواننا في المهجر ليحدثهم عن آمالنا وأمانينا في مستقبل العرب، وأن يعمل على ضم من يأنس بهم الوطنية والخلق الحسن إلى جمعية العربية الفتاة التي أنشأناها في باريس سنة ١٩١١م. وكان جميل مردم بك من أعضائها البارزين)[(٢)]. وقال بهذا القول مصطفى الشهابي ومحمد عزة دروزة[(٣)] وهما من أعضاء الجمعية[(٤)].

وقد قال حسن الحكيم: (أنشئت بعد إعلان الدستور العثماني عام ١٩٠٨م، وقد أسسها عام ١٩١١م في باريس ثلاثة من الشبان العرب الذين أتموا دراستهم في إستنبول العاصمة، وهم: أحمد قدري، وعوني عبدالهادي، رستم حيدر[(٥)])[(٦)].

---

(١) انظر الترجمة رقم (١٨).

(٢) عوني عبدالهادي، أوراق خاصة، إعداد خيرية قاسمية، ١٧.

(٣) انظر الترجمة رقم (٦١).

(٤) انظر:

١. القومية العربية، الشهابي، ٧٢.
٢. نشأة الحركة الحديثة، دروزة، ٤٨٠.
٣. العرب والترك، توفيق برو، ٢٦٧.
٤. يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ١٨٧.
٥. خبراتي في الحكم، حسن الحكيم، ٤٠.

إلا أن الشهابي قد تراجع عن رأيه في تحديد تاريخ النشأة، قال: كتبت في الجزء الثاني من كتاب الاستعمار: أن الجمعية تأسست في باريس سنة ١٩١١م، وقد وهمت، لأني اطلعت في القاهرة لدى الأستاذ محب الدين الخطيب على منشورين سياسيين للجمعية بعنوان الصرخة الأولى والصرخة الثانية، وكذلك على كراس يشتمل على منهجها، فوجدت على ثلاثتها ختماً للجمعية تاريخه ١٩٠٩م وشعاره نخلة. وفي المنهج المذكور أنها تأسست في الرابع عشر من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٠٩م.

(٥) انظر الترجمة رقم (٢٥).

(٦) خبراتي في الحكم، حسن الحكيم، ٤٠. وانظر: نشأة الحركة الحديثة، دروزة، ٤٨٥.

وقد يكون الاختلاف بين هذه الأقوال اختلافاً ظاهرياً، والجمع بينها هو: إن بداية فكرة وإنشاء جمعية العربية الفتاة كان في تاريخ ١٩٠٨م، وكان في الآستانة، ويؤكده أن من قال بذلك التاريخ هم من المؤسسين للجمعية، ثم انتقلت مرحلة الفكرة إلى مرحلة صياغة العمل وتنفيذ الخطط، وذلك في عام ١٩٠٩م كما في المناشير الذي فيها بيان المنهج وخطة العمل القومي، وأما تكوين هيئة إدارية للجمعية وانضمام أعضاء جدد لها وتطبيق نظام الانتساب، فإن ذلك كان في أوربا بتاريخ ١٩١١م[١]. واستمر نشاط ومركز الجمعية في باريس، وبعد أن أنهى مؤسسوها دراستهم وتخرجوا عادوا إلى بلادهم، فنقلت الجمعية إلى بيروت سنة ١٩١٣م[٢].

« مبادئ وتنظيم الجمعية:

مما يلاحظ على مبادئ الجمعيات أنها دائمة التغيير والتبديل في المناهج، وهذا قد يكون من أسبابه طبيعة التعامل مع الواقع، وهذه الملاحظة ظاهرة على جمعية الفتاة، فإن مبدأ الجمعية وتنظيمها أثناء التأسيس يختلف عنها في وقت إقامة الدولة العربية ومناصرة فيصل بن الحسين، وكذلك اختلف مبدؤها بعد معركة ميسلون، وتفرُّقِ أعضاء الجمعيات القومية، واحتلال سورية الطبيعة.

ولكن هذا الاختلاف لا يمنع من معرفة مبادئ الجمعية بصفة عامة، فقد عرضت الجمعية مبادئها[٣] عن طريق منشور يعرف (بالصرخات الثلاث)، ويوجد في مكتبة محب الدين الخطيب نسخة منه.

---

(١) انظر:

١. نشأة الحركة الحديثة، دروزة، ٤٨٤.

٢. جمعية العربية الفتاة السرية، سهيلة الريماوي، ٦٧ - ٦٩.

(٢) يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ١٨٨.

(٣) انظر:

١. نشأة الحركة الحديثة، محمد عزة دروزة، ٤٨٥.

٢. القومية العربية، مصطفى الشهابي، ٧٢.

أولاً) السرية في التنظيم: وهذا مبدأ تشترك فيه بعض الجمعيات، ولكن جمعية الفتاة أكثر سرية[١]، وقد نصت مبادئ الجمعية على مبدأ السرية، فقد جاء في الفصل الأول من الباب الأول، غاية الجمعية، الفقرة (٢): تبقى الجمعية سرية الآن نظراً للحالة السياسية العمومية[٢]. وعوني عبدالهادي - أحد مؤسسي الجمعية - أكد على: أن تكون السرية طريقاً في تأسيس الجمعية[٣].

فأصبح - من تنظيم الجمعية - التكتم فيها شديداً، والداخل فيها لا يعرف من أعضائها إلا اثنين فقط، وهما اللذان ينتدبان لإدخاله ولتحليفه اليمين، ولا يتم ذلك إلا بعد أن تكون الجمعية قد اختبرت المرشح لعضويتها بوسائل شتى مدة من الزمن[٤]. وكانت تحرص حرصاً شديداً على أن لا تضم إليها إلا من عرف بحسن الخلق والأمانة والكتمان وقوة النفس والجرأة، ومما يجدر ذكره عن مبدأ الكتمان والسرية لدى أعضاء جمعية الفتاة، أن أسماء الجمعيات السرية الأخرى، وأسماء كثير من أعضائها قد انكشفت في سياق تحقيقات الديوان الحربي في عاليه الذي أنشأه جمال باشا في أثناء الحرب، ولم يمكن كشف اسم الفتاة بالرغم من شدة المحاولات والإرهاقات[٥].

ومما يذكره أعضاء الجمعيات القومية العربية عن محاولة إخفاء نظام وأسرار الجمعية، أن شكري القوتلي كاتم سر الجمعية، لما تم القبض عليه من قبل جمعية الاتحاد والترقي وخشي أن يبدر منه حال الإغماء ما يقضي عليه وعلى إخوانه في الجمعية، فأعد قلماً وقرطاساً وتمدد على سريره الخشبي وقطع شريان يده اليسرى.. ورأى حارس السجن

---

(١) انظر: نشوء القومية العربية، زين نور الدين زين، ٩١.

(٢) انظر: نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ٤٨٩.

(٣) انظر: عوني عبدالهادي، أوراق خاصة، إعداد خيرية قاسمية، ٩.

(٤) القومية العربية، مصطفى الشهابي، ٧٣.

(٥) حول الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ١/ ٣٢.

دماً تحت الباب، فأسرع إلى إخبار رئيسه، وكان الطبيب المناوب في تلك الساعة الدكتور أحمد قدري - أحد مؤسسي الجمعية - فحمل القوتلي إلى حيث عولج(١).

وأثناء انعقاد المؤتمر العربي الأول في باريس المنعقد عام ١٩١٣م، اتخذت جمعية الفتاة في رسائلها شفرة معينة، وهي:

- بزغ فجروطنك.
- مت لعضد شخصي.
- أحي ثقة ظسذ.

فالباء تقابل العدد الواحد وهكذا.. كيفية الكتابة.. (عبد) تكتب على الصورة التالية: ١٦،١،١٤. رقم ١٤ مقابل حرف (ع)، رقم ١ مقابل حرف (ب)، رقم ١٦ مقابل حرف (د).

وكتابة اسم (رفيق): ٢٤،٢٢،٤،٦. رقم ٦مقابل حرف (ر)، رقم ٤مقابل حرف (ف)، رقم ٢٢مقابل حرف (ي)، رقم ٢٤مقابل حرف (ق)(٢).

ومن منطلق السرية والكتمان يقول محب الدين الخطيب: (لم يكن للجمعية مقر معلوم لأنها جمعية سرية، بل كنا نعقد الاجتماع في بيوت أحد الأعضاء ولا يعلن عنه إلا قبل مدة وجيزة)(٣).

ثانياً) المبدأ الأساسي للجمعية مبدأ (القومية العربية) ويبدو هذا من الحقائق التالية:

أ - اسم الجمعية وهو: العربية الفتاة، وكان مؤسسوها قد سموها في بادئ الأمر

---

(١) الأعلام، خير الدين الزركلي، ٣/ ١٧٣.

(٢) انظر: جمعية العربية الفتاة السرية، سهيلة الريماوي.

(٣) سيرة جيل، محب الدين الخطيب، (مخطوط) مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية.

(جمعية الناطقين بالضاد)[1].

ب – عضويتها مقصورة على العرب فقط، ومفتوحة أمام كل عربي مهما كانت الولاية التي ينتسب إليها من الدولة العثمانية، وقد نص نظام الجمعية على ذلك، ففي الفصل الثاني من الباب الأول: شروط الدخول في الجمعية، فقرة (أ) أن يكون عربياً مخلصاً لأمته[2].

ج – التأكيد على أن واجب الجمعية الأول – كما نص على ذلك نظام الجمعية في الفصل الثالث من الباب الأول في وظائف الجمعية وتشكيلاتها، فقرة (١٣) – هو تقوية الشعور العربي بين طبقات الأمة العربية كافة، ومبدؤها في ذلك عربي قبل كل شيء، وفي كل شيء[3].

والحرص على مبدأ القومية في دستور الجمعية، وسنّ الأنظمة على إقراره يعطي التأكيد على أن الجمعيات القومية اهتمت بالجانب القومي العربي على حساب المعتقد الديني[4]، وأن أصل الولاء والبراء هو اللغة وليس الدين. ولأهمية هذه القضية خصص لها باب مستقل لمناقشتها.

ثالثاً) الهدف من إنشاء الجمعية – على حسب ما ذكر في الوثيقة الأولى من دستور الجمعية – هو: (أن الأمة العربية في مؤخرة الأمم اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً، فوجب على قادة نابتتها المدركين أن يبذلوا حياتهم فيما ينهض بها من هذا التأخر ويتدبروا فيما يؤول إلى ترقيها لتدرك معنى الحياة، وتحتفظ بحقوقها الطبيعية.. وغاية الجمعية النهوض

(١) نشوء القومية العربية، زين نور الدين زين، ٩١.

(٢) انظر: نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ٤٨٩.

(٣) انظر: المصدر السابق، ٤٩١.

(٤) انظر مثالاً على ذلك: مجموعة آثار رفيق بك العظم، الجامعة العثمانية، ١٣٥، مطبعة المنار، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٤٤هـ.

بالأمة العربية إلى مصاف الأمم الحية)[1].

وهذا الهدف قد تطور على حسب ما مرت به الجمعية من مراحل، وقد قال أحمد قدري: (وقد تحاشينا ذكر اسم الاستقلال في مضامين برنامج جمعيتنا، وإن كنا في السر نسعى ونعمل وراءه)[2].

وقد أصبحت الغاية من تأسيس الجمعية - بعد الحرب العالمية الأولى - كما جاء في منشور الجمعية الجديد في الفصل الأول من الباب الأول: (غاية الجمعية استقلال البلاد العربية استقلالاً تاماً [3]بجميع معانيه الحقوقية والسياسية، وتأييد ذلك الاستقلال بجعل الأمة العربية في مصاف الأمم الحيّة)[4].

رابعاً) قسم الاشتراك في جمعية الفتاة العربية: يشترط في الانضمام لجمعية الفتاة أن يؤدي العضو الجديد قَسَم الجمعية، فقد جاء من شروط الدخول في الجمعية فقرة (د): أن يقسم يمين الإخلاص[5]. وهذا القَسَمُ في تنظيمات جمعية الفتاة يأتي تحقيقاً لمبدأ السرية، ونصُّ القسمِ هو: (أقسم بالله، وبشرفي أنني أسعى في تأييد غاية [الجمعية] وهي الاستقلال العربي التام، والسعي في جعل الأمة العربية في مصاف الأمم الحية.

أقسم بالله وبشرفي أنني أحافظ على أسرار [الجمعية] وأفضل مصلحتها ومصلحة إخواني فيها على كل مصلحة سواها.

أقسم بالله وبشرفي أنني أطيع قانون [الجمعية] وأوامرها، والله على ما أقول شهيد)[6].

---

(١) انظر: نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ٤٨٥.

(٢) مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى، أحمد قدري، ١٢، ١٩٥٦م.

(٣) انظر: حركة اليقظة العربية، محمود منسي، ١٦١. وانظر: كتاب جمعية العربية الفتاة، سهيلة الريماوي، ٨٢.

(٤) نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ٤٨٩.

(٥) المصدر السابق، ٤٨٩.

(٦) جمعية العربية الفتاة السرية، سهيلة الريماوي، ملحق رقم (٢) ص ٢٩٨.

ومما يجدر التنبيه إليه في ألفاظ قسم الجمعية أنها تحتوى على ألفاظ شركية، منها: القسم بغير الله تعالى، وقد قال ابن عمر رضي الله عنه قال النبي ﷺ: [لا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ وَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِالله][1].

والمخالفة الشرعية الأخرى في قسم الجمعية: الطاعة المطلقة لقانون الجمعية وأوامرها، وترتيب عقوبة مقدرة لمخالف أوامرها. وهذه الطاعة لا تكون إلا لله تعالى ولرسوله ﷺ: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾[2].

قال ابن كثير رحمه الله: (أطيعوا الله) أي: اتبعوا كتابه (وأطيعوا الرسول) أي: خذوا بسنته، (وأولي الأمر منكم) أي: فيما أمروكم به من طاعة الله لا في معصية الله، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الله[3]. ولأهمية المخالفات العقائدية عند الجمعيات القومية خصص لها باب مستقل لمناقشتها وبيان مواقفها.

خامساً) إن مؤسسي جمعية الفتاة هم من الشباب العرب الذين كانوا يواصلون دراستهم في باريس[4] وهم: عبدالغني العريسي[5] متخرج في مدرسة الصحافة وكلية علوم السياسة الدولية، وعوني عبداهادي من طلاب كلية الحقوق في باريس، ومحمد المحمصاني[6] متخرج في كلية الحقوق في فرنسا، وجميل مردم بك طالب حقوق في فرنسا[7].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، بَاب السُّؤَالِ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَالاسْتِعَاذَةِ بها، رقم الحديث (٦٨٥٢).
(٢) سورة النساء، رقم الآية (٥٩).
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ٣٠٤، مطبعة الشعب.
(٤) الحكومة العربية في دمشق، خيرية قاسمية، ١٩.
(٥) انظر الترجمة رقم (٤٣).
(٦) انظر الترجمة رقم (٥٩).
(٧) المؤتمر العربي الأول في باريس، ١٤ - ١٦.

ويحدث عوني عبدالهادي - وهو أحد المؤسسين للجمعية - عن الوضع المريب الذي اتخذته فرنسا أثناء إعلان الحرب ضد مواطني الدولة العثمانية، فيقول: لبثنا ننتظر مصيرنا الذي لن يكون أقل من أن نزج مع أمثالنا التابعين للبلاد المعادية للحلفاء بالمعتقلات. ولكن لم يمض كثير وقت حتى وافانا الخبر العجيب غير المنتظر، بأن الحكومة الفرنسية قررت زج الأتراك بالمعتقلات والسماح للسوريين في الإقامة أحراراً في باريس[١].

لقد احتوت الحكومة الفرنسية هذه النخبة من الدارسين في محافلها العلمية، ولذا كان من أبرز القضايا القومية في الفكر القومي، أن تبنى مؤسسو جمعية الفتاة فكرةَ انعقاد مؤتمر عربي يضم أعضاء الجمعيات القومية، - كما أكدت ذلك الوثائق[٢] - وقد سعت الجمعية ببث الدعاية للمؤتمر في باريس، وفرضت سمة السرية لجمعية العربية الفتاة أن يتصل أعضاؤها بالشخصيات العربية المعروفة في باريس، حتى تبدو عملية الدعوة للمؤتمر وكأنها صادرة عن الجالية العربية فيها[٣].

سادساً) من أبرز ما ظهرت به جمعية الفتاة العربية في نشأة الفكر القومي، أن أول دولة عربية ظهرت في كيان مستقل كان أهمّ مراكزها بيد أعضاء الجمعية وفي مقدمتهم فيصل نائب الملك[٤]، الذي حدد منهج هذه الدولة في البيان الذي أعلنه عند قيام الدولة بتاريخ ٥ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩١٩م (١٣٣٧هـ):

١) تشكلت في سوريا حكومة دستورية عربية مستقلة استقلالاً مطلقاً.

---

(١) عوني عبدالهادي، أوراق خاصة، إعداد خيرية قاسمية، ١٤.

(٢) بين يدي دراسة وافية عن قرارات المؤتمر العربي، صادر من اللجنة العليا لحزب اللامركزية الذي تبنى تنفيذ المؤتمر، وقد حصلت على هذه الدراسة من مكتبة (خير الدين الزركلي) وهو من أعضاء الفتاة العربية.

(٣) جمعية العربية الفتاة السرية، سهيلة الريماوي، ١٥٦.

(٤) انظر: يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ٢٣٧. أصبح فيصل عضواً فيها بعد أن حلف اليمين.

٢) عهدتُ إلى السيد علي رضا باشا الركابي[١] بالقيادة العامة للحكومة المذكورة نظراً لثقتي باقتداره ولياقته.

٣) ليعلم جميع الناس أن حكومتنا قد تأسست على قاعدة العدالة والمساواة، فهي تنظر إلى جميع الناطقين بالضاد على اختلاف مذاهبهم وأديانهم نظراً واحداً. لا تفرق في الحقوق بين المسلم والمسيحي والموسوي[٢].

فكان من أركان هذه الدولة علي رضا الركابي رئيس الحكومة، وياسين الهاشمي المستشار العسكري، ومحمد علي التميمي قائد الشرطة... وكانت هذه اللجنة تسيطر على الحكومة سيطرة فعلية، وكانت منها بمنزلة جمعية الاتحاد والترقي من الحكومة التركية، فما كان يتم شيء إلا بأمرها وإرادتها[٣].

أصبحت الهيئة الإدارية للجمعية تُنتخب انتخاباً، وتطرح في الاجتماعات الثقة بها، بحيث تسقط إذا لم تنل ثقة الأكثرية، ويتجدد انتخابها، بينما بقي منشؤو الفتاة يعدون أنفسهم هيئة إدارية بصورة طبيعية، وأما رئاسة الجمعية فقد احتفظت بطابعها القديم، وهو انتخاب رئيس لكل جلسة تعقدها اللجنة الإدارية[٤].

ومما يلاحظ في الانتساب إلى الجمعيات القومية العربية أنه قد يوجد أحد الأعضاء منتسباً إلى عدد من الجمعيات القومية، ولهذا ترد أسماء بعض أعضاء جمعية الفتاة، وهم

---

(١) انظر الترجمة رقم (٤٩).

(٢) مؤامرة الغرب على العرب، ياسين سويد، المركز العربي للأبحاث والتوثيق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٢، والمراد بالموسوي: اليهودي.

(٣) الثورة العربية الكبرى، أمين سعيد، ٢/ ٣٥.

(٤) جمعية العربية الفتاة السرية، سهيلة الريماوي، ٨٥ - ٨٨. بتصرف. وانظر:

١. خبراتي في الحكم، حسن الحكيم، ٤١.

٢. الحكومة العربية في دمشق، خيرية قاسمية، ٦٦.

أيضاً من منسوبي جمعية العهد أو اللامركزية... إلخ من الجمعيات السرية والعلنية[١].

سابعاً) المركزية في أنظمة وقرارات الجمعية: سَنّت الجمعيةُ في نظامها الحكمَ المركزيَّ، وهذا ظاهر في لوائح قانون الجمعية والتي منها:

في مقدمة النظام، وتحت موضوع (متفرقات) جاء في البند ٢٣: يعمل بهذا النظام، ولا يجوز قبول اقتراح الزيادة عليه أو الحذف منه أو التعديل فيه، إلا باتفاق ثلثي مجموع أعضاء اللجنة العليا[٢].

وفي المادة الثالثة من المواد الأساسية: (على كل عضو أن يأتمر بقرارات اللجنة العليا ولو كانت عليه وخلافاً لإرادته)[٣].

وقد تم حصر إصدار قرارات الجمعية باللجنة العليا، وهي تمثل السلطة القيادية المركزية للجمعية: (اللجنة العليا تتألف من سبعة أعضاء، هم مصدر أعمال الجمعية وإليهم يرجع القول الفصل..)[٤].

فهذه السلطة تكاد تكون موجودة في جميع مواد نظام الجمعية:

- (المادة ٦): مجلس الشورى تنتخبُه اللجنة العليا، وتعيينُ عدده راجع إليها.
- (المادة ١٦): للجنة العليا الخيار في استشارة مجلس الشورى ببعض الأمور الخطيرة.
- (المادة ١٧):إذا رشح أحد الأعضاء شخصاً ليكون عضواً تقرر اللجنة العليا قبوله بثلثي آراء أعضائها.

---

(١) انظر: العرب والترك، توفيق برو، ٢٦٩.

(٢) نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ٤٨٨.

(٣) المصدر السابق نفسه، ٤٨٦.

(٤) المصدر نفسه، ٤٨٦.

(المادة ٢٣): من أتى عملاً يخالف قانون الجمعية أو مبدأها فأمره راجع إلى اللجنة العليا[١].

» نهاية مسمى جمعية الفتاة العربية:

من أبرز أسباب نهاية مسمى جمعية الفتاة العربية، سببان اثنان، هما:

السبب الأول: من منطلق التطور والتنظيم الذي اتخذته الجمعية، فقد نصت المادة (١٧) من الفصل الرابع في أعمال الهيئة المركزية العامة على أن: (يكون للجمعية حزب سياسي علني واسع، تُدار بواسطته حركة الانتخابات العمومية وتُطبّق سياستها)[٢].

وتم اتخاذُ حزبٍ علنّي للجمعية من أجل محاولة التوفيق بين سرية الجمعية والتطورات الحديثة التي مرت بها، و أهم تلك التطورات القيامُ بمهام الحكومة العربية الأولى. ومن أجل أن يتسع الحزب في الوقت نفسه لضم أشخاص لا يحسن أن يكونوا في نطاق التشكيلة السرية، ولكن يحسن أن يُستفاد منهم ويُتعاون معهم، ويدخلون في دائرة توجيهاتها.

فأنشأت الجمعية في أوائل عام ١٩٢٠م (١٣٣٨هـ) حزباً رسمياً باسم (حزب الاستقلال العربي) ببرنامج قومي يستهدف الوحدة العربية والاستقلال التام الشامل... وأوجبت على جميع أعضائها القديمين والجديدين الانتساب إليه، وفتحت باب الدخول فيه بمقياس واسع[٣].

---

(١) المصدر نفسه، ٤٨٦ - ٤٨٨. وانظر: جمعية الفتاة العربية السرية، سهيلة الريماوي، ٧٣.

(٢) انظر:

١. نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ٤٩١.

٢. القومية العربية، مصطفى الشهابي، ٧٨.

٣. ستون عاماً في القافلة العربية، عجاج نويهض، ١٦٧.

(٣) حول الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ١/ ٨٧.

وقد وضع نظام للحزب في الانتساب إليه وإدارته، فكانت أول لجنة إدارية تتولى أعمال الحزب مؤلفة من: سعيد حيدر، أسعد داغر، محمد عزة دروزة، زكي التميمي، فوزي البكري، عبدالقادر العظم[1]،[2]. ومن لوائح ونظام الحزب:

١) إن غاية الحزب المسمى بحزب الاستقلال العربي المؤسس في دمشق سنة ١٩١٩م، هي تأمين استقلال البلاد العربية المحررة استقلالاً سياسياً تاماً من جميع وجهاته.

٢) مركز الحزب مدينة دمشق، ولحزب الاستقلال فروع في أمهات المدن العربية بقدر ما تسمح به الظروف الحاضرة والمستقبلة.

٣) يتألف الحزب من أعضاء عاملين وأعضاء فخريين. ليس للحزب رئيس، إدارته معلقة بقرارات اللجنة المركزية المؤلفة من خمسة عشر عضواً.

٤) صلاحية اللجنة المركزية القيام بما يلزم من المساعي لتأمين غاية الحزب مع تدقيق حساباته وتفرعاتها[3].

لقد أصبح هذا الحزب العمود الفقري للحياة الحزبية في سورية والمسيطر على البلاد بحيث لا يقرر عمل ولا تؤلف وزارة ولا توضع خطة إلا بالاتفاق معه[4].

وبهذه الطريقة أصبح حزب الاستقلال الممثل العلني والرسمي لجمعية الفتاة العربية، حتى اختلط الأمر على الناس فلم يعودوا يفرقون بين الجمعية والحزب[5].

---

(١) انظر الترجمة رقم (٤٤).

(٢) خبراتي في الحكم، حسن الحكيم، ٤٦.

(٣) الرعيل العربي الأول، خيرية قاسمية، ١٧١، رياض الريس للكتب والنشر.

(٤) خبراتي في الحكم، حسن الحكيم، ٤٦.

(٥) حول الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ١/ ٨٨. انظر:

١. ستون عاماً مع القافلة العربية، عجاج نويهض، ١٦٧.

٢. جمعية الفتاة العربية السرية، سهيلة الريماوي، ٩٨.

فكانت نهاية مسمى (جمعية الفتاة العربية السرية).

السبب الثاني: وسبب آخر أدى إلى نهاية مسمى جمعية الفتاة العربية، هو إعدام أبرز مؤسسي جمعية الفتاة السرية على مجموعتين، المجموعة الأولى كانت بنهاية شهر آب سنة ١٩١٥م (١٣٣٣هـ) والمجموعة الثانية بتاريخ ٦ آيار سنة ١٩١٦م (١٣٣٤هـ)[١] وذلك لإدانتهم بأعمال تخل بأمن الدولة، كالمطالبة باستقلال البلاد العربية، ومناصرة وتأييد حزب اللامركزية، والدعوة للاحتلال الفرنسي.. وذلك بموجب اعترافات بعضهم، والحصول على وثائق ومكاتبات في القنصلية الفرنسية في دمشق تدينهم[٢].

وقد ذكر جمال باشا أثناء التحقيقات في المسائل السياسية التي جرى تدقيقُها بديوان الحرب العرفي بأن: (توفيق أفندي الناطور وعوني عبدالهادي، ومحمد أفندي المحمصاني، وغيرهم قد أسسوا جمعية خفية دخل فيها عبدالغني العريسي. وكانوا يقبلون شبان العرب بعد التحليف - أي القسم - وكان الأعضاء مأذونين بِقَيْد الشبان الذين يمكنهم أن يقوموا بمطالب الجمعية لا في أوروبا فقط بل في دار الخلافة وسورية أيضاً).

وقال توفيق الناطور: (إننا قد شكّلنا جمعيةً خفية في باريس ومؤسسها أنا ومحمد المحمصاني وعوني عبدالهادي وتوفيق فائد وعبدالغني العريسي، وكل أمة لا تنال حقوقها واستقلالها إلا بالمنوّرين من شبانها).

---

(١) جمعية الفتاة العربية السرية، سهيلة الريماوي، ٢٦١ وانظر: مذكرات جمال باشا، ٢٣٤.

(٢) عن هذه القضية ينظر:

١. مذكرات جمال باشا، ٢١٢.
٢. حول الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ١/ ٥٠.
٣. جمعية الفتاة العربية السرية، سهيلة الريماوي، ٢٥٦.
٤. عشت وشاهدت، أنيس النصولي، دار الكتاب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٥١م.
٥. الثورة العربية الكبرى، أمين سعيد، ١/ ٥٨ وما بعدها.
٦. القومية العربية، مصطفى الشهابي، ٧٦.

ولما سئل سيف الدين الخطيب[(١)] عن مقصد هذه الجمعية قال هي: جمعية الأمة العربية في مصاف الأمم[(٢)].

وبهذا كانت نهاية مسمى (جمعية الفتاة العربية) ويقول محمد عزة دروزة - وهو أحد أعضائها -: (إن كثيراً من - أعضائها - القديمين والحديثين الذين تبعثروا في الأردن وفلسطين ومصر والعراق والشام لم يعرفوا عن نشاطها شيئاً. ولم تقم للفتاة قائمةُ كيانٍ رسميٍ بعد ذلك، وكل ما كان من أمر أن بعض أعضاء الفتاة وحزب الاستقلال كانوا يتعاونون[(٣)] أحياناً وفي بعض المجالات الوطنية والمحلية)[(٤)].

٨) حزب البعث العربي:

في عام ١٩١٦م (١٣٣٤هـ) تم تنفيذ بنود مؤامرة المندوبين (سايكس وبيكو) القاضية بتحديد الأجزاء التي ترغب كل من بريطانية وفرنسة في أخذها من الإمبراطورية العثمانية، ثم أوعز إليهما أن يتوجها إلى الحكومة الروسية ليبحثا مقترحاتهما مع الحكومة الروسية، وحددت المقاطعات العثمانية التي ترغب كل واحدة من تلك الدول الثلاث في أن تعترف لها زميلتاها منطقة لنفوذها[(٥)].

---

(١) انظر الترجمة رقم (٣٣).

(٢) الإيضاحات، جمال باشا، ٤٩.

(٣) من أعضاء جمعية الفتاة غير من ذكر: شكري القوتلي، رفيق سلوم، يوسف ياسين، كامل القصاب، مصطفى الشهابي، خير الدين الزركلي، محب الدين الخطيب، خالد بن ياسين الحكيم، معين الماضي. وأكثر أعضاء جمعية الفتاة هم من جمعية العهد.

انظر: القومية العربية، مصطفى الشهابي٧٥، حول الحركة العربية الحديثة، دروزة، ١/ ٨٦، مجلة العربي، العدد ١٥١، يونيو ١٩٧١م، ص٥٢، مقال: جمعية العربية الفتاة، سليمان موسى، جمعية العربية الفتاة السرية، سهيلة الريماوي، ٣٠٣ - ٣٠٧، الأعلام، الزركلي.

(٤) حول الحركة الغربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ١/ ٩٢.

(٥) انظر نص الاتفاقية: مؤامرة الغرب على العرب، ياسين سويد، ٣٨٤، المركز العربي للأبحاث والتوثيق، بيروت، الطبعة الأولى١٩٩٢م.

وفي عام ١٩٢٠ (١٣٣٨هـ) تم تنفيذ المؤامرة والقضاء على حلم الجمعيات القومية العربية، وذلك بسقوط الدولة العربية الأولى[١] في سوريا بواقعة ميسلون[٢].

وكانت البلاد العربية - منشأ الجمعيات القومية - بمقتضى هذه المؤامرة قد وُزِّعت على فرنسا وبريطانيا، فكان نصيب فرنسا القسم الأعظم من سورية ومنطقة الموصل في العراق. وأما بريطانيا فكانت حصتها تتألف من شريط يمتد من أقصى جنوب سورية عبر العراق ويشمل بغداد والبصرة وكل المنطقة الواقعة بين خليج العرب والمنطقة المخصصة لفرنسا[٣].

لقد وقعت البلاد العربية - المنصوص عليها بالاتفاقية - تحت حكم الاستعمار الصليبي؛ وقد قصد المستعمر عدة أهداف ينبغي التنبيه عليها قبل الحديث عن تاريخ نشأة حزب البعث، وهي:

١) أن ينشغل كل جزء من أجزاء الوطن الكبير في حل قضيته بنفسه، وأن ينسى مع الزمن الهدف الكبير الذي بدأ به.

---

(١) انظر الحكومة العربية الأولى في دمشق، خيرية قاسمية.

(٢) ميسلون نهاية عهد، صبحي العمري، ١٦٥، دار الريس للكتب والنشر، لندن، قبرص، الطبعة الأولى، ١٩٩١م. والمؤلف ضابط عربي خاض تلك المعركة وكتب دراسته عنها. وميسلون هضبة تقع شمال غربي دمشق، على الطريق المؤدية منها إلى بيروت، وبالقرب من الحدود اللبنانية السورية، جرت عندها الموقعة المسماة باسمها بين قوات الأمير فيصل بن الحسين بقيادة يوسف العظمة، وزير الحربية في الحكومة العربية السورية، وبين الجيش الفرنسي بقيادة غويبه، قائد فرقة المشاة الثالثة، وذلك في يوم ٢٤ يوليو ١٩٢٠م. وأهمية هذه المعركة أنها أنهت استقلال أول دولة وحدوية عربية قامت في بلاد الشام بعد انهيار الحكم العثماني فيها.. ثم أخضعت هذه البلاد لانتداب استمر أكثر من ربع قرن. وتعتبر ميسلون بوابة العبور إلى سوريا الداخلية من الغرب وينظر:

١. مؤامرة الغرب على العرب، ياسين سويد، ٥٣.
٢. يوم ميسلون، ساطع الحصري.
٣. معركة ميسلون، إحسان الهندي، مطابع وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي، ١٩٦٧م.

(٣) يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ٣٤٩ - ٣٥٠ (بتصرف).

فالسوري الذي يقطن دمشق مثلاً كان في البداية يعمل لإنشاء إمبراطورية عربية كبيرة.. ثم انحسر تفكيره إلى المحافظة على سوريا الطبيعية.. ثم انحسر كذلك إلى قطعة أصغر بعد أن تقسمت سوريا إلى فلسطين وشرق الأردن ولبنان وسوريا.

٢) أن تطمئن دولة الاستعمار على نمو الروح الإقليمية مقابل الروح الإسلامية التي تعتبرها الخطر الأول الذي يهدد مصالحها.

٣) إحياء الشعوبية والطائفية.. فدولة صغيرة مثل سوريا قسمتها إلى أربع دول: دولة درزية، ودولة نصيرية، ودولة دمشق، ودولة حلب.. وكل ذلك له تأثير شعوبي وطائفي على مستقبل البلد.

٤) محاربة أي نوع من أنواع الوحدة بين الأقطار العربية.. وإذا كان الاستعمار قد تسامح مع نمو الأحزاب القومية أو الوحدوية.. غير أنه كان يدرك طبيعة هذه الأحزاب الإقليمية والشعوبية[١].

» نشأة حزب البعث العربي:

إن الجمعيات القومية العربية والسابق التعريف بها تختلف مع حزب البعث في مسألة التأسيس اختلافاً جوهرياً، إذ إن الجمعيات القومية سالفة الذكر نشأت تحت مظلة الحكم العثماني، وأما حزب البعث فقد يكون المثال الصحيح للحزب القومي العربي، إذ كان منشأ الحزب في بلاد عربية، بل تمكن من استلام السلطة في بعض البلاد العربية[٢]. ولذا يؤكد أعضاء حزب البعث على ولائهم لثورة الشريف حسين،

(١) القومية بين النظرية والتطبيق، مصطفى الطحان، ١٥٨، دار الوثائق، الكويت، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.

(٢) انظر:

١. القومية بين النظرية والتطبيق، مصطفى محمد طحان، ١٩٤، ٢٢٧.
٢. حزب البعث العربي، جلال السيد، ٢٢، دار النهار، بيروت، ١٩٧٣م.

وأنهم امتداد للثورة العربية[١]، ولهذا يرون أن ثورة الشريف حسين تعد من أهم أسباب نشأة حزب البعث الذي جاء نتيجة لمخاض فكري ولمعاناة نضالية ساهمت في بلورتها منابع رئيسية أربعة:

١ - التراث القومي والبعد التاريخي للتجربة النضالية للأمة العربية وخاصة تجربة الإسلام التي جسدت في ماضي العرب أعمق تجربة روحية وثورة فكرية واجتماعية وسياسية.

٢ - الثورات المعاصرة التي بدأت بتجربة الإصلاح الديني في أوربا وبلغت ذروتها في ثورة ١٩١٧م (١٣٣٥هـ) الاشتراكية التي ساهمت في طرح قضايا الشعوب والأمم المجزأة المضطهدة والجماهير المسحوقة.

٣ - العالم الجديد الذي نشأ خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية، وعلى أنقاضهما وما طرحته التبدلات التي شملت مختلف جوانب الحياة من قضايا مصيرية، تمس مستقبل الإنسانية ومصير الشعب العربي.

٤ - التجربة النضالية المعاصرة للأمة العربية التي جسدت اليقظة القومية عبر الصراع مع السيطرة العثمانية والاستعمار الغربي[٢].

ومن خلال هذه المحاور الأربعة نشأ حزب البعث الذي يعد من أهم الأحزاب السياسية التي تبنت القومية العربية، والذي تولى تأسيسه وقيادته ميشيل عفلق وصلاح البيطار[٣]، وكلاهما أنهيا دراستهما الجامعية في باريس، الأول حصل على إجازة في التاريخ، والثاني على إجازة في العلوم، وهناك نما بالفعل تكوينهما الفكري ووعيهما

---

(١) انظر: سياسي يتذكر، ٥١.

(٢) تطور الأيديولوجية العربية الثورية، إلياس فرح، ٣٥، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة السابعة ١٩٧٩م.

(٣) حزب البعث العربي الاشتراكي، مصطفى دندشلي، ١/ ١٩، الطبعة الأولى ١٩٧٩م.

السياسي[١]، وقد اطلعا على مزيج من التيارات اليسارية التي نشطت في باريس، وتأثرا ببقايا الفكر القومي في أوروبا، وكتابات الثورة الفرنسية[٢].

ويقرر مؤسسو حزب البعث بأنه امتدادٌ لمبادئ وعقائد الجمعيات سابقة الذكر، فيقول أحد المؤسسين لحزب البعث: لم يكن مفاجأة للعرب من حيث المبادئ ومن حيث الفلسفة القومية والسلوك. ولكن هناك منظمات وأحزاب وجمعيات سبقته فجاء هو يحاول استدراك ما فات تلك المنظمات والأحزاب والجمعيات[٣].

وقد يتفق كل من كتب عن حزب البعث أن تاريخ تأسيسه كان في عام ١٩٤٣م (١٣٦٢هـ)، ثم أعلن عنه رسمياً في دمشق ٧ نيسان عام ١٩٤٧م (١٩٦٦هـ)، وبين فترة التأسيس والإعلان فقد أصدرت نشرة هامة تحمل توقيع عفلق والبيطار، وتحمل التنظير الفكري للحزب وهي بعنوان (القومية العربية وموقفها من الشيوعية).. ومما جاء فيها: (إننا عدنا إلى الوطن نحمل فكرة الاشتراكية كتعبير عن الغايتين اللتين وقفنا أنفسنا على تحقيقهما: مكافحة الاستعمار الأجنبي، ومكافحة الرجعية الداخلية بكل أشكالها، وقد فهمنا عن طريق تلك الفكرة أن النضال ضد المستعمر لن يكون صادقاً شاملاً مجدياً إلا إذا كان نضالاً شعبياً.. وفهمنا أيضاً أن هذا النضال مرتبط أوثق الارتباط بحالة الأمة الفكرية والأخلاقية، وأنه لا بد لِنُجوع النضال ضد المستعمر من تهيئة انقلاب فكري يغير المفاهيم القديمة العقيمة، ويهز النفوس إلى الأعماق.. ويخلق لها نظرة أخلاقية جديدة جدّية[٤].

---

(١) المصدر السابق، ١/ ١٩.

(٢) سياسي يتذكر، ٥١.

(٣) حزب البعث العربي، جلال السيد، ٢١، دار النهار، بيروت، ١٩٧٣م.

(٤) حزب البعث العربي الاشتراكي، مصطفى دندشلي، ١/ ٢٧.

وانظر:

١. حزب البعث العربي، جلال السيد، ٢٨. =

» الدعوة لحزب البعث العربي:

من مبادئ حزب البعث العربي الإيمان بالنضال الشعبي لبعث القومية العربية[1]، ومن هذا المنطلق فقد بدأ عفلق والبيطار منذ عام ١٩٤٣م الدعوة إلى أفكار ومعتقدات الحزب، وقد ساهم في تسهيل دعوتهما أن في تلك الفترة:

١) الأوضاع السياسية في البلاد العربية: فقد كان الحلفاء الإنكليز والفرنسيون يحتلون سوريا ولبنان، وكانت جيوشهم معسكرة في مختلف أنحاء المشرق.. في هذه الظروف تكونت (الحلقة) السياسية الجديدة التي كان من أبرز وجوهها ميشيل عفلق وصلاح البيطار، وأطلقت على نفسها اسم (شباب البعث العربي)، في هذه السنة - ١٩٤٣م - تقدمت هذه المجموعة من السلطة للحصول على ترخيص بإصدار صحيفة خاصة بها ولكنها لم توفق في ذلك، واقتصرت النشاطات الرئيسية للحركة في ذلك الوقت على الدعوة للفكرة العربية من خلال تنظيم الاجتماعات الصغيرة العدد، وبإصدار البيانات المعادية للاحتلال الفرنسي والمطالبة بالاستقلال الكامل لسوريا، بين الفينة والأخرى[2].

٢) لم تكن العضوية في حزب البعث صعبة المنال، ذلك لأن طبيعة الحزب كانت أقرب إلى كونها حركة تبشيرية من كونها عقيدة متكاملة الجوانب، أو برنامجاً محدداً، ولم يكن العمل سرياً بالمعنى المتعارف عليه في الحركات الثورية، كما مر ذكره من برامج وتنظيمات الجمعيات القومية العربية سالفة الذكر.

---

٢. حزب البعث، سامي الجندي، ١٩.

٣. الحركات القومية في ميزان الإسلام، منير محمد نجيب، ٣٣.

(١) الأحزاب السياسية في الأردن، هانيء الحوراني وآخرون، ٨٧.

(٢) حزب البعث العربي الاشتراكي، مصطفى دندشلي، ٣٤.

٣) معظمُ قياداتِ الحزب ومقرراته لم تكن سراً، سواء في سوريا أم لبنان أم الأردن أم العراق، ولقد ساعد ذلك طبيعة الحياة السياسية في تلك البلدان، وطبيعة أنظمة الحكم[١].

٤) ومن أبرز الظروف التي ساعدت على نشر مبادئ حزب البعث أن ميشيل عفلق وصلاح البيطار (مؤسسي الحزب) كانا مدرسين في مدرسة التجهيز، والتي يدرس فيها أغلب أبناء العائلات الكبيرة والأعيان، ومن مختلف المناطق السورية، وكان هؤلاء يقصدون دمشق بقصد التحصيل الدراسي. فكان عفلق أستاذاً للتاريخ، وصلاح البيطار أستاذاً للعلوم الطبيعية والفيزياء، وقد تحلقت حول عفلق مجموعة من المعجبين به والمتعاطفين معه، وكانت هذه المجموعة ترى فيه (المعلم والمفكر). وعندما تتخرج هذه المجموعة فمنهم من يدخل سلك التعليم كمدرسين.. وهكذا كانوا يحملون راية البعث وينشرون أفكاره في مناطقهم المختلفة[٢].

لقد كان عفلق من خلال تدريسه للتاريخ ينشر الفكر البعثي، فمما قال: (نحن في دور الممهدين، مهمتنا شق الطريق للجيل الجديد لا تعبيدها.. مهمتنا رفع الأشواك لا زرع الرياحين.. مهمتنا زرع البذور الخالدة لا قطف الثمار اليانعة.. وهذا الجيل لن يكون إلا بانفصاله عن الجيل القديم..إن عملنا عمل نضالي طويل يستهدف المستقبل البعيد.. إن الإسلام كان ثمرة العبقرية العربية أكثر منه وحياً من عند الله.. نحن أصحاب رسالة لا سياسة).

ويقول أحد طلابه: (إن طلاب عفلق، بل مريديه كانوا يرددون أفكار عفلق، وكان يتلوها بعضنا على بعض ونتغنى بها سكارى على اختلاف أدياننا وطوائفنا حيث لا

(١) سياسي يتذكر، ٥٦.

(٢) حزب البعث العربي الاشتراكي، مصطفى دندشلي، ٣٤.

فرق بيننا، ولا يضعفنا أننا قلة وأننا وحدنا.. لقد كان تفاؤل (أستاذنا) عفلق يغمرنا، لقد أطلقنا عليه (محمد ميشيل)[1].

ويصف أحد البعثيين شخصية (المعلم المفكر) عفلق، فيقول:..نظرة سائر الحزبيين إلى ميشيل عفلق كإله ذي صورة قدسية.. ونحن في العراق كنا كلنا عفلقيين قلباً وقالباً، حين نجلس أمامه نشعر أننا في حضرة المسيح (عليه أفضل الصلاة والسلام)، يأخذنا كلامه ولغته الساحرة وأسلوبه الصوفي[2].

وكان عفلق يستغل كل فرصة مواتية له من أجل بث وبيان حزبه البعثي، فلما سنحت له فرصة انتخابات تموز ١٩٤٣م التي خاضها بشخصه كمرشح مستقل..لم يكن البعثيون في ذلك الوقت غير نواة صغيرة من المثقفين والطلاب، ولم يكن هدفهم الحصول على مقعد في البرلمان، بقدر ما كان همهم التعريف بالاتجاهات القومية والسياسية لحركتهم.. وفي هذه المناسبة أطلق لأول مرة الشعار البعثي (أمة عربية واحدة، ذات رسالة خالدة)، وفي بيانه إلى الشعب قال عفلقُ مُرَشّحُ البعث: (ندخل الانتخابات لا باسم طائفة، ولا مدينة، ولا مصالح قريبة أو ظروف سياسية عاجلة، بل باسم فلسفة قومية نريد أن تكون إفصاحاً صادقاً عن الحياة العربية في حقيقتها الخالدة..)[3].

» المبدأ والتنظيم لحزب البعث العربي:

سبقت الإشارةُ إلى أن مقررات حزب البعث ليست سرية، ولذا فإن بيان موقف حزب البعث العربي من الإسلام والمسلمين، من خلال تنظيمه وتنظيره ليس بالأمر

---

(١) ميشيل عفلق، ذوقان قرقوط، ٢٣٢و٢٣٤، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٣م.
(٢) أوكار الهزيمة تجربتي في حزب البعث العراقي، هاني الفكيكي، ٧٨.
(٣) حزب البعث العربي الاشتراكي، مصطفى دندشلي، ٣٤.

الصعب، وبخاصة أنه تولى قيادة بعض البلاد العربية، وسن فيها التشريعات البعثية[١].

لم يكن حزب البعث العربي الحزب الموجود في الساحة العربية في وقت إنشاء الحزب، فقد كانت هناك الكتل الوطنية العربية، والأحزاب الشيوعية... إلخ، ومن أجل أن يتخذ حزب البعث العربي وجوده الفعلي في البلاد العربية كانت قراراته تصدر في إطار جماعي ومن خلال مؤتمرات تعقد، وفيها يصدر منهج ودستور الحزب، والتي مرت بمراحل مختلفة تقتضيها ظروف معينة[٢]، حتى تمكن أعضاء الحزب من النفوذ في المجتمع، عن طريق القبض على زمام الأمور في بعض البلاد العربية.

ومن هذا المنطلق كانت قرارات الحزب تختلف من فترة إلى أخرى، وبدراسة جميع قرارات الحزب يتبين للباحث محاولة تحديد مبدأ وتنظيم الحزب[٣]، بما يلي:

أولاً) موقف حزب البعث العربي من الدين الإسلامي:

أ - يقرر عفلق - النصراني - موقف الحزب من الإسلام، فيقول: (لا يفهمنا إلا المؤمنون، المؤمنون بالله، قد لا نُرى نصلي مع المصلين، أو نصوم مع الصائمين، ولكننا نؤمن بالله لأننا في حاجة ملحة وفقر إليه عصيب.. ونحن وصلنا إلى هذا الإيمان ولم نبدأ به، وكسبناه بالمشقة والألم ولم نرثه إرثاً، ولا استلمناه تقليداً)[٤]. إن عفلق يقرر إيمانه بوجود الله فقط من غير التزام للإسلام.

(١) انظر:
١. أوكار الهزيمة تجربتي مع حزب البعث العربي، هاني الفكيكي.
٢. الحركات القومية في ميزان الإسلام، منير محمد نجيب.
٣. دولة البعث وإسلام عفلق، مطيع النونو.

(٢) انظر: نضال البعث، منشورات دار الطليعة، بيروت، ١٩٦٣م، ٤/ ١٨٧.

(٣) انظر: حزب البعث العربي، جلال السيد، من صفحة ٨٨ - ١٠٦، يتحدث المؤلف فيها عن عملية الدمج بين حزب البعث العربي، وبين العربي الاشتراكي، والظروف والمتغيرات التي مر بها حزب البعث العربي الاشتراكي.

(٤) في سبيل البعث، ميشيل عفلق، ٤٢ - ٥٢، دار الطليعة للطباعة والنشر، الطبعة الخامسة، ١٩٧١م.

وقد قرر هذا المبدأ في محاضرة (ذكرى الرسول العربي) ألقاها عام ١٩٤٣م، ويقول أحد أعضاء الحزب عن تأثير هذه الكلمات في نفسه: (عندما أقرأ كراسه (ذكرى الرسول العربي) أقف مأخوذاً بلغته، وعندما أصل إلى نهايته حيث يقول: (إذا كان محمدٌ كلَّ العربِ فليكن كلُّ العرب محمداً) تنتابني قشعريرة، وتسري في أوصالي برودة... ومع اعتقادي بالعلمانية لم أجد أي فاصل بين القومية العربية والإسلام، فرسالتنا الخالدة كأنبياء صغار هي: بعث الأمة العربية، وتجديد روحها كي تبدع ثانية كما أبدعت الإسلام)[١].

لذا يعتبر حزب البعث الإسلام جزءاً أساسياً من التراث العربي وليس جزءاً بديلاً عن الوجود العربي. فالأساس بالنسبة للبعث ليس الإسلام الذي يمكن أن يصادف وجوده عند العرب وغيرهم، بل العروبة ذات الحضارة الإسلامية، دون أن يكون الدين الإسلامي بالضرورة هو المقياس للعروبة[٢].

ثانياً) حزب البعث والعلمانية:

البعث والعلمانية توأمان، فكل الأحزاب التي قامت على أساس القومية أو الوطنية.. علمانية، ولبيان علمانية حزب البعث يقول عفلق: (إن علمانية البعث هي التي تحرر الدين من ظروف السياسة وملابساتها..وتسمح له بالتالي أن يتحرر وينطلق في حياة الأفراد والمجتمع)[٣].

ومن توصيات المؤتمر القومي الرابع، تعتبر الرجعية الدينية إحدى المخاطر الأساسية التي تهدد الانطلاقة التقدمية في المرحلة الحاضرة، ولذلك يوصي القيادة القومية بالتركيز في النشاط الثقافي والعملي على ما يلي:

---

(١) أوكار الهزيمة تجربتي في حزب البعث العراقي، هاني الفكيكي، ٧٨.
(٢) سياسي يتذكر تجربة في العمل السياسي، جمال الشاعر، ٥٨.
(٣) في سبيل البعث، ميشيل عفلق، ١٤٤.

أ - علمانية الحزب، خاصة في الأقطار التي تشوه فيها الطائفية العمل السياسي.

ب - إبراز التناقضات بين مصالح الفئات الرجعية المتاجرة بالدين وبين مصالح الجماهير الشعبية، وتعميق هذه التناقضات بتبني المطالب الشعبية، وتشجيع الجماهير على النضال من أجل مطالبها الاجتماعية والاقتصادية... لذلك تقرر أن أفضل سبيل لتوضيح فكرتنا القومية هو شرح وإبراز مفهومها التقدمي العلماني، وتجنب الأسلوب التقليدي في عرض الفكرة القومية، وعلى ذلك سيكون نضالنا في هذه المرحلة مركزاً حول تأكيد علمانية حركتنا ومضمونها الاشتراكي لاستقطاب قاعدة شعبية لا طائفية من كل فئات الشعب وطبقاته.

ج - حرية الاعتقاد: حزب البعث العربي الاشتراكي يعتبر حرية الكلام والاجتماع والاعتقاد والفن مقدسة لا يمكن لسلطة أن تنقصها[1].

وحين إعلان البيان الأول لحزب البعث العربي في العراق ١٩٦٣م، استخدمت عبارات وأفكار تضمنها البيان، قال عنها أحد مؤسسي الحزب: (غريبة عن لغة الحزب السياسية وجديدة علينا كـ(عدو الله وعدوكم)، ورغم أن مسألة الإيمان بالله كانت قضية محسومة في الحزب ولم يطلها أي نقاش أو تساؤل، فإن خطاب الحزب السياسي كان ذا لثغة علمانية ورنين قوي[2].

ثالثاً) حزب البعث والقومية العربية:

من أبرز ركائز حزب البعث القومية العربية، وقد لقن ميشيل عفلق أعضاء الحزب هذه الأبيات الكفرية:

---

(١) نضال البعث، ١/ ١٧٢ - ١٨١، منشورات دار الطليعة، بيروت، ١٩٦٣م.

(٢) أوكار الهزيمة تجربتي في حزب البعث العراقي، هاني الفكيكي، ٢٦٧.

آمـنـت بـالـبـعـث ربـاً لا شريـك لـه
وبـالـعـروبـة ديـنـاً مـا لـه ثـان

فيقرر الحزب: أن الأمة العربية فكرة خالدة، قيمة مطلقة، وبكلمة واحدة: إنها الروح. ويمكن القول: إن القومية العربية قد ارتفعت إلى مستوى الروح العلوية بالقدر الذي كان للدين[١]. ويؤكد عدم الاكتفاء بأن (القومية العربية) ديناً للحزب، بل إن معالجة القضايا العربية لا تكون إلا من وجهة النظرة القومية، فهي المحُكّمة في معالجة القضايا العربية في قوميته[٢].

فحزب البعث العربي الاشتراكي قومي يؤمن بأن القومية حقيقة حية خالدة، وبأن الشعور القومي الواعي الذي يربط الفرد بأمته ربطاً وثيقاً هو شعور مقدس.. والفكرة القومية التي يدعو إليها الحزب هي: إرادة الشعب العربي أن يتحرر ويتوحد، وأن تعطى له فرصة تحقيق الشخصية العربية في التاريخ[٣].

لقد قرر حزب البعث العربي:أنه إذا كانت القومية العربية هي الدين الجديد الذي أفرزته الأمة العربية في الوقت الحاضر، فإن البعث بالتالي هو الحركة التي جسدت هذه القومية. وإذا كان علم الكلام قد أساء للدين وزجه في إطار ليس له أساس.. فإن القومية العربية كالدين تماماً لا يمكن أن يستوعبها تحليل نظري جاهز.. وإذا كان الدين قديماً يقول كلمته في أوضاع الأمة جميعاً.. فإن القومية العربية اليوم هي: نظرية متكاملة لحياة ونظام للمجتمع، لها رأيها الصريح في الاقتصاد والنظام والأخلاق والإنسانية والدين[٤].

(١) حزب البعث العربي الاشتراكي، مصطفى دندشلي، ١/ ٨٠.
(٢) في الثقافة والحضارة، إلياس فرح، ٨٦، العراق وزارة الثقافة والفنون، دار الرشيد، ١٩٧٩م.
(٣) نضال البعث، ١/ ١٧٢.
(٤) حزب البعث العربي الاشتراكي، مصطفى دندشلي، ٨٤.

رابعاً) **الولاء والبراء في تنظيم حزب البعث:**

من نتائج تقرير (العروبة) ديناً للحزب فقد أصبح الولاء والبراء من أجلها، لذا نص دستور الحزب على أن: الرابطة القومية هي الرابطة الوحيدة القائمة في الدول العربية التي تكفل الانسجام بين المواطنين، وانصهارهم في بوتقة واحدة، وتكافح سائر العصبيات المذهبية والطائفية والقبلية والعرقية والإقليمية. وأن الأمة العربية وحدة ثقافية، جميع الفوارق القائمة بين أبنائها عرضية زائفة تزول جميعها بيقظة الوجدان العربي.

وتحقيقاً لمبدأ الولاء للقومية العربية فقد نص دستور الحزب على ما يلي:

أ - يُجلى عن الوطن العربي كل من دعا أو انضم إلى تكتل عنصري ضد العرب، وكل من هاجر إلى الوطن العربي لغاية استعمارية[١].

ب - ترمي سياسة الحزب التربوية إلى خلق جيلٍ عربي جديد مؤمن بوحدة أمته وخلود رسالتها، آخذٍ بالتفكير العلمي، وطليقٍ من قيود الخرافات والتقاليد الرجعية.. ولذا يقرر الحزب: طبعَ كل مظاهر الحياة الفكرية والاقتصادية والسياسية والعمرانية والفنية بطابع قومي عربي، يعيد للأمة صلتها بتاريخها المجيد، وتحفزها إلى أن تتطلع إلى مستقبل أمجد وأمثل..[٢].

خامساً) **حزب البعث العربي ومصدر التشريع:**

تحقيقاً لعلمانية حزب البعث فقد أعطي الشعب سلطة التشريع، ولم يُعَبَّد الناس بالوحي الإلهي، فنص دستور الحزب بأنه: حزب شعبي يؤمن بأن السلطة هي ملك

---

(١) نضال البعث، ١/ ١٧٢، ١٨١

(٢) المصدر نفسه، ١/ ١٧٢، ١٨١.

للشعب، وأنه وحده مصدر السلطات. كما يؤمن بالنضال الشعبي لبث القومية العربية، وبناء نظام اقتصادي اشتراكي يحقق العدالة الاجتماعية، وتوزيع الثورة توزيعاً عادلاً[1].

وتوسيعاً لشمولية حزب البعث العربي، فقد قرر دستور الحزب: يُوضع بملء الحرية تشريعٌ موحدٌ للدولة العربية ينسجم مع روح العصر الحاضر على ضوء تجارب الأمة العربية في ماضيها.

كما يرى حزب البعث العربي الاشتراكي أن الإنسانيةَ مجموعٌ متضامنٌ في مصلحته، مُشْتَرِكٌ في قيمه وحضاراته. فالعرب يتغذون من الحضارة الإنسانية ويغذونها، ويمدون الإخاء إلى الأمم الأخرى ويتعاونون معها على إيجاد نظم عادلة تضمن لجميع الشعوب الرفاهية والسلام[2].

ويقول أحد أعضاء الحزب: لقد أصدر حزب البعث قانوناً للأحوال الشخصية أنصف المرأة وساواها في الإرث مع الرجل، مؤكداً حقها الموازي للرجل في الطلاق، وحدد سن الزواج بثمانية عشر عاماً، ومنع تعدد الزوجات إلا في الحالات الاستثنائية، الشيء الذي أثار حفيظة المرجعيات الدينية السنية والشيعية على السواء باعتباره قانوناً مخالفاً للشرع.. وقد قررت القيادة القطرية وبعد مناقشات مطولة الإبقاء على القانون باعتباره منصفاً للمرأة حامياً لها، فضلاً عن أنه ترك الحرية للمواطن في الأخذ به أو التزام الشرع الإسلامي[3].

وفي بداية تولي الحزب السلطة في العراق، عَقَد اجتماعاً واتخذَ جملة قرارات تنظيمية وسياسية أَوْلى فيها توضيحَ هوية الحكم أهميةً كبرى، والتأكيد على التمسك

---

(١) الأحزاب السياسية في الأردن، هاني الوراني وآخرون، ٨٧.

(٢) نضال البعث، ١/ ١٧٢، ١٨١

(٣) أوكار الهزيمة تجربتي في حزب البعث العراقي، هاني الفكيكي، ١٢٩.

بقانون الإصلاح.. وأكد على وزراء الحزب ضرورة الإفصاح عن نهج الحكم التقدمي المعادي للاستعمار والرجعية[١].

سادساً) **حزب البعث والثورة العربية الكبرى:**

إن مؤسسي حزب البعث يعتبرون أنفسهم استمراراً للثورة العربية الكبرى، واختيارهم علم تلك الثورة علماً للحزب نفسه[٢]. ويبين صلاح البيطار وهو أحد مؤسسي الحزب أن سبب قبول الناس لحزب البعث ما أحدثته الثورة العربية الكبرى من وعي قومي، فيقول: كانت الناس والشباب تأتي إلى حزب البعث أفواجاً في سورية الطبيعية التي تنـزع بفطرتها إلى بعث القومية كقوة عربية ثورية، لأن سوريا الطبيعية وجدت في ظروف تاريخية وجغرافية جعلتها تسبق البلاد العربية في موضوع الوعي القومي.. فمثلاً كانت سوريا مع ثورة الشريف حسين منذ مطلعها.. الأمير فيصل توج ملكاً في دمشق عام ١٩٢٠م.. هيئة أركان الملك فيصل كانت عربية فيها العراقي والسوري والفلسطيني[٣].

وقد نص في دستور الحزب فقرة رقم (٩): (راية الدولة العربية هي الثورة العربية التي انفجرت عام ١٩١٦م لتحرير الأمة العربية وتوحيدها)[٤].

سابعاً) **العقائد الباطلة وانتماؤها لحزب البعث:**

في الدراسة السابقة عن الجمعيات القومية تبين الخلط العقائدي عند منتسبي الجمعيات القومية، وهذا الخلط يلزم مراعاته في دساتيرها وتنظيماتها.

---

(١) المصدر السابق، ٢٧٢.

(٢) سياسي يتذكر تجربة في العمل السياسي، جمال الشاعر، ٥١.

(٣) المصدر نفسه، ٦٨.

(٤) نضال البعث، ١/ ١٧٢، ١٨١

إن حزب البعث كغيره من التنظيمات القومية لم يسلم من هذا الانتماء الطائفي، ومؤسس الحزب (ميشيل عفلق نصراني. وعندما قام الكيان اللبناني على أساس طليعية المارونيين وأكثرية المسيحيين، ظلت طوائف المسلمين تستجيب لمختلف الدعوات غير اللبنانية، والعربية منها خاصةً أو الإسلامية، كذلك فإن المسيحيين من غير الموارنة كانوا أكثر استجابة من الموارنة لمثل تلك الدعوات، كالدعوة السورية القومية والشيوعية والأفكار العربية.

وكانت نسبة المسيحيين (النصارى) في حزب البعث مرتفعة لدرجة أن معظم الكوادر القيادية دون القيادة القطرية كانت مسيحية، وفي العراق بدأ تكوين الحزب في أوساط السنة من العرب، وكان الشيعة قد أقبلوا على الحزب في بداية تأسيسه إلا أن اقتراب البعثيين من السلطة أعاد للأقلية السنية امتيازاتها التقليدية وسيطرتها على الدولة والحزب[1].

ويصف أحد أعضاء حزب البعث العربي حال أعضاء قيادة الفرقة الحزبية، بأنهم: (جميعهم في الكاظمية شيعة، وكذلك كان حال أعضاء التنظيم.. حتى إن عملنا الحزبي كان يتوقف في شهر محرم ويوم عاشوراء من كل عام.. ولم يشذ أعضاء الحزب عن غيرهم من أبناء الكاظمية.. هذا التعايش بين العقائدي والمذهبي كان عامًّا، ولم يقتصر على البعثيين، فقد كنت تجد الشيوعي والقومي والديمواقرطي الوطني يمارسون بدورهم النشاطات نفسها)[2].

وعند الإعلان عن تأسيس حزب البعث، تردد عفلق في توليه قيادة الحزب، بسبب كون أمين الحزب (والذي يشغله ميشيل عفلق) رجل نصراني مع أن حزب

---

(١) سياسي يتذكر تجربة في العمل السياسي، جمال الشاعر، ٦٤.
(٢) أوكار الهزيمة تجربتي في حزب البعث العراقي، هاني الفكيكي، ٨٣.

البعث قد نشأ في بلاد مسلمة. فقد ذكر أحد مؤسسي الحزب، بأن عفلق قد قال له: (إذا كان الحزب ينوي أن يمارس العمل السياسي ويحصل على مكاسب فيجب عليه أن يتخذ الأساليب النافعة في هذا المضمار. - فذكر منها: إن حزباً قومياً في مدينة دمشق المحافظة، وهو يتألف من أكثرية ساحقة من المسلمين بحكم التكوين العام للوطن، كيف يجوز له أن يكون أمينه العام مسيحياً!؟).

فكان الرد على هذا الأمر بأن منهج الحزب إذا كان يسير تماماً وفق الأعراف الدارجة، ويخضع للمفاهيم العارضة؛ فما هي الانقلابية التي نص عليها دستور الحزب!؟ وهل الانقلابية تعني شيئاً غير التمسك بالحق ولو خالفه الكثيرون!؟ أكد لعفلق أنه ليس في الحزب أحد غيره يستطيع أداء هذه المهمة، وأن الحزب ما يزال بقضه وقضيضه يكن له الاحترام ويمنحه التأييد.. وأنه الوحيد الذي يصلح للأمانة العامة. وأن المسايرة واللين والتأثير الروحي التي ينطبع بها عفلق ليست متوافرة في غيره[1].

وبعد هذا التعريف الموجز عن حزب البعث العربي، يجب الإشارة إلى قضية مهمة وهي أن الحزب قد رفع شعار: (أمة عربية واحدة، ذات رسالة خالدة)[2].

ومن دستور حزب البعث كما في المادة رقم (٣): الفكرة القومية التي يدعو إليها الحزب هي: إرادة الشعب أن يتحرر ويتوحد، وأن تعطى له فرصة تحقيق الشخصية العربية في التاريخ...)[3].

هذه الشعارات في نظام حزب البعث لا تخرج عن كونها شعارات رمزية، ويدل على ذلك ما يلي:

---

(١) حزب البعث العربي، جلال السيد، ٨٤. (بتصرف يسير).
(٢) حزب البعث العربي الاشتراكي، مصطفى دندشلي، ٨٤.
(٣) نضال البعث، ١/ ١٧٢ - ١٨١

الأمر الأول: قال أحد أعضاء الحزب: كان معتقدي الديني ذابلاً متراجعاً لا لمصلحة عقلانية متنورة، بل أمام طغيان المعتقدية القومية على نفسي. وبطبيعة الحال لم يصاحب ذلك إيمان بالديمقراطية أو حرص على مؤسساتها. وما كنا نقوله ونكتبه عن الحريات لم يعد كونه لغواً ثقافياً وحزبياً، أو استخداماً لمصطلحات درجَتِ الأحزاب على مخاطبة الناس بها[(١)].

الأمر الثاني: تصريح مؤسس الحزب - ميشيل عفلق - في طريقة مقاومة المخالف فيقول: إن مقاومة الأفكار الهدامة لا تقتصر على مناقشتها ودحضها، بل تملي تصفية المؤمنين بها والداعين إليها[(٢)]. ولذا من دستور الحزب كما في المادة (٦): حزب البعث العربي الاشتراكي، انقلابي يؤمن بأن أهدافه الرئيسية في بعث القومية العربية وبناء الاشتراكية لا يمكن أن تتم إلا عن طريق الانقلاب والنضال. وأن الاعتماد على التطور البطيء والاكتفاء بالإصلاح الجزئي يهددان هذه الأهداف بالفشل والضياع[(٣)].

الأمر الثالث: تاريخ حزب البعث وصراعه السياسي يناقض دعواه ودستوره (أمة عربية واحدة، ذات رسالة خالدة)، فمنذ بدايات تأسيس الحزب وهو في صراع من أجل الوصول إلى السلطة[(٤)].

ويقول أحد المؤسسين للحزب: وحزب البعث عندما استلم السلطة في العراق وسورية جنح إلى الأسلوب الشديد، فعاقب على الشبهة ونفذ مبدأ المسؤولية الجماعية، وقتل وسجن وأفقر وأجاع كلَّ من يرى أنه ليس مؤيداً ولا مؤمناً بالحزب، ثم مد بعضُهم يَدَه إلى خزانة الدولة فعمل فيها إسرافاً وبعثرة[(٥)].

---

(١) أوكار الهزيمة تجربتي في حزب البعث العراقي، هاني الفكيكي، ١٠٩.

(٢) المصدر السابق نفسه، ٧٧.

(٣) نضال البعث، ١/ ١٧٢ - ١٨١. وانظر: خبراتي في الحكم، حسن الحكيم، ٥٥.

(٤) حزب البعث العربي الاشتراكي، مصطفى دندشلي، ٨٤

(٥) حزب البعث العربي، جلال السيد، ٢٠٤.

ففي سوريا مثلاً - نشأة الحزب - يقرر ميشيل عفلق تعمد تأييد وسائل العنف والثورة لأنه كان يشعر بأن مجال نجاح أهدافه الاجتماعية نادراً ما يتحقق إلا إذا أطيح بأنظمة الحكم القديمة بانقلاب عسكري، ثم يتولى الحكم صفوة مختارة من الناس يعملون على تطوير أنظمة حكم جديدة وفقاً لأفكار ومثل عليا جديدة[١].

ويقول أحد مؤسسي حزب البعث: (منذ عام ١٩٤٩م أخذ الحزب يمهد لانقلاب عسكري.. وفي ٢٩ مارس من هذه السنة أطاح الجيش بنظام القوتلي، وحل محله الزعيم حسني الزعيم[٢])[٣].. الذي حل البرلمان وعلق الدستور، ووقع اتفاقية الهدنة مع إسرائيل...، (ولم يستطع البعثيون أن يفوزوا بالكثير في ظل مثل هذا الحاكم المتسلط، فوقع الصِّدام)[٤] وزج حسني الزعيم بقيادة البعث في المعتقل لمدة ثلاثة أسابيع.. وقد تعرض عفلق في معتقله إلى المضايقات.. الأمر الذي جعله يكتب لحسني الزعيم رسالة[٥] يعترف بها عفلق بأخطائه وأخطاء حزبه.. وقد كثف حزب البعث وأكرم الحوراني اتصالاتهم بالضباط الشبان، وكان الانقلاب الثاني بتاريخ

---

(١) عرب معاصرون، مجيد خدوري، ٣٧٣، الدار المتحدة للنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٣م.

(٢) انظر الترجمة رقم (١٩).

(٣) حزب البعث، سامي الجندي، ٥١، دار النهار، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٩م.

(٤) نضال البعث، ١/ ٢٩٢.

(٥) قيادة حزب البعث المرتدة، محمود عبدالرحيم، ٦، القاهرة، الدار القومية. وانظر رسالة عفلق وبخط يده في كتاب: دولة البعث وإسلام عفلق، مطيع النونو، ٥٦١. وعن تأثير هذه الرسالة على الحزب، قال سامي الجندي: عندما خرج الأستاذ من السجن جُوبِه بثورةٍ من الحزبيين رفضوا جميعاً كل تعليل أعطي لهم، كانوا مجمعين على أن الموت أفضل، وأن المهم أن يبقى شرف الحزب ورسالته، وأن شهيداً ينقلها للأجيال خير من أحياء تراجعوا أمام التهديد والتعذيب. والبادرة كانت خطيرة وهي إنما تدل على أن القائد ميشيل عفلق قد انتهى وحل محله الأستاذ الذي ظل الحزب على ولائه له واحترام فكره دون الإيمان بقدرته على الزعامة. حزب البعث، سامي الجندي، ٥٤ - ٥٥. وعن التبريرات التي ذكرها البعثيون عن هذه الرسالة، انظر: حزب البعث العربي، جلال السيد، ٦٢ - ٦٥. وقيادة حزب البعث المرتدة، محمود عبدالرحيم، ٦.

١٤/٨/١٩٤٩م (٢٠/١٠/١٣٦٨هـ) بقيادة اللواء سامي الحناوي... وشكل الحناوي وزارة برئاسة هاشم الأتاسي[(١)]، دخلها ميشيل عفلق وزيراً للتربية، وأكرم الحوراني وزيراً للزراعة..وفي الانتخابات النيابية..فاز فيها جلال السيد - عضو اللجنة التنفيذية للحزب - عن منطقة دير الزور...وفي مارس ١٩٥٤م غادر الشيشكلي البلاد بعد إعلان النقيب مصطفى حمدون عن انقلاب جديد، وكان للبعثيين كالعادة دور طليعي في إسقاط الحكم السابق، وفي تأييد الانقلاب اللاحق[(٢)].

وحزب البعث العربي في العراق لم يخل من صراع مع مخالفيه، بل وبين أعضائه، وقد قال أحد مؤسسي الحزب في العراق: (لا أذكر أن حزب البعث أوقف هذه الاغتيالات أو حاول الوقوف في وجهها، بل يمكنني القول إننا في بعض المناطق والأحياء شجعناها ورعيناها من دون أن يكون ثمة دور مكشوف أو مباشر للحزب الذي أدان الاغتيال السياسي سابقاً)[(٣)].

ومثال الصراعات السياسية في حزب البعث العراقي: تكاتف عبدالكريم قاسم وعبدالسلام عارف بانقلاب ١٤تموز ١٩٥٨م (١٣٧٧هـ) الذي نفذه مجموعة من القوميين والشيوعيين وكان لحزب البعث علمٌ به، فقد قال أحد أعضاء الحزب: (وقبيل ١٤ تموز أبلغنا جعفر قاسم حمودي - عضو القيادة القطرية - أن أحداثاً عربية حاسمة ستحصل في القريب العاجل، طالباً وضع أجهزة الحزب ومؤيديه في حالة طوارئ..وكانت قيادة البعث على علم دقيق وتفصيلي بالثورة وتنظيمات الضباط)[(٤)].

(١) انظر الترجمة رقم (٧٠).

(٢) القومية بين النظرية والتطبيق، مصطفى محمد طحان، ٢٠١ - ٢١٦.

وانظر: خبراتي في الحكم، حسن الحكيم، ١٦ - ٢٨، فقد استعرض بداية ونهاية تولي الحكومات القومية في سوريا، والتي من ضمنها حزب البعث العربي.

(٣) أوكار الهزيمة تجربتي في حزب البعث العراقي، هاني الفكيكي، ١٦٧.

(٤) المصدر السابق نفسه، ٨٥.

ومن آثار هذا الانقلاب أن حزب البعث الذي نزل أفرادُه إلى الشارع بعد تموز[١]، كان أصبح، على ضعفه، التنظيم الحزبي الأقوى للحركة القومية في العراق.. وعين فؤاد الركابي - أمين سر الحزب - وزيراً لِلإعمار[٢]. وبعد انفراد عبدالكريم قاسم بالسلطة قامت مجموعة من البعثيين في أكتوبر ١٩٥٩م (١٣٧٩هـ) بمحاولة اغتيال قاسم[٣]. وخطط للعملية فؤاد الركابي.. وتفرد حزب البعث مع بعض أنصاره في الانقلاب الدموي ضد عبدالكريم قاسم في ٨ فبراير ١٩٦٣م، والذي أسفر عن تولية عبدالسلام عارف رئاسة الجمهورية، وتأليف حكومة برئاسة أحمد حسن البكر من بعثيين وقوميين عرب.. أما المجلس الوطني لقيادة الثورة فقد كان أغلبه من البعثيين... في غمرة الفوضى وتضارب المصالح البعثية قام عبدالسلام عارف بحركة يوم ١٨ نوفمبر ١٩٦٣م، وخلص العراق من شلة المغامرين البعثيين..، وفي ١٩٦٦م قام عبدالرزاق النايف وعبدالرحمن الداوود بانقلاب جديد تعاونا فيه مع قيادة حزب البعث[٤]. وهكذا كان وما زال تاريخ حزب البعث وواقعه صراع.. وانقلاب.

---

(١) انظر: العراق دراسة في علاقاته الخارجية وتطوراته الداخلية، عبدالمجيد القيسي، ١/ ٣٢١.

(٢) المصدر السابق نفسه، ٨٧.

(٣) لقد تمت تسع محاولات اغتيال لعبدالكريم قاسم، وكانت الجهة المسؤولة عن ذلك حزب البعث. انظر:

١. عبدالكريم قاسم وساعاته الأخيرة، أحمد فوزي ٧٢ - ٩٩، دار الحرية للطباعة، العراق، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

٢. العراق في عهد عبدالكريم قاسم دراسة في القوى السياسية والصراع الأيدلوجي (١٩٥٨، ١٩٦٣م)، محمد كاظم، ١٣٣، مكتبة اليقظة العربية، العراق، بغداد.

(٤) القومية بين النظرية والتطبيق، مصطفى محمد طحان، ٢١٧ - ٢٢١. وانظر: أوكار الهزيمة تجربتي في حزب البعث العراقي، هاني الفكيكي، ٢١٣ - ٣١٧.

الفصل الثاني:

أهم أسباب نشأة الجمعيات القومية العربية

ويحتوي على:

» تمهيد.

» المبحث الأول: الأسباب الأساسية في نشأة الجمعيات القومية العربية.

» المبحث الثاني: الأسباب الفرعية في نشأة الجمعيات القومية العربية.



تمهيد

وبعد التعريف بنشأة الجمعيات القومية، وعرض المنهج القومي الذي سلكته في المجتمعات الإسلامية، نذكر في هذا الفصل أهم أسباب نشأة الجمعيات القومية.

من خلال تتبع المراجع التي ترجمت الجمعيات القومية، وبدراسة مناهج وتنظيم تلك الجمعيات، يظهر للدارس أن هذه الجمعيات القومية العربية لم تظهر في الأمة الإسلامية بدون سبب، وإنما يقطع الباحث في تاريخها، أن ظهور الجمعيات القومية العربية في واقع المجتمعات الإسلامية؛ كانت لأسبابٍ وعواملَ قد تكون أساسية أو فرعية خضع لها المجتمع العربي خلال فترة معينة، فكانت سبباً لنشأة هذه الجمعيات.

ويمكن حصر هذه الأسباب في قسمين:

القسم الأول: أسباب أساسية.

القسم الثاني: أسباب فرعية.

المبحث الأول: الأسباب الأساسية في نشأة الجمعيات القومية

» السبب الأول: الجمعيات الماسونية في البلاد العثمانية.

قبل الحديث عن المحافل الماسونية ودورها في تأسيس الجمعيات القومية، سأورد تعريفاً موجزاً بالماسونية، والتي تعد من أخطر الجمعيات السرية، ثم أنقل الحكم الشرعيَّ في المحافل الماسونية والانتساب إليها وخطرها على الأمة.

أما التعريف بالماسونية فهي: تعني (Free Mason) أي البنّاء الحر، وهي من أقدم الجمعيات السرية التي مازالت قائمة حتى عصرنا الراهن، وكثير من الكتابات تختلف في تاريخ نشأة الماسونية وذلك بسبب سريتها، ولأنها جمعية ذات فروع ومجالات وميادين متعددة ومتشعبة في مختلف العالم[١].

ومقصدُ هذه الجمعيات المختلفة واحدٌ وهو القضاء على الدين، ولهذا كان هناك ارتباط اليهود بالمعتقد الماسوني، ويصرح أعضاء المحافل الماسونية بانتساب الماسونية لليهود، فيقولون: (إن الماسونية يهودية، وهذا ما لاشك فيه)[٢].

---

(١) عن تاريخ نشأة الماسونية انظر:

١. تاريخ الماسونية العام، جرجي زيدان، ٨٨ - ٨٩، مطبعة المحروسة، مصر، ١٨٨٩م.

٢. الحقائق الأصلية في تاريخ الماسونية العملية، شاهين مكاريوس، ١٨٢، مطبعة المقتطف، مصر، ١٨٩٧م.

٣. الماسونية عقيدة المولد وعار النهاية، محمود الشاذلي، مكتبة وهبة، مصر.

(٢) دائرة المعارف الماسونية المصورة، الماسوني: حنا أبي راشد، ٢٤، مكتبة الفكر العربي، بيروت، لبنان.

ويقول الحاخام اليهودي إسحاق وايزمن عن الماسونية: إنها مؤسسة يهودية وليس تاريخها ودرجاتها وتعاليمها وكلمات السر فيها وشروحها إلا أفكاراً يهودية من البداية إلى النهاية[1].

ومن أبرز أهداف الماسونية القضاء على الدين ونشر الإلحاد، فيقول شاهين مكاريوس الماسوني: (إننا نؤكد أن الماسون يعتبرون الأديان كلها خرافة متساوية). كما تؤكد المحافل الماسونية أنها تتجاهل الفوارق الدينية والجنسية، وأن دينها العقل المحرر من شوائب الأديان[2] - كما يقولون -.

وقد قام زعماء الماسونية من اليهود عام ١٧٧٦م (١١٨٩هـ) بإعداد مخطط على أسس حديثة نظموه من أجل السيطرة على العالم عن طريق فرض عقيدة الإلحاد، ويحقق هذا المخطط الأهداف التالية:

١) تدمير جميع الحكومات الشرعية وتقويض الأديان السماوية.

٢) تقسيم البشر إلى معسكرات متنابذة تتصارع فيما بينها بشكل دائم حول عدد من المشكلات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والعنصرية.

٣) بث سموم الشقاق والنزاع داخل البلد الواحد وتمزيقه إلى فئات متناحرة وإشاعة الحقد فيه، وتقويض دعاماته الأخلاقية والدينية والمادية.

وقد نصت مضابط المحفل الماسوني الأكبر عام ١٨٩٧م (١٣١٤هـ): لا يقبل المتدينون في المحافل الماسونية لأن الذي ينخرط في المحافل يجب أن يكون حراً، والماسوني الحقيقي لا يكون متديناً، وعلى الماسونية أن تتفق مع أولئك الذين لا يدعون إلى الدين

---

(١) اليهودية، أحمد شلبي، ٣٢٦، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة السابعة، ١٩٨٤م.

(٢) دائرة المعارف الماسونية، ٨٠.

أمثال الاشتراكيين والديمقراطيين، ودعاة حقوق الإنسان والجمعيات المتحررة الأخرى، وعليها أن تشترك في المجالات الأخرى للعمل كالجامعات الشعبية والمدارس السياسية والمؤسسات الأخرى[1].

ولخطورة هذه المبادئ على عقيدة المسلمين، فقد صدر القرار من المجمع الفقهي في مكة المكرمة حكماً شرعياً حول الماسونية والانتماء إليها، ونص القرار ما يلي:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداه، أما بعد:

نظر المجمع الفقهي في دورته الأولى المنعقدة بمكة المكرمة في ١٠/٨/١٣٩٨هـ، الموافق ١٥/٧/١٩٧٨م، في قضية الماسونية والمنتسبين إليها، وحكم الشريعة الإسلامية في ذلك.

وقد قام أعضاء المجمع بدراسة وافية عن هذه المنظمة الخطيرة، وطالع ما كتب عنها من قديم وجديد، وما نشر من وثائقها نفسها فيما كتبه ونشره أعضاؤها وبعض أقطابها، من مؤلفات ومن مقالات، في المجلات التي تنطق باسمها.

وقد تبين للمجمع في صورة لا تقبل الريب من مجموع ما اطلع عليه من كتابات ونصوص، ما يلي:

---

(١) اليهودية والماسونية، عبدالرحمن الدوسري، ٤٣و٤٧، دار السنة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ، وانظر:

١. الماسونية والماسونيون في الوطن العربي، حسين حمادة.
٢. الماسونية ذلك العالم المجهول، صابر طعيمة.
٣. الماسونية في العراء، محمد الزغبي.
٤. أسرار الماسونية، جواد رفعت.

١ - إن الماسونية منظمة سرية، تخفي تنظيمها تارة، وتعلنه تارة بحسب ظروف الزمان والمكان، ولكن مبادئها الحقيقية التي تقوم عليها هي سرية في جميع الأحوال، محجوبٌ عِلْمُها حتى على أعضائها إلا خواص الخواص الذين يصلون بالتجارب العديدة إلى مراتب عليا فيها.

٢ - إنها تبني صلة أعضائها بعضهم ببعض في جميع بقاع الأرض على أساس ظاهري للتمويه على المغفلين، هو الإخاء الإنساني المزعوم بين جميع الداخلين في تنظيمها، دون تمييز بين مختلف العقائد والنحل والمذاهب.

٣ - إنها تجتذب الأشخاص إليها ممن يهمها ضمهم إلى تنظيمها بطرق الإغراء بالمنفعة الشخصية، على أساس أن كلَّ أخٍ ماسونيٍ مجندٍ عونُ كلِّ أخٍ ماسوني آخر في أي بقعة من بقاع الأرض، يعينه في حاجاته وأهدافه ومشكلاته، ويؤيده في الأهداف إذا كان من ذوي الطموح السياسي، ويعينه إذا وقع في مأزق من المآزق أيّاً كان، على أساس معاونته في الحق والباطل ظالماً أو مظلوماً، وإن كانت تستر ذلك ظاهرياً، بأنها تعينه على الحق والباطل، وهذا أعظم إغراء تصطاد به الناس من مختلف المراكز الاجتماعية.

٤ - إن الدخول فيها يقوم على أساس احتفال بانتساب عضو جديد تحت مراسم وأشكال رمزية إرهابية لإرهاب العضو إذا خالف تعليماتها، والأوامر التي تصدر إليه بطريق التسلسل في الرتبة.

٥ - إن الأعضاء المغفلين يُتْركون أحراراً في ممارسة عباداتهم الدينية، وتستفيد من توجيههم وتكليفهم في الحدود التي يصلحون لها، ويبقون في مراتب دنيا، أما الملاحدة أو المستعدون للإلحاد فترتقي مراتبهم تدريجياً في ضوء التجارب والامتحانات المتكررة للعضو، على حسب استعداده لخدمة مخططاتها ومبادئها الخطيرة.

٦ - إنها ذات أهداف سياسية، ولها في معظم الانقلابات السياسية والعسكرية والتغييرات الخطيرة ضلع وأصابع ظاهرة أو خفية.

٧ - إنها في أصلها وأساس تنظيمها يهودية الجذور، ويهودية الإدارة العليا العالمية السرية، وصهيونية النشاط.

٨ - إنها في أهدافها الحقيقية السرية ضد الأديان جميعاً لتهدمها بصورة عامة، وتهدم الإسلام في نفوس أبنائه بصورة خاصة.

٩ - إنها تحرص على اختيار المنتسبين إليها من ذوي المكانة المالية أو السياسية أو الاجتماعية العلمية، أو أية مكانة يمكن أن تستغل نفوذها لأصحابها في مجتمعاتهم، ولا يهمها انتساب من ليس له مكانة يمكن استغلالها، ولذلك تحرص كل الحرص على ضم الملوك والرؤساء والوزراء وكبار موظفي الدولة ونحوهم.

١٠ - إنها ذات فروع تأخذ أسماء أخرى تمويهاً وتحويلاً للأنظار، لكي تستطيع ممارسة نشاطاتها تحت مختلف الأسماء إذا لقيت مقاومة لاسم الماسونية في محيط ما، وتلك الفروع المستورة - بأسماء مختلفة، من أبرزها منظمة الأسود (الليونز)، والروتاري - إلى غير ذلك من المبادئ والنشاطات الخبيثة، التي تتنافى كلياً مع قواعد الإسلام وتناقضه مناقضة كلية.

وقد تبين للمجمع بصورة واضحة العلاقة الوثيقة للماسونية باليهودية الصهيونية العالمية... لذلك ولكثير من المعلومات الأخرى التفصيلية عن نشاطات الماسونية وخطورتها العظمى، وتلبيساتها الخبيثة، وأهدافها الماكرة، يقرر المجمع الفقهي اعتبار الماسونية من أخطر المنظمات الهدامة على الإسلام والمسلمين، وأن من ينتسب إليها وهو

على علم بحقيقتها وأهدافها فهو كافر بالإسلام مجانب لأهله. والله ولي التوفيق[١].

ولقد سبق الحديث في الفصل الأول عن علاقة بعض أعضاء الجمعيات القومية بالمحافل الماسونية، وبيان أسماء المحافل الماسونية في البلاد العربية[٢].

وفي هذا المبحث سأبين أن المحافل الماسونية التي أُنشِئت في البلاد العربية كانت من الأسباب الأساسية في نشأة الجمعيات القومية العربية، حيث شكلت المحافل أطراً لتبادل الأفكار القومية التحررية من الدين ونشرها.

لقد أكد الباحثون في تاريخ الماسونية في الوطن العربي أن الماسونية قد وجدت طريقها إلى سوريا. واشترك فيها الكثير من أعضاء الجمعيات القومية، حيث رأوا أن انتسابهم إلى المحافل الماسونية فيه كل الخير لقضيتهم[٣]، كما اهتمت المحافل الماسونية بشاغلي الدرجات الرفيعة في الجمعيات القومية العربية[٤].

ويمكن حصر تأثير وإملاء الأسس الماسونية على نظم ومبادئ الجمعيات القومية العربية في القرن الرابع عشر، بما يلي:

أولاً: تزعم بعض أعضاء الجمعيات القومية رئاسة وتأسيس محافل الماسونية:

سبقت الإشارة في الفصل الأول من الباب الأول إلى بعض أسماء المحافل الماسونية في الوطن العربي، وقد تزعم بعض أعضاء الجمعيات القومية العربية رئاسة المحافل الماسونية، ومنهم:

---

(١) جريدة أخبار العالم الإسلامي، تاريخ ١١/٦/١٣٩٩هـ.

(٢) انظر: ص (٣٧) من الرسالة.

(٣) الماسونية والماسونيون في الوطن العربي، حسين حمادة، ١٧٧.

(٤) يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ٧٩، الطبعة غير المعربة.

١) عادل أرسلان - أحد أعضاء المنتدى الأدبي -[١] شارك في رئاسة المحفل الأكبر الوطني السوري اللبناني[٢].

٢) فارس الخوري: من مؤسسي جمعية بيروت السرية[٣]، فقد كان من أعضاء المحفل الأسكتلندي، وهو من أقدم محافل الماسونية في سوريا ولبنان[٤].

٣) إلياس حبالين: وقد شارك في محافل الماسونية في سورية[٥].

٤) عبدالرحمن الشهبندر: من أعضاء المنتدى الأدبي[٦] وقد كان من أعضاء المحفل الأسكتلندني في دمشق[٧].

٥) محمد جميل بيهم: من المؤسسين للجمعيات القومية، وقد تولى رئاسة المحفل الماسوني في لبنان عام ١٩٢٤م[٨].

٦) سعيد الجزائري: الذي حصل على لقب القطب الأعظم[٩]وكان من أبرز دعاة القومية العربية، فكان أول من نادى في دمشق بالثورة العربية[١٠].

وقد ضمت محافل الماسونية بعض زعماء القوميين، مثال ذلك: نوري السعيد،

(١) انظر: ذكرياتي على هامش القضية العربية، أسعد داغر، ١٢٦.

(٢) الماسونية والماسونيون في الوطن العربي، حسين حمادة، ١٥٧.

(٣) انظر: نشوء القومية العربية، زين نور الدين زين، ٦٠.

(٤) الماسونية ذلك العالم المجهول، عبدالحليم إلياس الخوري، ٥٤.

(٥) جريدة المقتطف الجزء ٣٦، ٢٥٠ - ٢٧٠، مارس ١٩١٠م. وانظر العرب والترك، توفيق برو، ٤٣.

(٦) انظر الترجمة رقم (٤٢). وانظر: مذكراتي على هامش القضية العربية، أسعد داغر، ١٢٦.

(٧) الماسونية والماسونيون في الوطن العربي، حسين حمادة، ١٦٣.

(٨) انظر الترجمة رقم (٦٠). وانظر: مقدمة كتاب فلسفة تاريخ محمد ﷺ، حسان حلاق، ١٣.

(٩) انظر الترجمة رقم (٢٩). وانظر: الماسونية ما لها وما عليها ماضيها وحاضرها، سعيد الجزائري، ٣٥٤.

(١٠) جهاد نصف قرن الأمير سعيد آل عبدالقادر الجزائري، أنور الرفاعي، ٩٨.

وتوفيق السويدي، وأديب الشيشكلي [١].

ويؤكد من كتب عن رموز الحركة العربية الحديثة، أن أعضاء الجمعيات القومية العربية قد نظموا صفوفهم مستفيدين من **الأنظمة الماسونية السرية، فأخذوا يؤسسون الجمعيات السرية على غرار تلك الأنظمة مقتبسين بعض طقوسها للمحافظة على سريتها**، حتى يمكن القول بحق كما قيل يوماً في فرنسة بأن تاريخ النهضة العربية هو تاريخ الجمعيات السرية التي أسسها متعصبون لقوميتهم دفاعاً عنها ورداً على تحدي دعاة القومية التركية[٢].

ويذكر الباحث (نجدة صفوت) أنه حصل على إحدى القوائم بأسماء الماسونيين في العراق، ووجد فيها أن المنتمين للماسونية جميعهم من الطبقة البورجوازية والعليا في المجتمع العراقي، وبينهم ٣٥ وزيراً ورئيس وزراء سابق على الأقل، وعدد من الشخصيات البارزة التي احتلت مراكز هامة في الدولة، وعدد من كبار ضباط الجيش[٣].

وقد قال السفير البريطاني جيرارد لاثر: (إن بعض نواب المعارضة وخاصة العرب منهم، أدركوا بأنهم أصبحوا مبعدين عن مصادر السلطة وخارج تيار الأسرار السياسية والمؤتمرات المحلية، فبدؤوا ينشئون لهم محافل ماسونية خاصة بهم، أو ينضمون إلى المحافل القائمة)[٤].

ومما أكده الباحثون عن تاريخ تأسيس المحافل الماسونية أن الانتساب إلى المحافل الماسونية كان يخص الفئة التي تشربت أفكار الثورات الأوروبية فقط، و أما العامة فيصف

---

(١) انظر الترجمة رقم (٣). وانظر: الماسونية والماسونيون في الوطن العربي، حسين حمادة، ١٦٨.
(٢) الشيخ طاهر الجزائري (رائد النهضة العلمية في بلاد الشام)، عدنان الخطيب، ١٣٣ - ١٣٤.
(٣) الماسونية في الوطن العربي، نجدة صفوت، ٥٤.
(٤) الماسونية والماسونيون في الوطن العربي، حسين حمادة، ١١٣.

أحد أعضاء الجمعيات والمنتسب إلى المحافل الماسونية، موقفهم منها، فيقول:..أما العامة فلا تسأل عما غرس في أذهانهم من الكره والاحتقار لجماعة الماسون حتى أصبح اسمهم مرادفاً لأدنى صفات الاحتقار عندهم، فكانوا إذا أرادوا المبالغة في وصف أحد الكفرة أو المنافقين لا يجدون أنسب من قولهم (فارماسون)[١]، وهذا مما يجعل من ينتسب إلى هذه المحافل أن يكتم أمره عن الناس.

وقال محمد كرد علي[٢]: (قَلَّ أَنْ رأيتُ موظفاً كبيراً لم يدخل الماسونية، ومعظم من انضموا إلى حظيرتها عندما كانوا من الطامعين في حمايتها)[٣].

وانتساب الفئة التي تشربت الثقافة العلمانية في المحافل الماسونية قد ذكرها السلطان عبدالحميد في مذكراته، - الذي كان على علم بالمحافل الماسونية وأهدافها في الدولة العثمانية -، فقد قال في مذكراته عن المحافل الماسونية: (إنهم يحاولون بحماس زائد نشر أفكار تجديدية لا يفهمها الناس.. والذين يميلون إلى التعاون مع هؤلاء حفنة من الناس بقيتْ خارج البلاد ردحاً من الزمن فانقطعت عن جذورها، وتثقفت ثقافة أوربية سطحية براقة)[٤].

ثانياً) تشابه في التنظيم والتأسيس:

وعن تأثير المحافل الماسونية في الجمعيات القومية العربية، ظهور التشابه البيّن في النظم والمبادئ وقد صرح أعضاء الجمعيات بأن للمحافل الماسونية دوراً بارزاً في نشأة

---

(١) السر المصون في شيعة الفرمسون، لويس شيخو اليسوعي، ١٤، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩١٠م، وانظر: تاريخ الماسونية، جرجي زيدان، ١٩٨. وكلمة (فارماسون) كلمة لاتينية، وتعني (البناؤون الأحرار). كما ذكرت ذلك: دائرة المعارف الماسونية، حنا أبي راشد.

(٢) انظر الترجمة رقم (٦٣).

(٣) مذكرات محمد كرد علي، ١/ ٣٢٥، نقلًا من كتاب الشيخ طاهر الجزائري، عدنان الخطيب، ١٣٩.

(٤) مذكراتي السياسية، السلطان عبدالحميد، ٧٣.

الجمعيات القومية، كما قال فارس نمر: إن كثيرين من أحرار سورية النابغين يعترفون بالفضل في خدمة الحرية لرجال العشيرة الماسونية في سورية من مسلمين ومسيحيين. فيا طالما سهروا الليالي وبذلوا الرخيص والغالي لإعداد أبناء سورية لقبول المبادئ الحرة والنظامات الدستورية[(١)].

ويقول شاهين مكاريوس - أحد أعضاء جمعية بيروت السرية -: (في سنة ١٨٨٨م (١٣٠٣هـ) ترأس المحفل الأكبر توفيق باشا[(٢)] خديوي مصر، وأناب عنه حسين فخري باشا. وكان بين سعادة فخري باشا وبيننا مودة، فكنا نزوره مراراً في منزله ونتلقى منه التعليمات اللازمة، ونزور بصحبته المحافل الوطنية وغيرها، فزهت بمدته الماسونية وكثر عدد أعضائها، وكان الخديوي توفيق باشا يود نجاح الماسونية ويشجعها في أعمالها، ويهتم في شؤون أعضائها وترقيتهم[(٣)].

فمن أوجه التشابه في النظام بين المحافل الماسونية والجمعيات القومية أن طريقة الانتساب إلى الجمعيات القومية واحدة، ففي نظام الانتساب إلى الجمعيات القومية يلاحظ تطبيق مبدأ السرية، وينص نظام الجمعية بأنه: إذا ما أنس أحد الأعضاء في شخص عربي نزعة وطنية عربية نظير نزعتنا وجب عليه أن يقدم تقريراً حتى إذا ما دُرس الدراسة الوافية، واستوثقت الجمعية من أهليته، أصدر القرار بقبول انتسابه مبدئياً، ثم عُهد إلى شخصين هما مُقَدِّمُهُ وأحدُ الأعضاء بدراسة كافةِ أحواله وملابساته.. ومتى تم

---

(١) مجلة المقتطف، الجزء الثالث، المجلد (٣٦)، سنة ١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م، مقال: (النهضة الدستورية، فارس نمر).

(٢) محمد توفيق باشا بن إسماعيل بن إبراهيم بن محمد علي، ولد عام ١٢٦٩هـ، وتعلم في القاهرة، أكبر أبناء (إسماعيل) تولى الخديوية بعد عزل والده عام ١٢٩٦هـ، أنشأ نظام الشورى ومحاكم أهلية، في عصره نشبت الثورة العرابية، توفي بالقاهرة عام ١٣٠٩هـ. انظر: الأعلام، الزركلي، ٦/ ٦٥.

(٣) تاريخ الماسونية القديمة وآثارها، شاهين مكاريوس، ١٤٩، دار مارون عبود، ١٩٨٤م.

هذا كله دعي إلى تأدية القسم أمامهما فقط، وهو لا يعرف من أعضاء الجمعية غيرهما[١].

وفي تنظيم محافل الماسونية لا يترك أمر الدخول في عضويته عفوياً ولمن شاء فقد كان لزاماً أن يمر العضو الماسوني بمجرد انخراطه في التنظيم الماسوني بمراحل أو بأشكال تنظيمية لاختبار معدن العضو الجديد ومعرفة مدى كفاءته[٢].

ولقد أولت المحافل الماسونية عناية فائقة بتثقيف أعضائها، وقامت بنشر أفكارها بين الأعضاء على أساس الإخاء والمساواة بين البشر من كل الطبقات دون تمييز للمهنة والقومية والدين[٣].

هذه هي العقيدة الحقيقية للماسونية، وأما تأسيس الجمعيات القومية العربية فهي قضية مرحلية لتطبيق أهداف الماسونية، ولذا أوصت المحافل الماسونية أتباعها، بأن ينفذوا في صفوف الجمعيات الدينية وغيرها، بل عليهم إن احتاج الأمر أن يقوموا بتأسيس تلك الجمعيات على أن لا تشم منها أي رائحة حقيقية للدين[٤].

ومن أجل هذه التوصيات فقد ظهر في تأسيس الجمعيات القومية أن القوميين اتبعوا مبدأ تأسيس الجمعيات على أسس ماسونية، فجمعية زهرة الآداب - مثلاً - والتي تأسست في بيروت، يقول سليمان البستاني - أحد مؤسسيها -: (نهض شبان البلاد على اختلاف نزعاتهم إلى إنشاء المنتديات وتأليف الجمعيات العلمية والأدبية طلباً للإفادة والاستفادة.. ولا أزال أذكر ذلك اليوم الميمون إذ حدا بيننا هذا الحادي فألفنا جمعية زهرة

---

(١) جمعية العربية الفتاة السرية، سيهلة الريماوي، ٧٧.

(٢) الآداب الماسونية، شاهين مكاريوس وهو أحد أعضاء جمعية بيروت السرية. انظر: الماسونية ذلك العالم المجهول، صابر طعيمة، ١٦١، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨١م.

(٣) الاتجاهات الاجتماعية والسياسية، الكوثراني، ١١٥.

(٤) الأجوبة المفيدة، عبدالرحمن الدوسري، ١٧٩، دار الأرقم، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ.

الآداب في بيروت، وتآلفنا عصابة لم يكن فيها أثر لفارق بين مسلم ومسيحي، وسننّا قانوناً فجعلنا أول مواده منع التعرض للبحث في الدين والسياسة)[١]. وجمعية زهرة الآداب تعد من المحافل الماسونية في البلاد العربية[٢].

ثالثاً) تبني أعضاء الجمعيات القومية المبادئ الماسونية:

إن كثيراً من المبادئ التي دعت إليها الجمعيات القومية العربية تتفق مع المبادئ الماسونية، وسوف أذكر نماذج من أوجه تأثير المبادئ الماسونية على الجمعيات القومية. فمن ذلك ما يلي:

١) الدعوة للشعار الماسوني:

إن شعار الماسونية (حرية - عدالة - أخوة - مساواة) أصبح دارجاً على مبادئ وأنظمة الجمعيات القومية العربية[٣]، فيقول محمد عزة دروزة عن شعار الماسونية: لقد أصبح شعاراً عاماً تردده الأفواه وتوضع به الشعارات الحمراء والبيضاء على الصدور والحوانيت والمؤسسات[٤].

لقد أصبح الشعار الماسوني ضمن المبادئ القومية التي تنادي بها الجمعيات، فقد قال البارودي[٥] في مذكراته: (المثقفون من أبناء البلاد - العربية - مشوا مع أحرار الأتراك

---

(١) عبرة وذكرى، سليمان البستاني، ٥٥، مطبعة الأخبار، أكتوبر، ١٩٠٨م.
(٢) السر المصون في شيعة الفرمسون، لويس شيخو اليسوعي، ٢/ ٤٦. تأسست سنة ١٨٧٣م، وبلغ عدد أعضائها ٤٠ عضواً.
(٣) انظر الاتجاهات الفكرية في عصر النهضة (١٧٩٨، ١٩١٤م) علي المحافظة، ٩٧، الأهلية للنشر، بيروت، ١٩٨٣م. (أخوة، حرية، مساواة) هو الشعار الماسوني انظر: دائرة المعارف الماسونية، حنا أبي راشد، ١/ ٢٥١.
(٤) نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ٢٧٧.
(٥) انظر الترجمة رقم (٥٦).

ينادون مثلهم، ويخطبون ويرشدون إلى تفسير (الحرية والمساواة والعدالة والأخوة)، وجدت هذه الكلمات صدى في نفوس الناس، وراح الاتحاديون - جمعية الاتحاد والترقي - ينادون بالإخاء، فيجمعون رجال الأديان المختلفة، ويطلبون إليهم أن يتعانقوا بعضهم مع بعض، ويخطبوا بعد العناق بتأييد هذا الإخاء... قام شبان الأتراك يخطبون باللغة التركية، وخريجو المدارس العالية من أبنائنا يخطبون باللغة العربية، ومنهم السادة: الإنكليزي[1]، والشهبندر[2]، وفارس الخوري[3]. وكانوا يؤثرون على الجماهير بأقوالهم، ويسترسلون في الحديث عن الحرية ومعانيها)[4]، وجميع من ذكرهم البارودي من أعضاء الجمعيات القومية.

وتفاعل أعضاء الجمعيات القومية مع هذه المبادئ الجديدة وفق المنهج الماسوني، فقد عالج أعضاء الجمعيات موضوع الحرية مثلاً، وكلهم مجمعون على أنها الضالة الحبيبة المنشودة وعرفوها: أنه يباح للمرء عمل كل ما يريد شرط أن لا يؤذي غيره.. وكما سعت الثورة الفرنسية إلى حرية الرأي والعقيدة الدينية والطباعة والخطابة والانتخاب، وحرية التصرف بالأملاك وتنظيم الجمعيات.. (٥)فقد سعى أعضاء الجمعيات إلى هذه الحريات جميعها وعالجوا قضية المساواة، وفهموها كما فهمتها الماسونية وأقرتها، أي: مساواة أمام قانون واحد يسري على جميع المواطنين، يَمْثُلون كلهم أمامه لا فرق بين غني وفقير، وأبناء مذهب ومذهب[6].

---

(١) انظر الترجمة رقم (٤٦).

(٢) انظر: مذكرات عبدالرحمن الشهبندر، دار الإرشاد، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٨٦هـ.

(٣) انظر الترجمة رقم (٤٥).

(٤) مذكرات البارودي، ١/ ٦٣.

(٥) انظر الترجمة رقم (٦٠). وانظر:مقدمة كتاب فلسفة تاريخ محمد ﷺ، حسان حلاق، ١٣.

(٦) الفكر العربي الحديث وأثر الثورة الفرنسية في توجيهه السياسي والاجتماعي، رئيف الخوري، ١٥١. (بتصرف يسير)

٢) الثناء على الثورة الفرنسية والتأثر بمنهجها الثوري:

إن أفكار الثورة الفرنسية، ذات الفكر والمعتقد الماسوني[(١)] كان لها عظيم الأثر على الجمعيات القومية، وقد اعتبر أعضاء الجمعيات الثورة الفرنسية من أسباب الرقي وقالوا عنها: لولا الثورة الفرنسية لما ارتقى الإنسان، واصطلح نوع الأحكام إلى ما هي عليه الآن، ليس في فرنسا وحدها، بل في أوربا كلها، بل في العالم قاطبة[(٢)].

وأثناء انعقاد المؤتمر العربي الأول في باريس تحدث رئيس المؤتمر عبدالحميد الزهراوي عن موضوع (تربيتنا السياسية) مبيناً موقف الجمعيات القومية تجاه الأفكار الأوربية في مجال السياسة والاجتماع، ومما قاله الزهراوي: إنه حان للشرق أن يمشي في المسائل السياسية والاجتماعية مشية أخيه (الغرب)، والغرب اليوم مقتد بالشرق، ومهما أردنا أن نقول يجب على الشرقي أن يحتاط فيما يريد أخذه من بدع الغرب، فإننا لا نستطيع أن ننكر أن عدم اقتباس الشرقيين شيئاً من وسائل حرية الغربيين فيه من الخطر أضعاف أضعاف ما في الجمود على الحالات المعهودة، فالاقتباس لا بد منه.

وبعد تقرير هذه التبعية للمبادئ الغربية قال الزهراوي: واجب علينا الشكر لأساتذتنا الذين لم يبلغوا مكانتهم في الاجتماع والسياسة مجاناً، ولهذا رأيت أن أعلن في مقدمة خطبتي أننا سنعترف بالجميل دائماً، وأننا سنحتفظ لأوربا ذكرى ما نقتبسه منها..

---

(١) وقف كثير من المؤرخين على العلاقة الوثيقة بين الماسونية وبين الثورة الفرنسية. وفي مقدمتهم المسيو (تموترو) الذي نشر مذكراته التاريخية عام ١٩١٢م. والذي أكد صراحةً بأن الثورة الفرنسية كان ضبط أزمتها في أيدي الماسونية، وأنهم هم الذين دبروا كل فصولها ولعبوا كافة أدوارها. انظر: العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي، أنور الجندي، ٤٥٧، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٣م.

(٢) الفكر العربي الحديث أثر الثورة الفرنسية في توجيهه السياسي والاجتماعي، رئيف الخوري، ١٢٢، دار المكشوف، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٧٣م.

وجئنا أوربا ونريد أن يجيئها كثيرون منا لتكبر عقولنا وهممنا برؤية آثار العقول والهمم، جئنا أوربا ليزداد علمنا في حضارتها وأساليب اجتماعها الراقي..)[١].

كما قد شبه أعضاء الجمعيات (الثورة العربية) - التي قادها أعضاء الجمعيات - بالثورة الفرنسية، واعتبروا الثورة العربية ثورة عامة على سائر نظم البلاد، غايتها قلب النظم الاجتماعية قبل النظم السياسية، وقد حذا فريق من قادتها حذو أمثالهم في فرنسا، وقلدوهم تقليداً تاماً، ورَمَوْا إلى ما رَمَوْا إليه من أهداف في الثورة الفرنسية الكبرى[٢].

إن الدول الصليبية وبالذات فرنسا أصبحت حامية ومباركة للجمعيات القومية العربية، ولذا كانت نشأة بعض الجمعيات القومية على أرض فرنسا في (باريس)[٣] ومؤسسو الجمعيات قد درسوا وتخرجوا من جامعتها[٤].

ولقد كان من نتائج انتساب أعضاء الجمعيات القومية العربية إلى المحافل الماسونية، أن تولدت كما يقول فيليب حتي: مبادئ القومية العربية الشاملة، واستمدت وحيها على الأغلب من النظريات السياسية الأمريكية، التي استمدت إلهامها من مبادئ الثورة الفرنسية، وكان ظهور مبادئ القومية العربية على يد رجال الفكر السوريين، وغالبهم من اللبنانيين المسيحيين الذين تثقفوا في المدارس الأمريكية في بلادهم.

---

(١) المؤتمر العربي الأول المنعقد في القاعة الكبرى للجمعية الجغرافية في باريس، ٣١.

(٢) معروف الرصافي (دراسة أدبية لشاعر العراق وبيئته السياسية والاجتماعية)، بدوي أحمد طبانة، ٥، القاهرة، ١٩٤٦م.

(٣) كجمعية رابطة الوطن العربي، وجمعية العربية الفتاة، وحزب البعث. انظر: ص(٥٢و١١٧) من الرسالة.

(٤) انظر أثر البعثات العلمية في تأسيس الجمعيات القومية العربية، ص (١٩٨) من الرسالة.

وبعد أن بين فيليب أثر انتساب أعضاء الجمعيات القومية إلى المحافل الماسونية قال فيليب: (ومما لا ريب فيه أن القومية الحديثة إنما هي بضاعة غربية استوردها العالم بما فيه الشرق العربي من أوربا الغربية)[١].

٣) نشر المعتقدات العلمانية في واقع المسلمين:

من قرارات المؤتمر الماسوني، الذي عقدته المحافل الماسونية السورية اللبنانية في مدينة دمشق سنة ١٩٢٤م، وترأسه القطب الأعظم صاحب الشوكة الأمير محمد سعيد الجزائري، ما يلي:

١) أن يكون التعليم علمانياً، مع المطالبة بتسليم الكليات التابعة لجامعة (ليون) إلى إدارة فرنسية غير مقيدة بواجبات مذهبية (كاثوليكية).

٢) إزالة الطائفية في الوظائف الإدارية، وجعل الكفاءة أساس التوظيف[٢].

ويذكر فؤاد الغصن[٣] الماسوني في مذكراته عن هذا المؤتمر بأنه قد: قامت مختلف الهيئات في سوريا ولبنان تدرس وتخطط في سبيل السير قُدماً نحو التقدم والفلاح، وكان في طليعة هذه الهيئات البناؤون الأحرار - أو الماسونيون إذا شئت -، فعقدت محافلهم مؤتمراً تمهيدياً في سوريا العام ١٩٢٤م، اتُّخذت فيه مقررات لدرس الأمور التالية:

١) القانون الأساسي للبلاد.

٢) الحرية الشخصية في المسكن والقول والنشر.

---

(١) العرب تاريخ موجز، فيليب حتي، ٢٧٢، ٢٧٣، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٨٠م.

(٢) الماسونية والماسونيون في الوطن العربي، حسين حمادة، ١٣٦ (بتصرف).

(٣) انظر الترجمة رقم (٥٣).

٣) التشريع الفردي وأنظمة القضاء، ووضع القوانين.

٤) مسائل التربية والتعليم[١].

ولنشر أفكار محافل الماسونية أصدروا عدداً من الصحف والمجلات في البلاد العربية، مثال ذلك: جريدة الأحرار، فقد اتفقت جماعة البنّائين الأحرار على تأسيس جريدة كبرى تنطق بلسانهم، وتعبر عن أمانيهم بالاتحاد والتعاون في سبيل دعم النهضة الجديدة، فكان أن استقر رأيهم على أن يؤسس لهذه الغاية شركة مساهمة لجريدة أطلق عليها اسم (الأحرار)، وتولى جبران التويني[٢] الصحافي - أحد أعضاء محافل الماسونية - إدارة الجريدة ورئاسة تحريرها، فكانت أوسع الجرائد انتشاراً، إذ كانت تقرأ في كل مكان من البلاد العربية[٣].

ومن الصحف الماسونية في البلاد العربية، (مجلة اللطائف)، وكان صدور المجلة سنة ١٨٨٦م (١٣٠٣هـ) أصدرها شاهين مكاريوس الماسوني وأحد أعضاء جمعية بيروت السرية، وقد روجت المجلة لأفكار الماسونية، وتوقفت المجلة لوفاة شاهين مكاريوس سنة ١٩١٠م (١٣٢٨هـ)، ثم استمر في النشر سنة ١٩١٥م (١٣٣٣هـ) على يد إسكندر بن شاهين مكاريوس[٤].

ومن الصحف أيضاً مجلة (المقتطف) ومن مؤسسيها فارس نمر، وكذلك صحيفة الهلال وحررها جرجي زيدان[٥] الذي صور الماسونية بأنها حركة حرية وخير[٦].

---

(١) مذكراتي خلال قرن، فؤاد غصن، ٢٤٠.

(٢) انظر الترجمة رقم (١٣).

(٣) مذكراتي خلال قرن، فؤاد غصن، ١٤١. (بتصرف يسير)

(٤) الماسونية في منطقة ٢٤٥، أبو إسلام أحمد عبدالله، ٤٣، ٤٤.

(٥) انظر الترجمة رقم (١٤).

(٦) اليقظة الإسلامية في مواجهة التغريب، أنور الجندي، ١٦٥، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٩١م.

٤) تهميش الدين الإسلامي:

ومن المبادئ الماسونية التي تأثرت بها الجمعيات، تهميش الدين وعدم الاهتمام به، حيث اعتبرت الماسونية الأديان كلها خرافة متساوية، قال كولفين: (إننا إذا سمحنا ليهودي أو لمسلم أو لكاثوليكي أو لبروتستانتي بالدخول في أحد هياكل الماسونية فإنما ذلك يتم على شرط أن الداخل يتجرد عن أضاليله السابقة، ويجحد خرافاته وأوهامه التي خدع بها في شبابه، فيصير رجلاً جديداً، فلو بقي على ما كان عليه لا يستفيد ألبتة من محافلنا الماسونية)[١].

وهذا الموقف الماسوني من الدين تأثرت به الجمعيات القومية العربية، فقد أصبح مفهوم (الأخوة) عند رجال الحركة القومية العربية: هو كل من آمن ببلاد العرب وطناً له، وبالعرب إخواناً له، دون اعتبار لدينه أو مذهبه.

وقررت الجمعيات القومية أن الحركة القومية الحديثة لم تقم على أي مبدأ عنصري أو تعصبي أو ديني. ومنذ البداية قامت التشكيلات الحزبية على اشتراك العرب المسلمين والمسيحيين[٢]. فكانت بمقتضى مناهجها - قد قررت الجمعيات القومية - أن يُترك كلُّ إنسانٍ ومعتقده، فلست على أحد بمسيطر، والناس أحرار لهم أن يدينوا بما يشاؤون، ويتعصبوا بما يريدون[٣].

وقد ورث أعضاء الجمعيات القومية العربية، البغض الشديد للدين، والقصيدة التالية التي قالها أحد أعضاء الجمعيات القومية والمتأثر بالمحافل الماسونية، تعبر عن ذلك:

---

(١) السر المصون في شيعة الفرمسون، لويس شيخو اليسوعي، ٢٣.

(٢) الحركة العربية سيرة المرحلة الأولى للنهضة العربية الحديثة، سليمان موسى، ٦٣.

(٣) جريدة المفيد برقم ١٣٧٩، وتاريخ ١٨/ ٩/ ١٩١٣م (نقلًا من كتاب العرب والترك، توفيق برو، ٤٨١).

الخـــــير كـــل الخـــــير في
هـــدم الجـوامـــع والـكـنـائـس
والــــشر كـــل الــــشر مـا
بـيـــن الـعـمـــائـم والـقـلانـــس
مــــا هــــم رجـــال الله فـــ
ـــيكـم بـل هـم الـقـوم الأبـالـس
يــمـــشـون بـــين ظـــهـوركـم
تحـت الـقـلانـس والـطـيـالـس[١]

فمن الدروس التي تعلمتها الجمعيات القومية العربية من المحافل الماسونية، أن تتفق جميع الملل ولا يكفّر بعضها بعضاً، لأن جميعهم يعبدون إلهاً واحداً - ولا يقصد العبادة بمعناها الشامل، فهذا غير حاصل - ويسكنون أرضاً واحدة ويأكلون الطعام نفسه.. وأن الفرق الأساسي بين المذاهب ناشئ عن اختلاف في الإدراك، وتفاوت المشارب بإمكان التوفيق بينها وجمعها على عتبة واحدة، فالأصل لازم والفروعات تترك وتهمل[٢].

وانطلاقاً من مبدأ إزالة التنافر من المجتمع يلزم تحقيق مبدأ: اتحاد عناصر المجتمع المؤلف من أجناس وأديان وعادات مختلفة[٣].

---

(١) السر المصون في شيعة الفرمسون - لويس شيخو - ٢٤، والشاعر هو: إبراهيم اليازجي. وقيل: إنها لمكاريوس.

(٢) مذكرات طه الهاشمي، (١٩١٩، ١٩٤٣م)، ٤٦، منشورات دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٦٧م.

(٣) ثورة العرب، أحد أعضاء الجمعيات القومية، ٥٨.

رابعاً) التعاون مع الماسونية للقضاء على مفهوم الخلافة الشرعية في الإسلام:

لقد اتفقت المبادئ الماسونية مع مبادئ الجمعيات القومية في الفصل بين السلطة الدينية والسلطة المدنية، وقد قال أحد أعضاء الماسونية: الماسونيون هم الذين حرروا العالم من سلطان البابوية، وفرقوا بين السلطة المدنية والسلطة الدينية للبابا... وإن تركيا قد نالت دستورها بفضل محافلها - وبخاصة في سلانيك مدينة يهود الدونمة -[1].

وهذا المنهج الجاهلي كان من ضمن المبادئ التي اقتبستها الجمعيات القومية، من المحافل الماسونية، فقد أجمعت الجمعيات القومية على تأييد مطلب فصل الدين عن الدولة، وحصر نفوذ السلطات الروحية في نطاق خاص بها لا تتعداه[2].

ولتحقيق هذا المبدأ ناصر أعضاء الجمعيات القومية جمعية الاتحاد والترقي، وانتسب بعض الأعضاء فيها مثل رفيق العظم، وحقي العظم[3]، وعزيز علي المصري، وسليمان البستاني[4]، ورشيد رضا، وسليم الجزائري[5]. وهي جمعية أكثر أعضائها من الماسونيين، وقدمت الماسونية الدولية كل المساعدات الممكنة لهذه الجمعية[6].

وانطلاقاً من مبدأ احتواء المحافل الماسونية للجمعيات المعارضة لحكم السلطان عبدالحميد، فقد دأب أعضاء الجمعيات على عقد اجتماعاتهم السرية في المحافل الماسونية، وفتحت السفارات الأجنبية أبوابها لكل مخطط عصيان على السلطان[7].

---

(١) جريدة السياسة الأسبوعية، ١١/ ١٢/ ١٩٢٦م. كتابة/ عزيز ميرهم.
(٢) الفكر العربي الحديث وأثر الثورة الفرنسية في توجيهه السياسي والاجتماعي، رئيف الخوري، ١٥٦. وانظر: دراسات الفكر العربي، ٦٣، ١٥٩، معهد الإنماء العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٩٨٣م.
(٣) انظر الترجمة رقم (٢٢).
(٤) انظر الترجمة رقم (٣٢).
(٥) نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ٢٩٧.
(٦) انظر: أحمد نوري النعيمي: أثر الأقلية اليهودية في سياسة الدولة العثمانية تجاه فلسطين، ١٣٢.
(٧) موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية، حسان علي حلاق، ٢٨٨، جامعة بيروت، بيروت، ١٣٩٨هـ.

وبهذا فقد كانت المحافل الماسونية وبناءً على توصيات محاضرها قد ضمت القوميين العرب الذين يعيشون خارج حدود الدولة العثمانية - قبل إعلان الدستور -، مثال أمين أرسلان[١] وخليل غانم[٢].

وكان خليل غانم يكتب في عدة صحف أوربية ذات نفوذ اتحادي وأجنبي وتمويل يهودي ضد السلطان عبدالحميد. ففي عام ١٨٩٥م (١٣١٣هـ) كتب مقالاً بالاشتراك مع أمين أرسلان في صحيفة (تركيا الفتاة) في سنتها الأولى وعددها الأول عدّدَ فيه أهداف الجمعية وغاياتها في الحصول على حرية شخصية وحرية معتدلة.. واستئصال الأغراض والمنافع الشخصية وتعديل الضرائب ومساواتها[٣].

وجمعية الاتحاد والترقي أو (تركيا الفتاة) منذ إنشائها لم يظهر بين قادتها وزعمائها عضو واحد من أصل تركي خالص، فأنور باشا - مثلاً - هو ابن رجل بولندي، وكان جاويد من الطائفة اليهودية المعروفة بالدونمة، وقارصوه من اليهود الأسبان القاطنين في سلانيك[٤]. الحاخام الأكبر، وكان يسمى (ناعوم) القطب الأعظم لمحفل سلانيك الماسوني[٥]. وكان طلعت باشا بلغارياً من أصل غجري اعتنق الإسلام ظاهراً، أما أحمد رضا - أحد زعمائهم في تلك الفترة - فقد كان نصفه شركسياً، والنصف الآخر مجرياً[٦].

فاتفقت المبادئ الماسونية والمبادئ القومية العربية وتحالف أعضاء الجمعيات القومية مع جمعية الاتحاد والترقي لإسقاط السلطان عبدالحميد[٧]، والقضاء على مفهوم

(١) انظر الترجمة رقم (٧).
(٢) انظر الترجمة رقم (٢٣).
(٣) موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية، حسان علي حلاق، ٢٨٨ - ٢٨٩.
(٤) المصدر السابق نفسه، ٣٠٥.
(٥) الماسونية في العراء، محمد علي الزعبي، ٢٢٠.
(٦) موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية، حسان علي حلاق، ٣٠٥.
(٧) انظر: مذكراتي السياسية، السلطان عبدالحميد، ٧٣.

الخلافة الشرعية في الإسلام ثم إعلان الدستور[١]، وأخذ كثيرون من شباب الطليعة - كما تقول مجلة الهلال القومية - يشتركون مع الأتراك والعناصر الأخرى الحاقدة على حكم السلطان للإطاحة به[٢]، ولم يتأخر بعض كبارهم عن الانتساب إلى جمعية الاتحاد والترقي، والظهور بمظهر غلاة الداعين إلى التحرر[٣].

وبعد تحقيق القضاء على الخلافة الشرعية والإطاحة بالسلطان عبدالحميد - كشف الغطاء عن المحافل والجمعيات الماسونية، كما قال أعضاء المحافل الماسونية: قد رأينا في أصقاعنا - الدولة العثمانية - نهضة الماسونية منذ أُعلنَ الدستورُ وما مر علينا بعض أشهر حتى ذقنا من ثمار تلك الشجرة السيئة، فقام (ماسون) بلادنا وقعدوا لضبط أزمة السياسة، وعلى الأقل لعقد الأحزاب السياسية وتغليب آرائهم الثورية بإلقاء الخطب..)[٤].

كما صرح أحد أعضاء جمعية الاتحاد عقب نجاح الانقلاب بالمساعدات التي حصلوا عليها، فقال: (لقد كان للمساعدات المالية والمعنوية التي تلقيناها من الجمعية الماسونية الأثر الكبير في حركتنا، ويجب ألا نستغرب ذلك لأننا ماسونيون أيضاً، وأود أن أوجه شكري إلى الجمعية الماسونية الإيطالية التي أمدتنا بالعون العظيم نظراً لارتباطنا الوثيق بها)[٥].

---

(١) انظر: الباب الثالث، الفصل الأول من الرسالة ص: (٦٥٧).

(٢) انظر: مجلة الهلال، الجزء الأول من السنة (١٧)، ٦/٩/١٣٢٦هـ، بعنوان: الانقلاب السياسي العثماني، ص٣.

(٣) الشيخ طاهر الجزائري (رائد النهضة العلمية في بلاد الشام)، عدنان الخطيب، ٧١، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧١م.

(٤) السر المصون في شيعة الفرمسون، لويس شيخو اليسوعي، ٣٤.

(٥) الأوضاع الثقافية في تركيا في القرن الرابع عشر الهجري، سهيل صابان، ١٦٧.

» السبب الثاني: الدعوة إلى القومية التركية:

يعتبر القرن التاسع عشر الميلادي عصر القوميات في القارة الأوربية، فكانت عوامل التغيير والتبديل تنطلق من هذا الأساس الجاهلي، وتأثرت البلاد العثمانية بهذا الواقع، ونحو منتهى القرن التاسع عشر الميلادي اجتازت العصبية الجنسية حدود أوربة وبلغت الأقطار الآسيوية وانتشرت فيها انتشاراً سريعاً، فنشأت حركة[١] تركية الفتاة ومصر الفتاة[٢] وحركات وطنية أخرى.. وما كاد يطلع القرن العشرون حتى بدأت صادقات الأدلة وواقعات الحال تفيد أن العصبية الجنسية في آسية.. قد اجتازت مخاضها ودخلت في دورها الثاني أعني دور التئام العروق وتألبها الجنسي، فنشأت جامعات جنسية عديدة[٣].

وقبل ظهور المبدأ القومي عند الأتراك حيث مبدأ الوحدة الإسلامية هو الحاكم والفاصل ما كانت تُعرَّفُ كلمةُ (التركية) - في عرف رجال الدولة وكتابها - إلا مرادفةً للعامية والبدائية، فكانت لا تستعمل إلا للدلالة على السوقة والسذج من الناس.. واللغة الرسمية نفسها ما كانت تنسب إلى التركية بل كانت تنعت بـ(العثمانية) فإنهم كانوا يقولون: (لساني عثماني) بمعنى اللغة العثمانية، و(صرف عثماني) بمعنى الصرف العثماني و(أدبيات عثمانية) بمعنى الآداب العثمانية.. ويظهر من كل ما تقدم أن كل شيء في السلطنة العثمانية كان ينعت تارة بالعثمانية وطوراً بالإسلامية، ولكنه ما كان ينسب إلى التركية أبداً[٤].

---

(١) جمعية الفتاة وهي التي تولت سلطة الحكم باسم جمعية الاتحاد والترقي.

(٢) جمعية العربية الفتاة، انظر: الباب الأول، الفصل الأول ص (١٠٢)

(٣) حاضر العالم الإسلامي، لوثروب ستؤارد، ٤/ ٧٧، دار الفكر، بيروت، الطبعة الرابعة ١٣٩٤هـ.

(٤) محاضرات في نشوء الفكرة القومية، ساطع الحصري، ٩٢، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٨٥م.

وقد زار أحد المستشرقين القسطنطينية سنة ١٨٥٦م (١٢٧٢هـ)، وذكر من ضمن ملحوظاته على الناس: أن كلمة (تركلك) - ترك - تُفْهم وتُعَدّ من مترادفات الفظاظة والشكاسة والهمجية، فيقول: (لما كنت أقدم على تنبيه الناس إلى الخطورة العظمى التي يجب اعتبارها في شأن متحدر الجنس التركي، كانوا يجيبونني: [ولكن بالله عليك لا تجعلنا في مصاف الكير غيز وجفاة التتر]. كدت لا أرى إلا أقل من القليل من الترك في القسطنطينية من يذهب مذهب الجد والاهتمام في شأن الجنسية التركية أو اللغة التركية)[١].

ولذا ظل الترك كما يصفهم - لوثروب ستؤارز - حتى نصف القرن الذي خلا - التاسع عشر - يكادون لا يعرفون شيئاً من ماضيهم وتاريخهم وأصلهم ومنتسبهم... وكانوا بمعزل عن تصفح تاريخ بلادهم وصحف آبائهم وأجدادهم - بمنطلق قومي جاهلي - إذ كانت تلاوة الكتب الدينية والسيرة النبوية والأحاديث عن مجمل ماضي الإسلام، أمراً يلذهم أكثر من تلاوة أنباء انتشار الفتوح العثمانية في القارات الثلاث[٢].

وإضافة إلى التأثر الأوربي في الالتقاء على مبادئ قومية، فقد ظهرت مجموعة من الكتابات، وفي أوقات متقاربة جداً دراساتٌ أوجدت عند (الأتراك) حوافِزَ قوميةً أيدت الدعوة إلى القومية التركية، منها:

١) المؤرخ الفرنسي ج.دكيني: حيث وضع عام ١٧٥٦م (١١٦٩هـ) كتاباً عن التاريخ العام.. للترك والمغول. وقد أصبح هذا الكتاب فيما بعد أحد أهم مصادر الفكر القومي التركي.

---

(١) حاضر العالم الإسلامي، لوثروب، ٤/ ١١١.
(٢) المصدر السابق نفسه، ٤/ ٧٩.

إن أهمية هذا الكتاب تكمن في كونه قد كشف عن الأسس التاريخية التي يمكن أن يقوم عليها المشروع القومي التركي.

٢) اليهودي الإنجليزي [دافيد لوملي]: وضع كتابه قواعد اللغة التركية، وهذا الكتاب أصبح واضحاً أن تَوَفُّر تاريخ للترك ولغة يستدعيان بالضرورة الانتماء إلى أمة ووطن يشكلان القاعدة والهدف معاً لوحدة شعوب.. التتار والترك.

٣) ولتعميق الشعور التركي وبلورة هوية الأمة وتأكيد خصوصيتها الثقافية والانتماء للوطن، بدأ المؤرخ [بونسن] عام ١٨٥٤م (١٢٧٠هـ) بالكتابة عن اللغة الطورانية التي اعتبرها تختلف عن اللغات السامية وهي غير أوربية أو هندية، بل لغة آسية الوسطى.. هيأت تلك المقدمات الباحثين الغربيين لاستخدام مصطلح الطورانية على نطاق واسع.

٤) اليهودي المجري [أرمنيوس فامبري]: فقد تنكر بلباس درويش تركي وطاف في أرجاء آسية الوسطى، وخرج من رحلته هذه بكتاب (رحلة درويش شاب في آسية الوسطى) أرسى من خلاله، وبعهد نظريته الخاصة القائلة: بضرورة قيام اتحاد قومي تركي، أطلق عليه (بان تور كيزم)وقد تبناه الإنكليز.

٥) المسيوليون كوهين الفرنسي: وضع كتاباً تاريخياً عن آسية الأتراك في منغولية، وأصلهم منذ عام ١٤٠٥م(٨٠٨هـ)، وقد صدر الكتاب سنة ١٨٩٦م (١٣١٤هـ)، وقد أفاض المسيو كوهين في وصف المزايا العسكرية[1].

ويرى (لوثروب) أن لأرمينيوس وكوهين يرجع إليهما كبير الفضل في كشف الحقائق المؤيدة لوحدة الأرومة الطورانية، وكان لأعمال هذين العالمين القطبين أكبر دوي في أنحاء العالم، فطفقت كتب أرمينيوس وزملائه تنتشر في كل بقعة من بقاع العالم

(١) الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، قيس جواد العزاوي، ١٢٧ (بتصرف يسير)، مركز دراسات الإسلام والعالم، تامبا، الولايات المتحدة الأمريكية، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.

الطوراني الجديد انتشاراً سريعاً، فأقبلت عليها العقول الطورانية المستعدة الاستعداد العجيب للأخذ عنها والاقتباس منها[1].

وعن تأثير هذه الدراسات الغربية على منظري (جمعية تركيا الفتاة)، يقول ساطع الحصري: (إن المؤلفات القومية الغربية تلك، كانت تركز دوماً على الترك قبل الإسلام، فقد وجد بعض الكتاب في تلك المؤلفات مباحث عديدة تبرهن على أن الأتراك كانوا متقدمين في الحضارة تقدماً بيناً قبل ظهور الإazسلام أيضاً، ولذلك صاروا يقتبسون منها ما يتعلق بتاريخ الأتراك السابق للإسلام والمستقبل عن الإسلام[2].

فكانت من الآثار الفكرية لهذه الدراسات الغربية، أن أول من تبنى هذه الأفكار القومية عالمان من علماء الترك وهما: أحمد وفيق باشا[3] وسليمان حسن باشا، ففي سنة ١٨٧٦ (١٢٩٣هـ) نشر أحمد وفيق باشا قاموسه (لهجة عثماني)، وأثبت فيه أن اللهجة العثمانية فرع من اللغة التركية العامة.. وأخرج سليمان باشا في تلك الفترة كتابه (صرف تركي)، وحرص على وصف كتابه بكلمة التركي بدلا من كلمة العثماني.

وكان سليمان باشا ناظراً - وزيراً - على المدارس العسكرية فقرر كتابه على هذه المدارس، وهكذا بدأ ضباط المستقبل يدرسون مبادئ القومية التركية جنباً إلى جنب مع دراستهم العسكرية الفنية.

---

(١) حاضر العالم الإسلامي، لوثروب، ٤/ ١١١.

(٢) محاضرات في نشوء الفكرة القومية، ساطع الحصري، ١٠٣.

(٣) أحمد وفيق باشا: (١٢٣٨ - ١٣٠٨هـ/ ١٨٢٣ - ١٨٩١م): كاتب ورجل الدولة العثمانية. درس ثانوية (سن لؤي) في باريس بمناسبة وجود أبيه سفيراً للدولة العثمانية في باريس. وقد عين في مكتب الترجمة بعد تخرجه. ثم أصبح سفيراً للدولة في (طهران)، وارتقى في السلك الوظيفي إلى أن أصبح صدراً أعظم (١٢٩٥هـ، ١٨٧٨م)، يعتبر من أوائل دعاة الثقافة الغربية والقومية التركية في الدولة العثمانية. انظر: (قاموس المؤلفين، ١٤، إحسان إشق).

كما قام نجيب عاصم[1] بترجمة كتاب (ليون كوهين) عن تاريخ آسيا الوسطى، الأجزاء الخاصة بتاريخ الترك من هذا الكتاب، فقد بدأ الترك بعد هذه الترجمة يعالجون القومية التركية في الكتب وفي الصحف، وكانت أولى هذه الصحف هي صحيفة (إقدام)، فقد تحولت على يد صاحبها أحمد جودت إلى أداة لنشر هذه القومية[2].

وممن تأثر بهذه الكتب العالم التركي (ضياء كوك آلب)، فقد قرر في كتابه (تورك جيلكك أساسلري) - أسس القومية التركية - أن كتاب كوهين كان أول كتاب تأثر به عند وصوله إلى إستنبول قادماً من سالونيك[3].

وقد قرأ الدكتور ناظم المرخص المسؤول لجمعية الاتحاد - الكتاب المذكور - فكان كالجذوة أصابت هشيماً يابساً لأنه أوقد في نفوسهم نار الحماسة والحمية.. وبما أن الجمعية الفرنساوية قرظته وخصته بالعناية فقد حل عند الاتحاديين مكاناً رفيعاً فنقلوه إلى التركية بعبارات بالغوا فيها ما استطاعوا[4].

وممن تأثر بكتاب [كوهين]، الدكتور رضا نور، وقد نقل عنه كثيراً في كتابه تاريخ الترك) الذي أراد أن يلقن به الأجيال القادمة أصول العقيدة التركية[5].

---

(١) نجيب عاصم: (١٢٧٧ - ١٣٥٤هـ/ ١٨٦١ - ١٩٣٥م): كاتب لغوي خريج المدرسة الحربية في إستنبول. درّس بعد المشروطية مادة اللغة التركية والفرنسية في دار الفنون. ثم رشح عن ولاية (أرضوم) نائباً في البرلمان (١٣٤٦هـ، ١٩٢٧م). يعد من أوائل المدافعين عن القومية التركية، وعرف بكتاباته ومقالاته الكثيرة في هذا الصدد. انظر: (قاموس المؤلفين، ٣٢١، إحسان إشق).

(٢) التيارات القومية والدينية في تركيا المعاصرة، أحمد السعيد سليمان، ٢٤، دار المعرفة، القاهرة.

(٣) أسس القومية التركية، ضياء كوك، ١٠، إستنبول، وزارة التعليم الوطني، ١٩٩٠م، إعداد محمد قابلان، (باللغة التركية)، وذكر في نفس الصفحة: أن نجيب عاصم ترجم له الأقسام إلى اللغة التركية. وكان أحمد جودت بك جعل جريدة الأقدام عضواً حياً لنشر القومية التركية، فكان أمر الله أفندي، ولد شلبي أفندي، ونجيب عاصم بلو من أوائل دعاة القومية التركية.

(٤) المنار، رشيد رضا، المجلد ١٩ الجزء ٨، ٥٠٤، بتاريخ ٢٥/ ١٢/ ١٩١٧م.

(٥) التيارات القومية والدينية في تركيا المعاصرة، أحمد السعيد سليمان، ٢٤.

والقضية المعنية في حديثنا، هي أن هذه النـزعة القومية التركية قد كانت من أسباب نشأة الجمعيات القومية، حيث يرى أعضاء الجمعيات القومية، أن الأمة العثمانية صارت كلها كتلة واحدة مع الاتحاديين - جمعية الاتحاد والترقي - لما أظهروا أنهم معها. ولكن لما انفردوا عنها فارقتهم وعادت إلى الانقسام على نفسها.. انفصل الاتحاديون عن الأمة وصاروا في شق وهي في شق آخر، منذ تظاهروا بالنعرة القومية وأعلنوا ما كانوا يضمرونه من الاستمساك بمبدأ سيادة الترك لسائر العناصر العثمانية، فنبهوا بذلك العصب الحساس في العثمانيين كافة، فابتعدت قلوبهم عنهم وعادت روح القومية إلى صدورهم[1].

وعلى نداء الطورانية وتتريك تركيا ردت العناصر الأخرى بنداءات مماثلة، وهبت شعوب البلقان تسعى إلى التحرر والاستقلال، ثم تبعها الأرمن والعرب والأكراد. غير أن جماعة تركيا الفتاة سرعان ما تناسوا الدوافع الدستورية وراحوا يقمعون تلك الثورات.. وأصاب العربَ من هذا القمع أَشُدُّه، لأنهم كانوا يشكلون أكبر أقلية في جسم الدولة العثمانية، ولكنهم لم يستسلموا، بل لجؤوا إلى العمل السري، وأسسوا الجمعيات القومية في الداخل والخارج[2].

ومما يؤكد أن الدعوة إلى التركية، كانت من أسباب نشأة الجمعيات القومية، قول أحد مؤسسي الجمعيات القومية بعد إسقاط السلطان عبدالحميد وإعلان الدستور: (..بدا لفئة قوية من رجال الاتحاد والترقي أن يعنوا بالعنصر التركي وأن يركزوا الدولة فيه، ويعاملوا بقية العناصر بالطريقة التي تتبعها فرنسا في الجزائر، وأسسوا لذلك الأندية التركية والجمعيات التركية (تورك يوردى). واخترعوا الشعر القومي الذي يحيي مآثر

(١) ثورة العرب، أحد أعضاء الجمعيات القومية العربية، الفصل الثاني.
(٢) أعمدة الحكمة السبعة، لورانس، ١٥، ١٦.

جنكيز وتيمور، وصاروا ينتصرون لتيمورلنك على السلطان بايزيد[١]، ويدعون إلى الطورانية، ونظروا إلى العربية بعين العداء والارتياب.

فكان لذلك رد فعل مباشر من دعاة القومية العربية في المدارس العليا بالآستانة نفسها، وتأسس (المنتدى الأدبي)، ثم تأسس من ورائه (الجمعية القحطانية) و(حزب العهد). وكلاهما من ضباط الجيش. وتأسست في بيروت (العربية الفتاة)[٢].

وقد رافق الدعوة إلى القومية التركية، تطبيع البلاد العربية بالحركة القومية التركية، فمن ذلك: أصبحت اللغة الرسمية في كل الولايات العثمانية هي اللغة التركية، وأصبحت معاهد التعليم تركية فقط. كما كان هذا التتريك يعني مركزية في الحكم[٣].

ولقد أخذ يصدر عن بعض رجالات الجمعية تصريحات وأقوال عجيبة في حق العنصر التركي في التمايز على غيره في الدولة. من ذلك مقال كتب في جريدة (طنين) بعد شهور قليلة من إعلان الدستور: (إن الأمة التركية كانت وستظل هي الأمة الحاكمة، وأن لها الحق في التمتع بحقوق وامتيازات أكسبها إياها حق الفتح. وإنه ليس من إمكان ولا محل للاعتراف بحقوق مساوية في الدولة للعناصر الأخرى).

ولتحقيق مبدأ تتريك الدولة العثمانية، فقد أنشئت جمعيات قومية تركية، تسعى لتحقيق هذا الأمر، مما جعل ذلك مبرراً للعرب في إنشاء جمعيات تتبنى قوميتهم العربية.

---

(١) السلطان بايزيد الابن الأكبر للسلطان محمد الفاتح، ولد عام ٨٥١هـ، وتسلم مقاليد السلطة بعد وفاة والده عام ٨٨٦هـ، وفي عصره ابتدأ فتح علاقات مع الدول الأوربية، وتنازل عن السلطة لابنه سليم عام ٩١٨هـ وتوفي بعد ذلك بعشرين يوماً في مدينة ديموتيقا عن ٦٧ سنة، ومدة حكمه ٣٢ سنة. انظر: (تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد، ١٧٩ - ١٨٧).

(٢) مذكرات محب الدين الخطيب، ١٩. نقلًا من كتاب الشيخ طاهر الجزائري (رائد النهضة العلمية في بلاد الشام)، عدنان الخطيب، ٤٦، وانظر: نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ٣٠٤.

(٣) الدولة العثمانية والشرق العربي، محمد أنيس، ١٧٨.

وقد أصدرت الحكومة التركية قانوناً حظرت به تسمية المنظمات والأندية بأسماء قومية، وأخذت تتشدد في هذا الحظر بالنسبة للمنشآت التي ينشئها العرب، في حين تغافلت عما قام من منظمات ومنشآت قومية تركية كانت وظلت تحتفظ بالتسميات التركية وتنهج نهجاً تركياً عنصرياً(١).

وباستعراض لأسماء بعض الجمعيات التركية، وتاريخ نشأتها نجد التشابه بينها وبين الجمعيات القومية، فمن ذلك:

أولاً: جمعية تركية الفتاة:

في سنة ١٨٨٩م (١٣٠٦هـ) شكل جماعة من طلبة المدرسة الطبية العسكرية الإمبراطورية في إستنبول منظمة ثورية هدفها الواضح عزل عبدالحميد الثاني(٢).

وبعد تحديد الهدف سعى مؤسس الجمعية إبراهيم تيمو الذي باحث ثلاثة من زملائه الطلاب الذين كان يعرف آراءهم، وهم إسحاق سكوتي، وشركس محمد رشيد، وعبدالله جودت، واقترح عليهم أن يشكلوا جمعية وطنية سرية(٣).

وقد باشرت أعمالها منذ عام ١٨٩١م (١٣٠٨هـ) في جنيف أولاً، ثم نقلوها إلى باريس، وكانوا يعملون على نشر دعوتهم سراً(٤).

وسلكت الجمعية بعد أن كشف أمرها، وأصبح عدد من الطلبة القدامى موضع شبهة، وجدوا من الخير لهم الآن أن يغادروا البلاد. وفي سنة ١٨٩٤م (١٣١١هـ)

(١) نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ٣٠١ - ٣٠٢.

(٢) تركية الفتاة وثورة ١٩٠٨م، أرنست أ.رامزور، ٤٩، ترجمة صالح أحمد العلي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٠م. انظر: العرب والعثمانيون، عبدالكريم رافق، ٣٨٣.

(٣) تركية الفتاة وثورة ١٩٠٨م، أرنست أ.رامزور، ٥٢.

(٤) موقف الدولة العثمانية من الصهيونية، حسان علي حلاق، ٢٨٧. انظر: تاريخ الدولة العلية، محمد فريد، ٤١٠.

- ١٨٩٥م (١٣١٢هـ)، أخذ هؤلاء الأعضاء يهربون باستمرار إلى أوربة، حيث تركز معظمهم في باريس. وقد ذهب القادرون على السفر لغرضين، أحدهما: الهروب من انتقام السلطان. والثاني لإكمال دراستهم.. وفي باريس وجد المتآمرون الشبان أن جماعة صغيرة من الأحرار الأتراك قد اجتمعت بالفعل، ومنها خليل غانم، وهو مسيحي من بيروت[١].

وجمعية تركية الفتاة لم تخرج عن التنظيم الماسوني كغيرها من الجمعيات التركية والعربية، فقد كانت على طراز جمعية (الكاربوناري)[٢] الإيطالية التي تشكلت في القسم الأول من القرن التاسع عشر، ففي العطلة الصيفية السنة السابقة لتشكيل الجمعية توقف إبراهيم تيمو في (برنديز) لما كان في طريقه إلى بلاده ألبانية، وزار خلال إقامته في (برنديز) ونابولي محفلا ماسونياً برفقة أحد أصدقائه، وتعلم شيئاً كافياً عن دور الكاربوناري في التاريخ الإيطالي. وقد تأثر بتنظيمها فيما بعد لما قرر أن ينشئ في تركية جمعية سرية تشبهها.

إن هذه الجمعية الأولى لتركية الفتاة... كان أثر الكاربوناري فيها واضحاً من حيث أن المفروض في أعضائها أن يعرفَ بعضهم بعضاً بأرقام كسرية، وتتكون هذه الأرقام الكسرية من ترقيم كل خلية جديدة في المنظمة، ثم بإعطاء رقم لكل عضو في تلك الجماعة، فكان رقم الخلية أو الفرع هو المقام ورقم العضو البسط، ولتوضيح ذلك نقول:

---

(١) تركية الفتاة وثورة ١٩٠٨م، أرنست أ. رامزور، ٥٤.

(٢) جمعية الكاربوناري: جمعية سياسية سرية إيطالية يكتنف الغموض أصولها وبرنامجها السياسي نفسه. والواقع أن (محافل) جمعية الكاربوناري الأولى ظهرت عند مطلع القرن التاسع عشر في إيطاليا الجنوبية. وكانت من المحافل الماسونية من حيث رموزها وهيكليتها الهرمية. وعلى الجملة، فقد نادى أعضاء هذه الجمعية بتحرير إيطاليا من الحكم الأجنبي، ودعوا إلى إقامة الحكم الدستوري فيها، من غير أن يكون لهم برنامج سياسي موحد. ولعب (مشعلو الفحم) دوراً بارزاً في التمهيد للوحدة الإيطالية. انظر: (الموسوعة العربية، منير البعلبكي).

إن العضو الخامس في الخلية السابعة في قائمة الجمعية برقم (٥/ ٧) وكان رقم إبراهيم تيمو منشئ الحركة (١/ ١)[١].

وقد كان لليهود تأثير في جمعية تركية الفتاة، فنسيم روسو ونسيم مازلياح كانا من العناصر المؤسسة والفعالة فيها[٢]. فكانت خليطاً من أجناس وأديان مختلفة، وكانت الكثرة الغالبة فيها من الأتراك ويليهم اليهود، وانجذب إليهم بعض الرعايا العثمانيين من الأجناس الأخرى[٣].

لقد صرحت جمعية تركية الفتاة بمنهجها من خلال نشرة (مشورت) - وهي لسان حال تركية الفتاة - صدرت بتاريخ ٣ - ديسمبر - ١٨٩٥م (١٣١٣هـ) وبينت أهداف الجمعية وقدمتها إلى قرائها، (منها):

١) إننا نطالب بالإصلاحات، ولا نقصرها على هذه الولاية أو تلك، بل نطلبها للإمبراطورية كافة، لا لمصلحة قومية واحدة، بل لمصلحة العثمانيين كافة سواء كانوا يهوداً أو نصارى أو مسلمين.

٢) لقد تأكدنا بأنفسنا من تعاون شخصيات معينة، رغبتها القومية هي أن ترى عودة الروابط السابقة من الانسجام والصداقة الطيبة مع العثمانيين.

٣) إننا نعارض إحلال التدخل المباشر للدول الغربية محل السلطة العثمانية، وهذا ليس ناجماً عن التعصب لأن المسألة الدينية عندنا أمر خاص، ولكنه منبعث من العاطفة المشروعة للكرامة المدنية والقومية[٤].

---

(١) تركية الفتاة وثورة ١٩٠٨م، أرنست أ.رامزور، ٥٠

(٢) موقف الدولة العثمانية من الصهيونية، حسان علي حلاق، ٣٠٥.

(٣) يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ١٧٦.

(٤) تركية الفتاة وثورة ١٩٠٨م، أرنست أ.رامزور، ٥٦.

وقد سلكت الجمعيات القومية العربية، منهج جمعية تركية الفتاة، فتأسست جمعية في تونس سميت (تونس الفتاة) أنشئت بنفس تاريخ إعلان الدستور سنة ١٩٠٨م، وأنشئت جريدة (التونسي) بالفرنسية ناطقة لها، ودعت إلى إيجاد دولة تونسية عصرية متحررة، ولو اقتضى ذلك دوام الاحتلال الفرنسي، شريطة أن يطور البلاد[١]. ونظم الشبان ذوو الثقافة الفرنسية أنفسهم في عام ١٩١٢م في جمعية الجزائر الفتاة، ودعوا إلى الاندماج في المجموعة الفرنسية، على أساس المساواة[٢]. وأنشئت جمعية (العربية الفتاة)[٣]. تأثراً بتركية الفتاة.

ومسمى (الفتاة) على بعض الجمعيات ظهر عند الأتراك ثم عند العرب، وهذا مما يقوي الاعتقاد بأنها سلسلة متصلة بالثورات الغربية، فقد ظهرت جمعية في إيطاليا عام ١٨٣٢م، باسم (إيطاليا الفتاة) وكانت هذه الجمعية لا تضم إلا رجالاً سنهم دون الأربعين عاماً، وكانت جمعية سرية عملها ثوري، وفي الوقت نفسه تربوي[٤].

ثانياً: جمعية ترك درنكي (المنتدى التركي):

وكان تأسيسه في ديسمبر ١٩٠٨م في الآستانة، وهو أول ناد تركي أسس لغاية أدبية وعلمية، كي يكون في خدمة القومية التركية. وكان من مؤسسيه بعض من عرفوا بشديد تعصبهم للقومية التركية، أو الرابطة الطورانية: مثل زعيمه يوسف آقجورة، وأحمد فريد بك. وكانت البحوث التي انصرف أعضاء هذا المحل إلى دراستها هي كل ما يتعلق بالشعب التركي، من تاريخ ولغة وخصائص عرقية وحضارة وأدب، وحياة اجتماعية،

---

(١) القومية العربية، مصطفى الشهابي، ٢٥٣. وانظر: الحركة الوطنية، رؤية شعبية قومية جديدة، الطاهر عبدالله، ٣٩. العرب والعثمانيون، عبدالكريم رافق، ٤٧٥.

(٢) العرب والعثمانيون، عبدالكريم رافق، ٤٧٢.

(٣) تركية الفتاة وثورة ١٩٠٨م، أرنست أ.رامزور، ٣٣. من مقدم الكتاب نقولا زيادة.

(٤) تاريخ الحركات القومية، نور الدين حاطوم، ٢/ ١٢٣، ١٢٤.

وجغرافية تركيا القديمة، والعمل على إعادة الطابع الأصلي القديم للغة التركية[1]. وهذا المنتدى مقابل للمنتدى الأدبي العربي.

ثالثاً: جمعية ترك يورتي جمعيتي (جمعية الوطن التركي):

أسسها الترك في عام ١٩١١م، وكانت غاية الجمعية أدبية اجتماعية قومية تشبه غاية المنتدى الأدبي العربي[2]. وهذه الجمعية التركية مقابل جمعية رابطة الوطن العربي.

» السبب الثالث: تآمر الدول الغربية على الدولة العثمانية:

لقد أخبر ربنا في كتابه عن تآمر أهل الكفر على أهل الإيمان، فقد قال تعالى: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾[4].

هذا التآمر الذي حدث على الأمة في القرن الرابع عشر الهجري، كان سبباً في نشأة الجمعيات القومية العربية، فقد بينت الدول الاستعمارية مقاصدها، وسعت لهدف غلبة المبادئ القومية على النزعة الدينية، وغلبة الاعتقاد الوطني على المعتقدات الدينية، وأن تحل المثل العليا السياسية مكان الوحي والإلهام، وتستبدل سوريا (الطبيعية) بمثلها الأعلى الديني مثلها الأعلى الوطني؟[5].

ويعتبر لورانس العقل المدبر في تسيير ثورة فيصل بن الحسين، وقد ذكر كيد وتآمر الدول الاستعمارية على الأمة الإسلامية، وحرصهم على تأسيس الجمعيات القومية

---

(١) العرب والترك، توفيق برو، ٢٧٠.

(٢) المصدر السابق، ٢٧٣.

(٣) سورة آل عمران، رقم الآية (٦٩).

(٤) سورة التوبة، رقم الآية (١٠).

(٥) الثورة العربية، لورانس، ١٢.

العربية، فقد قال لورانس: (كنت أؤمن بالحركة العربية إيماناً عميقاً، وكنت واثقاً قبل أن أحضر إلى الحجاز أنها هي الفكرة التي ستمزق تركيا شذر مذر)[١].

كما اعتبر منظرو السياسية البريطانيةِ الجمعياتِ القوميةَ حلفاءَ وأصدقاءَ لهم، حيث يقول: (إننا نعد الجمعيات والأحزاب العربية حلفاء لنا وأصدقاء.. ونوليها ما تستحقه من الاحترام والتقدير)[٢].

وهذا التآمر الاستعماري على الأمة الإسلامية وتمزيقها قد جاء بأساليب متنوعة، ومن هذه الأساليب السعي من أجل إنشاء جمعيات قومية، فقد ورد في خطاب وزير المستعمرات (أورمسبي غور) إلى رئيس الوزارة البريطانية (نيفيل تشمبرلين) بتاريخ ٩/ ١/ ١٩٣٨م (٨/ ١١/ ١٩٥٦هـ): [..إن الحرب علمتنا أن الوحدة الإسلامية هي الخطر الأعظم الذي ينبغي على الإمبراطورية أن تحذره وتحاربه، وليس الإمبراطورية البريطانية وحدها بل فرنسا أيضاً..إن سياستنا تهدف أبداً إلى منع الوحدة الإسلامية والتضامن الإسلامي، وينبغي أن تكون كذلك، ففي السودان ونيجيريا كما هو الحال في مصر ودول إسلامية أخرى، شجعنا وبصواب نمو القوميات المحلية لكونها أقل خطراً من الوحدة والتضامن الإسلامي..][٣].

ولتحقيق نشر القوميات أنشؤوا الجمعيات التي تدعو إلى القوميات، وكان السلطان عبدالحميد قد بين جهود ما تبذله الدول الاستعمارية في تأسيس الجمعيات القومية في البلاد العربية، والإنكليز بصفة خاصة، فقد قال في مذكراته عن الإنكليز: (استطاعوا

(١) أعمدة الحكمة السبعة، لورانس، ٥٥ ولورانس يعتبر أحد رجال المخابرات الإنكليزية.
(٢) أسرار الثورة العربية الكبرى ومأساة الشريف حسين، أمين سعيد، ٢٤٤.
(٣) بريطانيا والخلافة الإسلامية، وثيقة تاريخية سياسية، عبدالوهاب أحمد، جامعة الإمارات، العين، ١٩٨٠م.

بدعايتهم المسمومة أن يبثوا بذور القومية والعصبية.. وقد تحرك القوميون في الجزيرة العربية وفي ألبانيا، وقد ظهرت في سوريا بوادر تحرك مماثل.. وأن هؤلاء المستعمرين بذلوا جهوداً كبيرة في الدعاية للإقليمية في البلاد الإسلامية بغية إضعاف هيبتنا، وقد لقيت هذه الدعاية قدراً كبيراً من الرواج)[١].

ويمكن حصر وسائل الدول الاستعمارية في إنشاء الجمعيات القومية، بالأمور التالية:

١) القنصليات والسفارات للدول المستعمرة:

من منطلق مسايرة التطور الصناعي الذي تشهده الدول الأوربية، وبغية تنظيم شؤون الدولة على غرار الدول الغربية، وتقريب العالم الإسلامي من العالم الغربي الذي عاش بعيداً عنه[٢]، فقد خضعت الدولة العثمانية لعدة مراحل إصلاحية[٣]، أعطت الدول الاستعمارية فرصة التدخل في شؤونها، ومنحوا امتيازات أصبحت حقوقاً شرعية لا يمكن التراجع عنها، بل إنها تعدت ذلك إلى أن أصبحت تطال فئات اجتماعية واسعة كانت تعتبر أصلاً من رعايا السلطان، فاعتبرت فرنسا مثلاً أن لها حق حماية الكاثوليك الأوروبيين والعثمانيين والإرساليات الأوربية الكاثوليكية العاملة بينهم[٤].

---

(١) مذكراتي السياسية، السلطان عبدالحميد، ١٧٧.

(٢) الأوضاع الثقافية في تركيا في القرن الرابع عشر الهجري، سهيل صابان، ٣.

(٣) انظر:

١. البلاد العربية والدولة العثمانية، ساطع الحصري، ١٥٥.
٢. مجلة الهلال، الجزء الثاني، السنة السابعة عشرة، ٧/ ١٠/ ١٣٢٦هـ، ص٨٩، القانون الأساسي.
٣. سوريا والعهد العثماني، يوسف الحكيم، ١٩٢.

(٤) أزمة الفكر ومشكلات السلطة السياسية في المشرق العربي في عصر النهضة، محمد مخزم، ٢١، معهد الإنماء العربي، بيروت لبنان، الطبعة الأولى ١٩٨٦م.

فكانت هذه الامتيازات والتنظيمات العثمانية من أهم الوسائل التي استغلتها الدول الغربية فسارعت بتأثير هذا التوجه الجديد إلى إقامة مؤسساتها التي ترعى مصالحها وتعمل على تحقيق أهدافها[١].

ومن أهم هذه المؤسسات الحكومية، القنصليات والسفارات الصليبية، حيث لقيت الجمعيات القومية العربية تشجيعاً من بعض الدول الغربية وفي مقدمتها فرنسا، فقد وضعت هذه الدولة قنصلياتها تحت تصرف أعضاء هذه الجمعيات، وأخذ جل رؤسائها وأقطابها ينظرون إلى فرنسا وبريطانيا بعين الصداقة والإخلاص[٢].

ويؤكد جورج كيرك مؤلف (كتاب موجز تاريخ الشرق الأوسط) أن القومية العربية ولدت في دار المندوب السامي البريطاني[٣]. ومن صور عناية قنصليات الدول الاستعمارية بالجمعيات القومية العربية، حينما ألغت جمعية الاتحاد والترقي المطالبَ التي قدمتها جمعية بيروت الإصلاحية[٤] واعتبرتها خيانة للدولة العثمانية وحلت الجمعية، وبعد ثلاثة أيام من اتخاذ هذا الإجراء، ذهب بعض أعضاء الجمعية إلى القنصلية البريطانية ومن ثم إلى القنصلية الفرنسية ليحتجوا على عمل الوالي، وفي القنصلية البريطانية قيل لهم: إنهم يستطيعون أن يعقدوا اجتماعاتهم في قاعة الكلية السورية الإنجيلية لأنهم في تلك الحقبة من الزمن، كانوا يعتبرون مجتمعين على أرض أجنبية حيث يكون لهم ملء الحرية بعقد أي اجتماع من اجتماعات الجمعية هناك. وقد وافق القنصل الفرنسي على هذا التدبير، ونصح لهم أن يتصرفوا بموجبه[٥]. وعليه عقدت الجمعية العامة اجتماعاً

---

(١) سوريا والعهد العثماني، يوسف الحكيم، ١٩٢.

(٢) تاريخ المملكة العربية السعودية، صلاح الدين المختار، ١١٠، مكتبة الحياة، بيروت.

(٣) مذاهب فكرية معاصرة، محمد قطب، ٥٨٥.

(٤) انظر ص (٩٣) من الرسالة.

(٥) نشوء القومية العربية، زين نور الدين زين، ٢١١، حاشية الفصل الخامس رقم ٤٩.

في القاعة الكبرى في الكلية السورية - الجامعة الأمريكية -، وقررت الدعوة للإضراب العام في ١٢ نيسان والاحتجاج على حل الجمعية[١].

ونتيجة لهذا القرار، فقد أرسل بعض أعضاء الجمعية وجميعهم من النصارى رسالة - تحمل توقيعاتهم - إلى القنصلية الفرنسية باسم أبناء طوائفهم ويوضحون بدقة أماني نصارى سورية، وعلى تأكيد ارتباطهم بفرنسا. ويدل هذا على تأثير الدول الاستعمارية على الجمعيات القومية العربية[٢].

وتعتبر قنصليات دول البلاد المستعمرة مَعْبراً آمناً لنشرات ومطبوعات الجمعيات القومية، إذ إن إدخال المنشورات السرية داخل البلاد كان من رابع المستحيلات بسبب صرامة المراقبة الموضوعة على المطابع، صغيرة كانت أم كبيرة. فكان لا بد من أن يسافر بعض (الأحرار) إلى خارج المملكة لكي يطبع المنشورات هناك، وفي معظم المدن الرئيسية عدة دوائر بريد أجنبية تابعة لسفارات الدول (المعظمة) وقنصلياتها، وكلها كانت مصونة في مراقبة الدولة بسبب الامتيازات الأجنبية المعلومة[٣]. فكانت هذه القنصليات تحميهم - بحكم المعاهدات والامتيازات الأجنبية - من الخضوع لأوامر القبض التي يصدرها السلطان ومن تفتيش البوليس لمنازلهم، أو محاكمتهم أمام المحاكم التركية لأن لهم محاكمهم القنصلية الخاصة[٤].

وقد قضت الامتيازات الممنوحة للجاليات الأجنبية بتشكيل محاكم قنصلية خاصة ذات صلاحية تامة للنظر في الدعاوى بين الرعايا الذين ينتمون إلى هذه القنصلية أو تلك.

---

(١) الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي، وجيه كوثراني، ١٩٠.

(٢) بلاد الشام (قراءة في الوثائق)، وجيه كوثراني، ٢٦٩، معهد الإنماء العربي.

(٣) البلاد العربية والدولة العثمانية، ساطع الحصري، ٩١.

(٤) الذئب الأغبر، مصطفى كمال، هـ.س. مسترونج، نشر دار الهلال.

وكان رعايا الدول الأجنبية المقيمون في الدولة العثمانية من غير المسلمين لا يخضعون للقوانين العثمانية، بل كانوا يتمتعون بأحكام خاصة بهم، وكان القاضي في هذه المحاكم القنصلية القنصل نفسه، يعاونه مستشاران[(١)].

ويحدث عوني عبدالهادي - وهو أحد المؤسسين للجمعية - عن الوضع المريب الذي اتخذته فرنسا أثناء إعلان الحرب ضد مواطني الدولة العثمانية، فيقول: لبثنا ننتظر مصيرنا الذي لن يكون أقل من أن نزج مع أمثالنا التابعين للبلاد المعادية للحلفاء بالمعتقلات. ولكن لم يمض كثير وقت حتى وافانا الخبر العجيب غير المنتظر، بأن الحكومة الإفرنسية قررت زج الأتراك بالمعتقلات والسماح للسوريين في الإقامة أحراراً في باريس[(٢)].

وكانت الدول الاستعمارية تراقب تطورات نشأة الجمعيات القومية، فقد استدعى مكماهون - معتمد بريطانيا في مصر -، الكولونيل لورانس، والسير رونالد ستورس - سكرتير الإدارة الشرقية في السفارة، وقال لهما: لقد تأكد لنا من أن فكرةً ما أخذت تتغلغل بين العرب في جميع الأقطار التي يسكنونها، وعرفنا بأن سورية أصبحت البؤرة الأساسية لتلك الفكرة[(٣)].

وتولى مسؤولو القناصل كتابة التقارير إلى حكوماتها مفصلة عن أوضاع الدولة العثمانية، مثال ذلك: التقرير الذي رفعه مدير القنصلية الفرنسية في بيروت، حول توقيع معاهدة السلام الإيطالية - التركية وحرب البلقان، وأثر ذلك في الاتجاهات السياسية في

---

(١) نشوء القومية العربية، زين نور الدين زين، ٣٣.
(٢) عوني عبدالهادي، أوراق خاصة، إعداد خيرية قاسمية، ١٤.
(٣) معركة ميسلون، إحسان هندي، ١٢.

سورية. وتقرير القنصلية الفرنسية عن الدعاية المؤيدة للإنكليز في سورية[١].

وكانت تقارير قناصل الدول الاستعمارية تدل على الاطلاع التام على أحوال وسير الجمعيات القومية العربية، فمن ذلك تقرير القنصل البريطاني، ومما جاء فيه: (إن جوهر الإصلاح كان يدور حول مطلب رئيس: [إدارة لا مركزية]..وأن أطراف مطلب من مطالب الإصلاح [استقدام خبراء ومستشارين ومفتشين من الأجانب])[٢].

وكان هذا التقرير عن مطالب جمعية الإصلاح البيروتية، فقد جاء تقرير القنصل البريطاني مصرحاً بذلك، حيث يقول: (كان أعضاء الجمعية الإصلاحية يبدون نشاطاً سياسياً غير مألوف في البلاد، وشجاعة في حملتهم الإصلاحية لا عهد للناس بها من قبل)[٣].

كما اعتنت الدول الاستعمارية بالجمعيات القومية العربية، خارج الدولة العثمانية فقد احتوت أكبر تمثيل عربي للجمعيات القومية العربية من خلال المؤتمر العربي الأول، الذي أقيم في باريس (فرنسا).

وعندما سئل رئيس المؤتمر: عن سبب اختيار باريس ليعقد فيها المؤتمر؟ قال: (.. أَنْ نُسمع مطالبنا ونفهم رأينا لأوربا التي تزداد أهمية مصالحها في البلاد العثمانية يوماً بعد يوم... ويمكننا أن نضع أساس تفاهم بين الشرق والغرب. وهو مؤتمر لم يكن له صبغة دينية كما صرح رئيس المؤتمر بذلك)[٤].

---

(١) بلاد الشام (قراءة في الوثائق)، وجيه كوثراني، ٢٥٣ - ٢٨٩.
(٢) نشوء القومية العربية، زين نور الدين زين، ٩٨.
(٣) المصدر السابق، ٩٩.
(٤) المؤتمر العربي الأول، ص١٩.

٢) المدارس والكليات التنصيرية:

نشأت في البلاد العربية مؤسسات تعليمية كثيرة، تبنت الدعوة إلى النصرانية[١]، وليس غرض الباحث في هذه القضية إلا بيان دور هذه المؤسسات التعليمية في نشأة الجمعيات القومية العربية.

ويظهر أن أبلغ تأثير للمؤسسات التعليمية في نشأة الجمعيات القومية العربية، هو تأثير الجامعة الأمريكية في بيروت، والتي تأسست أولاً باسم الكلية السورية الإنجيلية في سنة ١٨٦٦م (١٢٨٣هـ) وتولى رئاستها دانيال بلس[٢]. وقد ذكر القوميون عن دور الجامعة الأمريكية بأنها: أيقظت فيهم روح العزة العربية، وجمعت أبناء البلاد العربية في حظيرة هذه القومية.. وإن طلاب الجامعة العربية نظرتهم أنهم (أرباب عقيدة عربية)[٣].

ويقول أحد أعضاء الجمعيات القومية، عن دور هذه المؤسسات ومنها الجامعة الأمريكية، بأنها كانت ذات مآرب سياسية استعمارية.. مما كان له أثر كبير في تناقض أفكار الناشئة العربية التي كانت تؤمها وأهدافها، فصارت الجامعة الأمريكية التي تخرج منها آلاف طلاب العرب حرة النزعة، فكان لخريجيها مساهمة فعالة في حركة الوعي القومي العربي[٤].

---

(١) حول هذا الموضوع انظر:

١. التبشير والاستعمار في البلاد العربية، مصطفى الخالدي وعمر فروخ، ٩١، ١١٢.
٢. يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ٩٠ - ٩٨.
٣. البلاد العربية والدولة العثمانية، ساطع الحصري، ٨١.
٤. حول الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ٢/ ١٢١.
٥. الحركة الوحدوية في لبنان، سعيد مراد، ٨٣.
٦. واقعنا المعاصر، محمد قطب، ٢١٧، ٢٣٥.

(٢) انظر: يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ١٠٦.

(٣) التبشير والاستعمار، مصطفى الخالدي وعمر فروخ، ٩٢.

(٤) نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ١٢٥، (بتصرف).

طرحت الجامعة الأمريكية جائزة (هورد بلس)[١] - ابن مؤسس الجامعة - لمن يبرز في كتابة (أسباب النهضة العربية في القرن التاسع عشر)، فانتدب لذلك أنيس الصولي، فكتب في ذلك بحثاً، فاز بالجائزة، وقد ذكر المؤلف أن من أسباب النهضة العربية مدارس المبشرين في بيروت، وفي مقدمتها الجامعة الأمريكية، وقال: (إن الجامعة بلا جدال ركن متين من أركان النهضة العربية الحديثة وثمرة طيبة من ثمرات الإرساليات)[٢].

وعن دور الجامعة في تأسيس الجمعيات قال: (عمد شبان الجامعة الأمريكية إلى تأسيس الجمعيات واتباع الأنظمة البرلمانية والخضوع لها)[٣].

وعن الدور السياسي الذي قامت به الجامعة الأمريكية في ذلك الوقت، يقول أحد الدارسين فيها: (حينما كنا طلاباً كنا نتخذ القرار بالإضراب السياسي في قلب الجامعة الأمريكية، وكانت المظاهرات من الجامعة - معقل الوطنية - ثم كان الطلاب يعودون من المظاهرات ويدخلون إلى صفوفهم في اليوم التالي كأنهم آتون من عطلة[٤].

وقد بيّن أعضاء الجمعيات القومية العربية دور الجامعة الأمريكية في نشأة الجمعيات القومية، بأنها كانت تربي تلامذتها على حرية الفكر وحرية القول، وعودتهم على الحرية الشخصية والمساواة في الحقوق...هذه الروح التي تمتاز به هذه المدرسة من مدارس الشرق كان لها تأثير كبير في ترقية النفوس في هذه النهضة[٥]، وبخاصة منذ أن كانت تدرس العلوم بالعربية[٦].

---

(١) انظر الأعلام، الزركلي، ٢/ ٣٣٠.

(٢) مجلة الزهراء، محب الدين الخطيب، المجلد ٣، ربيع الأول ١٣٤٥هـ، ص ٢٠١. وانظر: أسباب النهضة العربية في القرن التاسع عشر، أنيس الصولي، ٨٥، دار ابن زيدون، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.

(٣) أسباب النهضة العربية في القرن التاسع عشر، أنيس النصولي، ١٧١.

(٤) التبشير والاستعمار، مصطفى الخالدي وعمر فروخ، ١٠٩.

(٥) لبنانيات تاريخ وصور، نقولا زيادة، ١٤٩، دار الريس، لندن، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م.

(٦) القومية العربية، مصطفى الشهابي، ٤٤.

وكان من نتائج الجامعة الأمريكية على أعضاء الجمعيات القومية العربية أن التحقوا في جمعية شمس البر الماسونية، وهي فرع من جمعية اتحاد الشبان المسيحيين[1] بإنكلترا، وكان من ضمن أعضاء جمعية شمس البر الماسونية من أعضاء الجمعيات القومية، منهم: جرجي زيدان، إسكندر البارودي، وسليم جريديني، ويعقوب صروف[2]، وفارس نمر[3].

وقد صرح فارس نمر - أحد أعضاء جمعية بيروت السرية - بأن من قام بتأسيسها، هم النخبة المفكرة، وجلهم من النصارى الذين درسوا في الكلية السورية الإنجيلية[4]. وكان هؤلاء النخبة يتلقون دروسهم داخل الكلية من إلياس حبالين النصراني الماسوني، والذي يدرس اللغة الفرنسية، وكما يقول عنه طلابه: كان تقدمياً وثورياً في أفكاره، وكان يختصر درس الفرنسية في صفوفه، ليعود إلى موضوع السياسة فيكلم الطلاب عن وجوب التحرر من الأتراك والتخلص من حكومتهم الفاسدة الظالمة[5].

إن جمعية الآداب والعلوم، تعد من أوائل الجمعيات العلمية التي أنشئت في البلاد العربية، وقد كان من مؤسسيها (كورنيليوس فان دايك) [6]، وهو ممن أسس الجامعة الأمريكية في بيروت[7].

---

(١) جمعية الشبان المسيحيين رابطة دينية اجتماعية ألفها السير جورج ويليمس في إنكلترا سنة ١٨٤٤م، وهي لا تشترط على أعضائها اتباع مذهب معين من المذاهب النصرانية، ويباح الاشتراك فيها لكل من يرتاحون إلى مبادئها وإن لم يكونوا نصارى. ويبلغ عدد فروعها ٩٠٠ فرع، تضم ١٥٠٠٠٠٠ عضو بينهم النصراني واليهودي والمسلم. وفي تركيا وفلسطين فروع لها. انظر مجلة الهلال الجزء السادس، السنة ٣٦ بتاريخ ١٠/ ١٠/ ١٣٤٦هـ.

(٢) انظر الترجمة رقم (٧٢).

(٣) لبنانيات تاريخ وصور، نقولا زيادة، ١٤٩.

(٤) نشوء القومية العربية، زين نور الدين زين، ٦٠.

(٥) المصدر السابق نفسه، ١٩٦، هامش الفصل الرابع برقم ١٦.

(٦) انظر: يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ١١٧.

(٧) التبشير والاستعمار في البلاد العربية، مصطفى الخالدي وعمر فروخ، ٩٦.

وتأثير الجامعة الأمريكية على أعضاء الجمعيات القومية العربية، انطلق من الهدف الأول لتأسيس الجامعة وهو (تنصير أبناء المسلمين) كما نص على ذلك الأعضاء المؤسسون للجامعة، فقد قالوا: (نحن نصر على الطابع التبشيري للكلية، وعلى أن يكون كل أستاذ فيها مبشراً مسيحياً)[1]، ولذا كان المنصر القس[2] دانيال بلس هو أول رئيس لها، والذي وصل إلى بيروت سنة ١٨٥٦م (١٢٧٢هـ)، وظل في البلاد إلى حين وفاته سنة ١٩١٦م (١٣٣٤هـ) (أي ستين سنة) وقد جاء مبشراً، وعمل في بيروت وعبيّة.

وممن تولى العناية بالجامعة الأمريكية وقام بزيارتها: ثيودور روزفلت[3]، الذي تولى فيما بعد رئاسة الولايات المتحدة. وكان بلس كثير الاتصال بأهل الفكر والعلم من العرب المقيمين في بيروت. ويذكر أن بطرس البستاني كان صديقاً له[4].

وعندما استقال هذا المنصر من رئاسة الجامعة سنة ١٩٠٢م، أقام أعضاء الجمعيات القومية العربية تمثالاً له من الرخام الأبيض، وأقيم بهذه المناسبة احتفالٌ باهرٌ، ألقى فيه بعض أعضاء الجمعيات كلمات وقصائد، فمما قيل في الحفل: (إن أبناءك المنتشرين في هذا

---

(١) المصدر السابق، ٩٧.
(٢) انظر يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ١٠٦ حاشية رقم (٢).
(٣) الرئيس الوحيد للولايات المتحدة الذي انتخب ٤ مرات، استمرت لمدة ١٢ عاماً، ولد في نيويورك وفي عام ١٩٠٠م، التحق بجامعة هارفارد ودرس التاريخ وتخرج فيها ١٩٠٣م، ثم التحق بكلية الحقوق بجامعة كولومبيا ١٩٠٤م، وبعد اندلاع الحرب العالمية الأولى ودخول أمريكا الحرب عمل روزفلت مساعداً لوزير البحرية، وأقام عدة مشاريع حربية، انتخب حاكماً لولاية نيويورك عام ١٩٢٨م، وأعيد عام ١٩٣٢م، وأصبح رئيساً لأمريكا عام ١٩٣٣م، وعمره ٥١ عاماً. تولى الرئاسة وأصدر عام ١٩٤١م الحقوق الأربعة وهي: حرية التعبير، وحرية العبادة، والتحرر من الحاجة، ومن الخوف، وأعلن أن جميع الناس يجب أن يتمتعوا بها. وفي عام ١٩٤٤م سافر روزفلت للالتقاء بتشرشل وستالين حيث اتفقوا على الهجوم النهائي على ألمانيا، وفي عام ١٩٤٥م أصيب بنزيف في الدماغ بينما كان يعمل في مكتبه وتوفي. انظر: (الموسوعة العربية، ١١/ ٣٢٤، حرف (الراء).
(٤) لبنانيات تاريخ وصور، نقولا زيادة، ٢٤٨.

القطر السعيد يزرعون ويتجرون ويتعلمون ويطببون وينشئون الصحف والمجلات... وأجمعوا كلهم على أن تكون علامة الشكر لك مما يرى بالعيان ويبقى راسخاً على كرور الأزمان...، وقد لا يتصور أبناء المدرسة مقدار المصاعب التي ذللتها حتى أنشئت هذه المدرسة وبلغت ما بلغته من السعة والشهرة، فإن المدارس الكلية تحتاج إلى نفقات كبيرة.. فطرقت أبواب قومك الأميركيين في مواطنهم، وما زلت تحث الأغنياء وترغبهم في هذا العمل المبرور حتى جمعت ما يكفي من المال للشروع في هذا العمل(١).

٣) الدعم المادي:

لقد أخبر ربنا عن إنفاق الذين كفروا أموالهم ليصدوا عن سبيل الله، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾(٢). إنهم ينفقون أموالهم، ويبذلون جهودهم، ويستنفدون كيدهم، في الصد عن سبيل الله، وفي إقامة العقبات في وجه هذا الدين، وفي حرب العصبة المسلمة في كل أرض وفي كل حين(٣).

وقد سلكت الدول الاستعمارية هذا المنهج، فقد قال لورانس مبيناً دور بريطانيا في الدعم المادي الذي قدمته لتأسيس الجمعيات القومية العربية، بأن بريطانيا، لم تكن شحيحة، فمساعدتها للحركة العربية بالسلاح والمال تجاوزت عشرة ملايين من الجنيهات(٤).

---

(١) مجلة المقتطف، الجزء السابع من المجلد التاسع والعشرين، ١٧/ ٤/ ١٣٢٢هـ، الموافق ١ يوليو سنة ١٩٠٤م، ص ٥٦١. وانظر: الجزء الثامن المجلد التاسع والعشرين، ص ٦٩٢.

(٢) سورة الأنفال، رقم الآية (٣٦).

(٣) في ظلال القرآن سيد قطب، ٣/ ١٥٠٦.

(٤) أعمدة الحكمة السبعة، لورانس، ١١٤.

وفي البصرة أخذ لورانس يبحث عن رجال الأحزاب العرب بقصد تشجيعهم على القيام بحركة ضد الأتراك، وقاده البحث إلى سليمان فيضي - سكرتير الجمعية الإصلاحية - فاستدعاه وعرض عليه العمل على تنظيم ثورة عربية بعد أن أكد له أن بريطانيا (بدون شك عازمة على إفساح المجال للشعوب العربية كي تتمتع باستقلالها وتنال حقوقها، بشرط أن يساهم العرب أنفسهم في الحصول على ذلك الاستقلال)[١].

وتم الاتصال ببعض مؤسسي الجمعيات القومية العربية، من أجل التنسيق في إعلان الثورة ضد الدولة العثمانية، وقدموا مبلغاً لمستلزمات إعلان الثورة وقدر بألف جنيه[٢]. وقد طلب بعض أعضاء جمعية بيروت الإصلاحية مطالب إلى القنصلية الفرنسية وتتضمن الدعم المادي، ومد يد المساعدة والدعم المعنوي[٣].

ومن صور الدعم المالي الذي قدمته الدول الاستعمارية للجمعيات القومية العربية، شراء بعض صحف الجمعيات، فمن ذلك صحيفة المقتبس وهي جريدة وطنية... وكانت إدارتها مجمعاً للعلماء والأدباء من العرب على اختلاف أقطارهم.. فكانت الأولى التي نبهت أذهان الناس - كما يقول عنها أعضاء الجمعيات - إلى واجبهم نحو وطنهم[٤].

ويصف القنصل الفرنسي العام القيمة المعنوية لصحيفة المقتبس، بأنها أهم جريدة دمشقية على الإطلاق، والوحيدة التي تؤثر في السكان المسلمين تأثيراً شاملاً ونافذاً. ولذا قرر القنصل احتواء هذه الجريدة، فيقول: لم يكن بإمكاني مقابلة صاحب الجريدة[٥] بنفسي بسبب العادات المحلية حول العلاقات ما بين القناصل والأهالي، فكان علي

(١) مذكرات سليمان فيضي، ٢٠٨، ٢٢٦، فصل (لورنس في العراق)، بغداد، ١٩٥٢م.
(٢) انظر: أسرار الثورة العربية الكبرى، أمين سعيد، ٣٧.
(٣) بلاد الشام، وجيه كوثراني، ٢٧١.
(٤) مذكرات البارودي، ١/ ٥٧.
(٥) صاحب الجريدة محمد كرد علي. وانظر: محمد كرد علي (المثقف وقضية الولاء السياسي)، محمد الناصر النفزاوي، دار الجنوب، تونس، ١٩٩٣م.

انتظار زيارته.. وكان علي، فضلاً عن ذلك أن ألجأ إلى المواربة الشرقية حتى لا أفضح نفسي أمام الوسطاء الذين أستخدمهم. وقد أظهرنا نحوه عطفاً، وأدينا له خدمات إنْ في القسطنطينية أو في باريس، وقد عاد يبدي لنا أسمى عواطفه. وتوقفت المقتبس عن مهاجمتنا. وإذا لم يقم بزيارتي فالسبب، كما قال لي بعفوية، أنه لا يريد سماع من يردد أنه [باع نفسه للأجانب].

ولم تقف رغبة القنصل عند هذا الحد، فقد قال: إن حصولنا على حياد المقتبس لا يمكن أن يكفينا، بل علينا كسب هذه الجريدة كسباً تاماً والفوز، دون أن تتظاهر بتغيير رأيها. وبعد أن حصل ما يريده القنصل من كسب صحيفة المقتبس، قال: لم نعد اليوم أمام عدو معلن ينبغي الإطاحة بمخططاته، بل صرنا أمام شبه صديق لا ينسى الخدمات التي قدمت له، ويسر إلينا حول الفوضى الحالية بآراء لا يباح بها إلا لأشخاص هم موضع الثقة[(١)].

وكان خليل غانم وأمين أرسلان، يكتبان في عدة صحف أوربية ذات نفوذ اتحادي وأجنبي وتمويل يهودي ضد السلطان عبدالحميد، كما في صحيفة (تركيا الفتاة)، والتركيز على الحصول على حرية شخصية وحرية معتدلة..واستئصال الأغراض والمنافع الشخصية وتعديل الضرائب ومساواتها[(٢)].

ومن أبرز المآخذ التي ذكرها جمال باشا على أعضاء الجمعيات القومية العربية، الإعانات المالية من الدول الغربية، فمن ذلك ما ذكره شكري بك الحسيني لسيف الدين الخطيب أن أحد نصارى العرب المقيم في أمريكا بعث مكتوباً ذكر فيه أنه سيرسل ألف دولار لتصرف في سبيل تشكيل الجمعيات القومية العربية[(٣)].

---

(١) بلاد الشام، وجيه كوثراني، ٢٨٩، (بتصرف)، وقد كتبت الرسالة بتاريخ ٧ نيسان سنة ١٩١٣م (سري).
(٢) موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية، حسان علي حلاق، ٢٨٨ - ٢٨٩.
(٣) الإيضاحات عن المسائل السياسية، جمال باشا، ٩.

» السبب الرابع: الاستعمار العسكري:

خلال أواخر القرن الثالث عشر وخلال القرن الرابع عشر الهجري، استعمرت بعض البلاد العربية الواقعة تحت الحكم العثماني من قبل الدول الاستعمارية، فكان استعمار لبنان في عام ١٨٦٠م (١٢٧٦هـ)، حيث قامت فرنسا بموافقة الدول الأوربية الكبرى وبناء على اتفاق بينهما وضع في باريس، بإرسال حملة فرنسية عسكرية احتلت لبنان، وقد استمر الاحتلال الفرنسي للبنان سبعة أشهر.. وبناء على مقترحات اللجنة الدولية أصدروا نظاماً إدارياً في حزيران سنة ١٨٦١م ووضعوا نظاماً خاصاً لحكم لبنان عرف باسم (متصرفية لبنان) قوامه الحكم الذاتي للبنان على أن يحكم في لبنان حاكم نصراني مسؤول مباشرة أمام السلطان بضمانة الدول الأوربية.

ويساعد المتصرف مجلس إداري مركزي يمثل المذاهب المختلفة. وأقر نظام المتصرفية مساواة جميع المواطنين أمام القانون[١].

واحتلت فرنسا مدينة الجزائر في عام ١٨٣٠م (١٢٤٦هـ)، كما استعمرت أيضاً مدينة تونس في عام ١٨٨١م (١٢٩٨هـ)[٢]. ووقعت مصر تحت حكم الاستعمار، فقد عقد مؤتمر في الآستانة بحضور كل من فرنسا وبريطانيا وألمانيا وروسيا والنمسا وإيطاليا، ولم تحضره الدولة العثمانية نفسها صاحبة القضية الأساسية.. واحتفظ المندوب البريطاني في المؤتمر لدولته بحق التدخل[٣]. وقد دخل الجيش الإنجليزي القاهرة، وبدأ الاحتلال البريطاني لمصر منذ خريف ١٨٨٢م (١٢٩٩هـ)[٤].

---

(١) الدولة العثمانية والشرق العربي، محمد أنيس، ٢٠٨. وانظر: العرب والعثمانيون، عبدالكريم رافق، ٤٢٦.

(٢) العرب والعثمانيون، عبدالكريم رافق، ٤٣٢- ٤٣٨.

(٣) تاريخ العرب الحديث، عبدالوهاب أحمد، ١٩١.

(٤) تاريخ العرب المعاصر (مصر والعراق)، عبدالعزيز نوار، ١٦١، دار النهضة العربية، بيروت. وعن الآثار العقائدية للاحتلال البريطاني لمصر. انظر: واقعنا المعاصر، محمد قطب، ٢١٥- ٣٢٤.

وفي سنة ١٩١١م احتلت إيطاليا مدينة طرابلس الغرب، وأعلنت إلحاق كل الولاية إلى بلادها.. وإقدام إيطاليا على احتلال طرابلس الغرب كان بمثابة اقتطاع[١] جزء من البلاد العثمانية اقتطاعاً مباشراً، دون أي عذر ومبرر[٢].

فكان هذا التقسيم الاستعماري للبلاد العربية حافزاً للبلاد العربية إلى مقاومة الاستعمار بجميع معانيه ومظاهره المختلفة، ودفعت بهذه الشعوب إلى التسلح ببعض أسلحة الغرب المستعمر نفسه من أجل توفير القدرة على الصمود في وجهه والمقدرة على الانتصار في المعركة، وكان التنظيم الحزبي والسياسي في مقدمة تلك الأسلحة[٣].

ومن جانب آخر فقد كان استعمار بعض البلاد العربية سبباً من أسباب نشأة الجمعيات القومية، إذ أصبحت بعض البلاد المستعمرة كمصر مثلاً مكاناً آمناً لتأسيس الجمعيات القومية العربية، ورغم أن مصر كانت تتمتع باستقلال شبه ذاتي تحت حكم أسرة محمد علي منذ عام ١٨٤٠م (١٢٥٦هـ) إلا أنها بقيت مرتبطة بحكم شبه مركزي، أي أن مصر بقيت عثمانية في عنوانها الرسمي[٤].

وعندما بدأت الدعوة إلى تتريك الشعوب العثمانية، هرب مجموعة من القوميين العرب إلى مصر حيث يجدون فيها المكان الآمن تحت حماية المستعمر، وكان أكثرهم من الشاميين.. وقد استقر بعضهم في مصر، حيث كان الإنجليز يشجعون كل متمرد في الدولة العثمانية، ويحمون كل خارج عنها[٥].

---

(١) عن أثر الاعتداء الإيطالي على علاقة العرب والترك. انظر: العرب والترك، توفيق برو، ٣٠٥.
(٢) البلاد العربية والدولة العثمانية، ساطع الحصري، ١٠١.
(٣) جمعية العربية الفتاة السرية، سهيلة الريماوي، ٣٢
(٤) العثمانيون وتكوين العرب الحديث، سيار الجميل، ١٧٩.
(٥) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، محمد محمد حسين، ٢/ ١٠٠.

شجع المستعمر التمرد على الدولة العثمانية تنفيذاً لقرارات وزير المستعمرات البريطاني، القائل: [... إن الحرب علمتنا أن الوحدة الإسلامية هي الخطر الأعظم الذي ينبغي على الإمبراطورية أن تحذره وتحاربه، وليس الإمبراطورية البريطانية وحدها بل فرنسا أيضاً..إن سياستنا تهدف أبداً إلى منع الوحدة الإسلامية والتضامن الإسلامي، وينبغي أن تكون كذلك... في مصر ودول إسلامية أخرى، شجعنا وبصواب نمو القوميات المحلية لكونها أقل خطراً من الوحدة والتضامن الإسلامي][1].

ويرى بعض أعضاء الجمعيات القومية أن استقلال هذه البلاد - عن الدولة العثمانية - وأخذه منذ ذلك الزمن بوسائل المدنية الغربية، واقتباسه للعلوم الحديثة، وفتح أبوابه لأحرار العرب وأدبائهم، كل ذلك أوجد في مصر نهضة فكرية وأدبية تقدمت وفاقت نهضة الأقطار العربية السائرة، حتى أمست مصر في أواخر القرن الماضي وأوائل القرن الحاضر مباءة يأوي إليها ويستجن بها القوميون العرب[2].

وقد أدى انفتاح مصر على أوربا..، وعودة المبعوثين المصريين من فرنسا وغيرها من الدول الأوربية، وهجرة بعض رجال الشام البارزين إلى مصر إلى نهضة ثقافية وسياسية مبكرة.

وقامت في مصر آنذاك نهضة صحفية واسعة ساهم فيها بعض رجال الشام البارزين الذين أتوا لمصر لنشر أفكارهم وآرائهم السياسية والأدبية التي لم يتمكنوا من نشرها في بلاد الشام. وأنشأ بعض هؤلاء صحفاً ومجلات مهمة[3]، تمثل توجهات الجمعيات القومية، فمن هذه الصحف:

---

(١) بريطانيا والخلافة الإسلامية، وثيقة تاريخية سياسية، عبدالوهاب أحمد.

(٢) القومية العربية، مصطفى الشهابي، ٤٠.

(٣) تاريخ العرب الحديث، عبدالوهاب أحمد عبدالرحمن، ٣٤٦.

جريدة الهلال ومحررها جرجي زيدان، وجريدة المقطم وجريدة المقتطف ويصدرهما يعقوب صروف وفارس نمر[١]، وصحيفة الأهرام التي هي فرنسية النزعة مارونية الهدف[٢] والتي أنشأها سليم وبشارة تقلا[٣]، ويقارب أن ثلث الجرائد التي يصدرها القوميون كانت تصدر من مصر[٤].

وكانت مصر قد استقبلت أوائل أعضاء الجمعيات القومية، حيث لجأ إلى القاهرة أبرز مؤسسي (جمعية بيروت السرية) في عام ١٨٨٥م (١٣٠٢هـ) وهم: فارس نمر، وشاهين مكاريوس، ويعقوب صروف، ليؤسسوا هناك جريدة (المقطم)، ومجلة فكرية: (المقتطف)، وليتابعوا من خلالها نشر أفكارهم في خط (ليبرالي) ذي صلة أكيدة بتلك البداية التي نشأت في بيروت[٥].

وفي مصر أسست جماعة من السوريين من أهل الفكر والاختبار السياسي حزباً سياسياً بمعرفة الحكومة التركية، أطلقوا عليه اسم (حزب اللامركزية الإدارية العثماني)[٦] - جمعية اللامركزية - وتبنت (المنار) نشر قانون الجمعية.

وقد كانت الجمعية على صلة بكتشنر - وزير الحربية البريطاني - القنصل البريطاني في مصر، وقد تدخل كتشنر بناءً على رغبة الجمعية لدى الباب العالي للعفو عن عزيز علي المصري، الذي كان من أبرز المناضلين العرب ضد الدولة العثمانية - ومؤسس جمعيتي

(١) اليقظة الإسلامية في مواجهة التغريب، أنور الجندي، ١٦٥. وانظر: الحلقة المفقودة في تاريخ العرب، محمد جميل بيهم، ٢١٨، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٦٩هـ.
(٢) عقبات في طريق النهضة، أنور الجندي، ١٧٨، دار الاعتصام.
(٣) تاريخ العرب الحديث، عبدالوهاب أحمد عبدالرحمن، ٣٤٦.
(٤) البلاد العربية والدولة العثمانية، ساطع الحصري، ٩٣.
(٥) الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي، وجيه كوثراني، ١١٣.
(٦) نشوء القومية العربية، زين نور الدين زين، ٩٤.

العهد والقحطانية - والذي كانت الدولة العثمانية قد قبضت عليه[1].

وقال لورانس عن عزيز علي المصري: يعيش في مصر بمثابة المثل الأعلى للضباط العرب، وقد اتصل به اللورد كتشنر في الأيام الأولى للحرب، مؤملاً أن يستطيع بواسطته كسب القوات العسكرية العربية في الجيش التركي إلى جانبه.

وعن لقائه بعزيز علي قال لورانس: على ظهر السفينة - الباخرة الحربية (لاما) - التقينا بعزيز علي المصري الذي ترك الجيش التركي حيث كان يشغل رتبة كولونيل ليلتحق بالجيش العربي. لقد كان طريقه إلى مكة ليبحث وأميرها تسليح الجيش النظامي، فتعرفنا إلى بعضنا وشرع الضابط الشركسي يتكلم بلغة ألمانية طليقة[2].

» السبب الخامس: التنظيمات الجاهلية في الدولة العثمانية:

قد يكون هذا السبب من أهم الأسباب في نشأة الجمعيات القومية العربية، وقد أخبر ربنا عز وجل في كتابه ما أصاب الأمم السابقة بتقسيمهم أحزاباً وطوائف يكيد بعضهم لبعض، بعد أن استبدلوا بشريعة الرحمن وشرعوا للأمة ما لم يأذن به الله. فقد قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾[3].

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ حتى مررنا على مسجد بني معاوية فدخل فصلى ركعتين فصلينا معه، فناجى ربه عز وجل طويلاً، ثم قال: (سألت ربي ثلاثاً سألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها، وسألته أن لا يهلك

---

(١) الدولة العثمانية والشرق العربي، محمد أنيس، ٢٧١. وانظر تفاصيل اعتقال عزيز المصري في: مذكراتي على هامش القضية العربية، أسعد داغر، ٤٩. وعزيز علي والحركة العربية، محمد عبدالرحمن برج، ٩٢.

(٢) أعمدة الحكمة السبعة، لورانس، ٢٥.

(٣) سورة الأنعام، آية (٦٥).

أمتي بالسنة فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها)[1].

إن إحداث هذه التشريعات الجاهلية، والتي تسمى (أنظمة) في الأمة،كانت سبباً لشقاء البشرية بظهور الأحزاب والشيع، وعرفت البشرية في فترات كثيرة من تاريخها ذلك اللون من العذاب - والدولة العثمانية تعتبر من ضمن تاريخ البشرية - كلما انحرفت عن منهج الله، وتركت لأهواء البشر ونزواتهم وشهواتهم وجهالتهم وضعفهم وقصورهم.. تصريف الحياة وفق تلك الأهواء والنـزوات والشهوات والجهالة والضعف والقصور.

وكلما تخبط الناس وهم يضعون أنظمة للحياة وأوضاعاً وشرائع وقوانين وقيماً وموازين من عند أنفسهم، يتعبد بها الناس بعضهم بعضاً، ويريد بعضهم أن يخضع لأنظمته وأوضاعه وشرائعه وقوانينه البعض الآخر، والبعض الآخر يأبى ويعارض، وأولئك يبطشون بمن يأبى ويعارض، وتتصارع رغباتهم وشهواتهم وأطماعهم وتصوراتهم. فيذوق بعضهم بأس بعض، ويحقد بعضهم على بعض، وينكر بعضهم بعضاً، لأنهم لا يفيئون جميعاً إلى ميزان واحد، يضعه لهم المعبود الذي يعنو له كل العبيد، حيث لا يجد أحدهم في نفسه استكباراً عن الخضوع له، ولا يحس في نفسه صغاراً حين يخضع له.

إن الفتنة الكبرى في الأرض هي أن يقوم من بين العباد من يدعي حق الألوهية عليهم، ثم يزاول هذا الحق فعلاً، إنها الفتنة التي تجعل الناس شيعاً ملتبسة، لأنهم من ناحية المظهر يبدون أمة واحدة أو مجتمعاً واحداً، ولكن من ناحية الحقيقة يكون بعضهم عبيداً لبعض، ويكون بعضهم في يده السلطة التي يبطش بها - لأنها غير مقيدة بشريعة من الله - ويكون بعضهم في نفسه الحقد والتربص.. ويُذوق الذين يتربصون والذين يبطشون

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، بَاب هَلَاكِ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، رقم الحديث (٥١٤٤).

بعضَهم بأسَ بعض وهم شيع، ولكنها ليست متميزة ولا منفصلة ولا مفاصلة[١].

والدولة العثمانية كانت تعتبر دولة المسلمين من شرقها إلى غربها، وتُمَثِّل بِبَعْضِ خلفائها الحاكم العادل، وأصبح لقب الخليفة يُنادي به المسلمون وينتمون إليه، ولكن حينما أدخلت الدولة العثمانية على مبادئها قوانين بشرية، وموروثات جاهلية حل بها ما حل بمن قبلها من الأمم: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾[٢].

لقد عجزت الدولة العثمانية والشعوب الإسلامية عن مواصلة الإبداع، وآل أمرها إلى السقوط.. بسبب الانحراف المادي والعلمي والرهباني الذي أدى إلى تمزيق النشاط الاجتماعي... وسادت نزعة التشاؤم والانشقاق، ومحاولة الفصل بين شؤون الدين والدنيا في أواخر عهدها، وعندها فقد الإنسان المسلم العثماني التوازن وحل الانحراف، وتعرقلت مسيرة حركة التاريخ[٣].

وسبقت الإشارة إلى التنظيمات التي حدثت بالدولة العثمانية، وكان الغرض من التنظيمات، ما يلي:

١) تقريب الهيئة الاجتماعية الإسلامية إلى الهيئات الاجتماعية المسيحية التي عاشت منذ قرون بعيدةً عنها معنىً وسياسةً، وفي الحقيقة: إن الإسلام الذي قد كان مؤسسَ الحكومة العثمانية بقي حاكماً مطلقاً فوق الحكومة ناظماً، فقد كان القانون المدني متحداً مع القرآن... ولكون تشكيلات الأمة اشتبكت بالعقائد الدينية بحيث لا يمكن تفريق بعضها عن بعض، كانت تشكيلات الأمة لا تقبل التغيير كالعقائد الدينية... فوجب لتحصيل الائتلاف الذي لا تستطيع تركيا الاستمرار على الاستغناء عنه، إما إزالة الحائل

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٢/ ١١٢٥.

(٢) سورة فاطر، رقم الآية (٤٣).

(٣) تاريخ الدولة العثمانية، علي حسون، ١١١، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٥هـ.

في البين بالمرة أو تخفيف وطأته. ومعناه إما أن تحول الحكومة من الروحانية إلى الدنيوية بتخليصها عن تأثير القوانين الدينية.. وإما أن تخلص بالتدرج من الحدود والقيود الدينية من طريق تفسير العقائد الأساسية تفسيراً موسعاً... وللاحتراز من الحالات الموجبة للاشمئزاز..كانت الحكومة العثمانية اختارت الشق الثاني(١).

٢) ضغط الدول الأوربية ومطالبتها بإصلاح أحوال النصارى التابعين للدولة العثمانية. ويعتبر الباحثون أن معاهدة (كوتشك كاينرجي) عام ١٧٧٤م (١١٤٨هـ)، أساساً حقوقياً لتلك العلاقات، وتعتبر علامة مميزة في تاريخ العلاقات العثمانية الروسية.. فأصبح من حقها إنشاء قنصليات في ممتلكات الدولة العثمانية، وأصبح لرعاياها حق التجارة في أملاك الدولة...، ومن أهم المكاسب التي حصلت عليها روسيا بمقتضى هذه المعاهدة أن أضحى لها حق إقامة كنيسة أرثوذكسية في القسطنطينية(٢).

ويبين الشيخ مصطفى صبري، أن فصل المحاكم عن المشيخة الإسلامية في تركيا وفي حكومة الاتحاديين خاصةً، حدث بعد مراجعات مزعجة من الدول الكبيرة النصرانية(٣).

وصورة أخرى من الضغط الأوربي على الدولة العثمانية، أن مصطفى رشيد باشا(٤) - يعتبر أبا التنظيمات - جمع مجلس العلماء، وقال: إن سفير إنجلترا قال لنا في مناسبات عديدة: إنكم لا تقبلون شهادة الذمي على المسلم، مع أنكم تحكمون بلاداً كثيرة جميع

(١) موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين، مصطفى صبري، ١/ ٨٠، ٨١. وانظر: تركيا والتنظيمات في تاريخ إصلاحات الدولة العثمانية، اد.انكلهارد.
(٢) الدولة العثمانية والشرق العربي، محمد أنيس، ١٦٩.
(٣) موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين، مصطفى صبري، ٤/ ٣٥٩.
(٤) مصطفى رشيد باشا: (١٢١٥، ١٢٧٤هـ)، (١٨٠٠، ١٨٥٨م): من مواليد إستنبول. تقلد وظائف عالية في الدولة العثمانية، منها: السفير فوق العادة في لندن وباريس، وأصبح وزيراً للخارجية ثم صدراً أعظم، كان دوره كبيراً في إعلان حركة الإصلاح العثمانية عام (١٢٥٥هـ). وقد انتسب إلى المحافل الماسونية في إستنبول. [مصطفى رشيد باشا وتنظيمات، رشاد قاينار، ٤١].

سكانها مسيحيون..) ورشيد باشا، بعد أن عرض على المجلس هذه القضية بتفاصيل وافية، وجه إلى العلماء هذا السؤال: ألا يمكن قبول شهادة غير المسلمين، على الأقل في المحلات التي لا يوجد فيها سكان مسلمون؟.

ولكن مجلس العلماء قال - بإجماع آراء الحاضرين -: (لا مساغ شرعي لذلك على الإطلاق)، وأردف هذه الفتوى (إلا أنه يجوز للحكومة أن تتخذ ما تراه من التدابير الإدارية في أمثال هذه الحالات، إذا صدر أمر سلطان بذلك. لأن الأوامر السلطانية المبنية على المصلحة العامة، تكون مطاعة وواجبة التنفيذ). فاستند رجال التنظيمات على هذه الفتوى، وأخذوا يصدرون الأنظمة والقوانين على شكل أوامر سلطانية[١].

٣) مسايرة الدول الأوربية في مبدأ التنظيم، وقد ورد هذا الغرض في قانون ما يسمى بـ(الإصلاحات الخيرية)، والذي صدر سنة ١٢٧٢هـ (١٨٥٦م) ونصه: (تأييد وتوسيع نطاق النظامات الجديدة التي توفقنا إلى الآن لوضعها وتدوينها بالموافقة للموقع العالي الحائزة له دولتنا العلية بين الدول المتمدنة مطلوبنا إيصالها إلى درجة الكمال...، فهذا العصر يعد بالنسبة لدولتنا العلية مبدأ زمن الخير..)[٢].

وبالإشارة إلى بعض التنظيمات في الدولة العثمانية، والتي فيها مخالفات عقائدية، يظهر للدارس أنها أوجدت مبررات ساعدت في نشأة الجمعيات القومية العربية، وغيرها من الأفكار الملحدة. ومن هذه التنظيمات ما يلي:

- إبقاء الحقوق والامتيازات الممنوحة لرؤساء الملل غير المسلمة، وتمنح لرؤساء الدين سلطات خاصة على شؤون أبناء طبقاتهم.

---

(١) البلاد العربية والدولة العثمانية، ساطع الحصري، ٧٩.
(٢) تاريخ الدولة العلية، محمد فريد بك المحامي، ٤٨٤. وانظر: البلاد العربية والدولة العثمانية، ساطع الحصري، ٧٩.

- جُعِل لكل طائفة دينية مجلس خاص بها، وحددت سلطات المجلس.. وتركت جميع القضايا المتعلقة بالأحوال الشخصية لأبناء الطائفة إلى هؤلاء الرؤساء، وتلك المجالس.

- إحداث محاكم نظامية، تعمل بجانب المحاكم الشرعية القديمة، بموجب قوانين جديدة. وتحال كافة الدعاوى التجارية أو الجنائية التي تقع بين المسلمين والمسيحيين وسائر الملل غير المسلمة، أو بين التبعة المسيحية وسائر التبعة غير المسلمة مع بعضهم، على هذه المحاكم[١].

- وضع الأنظمة اللازمة لإصلاح شؤون المحاكم الشرعية، وجمع الأحكام الشرعية المتعلقة بالمعاملات في (مجلة الأحكام العدلية)[٢]. وهي ما تسمى بتقنين الأحكام الشرعية، وحينما تحدد الأحكام الشرعية بشكل مواد يتسنى تطبيقها من كل أحد حتى لو لم يكن فقيهاً. كما جاء في تبرير إعداد هذه المجلة[٣].

- تمحى وتزال إلى الأبد من المحررات الرسمية الديوانية كافة التعبيرات والألفاظ المتضمنة تحقير جنس لجنس آخر في اللسان أو الجنسية أو المذهب من أفراد الدولة العثمانية.

- لا يمنع أي شخص من أفراد الدولة العثمانية من إجراء رسوم الدين المتمسك به، ولا يؤذى بالنسبة لتمسكه به، ولا يجبر على تبديل دينه ومذهبه.

- قبول أفراد الدولة العثمانية، من أي ملة كانت في خدماتها ومأمورياتها.. ويصير قبولهم في المدارس الملكية والعسكرية بلا فرق ولا تمييز بينهم وبين المسلمين[٤].

---

(١) تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد بك المحامي، ٤٨٤، ٤٨٧. (نصوص مختارة).

(٢) انظر: البلاد العربية والدولة العثمانية، ساطع الحصري، ٧٦، ٨٠ والتي صدرت في عام ١٢٩٣هـ. وقد اعتبرت هذه المجلة في وقتها القانون المدني للدولة العثمانية بجميع أقاليمها. (انظر: أحكام المرأة في الفقه الإسلامي، أحمد الحجي الكردي، ٢١٣).

(٣) تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد، ٥٤٦ - ٥٥٣.

(٤) المصدر السابق نفسه، ٤٨٤، ٤٨٧. (نصوص مختارة).

وأصدر في الدولة العثمانية قراراً لمسايرة الإصلاح العالمي - كما يسمونه - نص فيه السلطان العثماني، بقوله:..إنني لا أريد - ابتداء من الآن - أن يميز المسلمون إلا في المسجد، والمسيحيون إلا في الكنيسة، واليهود إلا في المعبد، إني أريد ما دام يتوجه الجميع نحوي بالتحية أن يتمتع الجميع بالمساواة في الحقوق وبحمايتي الأبوية[1].

ويصف مصطفى صبري، - شيخ الإسلام في الدولة العثمانية - حال الدولة العثمانية في آخر عمرها، فيقول: (تألب دول أعداء الإسلام عليها من الخارج، ومشايعيهم المنافقين في الداخل. وكان تجريد الدولة من دينها ومحاكمها الشرعية ومعاهدها الدينية، استجلاباً لمرضاة الدول الكبيرة الغالبة في الحرب العالمية الأولى، ثم أضافوا إلى ذلك تغيير كل شيء من مشخصات الأمة)[2].

لقد كانت هذه التنظيمات الجاهلية من أكبر عوامل تغير واقع الأمة الإسلامية، حيث تعذر على محدثي التنظيمات وبخاصة في عهد الحكومة الاتحادية التوفيق بين الدستور وبين الشرع الإسلامي، ولا يطمئنون إلى أن يكون من الأوربيين ثقة بمثل هذه الدولة المشروطة الإسلامية، إذ لا تستوعب عقولهم كعقول الأوربيين أنه كيف يمكن التوفيق بين الحرية وبين الدين المقيد؟ وقيوده مستثقلة عندهم من جهة عدم موافقته للحكومة الزمنية الأوربية، ومن جهة معارضته لأهوائهم ومظالمهم في داخل المملكة. فالدين يشق عليهم، ويثقل أعناقهم دائماً، لأنهم في تاراتهم وتطوراتهم إذا خضعوا لحكم الحرية، وحاولوا أن يسيروا بسيرها فالدين لا يخليهم، لما أن الحرية والحضارة عندهم عبارة عما يرى في أوربة بمحاسنها ومساوئها حذو النعل بالنعل، وإذا خلوا إلى طباعهم

---

(١) حركة الإصلاح العثماني في عصر السلطان محمود الثاني (١٨٠٨ - ١٨٣٩م)، محمد عبداللطيف البحراوي، ٢١٤، دار التراث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٩٨هـ.

(٢) موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين، مصطفى صبري، ١/ ٨٢. (مع الحاشية).

الطاغية فالدين بكل قوته يمنعهم عن طغيانهم وعدوانهم، فهو مانع يمنعهم في حريتهم واستبدادهم[١].

لقد حققت هذه التنظيمات مبدأ الحريات، والتقرب لبعض مبادئ الكافرين فأضعفت مبدأ الولاء والبراء. وذلك حينما يكون النظام القائم على المساواة في الحقوق بين جميع أبناء الشعب، دون النظر إلى أصولهم أو دينهم؛ كان أول المنتفع بهذا النظام من غير المسلمين[٢].

ومن منطلق هذه الحريات حصل نصارى لبنان على استقلالية[٣] في التنظيم والحكم والتحاكم. وأصبحت بعض الدول الاستعمارية تتدخل في شؤون الدولة العثمانية بحجة حماية أتباعهم في الديانة[٤].

كما أنشأت الدول الاستعمارية لنصارى العرب المدارس التي تدرس باللغة العربية جميع العلوم، ولهذا يلاحظ في نشأة جمعيات القومية العربية أن النصارى العرب لعبوا دوراً كبيراً في إثارة الوعي القومي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر..، وقد أتيح لهم فرصة الاطلاع والبحث في تاريخ العرب ولغتهم وآدابهم في هذه المدارس، ومما ساعد النصارى العرب على أن يلعبوا هذا الدور في تأسيس الجمعيات القومية العربية، أنهم كانوا يعيشون في مستوى اقتصادي مرتفع، ويشكلون عنصراً اقتصادياً في المجتمع

---

(١) النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة، مصطفى صبري، ١٠، دار القادري، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

(٢) انظر: المصدر السابق نفسه، ٢١.

(٣) انظر عن التنظيمات في الدولة العثمانية: مصطفى رشيد باشا والتنظيمات، رشاد قاي نار، الطبعة الثانية، أنقرة، مجمع التاريخ التركي، ١٩٨٥م، (باللغة التركية)، التنظيمات الجديدة في الدولة العثمانية، محمود رئيف.

(٤) انظر: الفكر العربي في عصر النهضة، ألبرت حوراني، ٥٧.

العربي.. وكانوا أوثق اتصالاً بأوروبا من العرب المسلمين[1].

وحينما يحصر نقد بعض نصوص التنظيمات، وهي المخالفة لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، يتفق مع بعض آراء الكتاب[2] في تأييد التنظيم والتجديد، حماية للدولة العثمانية من كيد وتآمر الدول الأوربية، مع عدم المساس بجناب الوحي الإلهي. ولا شك في جواز مبدأ التجديد ولكن ليس على حساب الدين.

(١) حركة اليقظة العربية في الشرق الآسيوي، محمود منسي، ٩٥. (بتصرف).

(٢) انظر:

١. أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، خير الدين التونسي، ١٦٥.
٢. العلمانية وآثارها على الأوضاع الإسلامية في تركيا، عبدالكريم مشهداني، ٧٦، المكتبة الدولية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.

المبحث الثاني: الأسباب الفرعية في نشأة الجمعيات القومية

في المبحث الأول أوضحت الأسباب الأساسية في نشأة الجمعيات القومية العربية، وكانت تلك الأسباب قد رافقتها أسباب فرعية، وأعرضها على النحو التالي:

» **السبب الأول: البعثات العلمية:**

بناءً على مبدأ التنظيمات والإصلاحات الذي حدث في الدولة العثمانية، فقد حرصت الدولة على أن تقتبس من الدول الصناعية مبادئ العلوم، فأرسلت عدداً كبيراً من شباب العرب لتلقي العلوم في أوربا.

كان أول من نفذها محمد علي، وذلك بإرسال الطلاب الشبان إلى أوربا ليتعلموا هناك، وكان هذا أخطر ما فعله لأنه من هناك بدأ الخط (العلماني) يدخل ساحة التعليم[(١)].

وبخاصة أن أفكار ومبادئ الثورة الفرنسية المنتشرة في أوربا تجد قبولاً عند بعض أعضاء الجمعيات القومية العربية في مهجرهم، لذا حاولوا أن يحذوا حذو أدباء فرنسا في القرن الثامن عشر، مثل جان روسو[(٢)] وفولتير[(٣)] ومونتسكيو، في تخطيط المبادئ

---

(١) واقعنا المعاصر، محمد قطب، ٢٠٧. وانظر: البعثات العلمية في عهد محمد علي، عمر طوسون، ٦.

(٢) جان روسو: (١٧١٢ - ١٧٧٨م): كاتب وفيلسوف فرنسي. اعتبره بعض النقاد الوجه الأبعد نفوذا في الأدب الفرنسي الحديث والفلسفة الفرنسية الحديثة. وليس من ريب في أن مقالاته ورواياته قد مهدت السبيل لاندلاع الثورة الفرنسية وانبثاق الحركة الرومانتيكية في آن واحد. عرف بتمجيده للطبيعة عامة وللطبيعة البشرية خاصة. أشهر آثاره: (في العقد الاجتماعي Du contral social (عام ١٧٦٢م)، و (أميل). انظر: (الموسوعة العربية، منير البعلبكي).

(٣) فولتير: (١٦٩٤، ١٧٧٨م) واحد من أشهر الكتاب والفلاسفة الفرنسيين، ويعتبر كتابه (كانديد) أشهر أعماله إذ ترجم إلى أكثر من مئة لغة. دخل السجن بتهمة تأليف أشعار تسخر من الحكومة، وأودع=

الفلسفية للانقلاب الاجتماعي والسياسي الذي ارتسم في أذهانهم[١]. وقد صرح أحد أعضاء الجمعيات القومية بأنهم إذا عادوا إلى بلادهم فسيحملون إليها معارف أوروبا وأمريكا، وسيحملون إليها آداب القوم من سياسية واجتماعية ومن علوم وفنون... إلخ[٢].

فكان من أوائل الدروس التي تعلمها أعضاء الجمعيات القومية العربية من الثورة الفرنسية هي فكرة الثورة نفسها، لقد رأوا أن حياة الأمم ربما اعترتها المفاسد والظلامات في شؤون الحكومة والسياسة والاجتماع والاقتصاد، ورأوا أن الإصلاح ربما أصبح غير ممكن عن طريق الإقناع والتسوية السلمية، فآمنوا بوجوب الثورة في بعض الأحوال، ورأوا بناءً على الانقلاب الفرنسي (العظيم)، أن الثورة إذا أجيدت وكانت في موضعها أتت بخير كثير.. وهذا الخط من التفكير شديد الوضوح والجلاء عند أمين الريحاني، ولكنه ملموس عند المفكرين والأدباء - من أعضاء الجمعيات القومية العربية -.

فيقول الريحاني عن الثورة: (من الحقائق الرائعة أن الثورة للأمة كالحمّام للإنسان، تنبه فيه الدم وتوقظ النشاط، ناهيك بالنظافة وفي حكم منطقة الشرق من يقول: (إن الخمود الملازم لحكومات الشرق كلها، والفساد الذي اعتراها، والأقذار التي تراكمت عليها، لا يزيلها غير الحمّام حمّام، الثورة الغالي)[٣].

=سجن الباستيل عام ١٧١٧م، وخلال فترة سجنه استطاع إكمال مسرحيته المأساوية (أوديب) التي جعل نجاحها من فولتير أشهر مؤلف مسرحي في فرنسا. نفي إلى بريطانيا وعاش فيها بين ١٧٢٦ و١٧٢٩م وبعد صدور كتابه الرسائل الفلسفية الذي امتدح فيه الملك والنظم والمؤسسات الإنجليزية غضبت عليه السلطات الفرنسية باعتبار أن ذلك المدح تعريض بها، ولهذا أدين الكتاب وفر المؤلف من باريس، وعاش فولتير في سويسرا في قصر ريفي بالقرب من مدينة (جنيف)، وعندما بلغ عمره ٨٣ عاماً عاد إلى باريس حيث توفي فيها، انظر: (الموسوعة العربية، ١٧/ ٥٩٦، حرف الفاء).

(١) العرب والترك، توفيق برو، ٣٩.

(٢) المؤتمر العربي الأول، ٦٨

(٣) الفكر العربي الحديث أثر الثورة الفرنسية في توجيهه السياسي والاجتماعي، رئيف خوري، ١٢٩.

ومن خلال تتبع دراسات أعضاء الجمعيات القومية التركية والعربية نجد أن الكثير منهم قد تلقوا العلوم والمعارف في أوربا، فكان الأعضاء البارزون في جمعية تركية الفتاة قد ذهبوا إلى أوربة، حيث تركز معظمهم في باريس. وقد ذهب القادرون على السفر لغرضين، أحدهما: الهروب من انتقام السلطان. وثانيهما: لإكمال دراستهم[١].

وجمعية العربية الفتاة كما يقول أحمد قدري - أحد المؤسسين لها -: إن الهيئة الإدارية للجمعية تألفت في باريس، وكانت تضم سبعة أشخاص سواه هم: عوني عبدالهادي، رفيق التميمي[٢]، محمد رستم حيدر، محمد المحمصاني، عبدالغني العريسي، صبري الخوجة، توفيق الناطور، وجميعهم كانوا يواصلون دراساتهم العالية في العاصمة الفرنسية[٣].

وغيرهم كثير من أعضاء الجمعيات القومية العربية، الذين تلقوا تعليمهم في أنحاء أوربا وفرنسا خاصةً، وعندما عادوا إلى بلادهم أخذوا يطالبون بإصلاح جذري يشمل جميع مرافق الإمبراطورية ومؤسساتها[٤]، ويؤسسون لهذه المطالب جمعيات وأحزاباً تتبنى قضيتهم ومطالبهم.

ويحدث أحد أعضاء الجمعيات القومية عن حياتهم في البعثة العلمية إلى باريس، فيقول: (إننا نحن - السوريين - كنا نعيش أحراراً في باريس، بينما زجت الحكومة الفرنسية بالأتراك في غياهب السجون.. وقررت فرنسا أن تحاول استخدامنا في بث الدعاية لها في البلاد التي تقيم فيها جاليات سورية في أوربة، وخاصة أمريكة، وكان ممن

---

(١) تركية الفتاة وثورة ١٩٠٨م، أرنست أ. رامزور، ٥٤.
(٢) انظر الترجمة رقم (٢٧).
(٣) مجلة العربي، العدد١٥١، يونيو ١٩٧١م، مقال بعنوان: العربية الفتاة، سليمان موسى، ص٥٢.
(٤) جمعية العربية الفتاة السرية، سهيلة الريماوي، ٣٥. وانظر: اتجاهات الفكر المعاصر في مصر في النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري، حمد الجمال، ١/ ٣٤٣.

لبى دعوتها هذه لحاجتهم الماسة جميل مردم بك ويوسف الخازن. وقلت لجميل مردم، أن يغتنم فرصة اجتماعه بإخواننا في المهجر ليحدثهم عن آمالنا وأمانينا في مستقبل العرب، وأن يعمل على ضم من يأنس بهم الوطنية والخلق الحسن إلى جمعية العربية الفتاة التي أنشأناها في باريس سنة ١٩١١م (١٣٢٩هـ). وكان جميل بك من أعضائها[١].

ويستمر أثر البعثات العلمية في نشأة الجمعيات القومية العربية، حتى بعد تقسيم البلاد العربية. فقد نشأ حزب البعث الذي يعد من أهم الأحزاب السياسية التي تبنت القومية العربية في تلك الفترة، وتولى تأسيسه وقيادته ميشيل عفلق وصلاح البيطار عن طريق البعثات التعليمية، حيث كانا المؤسسين له، وقد أنهيا دراستهما الجامعية في باريس، الأول: حصل على إجازة في التاريخ، والثاني: على إجازة في العلوم، وهناك نما بالفعل تكوينهما الفكري ووعيهما السياسي[٢].

وقد اطلعا على مزيج من التيارات اليسارية التي نشطت في باريس، وتأثرا ببقايا الفكر القومي في أوروبا، وكتابات الثورة الفرنسية[٣].

» السبب الثاني: كتابات بعض دعاة الفكر القومي:

إن عملية التطور التي تصل بين ظهور الجمعيات العلمية ونشوء التنظيمات والجمعيات السياسية، عملية أسهم بها إسهاماً خاصاً، الرواد من المفكرين والدعاة الذين دعا بعضهم بدعوات لفتت نظر كثير من شباب العرب، وقدحت في أذهانهم كثيراً من الأفكار مما كانت سبباً من أسباب نشأة الجمعيات القومية العربية، مع الملاحظة أن المبادئ القومية التي دعا إليها بعض المفكرين قبل نشأة الجمعيات القومية تركزت حول المطالبة

---

(١) عوني عبدالهادي أوراق خاصة، إعداد: خيرية قاسمية، ١٧.

(٢) حزب البعث العربي الاشتراكي، مصطفى دندشلي، ١/ ١٩، الطبعة الأولى ١٩٧٩م.

(٣) سياسي يتذكر، ٥١.

بالإصلاح، إصلاح الحكم، والقضاء على الفساد فيه. وكانت تعني أيضاً مطالبة العرب بمساواتهم مع الأتراك في الحقوق والواجبات، والمطالبة بقسط أوفر من الحرية السياسية والمدنية[1]. وبناء على المساواة فقد أثاروا قضية علاقة المسلم العربي بالنصراني العربي، وأنهما أخوان على مبدأ العروبة، والوطنية. ويلزم من هذا تناسي التفرقة في الأديان.

وأختار نموذجاً واحداً للدعاة والمفكرين القوميين، وهو: عبدالرحمن الكواكبي، وسأحصر الحديث عن الموضوعات التي طرحها، وكانت سبباً من أسباب نشأة الجمعيات القومية.

يذكر أحد معاصريه بأن الكواكبي قد أكثر من الكتابة في أغراض سياسية وإدارية وحقوقية واقتصادية. وألف أربعة كتب لم يبق منها إلا (طبائع الاستبداد) و(أم القرى). أما الكتابان الآخران فهما (صحائف قريش)[2] و(العظمة لله). وكانت كتابات الكواكبي تدور في دائرة لا تكاد تتبدل، وهي الإصلاح السياسي والديني. وأنشأ في مصر حلقة واسعة ومتنوعة تضم النصارى واليهود إلى جانب المسلمين، وكان يطبق في حياته المبدأ الذي دعا إليه.

وعن تأثير كتابات عبدالرحمن الكواكبي في تأسيس الجمعيات القومية العربية، فقد قال عنه محمد كرد علي: بأن له الفضل بتنبيهه الأفكار، ووصف شقاء الأمة فأبدع بدعوته

(١) نشوء القومية العربية، زين نور الدين زين، ٦٩.

(٢) أشار إليه في أم القرى، فقال: (إخطار): من يظفر بنسخة من هذا السجل فليحرص على إشاعته بين الموحدين، وليحفظ نسخة منه ليضيف إليه ما سيتلوه من نشريات الجمعية باسم (صحائف قريش) التي سيكون لها شأن إن شاء الله في النهضة الإسلامية العلمية والأخلاقية، أم القرى، ٢. ويتحدث أسعد الكواكبي عن هذا الكتاب، فيقول: إنه كان معداً للطبع ولكن حال دون ذلك سياحته الطويلة، ثم وقوع الوفاة الفجائية، فصودر مع الأوراق المصادرة وأرسل هدية إلى السلطان، فلم أعثر له على أثر. عبدالرحمن الكواكبي، أسعد الكواكبي، مجلة الحديث، (حلب) السنة ٢٦، العددان ٩ - ١٠، ١٩٥٢م، ٥٤٨ - ٥٤٩.

بدعة حسنة لم يسبق إليها. فأودى بحياته ليؤسس للعرب دولة ترعاهم، وتَوَفَّرَ على حمل النور إليهم[١].

قدم الكواكبي كتابين عرض فيهما أطروحاته الفكرية والتي أثرت في أعضاء الجمعيات القومية العربية، وهما كتاب: (طبائع الاستبداد)، وكتاب (أم القرى)[٢]. وفي هذين الكتابين بيان لضعف العالم الإسلامي عامة وأقطاره العربية خاصة، وبيان أسباب هذا الضعف وأنواع علاجه الممكنة، وفيهما دعوة حارة إلى اقتباس العلاج الصحيح.. وهذان الكتابان من حيث هما مشاركة في الحركة العربية، يتبوآن مكانة فريدة وحدهما في أصالتهما، واتساع أفقهما وجرأتهما[٣].

ويؤكد محمد عزة دروزة - أحد أعضاء الجمعيات القومية العربية - أن ما قدمه الكواكبي من كتابات ومقالات كان لها أثر عظيم في أفكار ناشئة العرب ووعيهم ويقظتهم، مما جعلهم يعدونه من أبرز رجال النهضة القومية وموقظيها[٤].

---

(١) المعاصرون، محمد كرد علي، ٢٨٤ (بتصرف).

(٢) بعض الدراسات عن عبدالرحمن الكواكبي، ما يلي:

١. المعاصرون، محمد كرد علي، ٢٧٩.
٢. الكواكبي إحياؤه وآراؤه، محمد أحمد خلف الله.
٣. عبدالرحمن الكواكبي الرحالة، عباس محمود العقاد.
٤. عبدالرحمن الكواكبي، سامي الدهان.
٥. مهرجان عبدالرحمن الكواكبي، الجمهورية العربية المتحدة.
٦. عبدالرحمن الكواكبي (شهيد الحرية ومجد الإسلام)، محمد عمارة.
٧. الإمام الكواكبي فصل الدين عن الدولة، جان داية.
٨. الأعمال الكاملة للكواكبي، محمد جمال الطحان.

(٣) يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ١٧٠.

(٤) نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ١٤٢.

بل لقد قرر بعض القوميين أن آراء الكواكبي لا تختلف عما ينادي به اليوم أعمق الوطنيين من زعماء العرب، فهو يدعو إلى التسامح الديني، واجتماع المسلمين والنصارى على حب الوطن والدفاع عنه، ويهاجم الاستعمار الغربي[١].

ويقول مصطفى الشهابي - أحد أعضاء الجمعيات القومية -: لقد عُد الكواكبي من كبار رجال النهضة الحديثة، وانتفع بكتاب (أم القرى) كثير من شبان الرعيل الأول وكانوا يطالعونه في دمشق، وينقلونه في السر من واحد إلى آخر[٢].

وعن علاقة الكتابين وترابطهما الفكري القومي، يقول رشيد رضا: (إن سجل (أم القرى) يتطرق إلى الإصلاح الديني والاجتماعي، وكتاب طبائع الاستبداد يتطرق إلى الإصلاح السياسي)[٣].

ولم تقتصر الجهود الفكرية التي قدمها الكواكبي في هذين الكتابين، فقد كان له جهود في المجال الصحفي، فمن ذلك: تولى في شبابه تحرير جريدة (الفرات) الرسمية التي كانت تصدر باللغتين العربية والتركية، وأصدر خلال ذلك جريدة سماها (الشهباء)، فأغلقتها الحكومة بعد مدة بدعوى أنها نشرت أفكاراً لا يجوز نشرها..، ووافى مصر وأخذ ينشر في مصر جريدة (المؤيد)[٤].

لم تكن معالجات الكواكبي لواقع مجتمعه مجرد أطروحات فكرية فقط، وإنما قال عنه أعضاء الجمعيات القومية: دخل إلى ميدان الوظائف الحكومية، وأعلن سخطه على

(١) مهرجان عبدالرحمن الكواكبي، أثر الكواكبي في النهضة العربية، صالح الأشقر، ٨٥، القاهرة، ١٩٦٠م.

(٢) القومية العربية، مصطفى الشهابي، ٥٨.

(٣) المنار، السنة العاشرة، العدد العاشر، ١٩٠٨م، ص ٧٢٧.

(٤) المعاصرون، محمد كرد علي، ٢٨٠ - ٢٨١.

الطغيان وندد به..، وهرب إلى مصر ليعيش في جوها الذي يتيح قسطاً أكبر من الحرية[١].

وباستعراض للموضوعات التي ناقشها الكواكبي في كتابه (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) نجد أنه يُعتبر من أجرأ من كتب في الدعوة إلى الحرية وإلى الحياة النيابية. وفي محاربة الاستبداد وبيان أثره السّيـئ في شتى نواحي المجتمع، علمية وخلقية ودينية واقتصادية وعمرانية[٢].

وكتاب طبائع الاستبداد، يحتوي على مقدمة وسبعة فصول، منها: الاستبداد والدين، الاستبداد والمجد، الاستبداد والتربية، الاستبداد والترقي، الاستبداد والتخلص منه[٣].

وفي تفصيل أدق لبعض مباحث هذا الكتاب، نجد الكواكبي حينما يعالج موضوع الاستبداد في الحياة السياسة وأبعاد هذه المسألة يقول: (هذه خمسة وعشرون مبحثاً كل منها يحتاج إلى تدقيق عميق، وتفصيل طويل، وتطبيق عن الأحوال والمقتضيات الخصوصية، وقد ذكرت هذه المباحث تذكرة لأولي الألباب وتنشيطاً للنجباء. - نذكر بعض هذه المباحث:

١ - مبحث ما هي الأمة؟ أي الشعب.

٢ - مبحث ما هي الحكومة؟

٣ - مبحث ما هي الحقوق العمومية؟

٤ - مبحث التساوي في الحقوق.

٥ - مبحث الحقوق الشخصية.

---

(١) يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ١٦٨.

(٢) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، محمد محمد حسين، ١/ ٢٦٦.

(٣) انظر: طبائع الاستبداد، الكواكبي، ٧، مطبعة الدستور، مصر.

٦ - مبحث نوعية الحكومة.

٧ - مبحث المراقبة على الحكومة.

٨ - مبحث حفظ السلطة في القوانين.

٩ - مبحث كيف توضع القوانين؟

١٠ - مبحث توزيع الأعمال والوظائف.

١١ - مبحث: التفريق بين السلطات السياسية والدينية والتعليم[١].

وتعرض الكواكبي لبعض الأفكار والمبادئ عن موضوع الاستبداد التي ذكرها في كتابه. فقال: (الاستبداد ريح صرصر فيه إعصار يجعل الإنسان كل ساعة في شأن، وهو مفسد للدين في أهم قسميه، أي الأخلاق.. ولما كان ضبط أخلاق الطبقات العليا من الناس من أهم الأمور، أطلقت الأمم الحرة حرية الخطابة والتأليف والمطبوعات)[٢].

ولما كانت الإرادة والاستبداد عنصرين متناقضين، قرر الكواكبي قيمة الإرادة، بأنها (لو جازت عبادة غير الله لاختار العقلاء عبادة الإرادة، فهي تلك الصفة التي تفصل الحيوان عن النباتات في تعريفه بأنه متحرك بالإرادة. فأسير الاستبداد الفاقد الإرادة هو مسلوب حق الحيوانية فضلاً عن الإنسانية)[٣].

وبيّن الكواكبي مفهوم الحرية، وأن أكثر المصائب جاءت بفقدانها، فقال: (إن البليةَ فقدُنا الحرية، وما أدري ما الحرية؟ هي ما حرمنا معناه حتى نسيناه، وحرم علينا لفظه حتى استوحشناه، وقد عرف الحرية من عرفها: بأن يكون الإنسان مختاراً في قوله وفعله

---

(١) طبائع الاستبداد، الكواكبي، ١٣٩ - ١٤٦.
(٢) المصدر السابق نفسه، ٩٥.
(٣) المصدر السابق نفسه، ٨٠.

لا يعترضه مانع ظالم). ومن فروع الحرية تساوي الحقوق ومحاسبة الحكام باعتبار أنهم وكلاء، وعدم الرهبة في المطالبة وبذل النصيحة. ومنها: حرية التعليم، وحرية الخطابة والمطبوعات، وحرية المباحثات العلمية، ومنها العدالة بأسرها[١].

ومطلب الحرية أكثرت الجمعيات القومية في مطالبته، حتى أصبح من الشعارات التي نادت به، وأكد أعضاء الجمعيات القومية في المؤتمر العربي الأول، أن من أماني العرب أن تكون.. صحافتهم مطلقة، وأقلام كتابهم غير مقيدة، ومدارسهم تضاء بكهرباء الوطنية السورية[٢].

ويرى الكواكبي أن موضوع الاستبداد داء ينتشر في الأمة أجمع، فقال: (الحكومة المستبدة تكون طبعاً مستبدة في كل فروعها، من المستبد الأعظم، إلى الشرطي، إلى الفرَّاش، إلى كنَّاس الشوارع) ويشير بعبارة موجزة إلى أن هذا التسلسل لا يكون في الحكومة الدستورية، حيث: (إن وزير المستبد هو وزير المستبد، لا وزير الدولة، كما هو في الحكومات الدستورية..)[٣].

وللاستبداد دور مهم في قلب كثير من المفاهيم، فمن ذلك كما يقول: (وقَبِل الناس من الاستبداد ما ساقهم إليه، من اعتقاد أن طالب الحق فاجر، وتارك حقه مطيع، والمشتكي المتظلم مفسد. والنبيه المدقق ملحد، والخامل المسكين هو الصالح الأمين. وقد اتّبع الناسُ الاستبدادَ في تسميتِهِ النصحَ فُضولاً، والغيرة عداوة، والشهامة عتواً، والحمية جنوناً..كما جاروه على اعتبار أن النفاق سياسة، والتحايل كياسة..)[٤].

---

(١) أم القرى، الكواكبي، ٣٢.

(٢) المؤتمر العربي الأول، ٦٨.

(٣) طبائع الاستبداد، الكواكبي، ٥٢ - ٥٤.

(٤) المصدر السابق نفسه، ٧٧.

وهكذا صور الكواكبي في كتابه آثار السلطة المطلقة التي لا يحدها قيد في الحاكم والمحكومين على السواء، ليصل آخر الأمر إلى أن كل عللنا يمكن أن ترد آخر الأمر إلى الاستبداد، وحينما حدد الداء قدم حلاً لهذه المشاكل، وهو التخلص من الاستبداد. ويكون ذلك بالطريقة التالية: (..إن الوسيلة الوحيدة الفعالة لقطع دابر الاستبداد هي ترقية الأمة في الإدراك والإحساس، وهذا لا يتأتى إلا بالتعليم والتحميس.. ومَبْنى قاعدةٍ، وأنه يجب قبل مقاومة الاستبداد تهيئة ماذا يستبدل به)[1].

لقد كانت هذه الكتابات من أبرز القضايا التي تبنتها الجمعيات القومية، بل قد يقال: إن الجمعيات القومية العربية لم تؤسس إلا لتحقيق هذه القضايا. وبطرحه القومي لموضوع الاستبداد، قد يظهر عليه التأثر بالثورة الفرنسية، حيث عرض في كتابه طبائع الاستبداد سبيلين من سبل الإصلاح في نظره وأثنى عليهما، فأولهما: (سبيل النبيين)، وثانيهما: (سبيل الفئة التي اتبعت أثرهم) يعني (فئة الحكماء الذين لم يأتوا بدين جديد، ولا تمسكوا بمعاداة كل دين، بل ارتقوا فوق الدهر في دينهم بما نقحوا وهذبوا وسهلوا وقربوا)، وضرب مثلاً لهذه الفئة فذكر (مؤسسي جمهورية الفرنسيس)[2].

والكتاب الآخر للكواكبي هو كتاب (أم القرى) وهو عبارة عن أسلوب محاضر جلسات مؤتمر تخيل انعقاده في مكة لبحث شؤون المسلمين، وما ألم بهم وبالإسلام وطرق معالجة ذلك، يحضره علماء وزعماء المسلمين، من اثنين وعشرين قطراً من أقطار العالم الإسلامي، قد اجتمعوا في مكة للحج، ويناقش المجتمعون أحوال المسلمين، وينددون في سياق ذلك بالاستبداد والظلم وانتقاد الحرية.

(١) المصدر السابق نفسه، ١٤٧.

(٢) الفكر العربي الحديث أثر الثورة الفرنسية في توجهه السياسي والاجتماعي، رئيف خوري، ١٢١. وانظر: طبائع الاستبداد، ٩٢.

وبعد أن تبادلوا الآراء في أكثر من اثني عشر اجتماعاً رسمياً، قرروا أن ينشئوا جمعية ترمي إلى إحياء الإسلام والنهوض به[١]، ونبذ سيادة الجهل والبدع والضلالات والتدجيل، ويقررون وجوب الرجوع إلى المبادئ الإسلامية من حق وعدل وحرية ومساواة وشورى وعلم وعمل، وإقامة خلافة عربية قرشية مستكملة للشروط الشرعية، وقائمة على أساس الشورى والحرية والحق، على أن يقوم في كل قطر حُكْمٌ يقوم عليه الصالحون من أهله بمصادقة الخليفة، وعلى أساس الحرية والحق والشورى[٢].

وكتاب أم القرى قد يكون أقوى صراحة في عباراته ومعانيه في مواجهة الدولة العثمانية، والحكم العثماني، حيث صرح الكواكبي في أم القرى بأن الخلافة يجب أن تكون عربية، بل يجب إقامة خلافة عربية مقام الخلافة العثمانية، وألقى بذور الشك في صحة اعتبار السلاطين العثمانيين خلفاء المسلمين[٣].

لقد أبرز الكواكبي في (أم القرى) عدة قضايا فكرية هامة كانت سبباً في تأسيس الجمعيات القومية العربية، ويمكن حصرها بالنقاط التالية:

١) تحقيق مطلب إقامة خلافة عربية قرشية:

قال عبدالرحمن الكواكبي: (الجمعية لا يعنيها غير أمر النهضة الدينية بناء عليه رأت الجمعية... أن يكون الخليفة، خليفة المسلمين، عربياً قرشياً مستجمعاً للشرائط في مكة)[٤].

---

(١) يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ١٧٠.

(٢) نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ١٤٢.

(٣) الاتجاهات الفكرية عند العرب، علي المحافظة، ١٣٣.
وانظر: أم القرى، عبدالرحمن الكواكبي، ٢٣٤ - ٢٣٥.

(٤) أم القرى، الكواكبي، ٢٣٤.

وقد نادت الجمعيات القومية العربية بوجوب إقامة خلافة عربية قرشية يكون مقرها مكة المكرمة، ويتمتع الخليفة الديني باحترام الملك، ويملك سلطة روحية فعلية على كافة مسلمي الأرض(١).

ولتحقيق هذا المطلب تبنت الجمعيات القومية العربية قضية ومناصرة ثورة الشريف حسين بن علي، لإقامة خلافة عربية، فهو عربي ينتهي نسبه ببيت النبوة. كما تبنت أن يكون مقر الخلافة في مكة(٢). ويذكر نبيه العظمة - أحد أعضاء الجمعيات القومية العربية - في مذكراته أن الشريف حسين كان يقول لنا: (أنا خاتم في إصبعكم)(٣).

فيكون طرح الكواكبي لمسألة شروط اختيار الخليفة(٤) ومقر الخلافة، من أبرز أسباب اختيار الجمعيات القومية العربية للشريف حسين قائداً للثورة العربية.

وتأكيداً(٥) لأحقية العرب بالخلافة بين الكواكبي قيمة العرب وبالذات عرب الجزيرة، ومكانة الجزيرة العربية، ومدى صلاحية أهلها أن يقوموا بالخلافة الدينية، لذا أصدرت الجمعية القرارات ومنها:

---

(١) يقظة الأمة العربية، نجيب عازوري، ٢٢٠.

(٢) انظر: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، محمد محمد حسين، ١/ ٢٨٤.

(٣) الرعيل العربي الأول (حياة وأوراق نبيه وعادل العظمة)، جمع خيرية قاسمية، ٣٢.

(٤) من شروط الإمامة العظمى القرشية؛ كما نصت على ذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ، وعن مسألة اشتراط القرشية في الإمامة، انظر:
١. مقدمة ابن خلدون، ١/ ٢٤٧.
٢. الأحكام السلطانية، الماوردي، ٦.
٣. الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم، ٤/ ٨٩.
٤. الإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة، عبدالله الدميجي، ٢٦٥.

(٥) انظر:
١. تاريخ الدولة السعودية، أمين سعيد، ٢/ ١٠٦.
٢. الهاشميون والثورة العربية الكبرى، ٢٥.
٣. العرب والعثمانيون، عبدالكريم عثمان، ٥٤٥.

قرار عدد (٦): إن الجمعية بعد البحث الدقيق والنظر العميق في أحوال وخصال الأقوام المسلمين الموجودين، وخصائص مواقعهم، والظروف المحيطة بهم، واستعداداتهم، وجدت أن الجزيرة العربية ولأهلها بالنظر إلى السياسة الدينية مجموعة خصائص وخصال لم تتوفر في غيرهم... والتي منها:

١ - الجزيرة أنسب المواقع لأن تكون مركزاً للسياسة الدينية لتوسطها بين أقصى آسيا شرقاً وأقصى أفريقيا غرباً.

٢ - الجزيرة أسلم الأقاليم من الأخلاط جنسية وأدياناً ومذاهب.

٣ - الجزيرة أبعد الأقاليم عن مجاورة الأجانب.

٤ - عرب الجزيرة مستحكم فيهم التخلق بالدين لأنه مناسب لطبائعهم الأهلية أكثر من مناسبته لغيرهم

٥ - عرب الجزيرة أحرص الأمم الإسلامية على الحرية والاستقلال[١].

وعلى منهج الكواكبي في قيمة الجنس العربي، قرر أعضاء الجمعيات القومية أن الدم العربي الأصلي ما يزال حياً متمثلاً إلى الآن في جزيرة العرب، التي يتصل سكانها بسائر مواطن العرب الأخرى...اتصالا وثيقاً، والتي ظلت وما تزال تمدهم من آن لآخر بحيويتها المستمرة وموجاتها الكبرى والصغرى الدائمة[٢].

٢) الطعن في حكم الأتراك:

قد يكون هناك تلازم في الفكر القومي عند الكواكبي بين الثناء على العرب، وبين القدح في الأتراك، وقد أكثر من ذم سلاطين الترك في كتابه أم القرى، من جوانب متعددة من أبرزها ما يلي:

(١) أم القرى، الكواكبي، ٢١٨ - ٢٢٠.

(٢) نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ٢١.

أ) الشك في إسلام الترك: فقد قال: (إن إسلامهم - الترك - فيه ريبة، وسبب الريبة أن الأتراك لم يخدموا الإسلام بغير إقامة بعض جوامع لولا حظ نفوس ملوكهم بذكر أسمائهم على منابرها لم تقم، وأنهم أتوا الإسلام بالطاعة العمياء للكبراء)[١].

وعن إعلان حكام الترك للإسلام وإقامة شرع الدين، بين الكواكبي أنهم يفعلون ذلك بقصد الرياء، فإنهم لا يتراءون بالدين إلا بقصد تمكين سلطتهم على البسطاء من الأمة، كما أن ظواهر عقائدهم وبواطنها تحكم عليهم بأنهم مشركون ولو شركاً خفياً من حيث لا يشعرون[٢]. فاحترام الشعائر الدينية في أكثر ملوك آل عثمان هي ظواهر محضة، وليس من غرضهم، بل ولا من شأنهم أن يقدموا الاهتمام بالدين على مصلحة الملك[٣].

ب) ضعف قدرة سلاطين الأتراك على سياسة البلاد: الترك قد تركوا الأمة أربعة قرون ولا خليفة، وتركوا الدين تعبث به الأهواء ولا مرجع، وتركوا المسلمين صماً بكماً عمياً ولا مرشد. أليس الترك قد تركوا الهند مساهلة، وتركوا الممالك الجسيمة الآسيوية للروسيين، وتركوا قارة أفريقيا الإسلامية للطامعين...أفما آن لهم - الترك - أن يستيقظوا ويصبحوا من النادمين على ما فرطوا في القرون الخالية، فيتركوا الخلافة لأهلها، والدين لحماته[٤].

ووقعت حوادث بعد إعلان الدستور، أظهرت عند أعضاء الجمعيات القومية حقيقة ضعف الأتراك على إدارة الدولة، فمن تلك: موقف حكومة الاتحاديين من غزو إيطاليا لطرابلس الغرب، وكتابة معاهدة بينها وبين إيطاليا في عام ١٩١٢م تقضي باعتراف تركيا بسيادة إيطاليا على طرابلس، وأن تكون خاضعة خضوعاً تاماً للسيادة الملكية الإيطالية.

---

(١) أم القرى، الكواكبي، ١٧١.
(٢) المصدر نفسه، ٣٧.
(٣) المصدر نفسه، ٢٢٨.
(٤) المصدر السابق، ٢٣٩.

فكان لهذا الصلح أثره السيئ على أعضاء الجمعيات القومية العربية، مما جعل عزيز علي المصري - مؤسس جمعية العهد - يترك طرابلس الغرب ويعود إلى الآستانة، وأصبح يقال ويشاع: (إن الترك قد سلموا العرب لأعدائهم)[(١)].

ومن صور قدح الكواكبي في حكام الأتراك، قضية توزيع الزكوات، حيث قال: إن شريعتنا مبنية على أن في أموال الأغنياء حقاً معلوماً للبائس والمحروم، فيؤخذ من الأغنياء ويوزع على الفقراء، وهذه الحكومات الإسلامية، قد قلبت الموضوع، فصارت تجبي الأموال من الفقراء والمساكين وتبذلها للأغنياء، وتحابي بها المسرفين والسفهاء[(٢)].

وعلى غرار مآخذ الكواكبي على سلاطين الدولة العثمانية، سلكت الجمعيات القومية العربية هذا المسلك متأثرة بكتابات الكواكبي، فمما قالوا: (لم يهتم الترك منذ أن استولوا على البلاد العربية وعلى الخلافة بالتفاهم مع العناصر الأخرى التي يحكمونها، ولا سيما العنصر العربي، وقد جعل هذا العنصر بعد ثورة ١٩٠٩م يشكو من سوء ما يعامل به، وكيف أن المراكز التي جعلت للعرب في الوزارات المتعاقبة كانت ثانوية لا تتكافأ مع أهميتهم، - ثم بينوا هضم حق العرب - وقالوا: كأن الترك يخافون منا، ومن عددنا، ومن فكرتنا الاستقلالية[(٣)].

ويصف أعضاء الجمعيات القومية الدولة العثمانية بأنها دولة محتلة للبلاد العربية، وأن اعتقاد المسلمين بالخلافة العثمانية، قوى نفوذ الدولة العثمانية وسهل حكمها تسهيلاً كبيراً.. بل إن فكرة (الخلافة العثمانية) ساعدت كثيراً على استسلام العرب للحكم العثماني، وأخرت كثيراً نشوء فكرة القومية العربية[(٤)].

---

(١) انظر: العرب والترك، توفيق برو، ٣٣٦، ٣٣٧. وانظر: العرب والعثمانيون، عبدالكريم رافق، ٤٧٧.

(٢) أم القرى، الكواكبي، ٦٠.

(٣) العرب والترك، توفيق برو، ١٥٠.

(٤) انظر: البلاد العربية والدولة العثمانية، ساطع الحصري، ٢٩و٣٦.

وقد بين عبدالغني العريسي أثناء انعقاد المؤتمر الأول الذي عقد في باريس، أن الحكومة العثمانية تعامل الجنسيات العثمانية معاملة الغالب للمغلوب على قاعدة (حق الفتح)، وأكد بأن الدولة العثمانية إذا استطاعت أن تدعي (حق الفتح) في بلاد البلقان مثلاً فلا تستطيع أن تدعيه لا حقّاً ولا حقيقة في البلاد العربية... فإنما نحن الرعاة لا الرعية[1].

٣) العداء بين العرب والترك:

قد يكون إثارة موضوع الخلاف بين الترك والعرب من الموضوعات التي أثيرت بعد إعلان الدستور، ومحاولة فرض سيطرة أعضاء تركية الفتاة على زمام الحكم ومن ثم الدعوة إلى تتريك الدولة، إلا أن في كتابات الكواكبي نجده طرح مسألة الخلاف بين الترك والعرب، مما يؤكد أن كتاباته تعد من أبرز أسباب تحيز العرب لعروبتهم.

وقد استعرض الكواكبي قضية عدم تطابق الأخلاق بين الرعاة والرعية، وبين أن هناك أمماً مختلفة قد تخلقت بأخلاق الرعية، واتحدت معها في عوائدها ومشاربها حتى ولو في العوائد غير المستحسنة في ذاتها[2].

وبعد هذا العرض لموقف الدولة العثمانية من رعاياها، قال: (فلم يشذ في هذا الباب غير المغول الأتراك أي العثمانيين، فإنهم بالعكس يفتخرون بمحافظتهم على غيرية رعاياهم لهم، فلم يسعوا باستتراكهم كما أنهم لم يقبلوا أن يستعربوا.. ولا يعقل لذلك سبب غير شديد بغضهم للعرب كما يستدل عليه من أقوالهم التي تجري على ألسنتهم مجرى الأمثال في حق العرب: كإطلاقهم على عرب الحجاز (ديلنجي عرب) أي العرب

---

(١) المؤتمر العربي الأول، ٤٣ - ٤٤.

(٢) أم القرى، الكواكبي، ١٦٨.

الشحاذين.. وتعبيرهم بلفظة (عرب) عن الرقيق وعن كل حيوان أسود. وقولهم (بِسْ عَرَبْ) أي عربي قذر..)[١].

لقد كانت هذه الكلمات من المبررات عند العرب للتحيز لعروبتهم، كما قال أحمد قدري: (أنه شاهدنا ضابطاً تركيا يخطب في جمهور غفير عن حسنات الدستور والعهد الجديد وعن مساوئ العهد البائد، ويتحامل أثناء ذلك على اثنين من كبار خاصة السلطان عبدالحميد، وهما عزت العابد، والشيخ أبو الهدى الصيادي، فينعتهما بقوله: [الخائن عرب عزة]، و [الخائن عرب أبو الهدى][٢].

٤) فصل السياسة عن الدين:

من أبرز المسائل التي ناقشتها الجمعية في اجتماعها، مسألة علاقة السياسة بالدين، وما مدى علاقة الخليفة (الديني) بتنظيم الدولة.

لقد كان من مبادئ جمعية أم القرى، كما في القضية (١٤): لا تتداخل في الشؤون السياسية مطلقاً فيما عدا إرشادات أو إخطارات بمسائل أصول التعليم وتعميمه[٣].

وعن قرارات وأنشطة الجمعية ما ورد في القضية رقم (٤٣): تتجول الجمعية في البلاد الإسلامية القريبة والبعيدة، للاطلاع على أحوال البلاد وأهلها من حيث الدين والمعارف، وإرشادهم إلى ما يلزم إرشادهم إليه في ذلك حسبما تقتضيه الأخوة الدينية، بدون التعرض للأحوال السياسية قطعياً[٤].

---

(١) المصدر نفسه، ١٦٩، ١٧٠.
(٢) مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى، أحمد قدري، ٦، ١٣، دمشق، ١٩٥٦م.
(٣) أم القرى، الكواكبي، ١٩٩.
(٤) المصدر نفسه، ٢٠٩.

وبهذا حدد مجال نظر الجمعية بأنه منحصر في النهضة الدينية فقط، وتؤمل أن يأتي الانتظام السياسي تبعاً للدين، ولكن الأصل في قرار الجمعية: أن السلطان المعظم يصلح أن يكون عضداً عظيماً في الأمر، أما إذا أراد أن يكون هو القائم به فلا يتم قطعياً، لأن الدين شيء، والملك شيء آخر، والسلطان غير الدولة[١].

وبعد فصل السلطة السياسية عن الدين، أصّل الكواكبي قواعد ومهام الخلافة، في نظر الجمعية، فقال:

فقرة(٢): يكون حكم الخليفة سياسة مقصوراً على الخطة الحجازية، ومربوطاً بشورى خاصة حجازية.

فقرة (٤): تتشكل هيئة الشورى العامة من نحو مئة عضو منتخبين، مندوبين من قبل جميع السلطنات والإمارات الإسلامية، وتكون وظائفها منحصرة في شؤون السياسة العامة الدينية فقط.

فقرة (١٢): الخليفة لا يتداخل في شيء من الشؤون السياسية والإدارية في السلطنات والإمارات قطعياً.

فقرة (١٤): الخليفة لا يكون تحت أمره قوة عسكرية مطلقاً، ويذكر اسمه في الخطبة قبل أسماء السلاطين... أما وظائف الشورى العامة فيقتضي أن لا تخرج عن تمحيص أمهات المسائل الدينية التي لها تعلق مهم في سياسة الأمة، وتأثير قوي في أخلاقها ونشاطها. ومن ذلك:...فتح أبواب حسن الطاعة للحكومات العادلة والاستفادة من إرشاداتها وإن كانت غير مسلمة، وسد أبواب الانقياد المطلق ولو لمثل عمر بن الخطاب[٢].

---

(١) المصدر نفسه، ٢٢٧ - ٢٢٨.

(٢) المصدر السابق، ٢٣٠.

ولقد أكْثَرَ أعضاء الجمعيات القومية العربية من الحديث في مسألة الظلم والعدل، والطاعة المستنيرة والطاعة المطلقة، وقرر أعضاء الجمعيات القومية العربية أن حكومة الآستانة غير مستوفية الشروط والأركان من وجهة العدل مادام حقنا غير محفوظ، لأن الحكومات في نظر (إعلان حقوق الإنسان) لا تكون مشروعة إلا إذا احترمت حق الأفراد؛ فمن باب أولى حق الجماعات والشعوب[1].

٥) الحكم المركزي واللامركزي عند الكواكبي:

في تحديد مهام الملك عند الكواكبي يظهر طرحه لمبدأ الحكم المركزي واللامركزي، فقد قال: (الملك وظيفته النظارة العامة وانتخاب وزير يثق بأخلاقه، ويعتمد على خبرته... فالملك إذا تغرر وتنـزل للتداخل في أمور السياسة أو الإدارة الملكية أو الأمور الحربية أو القضاء، فلا شك أن يكون كرَبِّ بيت يداخل طبّاخه في مهنته، ويشارك بستانيه في صنعته، فيفسد طعامه ويبور بستانه، فيشتكي ولا يدري أنّ آفته في نفسه[2].

ويندرج هذا الحكم على الأمة، فتصاب بالفتور، والذي من أبرز أسبابه: السياسة المطلقة من السيطرة والمسؤولية، وحرمان الأمة من حرية القول والعمل، وفقدانها الأمن والأمل، وكذلك فقدان العدل والتساوي في الحقوق بين طبقات الأمة، وإبعاد الأمراء النبلاء والأحرار وتقريبهم المتملقين والأشرار. وينتج من هذا فقدان قوة الرأي العام بالحجر والتفريق[3].

لقد ركز الكواكبي على مطلب الحكم اللامركزي، وبين أن اللامركزية في الحكم، لا تتحقق بتوحيد القوانين في الدولة، مع اختلاف طبائع أطراف المملكة واختلاف الأهالي

---

(١) المؤتمر العربي الأول، ٤٩.

(٢) أم القرى، الكواكبي، ١٧٧.

(٣) المصدر السابق، ١٦٠.

في الأجناس والعادات، وأكد الكواكبي ضرورة أن يحصل كل قوم من أهالي تركيا على استقلال نوعي إداري، يناسب عاداتهم وطبائع بلادهم، كما هي الحالة في إمارات ألمانيا وولايات أمريكا الشمالية.

وبعد أن بين الكواكبي مفاسد الحكم المركزي، ومحاسن الحكم اللامركزي، ذكر أن الدولة العثمانية تطبق الحكم المركزي، ذاكراً بعض صور مركزية الحكم في ذلك، منها:

- التمسك بأصول الإدارة المركزية مع بُعْد الأطراف عن العاصمة، وعدم وقوف رؤساء الإدارة في المركز على أحوال تلك الأطراف المتباعدة وخصائص سكانها.
- التزام المخالفة الجنسية في استخدام العمال بقصد تعسر التفاهم بين العمال والأهالي، وتعذر الامتزاج بينهم لتأمن الإدارة غائلة الاتفاق عليها. والتمييز الفاحش بين أجناس الرعية في الغُنْم والغُرْم، وإدارة المصالح المهمة السياسية والملكية بدون استشارة الرعية ولا قبول مناقشة فيها. وإن كانت إدارة مشهودة المضرة في كل حركة وسكون.

وهذا المسلك غير المحمود في الحكم كان من آثاره على الدولة العثمانية - كما ذكر الكواكبي - أن الدولة العثمانية وقعت في الغفلة أو التغافل عن مقتضيات الزمان ومباراة الجيران وترقية السكان، بسبب عدم الاهتمام بالمستقبل والضغط على الأفكار المتنبهة بقصد منع نموها وسموها واطلاعها على مجاري الإدارة، محاسنها ومعايبها [(١)].

إن قضية الحكم اللامركزي شغلت حيزاً كبيراً من مطالب الجمعيات القومية العربية، ولذا أسس أعضاء الجمعيات القومية العربية جمعية باسم (الجمعية اللامركزية). وخلال المؤتمر العربي الأول تناول أعضاء الجمعيات القومية العربية، قضية الحكومة اللامركزية،

(١) أم القرى، الكواكبي، ١٦٣، ١٦٦.

وكان أكثر من تناولها بالتركيز، مندوب الجمعية اللامركزية (إسكندر عمون)[١][٢].

ويتفق مفهوم الحكومة اللامركزية عند الجمعيات القومية العربية، مع مفهوم الكواكبي، بأنها توزيع السلطة الإدارية على المراكز المختلفة التي يتألف منها الجسم السياسي والاجتماعي، عوضاً عن حصرها في جزء واحد مركزي، ليتيسر لكل جزء الاهتمام بتدبير شؤونه الخاصة به بنفسه عن علم، مع حفظ الصلة بالمركز حرصاً على مصلحة الكل[٣].

وتعتبر مجلة (المنار) ما قدمته من كتابات حول موضوع فوائد الحكم اللامركزي، تأصيلاً لهذه القضية، فقد قامت (المنار) بدراسة مقارنة عن فوائد الحكم اللامركزي، وضرر المركزية، مبينة أن الحكومة العثمانية قد أعجزها تنائي أطراف المملكة، واختلاف لغات وأجناس ومشارب أهلها عن تنفيذ قوانينها في كل ولاية، فجاءت اللامركزية توزع التبعة على أفراد الأمة بمقدار ما تعطيهم من السيطرة على مصالح الوطن...، وتصل دراسة (المنار) إلى: أن الحكومة المركزية غير قادرة على الدفاع عن أكثر البلاد العثمانية إذا هاجمها عدو أجنبي، ولذلك فإن المملكة ستكون عرضة لخطر الزوال، وبالتالي تكون الحكومة المركزية مهددة بفقد الاستقلال[٤].

٦) الولاء والبراء عند الكواكبي:

إن ما كتبه الكواكبي عن موضوع الولاء والبراء يُمَكن من حَصْرِ القضايا التي تناولها في المناقشة، بما يلي:

---

(١) انظر الترجمة رقم (٦).

(٢) المؤتمر العربي الأول، ٩٨ - ١٠٤.

(٣) مجلة دراسات تاريخية، السنة الرابعة، العدد الحادي عشر، ربيع الأول ١٤٠٣هـ. مقال بعنوان تطور مفهوم اللامركزية عند العرب العثمانيين، سهيلة الريماوي.

(٤) مجلة المنار، المجلد السادس عشر، الجزء الثالث، ٨ مارس سنة ١٩١٣م.

أ) الرابطة القومية مقدمة على الرابطة الدينية: قال الكواكبي (يا قوم وأعني بكم الناطقين بالضاد من غير المسلمين. أدعوكم إلى تناسي الإساءات والأحقاد، وما جناه الآباء والأجداد، فقد كفى ما فعل ذلك على أيدي المثيرين، وأجلكم من أن لا تهتدوا لوسائل الاتحاد وأنتم المتنورون السابقون. فهذه أمم أستراليا وأمريكا قد هداها العلم لطرائق شتى، وأصول راسخة للاتحاد الوطني دون الديني، والوفاق الجنسي دون المذهبي، والارتباط السياسي دون الإداري.. - ويتساءل الكواكبي -: فما لنا نحن ألا نفتكر في أن نتبع إحدى تلك الطرائق أو شبهها، فيقول عقلاؤنا لمثيري الشحناء من الأعاجم والأجانب: دعونا يا هؤلاء نحن ندبر شأننا، نتفاهم بالفصحاء، ونتراحم بالإخاء، ونتواسى في الضراء، ونتساوى في السراء، دعونا ندبر حياتنا الدنيا، ونجعل الأديان تحكم في الآخرة فقط، دعونا نجتمع على كلمات سواء ألا وهي (فلتحي الأمة، فليحي الوطن، فلنحي طلقاء أعزاء)[1].

لقد كانت هذه الكلمات ومثيلاتها، من أبلغ الحجج عند أعضاء الجمعيات القومية، في تأسيس الجمعيات القومية العربية على أساس الرابطة القومية، وأن يقولوا: استطاعت المثل العليا المشتركة أن تجمع بين العقائد المتناحرة، وتوحدها في رابطة إيجابية فعالة، تعمل لتحقيق أهداف مشتركة، وأن يكون الحافز لهم إلى العمل هو اهتمامهم بتقدم البلاد على أساس الوحدة الوطنية. كما أصبح الرابط الذي يؤلف بينهم هو اعتزازهم بالتراث العربي[2].

ب - مجاراة العرب للغرب: إن النهوض العلمي المادي في الدول الغربية كان من عوامل انبهار الكواكبي بالدول الأوربية، ووجوب الأخذ بما عندهم من الصغير

---

(١) طبائع الاستبداد، الكواكبي، ١١٠ - ١١١.

(٢) يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ١١٩.

والكبير. فمما قال في تطور العلوم الرياضية والطبيعية في أوربا: أخذت هذه العلوم تنمو في الغرب، وعلى مَرِّ القرون، ترقت وظهر لها ثمرات عظيمة في كافة الشؤون المادية والأدبية، حتى صارت كالشمس، لا حياة لذي حياة إلا بنورها، فأصبح المسلمون مع شاسع بعدهم عنها محتاجين إليها لمجاراة جيرانهم، احتياجاً يعم الجزئيات والكليات: من تربية الطفل إلى سياسة الممالك... بل أضحى المسلمون محتاجين للحكمة العقلية، التي كادت تجعل الغربيين أدرى منا حتى في مباني ديننا[1].

ويقرر الكواكبي أن مبدأ مجاراة المسلم للغرب، والأخذ عنهم من الشؤون المادية والأدبية، ويعم الجزئيات والكليات: من تربية الطفل إلى سياسة الممالك. أنه مبدأ لا يخالف الإسلام، حيث أن أصل الإسلامي لا يستلزم الوحشة بين المسلمين وغيرهم، بل يستلزم الألفة، وذلك أن العرب أينما حلوا من البلاد، جذبوا أهلها بحسن القدوة والمثال لدينهم ولغتهم. ويشمل مبدأ الألفة للغرب كما قرره الكواكبي لو أن الغرب استعمروا بلاد المسلمين، فيقول: إن المسلمين لم ينفروا من الأمم التي حلت بلادهم وحكمتهم، فلم يهاجروا منها كعدن وتونس ومصر بخلاف الأتراك، بل يعتبرون دخولهم تحت سلطة غيرهم من حكم الله لأنهم يذعنون لكلمة ربهم تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾[2].

ج - تفضيل الحكم الأجنبي الكافر على حكم الأتراك: انطلاقاً من دافع مقاومة ما يسميه الكواكبي - ظلم واستبداد حكام الأتراك؛ فضل حكم من سماه الكافر العادل على حكم الأتراك، إذ إن حكام الترك حينما يضاف إلى شركهم ما هم عليه من الظلم والجور، يحكم عليهم بالشرع والعقل بأن ملوك الأجانب أفضل منهم وأولى بحكم المسلمين،

---

(١) أم القرى، الكواكبي، ٥٣ - ٥٤.

(٢) المصدر السابق نفسه، ٢٤٣ - ٢٤٤. وعن موقف الكواكبي من الجهاد. انظر: أم القرى، ٢٤٢.

لأنهم أقرب للعدل ولإقامة المصالح العامة، وأقدر على إعمار البلاد وترقية العباد[1]. قد يكون من أسباب تفضيل الكواكبي حكم الكفار أنهم: لا يحذرون من الخلافة العربية، بل يرون من صوالحهم الخصوصية، وصوالح النصرانية، وصوالح الإنسانية أن يؤيدوا قيام الخلافة العربية[2].

وينقم الكواكبي على من ينتقد طالبي الإصلاح وبخاصة حينما يتعرضون لنقد أمراء المسلمين، فيقول عن معارضي الإصلاح: يعتبرون طالبي الإصلاح من المارقين من الدين، كأن مجرد كون الأمير مسلماً يغني عن كل شيء حتى عن العدل، وكأن طاعته واجبة على المسلمين، وإن كان يخرب بلادهم، ويقتل أولادهم، ويقودهم ليسلمهم لحكومات أجنبية [3].

٧) التنظير في مسألة تأسيس الجمعيات:

في كتاب الكواكبي (أم القرى) إشارات وتصريحات في فضائل الجمعيات، وقد تعتبر بعض الآراء التي ذكرها الكواكبي، في مقام التنظير لتأسيس الجمعيات القومية العربية، ومن تلك الآراء، قال الكواكبي: (..إن الجمعيات المنتظمة يتسنى لها الثبات على مشروعها عمراً طويلاً.. وتأتي بأعمالها كلها بعزائم صادقة لا يفسدها التردد.. وهذا هو سر كون الجمعيات تقوم بالعظائم وتأتي بالعجائب، وهذا لا يبعد أن يتم لنا انعقاد جمعية منتظمة تنعقد الآمال بناصيتها، ولا ينبغي الاسترسال مع الوهم إلى أن الجمعيات معرضة في شرقنا لتيار السياسة فلا تعيش طويلاً، ولا سيما إذا كانت فقيرة ولم تكن كغالب الأكاديميات (أي المجامع العلمية) تحت حماية رسمية، بل الأليق بالحكمة

---

(١) أم القرى، الكواكبي، ٣٧.

(٢) المصدر نفسه، ٢٤٣ - ٢٤٤.

(٣) المصدر نفسه، ٣٤.

والحزم الإقدام والثبات وتوقع الخير إلى أن يتم المطلوب... انتظام جمعية يكون لها صوت جهوري، إذا نادى مؤذنها حي على الفلاح.. ووظيفتها الأساسية أن تنهض بالأمة من وهدة الجهالة، وترقى بها في معارج المعارف، متباعدة عن كل صبغة سياسية[(١)].

ويعتبر عبدالرحمن الكواكبي فقدان الجمعيات في بلاد المسلمين من أسباب انحطاط المسلمين، فيقول: لا تربية قويمة المبادئ، ينتج منها رأي عام لا يطرقه تخاذل وانقسام، ولا جمعيات منتظمة تسعى بالخير وتتابع السير، ولذلك حل فينا الفتور.. فلا تفقد الجمعيات إلا بسبب فقد الإحساس[(٢)].

إن ظهور الفتور في الأمة في رأي الكواكبي بسبب فقد قوة الجمعيات وثمرة دوام قيامها[(٣)]، حيث إن دور الجمعيات عند الكواكبي أنها تسعى إلى: أولًا - لتنوير الأفكار بالتعليم، ثانياً - إيجاد شوق للترقي في رؤوس الناشئة[(٤)].

وهذا الانحطاط الذي حل بالمسلمين، لا يوجد بالأمم الغربية - كما يقول الكواكبي - لاهتمامهم بوسائل الاجتماعات والمفاوضات، فذكر من تلك الوسائل: إعدادهم في مدنهم ساحات ومنتديات، تسهيلاً للاجتماع والمذاكرات وإلقاء الخطب وإبداء التظاهرات. ومنها: نشرهم في الجرائد اليومية كل الوقائع والمطالعات الفكرية[(٥)].

هذا بعض ما قدمه الكواكبي من أطروحات قومية، كانت - مع الأسباب الأخرى - سبباً من أسباب نشأة الجمعيات القومية العربية.

---

(١) أم القرى، الكواكبي، ١٨.

(٢) المصدر نفسه، ٥٩.

(٣) المصدر نفسه، ١٦١.

(٤) المصدر نفسه، ١٩٢.

(٥) المصدر السابق، ٦٣.

ومن خلال العرض السابق يلحظ أن الكواكبي قد وقع في مخالفات عقائدية، وذلك في تقريره لكثير من المسائل القومية، وستُجْرى المناقشة في باب مستقل إن شاء الله تعالى.

» السبب الثالث: دور الصحافة في نشأة الجمعيات القومية:

والسبب الثالث من الأسباب الفرعية في نشأة الجمعيات القومية العربية الصحافة، ومما يؤكد على دورها قول البارودي - أحد أعضاء الجمعيات القومية - في مذكراته: بدأت عيوننا تتفتح على الحقائق القومية حول السنة ١٩٠٥ - ١٩٠٦م (١٣٢٣ - ١٣٢٤هـ).. بدأت أطالع بعض الصحف المصرية التي كانت تتسرب إلى دمشق، كالمقطم والأهرام والمؤيد، ولا أدري كيف تصل إلى دمشق لأنها كانت ممنوعة. وأذكر أن بعض أصدقاء لي كمحب الدين الخطيب وعثمان مردم بك، كانوا يأتون بعدد أو عددين من الجرائد المصرية وينقلونها إلى عدد محدود من أصدقائهم من الشبان الناشئين، فيمر العدد من يد ليد بصورة خفية، دون أن يطلع على ذلك أحد[1].

فكان أعضاء الجمعيات القومية، يقولون: طالما شاقنا استطلاع الأخبار فتسقطناها من بريد أجنبي أو جريدة في سفارة أو دار قنصلية...، وليس هذا كل البلاء إذ لو حرمت علينا الكتابة في جرائدنا وأبيحت لنا قراءة الصحف المنتشرة في سائر الأقطار لقلنا شر أهون من شرين ولكن هيهات. حظرت المراقبة قراءة كثير من الجرائد المنتشرة في كل بلاد الله ولا سيما ما صدر في مصر[2].

لقد ظهرت جهود فردية مبكرة في نشر المبدأ القومي بالجانب الصحفي، تمثلت بصحيفة (نفير سوريا) وهي صحيفة أسبوعية سياسية. وكذلك صحيفة (الجنان) وهي

---

(١) مذكرات البارودي، فخري البارودي، ١/ ٥٧.

(٢) الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده، سليمان البستاني، ٢٩

صحيفة سياسية أدبية تصدر كل أسبوعين وتولى إصدارهما بطرس البستاني[١]. وغيرها من الصحف، إلا أن هذه الصحف ركزت على قضية ما يسميه القوميون بالتسامح الديني، والدعوة إلى التوفيق بين العقائد المختلفة. وذلك تعايشاً مع النظام المقرر و(الإصلاحات) التي قدمتها الدولة العثمانية على الأمة الإسلامية وكان من أبرزها: (عدم التفرقة بين المواطنين في الحقوق والواجبات، دون النظر إلى مذاهبهم أو انتمائهم القومي، وحرية الممارسة للشعائر الدينية لكل المذاهب، وعدم تطبيق عقوبة الإعدام على المرتدين[٢].

لذلك جاءت أكثر المقالات مركزة على الانتماء القومي دون الديني، مثال ذلك ما نشرته صحيفة الجنان عام ١٨٧٠م (١٢٢٢هـ): (..لا أمل لنا بالعصبة الدينية لأن زمان النبوة قد مضى وقد تركنا الدين. والتمسك بالعصبة الدينية في هذا العصر هو سبب الضعف والتأخر، ولا سبيل للنجاح إلا بتركها وبالتمسك بالعصبة الوطنية[٣].

ويعتبر أعضاء الجمعيات القومية إعلان الدستور إعلاناً لحرية الصحافة، وفتحاً لباب الصحافة على مصراعيه، فصدرت في دمشق أول جريدة يومية وطنية وهي جريدة (المقتبس) لمحمد كرد علي، وكانت إدارتها مجمعاً للعلماء على اختلاف أقطارهم، ومما لاشك فيه أنها كانت الأولى التي نبهت أذهان الناس إلى واجبهم نحو وطنهم، وكان يصدر منها يومياً (١٠٠٠) صحيفة[٤].

وعن دور هذه الصحف في نشأة الجمعيات القومية وإشاعة الفكر القومي، يقول محمد كرد علي: إن الصحف قد علمتهم بسائط من التاريخ وحال الأمم وسياسات

---

(١) يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ١١٤.
(٢) الأوضاع الثقافية في تركيا، سهيل صابان، ٥. وانظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية، فريد بك المحامي.
(٣) مجلة (الجنان) ١٨٧٠، نقلاً عن سليم البستاني، سلسلة الأعمال المجهولة، ميشال جحا، ١١٦.
(٤) تطور الصحافة السورية في مئة عام(١٨٦٥، ١٩٦٥م)، جوزيف إلياس، ١٨١.

السياسيين وقوانين المشرعين واستعمار المستعمرين وتدليس المدلسين... ولا حياة للأحفاد بدون الأخذ من سيرة الأجداد، والاقتباس من المدنية الحديثة كل ما لا ينزع منهم مشخصاتهم ومقدساتهم. علمتهم أن لا قيام لأمرهم إلا بالقومية العربية، وأن نغمة الدين وحدها لا تنجيهم مما هم فيه لأن التساهل بأمور الدين والدنيا يذهب بالدين والدنيا معاً[1].

وقد كانت بعض الصحف القومية تنص على أهدافها، فمن ذلك صحيفة القبس التي قال عنها شكري العسلي[2] - أحد أعضاء الجمعية اللامركزية -: الغاية من إصدارها في هذه الآونة هي تنوير الفكر العام ببث الحقائق العلمية ونشر الأخبار الصحيحة وإحياء شعور الأمة... فإن كانت الأمة جاهلة فيجب علينا أن نعلمها، وإن كانت غافلة فينبغي لنا أن نوقظها، وإن كانت تائهة فيحتم علينا أن نرشدها، وإن كانت قانطة فالواجب يقضي علينا أن نغرس في قلبها غرس الأمل الواسع[3].

وقد صرحت صحيفة (الشعب) في عددها الأول والذي صدر عام ١٩٠٩م، بأن من مبادئ (الشعب): التهذيب، الانتقاد العادل، صدق الوطنية، تشجيع الناشئة وترقيتها.. ومن أخص مبادئ الشعب: مساعدة الجمعيات والأندية الأدبية والمدارس والمكاتب والسعي في نشر ما طوي من محاسن اللغة العربية[4].

لقد أصبحت الصحف العربية تبحث في المسائل التي تطالب بها الجمعيات القومية، فمن ذلك الدفاع عن العنصر العربي، والتغني بأمجاد العرب بمناسبة أو غير مناسبة،

---

(١) خطط الشام، محمد كرد علي، ٤/ ٨٢، مكتبة النوري، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣هـ.
(٢) انظر الترجمة رقم (٣٨).
(٣) تطور الصحافة السورية في مئة عام (١٨٦٥، ١٩٦٥م)، جوزيف إلياس، ١٣٢، دار النضال، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٢م. وانظر: القبس، العدد الأول، ٣٠ أيلول ١٩١٣م.
(٤) تطور الصحافة السورية، ١٤٣.

وتندد بالإجراءات المتخذة ضد العنصر العربي. كمقالة بعنوان (المسألة العربية)، ومما جاء فيه:..إن لفظة عربي وتركي لا يسوغ أن تقال في عصر الاستبداد، فهل يليق أن يتلفظ بها في عهد الدستور. وإن كان بعض أفرادنا يشكون من حرماننا من الوظائف العالية.. ثم دعا المقال إلى المساواة بين العرب والترك، وتعليم اللغة العربية(١).

وتشارك الصحفُ الصادرة في مصر الصحفَ العربية الأخرى في إثارة القوميين في تأسيس الجمعيات الخاصة بهم، فمن تلك الصحف صحيفة (مصر)، ففي بيان منهج الصحيفة قال محررها: (مسلكي أن أكشف حقائق الأمور ملتزماً جانب التصريح، متجافياً عن التعريض والتلميح، وأن أجلو مبادئ الحرية وآراء ذوي النقد، وأن أبين ما يظهره البحث من عواقب الحوادث ومقاصد أهل الحل والعقد...، ومقصدي أن أثير بقية الحمية الشرقية، وأهيج أصالة الدم العربي، وأرفع الغشاوة عن أعين الساذجين، وأحيي الغيرة في قلوب العارفين، ليعلم قومي أن لهم حقاً مسلوباً فيلتمسوه، ومالاً منهوباً فيطلبوه، وليخرجوا من خطة الخسف، وينبذوا عنهم كل مدلس يشتري بحقوقهم ثمناً قليلاً)(٢).

وكان شكري غانم يكتب في الصحف الباريسية ويبين آراءه في السياسة العثمانية الخارجية والداخلية. وكان يحلل الحوادث، ويورد الأخبار عن تعصب الترك لعنصريتهم، ومحاولتهم تتريك العناصر غير التركية، وحكم الدولة حكماً مركزياً، وحرمان تلك العناصر من حقوقها(٣).

---

(١) المقتبس، عدد٢٠، بتاريخ ١٢/ ١/ ١٩٠٩م، نقلًا من كتاب: تطور الصحافة السورية، جوزيف إلياس، ٩٩.

(٢) صحيفة مصر، العدد الأول، ٢٤كانون الأول عام ١٨٧٩م، نقلًا من كتاب: الاتجاهات الفكرية عند العرب، علي المحافظة، ٣٠.

(٣) العرب والترك، توفيق برو، ١٥٠.

وجميع مقالات شكري غانم الصحفية تركزت على مطالب الجمعيات القومية العربية، ومن مقالات شكري غانم: (لم يهتم الترك منذ أن استولوا على البلاد العربية وعلى الخلافة بالتفاهم مع العناصر التي يحكمونها، ولا سيما العنصر العربي. وقد جعل هذا العنصر بعد ثورة ١٩٠٩م، يشكو من سوء ما يعامل به، وكيف أن المراكز التي جعلت للعرب في الوزارات المتعاقبة كانت ثانوية لا تتكافأ مع أهميتهم...)[١].

لقد حدثت بعد إعلان الدستور حربٌ بين الصحف التركية والصحف العربية، مما جعل بعض الصحف العربية تفسح المجال لكتاب العرب الذين يهاجمون حكومة الاتحاد والترقي، ويطالبون بتأسيس الجمعيات القومية. ومن تلك الصحف (مجلة المنار) والتي يصدرها رشيد رضا، وتعتبر الناطقة بلسان الجمعية اللامركزية. فأصدرت حكومة الاتحاديين مذكرة توقيف بحقه، نشرها في (المنار) بهذا النص: مذكرة أخذ وقبض بحق الشيخ محمد رشيد رضا.. الفار إلى مصر، وصاحب ومحرر جريدة (المنار) الهذيانية، والمظنون عليه بالتجاسر على نشر مواد الخيانة المعلنة في الورقة المذكورة[٢].

وقد صرحت بعض الصحف القومية بنقد حكومة الاتحاديين، كما في المقال الصادر في صحيفة (دليل حمص)، ومما جاء فيه: ليس من عربي في سورية يجري فيه دم آبائه وأجداده يتقاعس عن طلب الإصلاح، إن السوريين يريدون أن يحيوا، وليس من حائل يقف في سبيل مطالبهم الحقة.. بلاد العربية تتجاذب أصداؤها مرددة طلب الإصلاح[٣].

---

(١) معضلة الشرق، أو الأقطار العربية المحررة، خير الله خيرالله، ٤٢.

(٢) المنار، مجلد ١٢، الجزء ٩، اكتوبر ١٩٠٩م، ص ٧١٦.

(٣) دليل حمص عدد ٨٠، بتاريخ ٢٣/ ٤/ ١٩١٣م. نقلًا من كتاب: تطور الصحافة السورية، جوزيف إلياس، ٩٩.

وتؤكد صحيفة (المقتبس) على حقوق العرب، ومن أمثلة ذلك مقالتها بعنوان: (الترك والعرب) عام ١٩٠٩ (١٣٢٧هـ)، وفيها مطالبة بمساواة العرب بالأتراك، وإعادة حقوقهم المغتصبة في العهد البائد، وأتبعت ذلك في عام ١٩١٠م (١٣٢٨هـ) بمقالة هي (الترك والعرب) وفيها يدعو المقال إلى وحدة العناصر، وينبه إلى أن جرائد العاصمة - الآستانة - تكتب ضد العرب[1].

ولتضامن الصحف وتأييدها للجمعيات القومية، ما اتخذته بعض الصحف من إجراءات حينما يتعرض بعض أعضاء الجمعيات القومية، أو الجمعيات القومية نفسها لأذى، فحينما رفضت حكومة الاتحاد والترقي مطالب جمعية بيروت الإصلاحية، واعتبرت الجمعية غير قانونية، في عام ١٩١٣م (١٣٣١هـ) صدرت جميع الجرائد ببيروت، وعلى صفحاتها الأولى قرار الوالي بإلغاء الجمعية وإقفال النادي، ضمن إطار أسود دلالة على الحداد، وتركت الصفحات الأخرى بيضاء[2].

ويؤكد أعضاء الجمعيات القومية في خلال حكم جمعية الاتحاد والترقي، بفتح باب الحرية أكثر في المجال الصحفي، وقد صدر قانون الصحافة العثماني في أواسط عام ١٩٠٩م، يقضي بأحكام مختلفة على كل صحفي يهين السلطان أو القناصل أو السفراء... بِمُدَدٍ من الحبس تختلف بين أسبوع أو ١٥ يوماً إلى ستة أشهر، مع غرامات نقدية، كما كان من مواد القانون مادة تقضي بالتعطيل لمدد مختلفة. وقد تكون لأجل غير مسمى[3].

لقد طالب أعضاء الجمعيات القومية العربية: بأن تباح لهم رواية الأخبار وترديد صدى الأفكار، والنظر في شؤون أنفسهم من إلقاء درس مفيد، وعرض مقترح جديد،

---

(١) المقتبس، العدد ١٨، بتاريخ ١٠ كانون الثاني، ١٩٠٩.

(٢) نشوء القومية العربية، زين نور الدين زين، ٩٩.

(٣) انظر: الأهرام، العدد ٩٥٤٨، ١٢/٨/١٩٠٩م و٩٥٩٥، ٦/١٠/١٩٠٩م. نقلًا من: العرب والترك، ١٥٥.

ونقد عامل وعمل، والبحث في كل ما من شأنه أن يلذ ويهذب ويفيد. وعلى الجملة إطلاق الحرية إلى ما لا يفضي بها إلى الفوضى[1].

وفي الجانب الآخر انحازت أكثر الصحف العربية في تأييد حزب (الحرية والائتلاف) المعارض لجمعية الاتحاد والترقي، فقد نشرت صحيفة المقتبس مقالة لشكري العسلي، بعنوان: (حزب الأحرار المعتدلين)، وفي هذه المقالة يشرح شكري العسلي مواد نظام الحزب، ويعلق عليها. وفي مقالة أخرى بعنوان (الحزب الجديد) بقلم حقي العظم - أحد مؤسسي حزب اللامركزية - وفيها تعريف وافٍ بحزب (الحرية والائتلاف) ودفاع عن خطته وسياسته، فكان مما قال: (قد يسر الله لهذه الأمة حزب الحرية والوفاق أو حزب الأحرار المؤتلف لتكون مخلصة للأمة والوطن من الاستبداد الذي خلف استبداد عبدالحميد)[2].

ولبيان منهجية بعض الصحف المؤثرة في تأسيس الجمعيات القومية، أبين نموذجاً منها وهي صحيفة (المقتطف)، التي تعتبر من أبرز صحف الجمعيات القومية العربية، وذكر محرروها سياسة المجلة: الأوربيون أنفسهم على كثرة المتعلمين منهم ورواج الكتب العلمية عندهم رأوا أن لا بد لهم من إنشاء جرائد علمية تذيع المعارف بين الخاصة والعامة، وتنشر أخبار العلماء وتحقيقاتهم حال حدوثها.. وقالت مجلة المقتطف: وقد اقتدينا بهم في ذلك منذ ١٩ سنة فأنشأنا المقتطف واعتنينا اعتناءً خاصاً بنشر ما ليس في كتبنا العربية..، فتجد في كل جزء منها - المقتطف - شيئاً من نتائج ما حصلناه بالدرس والتدريس..، وما حصله أشهر علماء الأرض في آسيا وأوربا وأمريكا، وما كتبوه وخلدوا به ذكرهم[3].

---

(١) الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده، سليمان البستاني، ٣٣.

(٢) صحيفة المقتبس، عدد ٨٤٥، بتاريخ ٨/ ١٢/ ١٩١١م. نقلًا من كتاب: تطور الصحافة السورية، جوزيف إلياس، ١١٦.

(٣) المقتطف، الجزء ١٢، من السنة ١٨، سبتمبر ١٨٩٤م، ص ٧٩٢.

لقد نهجت مجلة المقتطف المنهج القومي العلماني، حيث كانت أفكار مؤسسيها الماسونيين القوميين النصارى ظاهرة عليه، وهم شاهين مكاريوس، وفارس نمر، وتعتبر (المقتطف) من أكثر المجلات الصادرة عن خارج سيطرة الدولة العثمانية، تأثيراً في تأسيس الجمعيات القومية العربية.

وحينما تقدم (المقتطف) في مقالاتها عن الثورات الغربية، والثناء على مؤسسي الثورات والجمعيات في الدول الغربية، فإنها تؤكد على مبدأ الاقتداء بهم والسير على منهجهم. كما تقول في أحد مقالاتها: ومن يطالع (المقتطف) وهو جالس في بيته وبين أهله يجد فيها مقالات غلادستون التاريخية، ثمرة ذلك العقل العظيم، الذي يدير الممالك كما يدير الربان السفينة، وقد أفرغ فيها نتائج درسه وبحثه مدة ٧٠٠ عامٍ[١].

واتبعت الصحف القومية أسلوب الترجمة لكتب تختار بعناية ثم نشرها في الصحف، مثال ذلك كتاب (التحفة الأدبية) للدبلوماسي المفكر الفرنسي هنري غيزو الذي ترجمه ونشره أعضاء الجمعية السرية، والكتاب من الغلاف إلى الغلاف يدعو إلى نظام سياسي متقدم نسبياً خصوصاً على الصعيد الديمقراطي[٢].

وتضفي مجلة (المقتطف) عبارة الثناء والمدح على علماء وقادة الشرق والغرب، من الملاحدة والكافرين كأرسطو طاليس وأفلاطون وكنت، ونيوتن وبونابرت[٣].

لقد أيقظت الصحافة الأذهان، وحملت إلى قرائها لواء الدعوات السياسية والفكرية المختلفة: التجزئة والوحدة الوطنية والإقليمية... والقومية العربية[٤]. وغير ذلك من

(١) المصدر نفسه.

(٢) صحافة الكواكبي، جان داية، ٣٢.

(٣) المقتطف، الجزء ١٢، من السنة ١٨، ١٨٩٤م. وانظر: الجزء ٧، السنة ١٨، سنة ١٨٩٤م.

(٤) الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة، علي المحافظة، ٣٠.

الموضوعات السياسية الحساسة، التي كانت تتناول الوضع السياسي والوطني السائد في ذلك العهد. ونشأ عن التفاعل بين الحركات الوطنية والتقدمية في العالم سلسلة من الكتب والأبحاث، نقلت إلى المجتمع العربي أفكاراً ومبادئ جديدة عليه[١]. ولهذا كان المراقبون في الدولة العثمانية يهتمون اهتماماً خاصاً بالصحافة والطباعة، ويخضعونها - على الدوام - لمراقبة دقيقة وصارمة. ما كان يسوغ لجريدة تنشر كلمة واحدة، ولو كانت في باب الإعلانات، دون أن تحصل على موافقة الرقيب الدائم[٢].

» السبب الرابع: دور نصارى العرب في نشأة الجمعيات القومية:

يلاحظ في تاريخ تأسيس الجمعيات القومية العربية الدورَ البارزَ الذي قام به[٣] نصارى العرب، وقد كان النصراني يشعر دوماً بأنه واحد من (رعايا) السلطان، وأن الحكومة التركية لا يمكن لها أن تكون حكومته[٤].

ما مِنْ صلة دينية، ولا صلة قومية تصل النصراني العربي بالدولة العثمانية. وكانت المدارس الأجنبية خاصة تبعد تلاميذها النصارى عن تاريخ العرب وتاريخ العثمانيين على السواء، وكانت توحي إليهم أن لا يبالوا بتاريخ يهم المسلمين وحدهم[٥].

ويرى مدير القنصلية العامة الفرنسية في بيروت أن واقع نصارى العرب في الدولة العثمانية كان من أبرز الدوافع لتأسيسهم جمعيات على أسس قومية عربية، وذلك في رسالته لوزير الخارجية بباريس، حيث يقول: (لقد تحمل المسيحيون دوماً، بنفاد صبر،

---

(١) الشعر والوطنية في لبنان والبلاد العربية، وليم الخازن، ٢٢٦، دار المشرق، بيروت، ١٩٧٩م.

(٢) البلاد العربية والدولة العثمانية، ساطع الحصري، ٨٨.

(٣) عن دور نصارى العرب في تأسيس الجمعيات: انظر: سقوط الدولة العثمانية، مجدي الصافوري، ٢٢٣ - ٢٣٤.

(٤) نشوء القومية العربية، زين نور الدين زين، ٦٠.

(٥) القومية العربية، مصطفى الشهابي، ٤٣.

النير التركي، فسياسة تركيا، التي بسبب روح التعصب وحب الاستفادة كانت تفضل دائماً قمعهم واستغلالهم، مضيقة عليهم الخناق عوضاً عن كسبهم إلى قضيتها عن طريق إشراكهم بحكومتها، لم تكن لتقنعهم بقبول فكرة وطن عثماني، ويَعْتَبِر مسيحيو هذه البلاد أنفسهم في حالة عبودية، كما يتمنون الاحتلال الأجنبي الذي ينتظرون منه تحريرهم(١).

ويعتبر نصارى العرب أول من بدأ في تأسيس الجمعيات على أسس قومية، وأَوْضَحُ برهان على ذلك دورُ بطرس البستاني وناصيف اليازجي، الذي قال عنه أعضاء الجمعيات القومية العربية بأنهما: دعوا إلى التوفيق بين العقائد المختلفة، وإلى الاتحاد والتعاون في طلب المعرفة، لأن المعرفة تؤدي إلى الاستنارة العقلية، والاستنارة العقلية تؤدي إلى القضاء على التعصب وتحل محله المثل العليا المشتركة بين الدينين(٢).

لقد اتفق اليازجي والبستاني مع المنصرين في تأسيس الجمعيات القومية العربية، كجمعية (الآداب والعلوم) و (الجمعية الشرقية) و (الجمعية العلمية السورية)، وشاركا في ترجمة التوراة إلى العربية، وكان لهما جهود علمية تمثلت في تأليف الكتب المختصرة لتستعمل في المدارس التنصيرية، وإلقاء المحاضرات في الجمعية الأدبية التي حثا الأمريكان على إنشائها، وكتابة النشرات لهذه الجمعية(٣). التي تضرب على وتر الوحدة الإسلامية والمسيحية من الوجهة الوطنية والقومية(٤).

وعلى آثار اليازجي والبستاني في تأسيس الجمعيات القومية العربية، سلك نصارى العرب، أمثال: ندرة مطران في المشاركة في تأسيس جمعية بيروت الإصلاحية، ونجيب

---

(١) بلاد الشام، وجيه كوثراني، ٢٥٤.

(٢) يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ١١٤.

(٣) يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ١١٢، ١١٣. وانظر: ١، رواد النهضة الأدبية، كمال اليازجي، ٩٠. الفكر العربي في عصر النهضة، ألبرت حوراني، ١٢٧.

(٤) نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ٩٤.

عازوري في تأسيس جمعية رابطة الوطن العربي، وأسعد داغر في المشاركة في تأسيس المنتدى الأدبي، وإسكندر عمون نائباً ومشاركاً في تأسيس حزب اللامركزية، وميشيل عفلق في تأسيس حزب البعث... إلخ.

وقد أكد أعضاء الجمعيات القومية العربية، على أن تأسيس جمعية بيروت السرية يعتبر أول محاولة لإثارة الفكر القومي، وكان الذي تولى نشأة جمعية بيروت السرية نصارى العرب الذين درسوا في الكلية السورية - الجامعة الأمريكية -[(١)].

ومن أبرز مساعي نصارى العرب، المطالب التي قدموها في جمعية بيروت الإصلاحية، للقنصلية الفرنسية العامة في بيروت، بعد أن بينوا - كما في رسالتهم - ما سموه التعصب الديني بين المسلمين (الأتراك) وبين النصارى. ولهذا كان من أماني النصارى في سورية؛ (إن نصارى سورية مرتبطون بفرنسا ارتباطاً نهائياً وهم لا يمكنهم إلى الأبد أن ينسوا ما يدينون به من إكبار لعظمتها وحضارتها، ومن اعتراف لعطفها عليهم أيام الشدائد. إن [الأمنية الكبرى] لمسيحيي سورية هي بسط الحماية الفرنسية على سورية.. وإما الحكم الذاتي لولاية بيروت تحت حماية فرنسا ورقابتها الفعليتين..)[(٢)].

ومن أمثلة التعصب الديني الذي ذكره نصارى العرب ما وقع عليهم في حرب البلقان[(٣)]، حيث قالوا عن هذه الحرب: (إن الحرب البلقانية حرب دينية، حرب صليبية، حرب الصليب ضد الهلال، حرب المسيحية المتحالفة ضد الإسلام. من هنا، لا يستبعد

(١) نشوء القومية العربية، زين نور الدين زين، ٦٠.

(٢) بلاد الشام، وجيه كوثراني، ٢٧٢. وانظر: المارونية في لبنان قديماً وحديثاً، ٣٦٨.

(٣) انظر:

١. تاريخ حرب البلقان الأولى والثانية، يوسف البستاني، ٣٣ وما بعدها، مطبعة الهلال، القاهرة.
٢. العرب والترك، توفيق برو، ٣٣٨.
٣. تاريخ الدولة العثمانية، علي حسون، ٢٨٤.

أن يعتقد المسلمون أن وجود المسيحيين في الإمبراطورية العثمانية هو السبب الرئيسي في انحطاط وانهزام الأتراك. وتصل عقلية المسلمين في الواقع إلى حد اعتبار المسيحيين المسؤولين الفعليين عن المصائب التي تحل بالإمبراطورية، إلى حد اعتبارهم الأعداء الحقيقيين).

وإضفاء الصبغة الدينية في حرب البلقان، وأن المسلمين (الأتراك) قد استغلوا الحرب لإبادة النصارى عموماً ونصارى العرب خصوصاً، كما في رسالة الأعضاء النصارى لجمعية بيروت الإصلاحية، يخالف كتابات من حضر الحرب وعايش الآثار المترتبة على الحرب البلقانية، الذين ذكروا أن منشورات رسمية ظهرت قبل الحرب، من قبل ملوك البلقان، تصف الحرب البلقانية بأنها حرب الصليبية[1].

وحينما دخلت الجيوش البلقانية إحدى الولايات العثمانية فاتحين مشى فيها كبار رجالهم الدينيين بملابسهم المذهبة التي يتزينون بها في الحفلات الدينية الكبرى. وفي مقابل ذلك رفض السلطان العثماني إعلان الجهاد، وجندت الدولة العثمانية جنوداً من رعاياهم البلغاريين والصربيين واليونانيين، فإنها ظنت أن وضعهم في مقدمة ألوف من المسلمين يضطرهم إلى إطلاق النار على أعداء الدولة، ولكنهم كانوا يطلقون رصاصهم في الفضاء كما قال غير واحد منهم. ولما لاحت بارقة النصر في جانب إخوانهم في الجنسية والدين طاروا إليهم ورموا طرابيشهم ووضعوا القبعات على رؤوسهم[2].

ولتقرير مبدأ أن الحرب البلقانية حرب صليبية، فقد نشر جماعة من القسس في مقدونيا رسالة قالوا فيها: إن الواجب المفروض على كل (مسيحي) أن يقدم روحاً إسلامية على هيكل الكنيسة، فكان لتلك الرسالة صدى عظيم، فأخذ الجنود يعملون

---

(١) تاريخ حرب البلقان الأولى والثانية، سليمان البستاني، ٦٩.
(٢) المصدر نفسه، ٧٥.

بهذه الوصية[١]. فقال أحد الضباط: إن خير وسيلة لنشر لواء الراحة والسلام في ألبانيا إنما هي إبادة المسلمين فيها، وإلزام عدد من المسلمين أن يدينوا بالنصرانية [٢].

فاستغلال الحرب البلقانية لمبدأ التعصب الديني - كما في رسالة أعضاء جمعية بيروت الإصلاحية - إنما كان من قبل نصارى البلقان، وليس المسلمين الأتراك.

لقد وجد نصارى العرب مجالاً لتمزيق الأمة الإسلامية، والقضاء على هذا الدين من خلال مشاركتهم في تأسيس الجمعيات القومية العربية، فكان مما قال ندرة مطران وهو نصراني وأحد أعضاء جمعية بيروت الإصلاحية، وتربطه علاقات وثيقة مع أقطاب السياسة الفرنسية[٣]؛ قال خلال انعقاد المؤتمر العربي الأول: عُهد إلي أن أبحث عن الوسائل التي تكفل حفظ الحياة الوطنية ووقاية البلاد العربية العثمانية من المطامع. وربما قصد الذين اختاروا لهذا الموضوع خطيباً مسيحياً أن يصيبوا معه مواضيع أخرى مهمة كبيان تضامن مسلمي ومسيحيي العرب...إن العرب متحمسون بالجنس قبل الدين، وهي فضيلة الشعوب الحية، فضيلة الشعوب التي لا تريد أن تموت. وما زال هذا الولاء مستحكماً بين المسلم والمسيحي..[٤].

ومن المنطلق القومي رفض أعضاء الجمعيات القومية العربية من النصارى، مبدأ الوحدة على أساس الدين الإسلامي، فيقول أحد أعضاء الجمعيات القومية العربية، من النصارى: لم يكن بين أصدقائي الذين قامت النهضة على أكتافهم أم على جماجمهم، سواء في سورية أم العراق أم فلسطين أم لبنان أم غيرها، من يفكر في اتخاذ الفكرة الإسلامية أساساً للوحدة والاستقلال، بل إنهم جميعاً يعملون على تعزيز الروح القومية البحتة،

---

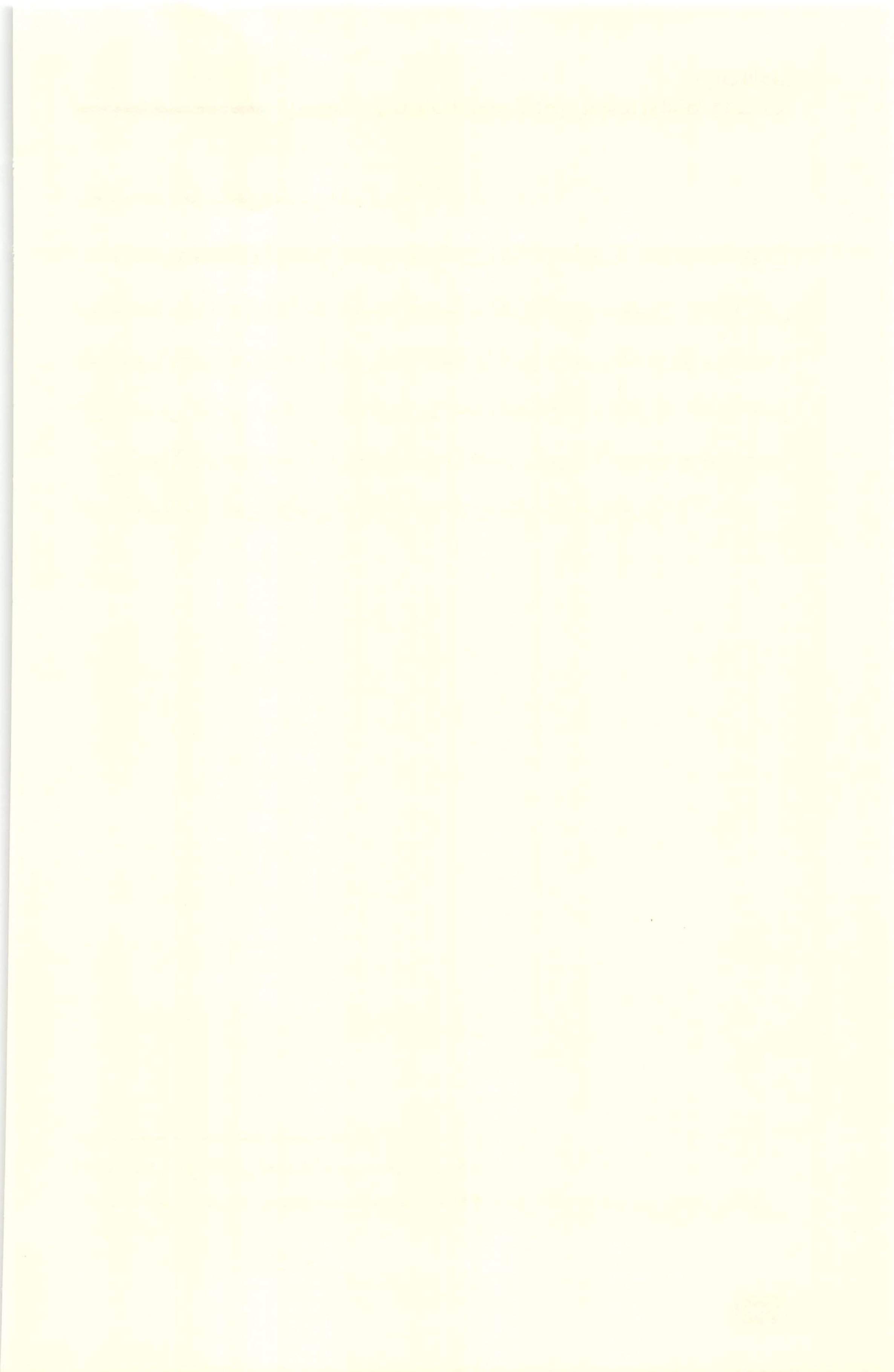
(١) المصدر السابق، ١٨٢.
(٢) المصدر نفسه، ١٧٨و ١٨٥.
(٣) المارونية في لبنان قديماً وحديثاً، محمد زعيتر، ٣٦٩، الوكالة الشرقية، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
(٤) المؤتمر العربي الأول، محب الدين الخطيب، ٥٤، ٥٨. خطبة: ندرة مطران بك.

وإحياء مجد العرب على أساس هذه الروح[1].

ومسايرة لهذا المبدأ الجاهلي، تبنى بعض المسلمين من أعضاء الجمعيات القومية العربية هذا المبدأ، فيقول أحد أعضاء الجمعيات القومية، من المسلمين: (إننا لا نبني نظريتنا في القضية العربية على أساس وحدة الدم والجنس والدين فقط، وإنما نبنيها أيضاً على الأساس القومي.. وهو وحدة الوطن واللغة والمصلحة.. وظاهر إن هذا الأساس أوسع شمولاً وأرحب صدراً من نظرية الدم والجنس والدين، لأنه يعتبر به عربياً قومياً كل متكلم باللغة العربية وليس له لغة أم غيرها، ومستقر بالوطن العربي..)[2].

(١) مذكراتي على هامش القضية العربية، أسعد داغر، ٤٦.

(٢) نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ٣٩. وانظر: القومية العربية، مصطفى الشهابي، ١٥.



الفصل الثالث:

الأهداف العامة للجمعيات القومية العربية

ويحتوي على:

» **المبحث الأول وفيه:**

١. الانفصال عن الدولة العثمانية واستقلال البلاد العربية.
٢. قيام خلافة عربية بدلاً عن الدولة العثمانية.
٣. فصل السلطة الدينية عن السلطة السياسية.
٤. تحكيم الدستور.

» **المبحث الثاني وفيه:**

١. الولاء القومي مقدم على الولاء الديني.
٢. تقرير مبدأ الولاء للقومية العربية.
٣. نشر الأفكار الغربية النصرانية.
٤. تطبيق الحكم الديموقراطي في البلاد العربية.



من خلال استعراض التعريف بالجمعيات القومية العربية، وبيان ظروف نشأتها في الأمة الإسلامية خلال القرن الرابع عشر الهجري، يتبين أنها نشأت أو أنشئت في البلاد العربية لأهداف معينة ومحددة، كما في بيانات بعض هذه الجمعيات أو تصريح الأعضاء المنتسبين لها، وفي هذا الفصل أبين أهم أهداف الجمعيات، وهي كما يلي:

المبحث الأول

» الهدف الأول: الانفصال عن الدولة العثمانية واستقلال البلاد العربية[1]:

يكاد يكون أبرز الأهداف العامة عند الجمعيات القومية، الانفصال التام عن الدولة العثمانية، بل إن بعض الجمعيات القومية لم تؤسس إلا لهذا الهدف.

إن علاقة الجمعيات القومية العربية بالدولة العثمانية وموقف الجمعيات منها، سواء في مرحلة إعلان الدستور، أم في مرحلة مشاركة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى... وغيرها من المباحث المتعلقة بهذا الموضوع سأتناوله - إن شاء الله - بالدراسة والبحث في الباب الثالث، ولكن في هذا المبحث أستعرض بعض النصوص الواردة عن أعضاء الجمعيات القومية، التي تدل على أن من أهداف الجمعيات القومية العربية استقلال البلاد العربية عن سيادة وحكم الدولة العثمانية.

وقد قال محمد عزة دروزة - أحد أعضاء الجمعيات القومية العربية - عن خطة الجمعيات القومية العربية: كنا نعمل بتحفظ وحيناً بسرية في سبيل إيقاظ الروح العربية وتحريك الشعور العربي، والتذكير بأمجاد العرب، والتوجيه لاستقلال العرب الذاتي أو التام بالكتابة والخطابة[2].

ولتحقيق الانفصال عن الدولة العثمانية واستقلالية البلاد العربية، سلك أعضاء الجمعيات القومية العربية، ثلاثة محاور، وهي:

---

(١) انظر: سقوط الدولة العثمانية وأثره على الدعوة الإسلامية، مجدي عبدالمجيد الصافوري، ١٦٥.
(٢) حول الحركة العربية الحديثة، ١/ ١٩.

١) المطالبة بتعيين نواب من العرب في المجالس المختلفة:

بعد إسقاط السلطان عبدالحميد الثاني، تولت جمعية الاتحاد والترقي مقاليد الحكم وحددت سلطة السلطان العثماني بأعمال محددة كتعيين الصدر الأعظم وشيخ الإسلام، منح الصدر الأعظم حق اختيار الوزراء ورفع أسمائهم إلى السلطان للمصادقة عليها...[١] الخ وأعلن ما يسمى بالدستور[٢] الذي حدد فيه تنظيم للدولة بحيث لا يكون للسلطان سلطة مطلقة. وكان الذي قام بهذا الانقلاب جمعية الاتحاد والترقي والجمعيات القومية العربية.

ويصف أعضاء الجمعيات القومية العربية، تسلط جمعية الاتحاد والترقي على السلطة بقولهم: قامت جمعية الاتحاد والترقي بتقسيم الدوائر الانتخابية، وفرض عدد أعضاء مجلس النواب بتخطيط لضمان الأكثرية للعنصر التركي.. وحرصوا على أن يكون المنتخبون من المنتسبين إلى جمعيتهم المتحمسين لها سواء أكانوا من الترك أم غيرهم.. وحرصوا بقدر ما أمكنهم أن يكون من نواب البلاد العربية أناس من العنصر التركي[٣].

وبالنسبة لأصحاب المناصب من العرب قبل إعلان الدستور، فيقول أعضاء الجمعيات القومية العربية: قامت جمعية الاتحاد والترقي بتنسيق موظفي (العهد البائد)، وألفوا اللجان في الآستانة وعواصم الولايات، وأسرفوا في عملية تنسيق موظفي العناصر غير التركية وبخاصة منها العرب..، وكانت لجان التنسيق كي تفرق بين التركي والعربي تضع إلى جانب اسم العربي حرف (ع) في جداول التنسيق.. ولم يبق عرب آخرون لهم من الأهمية والنفوذ من يذكر في مناصب الدولة[٤].

---

(١) نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ٢٣٢.

(٢) انظر: مجلة الهلال، الجزء الأول من السنة السابعة عشرة، ٦/ ٩/ ١٣٢٦هـ، ص: ٦.

(٣) نشأة الحركة العربية الحديثة، ٢٩٨.

(٤) مجلة المنار، مجلد ١٢، الجزء ١٢، يناير ١٩١٢م، ص: ٩١٧. وانظر:

١. مؤلفات رفيق العظم، ١٣٣

٢. العرب والترك، توفيق برو، ٩٦.

كان لهذه الإجراءات الحزبية أثر عظيم على أعضاء الجمعيات القومية العربية، ولذا طالبوا المشاركة بمجالس الدولة، فكان مما قالوه: إن المراكز التي جعلت للعرب في الوزارات المتعاقبة كانت ثانوية لا تتكافأ مع أهميتهم، وإن ما نالهم من الإجحاف في مجلس النواب والأعيان[1] جعلهم يظنون بأن ثمة حركة ترمي إلى القضاء عليهم[2].

وأبرز مقاصد جمعية الإخاء العربي العثماني هو: معاونة جمعية الاتحاد والترقي في سبيل المحافظة على أحكام القانون الأساسي (الدستور)، وجمع كلمة الملل المختلفة العثمانية بدون تفريق في الجنس والمذهب، وتمكين الرابطة الجامعة بينهم، وذلك لأجل خدمة الدولة العثمانية وإصلاح الشؤون المختلة. والسعي لإعلاء شأن الأمة العربية، واتخاذ جميع الوسائط والتدابير لنشر أنوار العلوم والمعارف بين أبنائها كتأسيس مدارس وطبع جرائد..، وصيانة حقوق أبناء العرب جميعاً من الغدر والاعتساف وتبليغ شكاياتهم، ومستدعياتهم إلى مراجعها الرسمية[3].

ومن الموضوعات التي تمت مناقشتها في المؤتمر العربي الأول موضوع (حقوق العرب في المملكة العثمانية)، ومما جاء فيه غمط العرب حقهم في المجالس المختلفة في الدولة العثمانية، وقال عبدالغني العريسي: نحن - أعضاء الجمعيات القومية (المؤتمر) - نطلب تمثيلنا فيه - المجالس - على استحقاق حفظاً لكرامتنا ومنزلتنا السياسية..، ويتساءل الناس عن قلة نواب العرب في هذه المجالس مع أن عدد العرب يفوق غيرهم في هذه

---

(١) في بداية عهد عبدالحميد ورغبة في مشاركة الجميع في شؤون الدولة أصدر قراراً بتنظيم مجلس عمومي يكون من مجلسين أحدهما ينتخب الأهالي أعضاءه ويسمى مجلس المبعوثان أو النواب، والآخر تعين أعضاؤه من طرف الدولة ويسمى مجلس الأعيان. وكان ذلك سنة ١٢٩٣هـ. انظر: (تاريخ الدولة العلية، ٥٩٠).

(٢) معضلة الشرق أو الأقطار العربية المحررة، خير الله خير الله، ٤٠، تعريب عارف النكدي.

(٣) انظر: ص (٥٧) من الرسالة.

المملكة، فإذا عرفنا أن انتخاب النواب أصبح بين أيدي من احتكروا السلطة واستلموا الإدارة زال العجب..، وما دام أقدس حق لهذه الأمة مغموطاً وهو حق التمثيل فإننا نُعذر إذا صممنا على أن نتذرع بالوسائل التي تصون حقوقنا في هذه المجالس سواء في زيادة نوابنا أم حرية تمثيلنا[١].

وبعد أن تبنت الجمعيات القومية العربية الدفاع عن دعوة هضم حقوق العرب، وعدم تمكينهم للمشاركة في المجالس، أو مشاركة العدد الذي لا يتناسب مع حجم أعداد العرب في الدولة العثمانية، رافق هذا الدفاع المطالبة باستقلال البلاد العربية عن الدولة العثمانية[٢].

٢) المطالبة بالحكم اللامركزي:

انفصال البلاد العربية عن الدولة العثمانية يعتبر مرحلة أخيرة من أهداف الجمعيات القومية العربية، وقبل الوصول إلى هذه المرحلة، مرت مطالبة الجمعيات بمرحلة الحكم اللامركزي، وقد صرح أعضاء الجمعيات القومية العربية بهذا الترتيب، ومن ذلك قول محمد عزة دروزة: إن الجمعيات القومية المُسَيِّرة للحركة العربية (كانت تهدف إلى قيام كيان عربي قومي يضم جميع بلاد العرب، ويكون له استقلال ذاتي تحت تاج السلطان العثماني المشترك، ثم تطورت إلى الانفصال عن الدولة العثمانية وإنشاء مملكة عربية كبرى تشتمل على أقطارهم المتعددة..، وكانت هذه المطالب نتيجة للاتصالات التي جرت بين الشريف وأولاده من ناحية، والجمعيات العربية السرية التي تطورت أهدافها، وغدت

(١) المؤتمر العربي الأول، خطبة عبدالغني العريسي، ٤٥.
(٢) انظر: عن واقع بعض المجالس المشتركة بين الأتراك والعرب والبعيدة عن الصبغة الإسلامية: العرب والترك، توفيق برو، ٢٣٢، ٢٣٨.

مركزة في الوحدة العربية الشاملة من ناحية أخرى[1]. ويؤكد هذا الأمر تشدد جمعية الاتحاد والترقي على الأعضاء المنتسبين للجمعية اللامركزية[2].

وقد اتفقت الجمعيات القومية العربية على المطالبة بالإدارة اللامركزية في السلطنة العثمانية المؤلفة من عناصر مختلفة الأجناس والأديان واللغات والعادات.. وكما كان للحزب اللامركزي تأثير في هذه الغاية، فقد كان المنتدى الأدبي أيضاً، أقوى عامل في بث الفكرة الوطنية في نفوس العرب، وبث الدعوة إلى الانفصال عن الترك وإعلان الاستقلال العربي[3].

٣) طلب الحماية والاستشارية من الدول الاستعمارية:

مما لا شك فيه تأثر أعضاء الجمعيات القومية العربية بالعالم النصراني، والذي كان من أسباب نشأة الجمعيات القومية العربية، وقد صرح أعضاء الجمعيات القومية العربية بهذا التأثر. وأن فكرة الانفصال عن الدولة العثمانية كانت بسبب ما حدث في العالم الأوربي من صراعات ومنازعات دينية وسياسية في ظل الحكم الإقطاعي وتسيطر عليه قوميات عديدة، نتج عن هذه الصراعات حركة قومية تستهدف التخلص من السيطرة الإمبراطورية وتحقيق الذات لكل قومية.

إن هذه النتيجة التي ظهرت في البلاد الأوربية سرت إلى الشرق بقضايا قومية مختلفة تركية وكردية وبلغارية.. وعربية، وكانت تعيش هذه القوميات في نطاق الإمبراطورية التركية العثمانية، ولتأثر الشرق بما حدث في العالم الأوربي فقد سعت هذه القوميات

(١) مختارات قومية، محمد عزة دروزة، ٦٦٣ - ٦٦٤.

(٢) إيضاحات عن المسائل السياسية التي جرى تدقيقها بديوان الحرب العرفي المتشكل بعاليه، ٤٤، ٦٢.

(٣) مذكراتي على هامش القضية العربية، أسعد داغر، ٣٦.

للتخلص من سيطرة هذه الإمبراطورية وتحقيق ذاتها وسلطانها[1].

وقال عبدالحميد الزهراوي - رئيس المؤتمر العربي الأول المنعقد في باريس -: (جئنا أوربا ونريد أن يجيئها كثيرون منا لتكبر عقولنا وهممنا برؤية آثار العقول والهمم، جئنا أوربا ليزداد علمنا في حضارتها وأساليب اجتماعها الراقي.. إن أوربا ليست هي الغول، وإنما الغول سوء الإدارة وفساد السياسة[2]).

فكانت هذه مواقف بعض أعضاء الجمعيات القومية العربية من البلاد المستعمرة، وتحت شعار الحرية والعدل ومناصرة المظلومين، تقدم بعض أعضاء الجمعيات القومية العربية بطلب الحماية من البلاد الاستعمارية. حيث كاتب الأعضاء النصارى في جمعية بيروت الإصلاحية فرنسا طالبين منها الحماية، حيث إن نصارى سورية مرتبطون بفرنسا ارتباطاً نهائياً وهم لا يمكنهم إلى الأبد أن ينسوا ما يدينون به من إكبار لعظمتها وحضارتها، ومن اعتراف لعطفها عليهم أيام الشدائد. إن [الأمنية الكبرى] لمسيحيي سورية هي بسط الحماية الفرنسية على سورية..، وإما الحكم الذاتي لولاية بيروت تحت حماية فرنسا ورقابتها الفعليتين..)[3].

وتناول الكواكبي حكم الكافر لبلاد المسلمين، وذلك ضمن قضية المساواة بين حكم الكافر العادل وبين حكم الظالم المسلم، وقرر أنه يحكم عليهم بالشرع والعقل بأن ملوك الأجانب أفضل منهم - أي من الأتراك - وأولى بحكم المسلمين، لأنهم أقرب للعدل ولإقامة المصالح العامة، وأقدر على إعمار البلاد وترقية العباد[4].

---

(١) نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ٩ - ١٠ (بتصرف).

(٢) المؤتمر العربي الأول في باريس، ٣٨.

(٣) بلاد الشام، وجيه كوثراني، ٢٧٢. وانظر: المارونية في لبنان قديماً وحديثاً، ٣٦٨.

(٤) أم القرى، الكواكبي، ٣٧.

وسعياً لطلب الحماية فقد انتدب أعضاء الجمعيات القومية العربية كامل القصاب[1] - عضو جمعية الفتاة - للسفر إلى مصر من أجل إبلاغ أعضاء الحركة العربية في مصر أن أعضاء الجمعيات القومية العربية لا يرضون بما دون الاستقلال التام لبلاد العرب[2] وذلك أثناء تهيُّؤ الدولة العثمانية للدخول في الحرب الأولى.

وأما عن قبول المستعمر في البلاد العربية، بحجة الاستشارة، ففي المؤتمر العربي الأول - الذي يعتبر أكبر تمثيل عربي لأعضاء الجمعيات القومية العربية - استعرض المؤتمرون موضوع الاستعانة بالأجانب، فمما جاء فيه: لا نكون ناجحين بأي طريقة من طرق الإدارة إلا إذا استعنا في تنفيذها بمعارف الاختصاصيين من الأجانب يوم يكونون مستشارين لنا. وأن الاستعانة بمعارف الأجانب الاختصاصيين ليس فيها ما يخشى منه على جامعتنا السورية.

واعتبر الأعضاء أن الاستعانة بالأجانب لا يتناقض مع الحكم اللامركزي، إذ ليس في النظام اللامركزي ما يمنع الاستعانة لا بالقريب ولا بالبعيد، بل هو قائم على أساس الحاجة الداخلية لكل ولاية من الولايات..، فإن برنامج حزب اللامركزية نص على أن اختيار موظفي كل ولاية من حقوق مجلس إدارة تلك الولاية.. فهو مطلق الإرادة في أمر الموظفين وفي كل الأمور الداخلية للولاية[3].

ومن خلال هذه المحاور الثلاثة، أبرز أعضاء الجمعيات القومية العربية تحقيق هدفهم: استقلال البلاد العربية عن الدولة العثمانية.

---

(١) انظر الترجمة رقم (٦٢).
(٢) أسرار الثورة العربية الكبرى، أمين سعيد، ٣٨.
(٣) المؤتمر العربي الأول، ١٠٥.

» الهدف الثاني: قيام خلافة عربية بدلاً عن الدولة العثمانية:

تبنت الجمعيات القومية العربية - من منطلق المبدأ القومي - قيام (خلافة) عربية، وسعى أعضاء الجمعيات القومية العربية لتحقيق هذا الهدف، وخاصة بعد تزعزع الوفاق بين العرب من جهةٍ أعضاء الجمعيات القومية، وبين الترك من جهةٍ جمعية الاتحاد والترقي.

ولتحقيق هذا الهدف - بعد إسقاط السلطان عبدالحميد خاصة - اتخذ أعضاء الجمعيات القومية العربية بعضَ الوسائل لتبرير تحقيق هذا الهدف، ومنها:

١) اشتراط القرشية في تولي الإمامة العظمى:

لا شك أن من شروط تولي الإمامة العظمى أن يكون قرشياً، كما ثبت في السنة الصحيحة، ولكن استغل بعض أعضاء الجمعيات القومية هذا الأمر من مبدأ قومي، كما استغلت كثير من المبادئ الشرعية كالوحدة ومناصرة المظلوم والولاء.. إلخ.. المبادئ القومية.

ولذا قرر أعضاء الجمعيات القومية العربية أن العرب هم أولى بالخلافة، وأكدوا أن الإجماع على اشتراط القرشية ثبت بالنقل والفعل ورواهُ ثِقاةُ المحدثين، واستدل به المتكلمون وفقهاء مذاهب السنة كلهم، وجرى عليه العمل بتسليم الأنصار وإذعانهم لبني قريش، ثم إذعان السواد الأعظم من الأمة عدة قرون[(١)].

لقد شكك أعضاء الجمعيات القومية في صحة اعتبار السلاطين العثمانيين، خلفاء للمسلمين، كما ذكر ذلك ساطع الحصري، لفقدان شرط (النسب القرشي) في سلاطين

---

(١) الخلافة، رشيد رضا، ١٩، مطبعة المنار، سنة ١٣١٤هـ. وانظر: الهاشميون والثورة العربية الكبرى، ٢٥.

آل عثمان.. وعلى هذا سلاطين آل عثمان ليسوا خلفاء شرعيين، وأن الخلافة الإسلامية من حق العرب، فيجب أن تعود إلى العرب[(١)].

وبيّن أعضاء الجمعيات القومية العربية أن حكام الدولة العثمانية قد سطوا على لقب الخلافة، وأن الأتراك الأغراب القادمين من بلاد التتر أصبحوا خلفاء للنبي العربي القرشي محمد[(٢)]. واعتبرت الجمعيات القومية العربية تسمية حكام الدولة العثمانية بالخلفاء، كان لمطامح سياسية، وذلك من جانبين:

الجانب الأول: لقد كان اهتمام السلاطين العثمانيين بلقب الخلافة لمداها العظيم في العهود الأخيرة خاصةً، التي تكالب فيها ملوك أوربا النصارى على الدولة، حيث كانوا يذهبون إلى أن ذلك يجعل دولتهم ذات مكانة وأهمية عند جميع المسلمين، وبالتالي يجعل هؤلاء الملوك يترددون كثيراً في الإقدام على تحقيق مطامعهم في بلاد الدولة[(٣)].

الجانب الثاني: إن اعتقاد المسلمين بالخلافة العثمانية، قوى نفوذ الدولة العثمانية وسهل حكمها تسهيلاً كبيراً.. وساعد كثيراً على استسلام العرب للحكم العثماني، وأخر كثيراً نشوءَ فكرة القومية في البلاد العربية[(٤)]. وأدى في الوقت نفسه إلى تخدير شعور المسلمين العرب واستنامة جمهورهم إلى الحكم العثماني[(٥)].

لقد أصبح لقب (الخلافة) كما يقول أعضاء الجمعيات القومية العربية، ذا أثر عظيم في جماهير المسلمين في بلاد الدولة وخارجها حتى صار هؤلاء خاصة يعتبرون أنفسهم

(١) محاضرات في نشوء الفكرة القومية، ساطع الحصري، ١٢٢، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٥م.

(٢) الفكر العربي في عصر النهضة، ألبرت حوران، ٣١٨.

(٣) نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ١٨٧.

(٤) ما هي القومية؟ ساطع الحصري، ٢٠٣.

(٥) نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ١٨٧.

مرتبطين بالخلافة العثمانية، ويتحمسون لها، ويفرحون لما تصيبه من نجاح، ويحزنون مما يلم بها من ملمات. وكان ذلك من أسباب ما لقيته الحركة العربية والثورة العربية من تجهم في أوساط وجماهير المسلمين في بلاد الدولة وخارجها[١].

وقبل وقوع الخلاف بين العرب والترك كانت مبادئ (جمعية) الكواكبي، قد قررت:... أن يكون الخليفة، خليفة المسلمين، عربياً قرشياً مستجمعاً للشرائط في مكة)[٢]. وقد قال بعض أعضاء الجمعيات القومية العربية: لقد كان في مطاوي الحركة العربية القومية قبل الدستور أفكار عديدة منها الدعوة إلى خلافة عربية. ومنها الدعوة إلى انفصال البلاد العربية عن الدولة العثمانية واستقلالها[٣].

ويقول محمد عزة دروزة: حينما اشتد الخلاف بين أعضاء الجمعيات القومية العربية والترك، طمحوا إلى إعادة مجدهم القومي في ظل سلطان عربي وراية عربية[٤].

ويعتبر أعضاء الجمعيات القومية العربية انفراد جمعية الاتحاد والترقي بالسلطة، وتسلطها الظالم على العرب خاصة ظلماً، وأن هذا الظلم جرح قلوب العرب جرحاً أليماً. فزادت كراهتهم للأتراك، وأصبحوا يتمنون زوال حكمهم ودولتهم..، وأن العرب أحق منهم بالملك والخلافة والاستقلال[٥].

وقد استعرض أعضاء الجمعيات القومية العربية حكم الدولة العثمانية لبلاد اليمن، وبينوا أن الدولة العثمانية وأهل اليمن في عراك مستمر، وقتال دائم مع الدولة، لأسباب،

---

(١) المصدر نفسه، ١٨٢.

(٢) أم القرى، الكواكبي، ٢٣٤.

(٣) نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ٢٨٩.

(٤) المصدر نفسه، ١٨٧.

(٥) مختارات قومية، محمد عزة دروزة، ٢٠٨.

من أهمها: أن الإمامة واجبة عندهم (الزيدية)[١] كوجوبها عند سائر المسلمين، إلا أنها متعينة في آل البيت[٢][٣].

وانتصاراً للمبدأ القومي فقد اعتبر أعضاء الجمعيات القومية العربية إقامة حكم عربي زيدي في اليمن، من ملامح اليقظة أو الحركة العربية الحديثة[٤].

ولتحقيق مطلب إقامة خلافة عربية ناصر أعضاء الجمعيات القومية العربية ثورةَ الحسين بن علي بعد أن تم التنسيق بين أعضاء الجمعيات القومية العربية وبين فيصل ابن الحسين في مسألة تحديد نفوذ البلاد العربية[٥]، ويعتَبِرُ أعضاءُ الجمعيات القومية العربية مناصرةَ الإنجليزِ للثورة العربية بسبب مكانة الشريف الفريدة التي لا تعادلها مكانة شخص آخر في العالم الإسلامي، تلك المكانة التي تستمد قوتها من نسبه.. فهو

---

(١) الزيدية: هي إحدى فرق الشيعة، وهم أتباع زيد بن علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم. ساقوا الإمامة في أولاد فاطمة رضي الله عنها، ولم يجوزوا ثبوت الإمامة في غيرهم، إلا أنهم جوزوا أن يكون كل فاطمي عالم شجاع سخي إماماً. وقد تبنت الزيدية المنهج الإعتزالي في مسائل الأصول. انظر:

١. مقالات الإسلاميين، أبو الحسن الأشعري، ١/ ١٢٩، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الأولى.
٢. موسوعة الملل والنحل، الشهرستاني، ٦٦، مؤسسة ناصر للثقافة، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨١م.
٣. رسائل العدل والتوحيد، يحيى بن الحسين، ٢/ ٦٨، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
٤. الفرق بين الفرق، عبدالقاهر البغدادي، ٢٢، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

(٢) عن موقف الزيدية من الإمامة انظر:

١. رسائل العدل والتوحيد، يحيى بن الحسين، ٢/ ٦٨.
٢. مقالات الإسلاميين، أبو الحسن الأشعري، ١/ ١٣٣.
٣. أصول الدين، عبدالقاهر البغدادي، ٢٧٨.
٤. منهاج السنة النبوية، ابن تيمية، ١/ ٣٥ و ٧٠.

(٣) مؤلفات رفيق العظم، ١٤٥. وانظر: مختارات قومية، محمد عزة دروزة، ٦٣٩ - ٦٤٠.

(٤) نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ٧٠.

(٥) انظر: يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ٢٤٣.

حفيد النبي القيم على الأماكن المقدسة[1]. فكانت ثورة العرب بقيادة الحسين بن علي ضد الدولة العثمانية.

وقد صرح الحسين بن علي عن الهدف من ثورته حين قال: (إن القصد الأساسي من النهضة هو وحدة العرب واستقلالهم ببلادهم المعروفة مع رعاية كافة حقوق أبنائها بلا تفريق بين نحلهم ومللهم وحقوق كافة العالم[2].

ويؤكد أعضاء الجمعيات القومية العربية على دور الجمعيات القومية العربية، في ثورة الشريف حسين، حيث قالوا: يخطئ من يظن أن الثورة العربية قامت على أكتاف الحسين بن علي الهاشمي وآله وحدهم، فالحقيقة أن تلك الثورة كانت ثورة الشعوب العربية التابعة للدولة العثمانية[3].

وفيما بعد أشار فيصل إلى تأثير أعضاء الجمعيات في إعلان الثورة، في خطاب ألقاه في دمشق يوم ٥ أيار ١٩١٩م (١٣٣٧هـ) بقوله: [ولا شك أن المسؤول في الحركة الثورية العربية هو أولاً والدي، ثم الحجازيون الذين قاموا بها فعلاً، أمّا السوريون فإنهم مسؤولون عنها معنىً لأنهم شوقوا الحجازيين لهذه الحركة، لهذا قام والدي بالحركة بعد أن أتيت إلى سورية وقابلت بعض الرجال])[4].

٢) تقرير مبدأ استعمار الدولة العثمانية للبلاد العربية:

يعتبر أعضاء الجمعيات القومية العربية أن البلاد العربية قد خضعت لحكم استعمار في ظل الدولة العثمانية، فيقول أعضاء الجمعيات القومية: استولت الدولة العثمانية على

---

(١) المصدر نفسه، ٢٢١.

(٢) القبلة، السنة الثامنة، العدد ٧٣٧، بتاريخ ٦/ ٤/ ١٣٤٢هـ.

(٣) القومية العربية، مصطفى الشهابي، ١١٤.

(٤) الحركة العربية، سليمان موسى، ١٣٣ وانظر: الثورة العربية الكبرى، أمين سعيد ٢/ ٢٦، ٢٧.

معظم البلاد العربية، خلال القرن السادس عشر في مدة لا تتجاوز الأربعين عاماً.. وبعد ذلك أخذ العثمانيون يتغلغلون غرباً وشرقاً وجنوباً، ويستولون على البلاد العربية، الواحدة بعد الأخرى.. ومما يلاحظ أن استيلاء العثمانيين على البلاد العربية، إنما حدث عندما قاربت دولتهم ذروة مجدها[١].

كما أن إجماع الجمعيات القومية العربية، على أن أهم أهدافها مبدأ (استقلال البلاد العربية)، سواء أكان داخلياً أم استقلالاً انفصالياً تاماً، بجميع معانيه الحقوقية والسياسية، دليل على أن الجمعيات القومية العربية، تعتبر الدولة العثمانية مُسْتَعِمرةً البلادَ العربيةَ.

» **الهدف الثالث: فصل السلطة الدينية عن السلطة السياسية:**

لقد سبق بيان تأثر بعض أعضاء الجمعيات القومية العربية، بمبادئ الثورة الفرنسية، والتي من أبرز مبادئها (فصل الدين عن الدنيا).

ويُعتبر الكواكبي أول من دعا إلى هذا الهدف من القوميين العرب، وذلك من خلال جمعية أم القرى، حيث يقول: لقد كان من مبادئ جمعية أم القرى، كما في القضية (١٤): لا تداخل في الشؤون السياسية مطلقاً فيما عدا إرشادات أو إخطارات بمسائل أصول التعليم وتعميمه[٢]، حسبما تقتضيه الأخوة الدينية، بدون التعرض للأحوال السياسية قطعياً[٣].

وعن مهام الإمام الأعظم عند الكواكبي: أن يكون عضداً عظيماً في الأمر، أما إذا أراد أن يكون هو القائم به فلا يتم قطعياً، لأن الدين شيء والملك شيء آخر، والسلطان غير الدولة[٤].

---

(١) البلاد العربية والدولة العثمانية، ساطع الحصري، ٧ - ٩.
(٢) أم القرى، الكواكبي، ١٩٩.
(٣) المصدر نفسه، ٢٠٩.
(٤) المصدر نفسه، ٢٢٧ - ٢٢٨.

وبعد فصل السلطة السياسية عن الدين، أصّل الكواكبي قواعد ومهام الخلافة، في نظر الجمعية، فقال: في فقرة (١٢): الخليفة لا يتداخل في شيء من الشؤون السياسية والإدارية في السلطنات والإمارات قطعياً.

وقال في فقرة (١٤): الخليفة لا يكون تحت أمره قوة عسكرية مطلقاً، ويذكر اسمه في الخطبة قبل أسماء السلاطين..[١].

ولمثل هذا المبدأ دَعَتِ الجمعياتُ القومية العربية، حيث قررت أن تؤلف ولايةُ الحجاز الحالية مع منطقةِ المدينة المنورة إمبراطوريةً مستقلة يكون حاكمها في الوقت نفسه الخليفة الديني لجميع المسلمين.

وظنوا بهذا الفصل أنهم قد وجدوا - كما قالوا - حلاً لصعوبة كبيرة بفصل السلطة المدنية عن السلطة الدينية في الإسلام من أجل خير الجميع الأكبر)[٢].

وكما حُصِرتْ مهام الخليفة كذلك حُدِّدَ مكانُ إقامته، بأنه سيكون لهذه الخلافةِ الدينيةِ دولةٌ سياسية مستقلة تماماً، تشمل ولاية الحجاز الحالية ومنطقة المدينة المنورة حتى العقبة، ويتمتع الخليفة الديني باحترام الملك، ويملك سلطة روحية فعلية على كافة مسلمي الأرض..، إن خليفة نبي الله يجب أن يتمتع بنفوذ أو هيبة روحية بلا منازع، ويجب أن يبقى محترماً لا ينتقد طوال حياته، ولا يرتقى إلى سلطته، ويجب أن تبقى عظمته مستقلة.

هكذا تكون سلطته شاملة، ويحكم من مقره - حكما روحياً - جميع مسلمي العالم الذين يخفون إلى مقامات محمد المقدسة لتأدية (فريضة) الحج[٣].

---

(١) المصدر نفسه، ٢٣٠.

(٢) يقظة الأمة العربية، ٣٧، نجيب عازوري.

(٣) يقظة الأمة العربية، ٢٢٠، نجيب عازوري.

وانطلاقاً من هذا الهدف القومي أَيّد أعضاء الجمعيات القومية العربية، الكتابات التي نادت بفصل الدين عن الدولة، فقد قالوا عن كتابات علي عبدالرازق[١]: إن أحسن المؤلفات التي عالجت مسألة الخلافة معالجة علمية رزينة، هو كتاب (الإسلام وأصول الحكم).

ومما أيدوه فيه: قول علي عبدالرازق:إن الدين الإسلامي بريء من تلك الخلافة التي يتعارف عليها المسلمون. وبريء من كل ما هيؤوا حولها من رغبة ورهبة، ومن عزة وقوة، والخلافة ليست في شيء من الخطط الدينية، ولا القضاء ولا غيرهما من وظائف الحكم ومراكز الدولة، وإنما تلك كلها خطط سياسية صرفة لا شأن للدين بها، فهو لم يعرفها ولم ينكرها، لا أمر بها ولا نهى لنا، لنرجع فيها إلى أحكام العقل وتجارب الأمم، وقواعد السياسة[٢].

إن رأي عبدالرازق في فصل السلطة الدينية عن السلطة السياسية يتفق مع رأي أعضاء الجمعيات القومية العربية، حينما قالوا: لقد أصبح من الأمور المسلمة لدى جميع الدول، أن السياسة شيء والديانة شيء آخر، فلا يمكن إقامة السياسة على الديانة، بصورة من الصور[٣].

كما اعتبرت الجمعيات القومية العربية، أن تحكيم الدين في أمور الدنيا صورة من صور خلط الدين بالدنيا، وفيه انحطاط بشأن السماويات بمزجها في الأرضيات. وبهذا نجعل للاعتقادات دخلاً في الأعمال، فتؤثر اختلافاتنا الدينية في أعمالنا العالمية، فينشأ

---

(١) انظر الترجمة رقم (٥٠).

(٢) الإسلام وأصول الحكم، علي عبدالرازق، ١٠٣.

(٣) ما هي القومية؟ ساطع الحصري، ١٩٨ - ١٩٩.

عنها ذلك الشقاق الذي طالما دمّر الأمم وأتى بالحروب والويلات[١].

فالواجب تنزيهاً لمقام الدين كما تعتقده الجمعيات القومية العربية أن يضعوا أديانهم جانباً في مكان مقدس محترم، ليتمكنوا من الاتحاد اتحاداً حقيقياً ومجاراة تيار التمدن الأوربي الجديد لمزاحمة أهله، وإلا جرفهم جميعاً وجعلهم مسخرين لغيرهم[٢].

وقرر أعضاء الجمعيات القومية العربية، أن الحكم الديني والحكم الاستبدادي ليسا فاسدين فحسب، بل هما غير صحيحين، فالحكم الديني يرفع بعض الناس فوق سواهم، ويستخدم السلطة لمنع نمو العقل البشري نمواً صحيحاً... والأمم تقوى بمقدار ما يعف الدين، فهذه أوربا فهي لم تصبح قوية ومتمدنة فعلاً إلا عندما حطم الإصلاح (إصلاح لوثر) والثورة الفرنسية سلطة الإكليروس - سلطة رجال الكنسية - على المجتمع، وهذا يصح أيضاً على المجتمعات الإسلامية[٣].

ومن هذا المنطلق القومي العلماني، أصبحت عبارة: (الدين لله والوطن للجميع) تنادي بها الجمعيات القومية العربية، وقد استفتح بها فيصل بن الحسين الحكومة العربية الأولى قائلاً: (الدين لله والوطن للجميع، نحن عرب قبل موسى وعيسى ومحمد، إن محمداً لعربي قبل أن يكون مسلماً)[٤].

ووقف بعض شعراء الجمعيات القومية العربية، أمام الملك فيصل بن الحسين خلال حكمه في سورية، قائلاً:

---

(١) سلسلة الأعمال الكاملة، سليم البستاني، ١٢٢.

(٢) الفكر العربي في عصر النهضة، ألبرت حوراني، ٣٠٤.

(٣) المصدر السابق نفسه، ٢٩٩ - ٣٠٢.

(٤) الشعر والوطنية في لبنان والبلاد العربية، وليم الخازن، ٨٠.

فـابـدأ بفصلِ الـديـنِ عـن شَرعِ الـوَرَى
تُـبِـعَ الإمـــامُ إذا يسـيرُ أَمـــامُ[1].

» **الهدف الرابع: تحكيم الدستور:**

سارت الدولة العثمانية انطلاقاً من مبدأ تنظيم السلطة والإصلاح، إلى وضع دستور للبلاد يكون مرجعاً للحكم والتحاكم، ويرى أعضاء الجمعيات القومية العربية، أن إنقاذ الدولة العثمانية من ضعفها لا يتم إلا بنقلها من الحكم الاستبدادي إلى الدستوري، واقتفاء آثار أصحاب التمدن بنشر العلم والتسوية بين أصناف الرعية..[2].

وقبل الحديث عن هذا الهدف لدى الجمعيات القومية العربية، أنبّه إلى أن الدستور العثماني يعود تأسيسه إلى مدحت باشا، الذي يسمى بـ(أبي الدستور)[3]، ويعده أعضاء الجمعيات القومية العربية، ممن كان له أعظم الأثر في تأسيس الجمعيات القومية وخاصة بعد أن أصبح والياً على دمشق[4]. كما أسس الجمعيات الماسونية كجمعية زهرة الإحسان، وهي إحدى الجمعيات الماسونية[5].

كما وصف أعضاء الجمعيات القومية العربية مدحت باشا بأنه نابهة من نبهاء الدولة الأتراك، وزعيم من زعماء الفكر..، وأنشأ منشآت عديدة عمرانية وعلمية، ولمس مقدار الحاجة إلى إصلاحات جذرية في الدولة، ثم تولى رئاسة الوزراء فبذل جهده في تحقيق

---

(١) المصدر السابق نفسه - ٣٢٧. قائل القصيدة: محبوب الخوري الشرتوني. وهو من نصارى العرب.

(٢) مجلة الهلال، ٦/ ٩/ ١٣٢٦هـ (١ أكتوبر/ ١٩٠٨م)، الجزء الأول من السنة (١٦).

(٣) نشوء القومية العربية، زين نور الدين زين، ٣٧.

(٤) الحلقة المفقودة في تاريخ العرب، محمد جميل بيهم، ١/ ٢٠٦، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٦٩هـ.

(٥) مدحت باشا أبو الدستور وخالع السلاطين، قدري قلعجي، ٧٥.

ذلك..، وأصدر الدستور الذي تضمن كثيراً من الأسس والقواعد والحقوق المطلوبة[١].

وبعد تنقل مدحت باشا سائحاً لمدة ستة أشهر في أوربا يتفقد أحوال دولها ويدرس نظام بعض الإدارات الأوربية[٢]؛ قدم للدولة العثمانية دستوراً[٣] تسير عليه، وقال عن الدستور: إن الدستور سراج منير، سيرشدنا ويهدينا إلى الكمال الحقيقي. وبهدي هذا السراج انتقلت دول أوروبا من ظلمة الجهل إلى عالم النور. وبفضل المجالس النيابية أصبحت هذه الدول مثلاً جميلاً وقدوة حسنة تستفيد منها الأمم، ويقتدى بها العالم، دولاً يعرف كل فرد من أفرادها ما له من الحقوق، وما عليه من الواجبات[٤].

ويعتبر الدستور عند أعضاء الجمعيات القومية العربية من ثمار التمدن الحديث. وأهم ما يمتاز به أنه مبني على إرادة الأمة، أو هو خلاصة إرادتها وأساسه الإنابة؛ أي تنتخب الأمة من ينوب عنها في سن القوانين ومراقبة سير الحكومة..، والفضل الأكبر - كما يقول أعضاء الجمعيات القومية العربية - في إنشاء الحكم الدستوري على هذه القواعد للإنكليز..، وكل ما عند الأمم الأخرى من الأحكام الدستورية مبني على الأساس الذي وضعه الإنكليز، وكان تاريخهم قدوة الحكومات الدستورية في أثناء هذا التمدن[٥].

---

(١) نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ١٦٧.

(٢) مجلة الهلال، الجزء الرابع من السنة السابعة عشرة، (٨/ ٩/ ١٣٢٦هـ، ١/ يناير/ ١٩٠٩م) بعنوان: (مدحت باشا أبو الأحرار) ص:١٩٥.

(٣) انظر عن نصوص الدستور:

١. مجلة الهلال، ، الجزء الأول من السنة السابعة عشرة، (٦/ ٩/ ١٣٢٦هـ، ١ أكتوبر/ ١٩٠٨م).
٢. البلاد العربية والدولة العثمانية، ساطع الحصري، ١٥٥.
٣. العرب والترك في العهد الدستوري العثماني، توفيق برو، ٥٠١.
٤. نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ٢١٦.

(٤) مدحت باشا أبو الدستور العثماني وخالع السلاطين، قدري قلعجي، ٥٦.

(٥) مجلة الهلال، الجزء الأول من السنة (١٧)، (٦/ ٩/ ١٣٢٦هـ، ١ أكتوبر/ ١٩٠٨م) بعنوان ص: ٤٣.

ومن أبرز معالم الدستور علمنة الدولة العثمانية، وإقصاء شريعة الرحمن، وتبني النظام الدستوري الغربي في الحكم، ذلك النظام الذي يقول مدحت باشا فيه: (إنه العامل الأول في تقدم الشعوب ورقيها)، ويضيف قائلاً: (ولأن تركيا تعتبر في مصاف الدول العظمى، عليها، إذا أرادت أن تحتفظ بهذه المكانة، وإذا رغبت في مواكبة سائر الدول على قدم المساواة في مضمار التقدم العلمي، أن تتبع الأنظمة ذاتها التي تتبعها الدول العظيمة)[1].

ولذا لما أُقر الدستور في الدولة العثمانية؛ عرض مدحت باشا على الحكومة تعيين بعض الولاة من المسيحيين عملاً بالمساواة، وأصبحت مصالح الأمة في الدولة العثمانية، تدار على مختلف المذاهب فكان فيهم المسلم، والمسيحي على اختلاف الطوائف، واليهودي والدرزي والنصيري.. وغيرهم[2].

وتناولت صحف نصارى العرب قضية تجنيد غير المسلمين، ذاكرين أن هذا الحدث هو جراء تطبيق الدستور، فكان مما قالوا: كل الذين تجندوا من المسيحيين يشكرون نعمة الدستور، ويعدون أمر التجنيد أكبر بركة لهم، ولم يروا من إخوانهم المسلمين إلا كل ولاء ومحبة[3].

وقد قال شيخ الإسلام في عصره عن هذا المنهج في إدارة شؤون الأمة:.. لا أمير للمؤمنين بعد نزع الأمر منه، وما آراء المسلمين إلا بآراء شرذمة أكثرهم لا يؤمنون بالله ورسوله، وهل تدري كيف انعقد مجلسهم بأنقرة، وكيف انتخبتهم الأمة، ولا تدري بهم الأناضول التي هي محيطهم الأدنى[4].

---

(١) نشوء القومية العربية، زين نور الدين زين، ١٨٦.
(٢) مجلة الهلال، الجزء الأول من السنة (١٧)، (٦/ ٩/ ١٣٢٦هـ، ١ أكتوبر/ ١٩٠٨م) ص٩ - ١٠.
(٣) مجلة الإخاء، مدير التحرير: جبران مسوح، عدد ٣٠، بتاريخ ٢٣/ أيلول ١٩١٠م، السنة الأولى
(٤) النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة، مصطفى صبري، ٢٦.

هذا تعريف موجز عن الدستور والهدف من تطبيقه، وأما عن مساعي الجمعيات القومية العربية في تحقيق تطبيق الدستور، فأكثر من أن تعد أو تحصر، وقد أطلق أعضاء الجمعيات القومية العربية على مدحت باشا ومن ناصره في إعداد الدستور، في منزلة شهداء الحرية، وكانت أجسادهم الطاهرة أول دفينة من دفائن الحرية واراها السلطان السابق[١].

وعرّف أعضاءُ الجمعيات القومية العربية الدستورَ وهدفَهَ، بمعنى تعريفِ وهدفِ مؤسسيه، حيث قال أعضاء الجمعيات القومية العربية: من طبيعة الدستور ربط أواصر الأخوة العامة بين الأمة، لأنه عبارة عن نزع السلطة من الأفراد، ووضعها بين يدي الجماعات، وأية جامعة تجمع بين عناصر الأمة على اختلاف المشارب والمذاهب والآراء، وتجعلها في مستوى واحد بالحقوق والواجبات أقوى من حكم الأمة نفسها لنفسها، وأية رابطة تربط العناصر العثمانية أعظم من هذه الرابطة[٢].

واعتبرت الجمعيات القومية العربية إعلانَ الدستور في الدولة العثمانية رحمة بهذه الدولة، وإنقاذاً لها..، وإن يوم (٢٣ يوليو) الذي نودي فيه بالحكومة الدستورية ومحو السلطة الاستبدادية في المملكة العثمانية، كان يوماً سعيداً على هذه الأمة، لم يشهد مثله العثمانيون إلا اليوم الذي افتتح فيه السلطان محمد مدينة القسطنطينية، ويصف مؤسس حزب اللامركزية، حال البلاد العربية بعد إعلان الدستور، قائلاً: ولم أر في سورية شاعراً أو خطيباً إلا وهو ينادي باسم الاتحاد، ويدعو إلى معاضدة الأحرار وتأييد الدستور بالنفس والمال، والناس كلهم صاغون منصتون... وهكذا كانت الحال في سائر البلاد العربية..[٣].

---

(١) مؤلفات رفيق العظم، الجامعة العثمانية، ١٢٠.

(٢) المصدر السابق نفسه، ١٢٥.

(٣) المصدر السابق نفسه، ١٢٣ و ١٢٩.

ويعدّ أعضاء الجمعيات القومية العربية أنّ من آثار إعلان الدستور انبثاقَ روح الوئام بين النصارى والمسلمين في بلاد الشام، وتكرَّرَ مشهد تعانق بعض المشايخ والقسس والرهبان في بعض التجمعات.. وقال أحد نصارى بيروت:

تعانق الشيخ والقسيس واصطحبا

من بعد ما افترقا ضدين واختصما

تآخيا في حمى الدستور واتحدا

ورفرفت راية التوحيد فوقهما[1].

وحينما وقع الخلاف بين الترك والعرب، وذلك بظهور الدعوة إلى القوميات، وانفراد جمعية الاتحاد والترقي بسياسة الدولة العثمانية[2]، يقول مؤسس الحزب اللامركزي: في إبان هذا السرور وفي مبدأ تلك النهضة الآخذة بنفوس العثمانيين إلى مرتقى السعادة والوفاق والحب، بدأ الاتحاديون باضطهاد العرب قبل كل الشعوب..، ذلك أن العثمانيين هبوا بعد إعلان الدستور.. بتأليف الجمعيات وفتح المنتديات.. حيث قامت بهذا العمل كل أبناء العناصر الموجودة، فألف الأرناؤوط جمعية وافتتحوا منتدى، والشركس مثل ذلك، ثم الأكراد والروم والأرمن وغيرهم والعرب كذلك، فإنهم ألفوا جمعية سموها جمعية (الإخاء العربي العثماني) وافتتحوا منتدىً[3] بهذا الاسم أيضاً.

فما نوهض قوم من أولئك الأقوام بهذا العمل الجليل - كما يسميه - إلا العرب،

---

(١) نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ٢٧٨.

(٢) انظر:

١. نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ٢٩٦.

٢. القومية العربية، مصطفى الشهابي، ٦٣.

(٣) انظر: الباب الأول، الفصل الأول، التعريف بالجمعيات القومية العربية، ص: (٦٢) من الرسالة.

وما زالوا يناهضون ويضارّون حتى حلوا هذه الجمعية وأقفلوا ذلك المنتدى وغيره قائم. فكانت هذه أول بادرة من بوادر سوء الظن صدرت من الاتحاديين فسرت إلى العرب أيضاً، وأخذ هذا الخطب يتفاقم إلى اليوم[1].

وحينما بلغت هذه الحال مبلغها، تأكدت المطالبة بتنفيذ أحكام الدستور من قبل الجمعيات القومية العربية، وأصبح هدفاً بارزاً من أهدافها، بحجة أن فيه ضماناً لحقوقهم، فقد قال أعضاء الجمعيات القومية: إذا كانت أحكام الدستور مطبقة اليوم عند الحكومة الجديدة (الاتحاد والترقي) تطبيقاً صحيحاً على مبادئ الحرية والمساواة، وسلطة الأمة هي الحاكمة على الضمائر المحققة بطبيعتها لمعنى التعاون والإخاء، فما هي الحاجة لدعوة العناصر كل يوم إلى الاتحاد والوئام والصلح والسلام. والحقيقة التي لا ريب فيها أن الاتحاديين قد انفصلوا عن الأمة انفصالاً لا يرضاه لهم صديق للحرية، فأصبحوا في شِقٍّ والأمة في شقّ آخر منذ تظاهروا بالنعرة الجنسية، وأعلنوا ما كانوا يضمرونه من الاستمساك بمبدأ سيادة التركي على العناصر العثمانية كلها، فنبهوا بذلك العصب الحساس من الشعوب العثمانية..[2].

وبيّن أعضاء الجمعيات القومية العربية أن للعرب حقاً في السلطنة، ولكن لا يرغبون المطالبة فيه ما دام الدستور جارياً على معنى الدستور[3]، لأن الحكم الدستوري، كما يقول أعضاء الجمعيات القومية العربية، يقتضي أن تكون الأمة هي صاحبة النهي والأمر في شؤونها، وأن تكون الهيئة الحاكمة وكيلة عن الأمة في إدارة تلك الشؤون..، ولأن الحكم الدستوري يقتضي اشتراك أبناء الأمة جميعاً في كل حق وفي كل واجب[4].

---

(١) مؤلفات رفيق العظم، الجامعة العثمانية، ١٢٩، ١٣٠.

(٢) المصدر السابق نفسه، ١٢٥.

(٣) المؤتمر العربي الأول، خطبة عبدالغني العريسي، ٤٤.

(٤) المصدر السابق نفسه، خطبة إسكندر عمون، ١٠٠.

المبحث الثاني

» الهدف الأول: الولاء القومي مقدم على الولاء الديني:

سبق بيان دور وتأثير نصارى العرب في تأسيس الجمعيات القومية، ولما لهم من تأثير فقد أصبح من أهداف الجمعيات القومية العربية، أن الولاء للقومية العربية عند أعضاء الجمعيات مقدمٌ على ولائه لغير العرب من المسلمين.

والانقلاب العثماني دليل على هذا، حيث اتفق أعضاء الجمعيات القومية العربية، في مختلف عقائدهم ومذاهبهم للقضاء على الدولة العثمانية. وقررت مبادئ الجمعيات القومية تقسيم أعضاء الجمعيات القومية إلى أخوة لغة وأخوة دين، كما قال نائب رئيس المؤتمر العربي الأول وهو نصراني في كلمته خلال انعقاد المؤتمر العربي: أنتم يا مسلمي سوريا إخواننا في اللغة والجنسية والوطنية، وإخوان الترك في المذهب[١].

وأما عن بعض أقوال أعضاء الجمعيات القومية العربية، للدعوة في تحقيق هدف الولاء للقومية العربية مقدم على ولاء الدين، يقول عبدالرحمن الشهبندر: نحن معاشر المسلمين - الذين يؤمنون بأن الله واحد أحد - مصدر الخير وفيه تجتمع الكمالات، فنتفق تمام الاتفاق مع إخواننا النصارى فيما يعتقدونه بالله تعالى. فعبث وعبث حقير أن يحاول أحد أن يضع فروقاً بيننا لاختلافات ثانوية لا شأن لها في الله، ولا شأن لها في الآخرة، ولا شأن لها في الوطنية[٢].

---

(١) المؤتمر العربي الأول، ١٤٢.

(٢) عبدالرحمن الشهبندر، حياته وجهاده، حسن الحكيم، ١٥٣.

لقد أصبح من معتقد الجمعيات القومية العربية أنها لا تفرض على أصحابها عقيدة دينية معلومة كما يقول مصطفى الشهابي: بل تتسع لكل عربي مهما يكن دينه أو يكن مذهبه الديني، وهي على هذا تُجِلُّ العقيدة الدينية القويمة والتحلي بالأخلاق الدينية الفاضلة [١].

وليس هناك أي تباين بين النصارى والمسلمين في المصالح العامة، سواء أكان في مجال السياسة والحكم والتنظيم والتشريع أم في مجال الحقوق والواجبات، أم في مجال الاقتصاد والاجتماع، أم في مفهوم وأهداف الفكرة العربية، وما يعود على الفريقين من منافع وعزّ وسؤدد من تحققها. وليس للدين والتمايز الديني أي دخل في كل ذلك، لأنه ممارسة وجدانية.

وفي تقرير هذا الهدف استدل بعض أعضاء الجمعيات القومية، بالوقائع التاريخية، حيث ذكروا أن النعرة الجنسية فضيلة آلية في النفس..، ولما قدم أبوعبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد بجيوش العرب المسلمين إلى الشام، وجدوا حارساً على أبوابها من الغسانيين وهم عرب نصارى يتقدمهم ملكهم المسيحي جَبَلَةُ بنُ الأَيْهَم. إلا أنّ هؤلاء بدلاً من قتال المسلمين والوقوف في وجوههم عطفوا عليهم عطفة الأخ، فتركوا الجامعة الدينية والرابطة السياسية اللتين كانتا تقضيان عليهم بهما موالاة الروم، وخطبوا ودَّ وولاء الناطقين بلسانهم بني أبيهم العرب، مهدوا لهم السبل وفتحوا الطرق، ومكنوهم كل التمكين من فتح البلاد العربية، وما أبداه نصارى غسان من العصبية العربية في هذا الشأن الخطير لأَعظمُ شاهدٍ على أن العرب متحمسون بالجنس قبل الدين، وهي فضيلة الشعوب الحية، فضيلة الشعوب التي لا تريد أن تموت[٢].

---

(١) القومية العربية تاريخها وقوامها ومراميها، مصطفى الشهابي، ٣٤٧.

(٢) المؤتمر العربي الأول، خطبة ندرة مطران، ٥٨.

لقد اعتُبر المبدأ القومي عند الجمعيات القومية العربية عقيدةً تُوَحِّد جميع العقائد المختلفة، فأعضاء الجمعيات القومية العربية، يختلفون عقائدياً، ولكنهم يتفقون على المبدأ والعقيدة القومية، كما قال مصطفى الشهابي - أحد أعضاء الجمعيات القومية العربية -: الإسلام دين سمح يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، والنصرانية دين يأمر بالتعاطف والمحبة، فلا هذا يأمر بالتعصب والبغضاء ولا ذاك.

ويقول الشهابي: للمسلم أن يعبد الله جل وعلا في مسجده، وللمسيحي أن يعبده في كنيسته، وفي وسع كليهما أن يؤمنا بالقومية العربية، وأن يعملا عمل يد واحدة في خير العروبة[١]. والسبب في ذلك كما قرره أعضاء الجمعيات: أن اختلاف المذاهب الدينية ليس من شأنه أن يكون ذا أثر في الصفة القومية في الحقيقة[٢].

وقد قسم أعضاء الجمعيات القومية العربية الناسَ إلى قسمين، هما: قِسمٌ يؤمن بالله، وآخرُ ملحِدٌ لا يؤمن بالله، هذا القسم قوي وذاك القسم قوي أيضاً، لقد أصبح الإلحاد مُنَظّماً تنظيماً سياسياً اجتماعياً تعضده دول مُعَظّمة.

ثم صوروا الصراع بين المؤمنين بالله وبين الملاحدة، بقولهم: وإننا نحن راكبون في سفينة واحدة وقد ركب معنا اليهود والبوذيون.. وجميع الذين يؤمنون أن دائرة الكون إنما تدار بإرادة الله، وإننا في سفينة واحدة، والآخرون يركبون في سفينة أخرى ونحن نتناطح في هذا البحر الخضم ونتضارب يرمي بعضنا بالقنابل، فإذا غرقت سفينتنا أتظنون أن النصارى يغرقون ونحن نسلم؟ كلا ثم كلا؟.. خير لنا أن نغرق ونحن متحدون من أن نعيش ونحن مشتتون[٣].

---

(١) القومية العربية تاريخها وقوامها ومراميها، مصطفى الشهابي، ٣٥.
(٢) نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ٢٦. وانظر: ما هي القومية؟ ساطع الحصري، ٢٠٨.
(٣) عبدالرحمن الشهبندر، حياته وجهاده، حسن الحكيم، ١٥٥.

وقد كان لشعراء الجمعيات القومية العربية دورٌ في تحقيق هدف تقديم الولاء القومي على الولاء في الدين، فقد أصبحت القصائد التي تتناول هذا الهدف تعد من مظاهر وآثار النهضة العربية والوعي القومي، وكان يرسلها الشعراء والكتاب والأدباء من مسلمين ومسيحيين إلى بني قومهم بالدعوة إلى الوئام ونبذ الخلاف والتعصب الطائفي اللذين كانا يثيران الفرقة والأحقاد بين أبناء الوطن الواحد والأمة الواحدة، ويؤديان إلى البلبلة والفتن، ويعودان بالبلاء العظيم عليهم وعلى البلاد معاً(١) كما يقول أعضاء الجمعيات القومية.

ومن تلك القصائد:

وإني ليوهنني تقسُّمُ أمتي
بأديانها والشر بين المذاهب
متى ينتهي كهّاننا وشيوخنا
فنخلص من حيّاتهم والعقارب
شقينا لنعماهم وراحتهم فهم
يسوقوننا كالعيس نحو المعاطب
فما الدين إلا نسخة بعد نسخةٍ
يزخرفها للناس أهواءُ كاذب(٢).

ومما قيل أيضاً:

---

(١) نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ١٣٤٥هـ.
(٢) الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث، أنيس المقدسي، ٨١.

سـلامٌ عـلى كـفـر يـوحِّـدُ بيننا
وأهــلاً وســهــلاً بــعــده بـجـهـنّـم

وقالوا أيضاً:

قـالـوا وفي الـديـنِ بَـون دونَ وحدتنا
إلى متى بـاسـم هـذا الـديـنِ نقتسمُ
لـئـن أصرُّوا عـلى أهـواءِ أنفسهم
لا الـدّيـنُ يبقى ولا الدنيا ولا الشيمُ[1]

فهذه القصائد وغيرها كثير، تبين منهج الجمعيات القومية العربية، في التعامل مع العقائد المختلفة، لتحقيق هدف الولاء للقومية العربية المقدم على الولاء الديني.

ومن آثار هذا الهدف عند الجمعيات القومية العربية أن جعل النصارى يندمجون في الحركات الوطنية والنضالية التي قامت في مصر وفلسطين وسورية..، حتى ليصح أن يقال: إن جمهور النصارى في مصر وسورية وفلسطين والعراق، قد أخذ يندمج في المجموع العربي العام اندماجاً صادقاً عاطفة ومصلحة ووطنية وقومية[2].

وكان التطبيق الفعلي لما ترغب في تحقيقه الجمعيات القومية العربية تحقق لها في إدارة الحكومة العربية الأولى في دمشق[3]، حيث إن الأقلية لم يكن لها أثر في ذلك الزمن، كما يقول أعضاء الجمعيات القومية العربية.

وكان لكل عربي في الحكومة العربية الأولى الحق بأن يتولى عملاً في الحكومة على حسب ما عنده من معرفة ومن خبرة بذلك العمل..، ولم يكن للأديان ولا للطائفيات

(١) الشعر والوطنية في لبنان والبلاد العربية، إلياس الخازن، ٨١.
(٢) مختارات قومية، محمد عزة دروزة، ٦٤١ - ٦٤٣.
(٣) انظر: الحكومة العربية الأولى في دمشق، خيرية قاسمية.

اعتبار في تولي مناصب الحكومة، فقد كان في المناصب الكبرى السني والشيعي والعلوي والدرزي والماروني والأرثوذكسي والكاثوليكي والبروتستانتي، وجميعهم يخدمون في حكومة عربية ويعملون لقضية العروبة[1].

إن تحقيق هدف تقديم الولاء القومي على الولاء في الدين، قد صرح به محمد عزة دروزة - أحد أعضاء الجمعيات القومية العربية - حيث ذكر أن هذا المبدأ من المآخذ التي أُخذت على الجمعيات القومية العربية، فقد قال: يؤخذ على القوميين العرب المحدثين في حركتهم أن فريقاً منهم غالى في الانتماء القومي العربي، ونسي في غمرة هذا الغلو ما كان للإسلام من الأثر الرئيسي والجوهري في المجد العربي الحديث، فلو لم يكن الإسلام، ولو لم يكن القرآن لما كان العرب أمة واحدة من الخليج إلى المحيط..[2].

» الهدف الثاني: تقرير مبدأ الولاء للقومية العربية:

انطلقت الجمعيات القومية العربية لتحقيق هذا الهدف، من مبدأ توحيد الكلمة، وأصلت أن الدين ليس الأصل الذي تجتمع عليه الجمعيات القومية.

إن أصل مبدأ توحيد الكلمة وجمع الصف من أساسيات الدين الإسلامي، كما قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾[3]، كما نهى عن التنازع والشقاق في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[4]، وغيرها من آيات الكتاب الحكيم، التي تدل على هذا المعنى.

---

(١) القومية العربية تاريخها وقوامها ومراميها، مصطفى الشهابي، ١٢٢.

(٢) محمد عزة دروزة نشأته وحياته ومؤلفاته، حسين حمادة، ٩٥، دار قتيبة، دمشق، الطبعة الثانية، ١٩٨٣م.

(٣) سورة آل عمران، رقم الآية (١٠٣).

(٤) سورة الأنفال، رقم الآية (٤٦).

ولكن هدف الجمعيات القومية العربية، هو أن الولاء يكون للقومية العربية وليس للدين، والاجتماع والموالاة والنصرة للقومية العربية، وقد وردت عبارات تنص على هذا الهدف من أعضاء الجمعيات القومية من مسلمين وغيرهم.

وبدراسة أقوال أعضاء الجمعيات القومية، يتبين أنها اتخذت مبدأ القومية العربية، محوراً أساسياً ترتكز عليه في تقرير أهدافها وبرامجها، ولهذا اعتبرت الجمعيات القومية العربية أن الجنسية العربية ديانة للعرب جديدة، وأن الجنسيات آلهة العصور الآتية، وأكدوا على السعي منذ الآن لخلق إله للأمة هو الجنسية العربية، إله يضحي كل من عباده حياته في سبيل نصرته[1].

لم تعتبر الجمعيات القومية العربية الدينَ هو أصل وحدة الأمم والشعوب، وإنما أصل الأمة هي وحدة اللغة، وقد قال أعضاء الجمعيات القومية العربية: إن أس الأساس في تكوين الأمة وبناء القومية هو: وحدة اللغة ووحدة التاريخ.

وعللوا في اختيارهم هذا بأن الوحدة في هذين الميدانين، هي التي تؤدي إلى وحدة المشاعر والمنازع، ووحدة الآلام والآمال، ووحدة الثقافة..، وبكل ذلك تجعل الناس يشعرون بأنهم أبناء أمة واحدة، متميزة عن الأمم الأخرى[2]..

وأما عن الرابطة الدينية فقد عجزت - كما يقول أعضاء الجمعيات القومية - دائماً عن إيجاد الوحدة السياسية..، وإن الرابطة الدينية لا توجد إلا حيث توجد حكومة إسلامية والعاطفة الإسلامية لم تقدر مرة من المرات أن تحمل أميراً مسلماً على التنازل عن حقوقه لأمير آخر من المتدينين بدينه حتى لو كان هذا خليفة[3]. وإذا حدث أن

---

(١) جريدة المفيد، رقم ١٤١٩ بتاريخ ٤/ ١١/ ١٩١٣م (نقلًا من كتاب العرب والترك، توفيق برو، ٤٨٠).

(٢) ما هي القومية؟ ساطع الحصري، ٢١٠.

(٣) المؤتمر العربي الأول، خطبة عبدالحميد الزهراوي، ٢٠

الدين يجمع المنتسبين إليه، فإن هذا الجمع يكون في العواطف دون الفعل، فقد يتألم مسلم الغرب لمسلم الشرق إذا أصيب بمصيبة كبرى، فلا يتعدى تألمه هذا دائرة الشعور[١].

وقالوا: إننا لا نبني نظريتنا في القضية العربية على أساس وحدة الدم والجنس والدين فقط؛ وإنما نبنيها أيضاً على الأساس القومي.. وهو وحدة الوطن واللغة والمصلحة..، وهذا الأساس أوسع شمولاً وأرحب صدراً من نظرية الدم والجنس والدين. لأنه يعتبر به عربياً قومياً كل متكلم باللغة العربية وليس له لغة أم غيرها.. مهما اختلفت الأصول والأديان والمذاهب[٢]. إذاً الأساس في وحدة الأمة هو اللغة، فلا الدين، ولا الدولة، ولا الحياة الاقتصادية تدخل بين مقومات الأمة الأساسية[٣].

وبتبني هدف الولاء القومي أصبح مقر الجمعيات القومية العربية مكاناً يجتمع فيه أهل العقائد المختلفة، كما وُصِف المنتدى الأدبي بأنه: كان طابع العروبة المميز له، فاجتمع في رحابه المسلم السني والشيعي والدرزي والمسيحي على اختلاف الطوائف إخواناً متحابين هدفهم مجد العروبة وبعثها[٤].

وفي المؤتمر العربي الأول، صرح رئيس المؤتمر - عبدالحميد الزهراوي - في إجابة سؤال عن خطة المؤتمر نحو العرب غير العثمانيين؟ فقال: يهمني أن أصرح لك قبل كل شيء بأن هذا المؤتمر ليس له صفة دينية، وكل أعماله تنحصر في الدائرة المحدودة له من البحث في شؤوننا الاجتماعية والسياسية، ولذلك ترى عدد أعضائه المسلمين والمسيحيين متساوياً..)[٥].

وبين نائب رئيس المؤتمر العربي الأول، بأن الجمعيات القومية العربية في عقدها لهذا

---

(١) مؤلفات رفيق العظم، رسالة الجامعة الإسلامية وأوربة، ٤٩.

(٢) نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ٣٨ - ٣٩ (بتصرف).

(٣) ما هي القومية؟ ساطع الحصري، ٢١٠.

(٤) نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ٣٥٥.

(٥) المؤتمر العربي الأول، ١٨.

المؤتمر، واختيار فرنسا مكاناً لانعقاده، لتؤكد على تحقيق الرغبة بأن الأمة العربية: أمة تطلب في الحياة حرية وعزاً، وتسعى وراء محو اختلافات جنسية ومذهبية كانت سبباً في شقائنا وشقاء تركيا معاً(١).

وليس هذا فقط في المؤتمر العربي الأول، وإنما أكد أعضاء الجمعيات القومية العربية بأن الذين قامت النهضة على أكتافهم أو على جماجمهم، سواء في سورية أم العراق أم فلسطين أم لبنان، لم يكن فيهم من يفكر في اتخاذ الفكرة الإسلامية أساساً للوحدة والاستقلال. بل إنهم جميعاً كانوا يعملون على تعزيز الروح القومية البحتة وإحياء مجد العرب على أساس هذه الروح(٢).

ولتحقيق هذا الهدف أكدت الجمعيات القومية العربية، على نبذ ما سمته التعصب الديني، واعتبرت التعصب الديني ليس سوى تطور في المصلحة الشخصية. وأما عن التعصب القومي، فقد اعتبرته الجمعيات القومية شعور عفوياً فطرياً مثل الشعور العائلي الذي يأخذه بعين الاعتبار كل سياسي.. (٣).

» الهدف الثالث: نشر الأفكار الغربية النصرانية:

كان للاتصال بالعالم الغربي النصراني أثر عظيم على أعضاء الجمعيات القومية العربية، وأن العصر الذي أنشِئت فيه الجمعيات العربية خاصة، يعتبر عصر بروزِ معالم الدعوةِ للقوميات المختلفة(٤)، وعصر متغيرات في واقع العالم الغربي من تأثيرات الثورة

---

(١) المصدر السابق نفسه، ١٤٣.

(٢) مذكراتي على هامش القضية العربية، أسعد داغر، ٤٦.

(٣) يقظة الأمة العربية، ١٦٧، ١٦٨.

(٤) انظر:

١. حاضر العالم الإسلامي، لوثروب ستودارد، ٤/ ٧١، ١٥٦.

٢. واقعنا المعاصر، محمد قطب، ٣٤١.

الفرنسية، كما قال عنها أعضاء الجمعيات القومية العربية: ثورة ارتقى بها الإنسان، واصْطَلَحَ نوع الأحكام على ما هو عليه الآن، ليس في فرنسا وحدها، بل في أوربا كلها، بل في العالم قاطبة[(١)].

لقد انعكست التيارات الاستعمارية الفرنسية والإنجليزية، وتيارات الخداع الوطني على الجمعيات القومية العربية، ممثلة في بعض الصحف العربية التي تتكلم بلسان فرنسا يغذيها قنصلها العام في بيروت.. ويروجها لفيف من الكتبة والصحفيين، وقد وجَدَت لها أنصاراً أقوياء في أوساط حزب اللامركزية بمصر منهم إسكندر عمون، نائب رئيس هذا الحزب، وكانت جريدة الأهرام في القاهرة تتكلم بلسانها[(٢)].

وقد كان أصل معتقد القومية العربية، قد جاء من الغرب إلى الشرق فيما جاء من أفكار وتيارات...والتي تستهدف إنشاء كيان قومي موحد تنسكب فيه الكتل التي تَمُتُّ إلى أصل واحد أو تقطن بلاداً واحدة وتتكلم بلغة واحدة وتشترك في المصالح والأهداف قد انبثقت في أوربا في القرون الأخيرة[(٣)].

ومن خلال الوسائل المختلفة من وسائل نقل الفكر النصراني لبعض البلاد العربية، كالبعثات العلمية، والإرساليات التنصيرية، ومدارس التنصير.. إلخ؛ أثرت في كثير من أعضاء الجمعيات القومية، وقامت بعض الجمعيات بنشر هذه الأفكار.

ويُحدّث فخري البارودي - أحد أعضاء الجمعيات القومية العربية - عن دور أعضاء الجمعيات القومية في نشر الفكر الغربي: بأنه بدأ يتكون في دمشق جمهور من الشباب العربي، ومن خريجي المدارس العالية..، وكانوا يعقدون اجتماعات خاصة، ويخوضون

---

(١) الفكر العربي الحديث أثر الثورة الفرنسية في توجيهه السياسي والاجتماعي، رئيف خوري، ١٢٢.
(٢) تاريخ الصحافة السورية، شمس الدين الرفاعي، ١/ ٢٤٨، دار المعارف، مصر.
(٣) نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ٩.

في أحاديث جديدة غير مألوفة عند الدمشقيين آنذاك.. كان هؤلاء الشباب الناهضون يتحدثون عن أوربا وتقدمها وعلومها، وعن نهضات الشعوب، والشكوى من ظلم الحكومة..، وسرد حكايات طويلة عريضة عن أغراض الأحرار ومن بينهم: شكري العسلي، وعبد الوهاب الإنكليزي... إلخ من أعضاء الجمعيات القومية العربية(١).

ويذكر عبدالرحمن الشهبندر - أحد أعضاء الجمعيات القومية - عن أنواع العلوم والمعارف، التي يسعى مع غيره من أعضاء الجمعيات العربية في نشرها: (أنها نتيجة كتب قرأناها ككتاب (روح الشرائع) لمونتسكيو، وكتاب (أصول الشرائع) لبنتام، وكتاب (سر تقدم الإنكليز) وغيرها. كم هي الكتب التي تغذينا بها(٢).

كما سلك أعضاء الجمعيات القومية العربية، مسلك الترغيب للأخذ من آداب المجتمعات النصرانية، كفنون الشعر والأغاني والتاريخ والسياسة وغير ذلك. وقرر أعضاء الجمعيات: أنه لا يكمل علم الأدب للمتبحر فيه إلا بعد أن ينظر في أدب الأمم المتمدنة ولو نظرة عامة، يطلع بها على مجمل تاريخ أدبهم وعلى بعض ما ترجم من مؤلفات المشاهير من كتبهم، فيقف على ما عندهم من سعة الفكر وسمو الإدراك وبلاغة المعاني، ويعرف أساليبهم(٣)، واعتبر أعضاء الجمعيات القومية، العرب قبل تفتحهم على الغرب، في بلبلة من أمرهم وتفرقة وجهل خيم عليهم، في ظل السلطنة العثمانية التي استغلت النعرة الدينية لتثبيت سلطانها على حساب المعرفة والقيم الوطنية(٤).

وتم تصديق الجمعيات القومية العربية خلال المؤتمر العربي الأول على مبدأ اقتداء

---

(١) مذكرات البارودي، فخري البارودي، ١/ ٥٧.

(٢) عبدالرحمن الشهبندر (حياته وجهاده)، حسن الحكيم، ١٤٧.

(٣) محمد روحي الخالدي، ناصر الدين الأسد، ٧٦، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧٠م.

(٤) الشعر والوطنية في لبنان والبلاد العربية، وليم الخازن، ٤١.

الشرق بالغرب، وأنه حان للشرق أن يمشي في المسائل السياسية والاجتماعية مشية أخيه (الغرب)، الغرب اليوم قدوة الشرق[1].

ومن أمثلة تطبيع واقع المسلمين بالمعتقدات النصرانية أن عبدالغني العريسي صرح أمام مؤسسي وأعضاء الجمعيات القومية العربية أن الأمم النصرانية أُسوة لنا في الصبر على الابتلاء والمحن ومطالبة الحقوق، وذلك بعد أن وقع الخلاف بين العرب وجمعية الاتحاد والترقي، وإن التعذيب والاضطهاد الذي يقع على أعضاء الجمعيات القومية، كان لنا أسوة فيه كثيرٌ من الأحرار الذين ماتوا كِراماً من أجل الدفاع عن الحرية، وتأييد المذاهب السياسية.

وذكر عبدالغني العريسي أنّ أسوته وقدوته في الصبر رموزُ الكفر، فقال: ها هو كميل دمولين، قد قتلته الحكومة الاستبدادية، لأنه كان عاملاً في تحرير الأمة من الاستعباد والظلم..، وهاهو برناف يقول، إذ قتلته الحكومة: (إليكم يا قومي جزاء ما صنعته لدعائم الحرية)[2].

وبعد ضرب الأمثلة بما سموهم (أعلام الحرية) بيَّن أعضاء الجمعيات القومية العربية، بأن المدنية الأوربية العصرية هي التي انتشلتنا من سباتنا العميق. وإذا كانت ميولنا الماضية - العقائد الدينية في ظل الدولة العثمانية - هي التي خدرت أعصابنا وكانت سبب خمولنا فإن لنا في ميولنا الجديدة دافعاً إلى الترقي واستئناف الكرة..[3].

وعلى نهج إبراز أعلام الكفر سارت مجلة (المقتطف) التي هي من أبرز المجلات ذات المنهج القومي العلماني، وصاحبا (المقتطف) يعقوب صروف وفارس نمر هما من

(١) المؤتمر العربي الأول المنعقد في القاعة الكبرى للجمعية الجغرافية في باريس، ٣١.
(٢) مختارات المفيد عبدالغني العريسي، ٨٠، دار الطليعة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٨١م.
(٣) المؤتمر العربي الأول، خطبة عبدالحميد الزهراوي، ٢١.

أوائل خريجي الكلية السورية الإنجيلية وهي (الجامعة الأمريكية في بيروت)، وقد عمل الاثنان، بعد تخرجهما، مدرسين في الكلية نفسها، وقد رأيا أثناء الدراسة والتدريس أن مجاراة الأمم الغربية في العلوم والمعارف مستحيلة إذا كانت الجماعة التي يعيشان بينها ستكتفي بترجمة الكتب. فلا بد من مجلة تقطف ثمار المعارف والمباحث، شهراً بعد شهر، وتذيعها في الأقطار العربية[1].

ولنشر المعتقدات النصرانية والعلمانية، قام بعض أعضاء الجمعيات القومية، بترجمة كتب النصارى، وبخاصة الكتب التي تتعلق بالجوانب السياسية والاجتماعية، فقد قام أعضاء جمعية بيروت السرية، بترجمة كتاب (التحفة الأدبية) للفرنسي هنري غيزو، والكتاب من الغلاف إلى الغلاف يدعو إلى نظام سياسي متقدم خصوصاً على الصعيد الديمقراطي..، كما نشروا ما يرونه نهضوياً ومؤثراً[2].

وكان من نتاج نشر الفكر الغربي النصراني على العامة، كما يقول أعضاء الجمعيات القومية العربية، أن علمتهم حال الأمم وسياسة السياسيين وقوانين المشرعين واستعمار المستعمرين..، والاقتباس من المدنية الحديثة، وعلمتهم أن لا قيام لأمرهم إلا بالقومية العربية، وأن نغمة الدين وحدها لا تنجيهم مما هم فيه[3].

ومما ينبغي بيانه عند الحديث عن هدف نشر الأفكار الغربية النصرانية، أن أبرز من سعى في تحقيق هذا الهدف هم الأعضاءُ النصارى العربُ المتنسبون للجمعيات القومية العربية، وقد سبق بيان دور نصارى العرب في تأسيس الجمعيات القومية[4].

---

(١) لبنانيات تاريخ وصور، نقولا زيادة، ٧١. وانظر: تاريخ الآداب العربية، الأب لويس شيخو، ١٣٣.
(٢) صحافة الكواكبي، جان داية، ٣٢.
(٣) خطط الشام، محمد كرد علي، ٤/ ٨٢.
(٤) انظر: الفصل الثاني من الرسالة، ص: (٢٣٢).

ومن أمثلة هؤلاء النصارى: شبلي شميل الذي قال عنه محمد كرد علي: صورة رائعة لعالم مؤمن بعلمه، متفان في بثه والعمل به، كان فرداً في طبقته قل أن نشأ للعرب في العهد الأخير رجل مثله في رجاحة العقل..، ولو قدر للشرق القريب أن يكثر فيه أمثال شميل بعلمه ودأبه وإخلاصه لغيروا وجه حضارته، وقضوا على خرافاته وضلالاته، ولصانوا الأديان عما يحط من مقامها[1].

وكتب رشيد رضا ترجمة موجزة عن شميل قال فيها: كان فذاً نادر المثل في مجموعة علومه، وأعماله وأفكاره وأخلاقه، والذي يحملنا على ترجمته أنه كان من طلاب الإصلاح المدني والتجديد الاجتماعي المخلصين - وقليل ماهم -.

وقد أقام أعضاء الجمعيات القومية حفل تأبين للدكتور شميل، وممن حضره رشيد رضا وألقى خطبة قال فيها: كان الدكتور شميل متحلياً بعدة من الأخلاق الحميدة التي لا يرتقي العمران البشري إلا بكثرة المتحلين بها في الأمم كالصدق واستقلال الرأي والشجاعة والثبات والسخاء والوفاء والنجدة والمروءة والرأفة[2].

وبعد هذا الثناء والمدح، قال عنه محمد كرد علي: إن شميل يعزى إليه نشر مذهب النشوء والارتقاء[3] في الشرق العربي..، ولم يرض أرباب الأديان عن خطة

---

(١) المعاصرون، محمد كرد علي، ٢٤٧.

(٢) مجلة المنار، المجلد١٩، الجزء ١٠، سنة ١٣٣٥هـ (١٩١٧م)، ص:٦٢٥ - ٦٣٢. وانظر: حوادث وخواطر (مذكرات الدكتور شبلي شميل)، ٢٦١، دار الحمراء، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩١م.

(٣) وهي النظرية التي قال بها: الباحث الإنجليزي تشارلز داروين سنة ١٨٥٩م (١٢٧٥هـ)، ونشرها بكتابه أصل الأنواع، فقد افترض داروين أن أصل الكائنات العضوية ذات الملايين من الخلايا كائن حقير ذو خلية واحدة، وحسب قانون الانتقاء الطبيعي وبقاء النسب نمت الأنواع التي استطاعت التكيف مع البيئة الطبيعية ومصارعة الكوارث المفاجئة، وتدرجت في سلم الرقي، وبتعبير داروين فقد وهبت بعض الكائنات عوامل البقاء ومؤهلات حفظ النوع بإضافة أعضاء أو صفات جديدة، وقد أدى ذلك إلى تحسن نوعي مستمر نتج عنه أنواع جديدة راقية كالقردة، ونوع أرقى وهو الإنسان. انظر عن نظرية النشوء والارتقاء: (أصل الأنواع، ترجمة إسماعيل مظهر).

شميل في نقله مذهب داروين، وجاراهم في إنكارهم عليه جماعة المقلدين أدعياء العلم، أما هو فقد ثبت وما حاد عن اتزانه، وما توقف عن نشر دعوته بالحكمة وطرق الإقناع(١).

كما قال عنه رشيد رضا: كان أول من نشر مذهب دارون باللغة العربية وانتصر له وناضل دونه، ولم يكتف الرجل بذلك، بل كان يصرح قولاً وكتابة بالتعطيل والإلحاد.

وعن الموقف الذي اتخذه رشيد رضا من عقيدة شميل، أنه قال: المسلمون لا يرون مروقه من عقيدته التي نشأ عليها مبعداً له عنهم لأنها ليست عقيدتهم، فهو في نظرهم طبيب عالم اجتماعي غير مسلم، ولكنه أقرب من غيره من المخالفين لهم إلى التساهل والإنصاف لحريته واستقلال فكره(٢).

وبين أروقة الجامعة الأمريكية في بيروت، ناصر أعضاء الجمعيات القومية من دعا إلى نظرية النشوء والارتقاء من أعضاء هيئة التدريس، وعن موقف الطلبة، قال أحد الطلبة: إن الحركة التي قام بها طلاب الكلية مما يحق تدوينه لأنه بدء نهضة جديدة بين تلامذة المدارس في الشرق لم يسبق لها مثيل(٣). وقالوا عن النظرية: إن العقل والدين الصحيح يمشيان جنباً إلى جنب(٤).

---

(١) المعاصرون، محمد كرد علي، ٢٤٦.

(٢) مجلة المنار، المجلد١٩، الجزء ١٠، سنة ١٣٣٥هـ، ص: ٦٢٥ - ٦٣٢. وانظر: حوادث وخواطر (مذكرات الدكتور شبلي شميل)، ٢٦١.

(٣) لبنانيات تاريخ وصور، نقولا زيادة، ١٤٩. وانظر عن تفصيل الحادثة: رواد النهضة الأدبية، كمال اليازجي.

(٤) عبدالرحمن الشهبندر، حياته وجهاده، حسن الحكيم، ١٥١.

» الهدف الرابع: تطبيق الحكم الديموقراطي في البلاد العربية[١]:

من منطلق تحقيق هدف الجمعيات القومية العربية، وهو استقلال البلاد العربية عن الدولة العثمانية، وتأثر أعضاء الجمعيات القومية العربية بالأفكار والمعتقدات الغربية، في كثير من المجالات وأهمها المجال السياسي، كان من ضمن أهداف الجمعيات القومية العربية، أن يكون حكم البلاد العربية حكماً ديمقراطياً.

ولقد عرّف أعضاء الجمعيات القومية العربية السياسةَ بأنها: ممارسة النظر في الحوادث من كل جهاتها ليكون التصرف على حسبها. وقد جرت عادة رجال الحكومات أن يدعوا انحصار هذه الممارسة فيهم وحدهم. وكان الناس يسلمون لهم بهذه الدعوى، وإذا عابهم عائب بالاستسلام المطلق للحاكم يقولون: نحن لا نفهم السياسة..، وبقولهم هذا يوقعون صك الاعتراف بأن ليس لهم أن يناقشوا الحاكم في شيء ما.

هذا عن حال البلاد العربية في ظل الدولة العثمانية، وأما عن حال الغرب فقد قال عنها أعضاء الجمعيات القومية العربية: قد تخلص الغرب من هذا العيب الذي كان البشر المتحضرون كلُّهم مشتركين فيه..، ويظهر أنه قد حان للشرق أن يمشي في المسائل السياسية والاجتماعية مشية أخيه[٢].

وتحقيق هدف الحكم الديموقراطي قد مر لدى أعضاء الجمعيات القومية العربية بمراحل قال عنها أعضاء الجمعيات القومية: كانت أُولى مظاهر الفكرة القومية عند

---

(١) تعني الديمقراطية: حكم الشعب بالشعب. وهذه الكلمة جمع كلمتين: Demos ومعناها: الشعب. وkratos ومعناها: السلطة. أي: سلطة الشعب.

انظر:

١. الديمقراطية، دوروثي بيكلس، ١١، دار النهار، بيروت، ١٩٧٢م.

٢. مذاهب فكرية معاصرة، محمد قطب، ١٧٨.

(٢) المؤتمر العربي الأول، ٣١. وانظر: عبدالرحمن الشهبندر، حياته وجهاده، حسن الحكيم، ١١٠.

العرب المسلمين أنها كانت فكرة ممتزجة باعتقاد ديني، ومرتبطة بغايات دينية، وقالوا: إن الإسلام أول شريعة اعترضت على الاستبداد وقاومته أشد المقاومة، وساوت بين أفراد الأمة، ومهدت السبيل للحكومة الديموقراطية، ووضعت حق الحاكمية في الأمة[1].

إلا أن الفكرة كما قال ساطع الحصري: لم تقف عند هذا الحد، بطبيعة الحال، لأن بعض - المتنورين - أخذوا يفكرون في القومية العربية تفكيراً مستقلاً عن الاعتبارات الدينية[2] حتى وصلوا إلى فكرة طريقة حكم البلاد العربية مع الدولة العثمانية، الذي يقول به فريق من رجالات الحركة العربية أن يكون على طريقة اتحاد المجر مع النمسة[3].

وكان من قرارات المؤتمر العربي الأول، المتعلق بهذا الهدف: أن الحكم الدستوري يقتضي أن تكون الأمة هي صاحبة النهي والأمر في شؤونها، وأن تكون الهيئة الحاكمة وكيلة عن الأمة في إدارة تلك الشؤون..، ويقتضي اشتراك أبناء الأمة جميعاً في كل حق وفي كل واجب[4].

وقد نقل أعضاء المؤتمر العربي الأول شعور العرب المهاجرين ورغبتهم بالحكم الديموقراطي، فقد قال أعضاء المؤتمر: لقد أدرك المهاجرون فوائد الحكومات الشعبية

---

(١) مجلة الهلال، الجزء الثاني، السنة ١٧، ١/ ١١/ ١٩٠٨م (٧/ ١٠/ ١٣٢٦هـ)، ص: ٦٩.

(٢) محاضرات في نشوء الفكرة القومية، ساطع الحصري، ١٢٢.

(٣) مختارات قومية، محمد عزة دروزة، ٥٠٧. وهي ما تسمى بـ(النظام الكونفدرالي، وتعريفه أنه نظام بمقتضاه يتكون اتحاد من دول مختلفة تكون كل منها مستقلة داخلياً وخارجياً، وتحتفظ كل منها بالشخصية الدولية، ولكن يحكمها هيئة واحدة، وتوجد علاقات دستورية بين أجزاتها. انظر: النظم السياسية والقانون الدستوري، فؤاد العطار، ١٧٩، دار النهضة العربية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٦٦م. وكتاب الوجيز في النظم السياسية والقانون الدستوري، محمود حافظ، ٤٦، دار النهضة العربية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٧٦م.

(٤) المؤتمر العربي الأول، ١٠٠.

الدستورية وحفظ حقوق الأفراد، أدركوا معاني المدنية في أوربا وأميركا.. فتمنوا لوطنهم العزيز الوصول إلى ما وصل إليه السِّوى بعد إراقة الدماء وهدم أبنية الظلم ودك معاقل الجهل، ويتمنون أن يقوم إخوانهم العرب العثمانيون بثورة أدبية تنهزم فيها جيوش الجهل وفيالق الظلمة، ويخرج الأحرار المتنورون من معتركها وقد كتب لهم النصر(١).

وبعد موافقة أعضاء الجمعيات القومية العربية، على هذا المنهج الديمقراطي في الحكم، قسم أعضاء الجمعيات القومية القوى المؤثرة في تسيير الدولة العثمانية، وذكروا نصيب البلاد العربية من كل قوة، فمما قالوا عن القوة التشريعية: إن كل قانون لا يوضع بمشاركة أبناء العرب يكون غير مستوفِ الشروط من حيث الحق والعدل..، ونأبى أن يكون حظنا في تدبير أنفسنا موكولاً إلى رأي غيرنا.

وقالوا عن القوة الإجرائية (التنفيذية): إن حق الجماعات يتطلب من الأمة أن تؤلف الحكومة، وأن لا تتألف الحكومة إلا من الأمة، أما تأليف الوزارات في مملكتنا فقائم على غير هذا الحق..، والوزارة في علم الحقوق العامة لا تكون وطنية إلا إذا مثلت كل أبناء الوطن، ولا تكون شرعية إلا إذا جمعت فيها إرادة المجتمع كله(٢).

ورغبة في إضفاء الصبغة الشرعية على هذا الهدف، قال عبدالغني العريسي - أحد أعضاء الجمعيات القومية العربية - وذلك أثناء الاحتفال بذكرى مولد الرسول ﷺ، الذي يقيمه المنتدى الأدبي: في مثل هذا اليوم يولد النبي العربي القرشي مقيم الأسس الديمقراطية.. حرية ومساواة وإخاء، مبادئ ثلاثة قام بها نبينا العظيم لخير هذه الأمة، كل ذلك على مبدأ الديمقراطية(٣).

---

(١) المؤتمر العربي الأول، ٦٨

(٢) المصدر السابق نفسه، ٤٥، ٤٩.

(٣) مختارات المفيد، العدد ٩١٩ بتاريخ ٢٩/ شباط/ ١٩١٢م. ص:٧٢.

وحينما أعلن الدستور في الدولة العثمانية، رأى أعضاء الجمعيات القومية العربية، أن هذا العهد هو عهد إقامة حكم ديمقراطي صحيح في البلاد، تسوده الحرية والمساواة في ظل العدل والنظام[١].

وقد أكد نائب الحزب اللامركزي، في أثناء جلسات المؤتمر العربي، بأن الجمعيات القومية العربية: تريد حكومة عثمانية لا تركية ولا عربية حكومة يتساوى فيها جميع العثمانيين في الحقوق والواجبات فلا يستأثر فريق بحق من الحقوق، ولا يحرم فريق من حق من الحقوق، لا بداعي الجنس، ولا بداعي الدين عربياً كان أو تركياً..، مسلماً أو مسيحياً، إسرائيلياً أو درزياً..، هذه هي قاعدتنا السياسية الجامعة[٢].

---

(١) مذكراتي على هامش القضية العربية، أسعد داغر، ٤٧.
(٢) المؤتمر العربي الأول، ١٠٤.

الفصل الرابع:

أبرز رجالات الجمعيات القومية العربية في القرن الرابع عشر

ويحتوي على:

» المبحث الأول: شخصيات المرحلة الأولى

١. بطرس البستاني.

٢. ناصيف اليازجي.

٣. طاهر الجزائري.

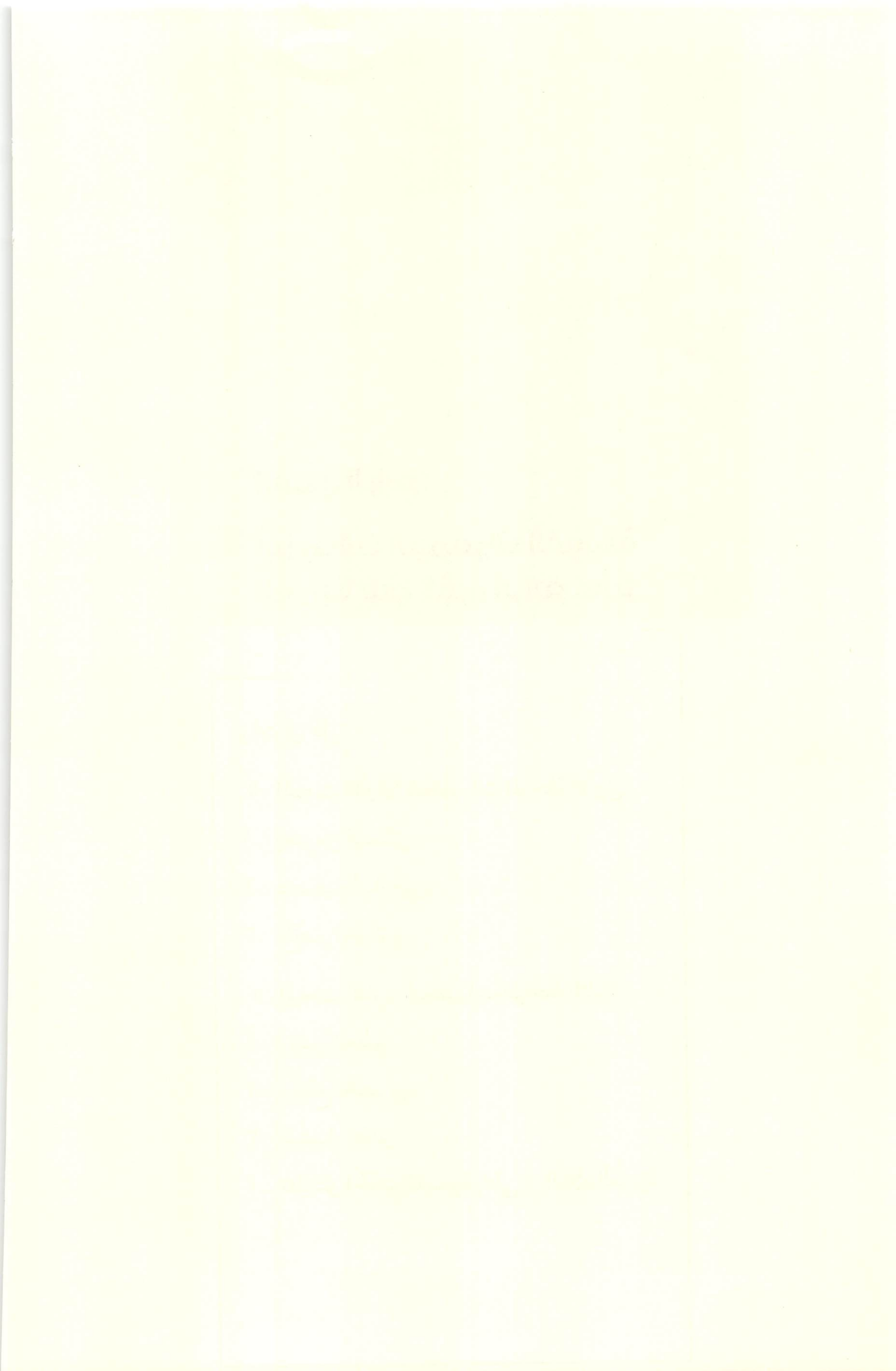
» المبحث الثاني: شخصيات المرحلة الثانية

١. رفيق العظم.

٢. ساطع الحصري.

٣. ميشيل عفلق.

٤. تطبيق الحكم الديموقراطي في البلاد العربية.



من خلال دراسة تأسيس الجمعيات القومية، يجد الباحث بعض الشخصيات التي كان لها أثر واضح في التكوين الفكري، والتنظير المنهجي، لتلك الجمعيات.

وليكتمل التعريف بالجمعيات القومية لزم التعريف بأبرز الرجال الذين كان لهم دور فعال في تأسيسها، وذلك بإيراد تراجم لهم، وسيلاحظ في تلك التراجم أنها كانت من مصادر أعضاء الجمعيات القومية أنفسهم أو المعاصرين لهم. وقد اخترت الشخصيات[1] التالية:

١) بطرس البستاني.

٢) ناصيف اليازجي.

٣) طاهر الجزائري.

٤) رفيق العظم.

٥) ساطع الحصري.

٦) ميشيل عفلق. وستكون دراسة هذه الشخصيات من خلال:

١ - تعريف موجز بالشخصية الذاتية.

٢ - اتجاهها العقدي.

٣ - أهدافها وآراؤها القومية.

٤ - آثارها العلمية والعملية في تأسيس الجمعيات القومية العربية.

(١) رغبة في بيان مدى تأثير المترجم لهم على أعضاء الجمعيات؛ فقد نقلت نصوصهم كما هي مع ما تحمله من إطراء وتبجيل لصاحب الترجمة.

لقد شهد القرن التاسع عشر رواداً من الأدباء والمفكرين الأوائل، كانوا خليطاً من النصارى والمسلمين في سورية الطبيعية، حملوا لواء الفكر القومي العربي.

وبالنظر إلى تاريخ تطور فكرة تأسيس الجمعيات القومية العربية، يلاحظ أنه ينقسم إلى مرحلتين:

المرحلة الأولى: بداية الالتقاء الثقافي بين الدول الاستعمارية النصرانية والدولة العثمانية، وذلك من خلال الحملات التنصيرية في الدولة العثمانية، وأبرز شخصيات هذه المرحلة ستتناولهم الدراسة في المبحث الأول.

المرحلة الثانية: تبدأ من إسقاط السلطان عبدالحميد وتولي جمعية الاتحاد والترقي مقاليد السلطة، وفي هذه المرحلة التاريخية أنشئت الجمعيات القومية العربية، وأبرز شخصيات هذه المرحلة ستتناولهم الدراسة في المبحث الثاني.

المبحث الأول: شخصيات المرحلة الأولى

» أولاً: بطرس البستاني:

أ - تعريف موجز بالشخصية الذاتية:

هو: بطرس بن بولس بن عبدالله البستاني، ولد سنة ١٢٣٤هـ (١٨١٩م) في قرية الدبية من قرى لبنان، والدبية عدد سكانها خمسمائة نفس من طائفة الموارنة وقليل من البروتستانت فهو من نصارى العرب.

كان بطرس البستاني، كما يصفه أعضاء الجمعيات القومية، قد نبغ في العلم وهو لا يزال طفلاً في مهده، فأخذ في التعليم والتهذيب علماً وعملاً[١].

وقالوا عنه: لو شاء الكاتب أن يصف ما امتاز به البستاني الكبير وصفاً يصافح به الحقيقة، ويلبسه من خصائصه الأدبية ثوباً نسجته يد الإصابة... لا يسع الكاتب إلا أن يُلحقه بأولئك الذين ينعتونهم بقادة الأفكار ومحركي النهضات العلمية.. على أنه مع هذا كان من جبابرة الناهضين[٢].

وقد ذكر القوميون أن للبستاني مراتب الأولية في بعض المجالات العلمية، فهو: أول من أسس مدرسة وطنية عالية، وأول من ألف قاموساً عربياً عصرياً مطولاً، وأول

---

(١) مجلة الهلال، المجلد٤، الجزء ١٠، السنة الرابعة، ٣٠رجب ١٣١٣هـ، ص: ٣٦٢ - ٣٦٣.
(٢) أعيان البيان من صبح القرن الثالث عشر الهجري إلى اليوم، حسن السندوبي، ٢٠٦، المطبعة الجمالية، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٣٢هـ (١٩١٤م).

من أنشأ مجلة راقية، وأول من ابتدأ بمشروع دائرة معارف باللغة العربية..[١]، وأول من أنشأ مجلة علمية وجريدة سياسية ومدرسة وطنية. وأول من أقدم على المشروعات الأدبية بعزم ثابت فألف الكتب وسهل طبعها ونشرها[٢].

فهو ركن النهضة الأدبية الثابت، ومحور الحركة الوطنية في عصره، وهو من صرفَ حياته كلها في سبيل العلم والوطن، وتركَ الآثار العديدة من أدبية واجتماعية، وأحدثَ التأثير البليغ في أبناء قومه خاصة، وفي الأدب العربي عامة[٣].

وعن تلقيه للعلم فقد أخذ بطرس البستاني - كما يقول مترجمو حياته - مبادئ القراءة والكتابة من القسيسين الذين كانوا كما يقول المترجمون: يعلمون صبيان رعاياهم ببساطة معارفهم وقوة مثلهم، مبادئ العربية والسريانية، مع خدمة القُدّاس، وأصول الفضائل المسيحية، في تلك المدرسة.

ومن أولئك القسيسين خوري ميخائيل البستاني، الذي كان يهذب صغار الضيعة، فلاحظ ذكاءً نادراً من بطرس البستاني، فأخبر به رئيس أساقفة صور وصيدا، فاهتم الرئيس بالأمر واستقدمه، وبعد أن تحقق من ذكائه أرسله إلى عين ورقة[٤]، فالتحق بكلية الدير في قرية عين ورقة وهو ابن عشر سنوات، وتعلم فيها العبرية واللاتينية والإيطالية فضلاً عن العلوم اللاهوتية[٥].

ومدرسة دار عين ورقة[٦]، التي تلقى فيها بطرس البستاني العلوم كانت ديراً لأحد

---

(١) الروائع، المعلم بطرس البستاني، فؤاد أفرام البستاني، المقدمة.

(٢) مجلة الهلال، المجلد٤، الجزء العاشر من السنة الرابعة، ٣٠رجب ١٣١٣هـ، ص ٣٦٥.

(٣) الروائع، المعلم بطرس البستاني، فؤاد أفرام البستاني، المقدمة.

(٤) الروائع، المعلم بطرس البستاني، فؤاد أفرام البستاني، المقدمة، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٢٩م.

(٥) يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ١٢٢. وانظر: الأعلام، الزركلي، ٢/ ٥٨.

(٦) انظر: بطاركة الموارنة وأساقفتهم في القرن التاسع عشر، بطرس فهد، ١٩٩٠م.

نصارى العرب، ثم حولت إلى مدرسة عامة للطائفة النصرانية. ويقول عنها نصارى العرب: كان لها تأثير كبير على أبناء النصارى، حيث نبغ من هذه المدرسة كثيرٌ من الرؤساء والعلماء، حتى كان في القرن التاسع عشر أكثر بطاركة الطائفة ومطارنتها وكهنتها المشتهرين من تلامذة هذه المدرسة..، ومن هذه المدرسة خاصة بُثّت علوم اللغتين العربية والسريانية وغيرها من العلوم والفنون بين نصارى سورية[١].

لقد قضى بطرس البستاني في هذه المدرسة عشر سنوات، أتقن فيها اللغة والمنطق والتاريخ والحساب... ومبادئ الفلسفة واللاهوت والقانون، وخرج من المدرسة وهو في العشرين من عمره[٢]. وعين مدرساً فيها إلى سنة ١٨٤٠م (١٢٥٥هـ)[٣].

التقى بطرس البستاني - خلال غزو الحملات التنصيرية للبلاد السورية - بدعاة المذهب الإنجيلي من الأمريكان، الذين أقاموا ببيروت للتعليم ونشر مذهبهم، فتعرف ببعضهم، وجعل يختلف إليهم يعلمهم اللغة العربية ويُعرِّب لهم بعض الكتب ككتاب: (الباب المفتوح في أعمال الروح) ومؤلفه سميث، وقد طبع الكتاب في بيروت سنة ١٨٤٣م[٤]، ولما تمكنت علائق المودة بينه وبينهم ووافقهم على مذهبهم[٥].

أنشأ الدكتور فان ديك - الذي قال عنه القوميون العرب قد جاء إلى بلاد الشام مبشراً وطبيباً[٦] - في سنة ١٨٤٦م (١٢٦٢هـ) مدرسة بعبية بقرار صدر من هيئة

(١) الجامع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصل، يوسف الدبس، ٣٣٩، دار لحد خاطر، الطبعة الثالثة، ١٩٨٢م.

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان، ٢٦٩، دار الهلال.

(٣) الجامع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصل، يوسف الدبس، ٣٨٢.

(٤) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، الجزء ٣، المجلد ٤٥، ربيع الآخر سنة ١٣٩٠هـ، ص:٥٩٥.

(٥) مجلة الهلال، المجلد٤، الجزء العاشر من السنة الرابعة، ٣٠ رجب ١٣١٣هـ، ص:٣٦٢ - ٣٦٣.

(٦) يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ١١٢.

المبشرين الأمريكان[١]، وساعده البستاني في إنشائها، وتأليف الكتب الدراسية، وعُيِّنَ البستاني أستاذاً في مدرسة عبية سنة ١٨٦٠م (١٢٧٦هـ)[٢].

أقام بطرس البستاني سنتين في مرحلة التدريس والتعليم، ثم عين من قبل الحملة التنصيرية ترجماناً في قنصلية أمريكا، وعكف على التأليف والترجمة..، وأعان الدكتور سميث الأميركي على ترجمة الأسفار المقدسة إلى العربية[٣].

إن سبب اهتمام المنصرين بقرية عبية، وإقامة مدرسة تنصيرية فيها، كونها بعيدة عن مراقبة الدولة العثمانية، ويوجد بها طوائف مختلفة..، وقد استطاعت المدرسة أن تساعد على تحقيق غاية المنصرين حتى تأسست الجامعة الأمريكية في بيروت[٤]، وفي هذا الجو التنصيري نشأ بطرس البستاني.

ولم تقتصر علاقة بطرس البستاني مع المنصرين الأمريكان بأعمال الترجمة والتدريس، أو الالتقاء بالمعتقد النصراني[٥] فحسب، وإنما تأصلت أسباب الصداقة بين البستاني وبين الدكتور فان ديك، وظاهر كل منهما صاحبه على مشاريعه العلمية والأدبية، من تأسيس المدارس وإنشاء الكتب والصحائف وسواها، ولم يشغله ذلك عن وضع الكتب لتلاميذ المدارس وتعريب ما يرى فيه النفع للمتأدبين، ثم صبت نفسه إلى التوسع في تأليف الكتب ونشر الآداب والمعارف فانكب على التصنيف ونشر الصحف يتلو بعضها بعضاً[٦].

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، الجزء ٣، المجلد ٤٥، ربيع الآخر سنة ١٣٩٠هـ، ص:٦١١.
(٢) يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ١٢٢. وانظر: الأعلام، الزركلي، ٢/ ٥٨.
(٣) الجامع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصل، يوسف الدبس، ٣٥١.
(٤) التبشير والاستعمار في البلاد العربية، عمر فورخ و مصطفى الخالدي، ٩٤.
(٥) انظر: يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ١١٢.
(٦) أعيان البيان من صبح القرن الثالث عشر الهجري إلى اليوم، حسن السندوبي، ٢٠٥ - ٢٢٢.

وإضافة إلى جهده العلمي فقد كان البستاني، مقصوداً بحاجات الناس مستشاراً في المهمات الدينية والأدبية والسياسية، مسؤولاً عن إسعاف ذوي المصالحِ لا يردُّ طالباً إلا مسروراً [١].

وتكاد تجمع مصادر ترجمة بطرس البستاني أن وفاته كانت في عام ١٨٨٣م (١٣٠٠هـ) وبموت الفجاءة بسبب هبوط في القلب، بينما كان يعمل في دائرة المعارف وعثروا عليه ملقى على أرض غرفته [٢].

وقال فان ديك في رثائه لبطرس: معلمي ورفيقي، فكم من الليالي أحييناها معاً في الدروس والمطالعة والتأليف وحلاوة المعاشرة الصادرة عن اتحاد المقاصد والأغراض [٣].

وقد خصصت بعض مجلات الجمعيات القومية العربية ترجمةً لحياته ومآثره [٤] فمُلئت أعمدتُها رثاءً، وسُوِّدَت صفحاتها حزناً [٥]. ومما ورد في افتتاحية مجلة المقتطف: إن مصابه أُنْزل من الوطنيين منزلة مُصَابٍ عامٍّ وخطب تامّ [٦].

كما أقامت بعض صحف ومجلات الجمعيات القومية رثاءً لوفاته، فقد طرحت (مجلة الهلال) سؤالاً وجهته إلى القراء: اذكر أسماء الأشخاص السبعة من الكتاب والأدباء والشعراء الذين هم في نظر القارئ أصحاب الفضل الأكبر على النهضة الحديثة في الآداب والعلوم بأوسع معانيها - أي من ابتداء القرن الماضي إلى هذا اليوم - أحياءً كانوا أم أمواتاً ومهما تكن مواطنهم أو مذاهبهم؟

---

(١) دائرة المعارف، بطرس البستاني، ٥٩٢.

(٢) يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ١١٦.

(٣) دائرة المعارف، بطرس البستاني، ٥٩٣. وأوردت مبحثاً خصته بالحديث عنه، وذكر تفاصيل وفاته.

(٤) انظر:

١. مجلة المقتطف، الجزء الأول، من السنة الثامنة، آب سنة ١٨٨٣م. ص ٥.

٢. مجلة الهلال، المجلد٤، الجزء العاشر من السنة الرابعة، ٣٠رجب ١٣١٣هـ، ص٣٦٢ - ٣٦٣.

(٥) الروائع، المعلم بطرس البستاني، فؤاد أفرام البستاني، المقدمة.

(٦) مجلة المقتطف، الجزء الأول، من السنة الثامنة، آب سنة ١٨٨٣م، ص ٧.

وكانت نتيجة هذا السؤال أن استحق البستاني ترتيبه الأول من الإجابات الواردة من مصر والسودان وسوريا، وترتيبه الثاني من مجموع الأصوات(١).

وأقام أعضاء الجمعيات القومية العربية حفلة تكريمية بمناسبة إحدى ذكرياته(٢) لبّى الدعوةَ الجمُّ الغفيرُ من حملة الأقلام في العالم العربي، فأقيمت الحفلة مساء الجمعة ٢٦كانون الأول سنة ١٩١٩م، في نادي المدرسة الكلية الأمريكية، واشترك فيها ٦٥ خطيباً بين عالم وكاتب وشاعر ومهندس وصحافي ومحامي وطبيب..، وهكذا فقد اجتمع علماء وأدباء القرن العشرين يكرمون ويعظمون نابغة القرن التاسع عشر..(٣) كما قال أعضاء الجمعيات القومية العربية.

ب - أهدافه وآثاره العلمية والعملية في تأسيس الجمعيات القومية العربية:

يعتبر أعضاء الجمعيات القومية العربية بطرسَ البستاني من أوائل الشخصيات العربية، التي جاءت بفكرة تأسيس جمعياتٍ لأهداف محددة في المجتمعات العربية وفي عصر كانت الأمية من أبرز معالمها. وقد تعددت أشغال البستاني في الجمعيات المختلفة من دينية وخيرية وعلمية أدبية، وفي تعريب الرسائل الدينية والتبشيرية، وإلقاء الخطب وتأليف الكتب.

وإذا ألقينا نظرة على حياته الاجتماعية وأعماله المختلفة، رأيناه رئيساً أو عضواً عاملاً في أكثر الجمعيات والمؤسسات التي عرفت في بلادنا على عهده..، فكان عضواً في عمدة الجمعية السورية الأولى... وكان عضواً فخرياً في المجمع العربي الشرقي، آخذاً بمراسلة

---

(١) انظر: مجلة الهلال، الجزء السادس، السنة ٢٩، ٢١جمادى الآخرة ١٣٣٩هـ، الموافق١مارس ١٩٢١م.

(٢) تراجم مشاهير القرن التاسع عشر، جرجي زيدان، ٢/ ٣١

(٣) الروائع، المعلم بطرس البستاني، فؤاد أفرام البستاني، المقدمة. وانظر: تاريخ الآداب العربية، الأب لويس شيخو، ٢٥٢.

الكثيرين من علماء الشرق والغرب في الشؤون العلمية[1].

وقد بيّن البستاني في دائرة المعارف، تاريخ تأسيس الجمعيات، فقال: (قد وجدت الجمعيات في القدم وفي القرون المتوسطة، وصار لها أهمية بنشرها المعارف المدرسية).

وعن الأهداف الخاصة لتأسيس الجمعيات في البلاد الأوربية والغربية، قال: (يوجد في الممالك المتحدة جمعيات لجميع فروع العلوم والآداب والمعارف الصناعية تقريباً.. فمن تلك الجمعيات: الجمعية الجيولوجية، والجمعية الجغرافية الملكية، وهما أكبر المحركات لاكتشافات هذا العصر المهمة، وكذلك الجمعيات المشتغلة في الآثار القديمة..، وهي ذات نشاط عظيم وقد بذلت الهمة في السفر والتفتيش).

(وتوجد جمعيات علمية أُخر في بلدان أخرى من الشرق وفي كندا وأستراليا، وفي كل قسم تقريباً من الإمبراطورية البريطانية وجميع الجمعيات المهمة من عادتها نشر أعمالها.. وفي هذا القرن يوجد جمعيات مختلفة للعلوم السياسية والمعشرية (الاجتماعية)، وتلك البلاد مملوءة جمعيات لكل فرع من فروع المعارف).

(وأما آسيا وأفريقية فقد أنشئ فيهما في القرن الحالي جمعيات لمقاصد مختلفة ولكن ما بقي منها حياً لا يقاس بشيء من الجمعيات المار ذكرها)[2].

فيقرر بطرس البستاني مبدأ تأسيس الجمعيات، وكونها محددة لأهداف معينة، وذكر منها أهدافاً علمية، وسياسية، واجتماعية... إلخ من الأهداف. ومن الآثار العملية والعلمية في تأسيس الجمعيات القومية العربية، ما يلي:

---

(١) الروائع، المعلم بطرس البستاني، فؤاد أفرام البستاني، المقدمة.

(٢) دائرة المعارف، بطرس البستاني، ٦/ ٥٢٤ - ٥٢٥، جمعية.

أولاً: اطلاع بطرس البستاني على تطور تاريخ تأسيس الجمعيات، واعتبار أن الجمعيات وسيلة مهمة في نشر المعارف والعلوم، فقد قدم اقتراحاً إلى البعثة الأمريكية التنصيرية، بتأليف جمعية تهدف إلى بذل الجهد لمسايرة انتشار التعليم في المدارس وظهور العناية الحديثة بالعلوم.

وحقق المشروع المقترح فأنشئت سنة ١٨٤٧م (١٢٦٣هـ) في بيروت باسم (جمعية الآداب والعلوم)، وكان من أعضائها: اليازجي والبستاني. وكذلك إيلي سميث وكورنيليوس فان دياك، وعدة أعضاء من الأمريكان، وانتسب إليها رجل إنجليزي كان يقيم في بلاد الشام هو الكولونيل تشرشل. ولم يشترك فيها عضو مسلم، فأكثرهم من النصارى السوريين المقيمين في بيروت[١].

وقد يُسجّل في تاريخ البستاني بأنه من أوائل من أسس الجمعيات في البلاد العربية، فيذكر أحد مؤرخي نصارى العرب بأن سورية لم تخل من جمعيات علمية، وقال عن هذه الجمعيات: بأنها نفعت الآداب بأفكارها الراقية ومساعيها بترقية المعارف ومنشوراتها الحسنة.

وكانت أولها جمعية أدبية سعى بعقدها بعض مشاهير لبنان في بيروت سنة ١٨٤٧م، فلم تَطُل مدتها، ثم الجمعية الشرقية التي أنشئت سنة ١٨٥٠م (١٢٦٦هـ) في دير الآباء اليسوعيين في بيروت[٢]. ثم خلفتها سنة ١٨٥٧م (١٢٧٣هـ) الجمعية السورية وضمت عدداً من الذوات[٣].

---

(١) يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ١١٦ - ١١٧ (بتصرف). وانظر: الفصل الأول من الرسالة، ص: (٣٩).

(٢) انظر: مجلة المشرق ١٢/ ١٩٠٩/ ٣٢ - ٣٨. والأعلام، الزركلي، ٥/ ٢٤٦.

(٣) تاريخ الآداب العربية، الأب لويس شيخو، ٧٥، منشورات دار المشرق، بيروت الطبعة الثالثة، ١٩٩١م.

وكان كل أعضاء الجمعية السورية من العرب فلم تضم أحداً من الأجانب على الإطلاق، كما أنها كانت تضم أعضاء من العرب المسلمين إلى جانب المسيحيين، مما يدل على تطور الوعي القومي، والارتفاع فوق الخلافات الطائفية[1] كما يقول أعضاء الجمعيات القومية العربية، ثم اتسعت دائرة أعمالها ونالت من الدولة العلية الرخصة بنشر أبحاثها فنشرت أولاً من حين إلى آخر دون وقت محدد[2].

ثانياً) لقد أسس بطرس البستاني (المدرسة الوطنية)، التي تهدف كما يقول أعضاء الجمعيات القومية إلى أن يتلقى فيها التلاميذ على اختلاف عقائدهم تعليماً أساسه التسامح الديني والمثل الوطنية..، وجذبت إليها التلاميذ من جميع أنحاء بلاد الشام، كان بينهم من قدّم بعد ذلك أعمالاً جليلة لبلاده[3]، وقد أنعمت عليه الحضرة السلطانية بوسام الشرف مكافأة لخدمته[4].

إن تأسيس المدرسة الوطنية على قاعدة الحرية الدينية، ومبدأ الجامعة الوطنية، مماثل لأهداف الجمعيات القومية العربية، والتي تنص مبادئ الجمعيات على الرابطة القومية، وأنها أولى من الرابطة الدينية، كما سبق توضيح ذلك.

ومن أهم ما ينبغي التنبيه إليه أن هدف (المدرسة الوطنية) كان غريباً على المجتمعات العربية في ذلك الوقت، فإن الأتراك وغالبية العرب الساحقة كانوا يشعرون أنهم أعضاء في أمة إسلامية عظيمة يربط بينهم دين واحد، وولاء لحاكم مسلم هو السلطان العثماني[5].

---

(١) حركة اليقظة العربية، محمود صالح منسي، ٦٦.

(٢) تاريخ الآداب العربية، الأب لويس شيخو، ٧٥.

(٣) يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ١١٥.

(٤) الجامع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصل، يوسف الدبس، ٣٥١.

(٥) نشوء القومية العربية، زين نور الدين زين، ٢٦.

يصدق على بطرس البستاني ما ذكره القوميون، بأنه كان متمرداً، ولكن لا على أشخاص بالذات، بل على فكرة دان بها أشخاص من الغرب، فتابعهم عليها آخرون من الشرق، هي فكرة الطائفية والتعصب لها وللدين أيضاً(١).

لقد كانت أهداف المدرسة الوطنية، كما يقول أعضاء الجمعيات القومية، أن تؤلف القلوب بين متغايري الأديان متبايني المذاهب، وتذيع المبادئ الوطنية على صدق في جانب الدولة، وإخلاص في جانب الوطن، فانسل إليها الطلبة من كل نادٍ وصوب؛ من مصر والآستانة واليونان والعراق من عرب وأعاجم، وقد بلغ عدد طلبتها مبلغاً كبيراً وأرضعتهم من لبان الآداب شيئاً كثيراً بما جعل لمنشئها وصاحبها يداً بيضاء في تقدم الأدبيات وإذاعة المبادئ الوطنية(٢)، وقد جارت في تعاليمها بقية مدارس المدينة(٣).

وولي شؤون التعليم أساتذة من العرب والإفرنج لتعليم اللغات بجملتها والعلوم والفنون بضروبها، ومما جرت عليه عادة البستاني في المدرسة أنه كان يخطب في الطلبة مرتين في الأسبوع، يوم مذكرة علامات حال الطالب، وخطبة يوم الأحد فكان يضمنها الحض على التقوى والصلاح وتقويم المسالك وحب الوطن وغير ذلك(٤).

كان تأسيس المدرسة الوطنية قد جاء بعد أن وقعت حروب عدة في البلاد العربية، قال عنها القوميون: ذات صبغة طائفية. ومن أبرزها الحرب الأهلية التي وقعت في لبنان بين النصارى والدروز، سنة ١٨٦٠م(٥)، وقد سعى البستاني كما يقول نصارى العرب إلى تخفيف حدة مشاعر الحقد الديني..، ووقف معظم جهده على الدعوة إلى التوفيق بين

---

(١) دور العروبة في تراثنا اللبناني، زكي النقاش، ١٠٠، دار لبنان، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٠٠هـ.
(٢) دائرة المعارف، بطرس البستاني، ٥٩٠، دار المعرفة، بيروت، لبنان، (دائرة)
(٣) تاريخ الآداب العربية، الأب لويس شيخو، ٧٦.
(٤) دائرة المعارف، بطرس البستاني، ٥٩٠، دار المعرفة، بيروت، لبنان، (دائرة)
(٥) انظر عن هذه الحوادث، كتاب: مذبحة الجبل (حسر اللثام عن نكبات الشام)، شاهين مكاريوس، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٣م.

العقائد المختلفة، وإلى الاتحاد والتعاون في طلب المعرفة...»[١].

فأنشأ البستاني بعد ثلاث سنوات من هذه الحروب المدرسة الوطنية، غايتها أن يتلقى فيها التلاميذ على اختلاف عقائدهم، تعليماً أساسه التسامح الديني والمثل الوطنية..، وتَزَوُّد التلاميذ من مختلف الأديان بتعليم قومي[٢]. فجذبت إليها التلاميذ من جميع أنحاء بلاد الشام، كان بينهم من قدم بعد ذلك أعمالاً جليلة لبلاده[٣].

وقد وصفته دائرة المعارف، بأن من خلاله الحميدة وخصاله المشكورة، ترفعه عن التعصب وإباؤه الانقياد إلى هوى النفس، إذ لم يكن متعصباً إلا للوطن، ولا منقاداً إلا للمبادئ الوطنية..، مجتهداً مجداً في ترقية مصلحة البلاد بالأدبيات..»[٤].

وأما عن الجانب التاريخي للمدرسة الوطنية، فيقول عنها مؤرخو النصارى: هي من جملة المدارس التي أنشأها الموارنة، لأن منشئها ماروني أصلاً وهو المعلم بطرس البستاني، وقد افتتحها سنة ١٨٦٣م (١٢٧٩هـ)، وجعلها تحت إدارة ابنه سليم الذي كان يعلم بها العلوم والصف الأول الإنكليزية، وتخرج بها كثيرون من الموارنة أيضاً ولم تكن تتعرض لتلامذتها في أمر دينهم، بل كانت ترسلهم لقضاء فروضهم الدينية في كنائس طوائفهم، ودامت خمس عشرة سنة، وقد أقفلت سنة ١٨٧٥م (١٢٩١هـ)[٥].

وقد تخرج من المدرسة الوطنية كثيرون من الطلبة بعد أن تزود التلاميذ من مختلف الأديان بتعليم قومي، وارتقى كثيرون منهم إلى وظائف معتبرة ومراتب سامية[٦].

---

(١) يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ١١٥.

(٢) حركة اليقظة العربية، محمودصالح منسي، ٦٥.

(٣) يقظة العرب، أنطونيوس، ١١٥. وانظر: التبشير والاستعمار في البلاد العربية، عمر فروخ، ١٣٧.

(٤) دائرة المعارف، بطرس البستاني، ٥٩٢.

(٥) الجامع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصل، يوسف الدبس، ٣٨٢. انظر: الأعلام، الزركلي، ٨/ ٢١٩.

(٦) دائرة المعارف، بطرس البستاني، ٥٩٦. وانظر: الجامع المفصل، يوسف الدبس، ٣٥١. وانظر: حركة اليقظة العربية، محمود صالح منسي، ٦٥.

ويقول أحد نصارى العرب المنتسبين للجمعيات القومية العربية: كنت سنة ١٨٦٥م (١٢٨١هـ) تلميذاً بالمدرسة الوطنية التي أسسها في بيروت المعلم بطرس البستاني وهو أحد أصحاب النهضة العربية المجد المجتهد..، توفي سنة ١٨٨٣م، وكنت يومئذ في بيروت وحضرت مشهده، حيث كان رئيسي ومعلمي[1].

إن المدرسة الوطنية تعتبر من أبرز آثار بطرس البستاني القومية، ولذا اعتبره القوميون بأنه أول من رفع راية التعليم (العلماني) والقائم على الوطنية، والحرية الدينية. وقالوا عنه: كفاه بذلك حقاً، أن يكون بين الفئة الممتازة، ممن خدمتهم العروبة، فعرفوا لها فضلها، وأعادوا لها بعض ذلك بعرفان جميلها[2].

ثالثاً: ومن مآثره القومية، الخطب التي كان يلقيها في الجمعيات، كما يقول أعضاء الجمعيات القومية العربية. له خطب عدة كان يلقيها في الجمعيات والأندية، التي حث الأمريكان على إنشائها، كما كان يكتب لهذه الجمعية الأدبية النشرات[3]، وكان في عصره كما يقول جرجي زيدان: زعيم الحركة الأدبية في سوريا، من حيث المدارس والجمعيات والجرائد والمجلات، واللغة والعلم، والأدب[4].

لقد كانت خطبه وكلماته تهدف لما قرره، من تحقيق المبدأ العلماني، والحرية الدينية، والبعد عن التعصب الديني، والمطالبة بنشر المعارف والعلوم في الأمة، ولهذا فأبلغ المآثر

---

(١) مجمع المسرات، شاكر الخوري، ٨٢، مطبعة الاجتهاد، بيروت، ١٩٠٨م. وقد رثاه المؤلف بقصيدة طويلة، ٤٢١.

(٢) دور العروبة في تراثنا اللبناني، زكي النقاش، ١٠١. وانظر: بشير بين السلطان والعزيز (١٨٠٤-١٨٤١)، أسعد رستم، ٢٣٢، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٦٦م.

(٣) يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ١١٥.

(٤) تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان، دار الهلال، ٢٦٩.

التي ذكرها بطرس البستاني - عند حديثه عن الخليفة العباسي هارون الرشيد -، بأن له شهرة عظيمة في الرغبة والهمة والنشاط في إحياء العلوم والآداب ونشرها في مملكته المتسعة..، وكان يعتبر العلم أينما وجد، والعلماء مهما كان مذهبهم، فلم يكن يزدري بمعرفة من يخالفه في أمر المذهب، فإن رئيس مدارسه وأول مدير للعلوم في المدارس العالية في مملكته كان رجلاً نصرانياً نسطورياً دمشقياً اسمه يوحنا بن ماسويه[(١)].

وللدور البارز الذي قام به بطرس البستاني بحركة الترجمة مع الحملة التنصيرية، تحدث البستاني عن مناقب المأمون ودوره في ترجمة كتب اليونان، فمما قال بطرس البستاني عن المأمون: (..كان منذ نعومة أظفاره مولعاً بالمطالعة والدرس، وقد اتخذ في حياة والده صحابة له من مشاهير علماء اليونان والعجم والكلدان، ولما تبوأ تخت السلطنة لم تلهه مهماتها وعظمتها عن الاعتناء بالعلوم والقيام بحقها وحق أربابها، فكانت الشعراء والفلاسفة والمهندسون تتوارد إليه إلى بغداد من كل بلاد وملة.

وقد أمَر سفراءه في أرمينية وسوريا ومصر أن يجمعوا ما يمكن وجوده فيها من الكتب الأكثر اعتباراً، ويبعثوا بها إليه، فكانت ذخائر آداب الأقاليم التي تغلّب عليها تُجمع بكل اعتناء وتوضع أمام عرشه كأعظم جزية وأفخر التحف والهدايا عنده.. من آداب اليونانيين والعبرانيين والعجم، وقد داخل ملوك الروم وسألهم صلته بما لديهم من كتب الفلسفة فبعثوا إليه منها ما حضرهم فاستجاد لها مَهَرَةَ التراجمةِ وكلّفهم إِحكام ترجمتها، فترجمت له على غاية ما أمكن، ثم حرض الناس على قراءتها ورغبهم في تعليمها)[(٢)].

---

(١) انظر عن أثر تمكين النصارى في أعمال المسلمين خلال الدولة العباسية: أحكام أهل الذمة، ابن القيم، ١/ ٢١٤ - ٢٣٦. دولة بني العباس، شاكر مصطفى، ٢/ ١٠١.

(٢) أعيان البيان من صبح القرن الثالث عشر الهجري إلى اليوم، حسن السندوبي، ٢١٠. انظر: كلام شيخ الإسلام ابن تيمية عن حركة الترجمة في بيان تلبيس الجهمية، ١/ ٣٢٣، مؤسسة قرطبة.

رابعاً: ومن آثار بطرس البستاني القومية إنشاء بعض الصحف العربية، وقد سبق بيان دور الصحافة في تأسيس الجمعيات القومية العربية[1]. لقد اعتبرت صحف الجمعيات القومية العربية، عمل وتأسيس البستاني للصحف - ذات المنهج القومي -، قد جاء ملبياً لما ترغبه النفوس.

وكما يقول أعضاء الجمعيات القومية العربية تاقت الناس إلى منشورات سياسية، واقتضت مصلحة الأمة إذاعةَ المبادئ الوطنية الصحيحة..، وإنشاءَ الجنة والجنان والجنينة - وهي منشورات سياسية -، وإحداثَ المدرسة الوطنية لإذاعة المبادئ الوطنية من طرف التعليم والتثقيف[2].

قال القوميون العرب: لقد سعى البستاني إلى تخفيف حدة مشاعر الحقد الديني، بإصدار صحيفة أسبوعية صغيرة في بيروت باسم (نفير سورية)، وكانت أول صحيفة سياسية أتيح لها الصدور في تلك البلاد، وقد وقفت معظم جهدها على الدعوة إلى التوفيق بين العقائد المختلفة، وإلى الاتحاد والتعاون في طلب المعرفة[3]، وصحيفة نفير سورية تعتبر أول نشرة عربية ظهرت في سوريا إذ أنشئت سنة ١٨٦٠م (١٢٧٦هـ)[4]، وتتكون صحيفة نفير سورية، من صفحتين..، وتظهر على شكل رسائل وطنية، تتضمن نصائح مفيدة، لِشَدِّ عُرى الألفة بين السكان. ولما أخلد الناس إلى السكينة أوقف نشرها[5].

وصحيفة الجنان التي أنشأها البستاني سنة (١٨٧٠م - ١٢٨٦هـ)، وهي: مجلة علمية أدبية سياسية؛ عَهِدَ بإداراتها إلى ولده سليم، وكانت تصدر كل أسبوعين، وكانت

---

(١) انظر: الفصل الثالث من الرسالة. ص: ٢٢٤.

(٢) مجلة المقتطف، الجزء الأول، من السنة الثامنة، آب سنة ١٨٨٣، ص: ٦.

(٣) يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ١١٤.

(٤) أعيان البيان من صبح القرن الثالث عشر الهجري إلى اليوم، حسن السندوبي، ٢٠٨.

(٥) لبنانيات، نقولا زيادة، ٦٩.

الغايةُ منها محاربةَ التعصب والدعوة إلى التفاهم والاتحاد لخير الوطن، وكان شعارها (حب الوطن من الإيمان)، وكان يحرص على أن يبرز هذا الشعار على الصفحة الأولى مع العنوان في كل عدد، ويعتبر البستاني بأنه أول من خط على صفحات القلوب ورسم على صحف الجنان (حب الوطن من الإيمان)(١)، وكان يشارك في الكتابة فيها عدد من الكتاب من البلاد العربية المجاورة ومن بلاد الشام نفسها(٢).

وللدور المؤثر التي تؤديه صحيفة (الجنان) نالت اهتمامَ والي سورية مدحت باشا، حتى إنه كان يزور إدارتها في مجيئه لبيروت، ويبث أفكاره الإصلاحية بواسطتها(٣)، وكانت تُعنى عناية خاصة بعرض الآراء التي كان يدعو إليها مؤسسها، وأنها كانت حافزاً قوياً وجّه الأفكار إلى التسامح الديني، والنظرة الواسعة إلى الأمور(٤).

أمّا صحيفة الجنة: فهي صحيفة سياسية أنشأها بعد الجنان ببضعة أشهر، وبالتحديد صدرت في حزيران ١٨٧٠م، مرة في الأسبوع، ثم مرتين في الأسبوع(٥).

وصحيفة الجنينة: جريدة أنشأها بعد الجنة بزمن قليل، صدرت سنة ١٨٧١م، وكانت تصدر أربع مرات في الأسبوع، وَوَلِي زمامها سليمان أفندي البستاني(٦).

وقد قيل عن دور البستاني في إنشاء الصحف: إنه أظهر من البراعة والاجتهاد ما جعله موضع إعجاب الحملة التنصيرية، ونشر الصحف يتلو بعضها بعضاً بهمة لا تعرف

---

(١) دائرة المعارف، بطرس البستاني، ٥٩٤.

(٢) يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ١١٥.

(٣) لبنانيات، نقولا زيادة، ٧١.

(٤) يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ١١٥.

(٥) مقدمة كتاب: سليم البستاني، ميشال حجا، ٢٠.

(٦) أعيان البيان من صبح القرن الثالث عشر الهجري إلى اليوم، حسن السندوبي، ٢٠٨.وانظر: مقدمة كتاب: سليم البستاني، ميشال حجا، ٢٠.

الملل، وما يزال يكد في خدمة البلاد بنشر الآداب بين طبقات أهلها[1].

ومن الأمثلة على المقالات الصحفية التي نُشرت في مجلة الجنان: (علامَ نخلط الدين بالدنيا، ونحط شأن السماويات بمزجها في الأرضيات، فنجعل لاعتقاداتنا دَخَلاً في أعمالنا، فتؤثر اختلافاتنا الدينية في أعمالنا العالمية، فينشأ عنها ذلك الشقاقُ الذي طالما كرر الأمم وأتى بالحروب والويلات؟!

إن زماننا قد تغير؛ فمن الحكمة أن نتبعه وقد تبدلت الأحوال، فالإصابة في مجاراة ذلك التبديل، فما كنا نراه في الأمس لا نراه اليوم لأن نسبتنا إلى دولتنا العلية، ونسبتها إلينا، وصلاتُنا الغربية وصلاتُ الغرب عندنا قد أخذت غير المجرى المعهود، وأصبحنا جميعاً رعية واحدة لراعٍ واحد عنده من الحلم ما يوافق لين عريكتنا، ومن التأني ما يناسب ارتباكاتنا الناتجة عن التعلق ببعض الماضي، وتعلم بعض الأمور الجارية والتأهب لقبول ما سوف يجري.

ولذلك لا بد من أن نكون في معابدنا إسلاماً وأرمن ودروزاً وموارنة وغير ذلك. وفي ميادين الأعمال عثمانيون لنا راية واحدة، استبداد الحال لنا إنما يكون بالاجتماع حولها بالغيرة والحمية والصداقة..)[2].

وهذه الدعوة التي ذكرتها مجلة الجنان، هي من ضمن الدعوات التي تنادي بها الجمعيات القومية العربية، خلال إقرارها المعتقد القومي.

وجاءَ عن موقف المجلة من ارتباط الدين بالسياسة: (كثيراً ما مُزِج الدين بالسياسة، ونتج من ذلك أضرار لا تحصى.. لأنهما ضدان، لأن أساس الدين هو الاختيار بحسب

---

(١) أعيان البيان من صبح القرن الثالث عشر الهجري إلى اليوم، حسن السندوبي، ٢٠٥ - ٢٢٢، المطبعة الجمالية، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٣٢هـ (١٩١٤م).

(٢) مجلة الجنان، الجز ٦، سنة ١٨٧٤، ص:١٨١، نقلًا من كتاب: الأعمال المجهولة، سليم البستاني، ١٢٢.

الاقتناع، وهو يتعلق بكل إنسان على حدهَ، وأما أساس السياسة الرضوخ لما يستحسنه أكثر جمهور ارتبط أفراده بعضهم ببعض برباطات الصوالح المدنية، وهذا الرضوخ هو إلزامي؛ بخلاف الرضوخ للدين فإنه اختياري..ك ولا يوجد دين يمنع أهله من موافقة روح العصر في الأمور المدنية، لأن الدين لا يتعرض للأمور المعاشية[1].

أيدت المجلةُ الثورةَ الفرنسية، إذ رأت فيها إعادةَ حقٍّ سُلِبَ منهم، جاء فيها: (إن الذي حمل الفرنساويين على إثارة الثورة هو ما كانوا يعتقدونه من التعدي الواقع على حقوقهم..، فهاجت الأمة وماجت وطلبت ما كان يحق لها أن تطلبه من الحقوق، ولو لم تتجاوز حدود الاعتدال في ثورتها لتقررت في صدور التواريخ بدون ذكر الحوادث التي تسود بياض بعض اجتهاداتها).

وأكدت مجلة الجنان على أن الثورة الفرنسية، هي بداية عصر الحقوق وفي أوربا خاصة، وليس المقصود حقوق كل أمة بالنسبة إلى غيرها، ولكن حقوق كل أمة بالنسبة إلى دولتها..، وجمع الجنسيات بعضها لبعض، وأن تساعد كل أمة على أن تسوس نفسها..وحاصل الكلام: (إنّ الثورة الفرنساوية جمعت أمم أوربا على طلب حقوقها والمحافظة عليها، ومنذ ذلك الزمان أخذت الدول العاقلة في الميل عن سبل سياستها الأولى، وفي إعطاء رعاياها حقوقها)[2].

خامساً: لقد أخرج البستاني دائرة تسمى (دائرة المعارف) كتب نموذجاً عنها ورفعه إلى ملك مصر الخديوي إسماعيل[3] والتمس من لدنه الإعانة، فصدرت إرادته بإمداده

---

(١) سلسلة الأعمال المجهولة، سليم البستاني، ١٥٠.

(٢) الأعمال المجهولة، سليم البستاني، ١٧٤

(٣) إسماعيل بن إبراهيم بن محمد علي الكبير، ولد في القاهرة سنة ١٢٤٥هـ، وولي مصر سنة ١٢٧٩هـ، وهو أول من أطلق عليه لقب الخديوية من رجال أسرته، عزل سنة ١٢٩٦هـ، وقضى بقية أيامه في أوربة والآستانة. وتوفي في الآستانة سنة ١٣١٢هـ، ودفن بالقاهرة. انظر: (الأعلام، الزركلي، ١/ ٣٠٨).

بما يكفل ظهور هذا الكتاب إلى حيز الوجود.. وأمدته بمكتبة عظيمة حوت أجل الكتب وأنفعها للاستعانة بها على تحرير الدائرة[1].

وقد قال أعضاء الجمعيات القومية العربية، عن دائرة المعارف: إنها قاموس شامل لسائر العلوم على اختلاف مواضيعها وأزمانها، وكان قد شرع فيه عام ١٨٧٥م، يعاونه ولدهُ سليم وبعض الكتاب من المتأدبين وطائفة من خريجي مدرسته الوطنية في بيروت وسماه (دائرة المعارف).

وهو كتاب فريد لم ينسج على منواله في اللغة العربية، أصدر منه ستة مجلدات، وتوفي وهو في بداية المجلد السابع، فأتم السابع والثامن ابنُه سليم، وتوفي قبل الشروع في التاسع فأصدر أبناؤه الباقون الجزء التاسع، بمعاضدة ابن عمهم سليمان أفندي البستاني، ثم حالت موانع أدت إلى إيقاف العمل في بيروت ومضت على ذلك بضع سنوات إلى أن قدم القاهرة سليمانُ وأخذ في إتمام الدائرة.. فصدر الجزء العاشر والحادي عشر سنة ١٩٠٠م (١٣١٧هـ) عند كلمة عثمانية ثم توقف العمل[2].

كما أن للبستاني كتاباً سماه محيط المحيط: وهو قاموس عربي جليل.. أضاف إليه طائفة من الألفاظ العامية والكلمات الأعجمية الدائرة على الألسنة ورفعه إلى السلطان عبدالعزيز[3] فأثابه عليه الوسامَ المجيديَّ الثالثَ وجائزةً من المال، وشاع هذا الكتاب شيوعاً عظيماً حتى أصبح الآن نادر الوجود[4].

---

(١) أعيان البيان من صبح القرن الثالث عشر الهجري إلى اليوم، حسن السندوبي، ٢٠٨.

(٢) تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، جرجي زيدان، ٢/ ٣٩، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان. وانظر الروائع، المقدمة.

(٣) السلطان عبدالعزيز: ولد في شعبان سنة ١٢٤٥هـ (١٨٣٠م)، تولى السلطة سنة ١٢٧٧هـ (١٨٦١م)، ويعتبر من أوائل السلاطين الذين أدخلوا العلمانية في الدولة العثمانية، كما اتسم عهده بالفتن والإسراف والبذخ مما أدى إلى خلعه بفتوى من شيخ الإسلام حسن خير الله أفندي، ليموت بعد ذلك منتحراً سنة ١٢٩٣هـ. انظر: (تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد، ٥٣٠ - ٥٨٠).

(٤) أعيان البيان من صبح القرن الثالث عشر الهجري إلى اليوم، حسن السندوبي، ٢٠٨.

» ثانياً: ناصيف اليازجي:

أ - تعريف موجز بالشخصية الذاتية:

هو: ناصيف بن عبدالله بن ناصيف بن جنبلاط، الشهير باليازجي. ولد سنة ١٢١٤هـ (١٨٠٠م)، وأصله من حمص بسورية، مولده في (كفر شيما) من قرى ساحل بيروت بلبنان[١].

هاجر جدُّه من حمص مع جماعة من ذويه سنة ١٦٩٠م (١١٠١هـ).. فتوطن أناس منهم في ساحل لبنان في الجهة المعروفة بالغرب، ولا تزال بقية أسرتهم في حمص[٢] ونواحيها. وهم عشيرة كبيرة من ذوي الوجاهة واليسار، وأكثرهم من طائفة الروم الأرثوذكس، أما فرع ناصيف فإنه ينتمي إلى الروم الكاثوليك[٣].

يعتبر ناصيف اليازجي الشخصية الثانية، من الشخصيات التي أثرت في تأسيس الجمعيات، والدعوة للفكر القومي. فقد قيل عنه: عميد بيت اليازجي، وركن من أركان النهضة العلمية في سوريا. وهو أشهر من أن نعرف به، لما كان له من القدح المعلى في اللغة والشعر والأدب[٤].

وتأتي أهمية ناصيف اليازجي من كونه ملازماً لبطرس البستاني في الجانب التاريخي، ولهذا نجد بعض القوميين الذين أرخوا للفكر القومي في تلك المرحلة، كتبوا عن الشخصيتين معاً، مع أن ناصيف أسنُّ من بطرس[٥].

---

(١) الأعلام، الزركلي، ٧/ ٣٥٠.

(٢) تراجم مشاهير الشرق، جرجي زيدان، ٢/ ١٦.

(٣) تاريخ الصحافة العربية، فيليب دي طراز، ١/ ٨٢، بيروت، المطبعة الأدبية، ١٩١٣م.

(٤) تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان، ٤/ ٢٣٤.

(٥) انظر: يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ١٠٩.

وهو نصراني المعتقد ألّف قصيدة مطبوعة ضمن قصائد في ديوانه بعنوان (القول الصحيح في لاهوت المسيح) وتبيّن عقيدته، قال فيها:

نحن النصارى آل عيسى المنتمي
حسب التأنس للبتولة مريم
وَهُوَ الإلهُ ابنُ الإلهِ وروحُه
فثلاثةٌ في واحدٍ لم تُقسَمِ
للأبِ لاهوتُ أبيهِ وكذا ابنُهُ
وكذا هما والروحُ تحتَ تفنُّنِ
عن آدم قد قالَ صارَ كواحدٍ
منَّا بلفظ الجمعِ من ذاكَ الفمِ
خَلَقَ البسيطةَ واحداً في جوهرٍ
أَحدٍ لخِدمةِ آدمَ المُستَخدَمِ
لكنْ عصاهُ بزلَّةٍ لا تنمحي
إلا بإرسال ابنه المُتجسِّمِ
فأتى وخلَّصهُ وخلَّصَ نسلَهُ
ذاكَ المخلِّصُ من عذابِ جهنَّمِ

وعن معتقده في مسألة صلب المسيح وحمله لخطاياهم، قال:

هذا مسيحُ اللهِ فادينا الذي
صَلَبَتهُ طائفةُ اليهودِ كمُجرِمِ

بطبيعةٍ بَشَرِيّةٍ قد أُلّمَتْ

وطبيعة اللاهوتِ لم تتألَّمِ

حَمَلَ الجِرَاحَ بنفسِهِ مُتَعمِّداً

حتى تكونَ لجُرْحِنا كالمرهمِ

قد كانَ منهُ طَوعاً وَهْوَ قد

وافَى لهُ يفدِي بهِ الدَّمَ بالدَّم[1].

.. إلخ ما قال عن معتقده النصراني في الإنجيل وصدقه، وعدد طوائف النصارى، وبيان فضائل النصرانية.

تلقى ناصيف اليازجي بواكير علمه عن طريق القساوسة في الأديرة، حيث كانت وسائل التعليم إذ ذاك محصورة في جماعة الإكليروس، فتلقى القراءة البسيطة على يدي القس متىّ من قرية بيت شباب.. ولما لم تكن الكتب ميسورة في ذلك العهد لقلة المطبوع منها، إذ لم يكن في البلاد السورية ولا المصرية إلا مطابع نادرة، وقلما كانت تشتغل بطبع الكتب العلمية؛ كان جلُّ اطلاع اليازجي على كتب يستعيرها من بعض الأديرة والمكاتب القديمة، فمنها ما يقرؤه مرة فيحفظ زبدته ومنها ما ينسخه بخطه[2].

ويعتبر ناصيف اليازجي ممن درس مستقلاً بذاته[3]. وساعده في تحصيل العلم والده عبدالله الذي كان طبيباً على نهج ابن سينا، فَعَهِد بتأديب ناصيف إلى أحد القسس فتلقى عليه مبادئ القراءة والكتابة..، فنال حظاً وافراً من فنون الآداب[4].

---

(١) ٦ ديوان الشيخ ناصيف اليازجي (النبذة الثالثة وهي المعروفة (بثالث القمرين)، ٧٧ - ٨١، المطبعة الأدبية، بيروت، سنة ١٩٠٣م.

(٢) تراجم مشاهير الشرق، جرجي زيدان، ٢/ ١٦.

(٣) بشير بين السلطان والعزيز (١٨٠٤ - ١٨٤١م)، أسعد رستم، ٢٣٤.

(٤) أعيان البيان، حسن السندوبي، ٦٠.

ولمكانته اللغوية راسله كبار العلماء من مستشرقين ووطنيين في البلاد العربية، ومدحوه بقصائد رائعة ومقالات شائقة عارفين منزلته العلمية[1].

وقد اقتصر في تلقيه للعلوم على تعلم اللغة العربية وآدابها، فمما يذكره القوميون عنه أَنْ أصبحت اللغة العربية هي غرامه الوحيد في حياته الفكرية.. وكانت هي اللغة الوحيدة التي يعرفها، ومات دون أن يتعلم غيرها[2] ولعِلُوِّ مكانته في اللغة أصبح أحد أركان النهضة اللغوية في بلاد الشام[3].

كانت بدايات بروز ناصيف اليازجي - كما يقول عنه مؤرخو نصارى العرب - وهو في السادسة عشرة من عمره بما كان ينظمه من قصائد..، وصل خبره إلى بطريارك الروم الملكيين الكاثوليك، فدعاه ليكتب له في دير (القرقفة) الواقع على هضبة من هضبات كفر شيما [4]، وكان ذلك سنة ١٨١٦م (١٢٣١هـ). فلبث ناصيف بهذه الوظيفة مدة سنتين حتى نقل البطريارك إقامته إلى الزوق[5].

وقد يعتبر من المؤثرات الفكرية على حياة ناصيف اليازجي مكوثُه في ديوان الأمير بشير الشهابي[6]، حيث بلغت شهرة ناصيف الأميرَ بشير حاكم لبنان فتخذه من كتاب ديوانه بتدين من ١٨٢٨م (١٢٤٣هـ) إلى ١٨٤٠م (١٢٥٥هـ).

---

(١) تاريخ المشايخ اليازجيين عيسى إسكندر معلوف، ١١، المطبعة المخلصية، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٤٥م.

وانظر: أعيان البيان، حسن السندوبي، ٦٠.

(٢) يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ١١١.

(٣) تراجم مشاهير الشرق، جرجي زيدان، ٢/ ١٦.

(٤) ناصيف اليازجي، عيسى ميخائيل سابا، ١١.

(٥) تاريخ الصحافة العربية، فيليب دي طراز، ١/ ٨٦.

(٦) بشير بن قاسم بن عمر الشهابي، أكبر الأمراء الشهابيين النصارى، وكان لهم شأن في لبنان، ولد سنة ١١٧٣هـ، واتصل بأحمد الجزار وتولى إمارة لبنان، وناصر إبراهيم باشا ضد الدولة العثمانية، نفي إلى مالطة، وطلب العودة إلى الآستانة ومات فيها سنة ١٢٦٦هـ. انظر: (الأعلام، الزركلي، ٢/ ٥٧).

فلما زار الشاعرُ الفرنسي دي لامرتين - الذي يعتبر من مشاهير الشعراء الفرنسيين، وزعيم الحركة الرومنطيقية - الأميرَ بشير في (بتدين) جالسَ الشيخ ناصيفاً، وكتب عنه في رحلته[١] في كتابه رحلة الشرق[٢].

ويصف اليازجي دولة بشير الشهابي، بأن لها آثاراً حسنة في البلاد.. فهم الذين مهّدوا البلاد وذللوا صعابها، وكسروا عادية المردة والعصاة من أهلها، وقطعوا العداوات والفتن التي مرت عليها دول شتى وهي منتشرة بين الناس[٣].

أمضى ناصيف اليازجي في الديوان الأميري اثني عشر عاماً في خدمة بشير الشهابي، وفي عام (١٢٥٦هـ، ١٨٤٠م) نُزِعَت حكومةُ لبنان من يد الأمير ونُفيَ إلى مالطة ردحاً من الزمن، ثم جاءه أمر سلطاني يسمح له بالإقامة في أي مكان في المملكة عدا سورية[٤].

وسبب نزع السلطة من يد الأمير يشير، أنّ الأمير بشير اتفق مع إبراهيم باشا[٥]، قائد جيوش والده محمد علي باشا بالانفصال عن الدولة العثمانية، وذلك سنة ١٢٤٧هـ (١٨٣١م)[٦].

ولما في حركة إبراهيم باشا من تأييد لمطلب الجمعيات القومية، وهو الانفصال عن الدولة العثمانية، فقد علق أعضاء الجمعيات على هذه الحركة آمالاً، وهكذا تتكرر

---

(١) تاريخ المشايخ اليازجيين، عيسى معلوف، ١٠. وانظر: دائرة المعارف الماسونبة، حنا أبي راشد، ١/ ٦٠٠.

(٢) الرحالة الفرنسيون في موطن الرز، أميرة جبر، ١٣، مؤسسة خليفة، البوشرية، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م.

(٣) مجلة الهلال، الجزء الأول من السنة الثالثة عشرة، ٢١رحب سنة ١٣٢٢هـ، ص: ٥٢١. مقال بعنوان (جبل لبنان). وانظر عن نسبة هذا المقال لليازجي: الآداب العربية في القرن التاسع عشر، لويس شيخو اليسوعي، ٢/ ٣١. تاريخ المشايخ اليازجيين، عيسى إسكندر معلوف، ١٧.

(٤) أعيان البيان، حسن السندوبي، ٦٠. وانظر: العرب والعروبة، محمد عزة دروزة، ٢/ ٢١٦.

(٥) إبراهيم باشا، بيير كربتيس، ترجمة: محمد بدران، لجنة التأليف والترجمة، ١٩٣٧م.

(٦) العرب والعروبة، محمد عزة دروزة، ٢/ ٢٠٩

حركة مصر الهادفة إلى سلخ مصر والشام عن الدولة العثمانية وإقامة دولة مستقلة متحدة جديدة[1]. واعتبر أعضاء الجمعيات إبراهيم باشا باذلًا أقصى الجهد في نشر أفكاره عن نهوض العرب نهضة قومية، وكان يحاول أن يقنع سكان البلاد بأن فجر عهد جديد أشرق عليهم بتولي محمد علي الحكم، واستطاع في زمن لم يتجاوز عاماً، أن يقيم نظاماً جديداً يعتمد على المساواة في الحقوق الدينية والمدنية..[2].

وقد اهتم بشير الشهابي بالحملة الفرنسية التي جاءت إلى مصر وأرسل أحد مستشاريه ليشاهد عن كثب، مجرى الأحوال، وليرسل تقريراً عن تلك الحملة وما رافقها[3].

لقد كانت هذه الأحداث والأفكار، في حكم الأمير بشير الشهابي، واليازجي من رجال الدولة، ومن المقربين في ديوانه.

ولكن بعد فشل حملة إبراهيم باشا، والقضاء على حكم الشهابي والقبض عليه، اتجه ناصيف اليازجي إلى بيروت وأقام بها مع ذويه، وعكف على المطالعة والتدريس، وتأليف الكتب للناشئين ونظم الأشعار، ومراسلة الأدباء في الأقطار، فذاع صيته، وعلت مكانته، فكان نجعة أهل الأدب وشرعة أولي الفضل[4].

وقد أصيب ناصيف اليازجي في عام ١٨٦٩م (١٢٨٥هـ)، بمرض عضال فانفلج فالجاً نصفياً عطّل نصفه الأيسر، ثم أصابته سكتة دماغية فتوفي فجأة بتاريخ ٨ شباط ١٨٧١م (١٢٨٧هـ) في منزله الكائن في زقاق البلاط بالقرب من (المدرسة الوطنية)..، فجرى لمشهده احتفال عظيم جداً اشترك فيه العلماء والكبراء والتجار وتلامذة المدارس

---

(١) المصدر نفسه، ٢/ ٢٠٩.

(٢) يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ٩١.

(٣) لبنانيات، نقولا زيادة، ١٠٦.

(٤) أعيان البيان، حسن السندوبي، ٦٠.

وجم غفير من الناس من النصارى والمسلمين واليهود..[1].

ونشرت بعض الصحف أقوالاً في رثائه، فمما قالوا: (إن الشيخ ناصيف اليازجي أشهر شعراء العرب في هذا العصر، قد توفي في بيروت عن إحدى وسبعين سنة..، وقد مُدِحت تآليفُه في المدرسة العربية في بلاد جرمانيا، وترجم منها شيء إلى اللغة الجرمانية. وبالحقيقة فإن الآداب العربية قد تكبدت بفقدانه خسارة عظيمة لا تعوض، وقد ترك مؤلفات عديدة في كافة الفنون العربية تخلّد له ذكراً مؤبداً، وقد تأسف عليه جميع أهل الأدب من أبناء وطن وأجانب[2].

وقد رثاه ابنه إبراهيم اليازجي قائلاً:

فخر النصارى صاحب الغرر التي
ضربت على ذكرى البديع وأحمدا
هذا عماد العلم مال به القضا
فأمال ركناً للعلوم مشيَّدا[3].

ب - أهدافه وآثاره العلمية والعملية في تأسيس الجمعيات القومية العربية:

يتجلى الدور الذي أدّاه اليازجي في تأسيس الجمعيات القومية عبر ما كتبه في مؤلفاته وما قاله فيه غيره في الأمور التالية:

1) اعتبار مكانته العلمية: بلغ من كل علم من علوم العربية لبابه، ودرس أشهر

---

(1) تاريخ الصحافة العربية، فيليب دي طراز، 1/ 88.
(2) تاريخ المشايخ اليازجيين عيسى إسكندر معلوف، 42. وانظر: مجلة النجاح البيروتية، وقد نشرت ترجمة الرثاء في المجلد 2، الجزء 37، تاريخ 22 أيار، سنة 1871م، الصفحة 586.
(3) رسائل اليازجي، إبراهيم اليازجي، 102، مطبعة اليوسفية، مصر، 1920م.

مصنفاته، وله في جميعها تآليف مشهورة، هي اليوم عمدة التدريس في أكثر المدارس المسيحية، وله ثلاثة دواوين شعرية تعد من عيون الشعر وكثير منها محفوظ على الألسنة، ولا سيما الأبيات الحكمية منها وهي في شعره أكثر من أن تحصى، وله المقامات المشهورة باسم مجمع البحرين[١].

وقد اعتبر أعضاء الجمعيات القومية اليازجي شاعرَ القرن التاسع عشر، وهو مطلع النهضة الحديثة، وعلماً من أعلام البيان، وسيداً من سادة العلم وأركان النهضة العلمية في لبنان[٢].

وأقبل أكابر الشعراء من جميع الأنحاء العربية على مراسلته ومدحوه بما دلّ على وفور فضله وعلو كعبه في الشعر والأدب[٣].

ولهذه المكانة العلمية التي وُصف بها اليازجي سعى إليه السعاة، وتخرج على يديه الشباب، ولا سيما طلبته الذين أخذوا عنه العلم في مختلف المعاهد والمدارس التي علم فيها، فخلّف بذلك أجيالاً من المتعلمين المثقفين كانوا نواة النهضة التي آتت أكلها في الأجيال التي تلت جيله...، وأصبحت كتبه منهل الورّاد يغترفون منها زلال الأدب ومعين العلوم، فما من أديب ولا متأدب في عصره وبعد عصره إلا استقى من ذلك النبع الفياض[٤].

وقد طُبع ما دار بينه وبين أكابر الشعراء من العراق ومصر وغيرهما في ديوان مخصوص عنوانه (فاكهة الندماء في مراسلات الأدباء)[٥]، وعندما اطلع عليه أحد تلامذته، قال: قد

---

(١) تراجم مشاهير الشرق، جرجي زيدان، ٢/ ١٦.

(٢) ناصيف اليازجي، عيسى ميخائيل سابا، ٣٠ و ٣٦.

(٣) تراجم مشاهير الشرق، جرجي زيدان، ٢/ ٢٠

(٤) ناصيف اليازجي، عيسى ميخائيل سابا، ١٨.

(٥) تاريخ الصحافة العربية، فيليب دي طراز، ١/ ٨٦.

عُنيت باستقصائها فوجدت شيئاً كثيراً من تلك الرسائل - نثرية وشعرية - قد أُغفِلَت في الطبع فجمعتها عندي[(١)].

٢) التعليم والتدريس: قال عنه أعضاء الجمعيات القومية، بعد عودته من خدمة الشهابي: مكث في بيروت، وتفرغ للمطالعة والتأليف والتعليم ومراسلة معاصريه من الشعراء، وتخرج عليه طبقة من الأدباء، نبغ كثيرون منهم في العلم أو التجارة أو السياسة أو غيرها، وكان حجة في اللغة والأدب وكثير من أشعاره جرى مَجْرى الأمثال لشيوع مؤلفاته بين أيدي الطلاب ولا سيما في سوريا[(٢)].

ومن تلك المدارس التي أقام بها منقطعاً للمطالعة والتأليف والتدريس، (المدرسة البطريكية) للروم الكاثوليك سنة ١٨٦٤م (١٢٨٠هـ)، ثم (المدرسة الوطنية) للبستاني، وكذلك (المدرسة الكلية) للأمريكان[(٣)]. وهي التي تُسمّى الجامعة الأمريكية، فدرس فيها اللغة العربية وآدابها، وكان في جملة طلابه الدكتوران يعقوب صروف وفارس نمر - وهما من أعضاء الجمعيات القومية العربية - وغيرهما[(٤)].

وقد اتفق اليازجي مع البستاني في العمل مع المدارس التنصيرية الأمريكية، فأخذ اليازجي في بيروت يحترف التعليم في مدارس الأمريكان، ويصحح الكتب في مطبعتهم.. وانقطع إلى المطالعة والتعليم، فكان بيته مباءة العلماء، ومرجع الفتاوى الأدبية، وعكاظ

---

(١) الشيخ ناصيف اليازجي، عيسى سابا، ٢٢. والمحقق هو: سليم دياب الطرابلسي. وهو تلميذ ناصيف اليازجي، وكان طبيباً، وكان ممن عالج ناصيف اليازجي، انظر: تاريخ مشايخ اليازجيين، ٤٦.

(٢) تاريخ آداب اللغة، جرجي زيدان، ٤/ ٢٣٤.

(٣) تاريخ الصحافة العربية، فيليب دي طراز، ١/ ٨٦. وانظر: تاريخ المشايخ اليازجيين، عيسى معلوف، ١١.

(٤) ناصيف اليازجي، عيسى ميخائيل سابا، ١٢.

المحاضرات العلمية والمطارحات اللغوية[١]. كما قام اليازجي بتعليم اللغة العربية للمنصرين الأمريكان ومنهم الدكتور فانديك[٢].

ويعتبر أعضاء الجمعيات القومية العربية، أن تدريسَ اليازجي وغيره من العرب في مدارس الحملات التنصيرية، فيه خروجٌ للعلم والأدب في بلاد الشام من نطاق البيئات الدينية إلى صفوف الشعب، وأصبح يشمل المرأة مربية الجيل الجديد، كما يشمل الرجل[٣].

٣) تأليف الكتب: يعتبر أعضاء الجمعيات القومية أن اليازجي هو أول نصراني راجت كتبه اللغوية في المدارس العربية..، وهو بشهادة أبناء جيله، (كان من نوادر الدهر وأفراد رجال العصر الذين باهت بهم الأيام، ونُشرت مآثرهم بأسنة الأقلام)[٤].

وكانت الغاية من الكتب التي ألفها في النحو والمنطق والبلاغة والعروض أن تُدرس في المدارس، ولا سيما مدارس البعثة التبشيرية الأمريكية، وكانت تهدف إلى ما تهدف إليه الحركات والجمعيات التنصيرية، فلم يكل اليازجي قط عن دعوته إلى إحياء الأدب القديم، حتى نجح في إقناع عدد كبير من طلاب العلم بأن ذلك هو السبيل الوحيدة للنجاة..، وكانت دعوته تثير انتباه الناس على اختلاف عقائدهم (النصارى والمسلمين)، وكان يهيب فيهم.. أن يذكروا تراثهم المشترك، وأن يشيدوا على أسسه مستقبلاً إخواناً متآلفين[٥].

ويرى مؤرخو نصارى العرب أن تأليف اليازجي للكتب اللغوية أراد منه كعالمٍ مسيحيٍّ أن يضع لأبناء أمته مؤلفات على طراز المؤلفات الإسلامية التي وضعها

---

(١) المصدر نفسه، ١١.

(٢) تاريخ الصحافة العربية، فيليب دي طراز، ١/ ١٤٥.

(٣) الحلقة المفقودة في تاريخ العرب، محمد جميل بيهم، ١/ ٢١٣.

(٤) ناصيف اليازجي، عيسى ميخائيل سابا، ٣٠و٣٦.

(٥) يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ١١١.

علمائهم، فشرع في وضع أرجوزتين في الصرف والنحو، ونسج على غرار المقامات البديعية والحريرية، وزاد عليها كثيراً من التفننات في الشعر والنثر، وشرحها بقلمه فتضاعفت فائدتها لِما أظهره في الشرح من أخبار العرب وأمثالها وعاداتها وأخلاقها، وقد ألف اليازجي في جميع فنون اللغة العربية ما عدا الفقه، ووضع أطول المؤلفات وأخصرها في أكثر القواعد اللسانية[١].

ومن تلك الكتب التي ألفها اليازجي:

أ) كتاب لمحة الطرف في أصول الصرف: أرجوزة في سبع عشرة صفحة، مشروحة بقلمه، ألفها سنة ١٨٥٤م (١٢٧٠هـ) مقتصراً فيها على ما تهم معرفته من هذا العلم. طبعت في المطبعة المخلصية للروم الكاثوليك ببيروت سنة ١٨٧٠م.

ب) كتاب طوق الحمامة: وهو مختصر نثري يقع في عشرين صفحة صغيرة طبع في المطبعة المخلصية سنة ١٨٦٥م.

ج) كتاب نار القرى في شرح جوف الفرا: أرجوزة مستفيضة في الأبحاث النحوية، ضم إليها ما تفرق في كتب أئمة النحو، خدم بها المتأدبين الآخذين بعلم العربية خدمة تذكر فتشكر.. طبع في بيروت سنة ١٨٦٣م[٢].

د) كتاب مجمع البحرين: وهو من أشهر تآليفه وأعظمها..، وهو ستون مقامة ضمّنها من بلاغة الإنشاء والفوائد اللغوية والعلمية وتواريخ العرب وأمثالهم ما دل على غزارة محفوظه وقوة عارضته في النظم والنثر[٣]، كما يحتوي على هزل القول وجدّه، أودعه فنوناً من الآداب، وصنوفاً من بديع الإنشاء، وسائر الأمثال..، وهو مشهور متداول بين أيدي

(١) تاريخ المشايخ اليازجيين عيسى إسكندر معلوف، ١٢ - ١٣.
(٢) ناصيف اليازجي، عيسى ميخائيل سابا، ٢٠.
(٣) تاريخ الصحافة العربية، فيليب دي طراز، ١/ ٨٤.

المتأدبين، وطُبع مراراً[١].

هـ) كتاب مختارات اللغة: يَذْكرُ من ترجم لليازجي أنّ له كتاباً في خزانة دير الشرفة في لبنان للسريان الكاثوليك بهذا العنوان، وُصِفَ في برنامج المكتبة المطبوع في الصفحة ٤٤٨ بما نصه: مؤلف هذا الكتاب أشهر من أن يوصف، وكتابه هذا يدل على تضلعه من العربية، وهو من التصانيف المستحقة باعتبار اللغويين[٢].

و) ديوان شعر: في ثلاث نبذ لطيفة الحجم، دعاها: النبذة الأولى، ونفحة الريحان، وثالث القمرين، فيه جيد الشعر ما لا تكاد تجد بعضه في أكثر شعر مَنْ عاصره[٣] كما قال عنه المترجمون.

ز) كتب مدرسية: يرى أعضاء الجمعيات القومية العربية أن اليازجي هو أول من راجت كتبه اللغوية في المدارس العربية[٤]، وهذه الكتب تختلف فنونها ما بين منظوم ومنثور في النحو والصرف والبيان والعروض، وجلها مطبوع متداول[٥]. ومنها: (كتاب مطالع السعد لمطالع الجوهر الفرد)، و (كتاب فصل الخطاب في اللغة والإعراب).

وقد قيل عن أثر هذه الكتب المدرسية: إن اليازجي بعث بها نهضة أدبية عندما اختصر القواعد العربية بكتب تدريسية، لم يتكلف في عبارتها[٦]، ولذا أصبحت هذه

---

(١) أعيان البيان، حسن السندوبي، ٦٢. وانظر: الشيخ ناصيف اليازجي، عيسى سابا، ١٢.

(٢) تاريخ المشايخ اليازجيين، عيسى إسكندر معلوف، ١١.

(٣) أعيان البيان، حسن السندوبي، ٦٢.

(٤) تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان، ٤/ ٢٣٤.

(٥) أعيان البيان، حسن السندوبي، ٦٢.

(٦) الشيخ ناصيف اليازجي، عيسى سابا، ٢٤. وانظر عن كتبه:

١. تاريخ آداب اللغة، جرجي زيدان، ٤/ ٢٣٤

٢. تاريخ الصحافة العربية، فيليب دي طراز، ١/ ٨٤.

الكتب عمدة التدريس في أكثر المدارس السورية وبعض المدارس المصرية[١].

هذه بعض الكتب العلمية التي كتبها اليازجي، وذكرها المترجمون في سيرته، وهي تعد من أعظم الخدمات العلمية التي قدمها للحملات التنصيرية.

٤) تأسيس الجمعيات: لقد سبقت الإشارة إلى دور اليازجي مع الحملة التنصيرية، ومشاركته لهم في التدريس، وأما عن دوره في تأسيس الجمعيات القومية، فيعتبر اليازجي العضو العامل القوي الذي أيد الدكتور إيلي سميث في إنشاء الجمعية السورية سنة ١٨٤٧م، ويُرجع بعض الكتاب فكرة تأسيس الجمعية السورية إلى اليازجي[٢].

وبعد أن تولى اليازجي تعليم المنصرين للغة العربية أصبح خطيباً، ويلقي القصائد الأدبية في الجمعية السورية، التي تعتبر جمعية علمية أدبية عقدت ثلاثاً وخمسين جلسة قانونية، وأكثر من عشرين جلسة عمومية.

ومن خطب اليازجي في هذه الجمعية خطابه (في علوم العرب ضمنه بحثاً مفصلاً في أدوار ترقي اللغة العربية وآدابها، كما ألقى في الجمعية مقامته (العقيقة) التي طبعت في مجمع البحرين[٣].

ومن خطبه: (كان الملوك ومن يليهم يعرفون كثيراً من العلوم ويتمكنون منها. ولذلك كانوا يُعْنون بشأن العلم والعلماء، ويعرفون حقهم. وكانوا يقيمون مدارس في علوم شتى حيثما وجدوا لها موضعاً، ويغمرون المشايخ والطلبة بالعطايا)[٤].

---

(١) تاريخ الصحافة العربية، فيليب دي طراز، ١/ ٨٤.

(٢) انظر: تاريخ الصحافة العربية، فيليب دي طراز، ١/ ٨٥. ويقظة العرب، جورج أنطونيوس، ١١٦. وناصيف اليازجي، عيسى ميخائيل سابا، ١٢.

(٣) تاريخ المشايخ اليازجيين عيسى إسكندر معلوف، ٤٢.

(٤) أعيان البيان، حسن السندوبي، ٦٦.

ومن صور تقديم المساعدات الأدبية للمنصرين، والمساهمة في نشر المعتقدات النصرانية، مساعدة اليازجي للمنصرين في ترجمة (الكتاب المقدس): ونظمَ لهم المزامير وبعض الأغاني الدينية..، وصحح مطبوعات المطبعة المخلصية الخاصة بهم، في بيروت[1].

» ثالثاً: طاهر الجزائري:

أ - تعريف موجز بالشخصية الذاتية:

هو طاهر بن صالح[2] بن أحمد بن موهوب الجزائري، ولد بدمشق سنة ١٢٦٨هـ، ودعاه والده بـ(الطاهر)[3]، وكان قد هاجر والده من الجزائر إلى دمشق في سنة ١٢٦٣هـ، وكان من بيت علم وشرف، وتولى بدمشق قضاء المالكية[4]. وصار الشيخ صالح مفتي المالكية للجزائريين في دمشق، واشتهر بمعارفه وأخلاقه، وتوفي سنة (١٢٨٥هـ - ١٨٦٨م) عن ستين سنة وترك أولاداً اشتهر منهم المُتَرْجم له، وابن شقيقه سليم الجزائري، الذي له في تهذيبه اليد الطولى[5].

وقد بذل والده المرحوم عنايته بتعليمه في بعض المكاتب البسيطة ومكتب الرشدية، الذي نال فيه شهادته، ودرس عليه بعض العلوم وعلى الشيخ عبدالغني الميداني[6]..،

(١) تاريخ الصحافة العربية، فيليب دي طراز، ١/ ٨٥.
(٢) انظر ترجمته في الأعلام، الزركلي، ٣/ ١٨٩.
(٣) كنوز الأجداد، محمد كرد علي، ٩، دار الفكر، سورية، دمشق، ١٤٠٤هـ.
(٤) المعاصرون، محمد كرد علي، ٢٦٨. وانظر: تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر، محمد سعيد الباني، ١٣٩.
(٥) مجلة الهلال، مجلد ٢٨، الجزء ٥، بتاريخ١١/ ٦/ ١٣٢٨هـ، المقال عيسى إسكندر المعلوف، ص: ٤٥١.
(٦) عبد الغني بن طالب بن حمادة الغنيمي الشهير بالميداني نسبة إلى محلة الميدان بدمشق، ولد بدمشق سنة ١٢٢٢هـ، وأخذ عن فضلائها كإمام المحدثين عبدالرحمن الكزبري، والفقيه الشهير محمد أمين عابدين، والشيخ حسن البيطار، وكان جل انتفاعه منه، اشتهر بالفقه الحنفي، وتفوق به وصنف مصنفات حسنة ورسائل كثيرة، وتوفي سنة ١٢٩٨هـ. انظر: (الأعلام، الزركلي، ٤/ ٣٣).

فنبغ في العربية وآدابها[١]، وتلقى العلوم الطبيعية والرياضية من علمائها كنوابغ خريجي المدرسة الحربية[٢].

ويتحدث تلامذة الشيخ طاهر عن المراحل التعليمية الأولى من حياته بأنه التحق بالمدرسة الجمقمقية الاستعدادية[٣]، فتخرج منها، بعد أن تطبع بطباع علمائها ومن أبرزها الرجوع بالشريعة إلى أصولها، والأخذ من آدابها، ومحاربة الخرافات التي استمرأتها طبقات المتأخرين، و إنقاذ الدين من المبتدعين والوضّاعين[٤].

وقد نزعت نفسه إلى جمع الكتب منذ كانت سنه سبع سنوات[٥]، ومنذ أن كان في المدرسة الابتدائية أخذ يبتاع (يشتري) الدشوت والرسائل المخطوطة من دريهمات كان يرضخ بها له والده لخرجه..، وكان كلما أحرز الشيخ شيئاً من الأوراق والأسفار طالعه بإمعان وخبّأه وحرص عليه، واجتمعت له بطول الزمن خزانة مهمة من الأسفار بلغت بضعة آلاف مجلد فيها كثير من النوادر المخطوطة[٦]، واستمرت معه الرغبة في جمع المخطوطات والكتب النادرة إلى آخر حياته[٧].

---

(١) مجلة الهلال، مجلد ٢٨، الجزء ٥، بتاريخ١١/ ٦/ ١٣٢٨هـ، المقال عيسى إسكندر المعلوف، ص:٤٥١.

(٢) تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر، محمد سعيد الباني، ٧٣.

(٣) مدرسة قديمة تقع قرب الباب الشمالي للمسجد الأموي بدمشق وفي الشرق من ضريح صلاح الدين الأيوبي، جدد بناءها سيف الدين جقمق الذي تولى نيابة دمشق سنة ٨٢٢ هـ فنسبت إليه. انظر: أشهر الأمثال، طاهر الجزائري، (مقدمة الكتاب، مازن المبارك)، ٩، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

(٤) كنوز الأجداد، محمد كرد علي، ٩.

(٥) مجلة الهلال، مجلد ٢٨، الجزء ٥، بتاريخ١١/ ٦/ ١٣٢٨هـ، المقال: لعيسى إسكندر المعلوف، ص: ٤٥١.

(٦) كنوز الأجداد، محمد كرد علي، ١ (بتصرف).

(٧) مجلة الهلال، مجلد ٢٨، الجزء ٥، بتاريخ١١/ ٦/ ١٣٢٨هـ.

مات والده وهو لما يبلغ الثامنة عشرة من عمره، فاعتمد على نفسه في المطالعة والتنقيب والمراجعة والتحقيق، وتفقد المكاتب والوقوف على نفائسها، فتمكنت فيه ملكة التأليف وجمع الكتب النادرة والمخطوطات النفيسة، فوُفِّق إلى إحراز كثير منها في دمشق، وفي أسفاره، فصار مرجعاً في فن وصف المخطوطات، ومعرفة مظانها والمفيد منها[1].

ولما وصِفَ به الشيخ طاهر من اتساع الصدر لجميع علوم المدنية الحديثة[2]، فقد درس العلوم الطبيعية والرياضية والفلكية والتاريخية والأثرية، أخذها عن علماء من الترك وغيرهم.. ولم يبلغ الثلاثين من عمره حتى أتقن العربية والفارسية والتركية..، وتعلم الفرنسية والسريانية والعبرانية..[3]، وحذق اللهجة الليبية وهي لهجة قبائل الجزائر المغربية[4].

وقرأ جميع ما طالت يده إليه من الكتب العربية التي طبعت في الشرق والغرب، أما المخطوطات التي طالعها ولخصها فتعد بالمئات[5]. ومما ساعده على التحصيل العلمي، قوة حافظته التي لا تكاد تَنْسى ما تَـمُـرّ به مهما طال العهد[6].

ولشدة شغف الشيخ بتحصيل العلم فقد كتب عنه طلابه بأنه لم يتزوج، بحجة ألا يشغل ذهنه بزَوْجٍ وأولاد، وليكون أبداً مطلق العنان يسيح في الأرض متى أراد[7]، مع

---

(١) مجلة الهلال، مجلد ٢٨، الجزء ٥، بتاريخ١١/ ٦/ ١٣٢٨هـ، المقال عيسى إسكندر المعلوف، ص: ٤٥٢.

(٢))كنوز الأجداد، محمد كرد علي، ١٢.

(٣) المصدر السابق، ١(بتصرف).

(٤) مجلة الهلال، مجلد ٢٨، الجزء ٥، بتاريخ١١/ ٦/ ١٣٢٨هـ، ص:٤٥١.

(٥) كنوز الأجداد، محمد كرد علي، ١٥.

(٦) مجلة المجمع العلمي العربي، المجلد ١، الجزء ١٠، بتاريخ٢١/ ٤/ ١٣٣٩هـ، ص: ١٩ مقال: محمد كرد علي.

(٧) كنوز الأجداد، محمد كرد علي، ١٨.

علمه أن لا رهبانية في الإسلام، وكذلك إرضاءً لوالدته[1] ولعلمه أن للزوجة حقوقاً شرعية يجب أداؤها، واستغرق أوقاته في العلم والسياحة[2].

ولم يكن الشيخ قد تجاوز الثانية والعشرين من سني حياته يوم تولى أولى وظائفه في الدولة، حين عُيّن معلماً في المدرسة الظاهرية الابتدائية بدمشق سنة ١٢٩٤هـ[3].

ويبين منهج الشيخ طاهر في دعوة الناس، ما ذكره طلابه عنه، بأنه لم يحد عن الخطة التي اختطها لنفسه منذ نعومة أظفاره، ودعا الناس إلى انتهاجها حتى آخر أيامه، وخطته الإخلاص والعمل على النهوض بالأمة عن طريق العلم وبث الملكات الصحيحة في أهل الإسلام، وثورته ثورة فكرية لا مادية، ويقول: إن هذه الطريق يطول أمرها، ولكن يؤمن فيها العثار، والسلامة محققة ثابتة، وكان يبذل جهده لتعم دعوته أهل الحضر والبادية، والأغنياء والفقراء[4].

وتنفيذاً لهذا المنهج فقد عقد الشيخ صلات مستديمة مع علماء عصره.. ومنهم صديقه العالم المجري غولد صهير اليهودي[5]، الذي ترجم إلى الألمانية كتاب (توجيه النظر إلى علم الأثر) لأستاذه طاهر الجزائري، وقد أرسل غولد صهير إلى طاهر الجزائري هذه الرسالة: سلام على صاحب الشرف الباذخ، والفضل الشامخ، من هو المرجع للأماثل والأفاضل، الحاوي لأقصى معارج الفضائل والفواضل، العالم العلامة الشيخ طاهر.. أرجو أن لا ينمحي من قلبكم خيالُ صاحبكم المجري الذي كان يستجير بشامكم في

---

(١) مجلة المقتطف، الجزء الرابع، المجلد ٢٦ بتاريخ ١٢/ ٧/ ١٣٣٨هـ الموافق ١٩٢٠م، ص: ٣٠٣.

(٢) تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر، محمد سعيد الباني، ١٣٧.

(٣) الشيخ طاهر الجزائري رائد النهضة العلمية في بلاد الشام، عدنان الخطيب، ٩٤.

(٤))كنوز الأجداد، محمد كرد علي، ١٤.

(٥) إجناس كولد صهر، ويلفظ بالألمانية جولد تسيهر، مستشرق يهودي مجري، ولد بألمانيا سنة ١٢٦٦هـ، رحل إلى سورية سنة ١٢٨٩هـ، وتنقل في البلاد الإسلامية ولازمه مجموعة من القوميين، فتن طائفة كبيرة من المسلمين بأفكاره نحو السنة النبوية والفقه الإسلامي. توفي سنة ١٣٤٠هـ بألمانيا. انظر: (المعاصرون، محمد كرد علي، ١٣٢).

سنة ١٢٩٠هـ، مقتبساً من أنوار علمائها.. وصاحبكم يوماً فيوماً مستأنساً بمجاورتكم ومذاكرتكم، وكنا إذ ذاك في عنفوان شبابنا متبحرين في العلوم الشريفة، مستغرقين في بحور الآداب الظريفة.. حرر في ٥ ذي الحجة سنة ١٣١٧هـ (٥/ ٤/ ١٩٠٠م)[(١)].

ويبرر طلاب الشيخ طاهر علاقةَ الشيخ بالمستشرقين بأنها باعثة على تخفيف حملاتهم على الإسلام ولو قليلاً، وهذا مما كان يهتم له، ثم يهمه من أمر المستعربين من المستشرقين توفرهم على خدمة آدابنا، بنشر كتبنا النفيسة، وكان يعاونهم فيما هم بسبيله إذا استرشدوه، ويفتيهم راضياً مختاراً إذا استفتوه، فيما يتعذر وقوفهم عليه[(٢)].

وقد صنف الشيخ طاهر كتاباً في العقيدة، على طريقة السؤال والجواب، ويمكن أن تُستخلص من الكتاب عقيدته، فممّا قال: مذهب السلف أرجح لأنه أسلم وأحكم، وأما مذهب الخلف فإنما يسوغ الأخذ به عند الضرورة..[(٣)].

وبيّن معتقده من صفات الله سبحانه وتعالى، بقوله عن صفة الاستواء: المراد بالاستواء: استواء يليق بجلال الرحمن جل وعلا، فالاستواء معلوم والكيف مجهول، واستواؤه على العرش ليس كاستواء الإنسان على السفينة أو ظهر الدابة أو السرير مثلاً، فمن تصور مثل ذلك فهو ممن غلب عليه الوهم لأنه شبه الخالق بالمخلوقات مع أنه قد ثبت في العقل والنقل أنه ليس كمثله شيء، فكما أن ذاته لا تشابه ذات شيء من المخلوقات كذلك لا ينسب إليه سبحانه ما يشابه شيئاً مما ينسب إليها[(٤)].

وبنفس المعتقد فسر العين واليد.. إلخ من الصفات، ثم قال: ينسب هذا المعنى إلى

---

(١) مجلة الأزهر، مجلد ٢٥، محرم ١٣٧٣هـ، الجزء الثاني: ص:١٧٣ - ١٧٤.
(٢) كنوز الأجداد، محمد كرد علي، ١٨.
(٣) الجواهر الكلامية في إيضاح العقيدة الإسلامية، الجزائري، ٢٧، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
(٤) المصدر السابق، ٢٣.

جمهور السلف، وأما الخلف فأكثرهم يفسرون الاستواء بالاستيلاء، واليد بالنعمة أو القدرة، والأعين بالحفظ والرعاية، وذلك لتوهّم كثير منهم أنها إن لم تؤول وتصرف عن ظاهرها أوهمت التشبيه[1].

ثم بين معتقده في الكتب السماوية، ومما قال عن الإنجيل: إن الإنجيل المتداول الآن له أربع نسخ ألّفها أربعةٌ؛ بعضهم لم يرَ المسيح عليه السلام أصلاً، وهم متّى ومرقص ولوقا ويوحنا؛ وإنجيل كل واحد من هؤلاء مناقض للآخر في كثير من المطالب..

وقال عن القرآن: أشرف كتاب أنزله الله سبحانه وتعالى على أشرف أنبيائه محمد، وهو آخر الكتب الإلهية نزولاً، وهو ناسخ لجميع الكتب قبله، وحكمُه باق إلى يوم القيامة[2].

وعن ختم الرسالة بنبينا محمد قال: إن حكم إرسال الأنبياء لدعوة الخلق إلى عبادة الحق، وإرشادهم إلى طريق السداد في أمور المعاش والمعاد، وإعلامهم بالأمور الغائبة عن أبصارهم، والأحوال التي لا يصلون إليها بأفكارهم، وتقرير الأدلة القاطعة، وإزالة الشبه الباطلة، وقد تكفلت شريعته الغرّاء ببيان جميع هذه الأشياء على وجه لا يُتَّصور أبلغ منه في الكمال، بحيث توافق جميع الأمم في جميع الأزمنة والأمكنة والأحوال، فلا حاجة للخلق إلى نبي بعده، لأن الكمال قد بلغ حدّه[3].

وبهذا الإيضاح يتبين أن معتقد الجزائري فيما ذكره، موافق لعقيدة أهل السنة والجماعة، وإنما الأخذ بمنهج الخلف فهو مرفوض عند السلف، ولا يسوغ الأخذ به لا عند الضرورة ولا غيرها؛ إذ إن طريقة السلف في بيان العقيدة هي طريقة الأنبياء والمرسلين، ولا يجوز العدول عنها إلى غيرها، فقد قال تعالى: ﴿أُوْلَٰئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ

(١) الجواهر الكلامية في إيضاح العقيدة الإسلامية، الجزائري، ٢٥.
(٢) المصدر السابق، ٣٦.
(٣) المصدر السابق، ٥٢.

﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾[1].

وقد قال ابن تيمية: (كيف يجوز على الله تعالى، ثم على رسوله ﷺ، ثم على خير الأمة: أنهم يتكلمون دائماً بما هو؛ إما نص، وإما ظاهر في خلاف الحق، ثم الحق الذي يجب اعتقاده لا يبوحون به قط، ولا يدلون عليه لا نصاً ولا ظاهراً، حتى يجيء أنباط الفرس والروم، وفروخ اليهود والنصارى والفلاسفة يبينون للأمة العقيدة الصحيحة، التي يجب على كل مكلف أو كل فاضل أن يعتقدها!؟)[2].

ب - أهدافه وآثاره العلمية والعملية في تأسيس الجمعيات القومية:

بدأت مساعي الشيخ طاهر الجزائري، في نشر المعارف والعلوم، بعد أن عُيِّن مدحت باشا والياً على ولاية سورية في سنة ١٨٧٩(١٢٩٦هـ)[3]، فأسس الجمعية الخيرية[4]،

(١) سورة الأنعام، آية (٩٠).

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ٥/ ١٦.

(٣) انظر: تاريخ الشيخ طاهر الجزائري رائد النهضة العلمية في بلاد الشام، عدنان الخطيب، ١٠٣.

(٤) جمعية المقاصد الخيرية: تأسست سنة ١٢٩٤هـ، الموافق ١٨٩٨م، وهي جمعية إصلاحية أسست في دمشق، أيام ولاية مدحت باشا، وقد عقد عزم (بهاء بك) مكتوبي، أمين سر، ولاية سورية، بمفاوضة الشيخ طاهر، على السعي لدى مدحت باشا، لإنشاء جمعية باسم (الجمعية الخيرية)، ينضم إلى أعضائها معظم الوجهاء والعلماء المشهورين بحبهم للمشاريع المفيدة. فسعت هذه الجمعية سعياً صادقاً في تأسيس المدارس للذكور والإناث وفي مقدمة الساعين الجزائري الذي تفانى في خدمة وطنه. وكان هدفها أدبياً اجتماعياً في الظاهر، وسياسياً في الباطن لإعادة العمل بالدستور المعطل، وجعل الحكم شورياً، وكان اعتماد أنشطة الجمعية على ما يجمع من الموسرين في بلاد الشام. وكان رجالها على اتصال بجمعية تركية الفتاة، وقد اندمجت الجمعية الخيرية في المعارف. ويقول أعضاء الجمعيات: الجمعية الخيرية كانت مؤلفة في الظاهر من علماء دمشق وأعيانها. ومن أبرز المؤسسين: طاهر الجزائري، ورفيق العظم، وسليم البخاري، وجمال القاسمي، ومحمد كرد علي.. وغيرهم. انظر عن جمعية المقاصد الخيرية: عصر الانبعاث، محمد أسعد طلس، ٥٣. والعرب والترك، توفيق برو، ٣٥. والشيخ طاهر الجزائري، عدنان الخطيب، ١٠٥. ومجلة الهلال، مجلد٢٨، الجزء ٥، ١١/ ٦/ ١٣٢٨هـ، ص: ٤٥٢. ومجلة المقتطف، المجلد٢٦، الجزء ٤، ١٢/ ٧/ ١٣٣٨هـ، ص: ٢٩٨.

التي كان الاعتماد عليها في تأسيس المدارس، فلم تَسْر خطة الجمعية الخيرية بنشر العلم على الأساليب الحكومية، وإنما تجمع المال من الموسرين وتنفقها في مشاريعها.

وقد قال الشيخ طاهر، عن منهج الجمعية: جرت منذ أسبوعين مذاكرة سرية في طريقة ترجمة إحدى دوائر المعارف الفرنسية، فإنّ الناس في احتياج لذلك..، وقد كان بعض الحاضرين يريد أن يجعل زمام الأمر في يد الحكومة، فطلبنا أن يُكْتمَ ذلك عنها، فإنه لا يؤمل أن تَقْدِرَ عليه، فإن هذا الأمر يحتاج إلى الحكمة أكثر من احتياجه إلى الحكومة[1].

ومن خلال دراسة سيرة الشيخ طاهر الجزائري العلمية والعملية يلاحظُ الباحثُ أن دور الشيخ طاهر الجزائري في تأسيس الجمعيات القومية العربية ينقسم إلى قسمين، القسم الأول: دوره في نشر العلوم والمعارف العامة، والقسم الثاني: دوره في تأسيس الجمعيات القومية، ونشر الفكر القومي.

القسم الأول:

أولاً: تولى التعليم لأول أمره في المدرسة الظاهرية الابتدائية، ولما أسست الجمعية الخيرية من علماء دمشق وأعيانها سنة ١٢٩٤هـ، دخل في عداد أعضائها وكان من أكبر العاملين فيها، ثم استحالت هذه الجمعية (ديوان معارف) فَعُين مفتشاً عاماً على المدارس الابتدائية التي أنشئت على عهد مدحت باشا والي سورية سنة ١٢٩٥هـ[2]، وتولى الشيخ طاهر هذه الوظيفة منذ سنة ١٣١٦هـ، فأقام على هذا التفتيش أربع سنوات سعى فيها سعياً مشكوراً في ترقيتها[3].

---

(١) (طاهر الجزائري) رائد النهضة العلمية، عدنان الخطيب، ١٦١. وانظر: كنوز الأجداد، كرد علي، ٣٩.

(٢) كنوز الأجداد، محمد كرد علي، ١١ (بتصرف) وانظر:١، مجلة المجمع العلمي العربي، المجلد ١، الجزء ١٠ - ٢١/ ٣/ ١٣٣٩هـ، ص:١٧. ٢، مجلة الهلال، مجلد ٢٨، الجزء ٥، ١١/ ١٣٢٨هـ، ص: ٤٥٢.

(٣) مجلة الهلال، مجلد ٢٨، الجزء ٥، ١١/ ٦/ ١٣٢٨هـ، المقال: عيسى إسكندر المعلوف، ص: ٤٥٢.

ثانياً: أنشأ بمعاونة بضعة أصدقاء له (دار الكتب الظاهرية) بدمشق، وجمع فيها سنة ١٢٩٦هـ، ما تفرق من المخطوطات العظيمة في عشر مدارس تحت قبة مكتبة الملك الظاهر بيبرس..، وأنشأ مثلها (المكتبة الخالدية)[١] في القدس نسبة للشيخ راغب الخالدي، وغيرها من مكاتب سورية وفلسطين، وعمل برامج لها وطبعها لتعميم فائدتها وتحويلها إلى مكاتب عامة[٢].

ثالثاً: إنه مؤسس لكل المدارس الأميرية في سورية ولبنان وفلسطين زمن ولاية مدحت باشا، وولاية حمدي باشا الذي جاء بعده. وقد تمكن بدهائه أن يجعل العربية لغة التعليم إلى أن غُلب على أمره وكُفّت يدهُ وجُعل التعليم فيها بالتركية[٣].

رابعاً: يقول أعضاء الجمعيات القومية: إن الشيخ طاهر الجزائري عمل بنبوغ وعبقرية على تأسيس المدارس تحت غطاء الجمعية الخيرية، ومعاونة مدحت باشا، ثم وضعِ البرامج، وتأليفِ الكتب اللازمة، وحمل الآباءِ على تعليم أولادهم، فقد فتح أبواب تسع مدارس للذكور جمعت في حلقاتها نحو ثمانمائة طالب، ومدرستين للإناث جمعتا نحو مائة طالبة، وكان منهجُ تعليمهم جميعاً حديثَ الأسلوب، غزيرَ الفائدة، وأسس مطبعةً لطبع الكتب المدرسية باسم الجمعية[٤].

خامساً: تأليف الكتب الدراسية، قال تلاميذه: (بذل جهد المستطاع في إصلاح الكتاتيب الابتدائية والمدارس..، وصنف كثيراً من الرسائل الناجعة للمبتدئين، المختلفةِ باختلاف طبقاتهم على أسلوب مُبْتكر لم يكن معهوداً في ذلك الوقت[٥] ومنها:

---

(١) كنوز الأجداد، محمد كرد علي، ١١ (بتصرف).

(٢) مجلة الهلال، مجلد ٢٨، الجزء ٥، ١١/٦/١٣٢٨هـ، ص: ٤٥٢.

(٣) الشيخ طاهر رائد النهضة العلمية في بلاد الشام، عدنان الخطيب، ٤٢.

(٤) مجلة الهلال، مجلد ٢٨، الجزء ٥، ١١/٦/١٣٢٨هـ، ص: ٤٥٢. وانظر: كنوز الأجداد، كرد علي، ١١.

(٥) تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر، محمد سعيد الباني، ١٥، الحكومة العربية السورية، ١٣٣٩هـ (١٩٢٠م).

- الجواهر الكلامية في العقيدة الإسلامية على طريقة السؤال والجواب.
- التقريب إلى أصول التعريب.
- توجيه النظر إلى علم الأثر.
- منية الأذكياء في قصص الأنبياء، عربه عن التركية.
- الفوائد الجسام في معرفة خواص الأجسام، وهو في الحكمة الطبيعية.
- مدخل الطلاب إلى فن الحساب.
- إرشاد الألبّاء إلى طريق تعليم ألف باء: كتاب ضمنه الشيخ مباحث لغوية عن حروف الهجاء، وترتيبها ورسمها[١].

القسم الثاني:

سبق بيان دور الشيخ طاهر الجزائري في المجالات العلمية، وأما عن دوره في تأسيس الجمعيات القومية، فقد يلاحظ أن أعضاء الجمعيات القومية تمكنوا من احتواء الشيخ طاهر الجزائري، والالتفاف حوله، وذلك للأسباب التالية:

١ - العلاقة الوثيقة بين الشيخ طاهر وبين مدحت باشا، الذي يعتبره أعضاء الجمعيات القومية المُصلحَ، وأبا الأحرار، ولهذا لم تظهر مكانة الشيخ طاهر عند أعضاء الجمعيات القومية، إلا بعد وجود هذه العلاقة[٢].

يقول أعضاء الجمعيات القومية العربية: عندما كان مدحت باشا والياً على الشام،

---

(١) مجلة الهلال، مجلد ٢٨، الجزء ٥، ١١/٦/١٣٢٨هـ، ص:٤٥٢.وانظر: هداية العارفين، البغدادي، ١/ ٤٣٢. ومعجم المطبوعات، ١/ ٦٨٩، والأعلام، الزركلي، ٢٢٢.

(٢) انظر: الشيخ طاهر الجزائري رائد النهضة العلمية في بلاد الشام، عدنان الخطيب، ١٠٣. والمعاصرون، محمد كرد علي، ٢٦٩.

برز في دمشق رجل نابغة في علمه وتفكيره، ونشاطه وإخلاصه، وهو الشيخ طاهر الجزائري[1].

٢ - اطلاع الشيخ طاهر - كما يقول أعضاء الجمعيات القومية العربية - على العلوم العصرية، مع تضلعه بالعلوم الشرعية، ووقوفه على أحوال الأمم السائرة القديمة والحديثة، واطلاعه على كل ما يُترجم عن مدنية الغرب وسياسته واجتماعياته، واحتكاكه بعلمائه المستشرقين، وتبادله الاستفادة بينه وبينهم، حيث كان يقتبس منهم ما ينفع المسلمين، ويقبسهم ما يثبت سماحة الإسلام ومدنيته ومجد المسلمين وتمدنهم.

كما أن كثيراً من علماء المشرقيات - المستشرقين - في الغرب كانوا يستفتونه فيما يتعلق بعلوم الشرق، وكان بينه وبينهم صداقة يراسلهم ويراسلونه على اختلاف قومياتهم، وكلهم من المعجبين به، المغتبطين بصداقته ومراسلته، وقد زار بعضهم في بعض رحلاته، وزاره كثير منهم أثناء رحلاتهم إلى الشرق[2].

ومن أبرز دعوات الشيخ طاهر - كما يقول طلابه - الأخذ بالنافع من التمدن الحديث مادياً كان أو أدبياً، ونبذ الضار منه، ويدعو إلى التجدد واقتطاف ما يصلح وما أينعَ ثمرهُ من كل جديد، ويدعو إلى الارتقاء الفكري بدراسة العلوم الاجتماعية والمدنية والسياسية، ويدعو إلى تعلم لغات الأمم الحية ليتسنى فهم معنى الحياة لا للزهو والتفرنج والاندماج الأجنبي وتقليده على العمياء، ويدعو إلى الوطنية والإنسانية على شرط أن لا يُتَّجر بهما خشية انقلاب القضية إلى أَثَرةٍ وأنانية[3].

---

(١) القومية العربية، مصطفى الشهابي، ٥٠.

(٢) تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر، محمد سعيد الباني، ٤٦، ٥٠. وذكر منهم: كولير المجري الأخصائي في الملل والمحل، وهرتن الألماني أستاذ ألسنة الشرق بجامعة (بن) في ألمانيا، ومرغليوس وبروان الإنكليزيين، وكايرمونكلو الفرنسي من كبار علماء الآثار.

(٣) تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر، محمد سعيد الباني، ٦٥. وانظر: كنوز الأجداد، محمد كرد علي، ٢٨.

وقد أرسل الشيخ طاهر رسالة إلى أحد تلاميذه، قال فيها: وصلني كتابكم الكريم، منبئاً بعودكم من بلاد أوربا، فسررت بذلك سروراً شديداً، كنت أتمنى لكم هذه الرحلة من قديم، لما أتيقنه من الفائدة التامة العامة في ذلك، فإن الاقتباس من الأمم المترقية دليل على النباهة[1].

إن اطلاع الشيخ طاهر على العلوم العصرية، والأبحاث الغربية، كان من أبرز أسباب التفاف أعضاء الجمعيات القومية العربية حوله، قال أحدهم: ويشهد الله أنّ من أعظم العوامل تأثيراً في مروق بعض خريجي المدارس العصرية وتملصهم من الدين هو جمود أمثال هؤلاء المعلمين السطحيين..، ولو قيض الله لناشئة المسلمين أساتذة مثل الشيخ طاهر، لما خسروا دينهم وعرّضوا بكيانهم القومي إلى خطر الانقراض والاندماج بهوية غيرهم من الشعوب[2].

ويأتي هذا السبب في عصر أصبحت فيه البلاد الإسلامية مأوى للمعتقدات النصرانية، والحملات الاستشراقية، والصراع المحتدم بين الدول الصناعية والانفجار العلمي، وانبهار أكثر المتعلمين في ذلك العصر بالعلم الحديث، ويقابل ذلك وجود خواء فكري يعيشه العالم الإسلامي، وجمود في أكثر مجالات الحياة، وإغلاق باب الاجتهاد مع وجود دواعيه[3].

ولهذا أكد أعضاء الجمعيات القومية العربية أن أبرز مناقب الشيخ طاهر نبذُ التعصب؛ وسعيه في حل قيود التقليد الأعمى وحربه للتعصب الذميم[4] ونقدُه للجمود، حتى قال

(١) كنوز الأجداد، كرد علي، ٣٤. وانظر: (طاهر الجزائري) رائد النهضة العلمية، عدنان الخطيب، ١٦١.

(٢) تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر، محمد سعيد الباني، ٤٦ - ٥٠. وانظر: القومية العربية، مصطفى الشهابي، ٥٠.

(٣) انظر: واقعنا المعاصر، محمد قطب، ١٥٨و٣٠١.

(٤) مجلة المجمع العلمي العربي، المجلد ١، الجزء١٠، ٢١/ ٤/ ١٣٣٩هـ، ص: ١٧.

معاصروه: كان كثير الحديث عن علماء دمشق وأعيانها، وكثير الإسهاب فيما كان عليه معاصروه[١].

٣ - الطعن في سياسة الأتراك للبلاد العربية، ومطالبته بالإصلاح، فقد وصفه طلابه ومعاصروه بأنه كان يعرف السياسةَ وما ينبغي لها، وحالةَ الغرب واجتماعه، والشرق وأممه وأمراضه معرفة اختصاصي[٢]، وقد صرف دقائق عمره لإنهاض الأمة باتباع طريق العلم والتهذيب[٣].

ومن أمثلة طعن الشيخ طاهر بسياسة الأتراك اعتباره الأتراكَ مستعمرين للبلاد العربية، فقد قال: (إن استيلاء الترك على أرض العرب أضرّ بها وأزال مدنيتها وغيّر أخلاقها)[٤]. وتأكيداً على نقمة الشيخ طاهر على الحكم التركي، فقد قال طلابه: هجر دمشق إلى القاهرة سنة ١٣٢٥هـ (١٩٠٧م) فراراً من ظلم العهد الحميدي وظلامه[٥].

ودام لجوء الشيخ طاهر في القاهرة فترة ما بين سنة ١٣٢٥هـ (١٩٠٧م) إلى سنة ١٣٣٨هـ (١٩٢٠)، وظل فيها طول هذه المدة.. ولما نشر القانون الأساسي في المملكة

---

(١) مجلة المنار، مجلد٢٢، الجزء، ٨، ٢٩/ ١٢/ ١٣٣٩هـ، الموافق ١٩٢١م، ص:٦٣٨.

(٢) كنوز الأجداد، محمد كرد علي، ١٢.

(٣) مجلة المجمع العلمي العربي، المجلد ١، الجزء١٠، ٢١/ ٤/ ١٣٣٩هـ، ص:١٧.

(٤) كنوز الأجداد، محمد كرد علي، ٢٨.

(٥) مجلة المجمع العلمي العربي، المجلد الأول، الجزء١٠، ٢١/ ٤/ ١٣٣٩هـ، الموافق ١٩٢١م. ص: ١٨. يذكر بعض أعضاء الجمعيات القومية العربية سبب انتقال الشيخ طاهر إلى مصر، بأنه لقي من الحكومة الحميدية ما كان يلقاه كل حر من الإرهاق، وقد ضبطت الحكومة منزله وختمت حجرته في مدرسة عبدالله باشا العظم، وهي ملأى بالكتب والأوراق القديمة، فاستاء من هذه المعاملة وأزمع السفر إلى القطر المصري تفادياً لمثل هذه المصادمات.. فسافر سنة ١٣٢٤هـ (١٩٠٥م) ناقلاً معه معظم مكتبته الثمينة، قاصداً القطر المصري فرحب به علماؤها وأكرموا مثواه، ووجد من رجال النهضة المصرية قلوباً أجمعت على حبه وأعجبت بمواهبه وأخلاقه. انظر: مجلة المقتطف، الجزء الرابع، المجلد ٢٦ بتاريخ ١٢/٧/١٣٣٨هـ، الموافق ١٩٢٠م، ص: ٣٠٤. ومجلة الهلال، مجلد ٢٨، الجزء ٥، ١١/ ٦/ ١٣٢٨هـ، الموافق ١٩٢٠م، ص: ٤٥٢

العثمانية (١٩٠٨م) رأى الشيخ بنظره الثاقب أن عهد الحرية الحقيقية بعيد، وكان لا يغتر بقوانين الترك ولا بثرثرة السياسيين، فانزوى في مصر[١].

ولما أعلنت الثورة العربية في الحجاز، أبدى الشيخ طاهر ابتهاجه بها، وتمنى لها النجاح في تحقيق الأماني العربية، وعندما بلغه خبر دخول الجيش العربي دمشق وإعلان الحكم العربي فيها سنة ١٩١٨م (١٣٣٦هـ) استراحت نفسه وبدا عليه السرور[٢].

٤ - انفتاح الشيخ طاهر على جميع معتقدي المذاهب والملل، فمن عادة الشيخ كما يقول أعضاء الجمعيات القومية من تلامذته على سبيل الإعجاب والتقدير: إن الشيخ يصحب الفرق المختلفة، مهما كان لون طريقتهم ونحلتهم، حتى الملاحدة وأرباب الطرق، ولقد كانت له صداقة أكيدة بالمطران يوسف داود السرياني[٣] - رئيس أساقفة دمشق للسريان -، يتسامران، ويتحدثان، ويتناقشان، ويثني الثناء المستطاب على صديقه المطران، وقد طالت به صحبته وعشرته.

وهكذا كان له اتصال بالأرمن واليهود، واليسوعيين الكاثوليك، والأمريكان البروتستانت، وكان يغضي عن كثير من النقد على رجال الدين من غير المسلمين، ويقول: هم أقرب الناس إلينا، يعتقدون بالله واليوم الآخر وخلود النفس، وكانت جميع الطوائف تستلطفه وتحب عشرته، على ما بينها وبينه من التخالف.. ويطلعونه من سرائرهم على ما لا يبوحون به لأقرب الناس إليهم، وكان يقول عن هذا المنهج: الحمد لله لقد سالمنا كل الفرق[٤].

---

(١) كنوز الأجداد، محمد كرد علي، ١٨.

(٢) الشيخ طاهر الجزائري رائد النهضة العلمية في بلاد الشام، عدنان الخطيب، ٨٦.

(٣) يوسف داود بن بهنام الملقب (بأقليميس) ولد عام ١٢٤٥هـ، في الموصل، ومات في دمشق عام ١٣٠٧هـ، سرياني الأصل مستعرب، انتخب مطراناً للكاثوليك السريان. انظر (الأعلام، الزركلي، ٨/ ٢٣٠).

(٤) كنوز الأجداد، محمد كرد علي، ١٩. وقال تلميذه محمد كرد علي: وما أدري إن كان المطران أثر في الشيخ، أو الشيخ أثر في المطران.

٥ - تأييد الشيخ طاهر الجزائري الحكومةَ البريطانية في الحرب ضد الدولة العثمانية، فقد أرسل رسالة إلى صديقته المستشرقة (المس بل) أمينة سر حاكم العراق جاء فيها: لما كنت أعتقد أن أحسن من يُخلِصُ العربُ له الود هو دولة بريطانيا العظمى، لما خبرته من الأحوال، ومقتضيات الأمزجة ونحو ذلك، والمودة لما كانت واجبة أن تكون من الطرفين، اقتضى الأمر أن يقع التفاهم بينهما ليستمر هذا الأمر، فرأيت أنه ينبغي لإنكلترا العظمى أن تعتني بأمور:

١ - أن تؤسس في كل بلدة كبيرة ديواناً شبيهاً بالرسمي، لتأخذ الأخبار المتعلقة بما يحبه العرب، لتساعد عليه بقدر الإمكان، والذين يُعَيَّنون ينبغي أن يكونوا من أعظم الناس معرفة بأمزجة العرب، ممن تلقوا ذلك مثل حضرتك الكريمة.

٢ - أن تعتني بأمر اللغة العربية، ويظهر منها السعي في نشرها على غرار ما يظهر منها ذلك في حق اللغة الإنكليزية.

٣ - الاعتناء الزائد في المساعدة على نشر العلوم، على وجه يساعد عليه الحال والزمان.

٤ - مراعاة عوائدهم وعدم الحط من كرامتهم، لاختلاف العادات، فقد بلغني وقوع تسلط من بعض المأمورين في البصرة والعراق وغيرهما، وهذا مضر جداً لا يُشْعر بمضرته إلا بعد أن يشتد الحال، ويَعْسُر زوال ما في النفس، نَعَمْ إن هذا الأمر دقيق يصعب القيام به كما ينبغي، إلا أن الاعتناء به كثيراً ممكنٌ، والعربي أهم شيء عنده عدم الهوان.

وإني أرى أن هذه الأمور إذا تمت هكذا، تكون النتيجة حسنة جداً ويشتد التلاؤم بين الفريقين، فإن العرب أقرب الناس إلى شكر النعمة، فإن وجد من لا يشكر، فإن في ظهور النعمة ما يقمعه عن إبراز ما ينويه من مغالطة الناس.

وقد ختم الشيخ طاهر الرسالة بقوله: المخلص للأمة العربية والدولة البريطانية العظمى - طاهر الجزائري[١].

وبيّن الشيخ طاهر المحظور من إبداء العطف والموالاة للحكومة البريطانية، فقال: (الناس الذين على فكري - من جهة توافق مصلحة الأمة العربية مع مصلحة الدولة البريطانية العظمى - كثيرون إلا أنهم لا يقدرون على إظهار فكرهم إلا بعد أن يروا باعثاً على إظهاره، لئلا ينسب إليهم أنهم خائنون للأمة، فإن هذه الجملة روّعت الناس كثيراً؛ وهي جملة اتخذها الشرقي لإرهاب غيره، سواء كان هو مخلصاً في نفسه أم غير مخلص..، وإني أوصيكم ببعض البلاد[٢] التي لا أسميها، فإن فيها كثيراً من الرجال المهمين، الذين يعرفون قدر النعمة ويشكرونها، ولكنهم غُلبوا على أمرهم، لأنهم لم يُعرفوا في وقت الرخاء، حتى يُنتفع بهم وبرأيهم في وقت الشدة، والبحث يجلو كل شيء، فينبغي الانتباه لذلك في الحال والمستقبل، وقد آن الأوان لمعرفتهم، وهذا لا يكون إلا تدريجاً، فليبادر إلى ذلك)[٣].

٦ - دعوة الشيخ طاهر لتأسيس الصحف والمجلات ذات الصفة السياسية والأدبية، فكم من جريدة أو مجلة أو كتاب أو رسالة نشرت في مصر والشام بإرشاده[٤]. ويقول أعضاء الجمعيات القومية: كان ينشط الأكفاء على إنشاء الصحف السياسية والاجتماعية، والمجلات العلمية والأدبية، فكم من مجلة أو جريدة أنشِئَتْ في القطر السوري أو المصري بتنشيطه ومؤازرته! ويدعو المستبصرين إلى التبصر بالصحف النافعة والمجلات المفيدة

---

(١) كنوز الأجداد، محمد كرد علي، ٤٥ - ٤٨. وانظر: (طاهر الجزائري)، عدنان الخطيب، ١٦٧ - ١٧٠. وانظر صورة الرسالة في كنوز الأجداد.

(٢) قال محمد كرد علي: يقصد بالبلاد: الغالب أنه يقصد الديار الشامية.

(٣) كنوز الأجداد، محمد كرد علي، ٤٥ - ٤٨. وانظر: (طاهر الجزائري)، عدنان الخطيب، ١٦٧ - ١٧٠.

(٤))كنوز الأجداد، محمد كرد علي، ١٤.

ويبتهج بها. وكان له شغف بالاطلاع عليها وتتبعها خصوصاً التي تكثر من الترجمة عن الغرب واقتطاف ثمرات علومه اليانعة..، ويرى أن مطالعة مقالة علمية في مجلة أو جريدة أكثر فائدة من كثير من الدروس الحافلة بالمئات[1].

والأسباب سالفة الذكر كانت من أبرز دواعي التفاف أعضاء الجمعيات القومية العربية حول الشيخ طاهر الجزائري في المدة التي قضاها بالشام، في السنوات العشرين الأخيرة من القرن التاسع عشر، والسنوات الخمس الأولى من القرن العشرين[2]، حيث التف أعضاء الجمعيات القومية العربية حول الشيخ حلقات متعددة منفصلة مترابطة، تجتمع إحداها بالشيخ بعد صلاة الجمعة من كل أسبوع، وتجتمع الثانية به في يوم آخر من أيام الأسبوع، بينما تجتمع الثالثة في مواعيد يحددها لهم.

وكانت للشيخ مع كثير من هؤلاء الشباب ومع غيرهم من شباب دمشق المتعلم سهرات ليلية متواصلة، يتنقل فيها معهم بين مختلف أحياء المدينة، وهو يتخير المنازل التي يكثر زائروها من النبهاء والمثقفين حتى إذا ما تجمعوا أخذ يستعرض أمامهم كل ما يقدِّر أنه يهمهم الاستماع إليه عن الحركات العلمية والفكرية والسياسية في خلال الأسبوع الذي اجتمعوا في نهايته[3]، وكان أعضاء الجمعيات القومية يصغون في انتباه وتواضع إلى ما كان يدور فيها من أحاديث ومحاورات في اللغة العربية وقواعدها وآدابها، وفي الجهل الضارب أطنابه بالبلاد العربية، وفي الوسائل التي يجب التوسل بها لرفع مستوى التفكير والتعليم جميعاً[4].

---

(١) تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر، محمد سعيد الباني، ٦٢

(٢) القومية العربية، الشهابي، ٥١.

(٣) الشيخ طاهر الجزائري رائد النهضة العلمية، عدنان الخطيب، ٢٤. وانظر: مذكرات محب الدين الخطيب.

(٤) القومية العربية، الشهابي، ٥٢ - ٥٣.

ويضيف أعضاء الجمعيات القومية العربية بأن الحلقات كانت تدعو إلى تعليم العلوم العصرية، ومُدارسة تاريخ العرب وتراثهم العلمي وآداب اللغة العربية، والتمسك بمحاسن الأخلاق الدينية[١].

وللعوامل المؤثرة المختلفة في نشر المعتقد القومي في البلاد العربية، فقد ظهرت آثاره على أعضاء حلقة الشيخ طاهر الجزائري، مما نتج عنه ظهور نزعة قومية عربية فيهم، وتأسيس حلقة سياسية سرية سميت بحلقة دمشق الصغيرة، انتقل كثير من أعضائها إلى إستنبول[٢]، فراحوا يفكرون ويتناقشون في الخفاء فيما كان للعرب من أوضاع سيئة في دولة تتنكر للغتهم ولقوميتهم.

كان الهدف الظاهر لهؤلاء الشبان في حلقتهم مُدارسة تاريخ العرب وقواعد اللغة العربية وآدابها، أما هدفهم الخفي فقد كان بعث العروبة من رقادها بتلقين شباب العرب الوسائل المؤدية إلى هذا البعث[٣].

ويصف أحد أعضاء الجمعيات القومية العربية بعض ما يدار في الحلقة السرية، من موضوعات، فيقول: كان الشبان الناهضون يتحدثون عن أوربا وتقدمها وعلومها، وعن نهضات الشعوب، والشكوى من ظلم الحكومة، واستبداد السلطان عبدالحميد، وسرد حكايات طويلة عن إغراق الأحرار في بحر مرمرة، وتعذيب الألوف من الشبان المطالبين بالإصلاح..، كانت هذه الأحاديث تذكر في مجالس الشبان، وكان يحضر هذه المجالس شيخ الأحرار الشيخ طاهر، وله أكبر فضل في تنوير الأبصار والبصائر، ودفع العرب في طريق التقدم[٤].

---

(١) المصدر السابق، ٥١.

(٢) الحكومة العربية الأولى في دمشق، خيرية قاسمية، ١٥.

(٣) القومية العربية، الشهابي، ٥٢ - ٥٣.

(٤) مذكرات البارودي، فخري البارودي: ١/ ٥٨.

وبعد بيان التفاف أعضاء الجمعيات القومية العربية حول الشيخ طاهر الجزائري، أنقل بعض النصوص التي ذكرها أولئك الأعضاء، والتي تؤكد مدى تأثير الشيخ طاهر فيهم، يقول أحدهم: كان له تأثير عظيم في تلاميذه، وإليه يرجع الفضل في ظهور كثير من أدبائنا الأفاضل فهو الذي ربى فيهم روح الإقدام والشجاعة الأدبية..، وكان من أقواله وتوجيهاته: إن العواطف الوطنية والدينية بطريق الشعريات لها شأن عظيم في استمالة الرأي العام[1].

وقرر تلاميذه بأن عدداً ممن اشتغلوا بالآداب أو تعلموا التعليم الثانوي أو العالي في الديار الشامية إن لم يكونوا استفادوا منه مباشرة فبالواسطة، وتلاميذه ومريدوه من المسلمين يعدون بالعشرات، وأكثرهم اليوم يشغلون مقامات سامية في دور العلم والحكم وفي التجارة والزراعة[2]، ولهذا يسوغ أن نعتبر أن أغلب المتعلمين والمتأدبين من الباحثين والكتاب في القطر السوري عالةٌ عليه وإن لم يتلقوا منه مباشرة[3].

ويقول فخري البارودي في مذكراته: إذا كان من فضل لأحد علي في توجهي من الناحية الوطنية فهو أولاً الشيخ طاهر الجزائري المغربي أستاذنا، وإلى تلامذته الأحرار[4].

ويقول أحدهم أيضاً: من هذا الغريب الصابر الدائب الحكيم، الشيخ طاهر الجزائري عرفت عروبتي وإسلامي[5].

وقد اعتبر أعضاء الجمعيات القومية الشيخ طاهراً من أركان النهضة العربية الحديثة الذين عملوا لرقيها عمل من طب لمن حب[6]. كما عدوا الشيخ في عظماء أركان النهضة

(١) مجلة المقتطف، الجزء الثاني، المجلد٢٦ سنة بتاريخ ١١/ ٥/ ١٣٣٨هـ، الموافق ١٩٢٠م، ص: ١٦٤.
(٢) كنوز الأجداد، محمد كرد علي، ١٤.
(٣) تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر، محمد سعيد الباني، ٧٣.
(٤) مذكرات البارودي، فخري البارودي، ١/ ٧٩.
(٥) الشيخ طاهر رائد النهضة العلمية في بلاد الشام، عدنان الخطيب، ٨٧.
(٦) تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر، محمد سعيد الباني، ٢٩.

العلمية، والحركة الفكرية في البلاد السورية خصوصاً دمشق[١]، ونشأ على يديه جيل من أفذاذ الرجال الذين تعتز بهم الشام كما يفخر العرب والمسلمون بجهادهم وسيرتهم[٢].

علاقة الشيخ طاهر بجمعية تركيا الفتاة:

سبق الحديث عن اتفاق أعضاء جمعية تركيا الفتاة مع جميع القوميات على نقد سياسة السلطان عبدالحميد، وسعيهم للمطالبة بالحكم الدستوري، ولهذا كان الشيخ طاهر مؤثراً على أعضاء جمعية تركيا الفتاة من عرب وترك، حيث كان الشيخ يختلط بهؤلاء وأولئك ويتتلمذُ جميعهم عليه، وهو لا يشعر أحداً منهم بأنه يتحزب لجمعية من الجمعيات أو ينتمي إليها[٣].

وقد ذكر بعض أعضاء الجمعيات القومية العربية أن حكومة السلطان عبدالحميد قد ألغت وظيفة التفتيش - والتي كان يشغلها الشيخ طاهر - بالمدارس تخوفاً من شدته في بث أفكاره بين الأساتيذ والتلاميذ، فزاد نشاط الشيخ[٤]، ثم اتهمته بالاشتراك في إذاعة نشرات كانت (جمعية تركيا الفتاة) تذيعها للطعن باستبداد السلطان عبدالحميد، فنـزح الشيخ إلى مصر[٥].

وبعد أن أُسقط السلطان عبدالحميد، وانفردت جمعية تركيا الفتاة بسياسة الدولة العثمانية، كان للشيخ طاهر الجزائري موقف يماثل موقف أعضاء الجمعيات القومية العربية من أعضاء جمعية تركيا الفتاة.

---

(١) تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر، محمد سعيد الباني، ٧٠.
(٢) الشيخ طاهر الجزائري رائد النهضة العلمية في بلاد الشام، عدنان الخطيب، ٢٦.
(٣) المصدر السابق، ٤٤.
(٤) كنوز الأجداد، محمد كرد علي، ١٦.
(٥) القومية العربية، مصطفى الشهابي، ٥٠.

وهو مواجهة حركة التتريك التي قاموا بها، قال الشيخ: وقد نصحت كثيراً من المحدثين من الأحرار (يقصد جمعية تركيا الفتاة) بأن يعدلوا مشربهم، وحذرتهم عواقب الأمر، غَلبوا أو غُلبوا، فأبوا إلا الإصرار على فكرهم، وما قلت لهم رأيي إلا بعد أن ألحوا عليّ بيانه[1]. وبعد الإعلان عن تطبيق الدستور، قال محمد كرد علي عن رأي شيخه وموقفه: كان لا يغتر بقوانين الترك ولا بثرثرة السياسيين[2].

وكان الشيخ طاهر يرشد أعضاء الجمعيات القومية العربية في خلال هذا الواقع، كما يقول طلابه: بأنه لا يرى أن يُجابه صاحب القوة تفادياً من بطشه، بل يحتال عليه لئلا تنسحق القوة القليلة غير المنظمة أمام القوة الكبيرة المنظمة، وأنّ الأولى بالأمة الضعيفة التي تحاول تحريرها من قيود رقها أن تعد أسباب النهوض من علم وأخلاق، ثم تنفض يدها من يد ظالمها..، فهو صاحب ثورة فكرية لا صاحب ثورة دموية[3]. وكان يقول: «إن سورية تخرج عن حكم العثمانيين في القريب العاجل»[4].

وأثناء فترة انتقال الشيخ طاهر إلى مصر كان يحضر اجتماعات الجمعيات القومية العربية، فمن ذلك ما يذكره طلابه عنه: بأنه في سنة ١٣٣١هـ، الموافق (١٩١٣م) كان حزب اللامركزية قد دعا الناس إلى اجتماع كبير في فندق الكونتننتال في القاهرة، وقد ذهبنا مع الشيخ طاهر الجزائري لحضور ذلك الاجتماع[5].

وقد يكون اجتماع حزب اللامركزية المذكور تمهيداً لانعقاد المؤتمر العربي الأول، الذي عُقد في باريس سنة ١٣٣١هـ، الموافق ١٩١٣م، ومن مقاصده إعلان التمرد العربي

(١) كنوز الأجداد، محمد كرد علي، ٣٤.
(٢) المصدر السابق، ١٨.
(٣) مجلة المقتطف، الجزء الرابع، المجلد٢٦ بتاريخ ١٢/ ٧/ ١٣٣٨هـ، الموافق ١٩٢٠م، ص: ٣٠٢.
(٤) المصدر السابق، ص: ٣٠٠.
(٥) مجلة الزهراء، المجلد ٣، الجزء ٧، ١/ ٧/ ١٣٤٥هـ، ص: ٤٦٤ - ٤٦٥. مقال: محب الدين الخطيب.

على حكم جمعية تركيا الفتاة[١].

قتل مجموعة من العرب على أثر تصاعد الخلاف بين أعضاء الجمعيات العربية وأعضاء جمعية الاتحاد والترقي كان منهم سليم بك الجزائري، وهو ابن شقيق الشيخ، الذي له في تهذيبه اليد الطولى[٢].

ولشدة نقمة الشيخ طاهر على أعضاء جمعية الاتحاد والترقي لم يقبل الشيخ طاهر العزاء في ابن أخيه، إلا بعد دخول الجيش العربي والفرنسي بلاد الشام وإعلان الحكم العربي فيها سنة ١٩١٨م، فاستراحت نفسه وبدا عليه السرور[٣].

لقد توفي الشيخ طاهر بعد أن استحكم منه مرض الربو، فقد قفل راجعاً إلى مسقط رأسه قبيل وفاته بأشهر قليلة، فعينته الحكومة العربية مديراً عاماً لدار الكتب العربية - التي أسست بسعيه منذ أربعين سنة وقت صباه[٤] - وعضواً في المجمع العلمي العربي. ومات في ربيع الثاني سنة ١٣٣٨هـ (١٩٢٠م) ودفن في دمشق[٥].

وقال طلابه: عَظُم نعيهُ في أندية العلم والأدب، واضطرب تلامذته ومريدوه وأحبابه وعارفو فضائله بخطبه الجلل، يبكون ويرثون الذي كان الحركةَ الدائمة في بث المدنية والعلم الصحيح[٦]، وبعد أربعين يوماً من وفاته أقيم حفل لذكر مآثره؛ على عادتهم في بدع الجنائز.

---

(١) انظر: المؤتمر العربي الأول، محب الدين الخطيب، ٤.

(٢) مجلة الهلال، مجلد ٢٨، الجزء ٥، ١١/ ٦/ ١٣٢٨هـ، المقال عيسى إسكندر المعلوف، ص: ٤٥١.

(٣) الشيخ طاهر الجزائري رائد النهضة العلمية في بلاد الشام، عدنان الخطيب، ٨٦.

(٤) تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر، محمد سعيد الباني، ١٤٠.

(٥) كنوز الأجداد، محمد كرد علي، ١٨. وانظر: تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر، محمد سعيد الباني، ١٤٠ ومجلة المقتطف، الجزء الرابع، المجلد ٢٦، بتاريخ ١٢/ ٧/ ١٣٣٨هـ، الموافق ١٩٢٠م، ص: ٢٩٧.

(٦) مجلة المجمع العلمي العربي، المجلد١، الجزء١٠، ٢١/ ٤/ ١٣٣٩هـ، ص: ١٧. مقال: محمد كرد علي.

المبحث الثاني: شخصيات المرحلة الثانية

تم التعريف في المبحث الأول، بأبرز الشخصيات المؤثرة في تأسيس الجمعيات القومية، وذلك في فترة الالتقاء الثقافي بين الدول الاستعمارية النصرانية والدولة العثمانية، وذلك عن طريق الحملات التنصيرية في أيام الدولة العثمانية.

وفي هذا المبحث سأتناول الشخصيات المؤثرة في تأسيس الجمعيات خلال المرحلة الثانية، التي تبدأ تقريباً من إسقاط السلطان عبدالحميد وتولي جمعية الاتحاد والترقي مقاليد السلطة، وهذه المرحلة التاريخية تعتبر بداية تأسيس الجمعيات القومية العربية.

» أولاً: رفيق العظم:

أ - تعريف موجز بالشخصية الذاتية:

هو رفيق بن محمود بن خليل العظم[1]، ولد في دمشق حوالي سنة ١٢٨٠هـ[2]، الموافق (١٨٦٧م)، وعاش رفيق العظم في كنف والده في أحد قصور آل العظم بدمشق[3].

وكانت نشأة رفيق العظم في وقت نشاط النهضة العلمية التي شهدتها بلاد الشام على يد الشيخ طاهر الجزائري، ولذا اتصل رفيق العظم بطاهر الجزائري وسليم البخاري فأخذ عنهما - كما يقول أعضاء الجمعيات - ما استنار به عقله، وأهّله للنزول في مضمار

(١) الأعلام، الزركلي، ٣/ ٣٠. وقال الزركلي: ولد سنة ١٢٨٤هـ.

(٢) وقال رشيد رضا في ترجمته: ولد سنة ١٢٨٢هـ. انظر: مجموعة آثار رفيق العظم، المقدمة.

(٣) مجلة الزهراء، المجلد الثاني، الجزء الأول، بتاريخ ١٥/ ١/ ١٣٤٤هـ، ص:٢٢٥ - ٢٢٦ (بتصرف يسير).

الجهاد لبث الأفكار الصحيحة وإنكار الظلم[١].

ويذكر أقرانه: أن رفيق العظم نشأ كما ينشأ أمثاله من أبناء الوجهاء والأعيان المترفين في ذلك العهد ليعدوا من أجل خدمة الحكومة. فلم يعن والده بتعليمه في مدارس العلم العربية، التي كانت من تأسيس الجمعية الخيرية؛ درس العظم التعليم الابتدائي في كتاب أهلي، ثم أخذ شيئاً من مبادئ اللغة العربية عن شيوخ عصره، وكان كل ما حصله بعد ذلك بمطالعاته الشخصية[٢].

ويذكر السبب في عدم انتظام العظم في تعليم المدارس العربية لأنها خاصة برجال الدين، وأما عدم انضمامه لمدارس الحكومة العثمانية الإعدادية والعالية ربما يكون لعدم شعوره بالحاجة إلى تخرجه فيها، أو عدم رغبته بجعله من عمالها وموظفيها، الذين لا تكنهم دار، ولا يقر لهم بين أهلهم قرار، أو فمحض الإهمال.

فعلى هذا يكون رفيق العظم غير متعلم تعليماً منظماً. وإنما أخذ بعض المبادئ عن بعض شيوخ عصره، وكان يعاشر العلماء والأدباء والمتصوفة، ويطالع الكتب ودواوين الشعر لأجل التسلية[٣].

ويصفه معاصروه في بدء نشأته مولعاً بقراءة السير والفتوح، وانتقل منها إلى قراءة الأمهات من كتب التاريخ[٤]، وكان مولعاً بكتب الأدب أيضاً[٥].

---

(١) المعاصرون، محمد كرد علي، ٢٢٤.

(٢) مجموعة آثار رفيق العظم، رشيد رضا، المقدمة.

(٣) المصدر السابق نفسه، (بتصرف)

(٤) مجلة الزهراء، المجلد الثاني، الجزء الأول، بتاريخ ١٥/ ١/ ١٣٤٤هـ، ص: ٢٢٥ - ٢٢٦ (بتصرف يسير).

(٥) الأعلام، الزركلي، ٣/ ٣٠.

ومع حرص رفيق العظم على العلم ومجالسة العلماء والأخذ منهم، اتصف بأنه ذكي الفؤاد، ميال بفطرته إلى العلم والجد ومعالي الأمور، عزوف عن سفاسفها وصغائرها. صرفته الفطرة الذكية عن إنفاق أوقات صباه في اللهو واللعب مع أمثاله من أبناء الموسرين، بل جذبته إلى معاشرة أهل العلم والأدب والأفكار في الأمور العامة[1].

هذا رفيق العظم في بلاد الشام، وأما حياته ونشأته في مصر التي هاجر إليها سنة ١٨٩٤م (١٣١١هـ)[2] - كما يقول أعضاء الجمعيات القومية - بعد أن اشتدت مطاردة عبدالحميد للسياسيين العثمانيين طلاب الدستور.

يقول أعضاء الجمعيات القومية العربية: جاء رفيق العظم إلى مصر مقتنعاً بثلاثة مبادئ إصلاحية:

أ) الرجوع إلى ينابيع الشريعة الإسلامية الصافية.

ب) الأخذ من الحضارة العصرية بأسباب القوة.

ج) أن يكون الحكم في الدول الإسلامية قائماً على أساس النيابة[3].

ظهر نشاط رفيق العظم السياسي والاجتماعي في مصر حينما اتصل ببعض أعضاء الجمعيات القومية الساكنين الديار المصرية، وانضم إلى مدرسة محمد عبده، وأخذ يختلف إلى مجالس الأستاذ[4] ويحضر دروسه التي كان يتناول فيها الكلام على المسائل الفلسفية[5].

---

(١) مجموعة آثار رفيق العظم، رشيد رضا، المقدمة (بتصرف).

(٢) المصدر السابق نفسه، (بتصرف) ويقول غيره: كانت هجرته في سنة ١٣١٥هـ. أو في سنة ١٣١٠هـ.

(٣) مجلة الزهراء، المجلد الثاني، الجزء الأول، بتاريخ ١٥/ ١/ ١٣٤٤هـ، ص: ٢٢٧.

(٤) مجموعة آثار رفيق العظم، رشيد رضا، المقدمة. (بتصرف)

(٥) الإسلام والتجديد في مصر، تشارلز آدمس، ٢٠٥، مطبعة الاعتماد، مصر، ١٣٥٣هـ (١٩٣٥م).

ومن دلائل نشاطه في مصر واتخاذها دار هجرة ومقامة قولُ رشيد رضا - أحد مؤسسي الجمعيات القومية العربية - عنه: (بعد استقرار رفيق العظم في مصر، طفق ينشر المقالات السياسية والاجتماعية في أشهر جرائدها اليومية: (الأهرام فالمقطم فالمؤيد فاللواء)، وفي أشهر مجلاتها (كالمقتطف والهلال والمنار والموسوعات)..، وقد تم التآلف والتعارف بيننا وبين رفيق، ثم التعاون على الإصلاح السياسي والاجتماعي، فالاشتراك في الأحزاب والجمعيات السرية والجهرية[(١)].

ومن أنشطة رفيق العظم في مصر أيام تولي الإشراف على إدارة (المدرسة العثمانية)[(٢)] تأليفه كتاب (الدروس الحكمية للناشئة الإسلامية) لها، وهو عبارة عن دروس إصلاحية في الدين والتربية والأخلاق والسياسة، وقد بلغت سبعة وعشرين درساً، وكل درس يفتتحه بعنوانَيْن، الأول: من عنده، والثاني: من القرآن الكريم[(٣)].

وقال في مقدمة الكتاب: لابد من تربية الأفكار الآن على مبادئ الشريعة، بوضع كتب جديدة تبين مزايا الدين الإسلامي للناشئة الإسلامية، من جهة ما يُقَوِّم أَوَدَ النفوس الناشئ عن خلط الاعتقاد الصحيح بالبدع التي أضعفت النفوس من جهة، وأزاغت ضمائر بعض الناشئة عن حقيقة الإسلام من جهة أخرى، لترشد تلك الكتب النشء الإسلامي إلى الدين من طريق العلم والعقل، وإلى العمل من طريق الدين..، وقسمتُ هذا الكتاب إلى ثلاثة أقسام: في الاجتماع؛ مبادئه وروابطه ومقوماته، ليكون أشبه بمرقاة، يرى فيها كيفية تدرج الإنسان في مراقي الحضارة والعمران، بما وهبه الله من قوة العقل والإرادة، وأرشده إليه من طريق السعادة، وجعلت تحت كل قسم منها

---

(١) مجموعة آثار رفيق العظم، رشيد رضا، المقدمة.

(٢) أسسها ابن عم رفيق العظم، صلاح الدين بك العظم. انظر: مجلة الزهراء، المجلد٢، الجزء ١، ص: ٢٢٨

(٣) الدروس الحكمية، رفيق العظم، ٥، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠٩هـ.

دروساً، مستمداً فيها مادة البيان من آي القرآن[1].

تزوج رفيق العظم ولم يرزق ولداً[2]، يقول أحد معاصريه: (كان رفيق شديد الولوع بدخان التبغ والقهوة، على شدة تأثيرهما في مرضه الصدري، حتى ضعف جسمه وصار يتعب من الكتابة والمطالعة، فاعتزل الناس ولزم داره حتى وافاه أجله في اليوم التاسع من شهر ذي الحجة سنة ١٣٤٣هـ، الموافق ٢/ ٤/ ١٩٢٥م، وتوفي بالقاهرة[3].

ب - أهدافه وآثاره العلمية والعملية في تأسيس جمعيات القومية العربية:

سبقت الإشارة إلى أن رفيق العظم قد تلقى عن طاهر الجزائري ما استنار به عقله وأهّله للنـزول إلى مضمار الجهاد لبث الأفكار الصحيحة وإنكار الظلم، وكان سنُّ رفيق العظم عند تأسيس الحركة الإصلاحية التي قام بها طاهر الجزائري الخامسة عشرة من عمره[4].

كما وافقت مبادئ الدعوة التي قام بها طاهر الجزائري، هوىً في نفس رفيق العظم الذي وصفه معاصروه بأنه كان ميالاً بطبعه إلى السياسة والأمور العامة[5].

ومن خلال الاطلاع على نشأة الجمعيات القومية العربية يلاحظ أن رفيق العظم كان له دورٌ بارزٌ في تأسيس الجمعيات القومية، سواء أكان الدور في التنظير والتأسيس أم المشورة وإبداء الرأي، وقد قال أحد أعضاء الجمعيات القومية العربية: (وما تألفت

---

(١) المصدر السابق نفسه، ٧ - ٨.

(٢) مجموعة آثار رفيق العظم، رشيد رضا، المقدمة.

(٣) المصدر السابق، المقدمة. وانظر: المعاصرون، محمد كرد علي، ٢٢٦.

(٤) مجلة الزهراء، المجلد الثاني، الجزء الأول، بتاريخ ١٥/ ١/ ١٣٤٤هـ، ص: ٢٢٥ - ٢٢٦ (بتصرف يسير).

(٥) مجموعة آثار رفيق العظم، رشيد رضا، المقدمة.

في القاهرة جمعية أو قام فيها عمل ذو بال يتفق مع مبادئه الإصلاحية، إلا كان في مقدمة العاملين لإنجاحه)[1].

أول تنظيم حزبي قام به رفيق العظم هو الانضمام إلى جمعية تركيا الفتاة وكان كغيره من أعضاء الجمعيات القومية العربية الذين ناصروا جمعية تركيا الفتاة، ثم افترقوا عنها. صحب رفيق العظم بعض أحرار الترك النازلين في بلده فأفاد منهم روحاً جديدةً وتلقح فكره بآراء حرة، ومن أيسرها مقاومة الاستبداد والمستبدين، والتنبيه على فساد الإدارة العثمانية[2].

أكثر رفيق العظم من نقد سياسة الدولة العثمانية، تصريحاً أو تلميحاً، ومثال ذلك، عند حديثه عن عدل عمر رضي الله عنه في تصريف أموال الدولة الإسلامية، وعن موقفه رضي الله عنه، عندما رفض الزيادة الفاحشة لمخصصات الخليفة خشية أن يكون فيها شيء من التبذير في الأموال.

قال رفيق العظم: (وحبذا لو نظر الخلفاء بَعْدُ هذا النظر، وراعوا في بيت المال أوامر الشريعة وسنة السلف من الصحابة، فإن فيها كل الحكمة، ولقد بلغ تجاوز هذه الحدود المعقولة في دول الإسلام مبلغاً يدهش عقول الباحثين، وما نظن أن أكثر البلاء الذي حل بهذه الأمة والضعف الذي انتابها في العصور القديمة والحديثة إلا ناشئاً عن إسراف أُمرائها وسلاطينها وتبديدهم للأموال في طريق الشهوات..

وأشقى الأمم من هذا القبيل؛ الأمم التي لا حد لسلطة رؤسائها يُعْرف، ولا غاية لسلطانها تُوصف، وإنما هم أرباب اليد المطلقة في أموال الرعية، يأخذون ما شاؤوا

---

(١) مجلة الزهراء، المجلد الثاني، الجزء الأول، ص: ٢٣٤.

(٢) المعاصرون، محمد كرد علي، ٢٢٤ - ٢٢٥.

ويمنعون من شاؤوا.. وليس عليهم من الأمة رقيب عتيد، ولا من الوجدان زاجر عنيد)[١].

وبعد إسقاط السلطان عبدالحميد وإعلان الدستور، قال رفيق العظم: كانت الأمة العثمانية قبل إعلان الدستور العثماني في مستوى واحد من حيث الظلم الذي كان ينالها من الحكومة المطلقة، لا فرق بين مسلمِها ومسيحيها وتركيها وعربيها، ومن شأن الحكومات المطلقة تساوي رعيتها في الظلم والتظلم[٢].

ويعتبر تأسيس الجمعيات القومية العربية هو التنظيم الآخر لرفيق العظم، وهذا العمل التنظيمي كان في مصر، وكانت تعتبر مهجر الأحرار آنذاك[٣].

أوّل الجمعيات التي شارك في تأسيسها رفيق العظم (جمعية الشورى العثمانية) ومؤسسها رجال من سائر الشعوب العثمانية الكبرى، وكان رفيق العظم أمين صندوقها. وأصدرت جمعية الشورى جريدة باسمها (الشورى العثمانية) وتولى رفيق العظم تحرير القسم العربي فيها[٤].

يقول محب الدين الخطيب - أحد أعضاء الجمعيات القومية العربية -: (لما مررت بالقاهرة إلى اليمن سنة ١٣٢٥هـ (١٩٠٧م) أطلعني رفيق العظم على نظام (جمعية الشورى العثمانية) التي كانت تأسست في القاهرة منذ عهد قريب، وأخبرني بما لها من

---

(١) أشهر مشاهير الإسلام، رفيق العظم، ٢/ ٤٢٩ - ٤٣٠، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، الطبعة السادسة، ١٤٠٣هـ.

(٢) مجموعة آثار رفيق العظم، رشيد رضا، (الجامعة العثمانية)، ١١٨.

(٣) انظر: الفصل الثاني من الباب الأول من هذه الرسالة. ص: (٢٢٨)

(٤) مجموعة آثار رفيق العظم، رشيد رضا، المقدمة. (بتصرف يسير).وانظر عن جمعية الشورى العثمانية: مجلة المنار، المجلد الثاني عشر، الجزء الحادي عشر، ص: ٨٢٤.

الفروع في البلاد العثمانية وغيرها، واتفقت معه على إنشاء فرع لها في اليمن، وقد وفق الله لذلك بأقرب مدة، فتألف الفرع الرابع عشر للجمعية هناك)[١].

ومن أبرز الجمعيات التي أسسها رفيق العظم حزب اللامركزية الإدارية العثماني[٢]، وتولى رئاسة الجمعية، وقال في بيانه الذي وضعه عند التأسيس: (مما ثبت بالتجارب لهذا العهد أن أفضل أشكال الحكومات هو الدستوري، وأفضل أشكال الدستوري هو اللامركزية، خصوصاً في الممالك التي تعددت فيها الفرق والمذاهب واللغات)[٣].

ومما يلاحظ على الجمعيتين السابقتين أن رفيق العظم كان يسعى - كما يقول أعضاء الجمعيات القومية - إلى إبقاء الدولة العثمانية، إذ إن العرب يحتاجون إلى زمن طويل لترقية أنفسهم، وجمع كلمتهم، واستغنائهم عن الدولة إن زالت أو بقيت، وأنّ الخروج على الدولة ضار وخطره على العرب أشد من خطره على الترك[٤].

وهذا المبدأ الذي دعا إليه رفيق العظم، لم يكن مُجمعاً عليه من قبل أعضاء الجمعيات القومية العربية[٥]. وسبق البيان إلى أن من أهداف الجمعيات القومية العربية: الانفصال عن الدولة العثمانية واستقلال البلاد العربية[٦].

كان لرفيق العظم بعض الأفكار والتوجيهات التي ساعدت على تأسيس الجمعيات القومية العربية، وتضمنتها مواقفه وآثارهُ العلمية، وفيما يلي بيان ذلك:

---

(١) مجلة الزهراء، المجلد الثاني، الجزء الأول، ص: ٢٣٠.
(٢) انظر: الفصل الأول من الباب الأول من هذه الرسالة. ص: (٧١)
(٣) مجلة الزهراء، المجلد الثاني، الجزء الأول، ص: ٢٣١.
(٤) مجموعة آثار رفيق العظم، رشيد رضا، المقدمة.
(٥) المصدر السابق نفسه.
(٦) انظر: الفصل الثالث من الباب الأول من هذه الرسالة. ص: (٢٣٩)

أولاً: نقد سياسة السلطان عبدالحميد الثاني: يعتبر كتاب (أشهر مشاهير الإسلام في الحرب والسياسة) من الكتب التي أثنى عليها أعضاء الجمعيات القومية العربية[1]، وحينما يذكر مواقف لبعض الخلفاء الراشدين مع الرعية، يقارن هذه المواقف مع الخلافة القائمة في عصره، فمثال ذلك: عند تعليقه على قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه: (قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني)[2].

قال رفيق العظم في معرض التلميح ناقداً السلطان عبدالحميد: (.. أين هذا ممن اتخذوا بعدُ اسم الخلافة سلاحاً يضربون به وجوه المسلمين، ويمزقون أحشاء الإسلام، ولم يرضوا لأنفسهم من سمات الخلافة التي ابتدعوها الترفع عن مخاطبة الناس والتحجب وراء الستور والاعتلاء على منصات العظمة والكبرياء..، وحكموا الناس بالظلم والاستبداد، وساقوهم بعصا الاستعباد، ففرقوا عنهم القلوب وشتتوا كلمة المسلمين..، فخمدت من جراء ذلك جذوة العقول، وفترت القوى، وانحطت الأخلاق وفقد العلم، وبارت الصنائع)[3].

ومما صرّح به رفيق العظم ناقداً السلطان عبدالحميد قوله: (إن السلطان عبدالحميد المخلوع كان دائم الوجل، محاطاً بالدسائس من قومه الأتراك الذين يعلم مقدار توجسهم الخيفة على سيادة تمتعوا بها نحو سبعة قرون، وكاد بسوء إدارته وحرصه على الحكم المطلق يمزقها تمزيقاً)[4].

---

(١) انظر:

١. مجلة المنار، المجلد ٧، الجزء ١٤ عشر، بتاريخ ١٦/ ٧/ ١٣٢٢هـ، الموافق (١٩٠٤م) ص: ٥٤٠.

٢. مجلة الهلال، المجلد ١٢، الجزء ١٥، بتاريخ ١٥/ ٢/ ١٣٢٢هـ، الموافق (١٩٠٤م) ص: ٤٧٧ - ٤٧٨.

٣. مجلة المقتطف، المجلد الثلاثون، الجزء التاسع، بتاريخ ٢/ ٧/ ١٣٢٣هـ، الموافق (١٩٠٥م) ص: ٧٣٤.

(٢) انظر نص خطبة الصديق: مصنف عبدالرزاق، ١١/ ٣٣٦. والسيرة النبوية، ابن هشام، ٤/ ٣٤٠ - ٣٤٢.

(٣) أشهر مشاهير الإسلام، رفيق العظم، ١/ ٩١.

(٤) مجموعة آثار رفيق العظم، (الجامعة العثمانية)، ١٢٠.

ثانياً: رابطة اللغة ورابطة الدين: يقرر رفيق العظم ما قرره أعضاء الجمعيات القومية العربية بأن رابطة اللغة أقوى تأثيراً في تكاتف المجتمع من رابطة الدين، فقد قال رفيق العظم: للاجتماع نظامات وروابط، وهي العصبيات، وتكاد تكون طبيعية بين البشر، وأهمها الروابط العامة التي تجمع قوماً أو أقواماً كثيرين على كلمة واحدة، وهي رابطة العشيرة أو الجنس أو الوطن أو الدين.

ثم بين رفيق العظم أولوية هذه الروابط بقوله: إنّ رابطة الجنس والوطن فإنها طبيعية الوجود، لا سبيل إلى انحلالها إلا بانحلال القوم المنتسبين إليها، ويلي هاتين في المنزلة العصبيةُ الدينية، ويقول: تليهما هذه العصبية لأنها نادرة الظهور بين الأمم، ولا يلجأ إليها إلا حين الضرورة القصوى، وقلّ ما جمع الدين كلمةَ أهله بأجمعهم إلا في الشاذ النادر، اللهم في العواطف دون الفعل..، إن أقل هذه الروابط تأثيراً في المجتمعات رابطة الدين[1].

ثالثاً: الثناء على الثورة الفرنسية: من منطلق طلب الإصلاح والترقي في الدولة العثمانية، تحدث عن تاريخ الدول النصرانية من جانب السلطة السياسية، وقال: إن الأمم المسيحية لما كانت مسوقة في أوربا بيدي الكهنة والملوك، مأخوذة الإرادة بقوة هاتين الفئتين لم يكن لها من الأمر إلا أن تُدعى إلى عمل فتجيب، وتساق إلى حرب فتسير. وبيّن رفيق العظم أن هذه الحال قد تغيرت حينما قيدت هذه الأمم قيود تلك السلطة وتمتعت بالحرية، وشاركت الحكام بالرأي؛ أصبح الحكام بيد الشعب لا الشعب بيد الحكام، وصار الساسة وأرباب الحل والعقد محاسبين على كل عمل يأتونه[2].

---

(١) مجموعة آثار رفيق العظم، (رسالة الجامعة الإسلامية)، ٤٩.

(٢) المصدر السابق نفسه، ٥٧.

هذا التغيير الذي حدث في الدول النصرانية رافق ظهور النهضة الحديثة في أوربا، وعزاه رفيق العظم إلى من سماه بالمصلح الديني (لوثر)، وقال عنه: (لقد اشتهرت مقالته بعدم مشروعية الرهبنة والاعتراف (صك الغفران) وسيادة البابا الدينية، فكانت مقالته هذه أول خطوة خطاها الأوربيون للتملص من أغلال السلطة الدينية..، وسرت مقالته في أوربا سريان النار في الهشيم، تلقتها العقول بمزيد من القبول، وأعقب هذا الإصلاح الديني الإصلاح السياسي والمدني)[1].

ويؤكد العظمُ - وهو من المؤسسين للجمعيات القومية العربية - على أن الأسباب التي دعت الأمم الأوربية إلى المطالبة بالحرية، وهدم أركان الحكومات المطلقة عقب الثورة الفرنساوية، وسرت مبادئها يومئذ في نفوس الشعوب، تقليداً للفرنساويين وإقتداء بهم، هي الأسباب نفسها التي تدعو المسلمين الآن إلى طلب الحرية، سواء كانوا محكومين بحكومات مسلمة أو مسيحية[2].

ومن تأييد الثورة الفرنسية أن أصبحت شعارات الثورة المتضمنة للحرية والعدالة والإخاء دارجة في كلمات رفيق العظم[3]، وقد بين أن الشعار الماسوني قد أقام الرسول ﷺ دعوته عليه، فقد قال رفيق العظم: محمد ﷺ أعظم البشر بلا مراء، ومؤسس الشريعة الإسلامية على دعائم الحرية والعدالة والإخاء[4].

وبعد إسقاط السلطان عبدالحميد وإعلان تطبيق الدستور ذكر رفيق العظم مدى سلطة الأمة، وبين أنها تربط أواصر الأخوة الوطنية، وتبث روح العزة في النفوس لتساق

---

(١) المصدر السابق نفسه، (رسالة الجامعة الإسلامية وأوربة)، ٥٩.
(٢) المصدر السابق، ٨٥.
(٣) انظر: أشهر مشاهير الإسلام، رفيق العظم، ١/ ٥٣.
(٤) المصدر السابق نفسه، ١/ ٢.

إلى مستوى التكافل العام القائم على أساس الحرية والإخاء والمساواة[1].

رابعاً: الدعوة للحكم الديموقراطي: لقد كانت المبادئ الماسونية، والدعوات العلمانية، التي ظهرت في عصر تأسيس الجمعيات القومية من أقوى المؤثرات على المنهج الدعوي عند رفيق العظم.

ومن أدلة تأثره حديثُه عن الديموقراطية ونظام الحكم، حيث رأى أحقية البلاد الإسلامية بالحكم الديموقراطي، وأن تقدم المسلمين منوط بتحقيق الحياة الديموقراطية وتأسيس المجالس النيابية، قال: إن نهضة المسلمين العلمية وحركتهم الفكرية، وتشربهم روح الديموقراطية، ما يقرب أوان التوفيق بين مصالح الشرق والغرب، ويدعو الدول إلى مصافاة الأمم الإسلامية[2].

ومن المسوغات التي ذكرها رفيق العظم لتطبيق الحكم الديموقراطي في الدولة العثمانية، بأنه ما من أمة سارت فيها روح الديموقراطية الصحيحة إلا كانت أجزاؤها أشد تماسكاً، ورابطتها العامة أشد إحكاماً[3].

وحينما ذكر العظم خُطبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه عند توليه للخلافة، قال: (عيَّن أبوبكر رضي الله عنه حدَّ السلطة العليا فيها بتلك الخطبة الأنيقة، حكومة ديموقراطية قلّ أن يجد طلاب الحرية والعدل في كل عصر أحسن لسياسة الأمم منها.. وفي الجانب الآخر وبعد أن تغيرت سياسة الخلفاء من الحكم الديموقراطي إلى الحكم المطلق، وأصبحت الخلافة ملكاً عضوضاً وسلطة جائرة.. تدنى نظام دولة الإسلام،

---

(١) مجموعة آثار رفيق العظم، (الجامعة العثمانية)، ١١٩.

(٢) مجموعة آثار رفيق العظم، (رسالة الجامعة الإسلامية وأوربة)، ٨١.

(٣) المصدر السابق نفسه، (الجامعة العثمانية)، ١١٩.

ومن أبرز أسباب هذا التدني، انحلال عرى الحكومة الديموقراطية، فدخل الوهن على الحاكم والمحكوم، وشقي الظالم والمظلوم)[١].

ولما كان مفهوم الديموقراطية تسليم سيادة الحكم للشعب، وأنه يكون رقيباً على أعمال الحكام بواسطة المجالس النيابية[٢]، قرر العظم أن الحياة السياسية لا تكون إلا بالحكومات النيابية، فهي التي ترفع شأن الأمم، وتحوط حياة الأقوام السياسية بسور من القوة[٣].

عرف العظم الحكم الدستوري الذي يطالب به بأنه: عبارة عن نزع السلطة من الأفراد، ووضعها بين يدي الجماعات، وأية جامعة تجمع بين عناصر الأمة على اختلاف المشارب والمذاهب والآراء، وتجعلها في مستوى واحد بالحقوق والواجبات أقوى من حكم الأمة نفسها لنفسها.

ومن هذا التصور للحكم أكد رفيق العظم على استبعاد الاعتقاد (الدين) من الحياة السياسية، فبعد أن استعرض أسباب ضعف الأمة ذكر منها: اصطباغ الدولة الإسلامية منذ نشأتها بصبغة دينية مهدت السبيل لأولياء أمر الأمة بعد الخلفاء الراشدين للأخذ على أيدي الرعية وأفواهها باسم الدين[٤].

أثنى رفيق العظم على واقع تطبيق الحكم النصراني بقوله: إن الحياة السياسية في أوربا قد صارت أو كادت تصير بمعزل عن الاعتقاد. فالغربي إذا حكم في الشرق مسيحياً مثلاً لا ينظر إلى ما بينهما من المشاركة في الاعتقاد، بل ينظر إلى المصلحة.

---

(١) أشهر مشاهير الإسلام، رفيق العظم، ١/ ١٢٠- ١٢٢. (بتصرف).

(٢) مذاهب فكرية معاصرة، محمد قطب، ١٧٨.

(٣) مجموعة آثار رفيق العظم، (رسالة الجامعة الإسلامية وأوربة)، ٧٩ - ٨١.

(٤) أشهر مشاهير الإسلام في الحرب والسياسة، رفيق العظم، ٤/ ٦٧٦.

ولتعميم هذا المعتقد طالب العظمُ الدولَ الكافرة مساعدةَ البلاد الإسلامية لتطبيق هذا المعتقد، يقول: وليتكاتفوا مع المسلمين على المضي في سبيل العلم والترقي والديموقراطية الصحيحة التي يسير إليها الشرق كما سار إليها الغرب، وليحققوا - الدول الكافرة - بذلك آمال الشرق في بنيه(١).

ويرى رفيق العظم - كما هو منهج الجمعيات القومية العربية -، بأنه إذا كانت الحياة السياسية للأمة حياةً دينية، كان لها آثار سلبية على الأمة منها:

أن لا سبيل معها - الحياة الدينية - لنوابغ الأمة وعقلائها للتنقل بها في مدارج الرقي الطبيعي، الذي تقتضيه حالة كل عصر سواء كان في حياة الأمم السياسية أو حياتها الاجتماعية(٢).

ومنها: أنه يؤدي إلى جمود الأفكار على مبدأ الخضوع المطلق للأمير باعتبار أن الأمير رئيس ديني تجب له الطاعة مع التغاضي عما يجب عليه في مقابلها من العدل(٣).

ومنها: تحول الأحزاب السياسية التي تقوم في الدول لخير الأمة ومصلحة الشعب إلى فرق دينية كانت في الإسلام آفة الدين، ومفرق شمل المسلمين(٤).

ومنها: ظهور أثره على أعمال المسلمين وأخلاقهم وعقائدهم وعوائدهم، بحيث صاروا لا يقبلون أي جديد باسم الدين، ويرفضون كل أمر نافع إذا لم يعرف عن أسلافهم الميتين(٥).

---

(١) مجموعة آثار رفيق العظم، (رسالة الجامعة الإسلامية وأوربة)، ٨٣.

(٢) أشهر مشاهير الإسلام في الحرب والسياسة، رفيق العظم، ٤/ ٦٧٦.

(٣) أشهر مشاهير الإسلام في الحرب والسياسة، رفيق العظم، ٤/ ٦٧٨.

(٤) المصدر السابق، ٤/ ٦٧٦. في مجلة المنار المجلد السابع، الجزء الرابع عشر، سنة١٦/ ٧/ ١٣٢٢هـ، رد على آراء رفيق العظم، في مسألة إقامة الخلافة على أساس الدين. وانظر: الحاكمية في تفسير أضواء البيان، جمع: عبدالرحمن بن عبدالعزيز السديس، دار طيبة، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ).

(٥) أشهر مشاهير الإسلام في الحرب والسياسة، رفيق العظم، ٤/ ٦٧٩.

وهذه المبررات التي ذكرها رفيق العظم ودعا إليها على أساس أنها الظلم في الأمة وسبباً في تشتيتها، فالحكم لا يكون للأمة ولا للأفراد، إنما الحاكمية لله تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾[2]، وسوف أتناول إن شاء الله المخالفات العقائدية عند الجمعيات في الباب الثاني.

خامساً: تعظيم العلم المادي: انطلاقاً من مبادئ الإصلاح والترقي التي دعا إليها أعضاء الجمعيات القومية العربية، والرغبة في تقدم العلوم والصناعات، ومسايرة الدول الأوربية، من هذه المنطلقات اهتم رفيق العظم بالعلم المادي والرغبة في تحصيله، وهو بهذا المنهج يمثل مدرسة شيخه محمد عبده، تلك المدرسة التي حاولت التوفيق بين الدين والعلم، وبينت للناس أن الدين الإسلامي الحق لا يحارب العلم ولا ينافي العقل، وأنه دين العقل والحرية والفكر، وذهبت تبيّن للناس ذلك المنهج وتقيم الدين الإسلامي على العقل - الذي لا يقر أرباب الثقافة الغربية غيره حكماً - وبيّنتْ أن ليس في الإسلام ما لا يقره العقل[3].

وقد وجه رفيق العظم نصيحته بلزوم تعلم الحياة الأدبية، والإقبال على طلب العلم وتأسيس المدارس، وخاطب أولياء أمور الطلبة بأن يبعثوا أولادهم إلى دور العلم في أوربا، ليستفيدوا خير ما في المدنيّة الغربيّة وهو العلم، وأن يهدموا كل حاجز يقوم في سبيل نشر العلم في بلادهم مهما كان[4].

ومن أجل نقل العلوم دعا رفيق إلى أن تقوم فئة - كما وصفهم -: قد استنارت بنور العلم والمدنية، ببيان فوائد العلوم الحديثة للأقوام الآخرين الذين عزلتهم حكومات

---

(١) سورة يوسف، آية (٤٠).

(٢) سورة الأنعام، آية (٥٧).

(٣) منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، فهد الرومي، ٧٠.

(٤) مجموعة آثار رفيق العظم، (رسالة الجامعة الإسلامية وأوربة)، ٧٩.

الاستبداد عن عالم الحركة والعلم..، فأصبحوا يستنكرون كل ما أتاهم عن طريق الغرب.

ولتحقيق تحصيل العلوم المادية بيّن العظم أن الأمة الإسلامية يجب أن تصافح الدول الأوربية مصافحة الصديق للصديق، وقال: إننا محتاجون إليها في تلقي دروس المدنية عنها، وفي أخذ العلوم النافعة منها..، ومن العدل والإنصاف يجب الاعتراف بفضل المدنية الأوربية التي نهضت بالإنسانية إلى منزلة سامية لم تبلغها من قبل، وأن الاحتكاك بالأوربيين قد نفع الشرق نفعاً محسوساً..، فنحن مدينون لهم بالرقي العقلي والصناعي.

ويؤكد رفيق العظم على أن العلم المادي هو رسول السلام في هذا العصر، والمشرق على القلوب، وأنه ما دامت السيادة مؤكدة في المستقبل للعلم فلنتلقها من الآن بصدر رحيب[(١)].

سادساً: تأليف الكتب: صنّف رفيق العظم في إطار تأسيس الجمعيات القومية العربية بعض الكتب، ومن أهمها:

١) كتاب أشهر مشاهير الإسلام: وهو كتاب يتضمن سيرة الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم دون علي بن أبي طالب رضي الله عنه، كما ترجم لبعض الرجال المعاصرين للخلفاء، وفي الكتاب يتعرض لمسائل كثيرة تعتبر تأصيلاً لبعض أفكار الجمعيات القومية. ووصفه أعضاؤها بأنه أعظم آثاره العلمية، وطار به صيته في الأقطار[(٢)].

٢) كتاب الدروس الحكمية، للناشئة الإسلامية: وقد قرر محمد عبده تدريس هذا الكتاب في مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية، ويحتوي الكتاب على دروس للطلاب، مما قال فيه: مبدأ التآلف والاتحاد من أهم المبادئ التي تأسست على دعامتها سعادة البشر

---

(١) المصدر السابق نفسه، ٨١، ٨٢. (بتصرف يسير)

(٢) مجموعة آثار رفيق العظم، المقدمة.

الدنيوية وحياتهم القومية[1].

٣) كتاب تنبيه الأفهام إلى مطالب الحياة الاجتماعية والإسلام: تناول رفيق العظم في هذا الكتاب واقع الأمة وما أصابها من ضعف بسبب ضعف العلم، وتخاذل بعض العلماء في نشره[2].

٤) لرفيق العظم عدد من الخطب جمع بعضها في كتاب (مجموعة رفيق العظم)، ومن تلك الخطب: خطبة ألقاها على أعضاء نادي دار العلوم سنة ١٣٢٧هـ، بعنوان: (أسباب سقوط الدولة الأموية) ومما جاء فيها:.. إن الخلافة صارت إلى أبي بكر ثم عمر ثم عثمان رضي الله عنهم، ولم يقم بين العرب من أجلها أدنى نزاع باسم الدين بل كان العقل هو المحكم، والمصلحة رائد جمهور العقلاء من الأمة، بقطع النظر عما إذا كان علي حقيقاً بالخلافة فإنه حقيق بها بلا شك، وإنما كانت هناك ظروف وأحوال إذا وصلنا خبر بعضها فإنا نجهل بعضها الآخر بتاتاً، وقد راعى جمهور الصحابة تلك الظروف والأحوال مماشاة لسنة الطبيعة والعقل فقدموا عليه الثلاثة الكرام، ولو كان للدين حكم في استخلاف علي رضي الله عنه لما عدلوا عنه إلى العقل..

وبعد أن قرر رفيق العظم هذا المبدأ تساءل: إذاً فمن أين دخلت السياسة في الدين فجعلت الخلافة حقاً شرعياً من حقوق آل البيت؟ ومتى ظهر النزاع عليها باسم الدين؟ وظهرت مقالة الإمامية التي تلتها بدع كانت آفة المجتمع الإسلامي؟. الجواب على هذا يعرفه كل مطلع على التاريخ، دخلت السياسة في الدين، وظهرت مقالة الإمامية لما دخل الأعاجم في الإسلام[3].

(١) الدروس الحكمية للناشئة الإسلامية، رفيق العظم، ١٥.

(٢) تنبيه الأفهام إلى مطالب الحياة الاجتماعية والإسلام، رفيق العظم، ٦٧، مطبعة الموسوعات، مصر، ١٣١٨هـ (١٩٠٠).

(٣) مجموعة آثار رفيق العظم، (مجموعة خطب رفيق العظم)، ١٥.

» ثانياً: ساطع الحصري:

من خلال تتبع الكتب القومية، وتقديم الفكر القومي للأمة، يلاحظ أن ساطع الحصري قد شغل جانباً كبيراً في هذا الأمر، وقد كتبت عن الحصري وفكره القومي، وفلسفته التربوية، وآرائه الاجتماعية، كتب كثيرة وأطروحات قدمت إلى الجامعات الأوربية والأمريكية[1].

ويعود سبب ذلك إلى أن ساطع الحصري قد سلك في نشر فكره طريق التعليم والتربية، سواء التدريس أو التأليف وقد قال عنه أعضاء الجمعيات القومية العربية: صنف أكثر من (٥٠) كتاباً، وقد عين معلماً أثناء حكم السلطان عبدالحميد، وعين وزيراً للمعارف في الحكومة العربية الأولى في دمشق[2].

واعتبر القوميون ساطع الحصري أول من أدرك - من المشتغلين بالقومية العربية - قيمة الثقافة في البناء القومي، وأنه يعتبرها المقوم الأول من مقومات القومية، والأساس الأول في تحقيق الوحدة العربية الكبرى[3].

أ - تعريف موجز بالشخصية الذاتية:

يكنى بأبي خلدون: وهو ساطع بن محمد بن هلال بن السيد مصطفى الحصري[4].

---

(١) خواطر وأحاديث في التاريخ، نجدة فتحي صفوة، ١٧٠.

(٢) انظر:

١. الحكومة العربية في دمشق، خيرية قاسمية، ٢٣٤.
٢. الأعلام، الزركلي، ٧٠.
٣. مذكراتي في العراق، ساطع الحصري، ٢/ ٧.

(٣) مجلة الرسالة، العدد (١٠٣٧)، بتاريخ ١٢/ ٧/ ١٣٨٣هـ (١٩٦٣م)، السنة الحادية والعشرون، ص: ٦.

(٤) ساطع الحصري، مجموعة من الكتاب، ١٢، (سلسلة نوابغ العرب)، دار العودة، بيروت، ١٩٨٥م. وانظر: الأعلام، الزركلي، ٣/ ٧٠.

وعن أصله يذكر بعض الكتاب نقلاً عنه أنه من حلب، قال عن نفسه: ولدت في صنعاء من والدين عربيين حلبيين في تاريخ يصادف ٥ من آب (أغسطس) عام ١٨٨٠م (١٢٩٧هـ)[١].

قال عنه أعضاء الجمعيات القومية العربية: تترّك ثم تعرّب، وقد أصبحت اللغة التركية هي لغته الدارجة، وأصدر مجلة التربية باللغة التركية، قيل عنها: أول ما صدر من نوعها بتلك اللغة. ووضع ١٢ كتاباً بالتركية[٢].

وكان سبب ضعف ساطع الحصري باللغة العربية أن والده كان يكثر التنقل بين الولايات العثمانية لأنه كان يشغل منصب رئاسة محكمة الاستئناف. وكانت كثرة تنقلات والده وهو في المرحلة الأولى من حياته السبب في عدم التحاقه بمدرسة ابتدائية معينة. ولهذا تلقى تعليمه في البيت باللغة التركية المحكية..، كما أنه درس الفرنسية على أخويه الكبيرين، وقد كان لهذا التعليم غير التقليدي بالنسبة لذلك العصر أثر كبير في احتفاظ ساطع الحصري، طول عمره، بموقف مبني أساساً على العلمانية[٣].

وقال أحد معاصريه: بحكم نشأة الحصري - في عاصمة الدولة العثمانية، ودراسته باللغة التركية - لم يكن يعرف اللغة العربية أو يلم بها حتى مغادرته تركية، وقد حدثني أنه كان في الأربعين من عمره حين بدأ بتعلمها[٤].

وقد قال ساطع عن نفسه: قدر لي أن أتنقل خلال السنوات الاثنتي عشرة الأولى من حياتي بين المدن التالية: من إستنبول إلى أضنة، ومن أضنة إلى أنقرة، ومن أنقرة إلى

(١) ساطع الحصري، محمد عبدالرحمن برج، ٩، (سلسلة أعلام العرب)، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٨٨م.
(٢) الأعلام، الزركلي، ٧٠.
(٣) مجلة المستقبل العربي، العدد الأول، السنة الخامسة، ١٩٧٨م، ص: ٧٧.
(٤) خواطر وأحاديث في التاريخ، نجدة فتحي صفوة، ١٦٨.

إستنبول، ثم من إستنبول إلى طرابلس الغرب، ومن طرابلس الغرب إلى إستنبول، ومن إستنبول إلى صنعاء اليمن..، ولقد تركت هذه الرحلات التي تمت خلال طفولتي في نفسي أثراً من الانطباعات العميقة، والذكريات المتنوعة[1].

ومع تلك الظروف التي مرّ بها الحصري في حياته الأولى، إلا أنه تلقى تعليمه في المدرسة الملكية بإستنبول مدة سبع سنوات، أربع منها بالتعليم المتوسط والثلاث الأخيرة بالقسم العالي، وبقي طوال هذه المدة بالقسطنطينية لم يغادرها.

وجد ساطع في نفسه ميلاً إلى دراسة العلوم الطبيعية، وأخذ يقرأ الكتب المؤلفة باللغة الفرنسية في هذه العلوم، ووضع لنفسه أمنية عاش على أمل أن تتحقق وهي أن يصبح عالماً فيها، ومضى ساطع في دراسته بالقسم العالي من المدرسة الملكية الشاهانية يدرس العلوم الإدارية والسياسية[2].

توضح التربيةُ الأولى التي تلقاها ساطع الحصري في المدرسة الملكية، كثيراً من المؤثرات الفكرية التي سيطرت على فكره، فالمدرسة الملكية هي من الجانب الإداري كلية رفيعة المستوى تأسست عام ١٨٥٩م (١٢٧٥هـ)، ثم خضعت للتحديث عام ١٨٧٧م (١٢٩٣هـ)، يتخرج فيها الموظفون الإداريون[3].

وأما الجانب التعليمي والمنهجي للمدرسة فهو معهد علماني، وتدرس فيها مواد تجمع بين العلوم القانونية والسياسية والإدارية[4]، وقد تحول هذا المعهد تحت حكم

---

(١) ساطع الحصري، محمد عبدالرحمن برج، ١٤.
(٢) المصدر السابق، ١٥.
(٣) خواطر وأحاديث في التاريخ، نجدة فتحي صفوة، ١٥٩، مطبعة إشبيلية الحديثة، بغداد، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م. وانظر: مجلة المستقبل العربي، العدد الأول، السنة الخامسة، ١٩٧٨م، ص: ٧٨.
(٤) خواطر وأحاديث في التاريخ، نجدة فتحي صفوة، ١٥٩.

السلطان عبدالحميد الثاني إلى مركز اختمار ثقافي، حتى إن قادة (تركيا الفتاة) فتحوا أعينهم على تعاليم الحرية والوطنية، على يد أساتذة هذا المعهد[١].

مكث ساطع الحصري هذه المدة في القسطنطينية، وفي خلالها تربى وتلقى في حداثته وشبابه التربية المعهودة لدى جيل تركيا الفتاة، تلك التربية التي كانت تستند إلى الأفكار الوضعية الفرنسية والقومية الأوربية[٢].

أمضى الحصري سني الدراسة وتخرج من المدرسة الملكية عام ١٩٠٠م (١٣١٧هـ)، واختار وظيفة التدريس لأنها المدخل الأول لبث أفكاره ومبادئه.

ويقول عنه أحد معاصريه: (ليس من الممكن نشر المعرفة بصورة نافعة ومؤثرة بدون معرفة جيدة لمبادئ التربية وعلم النفس، فاهتم بدراستها حتى أصبح من خبرائها المعدودين في الدولة العثمانية)[٣].

وقد عين الحصري مدرساً للعلوم الطبيعية في المدارس الثانوية، وكان تعيينه في ولاية (بانيا)[٤]. وبقي ساطع مدرساً في ولاية بانيا لمدة خمس سنوات، ولسهولة اتصال هذه الولاية بالمدن الأوربية، فقد تمكن أن يحصل على كثير من الكتب الفرنسية التي نشرت في باريس، وأن يشترك في عدة مجلات علمية..، ونظراً لتخرجه من المدرسة الملكية عهد إليه المسؤولون عن التعليم في بانيا القيام بتدريس المعلومات القانونية التي كانت تدرس للتلاميذ، وعلم الاقتصاد والتاريخ.

(١) مجلة المستقبل العربي، العدد الأول، السنة الخامسة، ١٩٧٨م، ص: ٧٨.
(٢) نقد الفكر القومي، إلياس مرقص، ١٢.
(٣) خواطر وأحاديث في التاريخ، نجدة فتحي صفوة، ١٦١.
(٤) تقع في أقصى الغرب من البلاد العثمانية الأوربية.

انتقل ساطع الحصري من وظيفة التعليم إلى العمل الإداري، وذلك - كما يقول القوميون -: بسبب من تدخل السلطان عبدالحميد في سياسة التعليم، ورغب أن يعمل في مقدونيا أو كما كانت تسمى بالولايات الثلاث إشارة إلى (سالونيك Salonika، ومو ناستير Monastir، وكوسوفا Kosov) فصدر تعيينه من وزارة الداخلية، بمنصب (قائمقام)[١].

وقد اختار ساطع الحصري، (مقدونيا) لأنها بعيدة عن سلطة السلطان عبدالحميد، وفيها حركات ثورية ضد السلطان عبدالحميد. وكان الجيش الذي تولى إرغام السلطان عبدالحميد على إعلان الدستور عام ١٩٠٨م، ثم إسقاطه عام ١٩٠٩م قد جاء من (مقدونيا)[٢].

بعد إعلان الدستور العثماني اعتزل الحصري الحياة السياسية، ورغب الاشتغال بالتأليف والتعليم، فقدم استقالته من وظيفته وعاد إلى عاصمة الدولة[٣].

وخلال الحرب العالمية الأولى انتقل ساطع الحصري إلى البلاد العربية وأقام فيها، وبدأ فترة مهمة من حياته تناول ما يتعلق بتأسيس الجمعيات القومية العربية. فكان يقول عن نفسه: (أنا عربي، وعندما انفصل العرب عن الإمبراطورية العثمانية، لم يكن أمامي خيار سوى الانضمام إليهم)[٤].

---

(١) ساطع الحصري، محمد عبدالرحمن برج، ١٦، ١٨ (بتصرف).

(٢) انظر: مذكراتي على هامش القضية العربية، أسعد داغر، ٣١.

(٣) ساطع الحصري، محمد عبدالرحمن برج، ٢٢.

(٤) مجلة المستقبل العربي، العدد الأول، السنة الخامسة، ١٩٧٨م، ص: ٨٠. نقلًا من كتاب:
William L, Cleveland, The making of an Arab Nationalist، 45, 1971.

وتوفي الحصري فجأة، ودفن في العراق[1] في ٢٤/ من ديسمبر سنة ١٩٦٨م، الموافق (٤/ ١٠/ ١٣٨٨هـ)[2].

ب - أهدافه وآثاره العلمية والعملية في تأسيس الجمعيات القومية العربية:

يمكن من خلال الاطلاع على الجهود العلمية القومية لساطع الحصري تقسيمها لمرحلتين:

المرحلة الأولى: خلال الحكم العثماني، وما ظهر فيه من أحداث كإسقاط السلطان عبدالحميد، وتزعم جمعية تركية الفتاة للسلطة وانضمام بعض أعضاء الجمعيات القومية لها، ثم وقوع الخلاف بين العرب والترك.

المرحلة الثانية: خلال إقامة الحكومة العربية في بلاد الشام، وتفرد بعض أعضاء الجمعيات القومية العربية بحكم بعض البلاد العربية. ثم تفرق أعضاء الجمعيات القومية العربية في البلاد العربية؛ تنتهي هذه المرحلة بوفاته.

وقد تكون المرحلة الأخيرة هي أكثر إيضاحاً للفكر القومي عند ساطع الحصري، إذ إن تأسيس الجمعيات القومية ينتهي بنهاية حكم الدولة العثمانية للبلاد العربية، إلا أن ما قدمه ساطع خلال تلك الفترة الأخيرة يعتبر منهجاً مؤصلاً لدى جمعيات القومية العربية.

ويمكن حصر جهوده وآثاره خلال المرحلتين جميعاً بما يلي:

أولاً: انتسابه إلى جمعية تركية الفتاة: كانت الفترة التي قضاها في مقدونيا هي العتبة التاريخية - حقاً - التي دخل منها ساطع الحصري ساحة المعترك السياسي الذي اشتد عوده مع تراكم تناقضات ومعارك اقتسام الدول الاستعمارية لبلدان العالم المتخلف والمستعمر[3].

---

(١) خواطر وأحاديث في التاريخ، نجدة فتحي صفوة، ١٦٤.

(٢) ساطع الحصري، محمد عبدالرحمن برج، ٩٢.

(٣) مجلة قضايا عربية، العدد (٣/ ٤)، السنة الثانية، ١٩٧٥م، ص: ١٢٠.

يقول الحصري في مذكراته عن أثر هذه الفترة في حياته: (أكسبتني بعض الخبرة في كيفية تدبير الأمور دون إفساح المجال إلى اعتراض هيئة المراقبة وتدخلها مع التغلب على الدسائس والمناورات التي كان يقوم بها البعض من المراقبين، ولذلك استعرضت في ذهني كل تلك الوقائع والتجارب، وقررت لنفسي الخطة التي يجب اتباعها في هذا الشأن: بحث الأمور والمشاريع بحثاً دقيقاً وشاملاً قبل إيصالها إلى مكتب المستشار، والتسلح بسلاح قوي من العلم والمنطق في مناقشتها معه، العمل على الدوام بهدوء تام دون إثارة وضجيج من إخفاء الغرض الأصلي من ذلك العمل في بعض الأحيان. إن المرتبة العليا من السياسة، أي سياسة التربية الوطنية القويمة؛ تدخل ويجب أن تدخل في صميم أعمال المدارس وأغراضها)[١].

في أثناء قيام ساطع الحصري بوظيفة قائمقام في ولاية (مقدونيا) بدأت حركة الاتحاد والترقي في الاتصال بالعناصر المناوئة للسلطان عبدالحميد، وكان ممن اتصلت بهم ساطع الحصري، وبرغم أن مهمته كانت تقضي أن يبلغ المسؤولين عن هذه العناصر الوطنية بحكم عمله في الجهاز الإداري للدولة العثمانية، إلا أن ساطعاً أيد هذه الحركة الثورية وباركها وعمل بكل جهده لتأييدها[٢]، وبخاصة أنه قد اعتنق مبادئها في الكلية الملكية.

لقد كان ولاء الحصري كما تقول المجلات القومية: (لم يكن متجهاً بحال نحو السلطان وشرطته..، بل كانت حماسته كلها حتى ذلك الوقت قد تركزت في محاولة إصلاح المناهج التربوية والتعليمية المتخلفة والفاسدة..، كانت عواطفه كلها مع الحركات الثورية المطالبة باستقلال مقدونيا ضد السلطان عبدالحميد، ولقد تحول التعاطف إلى مشاركة إيجابية نشطة في حركة التنظيمات الثورية، وخاصة عندما نجح الضباط الثوريون الأتراك في حمل السلطان عبدالحميد إلى إعادة المشروطية أي الدستور[٣].

---

(١) مذكراتي في العراق، ساطع الحصري، ١/ ٣٧ - ٣٨.

(٢) ساطع الحصري، محمد عبدالرحمن برج، ٢١.

(٣) مجلة قضايا عربية، العدد (٣/ ٤)، السنة الثانية، ١٩٧٥م، ص: ١٢٠.

وحينما تم إسقاط السلطان عبدالحميد وأعلن الدستور العثماني أخذ ساطع يلقي الخطب الحماسية الملتهبة، ونشرت كلماته في جريدة الثورة التي صارت باسم (نير حقيقت) أي (شمس الحقيقة)[١]. ونشرت كلماته الملتهبة حول الإصلاح والديموقراطية في جريدة الثورة..، كانت تلك الفترة من حياة ساطع وبخاصة من ١٩٠٥ - ١٩٠٨م في ولايات مقدونيا العثمانية، منعطفاً عظيم الأثر في حياة الحصري الفكرية والاجتماعية[٢].

ثانياً: نشاطه التعليمي والتربوي، خلال حكم جمعية الاتحاد والترقي:

إن من أبرز معالم وآثار الحصري على الجمعيات القومية العربية أن تولى مهمة التعليم، ووضع الأسس والمناهج المبنية على أسس قومية علمانية، وقد اعترف ساطع بعلمانيته؛ ففي أحد احتفالات تكريمه قُدمّ للتكريم فقيل عنه: [مرحباً بالمناضل الكبير في خدمة العروبة والإسلام)، فرد عليه بهذه العبارة، (عرب نعم.. إسلام لا.. أنا لاييك.. أنا لاييك) وكلمة (لاييك) تعني أن صاحبها علماني أو لا ديني][٣].

وكانت بدايات نشر هذا الهدف منذ تخرجه من المدرسة الملكية، وتبنيه فكر جمعية الاتحاد والترقي، وأصبح من أكثر المربين والمثقفين نفوذاً في الإمبراطورية العثمانية، في الفترة التي تميزت بإعادة الحياة الدستورية، وقد قيل عنه: أحد الأعلام المعدودين في التربية، وقد كان عميد هذا الفن في تركية قبل الثورة العربية[٤].

وقد عهد لساطع الحصري تولي إدارة مدرسة المعلمين في القسطنطينية، وأنشأ قسماً

(١) ساطع الحصري، محمد عبدالرحمن برج، ٢٢.

(٢) مجلة قضايا عربية، العدد (٣/ ٤)، السنة الثانية، ١٩٧٥م، ص: ١٢٠.

(٣) شخصيات اختلف فيها الرأي، أنور الجندي، ٧٤، دار الأنصار، مصر.

(٤) مجلة الرسالة، العدد، ١٢٣، بتاريخ ١٤/ ٨/ ١٣٥٤هـ، (١٩٣٥م)، السنة الثالثة، ص: ١٨٣٦.

فيها لتخريج المدرسين للمدرسة ذاتها[١].

لقد أعاد ساطع تأسيس هذه المدرسة على أسس جديدة تماماً كما يقول تلاميذه، دون أن يتقيد بمناهجها القديمة، أو بهيئتها التعليمية. وأدخل في مناهجها لأول مرة علم النفس، وفن التربية والتدريس..، وأنشأ مجلة سماها مجلة التدريسات الابتدائية التي كانت أول مجلة تربوية تصدر باللغة التركية، وكانت تتألف من قسم نظري وآخر عملي، وكان ساطع يجمع فيها الكثير من نماذج الدروس[٢].

كان ساطع من دعاة الاقتداء بالفكر الأوربي، والسير على النظم العلمانية، وقد قال عنه طلابه: ظل بعيداً كل البعد عن أن يتأثر في عمله بدين من الأديان، أو بمذهب من المذاهب، وإنما كان يصدر في عمله عن عقيدة قومية، وأسلوب علمي[٣].

ولتطبيع التعليم بهذه المعتقدات العلمانية، قام الحصري برحلات استطلاعية إلى بلاد أوربا سنة ١٩١٠م (١٣٢٧هـ)، حيث زار عدداً من المدن الأوربية، وقام خلال زيارته بدراسة أحوال التعليم فيها، ولا سيما دور المعلمين، والدراسة في المراحل الابتدائية وما تطبقه هذه الدول من نظم تعليمية جديرة بأن تُحتذى..، وكان ساطع يتصل خلال رحلاته هذه بمشاهير رجال التربية والتعليم، وعندما تأسس معهد (جان جاك روسو) في جنيف تعرف ساطع إلى أهم مؤسسيه، وأخذ يحث وزارة المعارف العثمانية على أن تُوفد البعض من طلابها في بعثات تعليمية للدراسة في هذا المعهد، نظراً لما يطبقه هذا المعهد من نظم جديدة في التعليم، كما دعاه مؤسس المعهد أن يكون من أعضاء الهيئة الراعية له[٤].

---

(١) مجلة قضايا عربية، العدد(٣/ ٤)، السنة الثانية، ١٩٧٥م، ص: ١٢١.

(٢) ساطع الحصري، محمد عبدالرحمن برج، ٢٣.

(٣) المصدر السابق، ٤٩.

(٤) ساطع الحصري، محمد عبدالرحمن برج، ٢٤.

وبعد النزاع بين العرب والأتراك، ورغبة الترك في تحقيق المطالب العربية بعد المؤتمر العربي الأول عُرض على ساطع الحصري أن يكون مستشاراً عربياً لوزارة المعارف[1]. وألف الحصري كتباً باللغة التركية في المجال التعليمي، منها: فن التربية بجزأين، وآخر في الإثنوغرافيا (علم الأقوام أو الأجناس البشرية)، وكتب في الكيمياء وعلم الحيوان وعلم النبات، ومبادئ العلوم الطبيعية[2].

ومما ينبغي ذكره عن نشاط ساطع الحصري خلال فترة حكم جمعية الاتحاد والترقي للدولة العثمانية، كانت تربط ساطع الحصري صداقة شخصية بعبدالكريم الخليل أمين المؤتمر العربي في باريس، وكان يقبل دعوة الخليل لإلقاء خطاب في المنتدى الأدبي، وانضم إلى جمعية الفتاة[3].

ثالثاً: آثار الحصري التعليمية في البلاد العربية:

حينما أصبح للجمعيات القومية العربية كيان سياسي متمثل في الدولة العربية الأولى انتقل الحصري من القسطنطينية إلى سورية، وقد قال: (أنا عربي، وعندما انفصل العرب عن الإمبراطورية العثمانية، لم يكن أمامي خيار سوى الانضمام إليهم)[4]. فذهب إلى سورية للمساهمة في بناء الدولة العربية الجديدة، التي قيل عنها: خضعت الحكومة لتوجيه الهيئات الوطنية السياسية[5]، وكانت تربطه علاقة فكرية مع فيصل بن الحسين، ولهذا نراه في سوريا مسؤولاً عن التعليم كما نراه في العراق.

لقد كان نصيب الحصري في التقسيم الوزاري أن أصبح وزيراً للمعارف في تلك

(١) مجلة المستقبل العربي، العدد الأول، السنة الخامسة، ١٩٧٨م، ص: ٧٩.

(٢) خواطر وأحاديث في التاريخ، نجدة فتحي صفوة، ١٦٧.

(٣) مجلة المستقبل العربي، العدد الأول، السنة الخامسة، ١٩٧٨م، ص: ٧٩. وانظر: حول الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ١/ ٨٦.

(٤) مجلة المستقبل العربي، العدد الأول، السنة الخامسة، ١٩٧٨م، ص: ٨٠.

(٥) الحكومة العربية في دمشق، خيرية قاسمية، ١٦٨.

الدولة الفتية[١]، وقد تولى هذا المنصب الهام في توجيه الأمة مع وصف القوميين له بأنه أشد المفكرين العرب تعصباً لعلمانية القومية العربية[٢].

ويستمر ساطع الحصري في نشر مذهبه العلماني في التربية والتعليم، فيقول أعضاء الجمعيات القومية العربية عن دوره في تأسيس التعليم في المرحلة الجديدة من تاريخ البلاد السورية: لقد استدعته الحكومة السورية الحديثة الاستقلال عام ١٩٤٤م (١٣٦٣هـ) ليعمل مستشاراً في الشؤون التربوية، وكانت تقاريره الستة عشر التي وضعها حول هذا الموضوع هي أساس تعريب التعليم في سورية.

ومع أن البرلمان السوري وصف قانون المعارف الجديد (المعتمد على تقارير الحصري واقتراحاته) بمثابة [إعلان الاستقلال الثقافي] فإن النزعة العلمانية التي تميزت بها اقتراحات الحصري؛ قد دفعت بعض العناصر الطلابية الملتزمة بدينها، والعالمة بمكر قانون الحصري؛ وإفساده لعقيدة المسلمين، فقاموا منكري له عن طريق مظاهرة تهتف في شوارع دمشق (لا إله إلا الله، الحصري عدو الله).. إلا أن الحكومة السورية صمدت أمام الضغوط، واحتفظت بقوانين الإصلاح التعليمي - بحسب تعبيرهم - التي صممت بناء على اقتراحات الحصري[٣] العلمانية.

(١) خواطر وأحاديث في التاريخ، نجدة فتحي صفوة، ١٦١.

(٢) مجلة المستقبل العربي، العدد الأول، السنة الخامسة، ١٩٧٨م، ص: ٧٦. المقال بعنوان: (ساطع الحصري، المفكر والداعية والنموذج) قالت المجلة عن هذا المقال: اهتم بشكل أساسي على دراسة صدرت عام ١٩٧١م عن جامعة برنستون الأمريكية بعنوان:

The making of an Arab Nationalist, Othomanism and Arabism in The Life and Thought of Sati` Al، Husri by William L, Cleveland، Princeton University press.

ويبدو أن هذا الكتاب هو أشمل وأدق دراسة صدرت حتى الآن، بأية لغة، عن حياة ساطع الحصري وفكره، فقد اعتمد مؤلفها على المؤلفات الأساسية للحصري، بالتركية والعربية، ثم على عشرات المراجع (أكثر من مائة وثلاثين) مؤلفاً بالعربية والتركية والإنجليزية والفرنسية، عن الحصري وعصره.

(٣) مجلة المستقبل العربي، العدد الأول، السنة الخامسة، ١٩٧٨م، ص: ٨٢. وانظر عن هذه التقارير: تقرير عن حالة المعارف في سورية واقتراحات لإصلاحها، الحصري، دمشق، دار الهلال، ١٩٤٤م.

وكان مما جاء في المادة الأولى لقانون المعارف وما يتعلق بواجب الوزارة: مهمة وزارة المعارف تربية الجيل الجديد تربية صالحة من جميع الوجوه البدنية والخلقية والفكرية، ليصبح كل فرد من أفراده قوي البدن، حسن الخلق، صحيح الفكر، محباً لوطنه، معتزاً بقوميته(١).

ويقول أحد طلاب الحصري والمتأثرين به خلال هذه الفترة: لقد تأثر الشباب بكتابات ساطع الحصري بالدرجة الأولى، تلك الكتابات التي ركزت الاهتمام على وجود العوامل والمقومات الكافية لوجود أمة عربية واحدة، وكان أولئك الشباب يحاورون ويردون على الأفكار التي أنكرت مثل تلك المقومات، وطرحت بدائل أخرى لعلاقات شعوب المنطقة العربية(٢).

وأما آثاره في الجانب التعليمي في العراق فقد قيل عنه: إنه ولا شك ركن أساسي قوي من أركان النهضة العلمية في العراق(٣).

وبناء على اتفاق بين الحصري والملك فيصل ارتحل الحصري إلى مصر، وبدأ يعد نفسه للأعمال التعليمية، فكتب إلى وزير المعارف المصري في ذلك الحين خطاباً يلتمس له التصريح بزيارة بعض المدارس المصرية، وجاءته الموافقة وقام بزيارات مختلفة، حتى جاءته الدعوة من فيصل بن الحسين للعمل في العراق ١٩٢١م (١٣٣٩هـ)(٤).

لقد تولى الحصري إدارة المعارف هناك، فوضع أساس التعليم للحكومة الجديدة على أساس الوحدة القومية وأحدث الطرق الفنية والنظريات التربوية الحديثة، والاعتبارات

---

(١) تقرير عن حالة المعارف في سورية واقتراحات لاصلاحها، الحصري. وانظر: ساطع الحصري، محمد عبدالرحمن برج، ٧٣.

(٢) سياسي يتذكر، جمال الشاعر، ٣٤.

(٣) مجلة الرسالة، العدد، ١٢٣، بتاريخ ١٤/٨/١٣٥٤هـ، (١٩٣٥م)، السنة الثالثة، ص: ١٨٣٦.

(٤) ساطع الحصري، محمد عبدالرحمن برج، ٤٤.

القومية، ومتطلبات المرحلة الجديدة[١].

يقول عنه طلابه في العراق: (كان الحصري قد ألب من حوله كثيراً من العداوات لعدة أسباب أهمها تطرفه وتشدده في صيغ مناهج التعليم العراقية بصيغة القومية العربية والعصرية من منطلقات ثقافته العلمانية)[٢].

ولهذا التأثير في الأمة، وإقرار المبادئ العلمانية في تعليم وتربية الجيل على يد ساطع الحصري نجد أعضاء الجمعيات القومية العربية يقولون عنه: لقد مضى على ساطع بك في إدارة المعارف ست سنوات..قام في خلالها بأجل الخدمات، ولم يدخر جهداً في تنظيم المناهج وترقية المدارس وإيجاد روح علمية في البلاد هي أظهر أثر يذكر في نهضتها الحاضرة. وفي الحق إذا لم يكن لساطع غير مجلته التربية والتعليم هي الوحيدة من نوعها لكفاه فخراً في خدمة الناشئة الجديدة وتهيئتها لمستقبل أحسن[٣].

وقالوا: أهم ما يسجله التاريخ لساطع أنه وضع للقومية العربية أسساً علمية ووجه الأنظار وأشاع الروح فيها وقوىّ الإيمان بها..، حين يعمل في مجال التربية والتعليم يسعى لبعث العامل القومي وتقويته، ويضع المناهج الدراسية التي يراها كفيلة بتحقيق ذلك، وحين يضع تقارير الإصلاح لخطط التعليم يضع نصب عينيه الخطط الكفيلة بتقوية الشعور القومي وتغذيته[٤].

فقد كانت خدماتهُ بناءةً، متعددة الجوانب، بعيدة الآثار..، ويكفيه أنه كان رائد الفكرة القومية العربية وفيلسوفها، الذي كان له أكبر الأثر في تكوين وعي قومي في

---

(١) خواطر وأحاديث في التاريخ، نجدة فتحي صفوة، ١٦٢.
(٢) مجلة المستقبل العربي، العدد الأول، السنة الخامسة، ١٩٧٨م، ص: ٧٦.
(٣) مذكراتي في العراق، ساطع الحصري، ٢/ ١٩، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٨م.
(٤) ساطع الحصري، محمد عبدالرحمن برج، ١٤٢.

المشرق العربي، وقد كانت الدعوة للقومية العربية محور عمله وحياته مدة نصف قرن تقريباً[١].

رابعاً: بعض أفكاره القومية: بعد إسقاط السلطان عبدالحميد ظهرت في الأمة ثلاثة اتجاهات مختلفة، وهي:

١) الاتجاه الطوراني التركي، ويتزعمه جمعية الاتحاد والترقي.

٢) الاتجاه العثماني، ويقصد به العلماني التغريبي، ويتزعمه الجمعيات العربية.

٣) الاتجاه الإسلامي، والرابطة الإسلامية[٢].

لقد كان ساطع الحصري ينهج نهج الاتجاه العثماني، ولهذا كانت أفكاره التي نشرها في كتبه وظهرت بعد تفرق أعضاء الجمعيات القومية العربية في البلاد العربية تلتقي مع الأهداف العامة للجمعيات القومية.

ولاتفاق مبادئ الحصري مع مبادئ الجمعيات فقد أثنى القوميون على أفكاره فقالوا: كانت آراؤه وأحاديثه في القومية والتربية والاجتماع قائمة على فهم عميق للتاريخ، وإيمان حقيقي بالمكان الذي يجب أن تحتله الأمة العربية تحت الشمس، إلى جانب ثقافته الغزيرة[٣].

ويمكن إيجاز أفكار ساطع الحصري بالأمور التالية:

١ - الرابطة القومية والرابطة الإسلامية: ابتدع الحصري في الأمة الإسلامية ولاء جاهلياً وهو الولاء القومي، فعند حديثه عن العوامل التي تربط الأفراد بعضهم ببعض،

---

(١) خواطر وأحاديث في التاريخ، نجدة فتحي صفوة، ١٦٦.

(٢) انظر: مجلة المستقبل العربي، العدد الأول، السنة الخامسة، ١٩٧٨م، ص٧٨.

(٣) خواطر وأحاديث في التاريخ، نجدة فتحي صفوة، ١٦٧.

ذكر منها: الاعتقاد بوحدة الأصل والمنشأ، والاشتراك في اللغة والتاريخ، والتشابه في العواطف والعوائد، والتماثل في ذكريات الماضي ونزعات الحال وآمال المستقبل..، كلها من جملة هذه الروابط المعنوية التي تولّد التقارب والتعاطف وتكّون الأمم والأوطان.

وبيّن الحصري أقوى هذه النزعات، فقال: (إذا لاحظنا أنواع الروابط التي تكون الجماعات السياسية على وجه أخص نجد أن أولها وأفعلها هي نزعة القومية المتولدة من وحدة اللغة والتاريخ.. لأن الوحدة في هذين الميدانين، هي التي تؤدي إلى وحدة المشاعر والمنازع، ووحدة الآلام والآمال، ووحدة الثقافة..، وبكل ذلك تجعل الناس يشعرون بأنهم أبناء أمة واحدة متميزة عن الأمم الأخرى، ولكن لا وحدة الدين، ولا وحدة الدولة، ولا وحدة الحياة الاقتصادية تدخل بين مقومات الأمة الأساسية[1].

ويؤكد الحصري على أهمية اللغة بأن الأمة لا تقوم إلا بلغتها، فيقول: (إن حياة الأمة تقوم بلغتها، بوجه عام، أما الموت بالنسبة إلى الأمة فليس - في حقيقة الأمر - إلا في الحرمان من اللغة الخاصة بها..، إن الأمة تبقى حية، ما بقيت محافظة على لغتها، إنها تبقى مستعدة للحرية والاستقلال، ما دامت متمسكة بلغتها. أما إذا فقدت هذه اللغة، فتكون قد فقدت الحياة..، إن اللغة تكون روح الأمة وحياتها، وتمثل أهم عناصر القومية وأثمن مقوماتها[2].

ومن هذا المنطلق الجاهلي، ينتقد الحصري بعض أدباء ومفكري عصره بأنهم لم يصلوا إلى مرحلة (رابطة القومية) بعد أن انتقلوا من (الرابطة الإسلامية العامة)[3].

---

(١) أبحاث مختارة في القومية العربية، ساطع الحصري، ٢٠٥.

(٢) مذكراتي في العراق، ساطع الحصري، ٢/ ٤٨٠. مقطع من خطاب ألقاه على فريق الكشافة العربي ببغداد، سنة ١٩٣٧م.

(٣) مذكراتي في العراق، ساطع الحصري، ٢/ ٤٧٨.

وبنفس المبدأ تناقل أعضاء الجمعيات القومية العربية فكرة ساطع الحصري، قالوا: (عوامل التجانس في الأمة هي أن يكون لها (بقعة أرضية مُنْضَمّة)، و(وحدة في النسب والتقاليد العامة)، أما الوحدة الدينية فليس لها عنده أهمية في التجانس القومي[1].

والولاء للغة: أوسع شمولاً وأرحب صدراً من نظرية الدم والجنس والدين، لأنّه يعتبرُ به عربياً قومياً كل متكلم باللغة العربية وليس له لغة أم غيرها.. مهما اختلفت الأصول والأديان والمذاهب[2].

٢ - الثورة الفرنسية وتصدير القومية العربية: اعتبر الحصري الثورة الفرنسية هي مبدأ تاريخ القوميات، فقال: (طرأ على أوضاع أوربا السياسية من التطورات والانقلابات ما لم يسجل التاريخ مثيلاً له، في أي عهد من العهود الغابرة..، والعامل الأساسي الذي أنتج هذه التحولات السياسية الخطيرة بهذه السرعة الخارقة كان نشوء الفكرة القومية وتغلغلها في نفوس الشعوب، تغلغلاً جعلها من القوى المؤثرة والمبادئ الفعالة في تكوين الدول وتوجيه السياسة الدولية[3].

لقد أبعدت الثورة الفرنسية الدين عن واقع الحياة، وبالمنهج نفسه تعامل ساطع الحصري مع الدين الإسلامي، فهو يرى أن فكرة القومية العربية صادفت في طريق سيرها وانتشارها عراقيل كثيرة، وعقبات خطيرة قد تغلبت على الكثير منها منذ بداية القرن الحالي: فإنها اخترقت أولاً السد المنيع الذي تكون من امتزاج فكرة الجامعة العثمانية بمعنوية الخلافة العثمانية الإسلامية. وهي - فكرة القومية العربية - على وشك الانتهاء

---

(١) الأستاذ (قصة حياة ميشيل عفلق)، زهير المارديني، ٦٩، الريس، لندن.
وانظر كتاب: (القضايا الاجتماعية الكبرى في العالم العربي)، الشهبندر، وهو عبارة عن مجموعة مقالات كان قد نشرها في الصحف المصرية.
(٢) نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ٣٨ - ٣٩ (بتصرف).
(٣) أبحاث مختارة في القومية العربية، ساطع الحصري، ٥١.

من التغلب على العقبات التي تعترض طريقها باسم الرابطة الشرقية من ناحية والرابطة الإسلامية من ناحية أخرى[(١)].

وكما اقتحمت الثورة الفرنسية الدين النصراني، فإن ساطع الحصري يقرر بأن روح القومية الحقة على وشك أن تقتحم كل العراقيل، وستنتصر في آخر الأمر انتصاراً حاسماً، ولهذا فإن نظرية وحدة الدين مستبعدة في الفكر الأوربي ولم تلعب دوراً يذكر في نشوء النظريات القومية في أوربا، وذلك لأن الأوربيين كانوا قد انتهوا من حل قضية (علاقة السياسة بالدين)..، ولكن الذي حدث في العالم الإسلامي اختلف عن ذلك اختلافاً كبيراً، فإن الخلط بين الدين وبين السياسة، قد استمر في البلاد الإسلامية بوجه عام، والبلاد العربية بوجه خاص[(٢)].

لقد كان أصل أهداف الثورة الفرنسية كما يقول الحصري، (الفكرة القومية وتغلغلها في نفوس الشعوب)، فالولاء للرابطة القومية العربية، ولهذا اعتبر الحصري القومية ديناً وعقيدةً، فقال: (إن الكفاح القومي والجهاد في سبيل النهضة القومية..يحتاج إلى إيمان راسخ في النفوس...يتطلب بذل المجهود لبث الإيمان القومي في النفوس، ولتقوية هذا الإيمان وتغذيته بكل الوسائل[(٣)].

وبعد إقرار العقيدة القومية التي من أجلها يوالي وعليها يعادي، يقرر الحصري: إن رابطة الدين في الأمة وبحسب وقائع التاريخ إنما كانت روابط عاطفية، ولهذا فإن الوحدة السياسية التي وجدت في صدر الإسلام لم تقو على تقلبات الأيام مدة طويلة، والخلافة العباسية نفسها لم تستطع أن تجمع كل المسلمين تحت رايتها السياسية[(٤)].

---

(١) اللغة والأدب وعلاقتهما بالقومية، ساطع الحصري، ٢٢٩.

(٢) أبحاث مختارة، ساطع الحصري، ٢٠٤.

(٣) المصدر السابق، ٨٨.

(٤) المصدر السابق، ١١٢.

وبهذا المبدأ يلتقي الحصري بالفكرة التي قالها رفيق العظم: (وقلّ ما جمع الدين كلمة أهله بأجمعهم إلا في الشاذ النادر، اللهم في العواطف دون الفعل..، إن أقل هذه الروابط تأثيراً في المجتمعات رابطة الدين)[١]. فاعتبار رابطة الدين (رابطة عاطفية) مبدأ يقرره من لهم تأثير في تأسيس الجمعيات القومية العربية.

٣ - اعتبار الخلافة الإسلامية من عوائق نهضة القومية: ذكر الحصري بعض العوائق التي وقفت في طريق نهضة القومية العربية، ومن هذه العوائق السلطة المعنوية التي كانت تتمتع بها السلطنة العثمانية باعتبارها (دولة الخلافة الإسلامية).

وبيّن الحصري الأثر المعنوي في الأمة كما - يعتقده - فيقول: (هذه السلطة المعنوية القوية كانت تخدر فينا روح القومية العربية، وتجعلنا لا نشعر بأننا أمة مغلوبة على أمرها، مستسلمة لسلطان أجنبي عنها، نسينا أن لنا قومية خاصة متميزة عن الأتراك العثمانيين وعن سائر المسلمين).

إن مبدأ: (إن للعرب قومية تخصهم تختلف عن الآخرين) كان من أسباب نشأة الجمعيات القومية العربية، فيقول الحصري: (بدأت جماعة مستنيرة من الناطقين بالضاد تنتبه إلى ذلك - القومية الخاصة - وتطالب بحقوق العرب، وتتكلم عن حقوق اللغة العربية، وقامت جماعات كبيرة تعارضهم معارضة شديدة، زاعمة بأن هذه المطالبات تسيء إلى الرابطة (الإسلامية) العثمانية وتنافي الأخوة الإسلامية)[٢]، وفي الباب الرابع - إن شاء الله - سأبين موقف العلماء المعاصرين من مبادئ الجمعيات القومية.

لقد عرض الحصري أفكاره في أكثر من (٥٠) كتاباً، وكلها مطبوعة[٣]، وقدم من

(١) مجموعة آثار رفيق العظم، (رسالة الجامعة الإسلامية)، ٤٩.
(٢) أبحاث مختارة، ساطع الحصري، ١٧، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ١٩٨٥م.
(٣) الأعلام، الزركلي، ٣/ ٧٠.

خلالها أبرز معالم مبادئ الجمعيات القومية العربية، من بداية تأسيسها وحتى تفرق أعضائها.

ولما تحتويه هذه الكتب من أفكار ومبادئ تعتبر امتداداً لأفكار الجمعيات القومية العربية، قال الحصري: إن الأبحاث المذكورة سارت في الاتجاه الذي كان اتجه إليه أعاظم رجال الدين الإسلامي منذ قرن، فذكر منهم: عبدالرحمن الكواكبي، وعبدالحميد الزهراوي..[١].

ولهذا اعتبره القوميون قائداً من قادة الفكرة العربي[٢]، وأكثر الناس إخلاصاً للقضية العربية وتفانياً في خدمتها، وأقوى الناس حجة في الدفاع عن القومية العربية وجدلاً في سبيلها، يجادل في ذلك من تعرض لها بسوء ويحاجّ بذلك السياسيين، والأدباء[٣].

ويضيف القوميون إلى مآثر الحصري على الفكر القومي إنشاء معهدٍ للدراسات القومية، فقد قالوا عن دور الحصري: فحينما انتقل الحصري إلى مصر مستشاراً للإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية[٤] رأى أن الضرورة تقتضي إنشاء معهد للدراسات العربية يخدم هذا الغرض، ويحقق هذه الغاية، وخرجت فكرة ساطع إلى حيز الوجود، فتقرر إنشاء المعهد وافتتح للدراسة في العام (١٩٥٣ - ١٩٥٤م/ ١٣٧٢ - ١٣٧٣هـ) وعين ساطع مديراً له وأستاذاً للقومية العربية فيه.

وفي حفل الافتتاح ألقى الحصري كلمة قال فيها: (باسم الله وباسم العروبة أفتتح العام الدراسي الأول لهذا المعهد: معهد الدراسات العربية العالية، الذي أنشئ بناء على

---

(١) أبحاث مختارة، ساطع الحصري، ٢٩٤. انظر: المؤتمر العربي الأول، خطبة عبدالحميد الزهراوي، ٢٠.
(٢) خواطر وأحاديث في التاريخ، نجدة فتحي صفوة، ١٧٠.
(٣) مجلة الرسالة، العدد (١٠٣٧)، بتاريخ ١٢/ ٧/ ١٣٨٣هـ (١٩٦٣م)، السنة الحادية والعشرون، ص: ٧.
(٤) خواطر وأحاديث في التاريخ، نجدة فتحي صفوة، ١٦٣.

قرار مجلس جامعة الدول العربية). وحدد النظامُ الأساسيُّ الذي أقره مجلس جامعة الدول العربية أغراض المعهد في مادته الأولى بالعبارات التالية:

١) إعداد شباب عربي مثقف ثقافة عربية عالية.

٢) نشر الثقافة العربية عن طريق التدريس والتأليف والنشر والمحاضرات العامة.

٣) إقامة فكرة القومية العربية على أسس علمية صحيحة.

٤) تكييف أسس الثقافة العربية بحيث تنتفع من تقدم المدنية الحديثة.

وكان ساطع يقول لطلبته: إنه لا يكتفي من هذا المعهد بهذه الأغراض فحسب[١].

» ثالثاً: ميشيل عفلق:

اختلفت الأحوال والظروف التي نشأ فيها ميشيل عفلق عن ظروف وأحوال الشخصيات الأخرى المؤثرة في تأسيس الجمعيات القومية العربية سابقة الذكر.

فقد نشأ عفلق بعد أن ظهرت مؤامرة الدول النصرانية على البلاد الإسلامية، وانهارت الدولة العثمانية والتي تعتبر حامية المسلمين، وتحولت إلى دولة علمانية[٢]، وانهار حلم زعماء الثورة العربية بإقامة دولة عربية[٣]، وهو حلم مبني على وعود الدول الكافرة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[٤].

---

(١) أبحاث مختارة، ساطع الحصري، ٢١. وانظر: «ساطع الحصري، محمد عبدالرحمن برج، ٨٦». و«خواطر وأحاديث في التاريخ»، نجدة فتحي صفوة، ١٦٣. و«ثقافتنا في جامعة الدول العربية، ساطع الحصري».

(٢) انظر: العلمانية وآثارها على الأوضاع الإسلامية في تركيا، عبدالكريم مشهداني، ٢٣٥ - ٣٠٥.

(٣) انظر: ميسلون نهاية عهد، صبحي العمري، ١٦٥، دار الريس للكتب والنشر، لندن، قبرص، الطبعة الأولى، ١٩٩١م. وانظر: معركة ميسلون، إحسان الهندي، مطابع وزارة الثقافة والسياحة، ١٩٦٧م.

(٤) سورة البقرة، رقم الآية (١٢٠).

وبالمقابل فقد ظهرت في المشرق العربي عدة دول خضعت لنظام الانتداب: دخل العراق وفلسطين وشرقي الأردن في منطقة نفوذ بريطانيا، ودخلت سوريا ولبنان في منطقة نفوذ فرنسا[١].

وظهرت في المجتمع العربي مقاومة المستعمر بمناهج مختلفة، فتعددت الحزبية، وظهر حب البروز والرئاسة عند بعض أعضاء الجمعيات القومية العربية متمثلاً بالانقلابات والصراعات الدموية فيما بينهم[٢].

وسوف أترجم لمؤسس حزب البعث العربي، متناولاً جانباً معيناً من حياته، وهو أهدافه وآثاره العلمية والعملية في تأسيس جمعيات القومية العربية، مع تعريف موجز بالشخصية الذاتية. وعفلق هو مؤسس حزب البعث العربي، والذي يعد من أهم الأحزاب القومية المؤثرة في حياة المسلمين.

أولاً: تعريف موجز بالشخصية الذاتية:

من خلال تتبعي لكتب بعض أعضاء ومؤسسي حزب البعث - من أجل استخراج معلومات تتناول شخصية ميشيل عفلق - لم أعثر على كتاب يتناول سيرته[٣] بالنقد والتحليل، وقد صُرّح بندرة الكتب التي تناولت عفلق بالدراسة[٤]. ولهذا قال أحد تلاميذ عفلق بعد وفاته: إننا نعد العدة لدراسة منهجية شاملة تتناول كل مناحي تفكيره[٥].

---

(١) حزب البعث العربي الاشتراكي، مصطفى دندشلي، ١١.

(٢) انظر:

١. مقدمة كتاب الأستاذ، زهير المارديني، ٦٣، ٧٨، الريس، لندن.

٢. عفلق والبعث، جوزيف إلياس، ١٠، دار النضال، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩١م.

(٣) إن كتاب: الأستاذ، زهير مارديني. يعتبر قراءة في فكر ومنهج عفلق في تأسيس حزب البعث. وانظر: عفلق والبعث، جوزيف إلياس.

(٤) انظر: عرب معاصرون، مجيد خدوري، ٣٨٠. (حاشية رقم ٣).

(٥) عفلق والبعث، جوزيف إلياس، ١٦، دار النضال، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩١م.

نشأ ميشيل عفلق إبان مرحلة الصراع التي عاشتها البلاد العربية بينها وبين المستعمر، فهو ولد في زقاق الموصلي في حي الميدان بدمشق عام ١٩٠٩م، أي بعد إعلان دستور السلطان عبدالحميد بسنتين[١]، وكان هذا التاريخ بداية تأسيس جمعيات القومية العربية والأحزاب ذات المقاصد المعينة.

ساعدته مهنة والده (يوسف عفلق) على العيش في المعترك الفكري، حيث تُعَدّ مهنة والده في المهن الرفيعة، فقد كان تاجر حبوب يشتري محصول الفلاحين من الحبوب (القمح بصورة خاصة)[٢]. فأسرة عفلق من الأسر الغنية في ذلك الوقت، ولهذا فقد انتسب عفلق إلى المدارس المنهجية الطائفية، حيث تلقى تعليمه في مدرسة (الأسية) الثانوية في القصّاع للروم الأرثوذكس[٣].

وينتمي ميشيل عفلق عقائدياً إلى المذهب الأرثوذكسي[٤]، وهو بهذا يضاف إلى أعضاء الجمعيات القومية العربية، الذين كان لهم دور بارز في تأسيسها.

وقد سكنت هذه العائلة النصرانية في حي الميدان وهو حي للمسلمين. ويعتبر هذا الحي مركز الحركة الوطنية في دمشق[٥].

وفي الجانب الأُسري من حياة عفلق أظهر والدا عفلق اهتماماً كبيراً بالشؤون السياسية، وأُثِرَ عن والده اشتراكهُ في نشاط وطني واعتقاله لمعارضته الانتداب الفرنسي على سوريا، وهكذا شب عفلق في عائلة كانت تُعنى بالقضايا الوطنية وتتداول

---

(١) ميشيل عفلق الكتابات الأولى، ذوقان قرقوط، ٣٦، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م.

(٢) ميشيل عفلق الكتابات الأولى، ذوقان قرقوط، ٣٧.

(٣) المصدر نفسه، ٣٧.

(٤) المصدر نفسه، ٣٧.

(٥) عرب معاصرون، مجيد خدوري، ٣٧٤.

بالشؤون السياسية[١]. وأُمّه من فرع آل زيدان في دمشق، ومنهم جورجي زيدان[٢] الذي يعد من أبرز الشخصيات النصرانية التي خدمت الجمعيات.

تبدأ ترجمة عفلق الدراسية من المرحلة الثانوية، حيث أنهى دراسته الثانوية وحصل وهو في سن التاسعة عشرة على منحة لنيل إجازة في التاريخ من السوربون[٣]، وقد قال عفلق عن نفسه: كنت تلميذاً في دمشق دون الثامنة عشرة، أتهيأ لفحص البكالوريا[٤].

لقد سبق الحديث عن أثر البعثات العلمية في نشأة الجمعيات القومية العربية، وبخاصة ابتعاث الطلاب من سورية إلى فرنسا والتي كانت مُسْتَعْمِرةً بلاد الشام، نجح عفلق في أول بعثة توفدها الحكومة إلى باريس للدراسة للحصول على إجازة لتدريس مادة التاريخ[٥]، وكان ذلك في عام (١٩٢٨م - ١٣٤٦هـ) وبعد دراسة الفترة اللازمة في السوربون بباريس عاد عفلق يحمل شهادة (الليسانس) في التاريخ[٦].

ومكث عفلق قليلاً في بلاده عام (١٩٣٣م - ١٣٥١هـ)، ثم قفل راجعاً وفي نيته متابعة دراسة التاريخ للحصول على الدكتوراه، وكان قد قطع شوطاً فيها بحصوله على دبلوم في تاريخ الفن اليوناني، الذي كان معجباً به، وجعل طريقه إلى فرنسا من اليونان للتعرف على آثارها، إلا أن وفاة والده أعادته نهائياً والتحق بوظيفة التدريس حيث انخرط في العمل الأدبي وفي الحياة السياسية معاً[٧].

---

(١) المصدر السابق، ٣٧٤. وانظر: ميشيل عفلق الكتابات الأولى، ذوقان قرقوط، ٣٩.

(٢) ميشيل عفلق الكتابات الأولى، ذوقان قرقوط، ٣٧.

(٣) حزب البعث العربي الاشتراكي، مصطفى دندشلي، ٢٩.

(٤) ميشيل عفلق الكتابات الأولى، ذوقان قرقوط، ٦٩.

(٥) المصدر السابق، ٣٧.

(٦) المصدر السابق، ٣٩.

(٧) المصدر السابق، ٤٠.

كانت بعثة عفلق العلمية من المؤثرات الأساسية على تكوينه الفكري، وتنظيمه الحركي، كما سأبينه في الفقرة التالية، وبعد عودة عفلق من البعثة وحصوله على إجازة في التاريخ[١]، شغل منصب التعليم في تلك المادة، فعين سنة ١٩٣٢م في مدرسة (التجهيز) بدمشق (جودت الهاشمي الآن)، وهي إحدى المدارس العليا في وطنه[٢]. وقد كانت الحكومة تختار من المحافظات عدداً من الطلاب النابهين وتوفدهم إلى المدرسة، معفيين من أقساط التعليم الباهظة ليتعلموا، وتهيئ لمعظمهم الأكل والنوم، وتلزمهم بقيود المدارس الليلية الفرنسية.. لا يخرجون إلا أيام العطل[٣].

وكان معظم الطلاب المعجبين بعفلق ينتسبون إلى القسم الداخلي في مدرسة التجهيز، وكان بعضهم من أبناء العائلات الكبيرة والأعيان ومن مختلف المناطق السورية.. وكان هؤلاء يفدون إلى دمشق بقصد التحصيل الدراسي، وعند التخرج كان يدخل هؤلاء سلك التعليم كمدرسين، والمحظوظون منهم كانوا يتجهون إلى المهن الحرة. وهكذا كانوا يحملون راية البعث، وينشرون أفكاره في مناطقهم المختلفة[٤].

ومما لاحظته خلال البحث عن حياة أعضاء جمعيات القومية العربية، أن الكثير منهم، قد تولى منصب التعليم حتى وصل بعضهم إلى منصب الوزارة، وهم بهذا استغلوا هذا العمل من أجل غرس المبادئ القومية في نفوس الطلاب، قال عفلق: ولا يجهل أحد من تلاميذنا وأصدقائنا أننا كنا نسعى دائماً في تدريسنا وكتاباتنا أن نلقح فكر النشء العربي بأفكار الفيلسوف الألماني (نيتشه، عدو الاشتراكية)[٥].

---

(١) المصدر السابق، ٤٠.

(٢) عرب معاصرون، مجيد خدوري، ٣٧٧. وقد قال المؤلف: لقد عرفت عفلق معرفة حميمة، ٣٩٤.

(٣) ميشيل عفلق الكتابات الأولى، ذوقان قرقوط، ٣٩.

(٤) حزب البعث العربي الاشتراكي، مصطفى دندشلي، ٣٦.

(٥) حزب البعث العربي الاشتراكي، مصطفى دندشلي، ٢٧.

ويقول أحد طلابه: (إن طلاب عفلق، بل مريديه كانوا يرددون أفكار عفلق، وكان يتلوها بعضنا على بعض، ونتغنى بها سكارى على اختلاف أدياننا وطوائفنا حيث لا فرق بيننا، ولا يضعفنا أننا قلة وأننا وحدنا..، لقد كان تفاؤل (أستاذنا) عفلق يغمرنا، لقد أطلقنا عليه (محمد ميشيل))[١].

واستمر عفلق في منصب التدريس حتى كشفت بعض أفكاره ومبادئه[٢]، وفصل من الوظيفة سنة (١٣٦١هـ - ١٩٤٢م)، وكتب رسالة يبين فيها مآخذه على طريقة التعليم وسبب إقالته، فمما جاء فيها على لسانه ولسان رفيق دربه صلاح البيطار: (..ننتظر تعليماً صحيحاً نزيهاً يحدث الانقلاب الفكري والأخلاقي العميق، وينشئ لنا الجيل العربي المنشود..، نعرف أستاذين أو ثلاثة استطاعوا أن يجعلوا من مدرستهم مركز إشعاع الفكرة العربية والبعث العربي، والعالم العربي يتطلع إلى كلماتهم، وشباب العرب يقدسونهم تقديساً. أما رئيس التعليم الثانوي فقد استطاع أن يجعل من أكبر مدرسة وطنية (تجهيز دمشق) عربية ملتقى الأشتات والأجناس من المعلمين، لا يخطر الواجب القومي للكثيرين على بال..)[٣].

واستمر عفلق وهو خارج ميدان التعليم يجمع الطلاب من حوله، حتى تألفت حكومة هاشم الأتاسي في شهر آب ١٩٤٩م بعد القضاء على حكومة حسني الزعيم..، وكان أن دخل ميشيل عفلق وزيراً للتربية. ويذكر القوميون عن هاشم الأتاسي بأنه كان عطوفاً على حزب البعث، وكانوا هم يبادلونه الود والاحترام. ومن البديهي أنه هو

---

(١) ميشيل عفلق (الكتابات الأولى)، ذوقان قرقوط، ٢٣٢و٢٣٤.
(٢) انظر: دولة البعث وإسلام عفلق، مطيع النونو، ٦٨ - ٧٠ عن الحادثة التي كان فيها كشف أفكار ومبادئ عفلق، مما جعل مسؤول التعليم في سورية يقرر إقالته عن وظيفة التعليم.
(٣) ميشيل عفلق (الكتابات الأولى)، ذوقان قرقوط، ١٨٢ - ١٨٥ (بتصرف).

الذي أصر على إشراك البعث في وزارته رغم معارضة عناصر أخرى لهذا الاشتراك[١].

وقد يكون هذا المنصب الوزاري من أوائل الأعمال السياسية التي قام بها عفلق، وقد رافقت بدايات إعلان تأسيس حزب البعث العربي.

ولما نشأ الخلاف بين مؤسسي أعضاء حزب البعث، وفقد عفلق السيطرة عليها سافر إلى البرازيل عام (١٩٦٤م - ١٣٨٣هـ) ولم يرجع إلا بعد أن تولى حزب البعث مقاليد الحكم في العراق في سنة (١٩٦٨م - ١٣٨٧هـ)[٢]، وذلك بناء على طلب من الرئيس العراقي أحمد حسن البكر، وانهمك عفلق منذ عودته في النشاط السياسي، وحاول اجتذاب تأييد القوى الشعبية لتأييد حكومة البعث في العراق[٣].

في عام ١٩٨٩م صدر بيان رسمي عن قيادة الحكم في العراق يعلن وفاة ميشيل عفلق، مؤسس حزب البعث العربي.. ودفن في العراق[٤].

يحدث رفقاء عفلق وطلابه، عن بعض صفاته الشخصية، مع اعتبار أن عفلق هو المؤسس والمنظر لحزب البعث، بل قد قيل عنه: (هل يمكن أن يكون هناك حزب بعث عربي بدون ميشيل عفلق؟ أنا لا أتصور أن ذلك ممكن. إذن فإن وجود ميشيل عفلق في الحزب هو أمر لا بد منه ولا يمكن الاستغناء عنه)[٥].

---

(١) حزب البعث العربي، جلال السيد، ٧٥.

(٢) انظر عن وصول حزب البعث إلى سلطة الحكم العراقي:

١. دولة البعث وإسلام عفلق، مطيع النونو، ٣٠٣ - ٣٠٦.

٢. حزب البعث تاريخه وعقائده، سعيد الغامدي، ٢٤.

٣. العراقي الاشتراكي، مجيد خدوري، ٢٩٥ - ٣٢٤.

(٣) عرب معاصرون، مجيد خدوري، ٣٨٨ - ٣٩١ (بتصرف).

(٤) ميشيل عفلق الكتابات الأولى، ذوقان قرقوط، ٢٢٩.

(٥) حزب البعث العربي، جلال السيد، ٦٦.

والصفات التي ذكرت عنه، تعتبر صفات نقص في شخصية الرجل القيادي، والذي لا يمكن الاستغناء عنه في الحزب، ومن هذه الصفات:

أ) الخوف من مخاطبة الجمهور: لم يكن عفلق الخطيب المفوه الذي يستطيع بفصاحته وتدفقه أن يؤثر في الجمهور ويلهب مشاعره..، كان عفلق بطبيعته إنساناً انعزالياً منطوياً على نفسه، إذا تحدث فإنما إلى فئات قليلة، وإذا مارس السلطة والنفوذ فمن وراء ستار[١]. وقد قال الشيخ علي الطنطاوي وهو أحد زملاء عفلق في الدراسة: لم يكن بارزاً فيه سمةٌ محددةٌ، سوى الاعتداد بالعروبة والمفاخرة بخصال العرب، وسوى تلك السمة فلم يكن متميزاً بين الطلاب لا بتفوق كتابي، ولا بحضور خطابي، ولا بعمق فكري[٢].

ب) ضعف التفكير وتحديد الأولويات: لأول وهلة مما يلفت الانتباه عنده هو ذلك البطء المحير، البطء في طريقته بالتفكير وبالحياة، وهو كمفكر ومنظر لحركة البعث، لم يظهر أبداً كرجل عمل وممارسة. لأن ما ينقصه بالتحديد هو تلك الدينامية النضالية اللازمة خصوصاً لقائد سياسي مثله[٣].

ج) عدم القدرة على إدارة الاجتماعات والمناقشات العامة: نظراته يلقيها بخجل، وحساسيته تبلغ حد الإفراط. ويلاحظ أنه كان يتجنب قدر الإمكان الاجتماعات والمناقشات العامة، في داخل الحزب وضمن سلطاته العليا كاجتماعات القيادة القومية التي كان يتولى فيها دائماً منصب الأمين العام، كان يتضايق لأقل الأسباب، خصوصاً عندما يوضع خطه أو فكره السياسي موضع التساؤل، وكان يقاطع اجتماعات الحزب،

---

(١) عرب معاصرون، مجيد خدوري، ٣٨٥.

(٢) مجلة المعرفة، العدد العشرون، ذو القعدة لعام ١٤١٧هـ، ص:١٦١.

(٣) حزب البعث العربي الاشتراكي، مصطفى دندشلي، ٣٠.

وفي بعض الأحيان كان يلوذ بالسفر إلى الخارج[١].

د) ضعف القراءة والاطلاع: لم يعرف عن عفلق بأنه كان مواظباً أو مكثراً في قراءاته. وقد قيل عنه: فكر عفلق السياسي لم يَغْنَ أبداً بالقراءات المتواصلة والمعمقة. كما أنه هو نفسه يصرح بأنه: (فقد الصلة مع تيارات الفكر الغربي مع مطلع الحرب العالمية الثانية)[٢].

هـ) الكتمان والتردد في اتخاذ القرار: يلوذ بالكتمان إلى درجة يصعب فيها حتى على أقرب المقربين إليه أن يدركوا حقيقة نواياه. وفي الفترات الصعبة، والأزمات السياسية، نادراً ما يأخذ موقفاً، اللهم إلا إذا دفع إلى ذلك أو أجبر عليه. وكذلك فإنه - فيما خلا كلمة الافتتاح الترحيبية - نادراً ما يتحدث في المؤتمرات القومية للحزب. وأحب شيء إلى نفسه أن يقف موقفاً وسطاً، وأن يَعُدّ النقاط للمتخاصمين[٣].

ز) الإهمال في العمل الإداري للحزب: لم تظهر على حزب البعث في شخص عفلق كفاءة الحكم وقابليات الإدارة..، وعندما استلم حزب البعث الحكم بعد عام ١٩٦٣م كان على نمط ما كان عليه عفلق في وزارته، فقد كان عفلق متردداً سادراً وكان مهملاً لشؤون وزارته، لذلك كان (الديوان) هو الذي يتصرف على هواه والتوقيع توقيع الوزير. وكم من مرة اكتشفنا مثل هذه الحوادث التي وقع عليها الوزير ولم يكن يدري عنها شيئاً[٤].

ويرى بعض أعضاء حزب البعث أن لاتصاف عفلق بالصفات سابقة الذكر، ولأسباب أخرى غيرها، حصل بروز قضيتين في حزب البعث العربي:

---

(١) حزب البعث العربي الاشتراكي، مصطفى دندشلي، ٣٠.

(٢) المصدر السابق، ٣١.

(٣) المصدر السابق، ٣٠.

(٤) حزب البعث العربي، جلال السيد، ٧٧.

أولاً: أن غالبية معارضي عفلق وألد خصومه كانوا في فترة من الفترات من أنصاره وأتباعه المقربين إليه، وأن انتقاداتهم العنيفة ضده اليوم، هي على قدر (عباداتهم الشخصية له بالأمس)[١].

ثانياً: كما أبرزت صفاته السابقة أنه لم يخلق للمراكز التنفيذية..، وأن دوره في المجال السياسي لا يتعدى إعداد الأهداف وتزويد قادة الحزب بالنصح والتوجيه دون تحمل المسؤوليات المباشرة[٢].

ب) أهدافه وآثاره العلمية والعملية في تأسيس جمعيات القومية العربية:

إن الهدف الرئيس في الحديث عن شخصية ميشيل عفلق، هو بيان أهدافه ومآثره في تأسيس جمعيات القومية العربية، ومن الناحية التاريخية فإن عفلق يعتبر من آخر مؤسسي جمعيات القومية العربية.

وحزب البعث، يسير على المنهج الذي سلكته الجمعيات وفق متطلبات العصر الذي نشأ فيه. وعن هذا يقول أحد منظري حزب البعث العربي الاشتراكي[٣]: إن حزب البعث ولد استجابة حية لضرورات سياق التاريخ العربي، ولحتميات عوامل التاريخ الفاعلة في المجتمع العربي.

وعن منهج مقاومة حزب البعث للمستعمر، ومدى اتفاقها أو اختلافها مع عقيدة المجتمعات الإسلامية، يقول: (لقد حاولت الأقطار العربية.. أن ترد على التحدي الاستعماري الطارئ - وهي محتفظة أول أمرها بمجتمعها التقليدي العتيق الراكد الذي استراحت إليه قروناً من الزمن - ولما فشلت في ذلك انتقلت إلى مرحلة جديدة

(١) حزب البعث العربي الاشتراكي، مصطفى دندشلي، ٣١.

(٢) عرب معاصرون، مجيد خدوري، ٣٨٠.

(٣) انظر: حزب البعث تاريخه وعقائده، سعيد بن ناصر الغامدي، دار الوطن، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

تحاول أن تؤكد ذاتها فيها بالعكوف على تراث السلف وإحيائه وتطهيره، علها تجد في هذا العكوف طريق خلاصها، ولما تبينت أن الاستعمار الغربي ليس مجرد عدوان، وإنما هو هجمةُ حضارةٍ جديدة، وقيم جديدة، وعلم جديد، لا قبل للتراث وحده بأن يقف أمامها، انطلقت بزعامة بعض مثقفيها وزعمائها التقليديين ووجهائها تريد أن تأخذ من الغرب كل ما يعطيه لتحاربه به، فولدت بذلك الحركات الوطنية التي أطلقت شعار الاستقلال)[١]. وأكد بأنه يجب على الأمة أن تنطلق وتنبعث برسالة مستمدة من حقيقة وجودها كأمة عربية، ومن تاريخها الذي جُبل مع طبيعتها، ومن موقعها الجغرافي كأمة وسط بين الشرق والغرب[٢].

إن حزب البعث سلك الأسس والمبادئ التي اتخذتها جمعيات القومية العربية أثناء انفصال البلاد العربية عن الدولة العثمانية، فعقيدة حزب البعث العربي: (أمة عربية واحدة، آمن بوحدة الأمة، ووحدة اللغة والتاريخ والأرض، وكانت الأساس الذي بنيت عليه وحدة الأمة العربية[٣].

ولتأكيد اتفاق حزب البعث مع منهج جمعيات القومية العربية دافع الحزب عن تنظيم ومخطط ساطع الحصري العلماني الذي قدمه إلى التعليم السوري. ورفضه المجتمع، فقد قال أحد مؤسسي حزب البعث منتقداً جريدة الحزب، التي سايرت ثورة الطلاب ورجال التعليم في سورية[٤]، وفي دمشق خاصة ضد الأستاذ ساطع الحصري: (كان المفروض أن الجريدة ستنبري للدفاع عنه وتتولى هي مخاصمة التيار، **لأن قيادة الحزب كانت متفقة مع آراء ساطع الحصري في القضايا القومية. والقيادة عممت على**

---

(١) الأعمال الفكرية والسياسية، منيف الرزاز، ٢/ ١٣و١٥، مؤسسة منيف الرزاز للدراسات القومية، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م.

(٢) الأعمال الفكرية والسياسية، منيف الرزاز، ١/ ٣٥.

(٣) المصدر السابق نفسه، ٣/ ١٥٩.

(٤) انظر: مجلة المستقبل العربي، العدد الأول، السنة الخامسة، ١٩٧٨م، ص: ٨٠.

الحزبيين في بلاغ لها خاص وجوب مطالعة كتب الأستاذ الحصري)[١].

أفاد أعضاء حزب البعث بأن ابتعاث عفلق - الأمين العام للحزب لربع قرن - إلى فرنسا لفترة ما بين (١٩٢٩ - ١٩٣٣م) كان له الأثر البارز في فكره، مما طبع الحزب بطابعه وأثر فيه تأثيراً عميقاً، ليس على الصعيد الأيديولوجي فحسب - الأمر الذي لا يمكن نكرانه - بل أيضاً على صعيد التنظيم الحزبي والعمل السياسي واتخاذ المواقف[٢].

ويمكن حصر أبرز العوامل المؤثرة في التكوين الفكري لعفلق أثناء بعثته إلى فرنسا، وبيان دورها في تأسيس جمعيات القومية العربية. كالتالي:

١) انضمامه للجمعيات والحركات القومية الطلابية: سبق الحديث عن دور الثورة الفرنسية خاصةً، والبلاد النصرانية عامة، في تأسيس جمعيات القومية العربية، كما نشأت من قبل في فرنسا جمعيات قومية، وقد ذكر طلاب عفلق بأنه أثناء ابتعاثه إلى باريس انضم إلى تلك الجمعيات، التي يقودها الطلاب في المهجر. قال أحد طلابه: (في باريس أثناء دراسته بالسوربون، لم يكن ميشيل منكباً على دراسته، منعزلاً كما قد يظن لخجله وانطوائيته، إذ لم يعتبر الدراسة أبداً منفصلة عن العمل، ولا الفكر منفصلاً عن قضية بلاده.. وبدافع انفعاله بأحداث بلاده حاول أن يقابل وهو في باريس - ولكن على غير موعد - الملك فيصل، فلم تتسن له مقابلته.

لم يكن عفلق بعيداً عن الحركات الطلابية العربية وجمعياتهم، فقد شارك في نشاط الأحزاب القومية[٣]، واندمج فيها وعاش آمالها: لأنه يقرر أن النظريات الغربية تكون لها فائدة عظمى للقضية العربية، وقضية شعوبها، إذا تناولتها عقول مرتبطة

(١) حزب البعث العربي، جلال السيد، ٥٢.
(٢) حزب البعث العربي الاشتراكي، مصطفى دندشلي، ١٩.
(٣) عرب معاصرون، مجيد خدوري، ٣٧٨.

بالقضية القومية، وتصبح خطراً كبيراً إذا تسلمها أشخاص فاقدو الصلة الحية بالأرض والشعب..)..، ومن هنا كان ميله وتعاطفه للعمل في صفوف اليسار والأحزاب والحركات اليسارية في فرنسا وفي أوربا..، لذلك كان الحزب الشيوعي الفرنسي مناط رجائه واجتذبه للعمل في صفوفه، وتَسَقّط ما يصدر عن كُتّابه، منذ بداية معاداته للاستعمار[١]. ومن الجمعيات القومية في المهجر، التي انضم إليها عفلق: الجمعية العربية السّورية، وجمعية الثقافة العربية[٢]، وكلتاهما تأسستا في باريس.

٢) تأثر عفلق بأفكار ومبادئ جمعيات الغرب. وفي هذا المنحى يقرر ابن خلدون في مقدمته: (أن المغلوب مولعٌ أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده)[٣].

كما أرجع ابن خلدون سبب الاقتداء إلى اعتقاد كمال الغالب في نظر المغلوب، وهذا السبب متحقق في أكثر أعضاء جمعيات القومية العربية، مثل: ميشيل عفلق الذي قال: (..إذا اشتقت أن أسمع صدى نفسي فالغريب أني لا أنشده في قصة عربية، بل في قصة روسية أو فرنسية. هكذا تصور لي كتب (دوستويفسكي) و(جيد)[٤] نفسي

(١) ميشيل عفلق الكتابات الأولى، ذوقان قرقوط، ٣٩.

(٢) مقدمة كتاب في سبيل البعث، ٧، عفلق.

(٣) المقدمة، ابن خلدون، ١/ ١٩٥.

(٤) أندريه جيد: (١٨٦٩، ١٩٥١م): كاتب فرنسي، يعتبر من ألمع الوجوه في الأدب الأوربي الحديث. وضع نحواً من ستين أثراً في الرواية، والمسرحية، والنقد، واليوميات، والسيرة الذاتية. منح جائزة نوبل في الآداب لعام ١٩٤٧م. من آثاره: (الباب الضيق) La Porte étroite (عام ١٩٠٩م)، و(السيمفونية الريفية) La Symphonie Pastorale (عام ١٩١٩م). ومن كتبه المنقولة إلى اللغة العربية: كتاب أوديب ثيسيوس، ترجمة طه حسين، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة، ١٩٨٥م. وكتاب مدرسة الزوجات، تعريب صبري فهمي، دار الكتاب المصري، الطبعة الأولى، ١٩٤٧م. ومزيفو النقود، ترجمة بهيج شعبان، عويدات، بيروت، لبنان، ١٩٨٤م. قوت الأرض والقوت الجديد، ترجمة شكيب الجابري، عويدات، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٦٥م. انظر: (الموسوعة العربية، البعلبكي).

بصدق وأمانة أكثر من الأدباء الذين أعيش وإياهم في بلد واحد، وأشعر معهم بنفس الشعور)[١].

ومن هذا المبدأ تأثر عفلق بطريقة وتنظير الغرب في تأسيس جمعيات ذات أهداف محددة، قال معبراً عن أهدافه: (إننا عدنا إلى الوطن نحمل فكرة الاشتراكية كتعبير عن الغايتين اللتين وقفنا أنفسنا على تحقيقهما: مكافحة الاستعمار الأجنبي، ومكافحة الرجعية الداخلية بكل أشكالها). وقد (تأثر بالانضباط والتمسك الشيوعي اللذين علماه عن كثب الأساليب العملية التي يتبعها حزب سياسي رائع التنظيم) كما قيل عنه[٢].

ولا يعني عفلق بعبارته (مكافحة الرجعية) إلا المعتقد الذي ينادي بالعودة إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ. وقال أيضاً: (وقد فهمنا عن طريق تلك الفكرة أن النضال ضد المستعمر لن يكون صادقاً، شاملاً، مجدياً إلا إذا كان نضالاً شعبياً..، وفهمنا أيضاً أن هذا النضال مرتبط أوثق الارتباط بحالة الأمة الفكرية والأخلاقية، وأنه لا بد لنجوع النضال ضد المستعمر من تهيئة انقلاب فكري يغير المفاهيم القديمة العقيمة، ويهز النفوس إلى الأعماق..، ويخلق لها نظرة أخلاقية جديدة جدية)[٣]. وكل هذه التقريرات هي محاربة لدين الله ولعباده الصالحين.

تبنى عفلق المنهج الشيوعي في التنظيم الحركي، فقد أكد أحد رفقاء عفلق: (بأنه - وهو في باريس - قد تأثر بالموجة الشيوعية، وعمل مع الشيوعيين، ولكن هذا العمل كان نتيجة تصميم وتدبر، ولم يكن نتيجة عقيدة وإيمان، وقد كان الحزب الشيوعي الفرنسي جذاباً)[٤].

---

(١) الأستاذ (قصة حياة ميشيل عفلق)، زهير المارديني، ٩٢، الريس، لندن.

(٢) عرب معاصرون، مجيد خدوري، ٣٧٦.

(٣) حزب البعث العربي الاشتراكي، مصطفى دندشلي، ٢٧.

(٤) حزب البعث العربي، جلال السيد، ٣٨.

إن تاريخ عفلق الفكري يبدأ من تلقيه الأفكار الشيوعية في بلاد أوربا، قال طلابه: (إن تاريخ عفلق الحقيقي، هو تاريخه الفكري، لقد التقى فيه على الانسجام والوفاق أخصب تيارات الفكر الإنساني من (ماركس) إلى (نيتشه)، ومن (جيد) إلى (دستويفسكي واهرنبورغ) مع أعمق الوعي للتراث العربي)[1].

واعتبر عفلق هذه الأفكار والمعتقدات ديناً لحياته، قال: (إذا سئلت عن تعريف الاشتراكية فلن أنشده في كتب (ماركس) و(لينين) وإنما أجيب أنها دين الحياة، وظفر الحياة على الموت)[2].

٣) نقل المبادئ والأفكار الملحدة إلى الأمة المسلمة: يمثل عفلق أحد عوامل الإفساد في المجتمع الإسلامي، والقضاء على عقيدة أهله، ولهذا يقول عفلق: (إنّ القومية العربية هي الدين الجديد الذي أفرزته الأمة العربية في الوقت الحاضر..، وإذا كان الدين قديماً يقول كلمته في أوضاع الأمة جميعاً.. فإن القومية العربية اليوم هي: نظرية متكاملة لحياة ونظام للمجتمع، لها رأيها الصريح في الاقتصاد والنظام والأخلاق والإنسانية والدين)[3].

وأثناء وصول قيادات حزب البعث للسلطة في العراق، قال أحدُ طلاب عفلق وأحدُ مؤسسي حزب البعث في العراق: (في طريقي إلى مرسلات الإذاعة كنت أستمع إلى بيان الحزب الأول وهو يُتلى، ولفت انتباهي عبارات وأفكار تضمنها البيان غريبة عن لغة الحزب السياسية وجديدة علينا، كـ(عدو الله وعدوكم) و (الترفع عن الضغائن والأحقاد). وبرغم أن مسألة الإيمان بالله كانت محسومة في الحزب، ولم يطلها أي

---

(١) الأستاذ (قصة حياة ميشيل عفلق)، زهير المارديني، ٨٨.

(٢) المصدر السابق، ٨٩.

(٣) حزب البعث العربي الاشتراكي، مصطفى دندشلي، ٨٤.

نقاش أو تساؤل، فإن خطاب الحزب السياسي كان ذا لثغة علمانية ورنين قومي[1].

ويمكن حصر دور عفلق في نقل الأفكار الإلحادية، بما يلي:

أ) نقل وترجمة الأفكار إلى المجتمعات الإسلامية: إنّ عفلق بمعتقده النصراني ألمح إلى تأثره بمعتقدات كتّابِ ملاحدةِ أوربا، فمن ذلك تأثره بكتابات (جيد)، يقول: (قذفتْ بي الصدفة إلى باريس، فاصطدم المستنقع الذي كنت أحمله معي - حياتي القديمة - بإقيانوس خضم الحياة، أسلمت نفسي لأمواجه، عندما ذقت حلاوة لَمْسِها وخفّة دعابها. هناك على الشاطئ وقدماي ما تزالان في تردد.. لمحت ساحراً جديداً قويَّ الجسم طَلْق المحيا..صوتٌ سحري جديد استهواني لأنه متصل بأعماق كياني وكيان كل شاب..، أو عَجَبٌ أن يلقى صوت (جيد) ذلك الصدى في قلوب الشباب وهو أول كاتب خاطبهم.. وأتاهم بدين جديد، دين الحماس، بعد أن انقضى كل القرن التاسع عشر بين نواح الرومانتيزم وبرودة الكتابات العلمية والروايات الواقعية!؟)[2].

ويَعْتَبِرُ طلابُ عفلق تأثُّرَ (أستاذهم) بأصحاب تلك الأفكار من المناقب المحمودة له، قال أحدهم: (عندما كان يدرس في باريس كان (أندريه جيد) في أوج تألقه، وراح يزيد من إشعاعه مَيْلُه إلى كفّة اليسار. ولكن (أدب أندريه جيد) نفسه يحمل نكهة جديدة ونفحة من التجديد والصدق لم يشهد الأدب الفرنسي مثيلاً لها.. فضلاً عن أن (جيد) نفسه كان محور استقطاب الجيل)[3]، كما تأثر عفلق تأثراً عميقاً بالكتّاب الفرنسيين أثناء إقامته في باريس..، لقد أمكننا أن نقرأ على غلاف أعداد كثيرة من (الطليعة) الأسبوعية مقاطع طويلة مأخوذة من مختلف أعمال (رولان) و(جيد)

---

(١) أوكار الهزيمة، هاني الفكيكي، ٢٦٧.

(٢) ميشيل عفلق الكتابات الأولى، ذوقان قرقوط، ٦٩.

(٣) المصدر السابق، ٤٣.

و(نيتشه) مترجمة إلى العربية بقلم عفلق على الأرجح[1].

ب) الكتابات الأدبية: إن من منهج جمعيات القومية العربية - في إبراز مسمى ومقصد الجمعية - الاهتمام بالجوانب الأدبية[2]، واتخذ عفلق ذلك المنهج، يقول طلابه: (بعد عودته من فرنسا وانخراطه في معمعان الكتابة كانت صحف دمشق تقدمه كـ(أديب وشاعر يقدم رسالةً إلى العربية لنيتشه وجيد)[3].

كانت جريدة الأيام من المجلات القومية التي نشر فيها عفلق أفكاره والتي تعد من كبرى الصحف الدمشقية التي كانت تقود النضال، والتي كانت تصدرها (الكتلة الوطنية)، وكان يرأس تحريرها المناضل العربي[4].

تحدث عفلق عن أثر الآداب والقصص الفرنسية في نفسه، فيقول: (قلما أقرأ القصص العربية لأني لا أجد فيها ما يتجاوب مع نفسي ويروي ظمأ فكري..، فإذا ما قرأت قصة لتيمور مثلاً أجد فيها أشخاصاً ظرفاء نادرين، يضحكونني تارة ويستثيرون دهشتي تارة أخرى، ولكنهم لا يستفزون حماستي، ولا يدخلون إلى قلبي لأني لا أجد فيها الإنسان، أما إذا اشتقت أن أسمع صدى نفسي فالغريب أني لا أنشده في قصة عربية، بل في قصة روسية أو فرنسية، هكذا تصور لي كتب (دوستويفسكي) و(جيد) نفسي بصدق وأمانة أكثر من الأدباء الذين أعيش وإياهم في بلد واحد، وأشعر معهم بنفس الشعور).

ثم يطالب عفلق أدباء عصره باتخاذ منهج القصص الأوربية، فيقول: (ولا أعتقد أن القصة العربية تنجح إلا إذا بطلت تلك الفكرة السائدة بأنها نوع خاص من الأدب،

(١) حزب البعث العربي الاشتراكي، مصطفى دندشلي، ٢٠.
(٢) انظر: عبرة وذكرى (الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده)، سليمان البستاني، ٥٥.
(٣) ميشيل عفلق الكتابات الأولى، ذوقان قرقوط، ٤٣.
(٤) الأستاذ (قصة حياة ميشيل عفلق)، زهير المارديني، ١١٥.

وأصبحت شاملة لكل حياة الإنسان، تدخل في السياسة والاجتماع والفلسفة معاً فلا تعود تقرأ للذّة والطُّرفة، بل لاستشفاف الحياة الإنسانية العميقة[١].

كان لترجمة عفلق لقصص وأدبيات الغرب - وبخاصة في فرنسا - أثرٌ على تلاميذه، فقد تعرف في فرنسا، على كتابها وفلاسفتها، وكان هو وراء تأثر تلاميذه في سوريا وإقبالهم على ترجمة مؤلفاتهم حتى قبل أن يوفدوا في بعثات للدراسة في فرنسا[٢].

ج) ترجمة حياة أدباء الغرب والثناء على سيرتهم: لقد وصفت المجلات القومية عفلق في بدايات كتاباته الأدبية بأنه: أديب وشاعر يقدم رسالةً إلى العربية لنيتشه وجيد[٣].

إن في نشر عفلق لتراجم وسير حياة أدباء فرنسا، - وسورية خاضعة للاحتلال الفرنسي - تبريراً للاحتلال واستمراريته، وهذا أمرٌ مناقض للشعارات التي تعلنها جمعيات القومية العربية، أليس من أهداف مناهجها وبرامجها مكافحة الاستعمار؟!!.

وعند استعراض عفلق لحياة الأديب الفرنسي (مارسل بروست) قال: (الأديب كالنبي، لابد أن يضطهد من أجل رسالته، لولا فرقٌ بينهما يميزُ الأديبَ على النبي؛ وهو أن هذا يحمل في جديده بذور الموت، إذ إنه يجيء بجديد يفرضه على المستقبل، ويحرم عليه التجديد، في حين أن جوهر الأدب حرية لانهاية لها)[٤].

ومن أمثلة ثناء عفلق في إطار ونشر كتب مفكري فرنسا قوله عن مارسيل بروست وكتاباته: (أول صلتي وتعلقي به لأني قرأت فيها حقيقة نفسي المُرّة، وحقيقة كل نفسٍ

---

(١) المصدر السابق نفسه، ٩٢.

(٢) ميشيل عفلق الكتابات الأولى، ذوقان قرقوط، ٤٤.

(٣) حزب البعث العربي الاشتراكي، مصطفى دندشلي، ١٠١.

(٤) ميشيل عفلق (الكتابات الأولى)، ذوقان قرقوط، ٧٦.

بين جوانحها وحشاً هداماً، يجمع بين رقة الشاعر وقسوة الجلاد)[١].

وقال أيضاً: (قد لقي بروست في فرنسا من المقاومة أشكالاً وألواناً، فلا أحسب حظه أن يكون أوفر في البلاد العربية، بل إني أتوقع له فيها مقاومة أشد، لأن الأصنام التي نصبت أمامه ومنعت عنه معبد الأدب حيناً، هي نفس الأصنام التي تقف في بلادنا حائلاً دون كل تجديد: عادات الفكر، وطرق الإنشاء)[٢].

ومن إشادة عفلق ببعض أدباء روسيا، قوله: (منذ أشهر احتفلت بلاد السوفيات ومعها كل أوربا بذكرى مرور خمسة وعشرين عاماً على وفاة تولستوي. وإنها لفرصة سانحة كيما نتوقف هنيهة عند هذا الفنان الكبير وحياته المفجعة)[٣].

٤) طلاب المدارس نواة حزب البعث: بدأ عفلق في استغلال الطلاب لنشر الفكر السياسي وهو في باريس حيث شارك في نشاط الطلاب السياسي، والتقى طلاباً عرباً من بلدان أخرى شاركهم اتحاداً للطلاب العرب، ينادي باستقلال الوطن العربي ووحدته[٤].

ولما عاد عفلق إلى سورية وتم تعيينه في مجال التعليم استغل هذا الميدان الشريف في نشر أفكاره، حيث يقول: (ولا يجهل أحد من تلاميذنا وأصدقائنا أننا كنا نسعى دائماً في تدريسنا وكتاباتنا أن نلقح فكر النشء العربي بأفكار الفيلسوف الألماني (نيتشه) عدوّ الاشتراكية)[٥].

---

(١) المصدر السابق، ٨٠.
(٢) حزب البعث العربي الاشتراكي، مصطفى دندشلي، ٧٦.
(٣) المصدر السابق، ٩٠.
(٤) عرب معاصرون، مجيد خدوري، ٣٧٥.
(٥) حزب البعث العربي الاشتراكي، مصطفى دندشلي، ٢٧.

ويؤكد أحد أعضاء حزب البعث على أن الذي كان يعنى مؤسسي الحزب في الأصل أكثر من أي شيء آخر هو (الدعوة للفكرة العربية)، لهذا السبب أخذوا على عاتقهم مهمة إيجاد حركة روحية قادرة على استقطاب النفوس الصافية والخيرة[١].

لذلك بدأ عفلق في تكوين نواة الحزب من الطلاب، وأطلق عليه رئيس جمهورية الاستقلال (شكري القوتلي) لقب: (معلم الأولاد الصغار)[٢]، قال أحد المؤسسين: (أول نشأة الحزب كانوا من الطلاب. وكان وجود عفلق والبيطار في التدريس هو السبب في ذلك. وقد استهويا طلابهما وجذباهم إلى الحزب. كما أن الطلاب يعدو بعضهم بعضاً، وتستجر فئة منهم الأخرى)[٣].

ومما ساعد عفلق على نشر أفكاره ومعتقداته البعثية بين الطلاب؛ هو واقع الأمة في محاربة المستعمر بأي منهج، وقد كان النفوذ والسلطة في بلاد الشام للمعتقد القومي، ولهذا لم يستطع عفلق التأثير إلا في الشبان المسلمين الذين طغى ولاؤهم للوطن على ولائهم للدين، أما الكهول، الذين لا يزال المقام الأول عندهم للدين، فإن تأثرهم بهذه الآراء لم يكن سهلاً[٤].

وقد وجه عفلق نداءً إلى إخوانه النصارى داعياً إياهم إلى الانخراط في حركة القومية العربية، وإلى اعتبار الإسلام قافلة قومية مرتبطة ببيئتهم الطبيعية وتاريخهم[٥].

وبما أن الطلبة جزءٌ من كيان يهمهم استقلال بلادهم، فانغمسوا في السياسة إلى حد بعيد، وبعد الحرب العالمية الثانية خاصة..، ووجد عفلق في رفقة الطلبة ما

---

(١) المصدر السابق نفسه، ٥٧. وانظر: في سبيل البعث، ميشيل عفلق، ٨٨ - ٨٩.
(٢) الأستاذ (قصة حياة ميشيل عفلق)، زهير المارديني، ٨٥.
(٣) حزب البعث العربي، جلال السيد، ٢٩.
(٤) عرب معاصرون، مجيد خدوري، ٣٨٥.
(٥) نضال البعث، ميشيل عفلق، ١/ ٣٣ - ٣٥.

يوافق هواه، لما لمسه فيهم من اندفاع لم يستنكفوا معه الجلوس عند قدميه والاستماع بشغف إلى شرح مفصل وواضح لأفكاره وآرائه الشخصية عن أوضاع بلدهم.. لا يفتأ التلاميذ أن يحملوا كلمات معلمهم لينشروها بين عدد أكبر من السامعين، ثم أخيراً بين الجماهير.

أدىّ الطلاب والشبان - الذين يشكلون نواة أنصاره - دورَ الطليعة في حركته السياسية، والواقع أن قوته السياسية اعتمدت على هؤلاء مُتَّخِذَة منهم وسائل لنشر آرائه السياسية..، وغدا هؤلاء الطلابُ المؤيدين المرتقبين لحزب البعث القادم[١].

ولعظيم تأثير عفلق على الشباب، قال أحدُهم: (قرأنا له في سن مبكرة، فأعجبنا به أيمّا إعجاب، وتأثرنا بأفكاره وآرائه..، ورأينا فيه قدوة الشباب القومي المتحرر وضمير الشعب العربي)[٢].

لقد كان عفلقُ في نظر مريديه يومئذ أستاذَهم اليومي، بل كان أكثر من أستاذ، وكانوا له أكثر من تلاميذ، كانوا الظل الذي يتبع خطاه، يتعلمون من أقواله ويرافقون حديثه القصير والمنقطع، وصمته الطويل، وكانوا يعتقدون أنه إنْ لم يكن في نفوسهم إلا بعض الخير فهو من صنعه)[٣].

وبعد أن بلغ تأثيره على الطلاب نحو ما ذُكِر أسس منهم نواة حزب البعث، وبدأ في الإعلان عن قيام الحزب، قال أحد المؤسسين: (في خلال عام ١٩٤٢م - ١٣٦٠هـ) قال عفلق: ما دمنا متفقين إلى هذا الحد، وما دمنا قررنا أن الأحزاب السياسية في هذا البلاد لا تستطيع في تركيبها الراهن أن تقوم بالواجبات القومية والوطنية، وما دمنا مؤمنين بضرورة إيجاد تكتل من نوع جديد يحمل على عاتقه عبء

(١) عرب معاصرون، مجيد خدوري، ٣٨٤ - ٣٨٥ و ٣٧٧.
(٢) عفلق والبعث، نصف قرن من النضال، جوزيف إلياس، ٩.
(٣) الأستاذ (قصة حياة ميشيل عفلق)، زهير المارديني، ٨٥.

القضية القومية على طراز أفضل مما نرى، فما قولك بتأسيس حزب جديد نكون نحن نواته والمشرفين على تنظيمه. فأجبته بالإيجاب بلا تردد ولا إعمال نظر لأن الفكرة كانت مختمرة عندي من قبل، وكنت أبحث عن العناصر الشريكة في هذا البناء الذي تصورته ضرورياً لهذا الوطن..، وبعد اجتماعات أخرى اتفقنا على أن يكون اسمُ الحزب (البعث العربي)[1].

٥) موقف عفلق من الإسلام ومن حياة الرسول ﷺ: إن عفلق لم يُغْفِل عند تأسيس حزب البعث بعضَ الأمور التي قد تكون مساعدة له في تقبل الناس لمبادئ الحزب، من أهمها:

أ - المجتمع الإسلامي الذي ما زال بسببه في الناس بقيةُ خَيْرٍ، مع شدة الضغوط عليه بإبعاده عن الدين وإلزامه القوميةَ العربيةَ ديناً بديلاً.

ب - مآل الحركات والجمعيات سواء أكانت العربية منها أم الغربية التي صادمت الدين فآلت إلى الخسران، كان عفلق على علم بتاريخها، قال: (الفهم السطحي هو أن نستنتج بسرعة بأنه ما دام مظهر الدين في هذا الوقت، وما دام ممثلو الدين الرسميون هم في صف الواقع الفاسد، وليسوا في صف الثورة على الفساد، فإذاً الدين من أساسه فاسد، ولا وجوب له، ولا خير فيه، ولذلك يجب التخلص من الدين لأنه سلاح بيد الظالمين والمفسدين. هذه هي النظرة السطحية والاستنتاج الخاطئ جداً، وهذه هي النظرة التي توقفت عندها الشيوعية، ولذلك فالشيوعية ليست عميقة في كل نواحيها، ولو أنها في كثير من نواحيها جد عميقة)[2].

من هذين الأمرين نقل عن مؤسس حزب البعث الحديث موقفه من الإسلام وسيرة الرسول ﷺ، ومن ضمن الأهداف التي حددها المؤسس اعتباره الحزبَ ثورياً

---

(١) حزب البعث العربي، جلال السيد، ١٧.

(٢) في سبيل البعث، ميشيل عفلق، ١١٩.

على كل قديم، ويدعو إلى القضاء على الظلم والظالمين..، فيأخذ من الدين الإسلامي ما يناسب دعوة حزبه ومبادئه.

كذلك: أكثر عفلق من البحث والحديث عن سيرة الرسول ﷺ، ليتخذ منها هدفاً لقبول المجتمع المسلم مبادئ الحزب.

أكّد أحد مؤسسي الحزب على هذا الأمر، وأن الحزب عندما يستخدم بعض العبارات الدينية مثل لفظ (الروح، أو الإيمان، أو القدر، أو المصير).. فمن أجل أن يرفع من مستوى الحماس والاندفاع في سبيل الانبعاث المنشود للأمة العربية[1].

ومن أقوال عفلق بهذا الصدد: (كل عربي يستطيع أن يحيا حياة الرسول ولو بصورة جزئية على الأقل، طالما هو على علاقة وثيقة بالأمة التي أنجبت محمداً، من هنا كان الشعار البعثي الذي هز مشاعر جيل بأكمله خلال فترة طويلة من الزمن: (كان محمد كل العرب، فليكن كل العرب اليوم محمداً)[2].

ويقرر أعضاء الحزب من طلاب عفلق هذا المبدأ الذي اتخذه عفلق في تأسيس الحزب بقولهم: (حتى تتجسد أفكار عفلق السياسية في الواقع العملي، كان لا بد لها من مثل أو نموذج تستلهمه، والحقيقة أن الإسلام وحياة النبي قد جذبا نفسه بقوة وعمق؛ ولكن ينبغي توضيح هذه الناحية، فالأمر بالنسبة له لا يعني إطلاقاً لا على صعيد الفكر ولا على صعيد الممارسة، أنه يتطلع إلى تأسيس دولة إسلامية أو رؤية العالم العربي من الزاوية الدينية، فالإسلام؛ خصوصاً خلال السنوات الأولى لظهوره،

---

(١) رسالة الأمة العربية، شبلي العيسمي، ١٣، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٠م.

(٢) انظر: في سبيل البعث، ميشيل عفلق، ١٤٤. وانظر: حزب البعث العربي الاشتراكي، مصطفى دندشلي، ٦٦.

هو بالنسبة له، وبالنسبة للكثيرين غيره ممن تناولوا نظرية القومية العربية، ظاهرة ثقافية وروحية عربية صرفة، وحياة الرسول العربي هي تجربة أخلاقية وإنسانية، هذه الظاهرة العربية، ينبغي لها في عصرنا هذا أن تتجدد ثقافياً وروحياً، وتشع في حركة سياسية جديدة هي حركة البعث)[1].

ولجلاء عمق تأثير عفلق في استغلال مبادئ الدين الإسلامي للدعوة إلى حزب البعث، هذا أحد طلابه يقول: (عندما أقرأ كراسه (ذكرى الرسول العربي) أقف مأخوذاً بلغته، وعندما أصل إلى نهايته حيث يقول: (إذا كان محمد كل العرب؛ فليكن كل العرب محمداً) تنتابني قشعريرة وتسري في أوصالي برودة، وكأنني أسمع الوحي من جديد، وكأن ذلك الغار الصغير، غار حراء اتسع ليكون كل هذا الوطن العربي، من المحيط إلى الخليج، وتتراءى في روحي صفات الكمال والعصمة والشموخ والنبوة في كل بعثي)[2].

لقد اعتبر البعثيون الإسلام مفصحاً عن عبقرية الأمة العربية، وأن تعريب الإسلام على هذا النحو، وما أثاره من ردود فعل، يعتبر حدثاً مهماً في تاريخ الحركة العربية[3].

ورغبة في احتواء مجموعة أكبر من أبناء المسلمين، فإن حزب البعث لا يفرض على أعضائه عقيدة دينية معينة، ويؤكد دستوره على (أن حرية الرأي والاعتقاد لا يمكن لأي سلطة أن تنتقصها، وأن الرابطة القومية هي الرابطة الوحيدة القائمة في الدولة العربية التي تكفل الانسجام بين المواطنين وانصهارهم في بوتقة واحدة[4].

---

(١) حزب البعث العربي الاشتراكي، مصطفى دندشلي، ٣٢.
(٢) أوكار الهزيمة، هاني الفكيكي، ٧٩.
(٣) حزب البعث العربي الاشتراكي، مصطفى دندشلي، ٣٩.
(٤) رسالة الأمة العربية، شبلي العيسمي، ٦٨.

وتحقيقاً لمبدأ التجميع الحزبي ألمح عفلق - عند حديثه عن الصراع بين الدين الإسلامي وأوربا - إلى أن القومية العربية قد حلت محل الإسلام، قال عفلق: (إنّ أوربا اليوم كما كانت في الماضي تخاف على نفسها من الإسلام، ولكنها تعلم الآن قوة الإسلام - التي كانت في الماضي معبرة عن قوة العرب - قد بعثت وظهرت بمظهر جديد هو القومية العربية..، لذلك فهي توجه على هذه القوة الجديدة كل أسلحتها، بينما نراها تصادق الشكل العتيق للإسلام وتعاضده، الإسلامُ الأممي الذي يقتصر على العبادة السطحية والمعاني العامة الباهتة آخذٌ في التفرنج، ولسوف يجيء يوم يجد فيه القوميون أنفسهم المدافعين الوحيدين عن الإسلام، ويضطرون لأن يبعثوا فيه معنى خاصاً إذا أرادوا أن يبقى للأمة العربية سبب وجيه للبقاء)[1].

---

(١) حزب البعث العربي الاشتراكي، مصطفى دندشلي، ٦٤. وانظر: في سبيل البعث، عفلق، ٢٦، ٤٩.

الباب الثاني

موقف جمعيات القومية العربية من العقيدة الإسلامية

ويحتوي على:

» الفصل الأول: موقف الجمعيات من مصادر العقيدة الإسلامية.

» الفصل الثاني: موقف الجمعيات من أصول العقيدة الإسلامية.



تمهيد

أوضحت - في الباب الأول - الجوانب التاريخية والأسس العلمية للجمعيات القومية العربية، وفي هذا الباب سأبين أبرز مواقف جمعيات القومية العربية من العقيدة الإسلامية.

وقبل بيان ومناقشة تلك المواقف أرى لزاماً عليّ التنبيه إلى:

أولاً: إن المواقف التالية قد تصدر عن بعض أعضاء جمعيات القومية العربية، فتُنسب إلى الجمعيات القومية العربية نفسها، فتكون هذه المواقف موقفاً رسمياً للجمعية، ما لم تصدر ما يعارضها.

ثانياً: سبقت الإشارة إلى وجود الأثر النصراني في تأسيس جمعيات القومية العربية، وحينما يردُ موقفٌ مترتبٌ على ذلك الأثر فإن مناقشته تكون لبيان تأثيره في حياة المسلمين، وإلا فليس بعد الكفر ذنب.



الفصل الأول:

موقف الجمعيات القومية العربية من مصادر العقيدة الإسلامية

ويحتوي على:

» المبحث الأول: موقف الجمعيات القومية العربية من القرآن الكريم.

» المبحث الثاني: موقف الجمعيات القومية العربية من السنة النبوية.

» المبحث الثالث: موقف الجمعيات القومية العربية من الإجماع.



لقد بعث الله نبيه محمداً ﷺ بالدين الحق، وأقام الدين كما أمره ربُّه وتركنا على المحجة البيضاء؛ ليلُها كنهارها ما زاغ عنها إلا هالك، وحذّر أمته أن تسلك سبيل المغضوب عليهم والضالين، ولعل من أهم سبل الغواية وطرق الضلال، ما يلي:

أولاً: الابتداع في الدين زيادةً أو نقصاناً. بدليل حديث عَائِشَةَ رَضِي اللَّه عَنْهَا، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: [مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ][(١)].

ثانياً: إحداث مصدر آخر غير شرع الله يؤخذ منه الحلال والحرام وأمر الدين.

وهذا الذي حذر منه الرسول ﷺ كما في حديث الْعِرْبَاضِ رضي الله عنه الذي يَقُولُ: وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَوْعِظَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ هَذِهِ لَمَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ قَالَ: [قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلا هَالِكٌ، مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلافًا كَثِيراً، فَعَلَيْكُمْ بِمَا عَرَفْتُمْ مِنْ سُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَعَلَيْكُمْ بِالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا، فَإِنَّمَا الْمُؤْمِنُ كَالْجَمَلِ الأَنِفِ حَيْثُمَا قِيدَ انْقَادَ][(٢)].

لقد أصبحت الأمة تنهل من موردين صافيين كتاب الله، وسنة رسوله، وهما مصدرا التشريع الأساسيان لهذا الدين، ولا يجوز لإنسان يدعي الإسلام ويدعي

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور، رقم الحديث (٢٤٩٩).

(٢) سنن ابن ماجة، المقدمة، رقم الحديث (٤٣). وانظر: مسند الإمام أحمد بن حنبل، ٤/ ١٢٦. وسنن الترمذي، كتاب العلم، بَاب مَا جَاءَ فِي الْأَخْذِ بِالسُّنَّةِ وَاجْتِنَابِ الْبِدَعِ، رقم الحديث (٢٦٠٠)، وسنن أبي داود، كتاب السنة، بَاب فِي لُزُومِ السُّنَّةِ، رقم الحديث (٣٩٩١).

الإيمان أن يستغني أو أن يتخلى عن هذين المصدرين بأي حال من الأحوال، والدلائل على ذلك كثيرة[(١)]. وقد اتخذت جمعيات القومية العربية، مواقف محددة من مصدري العقيدة الإسلامية، تتمثل بالأمور التالية:

(١) انظر: تراجم الإمام البخاري في صحيحه من كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة.

المبحث الأول: موقف الجمعيات القومية العربية من القرآن الكريم

لما كانت القومية العربية هدفاً سعى إليه الدساسون وجندوا له الإمكانيات كلها، وصوروه هدفاً نبيلاً فيه الخلاص من استبداد واستعباد الأتراك، وأن أمة العرب هي الجديرة بقيادة نفسها، انخدع بهذا البريق كثير من الناس، ومن بينهم - للأسف - عدد من علماء الإسلام، ولم تكن القضية في أساسها إلا تخطيطاً شيطانياً لأعداء الله يريد نسف الخلافة الإسلامية، واستبعاد هذا الدين العظيم الإسلام، عن ساحة قيادة العالم.

وبمقتضى هذه النوايا الباطنية الخبيثة التي تكيد للإسلام، كان لا بد من أن تظهر مواقف الحاقدين بوضع البدائل عن الإسلام ومصادر تشريعه عامة، والقرآن بوصفه الدستور الإلهي خاصةً الذي كان يسيّر الأمة الإسلامية، ويمكن استجلاء مواقف القوميين من القرآن الكريم بما يلي:

» الموقف الأول: ابتداع الدساتير الوضعية بدلاً عن القرآن الكريم:

إن استبدال دستور وضعي بكتاب الله الكريم يكون المصدر للتشريعات الدنيوية، والمنهج الذي يترسمه الناس في سلوكيات حياتهم، لهو الموقف الصراح بالكفر، والعداء السافر للإسلام.

وهذا المصدر الذي يسمونه بـ(الدستور) هو في الظاهر من صنع مدحت باشا، الذي أكثر القوميون الثناء عليه والتمجيد به، والذي روجت له الدعاية الكافرة في أنحاء الشرق العربي والغربي على أنه البطل العظيم حامل لواء الإصلاح والحرية في السلطنة

العثمانية، وسمته (أبو الدستور)، وسخرت له أبواب دعايتها من صحف ومجلات وإذاعات، فوصل مدحت بذلك إلى أعلى الرتب منها: باشوية سوريا والعراق، ومنصب الصدر الأعظم، الذي يعتبر أكبر الرتب في السلطنة العثمانية، ثم بدأ بعد ذلك يدس ويخرب كما تملي عليه يهوديته، وكان يغمز دائماً إلى مساوئ الحكم، وحكم السلطان عبد الحميد خاصة، ثم أسس مدحت باشا ويهود الدونمةِ[1] الماسونيةَ وجُعِلَ مقرُّها بسالونيك[2].

لقد جاءت المطالبة بأحكام الدستور بعد أن ظهرت في الأمة ثلاث اتجاهات مختلفة، تبنى كلُّ اتجاه منهجاً محدداً في معتقده وتفكيره وطرحه الفكري، وهي:

١) الاتجاه الطوراني التركي، ويتزعمه جمعية الاتحاد والترقي.

٢) الاتجاه العثماني العلماني. ويتزعمه جمعيات القومية العربية.

٣) الاتجاه الإسلامي، والرابطة الإسلامية[3].

وحمل الاتجاه التغريبي العلماني الدعوة للحكم الدستوري، وعرفه أعضاء

---

(١) الدونمة: كلمة تركية تعني: المرتد أو الزنديق، أو الكاذب فيما يزعم اعتقاده، وهي علم على جماعة من اليهود هاجرت من الأندلس بعد زوال حكم المسلمين فيها واستقرت في ربوع الدولة العثمانية تنعم بالحياة الآمنة المطمئنة، وهم أتباع اليهودي (ساباتاي زفي) المسيح المزيف الذي ظهر في الدولة العثمانية في منتصف القرن السابع عشر وادعى أنه المسيح المنتظر الذي سيأخذ بيد اليهود ويؤسس لهم دولة في فلسطين، تظاهروا بالإسلام منذ عام ١٦٨٣م وأخفوا يهوديتهم واتخذوا لهم أسماء إسلامية، ووصلوا إلى أعلى مناصب الدولة مما سهل عليهم التخريب والتمهيد للقضاء على الخلافة، ومن أشهر يهود الدونمة: مصطفى كمال ومدحت باشا. انظر: (يهود الدونمة، محمد عمر)

(٢) اليهودية والماسونية، عبدالرحمن الدوسري، ٧٠، دار السنة، الخبر، ١٤١٤هـ، الطبعة الأولى.
وسالونيك: مدينة رومية قديمة جداً، تقع جنوب بلاد مقدونية على بحر الأرخبيل، كانت تسمى (ترما)، ثم أطلق عليها اسم (تسالونيك)، ثم حرف إلى (سالونيك) أو (سلانيك). انظر: (تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد بك، ١٣٣).

(٣) انظر: مجلة المستقبل العربي، العدد الأول، السنة الخامسة، ١٩٧٨م، ص٧٨.

جمعيات القومية العربية، بأنه: (عبارة عن نزع السلطة من الأفراد، ووضعها بين يدي الجماعات، وأية جامعة تجمع بين عناصر الأمة على اختلاف المشارب والمذاهب والآراء، وتجعلها في مستوى واحد بالحقوق والواجبات أقوى من حكم الأمة نفسها لنفسها، وأية رابطة تربط العناصر العثمانية أعظم من هذه الرابطة)[١].

وبرر أولئك الأعضاء الدعوةَ إلى الحكم الدستوري، والمحافظة على أحكام (هذا المصدر)، وهو القانون الأساسي (الدستور): أن من طبيعته ربط أواصر الأخوة العامة بين الأمة، وفيه جمع كلمة المِلَل العثمانية المختلفة بدون تفريق في الجنس والمذهب، وتمكين الرابطة الجامعة بينهم، وذلك لأجل خدمة الدولة العثمانية وإصلاح الشؤون المختلة، والسعي لإعلاء شأن الأمة العربية، واتخاذ جميع الوسائط والتدابير لنشر أنوار العلوم والمعارف بين أبنائها، كتأسيس مدارس وطبع جرائد..، وصيانة حقوق أبناء العرب جميعاً من الغدر والاعتساف، وتبليغ شكاياتهم ومستدعياتهم إلى مراجعها الرسمية[٢].

نادت مبادئ جمعيات القومية بالتآلف والتآخي بين المسلمين والنصارى، وأكد أعضاؤها على تساوي النصارى بالمسلمين في المصالح العامة، سواء أكان ذلك في مجال السياسة والحكم والتنظيم والتشريع، أم في مجال الحقوق والواجبات، أم في مجال الاقتصاد والاجتماع، أم في مفهوم وأهداف الفكرة العربية، وما يعود على الفريقين من منافع وعزٍّ وسؤدد من تحققها. ولا اعتبار للدين لأنه ممارسةٌ وجدانية، والدين الإسلامي المؤثر في حياة المسلمين، يضمن كل الضمان حقوق المواطنين من غير المسلمين وحرياتهم[٣].

---

(١) مؤلفات رفيق العظم، الجامعة العثمانية، ١٢٥.

(٢) الثورة العربية الكبرى، أمين سعيد، ٧.

(٣) مختارات قومية، محمد عزة دروزة، ٦٤١ - ٦٤٣.

وتنتهي آمال وأماني أعضاء جمعيات القومية، بإحداث مصدر للتلقي يجعل الأمةَ صاحبةَ الأمر والنّهي في شؤونها وأن تكون الهيئة الحاكمة وكيلةً عن الأمة في إدارة تلك الشؤون[١].

ويتحقق الهدف الذي تنشده جمعيات القومية بتحقيق هذه الأماني؛ بإعادة الأمة العربية إلى وضعها الصحي المتطور الذي يرفعها إلى مستوى الأمم الراقية، ويعزز قدرتها على العطاء والإشعاع الحضاري[٢].

واعتبر أعضاء جمعيات القومية العربية الفرحة الغامرة التي حدثت لهم - عندما أعلن عن تطبيق مبادئ الدستور في حياة الأمة - مماثلة للفرحة في فتح القسطنطينية، قالوا: (إنّ اليوم الذي نودي فيه بالحكومة الدستورية ومحو السلطة الاستبدادية في المملكة العثمانية، كان يوماً سعيداً على هذه الأمة، لم يشهد مثله العثمانيون إلا اليوم الذي افتتح فيه السلطان محمد مدينة القسطنطينية)[٣].

إنّ الفرحة بتطبيق مبادئ ونظم الجاهلية عندهم توازي فتح القسطنطينية معقل الوثنية النصرانية هذا الحدث العظيم الذي هو مبعث فخر وعزة للمسلمين، الذي بشر به النبي ﷺ كما جاء في حديث عَبْدِاللَّهِ بْنِ عَمْرٍو: [بَيْنَمَا نَحْنُ حَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَكْتُبُ، إِذْ سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَيُّ الْمَدِينَتَيْنِ تُفْتَحُ أَوَّلاً قُسْطَنْطِينِيَّةُ أَوْ رُومِيَّةُ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لا، بَلْ مَدِينَةُ هِرَقْلَ أَوَّلاً][٤]. إن مقارنتهم هذه بتلك جناية لا تُغتفر، شتان ما بين الثريا والثرى، فالأولى نصر للإسلام وإعزاز للمسلمين؛ بينما الثانية هدم للإسلام وخذلان للمسلمين حين حيل بينهم وبين التحاكم إلى شريعة ربهم عز وجل.

---

(١) المؤتمر العربي الأول، خطبة إسكندر عمون، ١٠٠.

(٢) رسالة الأمة العربية، شبلي العيسمي، ٩٩.

(٣) مؤلفات رفيق العظم (الجامعة العثمانية)، رفيق العظم، ١٢٣.

(٤) سنن الدارمي، المقدمة، الحديث برقم (٤٨٦).

لقد عُلم أنّ فتح القسطنطينية من المبشرات النبوية، وقد أثنى النبي ﷺ على من يتولى فتحها، روى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ بِشْرٍ الْخَثْعَمِيُّ[1] عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: [لَتُفْتَحَنَّ الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ فَلَنِعْمَ الأَمِيرُ أَمِيرُهَا وَلَنِعْمَ الْجَيْشُ ذَلِكَ الْجَيْشُ]. قَالَ: فَدَعَانِي مَسْلَمَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ[2] فَسَأَلَنِي فَحَدَّثْتُهُ فَغزَا الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ)[3]. فلا سبيل لموازنة فرحةِ نصرِ الإسلام والمسلمين بفتح القسطنطينية، ودعوة النبي ﷺ للجيش الفاتح، بتطبيق القوانين والنظم الجاهلية.

كما أن تحديدَ أعضاء جمعيات القومية العربية لمصدر إليه يوردون، وعنه يصدرون، فيه مخالفة صريحة لنصوص الكتاب المنزل، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[4]. وعند النظر في آيات الكتاب التي أفردت الله سبحانه وتعالى بالحاكمية، نجد تلازم الحاكمية بالتوحيد ظاهراً في العديد من الآيات، منها:

أ. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾[5].

ب. وقوله تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ

---

(١) هو: عبدالله بن بشر الخثعمي، أبو عمير الكوفي الكاتب، والد عمير بن عبدالله. من الطبقة الرابعة عند ابن حجر. انظر: (تهذيب الكمال في أسماء الرجال، المزي، ١٤/ ٣٣٩ برقم (٣١٨٣).

(٢) مسلمة بن عبدالملك بن مروان بن الحكم الأموي، أبو سعيد، أخو سليمان ويزيد ابني عبدالملك، له آثار كثيرة في الحروب ونكاية في الروم، وحاصر القسطنطينية، وقد ولي العراق كما ولي الموسم في أيام الوليد، مات سنة عشرين ومئة في المحرم. انظر: (تهذيب الكمال في أسماء الرجال، المزي، ٢٧/ ٥٦٢ برقم ٥٩٥٦).

(٣) مسند الإمام أحمد، ٤/ ٣٣٥. وأخرجه الحاكم وقال عنه: حديث صحيح ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. انظر: المستدرك على الصحيحين، الحاكم، ٤/ ٤٢٢، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

(٤) سورة النساء، رقم الآية (٦٥).

(٥) سورة الأنعام، رقم الآية (٦٢).

النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١].

ت. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[٢].

الدلائل كلها تشير إلى أن جمعيات القومية العربية قد بوّأت الدستور الوضعي من حياتها مكانة لا تليق إلا بالقرآن الذي ارتضاه الله لعباده، وأبى إلا أن تكون له الحاكمية وإليه المرجع، قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾.

إن من أساسيات عقيدة التوحيد أن يستيقنَ الناس بأنّ الله محاسبُهم على أساس شريعته هو، لا شريعة العباد. وأنهم إن لم ينظموا حياتهم، ويقيموا معاملاتهم - كما يقيمون شعائرهم وعباداتهم - وفق شريعته الغراء في الدنيا، فإن هذا سيكون أول ما يحاسبون عليه بين يدي الله. وأنهم يومئذ سيحاسبون على أنهم لم يتخذوا الله - سبحانه - إلهاً في الأرض، ولكنهم اتخذوا من دونه أرباباً متفرقة، ومحاسبون.. باتباعهم شريعته في جانب العبادات والشعائر، واتباعهم شريعة غيره في النظام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، وفي المعاملات والارتباطات[٣].

صرح رئيس مؤتمر التجمع العربي في باريس - لاستصدار قرار يحدّد مدى ارتباط البلاد العربية بالدولة العثمانية - في مقابلة صحفية أجريت معه باستبعاد الدين من فقرات المؤتمر، قائلاً: (يهمني أن أصرح لك قبل كل شيء بأن هذا المؤتمر ليس له صفة دينية، وكل أعماله تنحصر في الدائرة المحدودة له من البحث في شؤوننا الاجتماعية

---

(١) سورة يوسف، رقم الآية (٤٠).
(٢) سورة القصص، رقم الآية (٧٠).
(٣) في ظلال القرآن الكريم، سيد قطب، ٢/ ١١٢٣.

والسياسية، ولذلك ترى عدد أعضائه المسلمين والمسيحيين متساوياً..)[1].

نجد أعضاء جمعيات القومية العربية في مقابل إقصاء الدين في المؤتمر العربي الأول يتحاكمون إلى الدستور ويطالبون به، وبالسير على آثار الأمم النصرانية في سياسة الأمة، فكان مما قيل عن موضوع [تربيتنا السياسية]: (قد حان للشرق أن يمشي في المسائل السياسية والاجتماعية مشية أخيه الغرب اليوم - مقتدى الشرق -: بمناسبة أن تربيتنا السياسية التي سأتكلم عنها الآن قد سبقنا الغربيون فيها، أولئك عرفوا كيف توضع أسس حقوق البشر، وكيف تنال، وكيف تسترخص النفوس في سبيلها..)[2].

استعرضت جمعيات القومية العربية، في المؤتمر العربي كثيراً من الأمور المتعلقة بحياة المسلمين في الجوانب العقائدية والاجتماعية والسياسية، وقدمت الجمعيات الأحكام والقوانين فيها، كل هذا بعيداً عن تحكيم الدين وشريعة رب العالمين.

وقد عزا أعضاء جمعيات القومية العربية سبب تخلف البلاد، وتنافر القلوب، وظهور المحن، إلى تعطيل مبادئ الدستور، كما جاء في خطبة [الإصلاح على قاعدة اللامركزية][3].

أخبرنا ربنا جل جلاله عن شقاء الأمم، نتيجة إقصاء الوحي الرباني، واستعباد البشر للبشر بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[4]، وبقوله: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾[5]، وكما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا

---

(١) المؤتمر العربي الأول، ١٨.
(٢) المؤتمر العربي الأول، خطبة عبدالحميد الزهراوي، ٣١.
(٣) المصدر السابق، خطبة إسكندر عمون، ٩٩.
(٤) سورة الأعراف، رقم الآية (٩٦).
(٥) سورة الكهف، رقم الآية (٥٩).

مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾[١].

روى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ حتى مررنا على مسجد بني معاوية، فدخل فصلى ركعتين فصلينا معه، فناجى ربه عز وجل طويلاً، ثم قال: (سألت ربي ثلاثاً: سألته أن لا يهلك أمتي بالغرق؛ فأعطانيها، وسألته أن لا يهلك أمتي بالسنة؛ فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم؛ فمنعنيها)[٢].

إن إحداث هذه التشريعات الجاهلية، والتي تسمى (أنظمة) في الأمة، صار سبباً لشقاء البشرية بظهور الأحزاب والشيع، ولقد عرفت البشرية في فترات كثيرة من تاريخها ذلكَ اللونَ من العذاب - والدولة العثمانية تعتبر من ضمن تاريخ البشرية - كلما انحرفت عن منهج الله، وتُرِكَتْ لأهواء البشر ونزواتهم وشهواتهم وجهالتهم وضعفهم وقصورهم.. يعبثون بالحياة وفق تلك الأهواء والنزوات والشهوات والجهالة والضعف والقصور. وكلما تخبط الناس وهم يضعون أنظمة للحياة وأوضاعاً وشرائع وقوانين وقيماً وموازين من عند أنفسهم، يتعبد بها الناس بعضهم بعضاً، ويريد بعضُهم أن يَخضعَ لأنظمته وأوضاعه وشرائعه وقوانينه البعضُ الآخر، والبعض الآخر يأبى ويُعارض، وأولئك يبطشون بمن يأبى ويعارض، وتتصارع رغباتهم وشهواتهم وأطماعهم وتصوراتهم، فيذوق بعضهم بأس بعض، ويحقد بعضهم على بعض، وينكر بعضهم بعضاً، لأنهم لا يفيئون جميعاً إلى ميزان واحد، يضعه لهم المعبود الذي يعنو له كل العبيد، حيث لا يجد أحدهم في نفسه استكباراً عن الخضوع له، ولا يحس في نفسه صَغَاراً حين يخضع له[٣].

---

(١) سورة الأنعام، رقم الآية (٦٥).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الفتن، بَاب هَلَاكِ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، رقم الحديث (٥١٤٤).

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٢/ ١١٢٥.

والواجب الرجوع إليه جل جلاله كما أمر في قوله: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾[1] أي: فردوه إلى أصول التصور الإسلامي الذي قد جاءكم من عند الله، وإلى أصول الشريعة الإلهية التي جاءكم بها رسول الله..لا إلى أي أصل آخر، ولا إلى أي تصور آخر، ولا إلى أي ميزان آخر..، فرد أي شأن من شؤون الحياة الإنسانية إلى غير الله والرسول هو إقامة إله آخر، له حق الحاكمية، وله حق تعبيد الناس لما يشرعه لهم في أمور الحياة المتجددة بغير إذن الله[2].

وقد تحدث علماء السلف في فترة زمنية من تاريخ الأمة - إبّان حكم التتار - بعد إسقاطهم للدولة العباسية، عندما أحدثوا لهم مصدراً شرعياً آخر يتحاكمون إليه، قال ابن كثير عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾: يُنكر تعالى على من خَرَجَ عن حكم الله المُحْكم المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شر، وعَدَلَ إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات، التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات، مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم (جنكيز خان)، الذي وضع لهم اليساق: وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام اقتبسها من شرائع شتى، من اليهودية، والنصرانية، والملة الإسلامية، وفيه كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت في بنيه شرعاً متبعاً، يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ومن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله، حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله، فلا يحكم سواه في

---

(١) سورة النساء، رقم الآية (٥٩).

(٢) مقومات التصور الإسلامي، سيد قطب، ٣٣، دار الشرق، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

قليل ولا كثير)[١].

واليساقُ عند التتار دستورٌ لهم، يستخرجون منه الحلال والحرام، كما دستور (مدحت باشا) بالضبط عند أعضاء الجمعيات القومية، وقد سُئل ابنُ تيمية، عن حكم الشرع في الاحتكام إلى بعض الأنظمة والشرائع المحدثة في زمانه؟

فقال: يجب على المسلمين أن يُحكّموا اللهَ ورسولهَ في كل ما شجر بينهم، ومن حكم بحكم (البندق) وشرع البندق، أو غيره مما يخالف شرع اللهِ ورسوله، وحكَم الله ورسوله، وهو يعلم ذلك: فهو من جنس التتار الذين يقدمون حكم (اليساق) على حكم الله ورسوله[٢].

وقد حكى الشيخ أحمد شاكر - أحد علماء القرن الرابع عشر الهجري - حال الأمة في عصره بتطبيق الدستور، وبين الواقع بقوله: (اليوم هو هجْرٌ لأحكام الله عامة بلا استثناء، وإيثار أحكامٍ غير حكمه في كتابه وسنة نبيه، وتعطيلٌ لكل ما في شريعة الله، بل بلغ الأمر مبلغ الاحتجاج على تفضيل أحكام القانون الموضوع على أحكام الله المنزلة، وادعاء المحتجين لذلك بأن أحكام الشريعة إنما نزلت لزمان غير زماننا، ولعِللٍ وأسباب انْقَضَت، فسقطت الأحكام كلُّها بانقضائها)[٣].

وهذه الشُّبه كانت من نتائج تخطيط مُدبّر ومُحكم على الأمة المسلمة، ومن أبرز وسائله الغزو الفكري، ولو كان المسلمون يتعلمون كتاب الله وسنة رسوله ويعملون بما فيهما لكان ذلك حصناً منيعاً لهم من تأثير الغزو الفكري في عقائدهم ودينهم[٤].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ١٢٣. واليساق: كلمة تركية يعبر بها عن وضع قانون المعاملة. انظر: الخطط، المقريزي.

(٢) مجموع الفتاوى، ٣٥/ ٤٠٨.

(٣) عمدة التفسير، ابن كثير، تعليق أحمد شاكر، ٤/ ١٥٧.

(٤) أضواء البيان، الشنقيطي، ٧/ ٥٨٣.

والدستور الذي أَمّل الناسُ فيه الخير، والذي لم يصيبوا من ورائه إلا الشر؛ ما أصدق شوقي! حين يقول فيه:

لا تجعلوه هَوىً وخُلْفاً بينكم
وَمجَرَّد دنيا للنفوس وَمتْجَراً
اليومَ صَرَّحَت الأمورُ فأظهرت
ما كان من خُدَع السياسة مضمَراً
قد كان وَجْهُ الرأي أن نبَقْى يداً
ونَرَى وراءَ جنودها إنكلترا
فإذا أتتنا بالصفوف كثيرةً
جئنا بصفٍّ واحدٍ لن يُكسرا
غَضبَتْ فغضَّ الطَّرْفَ كلُّ مكابرٍ
يلقاك بالخدِّ اللطيم مُصَعَّرا[1].

ولقد احتجت جمعيات القومية بحجة روجتها في الأمة من أجل أن يتقبل المجتمع مبادئ وقوانين الدستور، هي: أن أحكام الدستور تجمع بين عناصر الأمة على اختلاف المشارب والمذاهب والآراء، وتجعلها في مستوى واحد بالحقوق والواجبات[2].

ومن حججهم أيضاً أن وثاق هذه الشريعة المحكم ظلّ حسناً موافقاً ما دامت أوضاع النبي ذات علاقة مكيفة مع حاجيات الأمة العربية. فلما أصبحت - حاجيات الأمة العربية - تبعاً لترقيات الحضارة محتاجة لأن تتغير كان نير التقاليد الموروثة

---

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، محمد محمد حسين، ٢/ ٤٢٣.
وانظر: ديوان شوقي: ١/ ٤٦١ من قصيدته في الأزهر، دار نهضة مصر، القاهرة.
(٢) مؤلفات رفيق العظم، الجامعة العثمانية، ١٢٥.

ثقيلاً جداً لا يتمكنون من خلعه والتملص من ربقته..، وبما أن هذا الكتاب كان شريعةً دينية ومدنية وسياسية معاً، يجعله منبعه الإلهي ثابتاً لا يتغير، وأصبح مستحيلاً قلب الأساسيات التي بني عليها[١].

وقد تغافل أعضاء جمعيات القومية، عن كون أحكام الكتاب المنزل بأنها هي الجامعة لقلوب العباد. وحكمُ الله ورسوله لا يختلف في ذاته باختلاف الأزمان، وتطور الأحوال، وتجدد الحوادث[٢].

ويشير الشيخ عبدالرحمن الدوسري - إلى خطر انحراف أعضاء جمعيات القومية العربية بتقليدهم الغرب، وترويجهم لأفكارهم، حينما اتخذوا لهم دستوراً يحكم في واقعهم غير القرآن الكريم - بقوله: (إن القرآن الكريم هو الذي صنع من العرب تلك المعجزة بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً، ولو شمخ هؤلاء برؤوسهم من جديد إلى بضاعة السماء، ورفضوا البضاعة الأرضية الملتقطة من المزابل اليهودية فحققوا عبادة الله واستعانتهم به بكل معانيها ومبانيها، لأعادوا مجدهم، وكانوا هم المعسكر الأول الصحيح الذي يعيد بناء ما هدمته اليهودية العالمية، من مقومات الحياة الإنسانية، بدلاً من أن يتعاونوا معها على الهدم العام، وعلى تخريب بيوتهم بأيديهم)[٣].

إن استحداث الدستور ليكون مصدراً للتلقي لدى جمعيات القومية العربية، فضلاً عن موافقته لأنظمة الدول الكافرة[٤]، يجعله متفقاً مع الفرق التي ظهرت في تاريخ

---

(١) كيف ينهض العرب؟ ١٣٣، عمر فاخوري، دار الآفاق الجديدة، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ.

(٢) تحكيم القوانين، محمد بن إبراهيم آل الشيخ، ١٥، دار المسلم، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

(٣) صفوة الآثار والمفاهيم، عبدالرحمن الدوسري، ١/ ٢٢٦، دار الأرقم، الكويت، ١٤٠١هـ.

(٤) بعد قيام الجمعية الوطنية الفرنسية بإشعال الثورة، الماسونية، في فرنسا، جرت الانتخابات لاختيار أعضاء المجلس الذي عقد سنة ١٧٨٩م، وطالب بمنح فرنسا دستوراً يقيد سلطة الملك المطلقة. انظر: تاريخ العلاقات الدولية منذ الثورة الفرنسية حتى الحرب العالمية الأولى، أحمد الخنساء، ١٣، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

الأمة الإسلامية، وصارت مصادر تشريع فيها، ويوضح الشاطبي هذه القضية بقوله: (إن اتبعوا عقول البشر، واتبعوا أهواءهم فلم يأخذوا الأدلة الشرعية مأخذ الافتقار إليها، والتعويل عليها، حتى يصدروا عنها، بل قدموا أهواءهم، واعتمدوا على آرائهم، ثم جعلوا الأدلة الشرعية منظوراً فيها من وراء ذلك.. وصيروا العقل شارعاً جاء الشرع أولاً، بل إن جاء فهو كاشف لمقتضى ما حكم به العقل)[١].

ومن منطلق استحداث الدستور الجاهلي في واقع الأمة، قدمت جمعية (رابطة الوطن العربي) حلاً من أجل أن يقبل المسلمون تشريعات الدستور، وهذا الحل الذي ذكرته الجمعية، قد بني على قاعدة ذكرتها تلك الجمعية وهي: (إنّ سيادة خليفة الإسلام على كافة مسلمي الأرض المجتمعين في دولة واحدة أمراً يبدو مستحيلاً دائماً، حتى بالنسبة للخلفاء الأوائل، وأما أن يكون ملكاً على بلد لا يضم إلا المسلمين)[٢].

ولهذا رأت الجمعية أن يقدم الوطن العربي الخلافة الإسلامية الدينية العامة للشريف المتحدر عن الرسول، والذي هو نفسه ينضم صراحةً إلى الحزب الذي يكرس نفسه لهذا العمل، وسيكون لهذا الخليفة الدينية دولة سياسية مستقلة تماماً، تشمل ولاية الحجاز الحالية ومنطقة المدينة المنورة حتى العقبة، ويتمتع الخليفة الديني باحترام الملك، ويملك سلطة روحية فعلية على كافة مسلمي الأرض...

وهكذا تكون سلطته شاملة، ويحكم من مقره حكماً روحياً جميع مسلمي العالم الذين يخفون إلى مقامات محمد المقدسة لتأدية (فريضة) الحج[٣].

---

(١) الاعتصام، الشاطبي، ٢/ ١٧٦، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
(٢) يقظة الأمة العربية، نجيب عازوري، ٢٢١.
(٣) يقظة الأمة العربية، نجيب عازوري، ٢٢٠.

إن هذا الحل الذي قدمته جمعية رابطة الوطن العربي، ينطلق من الفكر النصراني الذي يدعو إلى أن البابا يتخذ مقره في روما، مهد المسيحية الأولى في أوربا، والذي يرأس المجمع الديني، ويتّوج الملوك رعاية لسلطان الدين[1].

وهذا ما صرح به أحد فلاسفة الغرب عن نظرية الحكم النصراني، والفرق بينها وبين الخلافة الشرعية، بأن هناك فرقاً بين سلطة البابا في العقيدة النصرانية، وسلطة الخليفة في الدولة الإسلامية، وذكر هذه المفارقة في سياق حديثه عن المقارنة بين الخلافة والنظام الإمبراطوري، فقال: (نجد في الغرب حاكمين أحدهما: زمني وهو الإمبراطور، والآخر روحي وهو البابا..والخليفة حاكم سياسي، بمعنى أنه حاكم واحد يجمع بين السلطتين الزمنية والروحية، ويستطيع باعتباره حامي الدين أن يعلن الحرب على الكفار، ويحارب الخارجين على الدين ويؤم الناس في الصلاة، ويلقي خطبة الجمعة، بخلاف البابا فإنه يعتبر قسيساً أعظم يستطيع أن يغفر خطايا المذنبين وهو المرجع الأعلى في الأمور الدينية)[2].

وأما عن طعن جمعية رابطة الوطن العربي بسياسة الخلافة الراشدة لأمور الأمة، فهو ينقض وصية النبي ﷺ الذي أمر بالاقتداء بالخلافة الراشدة من بعده، كما في الحديث السابق الذكر وفيه: (فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ...)[3].

قال علماء الإسلام: إن في صيغة هذا الحديث أَمْرَه ﷺ بوجوب اتباع سنته وسنة

---

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب العاصر، محمد محمد حسين، ١/ ٢٨٣.

(٢) منهج السنة في العلاقة بين الحاكم والمحكوم، يحيى إسماعيل، ٢٦٤، دار الوفاء، المنصورة، ١٤٠٦هـ.

(٣) سبق تخريجه، انظر: ص (٤٠٠)، هامش رقم ٢.

الخلفاء الراشدين من بعده، و أمره بالسمع[1] والطاعة لولاة الأمور عموماً، وهو دليلٌ على أن سنةَ الخلفاء الراشدين متبعةٌ كاتباع السنة بخلاف غيرهم من ولاة الأمور.

ومن لوازم الإيمان بمحمد ﷺ نبياً ورسولاً طاعته فيما أمر، ولم يرشدنا عليه أفضل الصلاة والسلام إلا إلى ما فيه خير لنا، وقد أخبر نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام أن سيرة الخلفاء الراشدين في سياسة الدين والدنيا تسلك منهاج النبوة، فعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُمْهَانَ[2] قَالَ حَدَّثَنِي سَفِينَةُ، قَالَ: (قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : [الْخِلَافَةُ فِي أُمَّتِي ثَلَاثُونَ سَنَةً، ثُمَّ مُلْكٌ بَعْدَ ذَلِكَ]. ثُمَّ قَالَ لِي سَفِينَةُ: أَمْسِكْ خِلافَةَ أَبِي بَكْرٍ، ثُمَّ قَالَ: وَخِلافَةَ عُمَرَ، وَخِلافَةَ عُثْمَانَ، ثُمَّ قَالَ لِي: أَمْسِكْ خلافَةَ عَلِيٍّ. قَالَ: فَوَجَدْنَاهَا ثَلاثِينَ سَنَةً[3].

ومن جانب آخر فإن الشواهد التاريخية لسيرة الخلفاء الراشدين، وسياستهم في أمور الدين والدنيا تدحض ما ذكرته (جمعية رابطة الوطن العربي)، - مع الاعتقاد بعدم عصمة واحد منهم - فقد كان عصر الخلفاء الراشدين هو التطبيق العملي للإسلام كاملاً، وهم الذين جاهدوا مع الرسول ﷺ، وقدموا المُهَجَ والأرواح في سبيل الله، وعاشوا مع التنزيل لحظة بلحظة[4].

وفي خلافتهم رضي الله عنهم، كان السيف مسلولاً على الكفار، مكفوفاً عن أهل الإسلام. وتعتبر مدة خلافتهم تتمة لحكم رسول الله ﷺ ، وبذا تكون الدولة الإسلامية التي قامت في المدينة منذ أن وصل إليها رسول الله ﷺ في بداية الهجرة وإلى مقتل علي بن

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، ٢٤٩. انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ٤/ ٤٠٠.

(٢) سعيد بن جُمْهان الأسلمي، أبو حفص البصري، قال المزي: له صحبة، روى عن سفينة مولى رسول الله، مات بالبصرة سنة ست وثلاثين ومئة. انظر: (تهذيب الكمال في أسماء الرجال، المزي، ١٠/ ٣٧٦).

(٣) سنن الترمذي، رقم الحديث (٢١٥٢)، كتاب الفتن، باب ما جاء في الخلافة.

(٤) الإمامة العظمى، عبدالله بن عمر الدميجي، ١٢٧.

أبي طالب رضي الله عنه سنة أربعين من الهجرة هي الصورة الصحيحة للحكم الإسلامي كمدة متصلة[١].

وقرر علماء السلف أنّ سياسة الخلافة الراشدة لأمور الأمة خير من غيرهم وأفضل، وأن اتباعهم للنبي ﷺ وقيامهم بأمره أكمل، وقيامهم بالإسلام خير من قيام غيرهم، وظهورهم بمشارق الأرض ومغاربها أعظم من ظهور غيرهم، وما فعلوه من الخير أعظم مما فعله غيرهم[٢].

ومن عقيدة أهل السنة والجماعة أن ترتيبهم في الفضل هو ترتيبهم في الخلافة، وأنهم رضي الله عنهم جميعاً، الذين نصر اللهُ بهم الدينَ، وقهر، وقسر بمكانهم الملحدين، وقوى بمكانهم الإسلام، ورفع في أيامهم للحق الأعلام، ونور بضيائهم ونورهم وبهائهم الظلام[٣].

وإنّ الطعن في سياسة الخلافة الراشدة، تضمن أيضاً تخصيص أحكام الله تعالى بحصرها في مدينتي مكة والمدينة وهذا باطل بدلالة قول الله تعالى عن عالمية هذا الدين: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾[٦].

---

(١) التاريخ الإسلامي، محمود شاكر، ٣/ ٥، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.

(٢) منهاج السنة النبوية في الرد على الشيعة والقدرية، ابن تيمية، ٤/ ١٦٧ - ١٦٨ (بتصرف). وانظر: تراث الخلفاء الراشدين في الفقه والقضاء، صبحي محمصاني، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م.

(٣) عقيدة السلف وأصحاب الحديث، الصابوني، ٩٠.

(٤) سورة سبأ، رقم الآية (٢٨).

(٥) سورة الفرقان، رقم الآية (١).

(٦) سورة ص، رقم الآية (٧٨).

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ أي: إنما خصّه بهذا الكتاب العظيم المبين المفصل المحكم الذي: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾(١) - الذي جعله فرقاناً عظيماً - إنما خصه به ليخصه بالرسالة إلى من يستظل بالخضراء، ويستقل على الغبراء(٢).

» الموقف الثاني: تأويل بعض آيات القرآن الكريم بما يوافق الهوى:

استشهد بعض أعضاء جمعيات القومية العربية بالآيات القرآنية، ولكن المُسْتَشْهَدَ له يخالف في مضمونه دلالة النص القرآني المستشهد به، وهذا من معاني التأويل الباطل، الذي ذمه السلف، حيث قالوا رحمهم الله: (من أنواع التأويل تأويلُ اللفظِ بمعنى لم يدل عليه دليل من السياق ولا قرينة تقتضيه، ومن معانيه أيضاً: تأويل النص إلى ما لم يحتمله سياقه وتركيبه)(٣).

ومن أمثلة تأويل أعضاء جمعيات القومية العربية لآيات القرآن، ما يلي:

أولاً: قالوا: كل الأديان قد أنزلت لمصلحة البشر، فمن وقر في نفسه أن يتخذ الدين أداة لمآربه السياسية، ويضيم الطوائف فيطعن فيها، ويقذف أهلها، فقد جنى على نفسه وأمته: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٤)، ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾(٥)، ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ

(١) سورة فصلت، رقم الآية (٤٢).
(٢) تفسير ابن كثير، ٦/ ١٠٠. ومعنى الخضراء (السماء) والغبراء (الأرض).
(٣) مختصر الصواعق المرسلة، ابن القيم، ١١ - ١٣، دار الندوة الجديدة، بيروت، لبنان، ١٤٠٥هـ.
(٤) سورة البقرة، رقم الآية (٦٢).
(٥) سورة المائدة، رقم الآية (٨٢).

﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[1]، ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[2][3].

إن الظاهر من الاستشهاد بالآيات السابقة ألا يتعرض أفراد المجتمع الإسلامي لأي عقيدة من العقائد الأخرى أو مذهب من المذاهب المخالفة للإسلام بالطعن أوبيان بطلانها.

فقد قررت جمعيات القومية العربية، أن العربي المسلم حَسْبُهُ أنّ دينَه دينٌ سمح يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وحسبه في نظرته إلى مواطنه المسيحي أن يذكر الآية القرآنية الكريمة: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[4].

ولهذا يؤكد أعضاء الجمعيات على أن ما احتواه القرآن في حق النصارى، فجُلّه في صدد عقائدهم، وفي بعضه أوصاف محببة وثناء، وليس فيه على كل حال، ما يدل بصراحة على مواقف كيد ودس وتآمر وتربص[5].

وهذا التقرير يؤكد على أن المعتقد الذي تبنته جمعيات القومية العربية، يقوم على أساس الولاء للقومية العربية دون العقيدة الربانية، كما ذكرت تلك الجمعيات في منشورات تنادي بهذا المعتقد، وجاء فيها: (.. ليكن المسلمون والنصارى واليهود منكم يداً واحدة، وتتكلمون بلغة واحدة، فكونوا أيضاً أمة واحدة ويداً واحدة، ولا تتفرقوا تبعاً لمفاسد وغايات المفسدين الذين يتظاهرون بالإسلام، والإسلام بريء

---

(١) سورة الأنعام، رقم الآية (١٠٨).

(٢) سورة المائدة، رقم الآية (٤٨).

(٣) مختارات المفيد، ٧٤.

(٤) القومية العربية تاريخها وقوامها ومراميها، مصطفى الشهابي، ٣٤٧.

(٥) الدستور القرآني في شؤون الحياة، محمد عزة دروزة، ١٢٥.

منهم، وقد انطبق عليهم قول الشاعر العربي:

إذا رام كيداً بالصلاة مقيمها
فتاركها منه إلى الله أقرب

فتساعدوا واتحدوا وتعاضدوا ولا تقولوا: أيها المسلمون هذا نصراني وهذا موسوي، فكلكم عيال الله، والدين لله وحده.. فليكن رائد الطرفين التساهل والسعي في إزالة هذه التعصبات الذميمة..)[١].

والتأويل المذكور صرف دلالات نصوص الآيات القرآنية عن ظاهرها، وأنزلها لمعانٍ فاسدةٍ، والتأويل الصحيح لهذه الآيات وما يحمله تفسيرها من دلائل عقدية صحيحة، ذكره السلف رحمهم الله في كتبهم، وفيما يأتي تفسيراتهم لهذه الآيات:

تفسير العلماء للآيات المستدل بها:

١) قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

قال العلماء: (من آمن بالله واليوم الآخر): من صدق وأقر بالبعث بعد الممات يوم القيامة، وعمل صالحاً فأطاع الله، فلهم أجرهم عند ربهم، وقد عُنِي بالإيمان من كان من أهل الكتاب على إيمانه بعيسى، وبما جاء به، حتى أدرك محمداً، فآمن به وصدقه[٢].

فيكون الثناء على أهل الكتاب باتباعهم أوامر الله، فاليهود يثنى على من تمسك منهم بالتوراة وسنة موسى عليه السلام، حتى جاء عيسى عليه السلام. فلما جاء عيسى عليه

---

(١) إيضاحات عن المسائل السياسية، جمال باشا، ٢٤ - ٢٨.

(٢) تفسير الطبري، ١/ ٣٢٠، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤٠٨هـ. (بتصرف يسير)

السلام كان من تمسك بالتوراة وأخذ بسنة موسى عليه السلام، فلم يدعها ولم يتبع عيسى عليه السلام، كان هالكاً. وإيمان النصارى أن من تمسك بالإنجيل منهم وشرائع عيسى عليه السلام كان مؤمناً مقبولاً منه حتى جاء محمد ﷺ، فمن لم يتبع محمداً ﷺ منهم ويدع ما كان عليه من سنة عيسى عليه السلام والإنجيل كان هالكاً[1].

هذا التأويل الذي ذُكر عن السلف يؤكد الفهم الصحيح لهذه الآية الكريمة، وكيف أنها مبينةٌ وحدةَ العقيدةِ لجميع الطوائف على اختلاف أسمائهم، آخذاً باللباب الصحيح، لا بقشور الدعاوى الزائفة، وإن كل ملة من الملل إذا وصل بها إيمانها إلى إسلام الوجه لله، والتصديق بجميع رسله وكتبه، والوفاء بعهده الفطري، من استعمال كل الجوارح والأحاسيس في طاعة الله ومرضاته، ثم الوفاء بعهده الديني الشرعي من الإيمان بمحمد ﷺ، ونصرته ميتاً باتباع سنته، وتحقيق جميع أنواع الفداء في حمل رسالته، والإيقان باليوم الآخر بالاستعداد الصحيح له؛ فإن ألقابهم حينئذ لا تبعدهم عن الله بل تصبح كالقشور، وإن فضل الله وعفوه ليس محجوراً على جنس من الناس دون جنس[2].

وبهذا التصور الصحيح للآية تبيّن فسادُ تأويل جمعيات القومية العربية، وأن العبرة والميزان الحق: هو اتباع ما جاء به خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، وقد ذكر العلماء أن هذه الآية قد نسخت بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[3].

---

(١) تفسير ابن كثير، ١/ ١٤٧.

(٢) صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم، عبدالرحمن الدوسري، ٢/ ١٥٢.

(٣) سورة آل عمران، رقم الآية (٨٥). ينظر عن أقوال العلماء في نسخ الآية: (نواسخ القرآن، ابن الجوزي، ١٢٩، والناسخ والمنسوخ، ابن سلامة أبي النصر، ٣٤).

إلا أن ابن كثير بين أنه لا تعارض بين الآيتين، فإن هذا الذي قاله - سبحانه وتعالى - إخبار عن أنه لا يقبل من أحد طريقةً ولا عملاً، إلا ما كان موافقاً لشريعة محمد ﷺ بعد أن بعثه بما بعثه به، فأما قبل ذلك فكل من اتبع الرسول في زمانه فهو على هدى وسبيل ونجاة..، فلما بعث الله محمداً ﷺ خاتماً للنبيين، ورسولاً إلى بني آدم على الإطلاق، وجب عليهم - أهل الكتاب - تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، والانكفاف عما عنه زجر[1].

ويؤكد هذا المفهوم قول الرسول ﷺ: (ثَلاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: الرَّجُلُ تَكُونُ لَهُ الأَمَةُ، فَيُعَلِّمُهَا فَيُحْسِنُ تَعْلِيمَهَا، وَيُؤَدِّبُهَا فَيُحْسِنُ أَدَبَهَا، ثُمَّ يُعْتِقُهَا فَيَتَزَوَّجُهَا فَلَهُ أَجْرَانِ؛ وَمُؤْمِنُ أَهْلِ الْكِتَابِ، الَّذِي كَانَ مُؤْمِنًا ثُمَّ آمَنَ بِالنَّبِيِّ ﷺ فَلَهُ أَجْرَانِ؛ وَالْعَبْدُ الَّذِي يُؤَدِّي حَقَّ اللَّهِ وَيَنْصَحُ لِسَيِّدِهِ)[2].

٢) قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ﴾. تبدأ الآية بقوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾[3].

لقد اقتطع المستدل - عبدالغني العريسي[4] - النص القرآني الذي يعتقد أنه يؤيد مذهبه، وبإعمال النظر في جميع آيات الكتاب - الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - نجد أن الآيات القرآنية، المتعلقة بموضوع الحديث عن النصارى، قد قسمتهم طائفتين:

---

(١) تفسير ابن كثير، ١/ ١٤٨.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فضل من أسلم من أهل الكتاب، رقم الحديث (٢٧٨٩).

(٣) سورة المائدة، رقم الآية (٨٢ - ٨٣).

(٤) مختارات المفيد، ٧٤.

الطائفة الأولى: من رفض هداية الله، وأعرض عن الوحي المنزل، وناصب المسلمين العداء. وفيهم قال تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[1].

ادعى هذا الصنف بأنهم نصارى يتابعون المسيح ابن مريم، وليسوا كذلك، وأخذ - عليه السلام - عليهم العهودَ والمواثيق على متابعة الرسول ﷺ ومناصرته ومؤازرته واقتفاء آثاره، والإيمان بكل نبي يرسله الله إلى أهل الأرض، ولكنهم خالفوا المواثيق ونقضوا العهود، كما قال: ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾[2].

وأفراد هذه الطائفة من النصارى هم المعنيون بتحريم موالاتهم والنهي عن الاقتداء بهم بقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[3]، وقوله: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[4].

الطائفة الثانية: أخبر الله عنهم بقوله: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾[5]، وقال الله عنهم أيضاً: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا

---

(١) سورة المائدة، رقم الآية (١٤).

(٢) تفسير ابن كثير، ٣/ ٦٢. (بتصرف يسير).

(٣) سورة المائدة، رقم الآية (٥١).

(٤) سورة البقرة، رقم الآية (١٢٠).

(٥) سورة المائدة، رقم الآية (٨٢).

وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[1].

هذه الطائفة من النصارى سمعوا ما أنزل على الرسول ﷺ فآمنوا وصدقوا به، وقد أخبر الله على لسانهم بقوله: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾[2].

فتكون هذه الآيات قد نزلت في النصارى الذين آمنوا بمحمد ﷺ كالنجاشي وغيره ممن آمن منهم. وكذلك لا يزال يوجد فيهم من يختار دين الإسلام، ويتبين له بطلان ما كانوا عليه[3]. وذلك لما كان فيهم من رهبة، وعدم كبر كانوا أقرب إلى الهدى، فقال في حق المسلمين منهم: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾؛ قال ابن عباس: مع محمد وأمته، وهم الأمة الشهداء[4].

أمّا أن تكون دلالة الآيات عدم الطعن في عقيدة النصارى انطلاقاً من أن الدين الإسلامي سمح!! فهذا خلاف دلالة نص الآية، وقد قال القاضي أبو يعلى: (وربما ظن جاهل أن هذه الآية مدح النصارى، وليس كذلك، لأنه إنما مدح من آمن منهم، ويدل عليه ما بعد ذلك..)[5].

---

(١) سورة القصص، رقم الآية (٥٢، ٥٤).

(٢) انظر:

١. تفسير الطبري، ٧/ ٣.
٢. زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي، ٢/ ٤٠٨.
٣. الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ابن تيمية، ١/ ٢٦٦.
٤. تفسير ابن كثير، ٣/ ١٥٧.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، ٢/ ٣٣٤، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، الرياض، ١٤٠٤هـ.

(٤) فتاوى ابن تيمية، ٧/ ٦٢٦.

(٥) زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي، ٢/ ٤٠٩، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ.

إن في مجموع ما ذكره العلماء في معنى الآيات التي احتج بها أعضاء جمعيات القومية العربية لموقفهم ما يتبين خطأ استدلالهم، وأنهم قد اتخذوها للتأثير في مواقف المسلمين تجاه النصارى.

ويمكن الجزم بأنه ليس للآية مِنْ معنى صحيح إلا ما ذكر سابقاً، وأن مجموع الآيات تنص على حقد وكفر النصارى، وقد حفظ لنا الواقع التاريخي حقائق عنهم، وبينت هذه الحقائق أن النصارى اتخذوا من الإسلام موقف العداء منذ وقعة اليرموك بين جيش المسلمين وجيوش الروم، فيما عدا حالات أخرى آثرت فيها طوائف من النصارى أن تحتمي بعدل الإسلام من ظلم طوائف أخرى من بني دينهم ذاقوا من ظلمها الوبال. أما التيار العام الذي يمثل موقف النصارى جملة فهو تلك الحروب الصليبية التي لم يَخْبُ أوراها قط - إلا في الظاهر - منذ التقى الإسلام والرومان على ضفاف اليرموك.

تجلت أحقادُ الصليبية على الإسلام وأهله في الحروب الصليبية المشهورة طوال قرنين من الزمن، كما تجلت في حروب الإبادة التي شنتها الصليبية على الإسلام والمسلمين في الأندلس، ثم حملات الاستعمار والتبشير على الممالك الإسلامية في أفريقية أولاً، ثم في العالم كله أخيراً[1].

٣) قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[2].

استنبط أعضاء الجمعيات معنى من هذه الآية يفيد: عدم التعرض إلى المذاهب المخالفة. والاستدلال بالآية المذكورة لا يستقيم لهم، فليس من معاني واستدلالات

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٢/ ٩٦٦.
(٢) سورة الأنعام، رقم الآية (١٠٨).

الآية أن يُقرّ الباطل، ويُسْكت عن بيان الحق، وتُلبسُ الحقائق على الأمة كما فهموا.

وعند النظر في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ - وهما مصدرا التشريع - نجد نصوصاً ذُكرت؛ فيها ذم العقائد الباطلة كما فيها بيان عقائد الكافرين، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾[1].

وأخبر الله تعالى عن محاجّة أنبيائه لأممهم الكافرة، وفيما أخبر عنهم أثناء دعوتهم للتوحيد في وجه الشرك الذي كان عند أممهم، أنهم أنكروا ما كانت عليه أقوامهم من الباطل والضلال، كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾[2].

ففي هذه الآيات، وهي من السور المكية، إخبارٌ من الله تعالى عن محاجّةِ عبده ورسوله وخليله إبراهيمَ ﷺ إمام الحنفاء لقومه. أمر الله رسوله محمداً ﷺ أن يتلوه على أمته، ليقتدوا به في الإخلاص والتوكل، وعبادة الله وحده لا شريك له، والبراء من الشرك وأهله.

ومما أخبر الله عنه قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾، أي: إن كانت هذه الأصنام شيئاً ولها تأثير، فلتخلص إلي بالمساءة فإني عدو لها، لا أباليها، ولا أفكر فيها[3].

ومن أمثلة منهج الرسل في بيان بطلان الباطل وإحقاق الحق في مسائل الاعتقاد ما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا

(١) سورة الأحزاب، رقم الآية (٦٤).
(٢) سورة الشعراء، رقم الآية (٧٠ - ٧٧).
(٣) تفسير ابن كثير، ٦/ ١٥٥.

لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾[1].

ففي هذه الآيات إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره، من الأنداد والأصنام والأوثان، وهي مخلوقة لله مربوبة مصنوعة، لا تملك شيئاً من الأمر، ولا تضر ولا تنفع، ولا تنتصر لعابديها، بل هي جماد لا تتحرك ولا تسمع ولا تُبصر، وعابدوها أكمل منها بسمعهم وبصرهم وبطشهم[2].

وكذلك قد ثبت في سنة الرسول ﷺ بيان فساد مبادئ أصحاب المعتقدات الباطلة، وذمها، جاء في حديث عَائِشَةَ رَضِي اللَّه عَنْهَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ: [لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسْجِدًا..][3]. وجاء عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أيضاً أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: [لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ حُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الشُّحُومُ فَجَمَّلُوهَا فَبَاعُوهَا][4].

كما أخبر النبي ﷺ أمته عن بني إسرائيل كيف أنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، فعن أَبِي عُبَيْدَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَّا وَقَعَ فِيهِمُ النَّقْصُ كَانَ الرَّجُلُ فِيهِمْ يَرَى أَخَاهُ عَلَى الذَّنْبِ فَيَنْهَاهُ عَنْهُ، فَإِذَا كَانَ الْغَدُ لَمْ يَمْنَعْهُ مَا رَأَى مِنْهُ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَخَلِيطَهُ، فَضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، وَنَزَلَ فِيهِمُ الْقُرْآنُ فَقَالَ: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾، فَقَرَأَ حَتَّى بَلَغَ: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ

---

(١) سورة الأعراف، رقم الآية (١٩٤ - ١٩٥).

(٢) تفسير ابن كثير، ٣/ ٥٣٢.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، بَاب مَا يُكْرَهُ مِنَ اتِّخَاذِ الْمَسَاجِدِ عَلَى الْقُبُورِ، رقم الحديث (١٢٤٤).

(٤) المصدر السابق، كتاب أحاديث الأنبياء، بَاب مَا ذُكِرَ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، رقم الحديث (٣٢٠١).

أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾. قَالَ: وَكَانَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ مُتَّكِئًا، فَجَلَسَ، فَقَالَ: لَا، حَتَّى تَأْخُذُوا عَلَى يَدِ الظَّالِمِ فَتَأْطُرُوهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا)[١].

والنصوص الدالة في كتاب الله تعالى وسنة رسوله على أن مِنْ عقيدة المسلم تبيين الباطل من الحق، والتوحيد من الشرك؛ كثيرةٌ جداً، وهذا يخالف ما دعت إليه جمعيات القومية العربية؛ بألا يتعرض أصحاب العقائد بعضهم لبعض، إنما يتعايشون سلماً ويوالي بعضهم بعضاً عروبةً.

إن المعنى الصحيح لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٢]، هو كما بينه السلف بأنها من الآيات المقررة لمبدأ سد الذرائع، فقد نهى الله المؤمنين بأن يسبوا الذين يدعو المشركون من دون الله من الآلهة والأنداد، فيسب المشركون الله جهلاً منهم بربهم، واعتداءً بغير علم[٣].

ومع أن سبَّ آلهة المشركين فيه مصلحة وحمية لله وإهانة لآلهتهم، إلا أنه يترتب عليه مفسدة أعظم منها، وهي مقابلة المشركين بسب إله المؤمنين، وهو الله لا إله إلا هو[٤].

وبهذا يكون المقصود التنبيه، بل التصريح على المنع من الجائز لئلا يكون سبباً في فعل ما لا يجوز[٥] وليس أن يكون الأصل: هو عدم ذم آلهة المشركين، والامتناع عن إعلان بطلان العقائد الفاسدة، بل هذا هو الأصل، ولكن لئلاّ يكون ذلك ذريعة إلى أن يتطاول المشركون على الذات الإلهية، نُهي عن سب آلهتهم.

---

(١) سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، بَاب وَمِنْ سُورَةِ الْمَائِدَةِ، رقم الحديث (٢٩٧٤).
(٢) سورة الأنعام، رقم الآية (١٠٨).
(٣) تفسير الطبري، ٧/ ٣٠٩.
(٤) تفسير ابن كثير، ٣/ ٣٠٧.
(٥) إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، ٣/ ١٣٧.

وقد قال ابن تيمية: فهؤلاء لما سُبّت آلهتهم سبوا الله مقابلة، فجعلوهم مماثلين لله وأعظم في قلوبهم، كما تجد كثيراً من المشركين يحب ما اتخذه من دون الله أنداداً أكثر مما يحب الله تعالى[١].

وفي استدلال جمعيات القومية بُعْدٌ كبير عن معنى الآية الكريمة: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾[٢]، عندما أقرت تلك الجمعيات مبدأ: (كل الأديان قد أنزلت لمصلحة البشر) بناءً عليه، علماً أن المعنى المراد من هذه الآية هو: أنّ الله لا يقبل من عباده إلا الإسلام، بدليل قوله - عز من قائل -: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[٣].

وكما قال بعض المفسرين: إنّ آية النهي عن سب آلهة المشركين قد نسخت بتنبيه الخطاب في آية السيف، لأنها تضمنت الأمر بقتلهم، والقتل أشنع من السب[٤].

٤) قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٨٤][٥]: سبق أن أوّل أعضاء جمعيات القومية العربية بعض آيات القرآن من أجل أن تتفق مع ما تقرره تنظيمات جمعياتهم، وهنا يقولون في هذه الآية: لا يوجد هناك أمر مختلف فيه بين العقائد المتنوعة حيث لكل عقيدة شرعة ومنهاجٌ. ومن هنا نفهم ما قرره أولئك الأعضاء في المنتدى الأدبي، أثناء وضع خطة مُثلى - كما يزعمون - تتعلق بإصلاح المدارس الابتدائية، في البلاد العربية عام (١٩١١م - ١٣٢٩هـ)، إذ اقترح المنتدى عليهم برنامجاً يرمي إلى تطوير البلاد العربية، وينهض على دعامتين:

(١) منهاج السنة النبوية، ٢/ ٣٩٥.

(٢) سورة آل عمران، رقم الآية (١٩).

(٣) سورة آل عمران، رقم الآية (٨٥).

(٤) زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي، ٣/ ١٠٣ ولا أعرف أحداً من العلماء ذكر أن هذه الآية منسوخة إلا ابن الجوزي، وقد اختار عدم النسخ، كما في كتابه: نواسخ القرآن، ابن الجوزي، ٣٢٩، الجامعة الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.

(٥) سورة المائدة، رقم الآية (٤٨).

١ - توثيق عرى الإخاء بين العرب على اختلاف أديانهم وطوائفهم حتى لا يذكر أحدٌ منهم في السياسة والوطنية غير عروبيته.

٢ - توحيد التعليم في البلاد العربية..)[١].

إن الدعامة الأولى قامت صياغتها استناداً على الآية السابقة، ولهذا كان في تصريحات الأعضاء: (إننا عرب قبل كل شيء، المسلم عربي والمسيحي عربي.. و.. و..، أجل إننا عرب قبل أن نكون مسلمين، والمسيحي عربي قبل أن يكون مسيحياً.. و.. و..، وقد تركنا مسألة الديانات والعبادات إلى الجوامع والكنائس[٢]، وأي ضير حينما يتعاطف المسلمون مع المسيحيين لأنهم يرونهم يقتربون منهم من أجل السلام والخير العميم للوطن المشترك، الوطن العربي[٣].

ولبيان معنى الآية أقول: إن ما أوحاه الله على رسله عليهم أفضل الصلاة والسلام أجمعين: إما أن يكون أحكاماً عقائدية، أو أحكاماً تشريعية. فالأحكام العقائدية هي متفقة في التوحيد بدلالة قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[٤]، وقوله جل جلاله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[٥]. وثبت عن النبي ﷺ في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَالأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلاَّتٍ أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ)[٦].

---

(١) العرب والترك في العهد الدستوري العثماني، ٢٦٦.

(٢) الأهرام، ١٠٦٨٢ بتاريخ ٢٢/ ٤/ ١٩١٣م. نقلًا من كتاب العرب والترك، توفيق برو، ٢٦٥.

(٣) يقظة الأمة العربية، نجيب عازوري، ١٧٦.

(٤) سورة الأنبياء، رقم الآية (٢٥).

(٥) سورة النحل، رقم الآية (٣٦).

(٦) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، بَاب قَوْلِ اللَّهِ: (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ)، رقم الحديث (٣١٨٧). ومعنى علات: الإخوةُ لأبٍ واحدٍ وأمهاتٍ شتّى. ينظر: (غريب الحديث، الخطابي، ٢/ ١٦٠).

وقد كان كل نبي يرسله الله إلى أمة تكون الشريعة التي جاء بها هذا النبي ناسخة لما كان قبلها أو مقرة لها[1]، فقد قال تعالى عن عيسى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[2]، لقد كان للتوراة شريعة، وللإنجيل شريعة، وللقرآن شريعة، يحل الله فيها ما يشاء ويحرم ما يشاء ابتلاءً، ليعلم من يطيعه ممن يعصيه، ولكن الدين الواحد الذي لا يقبل غيره هو التوحيد والإخلاص لله الذي جاءت به الرسل[3].

فيكون الفهم الصحيح للآية التي استدل بها أعضاء جمعيات القومية - بعد النظر إلى سياقها، وسابقها مع الآيات - هو أن الله ذكر ما كتب على بني إسرائيل في التوراة، وأمرهم بالعمل بما فيها، ثم ذكر أنه قفّى بعيسى ابن مريم عليهما السلام على آثار الأنبياء قبله، وأنزل عليه الإنجيل، وأمر من بعثه إليه بالعمل بما فيه، ثم ذكر نبينا محمداً ﷺ، وأخبره أنه أنزل إليه الكتاب مصدقاً لما بين يديه من الكتاب، وأمره بالعمل بما فيه، والحكم بما أنزل إليه فيه دون ما في سائر الكتب غيره، وأعلمه أنه قد جعل له ولأمته شريعة غير شرائع الأنبياء والأمم قبله، الذين قص عليه قَصَصَهم، وإن كان دينه ودينهم في توحيد الله والإقرار بما جاءهم به من عنده، والانتهاء إلى أمره ونهيه واحد[4].

فالشريعة المتبعة والمتعبد الله بها، والمنهج المقتدى به هو ما جاء به خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، وهو الوارد في الكتاب والثابت في السنة الصحيحة، حيث نسخ الجميع بما بعث به عبده ورسوله محمداً، الذي ابتعثه إلى أهل الأرض قاطبة، وجعله

---

(١) انظر: أضواء البيان تفسير القرآن بالقرآن، الشنقيطي، ٢/ ٦٧، عالم الكتب، بيروت.

(٢) سورة آل عمران، رقم الآية (٥٠).

(٣) تفسير الطبري، ٦/ ٢٦٩.

(٤) المصدر السابق، ٦/ ٢٧٠.

خاتم الأنبياء كلهم[1]، وأمره أن يحكم بما أنزل الله، وحذره أن يفتنوه عن بعض ما أنزل الله، وأخبره أن ذلك هو حكم الله، ومن ابتغى غيره فقد ابتغى حكم الجاهلية[2].

٥) إن مبدأ تقرير الدعوة إلى الولاء القومي دون النظر إلى الاختلاف في العقائد، قد استمر على أنه من أهم مبادئ جمعيات القومية العربية، حيث أُولّت آيات القرآن الكريم من قبل حزب البعث العربي الاشتراكي الذي يمثل تلك الجمعيات في مرحلة زمنية من نشأتها.

فقد قرر حزب البعث العربي الاشتراكي مبدأ الولاء القومي وطلب التعايش السلمي بين الأديان المختلفة وعدم اعتزاز وترفع أهل دين على دين، حتى ولو كان على حساب الدين الحق، وبيّن مؤسسو الحزب خطأ منهجية من يستدل ببعض نصوص القرآن التي يُفهم منها تفضيل أمة على أمة، وأكدوا على أن المحاولات الرامية للإفادة من بعض النصوص التاريخية والدينية في إعطاء تقويم خاص متميز للأمة العربية، أو لغيرها، لا تكتسب قيمتها وتأثيرها ما لم تكن مستندة إلى تفسير علمي بعيدٍ عن الانزلاق وراء التميّز والتفاخر والاستعلاء. وهذا مثالٌ على ذلك عند تفسير الآية الكريمة: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.

ولا شك في أن التفسير الظاهري للآية يقود إلى نوع من الخطأ والوهم..، ومن المعروف أن التصرف على أساس التميز والاستعلاء من أي أمة أو شعب وبأية ذريعة أو لافتة، يؤدي من حيث النتيجة إلى تخريب العلائق الإنسانية الطبيعية، ويشوه مبادئ

---

(١) تفسير ابن كثير، ٣/ ١٢١. وانظر:
١. جامع أحكام القرآن، القرطبي، ٦/ ٢١١.
٢. تيسير الكريم الرحمن، عبدالرحمن السعدي، ٢/ ٣٠٠.
(٢) منهاج السنة النبوية، ٥/ ١٣٠.

الحق والعدل والمساواة بين الشعوب[1].

والذي يفهم من هذا التقرير البعثي، أن الحزب يرفض التمايز بين الأديان، بحجة أن ذلك يفسد العلائق الإنسانية ويؤدي إلى الظلم بين الشعوب، وأن الخيرية الواردة في الآية المستدل بها؛ والذي يقصد بـ(الأمة) الوارد ذكرها في الآية هي الأمة العربية. وحينما توصف الأمة العربية بصفة الخيرية فإن هذا الوصف يؤدي إلى الاستعلاء والغرور بأفرادها.

وقبل تحديد من المقصود بكلمة (الأمة) في الآية السابقة، سأبين معنى كلمة (الأمة) فإن هذه الكلمة لها معانٍ بحسب ما وردت في سياقها من الآيات، والذي اتفق عليه أهل اللغة أن معنى الأمة: كلُّ جماعة يجمعهم أمر ما: دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد، سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيراً أم اختياراً[2].

وبهذا المعنى يظهر أن الأمة تطلق على من اتصف بصفة التفرد، فيكون مجموعة من الناس تفردوا بالمعاصرة أو بالدين أو المكان..إلخ. وقد ثبت أيضاً بالسنة دليل

---

(١) رسالة الأمة العربية، شبلي العيسمى، ٢٦. انظر: ١، مفردات القرآن، الراغب الأصفهاني، ٢٣. دائرة المعارف الإسلامية، ٢/ ٦٣٠، ٦٣٤، دار المعرفة، بيروت.

(٢) مفردات القرآن، الراغب الأصفهاني، ٢٣. انظر:

١. لسان العرب، ابن منظور، ١٢/ ٢٦، ٢٨.
٢. غريب الحديث، لأبي عبيد بن سلام الهروي، ٢/ ١٢٥.
٣. النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، ١/ ٦٨. وقد قال المستشرقون في دائرة المعارف الإسلامية: (كلمة أمة وجمعها أمم في القرآن مختلفة المعنى بحيث لا يمكن تحديد معناها بالتدقيق على أنه مما لا شك فيه أنه تدل دائماً على فئة أو طائفة من الناس). وقول المستشرقين هذا: مناقض لنصوص القرآن الكريم والسنة الصحيحة. حيث تدل الكلمة على معانٍ معينة ويمكن تحديدها بحسب ما جاء فيها من كلام الله وكلام رسوله ﷺ. كما بين بطلان ما قاله المستشرقون الشيخُ محمود شاكر رحمه الله تعالى. انظر: دائرة المعارف الإسلامية، ٢/ ٦٣٠ - ٦٣٤.

ذلك؛ فعن مُعَاوِيَةَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: [لا يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ مَا يَضُرُّهُمْ مَنْ كَذَّبَهُمْ وَلا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ][1].

ومن أمثلة التفرد، أن أبا عبيدة رضي الله عنه أمين لهذه الأمة، لقول النَّبِيِّ ﷺ: [لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ، وَأَمِينُ هَذِهِ الأُمَّةِ: أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ][2]. ومن التفرد أيضاً أن فاطمة بنت النبي ﷺ هي سيدة نساء هذه الأمة، ففي حديث عَائِشَةَ:..قَالَ الرسول ﷺ: [يَا فَاطِمَةُ أَلا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ أَوْ سَيِّدَةَ نِسَاءِ هَذِهِ الأُمَّةِ][3].

ومن مجموع هذه المعاني يكون المقصود بالآية السابقة هو من صدق النبي ﷺ وآمن بما جاء به وتبعه فيه[4]. وهذا التحديد للآية يدل عليه سياقُ الآية. وقد قال أبوهريرة رضِي اللَّه عَنْه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ ؛ قَالَ: خَيْرَ النَّاسِ لِلنَّاسِ تَأْتُونَ بِهِمْ فِي السَّلاسِلِ فِي أَعْنَاقِهِمْ حَتَّى يَدْخُلُوا فِي الإِسْلامِ[5].

وقال مجاهد: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ قال: كنتم خير الناس للناس، على هذا الشرط، أن تأمروا بالمعروف، وتنهوا عن المنكر، وتؤمنوا بالله[6].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، بَاب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، رقم الحديث (٦٩٠٦).

(٢) المصدر السابق، كتاب المغازي، بَاب قِصَّةِ أَهْلِ نَجْرَانَ، رقم الحديث (٤٠٣١).

(٣) المصدر السابق، كتاب الاستئذان، باب مَنْ نَاجَى بَيْنَ يَدَيِ النَّاسِ، وَمَنْ لَمْ يُخْبِرْ بِسِرِّ صَاحِبِهِ فَإِذَا مَاتَ أَخْبَرَ بِهِ، رقم الحديث (٥٨١٢).

(٤) تهذيب الأسماء واللغات، النووي، ٢/ ١١. وانظر: شرح صحيح مسلم، كتاب الإيمان:والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني...)

(٥) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)، رقم الحديث (٤١٩١).

(٦) تفسير الطبري، ٤/ ٤٤.

فالأمة بالمعنى الإسلامي هي انتماء ديني عقدي، وليست انتماءً عنصرياً لجنس من الأجناس أو عرق من الأعراق. ومن ثم فقد قامت الأمة الإسلامية خلال التاريخ من جميع العناصر التي استجابت لرسالة الإسلام، بغض النظر عن انتسابها لجنس من أجناس البشر[١].

وهذا الانتماء العقائدي لهذه الأمة الإسلامية مما ينبغي أن تدركه الأمة، لتعرف حقيقتها وقيمتها، وتعرف أنها أُخرجت لتكون طليعة، ولتكون لها القيادة، بما أنها هي خير أمة. والله يريد أن تكون القيادة للخير لا للشر في هذه الأرض.

ومن ثم لا ينبغي لها أن تتلقى من غيرها من أمم الجاهلية إنما ينبغي دائماً أن تعطي هذه الأمم مما لديها، وأن يكون لديها دائماً ما تعطيه من الاعتقاد الصحيح، والتصور الصحيح، والنظام الصحيح، والخلق الصحيح، والمعرفة الصحيحة، والعلم الصحيح. هذا واجبها الذي يحتمه عليها مكانها، وتحتمه عليها غاية وجودها، وواجبها أن تكون في الطليعة دائماً، وفي مركز القيادة دائماً.

ولهذا المركز تبعاته، فهو لا يُؤْخذ ادّعاءً، ولا يسلم لها به إلا أن تكون هي أهلاً له.. فهي خير أمة أخرجت للناس؛ لا عن مجاملة أو محاباة، ولا عن مصادفة أو جزاف - تعالى الله عن ذلك كله علواً كبيراً - وليس توزيع الاختصاصات والكرامات كما كان أهل الكتاب يقولون: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾.. كلا، إنما هو العمل الإيجابي لحفظ الحياة البشرية من المنكر، وإقامتها على المعروف[٢].

وفَهْم مدلول الآية على هذه المعاني ليس هو (ضرب من الغرور والاعتقاد بالتميز غير المبرر علمياً)، الذي يدعيه حزب البعث، والذي قد (يؤدي من حيث

(١) الأمة في دلالتها العربية والقرآنية، أحمد حسن فرحات، ٤٣، دار عمار، عمان، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، ١/ ٤٤٧.

النتيجة لتخريب العلائق الإنسانية الطبيعية، ويشوه مبادئ الحق والعدل والمساواة بين الشعوب)[1]، حيث إن آيات القرآن قد حددت مدى علاقة الشعوب ببعضها البعض، ونصت على معيار التفاضل فيما بينها، فقد قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[2].

فالحقيقة القائمة المُشاهدة هي انقسام الناس إلى شعوب وقبائل ليتم بينها التعارف واللقاء، والحقيقةُ التي ينبغي أن تكون، والتي من أجلها أرسل الله رسله، وأنزل عليهم كتبه هي التقاء الناس من القبائل والشعوب المختلفة على انتماء ديني خلقي يتفاوتون فيه ويتفاضلون بمقدار قربهم من الدين والتزامهم بقيمه وأخلاقه[3].

٦) **تأويل آيات في أحكام الرق:** في الفقرات السابقة من الرسالة، تبين التأثير النصراني على أفكار ومبادئ أعضاء جمعيات القومية، فكان من نتائجها ما سبق بيانه من تأويل آيات القرآن الكريم. ويظهر من تأويل مؤسسي الجمعيات القومية للآيات التالية المتعلقة بأحكام الرق، تأثيرُ المنطلقات الماسونية بدعوى تكريم الإنسانية، وأنهم سواسية تحت شعار (مساواة).

قال محمد عزة دروزة: عن الرق، (قد هيأ القرآن الوسائل العديدة التي تجعل الرق من أساسه آيلاً للزوال في الأزمنة التالية لنزول الآية، وفي هذا توكيد كذلك لكون المعالجة إنما كانت لأمر قائم آيل إلى الزوال ولقد زال أو كاد)[4].

---

(١) رسالة الأمة العربية، شبلي العيسمي، ٢٦.

(٢) سورة الحجرات، رقم الآية (١٣).

(٣) الأمة في دلالتها العربية والقرآنية، أحمد حسن فرحات، ٤٤.

(٤) المرأة في القرآن والسنة، محمد عزة دروزة، ١٢٠، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ.

وبعد أن ذكر هذه المقدمات التي فيها جرأة واضحة على أحكام الشريعة، أورد تأويله للآيات التي توافق ما ذهب إليه، فقال: (لقد وضع القرآن أساساً لهذا الإلغاء في آية من سورة محمد هي: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾[١].

فقال عن تأويل هذه الآية: الآية وضعت حلاً لأسرى الحرب الذين يقعون في أيدي المسلمين من أعدائهم الكفار المحاربين، وهو إما فداء أي؛ إطلاق الأسرى مقابل فدية، وإما المن أي إطلاقهم بدون فدية[٢].

وأما عن الاسترقاق فقد قرر أعضاء جمعيات القومية بأنه ليس واجباً في الإسلام، ولكنه يباح إذا كان فيه المصلحة التي لا يعارضها مفسدة راجحة[٣].

ولقد اتفقت دول العالم على إلغاء الرق[٤] ومن جملتها الدول الإسلامية. وعن هذا الاتفاق قال أعضاء جمعيات القومية: ولكل حكومة إسلامية أن تمنعه، بل مَنْعُه مِنْ مقاصد الإسلام العامة[٥].

إن أحكام الرق مرتبطة بشريعة الجهاد، وهي باقية ما بقي الجهاد في سبيل الله، وقد قال البخاري في صحيحه: الْجِهَادُ مَاضٍ مَعَ الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: [الْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ][٦]، فلما ارتبط الرق بالجهاد فما هو بغريب

---

(١) سورة محمد، رقم الآية (٤).

(٢) المرأة في القرآن والسنة، محمد عزة دروزة، ١٢٠.

(٣) حقوق النساء في الإسلام، محمد رشيد رضا، ١٥٥، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٤هـ.

(٤) انظر عن تآمر الدول النصرانية: الإسلام والرق، محمد البهي، ١١، دار التراث العربي، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ. و «القانون الدولي العام، أبي هيف، ٨١٨».

(٥) حقوق النساء في الإسلام، محمد رشيد رضا، ١٥٥. وانظر: المرأة في القرآن والسنة، محمدعزة دروزة، ١٢٠.

(٦) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، بَاب: الْجِهَادُ مَاضٍ مَعَ الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ، رقم الحديث (٢٦٣٧).

أن تقف الدول النصرانية منه الموقف الذي ذكره أعضاء الجمعيات القومية العربية.

وما ذُكر من موقف جمعيات القومية العربية من الآية - التي تنص على مشروعية الرق - يتفق مع فكر المستغربين الذين أُعجبوا بمبادئ الدول الغربية والشرقية من الدول الكافرة والملحدة، ويعتذرون عن رب العالمين في تشريعه للجهاد[1].

والرق من أحكام الشريعة التي لم تنسخ إنما هي باقية ما بقي سببه، فقولهم: (قد هيأ القرآن الوسائل العديدة التي تجعل الرق من أساسه آيلاً للزوال في الأزمنة التالية لنزول الآية) إنما هو قول من اتبع منهجهم أيضاً ممن سلك السبيل إلى تمييع أحكام الرق، وقال: (إن للإسلام فلسفة في معالجة الشؤون التي ليست أساساً من أسسه. ففي معالجة هذه الشؤون تقضي فلسفة الإسلام أن تعالج برفق وأناة حتى يصل الإسلام إلى هدفه بدون أن يحدث اضطراباً بين معتنقيه. وذكر من هذه الأمور: شرب الخمر، **والرق**، وتعدد الزوجات...)[2].

فإن كل هذه التقديرات لم تبن على أصل شرعي صحيح معتمد على كتاب الله وسنة رسوله، إنما قد يكون معتمداً على الأفعال التي صدرت من الدول النصرانية في هذا الأمر. وإلا فمن ظواهر النصوص الشرعية يتبين بطلان ما قرره أعضاء جمعيات القومية العربية، وقد بين علماء الأمة أن قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا**﴾[3]: يدل على ما يلي:

---

(١) انظر عن هذه القضية:

١. الإسلام والرق، محمد البهي، ١١.
٢. الإسلام في قفص الاتهام، شوقي أبو خليل، ١٤٢، دار الفكر، دمشق، الطبعة الرابعة، ١٤٠٠هـ.
٣. لا رق في القرآن، إبراهيم هاشم الفلالي، دار القلم، القاهرة، .
٤. آثار الحرب في الفقه الإسلامي، وهبة الزحيلي، ٤١٦، ٤٥٨، دار الفكر، الطبعة الثالثة، ١٤٠١هـ.

(٢) الإسلام في قفص الاتهام، شوقي أبو خليل، ١٤٩.

(٣) سورة محمد، رقم الآية (٤).

أولاً: الخيار في المن والفداء والقتل إلى الرسول ﷺ وإلى القائمين بعده بأمر الأمة، وإن لم يكن قتل الأسرى مذكوراً في هذه الآية، فإنه قد أذن فيه بآية أخرى، وذلك في قوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]. وقد كان رسول الله ﷺ يفعل ذلك كله فيمن صار أسيراً في يده من أهل الحرب، فيقتل بعضاً، ويفادي ببعض، ويمن على بعض..ولم يزل ذلك ثابتاً في سيرته تجاه أهل الحرب من لدن أذن الله له بحربهم، إلى أن قبضه إليه ﷺ(١).

ثانياً: من دلالة الآية أن المسلمين لم يختلفوا في جواز الملك بالرق، ومعلوم أن سببه أسر المسلمين الكفار في الجهاد، والله تبارك وتعالى في كتابه يعبر عن الملك بالرق بعبارة هي أبلغ العبارات، في توكيد ثبوت ملك الرقيق، وهو ملك اليمين لأن ما ملكته يمين الإنسان فهو مملوك له تماماً وتحت تصرفه، كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٣].. فالمراد بملك اليمين في هذه الآيات كلها الملك بالرق.. فلا ينكر الرق في الإسلام، إلا مكابر أو ملحد أو من لا يؤمن بكتاب الله، ولا بسنة رسوله ﷺ(٢).

كما ثبت الرق بسنة رسوله ﷺ فأغلب غزواته يحصل بها إما الفداء أو المن أو القتل أو الرق، ولهذا أورد الإمام البخاري في صحيحه أحاديث تدل على هذه المعاني الأربعة جميعها، وقال: (باب من ملك من العرب رقيقاً فوهب وباع وجامع وفدى وسبى الذرية)(٣).

---

(١) تفسير الطبري، ١٣/ ٤٢. وانظر:
١. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٦/ ٢٢٨.
٢. الدر المنثور في تفسير المأثور، السيوطي، ٧/ ٤٥٧.
(٢) أضواء البيان، الشنقيطي، ٧/ ٤١٩، ٤٢٠.
(٣) انظر: فتح الباري، ابن حجر، ٥/ ٢٠٢.

فمن النصوص النبوية التي تدل على الرق: الحديث الثابت عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّه عَنْه، قَالَ لا أَزَالُ أُحِبُّ بَنِي تَمِيمٍ بَعْدَ ثَلاثٍ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَقُولُهَا فِيهِمْ: [هُمْ أَشَدُّ أُمَّتِي عَلَى الدَّجَّالِ، وَكَانَتْ فِيهِمْ سَبِيَّةٌ عِنْدَ عَائِشَةَ، فَقَالَ: أَعْتِقِيهَا؛ فَإِنَّهَا مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَجَاءَتْ صَدَقَاتُهُمْ فَقَالَ: هَذِهِ صَدَقَاتُ قَوْمٍ أَوْ قَوْمِي][(١)].

وقد جاءَ وَفْدُ هَوَازِنَ مُسْلِمِينَ إلى رسول الله ﷺ فَسَأَلُوهُ أَنْ يَرُدَّ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَسَبْيَهُمْ. فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: [أَحَبُّ الْحَدِيثِ إِلَيَّ أَصْدَقُهُ، فَاخْتَارُوا إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ: إِمَّا السَّبْيَ، وَإِمَّا الْمَالَ...][(٢)].

وعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ؛ أَنَّ رَجُلاً أَعْتَقَ سِتَّةَ مَمْلُوكِينَ لَهُ عِنْدَ مَوْتِهِ، لَمْ يَكُنْ لَهُ مَالٌ غَيْرَهُمْ، فَدَعَا بِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَجَزَّأَهُمْ أَثْلاثاً ثُمَّ أَقْرَعَ بَيْنَهُمْ فَأَعْتَقَ اثْنَيْنِ، وَأَرَقَّ أَرْبَعَةً، وَقَالَ لَهُ قَوْلاً شَدِيدًا[(٣)].

يدل مجموع هذه النصوص النبوية - التي تناقلها الخلف عن السلف - على وقوع الاسترقاق في المحاربين، وبعد أن ذكر البغوي جملة من النصوص الدالة على مشروعية الرق قال: (فيه دليل على جواز الاستيثاق من الأسير الكافر بالرباط، والغل والقيد إذا خيف انفلاته، ولم يؤمن شره، ومن وقع في الأسر من نساء أهل الحرب وذراريهم، صاروا أرقاء، وكانوا من جملة الغنائم، فأما الرجال العاقلون البالغون منهم إذا وقعوا في الأسر، فالإمام فيهم بالخيار، إن شاء قتلهم من غير أن يمثل بهم، وإن شاء استرقهم، وإن شاء منّ عليهم، وإن شاء فاداهم بالمال، أو بأسرى المسلمين.. وذهب - إلى ما ذكرنا - من التخيير بين القتل، والمن، والفداء، والاسترقاق أكثر أهل العلم

---

(١) صحيح البخاري، كتاب المغازي، بَاب غَزْوَةُ عُيَيْنَةَ بْنِ حِصْنٍ، رقم الحديث (٤٠١٨).
(٢) المصدر نفسه، كتاب الوكالة، بَاب: إِذَا وَهَبَ شَيْئًا لِوَكِيلٍ أَوْ شَفِيعِ قَوْمٍ جَاز، رقم الحديث (٢١٤٢).
(٣) صحيح مسلم، كتاب الأيمان، بَاب مَنْ أَعْتَقَ شِرْكًا لَهُ فِي عَبْدٍ، رقم الحديث (٣١٥٤).

من أصحاب النبي ﷺ، وأهل العلم بعدهم[(١)].

وعلى هذا القول سار من جاء بعد البغوي حيث قالوا: وأما ما يجوز من النكاية في العدو فإن النكاية لا تخلو أن تكون في الأموال أو النفوس أو في الرقاب أعني الاستعباد والتملك، فأما النكاية التي هي الاستعباد فهي جائزة بطريق الإجماع في جميع أنواع المشركين..[(٢)].

وقالوا: والواجب الوقوف على ما دلت عليه الأدلة الكثيرة الصحيحة من التخيير في كل مشرك بين القتل والمن والفداء والاسترقاق، فمن ادعى تخصيص نوع منهم أو فرد من أفرادهم فهو مطالب بالدليل[(٣)].

وقال الشوكاني: قد ثبت في جنس أسارى الكفار جواز القتل والمن والفداء والاسترقاق، فمن ادعى أن بعض هذه الأمور تختص ببعض الكفار دون بعض لم يقبل منه ذلك إلا بدليل ناهض يخصص العمومات[(٤)].

هذا في الرد على تأويل أعضاء جمعيات القومية العربية للنص القرآني الدال على مشروعية واستمرارية الرق في الإسلام.

وأما عن قولهم: (لقد اتفقت دول العالم على إلغاء الرق ومن جملتها الدول الإسلامية..وما قبلته الدول الإسلامية من إلغاء الرق يعد سائغاً، نافذاً)[(٥)].

---

(١) شرح السنة، البغوي، ١١/ ٧٧، ٧٩.

(٢) بداية المجتهد ونهاية المقتصد، ابن رشد، ١/ ٤٦٨، المكتبة العصرية، مصر، ١٩٧٥م.

(٣) الروضة الندية شرح الدرر البهية، صديق بن حسن، ٢/ ٣٤٥، ٣٤٦، دار الندوة الجديدة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.

(٤) نيل الأوطار، الشوكاني، ٨/ ٦، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

(٥) المرأة في القرآن والسنة، محمد عزة دروزة، ١٢٠.

ففي هذا النص التجرؤ على خصائص مالك الملك سبحانه وتعالى، فهو وحده المشرع: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾، فعلى أي وجه أساس سلّم أعضاء جمعيات القومية العربية لدول العالم أن تلغي حكماً شرعياً ثابتاً بكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، وتناقله المسلمون جيلاً عن جيل، وعملوا بأحكامه؟.

وبهذا يظهر أن إلغاء الرق عموماً وتحريمه دولياً بضاعة مستوردة من أعداء الله اقتبسها العالم الإسلامي كما اقتبس غيرها من القوانين الوضعية[1]، وتبنى أعضاء جمعيات القومية العربية هذا الإلغاء كما سبق بيانه. وفي هذا العمل تقليد للكافرين، وقد حذر منه الرسول ﷺ جاء في حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: [لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْرًا شِبْرًا، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ. قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: فَمَنْ][2].

---

(١) أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية، علي العلياني، ٣٧٢.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، بَاب قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، رقم الحديث (٦٧٧٥).

المبحث الثاني: موقف الجمعيات القومية العربية من السنة النبوية

أجمعت الأمة على أن السنة النبوية هي المصدر الثاني للعقيدة والتشريع بعد القرآن الكريم.

ووضح ذلك الشافعي قائلاً: (ولا أعلم من الصحابة ولا من التابعين أحداً أخبر عن رسول الله ﷺ، إلا قبل خبره، وانتهى إليه، وأثبت ذلك سنة، وصنع ذلك الذين بعد التابعين، والذين لقيناهم، كلهم يثبت الأخبار ويجعلها سنة، يحمد من تبعها، ويعاب من خالفها، فمن فارق هذا المذهب كان عندنا مفارقَ سبيلِ أصحاب رسول الله ﷺ، وأهل العلم بعدهم إلى اليوم، وكان من الجهالة[1].

ورأى عبدالرحمن بن يزيد محرماً عليه ثيابه، فنهاه، فقال: ائتني بآية من كتاب الله تنزع ثيابي، فقرأ عليه: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوه﴾[2][3].

وهذا الفهم الذي فهمه سلف الأمة من الصحابة والتابعين هو ما تدل عليه آيات القرآن الكريم، والأحاديث الصحيحة، فمن الآيات التي تدل على حجية السنة قوله تعالى: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾[4]، فإن في هذا إخباراً من الله إلى خلقه في حق طاعة نبيه محمد ﷺ، يقول الله تعالى مبيناً لهم؛ من يطع منكم أيها الناس محمداً،

---

(١) الرسالة، الشافعي، ٤٠٢ - ٤٠٣.
(٢) سورة الحشر، رقم الآية (٧).
(٣) الموافقات، الشاطبي، ٤/ ٢٥.
(٤) سورة النساء، رقم الآية (٨٠).

فقد أطاعني بطاعته إياه، فاسمعوا قوله، وأطيعوا أمره، فإن ما يأمركم به من شيء فمن أمري يأمركم، وما نهاكم عنه من شيء فمن نهيي، فلا يقولن أحدكم: إنما محمد بشر مثلنا، يريد أن يتفضل علينا[1].

وبعد أن أفرد الله تعالى طاعة الرسول ﷺ، قرن طاعته بطاعة رسوله ﷺ، في قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾[2]. فأمر الله تعالى بطاعته، وطاعة رسوله ﷺ، وأعاد الفعل إعلاماً بأن طاعة الرسول ﷺ تجب استقلالاً من غَيْر عَرْض ما أَمرَ به على الكتاب، بل إذا أمر وجبت طاعته مطلقاً، سواء كان ما أمر به في الكتاب أم لم يكن فيه، فإنه أوتي الكتاب ومثله معه[3].

لقد كانت آيات القرآن الحكيم تربي أصحاب النبي ﷺ ورضي الله عنهم على طاعة الرسول ﷺ، وعدم مخالفته، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[4]. فبين الله أن المستأذنين هم المؤمنون بالله ورسوله، كما حكم أولاً بأن المؤمنين الكاملين الإيمان: هم الجامعون بين الإيمان بهما وبين الاستئذان[5].

وطاعته ﷺ، ليست محددة في حياته وإنما تلزم طاعته حتى بعد وفاته، قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾[6]، وقد أجمع العلماء على أن الرد إلى الله سبحانه هو الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول ﷺ،

---

(١) تفسير الطبري، ٥/ ١٧٧.
(٢) سورة النساء، رقم الآية (٥٩).
(٣) أعلام الموقعين، ابن القيم، ١/ ٤٨.
(٤) سورة النور، رقم الآية (٦٢).
(٥) فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٥٧، دار المعرفة، بيروت، لبنان،
(٦) سورة النساء، رقم الآية (٥٩).

هو الرد إليه نفسه في حياته، وإلى سنته بعد وفاته[١].

ومما يجب اعتقاده أن الرسول ﷺ قد بلغ الخلق ما أوحي إليه من صلاح العباد في معادهم ومعاشهم، وأنه ما كتم شيئاً من الوحي، ولا طواه عن الخلق، فإنه لم يبعث إلا لذلك، فلذلك كان رحمة للعالمين، ولم يكن متهماً فيه، كيف؟! والله تعالى يقول: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾[٢]، وعُلِمَ ذلك عنه علماً ضرورياً في سائر أحواله من حرصه على إصلاح الخلق، وشغفه بإرشادهم إلى صلاح معادهم ومعاشهم، ما ترك شيئاً مما يقربهم إلى الجنة، ويرضي الله، إلا دلهم عليه، وأمرهم به، وحثهم عليه، ولا شيئاً مما يقربهم إلى النار وإلى سخط الله، إلا حذرهم منه، ونهاهم، وذلك في العلم والعمل جميعاً[٣].

وبعد البيان الموجز عن مكانة السنة، ووجوب الرجوع إليها عند التحاكم، سأبين في هذا المبحث موقف جمعيات القومية من السنة النبوية بوصفها مصدراً من مصادر العقيدة، كما سبق أن بينت في المبحث السابق موقفهم من القرآن الكريم، والذي تلخص في البنود التالية:

أ. ابتداع الدساتير الوضعية بدلاً عن القرآن الكريم.

ب. تأويل نصوص القرآن الكريم حسب ما تمليه عليهم المبادئ القومية.

ج. تأويل نصوص القرآن الكريم حسب ما تمليه عليهم أنظمة وقوانين المجتمع الدولي العام.

---

(١) أعلام الموقعين، ابن القيم، ١/ ٤٩، ٥٠.

(٢) سورة التكوير، رقم الآية (٢٤).

(٣) العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم، ابن الوزير، ٣/ ٣٧٤، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ.

وفيما يلي تفصيل موقف الجمعيات القومية من السنة النبوية:

» الموقف الأول: تأويل نصوص السنة:

إن ما سلكته جمعيات القومية من منهج في تأويل بعض آيات القرآن الكريم، تعاملت به مع نصوص السنة النبوية الصحيحة، كما تعامل ساطع الحصري، - الذي يعتبر أحد منظري الفكري القومي - مع الحديث الذي رواه أنس بن مالك رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ بِقَوْمٍ يُلَقِّحُونَ فَقَالَ: [لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصلُحَ، قَالَ فَخَرَجَ شِيصًا، فَمَرَّ بِهِمْ فَقَالَ: مَا لِنَخْلِكُمْ؟ قَالُوا: قُلْتَ كَذَا وَكَذَا، قَالَ: أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ][1].

قال ساطع الحصري في هذا الحديث: (إن دراسة القومية العربية دراسة علمية مستقلة عن المعتقدات الدينية لا يعني إهمال شأن الدين، بل إنما يعني ترك الأمور السياسية خارج نطاق الأبحاث الدينية، وذلك وفقاً لحديث النبي العربي العظيم: [أنتم أعلم بأمور دنياكم].

ويتابع ساطع الحصري قائلاً: (أنا أعلم أن هناك مَنْ يدّعي أن الحديث الشريف المذكور كان قد قيل في حادثة (تأبير النخل) ولا يُجيز تعميمه على قضايا السياسة عامة، والسياسة القومية خاصةً، ولكني أتساءل: هذه القضايا، ألم تكن أشد اتصالاً بأمور الدنيا وأكثر إيغالاً في متاهاتها المعقدة من عملية تأبير النخل، آلاف وآلاف المرات؟)[2].

إنّ من المقرر في مبادئ جمعيات القومية العربية مبدأ استبعاد الدين من شؤون السياسة وأمور الدنيا، وهذا ما سبق بيانه عند الحديث عن أهداف تلك الجمعيات في

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، بَاب وُجُوبِ امْتِثَالِ مَا قَالَهُ شَرْعًا دُونَ مَا ذَكَرَهُ مِنْ مَعَايِشِ الدُّنْيَا عَلَى سَبِيلِ الرَّأْيِ، رقم الحديث (٤٣٥٨).وأخرجه ابن ماجة في السنن، كتاب الأحكام، بَاب تَلْقِيحِ النَّخْلِ، برقم (٢٤٦٢).

(٢) أبحاث مختارة في القومية العربية، ساطع الحصري، ٢٩٣. (بتصرف يسير).

الباب الأول، وساقت الجمعيات ذاتها حججاً لدعم ذاك المبدأ الجاهلي، وعلى أمثلة استدلالاتهم تأويلهم للحديث الصحيح سابق الذكر، مع أن الحديث المؤول ليس في ظاهره تحقيق مرادهم الجاهلي.

والحديث ليس فيه مراد الحصري وأتباعه، يبين هذا روايات الحديث التي سأسوقها قبل إيراد أقوال العلماء في ذلك، وأما عن الحديث المؤول فإن روايته في صحيح مسلم تبدأ بقول طلحة بن عبيدالله: مَرَرْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِقَوْمٍ عَلَى رُؤُوسِ النَّخْلِ، فَقَالَ: [مَا يَصْنَعُ هَؤُلَاءِ]؟ فَقَالُوا: يُلَقِّحُونَهُ، يَجْعَلُونَ الذَّكَرَ فِي الْأُنْثَى، فَيَلْقَحُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: [مَا أَظُنُّ يُغْنِي ذَلِكَ شَيْئًا]. قَالَ: فَأُخْبِرُوا بِذَلِكَ، فَتَرَكُوهُ، فَأُخْبِرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِذَلِكَ، فَقَالَ: [إِنْ كَانَ يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ، فَلْيَصْنَعُوهُ، فَإِنِّي إِنَّمَا ظَنَنْتُ ظَنًّا، فَلَا تُؤَاخِذُونِي بِالظَّنِّ، وَلَكِنْ إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنِ اللَّهِ شَيْئًا فَخُذُوا بِهِ، فَإِنِّي لَنْ أَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ][1].

وهذه رواية أخرى صحيحة للحديث روى رَافِعُ بْنُ خَدِيجٍ، قَالَ: (قَدِمَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، وَهُمْ يَأْبُرُونَ النَّخْلَ، يَقُولُونَ: يُلَقِّحُونَ النَّخْلَ، فَقَالَ: [مَا تَصْنَعُونَ]؟ قَالُوا: كُنَّا نَصْنَعُهُ، قَالَ: [لَعَلَّكُمْ لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا؛ كَانَ خَيْرًا]. فَتَرَكُوهُ فَنَفَضَتْ أَوْ فَنَقَصَتْ، قَالَ: فَذَكَرُوا ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: [إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دِينِكُمْ فَخُذُوا بِهِ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ رَأْيِي فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ].

هذا عن ألفاظ الحديث الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه، وبعد إيراد الروايات السابقة يمكن أن يُردّ على استدلال جمعيات القومية العربية العربية، بالأمور التالية:

أولاً: ذكر العلماء بعد النظر في ألفاظ الحديث أنها تدل على أن الرسول ﷺ لم ينههم عن التلقيح لكن هم غلطوا ووقع في ظنهم أنه نهاهم، كما غلط من غلط في ظنه

(١) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، بَاب وُجُوبِ امْتِثَالِ مَا قَالَهُ، رقم الحديث (٤٣٥٦).

أن (الخيط الأبيض) و(الخيط الأسود) هو الحبل الأبيض والأسود[١].

ثانياً: أن قول الرسول ﷺ [من رأيي] أي في أمر الدنيا ومعايشها لا على التشريع، فأما ما قاله باجتهاده ورآه شرعاً يجب العمل به. وليس تأبير النخل داخلاً في هذا النوع، بل هو من النوع المذكور قبله، مع أن لفظة (الرأي) إنما أتى بها عكرمة[٢] وعلى المعنى لقوله في آخر الحديث قال عكرمة: أو نحو هذا فلم يخبر بلفظ النبي محققاً.

فوصية الرسول ﷺ لأهل الزراعة لم تكن خبراً يقينياً وإنما كان ظناً كما بينته الروايات. ورأْيُه في أمور المعايش وظنه كغيره فلا يمتنع وقوع مثل هذا، ولا نقص في ذلك[٣].

ثالثاً: أن الحديث المستدل به يدلنا على أن من أفعال الرسول ﷺ الدنيوية ما يكون مبنياً على أساس الخبرة والتجربة، ولهذا فقد يُعْتقد في أمور الدنيا الشيء على وجهٍ ويظهر خلافه، أو يكون منه على شك أو ظن، بخلاف أمور الشرع[٤].

فأمور الدنيا قد يوفق إلى الصواب فيها، وقد يكون منه خلاف ذلك وهذا في الأمور المبنية على التجربة، كواقعة هذا الحديث، (فإن الرسول ﷺ لم يكن ممن عانى أمور الفلاحة، فخفيت عليه تلك الحالة، وتمسك بالقاعدة الكلية بأنه لا يؤثر ولا يغني إلا الله تعالى)[٥]، فقال لهم ﷺ: [مَا أَظُنُّ يُغْنِي ذَلِكَ شَيْئًا].

فما أخبر به الرسول ﷺ، في هذا المجال - وهي الأمور المبنية على التجربة - ولم يستثن، فهو حق، وأمّا في حادثة تأبير النخل فإن الرسول ﷺ لم يقر على ظنه في

---

(١) فتاوى ابن تيمية، ١٨/ ١٢. وانظر عن تأويل آية (وكلوا واشربوا) تفسير الطبري، ٢/ ١٦١

(٢) أحد رواة الحديث: عكرمة بن عمار العجلي البصري، من التابعين ويكنى بأبي عمار، توفي سنة ١٥٩هـ، انظر: تقريب التهذيب، ابن حجر، ٢/ ٣٠ رقم (٢٧٦).

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي، النووي، ١٥/ ١١٦. (بتصرف يسير)

(٤) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض، ٢/ ٨٧٠، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ١٩٧٧م.

(٥) اجتهاد الرسول ﷺ، نادية شريف العمري، ٨٦، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥هـ.

تأبير النخل، ولأجل هذا استدرك وأمرهم بفعل التلقيح إن كان ينفعهم[1].

رابعاً: لقد ورد عن الرسول ﷺ ما يتعلق بأحواله التي هي عادة جِبِلّيّة - لا من جهة أن ذلك مشروع على ذلك النحو من العمل[2] - وكان مصيباً فيها لأنه عالم بها ومن واقع تجربته وخبرته، ومثال ذلك: قولُ جَابرِ بْنِ عَبْدِاللَّهِ: (كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَرِّ الظَّهْرَانِ[3] نَجْنِي الْكَبَاثَ، فَقَالَ: [عَلَيْكُمْ بِالأَسْوَدِ مِنْهُ فَإِنَّهُ أَطْيَبُ]. فَقَالَ: (أَكُنْتَ تَرْعَى الْغَنَمَ)؟ قَالَ: [نَعَمْ وَهَلْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا رَعَاهَا][4].

لقد أوصى النبي ﷺ أن يأكل من ثمر (الكباث) وهو ثمر الأراك، والذي لا يعرف جودته إلا رعاة الغنم لأنه يكثر ترددهم تحت الأشجار لطلب المرعى منها والاستظلال تحتها[5]، ولذا سأل الصحابةُ الرسولَ ﷺ: (أَكُنْتَ تَرْعَى الْغَنَمَ)؟.

وقالت أُمُّ قَيْسٍ: دَخَلْتُ بِابْنٍ لِي عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَقَدْ أَعْلَقْتُ عَلَيْهِ مِنَ الْعُذْرَةِ، فَقَالَ: [عَلَى مَا تَدْغَرْنَ أَوْلادَكُنَّ بِهَذَا الْعِلاقِ! عَلَيْكُنَّ بِهَذَا الْعُودِ الْهِنْدِيِّ؛ فَإِنَّ فِيهِ سَبْعَةَ أَشْفِيَةٍ؛ مِنْهَا ذَاتُ الْجَنْبِ، يُسْعَطُ مِنَ الْعُذْرَةِ، وَيُلَدُّ مِنْ ذَاتِ الْجَنْبِ][6].

---

(١) الرقى على ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة، علي العلياني، ٤٩، دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ. (بتصرف يسير). وانظر:

١. الموافقات، الشاطبي، ٤/ ٦، ٧.

٢. الحديث والمحدثون، محمد أبوزهو، ١٢.

(٢) مقدمة ابن خلدون، ٢/ ٦٢٠ (بتصرف).

(٣) مر الظهران: هو وادٍ بين مكة وعسفان. انظر النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، ٣/ ١٦٧.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الأطعمة، بَاب الْكَبَاثِ وَهُوَ ثَمَرُ الأَرَاكِ، رقم الحديث (٥٠٣٣).

(٥) انظر: فتح الباري، ابن حجر، ٩/ ٤٨٩.

(٦) صحيح البخاري، كتاب الطب، بَاب اللَّدُودِ، رقم الحديث (٥٢٧٤). وأم قيس: كَانَتْ مِنَ الْمُهَاجِرَاتِ الأُوَلِ اللاتِي بَايَعْنَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهِيَ أُخْتُ عُكَاشَةَ بْنِ مِحْصَنٍ. انظر صحيح البخاري رقم الحديث (٥٢٧٩).

ومعلوم أن الطب من علوم التجربة، كذلك روي عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ أَنَّ رَجُلاً فِي زَمَانِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ جُرِحَ، فَاحْتَقَنَ الْجُرْحُ الدَّمَ وَأَنَّ الرَّجُلَ دَعَا رَجُلَيْنِ مِنْ بَنِي أَنْمَارٍ، فَنظَرَا إِلَيْهِ، فَزَعَمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهُمَا: أَيُّكُمَا أَطَبُّ؟ فَقَالا: أَوَ فِي الطِّبِّ خَيْرٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَزَعَمَ زَيْدٌ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: [أَنْزَلَ الدَّوَاءَ الَّذِي أَنْزَلَ الأَدْوَاءَ][1]. والطب المنقول عن النبي ﷺ غالبه راجع إلى التجربة[2].

وثبت أن النبي ﷺ كان يقوم بمداواة إبله مما تصاب به من الأمراض التي يعرفها أهل مكة، روى أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، قَالَ: ذَهَبْتُ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ الأَنْصَارِيِّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ وُلِدَ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي عَبَاءَةٍ يَهْنَأُ بَعِيرًا لَهُ..)[3]. ومعنى يهنأ: يطليه بالقطران ويعالجه به، والهناء القطران[4].

خامساً: ومع جميع ما ذكر حول ألفاظ الحديث، فليس هناك من مستند لدى جمعيات القومية العربية كي يشرعوا للأمة في جميع جوانبها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية بحجة الاستدلال بقوله: [أنتم أعلم بأمور دنياكم]، فإن واقع سيرته ﷺ تبين تقرير مبدأ: (وأن لا يعبد الله إلا بما شرع)، بدلالة قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[5].

وكون أمور السياسة عامةً والسياسة القومية خاصةً كما قال ساطع الحصري بأنها أشد اتصالاً بأمور الدنيا وأكثر إيغالاً في متاهاتها المعقدة من عملية تأبير النخل، فإذا

(١) موطأ مالك، كتاب الجامع، رقم الحديث (١٤٨٢). وقال عنه ابن حجر في الفتح: (حديث مرسل)١٠/ ١٤٠.

(٢) فتح الباري، ابن حجر، ١٠/ ١٤٠.

(٣) صحيح مسلم، كتب الآداب، بَاب اسْتِحْبَابِ تَحْنِيكِ الْمَوْلُودِ عِنْدَ وِلادَتِهِ، رقم الحديث (٣٩٩٥). وانظر: سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في تغيير الأسماء، رقم الحديث (٤٣٠٠).

(٤) تهذيب معالم السنن بحاشية مختصر سنن أبي داود، ابن القيم، ٧/ ٢٥٢، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

(٥) سورة النساء، رقم الآية (٦٥).

كان حالها كما ذكر يلزم أن تَستمد تشريعاتها من الكتاب والسنة، وأن تُحَكّم المبادئ التي تدعو إليها بوحي من الكتاب والسنة. قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[١]، فقطع سبحانه وتعالى السبيل إلى الاختيار بعد أمره وأمر رسوله ﷺ.

فليس لمؤمن أن يختار شيئاً بعد أمره، بل إذا أمر، فأمره حتم... فلا حكم لأحد معه، ولا قول لأحد معه، كما لا تشريع لأحد معه، وكل من سواه فإنما يجب الالتزام عليه بالقول الذي أمر بما أمر به، أو النهي الذي نهى عنه، فكان ﷺ مبلغاً محضاً ومخبراً لا منشئاً ومؤسساً، فمن أنشأ من دونه أقوالاً، وأسس قواعد بحسب فهمه وتأويله، لا يجوز للأمة اتباعُها، ولا التحاكم إليها حتى تعرض على ما جاء به الرسول ﷺ، فإن طابقته، ووافقته، وشهد لها بالصحة، قبلت حينئذ، وإن خالفته وجب ردها وطرحها، فإن لم يتبين فيها أحد الأمرين، جُعلت موقوفة، وكان أحسن أحوالها أنه يجوز الحكم والإفتاء بها أو تركها، أمّا أنه يجب ويتعين، فكلا[٢].

» الموقف الثاني: التقدم بين يدي رسول الله ﷺ:

في كثير من مباحث أعضاء جمعيات القومية، يلاحظ الاعتراض على بعض الأحاديث الثابتة عن رسول الله ﷺ بحجج سأذكر بعضاً منها فيما يأتي:

إن موضوع السنة ومكانتها في التشريع من المباحث التي تناولتها كثير من الدراسات العلمية المفيدة، وهي تعتبر المصدر الثاني من مصادر التشريع، وقد أمر

---

(١) سورة الأحزاب، رقم الآية (٣٦).

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم، ٣/ ٣٨. وانظر: مفهوم تجديد الدين، بسطامي محمد سعيد، ٢٤٩ - ٢٥٢. وأفعال الرسول ﷺ ودلالتها على الأحكام الشرعية، محمد سليمان الأشقر، ١/ ٢٤٤ - ٢٤٦.

ربنا بطاعة رسوله والرجوع إليه ﷺ وعدم التقدم بين يديه، فقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[1]. فلم يكتف سبحانه بحصول الإيمان بمجرد التحكيم، بل لا بد من استصحاب الرضا والتسليم ودفع الحرج والضيق والمنازعة[2].

وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾[3]، ففي هذه الآية أمر تعالى بطاعته، وطاعة رسوله، وأعاد الفعل إعلاماً بأن طاعة الرسول تجب استقلالاً من غير عرض ما أمر به على الكتاب، بل إذا أمر وجبت طاعته مطلقاً، سواء كان ما أمر به في الكتاب أو لم يكن فيه، فإنه أوتي الكتاب ومثله معه[4].

وقد فهم الصحابة رضي الله عنهم أن أمر الرسول ﷺ هو أمر من الله تعالى، قال عبدالله بن مسعود: (لَعَنَ اللَّهُ الْوَاشِمَاتِ وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ، وَالنَّامِصَاتِ، وَالْمُتَنَمِّصَاتِ، وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ، الْمُغَيِّرَاتِ خَلْقَ اللَّهِ. قَالَ: فَبَلَغَ ذَلِكَ امْرَأَةً مِنْ بَنِي أَسَدٍ يُقَالُ لَهَا: أُمُّ يَعْقُوبَ، وَكَانَتْ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ، فَأَتَتْهُ فَقَالَتْ: مَا حَدِيثٌ بَلَغَنِي عَنْكَ أَنَّكَ لَعَنْتَ الْوَاشِمَاتِ وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ وَالْمُتَنَمِّصَاتِ وَالْمُتَفَلِّجَاتِ[5] لِلْحُسْنِ الْمُغَيِّرَاتِ خَلْقَ اللَّهِ؟ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: وَمَا لِي لا أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ؟ ﷺ، وَهُوَ فِي كِتَابِ اللَّهِ،

---

(١) سورة النساء، رقم الآية (٦٥).

(٢) انظر: مختصر الصواعق المرسلة، ابن القيم، ٢/ ٣٥٢.

(٣) سورة النساء، رقم الآية (٥٩).

(٤) إعلام الموقعين، ابن القيم، ١/ ٤٨.

(٥) معنى: الْوَاشِمَاتِ، وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ: الوشم أن يغرز الجلد بإبرة، ثم يحشى بكحل أو نيل فيزرق أثره أو يخضر، والمستوشمة: هي التي يُفعل بها ذلك. وَالْمُتَنَمِّصَاتِ: النمص: نتف شعر الوجه. انظر: (النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، ٥/ ١٨٩و١١٩). وَالْمُتَفَلِّجَاتِ: الفلج: فرجة ما بين الثنايا والرباعيات، والمتفلجات أي النساء اللاتي يفعلن ذلك بأسنانهن رغبة في التحسين. انظر: (النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، ٣/ ٤٦٨).

فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: لَقَدْ قَرَأْتُ مَا بَيْنَ لَوْحَيِ الْمُصْحَفِ فَمَا وَجَدْتُهُ، فَقَالَ: لَئِنْ كُنْتِ قَرَأْتِيهِ لَقَدْ وَجَدْتِيهِ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾)[1].

ومن الأقوال التي أُثرت عن أعضاء جمعيات القومية العربية في الطعن بالسنة النبوية الصحيحة، والتقدّم بين يدي الرسول ﷺ، ما جرى نقله في المبحث السابق عن ساطع الحصري. ومن مثل ذلك ما تجلى في مواقفهم تجاه هذه الأحاديث:

١) قال رسول الله ﷺ: [مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ؛ فَلا يُؤْذِي جَارَهُ، وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا؛ فَإِنَّهُنَّ خُلِقْنَ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلاهُ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا][2].

٢) وقوله ﷺ : [يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ، وَأَكْثِرْنَ الاسْتِغْفَارَ، فَإِنِّي رَأَيْتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ، فَقَالَتِ امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ جَزْلَةٌ: وَمَا لَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ؟ قَالَ: تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ، وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ، وَمَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَغْلَبَ لِذِي لُبٍّ مِنْكُنَّ. قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا نُقْصَانُ الْعَقْلِ وَالدِّينِ؟ قَالَ: أَمَّا نُقْصَانُ الْعَقْلِ؛ فَشَهَادَةُ امْرَأَتَيْنِ تَعْدِلُ شَهَادَةَ رَجُلٍ، فَهَذَا نُقْصَانُ الْعَقْلِ، وَتَمْكُثُ اللَّيَالِي مَا تُصَلِّي، وَتُفْطِرُ فِي رَمَضَانَ، فَهَذَا نُقْصَانُ الدِّينِ][3].

فقد قال بعض أعضاء الجمعيات القومية: تساق بعض الأحاديث في معرض نقص عقل المرأة ودينها وضعف خَلْقها، وعلّقوا على تلك الأحاديث بقولهم: إن كتاب الله

(١) صحيح مسلم، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم فعل الواصلة والمستوصلة، رقم الحديث (٣٩٦٦).

(٢) صحيح البخاري، كتاب النكاح، رقم الحديث (٤٧٨٧).

(٣) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، بَاب بَيَانِ نُقْصَانِ الْإِيمَانِ بِنَقْصِ الطَّاعَاتِ، رقم الحديث (١١٤).

وسنة رسوله ﷺ قرّرا أهلية المرأة لكل تكليف إيماني واجتماعي وتعبدي وأخلاقي كالرجل بدون أي تمييز، ورتبا عليها كل ما رتباه على الرجل، ونتيجةً لكل عمل تقوم به من ذلك تنال ثواباً أو عقاباً واحداً في الدنيا والآخرة بدون أي تمييز.

وبعد ما قرروه عن أهلية المرأة، توجهوا إلى الطعن في الحديث ودلالته بقولهم: إن مسؤولية ناقص العقل في الواجبات والجرائم لا يصح أن تكون مثل تام العقل؛ مع أن الشريعة قد أعطت المرأة من الحقوق، التي منها: أن عينت لها نصيباً في الإرث وأَمَرَ بأدائه لها.. وقررت لها الحق المطلق في التصرف في كل ما يدخل في يدها من مال مهما كان عظيم المقدار..وتدين وتهب وتقبل الهدية وتأخذ الوصية وتعتق وتكاتب وتؤجر وتستأجر..، **ولا يصح كل هذا إلا مع فرض الأهلية التامة للمرأة ومساواتها مع الرجل عقلاً وخلقاً وقابلية ومواهب وجبلية..**، ويتحمل التوقف إزاء ما قرره الله ورسوله من كل ما تقدم، وحتى لو صح فإنه يستثني من يطعن أزواجهن، وهن عادة الأكثرية الساحقة من النساء...

يأبى علينا إيماننا بحكمة الله ورسوله ﷺ؛ يأبى التسليم لتلك النصوص والتلقينات بصدورها عن رسول الله ﷺ بقصد وصف جميع النساء على اختلاف أوضاعهن بذلك.

ويأبى إيماننا التسليم بأن رسول الله قد قرر كونهن أكثر أهل النار واقعاً لأنهن يكفرن العشير، ويكثرن اللعن، وهو يعلم من دون ريب أن هذا لا يكون عادة إلا من أقلية من النساء[1].

---

(١) المرأة في القرآن والسنة، محمد عزة دروزة، ٤٦، ٤٧. وانظر:

١. تحرير المرأة، قاسم أمين، ١١، مكتبة الترقي، القاهرة، ١٣١٦هـ.

٢. المرأة في التمدن الحديث، محمد جميل بيهم، مطبعة السلام، بيروت، ١٣٤٥هـ.

وتعليقاً على الفقرة الثانية من الحديث وهو (نقصان الدين)، أبى التسليم بأن الله ورسوله يعتبران فطر الحائض وعدم صلاتها دليلاً على نقص دين النساء، مع أن ذلك بترخيص منهما..، وكل ما يمكن التسليم به إذا صح الحديث أن يكون قد قصد به الوعظ والتحذير[1].

أما موقفهم من الحديث الدال على نقصان عقل ودين المرأة، وموقفهم من الحديث الذي ينص على أن المرأة خلقت من ضلع أعوج، فقد قالوا: والحديث الذي يذكر أن المرأة خلقت من ضلع أعوج قد صدر على سبيل توصية الرجال بالنساء خيراً ورعايتهن والإغضاء عما قد يقع منهن من هنات، والأسلوب الذي جاء به متسق مع ما كان في الأذهان من مركز المرأة قبل الإسلام، والذي جاء الإسلام بتعديله، وليس من شأنه أن يساق على سبيل التعميم لكل النساء وإنما للقلة منهن فيما يتبادر لنا من روحه ونصه[2].

تبيّنُ المواقف السابقة من الأحاديث التقدمَ بين يدي الله ورسوله ﷺ والطعن في دلالات بعض أحاديث السنة النبوية، بناء على مقررات يقررونها. وقد أورد السلف أحاديث تحذر من التقدم بين يدي رسول الله ﷺ منها: قوله ﷺ: [لا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَتِهِ، يَأْتِيهِ أَمْرٌ مِمَّا أَمَرْتُ بِهِ، أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ، فَيَقُولُ: لا أَدْرِي، مَا وَجَدْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ اتَّبَعْنَاهُ][3].

---

(١) المرأة في القرآن والسنة، محمد عزة دروزة، ٤٩.

(٢) المصدر السابق، ٤٧.

(٣) سنن الترمذي، كتاب العلم، بَاب مَا نُهِيَ عَنْهُ أَنْ يُقَالَ عِنْدَ حَدِيثِ النَّبِيِّ ﷺ، رقم الحديث (٢٦٦٣). وقال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. انظر:

١. مسند الإمام أحمد، ٤/ ١٣٢ عن معد يكرب.
٢. سنن أبي داود، كتاب السنة، بَاب فِي لُزُومِ السُّنَّةِ، رقم الحديث (٣٩٨٩).
٣. المستدرك على الصحيحين، الحاكم، ١/ ١٠٨. وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

وقد يكون هذا الموقف من رفض أحاديث الرسول ﷺ - المتعلقة بأمر النساء وعدم التسليم لما ثبت فيها - متوافقاً مع المبدأ العام الذي ظهر في واقع المسلمين خلال نشأة جمعيات القومية العربية من تبني بعض المسلمين الدعوة إلى تحرير المرأة والدفاع عن حقوقها.

وقد وقفت جمعيات القومية العربية موقف المؤيد لهذه الدعوات من منطلق المساواة الإنسانية، ونبذ التقاليد[1]. ولتأكيد ذلك أبين تلك المواقف من الدعوات التي تنادي بتحرير المرأة.

إضافة إلى ما سبق ذكره من رد أحاديث الرسول ﷺ، فقد تحدث أعضاء الجمعيات القومية العربية عن الجهود التي بذلت إبان الحرب العالمية الأولى في مجال تحرير المرأة والثناء عليها، قائلين: من حسن الحظ أن هذا التطور الذي أصاب نساءنا خلال الحرب لم يقف عند حد الأزياء والمظاهر، بل تعداه إلى الجوهر..، لقد كانت هذه الجهود مخلصة في تحرير المرأة، راغبةً في رفع مستوى المسلمة إلى مستوى غيرها من المواطنات..، وكانت لا تفتر تثير الحماس في أعيان البلاد لإشراك السيدات في الأعمال الاجتماعية. وقد أصابت نجاحاً مرموقاً حينما حملتهم في بيروت على إنشاء **ناد للفتاة المسلمة**، وكان أول ناد من نوعه فقد تأسس عام ١٩١٤م. فإذا بفتياتنا اللواتي كن بالأمس على **عزلة تامة** عن الهيئة الاجتماعية، إذ بهن يبرزن نشيطات إلى الميدان فيعقدن الاجتماعات في النادي، ويحيين فيه الحفلات لسماع مشاهير الأدباء والعلماء[2].

---

(١) الحركات النسائية وصلتها بالاستعمار، دار الأنصار، القاهرة.

(٢) مجلة العربي، العدد ٢٢، الكويت، كاتب المقال: محمد جميل بيهم.

ومن مساهمات أعضاء جمعيات القومية العربية لهذا النادي النسائي أن تأسيس ذاك النادي كان في بيت بشارة الخوري[١][٢]. ويقول محمد جميل بيهم - أحد مؤسسي الجمعيات - عن جهد هذا النادي النسائي: وأنا لا نذكر تلك الحقبة إلا ونذكر معها النشاط والإقدام والمثابرة التي أظهرها العاملون في خدمة الإنسانية والعاملات، وفي تشجيع الحركة النسائية[٣].

وحينما وضعت الحرب أوزارها وخضعت بلاد الشام للاستعمار النصراني، خشي أعضاء جمعيات القومية العربية أن توأد الحركة الداعية إلى تحرير المرأة، وهذا أحدهم - محمد جميل بيهم - يقول عن واقع الحركة النسائية في نهايات الحرب: (لقد أفضى خفوت صوتُ أنصار المرأة مدةً من الزمن إلى سكون الحركة النسائية) وبعد هذا العرض قال عضو الجمعية: غير أني مع ذلك لم أجد مبرراً للسكوت عن بقاء المرأة في بلادنا عضواً أشل، فاستنجدت بقلمي الضعيف لتحبير المقالات المتواصلة، وبلساني القاصر لإلقاء الخطب؛ خصوصاً وأن ذلك الجمود الذي استحوذ علينا بعد الحرب لم يكن يتفق مع روح العصر؛ ولا يتلاءم مع المبادئ العالمية التي طورتها سنون الحرب..، وقد دعوت إلى إقامة مؤتمر النساء في بيروت، وقد أقيم المؤتمر سنة ١٩١٩م[٤].

كما تناولت مجلات الجمعيات القومية، أفكار قاسم أمين[٥] داعية تحرر المرأة من دينها، فمن ذلك، ما جاء في تقريظ إحدى المجلات على كتاب (تحرير المرأة):

---

(١) انظر الترجمة رقم (١٠).

(٢) الحركة النسائية اللبنانية، أميلي إبراهيم، ٢٨، دار الثقافة، بيروت، لبنان،

(٣) فتاة الشرق في حضارة الغرب، محمد جميل بيهم، ٤.

(٤) فتاة الشرق في حضارة الغرب، محمد جميل بيهم، ٥، ٨.

(٥) انظر ترجمة رقم (٥٧).

بأن غرض صاحب هذا الكتاب لا يمكن أن ينكره عليه عاقل عرف مكان أمته من الأمم، ووقف على حاجاتها وما يعيد إليها حياتها، ألا وهو تربية المرأة لتكون كما قال - قاسم أمين - إنساناً يعقل ويريد، وتعليمُها مقداراً من العلوم الدينية والعقلية والأدبية[(١)].

وبعد الثناء على غرض صاحب الكتاب، تعرضت المجلة بالرد على من أنقص من قيمة الكتاب فقالت: هل الرد على قاسم بك أمين، والتنديد بكتابه (تحرير المرأة) من الانتصار للدين أم من الانتصار للهوى وحكم الوجدان؟[(٢)].

انطلاقاً من هذا التأييد لكتاب قاسم أمين، يلاحظ أن مجلة المنار قد رحبت بكل الكتابات المُذَكِّرة بعمل الإسلام في مجال (تحرير المرأة) وسخر صاحبها مجلته للتعريف بها وتحليل معانيها ومؤازرة أصحابها لا سيما أن أهمها صدر عن أحد أصدقائه المقربين من الذين تتلمذوا على أستاذيه جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وهو قاسم أمين،.. فاندفع رشيد رضا إلى تأليف بعض الفصول تقريظاً بهذا الكتاب، وأشاد به إلى حد المبالغة في قوله: (وما رأيت في الأنام ما جعل الحكمة على طرف الثمام مثل الذي رأيت في هذا الكتاب)[(٣)].

وقد بارك محمد جميل بيهم واقع المرأة (الشرقية)، من جانب تطورها وتأثرها بدعوات تحرير المرأة، حيث يقول المؤسس: حقاً إن المرأة الشرقية لم تبق على ما كانت عليه في عهد المصلح قاسم أمين، ولكنها مع ذلك ورغم المظاهر الخارجية

---

(١) انظر: تحرير المرأة، قاسم أمين، ١٧.

(٢) مجلة المنار، عدد ٢٤، مجلد٢، تاريخ ١٩/ ٤/ ١٣١٧هـ. ص: ٣٦٩ - ٣٧٩. وعدد ١٨، مجلد٢، بتاريخ٧/ ٣/ ١٣١٧هـ.ص: ٢٨٢.

(٣) تفكير محمد رشيد رضا من خلال مجلة المنار، ١٨٩٨، ١٩٣٥م، محمد صالح المراكشي، ٣٤٤، الدار التونسية، تونس، ١٩٨٥م، الطبعة الأولى.

التي تدل على التحرر، لا تزال إلا من رحم ربك تنظر بعين الرجل[١].

كما أقامت مجلة الهلال - وهي من أشهر مجلات جمعيات القومية العربية - احتفالاً بالذكرى العشرين لوفاة الداعية لتحرير المرأة قاسم أمين[٢] الداعي إلى السفور ونبذ الفضيلة.

وقالت المجلة عن قاسم أمين: المصلح الكبير صاحب كتابي (المرأة الجديدة) و(تحرير المرأة)،.. ونقلت عن قاسم أمين في كتابه تحرير المرأة، قوله: يرى المطلع على ما أكتبه أني لست ممن يطمع في تحقيق آماله في وقت قريب لأن تحويل النفوس إلى وجهة الكمال في شؤونها مما لا يسهل تحقيقه، وإنما يظهر أثر العاملين فيه ببطء شديد في أثناء حركته الخفية، وكل تغيير يحدث في أمة من الأمم وتبدو ثمرته في أحوالها ليس بالأمر البسيط، وإنما هو مركب من ضروب من التغيير كثيرة تحصل بالتدرج في نفس كل واحد شيئاً فشيئاً..، وقد طرقتُ باباً من أبواب الإصلاح في أمتنا والتمست وجهاً من وجوهه في قسم من أفراد الأمة له الأثر الطيب في مجموعها[٣].

وأيدت مجلة (الهلال)، ما قدمه قاسم بن أحمد أمين في كتابيه، وجاء في معرض تقويمها للردود الواردة على قاسم: كانت كتابات الحجابيين وأنصار القديم أقوى باعث لقاسم أمين على التمسك برأيه والجرأة في إعلان ما ذهب إليه في كتابه الأول. فتناول أسانيد هؤلاء الخصوم وفحصها فحص قاض بارع خبير، فرآها في جانبه ومصلحته

---

(١) فتاة الشرق في حضارة الغرب، محمد جميل بيهم، ٤٣، ١٣٧١هـ.

(٢) مجلة الهلال، المجلد ٨، السنة ٣٦، بعنوان: الاحتفال بالذكرى العشرين لوفاة قاسم أمين، بتاريخ ١٣/ ١٢/ ١٣٤٦هـ الموافق أول يونيو سنة ١٩٢٨م، ص: ٩٤٦ - ٩٥١. انظر:

١. الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، محمد محمد حسين، ١/ ٢٩٣ وما بعد.
٢. قضية تحرير المرأة، محمد قطب، ٧.

(٣) انظر: تحرير المرأة، قاسم أمين.

أكثر مما هي في جانبهم ومصلحتهم، فكان كتاب المرأة الجديدة ختام الدفاع في القضية الخطيرة..، وقد أبى الذين ردوا على كتاب تحرير المرأة إلا أن يردوا على المرأة الجديدة، وجالت الأقلام في موضوع الحجاب وتعليم المرأة والطلاق وتعدد الزوجات، وهي المسائل التي خالف فيها قاسم بن أحمد أمين جماعة الجامدين والعاملين على منع المرأة من النهوض والتقدم باسم الدين[(١)].

إن جميع ما ذُكر من جهود أعضاء جمعيات القومية العربية في مجال الدعوة إلى تحرير المرأة، ونشر الكتب والكتابات في تأييدها، يرتبط بمواقفهم إزاء نصوص من الشرع تتحدث عن أحكام المرأة، واتخذ منها أعضاء الجمعيات موقف الرد أو التردد، أو التوقف والإعراض.

الرد على موقف الجمعيات القومية من الأحاديث:

أولاً: إن الأحاديث النبوية ثابتةٌ في كتب الصحاح، وليس لمسلم أن يعترض على حكم الرسول ﷺ بدليل قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[(٢)]، وهذا لا ينحصر في الأحاديث السابقة، بل في كل حديث ثبت عن رسول الله ﷺ، إذ الواجب التسليم لأمره، والحذر من مخالفة السنن التي سنها رسول الله ﷺ مما ليس له في القرآن ذكر[(٣)]. وعلينا الطعن في أفكارنا وإدراكاتنا وتصوراتنا إذا خالفت السنة الصحيحة.

ثانياً: قد يكون اتخاذ هذه المواقف من الأحاديث بعد أن فهم النص النبوي على أن فيه تقليلاً من شأن المرأة، وهذا خلاف ما يدل عليه النص النبوي، الذي جاء مبيناً

---

(١) مجلة الهلال، المجلد الثامن، السنة ٣٦، بعنوان: الاحتفال بالذكرى العشرين لوفاة قاسم أمين، ٩٤٧، ٩٤٨.

(٢) سورة الأحزاب، رقم الآية (٣٦).

(٣) معالم السنن، الخطابي، بهامش مختصر سنن أبي داود، ٧/ ٨.

حقيقة وصف طبيعة المرأة، وما يعتريها مما هو من خصائصها. قالت عائشة في ذكر حجها مع رسول الله ﷺ: (.. فَلَمَّا كُنَّا بِسَرِفَ حِضْتُ، فَدَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا أَبْكِي، قَالَ: مَا لَكِ؟ أَنُفِسْتِ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: [إِنَّ هَذَا أَمْرٌ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَى بَنَاتِ آدَمَ..][1].

فنقصان دينها - بترك الصلاة وقت الحيض - ليس عيباً فيها، إنما هو بيان عن العوارض الخَلْقية الطبيعية التي لا شأن للمرأة بها. وأن هذا النقص قد يقع ضرورة لا تدفع[2].

وأي اعتراض عليها يكون اعتراضاً على خلق الله تعالى: [إِنَّ هَذَا أَمْرٌ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَى بَنَاتِ آدَمَ..] كالحيض والنفاس اللذين يسقطان الصلاة ويؤخران الصوم. فليس في هذا ما يعيب المرأة. ولو كان ذلك عيباً لكان تأخير الصوم بحق الرجل المريض أو المسافر أمراً يعيبه هو كذلك[3].

وقد سألت امرأةٌ عائشةَ رضي الله عنها: مَا بَالُ الْحَائِضِ تَقْضِي الصَّوْمَ وَلا تَقْضِي الصَّلاةَ؟ فَقَالَتْ: أَحَرُورِيَّةٌ أَنْتِ؟ قُلْتُ: لَسْتُ بِحَرُورِيَّةٍ وَلَكِنِّي أَسْأَلُ، قَالَتْ: (كَانَ يُصِيبُنَا ذَلِكَ فَنُؤْمَرُ بِقَضَاءِ الصَّوْمِ وَلا نُؤْمَرُ بِقَضَاءِ الصَّلاةِ)[4]. فالذي أمرها بترك قضاء الصلاة هو الذي أخبر أن دينها ناقص.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الحيض، بَاب كَيْفَ كَانَ بَدْءُ الْحَيْضِ، رقم الحديث (٢٨٥). وسَرِف: بفتح أوّله، وكسر ثانيه، وآخره فاء، قال أبو عبيد: وهو موضع على ستّة أميال من مكّة، تزوّج به رسول الله ﷺ، ميمونة بنت الحارث. انظر: (معجم البلدان، ياقوت الحموي، حرف (السين). والنهاية في غريب الحديث والأثر ٢/ ٣٦٢).

(٢) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبدالبر، ٣/ ٣٢٦، المغرب، الأوقاف والشؤون الإسلامية.

(٣) المرأة المسلمة بين اجتهادات الفقهاء وممارسات المسلمين، مروان القسي، ١٥٠، ١٥١، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، الرباط، المغرب، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

(٤) صحيح مسلم، كتاب الحيض، بَاب وُجُوبِ قَضَاءِ الصَّوْمِ عَلَى الْحَائِضِ دُونَ الصَّلاةِ، رقم الحديث (٥٠٨).

وهذا النقص الذي يعتور المرأة وهو من طبيعة أنوثتها وخلقها، ويعتبر من مقتضيات رسالة الأمومة التي خلقت لها، ليس له أثر في تفضيل أحد النوعين على الآخر في مجال العمل الصالح والجزاء عليه، ولا في القرب من الله أو البعد عنه. فلكل جزاؤه، ولكل ثوابه على ما عمل: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾[١][٢].

ثالثاً: إن مبدأ التفضيل والتكريم يجب أن يكون فيما يتفق بين المُفَاضَل بينهما، فليس من العدل أن يطعن في نصوص السنة بناء على المفاضلة بين الرجل والمرأة، وهما مخلوقان يختلفان في الخصائص، كما قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى﴾، وقال: ﴿أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾[٣].

ولهذا يرجع اختلاف المرأة عن الرجل إلى عوامل ثلاثة:

١) إن خصائص الأنوثة ومواهبها كقانون الزوجية والأمومة وذكاء العاطفة ليست أسباباً للتكسب.

٢) إن حظها من العقل الذي لم تبلغ به مبلغ الرجال، فُصّل على قدر ما تفهم به نفسها وواجبها ومكان وظائفها في الحياة.

٣) ما يطرأ على قواها البدنية والنفسية والفكرية من ضعف بسبب عوارض الحيض والحمل والولادة[٤].

---

(١) سورة النساء، رقم الآية (١٢٤).

(٢) حقوق المرأة في الإسلام، محمد بن عبدالله عرفة، ٥٥، الطبعة الأولى، ١٣٩٨هـ.

(٣) سورة الزخرف، رقم الآية (١٨).

(٤) المرأة المسلمة في وجه التحديات، أنور الجندي، ١٦، دار الاعتصام، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ.

رابعاً: الأحاديث سابقة الذكر ما ذكر فيها انتقاص من المرأة، ولم تذكر ليقصد بها الوعظ والتحذير، كما يقول أعضاء جمعيات القومية العربية، إنما ذُكرت لدلالة سياق النص على الأمر والتوجيه بالاهتمام بالنساء، فقد بدأ النص بلفظ: [استوصوا بالنساء]، وختم: [استوصوا بالنساء].

وفهم هذا الأمر سلفُ الأمة حيث بوب البخاري لهذه الأحاديث وترجم لها وقال: (بَاب الْوَصَاةِ بِالنِّسَاءِ)، وقال: (بَاب الْمُدَارَاةِ مَعَ النِّسَاءِ، وَقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: إِنَّمَا الْمَرْأَةُ كَالضِّلَعِ). ففي هذه الأحاديث الندبُ إلى المداراة، لاستمالة النفوس وتأليف القلوب، وفيها توجيه إلى سياسة النساء بالعفو عنهن، والصبر على عوجهن، وأن من رام تقويمهن فإنه للانتفاع بهن، مع أنه لا غنى للإنسان عن امرأة يسكن إليها ويستعين بها على معاشه[1]. فيكون على ذلك المعنى من توجيه النبي ﷺ: اقبلوا وصيتي فيهن واعملوا بها وارفقوا بهن وأحسنوا عشرتهن[2].

خامساً: وأما كون المرأة ناقصة عقل، فقد بين الرسول ﷺ معنى هذا النقص بأن شهادة امرأتين بشهادة رجل واحد، وإذا بحثنا عن سبب جعل شهادة امرأتين بشهادة رجل، أدركنا أن ذلك يرجع إلى ما ركبه الله سبحانه وتعالى في طبيعة المرأة، فقد اقتضت حكمته البالغة أن تكون العاطفة في المرأة مرهفة، وأن يكون وجدانها أقوى مظاهر حياتها النفسية، وذلك حتى يمكنها أداء أهم وظيفة من وظائفها، وهي وظيفة الحضانة والأمومة على خير وجه..، وهذه صفة كمال في المرأة، وقد رغب الرسول ﷺ بنكاح الودود، وهي: المتوددة إلى زوجها[3]، فقد جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

---

(١) فتح الباري، ابن حجر، ٩/ ١٦٣.

(٢) المصدر السابق، ٦/ ٤٢٤.

(٣) حقوق المرأة المسلمة في الإسلام، محمد بن عبدالله عرفة، ٥١.

فَقَالَ: إِنِّي أَصَبْتُ امْرَأَةً ذَاتَ حَسَبٍ وَمَنْصِبٍ إِلَّا أَنَّهَا لا تَلِدُ أَفَأَتَزَوَّجُهَا؟ فَنَهَاهُ، ثُمَّ أَتَاهُ الثَّانِيَةَ فَنَهَاهُ، ثُمَّ أَتَاهُ الثَّالِثَةَ، فَنَهَاهُ فَقَالَ: [تَزَوَّجُوا الْوَلُودَ الْوَدُودَ فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمْ][1].

وقد أخبر ربنا العليم الحكيم عن أمر الشهادة للمرأة، فقال: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ﴾[2].

إن دلالة هذه الآية تبين أن التفاوت هنا في قضية (الشهادة) لا علاقة له بالإنسانية، ولا بالكرامة، ولا بالأهلية، فما دامت المرأة إنساناً كالرجل، كريمة كالرجل، ذات أهلية كاملة لتحمل الالتزامات المالية كالرجل، لم يكن اشتراط اثنتين مع رجل واحد إلا لأمر خارج عن كرامة المرأة واعتبارها واحترامها..، وقد قبلت الشريعة شهادة المرأة وحدها فيما لا يطلع عليه غيرها، فقد قرروا أن شهادتها وحدها تقبل في إثبات الولادة، وفي الثيوبة والبكارة، وفي العيوب الجنسية لدى المرأة[3].

وقد ورد عن عُقْبَةَ بن الْحَارِثِ أَنَّهُ تَزَوَّجَ أُمَّ يَحْيَى بِنْتَ أَبِي إِهَابٍ قَالَ: فَجَاءَتْ أَمَةٌ سَوْدَاءُ، فَقَالَتْ: قَدْ أَرْضَعْتُكُمَا. فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَأَعْرَضَ عَنِّي. قَالَ: فَتَنَحَّيْتُ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ، قَالَ: وَكَيْفَ وَقَدْ زَعَمَتْ أَنْ قَدْ أَرْضَعَتْكُمَا؟ فَنَهَاهُ عَنْهَا][4].

وقال السلف عن هذا الحديث: وَالْعَمَلُ عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ وَغَيْرِهِمْ، أَجَازُوا شَهَادَةَ الْمَرْأَةِ الْوَاحِدَةِ فِي الرَّضَاعِ. وقد فرق عثمان

---

(١) سنن النسائي، كتاب النكاح، باب كَرَاهِيَة تَزْوِيجِ الْعَقِيمِ، رقم الحديث (٣١٧٥).

(٢) سورة البقرة، رقم الآية (٢٨٢).

(٣) المرأة بين الفقه والقانون، مصطفى السباعي، ٣١، ٣٢، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة السادسة، ١٤٠٤هـ.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الشهادات، بَاب شَهَادَةِ الْإِمَاءِ وَالْعَبِيدِ، رقم الحديث (٢٤٦٥).

ابن عفان بين ناس تناكحوا بقول امرأة سوداء أنها أرضعتهم، وقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: (تَجُوزُ شَهَادَةُ امْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ فِي الرَّضَاعِ وَيُؤْخَذُ يَمِينُهَا)[١].

وهناك العوارض الطبيعية التي تعرض للمرأة مثل (الحمل والولادة والرضاعة..) وقد سبقت أن أشرت إليها سابقاً وهي ذات صلة باختلاف الطبيعة بين الجنسين..، ومن الطبيعي أن تشغل هذه الوظائف جانباً من قوى البنية[٢]، وتترك آثاراً في قوى المرأة العقلية والنفسية. وسمى الله الحيض أذى كما قال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾[٣].

سادساً): أما قوله ﷺ في الحديث أن: (النساء أكثر أهل النار) فقال فيه أحد مؤسسي الجمعيات بأنه (يأبى التسليم بأن رسول الله قد قرر كونهن أكثر أهل النار)[٤]. ففي هذا القول تقدم على قول رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، وقد فهم العلماء أن هذا الحديث فيه الإغلاظ في النصح بما يكون سبباً لإزالة الصفة التي تُعاب، حيث إن اللعن وكُفْر النعمة مما يظهر في أغلب النساء، وليس لأنهن ناقصات عقل ودين، وقد رتب كونهن أكثر أهل النار لظهور ذلك عليهن، ولذا حضهن بالدعوة إلى الصدقة[٥].

---

(١) انظر: «مصنف عبدالرزاق، كتاب الشهادات، ٨/ ٣٢٠». و «سنن الترمذي، كتاب الرضاع، رقم الحديث (١١٥١)». و «معالم السنن، الخطابي، ٥/ ٢٢٠».و «فتح الباري، ابن حجر، ٥/ ٣١٨». وسئل ابن تيمية: هل تقبل شهادة المرضعة؟ أم لا؟ فأجاب: (إن كان الشاهد ذا عدل قُبل قوله في ذلك، لكن في تحليفه نزاع، وقد روى عن ابن عباس: أنه يحلف). انظر: الفتاوى، ٣٥/ ٤١٢.

(٢) المرأة في القرآن، عباس محمود العقاد، ١٨، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٩٦٩م. وانظر عن آثار الحمل على عقلية المرأة:

١. الإنسان ذلك المجهول، الكسيس كاريل، ١٠٨، ترجمة شفيق سعيد، الطبعة الثالثة.

٢. الحجاب، أبو الأعلى المودودي، ٢٢٨ - ٢٣٤.

(٣) سورة البقرة، رقم الآية (٢٢٢).

(٤) المرأة في القرآن والسنة، محمد عزة دروزة، ٤٦، ٤٧.

(٥) فتح الباري، ١/ ٤٨٥ (بتصرف يسير).

كما في الحديث: [خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي أَضْحَى، أَوْ فِطْرٍ، إِلَى الْمُصَلَّى، فَمَرَّ عَلَى النِّسَاءِ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ فَإِنِّي أُرِيتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ. فَقُلْنَ: وَبِمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ][1].

ولو كانت الأحاديث السابقة تشير إلى نقصٍ في دين وعقل المرأة لبادرت عائشة رضي الله عنها، إلى الرد على رواة الأحاديث. والتي عرفت رضي الله عنها بمواقف مختلفة تنقد فيها بعض الصحابة، بناء على فهم منها، أو كان عندها فيه سنة بينة، أو زيادة علم متقنة[2]. فقد اعترضت حينما ذُكِرَ عِنْدَهَا مَا يَقْطَعُ الصَّلاةَ الْكَلْبُ وَالْحِمَارُ وَالْمَرْأَةُ. فَقَالَتْ: (شَبَّهْتُمُونَا بِالْحُمُرِ وَالْكِلابِ! وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يُصَلِّي وَإِنِّي عَلَى السَّرِيرِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقِبْلَةِ مُضْطَجِعَةً فَتَبْدُو لِيَ الْحَاجَةُ فَأَكْرَهُ أَنْ أَجْلِسَ فَأُوذِيَ النَّبِيَّ ﷺ فَأَنْسَلُّ مِنْ عِنْدِ رِجْلَيْهِ)[3].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الحيض، بَاب تَرْكِ الْحَائِضِ الصَّوْمَ، رقم الحديث (٢٩٣).
(٢) الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة، بدر الدين الزركشي، ٢٧، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٠هـ.
(٣) صحيح البخاري، كتاب الصلاة، بَاب مَنْ قَالَ لا يَقْطَعُ الصَّلاةَ شَيْءٌ، رقم الحديث (٤٨٤).

المبحث الثالث: موقف الجمعيات القومية العربية من الإجماع

المصدر الثالث من مصادر التشريع الإسلامي هو: الإجماع، وهو الأصل الثالث الذي يعتمد عليه في العلم والدين[١]. وما يهمنا في هذا المبحث هو الوقوف على الإجماع من حيث كونه حجة شرعية، ثابت بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وفي هذا المبحث سترد بعض مواقف جمعيات القومية العربية تجاه الإجماع.

من النصوص الدالة على حجية الإجماع قوله تعالى في هذه الآية: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾[٢]. ونص العلماء على أنها دليل من أدلة صحة الإجماع[٣].

فقد جمع الله بين مشاقة الرسول ﷺ وبين مخالفة سبيل المؤمنين في الوعيد، فلو كان اتباع غير سبيل المؤمنين مباحاً لما جمع بينه وبين المحظور، ومتابعة غير سبيلهم تقع بمخالفة أقوالهم أو أفعالهم[٤] واتباع منهجٍ غير منهجهم[٥].

(١) فتاوى شيخ الإسلام، ابن تيمية، ٣/ ١٥٧. وللتوسع في بحث الإجماع انظر كتب أصول الفقه، مثل:

١. الإحكام، الآمدي، ١/ ١٥٠.
٢. روضة الناظر، ابن قدامة.
٣. التمهيد في أصول الفقه، أبو الخطاب الكلوذاني الحنبلي.

(٢) سورة النساء، رقم الآية (١١٥).

(٣) جامع أحكام القرآن، القرطبي، ٥/ ٣٨٦.

(٤) الرسالة، الشافعي، ٤٧١.

(٥) تفسير الطبري، ٥/ ٢٧٧.

ومن النصوص أيضاً: قوله تعالى في وصف أمة محمد ﷺ، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[1]. وورد تفسير النبي ﷺ لهذه الآية في حديث أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: [يَجِيءُ نُوحٌ وَأُمَّتُهُ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ، فَيَقُولُ: لأُمَّتِهِ هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: لا، مَا جَاءَنَا مِنْ نَبِيٍّ، فَيَقُولُ لِنُوحٍ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ ﷺ وَأُمَّتُهُ، فَنَشْهَدُ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ وَهُوَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ)، وَالْوَسَطُ الْعَدْلُ[2].

قال شراح الحديث عن وصف الرسول ﷺ الأمةَ بأنها (وسط): إن مقتضى الأمر بلزوم الجماعة أنه يلزم المكلف متابعة ما أجمع عليه المجتهدون، وهم المراد بقول البخاري: (وهم أهل العلم). والآية التي ترجم بها، احتج بها أهل الأصول لكون الإجماع حجة لأنهم عدلوا بقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾، أي: عُدولاً، ومقتضى ذلك أنهم عُصموا من الخطأ فيما أجمعوا عليه قولاً وفعلاً[3].

وقد جعلهم الله شهداء، ولم يشهدوا بباطل لتزكية الله لهم، فإذا شهدوا أن الله أمر بشيء فقد أمر به، وإذا شهدوا أن الله نهى عن شيء فقد نهى عنه[4].

وأما دليل حجية الإجماع من السنة؛ فجميع النصوص التي تنص على لزوم الجماعة فيها دليل على حجية الإجماع، كقول الرسول ﷺ، [نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي، فَبَلَّغَهَا، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ، غَيْرِ فَقِيهٍ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ ثَلاثٌ

---

(١) سورة البقرة، رقم الآية (١٤٣).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، بَاب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: (إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ)، رقم الحديث (٣٠٩١).

(٣) فتح الباري، ابن حجر، ١٣/ ٣٢٩.

(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية، ١٩/ ١٧٧.

لا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ: إِخْلاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَالنُّصْحُ لأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ][1].

وكقول عمر حينما خطب الناس بالجابية[2]، فقال: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي قُمْتُ فِيكُمْ كَمَقَامِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِينَا، فَقَالَ: [أُوصِيكُمْ بِأَصْحَابِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ...] - إلى قوله - [..عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ، وَهُوَ مِنَ الاثْنَيْنِ أَبْعَدُ، مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الْجَنَّةِ فَلْيَلْزَمِ الْجَمَاعَةَ..][3].

وبدلالة هذه النصوص كان الإجماع مما هو متفق عليه بين عامة المسلمين في الجملة[4]. ولهذا لم يزل الصحابة والتابعون ومن بعدهم يستدلون بهذه النصوص على إثبات الإجماع[5]، ومن ذلك ما أورده البخاري في صحيحه في بَاب قَوْلِهِ تَعَالَى: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا): وَمَا أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِلُزُومِ الْجَمَاعَةِ؛ وَهُمْ أَهْلُ الْعِلْمِ[6].

---

(١) أخرجه ابن ماجة، المقدمة، رقم الحديث (٢٢٦). وانظر:

١. مسند الإمام أحمد، ٥/ ١٨٣.
٢. سنن الدارمي، المقدمة، رقم الحديث (٢٣٢).
٣. المستدرك، الحاكم، ١/ ٨٧، كتاب العلم، وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) الجابِيَة: بكسر الباء، وياء مخففة؛ وأصله في اللغة الحوض الذي يجبى فيه الماء للإبل، وهي قرية من أعمال دمشق ثم من عمل الجيدُور من ناحية الجولان قرب مرج الصفَّر في شمالي حوران. انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي، حرف الجيم).

(٣) أخرجه الترمذي، كتاب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة، رقم الحديث (٢١٦٥). وقال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. وانظر:

١. مسند الإمام أحمد، ١/ ٩٧، ٩٨.
٢. سنن ابن ماجة، كتاب الأحكام، رقم الحديث (٢٣٥٣).
٣. وأخرجه الحاكم في المستدرك، ١/ ١١٣، ١١٥، كتاب العلم. وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية، ١١/ ٣٤١.

(٥) انظر: المستصفى، الغزالي، ١/ ١٧٥ - ١٧٦.

(٦) صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب.

وعن خطبة عمر رضي الله عنه، قال الشافعي عن لزوم جماعة المسلمين، ويقول بقولهم: (ومن قال بما تقول به جماعة المسلمين فقد لزم جماعتهم، ومن خالف ما تقول به جماعة المسلمين فقد خالف جماعتهم التي أمر بلزومها)[1].

وبعد بيان حجية الإجماع من الكتاب والسنة، واتفاق العلماء على وجوبه، يمكننا الآن عرض ومناقشة القضايا التي خالف فيها أعضاء الجمعيات القومية الإجماع، وهي كما يلي:

١) قبول شهادة المرأة في الحدود والدماء.

٢) إنكار حد الرجم للزاني المحصن.

« المطلب الأول: قبول شهادة النساء في الحدود وغيرها:

قال محمد عزة دروزة: (إن الجمهور حصر حق الشهادة في الحدود بخاصة في الرجال، ولم نطلع في صدد ذلك على حديث نبوي وثيق)[2].

وقد عقد أعضاء الجمعيات القومية العربية مؤتمراً قومياً، لمناقشة ما يسمونه بحقوق المرأة، والحقيقة هي الاعتراض على أحكام الشريعة وإثارة الشبهات والمطاعن في دين الله لزعزعة ثقة النفوس به حتى يتقبل الناس تحكيم المبادئ العلمانية.

كما نادى أعضاء المؤتمر بمساواة شهادة المرأة بشهادة الرجل في الحدود والدماء. قالوا: لقد أتيح للمرأة المعاصرة أن تتعلم، كما يتعلم الرجل، وأن ترافق التطور في الحياة مرافقة تامة، فتحيط بصغائر الأمور وكبائرها، وهي إلى ذلك قد اعتمدت على

---

(١) الرسالة، الشافعي، ٤٧٥ - ٤٧٦.

(٢) المرأة في القرآن والسنة، محمد عزة دروزة، ١٢٨ - ١٢٩. وانظر: الدستور القرآني في شؤون الحياة، محمد عزة دروزة، ١٧٥.

نفسها، وقد عرفت مكانتها الخاصة، فهل بوسعها من بعد أن ترضى بأن تبقى ناقصة في نظر المحاكم، وليس لشيء إلا أنها خلقت أنثى[1].

لا مجال هنا لإيراد أقوال وخلافات الفقهاء في مسألة الشهادة، وإنما الغرض بيان موقف جمعيات القومية العربية من الإجماع ومناقشته في النقاط التالية:

إجماع العلماء على عدم قبول شهادة المرأة في الحدود والدماء:

ذكر علماء الحديث بعض أقوال السلف من الصحابة والتابعين تفيد عدم قبول شهادة المرأة في الحدود والدماء، فمن ذلك:

وورد أثر عن عمر رضي الله عنه، قال فيه: (لا تجوز شهادة النساء في الطلاق والنكاح وفي الحدود والدماء)[2].

ورد عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قوله: (لا تجوز شهادة النساء في الحدود والدماء)[3].

وقال الحسن: (لا تجوز شهادة النساء في الحدود)[4].

ومثله نقل الزهري: (مضت السنة من رسول الله والخليفتين بعده أن لا تقبل شهادة النساء في الحدود)[5].

---

(١) فتاة الشرق في حضارة الغرب، محمد جميل بيهم، ٨٦.

(٢) مصنف عبدالرزاق، ٨/ ٣٢٠، كتاب الشهادات.

(٣) المصدر السابق، ٨/ ٣٢٠، كتاب الشهادات. انظر: نصب الراية، الزيلعي، ٤/ ٧٩، كتاب الشهادات.

(٤) مصنف ابن أبي شيبة، ١٠/ ٥٩، كتاب الحدود، باب في شهادة النساء. وانظر: مصنف عبدالرزاق، ٨/ ٣٢٩.

(٥) المصدر السابق، ١٠/ ٥٨، كتاب الحدود، باب في شهادة النساء في الحدود، رقم الحديث (٨٧٦٣). وانظر: الدراية في تخريج أحاديث الهداية، ابن حجر، ٢/ ١٧١. نصب الراية، الزيلعي، ٤/ ٧٩.

ومثل قول الحسن قال الشعبي: (لا تجوز شهادة امرأة في حد)[1].

ونقل عن الضحاك قوله: (لا تجوز شهادة النساء في حد ولا دم)[2].

فهذه الروايات عن الصحابة والتابعين، التي نقلها علماء الحديث في كتبهم توضح مدى معارضة منهج جمعيات القومية للإجماع، في قبول شهادة المرأة في الحدود والدماء.

واستناداً إلى الروايات السابقة فقد أجمع جمهور[3] العلماء على عدم قبول شهادة النساء في الحدود، وبعد أن نقل المروزي اختلاف الفقهاء في شهادة النساء، قال: (أجمعوا أنه لا تجوز شهادتهن في الحدود)[4].

كما نقل الإجماع ابن المنذر، بقوله: (وأجمعوا على أن شهادة النساء جائزة مع الرجال في الدَّين والأموال. وأجمعوا على أن شهادتهن لا تقبل في الحدود)[5].

ومما قاله الفقهاء في عدم قبول شهادة النساء في الحدود: إن المسلمين اتفقوا على أنه لا يثبت الزنى بأقل من أربعة عدول ذكور، واتفقوا على أنه تثبت جميع الحقوق ما

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة، ١٠/ ٥٩، كتاب الحدود، باب في شهادة النساء.

(٢) المصدر السابق، ١٠/ ٦٠، كتاب الحدود، باب في شهادة النساء.وانظر: نصب الراية، الزيلعي، ٤/ ٧٩.، كتاب الشهادات.

(٣) المغني، ابن قدامة، ٩/ ١٤٨.

(٤) اختلاف العلماء، المروزي، باب الشهادات، ٢٨٣، ٢٨٤، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ. ذكر المروزي وغيره قول عطاء بن أبي رباح: إن شهادتهن مقبولة في الحدود والقصاص وغيره، قياساً على الأموال. وقد بين العلماء خطأ هذا القول: بأن قياس شهادة الحدود والقصاص على شهادة الأموال لا يصلح؛ لخفة حكمها، وشدة الحاجة إلى إثباتها؛ لكثرة وقوعها والاحتياط في حفظها، ولهذا زيد في عدد شهود الزنا على شهود المال، وأيضاً فالآثار المروية عن الصحابة والتابعين في عدم قبول شهادتهن في الحدود والقصاص تفيد ذلك. (انظر:المغني، ابن قدامة، ٩/ ١٤٨).

(٥) الإجماع، ابن المنذر، ٧٨، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ.

عدا الزنى بشاهدين عدلين ذكرين..، واتفقوا على أنه تثبت الأموال بشاهد عدل ذكر وامرأتين لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾[1] واختلفوا في قبولهما في الحدود، فالذي عليه الجمهور أنه لا تقبل شهادة النساء في الحدود لا مع رجل ولا مفردات[2].

فالمفهوم من قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ الآية، أن شهادة المرأة موضع شبهة، ولهذا تحتاج إلى من يذكرها، وذلك لضعف الضبط والأداء عند المرأة فيما ليس من أهليتها[3].

وقال الفقهاء أيضاً: إن معنى (منكم) في قوله تعالى: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ﴾؛ فاستشهدوا عليهن بما أتين من الفاحشة أربعة رجال من رجالكم، يعني من المسلمين[4]. فتكون (منكم) هم الشهود الذكور، وهذا لا

---

(١) سورة البقرة، رقم الآية (٢٨٢).

(٢) بداية المجتهد ونهاية المقتصد، ابن رشد، ٢/ ٦٠١. وانظر عن هذه المسألة:

١. الهداية شرح بداية المبتدئ، المرغيناني، ٣/ ١١٦، ١٢٣، ١٢٣.
٢. المبسوط، السرخسي، ١٦/ ١١٢، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٤٠٦هـ.
٣. مغني المحتاج، محمد الشربيني، ٤/ ٤٤١، دار الفكر.
٤. المغني، ابن قدامة، ٩/ ١٤٧، مكتبة الرياض. الموافقات، الشاطبي، ٤/ ٤٦.

(٣) انظر: الفقه الإسلامي وأدلته، وهبة الزحيلي، ٦/ ٥٧٠، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ. انظر: عوارض الأهلية عند الأصوليين، حسين الجبوري، ٢٨٣، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

(٤) تفسير الطبري، ٣/ ٢٩٢. انظر:

١. تفسير ابن كثير، ٢/ ٢٠٤.
٢. تفسير فتح القدير، الشوكاني، ١/ ٤٣٨.
٣. أضواء البيان، الشنقيطي، ٦/ ١٥.
٤. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، ٢/ ٣٧.

خلاف فيه بين الأمة[1]، ونقل هذا الاتفاق الشنقيطي، الذي قال: (أجمع العلماء على أن بينة الزنى لا يقبل فيها أقل من أربعة عدول ذكور، فإن شهد ثلاثة عدول، لم تقبل شهادتهم وحُدُّوا، لأنهم قذفة كاذبون، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾[2]. ويقول جل وعلا: ﴿وَاللاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ﴾، وكلتا الآيتين المذكورتين صريحة في أن الشهود في الزنى، لا يجوز أن يكونوا أقل من أربعة[3].

يظهر من موقف الجمعيات القومية العربية المطالبة بقبول شهادة المرأة في الدماء والحدود، تأثير المبادئ الماسونية، والتي منها: المساواة؛ فمن مقتضيات المساواة، مساواة المرأة بالرجل في جميع مناحي الحياة[4].

وليس المراد هنا ذكر موقف جمعيات القومية العربية من قضايا المرأة إذ سبقت الإشارة إليه في مبحث موقف الجمعيات من السنة، وإنما رغبة للتأكيد على أن مواقفهم من قبول شهادة المرأة في جميع القضايا كان من آثار الفكر الماسوني، حيث جاءت هذه المطالبة ضمن مطالب أخرى كقول محمد عزة دروزة: (إن الشريعة قررت للمسلمة أسوة بالمسلم الأهلية التامة والحق الكامل في مختلف التصرفات المدنية. وإن كل هذا يتضمن إقرار مشاركة المسلمة للمسلم في كيان الدولة والمجتمع سواء بسواء. ويجعل لها بالتالي الحق (مثله) في النشاط السياسي والاجتماعي على مختلف أشكاله وأنواعه..، وكذلك الحياة النيابية وغير النيابية مما يتصل بتمثيل طبقات الشعب ووضع

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٥/ ٨٤. وانظر: رسالة ولاية المرأة في الفقه الإسلامي، فؤاد العبدالكريم، ٢٠١، رسالة علمية مقدمة لقسم الدراسات الإسلامية بكلية التربية بجامعة الملك سعود، (لم تطبع).

(٢) سورة النور، رقم الآية (٤).

(٣) أضواء البيان، الشنقيطي، ٦/ ١٤.

(٤) انظر: مذاهب فكرية معاصرة، محمد قطب، ١٢٣ وما بعدها من الصفحات.

النظم والقوانين التي تسن للجميع، والإشراف على الشؤون العامة التي تتصل بمصلحة الجميع، والجهود والحركات والدعوات والتنظيمات الوطنية والكفاحية والاجتماعية والإصلاحية المتنوعة.. مثل الرجل دون أي نقص. ينبغي أن يكون لها الحق في ممارسة كل نشاط وسعي يمارسه الرجل، والاستمتاع بالحقوق والمباحات والحريات المشروعة التي يتمتع بها الرجل في مجالات الحياة العامة والخاصة سواء بسواء)[(١)].

وعلل عدم مشاركة المرأة في القرون الإسلامية الأولى - في شؤون الدولة على نطاق واسع - بسبب من هذا إلى طبيعة الحياة الاجتماعية آنذاك[(٢)].

وعن هذه المبادئ، كتب منصور فهمي[(٣)] - أحد أعضاء الجمعيات القومية - أطروحة لنيل درجة الدكتوراه، في فرنسا، بعنوان: (حالة المرأة في التقاليد الإسلامية وتطوراتها) أشرف عليها المستشرق اليهودي (ليفي بريل) Leve - Bruhl، ومما جاء في مقدمة الأطروحة: إن هذه الرسالة تعطينا فرصة لإظهار المؤثرات السعيدة التي أثرت على تفكيرنا العلمي، فقد ولدت مسلماً، وقضيت شبابي في وسط إسلامي، ثم رحلت إلى باريس وحصّلت العلوم بإرشاد ورعاية العلامة (ليفي بريل) وقد نشرت هذه الأطروحة بالفرنسية في باريس عام ١٩١٣م، ونشأ حولها نزاع فكري[(٤)].

وجدير بالذكر أن محمد جميل بيهم - وهو أحد مؤسسي الجمعيات القومية العربية - يذكر أن رئيسة الاتحاد النسائي الدولي أثناء زيارتها بلاد الشام سنة (١٩٣٤م - ١٣٥٢هـ) قالت له: إني لأستغرب كيف يجوز لكم إطلاق اسم الديموقراطية أو الجمهورية على البلدان

---

(١) المرأة في القرآن والسنة، محمد عزة دروزة، ٤٤. وانظر: المرأة في التاريخ والشرائع، محمد جميل بيهم.
(٢) الدستور القرآني في شؤون الحياة، محمد عزة دروزة، ٨٢، إحياء الكتب العربية، ١٣٧٦هـ (بتصرف).
(٣) انظر الترجمة رقم (٦٧).
(٤) المعارك الأدبية في مصر، أنور الجندي، ٣٢٩، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٣م.

التي لا يتمتع نساؤها بحق الاقتراع.. إن ديموقراطيتكم ناقصة، وستظل جمهورياتكم مجرد تسمية إلى أن يتمتع الجنسان في الحقوق السياسية ويعملان معاً في سبيل الإنسانية.

وعقّب بيهم على كلامها قائلاً: القوانين المدنية المرعية هي من وضع الرجل، وقد دعم فيها سيادته خلال العصور المظلمة، أما الآن ونحن في عصر النور..فهل ثمة مسوغ ليبقى هذا الإجحاف قائماً.. وبخاصة أن دعائم الحكومات الدستورية على الحرية والمساواة والعدالة. فأين الحرية إذا ظللنا نحرم المرأة حق إبداء رأيها؟ وأين المساواة إذا ثابرنا على الاستئثار بامتيازات نخص أنفسنا بها دون المرأة[1].

» المطلب الثاني: إنكار حد الرجم للزاني المحصن:

والمثال الآخر - الذي يدل على مخالفة جمعيات القومية العربية للإجماع - هو إنكار حد الرجم للزاني المحصن، قال محمد عزة دروزة: إن الآيات الواردة في القرآن في حكم الزنا وهي قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾[2] تنص على أن حكم الزاني والزانية سواء كانا متزوجين أم غير متزوجين هو الجلد. وإن نسخ[3] حكم قرآني تلاوةً مع بقائه حكماً لا يمكن أن يفهم له حِكْمة، وبخاصة في

(١) فتاة الشرق في حضارة الغرب، محمد جميل بيهم، ٨٣.

(٢) سورة النور، رقم الآية (٢).

(٣) آية الرجم من الآيات المنسوخة تلاوة والباقية حكماً، وقد روت كتب السنة أحاديث نسخها، مثال: قول عمر: (وَقَدْ قَرَأْتُهَا «الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ إِذَا زَنَيَا فَارْجُمُوهُمَا الْبَتَّةَ»، رَجَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَرَجَمْنَا بَعْدَهُ) سنن ابن ماجة، كتاب الحدود، بَاب الرَّجْمِ، رقم الحديث (٢٥٤٣). وقال زَيْد بْنُ ثَابِتٍ: (أَشْهَدُ لَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ إِذَا زَنَيَا فَارْجُمُوهُمَا الْبَتَّةَ). سنن الدارمي، كتاب الحدود، بَاب فِي حَدِّ الْمُحْصَنِينَ بِالزِّنَا، رقم الحديث (٢٢٢٠). وعَنْ زِرٍّ قَالَ: قَالَ: لِي أُبَيُّ ابْنُ كَعْبٍ: (كَأَيِّنْ تَقْرَأُ سُورَةَ الْأَحْزَابِ أَوْ كَأَيِّنْ، تَعُدُّهَا؟ قَالَ: قُلْتُ لَهُ: «ثَلَاثًا وَسَبْعِينَ آيَةً»، فَقَالَ: قَطُّ! لَقَدْ رَأَيْتُهَا، وَإِنَّهَا لَتُعَادِلُ سُورَةَ الْبَقَرَةِ، وَلَقَدْ قَرَأْنَا فِيهَا: الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ إِذَا زَنَيَا فَارْجُمُوهُمَا الْبَتَّةَ نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ). الفتح الرباني، أحمد البنا، ١٨/ ٥٨، وصححه الحاكم، وأقره الذهبي. المستدرك، ٤/ ٣٥٩.

صدد تشريعي خطير مثل حد الرجم لأنه إزهاق نفس[1].

الرد على إنكار حكم الرجم للزاني المحصن:

إن إنكارهم مخالفٌ لإجماع المسلمين، والإجماع منعقد على أن الزاني المحصن حُكْمُه الرجم، ذكر ذلك عدد من علماء الأمة من أهل السنة والجماعة، وأما أهل البدع فأكثرهم ينكر الرجم ويدفعه، ولا يقول به في شيء من الزناة ثيباً ولا غير ثيب[2].

كما ثبت حد رجم المحصن نصاً في السنة النبوية، وهي من مصادر التشريع، وقد قرر علماء الأصول أنّ من أقسام منزلة السنة من القرآن زيادة السنة على ما في الكتاب من أحكام[3].

ومن هذه النصوص قول الرسول ﷺ: [لا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلّا بِإِحْدَى ثَلاثٍ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالْمَارِقُ مِنَ الدِّينِ التَّارِكُ لِلْجَمَاعَةِ][4].

ومنها أيضاً: حديث عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، قَالَ كَانَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ إِذَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُرِبَ لِذَلِكَ، وَتَرَبَّدَ لَهُ وَجْهُهُ، قَالَ: فَأُنْزِلَ عَلَيْهِ ذَاتَ يَوْمٍ فَلُقِيَ كَذَلِكَ، فَلَمَّا سُرِّيَ عَنْهُ

---

(١) الدستور القرآني في شؤون الحياة، محمد عزة دروزة، ١٩٣ - ١٩٧. وانظر: المرأة في القرآن والسنة، ١٣٣ - ١٣٥.

(٢) عن الإجماع، انظر:

١. موطأ الإمام مالك، كتاب الحدود، بَاب مَا جَاءَ فِي الرَّجْمِ.
٢. الأم، الشافعي، ٦/ ١٥٤.
٣. صحيح البخاري، كتاب الحدود، بَاب رَجْمِ الْمُحْصَنِ.
٤. التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبدالبر، ٩/ ٧٨ - ٧٩.
٥. معرفة السنن والآثار، البيهقي، ١٢/ ٢٧٦.

(٣) انظر: الموافقات في أصول الشريعة، الشاطبي، ٤/ ١٢، ٥٤.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الديات، رقم الحديث (٦٣٧٠).

قَالَ:[خُذُوا عَنِّي فَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً، الثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ، وَالْبِكْرُ بِالْبِكْرِ، الثَّيِّبُ جَلْدُ مِائَةٍ ثُمَّ رَجْمٌ بِالْحِجَارَةِ وَالْبِكْرُ جَلْدُ مِائَةٍ ثُمَّ نَفْيُ سَنَةٍ](١).

وروي في حد الرجم حديث أَبي هُرَيْرَةَ، قال: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَامَ رَجُلٌ، فَقَالَ: أَنْشُدُكَ اللَّهَ إِلَّا قَضَيْتَ بَيْنَنَا بِكِتَابِ اللَّهِ، فَقَامَ خَصْمُهُ، وَكَانَ أَفْقَهَ مِنْهُ، فَقَالَ: اقْضِ بَيْنَنَا بِكِتَابِ اللَّهِ، وَأْذَنْ لِي، قَالَ: قُلْ، قَالَ: إِنَّ ابْنِي كَانَ عَسِيفًا عَلَى هَذَا فَزَنَى بِامْرَأَتِهِ، فَافْتَدَيْتُ مِنْهُ بِمِائَةِ شَاةٍ وَخَادِمٍ، ثُمَّ سَأَلْتُ رِجَالاً مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، فَأَخْبَرُونِي أَنَّ عَلَى ابْنِي جَلْدَ مِائَةٍ، وَتَغْرِيبَ عَامٍ، وَعَلَى امْرَأَتِهِ الرَّجْمَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لأَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمَا بِكِتَابِ اللَّهِ جَلَّ ذِكْرُهُ، الْمِائَةُ شَاةٍ وَالْخَادِمُ رَدٌّ عَلَيْكَ، وَعَلَى ابْنِكَ جَلْدُ مِائَةٍ، وَتَغْرِيبُ عَامٍ، وَاغْدُ يَا أُنَيْسُ عَلَى امْرَأَةِ هَذَا، فَإِنِ اعْتَرَفَتْ، فَارْجُمْهَا، فَغَدَا عَلَيْهَا فَاعْتَرَفَتْ فَرَجَمَهَا](٢).

ففي هذه الرواية الصحيحة أخبر الرجل الرسول ﷺ، بأن بعض أهل العلم أفتوه بأن على المرأة المحصنة الرجم، فيفهم من هذا اللفظ: أن الرجم كان عندهم حكماً ثابتاً، ولكنهم لم يكونوا يعلمون كيفية وجوبه على التفصيل(٣).

كما روى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ مَاعِزَ بْنَ مَالِكٍ الأَسْلَمِيَّ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: [يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي قَدْ ظَلَمْتُ نَفْسِي، وَزَنَيْتُ، وَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ تُطَهِّرَنِي، فَرَدَّهُ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَاهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي قَدْ زَنَيْتُ، فَرَدَّهُ الثَّانِيَةَ، فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى قَوْمِهِ، فَقَالَ: أَتَعْلَمُونَ بِعَقْلِهِ بَأْسًا؟ تُنْكِرُونَ مِنْهُ شَيْئًا؟ فَقَالُوا: مَا نَعْلَمُهُ إِلَّا

(١) صحيح مسلم، كتاب الحدود، باب، رقم الحديث (٣٢٠٠). قال ابن عباس رضي الله عنهما: (لَهُنَّ سَبِيلاً: يَعْنِي الرَّجْمَ لِلثَّيِّبِ وَالْجَلْدَ لِلْبِكْرِ. ينظر: صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، تفسير سورة النساء.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الحدود، بَاب الاعْتِرَافِ بِالزِّنَا، رقم الحديث (٦٣٢٦). والعسيف: الأجير انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ٣/ ٢٣٧.

(٣) عارضة الأحوذي لشرح صحيح الترمذي، ابن العربي، ٦/ ٢٠٦، دار الكتاب العربي. وانظر: «شرح السنة، البغوي، ١٠/ ٢٧٦». «فتح الباري، ابن حجر، ١٢/ ١٤٥».

وَفِيَّ الْعَقْلِ، مِنْ صَالِحِينَا فِيمَا نُرَى. فَأَتَاهُ الثَّالِثَةَ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ أَيْضًا، فَسَأَلَ عَنْهُ فَأَخْبَرُوهُ أَنَّهُ لا بَأْسَ بِهِ، وَلا بِعَقْلِهِ، فَلَمَّا كَانَ الرَّابِعَةَ، حَفَرَ لَهُ حُفْرَةً، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَرُجِمَ، قَالَ فَجَاءَتِ الْغَامِدِيَّةُ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي قَدْ زَنَيْتُ فَطَهِّرْنِي، وَإِنَّهُ رَدَّهَا، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَ تَرُدُّنِي، لَعَلَّكَ أَنْ تَرُدَّنِي كَمَا رَدَدْتَ مَاعِزًا، فَوَاللَّهِ إِنِّي لَحُبْلَى، قَالَ: إِمَّا لا؛ فَاذْهَبِي حَتَّى تَلِدِي، فَلَمَّا وَلَدَتْ، أَتَتْهُ بِالصَّبِيِّ، فِي خِرْقَةٍ. قَالَتْ: هَذَا قَدْ وَلَدْتُهُ، قَالَ: اذْهَبِي فَأَرْضِعِيهِ، حَتَّى تَفْطِمِيهِ، فَلَمَّا فَطَمَتْهُ؛ أَتَتْهُ بِالصَّبِيِّ فِي يَدِهِ كِسْرَةُ خُبْزٍ، فَقَالَتْ: هَذَا يَا نَبِيَّ اللَّهِ قَدْ فَطَمْتُهُ، وَقَدْ أَكَلَ الطَّعَامَ فَدَفَعَ الصَّبِيَّ إِلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَحُفِرَ لَهَا إِلَى صَدْرِهَا، وَأَمَرَ النَّاسَ فَرَجَمُوهَا، فَيُقْبِلُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بِحَجَرٍ فَرَمَى رَأْسَهَا فَتَنَضَّحَ الدَّمُ عَلَى وَجْهِ خَالِدٍ، فَسَبَّهَا، فَسَمِعَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ سَبَّهُ إِيَّاهَا، فَقَالَ: مَهْلاً يَا خَالِدُ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ تَابَهَا صَاحِبُ مَكْسٍ لَغُفِرَ لَهُ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَصَلَّى عَلَيْهَا وَدُفِنَتْ][1].

وتناقل الصحابة هذا الحد، قَالَ عُمَرُ: (لَوْلا أَنْ يَقُولَ النَّاسُ زَادَ عُمَرُ فِي كِتَابِ اللَّهِ لَكَتَبْتُ آيَةَ الرَّجْمِ بِيَدِي، وَأَقَرَّ مَاعِزٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ بِالزِّنَا أَرْبَعًا فَأَمَرَ بِرَجْمِهِ..)[2].

وروى الإمام البخاري في صحيحه، أن عمر بن الخطاب قال: (لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ يَطُولَ بِالنَّاسِ زَمَانٌ حَتَّى يَقُولَ قَائِلٌ: لا نَجِدُ الرَّجْمَ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَيَضِلُّوا بِتَرْكِ فَرِيضَةٍ أَنْزَلَهَا اللَّهُ، أَلا وَإِنَّ الرَّجْمَ حَقٌّ عَلَى مَنْ زَنَى وَقَدْ أَحْصَنَ إِذَا قَامَتِ الْبَيِّنَةُ، أَوْ كَانَ الْحَبَلُ، أَوِ الاعْتِرَافُ)[3].

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الحدود، بَاب مَنِ اعْتَرَفَ عَلَى نَفْسِهِ بِالزِّنَى، رقم الحديث (٣٢٠٨).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الأحكام، بَاب الشَّهَادَةِ تَكُونُ عِنْدَ الْحَاكِمِ. وانظر: سنن أبي داود: كتاب الحدود، بَاب رَجْمِ مَاعِزِ بْنِ مَالِكٍ، رقم الحديث (٣٨٣٦).

(٣) صحيح البخاري، كتاب الحدود، بَاب الِاعْتِرَافِ بِالزِّنَا، رقم الحديث (٦٣٢٧). وانظر: موطأ الإمام مالك، كتاب الحدود، بَاب مَا جَاءَ فِي الرَّجْمِ، رقم الحديث (١٢٩٥).

وجمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أهل الفقه وأشراف الناس بعد حجته، جمعهم في المدينة، وكان مما قال وهو على المنبر أمام الجمع المبارك: (أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي قَائِلٌ لَكُمْ مَقَالَةً، قَدْ قُدِّرَ لِي أَنْ أَقُولَهَا، لا أَدْرِي لَعَلَّهَا بَيْنَ يَدَيْ أَجَلِي، فَمَنْ عَقَلَهَا وَوَعَاهَا فَلْيُحَدِّثْ بِهَا حَيْثُ انْتَهَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ، وَمَنْ خَشِيَ أَنْ لا يَعْقِلَهَا، فَلا أُحِلُّ لأَحَدٍ أَنْ يَكْذِبَ عَلَيَّ، إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْحَقِّ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ، فَكَانَ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ آيَةُ الرَّجْمِ، فَقَرَأْنَاهَا وَعَقَلْنَاهَا وَوَعَيْنَاهَا، رَجَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَرَجَمْنَا بَعْدَهُ، فَأَخْشَى إِنْ طَالَ بِالنَّاسِ زَمَانٌ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ: وَاللَّهِ مَا نَجِدُ آيَةَ الرَّجْمِ فِي كِتَابِ اللَّهِ، فَيَضِلُّوا بِتَرْكِ فَرِيضَةٍ أَنْزَلَهَا اللَّهُ، وَالرَّجْمُ فِي كِتَابِ اللَّهِ حَقٌّ عَلَى مَنْ زَنَى إِذَا أُحْصِنَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ إِذَا قَامَتِ الْبَيِّنَةُ، أَوْ كَانَ الْحَبَلُ، أَوِ الاعْتِرَافُ، ثُمَّ إِنَّا كُنَّا نَقْرَأُ فِيمَا نَقْرَأُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ أَنْ لا تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ، فَإِنَّهُ كُفْرٌ بِكُمْ أَنْ تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ، أَوْ إِنَّ كُفْرًا بِكُمْ أَنْ تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ)[1].

ولم يعترض أحد من الصحابة رضي الله عنهم على قول عمر واستدلاله بآية الرجم وقد أمر النبي ﷺ، بالأخذ عن الخلفاء الراشدين وعمر بن الخطاب منهم، ومن جمعهم عمر هم أهل الفضل والعلم والفقه ولم يذكر أحدهم مخالفاً في هذا الأمر.

وتناقل علماء الأمة هذا الحكم كقول مَالِك بن أنس رحمه الله: (إِنْ زَنَى وَقَدْ أُحْصِنَ رُجِمَ)[2].

وقال الشافعي رحمه الله: (دليل حد الثيب الزاني، فبكتاب الله، ثم سنة رسول الله ﷺ، ثم فعل عمر نأخذ في هذا كله)[3].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الحدود، باب رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت، رقم الحديث (٦٣٢٨).

(٢) موطأ الإمام مالك، كتاب الأقضية.

(٣) الأم، الشافعي، ٦/ ١٥٤، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ. وانظر:
- المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد بن حنبل في العقيدة، ٢/ ٤٢٤.

وقال ابن عبدالبر، بعد أن ذكر آية الرجم: (فهذا مما نُسخ ورفع خطُّه من المصحف، وحكمه باقٍ في الثيب من الزناة إلى يوم القيامة - إن شاء الله - عند أهل السنة)[1].

إن في النصوص السابقة من أحاديث الرسول والآثار الثابتة عن أصحاب النبي وأقوال علماء الأمة، ردٌّ على ما ذكره محمد عزة دروزة، في حق حد الرجم.

والمنهج الذي اتخذته جمعيات القومية العربية من إنكار حد الرجم للمحصن هو الذي حذر منه عمر بن الخطاب بقوله: (إن الرجم حق فلا تخدعن عنه، وإن آية ذلك أن رسول الله ﷺ، قد رجم، وإن أبا بكر قد رجم، وإنا قد رجمنا بعدهما، وسيكون قوم من هذه الأمة يكذبون بالرجم..)[2].

وقال أحمد البنا: المعنى أنه يظهر قوم من بعد عصر الصحابة يكذبون بهذه الأمور، وقد وقع ما أخبر به عمر رضي الله عنه، وبعضه باق إلى عصرنا هذا، نعوذ بالله من الزيغ والزلل، ونسأله لنا ولهم الهداية إلى الحق وخير العمل[3].

---

(١) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبدالبر، ٤/ ٢٧٧. وانظر: شرح السنة، البغوي، ١٠/ ٢٧٧.

(٢) المصدر السابق، ٢٣/ ٩٨. وانظر: فتح الباري، ابن حجر، ١٢/ ١٥٣.

(٣) الفتح الرباني، أحمد البنا، ١٦/ ٨٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

الفصل الثاني:

موقف الجمعيات القومية العربية من أصول العقيدة الإسلامية

ويحتوي على:

» المبحث الأول: موقف الجمعيات القومية العربية من التوحيد.

» المبحث الثاني: موقف الجمعيات القومية العربية من عقيدة الولاء والبراء.

» المبحث الثالث: موقف الجمعيات القومية العربية من نبوة الرسول ﷺ وسيرته.



المبحث الأول: موقف الجمعيات القومية العربية من التوحيد

وينقسم هذا المبحث إلى ثلاثة أقسام:

» القسم الأول: موقف الجمعيات من توحيد العبادة:

وقبل بيان ومناقشة موقف جمعيات القومية العربية من التوحيد، يلزم أن أبين معنى توحيد العبادة وأهميته بإيجاز، من أجل أن يتضح مقدار وعظم ما وقعت به تلك الجمعيات من مخالفات في الاعتقاد.

معنى توحيد العبادة: هو توحيد الله بأفعال العباد، ومعنى هذا أن يصرف العباد إنسهم وجنهم جميع عباداتهم الظاهرة والباطنة لله وحده.

قال ابن تيمية: (إن حقيقة التوحيد أن نعبد الله وحده فلا يُدعى إلا هو، ولا يُخشى إلا هو، ولا يُتّقى إلا هو، ولا يُتوكل إلا عليه، ولا يكون الدين إلا له، لا لأحد من الخلق)[1].

وكانت بعثة الرسل عليهم السلام إلى الأمم لتحقيق العبودية لله تعالى، والكفر بجميع المعبودات الباطلة؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[2].

ومما يتضمنه هذا التوحيد اعتقاد ألوهية الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[3].

---

(١) منهاج السنة النبوية، ابن تيمية، ٣/ ٤٩٠.
(٢) سورة النحل، رقم الآية (٣٦).
(٣) سورة آل عمران، رقم الآية (١٨).

ويتضمن توحيد العبادة إفراد الله بجميع الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، فالسجود والعبادة والتوكل والإنابة والتقوى والخشية والتحسب والتوبة والنذر والحلف والتسبيح والتكبير والتهليل والتحميد والاستغفار وحلق الرأس خضوعاً وتعبداً، والطواف بالبيت، والدعاء، كل ذلك محض حق الله، لا يصلح، ولا ينبغي لسواه من ملك مقرب، ولا نبي مرسل[(١)].

ويتضمن توحيد العبادة أن يعتقد العباد بأن الله لا يقبل منهم إلا ما جاء به النبي الخاتم ﷺ، قال الشيخ محمد بن عبدالوهاب: إن الله تبارك وتعالى أرسل محمداً ﷺ إلينا على حين فترة من الرسل، فهدى الله به إلى الدين الكامل، والشرع التام، وأعظم ذلك، وأكبره، وزبدته؛ هو إخلاص الدين لله بعبادته وحده لا شريك له، والنهي عن الشرك...، وجميع العبادة لا تصلح إلا له وحده لا شريك له، وهذا معنى قول: لا إله إلا الله، فإن المألوه هو المقصود المعتمد عليه[(٢)].

ويلزم من هذا أن الدين الذي يقبله الله من العباد هو دين الإسلام كما أخبر الله عن نفسه في كتابه حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[(٣)].

ويتضمن توحيد العبادة البراءة من الشرك والكفر وأهله، فلا يجتمع في عبدٍ توحيد وكفر، كما لا يجتمع معاداة الكفر وموالاة أهله، وقد قال تعالى عن إبراهيم ﷺ ومن آمن معه: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَاؤُا مِنكُمْ

---

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، ابن القيم، ١٨٠، ١٨١.
(٢) الدرر السنية، عبدالرحمن القاسم، ٢/ ٢٨، دار العربية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ.
(٣) سورة آل عمران، رقم الآية (٨٥).

وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ...﴾ إلخ الآية[1].

والعبادة التي دعا إليها الرسل، هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة[2]، فمفهوم العبادة أنها شاملة للحياة كلها كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[3]. فلم تكن العبادة محصورة في الشعائر التعبدية من صلاة وصيام وزكاة وحج، ثم يعيش إنسان فيما بين الشعيرة والشعيرة بلا عبادة، إنما الحياة كلها عبادة[4].

ومما تجب الإشارة إليه أنّ تعريف العبودية يلاحظ عليه شمولية الكلمة لجميع ما يصدر عن العبد، وأيضاً لجميع ما يبطنه ويخفيه، ومن أبرز ما تفرضه هذه الكلمة أن يبتعد عن العمل المضاد لكلمة التوحيد، والعبودية لله تعالى ألا وهو إشراك الخالق سبحانه وتعالى في العبادة، فقد قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[5]، وقال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾[6].

بعد بيان أهمية توحيد العبادة للبشرية، وما يتضمنه من أصول عقائدية، أذكر أبرز مواقف أعضاء الجمعيات القومية العربية، في توحيد العبادة.

---

(١) سورة الممتحنة، رقم الآية (٤).
(٢) العبودية، ابن تيمية، ٣٨، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٣٩٩هـ.
(٣) سورة الأنعام، رقم الآية (١٦٢ - ١٦٣).
(٤) واقعنا المعاصر، محمد قطب، ١٦٩.
(٥) سورة الإسراء، رقم الآية (٢٣).
(٦) سورة النساء، رقم الآية (٣٦).

أولاً: اعتبارهم القومية دين العصر واعتناقهم لها:

لقد بلغت أقصى درجات الانحراف في العقيدة عند جمعيات القومية العربية، أنها أنزلت (القومية) مقام الدين الحق، وارتضت لها أن تكون ديناً جديداً، من أجله يكافحون، وبأمره يأتمرون، وعليه يوالون ويعادون. والجمعيات القومية كلُّها تبنت هذا المبدأ يقول أحد مؤسسي تلك الجمعيات القومية: (...لقد تركنا مسألة الديانات والعبادات إلى الجوامع والكنائس)(١).

ويؤكد مصطفى الشهابي أن (الحركات الوطنية فيها - أي البلاد العربية - بدأت على أساس القومية، لا أساس الدين، واشترك في تلك الحركات المسلمون والنصارى من العرب على السواء)(٢).

وكان تقرير هذا الوثن (القومية) صادراً عن بعض المسلمين والنصارى العرب مما ضاعف مصيبة المسلمين، حيث أصبح العرب المسلمون في ذلك فريسة سهلة لدهاء الأقلية غير المسلمة في الشرق العربي التي يتوقف مصيرها على انتشار فكرة القومية العربية، وحلولها محل الدين الإسلامي، والتي تستطيع أن تصل عن طريقها إلى مركز الزعامة والقيادة والتوجيه في العالم العربي(٣). وقد سبق في الباب الأول بيان تأثير أصحاب المعتقدات الباطلة على جمعيات القومية العربية.

فمن مواقف الأعضاء التي تنص على هذا الشرك، قول أحدهم: (إن المستقبل للشعوب القومية المتمسكة بقوميتها، فلتكن الجنسية العربية ديانة للعرب جديدة، إن الجنسيات آلهة العصور الآتية، فلِمَ لا نسعى منذ الآن لخلق إله للأمة هو الجنسية

---

(١) الأهرام، ١٠٦٨٢ بتاريخ ٢٢/ ٤/ ١٩١٣م. نقلًا من كتاب العرب والترك، توفيق برو، ٢٦٥.

(٢) القومية العربية تاريخها وقوامها ومراميها، مصطفى الشهابي، ٣٤٥.

(٣) العرب والإسلام، أبو الحسن الندوي، ٢٠، مكتبة المنارة، مكة المكرمة، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ.

العربية، إله يضحي كل من عباده حياته في سبيل نصرته)[1].

إن الاعتقاد بأن الله هو الإله الحق قضيةٌ مُسلّم بها لا تحتاج إلى نقاش، وجاءت دعوة الرسل جميعاً إلى إبطال ألوهية غير الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[2] وهو حق من حقوق الإله سبحانه وتعالى، كما قال الرسول ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: [يَا مُعَاذُ تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ؟ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ؟ قَالَ: قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ! قَالَ:[فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا..][3].

وقد أخبر ربنا عز وجل عن إنكار الهدهد على أهل سبأ حينما أشركوا بعبادة الله، فقال تعالى: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾[4].

لقد فطر الله سبحانه جميع مخلوقاته على توحيده وتسبيحه:﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[5]. فهذا الطائر يدرك أنهم يسجدون للشمس

---

(١) كيف ينهض العرب؟ عمر فاخوري، ١٣٥، دار الآفاق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ.
وانظر: جريدة المفيد رقم ١٤١٩ بتاريخ ٤/ ١١/ ١٩١٣م (نقلاً من كتاب العرب والترك، ٤٨٠).

(٢) سورة الأنبياء، رقم الآية (٢٥).

(٣) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ مَنْ مَاتَ عَلَى التَّوْحِيدِ دَخَلَ الْجَنَّةَ، رقم الحديث (٤٤).

(٤) سورة النمل، رقم الآية (٢٤- ٢٥).

(٥) سورة الإسراء، (رقم الآية ٤٢- ٤٤).

من دون الله، ويدرك أن السجود لا يكون إلا لله الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض، وأنه هو رب العرش العظيم[1].

ومن معاني كلمة (الإله) بأنه هو الذي يُطاع فلا يُعصى هيبة له وإجلالاً ومحبة وخوفاً ورجاءً وتوكلاً عليه وسؤالاً منه ودعاءً له[2]. وبعداً عن هذه المعاني التي دلت عليها الآيات تجلى إصرار جمعيات القومية العربية على المبدأ القومي، حيث قالوا: (الجنسية العربية، إله يضحي كل من عباده حياته في سبيل نصرته)[3]، وأن السيادة والرقي لا يتحققان للأمة العربية إلا إذا أصبح المبدأ العربي ديانة لهم يغارون عليها كما يغار المسلمون على قرآن النبي الكريم، والمسيحيون الكاثوليك على إنجيل المسيح الرحيم، والبروتستانت على تعاليم [لوثر] الإصلاحية)[4]. وأن يجعلوا العربية إيماناً ديناً يضحي كل منهم في سبيلِهِ مصالِحَهُ وسعادَتَهُ، حتى حياته[5].

وهذا الوثن الجديد هو قديم في مضمونه، فقد أخبر الله على لسان قوم نوح بقوله: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾[6]، فليس بين شرك قوم نوح وشرك جمعيات القومية العربية اختلاف إلا في المسميات أما مضمون الأمر فهو واحد.

إن اسم (الإله) الحق لا يوصف به إلا الله وحده قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾[7]. وبالنظر فيما تدل عليه هذه الكلمة نجد أنها مشتملة على الكفر بالطاغوت،

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٥/ ٢٦٣٩.
(٢) قرة عيون الموحدين، عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ، ٢٥، دار الإفتاء، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ.
(٣) كيف ينهض العرب؟ عمر فاخوري، ١٣٥، وانظر: جريدة المفيد رقم ١٤١٩ بتاريخ ٤/ ١١/ ١٩١٣م.
(٤) المصدر السابق، ١٠٠.
(٥) المصدر السابق، ١٠١.
(٦) سورة نوح، رقم الآية (٢٣).
(٧) سورة محمد، رقم الآية (١٩).

والإيمان بالله، فإنها تنفي الإلهية عن غير الله وتوجبها لله[1].

كما اعترض كفار قريش على دعوة الرسول ﷺ حينما دعاهم إلى (لا إله إلا الله) قالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾[3].

إن هذا الشرك (اتخاذ القومية إلهاً) اعتنقه بعض أعضاء جمعيات القومية في الأمة، وجهروا بالدعوة إليه مما جعلهم يوالون ويعادون على أساسه، فَيُحب أحدهم أبناء وطنه وينصرهم على غيرهم حتى لو كان الغيرُ من المسلمين وأبناء وطنه من الكافرين..، ويرون أن رابطة الوطن أقوى وأعظم من رابطة الدين[4].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[5]. قال بعض الصحابة (أنداداً): أكفاء من الرجال تطيعونهم في معصية الله. والأنداد هي الآلهة التي جعلوها معه، وجعلوا لها مثل ما جعلوا له..، فنهاهم الله تعالى أن يشركوا به شيئاً، وأن يعبدوا غيره، أو يتخذوا له نداً وعدلاً في الطاعة، فقال: كما لا شريك لي في خلقكم وفي رزقكم الذي أرزقكم، وملكي إياكم، ونعمتي التي أنعمتها عليكم، فكذلك فأفردوا لي الطاعة، وأخلصوا لي العبادة، ولا تجعلوا لي شريكاً ونداً من خلقي[6]. سواء أكان شجراً أم حجراً أم نظاماً جاهلياً.

---

(١) الإفصاح، الوزير أبو المظفر، انظر: قرة عيون الموحدين، عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ، ٢٥.

(٢) سورة ص، رقم الآية (٥).

(٣) سورة الصافات، رقم الآية (٣٥ - ٣٦).

(٤) حقيقة الكفر بالطاغوت، علي بن نفيع العلياني، ٥٩، دار التربية والتراث، مكة، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.

(٥) سورة البقرة، رقم الآية (٢٢).

(٦) تفسير الطبري، ١/ ١٦٣.

وقد كان الرسول ﷺ في سيرته ودعوته للناس يدعوهم إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة، فقد قال رَبِيعَةُ بْنُ عَبَّادٍ، وَكَانَ جَاهِلِياً قَالَ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فِي سُوقِ ذِي الْمَجَازِ وَهُوَ يَقُولُ: [يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا لا إِلَهَ إِلّا اللَّهُ تُفْلِحُوا..][1].

وكان تبليغ النبي ﷺ لكلمة التوحيد ودعوة الناس لها إنما هو أمر من الله كما في حديث ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: [أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، إِلّا بِحَقِّ الإِسْلامِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ][2].

وقد بَعَثَ الرسولُ ﷺ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ إِلَى نَحْوِ أَهْلِ الْيَمَنِ، وقَالَ لَهُ: [إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى فَإِذَا عَرَفُوا ذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ...][3].

ثانياً: الدعوة إلى أن (القومية العربية) دينٌ:

لم يجهل أعضاء جمعيات القومية العربية قوة تأثير الدين في نفوس معتنقيه، ولهذا أرادوا أن يتمسك المجتمع الإسلامي بمبادئ ومعتقدات الجمعيات كتمسكهم بدينهم الحق.

ولهذا رأت جمعية رابطة الوطن العربي، بأنه يجب إعادة صياغة المبدأ المدون من قبل بشكل آخر: التعصب الديني ليس سوى تطور في المصلحة الشخصية، وإن التعصب القومي شعور عفوي فطري تقريباً كمثل الشعور العائلي الذي يأخذه بعين

---

(١) مسند الإمام أحمد، ٣/ ٤٩٢. والحاكم في المستدرك: ٢/ ٦١٢. وقال: حديث صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب (فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ)، رقم الحديث (٢٤).

(٣) المصدر السابق، كتاب التوحيد، بَاب مَا جَاءَ فِي دُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ أُمَّتَهُ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ، رقم الحديث (٦٨٢٤).

الاعتبار كل سياسي، والذي يوجب إبعاد كل قضية دينية[1].

لم ترد الجمعية أن يتمسك المسلم بدينه فأوردوا عبارة (تعصب)، ولكن يجب على المسلم أن يتمسك ويتعصب لقوميته. والذي يأتي بدافع من الشعور الفطري العفوي. ونبّه النبي ﷺ على وجوب تمسك المسلم بدينه عندما سئل كما جاء في حديث الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ، وجاء فيه:..فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: [أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَ اخْتِلافًا كَثِيرًا. وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ فَإِنَّهَا ضَلالَةٌ، فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَعَلَيْهِ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ][2].

ومن هذا الأساس أرادت جمعيات القومية العربية أن يدين الناس بدين آخر وهو (القومية العربية) وينطبق على هذا الدين الجديد ما ينطبق على الدين الإسلامي، من صدق الإيمان، والدعوة إليه، والموالاة من أجله.

ثالثاً: قَسمُ الانتساب إلى الجمعية:

أول ما يطلب ممن يريد الانتساب إلى الجمعية، القسم اليميني، والذي سماه محمد عزة دروزة - أحد مؤسسي الجمعيات -: (قسم يمين الإخلاص)[3].

وعبارته هي: (أقسم بالله، وبشرفي أنني أسعى إلى تأييد غاية [الجمعية] وهي الاستقلال العربي التام، والسعي إلى جعل الأمة العربية في مصاف الأمم الحية.

---

(١) يقظة الأمة العربية، ١٦٧، ١٦٨.

(٢) سنن الترمذي، بَاب مَا جَاءَ فِي الأَخْذِ بِالسُّنَّةِ وَاجْتِنَابِ الْبِدَعِ، رقم الحديث (٢٦٧٦)، وقال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. وانظر: سنن أبي داود، كتاب السنة، بَاب فِي لُزُومِ السُّنَّةِ، رقم الحديث (٣٩٩١).

(٣) نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ٤٨٩.

أقسم بالله وبشرفي أنني أحافظ على أسرار [الجمعية] وأُفضّل مصلحتها ومصلحة إخواني فيها على كل مصلحة سواها.

أقسم بالله وبشرفي أنني أُطيع قانون [الجمعية] وأوامرها.. والله على ما أقول شهيد)[١]. وهذا القسم فيه من مخالفات توحيد العبادة ما يوضحه التالي:

١) **القسم بالشرف**: وهو شرك بالله تعالى، وقد سَمِعَ ابْنُ عُمَرَ رَجُلاً يَحْلِفُ: لَا وَالْكَعْبَةِ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عُمَرَ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: [مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ][٢].

وجاءت النصوص الشرعية في النهي عن الحلف بغير الله تعالى، ومن هذه النصوص، قول النبي ﷺ: [أَلَا مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلا يَحْلِفْ إِلّا بِاللَّهِ. فَكَانَتْ قُرَيْشٌ تَحْلِفُ بِآبَائِهَا فَقَالَ: لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ][٣]. وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّهُ أَدْرَكَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ فِي رَكْبٍ، وَهُوَ يَحْلِفُ بِأَبِيهِ، فَنَادَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وقال: [أَلا إِنَّ اللَّهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ وَإِلَّا فَلْيَصْمُتْ][٤]. وقَالَ ﷺ أيضاً: [لا تَحْلِفُوا بِالطَّوَاغِي وَلا بِآبَائِكُمْ][٥].

---

(١) أوراق محب الدين الخطيب، حياته بقلمه تكشف لأول مرة، ١٣٩٩هـ. وانظر: جمعية العربية الفتاة السرية، سهيلة الريماوي، ملحق رقم (٢) ص ٢٩٨. والعراق في الوثائق البريطانية، ترجمة فؤاد قزانجي، ١١٧.

(٢) سنن أبي داود، كتاب الأيمان والنذور، بَاب فِي كَرَاهِيَةِ الْحَلْفِ بِالْآبَاءِ، رقم الحديث (٢٨٢٩). انظر: سنن الترمذي، كتاب النذور والأيمان، رقم الحديث (١٥٣٥).

(٣) صحيح البخاري، كتاب المناقب، بَاب أَيَّامِ الْجَاهِلِيَّةِ، رقم الحديث (٣٥٤٩).

(٤) صحيح البخاري، كتاب الأدب، بَاب مَنْ لَمْ يَرَ إِكْفَارَ مَنْ قَالَ ذَلِكَ مُتَأَوِّلا أَوْ جَاهِلاً، رقم الحديث (٥٦٤٣).

(٥) صحيح مسلم، كتاب الأيمان، باب من حلف باللات والعزى فليقل: لا إله إلا الله، رقم الحديث (٣١٠٨).

وقد جعل البخاري في صحيحه باباً بعنوان: (لا يُحْلَفُ بِاللات وَالْعُزَّى ولا بالطواغيت)[١]. ومثله صنع الترمذي: (بَاب مَا جَاءَ فِي كَرَاهِيَةِ الْحَلِفِ بِغَيْرِ اللَّهِ)[٢]. وفي سنن النسائي باب: (التَّشْدِيدُ فِي الْحَلِفِ بِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى)[٣]. وعقد النووي في ترجمة أبواب صحيح مسلم: (بَاب النَّهْيِ عَنِ الْحَلِفِ بِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى)[٤].

وهكذا تناقل أئمة السلف هذا الحكم والتحذير من الوقوع في الشرك. وذكروا الحكمة من النهي عن الحلف بغير الله تعالى، بأن الحلف بالشيء يقتضي تعظيمه، والعظمة في الحقيقة إنما هي لله وحده[٥]. وقد أجمع العلماء كذلك على أن الحلف بغير الله تعالى لا يجوز[٦].

٢) **تعظيم قوانين الجمعية:** ومن الأمور التي أراد مؤسسو الجمعيات من الناس أن يعتنقوها بموجب اتخاذهم (القومية) ديناً ما جاء في فقرات القسم، وهو أن يقول العضو: (أن أطيع قانون [الجمعية] وأوامرها).

وظاهر ما في هذا القول من مخالفةٍ لنصوص الكتاب والسنة التي تلزم أن الطاعة المطلقة لا تكون إلا لله وللرسول ﷺ، كما قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾[٧].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب رقم (٣٣).
(٢) سنن الترمذي، كتاب النذور والأيمان، ٤/ ٨٧.
(٣) سنن النسائي، كتاب الأيمان والنذور، ٧/ ٢.
(٤) صحيح مسلم، كتاب الأيمان، ٣/ ١٢٦٦.
(٥) فتح الباري، ابن حجر، ١١/ ٥٤٠.
(٦) انظر: إبطال التنديد باختصار شرح التوحيد، حمد بن علي بن عتيق، ١٢١، مكتبة التوفيق، الرياض، الطبعة الرابعة، ١٤٠٠هـ. وفتح الباري، ابن حجر، ١١/ ٥٤٠.
(٧) سورة النساء، رقم الآية (٥٩).

أمّا الطاعة للبشر فهي الطاعة بالمعروف كما قال النبي ﷺ: [إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ]. وهذا التوجيه النبوي كان بسبب الحادثة التي وقعت من بعض أمراء السرايا الذين أرسلهم النبي ﷺ للجهاد، وجاء فيها: (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ جَيْشًا وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ رَجُلاً فَأَوْقَدَ نَارًا؛ وَقَالَ: ادْخُلُوهَا، فَأَرَادُوا أَنْ يَدْخُلُوهَا، وَقَالَ آخَرُونَ: إِنَّمَا فَرَرْنَا مِنْهَا، فَذَكَرُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ لِلَّذِينَ أَرَادُوا أَنْ يَدْخُلُوهَا: [لَوْ دَخَلُوهَا لَمْ يَزَالُوا فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَقَالَ لِلآخَرِينَ: لا طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةٍ؛ إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ][(١)].

فمن فوائد هذا الحديث أن الأمر المطلق لا يعم جميع الأحوال، لأنه ﷺ أمرهم أن يطيعوا الأمير، فحملوا ذلك على عموم الأحوال حتى في حال الغضب وفي حال الأمر بالمعصية، فبين لهم ﷺ أن الأمر بطاعته - الأمير - مقصور على ما كان منه في غير معصية[(٢)].

ومن النصوص التي تدل على هذا المفهوم قول النَّبِيِّ ﷺ: [السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلا سَمْعَ وَلا طَاعَةَ][(٣)].

وقد يكون قسم الجمعية الذي سبق ذكره يدخل بدلالته تحت ما تضمنه قولُ النبي ﷺ: [..مَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ يَغْضَبُ لِعَصَبَةٍ أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصَبَةٍ أَوْ يَنْصُرُ عَصَبَةً فَقُتِلَ فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ][(٤)]. وفي معنى (رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ) قال أحمد بن حنبل: هو الأمر الأعمى

(١) صحيح البخاري، كتاب أخبار الآحاد، بَاب مَا جَاءَ فِي إِجَازَةِ خَبَرِ الْوَاحِدِ، رقم الحديث (٦٧١٦).
(٢) فتح الباري، ابن حجر، ٧/ ٦٥٧. وانظر: شرح السنة، البغوي، ١٠/ ٤٤.
(٣) صحيح البخاري، كتاب الأحكام، بَاب السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ لِلإِمَامِ مَا لَمْ تَكُنْ مَعْصِيَةً، رقم الحديث (٦٦١١).
(٤) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، بَاب وُجُوبِ مُلازَمَةِ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ عِنْدَ ظُهُورِ الْفِتَنِ وَفِي كُلِّ حَالٍ وَتَحْرِيمِ الْخُرُوجِ عَلَى الطَّاعَةِ وَمُفَارَقَةِ الْجَمَاعَةِ، رقم الحديث (٣٤٣٦).

كالعصبية لا يستبين ما وجهه، وقيل: هو في تخارج القوم، وقتل بعضهم بعضاً، وأصله من التعمية، وهو التلبيس[1].

فما ذكر يؤكد على أن جمعيات القومية العربية، تريد أن يدين الناس بالقومية ديناً آخر بكل ما تتضمنه، وقد أُثِرَ عن أعضائها ما يدل على هذا، يقول أحدهم: (العروبة نفسها دين عندنا نحن القوميين العرب المؤمنين العريقين من مسلمين ومسيحيين، لأنها وجدت قبل الإسلام وقبل المسيحية في هذه الحياة الدنيا مع دعوتها - أي العروبة - إلى أسمى ما في الأديان السماوية من أخلاق ومعاملات، وفضائل وحسنات)[2].

إن الدين المقبول عند الله تعالى هو الدين الذي ارتضاه سبحانه وتعالى لعباده، كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[3] وقال: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[4]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[5].

إن هذه الآية ليست خاصة باليهود والنصارى وهي أليق بهم وأحق أن يوصفوا بها، ولكن الظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين الله، وكان مخالفاً له، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق، فمن اختلف فيه (وكانوا شيعاً) أي: فرقاً كأهل الملل والنحل - وهي الأهواء والضلالات - فالله قد برّأ رسوله مما هم فيه.

---

(١) شرح السنة، البغوي، ١٠/ ٥٣.
(٢) قضية العرب، علي ناصر الدين، ١٣٨.
(٣) سورة المائدة، رقم الآية (٣).
(٤) سورة آل عمران، رقم الآية (٨٥).
(٥) سورة الأنعام، رقم الآية (١٥٩).

وهذه الآية في معنى قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾[1] ...الآية. وفي الحديث: [نحن معاشر الأنبياء أولاد علات، ديننا واحد][2]. فهذا هو الصراط المستقيم، وهو ما جاءت به الرسل، من عبادة الله وحده لا شريك له، والتمسك بشريعة الرسول المتأخر، وما خالف ذلك فضلالات وجهالات وآراء وأهواء، الرسل براء منها، كما قال تعالى: ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾[3].

واعتناق دين القومية العربية، هو شبيه بما رغّب به أبا طالب مِنْ قَبْلُ زعماءُ الجاهلية العربية الأولى، حينما حضرت أبا طالب الْوَفَاةُ دَخَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَعِنْدَهُ أَبُو جَهْلٍ، فَقَالَ: [أَيْ عَمِّ قُلْ: لا إِلَهَ إِلّا اللَّهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ]، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُاللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ! تَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِالْمُطَّلِبِ؟ فَلَمْ يَزَالا يُكَلِّمَانِهِ، حَتَّى قَالَ آخِرَ شَيْءٍ كَلَّمَهُمْ بِهِ: عَلَى مِلَّةِ عَبْدِالْمُطَّلِبِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْهُ]. فَنَزَلَتْ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾، وَنَزَلَتْ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[4].

وفي الدعوة إلى هذا الدين الجديد، يؤكد بعض أعضاء جمعيات القومية العربية، على تعظيم مبادئ العروبة التي كانت قبل الإسلام، والادعاء بأنها أسمى مما في الأديان السماوية من أخلاق ومعاملات، وفضائل وحسنات.

إن أولى مَنْ يصفُ ما كانت عليه أخلاقُ ومعاملات العرب قبل الإسلام؛ هم الذين عاشوا الجاهلية العربية بجميع مبادئها وخصائصها ومعاملاتها، كوصف جعفر بن أبي

---

(١) سورة الشورى، رقم الآية (١٣).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، بَاب فَضَائِلِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلام، رقم الحديث (٤٣٦٢).

(٣) تفسير ابن كثير، ٣/ ٣٧٣.

(٤) صحيح البخاري، كتاب المناقب، بَاب قِصَّةِ أَبِي طَالِبٍ، رقم الحديث (٣٥٩٥).

طالب، المتحدث الرسمي باسم المهاجرين في الحبشة، قال له النجاشي: مَا هَذَا الدِّينُ الَّذِي فَارَقْتُمْ فِيهِ قَوْمَكُمْ، وَلَمْ تَدْخُلُوا فِي دِينِي، وَلا فِي دِينِ أَحَدٍ مِنْ هَذِهِ الأُمَمِ؟ فَقَالَ لَهُ: (أَيُّهَا الْمَلِكُ كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولاً مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ؛ مِنَ الْحِجَارَةِ، وَالأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ، وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالَ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ..)[١].

وقد اعترف الصحابة رضي الله عنهم بنعمة الإسلام عليهم، فحينما أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ[٢]. قَسَمَ فِي النَّاسِ فِي الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ، وَلَمْ يُعْطِ الأَنْصَارَ شَيْئًا، فَكَأَنَّهُمْ وَجَدُوا إِذْ لَمْ يُصِبْهُمْ مَا أَصَابَ النَّاسَ فَخَطَبَهُمْ فَقَالَ: [يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَّالاً فَهَدَاكُمُ اللَّهُ بِي، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللَّهُ بِي، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللَّهُ بِي]، كُلَّمَا قَالَ شَيْئًا قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ؛ قَالَ: مَا يَمْنَعُكُمْ أَنْ تُجِيبُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ كُلَّمَا قَالَ شَيْئًا، قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ...][٣] - الحديث -.

ولقد ساوى أعضاءُ جمعيات القومية أبرزَ مبدأ (الوحدة العربية) اجتمعوا عليه - عند تأسيسه للجمعيات - بالإيمان بالله تعالى، فمما قالوا: (الوحدة العربية يجب

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل، ١/ ٢٠١ - ٢٠٢.

(٢) حنين: مكان قريب من مكة، وقيل: هو وادٍ قبل الطائف، وقيل: واد بجنب ذي المجاز، وقال الواقدي: بينه وبين مكة ثلاث ليالٍ، وقيل: بينه وبين مكة بضعة عشر ميلاً. ينظر: (معجم البلدان، ياقوت الحموي، حرف الجيم).

(٣) صحيح البخاري، كتاب المغازي، بَاب غَزْوَةِ الطَّائِفِ، رقم الحديث (٣٩٨٥).

أن تنزل من قلوب العرب أينما كانوا منزل وحدة الله من قلوب قوم مؤمنين)[١].

ولتعظيمهم لمبادئ القضية العربية جعلوها كالإيمان بالله، فقالوا: (القضية العربية لن تكون أبداً عند العربي المؤمن الحر العاقل، الشريف، الصالح، الخير، الأبي، المترفع، إلا قضية إيمان، إيمان بالوطن للوطن، كقضية الإيمان بالله لله ليس غير)[٢].

وهذا من انحرافات الجمعيات في الأمور المتعلقة بتوحيد العبادة لله تعالى، وقد ضرب الله لنا مثلاً بمن يساوي عبادة الله والإيمان به، بعبادة غيره من الأصنام، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[٣].

فهذا المثال الذي ضُرِب هو مثل عام يضرب، لا حالة خاصة ولا مناسبة حاضرة، ﴿ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ هذا المثل يضع قاعدة، ويقرر حقيقة: أن كل من تدعون من دون الله من آلهة مدعاة. من أصنام وأوثان، ومن أشخاص وقيم وأوضاع، تستنصرون بها من دون الله، وتستعينون بقوتها، وتطلبون منها النصر والجاه..كلهم ﴿لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾[٤].

رابعاً: اعتبار الدين إنتاجاً عربياً وفترةً تاريخيةً:

إن مما يلاحظ في صياغة مبادئ جمعيات القومية العربية التهجم الواضح على الدين الإسلامي، فمن خلال بحثي عن تنظيم الجمعيات لم أعثر على نصوص تقدح

---

(١) مجلة العربي، عدد يناير ١٩٥٩م.

(٢) مقدمة كتاب قضية العرب، علي ناصر الدين، ١٩، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٦٣م.

(٣) سورة الحج، رقم الآية (٧٣ - ٧٤).

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٤/ ٢٤٤٤.

أو تنتقص العقائد النصرانية أو الفرق المخالفة للدين الإسلامي بالقدر الذي وجد ضد الإسلام، وهذا يؤكد على أن مبادئ الجمعيات القومية قد قصد بها الغزو المباشر لهذا الدين.

ومن أمثلة الطعن بالدين أن أعضاء الجمعيات يعتبرون الإسلام وجهاً آخر للعروبة، قالوا: (الإسلام والعروبة وجهان لمادة واحدة. والإسلام نبع من العرب وعبر عن حقيقتهم في طور من أطوار تاريخهم...)[1]؛ ومن هذا المبدأ فَهُمْ يرون أن الاستهانة بالإسلام أسلوب ومدخل إلى الاستهانة بالعروبة، لأن الإسلام أعظم إنتاج عربي تفخر به الأمة العربية، فإذا هان الإنتاج الضخم فإن المنتج يهون أيضاً[2].

ولن يرضى مؤسسو جمعيات القومية عن حقيقة الأمة إلا إذا نُفِخَت في أفرادها روح القومية، يقول أحدهم في تعريف الأمة: (الأمة التي نعنيها هي الجماعات التي فيها روح القومية، وأما إذا طارت هذه الروح من الأشباح فإن الأمر يكون كما ذكرنا من الشتات وعدم الجامع. فضالّتنا التي ننشدها اليوم هي تلك الروح التي صارت بها الأمم أمماً، فمتى ظفرنا بها صرنا أمة بأقرب من لمح البصر. وما دامت تلك الروح نائية عنا فما نحن إلا أشباح، لا يشغل جموعنا حيزاً في هذا الوجود، ولا يأخذنا نصيبنا في نظر العالم السياسي)[3].

إن اعتبار الإسلام نَبَعَ من العرب بمعنى بَعْثِ النبي ﷺ فيهم وإنزال القرآن على لغتهم، وقام من آمن منهم بالدعوة إليه، فهذه قضية مسلم بها، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّا

---

(١) حزب البعث العربي، جلال السيد، ٣٤.
(٢) المصدر السابق، ٣٦.
(٣) جريدة المفيد رقم ١٣٧٠ بتاريخ ٨/ ٩/ ١٩١٣م (نقلًا من كتاب العرب والترك، توفيق برو، ٤٨١).

أنزلناه قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ﴾[3].

فليس للعرب فضل بدون هذا الدين، وأما أن يعتبر الإسلام تعبيراً عن حقيقة العرب لفترة تاريخية خصيصة بهم، فهذا غير صحيح، إذ إن العرب بأجمعهم لا يعتبرون معبرين عن الإسلام، حيث إن من العرب من كفر بالإسلام، وأعرض عن هديه وناصبه العداء، فنشبت حروب بين الرسول ﷺ وأتباعه من جهة وبين العرب الكافرين من جهة أخرى، كما قال أبو سفيان بن حرب - وكان كافراً - أثناء مقابلته لهرقل وسؤال هرقل: هَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَكَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ؟ قُلْتُ: الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالٌ يَنَالُ مِنَّا وَنَنَالُ مِنْهُ[4].

والإسلام قد بلّغ به نبيٌّ من العرب، ولكنه ليس خاصاً بالعرب، وإنما هو دين للعالمين جميعاً، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[5]. وثبت في الحديث أن رَسُول اللَّهِ ﷺ قَالَ: [أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي، كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ..][6]. وفي الحديث الآخر قال: [فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ.. - منها -: وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ][7].

---

(١) سورة يوسف، رقم الآية (٢).

(٢) سورة الشعراء، رقم الآية (١٩٣ - ١٩٥).

(٣) سورة الشورى، رقم الآية (٧).

(٤) صحيح البخاري، بَاب بَدْءِ الْوَحْي، رقم الحديث (٦).

(٥) سورة الأنبياء، رقم الآية (١٠٧).

(٦) صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم الحديث (٨١٠).

(٧) المصدر السابق، رقم الحديث (٨١٢).

فهذه النصوص تدل على أن الله أرسل نبيه محمداً ﷺ رحمة لجميع العالمين، مؤمنهم وكافرهم، فأما مؤمنهم فإن الله هداه به، وأدخله بالإيمان به، وبالعمل بما جاء من عند الله، الجنة. وأما كافرهم فإنه دفع به عنه عاجل البلاء الذي كان ينزل بالأمم المُكذِّبة رُسُلَها من قبله[1].

ومن استقراء التاريخ نجد أن العرب لم يكن لهم أمة ينتمون إليها إلا بعد اعتناقهم هذا الدين، كما قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾[2]. وليس كما تدعيه جمعيات القومية، بأن الأمة التي تريدها الجمعيات، هي الجماعات التي فيها روح القومية.

لما كانت روح القومية موجودة في الناس، كان الناس في ضلال كما قال الرسول ﷺ في الحديث السابق: [أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَّالاً فَهَدَاكُمُ اللَّهُ بِي، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللَّهُ بِي، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللَّهُ بِي..]. فهذه الدعوةُ التي تبنتها جمعيات القومية، دعوة ضلالٍ بعد هدى، ضلالٍ في العقيدة والعمل والأخلاق والاجتماع، وفوضى فكرية هائلة، وتفسخ أخلاقي واجتماعي لا يقل - في العواصم العربية الكبرى - عن التفسخ الخلقي والاجتماعي في الجاهلية الأولى، وقد يفوقه بالتنظيم والانتشار، وبأنه قد صار فناً وصناعة وتجارة[3].

خامساً: إقامة احتفالات بمناسبة مولد النبي ﷺ:

من المخالفات لتوحيد العبادة عند جمعيات القومية، أنها كانت تقيم احتفالات بمناسبة المولد النبوي، وكانت الجمعيات تستغل هذه الاحتفالات التي تدعي شرعيتها من أجل استقطاب بعض المسلمين والتأكيد على مشروعية مبادئ جمعيات القومية.

---

(١) تفسير الطبري، ١٠/ ١٠٦. وانظر: شرح صحيح مسلم، النووي، ٥/ ٥.

(٢) سورة آل عمران، رقم الآية (١٠٣).

(٣) العرب والإسلام، أبو الحسن الندوي، ٨٢. وسبق التعريف بالأمة في الفصل الأول.

وقد سبق بيان تبني جمعيات القومية الدعوةَ إلى الرابطة العثمانية، خلال الاجتماعات العامة وحفلات الخطابة والاحتفالات في شتى المناسبات، وبخاصة منها ذكرى المولد النبوي السنوية التي كان يقيمها المنتدى، كان يُدعى إليها أبناء الترك من رجالات السياسة والأدب والاجتماع(١).

ويتولى أعضاء جمعيات القومية العربية، الدعوة والحديث بهذه المناسبة عن مبادئ جمعياتهم، فمما قالوا في خطب ذكرى المولد: في مثل هذا اليوم يولد النبي العربي القرشي مقيم الأسس الديمقراطية(٢).

وذكرت صحيفة القبلة - وهي من الصحف القومية - أن من أدلة عمق التآلف والتآخي بين أعضاء الجمعيات القومية، ما جاد به الأعضاء النصارى واستقبالهم المولد النبوي بالقصائد التي لا يكاد يضارعهم فيها كثير من شعراء المسلمين(٣).

وسار عفلق في حزبه، على منهج الجمعيات التي سبقته، فقد ألقى عفلق محاضرة بذكرى الاحتفال بذكرى المولد، وكتب كراساً سماه (ذكرى الرسول العربي)(٤).

كما كان لأعضاء جمعيات القومية العربية، المشاركة الفعلية في حفلات أعياد الميلاد، فمن ذلك ما وصف أحد الحضور مراسيم الاحتفال بالمولد في عهد الملك فاروق(٥)، فذكر من الحضور بعض أعضاء جمعيات القومية العربية، من أمثال: جميل

---

(١) العرب والترك في العهد الدستوري العثماني، توفيق برو، ٢٦٤.

(٢) مختارات المفيد، العدد ٩١٩، ٢٩، شباط، ١٩١٢م، ص: ٤٦.

(٣) جريدة القبلة، العدد٥٢، السنة الأولى، بتاريخ ١٩/ ٤/ ١٣٣٥هـ، ص:٢.

(٤) أوكار الهزيمة، هاني الفكيكي، ٧٩. انظر عن أصل المحاضرة: في سبيل البعث، ميشيل عفلق، ٤٢، ٥٢.

(٥) الملك فاروق بن أحمد فؤاد بن إسماعيل الخديوي ملك مصر، ولد عام ١٣٣٨هـ (١٩٢٠م) بالقاهرة. تعلم في فرنسا وبريطانيا، تولى ملك مصر سنة ١٩٣٦م (١٣٥٤هـ). اتسم حكمه بالفساد، والاستهتار، والاستبداد، وبالصراع المتواصل مع حزب الوفد. أطاحت به ثورة ٢٣ يوليو=

مردم بك، ويوسف ياسين[1]، وتحسين العسكري[2][3].

وقد تناقلت المجلات التي تبنت مبادئ جمعيات القومية العربية الدعوة إلى الاحتفال بالمولد، فمن هذه المجلات مجلة المنار، والتي جاء فيها: هذا الاحتفال من المواسم الحادثة في الملة..، وقد تقبله المسلمون كافة بقبول حسن، وتنافس الملوك والأمراء وسائر الطبقات بالاحتفال به.

وصار هذا الموسم الشريف في مصر ينبوع المنكرات ومحط رحال الفواحش، واتسعت بذلك دائرة الموالد فصاروا يقيمون لكل شيخ مُعْتَقَد من الأموات، مولداً يحتفل به الأهلون..، وإنما نذكر رأينا في الاحتفال بالمولد وما ينبغي له وفيه، وهو: (يجب السعي في تطهير الاحتفال من الفواحش والمنكرات، إن قصص المولد النبوي التي سمعناها ورأيناها كلها مشتملة على ما لا يصح وخالية عن أهم ما ينبغي أن يكون فيها وهو التنويه بالإصلاح العظيم الذي حصل في العالم على يد صاحب المولد ﷺ، بانتداب طائفة تحسن الخطابة من مجتمعات الاحتفال، فإن الخطب أوقع في النفوس وأشد تأثيراً في القلوب[4].

ويلاحظ أن هذا النص ليس فيه إنكار على أصل الاحتفال بالمولد، وإنما الإنكار على الأفعال المستقبحة التي تفعل فيه، مما يوجب تهذيب الاحتفال بالمولد من

=١٩٥٢م (١٣٧١هـ) بقيادة جمال عبد الناصر، فتخلى عن العرش، ولكن رجال الانقلاب ما لبثوا أن أطاحوا بالنظام الملكي، وتم تحويل مصر إلى جمهورية. وبذلك انتهى حكم سلالة محمد علي لمصر. عاش منفياً في أوروبا حتى وفاته برومة سنة ١٣٨٤هـ (١٩٦٥م). انظر: الأعلام، الزركلي، ٥/ ١٢٩.

(١) انظر الترجمة رقم (٧٣).

(٢) انظر الترجمة رقم (١٠).

(٣) تاريخ الاحتفال بالمولد النبوي من عصر الإسلام الأول إلى عصر فاروق الأول، حسن السندوبي، ١٩٨، الطبعة الأولى، الاستقامة، القاهرة، ١٣٦٧هـ.

(٤) مجلة المنار، عدد ١٩، السنة الثانية، بتاريخ ١٤/ ٣/ ١٣١٧هـ، ص: ٢٨٩ - ٢٩١.

الأمور المذكورة[(١)].

ليس من شأن البحث أن يستطرد في بيان نشأة بدعة الاحتفال بالمولد النبوي، والتفصيل في تاريخه والوقوف على حال الأمة عند الوقوع في حمأة الجاهلية والابتداع، وجمع فتاوى علماء الأمة بتحريم هذه البدعة، كقول ابن تيمية:..من البدع اتخاذ مولد النبي ﷺ عيداً؛ مع اختلاف الناس في مولده، فإن هذا لم يفعله السلف، مع قيام المقتضي له وعدم المانع فيه لو كان خيراً. ولو كان هذا خيراً محضاً، أو راجحاً لكان السلف رضي الله عنهم أحق به منا، فإنهم كانوا أشد محبة لرسول الله ﷺ وتعظيماً له منا، وهم على الخير أحرص[(٢)].

كثيرة هي الدراسات[(٣)] والأبحاث التي تناولت هذه القضايا فأجادت وأفادت فيها، وإنما غايتي هنا بيان موقف جمعيات القومية العربية من هذه البدعة، ودعوة المسلمين لها، ومسايرة التخطيط الصليبي في استبدال الباطل بالحق وشغل الناس عن السنة بالبدعة، كما فعل المستعمر الصليبي عند احتلال مصر، فقد دعم نابليون إقامة هذا المولد بمبلغ ثلاثمائة فرنك فرنسي معاونة منه، وأمر بتزيين البلد كالعادة،

---

(١) وردت نصوص في مجلة المنار تستنكر الاحتفال بالمولد، وقد وردت في الأعداد المتأخرة، كالعدد، ٢٩ في صفحة ٦٦٤ - ٦٦٨.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، ابن تيمية، ٢/ ٦١٥.

(٣) انظر:

١. اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، ابن تيمية، ٢/ ٦١٥.
٢. القول الفصل في حكم الاحتفال بمولد خير الرسل، إسماعيل الأنصاري.
٣. السنن والمبتدعات المتعلقة بالأذكار والصلوات، محمد عبدالسلام خضر الشقيري، ١٣٨ - ١٣٩، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٠هـ.
٤. المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، أحمد المقريزي، ١/ ٤٩٠، دار صادر، بيروت.
٥. الرد القوي على الرفاعي والمجهول وابن علوي وبيان أخطائهم في المولد النبوي، حمود التويجري.

واجتمع الفرنسيون يوم المولد[1].

إن من ضرورات نقد جمعيات القومية العربية، أن يتساءل الإنسان: أليس من الواجب أن تقوم جمعيات القومية بالدعوة إلى الإيمان الصادق بنبوة النبي ﷺ وإحياء سنته، وترغيب الناس بالاقتداء بهداه، ونبذ البدع والاعتصام بحبل الله المتين، من خلال هذه الندوات والمحاضرات والأمسيات التي تقيمها الجمعيات؟ ولا يكون هذا في وقت محدد أو زمن معين، إنما في كل شؤون برامجها.

» القسم الثاني: موقف الجمعيات من توحيد الأديان:

تضامناً مع المبدأ العام، الذي ظهر في فترة ما قبل تأسيس الجمعيات القومية، بتقديس (الحرية)، فإن أعضاءها قد عمّموا هذا المبدأ على العقيدة الدينية، وأصبحت عبارات (حرية الاعتقاد، والتسامح الديني، وتوحيد الأديان) تنطلق من مقر الجمعيات، وتنادي بها مجلاتهم وتروج لها صحفهم اليومية داعية لهذا المبدأ بين المسلمين.

والقسم الأول من مبحث موقفهم من التوحيد، سيقتصر على مناقشة مواقف جمعيات القومية العربية تجاه ما أسموه بالتسامح الديني، ونبذ التعصب المبني على أصول دينية، كما زعموا وقالوا: يجب على العربي أن (يدع كل إنسان ومعتقده، فلست على أحد بمسيطر، والناس أحرار أن يدينوا بما يشاؤون، ويتعصبوا بما يريدون..)[2].

وقبل كل شيء لا بد من الإشارة إلى قضية منصوص عليها في كتاب الله، وهي؛ أن جميع الرسالات تدعو إلى عبادة الله كما قال جل جلاله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ

---

(١) عجائب الآثار، عبدالرحمن الجبرتي، ٢/ ٢٠١، دار الجيل، الطبعة الثانية، ١٩٧٨م. انظر: تاريخ الحركة القومية، عبدالرحمن الرافعي، ١/ ٢٥٤ - ٢٥٥.

(٢) جريدة المفيد برقم ١٣٧٩، وتاريخ ١٨/ ٩/ ١٩١٣م. مقال: مصطفى الغلاييني البيروتي (نقلاً من كتاب العرب والترك، توفيق برو، ٤٨١.

أُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾[١].

فكانت دعوة الرسل إلى التوحيد قبل أن يدعوا إلى شيء قبله، فهم وإن اختلفت شرائعهم في تحديد بعض العبادات والحلال والحرام لم يختلفوا في الأصل الذي هو إفراد الله سبحانه بتلك العبادات افترقت أو اتفقت[٢].

وأن الكتب التي أنزلت على الرسل فيها الهدى والنور، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾[٣]. وقال تعالى عن الإنجيل: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾[٤].

ففي هذه الآيات يخبر ربنا عز وجل بأنه قد أنزل الإنجيل إلى عيسى مصدقاً للكتب التي قبله، وبياناً لحكم الله الذي ارتضاه لعباده المتقين في زمان عيسى وموعظة لهم[٥].

ومما ورد ذكره أيضاً في القرآن أن الدين الذي ارتضاه الله هو الدين الإسلامي، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا﴾[٦].

وقد نسخ الله الكتب السابقة بكتابه الخاتم، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[٧]، فأصبح دين أهل الكتاب وغيره

---

(١) سورة النحل، رقم الآية (٣٦).
(٢) معارج القبول، حافظ بن أحمد الحكمي، ١/ ٢٩٤.
(٣) سورة المائدة، رقم الآية (٤٤).
(٤) سورة المائدة، رقم الآية (٤٦).
(٥) تفسير الطبري، ٦/ ٢٦٤.
(٦) سورة المائدة، رقم الآية (٣).
(٧) سورة المائدة، رقم الآية (٤٧).

من الأديان باطلة بمبعث رسول الله ﷺ[(١)].

وقد جاءَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي مَرَرْتُ بِأَخٍ لِي مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ، فَكَتَبَ لِي جَوَامِعَ مِنَ التَّوْرَاةِ، أَلا أَعْرِضُهَا عَلَيْكَ؟ قَالَ: فَتَغَيَّرَ وَجْهُ رَسُولِ الله ﷺ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَقُلْتُ لَهُ أَلا تَرَى مَا بِوَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالَ عُمَرُ: رَضِينَا بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالإِسْلامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ رسولاً، قَالَ: فَسُرِّيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: [وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَصْبَحَ فِيكُمْ مُوسَى ثُمَّ اتَّبَعْتُمُوهُ، وَتَرَكْتُمُونِي لَضَلَلْتُمْ، إِنَّكُمْ حَظِّي مِنَ الأُمَمِ، وَأَنَا حَظُّكُمْ مِنَ النَّبِيِّينَ][(٢)].

وقد أجمع علماء الإسلام على أن دين الإسلام هو الدين الذي لا دين لله في الأرض سواه، وأنه ناسخ لجميع الأديان قبله، وأنه لا ينسخه دين بعده أبداً، وأن من خالفه ممن بلغه كافر مخلد في النار أبداً[(٣)].

وبعد هذه الإشارة الموجزة، فمن منطلق المساواة والتعايش السلمي في البلاد العربية، وتحقيقاً لمحاربة العدو المشترك (المستعمر)، نادت جمعيات القومية العربية بالدعوة إلى حرية التدين وأن تتعايش الأديان السماوية الثلاثة بسلام، وهذا هو مفهوم (التسامح الديني).

إن أول جمعية من الجمعيات القومية العربية التي نادت بالتسامح الديني، هي: الجمعية العلمية؛ التي سعت إلى إبراز فكرة القومية العربية في إطار عام، أساسه أن للعرب عامة - مسيحيين ومسلمين - تراثاً مشتركاً وحضارةً عريقةً تمتد جذورها إلى

---

(١) انظر: أحكام أهل الذمة، ابن القيم، ١/ ٧١.

(٢) مسند الإمام أحمد، ٣/ ٤٧١ عن عبدالله بن ثابت رضي الله عنه.

(٣) الإجماع، ابن حزم، ١٦٧، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

ما قبل الإسلام، ولا بد من التنقيب عنها والكشف عن جذورها التاريخية، والعمل على تطويرها لتساير روح العصر[1].

وقد نشرت هذا المفهوم من خلال مجلتها، التي جاء فيها: (لا بد من أن تكون في معابدنا إسلاماً وأرمن ودروزاً وموارنة وروماً وكاثوليكاً ونصيرية وسرياناً، وغير ذلك وفي ميادين الأعمال لنا راية واحدة؛ استبداد الحال لنا إنما يكون بالاجتماع حولها بالغيرة والحمية والصداقة)[2].

وعلى هذا النهج سار منظرو الجمعيات القومية العربية في الأمة الإسلامية بالدعوة إلى إحلال العقيدة القومية محل الدين الإسلامي، فقالوا: لا تفترقوا فرقاً وطوائف..، بل الجميع عرب وفي العرب وللعرب..، وإن العصر الحاضر قيام الجماعات على أسس القومية دون تفريق في الدين والمذهب[3].

واعتبر أعضاء الجمعيات القومية اجتماع المسلمين والنصارى على هذه المبادئ القومية، هو من دلائل الوفاق بين الفريقين. وقالوا: إن هذا الاتفاق سهل فإن دين الإنجيل يعلمنا التساهل إلى حد أن ينسى الإنسان نفسه في مصلحة قريبه، ودين الإسلام يجعل الفقير شريكاً للغني في ماله إذ يفرض له عليه نصيباً منه[4].

وقد تولت الجمعيات القومية نشر هذا الأمر في الأمة، فقد نشرت الجمعية الثورية العربية منشوراً تحت عنوان (إلى العرب من أولاد قحطان) - مما جاء فيه -: «أيها العرب:..ليكن المسلمون والنصارى واليهود منكم يداً واحدة، وتتكلمون بلغة واحدة،

---

(١) تاريخ العرب الحديث، عبدالوهاب أحمد عبدالوهاب، ٣٥٥، دار القلم، دبي، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

(٢) افتتاحية ج٦، مجلة الجنان ١٨٧٤م، ص١٨١ - ١٨٣، نقلًا عن كتاب سليم البستاني، ١٢٢.

(٣) مختارات المفيد، مقال: عبدالغني العريسي، ١٦٤و٢٥٧.

(٤) حوادث وخواطر، مذكرات شبلي شميل، ٢٦٠، دار الحمراء، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩١م.

فكونوا أيضاً أمة واحدة ويداً واحدة ولا تتفرقوا تبعاً لمفاسد وغايات المفسدين الذين يتظاهرون بالإسلام والإسلام بريء منهم..

فكلكم عيال الله، والدين لله وحده... وأنتم أيها العرب من النصارى والموسويين ضعوا يدكم في يد إخوانكم المسلمين العرب.. فإن العرب المسلمين إخوانكم في الوطنية.. فليكن رائد الطرفين التساهل والسعي في إزالة هذه التعصبات الذميمة..»[١].

ويعتبر أعضاء جمعيات القومية العربية التسامح الديني والحرية الدينية من أهم مكاسب العرب، الذين هاجروا من الدولة العثمانية، حيث احتك المهاجرون بأقوام يعظمون الجامعة الوطنية ويرفعونها فوق كل شيء، ولا يرون في اختلاف العقائد ما يحول دون تآلفهم في سبيل المصلحة القومية وتعاونهم على ما فيه الخير العام، وقابلوا ذلك بحال أوطانهم الأصلية وما يسودها من شقاق وتخاذل، فتحركت في نفوسهم عاطفة النفور المذهبي[٢].

فمن أمثلة أقوال أهل المهجر، قول الريحاني[٣]: أليس في وسع المرء أن يعيش في هذا العالم دون أن تطبع روحه بطابع الملة وتصبغ بصبغة الطائفية[٤].

وقد استمرت الدعوة إلى التسامح الديني عند أعضاء جمعيات القومية العربية، فبعد أن قامت الحكومة العربية الأولى في دمشق، وتولى إدارتها أعضاء جمعيات القومية العربية، أعلن فيصل بن الحسين عن سياسة حكومته الأولى، فقال: ليعلم جميع الناس أن حكومتنا قد تأسست على قاعدة العدالة والمساواة، فهي تنظر إلى جميع الناطقين بالضاد

(١) إيضاحات، جمال باشا ٢٤، ٢٨ مطبعة الطنين، ١٣٣٤هـ.
(٢) الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث، أنيس المقدسي، ٢٨٤.
(٣) انظر الترجمة رقم (٨).
(٤) الريحانيات، أمين الريحاني، ١/ ٣٤ و٣٧.

على اختلاف مذاهبهم وأديانهم نظراً واحداً. لا تفرق في الحقوق بين المسلم والمسيحي والموسوي[١].

فقامت هذه الدولة العربية على المبدأ العلماني ومن المنطلق الجاهلي، وقد قال عنها أعضاء الجمعيات: (كان لكل عربي الحق بأن يتولى عملاً في الحكومة على حسب ما عنده من معرفة ومن خبرة بذلك العمل..، ولم يكن للأديان ولا للطائفيات اعتبار في تولي مناصب الحكومة، فقد كان في المناصب الكبرى السني والشيعي والعلوي والدرزي والماروني والأرثوذكسي والكاثوليكي والبروتستانتي، وجميعهم يخدمون في حكومة عربية ويعملون لقضية العروبة)[٢].

كما أعلن مؤسس حزب البعث مبدأ الدعوة إلى التسامح بين الأديان حيث قال: حزب البعث ينظر إلى جميع الأديان نظرة واحدة من حيث التكريم والاحترام، ويعتبر حرية الاعتقاد الديني شيئاً مقدساً[٣]. فالتقديس الذي عناه ليس لذات الدين، وإنما للحرية التي من خلالها يحصل التكريم والاحترام.

وبهذا المبدأ قررت جمعيات القومية العربية، بأن الانتساب إليها وتبني المبادئ القومية حق لكل عربي. لأنها كما يقول أعضاؤها: «لا تفرض على أصحابها عقيدة دينية معلومة، بل تتسع لكل عربي مهما يكن دينه أو يكن مذهبه الديني»[٤].

---

(١) مؤامرة الغرب على العرب، ياسين سويد. وانظر نص خطابه: نهر الذهب من تاريخ حلب، ٣/ ٦٦٢.
(٢) القومية العربية تاريخها وقوامها ومراميها، مصطفى الشهابي، ١٢٢.
(٣) حزب البعث العربي الاشتراكي، مصطفى دندشلي، ٦٢. وانظر: في سبيل البعث، عفلق، ١٤٣.
ولا تزال دعوة التسامح الديني من أساسيات مبادئ القوميين، فقد عقدوا مؤتمراً في لبنان سموه (المؤتمر القومي الإسلامي) وذلك عام ١٩٩٤م، وكان من أبرز معالم هذا المؤتمر الدعوة إلى التسامح، وإقامة حوار مسيحي إسلامي عربي، لمنع المحاولات الدائبة لاختراق الوحدة العربية.
انظر: مجلة المجتمع الكويتية، العدد ١١٢٣، ٢٧/ ٥/ ١٤١٥هـ.
(٤) القومية العربية تاريخها وقوامها ومراميها، مصطفى الشهابي، ٣٤٧.

فالجمعيات القومية لا تفرض على أصحابها والمنتسبين إليها مذهباً دينياً أو عقيدة معينة إلا العقيدة القومية الجاهلية، قال مصطفى الشهابي: «إن الجمعيات القومية تشمل كل عربي أياً كانت ديانته أو طائفته أو عنصريته. وجميع العرب والمتعربين سواسية في عقيدة القومية العربية، سواء أكانوا مسلمين من سنيين وشيعيين ودروز وعلويين وإسماعيليين، أم كانوا نصارى من موارنة وأقباط.

ولذلك بدأت الحركات الوطنية فيها - البلاد العربية - على أساس القومية، لا أساس الدين، واشترك في تلك الحركات المسلمون والنصارى من العرب»[1].

ومن أمثلة التسامح الديني المزعوم لدى الجمعيات القومية في الانتساب إلى الجمعيات، أنه قد حدث في عام ١٩١٣م، أن رئيس فرع حزب اللامركزية في سورية كتب إلى مركز الحزب في القاهرة يقول: إنه وزملاءه في الفرع قرروا أن لا يقبلوا انتساب أي شخص لا يدين بالإسلام.

وبتاريخ ٢٥ آب ١٩١٣م بعث حقي العظم سكرتير حزب اللامركزية (مركز الحزب) رسالة جوابية معبراً فيها عن رأيه ورأي رئيس الحزب رفيق العظم، قائلاً في رسالته الجوابية: (إن المسيحيين هم إخواننا في الجنسية واللغة والتابعية والمصالح..، وإن حزبنا مؤلف من المسلمين وغير المسلمين، وعليه أعيد رجائي بموافقة الرئيس باسم الوطن والبلاد أن تسعوا:

أولاً: لإدخال من تأمنون جانبه وتثقون بصفاء ضميره من المسيحيين والدروز والإسرائيليين أعضاء بالحزب، حتى يكون حزبنا في سورية مؤلفاً من جميع العناصر. وقد سارت جميع فروع الحزب في بلادنا على نفس هذه الخطة.

---

(١) المصدر السابق، ٣٤٥.

ثانياً: أن تسعوا للتأليف بين قلوب المسيحيين والإسرائيليين والطوائف الإسلامية..)[١].

وقد احتج أعضاء جمعيات القومية، لتبنيهم دعوة التسامح الديني، بحجج منها:

إن الأديان كلها ترجع إلى أصل واحد، وتجتمع تحت لواء هدف واحد، وإذا اختلفت فإنما تختلف في الفروع، ويعود اختلافها إلى الاجتهاد في التفسير. وما كان كذلك فلا ينبغي له أن يصرف البشر عن الوحدة الإنسانية، وما ينبغي له أن يحيد بهم عن مبدأ: (الإنسان أخو الإنسان أحب أم كره)[٢].

ومن حججهم على التسامح، أن معرفة الله من قبل جميع الطوائف يمكن أن تكون القاسم المشترك بينها، فيستغني عن بقية التفاصيل مع الزمن ومع الرقي، وبهذه الكيفية تتوحد الأديان واللغات[٣].

وقد احتجوا لنجاح الدعوة إلى التسامح الديني، باشتراك ومشاركة غير المسلمين في تأسيس الجمعيات، كما سبق ذكره.

قال محمد جميل بيهم عن هذه التجربة: (من حسن الحظ أن العالمين الإسلامي والمسيحي قد أدركا الآن أن زمن القيل والقال في الشؤون الدينية قد ولى غير مأسوف عليه، وانصرف الناس عنه إلى اكتشاف أسرار الكائنات على رجاء أن يأتي اليوم السعيد الذي يعيشون فيه عالماً واحداً تسوده المحبة والإخاء والسلام)[٤].

---

(١) أوراق محب الدين الخطيب، القاهرة.

(٢) فلسفة تاريخ محمد ﷺ، محمد جميل بيهم، ٣٠، الدار الجامعية، بيروت.

(٣) العرب والترك، توفيق برو، ٤٥٤.

(٤) فلسفة تاريخ محمد ﷺ، محمد جميل بيهم، ٣٠.

كل الناس عباد الله، وكلٌّ سالك إليه سبيلاً، والسبل اختلفت والغاية واحدة.. ولم يبق عاقل مفكر، يتمسك بحرية الفكر التي هي هبة من هبات الله، إلا يقول: دعوا الناس لتسلك إلى الله أي طريق تشاء[1].

وجُدت الأديان جميعاً للتوفيق لا للتفريق، ولخير الوطن لا لشره، فالدين لله والوطن للجميع، ودين الأكثرية من سكان البلاد العربية هو أشد الأديان تسامحاً وأكثرها عناية بخير المجتمع[2].

هذا غيض من فيض عن موقف جمعيات القومية من وحدة الأديان والدعوة إلى التسامح الديني، وسيكون الرد على هذه المواقف من خلال النقاط التالية:

أولاً: لقد ثبت في كتاب الله تعالى، وفي سنة رسوله ﷺ، كفر اليهود والنصارى مما لا مجال للشك فيه، فقد قال العلماء: (واتفقوا على تسمية اليهود والنصارى كفاراً)[3].

وهؤلاء (اليهود والنصارى) من العرب، الذين يطلب أعضاء جمعيات القومية العربية معهم التعايش السلمي، قد وصلتهم رسالة الرسول ﷺ، كما وصلت للعالمين جميعاً، فينطبق عليهم قول السلف: (قد ثبت في الكتاب والسنة والإجماع أن من بلغته رسالة النبي ﷺ فلم يؤمن به فهو كافر لا يقبل منه الاعتذار بالاجتهاد لظهور أدلة الرسالة وأعلام النبوة)[4].

---

(١) كتاب العرب والإسلام، الندوي، ١٩، نقلًا عن: مجلة العربي، العدد الأول، المقال: لأحمد زكي.

(٢) مذكراتي على هامش القضية العربية، ٢٨. انظر:

١. عبدالرحمن الشهبندر، حياته وجهاده، حسن الحكيم، ٣٨٩.

٢. الحركة العربية سيرة المرحلة الأولى للنهضة العربية الحديثة، ٦٧.

(٣) مراتب الإجماع، ابن حزم، ١١٩.

(٤) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ١٢/ ٤٩٦.

فالواجب تكفير اليهود والنصارى من العرب وغير العرب، ودعوتهم إلى اتباع الدين الحق، لقول الرسول ﷺ: [وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ][١].

قال النووي عن هذا الحديث: (وقوله [لا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ] أي: ممن هو موجود في زمني وبعدي إلى يوم القيامة، فكلهم يجب عليه الدخول في طاعته، وإنما ذكر اليهودي والنصراني تنبيهاً على من سواهما، وذلك لأن اليهود والنصارى لهم كتاب فإذا كان هذا شأنهم مع أن لهم كتاباً فغيرهم ممن لا كتاب له أولى)[٢].

ثانياً: أن الأصل ليس معرفة الله وأنه موجود فقط كما يزعم أعضاء الجمعيات، وإنما معرفته وعبادته وفق ما ثبت عن رسوله محمدٍ ﷺ، وتحقيق إياك نعبد وإياك نستعين.

وقد كان هذا منهج الرسول ﷺ في دعوته عندما بعث معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى اليمن موصياً إياه: [قَالَ لَهُ: إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى، فَإِذَا عَرَفُوا ذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا صَلَّوْا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً فِي أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ مِنْ غَنِيِّهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فَقِيرِهِمْ، فَإِذَا أَقَرُّوا بِذَلِكَ فَخُذْ مِنْهُمْ وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ][٣].

ففي هذا الحديث بيان أن أول واجب على المكلف هو التوحيد بالله والشهادة بالرسالة لنبيه، ووقعت البداءة بهما لأنهما أصل الدين الذي لا يصح شيء غيرهما إلا بهما[٤]؛ والنبي ﷺ لم يطلب من معاذ بن جبل أن يترك القوم بعد أن علمهم كلمة التوحيد للزمان والرقي كما يدعيه أعضاء الجمعيات، إنما بين له ما يجب عليهم من أوامر الله تعالى.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، بَاب وُجُوبِ الْإِيمَانِ بِرِسَالَةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، رقم الحديث (٢١٨).
(٢) شرح صحيح مسلم، النووي، ٢/ ١٨٨.
(٣) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، بَاب مَا جَاءَ فِي دُعَاءِ النَّبِيِّ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ، رقم الحديث (٦٨٢٤).
(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر، ٣/ ٤٢٠.

ولهذا أجمع أهل العلم على أن الكافر إذا قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وأن كل ما جاء به محمد حق، وأبرأ من كل دين خالف دين الإسلام، وهو بالغ صحيح يعقل، أنه مسلم[1].

ثالثاً: إن دعوة التسامح الديني هي دعوة إلى تمييع الدين الإسلامي، وحل عرى الاعتزاز به، والالتفاف من حوله، وإطفاء حرارة الإيمان الديني بدعوى التسامح والوطنية أو القومية، أو غيرها من المفاهيم[2]. وفي التسامح تحقيق للمبادئ الماسونية.

ومن الأمور المسلمة في مسألة التسامح الديني أن الذي ينال الخسارة العظمى من جراء هذا التسامح هو المسلم، لأن دين الإسلام هو الدين الحق ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ والمعتقدات الأخرى كلها معتقدات ومذاهب باطلة.

ويؤيد تحقيق هذه الخسارة للمسلم، واقع جمعيات القومية العربية، فقد كاتب النصارى من أعضاء جمعية بيروت الإصلاحية، القنصلَ العامَّ لدولة فرنسا راجين إخوانهم في المعتقد طلب الحماية، قائلين للقنصل: (نحن الموقعين أدناه الأعضاء المسيحيون في اللجنة التنفيذية للجمعية العمومية المنتخبة.. إننا إذ نعتبر فرنسا حامية المسيحيين العثمانيين ووطناً بالتبني لمسيحيي سورية)[3].

وهذه المبادرة في المعتقد القومي قد ظهرت أيضاً لدى أعضاء الحزب اللامركزي، فقد صرح رفيق العظم: «بأن الأعضاء المسيحيين يستدرجوننا إلى الرضا بالاحتلال الفرنسي والعمل له». ودلل على ما يقول بأنه أتى رجل مسلم غير معروف إلى خليل

---

(١) الإجماع، ابن المنذر النيسابوري، ١٥٤.

(٢) غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، يوسف القرضاوي، ٨٠، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ.

(٣) مذكرات سليم علي سلام، حسان حلاق، ٢٤٥. وانظر: بلاد الشام، وجيه كوثراني، ٢٧٠.

أيوب - أحد أعضاء الحزب اللامركزي -، وقال له: «لماذا أنتم تشتغلون مع رفيق العظم وأصحابه؟ فقال له: نحن نريد أن نتخذ هؤلاء المسلمين آلة للاحتلال الفرنسي»(١).

فالهدف من دعوة التسامح عند الجمعيات القومية العربية، هو إزالة استعلاء المسلم الحق بإيمانه، الناشئ من إحساسه بالتميز عن الجاهلية المحيطة به في كل الأرض(٢).

رابعاً: إن الدين الذي أنزله الله على عباده ليس أعمالاً تعبدية فقط، وإنما هو منهج حياة، فمن خلال توجيهات هذا الدين يقيم المسلم أمور دينه ودنياه. وقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾(٣).

ومعنى هذه الآية الكريمة: دعاء المؤمن بمحمد ﷺ، وبما جاء به إلى الإسلام للعمل بجميع شرائعه، وإقامة جميع أحكامه وحدوده، دون تضييع بعضه والعمل ببعضه(٤). وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾(٥)، وبهذا النهج وحده أي بأداء تلك العبادة الشاملة المتكاملة، التي تشمل الحياة والموت، تتحقق غاية الوجود الإنساني، ويكون الإنسان قد قام - قدر جهده - بالعبادة المطلوبة تجاه الله(٦).

وقضية التسامح الديني التي تدعو إليها جمعيات القومية، أهملت قضية الدين، وعززت قضية الانتماء القومي، حيث أقرت أن للعرب الحق بأن يختلفوا عقائدياً، وأن تعبدَ كلُّ ملة منهم ما تشاء، ولكن لا يحق لهم أن يختلفوا في المبادئ القومية.

---

(١) وثائق مجموعة محب الدين الخطيب، مجلة دراسات تاريخية، العدد (١٥ و١٦)، كانون الثاني، ١٩٨٤م.

(٢) مذاهب فكرية معاصرة، محمد قطب، ٥٩٣.

(٣) سورة البقرة، رقم الآية (٢٠٨).

(٤) تفسير الطبري، ٢/ ٣٢٤.

(٥) سورة الأنعام، رقم الآية (١٦٢ - ١٦٣).

(٦) مفاهيم ينبغي أن تصحح، محمد قطب، ١٨٥، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ.

خامساً: من أي منطلق شرعي يقرر أعضاء جمعيات القومية العربية التسامح الديني، ودعوة المسلمين إلى نبذ الاعتزاز بالدين، ومساواة المسلمين بغيرهم من الأديان والنِّحل الباطلة.

فإن دعوة التسامح من أبرز المخالفات الظاهرة، إذ على المسلم أن يُقرَّ ما عليه أصحاب العقائد الباطلة، وذلك للتعايش معهم. فليس من سلامة المنهج الرباني أن يكون المسلم على عقيدة واضحة المعالم والجوانب، ثم يأتي ليوافق غيره على عقائدهم المتضاربة لمجرد كسب رضاهم، أو أن يكون مُتّبِعاً لمنهج خاص ودستور معين للحياة، ثم يقول لدعاة المناهج والدساتير الأخرى إنكم جميعاً على الحق، فهذا هو النفاق الصريح، وليس هو التسامح الصحيح[1].

كما أن مبدأ جمعيات القومية العربية في الدعوة إلى التسامح الديني وتوحيد الأديان، فيه دعوة إلى إباحة الردة عن الإسلام بطريقة لَبِقَة والخروج على منهج الله لكل من تسوِّل له نفسه في ذلك[2].

وقد تَسْهُل الردة في واقع المسلمين حينما ينشر في صحف المسلمين أمثال هذه الدعوات، ويتولى الدعوة إليها من يُظَنّ في نظر المسلمين أنهم الطبقة المثقفة (لا تفترقوا فرقاً وطوائف. فاليوم لا مسيحي ولا مسلم ولا يهودي ولا درزي ولا وثني، بل الجميع عرب وفي العرب وللعرب..، وإن العصر الحاضر عصر قيام الجماعات على أسس القومية دون تفريق في الدين والمذهب)[3].

---

(١) الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة، المودودي، ٤٠، دار القلم، الكويت، الطبعة الثالثة، ١٣٩٨هـ.

(٢) الموالاة والمعادة في الشريعة الإسلامية، محماس بن عبدالله الجلعود، ٢/ ٦٦٥.

(٣) مختارات المفيد، مقال: عبدالغني العريسي، ١٦٤و٢٥٧.

ويتحدث شيخ الإسلام ابن تيمية عن بعض الانحرافات التي وجدت عند بعض الملل، فيقول: «وهؤلاء المتفلسفة، ومتصوفهم كابن سبعين وأتباعه يجوزون أن يكون الرجل يهودياً أو نصرانياً أو مشركاً يعبد الأوثان، فليس الإسلام عندهم واجباً، ولا التهود والتنصر والشرك محرماً، لكن قد يرجحون شريعة الإسلام على غيرها.. وهذا من جنس جهال التتر أول ما أسلموا، فإن الإسلام عندهم خير من غيره، وإن كان غيره جائزاً لا يوالون عليه ولا يعادون عليه.

وهذا أيضاً أكثر اعتقاد علماء النصارى، وكثير من اليهود، يرون دين المسلمين واليهود والنصارى بمنزلة المذاهب في دين المسلمين، فيجوز للرجل عندهم أن ينتقل من هذه إلى تلك إما لرجحانها عنده في الدين، وإما لمصلحة دنياه»[(١)].

والذي ينكر على جمعيات القومية العربية في دعوتها للتسامح الديني، مماثل لما أنكره شيخ الإسلام على أصحاب العقائد الباطلة.

وفي ختام هذه الملاحظات على موقف جمعيات القومية من التسامح الديني، يجب التذكير بأمر مهم، وهو وجود الاتفاق بين ما دعت إليه جمعيات القومية العربية من قضية التسامح الديني، وبين ما أعلنه أعداء الإسلام والمسلمين لتحقيق هذا الأمر.

فقد اهتمت الدول الكافرة بقضية التسامح الديني، والعمل على احترام الحريات، التي تشمل احترام المعتقدات الدينية المختلفة، وعدم التمييز بينهما، وعقدت العديد من المؤتمرات والقرارات القاضية بعدم تميز قوم على قوم أو مجتمع على مجتمع وفق أسس دينية، وإلغاء ما يوجب التفريق على أسس دينية[(٢)].

---

(١) الرد على المنطقيين، ابن تيمية، ٢٨٢.

(٢) انظر: التسامح الديني والتفاهم بين المعتقدات، وليم سليمان قلادة وآخرون، ٨٨، ١٥٦، سلسلة حوار الشهر، مركز اتحاد المحامين العرب للبحوث والدراسات القانونية، القاهرة.

ومن تلك المؤتمرات ما صدر في تاريخ ٢٥ نوفمبر ١٩٨١م من الإعلان العالمي الخاص بالقضاء على جميع أنواع التعصب والتمييز القائمين على أساس الدين أو المعتقد. ووجوب التسامح بين الأديان والعمل في خير الإنسانية والمصلحة الوطنية.

ومما جاء في الإعلان: القرار رقم ٣٦/ ٥٥: إن الجمعية العامة... إذ تضع في اعتبارها أن من الجوهري تعزيز التفاهم والتسامح والاحترام في الشؤون المتصلة بحرية الدين والمعتقد. ومن قرارات هذا المؤتمر:

المادة رقم (١): لكل إنسان الحق في حرية التفكير والوجدان والدين، ويشمل هذا الحق حرية الإيمان بدين أو بأي معتقد يختاره...

وفي المادة رقم (٣): يشكل التمييز بين البشر على أساس الدين أو المعتقد إهانة للكرامة الإنسانية...

وفي المادة رقم (٤): تتخذ جميع الدول تدابير فعالة لمنع واستئصال أي تمييز على أساس الدين أو المعتقد..، وتبذل جميع الدول كل ما في وسعها لسن التشريعات أو إلغائها حين يكون ضرورياً للحيلولة دون أي تمييز من هذا النوع، ولاتخاذ جميع التدابير الملائمة لمكافحة التعصب القائم على أساس الدين أو المعتقدات الأخرى في هذا الشأن[١].

وجميع المواد لهذا الإعلان العالمي، تؤكد على الدعوة إلى التسامح الديني، والاعتراف بحرية المعتقدات، والوصاية باتخاذ جميع التدابير الفعالة لمنع واستئصال أي تمييز على أساس الدين أو المعتقد[٢].

(١) الإعلان العالمي للأمم المتحدة بشأن القضاء على التعصب الديني، ١٠ - ١١، طيبة للدراسات والنشر.
(٢) المصدر السابق، ١، ١٥.

» القسم الثالث: موقف الجمعيات القومية العربية من تحكيم الشريعة:

عرّف أهل اللغة معنى كلمة الشريعة بأنها: ما قَيَّضَ الله للإنسان من الدين وأمره به ليتحراه اختياراً مما تختلف فيه الشرائع ويعترضه النسخ، ودل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾[(١)].

فكل ما شرعت فيه من شيء فهو شريعة، ومن ذلك قيل لشريعة الماء: شريعة، لأنه يشرع منها إلى الماء، ومنه سميت شرائع الإسلام شرائع، لشروع أهله فيه[(٢)].

والشريعة بمعناها الشرعي تطلق على معنيين:

١) الشريعة بمعنى الأحكام الفرعية: قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[(٣)]. وقد فسر ابن عباس هذه الآية بقوله: «سبيلًا وسنة»[(٤)].

وقال قتادة: «يقال (سبيلاً وسنناً)، والسنن مختلفة؛ هي في التوراة شريعة، وفي الإنجيل شريعة، وفي الفرقان شريعة، يحل الله فيها ما يشاء، ويحرم ما يشاء، ليعلم من يطيعه، ممن يعصيه، والدين الذي لا يقبل الله غيره التوحيد والإخلاص لله الذي جاءت به جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام»[(٥)].

كما دلت السنة النبوية على هذا المعنى، روى أَبو هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: [أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَالأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ][(٦)].

---

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني، ٢٥٨. (شرع).

(٢) تفسير الطبري، ٦/ ٢٦٩.

(٣) سورة المائدة، رقم الآية (٤٨).

(٤) تفسير ابن كثير، ٣/ ١٢٠

(٥) تفسير الطبري، ٦/ ٢٦٩.

(٦) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، بَاب قَوْلُهُ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾، رقم الحديث (٣١٨٧).

ففي الحديث (ديننا واحد): أي القدر المشترك بينهم هو عبادة الله وحده لا شريك له وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم، كقوله جل جلاله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[1].

وقد قال السلف: «لم يبعث الله نبياً قط إلا أوصاه بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإقرار لله بالطاعة، فذلك دينه الذي شرع لهم»[2].

وأما الشرائع فمختلفة في الأوامر والنواهي فقد يكون الشيء في هذه الشريعة حراماً، ثم يحل في الشريعة الأخرى، وبالعكس، وخفيفاً فيزاد في الشدة في هذه دون هذه، وذلك لما له تعالى في ذلك من الحكمة البالغة والحجة الدامغة[3].

٢) وتطلق الشريعة ويراد بها المسائل العقائدية، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[4].

قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أي: الدين الذي جاءت به الرسل كلُّهم هو عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[5].

ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾، أي أوصى الله تعالى جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالائتلاف والجماعة، ونهاهم عن الافتراق والاختلاف[6].

---

(١) تفسير ابن كثير، ٣/ ١٢١.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٦/ ١١.
(٣) تفسير ابن كثير، ٣/ ١٢١. وانظر: فتح الباري، ابن حجر، ٦/ ٥٦٤.
(٤) سورة الشورى، رقم الآية (١٣).
(٥) سورة الأنبياء، رقم الآية (٢٥).
(٦) تفسير ابن كثير، ٧/ ١٨٣. وانظر: تفسير الطبري، ٢٥/ ١٤.

قال ابن تيمية عن حقيقة كلمة الشريعة: «اسم الشريعة والشرع والشرعة فإنه ينتظم كلَّ ما شرعه الله من العقائد والأعمال، وقد صنف الشيخ أبو بكر الآجري (كتاب الشريعة)، وصنف الشيخ أبو عبدالله بن بطة (كتاب الإبانة عن شريعة الفِرقة الناجية) وغير ذلك.

وإنما مقصود هؤلاء الأئمة في السنة باسم الشريعة: العقائدُ التي يعتقدها أهل السنة من الإيمان.. فالسنة كالشريعة هي: ما سنه الرسول ﷺ وما شرعه، فقد يراد به ما سنه وشرعه من العقائد، وقد يراد ما سنه وشرعه من العمل، وقد يراد به كلاهما»[(١)].

وفي موضع آخر قال مؤكداً على شمول معنى الشريعة: «إن الشريعة جامعة لكل ولاية وعمل فيه صلاح الدين والدنيا، والشريعة إنما هي كتاب الله وسنة رسوله، وما كان عليه سلف الأمة في العقائد والأحوال والعبادات والأعمال، والسياسات والأحكام، والولايات والعطيات»[(٢)].

وهذه الشريعة الواردة في الكتاب والسنة هي الحاكمة لأفعال المسلمين والمرجعُ في جميع أحوالهم، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[(٣)]، فكان خطاب هذه الآية لنبينا بأمر ﴿فَاتَّبِعْهَا﴾؛ فاتبع تلك الشريعة التي جعلناها لك. ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾: ولا تتبع ما دعاك إليه الجاهلون بالله، الذين لا يعرفون الحق من الباطل فتعمل به، فتهلك إن عملت به[(٤)].

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية، ١٩/ ٣٠٦.

(٢) المصدر السابق، ١٩/ ٣٠٨.

(٣) سورة الجاثية، رقم الآية (١٨).

(٤) تفسير الطبري، ٢٥/ ١٤٦.

فلا يصبح إيمان بدون التسليم والانقياد لشريعة رب الأرض والسماوات، قال ابن تيمية: «ليس للإنسان أن يخرج عن الشريعة في شيء من أموره، بل كل ما يصلح له فهو في الشرع من أصوله وفروعه وأحواله وأعماله وسياسته ومعاملته..، وحقيقة الشريعة: اتباع الرسل والدخول تحت طاعتهم، كما أن الخروج عنها خروج عن طاعة الرسل، وطاعة الرسل هي دين الله الذي أمر بالقتال عليه، فقال: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾[1]، فعلى كل من الرعاة والرعية والرؤوس والمرؤوسين؛ أن يطيع كل منهم الله ورسوله في حاله، ويلتزم شريعة الله التي شرعها له[2].

ومن هذا المفهوم لمعنى كلمة الشريعة ولأنها شاملة للمعنيين جميعاً (العقائد والأحكام) ووجوب تعبد الله بالعمل بها والتحاكم إليها، كانت ضمن مباحث التوحيد، سوف تكون مناقشة مواقف جمعيات القومية العربية من تحكيم الشريعة.

الفرع الأول: استبعاد تحكيم الشريعة:

لدى البحث في كتب أعضاء جمعيات القومية العربية، لوحظ عدم الرجوع إلى الشريعة في صياغة مبادئ ونظم الجمعيات، وذلك لوجود أصحاب العقائد الباطلة فيها إما مؤسسين أو أعضاء.

وسبب آخر هو: أن أعضاء الجمعيات القومية ينظرون إلى الدين بالمنظار الغربي وقد تشربوا مبادئ العلمانية التي تفصل بين الدين والحياة. ومما زاد في تأثر أعضاء الجمعيات بلوثة العلمنة؛ أنه منذ أوائل القرن التاسع عشر - وهو وقت تأسيس الجمعيات - هبت موجة من الإصلاح بالنزعة الأوربية، وشاع تدوين القوانين فيها، لا

(١) سورة البقرة، رقم الآية (١٩٣).
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية، ١٩/ ٣٠٩ - ٣١٠.

سيما بعد تدوين القانون المدني الفرنسي[1].

كما تشرب أعضاء الجمعيات القومية بمبادئ الديمقراطية التي تجعل المشروعية العُليا للجماهير، وإذا رجعوا لتحكيم فهو عند ضغط الواقع فيرجعون إليه لتحقيق مآربهم كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾[2].

وفي هذا المعنى صرح محمد جميل بيهم: «أن الاستدلال بالشريعة في قضية تنظير الجمعيات في كثير من المسائل كان تحت ضغط الاضطرار، مثال ذلك منهج الجمعيات في تناول قضايا المرأة. يقول المؤسس في هذه القضية: نحن لا نريد أن نتعرض لأحكام الدين.. ولكن ما الحيلة ونحن نجد أنفسنا مضطرين هنا لأن نبحث الموضوع على أساس ديني، لأن ما استقر في أذهان الناس على اعتبار أنه شرعي لا يزحزحه إلا البرهان الديني»[3]؛ تبعاً لما يلزمه به الواقع الاجتماعي - الذي يدين بالتسليم لشريعة رب العالمين - أخذاً من أحكام الشريعة.

طالب مؤسسو الجمعيات القومية العربية أن تكون سياسة الناس بمعزل عن الدين، وجاءت هذه المطالبة بعد الاطلاع على سياسة الدول الكافرة لشعوبها، فقالوا: «إن العالم يسير إلى الديمقراطية الصحيحة سيراً حثيثاً، يجعل حياة الأمم السياسية بمعزل عن الاعتقادات، بحيث لا يكون تباين اعتقادين في شعب واحد مانعاً من توثق عرى القومية..، وقد سبق الغربُ الشرقَ بما عهدوه إلى هذه الديمقراطية، وبدأ الشرق

---

(١) الأوضاع التشريعية في الدول العربية، صبحي المحمصاني، ١٨٧، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة ١٩٨١م.

(٢) سورة النور، رقم الآية (٤٩).

(٣) فتاة الشرق في حضارة الغرب، محمد جميل بيهم، ٤٠. وعن هذه القضية انظر: المرأة في فكر ونضال حزب البعث العربي الاشتراكي، سلسلة الثقافة الثورية، إلياس فرح، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٦م.

يحس بها أو يشعر بالحاجة إليها.. فليس المسيحي واليهودي وغيرهما بأقل حاجة من المسلم إلى الاعتقاد بالقومية وتوثيق وشائج الإخاء الوطني للدخول في تلك الديمقراطية.

ولتعميم هذا المعتقد طالب مؤسسو الجمعيات من الدول الكافرة مساعدة البلاد الإسلامية لتطبيق هذا المعتقد، قالوا: «وليتكاتفوا مع المسلمين على المضي في سبيل العلم والترقي والديمقراطية الصحيحة التي يسير إليها الشرق كما سار إليها الغرب، وليحققوا - الدول الكافرة - بذلك آمال الشرق في بنيه»[١].

ويستمر مبدأ جمعيات القومية العربية في إقصاء الشريعة من واقع المسلمين إذ أصدر حزب البعث القانون الذي سموه بـ(قانون الأحوال الشخصية)، عنه يقول مؤسسو الحزب: (أصدر حزب البعث قانوناً للأحوال الشخصية أنصف المرأة وساواها في الإرث مع الرجل، مؤكداً حقها الموازي للرجل في الطلاق، وحدد سن الزواج بثمانية عشر عاماً، ومنع تعدد الزوجات إلا في الحالات الاستثنائية، الشيء الذي أثار حفيظة المرجعات الدينية السنية والشيعية على السواء باعتباره قانوناً مخالفاً للشرع..

وقررت القيادة القطرية بعد مناقشات مطولة الإبقاء على القانون باعتباره منصفاً للمرأة حامياً لها، فضلاً عن أنه ترك الحرية للمواطن في الأخذ به أو التزام الشرع الإسلامي[٢].

---

(١) مجموعة آثار رفيق العظم، (رسالة الجامعة الإسلامية وأوربة)، ٨٢ - ٨٣.
(٢) أوكار الهزيمة تجربتي في حزب البعث العراقي، هاني الفكيكي، ١٢٩. وانظر: مجلة القضاء العراقية، السنة الثانية، العددان الأول والثاني، صفر، سنة ١٣٥٥هـ.

في مباحث سابقة بينت موقف الجمعيات العربية من الدين، وأن الأمر الذي اتفقت عليه الجمعيات أن يكون الدين حاكماً في أمور الآخرة وبعض الأحوال الشخصية، وأنه ممارسة وجدانية. وأصبح مستند الجمعيات العربية الذي اعتمد عليه أعضاؤها في تقرير وتنظير مبادئها، هو الاستناد إلى القومية الخالصة، وفصل الدين عن السياسة، التي يحرم على رجال الدين الاشتغال بها[(١)].

إن استبعاد ما أسماه أعضاء الجمعيات بـ(رجال الدين) من الاشتغال في الأمور السياسية هو استبعاد للشريعة، ولهذا كان من أبرز مبادئ جمعيات القومية العربية فصل الدين عن السياسة.

وتنفيذاً لهذا المبدأ رأت جمعية رابطة الوطن العربي أن يقتصر تطبيق الشريعة والحكومة السياسية الدينية على ولاية الحجاز ومنطقة المدينة المنورة حتى العقبة[(٢)].

وبهذا الرأي ظنت جمعية رابطة الوطن العربي أنها حلت ما تعتقده مشكلة وهو الجمع بين السلطة الدينية والسلطة المدنية، فقال مؤسسها: «هكذا قد وجدَ حلاً لصعوبة كبيرة بفصل السلطة المدنية عن السلطة الدينية في الإسلام من أجل خير الجميع الأكبر»[(٣)].

وبهذا التقسيم يريدون أن يجعلوا منطقة دينية كالفاتيكان في إيطاليا، وأما بقية العالم فيتحرر كما فعلت أوربا بدينها المُحرّف.

وبدعوة فصل الدين عن شؤون الحياة، نادى علي عبدالرازق في كتابه (الإسلام وأصول الحكم) ملتزماً المبدأ العلماني، قال: «إن صلاح المسلمين في دنياهم لا يتوقف على شيء من أنواع السلطات، فليس بنا حاجة إلى تلك الخلافة لأمور ديننا

---

(١) قضية العرب، علي ناصر الدين، ١٥.

(٢) يقظة الأمة العربية، نجيب عازوري، ٢٢٠.

(٣) المصدر السابق، ٣٧.

ولا أمور دنيانا. ولو شئنا لقلنا أكثر من ذلك، فإنما كانت الخلافة ولم تزل نكبة على الإسلام وعلى المسلمين، وينبوع شر وفساد»[١].

أيد أعضاء جمعيات القومية العربية ما جاء في هذا الكتاب من طُروحات وأفكار تدل على مبدأ التوافق بين جمعيات القومية العربية وبين كتاب الإسلام وأصول الحكم[٢] فيما يتعلق بمسألة علاقة السياسة بالدين.

إن مسألة تحكيم الشريعة في كل شؤون الحياة هي من أساسيات العقيدة، والرجوع إليها من علامات الإيمان، كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[٣].

لقد أقسم سبحانه بنفسه، على نفي الإيمان عن العباد حتى يُحكّموا رسولَه في كل ما شجر بينهم من الدقيق إلى الجليل، ولم يكتف بمجرد إيمانهم بهذا التحكيم بل حتى ينتفي عن صدورهم الحرج والضيق من قضائه وحكمه، ولم يكتف منهم أيضاً بذلك حتى يسلموا تسليماً، وينقادوا انقياداً[٤].

---

(١) الإسلام وأصول الحكم، علي عبدالرازق، ٣٦، الطبعة الثانية، مصر، ١٣٤٤هـ. وانظر في الرد عليه:

١. نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم، محمد الخضر حسين، المكتبة السلفية، القاهرة.
٢. نظام الحكم في الإسلام، محمد يوسف موسى، دار المعرفة.
٣. الإسلام وأصول الحكم نقد وتعليق، ممدوح حقي.

(٢) انضم علي عبدالرازق إلى حزب الأحرار الدستوريين، وقد رضع الثقافة الأوربية حيث تعلم في جامعة أكسفورد علوم السياسة بين ١٩١٢، ١٩١٤م، وهي فترة تأسيس الجمعيات. انظر:

١. الإسلام والخلافة، ضياء الريس، ٣٦.
٢. الأعلام، الزركلي، ٤/ ٢٧٦.

(٣) سورة النساء، رقم الآية (٦٥).

(٤) إعلام الموقعين، ابن قيم الجوزية، ١/ ٥٠.

إن العباد ليس لهم من الشريعة إلا تحقيق العبودية لله تعالى، ولذا قال السلف: ما جاء الشرع إلا للتعبد، وهو المقصود من بعثة الأنبياء عليهم السلام، كقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾[1]، وقوله: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ [2]، وقوله: ﴿الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾[3]، وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[4]، وقوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾[5]. وما أشبه ذلك من الآيات التي لا تكاد تحصى، كلها دال على أن المقصود - من الشريعة - التعبد لله..[6].

ولهذا ذكر الحافظ الإسماعيلي: «أن من أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، قبول ما نطق به كتاب الله تعالى، وما صحت به الرواية عن رسول الله ﷺ، لا معدل عما وردا به، ولا سبيل إلى رده، إذ كانوا مأمورين باتباع الكتاب والسنة، مضموناً لهم الهدى فيهما، مشهوداً لهم بأن نبيهم يهدي إلى صراط مستقيم[7]، محذرين في مخالفته الفتنة والعذاب الأليم»[8][9].

---

(١) سورة النساء، رقم الآية (١).

(٢) سورة هود، رقم الآية (١، ٢).

(٣) سورة إبراهيم، رقم الآية (١).

(٤) سورة الأنبياء، رقم الآية (٢٥).

(٥) سورة الزمر، رقم الآية (٢ - ٣).

(٦) الاعتصام، الشاطبي، ١/ ٦١ - ٦٢.

(٧) كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، سورة الشورى، رقم الآية (٥٢).

(٨) كما قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ سورة النور، رقم الآية، (٦٣).

(٩) كتاب اعتقاد أهل السنة والجماعة، أبوبكر الإسماعيلي، ٣١، دار الريان، الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.

وقد كانت سيرة سلف الأمة من جانب تطبيق الشريعة، من أوضح الأمثلة للتسليم التام لأوامر الوحي والانقياد المطلق، وقد حذر النبي ﷺ أمته من أن يسيروا خلف مبادئ اليهود والنصارى حينما نبذوا كتاب الله تعالى، فقد قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: [إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ؛ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا](١).

وسار أصحابه من بعده على التسليم التام لشريعة الله وتحكيمها في كل شؤون الحياة، فلما وَلِيَ الخلافة أبوبكر الصديق خطب قائلاً: (..أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي..)(٢).

وكان هذا هو ديدن الصحابة كلهم ومنهجهم في تحكيم الكتاب والسنة، واعتبارهما حاكمين على كل قول ورأي، ولما كان هذا منهج أصحاب رسول الله من تحكيم الشريعة، فقد قرر علماء السلف: (إن منهج السلف أنهم جعلوا الكتاب والسنة أمامهم، وطلبوا من قبلهما، وما وقع لهم من معقولهم وخواطرهم، عرضوه على الكتاب والسنة، فإن وجدوه موافقاً لهما قبلوه، وشكروا الله حيث أراهم ذلك ووفقهم عليه، وإن وجدوه مخالفاً لهم تركوا ما وقع لهم، وأقبلوا على الكتاب والسنة، ورجعوا بالتهمة على أنفسهم، فإن الكتاب والسنة لا يهديان إلا إلى الحق، ورأي الإنسان قد يرى الحق، وقد يرى الباطل)(٣).

---

(١) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، بَاب حَدِيثُ الْغَارِ، رقم الحديث (٣٢١٦).
(٢) البداية والنهاية، ابن كثير، ٥/ ٢٤٨. انظر: تاريخ الخلفاء، السيوطي، ٨٢.
(٣) الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة، الأصبهاني، ٢/ ٢٢٤، دار الراية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

ولذا لما أفتى ابنُ عباس بوجوب التمتع في الحج[1] عارضه من عارضه باجتهاد أبي بكر وعمر، فقال لهم ابن عباس: (يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول: قال رسول الله، وتقولون: قال أبو بكر وعمر)[2].

وقد علق ابن القيم على الأثر قائلاً: (لم يكن أحد من الصحابة، ولا أحد من التابعين يرضى بهذا الجواب في دفع نص عن رسول الله، وهم كانوا أعلم بالله ورسوله، وأتقى له من أن يقدموا على قول المعصوم رأي غير المعصوم)[3].

فمن خلال ما سبق يتبين أن من أبرز علامات السلف في تحكيم الشريعة، قولهم: (على الله البيان، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم)[4].

أما عن موقف الجمعيات القومية العربية من تحكيم الشريعة، فيتبين أن الجريمة النكراء التي تولى كبرها أعضاء الجمعيات والأحزاب القومية هي تنحية الشريعة الإلهية عن الحكم واقتباس قوانين الكفار، وهذه الجريمة هي التي رفع علماء الإسلام

---

(١) معنى التمتع: أي التحلل من الإحرام بعد العمرة. لقول جابر (قَدِمْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُهِلِّينَ بِالْحَجِّ فَأَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نَجْعَلَهَا عُمْرَةً وَنَحِلَّ. قَالَ: وَكَانَ مَعَهُ الْهَدْيُ فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَجْعَلَهَا عُمْرَةً)، صحيح مسلم، كتاب الحج، بَاب بَيَانِ وُجُوهِ الإِحْرَامِ وَأَنَّهُ يَجُوزُ إِفْرَادُ الْحَجِّ وَالتَّمَتُّعِ وَالْقِرَانِ وَجَوَازِ إِدْخَالِ الْحَجِّ عَلَى الْعُمْرَةِ وَمَتَى يَحِلُّ الْقَارِنُ مِنْ نُسُكِهِ، رقم الحديث (٢١٣٤).

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل، ١/ ٣٣٧. وانظر:

١. سنن النسائي، كتاب مناسك الحج، باب التمتع، رقم الحديث (٢٦٨٤).
٢. زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم، ٢/ ٢٠٦.

(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم الجوزية، ٢/ ١٩٦.

(٤) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، بَاب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالاتِهِ). وانظر:

١. عقيدة السلف وأصحاب الحديث، الصابوني، ٢٥، رقم (٣٥).
٢. حلية الأولياء، أبو نعيم، ٣/ ٣٦٩.
٣. فتح الباري، ابن حجر، ١٣/ ٥١٣.

أصواتهم بإنكارها، وبينوا أنها من أعظم وسائل هدم الدين، ابتُليت بها المجتمعات المعاصرة، ومن هؤلاء العلماء:

قال الشيخ محمد بن إبراهيم: إن من الكفر الأكبر المستبين، تنزيل القانون اللعين، منزلة ما نزل به الروح الأمين، على قلب محمد ليكون من المنذرين بلسان عربي مبين، في الحكم به بين العالمين، والرد إليه عند تنازع المتنازعين مناقضة ومعاندة لقول الله عز وجل: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾[1].

وبين الشيخ محمد بن إبراهيم أن بعض صور الحكم بغير ما أنزل الله كفر أكبر مخرج من الملة فقال: «النوع الخامس: وهو أعظمها وأشملها وأظهرها معاندة للشرع، ومكابرة لأحكامه، ومشاقة لله ورسوله، ومضاهاة بالمحاكم الشرعية إعداداً وإمداداً وإرصاداً وتأصيلاً، وتفريغاً وتشكيلاً وتنويعاً وحكماً وإلزاماً، ومراجع ومُسْتَنَدات، فكما أن للمحاكم الشرعية مراجع مستمدات، مرجعها كلها إلى كتاب الله وسنة رسوله، فلهذه المحاكم مراجع، هي (القانون الملفق من شرائع شتى، وقوانين كثيرة، كالقانون الفرنسي، والقانون الأمريكي، والقانون البريطاني، وغيرها من القوانين، ومن مذاهب بعض البدعيين المنتسبين إلى الشريعة).

فهذه المحاكم في كثير من أمصار الإسلام مهيأة مكملة مفتوحة الأبواب والناس إليها أسراب إثر أسراب، يحكم حكامها بينهم بما يخالف حكم الكتاب والسنة، من أحكام ذلك القانون وتلزمهم به، وتقرهم عليه وتحتمه عليهم.

فيا معشر العقلاء ويا جماعة الأذكياء وأولي النُّهى كيف ترضون أن تجري عليكم أحكام أمثالكم، وأفكار أشباهكم، أو مَنْ هم دونكم، ممن يجوز عليهم الخطأ، بل

(١) سورة النساء، رقم الآية (٥٩).

خطؤهم أكثر من صوابهم بكثير، بل لا صواب في حكمهم إلا ما هو مستمد من حكم الله ورسوله، نصاً أو استنباطاً...!؟»[1].

وقد أصّل الشيخ مسألة التحكيم بمسألة العقيدة، فقال: «التحاكم إلى حكام الشرع الحاكمين بما يظهر لهم شرعاً ضروري لا غناء للمسلمين عنه، وهو دستور المسلمين وعقيدتهم، كما أنه مضمون شهادة أن محمداً رسول الله، وقد أكمل الله لنا الدين أصولاً وفروعاً.. ولا يجوز أن تُستبدل (بالشريعةِ الإلهيةِ القوانينُ الوضعيةُ) التي ما أنزل الله بها من سلطان، وإسناد المشاكل إلى أهل القوانين من إسناد الأمر إلى غير أهله، لأنه من التحاكم إلى الطاغوت الذي أمر الله بالكفر به[2].

الشيخ أحمد شاكر: وممن بيّن بطلان منهج تشريع القوانين واستبدالها بشرع الحكيم العليم، الشيخ أحمد شاكر، فبعد أن نقل أحمد شاكر كلمة ابن كثير عن الياساق وقوله فيه: (فمن ترك الشرع المحكم المنزل على محمد بن عبدالله خاتم الأنبياء، وتحاكم إلى غيره من الشرائع المنسوخة كفر، فكيف بمن تحاكم إلى الياساق وقدمها عليه؟ من فعل ذلك كفر بإجماع المسلمين)[3].

قال أحمد شاكر: «أفيجوز مع هذا في شرع الله أن يحكم المسلمون في بلادهم بتشريع مقتبس عن تشريعات أوربة الوثنية الملحدة؟ بل بتشريع تدخله الأهواء والآراء الباطلة، يغيرونه ويبدلونه كما يشاؤون، لا يبالي واضعه أوافق شرعة الإسلام أم خالفها»؟

إن المسلمين لم يُبْلوا بهذا قط - فيما نعلم من تاريخهم - إلا في ذلك العهد، عهد التتار، وكان من أسوأ عهود الظلم والظلام. ومع هذا فإنهم لم يخضعوا له، بل غلب

---

(١) تحكيم القوانين، محمد بن إبراهيم، ١٧ - ١٨.
(٢) فتاوى الشيخ محمد بن إبراهيم، ١٢/ ٢٧٤.
(٣) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير، ١٣/ ١٨.

الإسلام التتار، ثم مزجهم فأدخلهم في شرعته. وزال أثر ما صنعوا بثبات المسلمين على دينهم وشريعتهم، وبأن هذا الحكم السيئ الجائر كان مصدره الفريق الحاكم إذ ذاك، لم يندمج فيه أحد من أفراد الأمم الإسلامية المحكومة، ولم يتعلموه ولم يعلموه أبناءهم. فما أسرع ما زال أثره!

أفرأيتم هذا الوصف القوي من الحافظ ابن كثير - في القرن الثامن - لذاك القانون الوضعي، الذي صنعه عدو الإسلام جنكيز خان؟ ألستم ترونه يصف حال المسلمين في هذا العصر، في القرن الرابع عشر؟ إلا في فرق واحد، أشرنا إليه آنفاً هو أن ذلك كان في طبقة خاصة من الحكام، أتى عليها الزمن سريعاً، فاندمجت في الأمة الإسلامية، وزال أثر ما صنعت.

ثم كان المسلمون الآن أسوأ حالاً وأشد ظلماً وظلاماً منهم، لأن أكثر الأمم الإسلامية الآن تكاد تدين لهذه القوانين المخالفة للشريعة، والتي هي أشبه شيء بذاك (الياسق) الذي اصطنعه رجل كافر ظاهر الكفر، هذه القوانين التي يصطنعها ناس ينتسبون للإسلام، ثم يتعلمها أبناء المسلمين، ويفخرون بذلك آباء وأبناء، ثم يجعلون مَرَدّ أمرهم إلى معتنقي هذا (الياسق العصري) ويحقرون من يخالفهم في ذلك، ويسمون من يدعوهم إلى الاستمساك بدينهم وشريعتهم (رجعياً) و (جامداً)..

بل إنهم أدخلوا أيديهم فيما بقي في الحكم من التشريع الإسلامي، يريدون تحويله إلى ياسقهم الجديد بالهوينى واللين تارة، وبالمكر والخديعة تارة أخرى، وبما ملكت أيديهم من السلطات أخيراً، ويصرحون - بدون حياء - بأنهم يعملون على فصل الدولة عن الدين[1].

---

(١) عمدة التفسير، ابن كثير، تحقيق أحمد شاكر، ٤/ ١٧٣ - ١٧٤، تراث الإسلام.

فبعد هذا الوصف الدقيق لحال الأمة في القرن الرابع عشر وتعطيلهم لشريعة الرحمن، وتحكيم القوانين الوضعية، قال ناصحاً للأمة ومبيناً الحكم الشرعي في تحكيم؛ القوانين: «أفيجوز إذاً - مع هذا - لأحد من المسلمين أن يعتنق هذا الدين الجديد أعني التشريع الجديد، أو يجوز لأب أن يرسل أبناءه لتعلم هذا واعتناقه واعتقاده والعمل به، عالماً كان الأب أو جاهلاً؟

أو يجوز لرجل مسلم أن يلي القضاء في ظل هذا (الياسق العصري) وأن يعمل به ويعرض عن شريعته البينة؟ ما أظن أن رجلاً مسلماً يعرف دينه ويؤمن به جملة وتفصيلاً، ويؤمن بأن هذا القرآن أنزله الله على رسوله كتاباً محكماً، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وبأن طاعته وطاعة الرسول الذي جاء به واجبة قطعية الوجوب في كل حال، ما أظنه يستطيع إلا أن يجزم غير متردد ولا متأول، بأن ولاية القضاء في هذه الحال باطلة بطلاناً أصلياً، لا يلحقه التصحيح ولا الإجازة.

إن الأمر في هذه القوانين الوضعية واضح وضوح الشمس، **هي كفر بواح**، لا خفاء فيه ولا مداورة، ولا عذر لأحد ممن ينتسب للإسلام - كائناً من كان - في العمل بها أو الخضوع لها أو إقرارها..، ألا فليصدع العلماء بالحق غير هيابين، وليبلغوا ما أُمروا بتبليغه، غير موانين ولا مقصرين[١]».

الشيخ محمد الأمين الشنقيطي: ويستمر إنكار العلماء على من يحكم القوانين الوضعية، ويستبعد شريعة الرحمن في جميع شؤون الحياة، فمن هؤلاء العلماء محمد الأمين الشنقيطي، قال: إن كل من اتبع تشريعاً غير التشريع الذي جاء به سيد ولد آدم محمد بن عبدالله، فاتباعه لذلك التشريع المخالف كفر بواح، مخرج عن الملة الإسلامية.

---

(١) عمدة التفسير، ابن كثير، تحقيق أحمد شاكر، ٤/ ١٧٤.

وذكر الحديث الذي يرويه ابن عبَّاس قَالَ: (.. يَقُولُونَ: مَا ذَبَحَ اللَّهُ فَلا تَأْكُلُوا وَمَا ذَبَحْتُمْ أَنْتُمْ فكُلُوا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [(١)] إِلَى آخِرِ الآيَةِ[(٢)]، قال الشنقيطي: ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ فهو قسم من الله جل وعلا، أقسم به على أن من اتبع الشيطان في تحليل الميتة أنه مشرك، وهذا الشرك مخرج عن الملة بإجماع المسلمين، وسيوبخ الله مرتكبه يوم القيامة بقوله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[(٣)]. لأن طاعته في تشريعه المخالف للوحي هي عبادته[(٤)].

وعند قوله تعالى: ﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾[(٥)]. قال الشنقيطي: يفهم من هذه الآيات أن متبعي أحكام المشرعين غير ما شرعه الله أنهم مشركون بالله. وهذا المفهوم جاء مبيناً في آيات أخر.

ومن أكثر الأدلة صراحة في هذا أن الله جل وعلا بيّن في سورة النساء أن من يريدون أن يتحاكموا إلى غير ما شرعه الله يتُعَجَّب من زعمهم أنهم مؤمنون، وما ذلك إلا لأن دعواهم الإيمان مع إرادة التحاكم إلى الطاغوت بالغة من الكذب ما يحصل منه العجب، وذلك في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا

---

(١) سورة الأنعام، رقم الآية (١٢١).

(٢) سنن أبي داود، كتاب الضحايا، باب في ذبائح أهل الكتاب، رقم الحديث (٢٤٣٥). وأخرجه ابن ماجة في السنن، كتاب الذبائح، بَاب التَّسْمِيَةِ عِنْدَ الذَّبْحِ، رقم الحديث (٣١٦٤). وقال ابن كثير: هذا إسناده صحيح. وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم. وأقره الذهبي. انظر:

١. تفسير الطبري، ٧/ ١٦.

٢. المستدرك على الصحيحين، الحاكم، ٤/ ١١٣ و٢٣١.

(٣) سورة يس، رقم الآية (٦٠).

(٤) أضواء البيان، الشنقيطي، ٣/ ٤٣٩، ٤٤٠.

(٥) سورة الكهف، رقم الآية (٢٦).

أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا﴾[1].

وبهذه النصوص السماوية التي ذكرنا يظهر غاية الظهور أن الذين يتبعون القوانين الوضعية التي شرعها الشيطان على ألسنة أوليائه مخالفة لما شرعه الله جلا وعلا على ألسنة رسله، أنه لا يشك في كفرهم وشركهم إلا من طمس الله بصيرته، وأعماه عن نور الوحي مثلهم[2].

الفرع الثاني: الدعوة إلى سيادة الأمة في التشريع:

من مواقف جمعيات القومية من الشريعة الدعوة إلى أن يكون التشريع بيد الأمة أو مجموعة منها، لذلك تضمنت مبادئها: أن يكون التشريع بيد الأمة، وفي الخلاف الذي وقع بين العرب والترك، أجمع أعضاء الجمعيات القومية العربية على أن للعرب في الدولة العثمانية ثلاثة حقوق، هي: حق في السلطة، وحق في التشريع، وحق في التنفيذ.

والسلطة التشريعية أراد بها أعضاء الجمعيات: أنها القوة التي تعُنى بوضع القوانين والأنظمة في الأمة. ولهذا لم يرض أعضاء الجمعيات بالقوانين الصادرة من الدولة العثمانية لأنها صادرة بغير مشاركة أبناء العرب[3].

وعلى هذا الأصل فإن التشريع في مبادئ جمعيات القومية هو عبارة عن نزع السلطة من الأفراد، ووضعها بين يدي الجماعات[4]. وبهذا المبدأ تكون الأمة هي

---

(١) سورة النساء، رقم الآية (٦٠).

(٢) أضواء البيان، الشنقيطي، ٤/ ٨٣ - ٨٤.

(٣) المؤتمر العربي الأول، خطبة عبدالغني العريسي، ٤٥.

(٤) مؤلفات رفيق العظم، الجامعة العثمانية، ١٢٥.

صاحبة الأمر والنهي في شؤونها، وتكون الهيئة الحاكمة وكيلة عن الأمة في إدارة تلك الشؤون[1].

إن هذا المبدأ يمثل أحد الاتجاهات العقائدية التي ظهرت في الأمة في القرن الرابع عشر الهجري، التي تنادي بمبدأ فصل السلطات، القاضي بإسناد خصائص السيادة التي يختلف بعضها عن بعض، إلى أفراد أو هيئات مستقل بعضها عن بعض كذلك[2].

وقد يكون من أهم مبررات نزوع أعضاء جمعيات القومية العربية إلى القول بسيادة الأمة في التشريع، هو تشربهم بالعقيدة الديمقراطية، حتى قال رفيق العظم: «إن تقدم المسلمين مناط بتحقيق الحياة الديمقراطية وتأسيس المجالس النيابية، وبنهضة المسلمين العلمية وحركتهم الفكرية، وتشربهم روح الديمقراطية، ما يقرب أوان التوفيق بين مصالح الشرق والغرب، ويدعو الدول إلى مصافاة الأمم الإسلامية»[3].

واعتبر رفيق العظم من أبرز أسباب تدني نظام دولة الإسلام، انحلال عرى الحكومة الديموقراطية، فدخل الوهن على الحاكم والمحكوم، وشقي الظالم والمظلوم[4].

ومن أجل تحقيق المبادئ الديمقراطية فقد سعت الجمعيات القومية إلى أن تتحرر من سلطة الخليفة العثماني، فقد صرح أعضاء الجمعيات، بقوة نفوذ وسلطة الخليفة، بقولهم: إن السلطان هو المرجع الأعلى لكل شأن مهم، فلا يعين وزير أو موظف كبير مدني أو عسكري، ولا يصدر قانون، ولا يجري ويتم أمر رئيسي إلا بموافقته التي كان

---

(١) المؤتمر العربي الأول، خطبة إسكندر عمون، ١٠٠.
(٢) مبادئ القانون الدستوري، السيد صبري، ١٥٩، مكتبة عبدالله وهبة، مصر، الطبعة الثالثة، ١٣٦٥هـ.
(٣) مجموعة آثار رفيق العظم، (رسالة الجامعة الإسلامية وأوربة)، ٨١.
(٤) أشهر مشاهير الإسلام، رفيق العظم، ١/ ١٢٠ - ١٢٢. (بتصرف).

يعبر عنها تعبير (الإرادة السنية)، بل كان يشمل أحياناً كثيرة شؤوناً ثانوية وتافهة[١].

فكان السراب الذي سعت نحوه جمعيات القومية العربية من سيادة الشعب - زيادة على محاولة التحرر من سلطة الخليفة -، هو أن سيادة الشعب تجمع بين عناصر الأمة على اختلاف المشارب والمذاهب والآراء، وتجعلها في مستوى واحد بالحقوق والواجبات[٢].

فمن منطلق التساوي بالحقوق والواجبات بين أفراد الشعب، يتساوى رأي النصراني واليهودي، والبعثي والدرزي، ويتساوى رأي مفتي البلد ورأي راقصة على المسرح، أو رأي كاتب صحفي ملحد.

ولهذا كان مبدأ الجمعيات أن إرادة الشعب باعتباره وحدة حرة ذات كيان خاص، هي الحكم الأخير في تقرير مصيره والبت في أمره، بدلاً من جعله سلعة تتهاداه الأيدي الغاصبة، وبياعة تعرض في أسواق الاستعمار للمساومة والمقايضة[٣].

وإعطاء مجموعة من البشر أحقية التشريع وسن الأحكام في الأمة من الأفكار الوافدة على المجتمع الإسلامي، فهو ليس من مصطلحات علماء المسلمين، وإنما ورد إلى المجتمع الإسلامي بعد أن استبيحت ديار الإسلام للغرب بعد (ضعف، ومن ثم) سقوط الخلافة العثمانية، فجاسوا خلال الديار وتبّروا فيها تتبيرا..، وطبقوا هذا القانون على بلاد المسلمين، وأوجدوا جيلاً من أبناء المسلمين تربى على أعينهم وتعلم في جامعاتهم ليتبنى هذا القانون[٤].

---

(١) نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ١٨٩.
(٢) مؤلفات رفيق العظم، الجامعة العثمانية، ١٢٥.
(٣) عبدالرحمن الشهبندر، حياته وجهاده، حسن الحكيم، ١١٠.
(٤) السيادة في الإسلام، عارف أبو عيد، ٢٤، مكتبة المنار، الأردن، الزرقاء، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

فكانت فكرة سيادة الأمة من مبادئ الثورة الفرنسية، وكان أول من نادى بهذا المعتقد (جون لوك) John Locke وهو فيلسوف إنكليزي، وقد تأثر بآرائه التحررية كثير من رجال الثورة الفرنسية.

وقد نادى بهذا المبدأ في مقابل النظرية المسماة (الحق الإلهي) وهي: نظرية سياسية تقول بأن الملك يحكم بموجب سلطة مطلقة منحها من الله مباشرة فهو غير مسؤول أمام أية سلطة أرضية (كالبرلمان مثلاً)، ولكنه مسؤول تجاه الخالق وحده، وبالتالي فإن أحداً لا يستطيع أن يجرده من هذه السلطة مهما اشتط أو جار، وقد بقيت نظرية حق الملوك الإلهي سائدة في إنكلترا حتى القرن السابع عشر، أما في فرنسا فقد بقيت هذه النظرية سائدة حتى نشوب الثورة الفرنسية[١]. فصدر دستور الثورة الفرنسية عام (١٧٨٩م - ١٢٠٣هـ) ومما جاء في المادة الثالثة: الأمة مصدر السيادة ومستودعها، وكل هيئة وكل شخص يتولى الحكم إنما يستمد سلطته منها[٢].

وتمخضت الثورة عن نتائج بالغة الأهمية، فقد ولدت لأول مرة في تاريخ أوربا المسيحية دولة جمهورية لا دينية تقوم فلسفتها على الحكم باسم الشعب وليس (باسم الله) وعلى حرية التدين بدلاً من الكثلكة، وعلى الحرية الشخصية بدلاً من التقيد بالأخلاق الدينية، وعلى دستور وضعي بدلاً من قرارات الكنيسة[٣].

---

(١) موسوعة المورد العربية، منير البعلبكي.وانظر: نظام الحكم في الإسلام، محمد فاروق النبهان، ٢٤.

(٢) النظم السياسية، محمد كامل ليلة، ٤٧٣، ٤٧٥، مطبعة نهضة مصر. وانظر:
- أنظمة الحكم في الدول النامية، عبدالحميد متولي، ٣٠.

(٣) العلمانية، سفر الحوالي، ١٦٩.

الرد على موقف الجمعيات من سيادة الأمة في التشريع:

إن جميع المبررات التي ذكرها أعضاء جمعيات القومية - بالدعوة إلى سيادة الأمة في التشريع - غير مقبولة في توطيد هذا الأمر وتحكيمه في واقع المسلمين. وقد سبقت الإشارة إلى أن فكرة سيادة الأمة في التشريع لم تكن معروفة عند سلف هذه الأمة ولا في خلفها إلا بعد الغزو الفكري في مجتمعات المسلمين.

وفي المباحث السابقة[1] اتضح أن من أهداف جمعيات القومية إحلال الحكم الديمقراطي بدلاً عن الشرعي في واقع المسلمين، والقول بسيادة الأمة في التشريع من أبرز معالم الديمقراطية، حيث إن المثل الأعلى في الحكم الديمقراطي، هو أن يحكم الشعب نفسه بنفسه..، ويسن القوانين التي تحكمه، ويصرف شؤونه الإدارية الكبرى، ويقضي فيما يراد القضاء فيه[2].

فيعني الحكم الديمقراطي أن السلطة - سيادة التشريع - ترجع إلى الشعب وأنه صاحب السيادة، وأن الديمقراطية في النهاية هي مبدأ السيادة الشعبية[3].

ولما كان الشعب لا يتصور أن يقوم بمجموعه في تنفيذ سيادة التشريع لذا ظهرت في الحكم الديمقراطي المجالس النيابية، وهي تعني أن الشعب يعهد إلى نواب عنه ينتخبهم لمدة معينة، وينيبهم عنه في ممارسة السلطة التشريعية باسمه، فالبرلمان في الديمقراطية هو الممثل للسيادة الشعبية وهو الذي يعبر عن إرادة الشعب من خلال ما يصدره من تشريعات أو قوانين[4].

---

(١) انظر: الفصل الثالث، الباب الأول من الرسالة، ص: (٢٧٥).

(٢) دراسات في النظم الدستورية المعاصرة، محمد عبدالله العربي، ١٨٥.

(٣) موسوعة السياسة، عبدالوهاب الكيالي، ٢/ ٧٥٦.

(٤) المصدر السابق، ٢/ ٧٥٧.

ونهجت جمعيات القومية العربية السبيل ذاته حينما طالبت بإيجاد المجالس النيابية ووجوب مشاركة العرب في هذه المجالس.

تبين أن معنى السيادة يتلخص أساساً في الحق المطلق في التشريع الذي لا يخضع لسلطة أخرى، كما عرفها أهل الاختصاص بقولهم: «الديمقراطية يعبر عنها في الدساتير بمبدأ (سيادة الأمة)، والسيادة طبقاً لتعريفها هي سلطة عليا لا يوجد أعلى منها»[١].

ومن لوازم التسليم لهذه السلطة العليا بأنه لا توجد سلطة أخرى تملك صلاحية إعادة النظر في قراراتها، وهي سلطة لا يقيدها قانون[٢].

ويمكن حصر النقد لدعوة الجمعيات إلى نظرية السيادة في التشريع - فيما تدل عليه - في زاوية قولهم بسيادة الأمة بما تعنيه هذه العبارة من منح البشر - مهما كانت ألقابهم أو أعدادهم - حق التحليل والتحريم (التشريع)، وسن تشريعات في واقع الأمة دون الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله، وعرض ذلك فيما يلي:

أولاً: الدين حدد مصدر التشريع: لقد فرض الله تعالى الحكم بشريعته، وأوجب ذلك على عباده، وجعله الغاية من تنزيل الكتاب، فقال: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾[٤].

---

(١) أنظمة الحكم في الدول النامية، عبدالحميد متولي، ٦٢٥، ١٩٨٥م.
(٢) العلاقات الدولية، جوزيف فرانكل، ٢٥، مطبوعات تهامة، ١٩٨٤م.
(٣) سورة البقرة، رقم الآية (٢١٣).
(٤) سورة النساء، رقم الآية (١٠٥).

وكما حدد الدين مصدر التشريع بأنه الكتاب المنزل، أبانت آيات أخر أن صاحب السلطة المطلقة في التشريع هو الله وحده، كما جاء في الآية: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾[(١)].

ووصف الله تعالى حال من يتحاكم إلى غير حكم الله من أهل النفاق، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾[(٢)]؛ قال ابن تيمية عن هذه الآيات: ذم الله عز وجل المدعين الإيمان بالكتب كلها، وهم يتركون التحاكم إلى الكتاب والسنة، ويتحاكمون إلى بعض الطواغيت المعظمة من دون الله، كما يصيب ذلك كثيراً ممن يدعي الإسلام وينتحله في تحاكمهم إلى مقالات الصابئة الفلاسفة أو غيرهم، أو إلى سياسة بعض الملوك الخارجين عن شريعة الإسلام من ملوك الترك وغيرهم.

وإذا قيل لهم تعالوا إلى كتاب الله وسنة رسوله أعرضوا عن ذلك إعراضاً، وإذا أصابتهم مصيبة في عقولهم ودينهم ودنياهم بالشبهات والشهوات، أو في نفوسهم وأموالهم عقوبة على نفاقهم، قالوا: إنما أردنا أن نحسن بتحقيق العلم بالذوق، ونوفق بين الدلائل الشرعية والقواطع العقلية التي هي في الحقيقة ظنون وشبهات[(٣)].

وسيادة التشريع من دون الله ارتضاها لأنفسهم اليهود والنصارى قبل الإسلام، فهي ليست عليهم جديدة؛ قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[(٤)].

---

(١) سورة الأنعام، رقم الآية (٥٧).

(٢) سورة النساء، رقم الآية (٦١).

(٣) مجموع الفتاوى، ٧/ ٣٧.

(٤) سورة التوبة، رقم الآية (٣١).

وقد جاء في تفسير هذه الآية الكريمة حديث عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ فَقَالَ: [يَا عَدِيُّ اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الْوَثَنَ، وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فِي سُورَةِ بَرَاءَةٌ: (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ) قَالَ: أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحَلُّوهُ، وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ][1].

قال أبو البختري: «أما إنهم لم يصلوا لهم، ولو أمروهم أن يعبدوهم من دون الله ما أطاعوهم، ولكن أمروهم فجعلوا حلال الله حرامه، وحرامه حلاله، فأطاعوهم فكانت تلك الربوبية»[2].

ويعتبر عمرو بن لحي نموذجاً من نماذج سيادة التشريع عند مشركي العرب، قال النبيُّ ﷺ عنه: [رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ عَامِرِ بْنِ لُحَيٍّ الْخُزَاعِيَّ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ][3].

ومن أمثلة تشريع الجاهلية التي ذكرها القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿**مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ**﴾[4].

فكان التشريع أن: الْبَحِيرَةَ هي الَّتِي يُمْنَعُ دَرُّهَا لِلطَّوَاغِيتِ، وَلا يَحْلُبُهَا أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ، وَالسَّائِبَةُ الَّتِي كَانُوا يُسَيِّبُونَهَا لآلِهَتِهِمْ فَلا يُحْمَلُ عَلَيْهَا شَيْءٌ[5]، وَالْوَصِيلَةُ النَّاقَةُ

---

(١) سنن الترمذي، كتاب التفسير، بَاب وَمِنْ سُورَةِ التَّوْبَةِ، رقم الحديث (٣٠٢٠)، وقال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لا نَعْرِفُهُ إِلا مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ السَّلامِ بْنِ حَرْبٍ، وَغُطَيْفُ بْنُ أَعْيَنَ لَيْسَ بِمَعْرُوفٍ فِي الْحَدِيثِ.

(٢) مجموع الفتاوى، ٧/ ٦٧.

(٣) صحيح البخاري، كتاب المناقب، بَاب قِصَّةِ خُزَاعَةَ، رقم الحديث (٣٢٦٠).

(٤) سورة المائدة، رقم الآية (١٠٣).

(٥) صحيح البخاري، كتاب المناقب، بَاب قِصَّةِ خُزَاعَةَ، رقم الحديث (٣٢٦٠).

الْبِكْرُ تُبَكِّرُ فِي أَوَّلِ نِتَاجِ الإِبِلِ ثُمَّ تُثَنِّي بَعْدُ بِأُنْثَى، وَكَانُوا يُسَيِّبُونَهَا لِطَوَاغِيتِهِمْ إِنْ وَصَلَتْ إِحْدَاهُمَا بِالأُخْرَى لَيْسَ بَيْنَهُمَا ذَكَرٌ، وَالْحَامِ: فَحْلُ الإِبِلِ يَضْرِبُ الضِّرَابَ الْمَعْدُودَ فَإِذَا قَضَى ضِرَابَهُ وَدَعُوهُ لِلطَّوَاغِيتِ وَأَعْفَوْهُ مِنَ الْحَمْلِ، فَلَمْ يُحْمَلْ عَلَيْهِ شَيْءٌ»[1].

فهذه التشريعات الجاهلية قد صدرت عن عمرو بن لحي، فهو أول من سيب السوائب وكان هذا الرجل أحد ملوك خزاعة، وهو أول من فعل هذه الأشياء، وهو الذي حمل قريشاً على عبادة الأصنام. لعنه الله وقبحه[2].

وصفة السيادة هي من صفات التعظيم ولا يتصف بها إلا الله، ومن معاني قَوْلِهِ تعالى: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ أن الْعَرَب تُسَمِّي أَشْرَافَهَا الصَّمَدَ. ومن معانيه: السَّيِّدُ الَّذِي انْتَهَى سُؤْدَدُهُ[3].

ولهذا لم يرض الرسول ﷺ أن يوصف بها، فعَنْ مُطَرِّفٍ قَالَ: قَالَ أَبِي - عبدالله ابن الشخير -: «انْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْنَا: أَنْتَ سَيِّدُنَا! فَقَالَ: [السَّيِّدُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى]: قُلْنَا: وَأَفْضَلُنَا فَضْلاً، وَأَعْظَمُنَا طَوْلاً، فَقَالَ: [قُولُوا بِقَوْلِكُمْ أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ وَلا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ]»[4]. أي أن الله هو الذي تحق له السيادة[5]، وأن السؤدد حقيقة لله عز وجل، وأن الخلق كلهم عبيد له[6].

---

(١) المصدر السابق، كتاب التفسير، بَاب(مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ) الآية، رقم الحديث (٤٢٥٧).

(٢) تفسير ابن كثير، ٧/ ١٨٦.

(٣) صحيح البخاري، كتاب التفسير، بَاب قَوْلُهُ: (اللَّهُ الصَّمَدُ).

(٤) سنن أبي داود، كتاب الأدب، بَاب فِي كَرَاهِيَةِ التَّمَادُحِ، رقم الحديث (٤١٧٢). وانظر: مسند أحمد، ٣/ ٢٤٩.

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، ٢/ ٤١٧.

(٦) مختصر سنن أبي داود، ومعالم السنن، وتهذيب ابن قيم الجوزية، ٧/ ١٧٦.

ثانياً: لقد وصف الله الإنسان بصفة لا تؤهله أن يكون مشرعاً، قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾[1]. وقد وصف السلف من تعاطى مرتبة التشريع بأنه طاغوت، فقالوا: الطاغوت كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع، فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله[2].

فمن تحاكم أو حاكم إلى غير ما جاء به الرسول ﷺ فقد حَكَّم الطاغوت وتحاكم إليه بأي صورة كانت. وقال الشيخ محمد بن عبدالوهاب: والطواغيت كثيرة، ورؤوسهم خمسة منها:

١ - الحاكم الجائر المغير لأحكام الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾[3].

٢ - الذي يحكم بغير ما أنزل الله، والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾[4][5].

فالمسلم لا يدين بسلطة تشريع إلا الوحي المنزل المعصوم من الجهل والمحاباة والنقصان، قال تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾[6]، وقال: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾[7].

---

(١) سورة العلق، رقم الآية (٦ - ٧).
(٢) إعلام الموقعين، ابن القيم، ١/ ٥٣.
(٣) سورة النساء، رقم الآية (٦٠).
(٤) سورة المائدة، رقم الآية (٤٤).
(٥) الجامع الفريد، ٢٧١، طبع في مطبعة المدينة، الرياض.
(٦) سورة الأنعام، رقم الآية (٣٨).
(٧) سورة الإسراء، رقم الآية (١٢).

فمن عقيدة المسلم عند التنازع أن يكون الحاكم هو الكتاب والسنة، لأنه من حق كل أحد أن يكون حاكماً بما جاء به النبي ﷺ فقط لا بخلافه، كما أن من حق كل أحد أن يحاكم إلى ما جاء به النبي ﷺ، فمن حكم بخلافه أو حاكم إلى خلافه فقد طغى، وجاوز حده، حكماً أو تحكيماً[(١)].

والمجالس التشريعية التي تطالب بإنشائها جمعيات القومية العربية في المجتمعات الإسلامية لا تقدم لهم إلا فساد الدين والدنيا، فقرارات وأنظمة البشر تحمل الصفات البشرية من الخطأ والجهل والظلم والنقص.

وقد صرح أهل القانون بعد الجهد الذي يبذلونه لملاحقة قوانينهم تعديلاً وتبديلاً، فقالوا: «أين الحق وأين الباطل في الآراء البشرية الخاصة بهذه الموضوعات؟

إننا لا نجد لدى البشرية مقياساً للحق والباطل، كل المقاييس التي حاولت الإنسانية أن تخترعها منذ الأزمنة القديمة أثبتت فشلها وبطلانها، وبقي اختلاف البشرية كما هو، ولما لم تستطع الجماعات البشرية أن تصل بعقلها إلى الحق، وأن تكشف الباطل كان لديها المجال المتسع الكبير لتزييف الآراء أو صناعة الآراء»[(٢)].

ثالثاً: سيادة تشريع الشعب من أجل القضاء على تفرد الحاكم:

يدعي أعضاء جمعيات القومية العربية، أن سبب دعواهم بسيادة التشريع للشعب، من أجل نزع سلطة الحاكم المطلقة.

إن السيادة المطلقة سواء كانت لفرد أو لجماعة مرفوضة، وممارسة التشريع من دون الله إذا كان يقوم بها فرد واحد، فهي شبيهة بممارسة التشريع التي يقوم بها مجموعة.

---

(١) تحكيم القوانين، محمد بن إبراهيم آل الشيخ، ٩.

(٢) الشريعة الإسلامية، عبدالحميد متولي، منشأة المعارف بالإسكندرية، الطبعة الأولى.

وكان الواجب على أعضاء الجمعيات القومية أن يعودوا إلى الله الحق، وأن يطلبوا نزع ممارسة التشريع من الحاكم الفرد المطلق وردها إلى الله، ولو طلبوا هذا لوفقوا للصواب، ولكنهم طلبوا نزعها من فرد وردها إلى ممثلي الشعب. وذلك لأن المحرك لهم ليس الغيرة على الإسلام وعلى شريعة الله، وإنما المحرك لهم تقليدهم الأعمى للغرب الذي ثار على سلطة الحاكم المطلق وردها إلى الشعب.

فقد كانت نتيجة الثورة الفرنسية تسليط الشعب على مكانة التشريع، والثورة على الحق الإلهي، وهي: نظرية سياسية تقول: بأن الملك يحكم بموجب سلطة مطلقة. وهذه النتيجة مثل نتيجة ثورة الجمعيات القومية أن جعلت للشعب (أفراداً كانوا أو جماعات) الحق في ممارسة التشريع.

قال الرسول ﷺ: [لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ، شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: فَمَنْ][1].

والمنهج الإسلامي في سياسة الأمة هو التزام السلطة الإسلامية بأحكام الشريعة الإسلامية، وأن اختراع السلطة أحكاماً تخالف شرع الله وجعل ذلك ديناً يعمل به الناس منقصة لتلك السلطة[2].

فلا يحل الحكم إلا بما أنزل الله تعالى على لسان رسوله ﷺ وهو الحق، وكل ما عدا ذلك فهو جور وظلم لا يحل الحكم به، ويفسخ أبداً إذا حكم به حاكم، وبرهان ذلك: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾[3].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، بَاب مَا ذُكِرَ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، رقم الحديث (٣١٩٧).
(٢) السيادة في الإسلام، عارف أبو عيد، ١٧٤.
(٣) المحلى، ابن حزم، ٩/ ٣٦٢، كتاب الأقضية، رقم المسألة (١٧٧٤)، دار الآفاق الجديدة، بيروت.

ومنهج جمعيات القومية العربية في تقرير السيادة للشعب هو انتقال من سلطة الفرد إلى سلطة الجماعة، والأصل الانتقال من سلطة البشر وسيادتهم إلى سلطة وسيادة رب البشر.

قال تعالى مخاطباً نبيه خاصة، والأمة عامة: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1]، فإما شريعة الله وإما أهواء الذين لا يعلمون، وليس هناك من فرض ثالث، ولا طريق وسط بين الشريعة المستقيمة والأهواء المتقلبة، وما يترك أحد شريعة الله إلا لِيُحَكِّم الأهواءَ، فكل ما عداها هوى يهفو إليه الذين لا يعلمون.

قال صاحب الظلال في تفسيره قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ﴾: «إنها شريعة واحدة هي التي تستحق هذا الوصف، وما عداها أهواء منبعها الجهل، وعلى صاحب الدعوة أن يتبع الشريعة وحدها، ويدع الأهواء كلها، وعليه ألا ينحرف عن شيء من الشريعة إلى شيء من الأهواء»[2].

وقد أجمع العلماء على أنه مذ مات النبي ﷺ فقد انقطع الوحي وكمل الدين واستقر، وأنه لا يحل لأحد أن يزيد شيئاً من رأيه بغير استدلال منه، ولا أن ينقص منه شيئاً ولا أن يبدل شيئاً مكان شيء، ولا يحدث شريعة..، ولا يحل ترك ما صح من الكتاب والسنة[3].

فمما ظهر من كتاب الله تعالى وسنة نبيه وأقوال سلف الأمة، تبين مخالفة منهج جمعيات القومية العربية من الشريعة، في تبني قضية سيادة التشريع للشعب أو لمجموعة منه.

---

(١) سورة الجاثية، رقم الآية (١٨).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٥/ ٣٢٢٩.

(٣) مراتب الإجماع، ابن حزم، ١٧٤ - ١٧٥.

» الفرع الثالث: تحكيم الكفار في أحوال المسلمين:

إن تعاظم صورة الحياة الغربية في جميع مجالاتها لدى أعضاء جمعيات القومية العربية، قضية لا تحتاج إلى برهان، ومن جراء هذا التقدير والإعجاب بالحياة الغربية، لطالما طالب كثير من أعضائها بالاستعانة بالكفار والذين أطلقوا عليهم (مستشارين أجانب).

فكان من ضمن قرارات الجمعية الإصلاحية: تعين الحكومة المركزية مستشارين من الأجانب، على شرط معرفتهم إحدى اللغات الثلاث العربية أو التركية أو الفرنسية..، وتعين أيضاً مفتشاً أجنبياً عاماً لكل لواء من الألوية يخول حق تفتيش أية دائرة كانت من اللواء..، ويعين المجلس العمومي من الدول التي ترضاها الحكومة المركزية، مستشارين لدوائر: مجلس الولاية العمومي، والعدلية..، والمعارف..، والبوليس، وتكون مدة الاستشارة (١٥) سنة قابلة للتجديد[١].

وطرحت جمعيات القومية العربية موضوع الاستعانة بـ(المستشارين الأجانب) أثناء انعقاد المؤتمر العربي الأول، وأجمعت آراء أعضاء الجمعيات القومية على مبدأ استشارة الأجانب، فمن أقوال أعضاء الجمعيات:

يقول أحد الأعضاء[٢]: «لا أرى أنّا ناجحين - أعضاء المؤتمر العربي - بأي طريقة من طرق الإدارة إلا إذا استعنا في تنفيذها بمعارف الاختصاصيين من الأجانب يوم يكونون مستشارين لنا، وأن الاستعانة بمعارف الأجانب الاختصاصيين ليس فيها ما يخشى منه على جامعتنا السورية».

---

(١) ثورة العرب، أحد أعضاء جمعيات العربية، ٦٦. وانظر:

١. مجلة المنار، رشيد رضا، المجلد ١٦، الجزء ٤، سنة ١٣٣١هـ. ص:٢٧٥.

٢. مذكرات علي سلام، ١٣٣، ١٥٠.

(٢) شارل أفندي دباس.

وقال سليم سلام - عضو وأحد المؤسسين للجمعية الإصلاحية -: «ليس في نظام اللامركزية ما يمنع الاستعانة لا بالقريب ولا بالبعيد، بل هو قائم على أساس الحاجة الداخلية لكل ولاية من الولايات».

وعلى نفس المنهج سار حزب اللامركزية، فقد قال إسكندر عمون: «ليس بين برنامج حزب اللامركزية وبين اللوائح الأخرى الخاصة ببعض الولايات أي خلاف، فإن برنامج الحزب نص على أن اختيار موظفي كل ولاية من حقوق مجلس إدارة تلك الولاية..، فهو مطلق الإرادة في أمر الموظفين وفي كل الأمور الداخلية للولاية»[(١)].

ويؤكد موقف حزب اللامركزية أن مجلة المنار قد كتبت ثناءً وشكراً لأعضاء جمعية بيروت الإصلاحية بعد تأسيس نظام الجمعية، وقال صاحب المجلة: «كنت أود لو جروا - أعضاء جمعية بيروت الإصلاحية - على طريقة حزب اللامركزية بمصر فلم يقيدوا أنفسهم بهذه القيود الثقيلة في مسألة المستشارين من الأجانب..، وحزب اللامركزية الإدارية في مصر لم يتعرض في برنامجه للتفصيل لأن الإنفاق عليه متعذر، فعسى أن يكون هو الجامع للجميع»[(٢)].

وقد برر أعضاء الجمعيات الاستعانة بالمستشارين الأجانب من أجل النهوض بالبلاد العربية[(٣)]. ويتضح موقف جمعيات القومية، من قضية استشارة الأجانب حينما حددت الجمعيات مجال مهام الأجانب، والتي تتلخص فيما يلي:

١ - تفسير مواد النظام الذي تضعه الحكومة المركزية.

٢ - تفسير القرارات والأنظمة التي يضعها المجلس العمومي.

---

(١) المؤتمر العربي الأول، ١٠٥.

(٢) مجلة المنار، رشيد رضا، المجلد ١٦، الجزء ٤، سنة ١٣٣١هـ. ص: ٢٨٠.

(٣) الحركة العربية، سليمان موسى، ٨٥.

٣ - النظر والحكم في وجوب عزل الموظف أو عدمه.

٤ - النظر والحكم بناء على طلب الوالي أو أحد المستشارين في كل خلاف في الرأي يقع بين أحد المستشارين والمجلس العمومي، أو إحدى لجانه أو أية دائرة كانت. ويكون حكمه مبرماً..)(١).

ومما تجب الإشارة إليه قبل مناقشة موقف الجمعيات من الاستعانة بالأجانب، نصارى العرب هم من أبرز من تولى مهمة تأسيس الجمعيات في البلاد العربية، وقد كانت لهم سلطة في صنع القرار وتوجيه الرأي العام. فهم والمستشارون الأجانب في حكم الشريعة واحد.

فليس هناك فرق بين الكافر (الأجنبي) أو الكافر العربي (عضواً كان أم رئيس جمعية) فهم في الجانب الشرعي حكمهم واحد إذ يجمعهم الكفر، وقد قال تعالى ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾(٢).

وقد تناول علماء السلف حكم استشارة الكافر في هذا الجانب(٣)، ففرقوا فقط بين الذمي والمحارب الكافرين فقط، دون النظر إلى لغته أو بلده. وأما عن مناقشة آراء الجمعيات في مسألة استشارة الأجانب، فيمكن القول فيها بما يلي:

أولاً: الاستفادة من خبرات الأمم الأخرى، مطلب شرعي: الظاهر من نصوص الشريعة والتطبيق النبوي العملي لها، عدم الممانعة من الاستفادة من خبرات الأمم الأخرى، وقد قال تعالى عن الكفار: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ

---

(١) العرب والترك في العهد الدستوري العثماني، ٣٦٧، ٣٦٨.

(٢) سورة النساء، رقم الآية (١٤١)؛ وانظر: تفسير الطبري، ٥/ ٣٣٣. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٥/ ٤١٩.

(٣) انظر: أحكام أهل الذمة، ابن القيم، ١/ ٢٠٨.

غَافِلُونَ﴾[1]. فعندما يكون لدى الأمم الكافرة علم من علوم الدنيا المباحة، فلا ممانعة من أخذ تجاربهم، والأدلة على ذلك كثيرة منها:

١) عَنْ جُدَامَةَ بِنْتِ وَهْبٍ الأَسَدِيَّةِ أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: [لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَنْهَى عَنِ الْغِيلَةِ[2]، حَتَّى ذَكَرْتُ أَنَّ الرُّومَ وَفَارِسَ يَصْنَعُونَ ذَلِكَ فَلا يَضُرُّ أَوْلادَهُمْ][3]. قال الشنقيطي: فأخذ ﷺ منهم - يعني فارس والروم - تلك الخطة الطبية، ولم يمنعه من ذلك أن أصلها من الكفار[4].

٢) ثبت عند أهل السير أن حفر الخندق في غزوة الأحزاب كان من رأي سلمان الفارسي، الذي قال: (إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا)، فأمر النبي ﷺ بحفر الخندق حول المدينة[5]. فأخذ النبي ﷺ الخطة العسكرية التي كانت عند الفرس ولم يمنعه من ذلك أن أصلها للكفار[6].

فالموقف الطبيعي للإسلام والمسلمين من تجارب الأمم الكافرة هو أن يجتهدوا - المسلمون - في تحصيل ما أنتجته من النواحي المادية، ويحذروا مما جنته من التمرد على خالق الكون جل وعلا، فتصلح لهم الدنيا والآخرة[7].

---

(١) سورة الروم، رقم الآية (٧).
(٢) الغِيلة: بكسر الغين، ويجوز الفتح، من الغيل، وهي كما قال الإمام مالك وغيره: أن يجامع الرجل زوجته وهي مرضع. انظر: موطأ مالك، كتاب الرضاع، رقم الحديث (١١١٧). انظر: النهاية في غريب الحديث، ٣/ ٤٠٢.
(٣) صحيح مسلم، كتاب النكاح، بَاب جَوَازِ الْغِيلَةِ وَهِيَ وَطْءُ الْمُرْضِعِ، رقم الحديث (٢٦١٢).
(٤) أضواء البيان، الشنقيطي، ٤/ ٣٨٣.
(٥) انظر: المغازي، الواقدي، ٢/ ٤٤٥، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ.
(٦) أضواء البيان، الشنقيطي، ٤/ ٣٨٣.
(٧) المصدر السابق، ٤/ ٣٨٣.

ثانياً: الاستعانة بالكفار واستشارتهم: من خلال تحديد جمعيات القومية العربية لوظيفة المستشار الأجنبي يتبين إبراز سلطة الكفار على المسلمين، وأن لهم السلطة المطلقة من عزل وتوظيف وتفتيش وتفسير الأنظمة.. إلخ.

لقد قُدِّمت دراسات فقهيةٌ تبحث في مسألة الاستعانة بالمشركين(١)، وليس هذا موضع إيراد تلك المباحث، وستحصر مناقشة موقف الجمعيات في هذه المسألة من خلال مهام المستشار.

إن هذه الاستعانة المذكورة تخالف نصوص الشريعة، فهي ضد منهج الجمعيات القومية، ولأن هذا النوع من الاستعانة بمثل تحديد مهام المستشارين، فيها تسليط الكفار على المسلمين، وقد قال تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً﴾(٣).

فقد نهى الله في هذه الآية المؤمنين أن يتخذوا أهل الكفر بطانة من دون المؤمنين، وأن يستعينوا بهم في خواص أمورهم. وفي الآية دلالة على أنه لا تجوز الاستعانة بأهل الذمة في أمور المسلمين من العمالات والكتبة(٤).

وكان هذا فهم عمر بن الخطاب من هذه الآيات، فعندما قيل له: «إن ههنا غلاماً من أهل الحيرة، لم يُرَ قطُّ أحفظ منه ولا أكتب منه، فإن رأيت أن تتخذه كاتباً بين

---

(١) انظر: أحكام أهل الذمة، ابن قيم الجوزية، ١/ ٢٠٨ وما بعدها.
١. أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام، عبدالكريم زيدان.
٢. الاستعانة بغير المسلمين في الفقه الإسلامي، عبدالله الطريقي.
٣. الإسلام وأهل الذمة، علي حسني الخربوطلي.
(٢) سورة النساء، رقم الآية (١٤١).
(٣) سورة آل عمران، رقم الآية (١١٨).
(٤) أحكام القرآن، الجصاص، ٢/ ٣٦،٣٧.

يديك، إذا كانت لك الحاجة شهدك». فقال عمر: «قد اتخذت إذن بطانة من دون المؤمنين»[1].

والآيات التي ورد فيها النهي عن موالاة الكفار، من النصوص التي تمنع من جعل ولاية الكافر على المسلمين، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾[2]. وهذا نهي من الله عز وجل المؤمنين أن يتخذوا الكفار أعواناً وأنصاراً وظهوراً[3].

والثابت في سيرة الرسول ﷺ أنه لم يجعل ولاية كافر على مسلم، بل رفض عليه الصلاة والسلام مشاركة المشركين، ثبت في حديث عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهَا قَالَتْ: «خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قِبَلَ بَدْرٍ، فَلَمَّا كَانَ بِحَرَّةِ الْوَبَرَةِ أَدْرَكَهُ رَجُلٌ قَدْ كَانَ يُذْكَرُ مِنْهُ؛ جُرْأَةٌ وَنَجْدَةٌ، فَفَرِحَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ رَأَوْهُ، فَلَمَّا أَدْرَكَهُ، قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: جِئْتُ لأَتَّبِعَكَ وَأُصِيبَ مَعَكَ، قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: [تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ]؟ قَالَ: لا، قَالَ: [فَارْجِعْ فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ]. قَالَتْ: ثُمَّ مَضَى، حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالشَّجَرَةِ أَدْرَكَهُ الرَّجُلُ، فَقَالَ لَهُ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ، قَالَ: [فَارْجِعْ فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ] قَالَ: ثُمَّ رَجَعَ فَأَدْرَكَهُ بِالْبَيْدَاءِ، فَقَالَ لَهُ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ: [تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ]؟ قَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: [فَانْطَلِقْ]»[4].

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة، كتاب الأدب، في اتخاذ كاتب نصراني، ٨/ ٤٧٠، رقم الأثر(٥٩٢٣).

(٢) سورة آل عمران، رقم الآية (٢٨).

(٣) تفسير الطبري، ٣/ ١٥٢.

(٤) صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، بَاب كَرَاهَةِ الاسْتِعَانَةِ فِي الْغَزْوِ بِكَافِرٍ، رقم الحديث (٣٣٨٨). وانظر: شرح صحيح مسلم، ١٢/ ١٩٩. وقال الترمذي: وَالْعَمَلُ عَلَى هَذَا عِنْدَ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ. سنن الترمذي، عند تعليقه على حديث رقم الحديث (١٥٥٨). وحرة الوبر، هي: موضع على ثلاثة أميال من المدينة. انظر: معجم البلدان، باب الحاء والراء.

ومن مبدأ عدم إعطاء الكفار ولاية على المسلمين التزام حكام وأمراء المسلمين، فمن ذلك أن أبا موسى الأشعري، قال: «قلت لعمر رضي الله عنه: إن لي كاتباً نصرانياً. قال: مالَك؟ قاتلك الله! أما سمعت الله تعالى يقول: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾[1]، ألا اتخذت حنيفاً، قلت: يا أمير المؤمنين لي كتابته وله دينه. قال: لا أكرمهم إذ أهانهم الله، ولا أعزهم إذ أذلهم الله ولا أدنيهم إذ أقصاهم الله»[2].

قال ابن القيم: «ودرج على ذلك الخلفاء الذين لهم ثناء حسن في الأمة، كعمر بن عبدالعزيز والمنصور والرشيد والمهدي والمأمون... إلخ».

فمما ذكره ابن القيم عن عمر بن عبدالعزيز، أنه: «كتب إلى جميع عماله في الآفاق: أما بعد فإن عمر بن عبدالعزيز يقرأ عليكم من كتاب الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ جعلهم الله ﴿حِزْبَ الشَّيْطَانِ﴾ وجعلهم ﴿بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[3].

واعلموا أنه لم يهلك من هلك من قبلكم إلا بمنعه الحق وبسطه يد الظلم، وقد بلغني عن قوم من المسلمين فيما مضى أنهم إذا قدموا بلداً أتاهم أهل الشرك فاستعانوا بهم في أعمالهم وكتابتهم لعلمهم بالكتابة والجباية والتدبير، ولا خيرة ولا تدبير فيما يغضب الله ورسوله..، فلا أعلمن أن أحداً من العمال أبقى في عمله رجلاً متصرفاً على غير دين الإسلام إلا نكلت به، فإن محو أعمالهم كمحو دينهم، وأنزلوهم منزلتهم

---

(١) سورة المائدة، رقم الآية (٥١).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة، ٨/ ٤٧٠، رقم الأثر (٥٩٢٥). وانظر:

١. السنن الكبرى، البيهقي، ٩/ ٢٠٤.

٢. أحكام أهل الذمة، ابن القيم، ١/ ٢١٠.

(٣) سورة الكهف، رقم الآية (١٠٣ - ١٠٤).

التي خصهم الله بها من الذل والصغار..»[١].

ولما سئل الإمام أحمد بن حنبل: أيستعمل اليهودي والنصراني في أعمال المسلمين مثل الخراج؟ قال: «لا يستعان بهم في شيء»[٢].

يظهر بعد هذا العرض أن اتفاق جمعيات القومية العربية على توظيف المستشارين الأجانب وتمكينهم من الولاية على أحوال المسلمين، مخالف لنصوص الشريعة ولما سار عليه ولاة المسلمين في هذا الأمر.

إن المنهج الشرعي الذي سار عليه ولاة المسلمين، ليس فيه تقليل لأمر الشورى، والتي تعتبر من الأمور المهمة في سياسة الرعية، ولهذا قال أبو هريرة: (لم يكن أحد أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله). وقد قيل: إن الله أمر بها نبيه لتأليف قلوب أصحابه، وليقتدي به من بعده، وليستخرج منهم الرأي فيما لم ينزل فيه وحي من أمر الحروب والأمور الجزائية وغير ذلك، فغيره ﷺ أولى بالمشورة[٣].

ولأهمية الشورى فقد ذكر الفقهاء - رحمهم الله تعالى - شروطاً ينبغي أن يتصف بها المستشار من المسلمين، وهي كما يلي:

١ - العقل الكامل مع التجربة.

٢ - أن يكون ذا دين وتقىً.

٣ - أن يكون ناصحاً ودوداً.

٤ - أن يكون صافي الذهن والفكر حال الاستشارة.

---

(١) أحكام أهل الذمة، ابن القيم، ١/ ٢١٢. وانظر: الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ٥/ ٢٥.
(٢) أحكام أهل الذمة، ١/ ٢٠٨.
(٣) السياسة الشرعية، ابن تيمية، ١٦٦.

٥ - ألا يكون في الأمر المستشار فيه غرض يتابعه، ولا هوى يساعده[١].

فإذا كانت هذه شروط من يستشار من المسلمين، فكيف بشورى الكافرين؟ وعند استعراض الماوردي للشروط التي يجب أن يتصف بها من يستشار من أهل الذمة يظهر تحديد وتقييد سلطته، والتي منها ما يلي:

١) عدم مباشرة الحكم والنظر في المظالم.

٢) ليس له سلطة أو تصرف في أموال بيت المال سواء كان قبضاً أم دفعاً.

وبعد أن ذكر الماوردي هذه التقييدات قال: «وليس فيما عدا هذه ما يمنع أهل الذمة منها إلا أن يستطيلوا فيكونوا ممنوعين من الاستطالة»[٢].

فمن خلال الشروط والتقييدات التي أوردها الفقهاء في استشارة الكافر تبينت معارضتها لمهام المستشارين الأجانب والتي ذكرتها جمعيات القومية.

ويؤكد بطلان رأي الجمعيات في استشارة الأجانب حرص الدول الصليبية الشديد وتدبيرها كيداً لبلاد المسلمين، وتآمر الدول الصليبية على البلاد الإسلامية من أبرز أمثلة احتواء أعضاء جمعيات القومية العربية في الحرب العالمية الأولى، كما قال أحد المتآمرين: «كنت أؤمن بالحركة العربية إيماناً عميقاً، وكنت واثقاً قبل أن أحضر إلى الحجاز أنها هي الفكرة التي ستمزق تركيا شذر مذر»[٣].

ويقول أحد منظري السياسة البريطانية: (إننا نعد الجمعيات والأحزاب العربية حلفاء لنا وأصدقاء..، ونوليها ما تستحقه من الاحترام والتقدير)[٤].

---

(١) أدب الدنيا والدين، الماوردي، ٣٠٩، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.

(٢) الأحكام السلطانية، الماوردي، ٣١ (بتصرف).

(٣) أعمدة الحكمة السبعة، لورانس، ٥٥.

(٤) أسرار الثورة العربية الكبرى ومأساة الشريف حسين، أمين سعيد، ٢٤٤.

ومما جاء في خطاب وزير المستعمرات (أورمسبي غور) إلى رئيس الوزارة البريطانية (نيفيل تشمبرلين) بتاريخ ٩/ ١/ ١٩٣٨م: [... إن الحرب علمتنا أن الوحدة الإسلامية هي الخطر الأعظم الذي ينبغي على الإمبراطورية أن تحذره وتحاربه، وليس الإمبراطورية البريطانية وحدها، بل فرنسا أيضاً..

إن سياستنا تهدف أبداً إلى منع الوحدة الإسلامية والتضامن الإسلامي، وينبغي أن تكون كذلك، ففي السودان ونيجيريا كما هو الحال في مصر ودول إسلامية أخرى، شجعنا وبصواب نمو القوميات المحلية لكونها أقل خطراً من الوحدة والتضامن الإسلامي..][1].

(١) بريطانيا والخلافة الإسلامية، وثيقة تاريخية سياسية، عبدالوهاب أحمد.

المبحث الثاني: موقف الجمعيات القومية العربية من عقيدة الولاء والبراء

إن من أوثق عرى هذا الدين الحب والبغض في الله، وأن تجتمع القلوب على محبة الله وطاعته. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[١].

وقد نفيت صفة الإيمان عمن يوالي من حاد الله ورسوله، قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٢].

ففي هذه الآية يخبر ربنا بأنه لا يوجد قوم يصدقون الله، ويقرون باليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله وشاقّهما، وخالف أمر الله ونهيه، (ولو كانوا آباءهم)[٣].

وقال ابن تيمية: من أحوال القلب وأعماله ما يكون من لوازم الإيمان الثابتة فيه، بحيث إذا كان الإنسان مؤمناً لزم ذلك بغير قصد منه ولا تعمد له، وإذا لم يوجد دل على أن الإيمان الواجب لم يحصل في القلب، ففي الآية السابقة أخبر أنك لا تجد مؤمناً يواد المحادين لله ورسوله، فإن نفس الإيمان ينافي موادته كما ينافي أحد الضدين

(١) سورة المائدة، رقم الآية (٥٥).
(٢) سورة المجادلة، رقم الآية (٢٢).
(٣) انظر: تفسير الطبري، ٢٨/ ٢٦.

الآخر، وإذا وجد الإيمان انتفى ضده، وهو موالاة أعداء الله، فإذا كان الرجل يوالي أعداء الله بقلبه كان ذلك دليلاً على أن قلبه ليس فيه الإيمان الواجب[١].

﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[٢]. ذكر الله (جملةً شرطيةً) تقتضي أنه إذا وجد الشرط وجد المشروط بحرف (لو) التي تقتضي مع الشرط انتفاء المشروط، فقال: (وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ)، فدل على أن الإيمان المذكور ينفي اتخاذهم أولياء ويضاده، ولا يجتمع الإيمان واتخاذهم أولياء في القلب. ودل ذلك على أن من اتخذهم أولياء ما فعل الإيمان الواجب من الإيمان بالله والنبي وما أنزل إليه[٣].

وقد بين أهل اللغة معنى كلمتي الولاء والبراء، بما تدلان عليه من معاني النصرة والإعانة، أو العداوة والبعد. فقالوا عن تعريف الولاء: أن الولي هو التابع المحب، ومنه قول الرسول ﷺ: [من كنت مولاه فعلي مولاه][٤]، يعني من أحبني وتولاني فليتوله. والولاية على الإيمان واجبة، المؤمنون بعضهم أولياء بعض[٥].

وقال الشافعي عن حديث: [من كنت مولاه فعلي مولاه]، يعني بذلك ولاء الإسلام، كقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾[٦][٧].

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية، ٧/ ١٦.

(٢) سورة المائدة، رقم الآية (٨١ - ٨٢).

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية، ٧/ ١٧.

(٤) سنن الترمذي، كتاب المناقب، بَاب مَنَاقِبِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم الحديث (٣٦٤٦). وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

(٥) تهذيب اللغة، الأزهري، ١٥/ ٤٤٨، دار الكتاب العربي، مطابع سجل العرب، القاهرة، ١٩٦٧م.

(٦) سورة محمد، رقم الآية (١١).

(٧) لسان العرب، ابن منظور، ٣/ ٩٨٦.

وقال أهل اللغة: إن الولاية تكون إقبالاً، ومنه قوله جل وعز: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾[1] أي وجه وجهك نحوه وتلقاءه. وعن مدلول كلمة المولى، قال أهل اللغة: بأنه الحليف، وهو من انضم إليك فعزَّ بعزِّك وامتنع بِمَنَعَتِك[2].

وعلى هذا المعنى ضرب أهل اللغة مثالاً بالموالاة هو: أن يتشاجر اثنان فيدخل ثالث بينهما للصلح، ويكون له في أحدهما هوى فيواليه أو يحابيه[3].

والبراء يعني التخلص والتباعد، ومنه قوله تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[4] أي إعذار وإنذار، ويقال ليلة البراء، وهي ليلة يتبرأ القمرُ من الشمسِ، وهي أول ليلة من الشهر[5]. وبَرِئ إذا تخلص، وبَرِئ إذا تنزه وتباعد[6].

فمن هذا التعريف لكلمتي الولاء والبراء، تكون حقيقة الولاية وأصلها: تعني ضد العداوة. وهي المحبة والقرب، وأصل العداوة: البغض والبعد[7].

» منزلة الولاء والبراء من الدين:

أبين منزلة عقيدة الولاء والبراء من الإيمان أولاً، لما لها من منزلة عظيمة، وهي تعتبر من لوازم محبة العبد لله تعالى، فمن أحب الله تعالى أحب فيه، ووالى أولياءه، وعادى أهل معصيته وأبغضهم، وجاهد أعداءه ونصر أنصاره. وكلما قويت محبة العبد لله في قلبه قويت هذه الأعمال المترتبة عليها، وبكمالها يكمل توحيد العبد، ويكون

(١) سورة البقرة، رقم الآية (١٤٤).
(٢) تهذيب اللغة، الأزهري، ١٥/ ٤٥١.
(٣) لسان العرب، ابن منظور، ٣/ ٩٨٦.
(٤) سورة التوبة، رقم الآية (١).
(٥) المصدر نفسه، ١/ ٣٢ - ٣٣.
(٦) تهذيب اللغة، الأزهري، ١٥/ ٢٦٩.
(٧) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، ابن تيمية، ٦، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الرابعة.

ضعفها على قدر محبة العبد لربه، فمقل ومستكثر ومحروم[1].

وردت نصوص في كتاب الله وسنة رسوله تفيد تقريرَ وتأصيلَ معتقدِ الولاء والبراء، وأنه لا يلتقي الإيمان والكفر، كما لا يوالي أهلُ الإيمان أهلَ الكفر مهما كانت درجة قرابة ما بينهما، وجُعِل سببَ الولاية الإيمانُ، وسببَ العداوة الكفرُ. ومن هذه النصوص:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[2]، فوصف الله الذين عادَوا ووالَوْا لغير الله بأنهم ظالمون، لأنهم خالفوا أمر الله، فوضعوا الولاية في غير موضعها، وعصوا الله في أمره[3].

ومن النصوص القرآنية التي تنهى المؤمنين عن اتخاذ الكفار أولياء قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[4].

وقوله جل ثناؤه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[5].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: وهذا تنفير من موالاة أعداء الإسلام وأهله من الكتابيين والمشركين والذين يتخذون أفضل ما يعمله العاملون وهي شرائع الإسلام المطهرة المحكمة المشتملة على كل خير دنيوي وأخروي، يتخذونها هزواً يستهزئون بها، ولعباً يعتقدون أنها نوع من اللعب في نظرهم الفاسد. وقوله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ

---

(١) فتح المجيد، عبدالرحمن آل الشيخ، ٢٩٧، دار الفيحاء، دمشق، ١٤١٤هـ.

(٢) سورة التوبة، رقم الآية (٢٣).

(٣) انظر: تفسير الطبري، ١٠/٩٨.

(٤) سورة المائدة، رقم الآية (٥١).

(٥) سورة المائدة، رقم الآية (٥٧).

أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ﴾ أي لا تتخذوا هؤلاء ولا هؤلاء أولياء، والمراد بالكفار ههنا المشركون.

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، أي اتقوا الله أن تتخذوا هؤلاء الأعداء لكم ولدينكم أولياء إن كنتم مؤمنين بشرع الله الذي اتخذه هؤلاء هزواً ولعباً كما قال تعالى: ﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾(١)(٢).

وقد جاء ذكر نبي الله إبراهيم ﷺ بوصفه ومن اتبعه أسوة لمن يريد أن يتبع ملة إبراهيم ﷺ، في براءتهم من المشركين، وذلك في قوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾(٣).

أي جعل هذه الموالاة لله والبراءة من كل معبود سواه كلمة باقية في عقبه يتوارثها الأنبياء وأتباعهم بعضهم عن بعض، وهي كلمة لا إله إلا الله، وهي التي ورّثها إمامُ الحنفاء لأتباعه إلى يوم القيامة(٤).

والآيات أكثر من أن تحصى في كتاب الله مقررة معتقد الولاء والبراء في هذا الدين، وأما ما ورد في السنة فقد قال النَّبِيُّ ﷺ: [ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلا لِلَّهِ، وَأَنْ

---

(١) سورة آل عمران، رقم الآية (٢٨).

(٢) تفسير ابن كثير، ٣/ ١٣١ - ١٣٢ (بتصرف يسير).

(٣) سورة الممتحنة، رقم الآية (٤).

(٤) الجواب الكافي، ابن القيم، ٢١٣.

يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ][1]، وفي لفظ آخر: [لا يَجِدُ أَحَدٌ حَلاوَةَ الإِيمَانِ حَتَّى يُحِبَّ الْمَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلا لِلَّهِ..][2].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: [قَدْ أَذْهَبَ اللَّهُ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ[3] الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخْرَهَا بِالآبَاءِ، مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ، وَالنَّاسُ بَنُو آدَمَ، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ][4].

فمما سبق كله يتضح أن عقيدة الولاء والبراء مستمدةٌ من كتاب الله وسنة رسوله، وبهذه العقيدة كانت العلاقة قائمة بين سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين، حتى أصبحوا كما وصفهم أبو الحسن الندوي: (لم يكونوا خَدَمَةَ جِنْس، ورُسُلَ شعبٍ أو وطن، يسعون لرفاهيته ومصلحته وحده، ويؤمنون بفضله وشرفه على جميع الشعوب والأوطان، ولم يخرجوا ليؤسسوا إمبراطورية عربية ينعمون ويرتعون في ظلها..إنما قاموا لِيُخْرجوا الناس من عبادة العباد جميعاً إلى عبادة الله وحده..)[5].

وأما عن موقف الجمعيات القومية العربية من عقيدة الولاء والبراء، فقد كان للمبادئ الماسونية والشعارات التي طرحتها ونادت بها كالحرية والمساواة، أعظمَ تأثيرٍ في نقض هذه العقيدة.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، رقم الحديث (١٥).

(٢) المصدر نفسه، كتاب الأدب، بَاب الْحُبِّ فِي اللَّهِ، رقم الحديث (٥٥٨١).

(٣) معنى كلمة (عُبِّيَة): الكبر والنخوة. يريد بهذا القول ما كان عليه أهل الجاهلية من التفاخر بالأنساب والتباهي بها. وأصله من العبء، وهو الثقل. غريب الحديث، الخطابي، ١/ ٢٩٠. وانظر: معالم السنن، الخطابي، ٨/ ١٦.

(٤) سنن الترمذي، كتاب المناقب، بَاب فِي فَضْلِ الشَّامِ وَالْيَمَنِ، رقم الحديث (٣٩٥٦). وقال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ. وانظر: سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب التفاخر بالأحساب، رقم الحديث (٤٤٥٢).

(٥) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ أبو الحسن الندوي، ١٢٦.

إن الاطلاع على التنظيمات الحزبية للجمعيات، والاطلاع على تصريحات المؤسسين والمنتسبين لها، يُظْهِران انعدام عقيدة الولاء والبراء في مبادئ تأسيس الجمعيات ومناهجها، بل استبدال ولاء وبراء جاهلي بالولاء والبراء الشرعي وهو الذي يكون لله.

وقد اتخذت جمعيات القومية العربية مواقف معينة من عقيدة الولاء والبراء، فيما يلي استعراضها:

الموقف الأول: الولاء والبراء على أساس اللغة:

لقد أجمعت جمعيات القومية على أن أساس اجتماع العرب ووحدتهم هو اللغة، فكان ولاء وبراء أعضاء الجمعيات القومية من أجل اللغة.

وقد علل أعضاء الجمعيات اختيار الولاء والبراء لمبادئ القومية، بأن ذلك يؤدي إلى وحدة المشاعر والمنازع، ووحدة الآلام والآمال، ووحدة الثقافة وبكل ذلك، تجعل الناس يشعرون أنهم أبناء أمة واحدة، متميزة عن الأمم الأخرى[١].

كما صرح أعضاء جمعيات القومية العربية أن هذا الأساس أوسع شمولاً وأرحب صدراً من نظرية الدم والجنس **والدين**، لأنه يعتبر به عربياً قومياً كل متكلم باللغة العربية وليس له لغة أم غيرها[٢].

ويرى بعض منظري الفكر القومي، أن لو كانت العلاقات بين العرب بعضهم لبعض علاقة دينية لتساوى المسلمون في الدنيا جميعاً، وليس الأمر كذلك، **إذ الوشائج الدينية لا تغني في مثل هذا الأمر الخطير، ولا تقوم على أسس دينية قضية أمة دون أمة، وعلاقات دولة بدولة**[٣].

(١) ما هي القومية؟ ساطع الحصري، ٢١٠.
(٢) حول الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ١/ ١٨، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت.
(٣) قضية العرب، علي ناصر الدين، ١٥٢.

ومن هذا المنطلق اعتبر أعضاء جمعيات القومية العربية، نجاح تحقيق الولاء والبراء على أسسٍ قوميةٍ بأن اجْتَمَعَ المسلمُ السني والشيعي والدرزي والمسيحي في رحاب الجمعيات إخواناً متحابين هدفهم مجد العروبة وبعثها[1].

وكان من أبرز مطالب جمعيات القومية العربية في المؤتمر العربي الأول: إقامة حكومة يتساوى فيها جميع العثمانيين في الحقوق والواجبات فلا يستأثر فريق بحق من الحقوق، ولا يحرم فريق من حق من الحقوق، لا بداعي الجنس ولا بداعي الدين، عربياً كان أو تركياً..، أو مسلماً أو مسيحياً، أو إسرائيلياً أو درزياً[2].

وفي تقرير هذا الهدف والدفاع عنه استدل بعض أعضاء جمعيات القومية، بالوقائع التاريخية، حيث ذكروا أن النعرة الجنسية فضيلة آلية في النفس..، ولما قدم أبوعبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد بجيوش العرب المسلمين إلى الشام، وجدوا حارساً على أبوابها الغسانيين وهم عرب نصارى يتقدمهم ملكهم المسيحي جبلة بن الأيهم، إلا أن هؤلاء بدلاً من قتال المسلمين والوقوف في وجوههم عطفوا عليهم عطفة الأخ، فتركوا الجامعة الدينية والرابطة السياسية اللتين كانتا تقضيان عليهم موالاة الروم، وخطبوا ود وولاء الناطقين بلسانهم بني أبيهم العرب، مهدوا لهم السبل وفتحوا الطرق ومكنوهم كل التمكين من فتح البلاد العربية، وما أبداه نصارى غسان من العصبية العربية في هذا الشأن الخطير لأعظم شاهد على أن العرب متحمسون بالجنس قبل الدين. وهي فضيلة الشعوب الحية، فضيلة الشعوب التي لا تريد أن تموت[3].

---

(١) نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ٣٥٥.

(٢) المؤتمر العربي الأول، ١٠٤، خطبة إسكندر عمون.

(٣) المصدر السابق، خطبة ندرة مطران، ٥٨. ولم أعثر في كتب السير على النص المذكور خلال فتوحات المسلمين لبلاد النصارى، وإيراد هذا الموقف.

وقد كانت المدرسة الوطنية[1]، التي أسسها بطرس البستاني كما يقول أعضاء جمعيات القومية العربية، تسعى لكي تؤلف القلوب بين متغايري الأديان متبايني المذاهب، وتذيع المبادئ الوطنية على صدق في جانب الدولة، وإخلاص في جانب الوطن، فانسل إليها الطلبة من كل نادٍ وصوب[2].

ولدعم تحقيق الولاء والبراء على الأسس القومية تم عقد المؤتمر العربي الأول وأعلن فيه: (إن الأمة العربية أمة تطلب في الحياة حرية وعزاً، وتسعى وراء محو اختلافات جنسية ومذهبية كانت سبباً في شقائنا وشقاء تركيا معاً)[3].

وأما الولاء الشرعي الذي يكون فيه الولاء لله والبراء مما سواه، فقد نبذته الجمعيات القومية العربية، إذ يرى أعضاؤها أن الاحتكام إلى الدين في أمور الدنيا صورة من صور خلط الدين بالدنيا، وفيه انحطاط بشأن السماويات بمزجها في الأرضيات.

ولتقرير مبدأ المعتقدات الماسونية قالوا عن الولاء الشرعي: بهذا نجعل للاعتقادات دخلاً في الأعمال، فتؤثر اختلافاتنا الدينية في أعمالنا العالمية فينشأ عنها ذلك الشقاق الذي طالما كرر الأمم، وأتى بالحروب والويلات[4].

وتبرير آخر يؤكد عداء المعتقد الماسوني للولاء الشرعي: بأن الدين قل ما جمع كلمة أهله بأجمعهم إلا في الشاذ النادر، اللهم في العواطف دون الفعل..، إن أقل هذه الروابط تأثيراً في المجتمعات رابطة الدين[5].

---

(١) انظر الفصل الرابع من الباب الأول من الرسالة، ص: (٢٨٩).

(٢) دائرة المعارف، بطرس البستاني، ٥٩٠، دار المعرفة، بيروت، لبنان، (دائرة)

(٣) المؤتمر العربي الأول، ١٤٣.

(٤) سلسلة الأعمال الكاملة، سليم البستاني، ١٢٢.

(٥) مجموعة آثار رفيق العظم، (رسالة الجامعة الإسلامية)، ٤٩.

ولذا أصبحت عبارات: (الدين لله والوطن للجميع)، و (نحن عرب قبل موسى وعيسى ومحمد)، و(إن محمداً لعربي قبل أن يكون مسلماً)[1]؛ شعارات ينادي بها أعضاء الجمعيات القومية العربية.

مضى القول: إن أسوة الولاء الشرعي كان إبراهيم ﷺ ، وأما الولاء البدعي الجاهلي فقد بينت الجمعيات القومية أن الأمم النصرانية هي أسوتهم فيه.

أعلن أثناء انعقاد المؤتمر العربي الأول عن استبعاد الدين من مقررات المؤتمر، والتبعية تكون للبلاد الكافرة، بهذا البيان: «إنه حان للشرق أن يمشي في المسائل السياسية والاجتماعية مشية **أخيه** (الغرب)، الغرب اليوم مقتدى الشرق..، وإن عدم اقتباس الشرقيين شيئاً من وسائل حرية الغربيين فيه من الخطر أضعاف أضعاف ما في الجمود على الحالات المعهودة، فالاقتباس لا بد منه، وبذلك يكون واجباً علينا الشكر لأساتذتنا الذين لم يبلغوا مكانتهم في الاجتماع والسياسة مجاناً».

وقال رئيس المؤتمر: «إننا سنعترف بالجميل دائماً، وإننا سنحتفظ لأوربا ذكرى ما نقتبسه منها..، وقد جئنا أوربا ونريد أن يجيئها كثيرون منا لتكبر عقولنا وهممنا برؤية آثار العقول والهمم، جئنا أوربا ليزداد علمنا في حضارتها وأساليب اجتماعها الراقي»[2].

وعن تأثير المؤتمر في عقيدة الولاء والبراء، قال أعضاء الجمعيات: «لقد اتفق السوريون، وصافح المسلم النصراني على ما به خير الوطن، ورفع شأنه وإعلاء كلمته بين الأمم، وما أحلى توقيع الصديق الفاضل الشاعر المجيد شكري أفندي

---

(١) الشعر والوطنية في لبنان والبلاد العربية، وليم الخازن، ٨٠.

(٢) المؤتمر العربي الأول، ٣١.

غانم - نصراني - شقيقه بالوطنية جميل مردم بك، وتوقيع عزيزي ندرة - نصراني - بإزاء مواطني محمد محمصاني وهلم جراً..، وإذا دام هذا الإخاء والاتفاق ولم يعتره تحاسد ولا تضاغن ولا تنافس ولا تفريق فإنه سيكون حينئذ عنوان الخير لبلادنا التعسة التي بقيت في مؤخرة البلاد في النهضة والتقدم»[١].

وبعد تأكيد هذه التبعية التي قال عنها الرسول ﷺ محذراً عنها: [لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، شِبْرًا شِبْرًا، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: فَمَنْ!؟][٢].

وغرر أعضاء جمعيات القومية العربية بالأمة، قائلين: «بأنه من الواجب تنزيهاً لمقام الدين - كما تعتقده الجمعيات القومية العربية - أن يضعوا أديانهم جانباً في مكان مقدس محترم، ليتمكنوا من الاتحاد اتحاداً حقيقياً، ومجاراة تيار التمدن الأوربي الجديد لمزاحمة أهله، وإلا جرفهم جميعاً وجعلهم مسخرين لغيرهم»[٣].

الموقف الثاني: الزعم بعدم وجود خلاف بين المسلمين والنصارى:

إن حقيقة الولاء والبراء هي معاملة الناس بناء على قربهم أو بعدهم من الله[٤]، ولهذا قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[٥].

---

(١) مذكرات سليم علي سلام، ٢٥١، ملحق رقم (٧).
(٢) صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب، بَاب قَوْلِ النَّبِيِّ لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، رقم الحديث (٦٧٧٥).
(٣) الفكر العربي في عصر النهضة، ألبرت حوراني، ٣٠٤.
(٤) انظر: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، ابن تيمية، ٤٨.
(٥) سورة التوبة، رقم الآية (٢٣).

وقد حكم الله بتحريم موالاة من كان على غير الإيمان بقوله جل جلاله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[١].

هذا ما ينص عليه الولاء الشرعي، وأما الولاء الجاهلي الذي اعتقدته الجمعيات القومية العربية، فقد تبنت فيه مبدأ ما تسميه التسامح الديني، وألغت جميع الفوارق الدينية بين العرب، وبهذا الأمر أكد مؤسسو الجمعيات على وجوب التقاء وتآخي المسلم والنصراني، وقالوا: «نحن معاشر المسلمين الذين يؤمنون بأن الله واحد أحد، مصدر الخير، وفيه تجتمع الكمالات، فنتفق تمام الاتفاق مع إخواننا النصارى فيما يعتقدونه بالله تعالى».

وأكدوا على أنه عبث حقير أن يحاول أحد أن يضع فروقاً بيننا لاختلافات ثانوية لا شأن لها في الله، ولا شأن لها في الآخرة، ولا شأن لها في الوطنية[٢].

وبعد أن أكد الأعضاء القوميون على عدم وجود خلاف بين الإسلام والنصرانية، قرروا تحقيقاً لمبدأ الولاء الجاهلي، بأن الدم العربي الصريح في كثير من النصارى من ناحية، والتاريخ واللغة من ناحية أخرى، يجمعان بين مسلمي العرب ونصاراهم. ويجعلان وجود النصارى بين أكثرية سكان الوطن العربي الكبير غير مؤثر في توفير أسباب الوحدة عامة، وغير معكر لصفاء توفر الوحدة الروحية خاصة.

وبعد تحرير أساس الولاء الجاهلي بأنه التاريخ واللغة، أكد أعضاء الجمعيات على أنه ليس هناك أي داع حقيقي لتدابر روحي بين النصارى والمسلمين العرب،

---

(١) سورة المائدة، رقم الآية (٥١).

(٢) عبدالرحمن الشهبندر، حياته وجهاده، حسن الحكيم، ١٥٣.

بسبب اختلاف الدين وطبيعته الذاتية، من شأنه أن يعكر على ما يتوفر بين سكان الوطن العربي من أركان الوحدة الجنسية واللغوية والتاريخية.

ومن منطلق هذا الولاء: فليس بين الإسلام والنصرانية تناقض في الأهداف والدعوة بالنسبة للحياة ومثلها. وكلاهما نابعان من نبع واحد. والإسلام يعترف بقداسة السيد المسيح ونبوته وإنجيله.

ومن منطلق هذا الولاء: ليس هناك أي تباين بين النصارى والمسلمين في المصالح العامة، سواء أكان في مجال السياسة والحكم والتنظيم والتشريع، أم في مجال الحقوق والواجبات، أم في مجال الاقتصاد والاجتماع، أم في مفهوم وأهداف الفكرة العربية، وما يعود على الفريقين من منافع وعز وسؤدد نتيجة تحققها.

وليس للدين والتمايز الديني أي دخل في كل ذلك، لأنه ممارسة وجدانية، ولأن الدين الإسلامي المؤثر في حياة المسلمين، يضمن كل الضمان حقوق المواطنين من غير المسلمين وحرياتهم..، والمسيحية النقية تبشر بالمحبة والسلام وتحارب الأحقاد والمآرب الشخصية.

وإذا كان هناك شيء من أعراض الحذر والانقباض والتعصب، فإن ذلك لا يمت إلى الدين بسبب، وأسبابه تاريخية.

فقد انكشفت للنصارى نيات المستعمرين السيئة المريبة نحو العرب، مسلميهم ونصاراهم على السواء..، واستنارت الأفكار، وأخذت تدرك وتلمس وهن الأسس التي ترجع إليها تلك الأغراض، وعدم صلتها بالمبادئ والتعاليم الدينية والمصلحة القومية والوطنية.

كما أخذت تلمس قوة التشارك بين المسلمين والنصارى في القومية الوطنية والمصلحة الخاصة والعامة، فقرب كل هذا بين الطرفين، وأزال كثيراً من آثار تلك الأغراض، وجعل النصارى يندمجون في الحركات الوطنية والنضالية التي قامت في البلاد العربية...حتى ليصح أن يقال: إن جمهور النصارى في البلاد العربية، قد أخذ يندمج في المجموع العربي العام اندماجاً صادقاً عاطفة ومصلحة ووطنية وقومية[1].

فمن منطلق دعوة التقارب بين المسلمين والنصارى، وإنكار وجود خلاف بينهما فقد طمحت جمعيات القومية العربية إلى إنشاء مذهب قومي عربي تتلى بموجبه الصلوات كلها بالعربية..

وقالوا: وأي ضير يتأتى من أن تصبح اللغة العربية - لغة القرآن والإسلام العالمي - لغة المذهب الكاثوليكي؟ وأن تؤسس بطريركية خاصة لهذه الكنيسة الجديدة تحتوي كل المذاهب الأخرى في سنوات معدودة..، ويتعاطف المسلمون مع المسيحيين أيضاً لأنهم يرونهم يقتربون منهم من أجل السلام والخير العميم للوطن المشترك، الوطن العربي[2].

ومن هذا المبدأ ربط محمد عزة دروزة - وهو أحد مؤسسي جمعيات القومية - بين حكم الشريعة في طعام أهل الكتاب وبين عقيدة الولاء، وفي قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾[3].

---

(١) مختارات قومية، محمد عزة دروزة، ٦٤١ - ٦٤٣.

(٢) يقظة الأمة العربية، نجيب عازوري، ١٧٦.

(٣) سورة المائدة، رقم الآية (٥).

قال دروزة: القرآن قرر في آيات ومواضع كثيرة وحدة المنبع والهدف التي تجمع بين المسلمين وأهل الكتاب، وتجعلهم بمثابة جبهة واحدة، وأمرت المسلمين باحترام كتبهم وأنبيائهم، فجاء هذا التشريع المستمد من تلك الوحدة التي ينطوي فيها تقرير كون الكتابيين مؤمنين بالله على كل حال ولا يشبهون المشركين والوثنيين، خطوة جديدة قوية في سبيل إزالة الجفوة وتوطيد التآنس والتواثق والتعامل والتقارب عملياً بينهم، ووسيلة لإظهار محاسن الإسلام ورحابة صدره..، والحكمة الملوحة في النص على تبادل حل الطعام بين المسلمين والكتابيين هي التأنيس وقصد التواصل والتعايش بين الذين يجمعهم في العقيدة والمبادئ مصدر واحد هو الله تعالى[١].

وقال محب الدين الخطيب بمثل هذا المبدأ، حيث ذكر أن الله أحل طعام أهل الكتاب وذبائحهم ترغيباً في التواصل والتآلف والتفاهم والتعارف[٢].

الموقف الثالث: يختلفون في العقيدة ويتفقون في المعتقد القومي:

هذا موقف من مواقف الجمعيات القومية من عقيدة الولاء والبراء، ويلاحظ تقريرهم لمبدأ عدم اختلاف المنتسبين للجمعيات في العقائد الدينية، ولكن لا يقبل الاختلاف في المبادئ القومية.

ويعتبر كتاب فراغ (يقظة العرب)[٣] من أهم كتب الجمعيات القومية، الذي تناول التقسيم الجغرافي للبلاد العربية، والنظر من خلال هذا التقسيم إلى المعتقدات الدينية.

---

(١) المرأة في القرآن والسنة، محمد عزة دروزة، ١٦٣ و١٧١.

(٢) جريدة القبلة، السنة الأولى، العدد ٥٢، بتاريخ ١٩/ ٤/ ١٣٣٥هـ، ص: ١، بعنوان:الإسلام والجامعة العربية.

(٣) مؤلفه: نجيب عازوري مؤسس جمعية رابطة الوطن العربي.

فكان من نتائج هذه الدراسة: «أنه لا يوجد بين دجلة وبرزخ السويس ومن البحر المتوسط حتى بحر عمان سوى أمة واحدة هي الأمة العربية، التي تتحدث بلغة واحدة، وتمتلك تقاليد تاريخية واحدة، وتدرس الأدب ذاته، وكل فرد من هذه الكتلة العنصرية يفتخر بالانتماء إلى الوطن العربي.

إن قاطني هذه البلدان الشاسعة لا يتميز بعضهم عن البعض الآخر إلا بالأديان والطوائف والمذاهب التي لا تحصى. مثال ذلك: مسلمين سنيين، ومسلمين شيعة، ونصيريين، ودروز، وموارنة.. إلخ، والاختلافات بين المسلمين والمسيحيين، وبين الكاثوليك والأرثوذكس هي أقل بما لا نهاية له من الاختلافات بين مختلفي المذاهب.. إنها حقيقة شائنة».

قرر مؤلف الكتاب بعد هذا التقسيم والإحصاء: أن التعصب الديني غريب تماماً عن هذه الأحقاد الجهنمية. والشعب الفقير لا يفهم شيئاً ولا يقيم أي أهمية لهذه الاختلافات المذهبية..، وهنا يجب ترديد المبدأ المدون من قبل بشكل آخر: التعصب الديني ليس سوى تطور في المصلحة الشخصية.

هذا عما سماه (بالتعصب الديني)، وقال عن التعصب القومي: إن التعصب القومي شعور عفوي فطري تقريباً كمثل الشعور العائلي الذي يأخذه بعين الاعتبار كل سياسي، والذي يوجب إبعاد كل قضية دينية، هكذا لا يتباغض المسلمون والأقباط في مصر المسلمة[1].

فالاعتبار في التآخي عند جمعيات القومية العربية يكون بالأخوة القومية، كما قال أحد منظري الفكر القومي: إنني أعتبر كل عربي، مهما يكن منشؤه، ومهما تكن عقيدته

---

(1) يقظة الأمة العربية، نجيب عازوري، ١٦٧ - ١٦٨.

الدينية، أخاً لي، وإنني أفهم المصلحة العامة وأحترمها وأعمل لها، وإنني أقدس الحق والبطولة[1].

اعتبرت جمعيات القومية العربية التمسك بالدين أصل أسباب الانقسام والفرقة، قال أحد أعضاء الجمعيات: «لقد تعِبت الأمة العربية تماماً من الانقسامات التي انبعثت من مسائل مذهبية تافهة، وسترتمي في أحضان أول آتٍ شريطة أن يوفر لها الاتحاد والوئام اللذين تحتاج إليهما حاجة ماسة»[2].

ولإضفاء الصبغة الشرعية على تقرير الولاء القومي، أكد محمد عزة دروزة على أن تعاليم القرآن لا تحتوي أي مانع من اعتبار غير المسلمين من العرب المسالمين والمتضامنين مع مسلميهم، إخواناً لمسلميهم في القومية، ومن التعامل معهم على هذا الاعتبار في نطاق الدولة والكيان الاجتماعي معاً[3].

ومن منطلق الولاء القومي ألزم أعضاء جمعيات القومية العربي المسلم أن ينظر إلى مواطنه المسيحي، وأن يذكر الآية القرآنية الكريمة: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[4][5].

ومن أبرز دلائل تحقيق التسامح في الخلاف العقدي لا الخلاف القومي، أن أعضاء الجمعيات القومية قالوا: كان القوميون العرب من مسلمين ومسيحيين يطمحون إلى إنشاء دولة عربية مستقلة يتمتع فيها جميع سكان البلاد - بغض النظر

---

(١) قضية العرب، علي ناصر الدين، ١٤.

(٢) يقظة الأمة العربية، نجيب عازوري، ١٧٧.

(٣) الدستور القرآني في شؤون الحياة، محمد عزة دروزة، ١٣.

(٤) سورة المائدة، رقم الآية (٨٢).

(٥) القومية العربية تاريخها وقوامها ومراميها، مصطفى الشهابي، ٣٤٧. وانظر الرد على تأويل الآية في الفصل الأول، موقفهم من القرآن الكريم، ص: (٤٠١).

عن دينهم وعقيدتهم - بالمساواة التامة في الحقوق والواجبات[1].

يتبين من خلال دراسة كتاب (يقظة العرب) وتصريحات مؤسسي وأعضاء الجمعيات، أن جمعيات القومية العربية قد أهملت عقيدة الولاء والبراء في الدين ولم تعتبرها أصلاً في تحديد علاقاتها مع الآخرين؛ بل حاربتها.

وفي الجانب الآخر لم ترض الجمعيات الولاء والبراء إلا على أسس المبادئ القومية. كما قال عزت الجندي: «إننا عرب قبل كل شيء، المسلم عربي والمسيحي عربي..، إننا عرب قبل أن نكون مسلمين، والمسيحي عربي قبل أن يكون مسيحياً... وقد تركنا مسألة الديانات والعبادات إلى الجوامع والكنائس»[2].

وهذا المبدأ لا يرغب أعضاء جمعيات القومية العربية أن يكون مشاعاً بين أعضاء الجمعيات فقط، بل يكون هو الأمر الظاهر بين العرب جميعاً، فقد صرح مؤسسو الجمعيات بقولهم: نود أن تكون هذه الوطنية مشاعاً بين المسلمين والمسيحيين، فالناس يختلفون في عقائدهم الدينية، ولكن حياتهم الاجتماعية تسوقهم إلى الاشتراك في مثل أعلى يجتمعون على حبه وإكباره[3].

كان تبني إشاعة هذه المبادئ في الناس كي يعتقد المجتمع مبادئ الجمعيات، لتحقيق أمة يتخلى أفرادها عن مبادئ دينهم ويعتنقون المعتقدات الجاهلية، كما صُرّح بهذا الأمر في المؤتمر العربي الأول، فقد قال عبدالحميد الزهراوي: الأمة التي نعنيها هي الجماعات التي فيها روح القومية، وأما إذا طارت هذه الروح من الأشباح فإن الأمر يكون كما ذكرنا من الشتات وعدم الجامع.

---

(١) أوراق محب الدين الخطيب، القاهرة.

(٢) الأهرام، ١٠٦٨٢ بتاريخ ٢٢/ ٤/ ١٩١٣م. نقلًا عن كتاب: العرب والترك، توفيق برو، ٢٦٥.

(٣) عبدالرحمن الشهبندر، حياته وجهاده، حسن الحكيم، ٣٨٩.

فضالتنا التي ننشدها اليوم هي تلك الروح التي صارت بها الأمم أمماً، فمتى ظفرنا بها صرنا أمة بأقرب من لمح البصر. وما دامت تلك الروح غائبة عنا فما نحن إلا أشباح، لا تَشْغَلُ جموعُنا حيزاً في هذا الوجود، ولا نأخذُ نصيبنا في نظر العالم[(١)].

بعد عرض مواقف الجمعيات القومية العربية من عقيدة الولاء والبراء، وقبل مناقشة تلك المواقف أرى الإشارة إلى حقيقتين ظهرتا من خلال عرض مواقفهم من عقيدة الولاء والبراء. وهاتان الحقيقتان هما:

إن الجمعيات القومية العربية، لم تؤسس على أصول من العقيدة محددة، لذا فهي لا تعتبر المعتقد شرطاً في اكتساب عضوية الجمعية.

الثناء والإطراء على ملاحدة الشرق والغرب. والإعجاب بهم.

وقد ترتب على الحقيقة الأولى أن أعضاء وبعض المؤسسين للجمعيات القومية العربية كانوا أخلاطاً من اليهود والنصارى والنصيريين والدروز.. إلخ.

وترى جمعيات القومية العربية في هذا الأمر أبرزَ عوامل تحقيق الوحدة الوطنية، فقد قال أعضاء الجمعيات القومية: هذه المنظمات التي أنشأها شباب وكهول مسلمون ومسيحيون اشتراكاً أو انفراداً[(٢)].

كان هذا الخلط العقائدي من برامج الجمعيات، ومثال ذلك: كان من ضمن برنامج المنتدى الأدبي أن يتباحث أعضاء جمعيات القومية العربية حول خطة مثلى تتعلق بإصلاح المدارس الابتدائية في البلاد العربية، وذلك في عام ١٩١١م، واقُترح أن يكون هناك برنامج يرمي إلى إنهاض البلاد العربية على دعامتين:

---

(١) جريدة المفيد رقم ١٣٧٠ بتاريخ ٨/ ٩/ ١٩١٣م (نقلًا من كتاب العرب والترك، توفيق برو، ٤٨١).
(٢) حول الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ١/ ١٩.

١ - توثيق عرى الإخاء بين العرب على اختلاف أديانهم وطوائفهم حتى لا يذكر منهم في السياسة والوطنية غير عروبيته.

٢ - توحيد التعليم في البلاد العربية..[١].

ويذكر أعضاء الجمعيات في مذكراتهم انتساب أصحاب المعتقدات الباطلة إلى الجمعيات، فمن ذلك انتساب الدكتور نسيم ملول أحد سكان يافا اليهود، وصار عضواً عاملاً في تشكيلات حزب اللامركزية منذ ١٩١٣م.

قال مؤسسو حزب اللامركزية: [لما أسسنا حزب اللامركزية وقمنا بالحركة العربية، بادر الصهيونيون فأرسلوا إلى مصر أحد زعمائهم ليختبر حالتنا، وهو الذي حضر مؤتمر باريس، وقابلنا وتفاوض معنا في مركز اليهود بإزاء الحركة العربية، فأفهمناه أننا جماعة مبدأنا الديموقراطية، وعندنا أن كل أبناء الوطن السوري سواء في الحقوق والواجبات، وأن اليهود إذا تجنسوا بالجنسية الوطنية كانوا كغيرهم من أبناء هذا الوطن، على شرط أن تحدد هجرة الصهيونيين إلى البلاد، وأن لا يبقى منهم شخص أجنبي لا يتجنس بالجنسية العثمانية، وأن يعلموا في مدارسهم اللغة العربية ويعلموا أبناء البلاد في هذه المدارس إلى غير ذلك من الشروط][٢].

كما تم عقد لقاء بين أعضاء جمعيات القومية العربية، وبين رئيس اللجنة التنفيذية الصهيونية، وتم الاتفاق على مناقشة النقاط التالية:

أولاً: أن العرب واليهود من جنس واحد، ولكل منهما مزايا متممة للآخر..، فالتوفيق بينهما يكون لخيرهما وخير الشرق كله.

---

(١) العرب والترك في العهد الدستوري العثماني، ٢٦٦.
(٢) أوراق محب الدين الخطيب، القاهرة.

ثانياً: يستقبل العرب اليهود في البلاد العربية كإخوان لهم على أن يتجنس اليهود بالجنسية العثمانية، وأن لا تكون فلسطين خاصة بهم.

ثالثاً: في مقابل ذلك يتعهد اليهود بوضع قواهم الأدبية والمادية في خدمة القضية العربية ويؤازرون الأحزاب العربية، ويضعون تحت تصرفها ثلاثة ملايين من الجنيهات.

رابعاً: يعقد مؤتمر عربي يهودي في مصر أثناء عودة نواب سورية والعراق من إستنبول إلى بلادهم...).

وقد تم عقد هذا الاجتماع بين رئيس اللجنة التنفيذية الصهيونية، ونواب العرب وبعض رجال الجمعية الإصلاحية ببيروت وكانوا عائدين حينئذ من باريس - أي في عام ١٩١٣م-، فقر قرارهم على أن يعقد مؤتمر في القاهرة يحضره نواب سورية وفلسطين والعراق والحجاز مع بعض زعماء اليهود للنظر في الاقتراحات المتقدم ذكرها..)[١].

وأما عن انتساب النصارى فإن أصل القضية العربية هو من تأسيس النصارى العرب كما سبق بيانه، ولهذا كانوا رؤساء لبعض الجمعيات، التي من آخرها حزب البعث الذي تولى رئاسته النصراني ميشيل عفلق. وتفرع هذا الأمر في بقية فروع حزب البعث فكانت معظم الكوادر القيادية دون القيادة القطرية مسيحية[٢].

---

(١) مذكراتي على هامش القضية العربية، أسعد داغر، ٣٤، ٤٤. واسم رئيس اللجنة التنفيذية: الصهيونية هو (جاكبسون).

(٢) سياسي يتذكر تجربة في العمل السياسي، جمال الشاعر، ٦٤. وانظر:
١. المؤتمر العربي الأول، ١٤.
٢. أسرار الثورة العربية الكبرى، أمين سعيد، ٢٤٢، دار الكاتب العربي.
٣. حزب البعث العربي، جلال السيد، ٨٤. (بتصرف يسير).

هذا ما يتعلق بالحقيقة الأولى، أمّا ما يتعلق بالحقيقة الثانية وهي الثناء والمدح لأفكار الملاحدة والكفرة وما قدموه من مبادئ ضالة.

فمثال ذلك: قول محمد عزة دروزة عند حديثه عن أهمية وجود الزعيم في الحركات السياسية المنظمة وعن الصفات التي يجب أن يتحلى بها، قال: (والمدقق في الحركات القومية النضالية في الغرب يرى مصداق هذا في تاريخ بلدان كثيرة كأيرلندا وبولندة وإيطالية وألمانية.

وقد كان في الشرق أمثولتان عظيمتان من ذلك، تمثلت في (كمال آتاتورك) والحركة الوطنية الاستقلالية في تركيا الحديثة، وفي (غاندي[1]) والحركة الوطنية الاستقلالية في الهند.

قال دروزة عن هذين الشخصيتين: لقد تمت على يدي هذين الزعيمين العظيمين الموسرين معجزة خارقة ما كانت لتتم لولا اتصافهما بصفات الزعيم القوي في إيمانه وقلبه وعقله وروحه وإقدامه ودأبه وتجرده وتضحيته)[2]، كما مدح أعضاء جمعيات القومية البارزين من رجال الثورة الفرنسية وأهم الدعاة إليها[3].

---

(١) غاندي: موهانداس كرمشند(١٨٦٩، ١٩٤٨م) زعيم سياسي وروحي هندي. لقب بـ(المهاتما Mahatma) أي النفس الكبيرة. نادى باللاعنف، وبالمقاومة السلبية. عمل على تحرير الهند من نير الاستعمار البريطاني فدعي (مهندس الاستقلال الهندي). دعا إلى إزالة الحواجز بين الطبقات الاجتماعية، وإلى الوحدة بين الهندوس والمسلمين والسيخ. قتله هندوسي متعصب. أشهر آثاره سيرته الذاتية التي دعاها (قصة تجاربي مع الحقيقة The Story of My Experiments with Truth (عام ١٩٢٧م) وقد نقلها إلى العربية منير البعلبكي. انظر: (روح عظيم «المهاتما غاندي»، عباس محمود العقاد).

(٢) حول الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ١/ ٩٤.

(٣) انظر: مجموعة آثار رفيق العظم، (رسالة الجامعة الإسلامية وأوربة)، ٥٩.

» مناقشة مواقف جمعيات القومية العربية:

بعد بيان موقف جمعيات القومية العربيَّة، من عقيدة الولاء والبراء، التي سبق في بداية المبحث الإشارة إلى مكانتها من الدين، انكشفت المخالفات الشرعية عند الجمعيات ودعوتها العودة إلى الجاهلية التي نبذها الإسلام، وحذر منها، كما في قول الرسول ﷺ: [لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَطَمَ الْخُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ][1].

ودعوى الجاهلية هي التناصر والولاء على الباطل والظلم[2]، كما ترجم البخاري في صحيحه: باب ما يُنهى من دعوى الجاهلية[3]، وذكر الحديث الذي ورد فيه تشاجر المهاجرين والأنصار: وَقَالَ الأَنْصَارِيُّ: يَا لَلأَنْصَارِ! وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ! فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: [مَا بَالُ دَعْوَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ!؟ ثُمَّ قَالَ: مَا شَأْنُهُمْ؟ فَأُخْبِرَ بكسعة[4] الْمُهَاجِرِيِّ الأَنْصَارِيَّ. قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [دَعُوهَا فَإِنَّهَا خَبِيثَةٌ][5].

والولاء الشرعي لا يكون للغة أو لعشيرة، إنما الولاء يكون للمؤمنين مهما كانت لغاتهم وأوطانهم، والبراءة من الكافرين تكون دون النظر للغاتهم أو أنسابهم، وفي الحديث سئل النبي ﷺ: [مَنْ أَكْرَمُ النَّاس؟ قَالَ: أَتْقَاهُمْ، فَقَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ، قَالَ: فَيُوسُفُ نَبِيُّ اللَّهِ ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ خَلِيلِ اللَّهِ، قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، بَاب لَيْسَ مِنَّا مَنْ شَقَّ الْجُيُوبَ، رقم الحديث (١٢١٢).
(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر، ٦/ ٦٣٢.
(٣) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب ما ينهى من دعوى الجاهلية.
(٤) كسعة: يعني ضرب الدبر باليد أو الرجل. وفي رواية الطبري: أن رجلًا من المهاجرين كسع رجلًا من الأنصار برجله. وذلك في أهل اليمن شديد. انظر:
١. القاموس المحيط، باب العين، فصل الكاف.
٢. النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير، ٤/ ١٧٣.
٣. فتح الباري، ابن حجر، ٨/ ٥١٧.
(٥) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب ما ينهى من دعوى الجاهلية، رقم الحديث (٣٢٥٧).

نَسْأَلُكَ، قَالَ: فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونِ! خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإِسْلامِ إِذَا فَقُهُوا][1].

فأراد النبي ﷺ في هذا الحديث أن من كانت له مأثرة وشرف، فإذا أسلم وفقه، فقد حاز إلى ذلك ما استفاده بحق الدين، ومن لم يسلم فقد هدم شرفه وضيعه[2].

وسوف ينحصر الرد على موقف جمعيات القومية العربية من عقيدة الولاء والبراء في النقاط التالية:

الأمر الأول: دعوى أنه لا خلاف بين الإسلام والنصرانية، ولا بين النصارى والمسلمين؛ من أشنع الباطل في عقيدة الولاء الجاهلي عند جمعيات القومية العربية، ويمكن تلخيص منهجهم المنحرف بالنقاط التالية، بعد أن بسط القول فيه من قبل معزواً لأصحابه:

إنّ الجميع - الإسلام والنصرانية - يتفقون فيما يعتقدونه في الله تعالى. والفرق الذي بين الإسلام والنصرانية فروق واختلافات ثانوية لا شأن لها في الله، ولا شأن لها في الآخرة، ولا شأن لها في الوطنية[3].

ليس بين الإسلام والنصرانية تناقض في الأهداف والدعوة إلى الحياة ومُثْلها. وكلاهما صادر عن نبع واحد، والإسلام يعترف بقداسة السيد المسيح ونبوته وإنجيله.

وليس هناك أي تباين بين النصارى والمسلمين في المصالح العامة، سواء أكان في مجال السياسة والحكم والتنظيم والتشريع، أم في مجال الحقوق والواجبات، أم في مجال الاقتصاد والاجتماع.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، بَاب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: (وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً)، وَقَوْلِهِ: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ) وَقَوْلِهِ: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ)، رقم الحديث (٣١٠٤).

(٢) شرح السنة، البغوي، ١٤/٥٨.

(٣) انظر: عبدالرحمن الشهبندر، حياته وجهاده، حسن الحكيم، ١٥٣.

ليس هناك أي داع حقيقي لتدابر روحي بين النصارى والمسلمين العرب، بسبب اختلاف الدين وطبيعته الذاتية، من شأنه أن يعكر على ما يتوفر بين سكان الوطن العربي من أركان الوحدة الجنسية واللغوية والتاريخية.

ليس للدين والتمايز الديني أي دخل في كل ذلك، لأنه ممارسة وجدانية، ولأن الدين الإسلامي المؤثر في حياة المسلمين، يضمن كل الضمان حقوق المواطنين من غير المسلمين وحرياتهم..، والمسيحية النقية تبشر بالمحبة والسلام وتحارب الأحقاد والمآرب الشخصية..، وإذا كان هناك شيء من أعراض الحذر والتعصب، فإن ذلك لا يمت إلى الدين بسبب[1].

من هذه المفاهيم الجاهلية قررت جمعيات القومية العربية عدم وجود خلاف بين الإسلام والنصرانية، وقد سبق الحديث عن تأويل جمعيات القومية العربية لآيات القرآن الكريم المتعلقة بعلاقة المسلم بالنصراني.

ومما لا شك فيه حينما تنشر هذه المفاهيم في واقع المسلمين ويلزم الواقع العمل بمقتضاها، فإنه يؤدي إلى نقض عقيدة الولاء والبراء.

ومن المقرر في كتاب الله وسنة رسوله وكلام أهل الإسلام أنه ليس بين الإسلام والنصرانية التقاء في جميع ما ذكر، وذلك أن عقيدة النصارى الشركية باطلة، ابتدعوها بعد المسيح عليه السلام، وحرفوها عما جاء به الدين الحق، فضل منهم من عدل عن شريعة المسيح إلى ما ابتدعوه. ثم لما بعث الله محمداً كفروا به، فصار كفرهم وضلالهم من هذين الوجهين: تبديل دين الرسول الأول، وتكذيب الرسول الثاني[2].

---

(١) مختارات قومية، محمد عزة دروزة، ٦٤١ - ٦٤٣.

(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ابن تيمية، ١/ ١٠٩ - ١١٠ (بتصرف يسير).

والفروق بين الإسلام والنصرانية في كتاب الله وسنة رسوله أكثر من أن تعد وتحصى، بل إن الاختلاف في العقائد واقع بين النصارى أنفسهم، فلما رفع عيسى عليه السلام اختلف الحواريون وغيرهم فيه..، وافترقوا إلى اثنتين وسبعين فرقة(1)، كما ورد في الحديث [تَفَرَّقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ أَوِ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَالنَّصَارَى مِثْلَ ذَلِكَ، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً](2).

فكيف تزعم جمعيات القومية العربية أن الاختلاف بين الإسلام والنصرانية اختلاف ثانوي!؟(3) وقد قال السلف عن طوائف النصارى: يتكلمون بكلام لا يعقلون معناه ليس منقولاً عن الأنبياء حتى يسلم لقائله بل هم ابتدعوه، وإذا سألتهم عن معناه قالوا: هذا لا يُعرف بالعقول فيبتدعون كلاماً يعرفون بأنهم لا يعقلونه، وهو كلام متناقض ينقض أولهُ آخره، ولهذا لا تجدهم يتفقون على قول واحد في معبودهم حتى قال بعض الناس: لو اجتمع عشرة نصارى، افترقوا على أحد عشر قولاً..، ولو سألت قساً من قساوستهم عن مذهبهم في المسيح، وسألت أباه وأمه لاختلفوا عليك الثلاثة، ولقال كل واحد منهم قولاً لا يشبه قول الآخر..، وإذا طولبوا بتفسير قول من أقوالهم فسره كل منهم بتفسير يكفر به الآخر..لاختلافهم في التوحيد(4).

---

(1) الملل والنحل، الشهرستاني، ١/ ٢٢٠.

(2) سنن الترمذي، كتاب الإيمان، مَا جَاءَ فِي افْتِرَاقِ هَذِهِ الأُمَّةِ، رقم الحديث (٢٥٦٤) وقال الترمذي: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. وانظر:

١. مسند الإمام أحمد، ٢/ ٣٣٢.

٢. سنن أبي داود، كتاب السنة، بَاب شَرْحِ السُّنَّةِ، رقم الحديث (٣٩٨٠).

(3) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، القرطبي، مكتبة الحرمين، الرياض. وانظر:

١. المسيحية، أحمد شلبي، النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الثامنة، ١٩٨٤م.

٢. اليهودية والمسيحية، محمد ضياء الرحمن الأعظمي، ٤٣٥.

(4) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ابن تيمية، ٢/ ١٦٦ - ١٦٧.

فإذا كان بين أنفسهم هذا الاختلاف، فمن باب أولى أن يكون بينهم وبين المسلمين، فهم أمة الضلال وعباد الصليب الذين سبوا الله الخالق مسبة ما سبه إياها أحد من البشر، ولم يقروا بأنه الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

فكيف ينادي أعضاء الجمعيات بأنه لا خلاف بين الإسلام والنصرانية إلا خلافاً ثانوياً، مع أن أصل عقيدة النصرانية أن الله ثالث ثلاثة، وأن مريم صاحبته وأن المسيح ابنه[1] إلخ من الانحرافات العقائدية التي اتفقت عليها طوائف النصارى.

ومن الآيات التي ذكرت عقائد النصارى، قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾[2]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ

(١) هداية الحيارى في الرد على اليهود والنصارى، ابن القيم، ١٩، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان. وانظر:
الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ابن تيمية، ٢/ ١٢.
(٢) سورة النساء، رقم الآية (١٧١).
(٣) سورة المائدة، رقم الآية (٧٣).
(٤) سورة المائدة، رقم الآيات (١١٦ - ١١٧).

﴿يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[١].

ومما يكنه النصارى للمسلمين ما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[٢].

إن الله عز وجل يخبرنا في هذه الآية على جهة التأكيد والدوام أن اليهود والنصارى لن يصطلحوا معنا، ولن يسالمونا أو يرضوا عنا، حتى نتبع باطلهم، ونحذو حذوهم في شركهم وكفرهم وانحلالهم[٣].

وليس خافياً على أحد ما آلت إليه أمور المسلمين في كثير من البلدان العربية، حاك النصارى الصليبيون مؤامرة القومية العربية فأزاحوا بها الخلافة الإسلامية، وابتدعوا أحزاباً قومية فمسخت تعاليم الإسلام من العقول، تارة بما تدعيه من علمية، وأخرى بما تثيره من شبهات حول الإسلام، وإذا وقف شيء من الحق في وجهها لجأت إلى الحديد والنار حتى إذا آلت أجيال المسلمين إلى فوضى وضياع في المفاهيم والتصورات، قدموا لهم النموذج الغربي النصراني في المأكل والملبس والسلوك، وعلق بعض أبناء المسلمين سلاسل الصليب الذهبية في أعناقهم، ولم يعد يحتاج النصارى من الكافرين أن يسمعوا أبناء المسلمين ليقولوها الآن بأفواههم لكنهم سيطالبون بها في المستقبل القريب. ويأبون إلا أن نتبع ملتهم ونتبع أهواءهم.

الأمر الثاني: جاء بيان في كتاب الله وسنة نبيه بأن لله من الناس أولياء، وأن للشيطان من الناس أولياء، قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٤]،

(١) سورة التوبة، رقم الآية (٣٠).

(٢) سورة البقرة، رقم الآية (١٢٠).

(٣) الموالاة والمعاداة في الشريعة الإسلامية، محماس بن عبدالله الجلعود، ١/ ٧٦.

(٤) سورة يونس، رقم الآية (٦٢).

وقال: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1]، وقال تبارك اسمه: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[2].

ومن الآيات التي ورد فيها ذكر لأولياء الشيطان، قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ - إلى قوله - ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾[4] وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾[5].

فلما كان لله أولياء وللشيطان أولياء فقد كان لزاماً أن يوالي المسلم أولياء الله، ويعادي أولياء الشيطان، كما أمر الله بذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[6].

وبتحقيق الولاء والبراء يستكمل المسلم إيمانه، لقول رَسُول اللَّهِ ﷺ: [مَنْ أَعْطَى لِلَّهِ تَعَالَى، وَمَنَعَ لِلَّهِ، وَأَحَبَّ لِلَّهِ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، وَأَنْكَحَ لِلَّهِ؛ فَقَدِ اسْتَكْمَلَ إِيمَانَهُ][7].

---

(١) سورة البقرة، رقم الآية (٢٥٧).
(٢) سورة المائدة، رقم الآية (٥٥).
(٣) النحل، رقم الآية (٩٨، ١٠٠).
(٤) سورة النساء، رقم الآية (١١٩).
(٥) سورة الأنعام، رقم الآية (١٢١).
(٦) سورة المائدة، رقم الآية (٥١).
(٧) مسند الإمام أحمد، ٣/ ٤٣٨. انظر: سنن أبي داود، كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، رقم الحديث (٤٠٦١). وقال الخطابي: في إسناده القاسم بن عبدالرحمن، أبو عبدالرحمن الشامي. وقد تكلم فيه غير واحد. (معالم السنن، الخطابي، ٧/ ٥١). وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، المستدرك، ٢/ ١٦٤.

إن الإيمان بالله والكفر بالطاغوت، وموالاة المؤمنين والبراءة من المشركين هو سبيل الأنبياء والمرسلين، فقد قال تعالى عن إبراهيم: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾[١]، وقال تعالى عن هود: ﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾[٢].

وقد أخبر الله تعالى عن طلب نبيه نوح ﷺ بنجاة ابنه من الغرق، ورد الله تعالى عليه، بقوله جل جلاله: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[٣].

فنبي الله نوح ﷺ الذي مكث في قومه يدعو لربه ألف سنة إلا خمسين عاماً، كان الحكم الإلهي القاطع معه في مسألة الولاء والبراء: ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، وذلك حينما سأل الله ما ليس له به علم، لأن الوشيجة التي يتجمع عليها الناس في هذا الدين وشيجة فريدة تتميز بها طبيعة هذا الدين، وتتعلق بآفاق وآماد وأبعاد وأهداف يختص بها ذلك المنهج الرباني الكريم.

إن هذه الوشيجة ليست وشيجة الدم والنسب، وليست وشيجة الأرض والوطن، وليست وشيجة القوم والعشيرة، وليست وشيجة اللون واللغة، وليست وشيجة الجنس والعنصر..، إن هذه الوشائج جميعها قد توجد ثم تنقطع العلاقة بين الفرد والفرد، كما قال تعال لعبده نوح: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾.

---

(١) سورة الممتحنة، رقم الآية (٤).

(٢) سورة هود، رقم الآية (٥٤ - ٥٥).

(٣) سورة هود، رقم الآية (٤٢ - ٤٧).

وهذا هو المعلم الواضح البارز على مفترق الطريق بين نظرة هذا الدين إلى الوشائج والروابط، وبين نظرات الجاهلية المتفرقة..، إن الجاهليات تجعل الرابطة آناً هي الدم والنسب، وآناً هي الأرض والوطن، وآناً هي القوم والعشيرة، وآناً اللغة وآناً المصالح المشتركة أو التاريخ المشترك..، وكلها تصورات جاهلية - على تفرقها أو تجمعها - تخالف مخالفة أصيلة عميقة عن أصل التصور الإسلامي(1).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّه عَنْه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: [قَدْ أَذْهَبَ اللَّهُ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخْرَهَا بِالآبَاءِ، مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ، وَالنَّاسُ بَنُو آدَمَ، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ](2).

الأمر الثالث: من مبررات أعضاء جمعيات القومية، لاعتناق الولاء الجاهلي قولهم: إقصاء هيمنة الدين واعتباره كما قالوا: (ممارسة وجدانية). بهذا التصور عن قيمة الدين في واقع الحياة عند جمعيات القومية العربية، تعطلت أساسيات العقيدة وأحكام الشريعة. فقد أرادت الجمعيات القومية، أن يعتقد المسلم في دينه ما يعتقد الكفار في فهم دينهم: (أعط ما لقيصر لقيصر، وما لله لله)، هذا الشعار الذي ترفعه أوربا كلما أملى عليها الهوى أن تخالف منهج الله وتتمرد على شرعه، وبفضل هذا الشعار أخذ الدين ينكمش وينحسر على مر القرون حتى لم يبق له في أحسن الأحوال إلا ساعة في الأسبوع خاوية من كل معنى(3).

والذي يدل عليه كلام الله وكلام رسوله أن الدين ليس فقط في القلوب والوجدان، وإنما هو ممارسات قلبية وعملية ولفظية، قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ

---

(1) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٤/ ١٨٨٦.

(2) سنن الترمذي، كتاب المناقب، بَاب فِي فَضْلِ الشَّامِ وَالْيَمَنِ، رقم الحديث (٣٩٥٦). وقال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ. وانظر: سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب التفاخر بالأحساب، رقم الحديث (٤٤٥٢).

(3) العلمانية، سفر الحوالي، ٦٥.

الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[١].

في آية واحدة يضع القرآن الكريم قواعد التصور الإيماني الصحيح، وقواعد السلوك الإيماني الصحيح، ويحدد صفة الصادقين المتقين..، آية واحدة تجمع بين أصول الاعتقاد، وتكاليف النفس والمال، وتجعلها كلّاً لا يتجزأ، ووحدة لا تنفصم. وتضع على هذا كله عنواناً واحداً هو (البر).. والحق أنها خلاصة كاملة للتصور الإسلامي ولمبادئ المنهج الإسلامي المتكامل لا يستقيم بدونها إسلام[٢].

وإقامة الدين في جميع مناحي الحياة، وأن يكون حاكماً في جميع شؤون الناس، هو شرع الله الذي شرعه لجميع الملل، كما قال: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[٣].

فمعنى الآية: شرع لكم ولمن قبلكم إقامة الدين وترك الفرقة، وشرع الاجتماع على اتباع الرسل[٤]، دون التفات إلى أهواء المختلفين. ومن هيمنة هذا الدين الواضح المستقيم، ودحض حجة الذين يحاجون في الله، وإنذارهم بالغضب والعذاب الشديد[٥].

وبهذا المفهوم الشرعي كان إقامة الدين في واقع الناس من أسباب اجتماع الكلمة

---

(١) سورة البقرة، رقم الآية (١٧٧).
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، ١/ ١٦١.
(٣) سورة الشورى، رقم الآية (١٣).
(٤) زاد المسير، ابن الجوزي، ٧/ ٢٧٧.
(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٥/ ٣١٤٧.

لقول الرسول ﷺ: [..إِنَّ هَذَا الأَمْرَ فِي قُرَيْشٍ لا يُعَادِيهِمْ أَحَدٌ إلا كَبَّهُ اللَّهُ فِي النَّارِ عَلَى وَجْهِهِ مَا أَقَامُوا الدِّينَ][١]. فقوله ﷺ: [مَا أَقَامُوا الدِّين] أي: مدة إقامتهم أمور الدين، وإذا لم يقيموا الدين خرج الأمر عليهم[٢].

فمما سبق يتبين بطلان ما قررته جمعيات القومية العربية، في واقع الأمة من تهميش قضية الدين، وعدم اعتباره الأساس والمرجع والمآل.

الأمر الرابع: الاجتماع على الأسس الدينية هو العاصم من الضلال، قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾[٣]. لقد كان العرب قبل جمعهم على دين الله أمة متفرقة كما قال تعالى - تمام الآية السابقة -: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾.

ومعنى الآية: اذكروا أيها المؤمنون نعمة الله عليكم التي أنعم بها عليكم حين كنتم أعداءً بشرككم، يقتل بعضكم بعضاً، عصبية في غير طاعة الله ولا طاعة رسوله، فألف الله بالإسلام بين قلوبكم، فجعل بعضكم لبعض إخواناً، بعد إذ كنتم أعداء تتواصلون بإلفة الإسلام واجتماع كلمتكم عليه[٤].

وبما زعمته جمعيات القومية العربية - حينما استبعدت الدين الذي يكون الولاء والبراء من أجله - قد خالفت نص هذه الآية الكريمة، فبالتمسك بوحي الله العزيز تحصل الوحدة الصحيحة، بها يكون التجمع الصحيح، والشعور الصحيح عن محبة ومواساة، وهو تجمع على التصور الديني لجميع مناهج الحياة، لا تجمع على شيء

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الأحكام، بَاب: الأُمَرَاءُ مِنْ قُرَيْشٍ، رقم الحديث (٦٦٠٦).
(٢) فتح الباري، ابن حجر، ١٣/ ١٢٥.
(٣) سورة آل عمران، رقم الآية (١٠٣).
(٤) تفسير الطبري، ٤/ ٣٣.

سواه من التصورات الجاهلية، فإنه لا يمكن أن تتحقق منها الوحدة الكاملة المنشودة إنما هي خلافات جذرية عقائدية تزيد في أحقادهم، وعداوة بعضهم لبعض، بخلاف الأخوة الدينية فإنها راسخة في القلوب.

وليس من الولاء الشرعي الدعوة إلى الوحدة، أو الاتحاد باسم حبل الله أو سماحة الدين - كما يدعيه أعضاء الجمعيات - مع من نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، فإن هذا غش للمسلمين، إذ لا يجوز اتحادهم إلا مع المعتصم بحبل الله. وليُعلَم علم اليقين أنه لا يحصل على وحدة أو اتحاد بهذه المبادئ والمذاهب القومية والمادية، ولا يحصل على الوحدة المبنية على المودة والحنان، إلا بانتهاج الإسلام الصحيح[(١)].

لقد ذكرت الآية السابقة نعمة الله على العرب إذ جمعهم بعد تفرق، وألف بين قلوبهم بعد عداوات، وكله من آثار الولاء الشرعي.

وأما عن مكاسب الجمعيات - من الولاء الجاهلي - فلا نجد إلا ضياع مملكة واسعة الأرجاء، والابتلاء بالاستعمار العسكري، ثم الاستعمار الفكري الذي مزقهم شر ممزق[(٢)].

وقبل ضياعِ الملك والاستعمار العسكري، ظهر كثير من الخلافات بين أعضاء الجمعيات حين تأسيسها، مثال ذلك ما يذكره أعضاء جمعية بيروت الإصلاحية، فبعد أن وضعت الجمعية الإصلاحية لائحة نظامها، التي منها: وجوب انتخاب أعضاء المجلس العمومي مناصفة بين المسلمين وغير المسلمين[(٣)]، إلا أن أعضاء الجمعية

---

(١) صفوة الآثار والمفاهيم، عبدالرحمن الدوسري، ٤/ ٢٦٢ - ٢٦٥ (بتصرف).

(٢) المصدر السابق، ٤/ ٢٦٥.

(٣) قال رشيد رضا عن هذا الاتفاق: إنني أشكر لإخواني أهل بيروت هذا العمل الإصلاحي الذي أقيم على أساس الاتفاق بين مسلميهم ونصاراهم، وإن بذل الأولون في استمالة الآخرين ما لم يبذله غيرهم من الناس، وهو أنهم رضوا أن تكون قلة النصارى في الولاية مساوية لكثرة المسلمين في الاشتراك بإدارة حكومتهم، فهذا برهان عملي قاطع على تساهل من يعدون أشد المسلمين=

من غير المسلمين طلبوا أن يكون النصيب الأعظم لهم، وأصروا على أن يكون لأعضائهم أكثر من النصف. فيقول سليم علي سلام - **أحد المؤسسين للجمعية** -: وحباً بعدم عقد الاتفاق ارتأينا أن لا نتداخل بالانتخاب[(١)].

ولهذا تقدم بالشكر القائدُ العام للحملة المصرية «المارشال اللنبي» للجمعيات القومية العربية - التي تقرر مبدأ الولاء الجاهلي - على ما قدمته لجيوش التحالف بقوله: (إن المساعدات التي قدمها لنا العرب لا تثمن).

وبعد الحرب العالمية الأولى سلّم أمين سر رئاسة وزارة فرنسا، للأمير فيصل وسام الصليب الحربي، وشارة سعف النخل، مع كتاب هذا نصه: إنه أمير يشار إليه بالبنان، مملوء حمية ونخوة، أيد بعزم وطيد قضية أبيه ملك الحجاز سنة ١٩١٦م، لخلع النير التركي وتأييد قضية الحلفاء.. إلخ[(٢)].

والأمير فيصل بن الحسين هو من أهل ودعاة الولاء الجاهلي، حيث يقول: (الدين لله والوطن للجميع، نحن عرب قبل موسى وعيسى ومحمد، إن محمداً لعربي قبل أن يكون مسلماً)[(٣)].

ويذكر أعضاء جمعيات القومية المآسي التي حلت بالأمة بسبب هذا الولاء الجاهلي، يقول ساطع الحصري وهو من أبرز منظري فكر جمعيات القومية العربية: «خرج فيصل من حدود المملكة التي كان يحكمها ما يقارب من سنتين، وتلقت الحركة

=عصبية في سورية..، ونعد لهؤلاء المسلمين من المزية سماحهم ببعض حقوقهم لأبناء وطنهم ونشكر للجميع الوحدة الوطنية والاتفاق. انظر: مجلة المنار، المجلد ١٦، الجزء ٤، ص: ٢٨٠، سنة١٣٣١هـ.

(١) مذكرات سليم علي سلام، قدم لها وحققهاحسان علي حلاق، ١٦٤، ١٤٠١هـ.

(٢) أسرار الثورة العربية الكبرى، أمين سعيد، ٢٩١ - ٢٩٣.

(٣) الشعر والوطنية في لبنان والبلاد العربية، وليم الخازن، ٨٠.وانظر: الاتجاه القومي، عمر دقاق، ٣٥٢.

القومية التي ثار العرب من أجلها ضد الترك ضربة قومية، وزالت بذلك الدولة العربية في دمشق إثر حملة عسكرية شنت عليها بعد سلسلة طويلة من المناورات السياسية، كانت ميسلون حداً فاصلاً، وتبعثر على إثرها رجال الثورة العربية ودعاة القومية في مختلف الأقطار ليجابهوا حياة كفاح جديدة شاقة ومتشعبة(١).

ويصف خير الدين الزركلي(٢) - أحد أعضاء جمعيات القومية العربية - ما شاهده من أحداث في تلك الفترة، فيقول: (بعد إعلان ملكية الأمير فيصل الأول: بعد البيعة بعشرة أيام أبلغت فرنسا وإنجلترا الأمير فيصل بأنهما لا تعترفان بصحة بيعته ملكاً، ودعي للحضور إلى أوربا لعرض قضيته أمام مجلس عالٍ، فاعتذر بأن أعمال مملكته الجديدة لا تسمح له بمغادرة البلاد، ثم وقعت حوادث شغب واعتداء بين الطوائف في الشام، وتكونت عصابات..، وكانت الحكومة العربية في أيدي العامة والهازلين من أمراء جيشها، وخطط الأحزاب متضاربة، وأعضاء كل حزب متعادون متشاكسون بينهم)(٣).

وفي نهاية الحرب واحتلال البلاد العربية، علق (لورانس) على هذه الأحداث قائلاً: إن العرب قد ثاروا ضد الترك لا لأن الحكومة التركية فاسدة فساداً خاصاً، بل لأنهم يريدون الاستقلال..، ولم يغامروا بحياتهم في المعركة حباً بتغيير الأسياد كي يصبحوا رعايا بريطانيين أو مواطنين فرنسيين، بل ليكتسبوا المظهر الخاص بهم(٤).

الأمر الخامس: لقد أحل الله طعام الذين أوتوا الكتاب وهو نص الكتاب المنزل، وقد أجمع العلماء على حل ذبائحهم(٥). وهذا الشرع الحكيم ليس ولاءً لهم كما يقول

(١) ميسلون، ساطع الحصري، ١٨. وانظر: يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ٢٧٤و٤٥٦.
(٢) انظر الترجمة رقم (٢٢).
(٣) ما رأيت وما سمعت، خير الدين الزركلي، ٣٢ - ٣٣، مكتبة المعارف، الطائف.
(٤) مجلة المقتطف، الجزء ١، المجلد ٧٩، في تاريخ ١٩٣٣م، بعنوان: لورانس في الميزان، عبدالرحمن الشهبندر.
(٥) الإجماع، ابن المنذر، كتاب الضحايا والذبائح، رقم فقرة الإجماع (٢٢٢)، دار طيبة، ١٤٠٢هـ.

أعضاء جمعيات القومية العربية، ولا محبة لمعتقدهم ومذهبهم، وإنما العلة في ذلك لوجود التذكية في ذبائحهم[1]، ولأنهم يتوقّون القاذورات[2].

ولهذا قال السلف عن فهم هذه الآية: لا بأس بذبيحة أهل الكتاب إذا أهلوا لله وسموا عليها، قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾[3]. والمسلم في قلبه اسم الله، وما أهل لغير الله به مما ذبحوا لكنائسهم وأعيادهم يجتنب ذلك[4].

استنبطت جمعيات القومية العربية من حكم جواز أكل ذبائح أهل الكتاب دلالات فاسدة بنوا عليها مبدأً من مبادئهم، واتخذوه في مناهج دعوتهم إلى القومية العربية ضد الدين، قالوا: «وذلك لإزالة الجفوة وتوطيد التآنس والتواثق والتعامل والتقارب عملياً بين المسلمين والنصارى، يخالف النصوص الأخرى التي تنص على وجوب بغضهم ومخالفتهم الذي هو أصل التعامل مع أهل الكتاب».

لقد أهمل أعضاء جمعيات القومية العربية النصوص الأخرى الواردة في الكتاب والسنة التي تدعو إلى مخالفة أهل الكتاب، ومنها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[5]، وقوله تعالى شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾[6]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾[7]،

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٦/ ٧٧.
(٢) أحكام القرآن، ابن العربي المالكي، ٢/ ٥٥٢، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
(٣) سورة الأنعام، رقم الآية (١٢١).
(٤) أحكام أهل الذمة، ابن القيم، ١/ ٢٤٥.
(٥) سورة المائدة، رقم الآية (٥١).
(٦) سورة الممتحنة، رقم الآية (١).
(٧) سورة آل عمران، رقم الآية (١٠٠).

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ﴾[1].

هذا بعض ما ورد في كتاب الله في وجوب مخالفة ومعاداة أهل الكتاب، وأما ما ورد في السنة من النهي عن التشبه بأهل الكتاب، فقد أخبر به محذراً فقال ﷺ: [لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: فَمَنْ؟][2].

وكان النبي ﷺ طوال دعوته يذكّر الأمة بألا تنهج نهج أهل الكتاب مع أنبيائهم، كما روي عن أبي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ قوله: حينما خرج الصحابة عَنْ مَكَّةَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى حُنَيْنٍ، وَكَانَ لِلْكُفَّارِ سِدْرَةٌ يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا، وَيُعَلِّقُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ، يُقَالُ لَهَا: ذَاتُ أَنْوَاطٍ، قَالَ: فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ خَضْرَاءَ عَظِيمَةٍ، قَالَ: فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: [قُلْتُمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾، إِنَّهَا السُّنَنُ لَتَرْكَبُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ سُنَّةً سُنَّةً][3].

ولما حرف أهل الكتاب كتابهم قال تعالى في حقهم: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾[4].

وقد حذر النبي ﷺ أمته من الاختلاف في كتاب الله، فحينما سَمِعَ أَصْوَاتَ رَجُلَيْنِ

---

(١) سورة المائدة، رقم الآية (٥٧).

(٢) صحيح البخاري، كتاب، بَاب مَا ذُكِرَ عَنْ بَنِي إِسرائِيلَ، رقم الحديث (٣١٩٧).

(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل، ٥/ ٢١٨.

(٤) سورة البقرة، رقم الآية (٧٩).

اخْتَلَفَا فِي آيَةٍ، فَخَرَجَ عَلَيْهِم رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعْرَفُ فِي وَجْهِهِ الْغَضَبُ فَقَالَ: [إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِاخْتِلافِهِمْ فِي الْكِتَابِ][1].

ولما كان السلام يدل على المودة والولاء كما قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: [لا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَلا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ!؟ أَفْشُوا السَّلامَ بَيْنَكُمْ][2].

لِما يحمله هذا الأدب الإسلامي (السلام) من المعاني فإن الشريعة تحقيقاً لمبدأ الولاء والبراء نهت أن يبدأ المسلم أهل الكتاب بالسلام بدليل قول رَسُول اللَّهِ ﷺ: [لا تَبْدَؤُوا الْيَهُودَ وَلا النَّصَارَى بِالسَّلامِ، فَإِذَا لَقِيتُمْ أَحَدَهُمْ فِي طَرِيقٍ فَاضْطَرُّوهُ إِلَى أَضْيَقِه][3].

ويستمر نبينا محذراً أمته من مشابهة أهل الكتاب وهو على فراش الموت، قالت عائشة: لَمَّا نَزَلَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً عَلَى وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ كَشَفَهَا عَنْ وَجْهِهِ، فَقَالَ وَهُوَ كَذَلِكَ: [لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ. يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا][4].

فهذه بعض النصوص الواردة في كتاب الله تعالى وسنة رسوله التي تحدد علاقة المسلمين بأهل الكتاب على أساس الولاء والبراء، وهي تنقض ما قررته جمعيات القومية العربية من مبادئ الولاء الجاهلي.

الأمر السادس: إن موالاة اليهود والنصارى وإشراكهم في تقرير مصير الأمة،

---

(١) صحيح مسلم، كتاب، بَاب النَّهْيِ عَنِ اتِّبَاعِ مُتَشَابِهِ الْقُرْآنِ، رقم الحديث (٤٨١٨).
(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، بَاب بَيَانِ أَنَّهُ لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلا الْمُؤْمِنُونَ، رقم الحديث (٨١).
(٣) المصدر السابق، كتاب السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام، رقم الحديث (٤٠٣٠).
(٤) صحيح البخاري، كتاب، بَاب مَا ذُكِرَ عَنْ بَنِي إِسرائِيلَ، رقم الحديث (٣١٩٥).

كما حصل في الثورة العربية، التي قال عنها أعضاء الجمعيات: «إن الثورة العربية قد أشغلت نحو أربعين ألف جندي تركي بين المدينة وعمان، وأنها كانت عاملا كبيراً في اندحار تركية وانتصار الحلفاء عليها »[1]. كل هذا فيه مخالفة لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾[2].

نهى الله في هذه الآية المؤمنين به أن يتخذوا من الكفار به أخلّاءَ وأصفياءَ، ثم عرفهم ما هم عليه لهم منطوون من الغش والخيانة، وبغيهم إياهم من الغوائل، فحذرهم بذلك منهم عن مخالّتهم[3].

إن هذه الآية وغيرها من الآيات التي تنهى عن موالاة الكفار، واتخاذ الغريب عن الملة بطانة لمن يقوم بأمر الملة، وإن كانت له صلة النسب، فإن مخالفته في الدين تجعله غريباً، والغريب عن الدولة لا يجوز اتخاذه بطانة لرجال الدولة... فهم يقذفون الغش والتلبيس، كما جرى للمستعصم آخر خلفاء العباسيين، حين استوزر ابن العلقمي الرافضي، ركيزة التتار، حتى خدعه، وصار فريسة لهم فكانت نكبة على المسلمين[4].

ولم يرض النبي ﷺ أثناء تبليغ رسالته أن يدعو أحدٌ من المسلمين ينتمي إلى عصبية جاهلية، فحينما قال الصحابة من المهاجرين والأنصار: (قَالَ الأَنْصَارِيُّ: يَا لَلأَنْصَارِ،

---

(١) القومية العربية تاريخها وقوامها ومراميها، مصطفى الشهابي، ١٢٠.

(٢) سورة آل عمران، رقم الآية (١١٨).

(٣) تفسير الطبري، ٤/ ٦٠.

(٤) صفوة الآثار والمفاهيم، عبدالرحمن الدوسري، ٤/ ٢٩٧. وقال أهل التاريخ عن خيانة الوزير الرافضي ابن العلقمي للأمة: كان حريصاً على إزالة الدولة العباسية، ونقلها إلى العلوية، والرسل في السر بينه وبين التتار. وانظر عن سقوط بغداد وسعي ابن العلقمي: البداية والنهاية، ابن كثير، ١٣/ ٢١٣. تاريخ الخلفاء، السيوطي، ٥٣٢ - ٥٤٢.

وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ) قال: النَّبِيُّ ﷺ: [مَا بَالُ دَعْوَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ!؟ دَعُوهَا فَإِنَّهَا خَبِيثَةٌ][١]. فإذا كان من دعا إلى المهاجرين واستنصر بهم على إخوانهم في الدين، أو إلى الأنصار واستنصر بهم على إخوانهم في الدين يكون قد دعا بدعوى الجاهلية، مع كونهما اسمين محبوبين لله سبحانه، وقد أثنى الله عليهم ثناءً عظيماً؛ فكيف تكون حال من انتسب إلى القومية واستنصر بها وغضب لها؟ أفلا يكون أولى بأن يكون قد دعا بدعوى الجاهلية[٢].

(١) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب ما ينهى من دعوى الجاهلية، رقم الحديث (٣٢٥٧).
(٢) مجموع فتاوى الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز، ١/ ٢٩٥ - ٢٩٦.

المبحث الثالث: موقف الجمعيات العربية القومية من نبوة الرسول ﷺ وسيرته

اعتنى سلف الأمة بسيرة الرسول ﷺ، فقاموا بتدوينها والتصنيف في سننه وأيامه وغزواته بياناً للناس لأنها سيرة النبي والرسول المصطفى ﷺ المقتدى به، فذكروا تفصيلاً أحوالَه وقصصَه وأخبارَه، وشؤونَ حياتِه.

وهذا ناجم عن عمق فهم السلف لمدلول كلمة (شهادة أن محمداً رسول الله)، قال ابنُ بطة: «إن الله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه قد جعل في كل زمان فترة من الرسل ودروساً للأثر، لطفاً بعباده ورفقة بأهل عنايته، ومن سبقت له الرحمة في كتابه، لا يخلو زمان من بقايا من أهل العلم وحملة الحجة، يدعون من ضل إلى الهدى ويذودونهم عن الردى، يصبرون منهم على الأذى ويُحيون بكتاب الله الموتى، ويبصّرون بعون الله أهلَ العمى، وبسنة رسول الله أهلَ الجهالة والغبا»[1].

وروى أهل الحديث حرص السلف من الصحابة والتابعين على معرفة ونشر سنة النبي ﷺ ممتثلين قوله: [أَلَا لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، فَلَعَلَّ بَعْضَ مَنْ يُبَلَّغُهُ أَنْ يَكُونَ أَوْعَى لَهُ مِنْ بَعْضِ مَنْ سَمِعَهُ][2].

فمما رووا في هذا الباب ما حدّث به عمر بن الخطاب عن نفسه أنه قال: (كُنْتُ أَنَا وَجَارٌ لِي مِنَ الأَنْصَارِ فِي بَنِي أُمَيَّةَ بْنِ زَيْدٍ - وَهِيَ مِنْ عَوَالِي الْمَدِينَةِ - وَكُنَّا نَتَنَاوَبُ النُّزُولَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، يَنْزِلُ يَوْمًا، وَأَنْزِلُ يَوْمًا، فَإِذَا نَزَلْتُ جِئْتُهُ بِخَبَرِ ذَلِكَ الْيَوْمِ

---

(١) الإبانة عن شريعة الفرق الناجية، ابن بطة، ١/ ١٩٧، دار الراية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
(٢) صحيح البخاري، كتاب المغازي، بَاب حَجَّةِ الْوَدَاعِ، رقم الحديث (٤٠٥٤).

مِنَ الْوَحْيِ وَغَيْرِهِ، وَإِذَا نَزَلَ فَعَلَ مِثْلَ ذَلِك)[١].

وقد نقل السلف السيرة النبوية، التي شملت جميع جوانب حياته ﷺ، بدقة وأمانة، قيل لسلمان الفارسي رضي الله عنه: قَدْ عَلَّمَكُمْ نَبِيُّكُمْ ﷺ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى الْخِرَاءَةَ. فَقَالَ: أَجَلْ، لَقَدْ نَهَانَا أَنْ نَسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةَ لِغَائِطٍ أَوْ بَوْلٍ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِالْيَمِينِ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِأَقَلَّ مِنْ ثَلاثَةِ أَحْجَارٍ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِرَجِيعٍ أَوْ بِعَظْمٍ][٢].

ومن أدق ما روى الصحابة - رضي الله عنهم -، عدد الشعرات البيضاء في وجهه، فقد حدّث وَهْبُ أَبِي جُحَيْفَةَ السُّوَائِيُّ، قَالَ: «رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَرَأَيْتُ بَيَاضًا مِنْ تَحْتِ شَفَتِهِ السُّفْلَى، الْعَنْفَقَةَ»[٣].

فكان نهج السلف في بيان سيرة الرسول للناس من أجل الاقتداء به، ولزوم سنته، كما قال القاضي عياض في بيان مقصده من الكتابة في سيرة الرسول ﷺ: «هو التعريف بقدره الجسيم، وخُلقِه العظيم، وبيان خصائصه التي لم تجتمع قبل في مخلوق، وما يُدانُ للهِ تعالى به من حقه الذي هو أرفع الحقوق، ليستيقن الذين أوتوا الكتاب، ويزداد الذين آمنوا إيماناً، ولما أخذ الله تعالى على الذين أوتوا الكتاب لَيُبَيِّنُنّه للناس ولا يكتمونه»[٤].

وإن كتابة السيرة النبوية ودراستها لغرض الاهتداء والاقتداء بها، وهو ما نهجه علماء السلف المتأخرين أيضاً، وكل مسلم اليوم بأشد الحاجة لدراسة وفهم سيرته ﷺ، ليخرج بها من الظلمات إلى النور، ومن الضلالة إلى الهدى، ومن الغي إلى

---

(١) المصدر السابق، كتاب العلم، بَاب التَّنَاوُبِ فِي الْعِلْمِ، رقم الحديث (٨٧).
(٢) صحيح مسلم، كتاب الطهارة، بَاب الاسْتِطَابَةِ، رقم الحديث (٣٨٥).
(٣) صحيح البخاري، كتاب، بَاب صِفَةِ النَّبِيِّ ﷺ، رقم الحديث (٣٢٨١).
(٤) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض، ١/ ٦.

الرشد، ومن السفه إلى الحكمة[1].

ومما يجب الإشارة إليه في بداية هذا المبحث، أن القضية ليست مسألةُ إنكار أعضاء الجمعيات القومية للآيات الكونية، أو الجزئيات المتعلقة بصفاته ﷺ، وإنما القضية بحث مواقف أولئك الأعضاء الذين تشربت معتقداتهم بالمبادئ الباطلة والمذاهب المنحرفة، كعدم إيمانهم ببعثة المصطفى، وعدم اعتقادهم بأن الله قد أنزل القرآن على عبده ورسوله محمد ﷺ، ولا يرون أن الله جلّت قدرته قد خص نبيه بشيء من المعجزات وخوارق العادات.

لذلك لا غرابة في وصف عفلق البعثي النصراني النبيَّ، بقوله: «الأديب كالنبي، لابد أن يضطهد من أجل رسالته، ولا فرق بينهما يميز الأديب على النبي وهو أن هذا يحمل في جديده بذور الموت، إذ إنه يجيء بجديد يفرضه على المستقبل، ويحرم عليه التجديد، في حين أن جوهر الأدب حرية لا نهاية لها»[2].

وقد أشار إلى هذا الأمر شيخ الإسلام في عصره مصطفى صبري مبيناً التدرج في هذه المسألة من الجرح في ثقات الرواة، حتى إنكار المسلمات من الأمور الغيبية[3].

وقد اتخذ أعضاء الجمعيات مواقفَ من سيرة النبي ﷺ وما ظهر من دلائل نبوته ﷺ، تتوافق مع المنهج الذي سمي بالمنهج العقلي، الذي ظهر في بدايات القرن التاسع عشر الهجري، وهو ما يسمى «بالعلم التجريبي» أي - المادي -.

وصف أعضاء الجمعيات هذا المنهج بأنه من مميزات القرن التاسع عشر، وجعلوه بمثابة الروح العلمية التي عمت دوائر الحياة البشرية جميعاً، اتَّخذت العلومُ والمعارف

---

(١) مختصر سيرة الرسول، عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب، ٧، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض.

(٢) ميشيل عفلق (الكتابات الأولى)، ذوقان قرقوط، ٧٦.

(٣) موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، مصطفى صبري، ١/ ١٩ - ٢٣.

فيه وجهةً يصح أن تسمى جديدة، ووضُعت على أساس راسخ بفضل البحث العلمي المبني على الملاحظة والتجربة بخلاف ما كانت عليه قبلاً من الاعتماد على آثار السلف والاكتفاء بما تركوه من العقائد والآراء.

فلما بزغ فجر العصر الحديث قال أعضاء الجمعيات: تحررت الشعوب من القيود القديمة على اختلافها، تخللت تلك الروح جميع العلوم والمعارف، فترك المفكرون سلطة الأقدمين جانباً لأن الخضوع الأعمى لها كان حجرَ عثرةٍ في سبيل التقدم المادي والأدبي، وانتهجوا طريقاً جديداً كان رائدهم فيه الوقوف على الحقيقة المجردة عن كل غرض[١].

فقدّم أعضاء الجمعيات القومية في مجلاتها - انطلاقاً مما تقدم ذكره وبعد تحللهم من الدين - دراساتٍ عن سيرة الرسول ﷺ منطلقة من منهج (النهضة العلمية)، ومن أهم مقاصدها كما قالوا: «إعادة الحياة إلى الأفراد وبث روح الاستقلال فيهم، وانتشالهم من عبودية الجماعات التي كانوا رازحين تحت أثقالها، والسعي للإفراج عن أرواحهم المثقلة بالعقائد الدينية»[٢]. وبسبب من ذلك تناولوا السيرة النبوية وما وقع على يدي الرسول من آيات سالكين المنهجَ العقليَّ المجرَّد عن القبول والانقياد.

ويمكن - بعد دراسة مجموعة ما كتبه أعضاء الجمعيات القومية العربية، في السيرة النبوية - أن أقسم منهجية كتاباتهم في سيرة الرسول إلى قسمين:

القسم الأول: كتابة الأعضاء ذوي الاعتقادات الباطلة، والمذاهب الفاسدة من نصارى وغيرهم، فقد كتبوا في السيرة النبوية وألقوا محاضرات عنها تسيء إلى مقام النبوة، وبعيدة في مقاصدها عن الاهتداء والاتباع.

---

(١) مجلة الهلال، مجلد (٢٥) سنة، ص: ٢٣٣.

(٢) المصدر السابق، ص: ٣٢٠.

ذكر رشيد رضا بأن شبلي شميل، - وهو نصراني من مؤسسي الجمعيات - كتب إليه كتاباً قال فيه: «أنت تنظر إلى محمد كنبي فتجعله عظيماً، وأنا أنظر إليه كرجل وأجعله أعظم، ونحن وإن كنا في الاعتقاد (الدين أو المبدأ الديني) على طرفي نقيض فالجامع بيننا العقل الواسع والإخلاص في القول، وذلك أوثق بيننا لعرى المودة»[١].

وقال شيخ الإسلام في عصره؛ الشيخ مصطفى صبري عن شبلي شميل: «بأنه ناشر فكرة الإلحاد في البلاد العربية بحماسة وصراحة»[٢].

ومن أبرز هؤلاء الكتاب جرجي زيدان النصراني الذي استتر برداء العروبة، وتوارى خلف شعارات القومية، ومهد له الإعلام الغربي ليلعب دوره الطبيعي في كتابة التاريخ الإسلامي مشوّهاً مبتوراً[٣].

فمن أبرز كتب جرجي زيدان: كتاب (تاريخ التمدن الإسلامي)، وسلسلة من (الروايات التاريخية)، وأصبحت كتبه في هذا المجال منهلاً آسناً يستقي منها القوميون العرب[٤].

وأصبح عدد ممن تولوا نشر المعتقدات والأفكار المنحرفة في المجتمعات الإسلامية من الأدباء والكتاب يرددون ادّعاءات جرجي زيدان على تراثنا وتاريخنا

---

(١) مجلة المنار، المجلد (١٩)، الجزء (١٠)، بتاريخ ٢٩/ ٦/ ١٣٣٥هـ.ص: ٦٢٧.

(٢) موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين، مصطفى صبري، ٤/ ٩.

(٣) نبش الهذيان من تاريخ جرجي زيدان، أمين بن حسن الحلواني، تقديم محمد السيد الوكيل، من المقدمة ٦.

(٤) انظر على سبيل المثال:

١. فلسفة تاريخ محمد ﷺ، محمد جميل بيهم.
٢. أضواء على السنة المحمدية، محمود أبو رية.
٣. محمد عبدالغني حسن، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر سلسلة أعلام العرب، الجزء ٩٠.

كطه حسين، وسلامة موسى، ولويس عوض، ولطفي السيد، ومحمود عزمي، وحسين فوزي.. إلخ[١].

القسم الثاني: كتابة أعضاء الجمعيات القومية الذين فُتنوا بمنهج المدرسة العقلية، وأرادوا أن يوفّقوا بين منهجية السلف في كتابتهم للسيرة النبوية، وبين منهج أعضاء الجمعيات من النصارى وغيرهم، وقد ضلوا سواء السبيل في محاولة التوفيق[٢].

إذ اتفق الفريقان من أعضاء الجمعيات القومية العربية على كتابة السيرة النبوية بالمنهج العقلاني والتزامه. ورأوا أن العقل وقواعد العلم الإنساني قد بلغا رشدهما مع بداية القرن التاسع عشر فلم تعد تجدي فيهما معجزة، ولا تنفع فيهما غريبة لأن الشكوك قد كثرت مع كثرة المواد العلمية[٣]، وقد صرح كلا الفريقين في كتاباتهم عن السيرة النبوية باتباع هذا المنهج.

قال فريد وجدي عن منهج كتاب السيرة وفق روايات الإسناد: إن الكثيرين ممن تناولوا منا السيرة المحمدية بالكتابة جعلوا معتمدهم الأساليب الخطابية والأفانين البيانية، ولم يعنوا أقل عناية بحاجة العقول القوية المجبولة على التشكك والتثبت، فأسرفوا في إهمال الناحية الإقناعية، وتهافتوا على الناحية التسليمية..، وقد تناول التأليف في السيرة في العهد الأخير رجالٌ من أهل الثقافة الحديثة، فوفوا بحاجات في نفوس الناس[٤].

---

(١) جرجي زيدان في الميزان، شوقي أبو خليل، ٧، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣هـ.
(٢) انظر: دراسات في السيرة النبوية، محمد سرور، ١٨١، دار الأرقم، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
(٣) المدنية والإسلام، محمد فريد وجدي، ٧١ - ٧٢، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ١٣٥٣هـ.
(٤) السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة، ٤٠.

وكتب فريد وجدي ذاته السيرة بنفس منهج المدرسة العقلية، قال: «إننا نحرص فيما نكتبه في هذه السيرة على مسايرة مذهب المبالغين في التثبت، والمحافظين على إقامة الدستور العلمي، ثقة منا بأن بحثاً لا تحترمه النخبة المثقفة، ولا تجد فيه صورة صحيحة إلا في عرض المسائل وتحليلها، لا يمكن أن يؤدي إلى ما قصد منه من الخدمة العامة»[١].

وقال محمد جميل بيهم: عند الحديث عن المعجزات -: «إن فريقاً من الأعاجم كانوا يشتهون أن لا تبقى سيرة النبي مجردة عن الخوارق والمعجزات التي تحفل بها سير أنبيائهم في أديانهم السابقة، فراحوا ينسبون لمحمد معجزات لم يرد ذكرها في القرآن، ولم يشر إليها الحديث»[٢].

وعلى المنهج نفسه سار محمد حسين هيكل في كتابه (حياة محمد) قال: «إنني أجري في هذا البحث على الطريقة العلمية الحديثة وأكتبه بأسلوب العصر، وإنني أفعل ذلك لأنه الوسيلة الصالحة في نظر المعاصرين لكتابة التاريخ وغير التاريخ من العلوم والفنون.

وما كان لي وذلك شأني، أن أتقيد بنهج الكتب القديمة وأساليبها، وبين هذين وبين النهج والأساليب في عصرنا الحاضر بون عظيم، أيسره أن النقد في الكتب القديمة لم يكن مباحاً بالقدر الذي يباح به اليوم، وأن كثرة الكتب القديمة كانت تكتب لغاية دينية تعبدية، على حين يتقيد كتاب العصر الحاضر بالنهج العلمي والنقد العلمي.

لكني رأيت من الخير أن أتبسط بعض الشيء في بيان الأسباب التي دعت المفكرين من أئمة المسلمين - كما تدعو كل باحث مدقق - إلى عدم الأخذ

---

(١) السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة، ١٨٤.

(٢) فلسفة تاريخ محمد ﷺ، محمد جميل بيهم، ٢٢٤.

جزافاً بكل ما ورد في كتب السيرة وفي كتب الحديث، وإلى التقيد بقواعد النقد العلمي»[١].

وما اكتفى أعضاء الجمعيات القومية العربية بالأخذ بالمنهج (العقلاني) في دراسة السيرة، بل طعنوا في المنهج الذي كُتبت به سيرة الرسول ﷺ والتاريخ الإسلامي، وهو منهج الرواية والإسناد.

ونَقْد أعضاء الجمعيات القومية العربية ينحصر في مسألة الأسانيد واعتبارها حجة في الرواية، قال جرجي زيدان: إنما يعاب المؤرخون المسلمون لاقتصارهم في التواريخ على إيراد الحوادث على عواهنها كما بلغت إليهم، وقد يسندونها إلى راوٍ أو عدة رواة بلا انتقاد ولا تمحيص ولا قياس اكتفاء بالإسناد، وقد فاتهم أن بعضَ الأخبار المسندة موضوعٌ في الصدر الأول أو ما بعده لأغراض سياسية.

ويندر أن ترى لمؤرخ منهم رأياً في حادثة أو انتقاداً.. وهذا هو السبب فيما نقاسيه من العناء في استخراج حقائق التمدن الإسلامي من كتب التاريخ[٢].

وهذا الحكم خلاف الحقيقة، ويكفي في الرد على ما زعموه إشارةٌ موجزةٌ إلى منهج السلف في الرواية، الذين اعتبروا الأسانيد من الدين، فقاموا بنقد وتمحيص الروايات.

---

(١) حياة محمد، محمد حسين هيكل، ٦٤، دار المعارف، القاهرة، الطبعة السادسة عشرة. ومما ينبغي تسطيره أن رشيد رضا قال مؤيداً لكتاب هيكل: أهم ما ينكره الأزهريون والطرقيون على هيكل أو أكثره مسألة المعجزات أو خوارق العادات. وقد حررتها في كتاب الوحي المحمدي.. بما أثبت به أن القرآن وحده هو حجة الله القطعية على ثبوت نبوة محمد بالذات.مجلة المنار، مجلد ٣٤، الجزء العاشر، في ٣ مايو ١٩٣٥م. ص: ٧٩٣. وذكر هيكل هذا التأييد في كتابه حياة محمد، ٦٩.

(٢) تاريخ التمدن الإسلامي، جرجي زيدان، ٢/ ١٠٣، مكتبة الحياة، بيروت، لبنان.

وأوضح السلف دقّة وصرامة منهجهم بقولهم: «إِنَّ الإِسْنَادَ مِنَ الدِّينِ، وَإِنَّ الرِّوَايَةَ لا تَكُونُ إِلا عَنِ الثِّقَاتِ، وَإِنَّ جَرْحَ الرُّوَاةِ بِمَا هُوَ فِيهِمْ جَائِزٌ، بَلْ وَاجِبٌ، وَإِنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْغِيبَةِ الْمُحَرَّمَةِ، بَلْ مِنَ الذَّبِّ عَنِ الشَّرِيعَةِ الْمُكَرَّمَةِ»[١].

أما أهل البدع فلا تقبل رواياتهم، كما قال ابْن سِيرِينَ: «.. يُنْظَرُ إِلَى أَهْلِ السُّنَّةِ فَيُؤْخَذُ حَدِيثُهُمْ، وَيُنْظَرُ إِلَى أَهْلِ الْبِدَعِ فَلا يُؤْخَذُ حَدِيثُهُمْ»[٢]؛ لما لأهل السنة من الأمانة والصدق والمراقبة الذاتية في القول والفعل، بخلاف المبتدعة.

ولذلك كان قبول الرواية أو ردها قائماً على السند، لأنه أصل الرواية، كما قال عَبْدُ اللَّه بْنُ الْمُبَارَكِ: «لَوْلا الإِسْنَادُ لَقَالَ مَنْ شَاءَ مَا شَاءَ». وقَال: «بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْقَوَائِمُ. يَعْنِي: الإِسْنَادَ»[٣].

كان سائر الذين كتبوا في السيرة قد اهتموا بجمع ما أمكنهم من الروايات ودونوها دون أن يشترطوا فيما يكتبونه، وأحالوا القارئ إلى الأسانيد التي أوردوها ليعرف الصحيح من الضعيف. ويتميز البخاري ومسلم باشتراطهما الصحة فيما خرجاه من روايات السيرة في كتابيهما الصحيحين. وكان المتخصصون في القرون الأولى يعرفون الرواة وأحوالهم والأسانيد وشرط صحتها، فكان بوسعهم الحكم على الروايات وتمييزها[٤].

أهم ما يميز الروايات التاريخية وجود الأسانيد التي تتقدم الرواية عادة، والتي يعتمد منهج المحدثين عليها بالدرجة الأولى في الحكم على الرواية بالقبول أو الرد.

---

(١) صحيح مسلم، المقدمة.
(٢) المصدر السابق، المقدمة.
(٣) المصدر السابق، المقدمة.
(٤) السيرة النبوية الصحيحة، أكرم ضياء العمري، ١/ ١١.

مما أدى إلى ظهور مكتبة ضخمة مليئة بمؤلفات تُعنى بتراجم الرواة وبيان أحوالهم وإمكان التقائهم ببعضهم أو عدمه، والحكم عليهم من خلال استقراء مروياتهم بالإضافة إلى رأي معاصريهم فيهم. وصار ما يعرف «بعلم الجرح والتعديل».

إن الذي ينادي به أعضاء الجمعيات القومية من عدم الاعتناء بالاسناد، فيه خسارةٌ عظيمةٌ، ونسفُ جهود المئات من كبار العلماء الذين قدموا لنا هذه الخدمة الجليلة الخاصة بالتعامل مع الرواية التاريخية الإسلامية[١].

» توظيف السيرة النبوية لخدمة مبادئ الجمعيات القومية:

إن كتابة أعضاء الجمعيات القومية العربية للسيرة النبوية، والاحتفال بذكرى المولد النبوي، كان لتحقيق أهداف ومبادئ جمعياتهم في الدعوة إلى الولاء القومي الجاهلي.

بعد أن استعرض مصطفى الشهابي - أحد أعضاء الجمعيات - سيرة النبي ﷺ، قال: «المسيحية التي تأمر بالمحبة والتعاطف والتسامح تتطلب من العربي الذي يدين بها أن ينسى المنازعات الدينية في الماضي، وأن يعتز كالمسلم بأنه ظهر في بني قومه رسول عربي جمع القبائل العربية في أمة واحدة، ونشرها في الأرض، وأوجب على المسلمين حب العرب، ويفرض على كل من دان بدينه محبة العرب، ويجعل ذل العرب ذلاً لدينه، لا يسع العربي المسيحي المتحلي بحب قومه إلا أن يجلّه، وأن يكبر فيه تلك العاطفة القومية الأصيلة، وإن لم يعترف بنبوته)[٢].

سخر أعضاء الجمعيات القومية سيرة الرسول ﷺ لخدمة المعتقد القومي، وقرروا أن السيرة النبوية هي سيرة عربية، فقال أمين بك نخلة[٣] - نصراني من أعضاء

---

(١) السيرة النبوية الصحيحة، أكرم ضياء العمري، ١/ ١٢ (بتصرف يسير).
(٢) القومية العربية تاريخها وقوامها ومراميها، مصطفى الشهابي، ٣٤٦، ٣٤٧.
(٣) انظر الترجمة رقم (٩).

الجمعيات -: «لقد جعل محمد الدنيا لقومية العرب، وجعل الأخرى للغتهم[1]، ثم خاف أن ينشطر القوم، من وراء الرسالة، إلى فريق مؤمن بها، وفريق مؤمن بغيرها، فجمع (من أحب العرب فقد أحبني) حيث المخافة على الفرقة، وحيث المخافة من الشتات.

كأنما الشرط عنده الحب للعرب، والحدب عليهم، والأخذ بنصرتهم، لا الدخول في دينهم. فعجب لرسول همه في الأرض أمر الله، وجر الخلائق إليه، من كل جنس كيف يعنى هذا العناء من أجل قوميته ويبث هذا البث»[2].

ويستمر التأكيد على أن أبرز مبادئ الجمعيات القومية، هو طابع الولاء القومي بين العرب، يقول عفلق، عن علاقة العربي بالسيرة النبوية:»كل عربي يستطيع أن يحيا حياة الرسول ولو بصورة جزئية على الأقل، طالما هو على علاقة وثيقة بالأمة التي أنجبت محمداً.

---

(١) مما ينقله أعضاء الجمعيات القومية في تقديس القومية العربية بأن العربية هي لغة أهل الجنة، وقد وردت نصوص في هذا كحديث ابن عباس مرفوعاً: (لسان أهل الجنة عربي)، و (أحبوا العرب لثلاث... وكلام أهل الجنة عربي)، وحديث أبي هريرة مرفوعاً: (كلام أهل الجنة العربية) وقد أخرج هذه الآثار أبو نعيم الأصبهاني في صفة الجنة، ٢/ ١١٦، رقم ٢٦٨و٢٦٩. وأخرجها الحاكم في المستدرك ٤/ ٨٧. والبيهقي في مناقب الشافعي ١/ ٣٢ - ٣٣. والطبراني في الكبير ١٢/ ٣٤٨، ٣٤٩، رقم (١١٤٤٢) وابن الجوزي في الموضوعات ٢/ ٤١. وقد حكم علماء الحديث بأن هذه الأحاديث موضوعة، انظر:

١. العلل، ابن أبي حاتم ٢/ ٢٧٦.
٢. الضعفاء الكبير، العقيلي، ٣/ ٣٤٨، رقم ١٣٨٠، ترجمة (العلاء بن عمرو الحنفي).
٣. المستدرك على الصحيحين، الحاكم، ٤/ ٨٧، وقال الذهبي: وأظن الحديث موضوعاً.
٤. مجمع الزوائد، الهيثمي، ١٠/ ٥٢.
٥. اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية، ١/ ٣٩٢.
٦. سلسلة الحديث الضعيفة، الألباني، ١/ ١٨٩و١٩٢، رقم، ١٦٠و ١٦١.

(٢) مقدمة أمين بك نخلة على كتاب: نفسية الرسول العربي، لبيب الرياشي، ٢١.

من هنا كان الشعر البعثي الذي هز مشاعر جيل بأكمله خلال فترة طويلة من الزمن: كان محمد كل العرب، فليكن كل العرب اليوم محمداً»[(١)].

بل لقد اعتبر أعضاء الجمعيات القومية أن الإسلام كان في أول أمره نهضة عربية، والمسلمون هم العرب، حتى أصبح اللفظان مترادفين في كثير من الأحوال، وكان العرب أقرب الأمم للدخول في الإسلام لما اختصهم به دون غيرهم من الافتخار، وتمكن ذلك من الأذهان خصوصاً لمّا أمر عمر بإخراج غير المسلمين من جزيرة العرب[(٢)].

وتغافلوا عن أن أوائل الحروب التي وقعت كان طرفها الكافر من العرب، روى البخاري في سؤالات هرقل لأبي سفيان ومما جاء فيها: (قَالَ: فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَكَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ؟ قُلْتُ: الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالٌ يَنَالُ مِنَّا وَنَنَالُ مِنْهُ)[(٣)].

وأما عن إخراج عمر بن الخطاب غير المسلمين من جزيرة العرب فقد كان لأمر النبي ﷺ القائل: [أَخْرِجُوا الْمُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ..][(٤)].

قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: «فَفَحَصَ عَنْ ذَلِكَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ حَتَّى أَتَاهُ الثَّلْجُ وَالْيَقِينُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: [لا يَجْتَمِعُ دِينَانِ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ] فَأَجْلَى يَهُودَ خَيْبَرَ»[(٥)].

---

(١) حزب البعث العربي الاشتراكي، مصطفى دندشلي، ٦٦.

(٢) تاريخ التمدن الإسلامي، جرجي زيدان، ١/ ٦٨.

(٣) صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، بَاب بَدْءُ الْوَحْيِ، رقم الحديث (٦).

(٤) المصدر السابق، كتاب الجهاد والسير، بَاب هَلْ يُسْتَشْفَعُ إِلَى أَهْلِ الذِّمَّةِ وَمُعَامَلَتِهِمْ، رقم الحديث (٢٨٢٥).

(٥) موطأ الإمام مالك، كتاب الجامع، بَاب مَا جَاءَ فِي إِجْلاءِ الْيَهُودِ مِنَ الْمَدِينَةِ، رقم الحديث (١٣٨٨).

وتحقيقاً لمبدأ التسامح الديني - كما يزعم أعضاء الجمعيات القومية العربية - أكد محمد جميل بيهم، من خلال كتابته في سيرة الرسول ﷺ، بأن (النبي) كان على اتصال بالمسيحيين، على غرار سائر مواطنيه، وقد حافظ محمد على ولائه للنصارى بعد البعثة وكان يجالس بعض أعاجمهم في مكة[1].

ويستنبط أمين بك نخلة من وقائع سيرة الرسول ودعوته بأنه لا حرج في الدين من أن تتلاقى ملتا العرب: ملة القرآن وملة الإنجيل، حتى كأنما الإسلام إسلامان، واحد بالديانة، وواحد بالقومية واللغة، أو كأنما العرب مسلمون جميعاً حين يكون الإسلام هكذا هوىً بمحمد، وتمسكاً بقوميته[2].

ويورد محمد عزة دروزة مقولة يتناقلها أعضاء الجمعيات القومية العربية، وهي: «إن الرسالة المحمدية هي رسالة قومية، أي أنها استهدفت النهوض بالأمة العربية وإصلاحها وتقويتها وتوحيدها»[3].

وأجمع أعضاء الجمعيات القومية العربية في سيرة الرسول ﷺ على هذا المبدأ: «إن الرسول ﷺ خلال دعوته قد جمع إليه بفضل العربية في رسالته، والعروبة في نعرته، هذه القلوب العربية من كل ديانة»[4].

فلم يكن في مقاصد الجمعيات القومية العربية حين الاحتفال بالمولد النبوي، أو الكتابة وإلقاء الخطب والمحاضرات عن سيرة الرسول ﷺ إلا تعزيز المبدأ القومي

---

(١) فلسفة تاريخ محمد ﷺ، محمد جميل بينهم، ١٤٧.

(٢) مقدمة: نفسية الرسول العربي، لبيب الرياشي، ١٩، دار الكشاف، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٩٤٩.

(٣) سيرة الرسول، محمد عزة دروزة، ١/ ٢٦، المكتبة العصرية، بيروت.

(٤) مقدمة أمين بك نخلة على كتاب: نفسية الرسول العربي، لبيب الرياشي، ٢٢.

الجاهلي، قال أمين بك نخلة: «إن لغير المسلم في أرض العرب، أن لا يدين بدين (ابن عبدالله) وأن يخلب لبه، مثلاً، كتاب (لابن مريم) كل حرف منه يقطر رفقاً، وصليب قعدت به دنيا، وقامت دنيا. وأما أن يكون فينا عربي، ومن لحمنا ومن دمنا، ثم يغدو لا يمت إلى محمد بعصبية، ولا إلى لغة محمد، وقومية محمد، فهو ضيف ثقيل علينا، غريب الوجه بين بيوتنا»[(١)].

إن ما سبق كله يعزّز توظيف أعضاء الجمعيات القومية العربية كتابةَ السيرة النبوية، لتحقيق أهداف ومقاصد المبادئ القومية.

من خلال استعراض ما كتبه أعضاء جمعيات القومية العربية عن نبوة الرسول ﷺ وسيرته، يمكن أن يقسم البحث في مواقفهم عن التالي:

القسم الأول: **وصف الرسول بصفات لا تليق بمقام النبوة.**

القسم الثاني: **موقف الجمعيات من آيات النبي.**

القسم الثالث: **موقف الجمعيات من سيرة الرسول.**

---

(١) المصدر السابق، لبيب الرياشي، ٢٠.

» القسم الأول: وصف الرسول بصفات لا تليق بمقام النبوة:

لقد وصف الله تعالى نبيه محمداً ﷺ، بما يليق بمقام الرسالة والنبوة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾[٢].

وأمر الله المؤمنين بالتأدب الراقي مع نبيه حين مناداته، فقال جل جلاله: **﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾**[٣]، فمن معاني هذه الآية: نهي من الله للمؤمنين أن يدعوا رسول الله بغلظة وجفاء، وأمرهم أن يدعوه بلين وتواضع. قال مجاهد: «أمرهم أن يدعوا: يا رسول الله، في لين وتواضع، ولا يقولوا: يا محمد، في تجهم»[٤].

وقال قتادة: «أمر الله أن يهاب نبيه ﷺ وأن يُبجّل وأن يُعظّم وأن يُسود، وفي قوله تعالى: **﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾** قال مقاتل: «لا تسموه إذا دعوتموه: يا محمد، ولا تقولوا: يا ابن عبدالله، ولكن شرفوه فقولوا: يا نبي الله، يا رسول الله»[٥].

قال ابن كثير: «فهذا كله من باب الأدب في مخاطبة النبي ﷺ والكلام معه وعنده»[٦].

---

(١) سورة المائدة، رقم الآية (٦٧).

(٢) سورة الأحزاب، رقم الآية (١).

(٣) سورة النور، رقم الآية (٦٣).

(٤) تفسير الطبري، ١٥/ ١٧٧.

(٥) تفسير ابن كثير، ٦/ ٦٧.

(٦) تفسير ابن كثير، ٦/ ٦٥.

وما التزمت الجمعيات القومية العربية الأدب مع النبي ﷺ عندما وصفه أعضاؤها بصفات لا تليق بمقام النبوة، وصفوه بأنه مؤسس الديمقراطية.

وكان المنتدى الأدبي يقيم احتفالاً بذكرى المولد النبوي، ومن مقاصد إقامة هذا الحفل بهذا اليوم - كما يقول الأعضاء - أن تنضوي جميع العناصر والأديان تحت جناحي القومية في نظام ديموقراطي حر، وفي جو من الإخاء والمساواة. وكان يُدعى لهذا الحفل السنوي رجالات السياسة والأدب والاجتماع(١).

وفي الاحتفال بالمولد النبوي، قال عبدالغني العريسي: في مثل هذا اليوم يولد النبي العربي القرشي مقيم الأسس الديمقراطية(٢).

كما ذكر أعضاء الجمعيات القومية أن المبدأ الديمقراطي كان يطبقه الرسول ﷺ أثناء دعوته وسيرته، وقال محمد جميل بيهم عن الرسول ﷺ: الداعي إلى مبادئه الديموقراطية لم يكن يقتصر عمله على الدعوة المجردة فحسب، بل كان يعمل على تطبيق تلك المبادئ مبتدئاً بنفسه، وبالإضافة إلى أنه جاء مصدقاً لمن كان قبله من الرسل والأنبياء كان يقول: [لا تفضلوني على يونس بن متى](٣)(٤).

---

(١) العرب والترك في العهد الدستوري العثماني، ٢٦٤.

(٢) مختارات المفيد، العدد ٩١٩، ٢٩، شباط، ١٩١٢، ص:٤٦.

(٣) فلسفة تاريخ محمد ﷺ، محمد جميل بيهم، ٢١١.

(٤) الثابت في الصحيحين بلفظ: (لا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ أَنَا خير مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى). صحيح البخاري، كتاب، بَاب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: (وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى)، رقم الحديث (٣١٤٤). وبلفظ: (مَنْ قَالَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى فَقَدْ كَذَبَ). صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب: (وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ)، رقم(٤٤٣١). وقال ابن تيمية: وأما ما يرويه بعض الناس أنه قال: [لا تفضلوني على يونس بن متى]، ويفسره باستواء حال صاحب المعراج وحال صاحب الحوت، فنقل باطل، وتفسير باطل. فتاوى شيخ الإسلام، ابن تيمية، ٢/ ٢٢٤. وقال ابن أبي العز: هذا الحديث بهذا اللفظ لم يروه أحد من أهل الكتب التي يعتمد عليها. شرح العقيدة الطحاوية، ١/ ١٦١.

يقرر أعضاء الجمعيات القومية بأن الرسول كان في ديموقراطيته مع أصحابه يحرص على أن لا يعاملوه معاملة السيد، فكان إذا أطروه يقول لهم: (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، أنا عبدالله، فقولوا: عبدالله ورسوله)[١][٢].

فهِمَ علماءُ الإسلام من قول الرسول ﷺ: (لا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى) وما ورد في معناه: أن هذه الأحاديث تحتمل ما يلي:

١) أنه ﷺ قال هذا قبل أن يعلم أنه أفضل من يونس، فلما علم ذلك قال: (أنا سيد ولد آدم)[٣]، ولم يقل هنا: إن يونس أفضل منه أو من غيره من الأنبياء.

٢) أنه ﷺ قال هذا زجراً عن أن يتخيل أحد من الجاهلين شيئاً من حط مرتبة يونس ﷺ، من أجل ما في القرآن العزيز من قصته، كقوله تعالى: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾[٤]. وقوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[٥].

٣) أن في النهي في هذه الأحاديث تنبيهاً على أن غيره أولى أن لا يفضل أحد نفسه عليه، فهو نهي عام[٦].

---

(١) فلسفة تاريخ محمد ﷺ، محمد جميل بينهم، ١٧٨.

(٢) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، بَاب قَوْلِ اللَّهِ: (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ)، رقم الحديث (٣١٨٩).

(٣) سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، بَاب وَمِنْ سُورَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، رقم الحديث (٣٠٧٣) وانظر: سنن ابن ماجة، كتاب الزهد، بَاب ذِكْرِ الشَّفَاعَةِ، رقم الحديث (٤٢٩٨).

(٤) سورة الصافات، رقم الآيات(١٤، ١٤٢).

(٥) سورة الأنبياء، رقم الآية (٨٧).

(٦) شرح صحيح مسلم، النووي، ١٥/ ١٣٢. وانظر:

١. الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض، ١/ ٣٠٦، ٣١٠.
٢. فتاوى شيخ الإسلام، ابن تيمية، ٢/ ٢٢٤.
٣. فتح الباري، ابن حجر، ٦/ ٥٢١.

وأما نهيه ﷺ، بقوله: [لا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ]، فليس في الحديث ما ذكره أعضاء الجمعيات القومية من أن النهي كان من أمثلة ممارسة الرسول للديمقراطية، وإنما النهي بأن لا يُمْدح كَمَدْح النصارى حتى غالى بعضهم في عيسى ﷺ فجعله إلهاً مع الله، وبعضهم ادعى أنه هو الله، وبعضهم (زعم أنه) ابن الله، ثم أردف النهي بقوله: (أنا عبده)[1].

ولذا قال ابن تيمية: «كان قصده ﷺ حسم مادة الشرك، وتحقيق التوحيد لله وحده. ولما سجد له معاذ رضي الله عنه نهاه. وقال: [إنه لا يصلح السجود إلا لله][2]، فهذا شأن أنبياء الله وأوليائه»[3].

ولا علاقة لأخلاقه الكريمة ﷺ بديمقراطية القوميين التي استوردوها من الغرب، والتي تجعل التحليل والتحريم من شأن الأكثرية، كما سبق بيانه.

ومما وصف أعضاء الجمعيات القومية العربية به الرسول ﷺ أنه أقام دعوته على مبادئ الحرية والمساواة والإخاء، قال عبدالغني العريسي: «مبادئ ثلاثة قام بها نبينا العظيم لخير هذه الأمة، كل ذلك على مبدأ الديمقراطية»[4].

ويقول رفيق العظم - من مؤسسي الجمعيات القومية العربية -: «إن الرسول هو مؤسس الشريعة الإسلامية، وأسسها على دعائم الحرية والعدالة والإخاء»[5].

في المؤتمر الذي عقد في باريس أثناء اجتماع مؤسسي وأعضاء الجمعيات القومية

---

(١) فتح الباري، ابن حجر، ١٢/ ١٥٤.

(٢) انظر: سنن ابن ماجة، كتاب النكاح، بَاب حَقِّ الزَّوْجِ عَلَى الْمَرْأَةِ، رقم الحديث (١٨٤٣).

(٣) مختصر الفتاوى المصرية، ابن تيمية، ١٩٤، دار ابن القيم، السعودية، الدمام، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ.

(٤) مختارات المفيد، العدد ٩١٩، ٢٩، شباط، ١٩١٢م، ص:٧٢.

(٥) أشهر مشاهير الإسلام، رفيق العظم، ١/ ٢.

العربية، قال عبدالغني العريسي في خطبته: إن النبي محمداً عليه الصلاة والسلام لم يخضع العرب بضغط ولا قوة، إنما استطاع استمالتهم بمعقول القرآن، وتحقيق مبدأ العدل والمساواة والإخاء..)[١].

وهذه المبادئ الثلاثة التي يدندن بها القوميون هي مبادئ الماسونية، وهي شعار الثورة الفرنسية على الإقطاع الأوربي والدين النصراني المحرف، والتي نهجت الجمعيات القومية العربية نهجها وسلكت سبيلها، فزعم أعضاء الجمعيات القومية العربية أن الدعوة النبوية قد أقيمت على مبادئ الماسونية.

والثابت في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ أن المبدأ الذي قامت عليه الدعوة النبوية ودعوة الأنبياء جميعاً، هو ما أخبر الله تعالى عنه بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾[٢]. وقال تعالى: ﴿أَلا تَعْبُدُوا إِلا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾[٣].

وهذا الأمر هو الذي دعا إليه المرسلون جميعاً، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ﴾[٤].

وكان الرسول ﷺ في سيرته يأمر من يدعوهم بتحقيق التوحيد واجتناب الطاغوت، كما قال وفدُ عبد القيس: [.. مُرْنَا بِأَمْرٍ نَعْمَلُ بِهِ، وَنَدْعُو إِلَيْهِ مَنْ وَرَاءنَا، قَالَ: آمُرُكُمْ بِأَرْبَعٍ، وَأَنْهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ، الإِيمَانِ بِاللَّهِ، ثُمَّ فَسَّرَهَا لَهُمْ فَقَالَ شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلاةِ...] الحديث[٥].

---

(١) القومية العربية تاريخها وقوامها ومراميها، مصطفى الشهابي، ٩٢. وانظر المؤتمر العربي الأول، ٥٠.

(٢) سورة الرعد، رقم الآية (٣٦).

(٣) سورة هود، رقم الآية (٢).

(٤) سورة النحل، رقم الآية (٣٦).

(٥) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، بَاب الأَمْرِ بِالإِيمَانِ بِاللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ ﷺ وَشَرَائِعِ الدِّينِ وَالدُّعَاءِ إِلَيْهِ وَالسُّؤَالِ عَنْهُ وَحِفْظِهِ وَتَبْلِيغِهِ مَنْ لَمْ يَبْلُغْهُ، رقم الحديث (٢٣).

وقد بين الرسول ﷺ أن دعوة الناس للتوحيد، هو ما أُمر به، قال ﷺ: [أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلا بِحَقِّ الإِسْلامِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ][١].

ومن الصفات التي وصف أعضاء الجمعيات القومية العربية، الرسول ﷺ بأنه مؤسس الشريعة، أو صاحب الشريعة، قال جرجي زيدان: ظهر النبي صاحب الشريعة الإسلامية[٢]. وقال أيضاً: وسن ديناً جديداً وتبعه جمع غفير[٣].

إن وصف أعضاء الجمعيات للرسول ﷺ بهذه الصفات، يجعله شبيهاً برجال الدعوات الذين ظهروا خلال التاريخ، وقد ذكر عبدالرحمن الشهبندر - وهو أحد أعضاء الجمعيات - أن ثورة الجمعيات القومية العربية، قد تعلمها أعضاء الجمعيات، كما قال: «من الثائر مؤسس مجد العرب سيدنا محمد..»[٤].

وشبه أعضاء الجمعيات مبادئ الجمعيات القومية بالدعوة النبوية، قال محمود تيمور[٥]: لئن كان لكل عصر نبوته المقدسة..إن القومية العربية لهي نبوة هذا العصر في مجتمعنا العربي.

ورسالة هذه النبوة - القومية العربية - هي تجميع القوة وتكتيل الجبهة والانطلاقة بالطاقة البشرية في كيان المجتمع العربي نحو كسب الحياة. وإن كتاب العرب في

(١) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، بَاب: (فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ)، رقم الحديث (٢٤).
(٢) تاريخ التمدن الإسلامي، جرجي زيدان١/ ٣٥ و ٣٨. وانظر: أشهر مشاهير الإسلام، رفيق العظم، ١/ ٢.
(٣) أرمانوسة المصرية، جرجي زيدان، ١٢.
(٤) عبدالرحمن الشهبندر، حياته وجهاده، حسن الحكيم، ١٤٦، الدار المتحدة للنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.
(٥) انظر الترجمة رقم (٦٤).

أعناقهم أمانة، هي أن يكونوا حواريين لتلك النبوة الصادقة، يزكونها بأقلامهم، وينفخون فيها من أرواحهم، ويعملون على أن تتكتل لها أسباب النماء والازدهار[١]. ولا يخفى أن هذا استبدال دين بدين، والله يقول: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾[٢].

» القسم الثاني: موقف الجمعيات من آيات النبي ﷺ:

في هذه الدراسة عن موقف الجمعيات القومية من آيات النبي ﷺ، تظهر مواقف أصحاب الاتجاه العقلي من أعضاء الجمعيات، الذين سلكوا منهج التوفيق بين نصوص الشرع في إثبات المعجزات، وبين آراء ومواقف أعضاء الجمعيات من النصارى وغيرهم.

بيّن السلف أن آيات الأنبياء هي أفعال يفعلها الله مع الرسل، يخصهم بها ولا توجد لغيرهم، فيعلم العباد لاختصاصهم بها أن ذلك إعلام منه للعباد وإخبار لهم أن هؤلاء رسلي، كما يعلمهم بكلامه المسموع منه ومن رسله. فآيات الأنبياء هي: «علامات وبراهين من الله تتضمن إعلام الله لعباده وإخباره لهم»[٣].

ولا ينحصر تقرير نبوة نبي من الأنبياء بآية تظهر على يديه، وإنما هي إحدى علامات النبوة، وليس كل من ظهر على يديه علامة فهو نبي، وقد ثبت في الصحيح أن الدجال يجري الله على يديه أموراً يبتلي بها الناس، كما ثبت في الحديث: [..فَيَأْتِي عَلَى الْقَوْمِ فَيَدْعُوهُمْ فَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ، فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ، وَالأَرْضَ فَتُنْبِتُ، فَتَرُوحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ أَطْوَلَ مَا كَانَتْ ذُرًا، وَأَسْبَغَهُ ضُرُوعًا، وَأَمَدَّهُ خَوَاصِرَ، ثُمَّ يَأْتِي الْقَوْمَ فَيَدْعُوهُمْ فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ، فَيَنْصَرِفُ عَنْهُمْ، فَيُصْبِحُونَ مُمْحِلِينَ لَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ

---

(١) مجلة العالم العربي، عدد ٢٧١٠ بعنوان (النثر والقومية العربية)، محمود تيمور.

(٢) سورة آل عمران، رقم الآية (١٩).

(٣) النبوات، ابن تيمية، ٢٨٤، دار القلم، بيروت.

شَيْءٌ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَيَمُرُّ بِالْخَرِبَةِ فَيَقُولُ لَهَا: أَخْرِجِي كُنُوزَكِ فَتَتْبَعُهُ كُنُوزُهَا كَيَعَاسِيبِ النَّحْلِ ثُمَّ يَدْعُو رَجُلاً مُمْتَلِئاً شَبَابًا فَيَضْرِبُهُ بِالسَّيْفِ فَيَقْطَعُهُ جَزْلَتَيْنِ رَمْيَةَ الْغَرَضِ ثُمَّ يَدْعُوهُ فَيُقْبِلُ وَيَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ يَضْحَكُ...][(١)].

وكان من هديه ﷺ - كما تقول عائشة -، دعاؤه بِهذه الدَّعَوات: [..وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ..][(٢)]. ومع ما يخرج على يديه من أمور تفتن الناس إلا أنه دجال، وذلك بمعرفة حاله، لأن الكاذب يعرف ويميز عن الصادق، فقرائن أحوالهما تعرب عنهما، وتعرف بهما، والتمييز بين الصادق والكاذب له طرق كثيرة[(٣)].

وعرفت خديجة بنت خويلد أن ما حصل للرسول ﷺ عند نزول الوحي ليس فيه أذى عليه. كما قال الرسول ﷺ لها: [لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي]، قالت خَدِيجَةُ: (كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ..)[(٤)].

وهرقل بعد مساءلة أبي سفيان فيما يأمر به وينهى عنه الرسول ﷺ، قال: «إِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ، وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ، لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنَّهُ مِنْكُمْ، فَلَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلُصُ إِلَيْهِ لَتَجَشَّمْتُ لِقَاءَهُ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ عَنْ قَدَمِهِ»[(٥)].

لقد ذكر ربنا في كتابه آياتٍ كثيرةً لأنبيائه، مثال ذلك: ما قاله عن نبي الله صالح:

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، بَاب ذِكْرِ الدَّجَّالِ وَصِفَتِهِ وَمَا مَعَهُ، رقم الحديث (٥٢٢٨).

(٢) المصدر السابق، كتاب الذكر والدعاء، بَاب التَّعَوُّذِ مِنْ شَرِّ الْفِتَنِ وَغَيرِهَا، رقم الحديث (٤٨٧٧).

(٣) شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز، ١/ ١٤٠.

(٤) صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، بَاب بَدْءُ الْوَحْيِ، رقم الحديث (٣).

(٥) المصدر السابق، كتاب بدء الوحي، بَاب بَدْءُ الْوَحْيِ، رقم الحديث (٦).

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

وعَنْ جَابِرٍ قَالَ: لَمَّا مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْحِجْرِ، قَالَ: [لا تَسْأَلُوا الآيَاتِ وَقَدْ سَأَلَهَا قَوْمُ صَالِحٍ، فَكَانَتْ تَرِدُ مِنْ هَذَا الْفَجِّ، وَتَصْدُرُ مِنْ هَذَا الْفَجِّ، فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ، فَعَقَرُوهَا، فَكَانَتْ تَشْرَبُ مَاءَهُمْ يَوْمًا، وَيَشْرَبُونَ لَبَنَهَا يَوْمًا، فَعَقَرُوهَا، فَأَخَذَتْهُمْ صَيْحَةٌ أَهْمَدَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَنْ تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ..][2].

قال المفسرون عن قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾: أي قد جاءتكم حجة من الله على صدق ما جئتكم به، وكانوا هم الذين سألوا صالحاً أن يأتيهم بآية، واقترحوا عليه بأن تخرج لهم من صخرة صماء عينوها بأنفسهم، وهي صخرة منفردة في ناحية الحجر، يقال لها الكاتبة، فطلبوا منه أن تخرج لهم منها ناقة عشراء تمخض، فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم الله إلى سؤالهم وأجابهم إلى طلبتهم ليؤمنن به وليتبعنه، فلما أعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم، قام صالح عليه السلام إلى صلاته ودعا الله عز وجل، فتحركت تلك الصخرة ثم انصدعت عن ناقة جوفاء وبراء يتحرك جنينها بين جنبيها كما سألوا[3].

وحينما كابر فرعون وصد عن دعوة نبي الله موسى ﷺ، قال موسى لفرعون: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ

---

(١) سورة الأعراف، رقم الآية (٧٣).

(٢) مسند الإمام أحمد، ٣/ ٢٩٦. قال ابن كثير: هذا الحديث ليس في شيء من الكتب الستة وهو على شرط مسلم. انظر: تفسير ابن كثير، ٣/ ٤٣٦.

(٣) تفسير ابن كثير، ٣/ ٤٣٥ - ٤٣٦.

﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾[١]، فطلب فرعون من نبي الله موسى أن يأتي بالشيء المبين حقيقة ما يقول[٢] ويدعو إليه.

وأخبر الله في القرآن الكريم عن بعض الآيات الكونية التي حصلت للرسول ﷺ ومنها، حادثة الإسراء في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾[٣]، وانشقاق القمر كما في قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾[٤]، وثبت في السنة آيات حسية تدل على نبوته ﷺ، وفي أثناء مناقشة أعضاء الجمعيات القومية أشير إلى بعضها.

الموقف العام للجمعيات من آيات النبي ﷺ الحسية:

مما سبق يتبين أن الآيات (الحسية) لأنبياء الله جميعاً ثابتةٌ بالكتاب والسنة، والجمعيات القومية العربية اتخذت موقف الرد والإنكار لجميع الآيات الحسية التي ظهرت على يدي الرسول ﷺ.

لقد رد أعضاء الجمعيات القومية العربية آيات النبي ﷺ الحسية، بزعمهم أنها تخالف أصول المنهج العلمي المادي، وهو العلم المبني على التجربة.

وقرروا أن المعجزات الحسية لا رصيد لها في ساحة العلم، قال فريد وجدي: «العلم الذي اتفق قادة الفكر الإنساني على تسميته بهذا الاسم، وهو جملة المقررات اليقينية على الوجود وكائناته مما سرت عليه أصول الدستور العلمي، فكل قول لا

---

(١) سورة الشعراء، رقم الآيات (٣٠ - ٣٣).
(٢) تفسير الطبري، ١٩/ ٧٠.
(٣) سورة الإسراء، رقم الآية (١).
(٤) سورة القمر، رقم الآية (١).

يحصل على تأييد هذا العلم أو على القليل لا يماشي أسلوبه، ويترسم حدوده، لا ينال من العقلية العصرية المكانة التي يراد أن تكون له[1].

ومن هذا المنطلق ذاته، قال محمد عزة دروزة: «إن دعوة الرسول جاءت بأسلوب جديد، وهو أسلوب مخاطبة العقل والقلب في الحث على الفضائل والتنفير من الرذائل. واعتبار الدعوة التي تقوم على هذه التقارير هي في غنى عن معجزات خارقة للعادة لا تتصل بها بالذات»[2].

وأكد رشيد رضا على هذا المبدأ، بقوله: «إن أساس نبوة ورسالة الرسول ﷺ قد جعلها الله قائمة على قواعد العلم والعقل في ثبوتها وفي موضوعها، لأن البشر قد بدأوا يدخلون في سن الرشد والاستقلال النوعي الذي لا يخضع عقل صاحبه فيه لاتباع من تصدر عنهم أمور عجيبة مخالفة للنظام المألوف في سنن الكون، بل لا يكمل ارتقاؤهم واستعدادهم بذلك، بل هو من موانعه»[3].

بشبهة (ادعاء العلمية) ردت الآيات والأحاديث الصحيحة التي تنص على آيات حسية لرسولنا ﷺ، قال فريد وجدي عن القرن الذي ظهرت فيه الجمعيات بأنه قرن: «لا تروج فيها مسائل المعجزات. ولهذا كذب علماء أوروبا بكل المعجزات السابقة، لأننا في زمان لا يجدي فيه للاعتقاد إلا النور العقلي والدليل العلمي»[4].

لقد اعتبر أعضاء الجمعيات رد الأوربيين لآيات الأنبياء دليلاً على التنور العقلي، وتغافلوا عن أن هؤلاء الأوربيين هم على منهج من قال تعالى عنهم: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ

(١) السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة، محمد فريد وجدي، ٤١.

(٢) سيرة النبي، محمد عزة دروزة، ١/ ٢٤٩ - ٢٥٠.

(٣) الوحي المحمدي، رشيد رضا، ٧٩، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة العاشرة، ١٤٠٥هـ.

(٤) المدنية والإسلام، محمد فريد وجدي، ٧١ - ٧٢.

الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾(١).

وطال إنكارُ أعضاء الجمعيات القومية، جميعَ الآيات الحسية من السيرة النبوية، وعن تعريفهم بالسيرة النبوية، قال محمد حسين هيكل: «إن حياة محمد كانت كلها إنسانية سامية، وإنه لم يلجأ في إثبات رسالته إلى ما لجأ إليه من سبقه من أصحاب الخوارق»(٢).

إن هذا الإقرار الذي ذكره هيكل في مقدمة كتابة السيرة عن النبي ﷺ، يتفق مع الفرق الكلامية التي جعلت الطريقة في إثبات النبوة محصورة في المعجزات وخوارق العادات(٣). ويعيب هيكل منهجَ الفرق الكلامية في انتقاصهم لمقام النبوة، بأنهم عمدوا إلى الخوارق من - باب اللجوء -، لإثبات رسالته.

ولا ريب أن المعجزة ثابتة وصحيحة، ورد عن أَبِي هُرَيْرَة قوله: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ](٤).

ولكن الدليل غير محصور في المعجزات، فهناك الدليل النوعي وهو مما استدل به النجاشي على نبوة الرسول ﷺ، فإنه لما استخبرهم عما يخبر به واستقرأهم القرآن فقرؤوه عليه، قال: «وإن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة»(٥).

(١) سورة النساء، رقم الآية (١٥٣).
(٢) حياة محمد، محمد حسين هيكل، ١٢٩، الطبعة السادسة عشرة، دار المعارف.
(٣) انظر على سبيل المثال: ١، شرح الأصول الخمسة، القاضي عبدالجبار، ٥٦٨.
٢، الإرشاد، الجويني، ٢٧٣ - ٢٧٨.
٣، دلائل إثبات النبوة، القاضي عياض.
(٤) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، بَاب كَيْفَ نَزَلَ الْوَحْيُ وَأَوَّلُ مَا نَزَلَ، رقم الحديث (٤٥٩٨).
(٥) شرح العقيدة الأصفهانية، ابن تيمية، ٩٣، مطبعة الاعتصام، القاهرة، ١٣٨٥هـ، وانظر: مسند الإمام أحمد، ١/ ٢٠١ - ٢٠٢.

وهكذا تواطأ أعضاء الجمعيات القومية العربية على هذا المبدأ، الذي ينهج - بزعمهم - إلى وضع السيرة النبوية على حقيقتها البشرية، دون زيادةٍ أو نقصانٍ، أو استنادٍ إلى الصور المليئة بالخوارق[1].

قال رشيد رضا: «انتهى بذلك زمن المعجزات، ودخل الإنسان بدين الإسلام في سن الرشد، فلم تعد مدهشات الخوارق هي الجاذبة له إلى الإيمان وتقويم ما يعرض للفطرة من الميل عن الاعتدال في الفكر والأخلاق والأعمال»[2].

إن إنكار أعضاء الجمعيات القومية العربية، للآيات الحسية يتمشى مع نمط التفكير العقلي المادي الحديث. ولذا قال محمد جميل بيهم: إن المعجزات لا تقبلها الفلسفات الحديثة، ولا مناهج البحث المعاصرة[3].

وممن رأى من أعضاء الجمعيات في الآيات الحسية (المعجزات) مثار شبهات لينكرها، رشيدُ رضا قال فيها: «مثار شبهات وتأويلات كثيرة، في رواياتها وفي صحتها وفي دلالتها، وأمثال هذه الأمور تقع من أناس كثيرين في كل زمان، والمنقول منها عن صوفية الهنود والمسلمين أكثر من المنقول عن العهدين العتيق والجديد وعن مناقب القديسين، وهي من منفرات العلماء عن الدين في هذا العصر»[4].

وقد تلازم - في منهج الجمعيات القومية - ردُّ الآيات الكونية (المعجزات) الثابتة بأحاديث صحيحة، مع الطعن بكتب السيرة الموثوقة، قال محمد جميل بيهم: «إن فريقاً من الأعاجم كانوا يشتهون أن لا تبقى سيرة النبي مجردة عن الخوارق والمعجزات،

---

(١) فلسفة تاريخ محمد، محمد جميل بيهم، ٢٠.

(٢) تفسير المنار، رشيد رضا، ١١/ ١٦٠، ٢٢٧، ١/ ٣١٤، ٣١٥، الوحي المحمدي، ٦٩، ٧٠، ٧١، ١٨٤.

(٣) السيرة النبوية الصحيحة، أكرم ضياء العمري، ٢/ ٦٢٣، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ.

(٤) تفسير المنار، ١١/ ١٥٥.

التي تحفل بها سير أنبيائهم في أديانهم السابقة، فراحوا ينسبون لمحمد معجزات لم يرد ذكرها في القرآن، وينكر - بيهم - على أمثال البيهقي وأبي نعيم والقاضي عياض تكديسهم المعجزات فيما وضعوه من أسفار»[١].

وقال عن جهود علماء السلف في نقل ونقد الروايات: «إن بعض رجال الأديان يجيزون لأنفسهم الأخذ بذلك التزويق - المعجزات - بغية حمل الناس على الإيمان بذويهم من أصحاب الرسالة على اعتبار أن الغاية تبرر الواسطة، واستناداً على علمهم بأن الشعوب هم كالأطفال يستطيعون السير بقدر ما فيها من عجائب»[٢].

لقد تناقل أعضاء الجمعيات القومية مبادئ الثورات الملحدة، وقرروا أصولاً ومبادئَ في واقع المسلمين تخالف نصوص الكتاب والسنة. وهذا هو الذي يجب إنكاره وإبطاله. وأما نقل السلف ما ثبت بطريق صحيح من المعجزات الحسية فالإنكار عليهم منكر.

إن إنكار ما ثبت من معجزات حسية فيه - فضلاً عن الإنكار على رسول الله والطعن في الدين - اتهامٌ لشهود العيان من الصحابة رضوان الله عليهم بالكذب أو بضعف العقل وخلل التصور، بحيث نقلوا أخباراً تصوروها صحيحة وليست كذلك، ولا يخفى ما في الاتهامين من إجحاف وتناقض، فقد قبلنا من شهود العيان أنفسهم ما يتعلق بالعقيدة والشريعة.. وأنكرنا عليهم عندما تعرضوا لأخبار المعجزات الحسية، وإذا كانت العلةُ أن العقل المادي يرفض المعجزات، فإنه هذا يقضي برفض الوحي

---

(١) فلسفة تاريخ محمد ﷺ، محمد جميل بيهم، ٢٢٤. وانظر:

١. محمد رسول البشر، عبدالله السمان، ١٢٤.

٢. حياة محمد، محمد حسين هيكل، ٦٨، ٦٩.

(٢) فلسفة تاريخ محمد ﷺ، محمد جميل بينهم، ٢٢٤.

كله، وبرفض الإيمان بالله وبرسالاته، فلا مناص للمؤمن بالغيب من قبول الروايات الصحيحة المتعلقة بالمعجزات الحسية[١].

وليس مرادي من إيراد هذه الشبهةِ مناقشةَ أعضاء الجمعيات القومية في منهجهم بجعل العقل والعلم التجريبي حاكماً على نصوص الشريعة، لأن هذه الشبهة قد تولى الردَّ عليها شيخ الإسلام في عصره الشيخُ مصطفى صبري، الذي قال عن أصحاب المدرسة العقلية: (إن آثار العلم الفاتنة أثرت في العقول أبلغ تأثير، لكن هذه العقول لا قيمة لها عندنا، بل عند أصحابها أيضاً، لكونها عقول الذين يقولون: (ليس للمنطق سلطان على الإنسان)، ويقولون: (إن مجرد النظر العقلي يكون دليل الأخطاء) فهي عقول الذين خرجوا على سلطان العقل والمنطق.

وهل يَعرِفُ أصحابُ تلك العقولِ أن عدم كون الدين مؤيداً بالتجربة لا يجعل العيب في الدين، بل في التجربة نفسها لكونها ميزاناً قاصراً على الماديات، والدين أرفع شأناً من أن يدخل في متناول هذا الميزان.

وإذا لزمت التجربة للدين فلا يجريه إلا العقل الذي هو أيضاً مِنْحةٌ للإنسان من العالم العلوي كالدين، والذي يسمونه العلم ويقوم على التجربة فإنما يكون نفعه في الماديات لا في المعنويات)[٢].

وقال أيضاً: «مما لا يخفى على ذوي الأعين الساهرة، بعد أن سادت المادة في الغرب، وأخذ الشرق يهتدي بهدي الغرب، ما طرأ على القلوب الضعيفة من إنكار المعقولات والمغيبات.. وأبرز مميزات هؤلاء الكتاب والعلماء المتفقين معهم أنهم

---

(١) السيرة النبوية الصحيحة، أكرم ضياء العمري، ٢/ ٦٢٣.

(٢) موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، مصطفى صبري، ١/ ٦١.

ينكرون المعجزات الكونية، ويعتبرونها من المستحيلات»[1].

الموقف التفصيلي للجمعيات من الآيات الحسية الخصيصة برسول الله ﷺ:

لقد بينت أن الموقف العام للجمعيات القومية هو رد جميع الآيات الحسية. وليكتمل البيان أذكر بعض أقوالهم عن الآيات الحسية الثابتة بكتاب الله وسنة نبيه، ومنها:

١) حادثة انشقاق القمر:

وردت حادثة انشقاق القمر في كتاب الله تعالى كما قال تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾، وثبت في كتب الأحاديث الصحيحة حادثة انشقاق القمر، فمن ذلك:

ما ثبت عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِي اللَّه عَنْه: (أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً، فَأَرَاهُمُ الْقَمَرَ شِقَّتَيْنِ حَتَّى رَأَوْا حِرَاءً بَيْنَهُمَا)[2].

وقال عَبْدُاللَّه بْنُ مَسْعُود رَضِي اللَّه عَنْه: (انْشَقَّ الْقَمَرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ شِقَّتَيْنِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ اشْهَدُوا)[3].

فهذه النصوص الصحيحة تثبت أن القمر قد انشق حقيقة، وترد على محمد فريد وجدي القائل عن انشقاق القمر، «... مما لا يمكن إثباته بدليل محسوس، أو مما يتأتى توجيهه إلى غير ما فهم منه»[4].

---

(١) المصدر السابق، ٣/ ٣و٥. وانظر عن منهج هذه المدرسة:

١. منهج المدرسة الحديثة في التفسير، فهد الرومي.
٢. الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، محمد محمد حسين.
٣. جهود المفكرين المسلمين المحدثين في مقاومة التيار الإلحادي، محمود عبدالحكيم عثمان.
٤. اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر في مصر، حمد بن صادق الجمال.

(٢) صحيح البخاري، كتاب المناقب، بَاب انْشِقَاقِ الْقَمَرِ، رقم الحديث (٣٥٧٩).

(٣) المصدر السابق، كتاب المناقب، بَاب سُؤَالِ الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُرِيَهُمُ النَّبِيُّ آيَةً، رقم الحديث (٣٣٦٤).

(٤) السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة، محمد فريد وجدي، ١٨٤. وانظر: تفسير الطبري، ٢٧/ ٨٥.

وقبل مناقشة هذه القضية وما تحتويها من أمور ومواقف للجمعيات أود أن أبين مدى ارتباط حادثة الانشقاق بما ورد في سورة القمر.

إن حادثة انشقاق القمر في مكة كانت السبب في نزول آيات سورة القمر، روى أنسُ بن مالك قائلاً: «سَأَلَ أَهْلُ مَكَّةَ النَّبِيَّ ﷺ آيَةً، فَانْشَقَّ الْقَمَرُ بِمَكَّةَ مَرَّتَيْنِ، فَنَزَلَتْ: (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ) إِلَى قَوْلِهِ (سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ)»[1].

وهذا تفسير بعض الصحابة للآيات، منهم:

أ) حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: عن أبي عبدالرحمن السلمي قال: نزلنا المدائن فكنا منها على فرسخ، فجاءت الجمعة، فحضر أبي وحضرت معه، فخطبنا حذيفة فقال: ألا إن الله يقول: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾، ألا وإن الساعة قد اقتربت، ألا وإن القمر قد انشق على عهد نبيكم ﷺ.

ب) ابن عباس رضي الله عنه: وفي قوله: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ قال: «قد مضى ذلك، كان قبل الهجرة، انشق القمر حتى رأوا شقيه».

ت) عبدالله بن عمر رضي الله عنه: في قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ قال: وقد كان ذلك على عهد رسول الله ﷺ، انشق فلقتين؛ فلقة من دون الجبل، وفلقة من خلف الجبل، فقال النبي ﷺ: [اللهم اشهد][2].

---

(١) سنن الترمذي، كتاب التفسير، بَاب وَمِنْ سُورَةِ الْقَمَرِ، رقم الحديث (٣٢٠٨). وقال: حَسَنٌ صَحِيحٌ.
(٢) انظر: تفسير الطبري، ٢٧/ ٨٦ - ٨٨.

١. دلائل النبوة، البيهقي، ٢/ ٢٦٢، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.
٢. تفسير ابن كثير، ٧/ ٤٤٨، ٤٥٠.
٣. فتح الباري، ابن حجر، ٧/ ٢٢٥.

وبما سبق نقله من كلام الله وأحاديث رسول الله ﷺ وأقوال الصحابة يتضح أن من آيات الرسول ﷺ الكونية انشقاق القمر، وأن كفار أهل مكة سألوه آية، فأراهم انشقاق القمر، آيةً حجةً على صدق قوله، وحقيقةِ نبوته، فلما أراهم أعرضوا، وكذبوا، وقالوا: هذا سحر مستمر، سحرنا محمد..وإن ير المشركون علامة تدلهم على حقيقة نبوة محمد، ودلالة تدلهم على صدقه فيما جاءهم به عن ربهم، يعرضوا عنها، فيولوا مكذبين بها منكرين أن يكون حقاً يقيناً، ويقولوا تكذيباً منهم بها، وإنكاراً لها أن تكون حقاً: هذا سحر سحرنا به محمد(١).

وقال ابن كثير: قد اتفق العلماء مع بقية الأئمة على أن انشقاق القمر كان على عهد رسول الله ﷺ. وهذا أمر متفق عليه بين العلماء، أي انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي ﷺ، وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات(٢).

وأما عن موقف الجمعيات القومية من آية انشقاق القمر، فقد كان ردُّ الأحاديث الصحيحة الثابتة، ولم يسلم بها الأعضاء، والآيةُ المثبتة للحادثة أولوها.

قال رشيد رضا: «لا يشك عاقل من المؤمنين وغيرهم أن خلقه تعالى للسماوات وأجرامها في غاية الإبداع والنظام لا تفاوت فيه ولا خلل، وأن سنته تعالى في الخلق لا تتبدل ولا تتحول، فلا يصدق خبر وقوع تغير فيها إلا بخبر قطعي ثابت مثل ثبوتها، وثباتها كآيات الرسل التي أخبر الله تعالى بها. وعن سندها وروايتها، قال رضا: «لو

---

(١) تفسير الطبري، ٢٧/ ٨٤و٨٧. وانظر: ١، الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ، القاضي عياض، ١/ ٣٩٧.

١. الشمائل المحمدية، ابن كثير، ١٤٥.
٢. فتح الباري، ابن حجر، ٧/ ٢٢٥.
٣. فتح القدير، الشوكاني، ٥/ ١٢٠، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

(٢) الشمائل المحمدية، ابن كثير، ١٤٥. وانظر: تفسير ابن كثير، ٧/ ٤٤٧.

وقع لتوفرت الدواعي على نقله بالتواتر لشدة غرابته عند جميع الناس في جميع البلاد ومن جميع الأمم»[١].

وهذا الرأي الذي قال به رشيد رضا، يسير وفق المنهج الذي قرره بأن محمداً لم يَدْعُ أحداً من الناس، ولا أمة من الأمم إلى الإيمان برسالته بأن قدم بين يدي دعواه خارقاً من خوارق الأفعال مثل قلب عين من الأعيان إلى عين أخرى[٢].

ويسير محمد فريد وجدي على منهج رشيد رضا وغيره، يقول: «إننا نحرص فيما نكتبه في هذه السيرة، على أن لا نسرف في صرف كل حادثة إلى ناحية الإعجاز، ما دام يمكن تعليلها بالأسباب العادية، حتى ولو بشيء من التكلف، مسايرة لمذهب المبالغين في التثبت، والمحافظين على إقامة الدستور العلمي، ثقة منا بأن بحثاً لا تحترمه النخبة المثقفة، ولا تجد فيه صورة صحيحة لمثلها الأعلى في عرض المسائل وتحليلها، لا يمكن أن يؤدي إلى ما قصد منه من الخدمة العامة»[٣].

وقد تناول محمد عزة دروزة حادثة انشقاق القمر، بعد أن قرر مبدأ إنكار المعجزات الحسية، وقال: إن الله عز وجل امتنع عن إظهار المعجزة على يد النبي إجابة على تحدي الكفار، وتعليلاً صريحاً لذلك، وهو أن الأمم السابقة قد كذبت بالآيات التي أظهرها الله على أيدي أنبيائه، وأنها لم تحقق المقصود منها[٤].

---

(١) مجلة المنار، المجلد ٣٠، الجزء الرابع، ص:٢٦٧، والمجلد ٣٠، الجزء الخامس، ص: ٣٦٣. وقد استدل رشيد رضا بما استدلت به الفلاسفة في إنكار الحادثة، انظر: فتح الباري، ابن حجر، ٧/ ٢٢٤.

(٢) الوحي المحمدي، رشيد رضا. وانظر: فلسفة سيرة محمد، جميل بيهم، ٢٢٥. قال ابن كثير: (شوهد انشقاقه في كثير من بقاع الأرض، ويقال: إنه أرخ لذلك في بعض بلاد الهند..) البداية والنهاية، ٣/ ١٢٠.

(٣) السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة، محمد فريد وجدي، ١٨٤.

(٤) سيرة النبي، محمد عزة دروزة، ١/ ٢٥٥.

وقال: إن حكمة الله اقتضت ألا تكون الخوارق دعامة لنبوة سيدنا محمد ﷺ، وبرهاناً على صحة رسالته، وصدق دعوته، التي جاءت بأسلوب جديد؛ هو أسلوب لفت النظر إلى الكون وما فيه من آيات باهرة..، واعتبار الدعوة التي تقوم على هذه التقارير هي في غنىً عن معجزات خارقة للعادة لا تتصل بها بالذات[١].

بعد عرض ما سبق تقريره عن الآيات الكونية عامة عند دروزة، قال عن انشقاق القمر: «إن الحادث لم يشر إليه ثانية في السور والفصول القرآنية المكية التي نزلت بعد سورة القمر، وهي أكثر مما نزل قبلها، فهذا السكوت عن الحادث على خطورته، وخاصة إزاء تكرار تحدي الكفار قد يلهم وجاهة توجيه الذين لم يأخذوا بالروايات، وصرفوا العبارة القرآنية إلى أشراط الساعة كما هو المتبادر»[٢].

لقد بينت في بداية المبحث اتفاق علماء الأمة على إثبات وقوع انشقاق القمر في عهد رسول الله ﷺ بناء على طلب الكفار، كما ثبت هذا في الأحاديث الصحيحة، وهو ظاهر التنزيل، ولا يلزم أن يستوي الناس فيها، لأنها كانت آية ليلية. وأنها كانت بطلب النبي ﷺ من الله تعالى عند التحدي.

وقد تقدم في الصحيح أن أهل مكة هم الذين سألوا وطلبوا أن يريهم آية، فأراهم انشقاق القمر فلقتين، وعن حذيفة أنه خطب بالمدائن ثم قال: «ألا إن الساعة قد اقتربت، وأن القمر قد انشق على عهد نبيكم ﷺ»[٣].

وذكر السلف أن الذين أنكروا انشقاق القمر، قوم لم يُسلِّموا تسليماً لنصوص الشريعة، وهم طوائف من الفلاسفة وغيرهم.

---

(١) المصدر نفسه، ١/ ٢٤٩ - ٢٥٠.

(٢) المصدر نفسه، ١/ ٢٥٠ - ٢٥٣.

(٣) جامع أحكام القرآن، القرطبي، ١٧/ ١٢٦.

قال القاضي عياض: انشقاق القمر؛ فالقرآن نص بوقوعه، وأخبر عن وجوده، ولا يعدل عن ظاهر إلا بدليل، وجاء برفع احتماله صحيح الأخبار من طرق كثيرة، ولا يوهن عزمنا خلاف أخرق منحل عرى الدين، ولا يلتفت إلى سخافة مبتدع يلقي الشك على قلوب ضعفاء المؤمنين، بل نرغم أنفه وننبذ بالعراء سخفه[١].

وأصل الداء الذي وقع فيه أعضاء الجمعيات القومية في مسألة رد آية انشقاق القمر، هو تحكيم العقل في نصوص النقل الحكيم، والقدح في النقل المتواتر، فوقعوا في ضلالتين؛ رد النص القرآني بالتأويل، وعدم قبول النقل الثابت من أحاديث الرسول ﷺ.

إن أعضاء الجمعيات لم يحُكِّموا العقل السليم في تدبر هذه الحادثة، إذ ليس القمر في مطلعه واحداً لجميع أهل الأرض فقد يطلع على قوم قبل أن يطلع على الآخرين، وقد يكون من قوم بضد ما هو من مقابليهم من أقطار، أو يحول بين قوم وبينه سحاب أو جبال، ولهذا نجد الكسوفات في بعض البلاد دون بعض، وفي بعضها جزئية وفي بعضها كلية، وفي بعضها لا يعرفها إلا المدعون لعلمها، ذلك تقدير العزيز العليم.

ثم آية القمر كانت ليلاً والعادة من الناس بالليل الهدوء وإيجاف الأبواب وقطع التصرف، ولا يكاد يعرف من أمور السماء شيئاً إلا من رصد ذلك[٢].

وقال محمد حسين الذهبي عن الجمعيات القومية المغالية في قيمة العقل ودوره: «أعطت لعقلها حرية واسعة فتأولت بعض الحقائق الشرعية التي جاء بها القرآن الكريم، وعدلت بها عن الحقيقة إلى المجاز أو التمثيل، وليس هناك ما يدعو لذلك إلا مجرد الاستبعاد والاستغراب، استبعاد بالنسبة لقدرة البشر القاصرة، واستغراب لا يكون إلا

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ، القاضي عياض، ١/ ٣٥٣. وانظر:
١. شرح صحيح مسلم، النووي، ١٧/ ١٤٣.
٢. فتح القدير، الشوكاني، ٥/ ١٢٠.
(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ، القاضي عياض، ١/ ٤٠٠. وانظر: النبوات، ابن تيمية، ٤٠٧.

ممن جهل قدرة الله وصلاحيتها لكل ممكن..، وحملت بعض ألفاظ القرآن من المعاني ما لم يكن معهوداً عند العرب في زمن نزول القرآن، وطعنت في بعض الحديث تارة بالضعف وتارة بالوضع، مع أنها أحاديث صحيحة رواها البخاري ومسلم»[(١)].

٢) موقفهم من حادثة شق صدر الرسول ﷺ:

إن حادثة شق الصدر ثابتة بالأحاديث الصحيحة، روى أَنَسُ بْنُ مَالِك رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَاهُ جِبْرِيلُ ﷺ وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ، فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ، فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً، فَقَالَ: هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ، ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ لأَمَهُ ثُمَّ أَعَادَهُ فِي مَكَانِهِ. وقال أنس بن مالك وهو راوي الحديث: «وَقَدْ كُنْتُ أَرَانِي أَثَرَ ذَلِكَ الْمِخْيَطِ فِي صَدْرِهِ»[(٢)].

وثبتت حادثة شق الصدر أيضاً في ليلة الإسراء، قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ: لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ مَسْجِدِ الْكَعْبَةِ -: أَنَّهُ جَاءَهُ ثَلاثَةُ نَفَرٍ قَبْلَ أَنْ يُوحَى إِلَيْهِ، وَهُوَ نَائِمٌ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، فَقَالَ: أَوَّلُهُمْ: أَيُّهُمْ هُوَ؟ فَقَالَ: أَوْسَطُهُمْ هُوَ خَيْرُهُمْ، فَقَالَ آخِرُهُمْ: خُذُوا خَيْرَهُمْ، فَكَانَتْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، فَلَمْ يَرَهُمْ حَتَّى أَتَوْهُ لَيْلَةً أُخْرَى فِيمَا يَرَى قَلْبُهُ وَتَنَامُ عَيْنُهُ وَلا يَنَامُ قَلْبُهُ، وَكَذَلِكَ الأَنْبِيَاءُ تَنَامُ أَعْيُنُهُمْ وَلا تَنَامُ قُلُوبُهُمْ، فَلَمْ يُكَلِّمُوهُ حَتَّى احْتَمَلُوهُ فَوَضَعُوهُ عِنْدَ بِئْرِ زَمْزَمَ فَتَوَلاهُ مِنْهُمْ جِبْرِيلُ فَشَقَّ جِبْرِيلُ مَا بَيْنَ نَحْرِهِ إِلَى لَبَّتِهِ حَتَّى فَرَغَ مِنْ صَدْرِهِ وَجَوْفِهِ فَغَسَلَهُ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ بِيَدِهِ حَتَّى أَنْقَى جَوْفَهُ، ثُمَّ أُتِيَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ فِيهِ تَوْرٌ مِنْ ذَهَبٍ مَحْشُوًّا إِيمَانًا وَحِكْمَةً، فَحَشَا بِهِ صَدْرَهُ وَلَغَادِيدَهُ - يَعْنِي عُرُوقَ حَلْقِهِ - ثُمَّ أَطْبَقَهُ، ثُمَّ عَرَجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا...)[(٣)].

---

(١) التفسير والمفسرون، الذهبي، ٢/ ٥٤٩ - ٥٥٠، دار الكتب الحديثة، مصر، الطبعة الثانية، ١٣٩٦هـ.
(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الإِسْرَاءِ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، رقم الحديث (٢٣٦).
(٣) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، بَاب قَوْلِهِ: (وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا)، رقم الحديث (٦٩٦٣).

قال ابن حجر: «إن جميع ما ورد من شق الصدر، واستخراج القلب، وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة، مما يجب التسليم له دون التعرض لصرفه عن حقيقته لصلاحية القدرة، فلا يستحيل شيء من ذلك[1].

قال القرطبي: «لا يلتفت لإنكار الشق - ليلة الإسراء والمعراج - لأن رواته ثقات مشاهير»[2].

أما أعضاء الجمعيات القومية فمنهم من لم يتعرض لذكرها أصلاً، وممن قال عنها: «لا يمكن إثباته (الشق) بدليل محسوس، أو مما يتأتى توجيهه إلى غير ما فهم منه»[3]. وقال فيليب حتي: «إنها من الروايات الشعبية التي أغنت حياة محمد وزينتها بالعجائب»[4].

وتأكيداً على مبدأ الاتفاق بين المنهج الاستشراقي والمبدأ القومي، يقرر محمد حسين هيكل أن حادثة شق الصدر لا يطمئن المستشرقون[5] ولا جماعة من المسلمين - أصحاب المدرسة العقلية - كذلك إليها، ويرونها ضعيفة السند[6].

لقد سبق بيان أن حادثة شق صدر الرسول ﷺ مرويةٌ في صحيح البخاري ومسلم، و(هيكل) يتفق مع المستشرقين في رد الحادثة، ويرفض شهادة الصحابي الجليل؛ أنس

(١) فتح الباري، ابن حجر، ١٣/ ، وانظر: السيرة النبوية في ضوء الكتاب والسنة، محمد أبو شهبة، ١/ ١٩٩.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، ١/ ٣٨٢، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

(٣) السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة، محمد فريد وجدي، ١٨٤.

(٤) صانعو التاريخ، فيليب حتي، ١٥، دار الثقافة، بيروت. وهي دراسة قدمها فيليب حتي النصراني، عام ١٩٦٨م، بجامعة برنستون وهي الجامعة الشهيرة في ميدان الدراسات الاستشراقية والعداء للإسلام والمسلمين. وقد ترجمت الدراسة إلى العربية.

(٥) مثال: درمنغم، حياة محمد، ٤٨.

(٦) حياة محمد، محمد حسين هيكل، ١٢٨.

ابن مالك بأنه قد رأى أثر شق الصدر. ومن المقرر في عقيدة أهل السنة والجماعة أن الصحابة عدول.

وما يحتج به أعضاء الجمعيات في إنكار حادثة الشق أنها تعتمد على رواية طفلين[١] لا يصح الأخذ بقولهما. ومن مسلمات الأمور أن رواية الأطفال كثيراً ما تكون بعيدة عن الكذب والاختلاق أكثر من رواية الرجال، ومع ذلك فقد تحدث الرسول ﷺ عن هذه الحادثة بعد البعثة حينما كان يسترجع ذكريات الطفولة ويقصها على أصحابه، وأخبر عن المرة الثانية التي وقعت له في ليلة الإسراء والمعراج[٢].

٣) موقفهم من نزول المسيح عيسى عليه السلام:

ومن آيات نبوة محمد ﷺ إخباره بما سيقع من أمور مستقبلية[٣]، ومن ذلك نزول ابن المسيح عيسى ابن مريم رسول الله عليه السلام.

وقد ثبت أن المسيح سينزل في آخر الزمان بالأحاديث المتواترة، ونقلها الخلف عن السلف، وقال الطبري: (تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال: ينزل عيسى ابن مريم، فيقتل الدجال، ثم يمكث في الأرض مدة)[٤].

---

(١) انظر: المصدر السابق، ١٢٨.

(٢) القول المبين في سيرة سيد المرسلين، محمد الطيب النجار، ٧١، دار اللواء، الرياض، ١٤٠١هـ. وانظر:
١. السيرة النبوية في ضوء الكتاب والسنة، محمد أبو شهبة، ١/ ١٩٩، ٢٠٣.
٢. السيرة النبوية الصحيحة، أكرم ضياء العمري، ١/ ١٠٤.

(٣) شمائل الرسول، ابن كثير، ٣٧٢، دار القبلة، المملكة العربية السعودية، جدة، الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ.

(٤) تفسير الطبري، ٦/ ٤٥٥ - ٤٥٨. وممن نقل التواتر:
١. ابن كثير، تفسير ابن كثير، ١/ ٦١٥ - ٦٢١.
٢. ابن حجر، فتح الباري، ٦/ ٤٩٣.
٣. محمد بن أحمد السفاريني، لوامع الأنوار البهية، ٢/ ٩٤ - ٩٥.
٤. التصريح بما تواتر في نزول المسيح، محمد أنور شاه الكشميري، المطبوعات الإسلامية، حلب.

ومن هذه الأحاديث الصحيحة، قَالَ رَسُول اللَّهِ ﷺ: [لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَنْزِلَ فِيكُمُ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا مُقْسِطًا فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ، وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ، وَيَفِيضَ الْمَالُ حَتَّى لا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ][(١)].

رد أعضاء الجمعيات هذه الأحاديث وفي جملتهم رشيد رضا قال: «ليس في القرآن نص صريح بأنه ينزل من السماء، وإنما هذه عقيدة أكثر النصارى، وقد حاولوا في كل زمان منذ ظهور الإسلام إلى الآن بثها في المسلمين»[(٢)].

إن هذا الرأي يعتبر من أمثلة أقوالهم في رد الأحاديث الصحيحة المتواترة، ولذا أنكر الشيخ أحمد شاكر، على أصحاب هذه المناهج العقلية، بقوله: «لقد لعب المجددون، أو المجردون، في عصرنا الذي نحيا فيه، بهذه الأحاديث الدالة صراحة على نزول عيسى ابن مريم عليه السلام، في آخر الزمان، قبل انقضاء الحياة الدنيا، بالتأويل المنطوي على الإنكار تارة، وبالإنكار الصريح أخرى، ذلك أنهم - في حقيقة أمرهم - لا يؤمنون بالغيب، أو لا يكادون يؤمنون وهي أحاديث متواترة المعنى في مجموعها، يعلم ما فيها من الدين بالضرورة. فلا يجديهم الإنكار ولا التأويل»[(٣)].

٤) موقفهم من حنين الجذع، ونبوع الماء من بين يديه ﷺ:

انطلاقاً من إنكار كل ما لا يخضع للعلم التجريبي، قرر محمد فريد وجدي أن بداءة العقل وقواعد العلم، صارفة النظر عن المعجزات وإظهار المدهشات[(٤)]، ولهذا

---

(١) صحيح البخاري، كتاب المظالم والغصب، بَاب كَسْرِ الصَّلِيبِ وَقَتْلِ الْخِنْزِيرِ، رقم الحديث (٢٢٩٦).

(٢) تفسير المنار، رشيد رضا، ٢٨/ ٧٥٦.

(٣) مسند الإمام أحمد، تحقيق أحمد شاكر، ١٢/ ٢٥٧، التعليق على الحديث رقم (٧٢٦٧).

(٤) المدنية والإسلام، محمد فريد وجدي، ٧١، ٧٢، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ١٣٥٣هـ.

لا تجدي في العقل معجزة، ولا تنفع فيه غريبة[1].

ومن هذه المعجزات التي ردها أعضاء الجمعيات القومية العربية، حنين الجذع ونبوع الماء بين يديه ﷺ[2].

لقد اعتبر رشيد رضا أن ما أكرم الله تعالى به نبيه من الآيات الكونية لم يكن لإقامة الحجة على نبوته ورسالته، بل كان من رحمة الله تعالى وعنايته به وبأصحابه في الشدائد. وضرب مثالاً على هذه الآيات إشباعَ العدد الكثير من الطعام القليل. والإرواء عند نفاذ ماء الجيش في الصحراء والحر الشديد[3].

وقال محمد عزة دروزة: إن كثيراً من الروايات المحتوية أخبار المعجزات النبوية مما يحتمل التوقف ويدعو إلى التحفظ، وإلى القول: «إن أقوال بعض المؤلفين فيها تتضمن تكلفاً لا ضرورة له ولا طائل من ورائه»[4].

قال مصطفى صبري رداً على أصحاب هذا المنهج: «ما أعجب عقلية الكتاب العصريين! لا يرون في أنفسهم - وهم صفوة الشرق - ولا في كتاب الغرب - وهم قادتهم - معجزةً، فينكرون معجزات الأنبياء، ولا يرون في أنفسهم قدرة وحماسة في حفظ أحاديث نبيهم.. فينكرون صحة الأحاديث المحفوظة، ويحطون من قيمة الدافع الديني، ويعللون أنفسهم بدعوى الطريقة العلمية في تأليف الكتب من غير دليل لهم على هذه الدعوى غير تقليد الغربيين[5].

(١) المصدر السابق، ٧١، ٧٢.

(٢) فلسفة تاريخ محمد ﷺ، محمد جميل بيهم، ٢٢٤. وانظر:

١. محمد رسول البشر، محمد عبدالله السمان، ١٢٤.

٢. حياة محمد، محمد حسين هيكل، ٧٤.

(٣) الوحي المحمدي، رشيد رضا، ٨٠ - ٨١.

(٤) سيرة النبي، محمد عزة دروزة، ١/ ٢٥٤و٢٥٦.

(٥) موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، مصطفى صبري، ٣/ ٥٤.

لما كان المجال هو الحديث عن الروايات وصدق الأخبار، فإنني أنقل كلام ابن حجر، وهو من علماء الحديث، وذلك عند حديثه عن آيات النبوة، قال: «إن مجموع الروايات يفيد القطع بأنه ظهر على يده ﷺ من خوارق العادات شيء كثير، كما يُقطع بجود حاتم وشجاعة علي، وإن كانت أفراد ذلك ظنية ووردت مورد الآحاد، مع أن كثيراً من المعجزات النبوية قد اشتهر وانتشر ورواه العدد الكثير والجم الغفير، وأفاد الكثير منه القطع عند أهل العلم بالآثار، والعناية بالسير والأخبار، وإن لم يصل عند غيرهم إلى هذه الرتبة لعدم عنايتهم بذلك، بل لو ادعى مُدّعٍ أن غالب هذه الوقائع مفيدة للقطع بطريق نظري لما كان مستبعداً وهو أنه لا مِرية أن رواة الأخبار في كل طبقة قد حدثوا بهذه الأخبار في الجملة، ولا يحفظ عن أحد من الصحابة ولا من بعدهم مخالفة الراوي فيما حكاه من ذلك، ولا الإنكار عليه فيما هناك فيكون الساكت منهم كالناطق[1].

إن الآيات التي ردها أعضاء الجمعيات قد رويت بأحاديث ثابتة عن رسول الله ﷺ، وفيما يلي تفصيلها:

» أحاديث حنين الجذع للرسول ﷺ:

ثبت في صحيح البخاري: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ إِلَى جِذْعٍ، فَلَمَّا اتَّخَذَ الْمِنبَرَ، تَحَوَّلَ إِلَيْهِ، فَحَنَّ الْجِذْعُ فَأَتَاهُ، فَمَسَحَ يَدَهُ عَلَيْهِ»[2]. قال البيهقي: «قصة حنين الجذع من الأمور الظاهرة التي حملها الخلف عن السلف، ورواية الأخبار الخاصة فيها كالتكليف»[3].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر، ٦/ ٦٧٣، ٦٧٤.

(٢) صحيح البخاري، كتاب المناقب، بَاب عَلَامَاتِ النُّبُوَّةِ فِي الإِسْلامِ، رقم الحديث (٣٣١٨).

(٣) فتح الباري، ابن حجر، ٦/ ٦٩٨.

قال ابن كثير: «حنين الجذع شوقاً إلى رسول الله ﷺ وشفقاً من فراقه، وقد ورد من حديث جماعة من الصحابة بطرق متعددة تفيد القطع عن أئمة هذا الشأن وفرسان هذا الميدان، بوقوع ذلك عند أئمة هذا الفن، وكذا من تأملها وأنعم فيها النظر والتأمل مع معرفته بأحوال الرجال»(١).

» **أحاديث نبوع الماء من بين يديه ﷺ.**

روى أَنس بْن مَالِك رضي الله عنه، قَالَ: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَحَانَتْ صَلاةُ الْعَصْرِ فَالْتُمِسَ الْوَضُوءُ فَلَمْ يَجِدُوهُ، فَأُتِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِوَضُوءٍ، فَوَضَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَهُ فِي ذَلِكَ الإِنَاءِ، فَأَمَرَ النَّاسَ أَنْ يَتَوَضَّؤوا مِنْهُ، فَرَأَيْتُ الْمَاءَ يَنْبُعُ مِنْ تَحْتِ أَصَابِعِهِ، فَتَوَضَّأَ النَّاسُ حَتَّى تَوَضَّؤوا مِنْ عِنْدِ آخِرِهِمْ»(٢). ولما يتوافر في هذه الحادثة من أسباب القبول من جانب ثبوتها في كتب الصحاح، ومشاهدة الجمع الغفير من الصحابة لها، قال القاضي عياض: «ومثل هذا في هذه المواطن الحفلة والجموع الكثيرة، لا تتطرق التهمة إلى المحدث به، لأنهم كانوا أسرع شيء إلى تكذيبه، لما جبلت عليه النفوس من ذلك، ولأنهم كانوا ممن لا يسكت على باطل، فهؤلاء قد رووا هذا، وأشاعوه، ونسبوا حضور الجماء الغفير له، ولم ينكر أحد من الناس عليهم ما حدثوا به عنهم أنهم فعلوا وشاهدوه، فصار كتصديق جميعهم له»(٣).

---

(١) الشمائل المحمدية، ابن كثير، ٢٤٣ و٢٥٤.

(٢) صحيح البخاري، كتاب المناقب، بَاب عَلَامَاتِ النُّبُوَّةِ فِي الإِسْلام، رقم الحديث (٣٣٠٨).

(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ١/ ٤٠٥.

» القسم الثالث: موقف الجمعيات من سيرة الرسول ﷺ:

لقد كتب السلف سيرة الرسول ﷺ منذ ولادته وحتى وفاته، ونقلت إلينا بطرق منها: الصحيح كما في كتابي صحيح البخاري ومسلم، ومنها الحسن والضعيف كما في كتب السير والمغازي.

وتناولت هذه الكتب بيان السيرة النبوية إما في جميع جوانبها أو في جانب منها، كمثل الكتب التي تهتم بالشمائل المحمدية، أو المغازي.. إلخ.

ومن الملاحظ أن الكتابة في السيرة لم تتوقف من العصر الأول حتى القرن الخامس عشر الهجري، وإنما الذي اختلف فهو منهج الكاتب، والهدف من الكتابة.

وفي هذا القسم أذكر مواقف متفرقة لبعض أعضاء الجمعيات القومية العربية، من السيرة النبوية، تدل على التزييف العلمي للحقائق التاريخية المسندة:

أولاً) قبل البعثة:

أ) الحالة الأدبية عند العرب قبل البعثة:

انطلاقاً من مبدأ تمجيد مآثر العرب، وذكر محامدهم عند بعض أعضاء الجمعيات القومية رأوا أن البعثة المحمدية لم تأتِ بجديد من أسباب النهضة والتقدم، إذ ظهرت النهضة قبل البعثة المحمدية، وكان نصيب البعثة هو التمهيد لقبول الدين أو لإكمال النهضة والتقدم.

قال جرجي زيدان - النصراني - في كتابه «تاريخ التمدن الإسلامي»: (إن بلاد العرب كانت قبل الإسلام في نهضة أدبية دينية تمهيداً لقبول الدعوة الإسلامية والقيام بنصرتها)[1]. وكرر هذا القول ميشيل عفلق - النصراني - في محاضرة له بمناسبة مولد

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامي، جرجي زيدان، ١/ ٣٤.

الرسول العربي، عندما تحدث عن النهضة العربية التي سبقت ولادة الرسول وبعثته[١].

وقال محمد جميل بيهم عن هذا الأمر: (أصيبت الجاهلية بظهور بعض المفكرين على الجهر بآرائهم ضد الوثنية، ومنشطاً لغيرهم إلى التفكير بحرية في أمر صحتها، هذا إلى أنه شجع أيضاً اليهود والنصارى وغيرهم ليس على المزيد من حرية تسفيه عبادة الأوثان فقط، وإنما شجعهم كذلك على تعبير العرب بها. فإذا بقدسية الأصنام، وقد هوجمت من كل صوب تتزعزع في نفوس القوم حيثما كانوا، وإذا بأهل مكة يفسحون المجال للشكوك في صحة الوثنية، وإذا بمحمد يأتي في الوقت المناسب ويدعوهم إلى ما كانت تدعوهم إليه اليهودية والنصرانية من عبادة إله واحد)[٢].

ومعلوم أن اليهود والنصارى ما كانوا يدعون إلى إله واحد، وإنما دعاهم الرسول ﷺ إلى عبادة إله واحد كما قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾[٣].

إن هذا القول عن - حالة الجاهلية - ينكر فضل الله على عباده بالرسالة الإسلامية، وأنها منقذة للعالم من الجهل والشرك والفساد، وهذا بخلاف ما هو ثابت في السير، حيث أتى على العالم حين من الدهر فسدت فيه العقائد، وانتشرت الوثنية، وانتكست فيه الأخلاق، وسادت فيه الجهالات والخرافات[٤].

وقد يطول الحديث عن هذه الانحرافات، ويكفي الإشارة إلى ما جاء في كتاب الله تعالى وفي سنة نبيه عن هذه الانحرافات. وسأخص بالذكر بلاد الحجاز، والمفترض أن تكون أبعد بلاد العرب عن الانحرافات.

(١) في سبيل البعث، ميشيل عفلق، ٤٢، ٥٢. وانظر: دراسات في السيرة النبوية، محمد سرور، ٢٠٠.
(٢) فلسفة تاريخ محمد ﷺ، محمد جميل بينهم، ٩٦.
(٣) سورة البينة، رقم الآية (٥).
(٤) السيرة النبوية في ضوء الكتاب والسنة، محمد أبو شهبة، ١/ ٢٤١.

قبل بعثة الرسول ﷺ عم الفساد وطم، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[1]. فمن أنواع هذا الفساد الذي ظهر: إشراك الله بالعبادة قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾[3].

فما كان من القبائل العربية إلا أن اتخذت أصناماً لها بيوت معظمة وسدنة وحجاب، ويُهدى لها، ويُطاف بها، فكان لقريش وبني كنانة (العزى) بنخلة، وكانت (اللات) لثقيف بالطائف، وكان (مناة) للأوس والخزرج ومن دان بدينهم[4]. ويكفي ما ذكره ابنُ مسعود عن عددها بقوله: (دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ مَكَّةَ يَوْمَ الْفَتْحِ، وَحَوْلَ الْبَيْتِ سِتُّونَ وَثَلَاثُ مِائَةِ نُصُبٍ فَجَعَلَ يطعنها بِعُودٍ فِي يَدِهِ وَيَقُولُ: (جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ) (جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ)[5].

ومن الانحرافات التجرؤ على حق من حقوق الخالق وهي مسألة التحليل والتحريم، كما قال تعالى منكراً عليهم هذا الفعل: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[6].

---

(١) سورة الروم، رقم الآية (٤١).

(٢) سورة النجم، رقم الآيات (١٩ - ٢٣).

(٣) سورة الزخرف، رقم الآية (١٥).

(٤) انظر عن هذا الموضوع: تاريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، ١/ ٢٥٥.

(٥) صحيح البخاري، كتاب المغازي، بَاب أَيْنَ رَكَزَ النَّبِيُّ ﷺ الرَّايَةَ يَوْمَ الْفَتْحِ، رقم الحديث (٣٩٥٠).

(٦) سورة المائدة، رقم الآية (١٠٣).

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾[١].

وثبت في السنة ذكر أول من سيب السوائب، قال الرسول ﷺ في حديثه عن صلاة الكسوف: [ولَقَدْ رَأَيْتُ جَهَنَّمَ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا - حِينَ رَأَيْتُمُونِي تَأَخَّرْتُ - وَرَأَيْتُ فِيهَا عَمْرَو بْنَ لُحَيٍّ وَهُوَ الَّذِي سَيَّبَ السَّوَائِبَ][٢].

لقد ظهرت في المجتمع الجاهلي نفوس لم ترض عن واقعها فسعت للبحث عن الدين الحق - مما يؤكد انحطاط المجتمع الجاهلي قبل البعثة - ومن هذه النفوس زيد بن نفيل، فقد روى عَبْداللَّه بْن عُمَرَ رَضِي اللَّه عَنْهمَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَقِيَ زَيْدَ بْنَ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ بِأَسْفَلِ بَلْدَحٍ[٣]، قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ الْوَحْيُ، فَقُدِّمَتْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ سُفْرَةٌ، فَأَبَى أَنْ يَأْكُلَ مِنْهَا، ثُمَّ قَالَ زَيْدٌ: إِنِّي لَسْتُ آكُلُ مِمَّا تَذْبَحُونَ عَلَى أَنْصَابِكُمْ، وَلا آكُلُ إِلا مَا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَأَنَّ زَيْدَ بْنَ عَمْرٍو كَانَ يَعِيبُ عَلَى قُرَيْشٍ ذَبَائِحَهُمْ، وَيَقُولُ: «الشَّاةُ خَلَقَهَا اللَّهُ، وَأَنْزَلَ لَهَا مِنَ السَّمَاءِ الْمَاءَ، وَأَنْبَتَ لَهَا مِنَ الأَرْضِ، ثُمَّ تَذْبَحُونَهَا عَلَى غَيْرِ اسْمِ اللَّهِ، إِنْكَارًا لِذَلِكَ وَإِعْظَامًا لَهُ»[٤].

ويصف ابن عباس ما كانت عليه الجاهلية فيقول: (إِذَا سَرَّكَ أَنْ تَعْلَمَ جَهْلَ الْعَرَبِ فَاقْرَأْ مَا فَوْقَ الثَّلَاثِينَ وَمِائَةٍ فِي سُورَةِ الأَنْعَامِ: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾[٥].

---

(١) سورة النحل، رقم الآية (١١٦).
(٢) صحيح البخاري، كتاب الجمعة، بَاب إِذَا انْفَلَتَتِ الدَّابَّةُ فِي الصَّلَاةِ، رقم الحديث (١١٣٦).
(٣) بَلْدَحُ: واد قبل مكة من جهة المغرب. انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي، باب الباب واللام.
(٤) المصدر السابق، كتاب المناقب، بَاب حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ، رقم الحديث (٣٥٤٠).
(٥) المصدر السابق، كتاب المناقب، بَاب جَهْلِ الْعَرَبِ، رقم الحديث (٣٢٦٢).

ومن تشريعات الجاهلية وأحكامها فيما يتعلق بالمرأة، ما أورده ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾[1] قال: (كَانُوا إِذَا مَاتَ الرَّجُلُ، كَانَ أَوْلِيَاؤُهُ أَحَقَّ بِامْرَأَتِهِ، إِنْ شَاءَ بَعْضُهُمْ تَزَوَّجَهَا، وَإِنْ شَاؤوا زَوَّجُوهَا، وَإِنْ شَاؤُوا لَمْ يُزَوِّجُوهَا، فَهُمْ أَحَقُّ بِهَا مِنْ أَهْلِهَا، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي ذَلِكَ[2].

ويذكرهم القرآن بطبيعة علاقاتهم الاجتماعية قبل البعثة بقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[3].

ولما وقف المتحدث الرسمي - جعفر بن أبي طالب - باسم المهاجرين أمام النجاشي في الحبشة، استعرض ما كان عليه أهل الجاهلية، فكان مما قال: (أَيُّهَا الْمَلِكُ كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولاً مِنَّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ، وَصِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ، وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوَحِّدَهُ، وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالَ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ..)[4].

---

(١) سورة النساء، رقم الآية (١٩).

(٢) صحيح البخاري، كتاب، باب (لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا)، رقم الحديث (٤٢١٣).

(٣) سورة آل عمران، رقم الآية (١٠٣).

(٤) مسند الإمام أحمد، ١/ ٢٠١ - ٢٠٢.

فبعد هذه النصوص المثبتة من كتاب الله ومن سنة رسوله ﷺ أيقال: إن العرب كانوا في نهضة أدبية؟

وإن تقرير مبدأ (نهضة العرب) قبل البعثة، يعني إنكار نعمة الله على العالم بالرسالة الخاتمة، وفي مقابل هذا الجحود والإنكار نجد أعضاء الجمعيات يصفون المبادئ الماسونية بأنها سبب رقي وتقدم العرب في العصر الحديث، كما قال رفيق العظم: «إن الأمم المسيحية لما كانت مسوقة في أوربا بيدي الكهنة والملوك مأخوذة الإرادة بقوة هاتين الفئتين، كانت ليس لها من الأمر إلا أن تدعى إلى عمل فتجيب، وتساق إلى حرب فتسير».

وبيّن رفيق العظم أن هذه الحال قد تغيرت، حينما قيدت هذه الأمم قيود تلك السلطة، وتمتعت بالحرية، وشاركت الحكام بالرأي، وأصبح الحكام بيد الشعب، لا الشعب بيد الحكام، وصار الساسة وأرباب الحل والعقد محاسبين على كل عمل يأتونه[(١)].

ب) موقفهم من حادثة الفيل والطير الأبابيل:

أخبر القرآن عن حادثة الفيل وإرسال الطير على الجيش حتى أهلكهم، بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾[(٢)].

قال ابن كثير: «هذه من النعم التي امتن الله بها على قريش فيما صرف عنهم من أصحاب الفيل، الذين كانوا قد عزموا على هدم الكعبة ومحو أثرها من الوجود،

(١) مجموعة آثار رفيق العظم، (رسالة الجامعة الإسلامية)، ٥٧.
(٢) سورة الفيل الآيات (١ - ٥).

فأبادهم الله، وأرغم آنافهم، وخيب سعيهم، وأضل عملهم، وردهم بشر خيبة..، وكان هذا من باب الإرهاص والتوطئة لمبعث رسول الله ﷺ، فإنه في ذلك العام ولد على أشهر الأقوال»[١].

أشار النبي ﷺ إلى حادثة الفيل، كما في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي الله عنه قَالَ: لَمَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ مَكَّةَ قَامَ فِي النَّاسِ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: [إِنَّ اللَّهَ حَبَسَ عَنْ مَكَّةَ الْفِيلَ وَسَلَّطَ عَلَيْهَا رَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ..][٢].

وموجز ما ذكره المفسرون عن هذه الحادثة: «لما أراد أبرهة هدم بيت الله الحرام بجيش يقدمه فيل ضخم، أرسل الله عليهم طيراً من البحر، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار: حجر في منقاره، وحجران في رجليه، أمثال الحمص والعدس، لا تصيب منهم أحداً إلا هلك؛ وليس كلهم أصابت. وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق التي جاؤوا منها. فخرجوا يتساقطون بكل طريق، ويهلكون بكل مهلك على كل سهل، وأصيب أبرهة في جسده، وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة، كلما سقطت منه أنملة أتبعتها منه مدة قيحاً ودماً، حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر[٣].

إن النص القرآني يقدم أدق تصوير لما حدث لجيش أبرهة، ولا تكاد الروايات التاريخية تخرج عن الوصف القرآني، إلا في تحديد جزئيات وتفصيلات يسيرة[٤].

---

(١) تفسير ابن كثير، ٨/ ٥٠٣، ٥١١، وانظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٢٠/ ١٨٧، ١٩٤. وقد روى الترمذي، كتاب المناقب، بَاب مَا جَاءَ فِي مِيلَادِ النَّبِيِّ ﷺ، رقم الحديث (٣٥٥٢)، عن قَيْسِ بْنِ مَخْرَمَةَ قَالَ: «وُلِدْتُ أَنَا وَرَسُولُ اللَّهِ عَامَ الْفِيلِ». وقال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيب. وأخرجه الإمام في المسند، ٤/ ٢١٥، وذكره ابن حجر في الإصابة، ٣/ ٢٥٩، رقم الترجمة (٧٢٣٥) وسكت عنه. وانظر: تاريخ خليفة بن خياط، ٥٢.

(٢) صحيح البخاري، كتاب اللقطة، بَاب كَيْفَ تُعَرَّفُ لُقَطَةُ أَهْلِ مَكَّةَ، رقم الحديث (٢٢٥٤).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٢٠/ ١٩٥.

(٤) السيرة النبوية الصحيحة، أكرم ضياء العمري، ١/ ٩٧.

وقد تناول أعضاء الجمعيات القومية العربية هذه الحادثة، من منطلق المنهج العقلاني والاقتداء ببعض المستشرقين[1]، فأنكروا وجود تلك الطيور، فقد قال محمد جميل بيهم: «أبرهة لم ينجح في محاولته في هدم الكعبة، وعاد عن مكة خائباً لوباء انتشر بين جنده»[2].

ونهج محمد حسين هيكل هذا النهج فقال: «آن لأبرهة أن يوجه جيشه ليتم ما اعتزم فيهدم البيت ويعود أدراجه إلى اليمن، كان وباء الجدري قد تفشى بالجيش وبدأ يفتك به، وكان فتكه ذريعاً لم يعهد من قبل قط، ولعل جراثيم الوباء جاءت مع الريح من ناحية البحر، وأصابت العدوى أبرهة نفسه، فأخذه الروع وأمر قومه بالعودة إلى اليمن..، وكان الوباء يزداد كل يوم شدة ورجال الجيش يموت منهم من يموت كل يوم بغير حساب، وبلغ أبرهة صنعاء وقد تناثر جسمه من المرض، فلم يقم إلا قليلاً حتى لحق بمن مات من جيشه»[3].

وفي الكلام عن هذه الحادثة يزيف جرجي زيدان حقائق التاريخ، فيقول: «اختص الإسلام برجال توفرت فيهم خصال النصر، وقد امتاز ذلك العصر بنبوغ رجال العظام كما امتاز عصر نابليون الكبير بقواد لم تلد فرنسا مثلهم.

وقد نبغ قواد نابليون على أثر الثورة الفرنسية، كما نبغ قواد الصدر الأول للإسلام على أثر واقعة الفيل التي سطا بها الأحباش على الكعبة كانت وراء بروز قادة من

(١) انظر: حياة محمد ﷺ، لدرمنغم، ٣٥، ترجمة عادل زعيتر.

(٢) فلسفة تاريخ محمد ﷺ، محمد جميل بينهم، ١٥٧.

وقال الكواكبي: كشفوا وجود المكروب وتأثير الجدري وغيره من المرض، والقرآن يقول: (أرسل عليهم طيراً أبابيل) أي مجتمعة متتابعة (ترميهم بحجارة من سجيل) أي من طين المستنقعات اليابس. انظر: طبائع الاستبداد، الكواكبي، ٣١ - ٣٢.

(٣) حياة محمد، حسين هيكل، ١١٩، ١٢٠. وانظر: دائرة معارف القرن العشرين، فريد وجدي، ٢٥٦/٦.

العرب كخالد وأبي عبيدة وأبي بكر وعمر، وحركت ساكن العرب فأظهرت قواهم بالضغط والاحتكاك»[١].

والملاحظ على قول زيدان كأن قريشاً قاومت الجيش، حتى كان من نتائج هذه الحادثة بروز القادة، ولكن ما أخبرت به كتب السير عن موقف أهل مكة تجاه غزو أبرهة للكعبة كان موقف العاجز، ولم تقم حروب أو معارك في أثنائها، ليعرف من خلاله زيدان بروز القادة، مع العلم أن من ذكرهم باتفاق أهل السير ما كانوا قد ولدوا عند الغزو، وبعضهم الآخر كان دون سن التمييز.

أما ربطه بين واقعة الفيل والثورة الفرنسية التي أنتجت بونابرت ورجاله، فليس مستغرباً على النصارى العرب مثل هذه الأقوال والمفاهيم لأنهم لا يبصرون إلا بعيون قادة فرنسا، ولا يفكرون إلا بعقولهم[٢].

ثانياً) العهد المكي:

أ) نزول الوحي:

لقد وصف جرجي زيدان تحنث الرسول في غار حراء، ونزول الوحي عليه بصفات مليئة بالمغالطات التاريخية والحقد الصليبي، قال على لسان أبي سفيان وهو يخاطب هرقل: «وبقينا نتحدث بحسناته ونعجب بأخلاقه حتى بلغ الأربعين، فسمعنا بانقطاعه عن الناس واعتزاله في شعب الجبال، حتى صار يأوي إلى الكهوف، وذكر أن الملاك جبرائيل ظهر له وعلمه الصلاة»[٣].

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامي، جرجي، ١/ ٦٧.

(٢) دراسات في السيرة النبوية، محمد سرور، ١٩٩.

(٣) فتاة غسان (١)، جرجي زيدان، ٧٣. وانظر: تاريخ التمدن الإسلامي، جرجي زيدان، ١/ ٣٦.

الثابت في سؤال هرقل لأبي سفيان عن حال الرسول ﷺ قبل البعثة كان عن صدقه، كما ثبت في صحيحي البخاري ومسلم[(١)]. ولم يذكر ما ذكره زيدان. والثابت أن عائشة أخبرت عن تحنثه في غار حراء كما قالت: (كَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ، وَهُوَ التَّعَبُّدُ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ)[(٢)].

إن التحنث كان أمراً معروفاً عند قريش[(٣)]، وهي من بقايا الإبراهيمية[(٤)]. وكان الرسول ﷺ يتحنث في الغار شهراً من كل سنة وذلك قبل البعثة. ولكن عبارة زيدان يظهر فيها عزوف الرسول ﷺ عن مجتمع قومه وهروبه إلى شعف الجبال، وهذا المبدأ مقتبس من مبادئ النصرانية.

والمعروف من سيرة الرسول ﷺ أن الله قد عصمه من مشاركة قومه في الأعمال الجاهلية، وأما عن الأعمال الأخرى فقد كان الرسول ﷺ يرعى الغنم، كما شاركهم في حلف الفضول، وفي بناء الكعبة، وقد تولى إدارة تجارة خديجة بنت خويلد.

والانحراف الآخر قوله: (علمه الصلاة) ومما هو متفق بين علماء الملة أن الصلاة قد فرضت ليلة المعراج، كما في الحديث الذي يصف حادثة الإسراء والمعراج، وفيه: [فَفَرَضَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى أُمَّتِي خَمْسِينَ صَلاةً، فَرَجَعْتُ بِذَلِكَ حَتَّى مَرَرْتُ عَلَى مُوسَى، فَقَالَ: «مَا فَرَضَ اللَّهُ لَكَ عَلَى أُمَّتِكَ؟ قُلْتُ: فَرَضَ خَمْسِينَ صَلاةً» قَالَ: فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لا تُطِيقُ ذَلِكَ. فَرَاجَعْتُ فَوَضَعَ شَطْرَهَا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى

---

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب بدء الوحي، رقم الحديث (٦). وصحيح مسلم كتاب الجهاد والسير، بَاب كِتَابِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى هِرَقْلَ يَدْعُوهُ إِلَى الْإِسْلَامِ، رقم الحديث (٣٣٢٢).

(٢) صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب بدء الوحي، رقم الحديث (٣).

(٣) انظر: سيرة ابن هشام، ١/ ٢٥٣.

(٤) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير، ٣/ ٧. وفتح الباري، ابن حجر، ١٢/ ٣٧١ - ٣٧٢.

قُلْتُ: وَضَعَ شَطْرَهَا، فَقَالَ: رَاجِعْ رَبَّكَ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لا تُطِيقُ. فَرَاجَعْتُ فَوَضَعَ شَطْرَهَا، فَرَجَعْتُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لا تُطِيقُ ذَلِكَ، فَرَاجَعْتُهُ، فَقَالَ: (هِيَ خَمْسٌ وَهِيَ خَمْسُونَ لا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ)، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى، فَقَالَ: رَاجِعْ رَبَّكَ. فَقُلْتُ: اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي][1].

والذي علم جبريلُ محمداً أثناء نزول الوحي في غار حراء - كما ثبت - أنه قَالَ له: «اقْرَأْ»، قَالَ: [مَا أَنَا بِقَارِئٍ] قَالَ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: «اقْرَأْ»، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: «اقْرَأْ»، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾[2].

ب) الأذى الجسدي على الرسول:

إن الروايات الدالة على وقوع الأذى على الرسول ﷺ أكثر من أن تحصى، وهي سنة واقعة على المرسلين وأتباع المرسلين، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾[3]

وقال سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلاءً؟ قَالَ: [الأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ، يُبْتَلَى الْعَبْدُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ، ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ..][4].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الصلاة، بَاب كَيْفَ فُرِضَتِ الصَّلَاةُ فِي الإِسْرَاءِ، رقم الحديث (٣٣٦).

(٢) المصدر السابق، كتاب بدء الوحي، باب بدء الوحي، رقم الحديث (٣). والآيات من سورة العلق: (١ - ٤).

(٣) سورة الأنعام، رقم الآية (٣٤).

(٤) سنن ابن ماجة، كتاب الفتن، بَاب الصَّبْرِ عَلَى الْبَلَاءِ، رقم الحديث (٤٠١٣). وانظر: مسند الإمام أحمد، ١/ ١٧٤.

في كتابات أعضاء الجمعيات القومية عن السيرة، لم يأخذوا بالروايات التي تنص على وقوع الأذى على النبي ﷺ سواء أكان في مكة أم في المدينة، قال محمد عزة دروزة: «إن عدم ذكر القرآن شيئاً ما يدل على ذلك مع ذكره محاولات الزعماء أو فريق منهم التقرب إليه والتفاهم معه، وما يستفاد من الآيات القرآنية الكثيرة من وقوفه دائماً موقف القوي المستعلي فيما كان يتلوه من آيات فيها عنف وصفعات وبراهين دامغات. وتنديدات لاذعات يجعلنا نميل إلى التوقف في هذه الوقائع»[١].

إن منهج رد السنة وعدم الأخذ بها من المبادئ الظاهرة لدى الجمعيات القومية العربية، وعن موضوع وقوع الأذى الجسدي على الرسول ﷺ، فقد سئلت عائشة عن بعض ما لاقاه الرسول ﷺ من أذى المشركين أثناء تبليغ رسالة ربه، فقالت: «يَا رَسُولَ اللَّهِ! هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ»؟ فَقَالَ: [لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلالٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ[٢]، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ. قَالَ: فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ، وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ، فَمَا شِئْتَ إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا][٣].

---

(١) سيرة النبي، محمد عزة دروزة، ١/ ٢٩٦.

(٢) قرن المنازل وهو قرن الثعالب، بسكون الراء: ميقات أهل نجد تلقاء مكة على يوم وليلة. انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي، باب القاف مع النون.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، بَاب مَا لَقِيَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ أَذَى الْمُشْرِكِينَ والمنافقين، رقم الحديث (٣٣٥٢).

ويحدث عبدالله بن مسعود، عما شاهده من وقوع الأذى على الرسول ﷺ فيقول: (بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يصَلِّي عِنْدَ الْبَيْتِ وَأَبُو جَهْلٍ وَأَصْحَابٌ لَهُ جُلُوسٌ وَقَدْ نُحِرَتْ جَزُورٌ بِالأَمْسِ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: أَيُّكُمْ يَقُومُ إِلَى سَلا جَزُورِ بَنِي فُلانٍ فَيَأْخُذُهُ فَيَضَعُهُ فِي كَتِفَيْ مُحَمَّدٍ إِذَا سَجَدَ. فَانْبَعَثَ أَشْقَى الْقَوْمِ فَأَخَذَهُ، فَلَمَّا سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ وَضَعَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، قَالَ فَاسْتَضْحَكُوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَمِيلُ عَلَى بَعْضٍ وَأَنَا قَائِمٌ - عبدالله بن مسعود - أَنْظُرُ لَوْ كَانَتْ لِي مَنَعَةٌ طَرَحْتُهُ عَنْ ظَهْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالنَّبِيُّ ﷺ سَاجِدٌ مَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ)(١).

وتمشياً مع هذا المبدأ لم يقبل محمد عزة دروزة، الحديث الوارد في سبب نزول سورة (المسد)، فقد قال دروزة: من الغريب أن أكثر الرواة والمفسرين، بل نكاد نقول جميعهم، رووا وقالوا: إن هذه السورة (المسد) نزلت بمناسبة قول أبي لهب للنبي: (تباً لك ألهذا دعوتنا؟) وذلك حينما نزلت آية الشعراء: (وأنذر عشيرتك الأقربين)..، وأن ذلك القول معزو إلى أبي لهب والسورة قد جمعت امرأته معه، وهذا ما يجعلنا نتوقف في الرواية المشهورة عن سبب نزول السورة. لما تذكر الروايات أن الصلات بين النبي وعمه قبل البعثة كانت حسنة، وأن بيتيهما كانا متجاورين(٢).

إن سبب نزول سورة (تبت) ثبت في صحيحي البخاري ومسلم، فقد قال بن عباس رضي الله عنه: (لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الصَّفَا فَجَعَلَ يُنَادِي: [يَا بَنِي فِهْرٍ، يَا بَنِي عَدِيٍّ، لِبُطُونِ قُرَيْشٍ حَتَّى اجْتَمَعُوا، فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولاً لِيَنْظُرَ مَا هُوَ، فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وَقُرَيْشٌ فَقَالَ: أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟] قالُوا: «نَعَم، مَا جَرَّبْنَا

(١) المصدر السابق، رقم الحديث (٣٣٤٩).

(٢) سيرة النبي، محمد عزة دروزة، ١/ ١٦٦.

عَلَيْكَ إِلا صِدْقًا». قَالَ: [فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ] فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: «تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا!؟» فَنَزَلَتْ ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾[1].

إن عداء أبي لهب وزوجه للرسول ﷺ مما هو معروف ومشهور، ورد الروايات الصحيحة لسبب أنه مجاور للرسول ﷺ، وأن الصلات بينهما قبل البعثة كانت حسنة مبدأ غير سليم، وقد ظهر العداء بين الابن وأبيه، كما ذكر القرآن عن نبي الله إبراهيم، حينما كان ولاء الأب لغير الله يفرض عليه معاداة ولده.

وانقلاب الألفة والمحبة إلى عداوات وبغضاء بعد البعثة، ليس خصيصاً بأبي لهب وزوجه، بل هو عام لجميع مشركي قريش.

ج) إعراض المشركين عن الدين لأسباب اقتصادية:

إن سبب عدم دخول كفار قريش في الدين الإسلامي؛ هو وقوفهم أمام دعوة التوحيد، بسبب من عبادتهم وتقديسهم للأصنام، والحجة التي كان يتمسك بها الكفار ساقها الله على ألسنتهم بقوله: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[2].

ويصف القرآن الكريم حال المشركين عند دعوتهم إلى التوحيد، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾[3]. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ

---

(١) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، بَاب: (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقربين وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ)، رقم الحديث (٤٣٩٧). وانظر: صحيح مسلم، كتاب الإيمان، بَاب فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)، رقم الحديث (٣٠٧).

(٢) سورة الأعراف، رقم الآية (٧٠).

(٣) سورة الصافات، رقم الآية (٣٥).

كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾[2].

والمواقف الكثيرة التي ذكرها كتاب السير عن إعراض المشركين، بسبب تمسكهم بعقيدة الشرك وعبادة الأصنام، أكثر من أن تحصى، مثال ذلك ما ذكره عبدالله بن عمرو، بقوله: (حَضَرْتُهُمْ وَقَدِ اجْتَمَعَ أَشْرَافُهُمْ يَوْمًا فِي الْحِجْرِ فَذَكَرُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالُوا: «مَا رَأَيْنَا مِثْلَ مَا صَبَرْنَا عَلَيْهِ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ قَطُّ، سَفَّهَ أَحْلامَنَا، وَشَتَمَ آبَاءَنَا، وَعَابَ دِينَنَا، وَفَرَّقَ جَمَاعَتَنَا، وَسَبَّ آلِهَتَنَا، لَقَدْ صَبَرْنَا مِنْهُ عَلَى أَمْرٍ عَظِيمٍ)[3].

إن أعضاء الجمعيات القومية العربية عزوا سبب إعراض المشركين عنها الخوف على المكاسب الاقتصادية التي كانت ترد عليهم عندما تؤم القبائل العربية مكة حيث الأصنام الثلاثمائة والستون المحيطة بالكعبة، وينجم عن ذلك حركة بيع وشراء تحقق الأرباح الوفيرة للملأ[4].

ويقرر محمد جميل بيهم أن سبب العداء والحرب بين الرسول والمشركين كان بسبب الأمور الاقتصادية، فيقول: «إن الذين كانوا يحاربون محمداً بمكة لم يكونوا يحاربونه استنكاراً لدينه، وإنما كانوا يفعلون ذلك خوفاً على منافعهم التي كانوا يجنونها من قيام الوثنية بمكة وهي منافع اقتصادية ومعنوية»[5].

ولم يكن هذا الإعراض من المشركين في بداية الدعوة، وإنما كان هذا في جميع أحوال السيرة، فيقول بيهم: إن قريشاً قد ناصبته العداء وظلت تؤذيه وتهم بقتله حتى

(١) سورة سبأ، رقم الآية (٤٣).

(٢) سورة ص، رقم الآيات (٤ - ٦).

(٣) مسند الإمام أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، رقم الحديث (٦٧٣٩)

(٤) السيرة النبوية الصحيحة، أكرم ضياء العمري، ١/ ١٤٧.

(٥) فلسفة تاريخ محمد ﷺ، محمد جميل بينهم، ١٠٦ - ١٠٧.

اضطرته للجلاء عن مكة والهجرة إلى يثرب. لماذا؟ ألأنهم كانوا لا يزالون يؤمنون بصحة عبادة الأوثان؟ كلا، وإنما لأن العَرْضَ مُرْضٍ: بسبب الامتيازات فكانوا لا يؤدون إتاوة، ولا يتكلفون دفاعاً. يحكمون على الناس، ولا يحكمهم أحد، فكان من الطبيعي أن يناضلوا نضال المستميت عن سيادتهم الروحية(١).

هـ) بيعة العقبة:

لقد اعترض محمد فريد وجدي على أن تكون سرعة استجابة أهل المدينة لدعوة النبي ﷺ، بسبب من مجاورتهم لأهل الكتاب، يقول: «علّل كتّابُ السيرة المسلمون هذا الأمر الجلل بأن اليهود الذين كانوا مجاورين لأهل يثرب كانوا يتحدونهم بقولهم لهم: إن نبياً يُرسل آخر الزمان من بلاد العرب، فإذا ما ظهر اتبعناه واتفقنا معه عليكم وقهرناكم، فلما بعث النبي ودعا للإسلام تذكر أهل يثرب ما كان يهددهم به أعداؤهم، وقال بعضهم لبعض: هلم بنا إليه، لا يسبقنا الإسرائيليون إلى اتباعه، ثم ما كان منهم إلا أن تسارعوا إلى تلبية ندائه».

وهذا يُعترض عليه بحجة أنها: «لا تقنع الخبيرين بعوامل التطورات النفسية والاجتماعية، ولا تبين من حقيقة هذا الأمر الجلل ما يجب أن يعرف، وخاصة في هذا العصر الذي لا ينخدع أهله بالخلابات الكلامية».

وبيّن فريد وجدي أن أهل يثرب لم يدخلوا في الإسلام، ولم ينتدبوا للاضطلاع بالدفاع عنه، إلا بعد أن مضى على إعلان النبي له نحو ثلاث عشرة سنة، فأين كانوا من الإسلام طوال هذه المدة(٢).

---

(١) المصدر السابق، ٧٢. وانظر: التمدن الإسلامي، جرجي زيدان، ١/ ١٧٥.
(٢) السيرة النبوية تحت ضوء العلم والفلسفة، محمد فريد وجدي، ١٤٤.

لقد ذكر المفسرون أن قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[١] أنها من أسباب سرعة استجابة أهل المدينة لدعوة الرسول ﷺ، كما أفادت روايات السيرة.

وذلك أن أهل المدينة قالوا: إن مما دعانا إلى الإسلام - مع رحمة الله تعالى وهداه لنا - لِمَا كنا نسمع من رجالٍ يهودٍ، وكنا أهل شرك أصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب، عندهم علم ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا: إنه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فكنا كثيراً ما نسمع ذلك منهم.

فلما بعث رسوله أجبناه حين دعانا إلى الله تعالى، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به، فآمنا به وكفروا به، ففينا وفيهم نزل الآيات من البقرة: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾[٢]

---

(١) سورة البقرة، رقم الآية (٨٩).

(٢) سيرة ابن هشام، ٢/ ٣٨. وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث، وقال الذهبي: إذا صرح بالتحديث فحديثه حسن. ميزان الاعتدال، ٣/ ٤٦٨ برقم (٧١٩٧)، الذهبي. وقال الشيخ أحمد شاكر: له حكم المرفوع لأنه حكاية عن وقائع في عهد النبوة، كانت سبباً لنزول الآية، تشير الآية إليها. والراجح أن يكون موصولاً، لأن عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري الظفري المدني: تابعي ثقة، وهو يحكي عن أشياخ منهم، فهم آله من الأنصار. تفسير الطبري، ١/ ٣٣٢، رقم (١٥١٩)، تحقيق أحمد شاكر. وانظر:

١. زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي، ١/ ١١٤.
٢. تفسير ابن كثير، ١/ ١٧٨.
٣. الدر المنثور، السيوطي، ١/ ٢١٥ - ٢١٧.

وعن سبب تأخر اتصال أهل المدينة بالرسول ﷺ، فإن الفترة الزمنية كانت لمدة سبع سنوات، وليس ثلاث عشرة سنة، كما قال فريد وجدي، ويفهم هذا من حديث جابر أنه قَالَ: (مَكَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ يَتْبَعُ النَّـاسَ فِي مَنَازِلِهِمْ بِعُكَاظٍ وَمَجَنَّةَ وَفِي الْمَوَاسِمِ بِمِنًى يَقُولُ: [مَنْ يُؤْوِينِي؟ مَنْ يَنْصُرُنِي؟ حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي وَلَهُ الْجَنَّةُ]، حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ أَوْ مِنْ مُضَرَ - كَذَا قَالَ - فَيَأْتِيهِ قَوْمُهُ فَيَقُولُونَ: احذر غُلامَ قُرَيْشٍ، لا يَفْتِنُكَ، وَيَمْشِي بَيْنَ رِجَالِهِمْ وَهُمْ يُشِيرُونَ إِلَيْهِ بِالأَصَابِعِ، حَتَّى بَعَثَنَا اللَّهُ إِلَيْهِ مِنْ يَثْرِبَ فَآوَيْنَاهُ وَصَدَّقْنَاهُ، فَيَخْرُجُ الرَّجُلُ مِنَّا فَيُؤْمِنُ بِهِ، وَيُقْرِئُهُ الْقُرْآنَ فَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ فَيُسْلِمُونَ بِإِسْلامِهِ حَتَّى لَمْ يَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ الأَنْصَارِ إِلا وَفِيهَا رَهْطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُظْهِرُونَ الإِسْلامَ)[1].

فإذا كانت الدعوة في مكة ثلاث عشرة سنة، منها ثلاث سنوات دعوة سرية، فيكون اتصال أهل المدينة بعد مضي سبع سنوات من إعلان الدعوة.

وهناك أمر آخر كان له أثره في تأخر أهل المدينة من الاستجابة لدعوة الرسول ﷺ، وهي المعركة التي تسمى (بُعاث)، وقد وقعت بين الأوس والخزرج، ومما لا شك فيه أن الحرب شغل شاغل، وقد قالت عائشة: رَضِي اللَّه عَنْهَا: (كَانَ يَوْمُ بُعَاث يَوْمًا قَدَّمَهُ اللَّهُ لِرَسُولِهِ ﷺ، فَقَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَدِ افْتَرَقَ مَلَؤُهُمْ وَقُتِلَتْ سَرَوَاتُهُمْ وَجُرِّحُوا، فَقَدَّمَهُ اللَّهُ لِرَسُولِهِ ﷺ فِي دُخُولِهِمْ فِي الإِسْلامِ)[2]، وكانت (بعاث) قبل الهجرة بخمس سنين[3].

---

(١) مسند الإمام أحمد، ٣/ ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٣٩، ٣٤٠. بإسناد حسن كما قال ابن حجر، الفتح، ٧/ ٢٦٣.

(٢) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب مناقب الأنصار، رقم الحديث (٣٤٩٣).

(٣) بُعاث: هو مكان عند بني قريظة. فيها وقعت الواقعة بين الأوس والخزرج. وقال الأزهري: يوم من أيام الأوس والخزرج معروف، وهو من مشاهير أيام العرب. تهذيب اللغة، ٢/ ٣٣٤ (بعث). فتح الباري، ابن حجر، ٧/ ١٣٨.

إن سرعة استجابة أهل المدينة لدعوة الرسول ﷺ، ونصرتهم له، وقطعهم لحبال القبائل المعادية للإسلام، تعد من مناقب الأنصار، ولذا قال فيهم ﷺ: [لَوْ أَنَّ الأَنْصَارَ سَلَكُوا وَادِيًا أَوْ شِعْبًا لَسَلَكْتُ فِي وَادِي الأَنْصَارِ، وَلَوْلا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الأَنْصَارِ. فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ - راوي الحديث - مَا ظَلَمَ بِأَبِي وَأُمِّي؛ آوَوْهُ وَنَصَرُوهُ][1].

وقول محمد فريد وجدي: إن هذه النصوص (لا تقنع الخبيرين بعوامل التطورات النفسية والاجتماعية) وذلك بسبب أن علمهم الاجتماعي مبنيٌّ على أفكار مجموعة من علماء أوربا، أمثال «دور كايم» الذي وضع علم الاجتماع في منهجية مستقلة تقوم على النظرية والتجريب في آن معاً، وتنكر الأمور الغيبية والدوافع الإيمانية. و «جان جاك روسو» الذي أغفل دور الدين وأهمل أثره في توجيه المجتمع. وأصبحت أفكارهما من أهم دساتير الثورة الفرنسية الملحدة[2].

و) علاقة الرسول ﷺ بأهل الكتاب:

لقد بعث الله نبيه - هدى ورحمة - للعالمين جميعاً، عربهم وعجمهم، وأهل الكتاب مأمورون باتباع الرسول ﷺ والإيمان به، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولا**﴾[3]، وقال تعالى: ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ**

---

(١) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب مناقب الأنصار، رقم الحديث (٣٤٩٥).

(٢) انظر: العلمانية، سفر الحوالي، ١٧٠. وسلسلة تراث الإنسانية، مجموعة من الأساتذة، ١/ ٥٧٧، الهيئة العامة للكتاب، مصر. ومدخل إلى علم السياسة، هارولد لاسكي، ٣٠، ترجمة عز الدين محمد، القاهرة.

(٣) سورة النساء، رقم الآية (٤٧).

﴿وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

وقال النبي ﷺ: [وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ؛ يَهُودِيٌّ وَلا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ، وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ][2].

هذا ما قررته النصوص الشرعية، أما أعضاء الجمعيات القومية فيقولون: إن علاقة الرسول بأهل الكتاب كانت علاقة مجاملة ومؤانسة، يقول محمد جميل بيهم: «كان محمد على اتصال بالمسيحيين، على غرار سائر مواطنيه..، وقد حافظ محمد على ولائه للنصارى بعد البعثة، وكان يجالس بعض أعاجمهم في مكة»[3].

وأما عن اليهود الذين كانوا بالمدينة فيرى محمد جميل بيهم أن لهم يداً في هجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة، يقول بيهم: (إن العلاقة الحسنة لا تخص النصارى بل تشمل اليهود، الذين رحبوا (بثورة) محمد على الوثنية وبانتشار الإسلام في يثرب، ولم يكن يعود ذلك إلى عاطفة دينية فحسب، بل كان يرجع على الأكثر لنزعة اقتصادية.

فاليهود ما إن رأوا الإسلام بدأ ينتشر في يثرب حتى رحبوا به على اعتباره فرعاً من اليهودية مفروضاً أن يكون مؤيداً لهم على الوثنية فيها، وحتى شجعوا بطرقهم الخاصة المسلمين من أهلها على إقناع محمد بأن ينتقل إلى يثرب»[4].

ولعمق العلاقة بين الرسول ﷺ وأهل الكتاب عند بيهم، بيّن «أن صلاة النبي ﷺ إلى جهة بيت المقدس كانت مبالغة في مجاملتهم»[5].

---

(١) سورة المائدة، رقم الآية (١٩).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، بَاب وُجُوبِ الإيمَانِ بِرِسَالَةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ إِلى جَمِيعِ النَّاسِ وَنَسْخِ الْمِلَلِ بِمِلَّتِهِ، رقم الحديث (٢١٨).

(٣) فلسفة تاريخ محمد ﷺ، محمد جميل بينهم، ١٤٧.

(٤) المصدر السابق، ١٠٥.

(٥) المصدر السابق، ٢٢٩.

لقد استغل أعضاء الجمعيات القومية العربية هذه المفاهيم الخاطئة، من أجل الدعوة إلى مبادئ الجمعيات القومية العربية، مثال ذلك ما ذكره جرجي زيدان، عن مبدأ الأخوة القومية (الجاهلية)، بقوله: «الصراع بين الإسلام والنصرانية؛ بدأ تأثير هذا الصراع يتلاشى تدريجياً في عهد اختمار التمدن الحديث حيث انطلقت الحرية في أوربا، وتحررت أقلام رجال الفكر من نفوذ رجال الدين»(١).

ز) وفاة الرسول ﷺ:

قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِي اللَّه عَنْهَا: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ: [يَا عَائِشَةُ مَا أَزَالُ أَجِدُ أَلَمَ الطَّعَامِ الَّذِي أَكَلْتُ بِخَيْبَرَ، فَهَذَا أَوَانُ وَجَدْتُ انْقِطَاعَ أَبْهَرِي(٢) مِنْ ذَلِكَ السُّمّ](٣).

إن حديث أكل الطعام المسموم، والذي قدمته يهودية من يهود خيبر، ورد في سنن أبي داود، وجاء فيه: أَهْدَتْ لَهُ يَهُودِيَّةٌ بِخَيْبَرَ شَاةً مَصْلِيَّةً سَمَّتْهَا فَأَكَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، مِنْهَا وَأَكَلَ الْقَوْمُ، فَقَالَ: [ارْفَعُوا أَيْدِيَكُمْ، فَإِنَّهَا أَخْبَرَتْنِي أَنَّهَا مَسْمُومَةٌ]، فَمَاتَ بِشْرُ ابْنُ الْبَرَاءِ بْنِ مَعْرُورٍ الأَنْصَارِيُّ، فَأَرْسَلَ إِلَى الْيَهُودِيَّةِ: [مَا حَمَلَكِ عَلَى الَّذِي صَنَعْتِ؟] قَالَتْ: إِنْ كُنْتَ نَبِيًّا لَمْ يَضُرَّكَ الَّذِي صَنَعْتُ، وَإِنْ كُنْتَ مَلِكًا أَرَحْتُ النَّاسَ مِنْكَ، فَأَمَرَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقُتِلَتْ، ثُمَّ قَالَ فِي وَجَعِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ: [مَازِلْتُ أَجِدُ مِنَ الأَكْلَةِ الَّتِي أَكَلْتُ بِخَيْبَرَ فَهَذَا أَوَانُ قَطَعَتْ أَبْهَرِي](٤).

---

(١) المصدر السابق، ٢٤.

(٢) (الأبهر): عرق مستبطن الصلب والقلب متصل به، فإذا انقطع لم تكن معه حياة. قال الأصمعي: [وللفؤاد وجيب تحت أبهره = لدم الغلام وراء الغيب بالحجر]. غريب الحديث، ابن سلام الهروي، ١/ ٧٤، (بهر). وانظر: فتح الباري، ابن حجر، ٧/ ٧٣٧.

(٣) صحيح البخاري، كتاب المغازي، بَاب مَرَضِ النَّبِيِّ ﷺ وَوَفَاتِهِ.

(٤) سنن أبي داود، كتاب الديات، بَاب فِيمَنْ سَقَى رَجُلاً سَمًّا أَوْ أَطْعَمَهُ فَمَاتَ أَيُقَادُ مِنْهُ؟ رقم الحديث (٣٩١٢). انظر: السيرة النبوية، ابن هشام، ٣/ ٣٨٩. الطبقات الكبرى، ابن سعد، ٢/ ١٠٧.

وأما تأثر النبي ﷺ من هذا السم فقد ورد في صحيح البخاري كما في حديث عائشة السابق، وقد أخبر الصحابي أنس بن مالك عن ذلك فقال عن تأثيره: فَمَا زِلْتُ أَعْرِفُهَا فِي لَهَوَاتِ[1] رَسُولِ اللَّهِ ﷺ[2].

إلا أن محمد جميل بيهم رد الحديث الثابت بقوله: (إن العلة من أكلة هذه الشاة المسمومة عاودت النبي ﷺ فكانت سبباً في وفاته، بيد أني **غير مطمئن** لهذه الرواية كما **أني أشك في صحة** ما يروى عن النبي ﷺ في هذه المناسبة: [أن أكلة خيبر لم تزل تعاودني وهذا زمن انقطاع أبهري]).

وهذا الموقف يضاف إلى المواقف الكثيرة والمأثورة عن أعضاء الجمعيات من رد السنة النبوية. وسبب إنكار محمد جميل بيهم للحديث أن عقله لا يقبل كما يقول: أن يبقى مفعول السم قاتلاً بعد مرور هذه السنين[3].

إن ثبوت الرواية وشهادة الصحابي أنس بن مالك رضي الله عنه على تأثر النبي ﷺ بالسم، يردان على من استبعد الحادثة، وكذلك يُفهم من قول الرسول ﷺ: [ما أزال] أن تأثير السم لم يفارقه، وفي سنة وفاته اشتد عليه، ولذا قال: [فَهَذَا أَوَانُ وَجَدْتُ انْقِطَاعَ أَبْهَرِي][4]. ومما يؤيد هذا المفهوم أن الرسول ﷺ قد أعطي قوة في الصبر، قال عبدالله ابن مسعود رضي الله عنه: دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يُوعَكُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا! قَالَ: [أَجَلْ إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلانِ مِنْكُمْ][5].

---

(١) لهوات: جمع لهاة، وهي اللحمة في سقف أقصى الفم. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، ٤/ ٢٤٨ (لها). وفتح الباري، ابن حجر، ٥/ ٢٧٤.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الهبة، بَاب قَبُولِ الْهَدِيَّةِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، رقم الحديث (٢٤٢٤).

(٣) فلسفة تاريخ محمد ﷺ، محمد جميل بينهم، ٢٠٢، ٢٠٣.

(٤) انظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض، ١/ ٤٤٦.

(٥) صحيح البخاري، كتاب المرضى، بَاب: أَشَدُّ النَّاسِ بَلاءً الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ، رقم الحديث (٥٢١٦).

ورغبة في الاختصار فقد يكون ما سبق بيانه عن موقف أعضاء الجمعيات القومية من سيرة الرسول ﷺ، كافياً بفضح زيف تلك المواقف المغرضة من سيرته ونبوته ﷺ.

الباب الثالث:

موقف الجمعيات القومية العربية تجاه الدعوات الإصلاحية المعاصرة لها

ويحتوي على:

» الفصل الأول: موقف الجمعيات القومية العربية من الدولة العثمانية والدعوة إلى الجامعة الإسلامية.

» الفصل الثاني: موقف الجمعيات القومية العربية من دعـوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب.



الفصل الأول:

موقف الجمعيات القومية العربية من الدولة العثمانية والدعوة إلى الجامعة الإسلامية

ويحتوي على:

» المبحث الأول: موقف الجمعيات القومية العربية من الدولة العثمانية.

» المبحث الثاني: موقف الجمعيات القومية العربية من الجامعة الإسلامية.



المبحث الأول: موقف الجمعيات القومية العربية من الدولة العثمانية

تعتبر الدولة العثمانية مرحلة تاريخية من مراحل هذه الأمة التي يربط أفرادها كتاب الله وسنة رسوله، وقد امتد تاريخها وتصدُّرها للعالم الإسلامي مدة تزيد على خمسة قرون.

ولم تتعرض دولة ساست العالم الإسلامي للنقد والنهب العسكري والفكري، كما تعرضت له الدولة العثمانية، وفي فترة من سنيِّها نبتت فيها نابتة السوء، فظهرت الانحرافات العقائدية، وشرعت قوانين تناقض كتاب الله وسنة رسوله، مما جعل أصل الالتقاء يتغير ويتبدل بين أفرادها، فأصبح كل قوم يدعو إلى قوميته، فكتب الله عليها السنة الإلهية التي لا تتغير، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[(١)].

وقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: [إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِيَ الأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لأُمَّتِي أَنْ لا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: «يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لأُمَّتِكَ أَنْ لا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا، أَوْ قَالَ: مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا»][(٢)].

---

(١) سورة الأعراف، رقم الآية (٩٦).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الفتن، بَاب هَلاكِ هَذِهِ الأُمَّةِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، رقم الحديث (٥١٤٤).

وليس المقصودُ من إيراد الحديث الدولةَ العثمانية بذاتها وتقويمها، وإنما الذي أريد بيانه هو موقف القوميين العرب من الدولة العثمانية، ومما ينبغي أن يذكر أن الجمعيات القومية العربية حينما وقفت من الدولة العثمانية مواقف مضادة، ليس لذات الدولة وإنما كانت مواقفها موجهة لذات مقام الخلافة، إذ اعتبرت الجمعيات القومية العودة إلى الخلافة الشرعية تخلفاً طبقياً، ومناقضاً للمبادئ العصرية في السياسة والحكم.

وقد ذكر هذا الأمر شيخ الإسلام في عصره مصطفى صبري، حينما بيّن موقف الأحزاب العلمانية من الخلافة بقوله: «والمقصود إلغاؤها مع الملغين في تركيا والمؤيدين لأفعالهم من خارج تركيا، هي الخلافة عن رسول الله ﷺ في تنفيذ ما أتى به من شرعة الإسلام»[١].

لقد اتخذت الجمعيات القومية نقد الدولة العثمانية ستاراً لنقد الخلافة الإسلامية، وقد بينت مناشير ونظم الجمعيات القومية هذا الأمر، كما في نظام جمعية الشورى العثمانية أن من أهداف الجمعية: «محاولة تغيير شكل الحكومة إلى النظام النيابي»[٢].

باستعراض تاريخ تأسيس الجمعيات القومية العربية، والنظر في مبادئها ونظمها القومية يظهر أن مواقفها قد مرت بمراحل مختلفة بحسب الظروف والمناسبات التي يمُّر بها تأسيس الجمعيات القومية العربية، قال محمد عزة دروزة: «لم يشذ سير الفكرة عن ناموس النشوء والتدرج العام حسب الظروف والعوامل المتنوعة»[٣]، وإن كانت تتفق جميعها في التخلص والقضاء على مبدأ ومشروعية الخلافة الإسلامية.

(١) موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين، مصطفى صبري، ٤/ ٣٦٣.
(٢) حركة اليقظة العربية في الشرق الآسيوي، محمد منسي، ٩٧.
(٣) حول الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ١/ ٢٣.

وعن إحدى مراحل تأسيس الجمعيات يقول سليمان البستاني - وهو من المؤسسين للجمعيات القومية -: «تآلفنا عصابة لم يكن فيها أثر لفارق بين مسلم ومسيحي، وسننّا قانوناً فجعلنا أول مواده منع التعرض للبحث في الدين والسياسة، وفرضنا على جميع الإخوان إلقاء الخطب والمباحث المفيدة»(١).

ولم تبق منهجية الجمعيات القومية على هذا المبدأ، يبين ذلك محمد جميل بيهم بقوله: «كان العالم يتحدث عن المبادئ القومية، ويتندر بالديمقراطية، ولا سيما بما قررته الثورة الفرنسية من حقوق الأفراد والشعوب، وفي تلك اليقظة التحررية التي شملت أوروبا خاصة أخذ العرب يتساءلون: لماذا لا نتمتع بوحدة سياسية تعيد إلينا عزتنا الأولى؟ وكان في طليعة هؤلاء المتسائلين نخبة من رعايا السلطنة العثمانية، ولا سيما في سوريا، الذين تطلعوا إلى استقلالهم أسوة بالشعوب الأخرى غير التركية التي خرجت على الدولة».

ويبين محمد بيهم - أيضاً -: «أن في بداية الأمر كان العرب لا يجرؤون على المجاهرة بهذه الأماني القومية، لأن الأوساط العربية لم تكن مستعدة للتجاوب معهم في الخروج على دولة الخلافة. ولذلك فإنهم شرعوا يعربون عن مشاعرهم هذه ضمن نطاق الدعوة إلى العلم، وإلى النهضة المؤدية إلى استرداد عزة العرب وكرامتهم»(٢).

وكان من آثار الانقلاب على السلطان العثماني، أن ظهر في المجتمع مبدأ النقد العلني والمطالبة بالحقوق بمنهج القوة(٣). وفي أثناء إعلان الدستور وتولي جمعية الاتحاد والترقي سياسة الدولة، أصبحت الأوساط العربية مؤهلة لاستقبال مبادئ الجمعيات.

---

(١) الدولة العثمانية قبل الدستور، سليمان البستاني، ٥٥.

(٢) الوحدة العربية، محمد جميل بيهم، ١٠ - ١١ (بتصرف يسير).

(٣) انظر: Yol AYRIMINDA TURK، ARAP ILISKILERI

وقال بيهم: «تكتل الشباب في العاصمة وسواها، ورفعوا أصواتهم في نطاق المطالبة بحقوقهم القومية، واستهلت عملها بالمطالبة باللامركزية، وانتقل هذا الطلب إلى مرحلة أخرى وهي المطالبة بالاستقلال التام والتطلع إلى وحدة البلاد العربية[1].

ويمكن حصر مراحل وتطور مواقف الجمعيات بما يلي[2]:

المرحلة الأولى: موقف الجمعيات من الدولة خلال حكم السلطان عبدالحميد.

المرحلة الثانية: موقف الجمعيات من الدولة بعد إعلان الدستور.

لقد وقفت الجمعيات القومية العربية من الدولة العثمانية والدعوة إلى الجامعة الإسلامية مواقف محددة، ففي فترة زمنية من عهد السلطان عبدالحميد لم يكن هناك تقسيم بين أفراد الدولة العثمانية، كانت تجمعهم كلمة واحدة وهي (مسلمون) ومخالفوهم (كافرون)، فقد كانوا يعتبرون أن الدولة دولتهم فهي دولة الإسلام، وأن السلطان المسلم هو الوارث الفعلي لرئاستهم الدينية، وحامي حمى الإسلام، ورافع لواء الجهاد ضد الكفر والكفار، حتى إن تسمية [عرب] لم تكن تطلق عليهم في الوثائق والكتب والمعاملات، بل كانت تسميتهم الشائعة هي كلمة [مسلمون] هم والترك على حد سواء في عصر كان الدين هو الفارق المميز بين الأجناس والقوميات[3].

وقد سطر المستشرقون أثناء زيارتهم للقسطنطينية سنة ١٨٥٦م (١٢٨١هـ)، ضمن ملحوظاتهم على الناس: أن كلمة (تُرْكْلِكْ) - ترك - تفهم وتعد من مترادفات الفظاظة والشكاسة والهمجية، وحينما يقدم المستشرقون على تنبيه الناس إلى الخطورة العظمى

---

(١) الوحدة العربية، محمد جميل بيهم، ١٠- ١١(بتصرف يسير).

(٢) قد يظهر لبعض أعضاء الجمعيات القومية مواقف تخالف الترتيب الزمني الذي ذكرته، وهذا لا ينقض المبدأ العام ويكون موقفه لأغراض خاصة. وإنما الترتيب الذي ذكرته هو عبارة عن رصد توجه عام عن سيرة الجمعيات القومية لا ينقضه تصرفات الأفراد.

(٣) العرب والترك، توفيق برو، ٢٦، طلاس، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩١م.

التي يجب اعتبارها في شأن متحدر الجنس التركي، كانت إجابات الناس: [ولكن بالله عليك لا تجعلنا في مصاف «الكير غيز» وجفاة التتر]. وقال المستشرقون: كدنا لا نرى إلا أقل من القليل من الترك في القسطنطينية من يذهب مذهب الجد والاهتمام في شأن الجنسية التركية أو اللغة التركية)[١].

وكان ولاؤهم للحاكم الذي أضْفِيت عليه ألقاب إسلامية، فهو [نائب الله على الأرض]، و[إمام المسلمين]، و[ظل الله]، و[خادم الحرمين الشريفين]، و[الحرم الشريف وحاكمها][٢].

كان هذا هو الموقف لدى أعضاء الجمعيات القومية العربية عن الدولة العثمانية[٣]، إلا أن هذه المبادئ قد تغيرت وظهرت مواقف تتناسب مع التطور الفكري والمنهجي للجمعيات القومية العربية. ومع الظروف التي مرت بها الدولة العثمانية من التفاف الأوربيين النصارى عليها، وقد أغراهم الوضع الخطير الذي تعانيه الدولة العثمانية، فالتحلل الداخلي، والضعف العسكري أنهك قواها[٤].

ويخبر محمد عزة دروزة عن الظروف التي مرت الجمعيات القومية العربية بها والتوسع في تأسيسها، فيقول: «ساعد على ظهور هذه الحركات ظرف مهم، وهو حرب البلقان ١٩١٢ - ١٩١٣م، وخروج زمام الحكم من يد الاتحاديين - جمعية الاتحاد والترقي - وقيام وزارة محافظة ائتلافية أي منسوبة إلى حزب الائتلاف المعارض لحزب الاتحاد والترقي، أو بالأحرى منسقة معه، حيث اغتنم ساسة العرب ومنوروهم الفرصة فقاموا بنشاطهم وحركاتهم»[٥].

---

(١) حاضر العالم الإسلامي، لوثروب، ٤/ ١١١.
(٢) نشوء القومية العربية، زين نور الدين زين، ٢٦.
(٣) انظر: نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ١٧٨.
(٤) العثمانيون والبلقان، علي حسون، ١٧٧، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ.
(٥) حول الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ١/ ٣٧.

ويمكن حصر مواقف الجمعيات القومية بالأمور التالية:

» أولاً: اعتبار الدولة العثمانية مستعمرة للبلاد العرب:

لقد اعتبرت الجمعيات القومية العربية أن الدولة العثمانية مستعمرة للبلاد العربية. قال أسعد داغر - نصراني من أعضاء الجمعيات القومية -: (.. إن العرب الباقين تحت سيطرتهم كانوا ينظرون إليهم نظرهم إلى أعداء مخربين قساة ظالمين..، فقد ساد بلادهم الجهلُ والفقرُ والظلمُ، وأهدرت كراماتهم، وانتهكت حرماتهم، وديست حرياتهم، وأذلت أعناقهم، وأفسدت لغتهم، وبارت أرضهم وأصبحوا هدفاً لكل قوي مستعمر، ومطمعاً لكل طامع جشع، ومن أجل ذلك كان العرب.. مجمعين على كره الترك ومحاولة التخلص منهم)(١).

فأصبحت الدولة كما قال محمد عزة دروزة: «ظالمة غاشمة، وامتلأ قلوب الناس بالرعب والعدوان على أموالهم وحرياتهم، والسلطان سار في الأسلوب الاستبدادي الذي لا رقابة للشعب عليه»(٢).

وتأصيلاً لهذا الموقف أخرج عبدالرحمن الكواكبي كتابه [طبائع الاستبداد] الذي ذكر فيه: آثار الاستبداد على الدين والدولة والتربية... إلخ.

ومما جاء في الكتاب: (الحكومة المستبدة تكون طبعاً مستبدة في كل فروعها، من المستبد الأعظم إلى الشرطي إلى الفراش إلى كناس الشوارع، ولا يكون كل صنف إلا من أسفل أهل طبقته أخلاقاً..، إن العقل والتاريخ والعيان، كل يشهد بأن الوزير الأعظم للمستبد هو اللئيم الأعظم في الأمة، ثم من دونه من الوزراء يكون دونه لؤماً)(٣).

---

(١) مذكراتي على هامش القومية العربية، أسعد داغر، ٤٧.

(٢) نشأة الحكومة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ١٧٧.

(٣) طبائع الاستبداد، عبدالرحمن الكواكبي، ٦٠ - ٦٤.

وكتابه الآخر (أم القرى) والذي طالب فيه بخلافة عربية، بل يجب إقامة خلافة عربية مقام الخلافة العثمانية، وألقى بذور الشك في صحة اعتبار السلاطين العثمانيين خلفاء المسلمين[١].

ويعتبر أعضاء الجمعيات أن ما جاء في كتابي طبائع الاستبداد وأم القرى، يعد لمحة صغيرة مما أملته عليه بيئته، وسجلّ ينطق بأخبار الظلمة وقبح أثرهم، فلا عجب أن دعا الكواكبي على رزانة فيه، إلى نزع أيدي العرب من سلطان الترك[٢].

إن الظالم المستبد الموصوف في كتاب طبائع الاستبداد، يراد به السلطان عبدالحميد، ولذا طالب الكواكبي بكثير مما كتب عن الدعوة إلى الحرية بفصل السلطة الدينية عن السلطة المدنية، لأن السلطان عبدالحميد قد استخدم سلطته الدينية بوصفه خليفة للمسلمين، وكان العرب يطالبون بأن تكون الخلافة على شؤون المسلمين للعرب[٣].

وتقريراً لمبدأ الجمعيات في وصف الدولة العثمانية بأنها مستعمرة للبلاد العربية، نصت دساتير الجمعيات على المطالبة بالتحرر ونيل الاستقلال[٤]، ويعتبرون سيادة الترك العثمانيين، في البلاد العربية كانت طويلة الأمد أكثر من كل سيادة أجنبية أخرى، فقد استعمروا البلاد العربية سياسياً[٥].

---

(١) الاتجاهات الفكرية عند العرب، علي المحافظة، ١٣٣. وانظر: أم القرى، الكواكبي، ٢٣٤ - ٢٣٥.
(٢) المعاصرون، محمد كرد علي، ٢٨٢.
(٣) انظر: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، محمد محمد حسين، ١/ ٢٨٠.
(٤) انظر:
١. البلاد العربية والدولة العثمانية، ساطع الحصري، ٧.
٢. التاريخ العربي الحديث، أحمد رجب عبدالمجيد ورفيق شاكر، ١٥٢.
(٥) قضية العرب، علي ناصر الدين، ٥٥.

وكانت من أبرز الجمعيات التي تولت إعلان هذا المبدأ «حزب اللامركزية» الذي كان له الأثر في تحقيق هذه الغاية، وكذلك «المنتدى الأدبي» الذي قال عنه أسعد داغر: «أقوى عامل في بث الفكرة الوطنية في نفوس العرب، وبث الدعوة إلى الانفصال عن الترك وإعلان الاستقلال العربي»[١].

وفي كتاب «ثورة العرب» بيان عن مقصد الجمعيات القومية العربية، فمما جاء فيه: رأى العرب بعد ما دهمتهم المصائب وتوالت عليهم النكبات أنهم وصلوا إلى حال من الخطر لم يسبق لها مثيل في إحراج الأزمات، فعملوا بهمة لا تعرف الكلل على درء ذلك الخطر العظيم، فقرروا أن يلتفوا كلُّهم؛ جمعياتهم، وأحزابهم وكلُّ من نجا منهم من مذابح الاتحاديين حول زعيم كبير من زعمائهم البعيدين عن سيطرة الترك والأجانب، وأن ينظموا تحت إمرته قوةً عربيةً كافيةً للوقوف في وجه الاتحاديين وإنقاذ الأمة العربية من مخالبهم[٢].

» ثانياً: القضاء على الخلافة الإسلامية:

كان للجمعيات القومية العربية أهدافٌ تجاه الدولة العثمانية أبرزُها القضاءُ على مقام الخلافة الإسلامية، حيث طالبت الجمعيات بالحكم الدستوري، والسير وفق نظم ومبادئ الدول الكافرة، - مشتركة في ذلك مع أعضاء جمعية الاتحاد والترقي - وهذا يعني إلغاء الخلافة الإسلامية، كما بين هذا الأمر الشيخُ مصطفى صبري بقوله: «إن نقل السلطة من يد الخليفة إلى أيادي المجلس كان خطوة للوصول إلى الهدف وهو إلغاء الخلافة وإبطالها على التدرج»[٣].

(١) مذكراتي على هامش القضية العربية، أسعد داغر، ٣٦.
(٢) ثورة العرب، أحد أعضاء الجمعيات القومية العربية، ١٨٧. وانظر: تحية تقدير للأستاذ شار روبيرآجرون، إعداد/ عبدالجليل التميمي، ٢٠٤، منشورات التميمي للبحث العلمي والمعلومات، ١٩٩٦م.
(٣) النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة، مصطفى صبري، ٩.

والسعي لتطبيق الدستور العلماني يعني إلغاء الشريعة والذي يقوم الخليفة بتطبيقها على الناس، لأن الإمامة رياسة تامة، وزعامة عامة، تتعلق بالخاصة والعامة، في مهمات الدين والدنيا، مهمتها حفظ الحوزة، ورعاية الرعية، وإقامة الدعوة بالحجة والسيف، وكف الخوف والحيف، والانتصاف للمظلومين من الظالمين، واستيفاء الحقوق من الممتنعين، وإيفاؤها على المستحقين)[١].

ولما كان هذا الدستور نظاماً ديمقراطياً، أي أحكام كفر، وهو كنظام ديموقراطي يناقض الإسلام، وهذه الأحكام نفسها تناقض الإسلام، وإذا طبقت فإن تطبيقها يعني إلغاء نظام الخلافة، وإقامة دولة كأي دولة أوروبية[٢].

وذكر (لورانس) الخطة الصليبية في القضاء على الخلافة الإسلامية، وهي كما يقول: «علينا أن ندفع بالعرب لانتزاع حقوقهم من تركيا بطريق العنف، لأننا بهذا نقضي على خطر الإسلام وندفع به (أي بالإسلام) لإعلان الحرب على نفسه، وبذلك نمزقه من القلب، إذ ينهض في مثل هذا الصراع خليفة في تركيا وخليفة في العالم العربي، ويخوض الخليفتان حرباً دينية، وبذلك يقضى على خطر الخلافة الإسلامية بصورة نهائية[٣]. وبهذا التدبير الماكر باركت الدول الصليبية ثورة الشريف حسين بن علي وتنصيبه نفسه خليفة للمسلمين»[٤].

---

(١) الغياثي غياث الأمم في التياث الظلم، الجويني، ٢٢، مطبعة نهضة مصر.

(٢) كيف هدمت الخلافة؟ عبدالقديم زلوم، ٤١، ١٣٨٢هـ.

(٣) لورانس العرب على خطى هرتزل، ٧٤، تقارير لورانس السرية، زهدي الفاتح، دار النفائس، بيروت.

(٤) قدمت إيطاليا مقترحاتها للحلفاء في الحرب العالمية الأولى لقاء دخولها الحرب معهم ضد ألمانيا وتركيا، ومما جاء في هذه المقترحات:

أ - إن الحكومة الإيطالية تؤيد رأي الحكومة الروسية بضرورة فصل الحكومة الإسلامية التي ستؤسس في الحجاز على أنقاض السلطنة العثمانية عن الخلافة، وأن تكون تحت مطلق النفوذ البريطاني.

ب - إن الحكومة الإيطالية تؤيد بكل قواها نزع الخلافة من الأتراك وإلغاءها بتاتاً إذا لزم الأمر.=

ومن أجل تبرير القضاء على مقام (الخلافة الشرعية) سطر أعضاء الجمعيات القومية العربية بعض المبادئ والمفاهيم حول الخلافة العثمانية، فذكرت صحيفة الهلال القومية أثناء احتفال الجمعيات القومية بإسقاط السلطان عبدالحميد، أن منبع استبداد الدول الإسلامية في قديم الزمان وحديثه هو قصر الخلافة ودار الملك والإمارة حيث تكثر دسائس المقربين ويشتد حرصهم على الجاه، وطمعهم في جمع الأموال، والأمة في جميع الأحوال شاخصة ببصرها لا تطلع على خفايا السياسة وتدابير الملك[1].

وتقول الجمعيات القومية العربية: إن الخلافة في العهد العثماني قد سلمت لقيادة العساكر وإدارة المكاتب العسكرية، وهم أناس لا أهلية لهم، ولا يهتمون إلا بالتجسس على أصحاب الأفكار المفرطة، وإبعادهم عن مركز الإدارة، ويعدون ذلك خدمة لمنافع السلطنة والمحافظة على الخلافة الإسلامية[2].

ونشرت صحيفة المنار خبر إسقاط السلطان عبدالحميد، ومما ذكرته في الخبر: عز عليه - السلطان عبدالحميد - أن يسلب بالدستور والحرية ما كان ينتحله من صفات الربوبية، ككونه يحكم ما يشاء، ويفعل ما يريد لا رادّ لأمره، ولا معقب لحكمه،ولا حدود لأمره ونهجه..، وقد كان من أمر الولايات العثمانية عندما علمت بكيد عبدالحميد للحكومة الدستورية أن كتبت إلى مجلس الأمة بوجوب خلعه، ونفض اليد من بيعته، وإعلانه أن الجنود مستعدة لمحاربته[3].

=ج - أن تكون حصة إيطاليا في البلاد التي تسلخ عن السلطنة العثمانية مساوية تماماً للأراضي التي ستعطى لبريطانيا وفرنسا. (انظر: وثائق التدخل الأجنبي في الوطن العربي، موسى الكاظم التونسي، ٣٥، دار البعث، دمشق، ١٩٧٢م).

(١) مجلة الهلال، الجزء الثاني، السنة ١٧، ١/ ١١/ ١٩٠٨م (٧/ ١٠/ ١٣٢٦هـ)، ص: ٧١.

(٢) المصدر السابق، الجزء الثالث، السنة ١٧، ١/ ١٢/ ١٩٠٨م (٧/ ١١/ ١٣٢٦هـ)، ص: ١٦٠.

(٣) مجلة المنار، العدد الصادر في ٢٩/ ٤/ ١٣٢٧هـ، الموافق ١٩/ ٥/ ١٩٠٩م.

ويذكر ساطع الحصري أن فكرة الخلافة العثمانية ساعدت كثيراً على استسلام العرب للحكم العثماني، وأخرت كثيراً نشوء فكرة القومية العربية[(١)].

وقد اعترض محمد عزة دروزة على قول بعض العلماء بوجوب طاعة السلطان الجائر أو الظالم. واعتبر دروزة هذا القول أنه بسبيل التزلف لبعض الملوك وتوطيد سلطانهم[(٢)].

ومع ما في هذا الاعتراض من قدح في علماء الأمة الذين قالوا بوجوب طاعة ولي الأمر وإن كان جائراً دون محاباة لأحد من البشر أو تزلف لمخلوق، فإن فيه رداً لكثير من نصوص الشريعة الدالة على وجوب طاعة ولي الأمر الجائر.

إن الطاعة مبدأ عظيم فيه تستقيم الأمور، وهي من الأمور المهمة التي تساعد في تمكين الدولة من تنفيذ الواجب عليها من حقوق، وقد فهم عمر بن الخطاب هذه القضية فقال: (إِنَّهُ لا إِسْلامَ إِلا بِجَمَاعَةٍ، وَلا جَمَاعَةَ إِلا بِإِمَارَةٍ، وَلا إِمَارَةَ إِلا بِطَاعَةٍ، فَمَنْ سَوَّدَهُ قَوْمُهُ عَلَى الْفِقْهِ كَانَ حَيَاةً لَهُ وَلَهُمْ، وَمَنْ سَوَّدَهُ قَوْمُهُ عَلَى غَيْرِ فِقْهٍ كَانَ هَلاكًا لَهُ وَلَهُمْ)[(٣)].

ورغبة في بيان موقف السلف سأسوق أدلتهم في حق الطاعة لولي الأمر الجائر، لأن حق الطاعة لا يلزم أن يكون الإمام عادلاً، فالحاكم الجائر الفاسق ولم يصل به فسقه إلى ما يوجب عزله عن الإمامة تجب طاعته، وهذا الذي فهمه السلف من النصوص التالية:

روى حُذَيْفَةُ بْن الْيَمَانِ، قَالَ: قال رسول الله ﷺ: [..يَكُونُ بَعْدِي أَئِمَّةٌ لا يَهْتَدُونَ

(١) البلاد العربية والدولة العثمانية، ساطع الحصري، ٣٥.
(٢) الدستور القرآني في شؤون الحياة، محمد عزة دروزة، ٦٨، إحياء الكتب العربية، ١٣٧٦هـ.
(٣) سنن الدارمي، المقدمة، رقم الأثر (٢٥٣).

بِهُدَايَ، وَلا يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِي، وَسَيَقُومُ فِيهِمْ رِجَالٌ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ فِي جُثْمَانِ إِنْسٍ، قَالَ: قُلْتُ: كَيْفَ أَصْنَعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ؟ قَالَ: تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلأَمِيرِ، وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ وَأُخِذَ مَالُكَ فَاسْمَعْ وَأَطِعْ][1].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ رَضِيَ اللَّه عَنْه أَنَّ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلا تَسْتَعْمِلُنِي كَمَا اسْتَعْمَلْتَ فُلاناً؟ قَالَ: سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أُثْرَةً فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ][2].

ولم يوجه الرسول ﷺ أصحابه بالخروج على الولاة إذا جاروا، إنما وجههم عليه أفضل الصلاة والسلام إلى السمع والطاعة ما لم يؤمروا بمعصية، ويجب الصبر على جورهم، وأداء الواجب الذي لهم كما في الأحاديث التالية:

عَنِ ابْنِ عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: [عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ إِلا أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِنْ أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلا سَمْعَ وَلا طَاعَةَ][3].

وقال ابن مسعود: قال لنا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: [إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً وَأُمُورًا تُنْكِرُونَهَا. قَالُوا: فَمَا تَأْمُرُنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: أَدُّوا إِلَيْهِمْ حَقَّهُمْ وَسَلُوا اللَّهَ حَقَّكُمْ][4].

وعَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: [خِيَارُ أَئِمَّتِكُمِ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ، وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ. وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُمِ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ

---

(١) صحيح مسلم، كتاب، بَاب وُجُوبِ مُلازَمَةِ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ عِنْدَ ظُهُورِ الْفِتَنِ وَفِي كُلِّ حَالٍ وَتَحْرِيمِ الْخُرُوجِ عَلَى الطَّاعَةِ وَمُفَارَقَةِ الْجَمَاعَةِ، رقم الحديث (٣٤٣٥).

(٢) صحيح البخاري، كتاب، بَاب قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ لِلأَنْصَارِ: اصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ، رقم الحديث (٣٥٠٨).

(٣) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، بَاب وُجُوبِ طَاعَةِ الأُمَرَاءِ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةٍ وَتَحْرِيمِهَا فِي الْمَعْصِيَةِ، رقم الحديث (٣٤٢٣).

(٤) صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ سَتَرَوْنَ بَعْدِي أُمُورًا تُنْكِرُونَهَا، رقم الحديث (٦٥٢٩).

وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلا نُنَابِذُهُمْ بِالسَّيْفِ؟ فَقَالَ: لا، مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلاةَ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْ وُلاتِكُمْ شَيْئًا تَكْرَهُونَهُ فَاكْرَهُوا عَمَلَهُ وَلا تَنْزِعُوا يَدًا مِنْ طَاعَةٍ][1].

لقد روى علماء السلف هذه الأحاديث وبينوها للناس تقرباً لله وبياناً لدينه، ولذا قال الآجري: «من أُمّر عليك من عربي أو غيره، أسود أو أبيض أو عجمي فأطعه فيما ليس لله عز وجل فيه معصية، وإن ظلمك حقاً لك، وإن ضربك ظلماً لك، وانتهك عرضك وأخذ مالك[2]، وهذا باتفاق السلف الصالح»[3].

وقد قال الشيخ محمد بن عبدالوهاب: «أرى وجوب السمع والطاعة لأئمة المسلمين برهم وفاجرهم ما لم يأمروا بمعصية الله، ومن ولي الخلافة واجتمع عليه الناس ورضوا به، وغلبهم بسيفه حتى صار خليفة وجبت طاعته، وحرم الخروج عليه»[4].

كما اعتبر دروزة أن اهتمام السلاطين العثمانيين بلقب الخلافة ومداها عظيم، وبخاصة في العهود الأخيرة التي تكالب فيها ملوك أوربا النصارى على الدولة، حيث كانوا يذهبون إلى أن ذلك يجعل دولتهم ذات مكانة وأهمية عند جميع المسلمين، وبالتالي يجعل هؤلاء الملوك يترددون كثيراً في الإقدام على تحقيق مطامعهم في بلاد الدولة...، وأدى في الوقت نفسه إلى تخدير شعور المسلمين العرب، واستنامة

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، بَاب خِيَارِ الأَئِمَّةِ وَشِرَارِهِمْ، رقم الحديث (٣٤٤٧).

(٢) الشريعة، الآجري، ٤٠، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ. وانظر:

١. الشرح والإبانة، ابن بطة، ٢٧٦ - ٢٧٩.
٢. شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، اللالكائي، ٢/ ١٥١، ١٨٦.
٣. الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة، الأصبهاني، ٢/ ٣٩١.
٤. شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز، ٢/ ٥٤٠.

(٣) الروضة الندية شرح الدرر البهية، محمد صديق خان، ٧٧٦.

(٤) مجموعة مؤلفات الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ٥/ ١١.

جمهورهم إلى الحكم العثماني، رغم ما صار إليه من ضعف وسوء شديدين، مما ظهر آثاره حينما اشتدت الحركة العربية الحديثة بعد إعلان الدستور سنة ١٩٠٨م، وطموح القوميين العرب إلى إعادة مجدهم القومي في ظل سلطان عربي وراية عربية[١].

وهذا المبدأ مما يؤكد على أن القضية ليست الدولة العثمانية إنما الأصل القضاء على المفهوم الشرعي للخلافة الإسلامية، ولهذا طرحت جمعية رابطة الوطن العربي فكرة تحجيم الخلافة وحصرها في الأمور الدينية، ومقرها الحجاز، وولاية الخليفة على المسلمين بأن سلطته روحية[٢].

كما هو الموقف الذي تبناه الكواكبي، وجمعية رابطة الوطن العربي، في مسألة تحديد مكان خاص بالخلافة الدينية، وهو موقف متأثر بفكرة البابا الذي اتخذ مقره في روما، مهد المسيحية الأولى في أوربا، والذي يرأس المجمع الديني ويتوج الملوك رعاية لسلطان الدين[٣].

دعا المستشرقون إلى هذا القول، ومنهم مؤلف كتاب Future of Islam «مستقبل الإسلام» الذي دعا في سنة ١٨٨٢م، إلى هذا الرأي، فقال: (إن مركز الدين وعاصمته في جزيرة العرب، وهي مهد الإسلام ومهبط الوحي والإلهام..، إن مكة والمدينة هما المأوى الشرعي، والملاذ الروحي لأهل الحل والربط، وستكونان مركز القوة الروحية..، كنا نسمع منذ زمان هذه الجملة السائرة أن [رومة هي العاصمة]، كذلك جملة [مكة هي العاصمة] تؤثر تأثيراً بالغاً في الأذهان..)[٤].

---

(١) نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ١٨٧.

(٢) يقظة الأمة العربية، نجيب عازوري، ٣٧.

(٣) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، محمد محمد حسين، ٢٨٣.

(٤) Future of Islam نقلًا عن كتاب: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ أبو الحسن الندوي، ٢١٨، دار السلام، حلب، بيروت، الطبعة الحادية عشرة، ١٣٩٨هـ.

وشاركت الجمعيات مشاركة فعلية في إسقاط السلطان وإلغاء مقام الخلافة، حينما وضعت يدها في يد جمعية الاتحاد والترقي[1] للمساهمة في إسقاط السلطان عبدالحميد، فكانت جمعية الشورى العثمانية التي اتخذت سبيلاً إلى الحث على إنهاء الحكم الاستبدادي والدعوة إلى التحرر والحكم الدستوري في وسائل دعايتها التي تطبع بالعربية والتركية، وترسل منشوراتها إلى الموانئ التركية على البحر الأسود، بواسطة المسافرين، وبحارة المراكب الروسية، ومن هناك يستلمها رسل سريون وتوزع في أنحاء البلاد[2].

وتمت المكاتبة بين جمعية الاتحاد والترقي وجمعية رابطة الوطن العربي، لإسقاط السلطان عبدالحميد، فمما جاء في المكاتبة:

(إن حزبكم قد تفاهم مع الأكراد والأرمن والألبان والبلغار للقيام بعمل مشترك وما تشرعون به إنما هو التفكيك التام للإمبراطورية، إننا سنكون من رأيكم وسننضم إليكم إذا فقدنا إطلاقاً كل أمل في إنقاذ البلاد، أتعتقدون إذاً أن السلطان عبدالحميد خالد؟ بالعكس إنه فانٍ ننتظر موته بين لحظة وأخرى..، ونستطيع التأكيد أن كل شيء في تركيا سيتغير بموته، وستختفي معه هذه العصابة من قطاع الطرق التي تحيطه،

---

(١) انظر:
١. سقوط الدولة العثمانية وأثره على الدعوة الإسلامية، مجدي الصافورى، ١٦٥.
٢. موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية، حسان حلاق، ٣٠٢ - ٣٠٤.
٣. عزيز المصري والحركة العربية(١٩٠٨، ١٩١٦م)، محمد عبدالرحمن برج، ١٥.
٤. السلطان عبدالحميد الثاني وأثره في نشر الدعوة الإسلامية، محمد قربان نيازملا، ٨٦.
(٢) العرب والترك، توفيق برو، ٦١. وانظر:
١. المنار، مجلد ١٢، ج١١ ص٨٢٤.
٢. حركة اليقظة العربية، محمود منسي، ٩٧.

لهذا نرجوكم أن تقلعوا عن مشروعكم، وأن تنتظروا التغيير الذي ننبئكم به، حينئذ سنستدعيكم ونقدم لكم المركز الذي يليق بكم)[١].

وتم عقد اجتماع في باريس بين مهاجرة الدولة العثمانية (لمحاربة عبدالحميد والقضاء على حكمه المستبد الظالم)[٢]، وكان ذلك عام ١٩٠٧م، وقد تولت جمعية الاتحاد والترقي قيادة المؤتمر وتنفيذ برامجه، وهي كما يلي:

أ) إجبار السلطان عبدالحميد على ترك العرش.

ب) تبديل الأدوار الحاضرة من أساسها.

ت) تأسيس أصول المشروطية والمشورة[٣].

وقد قوّم السلطان عبدالحميد هذا المؤتمر، وبيّن أن هؤلاء الشباب منقادون لما يدبره بعض المتآمرين من الرجال المغرورين. إنهم يقدمون شعارات براقة كتوعية الأمة وترقيتها، بغية القضاء على النظام القائم وهدم ما بناه الأجداد طيلة قرون خلت، وفي الحقيقة إنهم يريدون الإطاحة برجال دولتي المجربين وتولي زمام الأمور بأنفسهم، إنهم عصابة منافقة دنيئة تنكرت لدينها ووطنها، وحالفت الصليبية العدوة في القضاء على أبناء جلدتنا وإخواننا في الإسلام[٤].

ومن نتائج هذا المؤتمر إنشاء جمعية باسم (جمعية التشبث الشخصي واللامركزية)، وتأسست لها شعبة بدمشق من قبل رفيق العظم وحقي العظم، ثم في

---

(١) يقظة الأمة العربية، نجيب عازوري، ٢٢٢.

(٢) العرب والترك، توفيق برو، ٦٢.

(٣) موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية، حسان علي حلاق، ٢٩٤.

(٤) السلطان عبدالحميد الثاني، مذكراتي السياسية، ٤٦، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٢هـ.

اللاذقية وفي عاليه، وقد تضمن برنامج (جمعية التشبث الشخصي واللامركزية): الحكم على أساس اللامركزية، وتوسيع الصلاحية في الولايات[١]، ومرادهم بالتشبث الشخصي أن لا تكون الأهالي عالة على حكومتهم، بل يسلكوا سبل التجارة والصناعة والزراعة في أمر معاشهم[٢]، وهذا نوع من الاستقلال الاقتصادي. ويعتبر رفيق العظم من أبرز العرب المنتسبين إلى الجمعية[٣].

لقد اتفقت مواقف الجمعيات القومية العربية على خلع السلطان عبدالحميد، مع موقف جمعية الاتحاد والترقي، فقد عقد مجلس النواب اجتماعاته بعد نقض السلطان عبدالحميد الدستور، وكان منهم عبدالحميد الزهراوي، وقرروا خلع السلطان عبدالحميد، وحل محله السلطان محمد الخامس[٤].

ووضع محمود شوكت[٥] وأركان حربه خطة الزحف على إستنبول بدقة تامة..، وكانت مهمة عزيز علي احتلال محطة إستنبول والاستيلاء على كوبري.. إلخ[٦].

وبهذا يظهر تدبير الماسونية وتخطيطها للقضاء على (الخلافة) بالقضاء على السلطان عبدالحميد، متخذة أعضاء الماسونية من الترك والعرب لتنفيذ هذه المهمة،

(١) العرب والترك، توفيق برو، ٦٤.
(٢) مجلة الهلال، الجزء الثالث، السنة ١٧، ١/ ١٢/ ١٩٠٨م (٧/ ١١/ ١٣٢٦هـ)، ص: ١٦٦.
(٣) المصدر السابق، الجزء الأول، السنة ١٧، ١/ ١٠/ ١٩٠٨م (٦/ ٩/ ١٣٢٦هـ)، ص: ١٩.
(٤) محمد الخامس: ولد سنة ١٨٤٤م، وتولى السلطة بعد خلع أخيه السلطان عبدالحميد ١٩٠٩م، ولم يكن له من الأمر شيء حتى استبد الاتحاديون بالسلطة من دونه، وأبرز الأحداث التي وقعت في عهده: احتلال ليبيا من قبل إيطاليا، وقيام الاضطرابات في البلقان، ثم دخول تركيا الحرب العالمية إلى جانب ألمانيا حيث خسرت الحرب، وبالتالي ممتلكاتها في آسيا وأفريقيا وأوربا، توفي سنة ١٣٣٧هـ، ١٩١٨م. انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد وجدي، ٧٠٩.
(٥) انظر الترجمة رقم (٦٥).
(٦) مذكراتي على هامش القومية العربية، أسعد داغر، ٣٢ - ٣٤ بتصرف

وقد صرح بهذا الأمر جرجي زيدان النصراني الماسوني[١]، وأصبحت شعارات الماسونية (العدالة والمساواة والأخوة) تلوكها ألسن الناس.

ولا يخفي الماسون علاقتهم بالانقلاب العثماني، بل إنهم يفخرون بالأدوار الإجرامية التي قاموا بها، وقد قال الفيلسوف الماسوني شاربيا في حفل أقيم للماسون: «انظروا إلى إخوانكم الماسونيين السالونيكيين الذي قاموا بالحركة الدستورية التي قلبت الحكم العثماني في آخر عهد السلطان عبدالحميد دون أن تسيل نقطة دم واحدة، أجل فبمثل هذا الشعب الماسوني تفخر الماسونية ويعظم من شأن وسائلها السلمية السليمة»[٢]. ولا يعلم هذا التافه أن العثمانيين انسحبوا برضىً منهم لكي لا تسيل قطرة دمٍ من مسلم واحد.

وبعد تجريد (الخليفة) من سلطة التنفيذ واعتبار سلطته روحية، لم تمض فترة زمنية حتى أعلن مصطفى كمال أتاتورك - الصديق الحميم لعزيز علي المصري[٣] - إلغاء الخلافة، واستبدل بها (الجمهورية) عام ١٩٢٤م[٤].

---

(١) المخططات التلمودية اليهودية الصهيونية، أنور الجندي، ٩٧، دار الاعتصام، مصر، الطبعة الثانية، ١٣٩٧هـ.

(٢) تاريخ الدولة العثمانية، علي حسون، ٢٥٤.

(٣) عزيز المصري والحركة العربية، محمد عبدالرحمن برج، ١٥.

(٤) الحديث المفصل لتطور سير إلغاء الخلافة انظر:

١. تاريخ الدولة العثمانية العلية، محمد فريد، ٧١٨.
٢. التيارات القومية والدينية في تركيا المعاصرة، أحمد السعيد سليمان، ٦٠.
٣. كمال أتاتورك، محمد صبيح.
٤. الرجل الصنم، ضابط تركي سابق، ٢٩٤.
٥. كيف هدمت الخلافة؟ عبدالقديم زلوم، ١٧٤- ١٩٠.
٦. سقوط الدولة العثمانية وأثره على الدعوة الإسلامية، مجدي الصافوري، ١٣٤.

« ثالثاً: طلبُ مناصرةِ الدول الكافرة للقضايا القومية:

إن استغلال الجمعيات القومية العربية من قبل الدول الصليبية قضية لا تحتاج إلى برهان، فقد احتُضن أعضاءُ الجمعيات في معاهدها ومدارسها، ومن خلال النظر في سير أعضاء الجمعيات القومية العربية نلحظ أن الغالب منهم تلقّى العلم في البلاد الفرنسية، وكان من آخر مؤسسي الجمعيات القومية ميشيل عفلق وصلاح البيطار اللذين تخرجا من الجامعات الفرنسية[١].

لقد علم أعضاء الجمعيات أثناء سفرهم إلى أوربا وتثقفهم بالعلوم العصرية والاطلاع على مجاري السياسة أنهم لا يرجون نهوض دولتهم من ذلك الخمول، ولا يتوقعون التغلب على ذلك التيار القوي إلا إذا نصرتهم بعض الدول العظمى، فجاهروا باستنصارهن[٢].

وتعتبر جمعية رابطة الوطن العربي[٣] من أبرز الجمعيات القومية العربية التي نادت صراحة بمساندة الدول الصليبية للقضايا العربية، فقد دعا مؤسس الجمعية نجيب عازوري النصراني: «الدول المستنيرة والإنسانية في أوربا وأميركا الشمالية أن تساعد حركتنا بفضل حيادها وتشجعنا بعطفها»[٤].

كما صورت الجمعيةُ الدولةَ العثمانية بأنها جماعة من قطاع الطرق يقودهم مجرم، فهي لا تكتفي فقط بألا تعمل شيئاً لتحسين وضع الفلاح، ولكنها تعمل بانتظام لتخرب هذا البلد التعيس تدريجياً، لا أمن ولا سلام ولا عدالة في تركيا)[٥].

---

(١) انظر: ميشيل عفلق الكتابات الأولى، ذوقان قرقوط، ٣٩.

(٢) مجلة الهلال، الجزء الأول، السنة ١٧، ١/ ١٠/ ١٩٠٨م (٦/ ٩/ ١٣٢٦هـ)، ص: ٣٩.

(٣) العرب والترك، توفيق برو، ٧٧.

(٤) يقظة الأمة العربية، نجيب عازوري، ٣٨.

(٥) يقظة الأمة العربية، نجيب عازوري، ٦١.

وسلكت الجمعية مسلك المقارنة بين الدول النصرانية والدولة العثمانية، فقالت: إن الإنكليز يحسنون اختيار الرجل المناسب للمركز المناسب، أو الرجل المناسب في المكان المناسب، يولون مواطني البلد كل وظيفة تضع صاحبها في احتكاك مباشر مع الشعب)[1]، وأما في الدولة العثمانية فـ (يتحكم الرجال الأقوياء والموظفون بالحياة والشرف والمنافع العامة جميعها)[2].

وعن الحالة المالية بينت الجمعيات القومية العربية أن بعض الزُّرّاع بالدولة العثمانية باعوا أراضيهم وزوجوا بناتهم بالجبر ليأخذوا صداقهن ويسددوا ما قيد عليهم ذمة من الأموال الأميرية، فصار الفلاح يتجنب زراعة الأرض إلا بقدر حاجته الضرورية. وفي مقابل وصف هذه الحال وُصِفت حال الزراع في أوربا بأن الفلاح عمّر الأرض الموات وجعلها مخصبة بعمله وحراثته. فحيثما توجهت في أوربا لا ترى إلا مروجاً نضرة، وأشجاراً وكروماً مخضرة، وأنهاراً جارية كأنها بستان عظيم ليس فيه قطعة أرض خراب[3].

لقد كان بين الجمعيات القومية العربية والدول الصليبية التقاء فكري، فانتُدِبت الدول الصليبية لمناصرة أحرار العرب، وقدمت الخدمات والتسهيلات لمساندة قضيتهم، فوافقت الدول الصليبية على إقامة المؤتمر العربي الأول الذي عقد في باريس وذلك للفترة من تاريخ ١٤/ ٧/ ١٣٣١هـ، الموافق ١٨/ ٦/ ١٩١٣م، إلى

---

(١) المصدر السابق، ١٠٨.

(٢) المصدر السابق، ٦٢. وانظر:

١. يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ١٧٢.
٢. حول الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ١/ ١٩ - ٢٠.
٣. نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ١٠٢.

(٣) مجلة الهلال، الجزء الثالث، السنة ١٧، ١/ ١٢/ ١٩٠٨م (٧/ ١١/ ١٣٢٦هـ)، ص: ١٥٩.

تاريخ ١٩/ ٧/ ١٣٣١هـ، الموافق ٢٣/ ٦/ ١٩١٣م. وقد أوضحت الجمعيات القومية العربية الغاية من هذا المؤتمر، وتمت مناقشة بعض الموضوعات التي تخص واقع العرب في الدولة العثمانية، ومنها:

- مناقشة حقوق العرب في المملكة العثمانية.
- موضوع الإصلاح على قاعدة اللامركزية.
- إشراك العرب في إدارة الدولة، وتوسيع السلطة.
- الحياة الوطنية ومناهضة الاحتلال.
- واقع العرب المهاجرة، وأسباب هجرتهم.. إلخ.

وقد أجرت جريدة (الطان) الفرنسية حواراً صحفياً مع رئيس المؤتمر، ومما جاء فيه: لماذا عقدتم المؤتمر في باريس؟ أجاب: ..أن نسمع مطالبنا ونفهم رأينا لأوربا التي تزداد أهمية مصالحها في البلاد العثمانية يوماً بعد يوم. وإننا بإقامتنا بينكم وبالاحتكاك الضروري الذي سيكون لنا بكم نتوصل لإزالة أوهام وسوء تفاهم عظيم، ويمكننا أن نضع أساس تفاهم بين الشرق والغرب[١].

ولما اشتعلت نيران الحرب العامة وألغيت الامتيازات الأجنبية أسرعت الدولة العثمانية - جمعية الاتحاد والترقي - إلى تفتيش القنصليات المعادية، فوقع في يدها بعض الوثائق السرية، وبها تمكنت أن تكشف كثيراً من أسرار الجمعيات العربية[٢].

---

(١) المؤتمر العربي الأول، محب الدين الخطيب. وانظر: ثورة العرب، أحد أعضاء الجمعيات السرية، ٦٩، ٧٨.

(٢) الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث، أنيس المقدسي، ١٤٠ وانظر:

١. التحقيقات، جمال باشا.
٢. الثورة العربية، أمين سعيد، ١/ ٦٦.

ومن تلك الاعترافاتِ المنسوبةِ لعبدالغني العريسي - أحد مؤسسي الجمعيات - عن المنتدى الأدبي في إستنبول قولُه: [والغاية من تأسيسه أن يجمع كل الطلاب العرب، ويبث فيهم فكرة القومية ونهضة العرب بأية واسطة كانت ولو بمساعدة الدول الأجنبية التي تؤدي إلى احتلال أو حماية...])[١].

وقد وافقت اللجنة العليا لجمعية الفتاة في اجتماعها على القرار التالي: [نتيجة لاشتراك تركية في الحرب أصبح مصير الولايات العربية في الدولة العثمانية معرضاً لمخاطر شديدة، ويجب بذل جميع الجهود لضمان حريتها واستقلالها].

واجتمع الملك فيصل ببعض أعضاء جمعية العهد، وهي المنظمة السرية التي تضم ضباط الجيش، وقد تم هذا الاجتماع بتدبير أحد الأعضاء الذين ينتمون إلى الجمعيتين في آن واحد، وقد وجد أن موقف هذه المنظمة مطابق لموقف الجمعية السابقة: فكانت كلتاهما ترغبان في الانفصال عن الأتراك[٢].

وقبل الحرب العالمية الأولى ضمت الجمعيات القومية العربية (لورانس)، من أجل أن يطلع على جهود الجمعيات العربية ومشاركتها في الحرب، وقد صرح لورانس بسبب مجيئه إلى البلاد العربية، فقد قال: «أخذت أفكر طول الطريق في سوريا وفي الحج وأتساءل: هل تتغلب القومية ذات يوم على النزعة الدينية؟ وهل يغلب الاعتقاد الوطني المعتقدات الدينية؟ وبمعنى أوضح: هل تحل المثل العليا السياسية مكان الوحي والإلهام؟ وتستبدل سوريا مثلها الأعلى الديني بمثلها الأعلى الوطني؟»[٣].

---

(١) التحقيقات، جمال باشا، ٦. وانظر: الحركة العربية، سليمان موسى، ٨٤.

(٢) يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ٢٣٧.

(٣) الثورة العربية، لورانس، ١٢.

وقد كتب لورانس تقريراً عن الثورة العربية وذكر فيه: «إن الثورة مقَدَّرٌ لها النجاح المحتوم فيما إذا ألحق بها ضباط بريطانيون ويتكلمون العربية ليسدوا إلى قادتها النصائح اللازمة، وبعد اطلاع مدير إدارة الشؤون العسكرية المتعلقة بالثورة العربية على التقرير قال لورانس: سُرَّ بنظرتي المتفائلة، فالثورة العربية كانت حلمه الأكبر منذ سنين طوال»[١].

وقد تخلى أعضاء الجمعيات القومية العربية عن الدولة العثمانية أثناء الحرب، وقدموا العون والمساعدات للجيوش البريطانية على أمل أن تتحق آمالهم وتطلعاتهم للحرية والاستقلال، ولا سيما أن الإنجليز قد أظهروا أنفسهم في البداية بمظهر المحررين لا الغازين، وأعلن الجنرال مود (Maude) قائد القوات البريطانية في العراق عن رغبة الحلفاء في النهوض بالعنصر العربي ليأخذ مكانته بين الأمم[٢].

ويذكر خير الدين الزركلي - أحد أعضاء الجمعيات القومية - نداء الدول الصليبية أثناء الحرب العالمية للدول العربية خاصة وللعالم عامة، فيقول: يوم ٧ نوفمبر ١٩١٨م (١٣٣٧هـ) البلاغ المشترك الذي أذاعته الحكومتان البريطانية والفرنسية، ونصه: «إن الغرض الذي ترمي إليه فرنسا وبريطانيا العظمى بمواصلتهما في الشرق: هو تحرير الشعوب التي طالما ظلمها الترك، تحريراً نهائياً، وتأسيس حكومات ومصالح أهلية، تبني سلطتها على اختيار الأهالي الوطنيين لها اختياراً حراً وقيامهم بذلك من تلقاء أنفسهم، وتنفيذاً لهذه النيات قد وقع الاتفاق على تشجيع العمل لتأسيس حكومات ومصالح أهلية في سورية والعراق اللتين أتم الحلفاء تحريرهما في البلاد التي يواصلون العمل لتحريرها[٣].

(١) أعمدة الحكمة السبعة، لورانس، ٦١.
(٢) تاريخ العرب المعاصر ٢٣٢، عبدالوهاب عبدالرحمن، دار القلم، دبي، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
(٣) ما رأيت وما سمعت، خير الدين الزركلي، ٥٠.

بعد عرض الموقف السابق من الدولة العثمانية وما يتعلق بالسلطان عبدالحميد خاصة يجدر التنبيه إلى ما يلي:

١) إن أغلب من دعا إلى هذه المواقف ونشرها بين الناس هم من النصارى العرب، وتجد دعماً من جمعيات كافرة، فقد تم إدخال برنامج جمعية بيروت السرية ببرامج المحافل الماسونية، وانضم الكثير من أعضاء الجمعيات القومية وبخاصة البارزون في المحافل الماسونية[١].

وقد بين فارس نمر - أحد مؤسسي جمعية بيروت السرية - عن أصل النخبة التي تولت إنشاء الجمعيات، فيقول: [كان في لبنان جماعة صغيرة من الشبان وجلهم من النصارى الذين درسوا في الكلية السورية الإنجيلية تطالب أولاً بتحرير لبنان من الحكم التركي..، وكان أخطر ما أقلق نفوس أولئك الشبان هو احتقار الأتراك لهم، واعتبارهم أدنى شأناً منهم، مما جعلهم يشعرون بالإهانة، غير أن العربي المسلم عندما يتكلم عن الإمبراطورية العثمانية كان يستطيع أن يقول إنها إمبراطوريته لأنها كانت إمبراطورية إسلامية، والواقع أن المسلم لم يكن يشعر بأنه غريب في وطن غريب عنه، بل كان الأمر على نقيض ذلك)[٢].

وقد اعتبرت صحف الجمعيات القومية العربية، نجاح الانقلاب العثماني

---

(١) انظر:

١. نشوء القومية العربية، زين نور الدين زين، ٦١.
٢. يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ١٤٩.

(٢) نشوء القومية العربية، زين نور الدين زين، ٦٠ وانظر:

١. يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ١٥٢.
٢. القومية العربية تاريخها قوامها مراميها، مصطفى الشهابي، ٥٠.
٣. حركة اليقظة العربية في الشرق الآسيوي، محمود منسي، ٩١.
٤. العرب والترك في العهد الدستوري، توفيق برو، ٤٠.

والقضاء على الخلافة الإسلامية أن تعلمت النشأة الجديدة من الصبيان والبنات اللغات الأجنبية، وطالعوا الجرائد والكتب ووقفوا على عورات الدولة وأدركوا محل الخلل، وصار يتخرج في كل سنة من هذه المدارس عدد عظيم متشربون فكر الحرية، ومتخلقون بالأخلاق الأوربية والحماسة الوطنية[١].

٢) لم يظهر عند المسلمين - في تلك الفترة - ما يسمى [بالوعي القومي][٢]، فقد كان مفهوم الولاء على أساس الدين، سوى عند أعضاء الجمعيات القومية العربية، وأما بقية المسلمين كان تأثير هذه المواقف عليهم ضعيفاً جداً.

ويدل على هذا أن وكيل القنصل العام الإنكليزي في بيروت جون ديكسون (John Dikson) قال في رسالته إلى السفير البريطاني في إستنبول: (يسعدني أن أخبركم بأن إصدار هذه المناشير وتوزيعها لم يكن له من أثر في نفوس أهل بيروت، و إذا كانت قد أحدثت ضجة فإنها أقرب إلى أن تكون استغراباً وفضولاً في معرفة مصدرها من أن تكون إحساساً وطنياً، لكنها قد تكون علامة تشير إلى أن في الأفق بوادر تذمر...)[٣].

---

(١) مجلة الهلال، الجزء الثالث، السنة ١٧، ١/ ١٢/ ١٩٠٨م (٧/ ١١/ ١٣٢٦هـ)، ص:١٦٨.
(٢) العرب والترك، توفيق برو، ٤٣.
(٣) نشوء القومية العربية، زين نور الدين زين، ٦٦.

المبحث الثاني: موقف الجمعيات القومية العربية من الجامعة الإسلامية

في المبحث الأول، أوضحت موقف الجمعيات العربية من الدولة العثمانية، وفي هذا المبحث سأبين موقف الجمعيات من الدعوة إلى الجامعة الإسلامية.

إن المقصود بالجامعة الإسلامية هي الرابطة التي تربط كل من يدين بهذا الدين، دون النظر إلى جنسه أو لونه أو لغته، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾(1). وتأليف القلوب على منهج الوحدة الإسلامية هي من المنن التي امتن الله بها على عباده كما قال: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(2)، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾(3).

ومن أبرز معالم هذه الوحدة أن التفاضل يكون في التقوى، كما قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(4).

وتقرير مبدأ الرابطة الإسلامية ثابت في السنة النبوية، فقد وجه النبي ﷺ أمته بأن يكونوا كما قال: [..كُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ؛ لا يَظْلِمُهُ وَلا يَخْذُلُهُ

---

(1) سورة آل عمران، رقم الآية (١٠٣).

(2) سورة الأنفال، رقم الآية (٦٣).

(3) سورة الحجرات، رقم الآية (١٠).

(4) سورة الحجرات، رقم الآية (١٣).

وَلا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا، وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ؛ دَمُهُ؛ وَمَالُهُ؛ وَعِرْضُهُ][1]. وقد نهى النبي ﷺ عن كل ما يفسد هذه المؤاخاة، كما قال: [لا تَبَاغَضُوا، وَلا تَحَاسَدُوا، وَلا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، وَلا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاثِ لَيَالٍ][2].

ولما عُرف - عند العرب في الجاهلية - ولاءُ القبيلة والحسب والنسب، فقد سأله الصحابة: مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ؟ قَالَ: [أَتْقَاهُمْ]. قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ، قَالَ: [فَيُوسُفُ نَبِيُّ اللَّهِ ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ خَلِيلِ اللَّهِ]. قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ. قَالَ: [فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونِي، خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإِسْلامِ إِذَا فَقُهُوا][3].

وقد سطرت كتب السير حادثة المؤاخاة التي كانت بين المهاجرين والأنصار، وضربت أروع الأمثلة في عمق الولاء للرابطة الدينية، ومن هذه الأمثلة ما يخبر به عَبْدُالرَّحْمَن بْنُ عَوْف رَضِي اللَّه عَنْه، قال: (لَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ آخَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنِي وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ، فَقَالَ سَعْدُ بْنُ الرَّبِيعِ: «إِنِّي أَكْثَرُ الأَنْصَارِ مَالاً؛ فَأَقْسِمُ لَكَ نِصْفَ مَالِي، وَانْظُرْ أَيَّ زَوْجَتَيَّ هَوِيتَ؛ نَزَلْتُ لَكَ عَنْهَا فَإِذَا حَلَّتْ تَزَوَّجْتَهَا»، فَقَالَ لَهُ عَبْدُالرَّحْمَنِ: لا حَاجَةَ لِي فِي ذَلِكَ..)[4].

وأمام هذا الموقف العظيم اعترف المهاجرون بهذه النعمة، ولهجت أنفسهم بكرم الأنصار، فقال أنس: لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ أَتَاهُ الْمُهَاجِرُونَ فَقَالُوا: «يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا رَأَيْنَا قَوْمًا أَبْذَلَ مِنْ كَثِيرٍ، وَلا أَحْسَنَ مُوَاسَاةً مِنْ قَلِيلٍ، مِنْ قَوْمٍ نَزَلْنَا بَيْنَ أَظْهُرِهِم، لَقَدْ

---

(١) صحيح مسلم، كتاب، بَاب تَحْرِيمِ ظُلْمِ الْمُسْلِمِ وَخَذْلِهِ وَاحْتِقَارِهِ، رقم الحديث (٤٦٥٠).
(٢) صحيح البخاري، كتاب، بَاب الْهِجْرَةِ وَقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، رقم الحديث (٥٦١٢).
(٣) صحيح مسلم، كتاب، بَاب مِنْ فَضَائِلِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلام، رقم الحديث (٤٣٨٣).
(٤) صحيح البخاري، كتاب البيوع، بَاب مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ﴾، رقم الحديث (١٩٠٧).

كَفَوْنَا الْمُؤْنَةَ، وَأَشْرَكُونَا فِي الْمَهْنَأ، حَتَّى لَقَدْ خِفْنَا أَنْ يَذْهَبُوا بِالأَجْرِ كُلِّهِ». فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [لا، مَا دَعَوْتُمُ اللَّهَ لَهُمْ وَأَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِمْ](١).

فكانت الرابطة الجامعة بينهم الأخوة الإسلامية، والتي بها نقضت الموالاة الجاهلية الأخرى، ولذا لما قال عبدالله بن أُبيٍّ بن سلول زعيم أهل النفاق: (.. وَاللَّهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ)؛ فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: «دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ»، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [دَعْهُ لا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ]. في هذه الحال ظهرت رابطة الأخوة الإسلامية والتي تفوق رابطة الأبوة، فَقَالَ لَهُ ابْنُهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: (وَاللَّهِ لا تَنْقَلِبُ حَتَّى تُقِرَّ أَنَّكَ الذَّلِيلُ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْعَزِيزُ، فَفَعَلَ)(٢).

لقد أصبح هذا المجتمع الذي أقامه الإسلام مجتمعاً عقائدياً يرتبط بالإسلام، ولا يعرف الموالاة إلا لله ولرسوله وللمؤمنين، وهو أعلى أنواع الارتباط وأرقاه، إذ يتصل بوحدة العقيدة والفكر والروح، فالمؤمنون بعضهم أولياء بعض، تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم، وهذا المجتمع مفتوح لمن أراد أن ينتمي إليه مهما كان لونه أو جنسه على أن ينخلع من صفاته الجاهلية، ويكتسب الشخصية الإسلامية ليتمتع بسائر حقوق المسلمين(٣).

وحينما تولى أعضاء الجمعيات القومية العربية منابر التأثير في المجتمع من صحف ومجلات وغيرها، نادوا برابطة الجاهلية المقيتة في واقع المسلمين، متبعين

---

(١) سنن الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، بَاب مَا جَاءَ فِي صِفَةِ أَوَانِي الْحَوْضِ، رقم الحديث (٢٤٨٧). وقال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ. وانظر: مسند الإمام أحمد، ٣/ ٢٠٠، ٢٠٤.

(٢) سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، بَاب: وَمِنْ سُورَةِ الْمُنَافِقِينَ، رقم الحديث (٣٢٣٧)، وقال الترمذي: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(٣) السيرة النبوية الصحيحة، أكرم ضياء العمري، ١/ ٢٥٢.

في ذلك المنظمات والجمعيات الماسونية، واستجاب لهذه الدعوة وناصرها النصارى العرب من أولئك الأعضاء.

وفي الجانب الآخر نبذت الجمعيات القومية العربية الدعوة إلى الجامعة الإسلامية، وأكدت على عدم الالتفاف حولها وضعف تأثيرها في واقع المجتمع.

وما ذكرته هو ملخص لما سأنقله من نصوص وأنظمة الجمعيات القومية العربية حول الجامعة الإسلامية.

لقد نصت دساتير الجمعيات القومية العربية على أن الرابطة التي تجمع أعضاء الجمعيات هي رابطة القومية، فمن نظام جمعية الإخاء العربي العثماني: «يحق لكل فرد من أبناء العرب - والعربي كل من ينتسب إلى العرب مولداً وموطناً - أن يكون عضواً في جمعية الإخاء العربي العثماني، بشرط أن يكون متصفاً بحسن الخلق والشهرة»[(١)].

كما كان منهج المنتدى الأدبي في أوائل تأسيسه، هو: «ضرورة وجدوى احتفاظ كل قومية من القوميات العثمانية بطابعها المميز ولغتها وتقاليدها، وإحياء أمجادها، وتنمية الشعور القومي فيها، ضمن رابطة جامعة هي رابطة العثمانية..، وأن تنضوي القوميات تحت جناحيها في نظام ديمقراطي حر، وفي جو من الإخاء والمساواة الذي يهيئ لجميع العناصر والأديان العيش الهنيء الرغيد»[(٢)]. وعلى نفس المنهج سارت جمعية العربية الفتاة كما في فقرة (١٣) من نظامها: «ومبدؤها في ذلك عربي فيها قبل كل شيء، وفي كل شيء»[(٣)].

---

(١) الثورة العربية الكبرى، أمين سعيد، ٧. وانظر: نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ٣٥١.
(٢) العرب والترك في العهد الدستوري العثماني، ٢٦٤.
(٣) نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ٤٩١.

(رابطة القومية العربية أساس الوحدة) هي من أبرز أسس دساتير الجمعيات القومية، ففي حزب البعث العربي يقول: شبلي العيسمي - أحد مؤسسي حزب البعث -: يسعى الحزب لعدم زج أمور الدين بأمور الدولة، ففي عام ١٩٥٠م تظاهر الإخوان المسلمون في القطر السوري مطالبين بالنص في دستور البلاد على أن يكون الإسلام دين الدولة، فقاوم الحزب ذلك وأحبطه **معتبراً الرابطة القومية هي الرابطة الوحيدة التي تكفل الانسجام بين المواطنين**[١].

ويبين أسعد داغر مواقف أعضاء الجمعيات القومية من الجامعة الإسلامية، قائلاً: «إن القومية هي الأساس الذي يجب أن تقوم عليه الدول منذ الآن، وأن الجهود كلها يجب أن توجه إلى خدمة الفكرة العربية مجردة عن كل شيء.

وفي مُقَدِّمة من يقول بهذا القول الضباط والشيوخ والنواب والمفكرون من شبان العرب، فقد أجمعوا على أن لا حياة للأمم في هذا العصر إلا على أساس القومية، وأن العمل لفكرة الجامعة الإسلامية إنما هو هدم لفكرة الاستقلال عن تركيا الإسلامية، وهي الفكرة التي كانت قد اختمرت في عقولهم بعد أن قطعوا كل أمل في إصلاح ما فسد من أمر الترك»[٢].

إن الدعوة التي تبنتها الجمعيات القومية من نبذ الرابطة الإسلامية والانتماء إلى الرابطة القومية، هي دعوةٌ إلى القوميات الجاهلية، وتقليدٌ للقوميات التي ظهرت في وقت تأسيس الجمعيات، ولذا نجد أعضاءها عندما يعدّون مزايا المجتمعات الغربية يذكرون من أبرزها: نبذ الوحدة الدينية، والتعاضد والالتقاء حول الرابطة القومية والوطنية.

---

(١) رسالة الأمة العربية، شبلي العيسمي، ٦٩.
(٢) مذكراتي على هامش القومية العربية، أسعد داغر، ٤٦.

وبمثل هذا نادى رفيق العظم عندما ذكر خصال المجتمع الغربي النصراني، قائلاً: «يجب من العدل والإنصاف الاعتراف بفضل المدنية الأوربية التي نهضت بالإنسانية إلى منزلة سامية لم تبلغها من قبل، وأن الاحتكاك بالأوربيين قد نفع الشرق نفعاً محسوساً، فنحن مدينون لهم بالرقي العقلي والصناعي»[١].

وهذه المدنية التي أثنى عليها رفيق العظم، قال عن الرابطة التي تجمع بين أفرادها: «إن الحياة السياسية في أوربا قد صارت أو كادت تصير بمعزل عن الاعتقاد. فالغربي إذا حكم في الشرق مسيحياً مثلاً لا ينظر إلى ما بينهما من المشاركة في الاعتقاد، بل ينظر إلى المصلحة»[٢].

وهذا التغير الذي حدث في المجتمعات النصرانية كان بعد نبذ الدين كما يقول رفيق العظم: «إن الأمم المسيحية لما كانت مسوقة في أوربا بيدي الكهنة والملوك مأخوذة الإرادة بقوة هاتين الفئتين كانت ليس لها من الأمر إلا أن تدعى إلى عمل فتجيب، وتساق إلى حرب فتسير»[٣].

ويجمع أعضاء الجمعيات القومية العربية على الدعوة إلى رابطة القومية، فمن أقوال الأعضاء: قول عبدالحميد الزهراوي وهو يبين منهجية ومبدأ المؤتمر العربي الأول، قال: «إن الرابطة الدينية قد عجزت دائماً عن إيجاد الوحدة السياسية، وأنا لا أرجع إلى التاريخ لأبرهن على هذا، بل حسبي ما لدينا الآن من الشواهد الحاضرة، انظر إلى الحكومة العثمانية والفارسية كيف لم تقو رابطتهما الدينية على إزالة اختلاف بسيط من بينهما وهو الاختلاف المتعلق بالحدود»[٤].

---

(١) مجموعة آثار رفيق العظم، (رسالة الجامعة الإسلامية وأوربة)، ٨١ - ٨٣.

(٢) مجموعة آثار رفيق العظم، (رسالة الجامعة الإسلامية وأوربة)، ٨٣.

(٣) المصدر السابق، (رسالة الجامعة الإسلامية)، ٥٧.

(٤) المؤتمر العربي الأول، ٢١.

قال رفيق العظم: «للاجتماع نظامات وروابط، وهي العصبيات، تكاد تكون طبيعية بين البشر، أهمها الروابط العامة التي تجمع قوماً أو أقواماً كثيرين على كلمة واحدة، وهي رابطة العشيرة أو الجنس أو الوطن أو الدين».

ثم بين العظم أولوية هذه الروابط، بقوله: «إن رابطة الجنس والوطن فإنها طبيعية الوجود، لا سبيل إلى انحلالها إلا بانحلال القوم المنتسبين إليها، ويلي هاتين في المنزلة العصبية الدينية، **وقل ما جمع الدين كلمة أهله بأجمعهم إلا في الشاذ النادر، اللهم في العواطف دون الفعل..، إن أقل هذه الروابط تأثيراً في المجتمعات رابطة الدين**[1].

وعلى نفس المبدأ يلتقي رفيق العظم مع ساطع الحصري وغيره من أعضاء الجمعيات القومية العربية، يقول الحصري: «لا وحدة الدين، ولا وحدة الدولة، ولا وحدة الحياة الاقتصادية تدخل بين مقومات الأمة الأساسية»[2].

وقال توفيق البساط[3]: «إذا كنا نريد الجامعة الإسلامية فلماذا نحاول بث الفكرة العربية؟!!».

وقال عبدالكريم الخليل: «إن فكرة الجامعة الإسلامية تؤدي إلى الوهن أكثر منها إلى القوة، لأنها تنفر الغرب، بينما لا تستطيع أن تمد الشرق بقوة».

ويقول داغر: «والذي أعرفه عن ثقة، ويمكنني إعلانه الآن على رؤوس الأشهاد أنه لم يكن بين أصدقائي الذين قامت النهضة العربية على أكتافهم أو على جماجمهم سواء في سورية أو العراق أو فلسطين أو لبنان أو غيرها من يفكر في اتخاذ الفكرة

---

(١) مجموعة آثار رفيق العظم، (رسالة الجامعة الإسلامية)، ٤٩.
(٢) أبحاث مختارة في القومية العربية، ساطع الحصري، ٢٠٥.
(٣) انظر الترجمة رقم (١١).

الإسلامية أساساً للوحدة والاستقلال، بل إنهم جميعاً كانوا يعملون على تعزيز روح القومية البحتة، وإحياء مجد العرب على أساس هذه الروح»[1].

ويؤكد أعضاء الجمعيات القومية العربية على أن الدعوة إلى الوحدة القومية لا يجتمع مع الوحدة الإسلامية، لأن الوحدة الإسلامية تقر بمشروعية مبدأ الخلافة الإسلامية، ولذا يقول أسعد داغر: «كيف يمكننا أن نوفق بين اعتناقنا لفكرة الجامعة الإسلامية وقيامنا ضد دولة الخلافة؟!!»[2].

وقال دروزة: «لم يشذ سير الفكرة عن ناموس النشوء والتدرج العام حسب الظروف والعوامل المتنوعة، فالفكرة في ثوبها الجديد طارئة، وفي ظرف كان العرب على نسبة كبيرة من الضعف والتفكك والغفلة والجهل، والاستغراق في معنى الوحدة الإسلامية والأخوة التركية..»[3]. فهو يرى أن من الظروف الصعبة التي مرت بها الحركة القومية: الجهل، والتفكك، وكذلك الوحدة الإسلامية.

ويعتبرُ القوميون الوحدة الإسلامية إنما هي كما يقول عبدالرحمن البزاز: «شعار للإبقاء على الأنظمة الرجعية المتهرئة في العالم العربي، والدين لا يمكن أن يكون قوام القومية أو ركناً أساسياً من أركانها، فهو من ثم لا يصلح أساساً لوحدة سياسية»[4].

وأما تحقيق الوحدة القومية كما يقول محمد محمد خلف الله: «فإنها أقرب منالاً من تحقيق الوحدة الإسلامية، إن مصلحتنا اليوم في تحقيق هذا الهدف القريب. ثم إن الفكرة العربية أكثر انتشاراً وأوسع نفوذاً من الفكرة الإسلامية، إنها تشمل سكان العالم

---

(١) مذكراتي على هامش القومية العربية، أسعد داغر، ٤٦.

(٢) المصدر السابق، ٤٦.

(٣) حول الحركة العربية الحديثة، ١/ ٢٣.

(٤) هذه قوميتنا، عبدالرحمن البزار.

العربي جميعاً»[١].

وتُعدُّ في لوازم الدعوة إلى ولاء القومية نبذُ الولاء والبراء على أسس الدين، فقد كان من مبادئ الجمعيات القومية العربية عدم تبني مبدأ الولاء الديني، ففتحت عضويتها لجميع معتقدي المذاهب والنحل.

لقد أصبح من أنظمة الجمعيات القومية أن طائفة منهم تعالج واقع المسلمين من منظور ما يعتقده العضو العلماني أو النصراني أو اليهودي.. إلخ. فكان نصيب ساطع الحصري مثلاً في التقسيم الوزاري في الدولة العربية الأولى، أن أصبح وزيراً للمعارف في تلك الدولة الفتية[٢]، وقد تولى هذا المنصب الهام في توجيه الأمة، مع وصف القوميين له، بأنه أشد المفكرين العرب تعصباً لعلمانية القومية العربية[٣].

ويذكر القوميون أنه عندما قدمت عريضة مقدمة من شكري العسلي - أحد أعضاء الجمعيات القومية - إلى جمعية الاتحاد والترقي بشأن المطالبة بحقوق العرب في مجلس الدولة، وأن ممثلي العرب قلةٌ مقارنةً بعددهم في الدولة، قال القوميون: «فاستغلت جمعية الاتحاد والترقي هذا الطلب بضرب العرب بعضهم ببعض وإثارة الطائفية الدينية، فجاءت مكاتباتٌ تندد بفكرة شكري العسلي، ويهيبون بالتمسك بالجامعة الإسلامية».

---

(١) مجلة العربي الكويتية، العدد الأول ديسمبر ١٩٥٨م، ٢٤، مقال محمد أحمد خلف الله، (القومية العربية كما ينبغي أن نفهمها). العرب والإسلام، الندوي، ١٦- ١٧. وانظر: قضية العرب، علي ناصر الدين، ١١٨، هامش رقم (٢).

(٢) خواطر وأحاديث في التاريخ، نجدة فتحي صفوة، ١٦١.

(٣) مجلة المستقبل العربي، العدد الأول، السنة الخامسة، ١٩٧٨م، ص: ٧٦.

وحينما عرض هذا المبدأ - التمسك بالجامعة الإسلامية - في الجرائد الحكومية جاءت مكاتبات من النصارى العرب يطالبون بألا يتخذ انعطافهم نحو الحكومة الدستورية سبباً لعدم الاعتداد بهم كطائفة لا شأن لها، وينبهون إلى أن الدعوة إلى الوحدة أو الجامعة الطائفية مضرة بكيان الدولة[1].

(١) العرب والترك في العهد الدستوري العثماني، توفيق برو، ٢٤٥.



الفصل الثاني:

موقف الجمعيات القومية العربية من دعوة الإمام محمد بن عبدالوهاب

ويحتوي على:

» أولاً: وصف الدعوة الإصلاحية وأتباعها بأنها مذهب محدث في الإسلام.

» ثانياً: نقد منهج الدعوة بإزالة الشركيات من واقع المسلمين.

» ثالثاً: اعتبار الدعوة (الوهابية) حركة سياسية ذات مطمع مادي.



المفهوم العام عن الجمعيات القومية العربية الذي طرحه مؤسسوها أنها جمعيات إصلاحية، قدمت مناهج تريد من خلالها إصلاح ما فسد من واقع المسلمين.

ويلزم من هذا المفهوم أن تكون للجمعيات القومية مواقف من الدعوات التي تنادي بالإصلاح، سواء كانت معاصرة للجمعيات أم عاصرت آثار الدعوات الإصلاحية.

إن دعوة الإمام محمد بن عبدالوهاب[(١)] (١١١٥ - ١٢٠٦هـ) التي ظهرت قبل تأسيس الجمعيات القومية العربية، تعتبر من أبرز الدعوات الإصلاحية التي نادت بالعودة إلى الكتاب والسنة، ونبذ الروابط والمعتقدات الجاهلية، والمنطقة التي ظهرت فيها دعوة الإمام محمد بن عبدالوهاب كانت بحاجة إلى دعوة دينية إصلاحية، وكانت مكاناً مناسباً لنجاحها، فقد كانت أيضاً في حاجة إلى حركة سياسية تجمع شتات إماراتها الصغيرة المتحاربة أحياناً، وقبائلها المختلفة المتصارعة حول موارد المياه[(٢)].

وقد قام الإمام محمد بن عبدالوهاب بدعوة الخاصة والعامة إلى التوحيد الخالص والدين الصحيح، وسعى إلى مخاطبة عوام الناس مبيناً لهم ما يجب عليهم

(١) ألفت كتبٌ كثيرة في بيان السيرة الذاتية للإمام محمد بن عبدالوهاب، كما ألفت كتبٌ عن معالم دعوة الإمام محمد بن عبدالوهاب، منها:
- روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام، والغزوات البيانية والفتوحات الربانية، حسين بن غنام.
- عنوان المجد في تاريخ نجد، عثمان بن بشر.
- محمد بن عبدالوهاب مصلح مظلوم، مسعود الندوي.
- محمد بن عبدالوهاب، أحمد عبدالغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٣٨٧هـ.
- الشيخ محمد بن عبدالوهاب حياته وفكره، عبدالله العثيمين.
- دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب عرض ونقض، عبدالعزيز العبداللطيف.
- الإمام محمد بن عبدالوهاب في التاريخ، عبدالله بن سعد الرويشد، القاهرة، البابي الحلبي، ١٣٩٢هـ.
- الإمام محمد بن عبدالوهاب ومنهجه في مباحث العقيدة، آمنة محمد نصير، دار الشروق، بيروت.

(٢) الشيخ محمد بن عبدالوهاب حياته وفكره، عبدالله بن العثيمين، ٢١، دار العلوم، الرياض، ١٩٩٣م.

وما يحرم، فمن أقواله في تلقين العقيدة الصحيحة: «بسم الله الرحمن الرحيم: إذا قيل لك: من ربك؟ فقل: ربي الله، فإذا قيل لك: إيش أكبر ما ترى من مخلوقاته؟ فقل: السماوات والأرض. فإذا قيل لك: إيش تعرفه به؟ فقل: أعرفه بآياته ومخلوقاته. وإذا قيل لك: إيش أعظم ما ترى من آياته؟ فقل: الليل والنهار. والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[١].

فإذا قيل لك: لأي شيء الله خلقك؟ فقل: لعبادته.

فإذا قيل لك: أي شيء عبادته؟ فقل: توحيده وطاعته.

فإذا قيل لك: أي شيء الدليل على ذلك؟ فقل: قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٢][٣]. وبمثل هذا المنهج التلقيني قام الإمام محمد بن عبدالوهاب بالمنهج الإصلاحي المتلقى من الكتاب والسنة.

وقبل بيان موقف الجمعيات القومية العربية أوجز أبرز المعالم الأساسية لدعوة الإمام محمد بن عبدالوهاب، والتي تناقض أسس ومبادئ تلك الجمعيات، ومما ينبغي التأكيد عليه أيضاً أن موقفهم من دعوة الإمام محمد بن عبدالوهاب لا يختلف عن موقف الجمعيات من الدين، لأن دعوة الإمام هي امتداد لدعوة المصلحين القائمة على منهاج النبوة.

---

(١) سورة الأعراف، رقم الآية (٥٤).

(٢) سورة الذاريات، رقم الآية (٥٦).

(٣) مؤلفات الشيخ الإمام محمد بن عبدالوهاب، القسم الأول، العقيدة والآداب الإسلامية، ٣٧٠، ٣٧٤.

» أبرز معالم دعوة الإمام محمد بن عبدالوهاب:

أولاً: نبذ الشرك بجميع صوره وأنواعه وتحقيق العبودية لله رب العالمين: وهي دعوة الرسل عليهم أفضل الصلاة والسلام، وفي مباحث الرسالة بينت معاول الهدم التي سلطتها جمعيات القومية العربية على توحيد الألوهية، ونشر وإحياء شركيات الجاهلية في واقع المسلمين.

وقد قال الإمام محمد بن عبدالوهاب في بيان معالم دعوته: (بينت للناس إخلاص الدين لله، ونهيتهم عن دعوة الأحياء والأموات من الصالحين وغيرهم، وعن إشراكهم فيما يعبد الله به، من الذبح والنذر والتوكل والسجود وغير ذلك مما هو حق لله تعالى، الذي لا يشركه فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل، وهو الذي دعت إليه الرسل من أولهم إلى آخرهم، وهو الذي عليه أهل السنة والجماعة)[١].

وذكر الإمام أن تحقيق التوحيد لله وحده هو زبدة دعوة الرسل، فعند استنباط الفوائد من الحديث الذي يرويه عَمْرُو بْنُ عَبَسَةَ السُّلَمِيُّ ومما جاء في الحديث قوله: [كُنْتُ وَأَنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَظُنُّ أَنَّ النَّاسَ عَلَى ضَلَالَةٍ، وَأَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ، وَهُمْ يَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ، فَسَمِعْتُ بِرَجُلٍ بِمَكَّةَ، يُخْبِرُ أَخْبَارًا، فَقَعَدْتُ عَلَى رَاحِلَتِي، فَقَدِمْتُ عَلَيْهِ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُسْتَخْفِيًا، جُرَءَاءُ عَلَيْهِ قَوْمُهُ، فَتَلَطَّفْتُ حَتَّى دَخَلْتُ عَلَيْهِ بِمَكَّةَ، فَقُلْتُ لَهُ: مَا أَنْتَ؟ قَالَ: [أَنَا نَبِيٌّ]، فَقُلْتُ: وَمَا نَبِيٌّ؟ قَالَ: [أَرْسَلَنِي اللَّهُ]، فَقُلْتُ: وَبِأَيِّ شَيْءٍ أَرْسَلَكَ؟ قَالَ: [أَرْسَلَنِي بِصِلَةِ الْأَرْحَامِ، وَكَسْرِ الْأَوْثَانِ، وَأَنْ يُوَحَّدَ اللَّهُ لَا يُشْرَكُ بِهِ شَيْءٌ][٢].

---

(١) مجموعة مؤلفات الشيخ، قسم الرسائل الشخصية، ٥/ ٣٦.

(٢) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين، بَاب إِسْلَامِ عَمْرِو بْنِ عَبَسَةَ، رقم الحديث (١٣٧٤).

قال الشيخ: «إن زبدة الرسالة الإلهية والدعوة النبوية هي توحيد الله بعبادته وحده لا شريك له، وكسر الأوثان، ومعلوم أن كسرها لا يستقيم إلا بشدة العداوات وتجريد السيف فتأمل زبدة الرسالة»[١].

إن قضية تحقيق التوحيد لله تعالى والخلوص من الشرك من أبرز معالم دعوة محمد بن عبدالوهاب، وصنفت فيها العديد من الكتب والرسائل، ومن أبرز كتبه كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد، وكتاب كشف الشبهات.

ومن المعلوم أن الدعوة إلى التوحيد ونبذ الشرك التي قام بها الإمام محمد بن عبدالوهاب قوبلت بصد أهل الشرك والضلال، من العلماء والأمراء، على حد سواء، فيذكر الإمام في كتابه كشف الشبهات بعض الشبه التي أثيرت، وتولى الرد عليها وأبطلها.

ومن أمثلة ذلك قوله: «يقول المشرك: نحن لا نشرك بالله، بل نشهد أنه لا يخلق ولا يرزق ولا ينفع ولا يضر إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، فضلا عن غيره. ولكن أنا (المشرك) مذنب، والصالحون لهم جاه عند الله. وأطلب من الله بهم».

قال الإمام محمد بن عبدالوهاب: «وسر المسألة أنه إذا قال: أنا لا أشرك بالله، فقل: وما الشرك بالله؟ فسره لي، فإن قال: هو عبادة الأصنام. فقل: وما معنى عبادة الأصنام؟ فسرها لي. فإن قال: أنا لا أعبد إلا الله وحده. فقل له: ما معنى عبادة الله وحده؟ فسرها لي. فإن فسرها بما بينه القرآن فهو المطلوب. وإن لم يعرفه فكيف يدعي شيئاً وهو لا يعرفه؟ وإن فسر ذلك بغير معناه: بينت له الآيات الواضحات في

---

(١) مؤلفات الشيخ الإمام محمد بن عبدالوهاب، العقيدة والآداب الإسلامية، ٢٨٤.

معنى الشرك بالله، وعبادة الأوثان، وأنه الذي يفعلونه في هذا الزمان بعينه، وأن عبادة الله وحده لا شريك له: هي التي ينكرونها علينا، ويصيحون علينا، كما صاح إخوانهم حيث قالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾[1]. وقد أثارت هذه القضايا وغيرها خلافاً بين الإمام وأتباعه وبين خصومهم[2].

ومنهج الإمام محمد بن عبدالوهاب في حقيقة محبة الرسول ﷺ وما تستلزمه وما تقتضيه شهادة أن محمداً رسول الله هو: «تجريد المتابعة، والقيام بالحقوق النبوية من الحب والتوقير، والنصرة والمتابعة والطاعة، وتقديم سنته ﷺ على كل سنة وقول، والوقوف معها حيثما وقفت، والانتهاء حيث انتهت في أصول الدين وفروعه، باطنه وظاهره، خفيه وجليه، كليه وجزئيه»[3].

ثانياً) وجوب معاداة أهل الكفر والضلال: لا يتحقق التوحيد الخالص إلا بموالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين، ومن هذا الأساس بين الإمام محمد بن عبدالوهاب في كتاب (مفيد المستفيد في كفر تارك التوحيد)، وعقد باباً ترجم له بقوله: (باب وجوب عداوة أعداء الله من الكفار والمرتدين والمنافقين)، وقول الله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ

---

(١) سورة ص، رقم الآية (٦).

(٢) انظر عن هذا الموضوع: الشيخ محمد بن عبدالوهاب حياته وفكره. عبدالله بن صالح العثيمين، ١٠٧.

دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب عرض ونقض، عبدالعزيز العبد اللطيف.

(٣) تاريخ نجد، محمود شكري الآلوسي، ٨٧، الطبعة الثالثة، ١٤١٥هـ.

(٤) سورة النساء، رقم الآية (١٤٠).

(٥) سورة المائدة، رقم الآية (٥١).

آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾[1][2].

وبعد عرض الآيات القرآنية وأقوال السلف في هذا الموضوع، قال الإمام محمد ابن عبدالوهاب في موالاة ومعاداة أهل البدع: (كلام السلف في معاداة أهل البدع والضلالة، في ضلالة لا تخرج عن الملة، لكنهم شددوا في ذلك وحذروا منه لأمرين: الأول: غلظ البدعة في الدين في نفسها فهي عندهم أجل الكبائر.. ويعاملون أهلها بأغلظ مما يعاملون به أهل الكبائر.

الثاني: أن البدع تجر إلى الردة الصريحة كما وجد من كثير من أهل البدع.

ولما كان ظهور البدع دليلاً على غربة الدين قال الإمام محمد بن عبدالوهاب عن حديث الغربة والذي فيه: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: [بَدَأَ الإِسْلامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ][3].

قال الإمام عن معاني أحاديث الغربة: «تأمل - رحمك الله - أحاديث الغربة وبعضها في الصحيح مع كثرتها وشهرتها، وتأمل إجماع العلماء كلهم أن هذا وقع في زمن طويل..، فتأمل هذا جيداً لعلك أن تسلم من هذه الهوة الكبيرة التي هلك فيها أكثر الناس وهي الاقتداء بالكثرة والسواد الأكبر، والنفرة من الأقل، فما أقلَّ من سلم منها، ما أقلَّه! ما أقلّه!»[4].

---

(١) سورة الممتحنة، رقم الآية (١).

(٢) مؤلفات الشيخ محمد بن عبدالوهاب، العقيدة والآداب الإسلامية، مفيد المستفيد في كفر تارك التوحيد، ٣١٢.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، بَاب بَيَانِ أَنَّ الإِسْلامَ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا، رقم الحديث (٢٠٨).

(٤) مؤلفات الإمام محمد بن عبدالوهاب، العقيدة والآداب الإسلامية، مفيد المستفيد في كفر تارك التوحيد، ٣١٢.

إن معاداة أهل الشرك من الأمور المقررة في عقيدة أهل التوحيد، وقد بين الإمام محمد بن عبدالوهاب أن الله سبحانه من حكمته لم يبعث نبياً إلا جعل له أعداء كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾[1][2].

ومما بينه الإمام أن من وحّد الله تعالى، وعبد الله تعالى، لا يجوز له موالاة من حاد الله ورسوله ﷺ ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم، والدليل قوله تعالى: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[3][4].

وأكد الإمام محمد بن عبدالوهاب على أن الإنسان لا يستقيم له إسلام - ولو وحد الله وترك الشرك - إلا بعداوة المشركين والتصريح لهم بالعداوة والبغض كما قال تعالى: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية[5].

وقد قام الإمام محمد بن عبدالوهاب بتوجيه العامة والخاصة من المسلمين إلى لزوم تطبيق عقيدة الولاء والبراء، فمن توجيهاته، قوله: «الواجب عليك نصر أخيك ظالماً أو مظلوماً[6]، وإن تفضل الله عليك بفهم ومعرفة فلا تعذر لا عند الله ولا

---

(١) سورة الأنعام، رقم الآية (١١٢).

(٢) كشف الشبهات، محمد بن عبدالوهاب، ١٠، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٣٧٢هـ.

(٣) الجامع الفريد، ٢٧٠.

(٤) سورة المجادلة، رقم الآية (٢٢).

(٥) الجامع الفريد، ٢٥٤، مطبعة المدينة، الرياض.

(٦) (نصرُ أخيك ظالماً أو مظلوماً) جزء من حديث: [انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا]. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم والغصب، بَاب أَعِنْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا، رقم الحديث (٢٢٦٣).

عند خلقه من الدخول في هذا الأمر - الدعوة إلى التوحيد ونبذ الشر وأهله - فإن كان الصواب معنا فالواجب عليك الدعوة إلى الله وعداوة من صرح بسب دين الله ورسوله ﷺ، وإن كان الصواب معهم - أهل الشرك - أو معنا شيء من الحق وشيء من الباطل، أو معنا غلو في بعض الأمور فالواجب منك مذاكرتنا ونصيحتنا (وتورينا) - تطلعنا - عبارات أهل العلم، لعل الله أن يردنا بك إلى الحق»(١).

في المباحث السابقة من الرسالة بينت الأسس العقائدية التي قامت عليها الجمعيات القومية العربية في تفضيل الجنس العربي دون الاعتبارات الدينية على غيره من الأجناس، وهذه المسألة قد تناولها الإمام محمد بن عبدالوهاب، فقد قال عن آل النبي ﷺ: «إن لهم حقًّا لا يشركهم فيه غيرهم، ويستحقون من زيادة المحبة والموالاة مالا يستحق سائر قريش، وقريش يستحقون ما لا يستحق غيرهم من القبائل..، وأما نفس ترتيب الثواب والعقاب على القرابة ومدح الله للمعين وكرامته عنده فهذا لا يؤثر فيه النسب»(٢).

كما لم يعتبر الإمام محمد بن عبدالوهاب صحة إسلام من لم يعاد أهل الشرك، لأن الإسلام لا يصح إلا بمعاداة أهل الشرك الأكبر، وإن لم يعادهم فهو منهم، وإن لم يفعله - يفعل الشرك -(٣).

ثالثاً: طاعة أولياء الأمور وعدم الخروج على الجائر منهم: لقد هتكت الجمعيات القومية مبدأ الخلافة الشرعية، وساهمت في تقرير سيادة الأمة في التشريع، وأنكرت على من يقول بعدم الخروج على أئمة الجور ما لم يروا كفراً بواحاً عندهم من الله

---

(١) مؤلفات الشيخ الإمام محمد بن عبدالوهاب، القسم الخامس الرسائل الشخصية، ٣٠٠ - ٣٠١.

(٢) مؤلفات الشيخ الإمام محمد بن عبدالوهاب، ملحق المصنفات، ٥١.

(٣) المصدر السابق، القسم الأول (العقيدة والآداب الإسلامية)، ٢٩٧.

فيه برهان كما ثبت من حديث عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ أنه قَالَ: دَعَانَا النَّبِيُّ ﷺ فَبَايَعْنَاهُ، فَقَالَ: [فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا، وَأَثَرَةً عَلَيْنَا، وَأَنْ لا نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ إِلّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ][1].

وهذا الموقف تجاه الإمام الجائر ذكره الإمام محمد بن عبدالوهاب في بيان دعوته، حيث قال: «..وأرى الجهاد ماضياً مع كل إمام براً كان أو فاجراً، وصلاة الجماعة خلفهم جائزة..، وأرى وجوب السمع والطاعة لأئمة المسلمين برهم وفاجرهم ما لم يأمروا بمعصية الله، ومن ولي الخلافة واجتمع عليه الناس ورضوا به وغلبهم بسيفه حتى صار خليفة وجبت طاعته، وحرم الخروج عليه»[2].

وبين الشيخ أن طاعة ولي الأمر الجائر في مذهب أهل السنة هو: أن الأمراء الظلمة مشاركون فيما يحتاج إليهم فيه من طاعة الله فيصلى خلفهم، ويجاهد معهم، ويستعان بهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..، وقَلَّ من خرج على دين سلطان إلا كان ما تولد عن فعله من الشر أعظم من الخير، فلا أقاموا ديناً ولا أبقوا دنيا[3].

رابعاً: الأخوة الإسلامية: لقد أدرج الإمام محمد بن عبدالوهاب مبدأ الأخوة الإسلامية ضمن قضايا التوحيد، فقال: باب قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾[4].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الفتن، بَاب قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ سَتَرَوْنَ بَعْدِي أُمُورًا، رقم الحديث (٦٥٣٢).

(٢) مؤلفات الشيخ الإمام محمد بن عبدالوهاب، القسم الخامس الرسائل الشخصية، ١١.

(٣) المصدر السابق، ملحق المصنفات، ٤٢ و٥٠.

(٤) سورة التوبة، رقم الآية (٢٤).

ومن أقوال الرسول ﷺ التي استدل بها الإمام في باب الأخوة الإسلامية حديث أنس بْن مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: [ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ](١).

قال الشارح لكتاب التوحيد: من لوازم محبة الله محبة أهل طاعته، كمحبة أنبيائه، ورسله، والصالحين من عباده، فمحبة ما يحبه الله ومن يحبه الله من كمال الإيمان(٢).

وأكد الإمام محمد بن عبدالوهاب على رابطة الأخوة الإسلامية بقوله: «يا إخواني، تمسكوا بأصل دينكم، وأوله وآخره وأسه ورأسه شهادة أن لا إله إلا الله، واعرفوا معناها وأحبوها وأحبوا أهلها واجعلوهم إخوانكم ولو كانوا بعيدين، واكفروا بالطواغيت وعادوهم وأبغضوا من أحبهم أو جادل عنهم أو لم يكفرهم أو قال: ما عليّ منهم، أو قال: ما كلفني الله بهم، فقد كذب هذا على الله وافترى. فقد كلفه الله تعالى بهم، وافترض عليه الكفر بهم والبراءة منهم ولو كانوا إخوانهم وأولادهم(٣).

وبعد هذا العرض الموجز لأبرز معالم دعوة الإمام محمد بن عبدالوهاب أبين موقف الجمعيات القومية العربية من دعوته رحمه الله.

أولاً: وصف الدعوة الإصلاحية وأتباعها بأنها مذهب محدث في الإسلام:

لقد وصف أعضاء الجمعيات القومية دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب بأنها مذهب محدث في الدين، وليس وصفهم هذا من منطلق غيرتهم على الدين وإنما لصد المسلمين عن مبادئ الدعوة الإصلاحية القائمة على الكتاب والسنة.

(١) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، بَاب حَلاوَةِ الإِيمَانِ، رقم الحديث (١٥).
(٢) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ، ٢٩٦.
(٣) الجامع الفريد، ٢٦٢، مطبعة المدينة، الرياض.

كان قبل أعضاء الجمعيات القومية، من وصف الشيخ بهذا الوصف لغرض صد الناس عن الاستماع لدعوته، كسليمان بن محمد بن سحيم، القائل: «خرج في قطرنا رجل مبتدع جاهل، مضل ضال، من بضاعة العلم والتقوى عاطل، جرت منه أمور فظيعة، وأحوال شنيعة.. إلخ»(١).

وعلى لسان الجمعيات القومية العربية، قالت صحيفة الهلال: «الوهابية مذهب في الإسلام منسوب إلى محمد بن عبدالوهاب، انتشر هذا المذهب في بلاد نجد لا سيما بين القبائل التي يحكمها آل سعود»(٢).

وقال أمين الريحاني: «الحنابلة والوهابيون يختلفون عن سواهم من المسلمين في إنهم يزورون القبور للسلام والدعاء لا للتوسل والاستغاثة»(٣).

إن زيارة القبور المشروعة لا يختص بها كما قال الريحاني الحنابلة والوهابية، وإنما هي سنة رسول الله ﷺ وأصحابه من بعده، وعلماء المسلمين، كما ثبت في الحديث الصحيح: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: [نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا..](٤).

وقال النووي: «المستحب في زيارة القبور أن يقف مستدبر القبلة، مستقبلاً وجه الميت يسلم ولا يمسح القبر ولا يقبله ولا يمسه، فإن ذلك عادة النصارى، ولأنه قد صح النهي عن تعظيم القبور، ولأنه إذا لم يستحب استلام الركنين الشاميين من أركان الكعبة لكونه لم يسن مع استحباب استلام الركنين الآخرين، فلأن لا يستحب من

---

(١) تاريخ نجد، حسين بن غنام، ٢/ ٨٩.
(٢) مجلة الهلال، المجلد ٢٥، ص١١٦ - ١١٧.
(٣) نجد وملحقاته، أمين الريحاني، ٥٧ (الحاشية)
(٤) صحيح مسلم، كتاب الجنائز، بَاب اسْتِئْذَانِ النَّبِيِّ ﷺ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي زِيَارَةِ قَبْرِ أُمِّهِ، رقم الحديث (١٦٢٣).

القبور أولى»[1].

وقد قال أحمد عبدالغفور عطار: «ليس للوهابيين مذهب خاص تفردوا به عن أهل السنة والجماعة - كما يظن الذين لم يدرسوا الوهابية أو المغرضون - وكذلك لم يكن الشيخ مبتكراً (طقوساً) دينية تخالف ما جاء به القرآن والحديث، ولم ينفرد بأمور لا تتفق والإسلام»[2].

ومن أمثلة وصف دعوة الإمام محمد بن عبدالوهاب بصفات لا تليق بها، ما ذكرته صحيفة القبلة[3]: (إن التاريخ الإسلامي، قد ظهر فيه عدد من الفرق والطوائف، كمثل الخوارج والزنوج والقرامطة في زمني الدولتين الأموية والعباسية، فإن وضعية الفرق الثلاث المذكورة وعقائدهم لا تختلف عن وضعية الوهابية وعقائدها)[4].

فصنفت صحيفة القبلة عقائد ومبادئ دعوة الإمام محمد بن عبدالوهاب (الوهابية) ضمن الفرق والطوائف الخارجة عن أحكام وهدي الكتاب والسنة.

---

(١) المجموع شرح المهذب، النووي، ٥/ ٢٧٨ (بتصرف)، دار الفكر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ. وانظر: أوضح الإشارة في الرد على من أجاز الممنوع من الزيارة، أحمد بن يحيى النجمي.

(٢) محمد بن عبدالوهاب، أحمد عبدالغفور عطار، ١٢٦.

(٣) من الصحف القومية الصادرة من الحجاز، خلال حكم الملك الحسين بن علي، وتعتبر من الصحف المؤيدة للجمعيات القومية العربية، وذلك من خلال ما تحتويه من مقالات تؤيد مبادئ الجمعيات، مثال ذلك: «ليس اليوم بين الناطقين بالضاد مسلم ولا مسيحي ولا يهودي. وإنما جميعهم عرب تظلهم راية ملك لإعربي غايته القصوى الدفاع عن جامعتهم والمحافظة على حقوقهم.. وهذه المفاخر التي نهض العرب لإحيائها ووصل سلسلتها، ولم يكن المسيحيون منهم بأقل حرصاً وإعجاباً بها من المسلمين، لأنها في الحقيقة من مفاخر هذه اللغة وأبنائها، ومن البراهين التاريخية على ما لبني سام عامة والعرب خاصة من قابلية الارتقاء إلى أسمى ما يمكن للبشر أن يرتقوا إليه آداباً وسماحة صحيفة القبلة، العدد ٥٢، السنة الأولى، بتاريخ ١٩/ ٤/ ١٣٣٥هـ. كاتب المقال: محب الدين الخطيب. وانظر الأعداد: (٣٢)، السنة الأولى، ٨/ ٢/ ١٣٣٥هـ. و(٤١)، السنة الأولى، ٩/ ٣/ ١٣٣٥هـ. و(٤٣)، السنة الأولى، ١٦/ ٣/ ١٣٣٥هـ.

(٤) جريدة القبلة، السنة التاسعة، العدد ٨٢١، بتاريخ ٢٩/ ٢/ ١٣٤٣هـ.

وقد قال أحمد عبدالغفور عطار: «نشر العلماء المغرضون عن الوهابية الأكاذيب المختلفة والدعاية السيئة فأطلقوا على الدعوة التي قام بها الشيخ المجدد محمد بن عبدالوهاب اسم الوهابية، وأحاطوه بكل شر ورذيلة، وجعلوا اسم الوهابية علماً على الوحشية والجمود والهمجية، وأفهموا الناس ذلك عن طريق السفسطة والمنطق الخادع فصدقوهم»[1].

هذه أبرز معالم دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ومما كتب عن دعوته وجهوده الإصلاحية يظهر أن الإمام مُتَّبِعٌ وليس بمبتدع، وقام بواجب الدعوة إلى الله وتصحيح عقائد الناس وفق الكتاب والسنة. وقد قال لمخالفيه: (أنا أدعو من خالفني إلى أحد أربع: إما إلى كتاب الله، وإما إلى سنة رسول الله ﷺ، وإما إلى إجماع أهل العلم، فإن عاند دعوته إلى المباهلة)[2].

وتعتبر كتب ورسائل الإمام محمد بن عبدالوهاب - التي أرسلها في الرد على افتراءات أهل الضلال ضده - أصدق دليل على بيان منهجه، وإن كانت هذه الرسائل قد سطرت قبل قرنين من الزمان، فإن مدلولها صالحٌ لكل زمان، ومما جاء في رسائله: (... أقول ولله الحمد والمنة وبه القوة: إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً مسلماً، وما كان من المشركين. ولست - ولله الحمد - أدعو إلى مذهب صوفي أو فقيه، أو متكلم، أو إمام من الأئمة الذين أعظمهم، مثل: ابن القيم والذهبي، وابن كثير، وغيرهم، بل أدعو إلى الله وحده لا شريك له، وأدعو إلى سنة رسول الله التي أوصى بها أول أمته وآخرهم. وأرجو أني لا أرد الحق إذا أتاني، بل أشهد الله وملائكته وجميع خلقه إن أتانا منكم - المرسل إليه - كلمة من الحق لأقبلنها على

---

(١) محمد بن عبدالوهاب، أحمد عبدالغفور عطار، ١٢٥، دار العلم للملايين، الطبعة الثالثة، ١٣٨٧هـ.
(٢) تاريخ نجد، حسين بن غنام، ٢/ ٢٥.

الرأس والعين، ولأضربن الجدار بكل ما خالفها من أقوال أئمتي حاشا رسول الله فإنه لا يقول إلا الحق)[1].

ويكفي في الرد على مزاعم صحيفة (القبلة) وغيرها، - بأن أتباع دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب من مُعتقدي العقائد الفاسدة - قول الشيخ عبدالرحمن بن حسن بن محمد بن عبدالوهاب، في بعض مسائل الصفات: (قوله ﷺ: [فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ][2]، قال الشيخ: نص في أنه تعالى فوق جميع المخلوقات، وهو الذي ورد عن الصحابة والتابعين من المفسرين وغيرهم في معنى (الرحمن على العرش استوى) أن معنى (استوى): استقر وارتفع وعلا، كلها بمعنى واحد، لا ينكر هذا إلا جهمي زنديق يحكم على الله وعلى أسمائه وصفاته بالتعطيل، (قاتلهم الله أنى يؤفكون)، والنصوص الدالة على إثبات الصفات كثيرة جداً..، والجهمية جحدوا هذه النصوص وعاندوا في التكذيب فصاروا بذلك كفاراً عند أكثر أهل السنة والجماعة..، وأهل السنة والجماعة عرفوا ربهم بما تعرف به إليهم من صفات كماله اللائقة بجلال الله، فأثبتوا له تعالى ما أثبته لنفسه وأثبته له رسوله إثباتاً بلا تمثيل، وتنزيهاً بلا تعطيل، وعرفوه بأفعاله وعجائب مخلوقاته، وبما أظهره لهم من عظيم قدرته، وبما أسبغه عليهم من عظيم نعمه[3].

ثانياً: نقد منهج الدعوة بإزالة الشركيات من واقع المسلمين:

يصف حسين بن غنام حال عصره قبيل دعوة الإمام محمد بن عبدالوهاب، فيقول: (كان أكثر المسلمين - في مطلع القرن الثاني عشر الهجري - قد ارتكسوا في الشرك، وارتدوا إلى الجاهلية، وانطفأ في نفوسهم نور الهدى..، فعدلوا إلى عبادة

---

(١) تاريخ نجد، حسين بن غنام، ٢/ ١١، مطابع الشرق الأوسط، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، بَاب مَا يَقُولُ عِنْدَ النَّوْمِ، رقم الحديث (٤٨٨٨).

(٣) الجامع الفريد، الرسالة الثانية، الجواب عن أسئلة في الاسم والقضاء والقدر والاستواء، ٣٤٢.

الأولياء والصالحين؛ أمواتهم وأحيائهم، يستغيثون بهم، في النوازل والحوادث، ويستعينونهم على قضاء الحاجات وتفريج الشدائد(١)، واستمر يعرض أنواع وأسماء القباب والأضرحة المنتشرة في واقع المسلمين.

ومن أبرز آثار الإصلاح العقائدي الذي قام به الإمام محمد بن عبدالوهاب إزالة هذه القباب والأضرحة، مقتدياً بما أمر به النبي ﷺ علياً، فعَنْ أَبِي الْهَيَّاجِ الأَسَدِيِّ قَالَ: قَالَ لِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: أَلا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: [أَنْ لا تَدَعَ تِمْثَالًا إِلا طَمَسْتَهُ، وَلا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلا سَوَّيْتَهُ](٢).

وليس الغرض من إيراد موضوع البناء والقباب على القبور بيان حكمها ومناقشة أقوال المبتدعة فيها، وإنما القصد بيان موقف الجمعيات القومية العربية من مبادئ دعوة الإمام محمد بن عبدالوهاب وأتباعه.

فمن منطلق الحفاظ على الآثار، ورغبة في إبقاء معالم الوثنية، يؤكد أعضاء الجمعيات القومية العربية على أن المدنية الصحيحة هي: شيوع الوسائل الروحية كالعلوم والفلسفة والدين والأخلاق الفاضلة والوطنية الصادقة، وشيوع الوسائل الرفيعة كالفنون والآداب الرفيعة من تصوير ونحت وعمارة وموسيقى وشعر ونثر، والشعب لا يكون متمدناً إلا إذا فشت وتكاملت فيه هذه المقومات كلها.

ولهذا اعتبر ميشيل عفلق - الحضارات القديمة للشرق الأدنى من (التاريخ العربي الطويل)، ويؤكد عفلق أن الأمة العربية اليوم هي وريثة حضارة غنية، وممتدة في التاريخ. وقد امتزجت هذه الحضارة بمختلف الحضارات المصرية والآشورية

---

(١) تاريخ نجد، حسين بن غنام، ١/ ١٠، ١٩.
(٢) صحيح مسلم، كتاب، بَاب الأَمْرِ بِتَسْوِيَةِ الْقَبْرِ، رقم الحديث (١٦٠٩).

والبابلية والفينيقية، وتمكنت من استيعابها[١].

ويذكر مصطفى الشهابي - أحد مؤسسي الجمعيات القومية - ما كان عليه بعض مدن العرب كبلاد اليمن مثلاً، فيقول: «فيها من محافل وقصور وهياكل، وكذلك في الصفا شرقي حوران، وفي الحِجْر (مدائن صالح) شمال المدينة، وفي بصرى في حوران.

وقال الشهابي: **وما برح علماء الآثار حتى يومنا هذا يكشفون النقاب عن تماثيل رائعة دقيقة النحت** في مدافن تدمر الأثرية.. كالشارع الذي كان ينصف المدينة وعلى كل جانب من جانبيه نحو ٣٧٥ عموداً يحمل كل منها تمثال رجل من رجالاتها المشهورين، **ثم تلك القبور التي شبهت القصور بضخامة بنيانها** وجلاء رخامها وزخرف تماثيلها»[٢].

فمن منطلق تعظيم الآثار والحفاظ على ما تحتويه من قبور وقباب وغير ذلك، فقد انتقد أعضاء الجمعيات القومية محمد بن عبدالوهاب وأتباع دعوته عليه رحمة الله تعالى، في إزالة القباب والأضرحة، فقد ذكر أحمد عبدالغفور عطار أن محمد حسين هيكل باشا انتقد عمل النجديين (الوهابية) في الحجاز، كهدمهم القبور في جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة في ليلة ١٧/ ٩/ ١٣٥٥هـ[٣].

ويقول محمد حسين هيكل: «..لقد كان بين هذه القباب التي هدمت آثار بارعة في الفن لم يكن يجمل بيد تقدر الفن أن تمتد إليها بسوء»[٤].

---

(١) حزب البعث العربي الاشتراكي، مصطفى دندشلي، ٧٠.
(٢) القومية العربية تاريخها وقوامها ومراميها، مصطفى الشهابي، ٣١٩ - ٣٢٢.
(٣) محمد بن عبدالوهاب، أحمد عبدالغفور عطار، ١٤.
(٤) في منزل الوحي، ١٣.

ويسأل هيكل: «ترى أيبقى البقيع كما هو اليوم مسواة قبوره بالأرض لا يقوم على قبره منها قبة ولا يقام للعظماء والصحابة المدفونين به أثر يذكرونه به؟ لعلك تحسب الأمر يبقى كذلك ما بقي الوهابيون بالحجاز.

وقد يكون في التاريخ ما يرجح ظنك فقد غزا الوهابيون الحجاز في أوائل القرن التاسع عشر المسيحي فحطموا قباب البقيع كما حطموا غيرها من القباب بمكة والمدينة وغيرها من بلاد الحجاز..، أرجو ألا يظل هذا البقيع وليس به أثر يذكر به أصحابه، ويذكر به أعلامه من دفنوا طي صحائفه.

وعلل محمد حسين هيكل الدعوة إلى بناء وإقامة الأضرحة على القبور، بأنها من أجل ذكرى ومُعْتَبَر للأجيال في تعاقبها حثاً لأبنائها على أن يجدوا في السابقين الأولين الأسوة والمثل. وإنا إذ ندخل (البانتيون) في باريس، أو كنيسة (وستمنستر) في لندن، أو أياً غير هذين من مدافن العظماء لا تجول بخاطرنا عبادتهم، ولا يدور بخلدنا تقديسهم، إنما يدفعنا ذكرهم إلى الوقوف على أخبارهم وما خلفوا من أثر جليل وعمل صالح»[1].

إن هذه الدعوة التي ينادي بها محمد حسين هيكل مع ما فيها من مخالفة أمر النبي ﷺ في البناء على القبور، في قوله ﷺ: [قَاتَلَ اللَّهُ الْيَهُودَ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ][2]. وجاء في حديث أيضاً: ولما نَزَلَ بِرَسُولِ ﷺ طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا عَنْ وَجْهِهِ فَقَالَ وَهُوَ كَذَلِكَ: [لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسْجِدًا. قَالَتْ - عائشة -: وَلَوْلا ذَلِكَ لأَبْرَزُوا قَبْرَهُ غَيْرَ أَنِّي

---

(١) في منزل الوحي، ٥٢٥، ٥٢٦.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الصلاة، بَاب الصَّلاةِ فِي الْبِيعَةِ، رقم الحديث (٤١٨).

أَخْشَى أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا][1]. وقال ﷺ: [لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ؛ يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا][2].

إن دعوة هيكل إلى البناء على القبور قباباً، ووضع معالم عليها من أجل التذكر بأمجاد السابقين والفاتحين، كانت هي بعينها سبب الوقوع في الشرك الأكبر وعبادة القبور في الأمم السابقة، فعَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ أُمَّ حَبِيبَةَ وَأُمَّ سَلَمَةَ ذَكَرَتَا كَنِيسَةً رَأَيْنَهَا بِالْحَبَشَةِ فِيهَا تَصَاوِيرُ، فَذَكَرَتَا لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: [إِنَّ أُولَئِكَ إِذَا كَانَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فَمَاتَ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ، فَأُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ][3].

وكانت هذه العلة هي السبب في دخول الشرك إلى البشرية، ففي قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾[4] بيان أن هذه أصنام عند العرب عُبدت من دون الله تعالى، وكان من أسباب عبادتها ما أوضحه ابن عباس رضي الله عنه في قوله: «هذه أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمِ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا فَلَمْ تُعْبَدْ حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ»[5].

فمن أجل حماية جناب التوحيد، وخشية الوقوع في الشرك مما وقعت فيه الأمم السابقة أجمع العلماء على النهي عن البناء على القبور وتحريمه ووجوب هدمه، للأحاديث الصحيحة الصريحة التي لا مطعن فيها بوجه من الوجوه[6].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، بَاب مَا يُكْرَهُ مِنِ اتِّخَاذِ الْمَسَاجِدِ عَلَى الْقُبُورِ، رقم الحديث (١٢٤٤).
(٢) المصدر السابق، كتاب الصلاة، بَاب الصَّلاةِ فِي الْبِيعَةِ، رقم الحديث (٤١٧).
(٣) مصدر نفسه، بَاب هَلْ تُنْبَشُ قُبُورُ مُشْرِكِي الْجَاهِلِيَّةِ وَيُتَّخَذُ مَكَانُهَا مَسَاجِدَ؟ رقم الحديث (٤٠٩).
(٤) سورة نوح، آية رقم (٢٣).
(٥) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، بَاب: (وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ)، رقم الأثر (٤٥٣٩).
(٦) تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد، سليمان بن عبدالوهاب، ٣٣٢.

وقرر السلف أن الدعوة إلى بناء القباب على القبور، هي من بدع الفرق الباطنية كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (لم يكن في العصور المفضلة «مشاهد» على القبور، وإنما ظهر ذلك وكثر في دولة بني بويه، لما ظهرت القرامطة بأرض المشرق والمغرب وكان بها زنادقة كفار، مقصدهم تبديل دين الإسلام، وكان في بني بويه من الموافقة لهم على بعض ذلك)(١).

وأما السلف الصالح فقد كانوا مهتدين بهدي الرسول ﷺ، فسدوا أبواب الشرك، ولم ينظروا إلى شبهة بناء القباب وإحياء الآثار بحجة أنها تقام (ذكراً ومعتبراً للأجيال في تعاقبها حثاً لأبنائها على أن يجدوا في السابقين الأولين الأسوة والمثل) كما قال محمد حسين هيكل، وهذه أمثلة ذلك من أفعالهم وأقوالهم:

١) ما حدّث به طَارِق بْن عَبْدِالرَّحْمَنِ عن الشجرة التي بايع النبي ﷺ الصحابة تحتها وتسمى بيعة الرضوان، وقال الله فيهم: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾(٢). وقال الرسول ﷺ في فضل من بايع: [أَنْتُمْ خَيْرُ أَهْلِ الأَرْضِ](٣). قال عبدالرحمن: (انْطَلَقْتُ حَاجًا فَمَرَرْتُ بِقَوْمٍ يُصَلُّونَ، قُلْتُ: «مَا هَذَا الْمَسْجِدُ»؟ قَالُوا: هَذِهِ الشَّجَرَةُ حَيْثُ بَايَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ، فَأَتَيْتُ سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيَّبِ فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ سَعِيدٌ: حَدَّثَنِي أَبِي أَنَّهُ كَانَ فِيمَنْ بَايَعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَحْتَ الشَّجَرَةِ..)(٤) ولظهور هذه الفتنة في تلك البقعة أمر عمر بن الخطاب

---

(١) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ٢٧/ ١٦٧.

(٢) سورة الفتح، آية رقم (١٨)

(٣) صحيح البخاري، كتاب المغازي، بَاب غَزْوَةِ الْحُدَيْبِيَةِ، رقم الحديث (٣٨٣٩). وانظر في أسباب بيعة الرضوان، سيرة ابن هشام، ٣/ ٣٦٣.

(٤) صحيح البخاري، كتاب المغازي، بَاب غَزْوَةِ الْحُدَيْبِيَةِ، رقم الأثر (٣٨٤٥).

رضي الله عنه بقطعها[١].

٢) وعَنْ أَبِي الْهَيَّاجِ الأَسَدِيِّ قَالَ: قَالَ لِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه: «أَلا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: [أَنْ لا تَدَعَ تِمْثَالاً إِلا طَمَسْتَهُ، وَلا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلا سَوَّيْتَهُ][٢].

٣) ورَأَى ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنه فُسْطَاطًا عَلَى قَبْرِ عَبْدِالرَّحْمَنِ - بن أبي بكر - فَقَالَ: «انْزَعْهُ يَا غُلامُ فَإِنَّمَا يُظِلُّهُ عَمَلُهُ»[٣].

٤) وعن المعرور بن سويد قال: «خرجنا مع عمر رضي الله عنه في حجة حجها، فقرأ بنا في الفجر: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ و﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ فلما قضى حجه والناس يبتدرون، فقال: ما هذا؟ فقيل له: مسجد صلى فيه رسول الله ﷺ، فقال: هكذا هلك أهل الكتاب، اتخذوا قبور أنبيائهم بيعاً، من عرضت له منكم الصلاة فليصل، ومن لم تعرض له فيها الصلاة فلا يصل»[٤].

٥) وأَوْصَى أَبُو مُوسَى رضي الله عنه حِينَ حَضَرَهُ الْمَوْتُ فَقَالَ: «إِذَا انْطَلَقْتُمْ بِجِنَازَتِي فَأَسْرِعُوا الْمَشْيَ وَلا يَتَّبِعْنِي مُجَمَّرٌ، وَلا تَجْعَلُوا فِي لَحْدِي شَيْئًا يَحُولُ بَيْنِي وَبَيْنَ التُّرَابِ، وَلا تَجْعَلُوا عَلَى قَبْرِي بِنَاءً..، قَالُوا: أَوَسَمِعْتَ فِيهِ شَيْئًا؟ قَالَ: نَعَمْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»[٥].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف، ٢/ ٣٧٦. وقال ابن حجر: إسناده صحيح. انظر: فتح الباري، ٧/ ٥١٣.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الجنائز، بَاب الأَمْرِ بِتَسْوِيَةِ الْقَبْرِ، رقم الحديث (١٦٠٩).

(٣) أخرجه البخاري تعليقاً، كتاب الجنائز، باب الجريد على القبر، وأوصله ابن حجر في تغليق التعليق، ٢/ ٤٩٣.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف، ٢/ ٣٧٦.وقال الألباني:سنده صحيح على شرط الشيخين.انظر: تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد، الألباني، ١٣٧، المكتب الإسلامي، الطبعة الرابعة، ١٤٠٢هـ

(٥) مسند الإمام أحمد، ٤/ ٣٩٧، برقم (١٨٧٢٦).وقال الألباني: وإسناده قوي، تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد، ١٣٥.

٦) وعن محمد بن كعب قال: «هذه الفساطيط التي على القبور محدثة»[(١)].

٧) ولَقِيَ أَبُو بَصْرَةَ الْغِفَارِيُّ أَبَا هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، وَهُوَ جَاءٍ مِنَ الطُّورِ، فَقَالَ: مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ؟ قَالَ: مِنَ الطُّورِ صَلَّيْتُ فِيهِ. قَالَ: «أَمَا لَوْ أَدْرَكْتُكَ قَبْلَ أَنْ تَرْحَلَ إِلَيْهِ مَا رَحَلْتَ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: [لا تُشَدُّ الرِّحَالُ إلا إِلَى ثَلاثَةِ مَسَاجِدَ: الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِي هَذَا، وَالْمَسْجِدِ الأَقْصَى][(٢)].

فهذه الآثار الواردة عن السلف كافية في الرد على أعضاء الجمعيات حينما أنكروا على الإمام محمد بن عبدالوهاب وأتباعه هدم القباب التي على القبور.

والملاحظ في واقع كثير من بلاد المسلمين كثرة الأضرحة وتشييد المباني على القبور، على الرغم من النصوص الشرعية التي أوردت طرفاً منها، وتنهى أشد النهي عن بناء المساجد على القبور، وعن الصلاة فيها، وعلى الرغم من تعيين قبر النبي ﷺ في ذلك النهي، إلا أن الخلوف من المسلمين لم يرعوا لهذه النصوص حرمة فيقفوا عند حدودها[(٣)].

وقال الشوكاني: «فلا شك ولا ريب أن السبب الأعظم الذي نشأ منه هذا الاعتقاد في الأموات هو ما زينه الشيطان للناس من رفع القبور، ووضع الستور عليها، وتجصيصها وتزيينها بأبلغ زينة، وتحسينها بأكمل تحسين، فإن الجاهل إذا وقعت عينه على قبر من القبور قد بنيت عليه قبة فدخلها ونظر على القبور الستور الرائعة، والسرج المتلألئة، وقد سطعت حوله مجامر الطيب، فلا شك ولا ريب أن يمتلئ قلبه تعظيماً لذلك القبر، ويضيق ذهنه عن تصور ما لهذا الميت من المنزلة، ويدخله من الروعة

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف، ٣/ ٣٣٦.
(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل، ٣/ ٥٣.
(٣) الانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين، علي الزهراني، ٢٧٤.

والمهابة ما يزرع في قلبه من العقائد الشيطانية التي هي من أعظم مكائد الشيطان للمسلمين حتى يطلب من صاحب ذلك القبر ما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى، فيصير في عداد المشركين»[1].

ويحدث الشيخ الألباني عن واقع بعض المسلمين فيقول: «لقد صار بعضهم يتقرب إلى الله تبارك وتعالى بذلك - البناء على القبور - فترى كثيراً من محبي الخير وعمارة المساجد منهم من ينفق أموالاً طائلة ليقيم لله مسجداً، لكنه يعد فيه قبراً، يوصي أن يدفن فيه بعد موته..، ومن المؤسف لكل مؤمن حقاً أن كثيراً من المساجد في البلاد السورية وغيرها لا تخلو من وجود قبر أو أكثر فيها»[2].

ثالثاً: اعتبار الدعوة (الوهابية) حركة سياسية ذات مطمع مادي:

تعتبر دعوة الإمام محمد بن عبدالوهاب دعوة إصلاحية على السنة المحمدية، و(حررت العقل من أسر التقليد وغل العادات، وعملت على إطلاق العقل وتنشيط الفكر، وتحرير الإنسان من العبودية لغير الله سبحانه وتعالى)[3].

وكما واجهت دعوة الرسل المعاندين والمعارضين لدعوتهم كما في قوله تعالى: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[4].

---

(١) شرح الصدور بتحريم رفع القبور، محمد بن علي الشوكاني، ١٧، السنة المحمدية، مصر.

(٢) تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد، الألباني، ٧ - ٨.

(٣) ندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر، ٣، ٦/ ٦/ ١٤٠٥هـ، مكتب التربية العربي لدول الخليج ص:٣٠٧، بحث بعنوان: حركة التجديد والإصلاح في نجد، قدمه الشيخ: محمد بن عبدالله العجلان.

(٤) سورة هود، رقم الآيات (٥٤ - ٥٦).

فقد واجهت دعوة الإمام الصادين والمعارضين للمبادئ الإصلاحية التي جاء بها الإمام محمد بن عبدالوهاب، فوقعت وقائع بين أتباع الدعوة والمعارضين، فيها مدافعة عن الحق وإزهاق للباطل.

وهذا الأمر مقرر في عقيدة كل مسلم، فكان أتباع الدعوة الإصلاحية، يقولون: «إن السلامة من ألسنة الناس غاية لا تدرك، فعليك بما يصلحك عند الله ودع الناس»، فإذا كان رسول الله تُكُلِّم فيه ونسب إلى الجور والظلم، حينما بدأ الناس يَسْأَلُونَهُ من أموال حنين: (..حَتَّى اضْطَرُّوهُ إِلَى سَمُرَةٍ فَخَطِفَتْ رِدَاءَهُ، فَوَقَفَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: [أَعْطُونِي رِدَائِي لَوْ كَانَ لِي عَدَدُ هَذِهِ الْعِضَاهِ نَعَمًا لَقَسَمْتُهُ بَيْنَكُمْ ثُمَّ لا تَجِدُونِي بَخِيلاً وَلا كَذُوبًا وَلا جَبَانًا][1]، وهو رسول رب العالمين، وأعظم الخلق عدلًا وأمانة، ومع هذا قيل فيه ما قيل، فكيف يطمع العاقل في السلامة من الناس[2].

وقد قال الشيخ سليمان بن سحمان: «لا غرو من هذا ولا بدع، فإن الناس من أهل الريب والالتباس كانوا من أمر الشيخ وحاله في اختباط وتخليط من حقيقة ما كان عليه الشيخ على قدر أغراضهم وشهواتهم وإراداتهم الباطلة، فرموه بالأمور العظيمة، من الأقوال الشنيعة الذميمة، وعادوه وآذوه»[3].

وإن الشيخ محمد بن عبدالوهاب في حال دعوته إلى دين الله ورسوله ﷺ، لم يقاتل الناس ابتداء، بل مكث برهة من الزمان يدعو الناس إلى إفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة، وترك عبادة ما سواه من الأولياء والصالحين والأحجار والأشجار والطواغيت، ويخبرهم أن التقرب والاعتقاد في الأولياء والصالحين هو محض حق

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، بَاب الشَّجَاعَةِ فِي الْحَرْبِ وَالْجُبْنِ، رقم الحديث (٢٦٠٩).
(٢) مختصر سيرة الرسول ﷺ عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب، ٣٧٦.
(٣))كشف غياهب الظلام عن أوهام جلاء الأوهام، سليمان بن سحمان، ٨، مطابع الرياض، الطبعة الثانية، ١٣٧٦هـ.

الله تعالى، لا يصلح منه شيء لغير الله، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل فضلاً عن غيرهما، فلما تبين بهذا واشتهر أمره بالدعوة إلى دين الله ورسوله ﷺ، واستنكف أعداء الله من ذلك واستكبروا عن قبول دعوته فآذوه وعادوه وأخرجوه من بلدة العيينة، ثم هاجر إلى الدرعية، فآووه وواسوه، وقاموا بنصرته والجهاد معه لما أنكر عليه أهل نجد وغيرهم من الطوائف ما دعاهم إليه، فشمروا له عن ساق العداوات وبدؤوه بالقتال.. فحينئذ قاتلهم مدافعة لهم لما بغوا عليه وظلموه[١].

وقد استغل أعضاء الجمعيات القومية العربية هذه الحروب، وما قام به الإمام محمد ابن عبدالوهاب وأتباعه من هدم القباب وتسوية القبور بالأرض، تنفيذاً لأمر الرسول ﷺ[٢]، فقالوا عن الدعوة (الوهابية): «إنها امتزجت بالمطامح السياسية وجعلت ابن السعود الكبير حامي هذه الحركة يزحف على بلاد الحجاز لتوطيد سلطان عربي جديد في القسم الشمالي من جزيرة العرب»[٣].

وقال محمد كرد علي عن تاريخ دعوة الإمام محمد بن عبدالوهاب وأتباعه: «من طالع هذا التاريخ - تاريخ ابن غنام - وعرف حال الشيخ محمد بن عبدالوهاب لا يلبث أن يقع في ذهنه أن كل تاريخ هذه الطائفة قتل، وقتال وقيل وقال»[٤].

وعند حديث أمين الريحاني عن دعوة الإمام محمد بن عبدالوهاب، قال: «كان أتباع ابن عبدالوهاب يدعون أنفسهم بالمسلمين وأعداءهم بالمشركين»[٥]. فكل من عادى الدعوة كان مشركاً في نظر أمين الريحاني النصراني - الذي قال عنه أعضاء

(١) المصدر السابق، ٣٠. وانظر عن هذه الحروب كتاب تاريخ نجد، ١/ ٨٩.

(٢) انظر: تاريخ نجد، ابن غنام، ٢/ ١٠٧.

(٣) حول الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ١/ ١٩.

(٤) القديم والحديث، محمد كرد علي، ١٧٢، الطبعة الأولى، ١٣٤٣هـ، المطبعة الرحمانية، مصر.

(٥) نجد وملحقاته، أمين الريحاني، ٤٤.

الجمعيات: داعية من دعاة تحرير الفكر من الضغط الديني والسياسي، ومن أكبر دعاة الوحدة العربية وهو عضو في الجمعيات العلمية -[1].

وأثناء الحرب القائمة بين أتباع الدعوة الوهابية وبين حكومة الأشراف في الحجاز، وصفت جريدة القبلة - القومية - هذه الحروب بأنها من فظائع الوهابية، وهي ترمي إلى سفك الدماء ونشر الخوف والرعب بين الأهالي[2].

لقد وسمت صحيفة القبلة آثار الحرب بأنها من مبادئ وفظائع الوهابية، وقالت الصحيفة: «إن الوهابيين لا ينشدون من حركاتهم افتتاح البلاد التي يغزونها ولا إخضاع سكانها، وإنما يقصدون السلب والنهب والفوز بالغنائم، ولا يفكرون بما دون ذلك»[3].

وقال محمد حسين هيكل: «النجديون الحاكمون يتبعون مذهب ابن عبدالوهاب، وهو مذهب أحمد بن حنبل، وهم يتبعونه في شدة وغلو كانا أوضح أثراً أول تسلطهم على الحجاز في سنة ١٩٢٦م»[4].

وبمثل هذا الرأي قال الريحاني عن الإمام محمد بن عبدالوهاب: «إن الشيخ في رجوعه إلى الكتاب والسنة اصطدم بآيات وأحاديث نبهت فيه نعرة الأقدمين، فحرض على الأعمال التي شوهت في الماضي كل دين. على أن الإصلاح في بادئ أمره لا يكون بغير الهدم، ولا يقوم بغير شيء من الإرهاب»[5].

---

(١) مصادر الدراسات الأدبية، أسعد داغر، ٢/ ٣٩١، المكتبة الشرقية، بيروت، لبنان، ١٩٨٣م.
(٢) جريدة القبلة، السنة التاسعة، العدد ٨٢٣، بتاريخ ٢٥/ ٢/ ١٣٤٣هـ.
(٣) جريدة القبلة، السنة التاسعة، العدد ٨١٧، بتاريخ ٤/ ٢/ ١٣٤٣هـ. وانظر: العدد ٨١٨، بتاريخ ٨/ ٢/ ١٣٤٣هـ.
(٤) في منزل الوحي، محمد حسين هيكل، ١٣٠.
(٥) نجد وملحقاته، أمين الريحاني، ٥٢.

ويذكر محمد فريد وجدي: «أن مما يؤخذ على (الوهابية) غلوّ بعضهم في أصولهم فقد عدوا رفع القباب على القبور، وإيقاد السرج عليها وإدخالها في المسجد من البدع، ويقرر وجدي: أن (الوهابية) قد غالوا في محو القبور حيث محوها بشيءٍ من الحماس»[1].

كما انتُقِد على دعوة الإمام محمد بن عبدالوهاب مسألة هدم القباب وتسوية ما ارتفع من القبر، بأن تطبيق هذا المبدأ لا ضرر منه، أيام كانوا - الوهابية - قابعين في الصحراء لا يتجاوزونها، ولكن وقد اختلطوا بغيرهم فإن الأمر يكون خطيراً[2].

واعتبر أعضاء الجمعيات أن دعوة محمد بن عبدالوهاب دعوة إلى الجمود وعدم النظر في العلوم الحديثة ومتطلبات العصر، كما قال جميل الزهاوي: «لما رأى ابن عبدالوهاب أن قاطني بلاد نجد بعيدون عن عالم الحضارة، لم يزالوا على البساطة والسذاجة في الفطرة، قد ساد عليهم الجهل حتى لم يبق للعلوم العقلية عندهم مكانة ولا رواج، ووجد هنالك من قلوبهم ما هو صالح لأن يزرع فيه بذور الفساد»[3].

وما نسبه أعضاء الجمعيات القومية العربية إلى دعوة الإمام لا يخص من عاصر أحداث الحركة الإصلاحية فحسب وإنما يعم جميع من تبنى دعوة الإمام، لذا قال أمين الريحاني عن أتباع الإمام: «لا يزالون حتى اليوم محافظين على هذا الإرث الثمين، إلا أنه ينقصهم شيء من المرونة العقلية والروحية، يعادون عبثاً سنة التطور والعمران»[4].

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين، فريد وجدي، ١٠/ ٨٦٩، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٩٧١م.

(٢) تاريخ المذاهب الإسلامية، محمد أبو زهرة، ٢١٠، ٢١١، دار الفكر العربي.

(٣) الضياء الشارق في رد شبهات الماذق المارق، سليمان بن سحمان، ١٥٢، دار البحوث العلمية والإفتاء، الطبعة الخامسة، ١٤١٤هـ.

(٤) نجد وملحقاته، أمين الريحاني، ٤٢، منشورات الفاخرية، الرياض، الطبعة الخامسة، ١٩٨١م.

ويؤكد جرجي زيدان في كتابه (مصر الحديثة) على أن الوهابيين قد ذهبوا إلى إغفال الكتب الدينية الإسلامية إلا القرآن(١).

وقد سطر الإمام محمد بن عبدالوهاب في إحدى رسائله المنهج التربوي، المعتمد على كتاب الله وسنة رسوله في مسألة إنكار المنكر، حيث قام بتوجيه أحد أتباع الدعوة الإصلاحية بطريقة إنكار المنكر والواجب فعله في ذلك، فمما قال: (الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يحتاج إلى ثلاث، أن يعرف ما يأمر به وينهى عنه، ويكون رفيقاً فيما يأمر به وينهى عنه، صابراً على ما جاءه من الأذى، ويجب الحرص على فهم هذا والعمل به، فإن الخلل إنما يدخل على صاحب الدين من قلة العمل بهذا أو قلة فهمه. ويذكر العلماء أن إنكار المنكر إذا صار يحصل بسببه افتراق لم يجز إنكاره. فالله الله في العمل بما ذكرت لكم، والتفقه فيه، فإنكم إن لم تفعلوا صار إنكاركم مضرة على الدين، والمسلم ما يسعى إلا في صلاح دينه ودنياه»(٢).

ودلائل الشدة والغلو التي ذكرها أعضاء الجمعيات القومية العربية عن دعوة الإمام محمد وأتباعه، هي إزالة القباب والبناء على القبور، كما ذكر ذلك الشيخ سليمان بن سحمان عن أعمال جيش أتباع دعوة الإمام محمد عبدالوهاب في مدينة الطائف، أن الجيش هدم ما فيها من القباب المبنية على القبور المعبودة من دون الله، ومن أعظمها القبة التي بنيت على قبر عبدالله بن عباس(٣).

وممن عاصر أحداث تطهير معالم الشرك على يدي أتباع الدعوة السلفية في بلاد الحجاز، الشيخ سعد بن عتيق، الذي كتب عن هذه الحادثة رسالة(٤) قال فيها: (لا

(١) مصر الحديثة، جرجي زيدان،

(٢) تاريخ نجد، حسين بن غنام، ٢/ ٢٠٧.

(٣) تتمة سليمان بن سحمان على تاريخ نجد، محمود شكري الآلوسي، ١٣١، الطبعة الثالثة، ١٤١٥هـ

(٤) أرسل الشيخ سعد بن عتيق رسالة إلى الملك عبدالعزيز يذكر فيها فضل الله على ما أنعم الله عليهم. انظر: مجموعة رسائل الشيخ سعد بن عتيق، ٧٥ - ٧٦.

يخفى أن ما من الله به من فتح الحرم الشريف وما حصل به من إعلاء كلمة الإسلام، وخذلان أهل الشرك وعباد الأوثان والأصنام وهدم مشاهد الشرك والطغيان واللات، وما أحدثه أهل الضلال من القباب والمقامات والبنايا التي على القبور، أنه من أكبر النعم عليكم وعلى المسلمين..، وإن هدم هذه المشاهد واستئصالها ومحوها وعدم إبقاء شيء منها من أعظم الحسنات، وإن تَرْكها أو تَرْك شيء منها والإعراض عن التحريض على محوها وإعدامها من أعظم السيئات من القادر على ذلك)[١].

ويصف الشيخ محمد بن عثمان الشاوي الأعمال القبورية في مكة المكرمة حين دخلها مع أتباع هذه الدعوة السلفية سنة ١٣٤٣هـ، وما فعلوه من هدم قباب الشرك، يقول رحمه الله: (وبعد أن فرغنا من أعمال العمرة، وبادرنا إلى هدم القباب، وجدنا في القبة المبنية على قبر أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها ما لا تستطاع حكايته، من ذلك أنا وجدنا رقاعاً مكتوباً فيها: «يا خديجة يا أم المؤمنين جئناك زائرين، وعلى بابك واقفين، فلا تردينا خائبين فاشفعي لنا إلى محمد يشفع لنا إلى جبرائيل، ويشفع لنا جبرائيل إلى الله». ووجدنا عند باب القبة عجوزاً شوهاء من سدنتها، ولقد حدثني غير واحد أنهم سألوها: ما حالك؟ فقالت: «هي خادمة لسيدتها المتصرفة في الكون منذ عدة سنين، ولا تصوم ولا تصلي، ومع ذلك يتمسح بها الزوار. وعند القبة من الشمع والسرج والآلات ما لا يحصى، وعندها من أنواع الطيب ما لم نجد مثله عند البيت الحرام والحجر الأسود، وأمثال هذا كثير معلوم، فلهذا استعنا بالله تعالى على إزالة تلك القباب)[٢].

---

(١) مجموعة رسائل الشيخ سعد بن عتيق، ٧٥ - ٧٦.

(٢) القول الأسد في الرد على الخصم الألد، محمد بن عثمان الشاوي، مخطوط بجامعة الملك سعود، رقم ٣٤٢١.

وحالُ واقع ساكني المدينة النبوية، ليس أحسن حالاً من أهالي مكة المكرمة، حيث يصف أهالي المدينة واقع الناس عند قبور أصحاب النبي ﷺ حيث يجتمع الزوار مع أهالي المدينة في الصعود إلى ضريح سيد الشهداء حمزة بن عبدالمطلب، وكانت الحكومة التركية تحتفل به رسمياً، فيخرج فوج من الجنود بالموسيقا وأفراد الشرطة، وتطلق الصواريخ وتقام الولائم والموالد والأذكار والسمر بالليل، وتوفى النذور عند القبور، ويمتلئ قبر سيد الشهداء بالشموع والدراهم من ذهب وفضة يأخذها سادن التربة[١].

وبعد دخول جيوش أتباع الدعوة السلفية إلى مكة المكرمة، تم عقد لقاء بين علماء أتباع دعوة الإمام محمد بن عبدالوهاب وبين علماء الحجاز[٢] من أجل التباحث في مسائل حصل فيها لبسٌ تجاه دعوة الإمام محمد بن عبدالوهاب، ومما جاء في البيان الذي صدر من علماء الحجاز، ما يلي: جرى بيننا وبين المذكورين والمحترمين مباحث فعرضوا علينا عقيدة أهل نجد، وعرضنا عليهم عقيدتنا، فحصل الاجتماع بيننا وبينهم بعد البحث والمراجعة في مسائل أصولية منها:

١) إن من أقر بالشهادتين وعمل بأركان الإسلام الخمسة، ثم أتى بمكفر - ينقض إسلامه - قولي أو فعلي أو اعتقادي أنه يكون كافراً بذلك يستتاب ثلاثاً فإن تاب وإلا قتل.

---

(١) مجلة المنهل، الجزء السابع، مجلد ٢٧، السنة ٣٢، لعام ١٣٨٦هـ، ص:٧٦٤.

(٢) ذكر في البيان أسماء علماء نجد، ومنهم: الشيخ عبدالرحمن بن عبداللطيف، والشيخ عبدالله بن حسن، والشيخ عبدالوهاب بن مزاحم، والشيخ عبدالرحمن بن محمد بن داود، والشيخ محمد بن عثمان الشاوي، والشيخ مبارك بن عبدالمحسن بن باز. وممن ذكر من أسماء علماء الحجاز: محمد حبيب الله الشنقيطي، والشيخ عمر باجنيد أبي بكر، والشيخ درويش عجيمي، والشيخ محمد مرزوقي، والشيخ أحمد بن علي.. إلخ.

٢) من جعل بينه وبين الله وسائط من خلقه يدعوهم ويرجوهم في جلب نفع أو دفع ضر أو يقربونه إلى الله زلفى، أنه كافر يحل دمه وماله، ومن طلب الشفاعة من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله أن ذلك شرك، فإن الشفاعة ملك لله ولا تطلب إلا منه، ولا يشفع أحد إلا بإذنه كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾، وهو لا يأذن إلا فيمن يرضى قوله وعمله كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ وهو لا يرضى إلا التوحيد.

٣) تحريم البناء على القبور وإسراجها وتحري الصلاة عندها، أن ذلك بدعة محرمة في الشريعة.

٤) إن من سأل الله بجاه أحد من خلقه فهو مبتدع مرتكب حراماً، ولا يجوز الحلف بغير الله لا الكعبة ولا الأمانة ولا النبي ولا غير ذلك لقول النبي ﷺ: [مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ](١).

فهذه المسائل كلها لما وقعت المباحثة فيها حصل الاتفاق بيننا وبين المذكورين، ولم يحصل خلاف في شيء، فاتفقت بذلك العقيدة بيننا معاشر علماء الحرم الشريف وبين إخواننا علماء أهل نجد، نسأل الله أن يوفق الجميع لما يحبه ويرضاه(٢).

قال ابن القيم عن الفوائد والعبر من قدوم أهل الطائف إلى الرسول ﷺ وإسلامهم، ثم سؤالهم بأن يدع لهم الطاغية وهي اللات لا يهدمها ثلاث سنين، فأبى رسول الله عليهم، قال ابن القيم: «لا يجوز إبقاء مواضع الشرك والطواغيت بعد القدرة على هدمها وإبطالها يوماً واحداً، فإنها شعائر الكفر والشرك، وهي أعظم المنكرات، فلا

---

(١) سنن أبي داود، كتاب الأيمان والنذور، بَاب فِي كَرَاهِيَةِ الْحَلْفِ بِالآبَاءِ، رقم الحديث (٢٨٢٩). وانظر مسند الإمام أحمد، ٢/ ١٢٥.

(٢) صحيفة أم القرى، ٢٩/ ٥/ ١٣٤٣هـ، ص: ٤.

يجوز الإقرار عليها مع القدرة البتة، وهذا حكم المشاهد التي بنيت على القبور التي اتخذت أوثاناً وطواغيت تعبد من دون الله»[(١)].

وأما عن الحروب فقد أوضح الإمام محمد بن عبدالوهاب في رسائله أن الحروب كانت لإقرار الحق وإبطال الباطل، ومدافعة عن دعوة التوحيد وأهله، ومما قاله في رسائله: وأما القتال فلم نقاتل أحداً إلى اليوم إلا دون النفس والحرمة، وهم الذين أتونا في ديارنا، ولا أبقوا ممكناً، ولكن قد نقاتل بعضهم على سبيل المقابلة: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾[(٢)]، وكذلك من جاهر بسب دين الرسول بعد ما عرفه[(٣)].

وأما عن قضية التكفير التي وصف بها أعضاء الجمعيات القومية العربية الإمام محمد بن عبدالوهاب، فقد دافع الإمام عن منهجه وبيّن أن هذا بهتان عظيم، وأنه لا يقول بتكفير الجاهل الذي لم تقم عليه الحجة. ونص على أن الذي يشيع هذا القول عنه إنما يريد به تنفير الناس عن دين الله ورسوله ﷺ[(٤)].

كما فند الشيخ عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب تلك الفرية، بقوله: «وأما ما يكذب علينا ستراً للحق، وتلبيساً على الخلق، - بأننا نكفر الناس على الإطلاق -، أهل زماننا، ومن بعد الستمائة، إلا من هو على ما نحن فيه، ومن فروع ذلك أن لا نقبل بيعة أحد إلا بعد التقرر عليه بأنه كان مشركاً، وأن أبويه ماتا على الشرك بالله.. فلا وجه لذلك فجميع هذه الخرافات وأشباهها، لمّا استفهمنا عنهما ممن ذكر أولاً، كان جوابنا في كل مسألة من ذلك ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾، فمن روى عنا شيئاً من ذلك أو نسبه إلينا فقد كذب علينا وافترى، ومن شاهد حالنا وحضر مجالسنا وتحقق ما عندنا

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد، ٣/ ٥٠٦. وانظر عن قدوم أهل الطائف: سيرة ابن هشام، ٤/ ١٩٤.
(٢) سورة الشورى، رقم الآية (٤٠).
(٣) تاريخ نجد، ابن غنام، ٢/ ١٥٨.
(٤) الدرر السنية في الأجوبة النجدية، ١٠/ ١١٣، الطبعة الخامسة، ١٤١٦هـ.

علم قطعياً أن جميع ذلك وضعه علينا وافتراه أعداء الدين وإخوان الشياطين، تنفيراً للناس عن الإذعان بإخلاص التوحيد لله تعالى بالعبادة وترك أنواع الشرك الذي نص عليه بأن الله لا يغفره، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، فإنا نعتقد أن من فعل أنواعاً من الكبائر كقتل المسلم بغير حق، والزنا، وشرب الخمر، وتكرر ذلك منه، أنه لا يخرج بفعله ذلك من دائرة الإسلام، ولا يخلد به في دار الانتقام، إذا مات موحداً بجميع أنواع العبادة[١].

ومما تقدم عرضه عن موقف الجمعيات القومية العربية من دعوة الإمام محمد بن عبدالوهاب، يمكن الخلوص إلى ما يلي:

أولاً) إن الجمعيات القومية العربية، قد رددت شُبه علماء الضلال التي أثيرت ضد دعوة الإمام محمد بن عبدالوهاب.

ثانياً) اعتبار دعوة الإمام محمد بن عبدالوهاب مناقضة لحرية الفكر وإبداء الرأي، بناء على ما كان يقال: (إن مخالف الإمام كافر ويجب قتاله).

ثالثاً) تصنيف دعوة الإمام محمد بن عبدالوهاب بأنها مذهبٌ مُحْدثٌ.

رابعاً) إثارة الشُّبه والقدح في دعوة الإمام محمد بن عبدالوهاب، رغبة في صد المسلمين من الاستماع للدعوة.

---

(١) الهدية السنية والتحفة الوهابية النجدية، سليمان بن سحمان، ٤٠، مطبعة المنار، مصر، الطبعة الثانية، ١٣٤٤هـ.

الباب الرابع:

موقف العلماء المعاصرين من الجمعيات القومية العربية

ويحتوي على:

» المبحث الأول: دور العلماء في بيان الدين ومحاربة البدع.

» المبحث الثاني: موقف العلماء المعاصرين للجمعيات القومية العربية.



المبحث الأول: دور العلماء في بيان الدين ومحاربة البدع

وردت نصوص في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ تبين واجب العالم تُجاه تعليم الأمة، والرد على أهل البدع، ليتعلم الجاهل، ويكشف عن حقيقة المنافق.

ومن هذه النصوص قوله تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[1]، والربانيون كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: «هم العلماء العمال أرباب الولايات عليهم، والأحبار هم العلماء. ففي هذه الآية يحذر المولى أن يسلك ورثة الأنبياء مسلك علماء الأمم السابقة بتركهم توجيه الناس والتحذير من الوقوع في غضب الله تعالى. وما في القرآن آية أشد توبيخاً من هذه الآية: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾. وخطب علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: (أيها الناس إنما هلك من كان قبلكم بركوبهم المعاصي، ولم ينههم الربانيون والأحبار، فلما تمادوا في المعاصي؛ أخذتهم العقوبات، فَمُروا بالمعروف وانْهوْا عن المنكر قبل أن ينزل بكم مثل الذي نزل بهم واعلموا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقطع رزقاً ولا يقرب أجلاً)[2].

وقال ابن عباس: رضي الله عنه عن قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ

---

(١) سورة المائدة، رقم الآية (٦٣).

(٢) تفسير ابن كثير، ٣/ ١٣٦. وانظر: تفسير الطبري، ٦/ ٢٩٨.

تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾[1]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ في قوله تعالى: ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ أي حُلَمَاءَ فُقَهَاءَ. وَيُقَالُ: الرَّبَّانِيُّ الَّذِي يُرَبِّي النَّاسَ بِصِغَارِ الْعِلْمِ قَبْلَ كِبَارِهِ[2].

ويروي ابن مسعود رضي الله عنه الحديث الذي يبين فيه دور أتباع الرسل من القيام بواجب البيان والرد، فيقول: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: [مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي، إلا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ؛ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لا يُؤْمَرُونَ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ][3].

وعن دور علماء السلف قال ابن بطة: إن الله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه قد جعل في كل زمان فترة من الرسل، ودروساً للأثر.. لا يُخْلي كلَّ زمان من بقايا من أهل العلم وحملة الحجة، يدعون من ضل إلى الهدى، ويذودونهم عن الردى، يصبرون منهم على الأذى، ويحيون بكتاب الله الموتى، ويبصرون بعون الله أهل العمى، وبسنة رسول الله أهل الجهالة والغبا[4].

وثبت في سير أعلام أمة محمد أن من قام بواجب النصح والرد على أهل البدع والضلال، فهو من ورثة الأنبياء، وحيث إنه قد بعث الله في كل أمة من الأمم رسولاً

---

(١) سورة آل عمران، رقم الآية (٧٩).

(٢) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب العلم قبل القول والعمل.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، بَاب بَيَانِ كَوْنِ النَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ مِنَ الإِيمَان، رقم الحديث (٧١). ومعنى كلمة خُلوف: بضم الخاء وهو جمع بإسكان اللام وهو الخالف بشر. وأما بفتح اللام فهو الخالف بخير. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم، ٢/ ٢٨، وتهذيب اللغة، الأزهري، ٧/ ٣٩٣، ٤١٦.

(٤) الإبانة عن شريعة الفرق الناجية ومجانبة الفرق المذمومة، ابن بطة، ١/ ١٩٧.

يبشرهم ويحذرهم، فكذلك لم تخلُ أمة محمد ﷺ في أي عصر من عصورها إلا وقد ظهر فيها من يبين العقيدة الصحيحة ويرد على أهل الباطل، ويدحض الشبه الفاسدة.

ومن أوائل أولئك أصحابُ رسول الله ﷺ، وكان من هديه ﷺ أنه يرسلهم ليقوموا بواجب التعليم، فقد أرسل معاذاً إلى اليمن وقال له: [إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللَّهِ، فَإِذَا عَرَفُوا اللَّهَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا فَعَلُوا؛ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِذَا أَطَاعُوا بِهَا فَخُذْ مِنْهُمْ وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ][1].

وقَالَ الصحابي مَالِكُ بن الحويرث رضي الله عنه: أَتَيْنَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَنَحْنُ شَبَبَةٌ مُتَقَارِبُونَ، فَأَقَمْنَا عِنْدَهُ عِشْرِينَ يَوْمًا وَلَيْلَةً، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَحِيمًا رَفِيقًا، فَلَمَّا ظَنَّ أَنَّا قَدِ اشْتَهَيْنَا أَهْلَنَا، أَوْ قَدِ اشْتَقْنَا، سَأَلَنَا عَمَّنْ تَرَكْنَا بَعْدَنَا فَأَخْبَرْنَاهُ قَالَ: [ارْجِعُوا إِلَى أَهْلِيكُمْ فَأَقِيمُوا فِيهِمْ وَعَلِّمُوهُمْ وَمُرُوهُمْ، وَذَكَرَ أَشْيَاءَ أَحْفَظُهَا أَوْ لا أَحْفَظُهَا][2].

ويوصي عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأن يقوم العلماء بواجب بيان العقيدة والرد على أهل البدع، كما قال: (إِنَّهُ سَيَأْتِي نَاسٌ يُجَادِلُونَكُمْ بِشُبُهَاتِ الْقُرْآنِ فَخُذُوهُمْ بِالسُّنَنِ، فَإِنَّ أَصْحَابَ السُّنَنِ أَعْلَمُ بِكِتَابِ اللَّهِ)[3].

وبمثل هذا النهج السديد في البيان والتعليم فعل الصحابي الجليل عبدالله بن عمر، فقد حدث التابعي يَحْيَى بْنُ يَعْمَرَ، قَالَ: كَانَ أَوَّلَ مَنْ قَالَ فِي الْقَدَرِ بِالْبَصْرَةِ مَعْبَدٌ الْجُهَنِيُّ، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَحُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحِمْيَرِيُّ، حَاجَّيْنِ أَوْ مُعْتَمِرَيْنِ، فَقُلْنَا:

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الزكاة، بَاب لا تُؤْخَذُ كَرَائِمُ أَمْوَالِ النَّاسِ فِي الصَّدَقَةِ، رقم الحديث (١٣٦٥).

(٢) المصدر السابق، كتاب الأذان، بَاب الأَذَانِ لِلْمُسَافِرِ إِذَا كَانُوا جَمَاعَةً، رقم الحديث (٥٩٥).

(٣) سنن الدارمي، المقدمة، رقم الحديث (١١٩). وانظر الأثر في: الشريعة، الآجري، ١/ ٤٨. وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، اللالكائي، ١/ ١٢٣ برقم (٢٠٢).

«لَوْ لَقِينَا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَسَأَلْنَاهُ عَمَّا يَقُولُ هَؤُلاءِ فِي الْقَدَرِ». فَوُفِّقَ لَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ دَاخِلاً الْمَسْجِدَ.. فَقُلْتُ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ: إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قِبَلَنَا نَاسٌ يَقْرَؤونَ الْقُرْآنَ وَيَتَقَفَّرُونَ الْعِلْمَ، - وَذَكَرَ مِنْ شَأْنِهِمْ -، وَأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنْ لا قَدَرَ، وَأَنَّ الأَمْرَ أُنُفٌ. قَالَ: (فَإِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ وَأَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّي، وَالَّذِي يَحْلِفُ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ لَوْ أَنَّ لأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فَأَنْفَقَهُ مَا قَبِلَ اللَّهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ..)[(١)].

وحينما خرجت الخوارج وانحازت عن مجموع الأمة، قام ابن عباس في بيان شبهة الخوارج والرد عليها، ومن آثار دور ابن عباس أن رَجَعَ مِنْهُمْ أَرْبَعَةُ آلافٍ كُلُّهُمْ تَائِبٌ[(٢)].

ومما أُثر عن التابعين في مسألة الرد على أهل البدع، قول الفضيل بن عياض: «كيف بك إذا بقيت إلى زمان شاهدت فيه ناساً لا يفرقون بين الحق والباطل، ولا بين المؤمن والكافر، ولا بين الأمين والخائن، ولا بين الجاهل والعالم، ولا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً»[(٣)].

وينص علماء السلف على: «أن من مذهب أهل السنة والجماعة مجانبة أهل الأهواء والضلالة، وهجرهم ومباينتهم»[(٤)]، وأنهم: «يبغضون أهل البدع الذين أحدثوا في الدين ما ليس منه، ولا يحبونهم ولا يصحبونهم، ولا يسمعون كلامهم ولا يجالسونهم. واتفقوا على القول بقهر أهل البدع وإذلالهم وإخزائهم وإبعادهم

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، بَاب بَيَانِ الإِيمَانِ وَالإِسْلامِ، رقم الحديث (٩).

(٢) مسند الإمام أحمد، ١/ ٨٦، ٨٧. وتاريخ الطبري، ٥/ ٦٧٨، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

(٣) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة، ابن بطة، ١/ ١٨٨.

(٤) الحجة في بيان المحجة، ٢/ ٥٢٨.

وإقصائهم والتباعد منهم ومن مصاحبتهم ومعاشرتهم، والتقرب إلى الله عز وجل بمجانبتهم ومهاجرتهم»[١].

كما أكد علماء السلف على وجوب البراءة من كل من خالف الكتاب والسنة ظاهراً أو باطناً، وبيان الأهواء المختلفة، والآراء المتفرقة، والمذاهب الرديئة، مع اعتقاد ضلالة معتقديها والبراءة منهم[٢].

قال ابن عبدالبر على كلام الإمام مالك: والجماعة على ما قال مالك، إلا أن يضطر أحد إلى الكلام فلا يسعه السكوت إذا طمع برد الباطل وصرف صاحبه عن مذهبه، أو خشي ضلال عامة أو نحو هذا[٣].

ويستمر علماء السلف قرناً من بعد قرن مبينين للناس أمر دينهم، ويردون على من أراد الابتداع في الدين. وقد خَلَّفَ السلفُ للأمة آثاراً علمية معتمدة في حجتها وبيانها على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، سواء كان في بيان العقيدة والتعليم، أو الرد على أهل البدع ودحض شبه المارقين، ومن هذه الآثار العلمية:

١) كتاب الإيمان - لأبي عبيد القاسم بن سلام.

٢) الرد على الزنادقة والجهمية - لأحمد بن حنبل.

٣) الرد على الجهمية - لعثمان بن سعيد الدارمي.

٤) الرد على بشر المريسي - لعثمان بن سعيد الدارمي.

٥) كتاب التوحيد - لابن خزيمة.

---

(١) عقيدة السلف أصحاب الحديث، عبدالرحمن الصابوني، ١٠٠و١١٢.

(٢) انظر: شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي، ٢/ ٢٨٤.

(٣) جامع بيان العلم وفضله، ابن عبدالبر، ٢/ ٩٣٨، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

٦) السنة - أحمد بن هارون الخلال.

٧) الإبانة عن شريعة الفرق الناجية ومجانبة الفرق المذمومة - ابن بطة.

٨) منهاج السنة النبوية في الرد على الشيعة والقدرية - ابن تيمية.

٩) الصواعق المنزلة على الطائفة الجهمية والمعطلة - ابن القيم.

وهذه الكتب تركز على قضية هامة هي: العودة بالأمة إلى الاتصال المباشر بالكتاب والسنة واتباع السلف الصالح في فهمهما، واجتناب ما جد من الآراء المحدثة والمذاهب المنكرة[١].

---

(١) مدخل كتاب شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للدكتور أحمد سعد حمدان، ١/ ٥١.

المبحث الثاني: موقف العلماء المعاصرين للجمعيات القومية العربية

كان لعلماء المسلمين في القرن الرابع عشر الهجري، - وهو القرن الذي أسست فيه الجمعيات القومية العربية - مواقفُ من المناهج والأفكار التي تناقلها أعضاء الجمعيات في عصر عصفت فيه الأفكار الإلحادية، واستعمرت البلاد الإسلامية، وتمكنت القوانين والنظم الصليبية، وفيه اشتد الغزو العقدي على الأمة الإسلامية، وكان أن انقسم العلماء تجاه ذلك الواقع الأليم بحسب تأثر العالم بما حل بالأمة الإسلامية وبمقدار تأثيره في مجريات الأمور، ويمكن حصر هذه الأقسام بما يلي:

١. علماء المصالح والطرق الصوفية[١]:

لقد ابتلت الأمة الإسلامية في القرن الرابع عشر بطائفة من العلماء تلبسوا بالعلم الشرعي، وحفظوا المتون الشرعية والقواعد الكلية لهذا الدين، ولكن جنحوا لمن بيدهم السلطة والأمر من الظلمة، يقررون ما يملونه عليهم، ويتبعونهم في أهوائهم، وقد وقع هذا الصنف فيما حذر منه الرسول ﷺ بقوله: [سَتَكُونُ أُمَرَاءُ فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ، فَمَنْ عَرَفَ بَرِئَ، وَمَنْ أَنْكَرَ سَلِمَ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ؛ قَالُوا: أَفَلا نُقَاتِلُهُمْ؟ قَالَ: لا، مَا صَلَّوْا][٢].

---

(١) إن البحث في أصل الفرقة، وبيان مبادئها، وكيفية ظهورها، في المجتمع الإسلامي يخرج عن نطاق موضوع الرسالة، لذا أقتصر هنا على الحديث عن موقف بعض علماء الصوفية في معالجة انحراف الأمة الإسلامية.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، بَاب وُجُوبِ الإِنْكَارِ عَلَى الأُمَرَاءِ فِيمَا يُخَالِفُ الشَّرْعَ، رقم الحديث (٣٤٤٥).

والذي أريده بالقول - في مقدمة هذا القسم - العلماء الذين كانت لهم مكانة في الأمة، واحتلوا مناصب قيادية لمكانتهم العلمية، ولم يؤدوا في الوقت نفسه رسالة العلم التي هي التعليم والإنكار على من بغى وظلم.

إن دخول العالم الرباني على السلطان الجائر بدون إنكار وأمر بمعروف ونهي عن منكر قد يوقعه دخوله في الفتنة، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: [مَنْ سَكَنَ الْبَادِيَةَ جَفَا، وَمَنِ اتَّبَعَ الصَّيْدَ غَفَلَ، وَمَنْ أَتَى أَبْوَابَ السُّلْطَانِ افْتَتَنَ][1].

وقال حذيفة رضي الله عنه: (إياكم ومواقف الفتن. قيل: وما مواقف الفتن يا أبا عبدالله؟ قال: أبواب الأمراء، يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب، ويقول له ما ليس فيه)[2]. وتناقل السلف هذه النصوص محذرين ومنذرين من مجاراة السلطان على ظلمه، ومداهنته على بغيه[3].

وعالم هذه منزلته لا يهتم إلا برغباته الشخصية، فهو يعيش لمطالب ذاته، وينظر فيما يرضي المخلوق دون الخالق رضوا بالفانية على الباقية، وغرهم المتاع الزائف، الذي تقدمه لهم السلطةُ الظالمة، سواء أكانت سلطة مستعمر أم سلطة مستغرب، وهذا الصنف من العلماء لا يُرجى منه إنكار مبادئ وأسس الجمعيات القومية العربية، لأنها توافق مبادئ الدول المستعمرة - صاحبة النعمة عليه -.

---

(١) سنن الترمذي، كتاب الفتن، بَاب مَا جَاءَ فِي النَّهْيِ عَنْ سَبِّ الرِّيَاحِ، رقم الحديث (٢١٨٢). وقال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ. وانظر: مسند الإمام أحمد، ١/ ٣٥٧. وسنن أبي داود، كتاب الصيد، بَاب فِي اتِّبَاعِ الصَّيْدِ، رقم الحديث (٢٤٧٦). وسنن النسائي، كتاب الصيد والذبائح، اتِّبَاعُ الصَّيْدِ، رقم الحديث (٤٢٣٥).

(٢) مصنف عبدالرزاق، ١١/ ٣١٦ - ٣١٧.

(٣) انظر: جامع بيان العلم وفضله، ابن عبدالبر، ١/ ٦٣١، ٦٧٨.

يصف الشيخ أحمد شاكر موقف علماء هذا القسم، فيقول: لقد ذل المسلمون لأعدائهم من اليهود والنصارى، فزادوا في التشبه بهم قليلاً قليلاً، ثم وجد من أهل العلم فيهم - من المسلمين - ومن أهل الرأي من حاول أن يدافع عن الإسلام أسوأ دفاع، فصاروا يتقربون شيئاً فشيئاً لسادتهم، بتأويل القرآن والسنة، وتحريف معانيهما، ليقاربوا بين شريعتهم المطهرة، وشرائع تلك الأمم الضالة المغضوب عليها، بل ليقاربوا شريعتنا ونصوصنا الصريحة إلى عقائد الملحدين الوثنيين من أهل أوربة وأمريكا، فكان في علمائنا وكتابنا من ضرب على المسلمين قوانين أوربة الوثنية المجرمة الملعونة، ثم استباحوا أكثر المحرمات، يصرحون بإباحتها من غير حياء ولا غيرة.

ثم صاروا ينبزون الشرائع الإسلامية والأخلاق الكريمة التي هدانا الله إليها ورسوله - بالتقاليد وبالرجعية، لينفروا الناس منها[1].

لقد وقف علماء المصالح مواقف التأييد للمبادئ القومية، فمن ذلك محمد عبده الذي قيل عنه: (إنه زعزع الأزهر عن جموده على الدين، فقرب كثيراً من الأزهريين إلى اللادينيين خطوات، ولم يقرب اللادينيين إلى الدين خطوة، وهو الذي شجع قاسم أمين على ترويج السفور في مصر)[2].

وعن أثر جهود محمد عبده وما قدمه من أعمال للمبادئ القومية، يقول صديقه الحميم (كرومر) في تقريره السنوي عن عام ١٩٠٥م: (الأيام وحدها، هي التي ستكشف عما إذا كانت الآراء التي تعتنقها المدرسة التي تزعمها الشيخ محمد عبده، سوف تستطيع التسرب إلى المجتمع الإسلامي، فلا ريب أن مستقبل الإصلاح الإسلامي، في صورته الصحيحة المبشرة بالآمال، يكمن في ذلك الطريق الذي رسمه

---

(١) عمدة التفسير، ابن كثير، تحقيق أحمد شاكر، ١/ ٢٢٧.

(٢) موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، مصطفى صبري، ١/ ١٣٣، ١٣٤.

الشيخ محمد عبده، وأن أتباعه ليستحقون أن يعاونوا بكل ما هو مستطاع من عطف الأوربي وتشجيعه)[1].

وقد وجد أتباع محمد عبده العناية الفائقة من العطف الأوربي متجلياً باستقبال أعضاء المؤتمر الأول لأعضاء الجمعيات القومية في باريس، وتأييد ثورة الحسين بن علي، وبإرسال لورانس العقل المدبر في ثورة العرب.. إلخ.

كما يعتبر طاهر الجزائري بمواقفه من المبادئ القومية من أمثلة علماء هذا القسم، كما ظهر في رسالته إلى المستشرقة أمينة سر حاكم العراق التابع للحكومة البريطانية، قال فيها: (الناس الذين على فكري - من جهة توافق مصلحة الأمة العربية مع مصلحة الدولة البريطانية العظمى - كثيرون إلا أنهم لا يقدرون على إظهار فكرهم إلا بعد أن يروا باعثاً على إظهاره، لئلا ينسب إليهم أنهم خائنون للأمة، فإن هذه الجملة راعت الناس كثيراً، وهي جملة اتخذها الشرقي لإرهاب غيره، سواء كان هو مخلصاً في نفسه أو غير مخلص.. وإني أوصيكم ببعض البلاد التي لا أسميها خيراً، فإن فيها كثيراً من الرجال المهمين، الذين يعرفون قدر النعمة ويشكرونها، ولكنهم غلبوا على أمرهم، لأنهم لم يُعرفوا في وقت الرخاء، حتى يُنتفع بهم وبرأيهم في وقت الشدة، والبحث يجلو كل شيء، فينبغي الانتباه لذلك في الحال والمستقبل، وقد آن الأوان لمعرفتهم، وهذا لا يكون إلا تدريجاً، فليبادر إلى ذلك)[2].

وأما عن علماء الطرق الصوفية فإنه من المقرر في معتقدات التصوف أن مكانة الشيخ عندهم هو الإله، وقد قال منظر الصوفية ابن عربي:

---

(١) الإسلام والحضارة الغربية، محمد محمد حسين، ٧٧، ٧٨.

(٢) كنوز الأجداد، محمد كرد علي، ٤٥، ٤٨. قال كرد علي يقصد بالبلاد: الغالب أنه يقصد الديار الشامية.

ما حرمة الشيخ إلا حرمة الله
فقم بها أدباً لله بالله[1].

فالشيخ هو الأساس في الطريقة الصوفية، وما تفرقت الطرق إلا اتباعاً لشيخ، ولمكانته سميت الطرق بأسماء مشايخها ومؤسسيها.

ولما يمتاز به الشيخ - عند الصوفية - من مكانة فإنه لم يستغلها في توجيه أتباعه لمكافحة ومنازلة الأفكار الملحدة، بل على النقيض من هذا فقد قبع علماء الصوفية في الزوايا والأربطة، ونازلت أناملهم المسابح والسجاجيد. وعكفوا يتصفحون ويطالعون شركيات ابن عربي في كتابه الفتوحات المكية، كما صنع الأمير عبدالقادر الجزائري، القائل: «إني أعتبر منظمة البنائين الأحرار (الماسونية) كأول مؤسسة في العالم، وفي رأيي أن كل رجل لا يجاهر بالعقيدة البنائية (الماسونية) يعد رجلاً ناقصاً، وأؤمل يوماً أن أرى فيه انتشار مبادئ الفرنسماسونية في العالم، ويومئذ فإن كل الشعوب ستعيش في سلام وأخوة»[2]؛ فكان مع قوله هذا يتصفح مع جلة من علماء الشام كتاب الفتوحات المكية[3] لابن عربي.

وقد صرحت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين عن الموقف السلبي لشيوخ الطرق الصوفية في مكافحة الفكر الوافد، وإصلاح ما فسد من واقع المسلمين، حيث يقول التصريح عن دور شيوخ الصوفية: (أصبحت مقاليد أمور العامة والدهماء - وهم معظم الأمة المحمدية - في أيديهم، انظر في أي سبيل صرفوها، إنهم بعد أن أفسدوا فطرتها وأماتوا ما غرسه الإسلام من فضيلة، وفككوا كل ما حكم بينها من روابط أخوة،

---

(١) الفتوحات المكية، ابن عربي، الباب ١٨١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٣٩٤هـ.
(٢) الأمير عبدالقادر الجزائري في السنوات الأولى من إقامته بدمشق، عبدالجليل التميمي، ٤٥٣، جامعة دمشق، كلية الآداب، مطبعة الطرابيشي، ١٩٧٩م.
(٣) الرحلة الحجازية، محمد لبيب السنوسي، ٣/ ٢٠٠، الشركة التونسية، ١٤٠١هـ.

وراضوها على الذل والمهانة والخضوع وسدوا عليها منافذ النور فاستقامت لهم على ذلك، فرقوها فرقاً وقسموها إلى مناطق نفوذ يتزاحمون على استغلالها واستعمارها وأغروا بينها العداوة والتضريب والبغضاء)[١].

وفي تاريخ علماء الصوفية يلاحظ فضلاً عن سلبيتهم في الإصلاح، أنهم كانوا أداة إفساد في واقع الأمة، وذكرت الوثائق الفرنسية عن أرباب الطرق الصوفية بأنهم كانوا يهدفون في البداية إلى تجميع الأتباع حول رجل زاهد ولكن سرعان ما تحول هذا الهدف إلى التشبه بالديانات الأخرى كالجماعات التي يقدس فيها راهب معين (شيخ طريقة أو مرابط) والذي حل محل عبادة الله الواحد[٢].

ومن أمثلة الخذلان لدى علماء الطريقة الصوفية مضمون الخطبة التي ألقاها زعيم الطائفة التيجانية عن موقف الطائفة من الاستعمار الصليبي للبلاد الإسلامية، حيث يقول: (إن من الواجب علينا إعانة حبيبة قلوبنا فرنسا مادياً وأدبياً وسياسياً، ولهذا فإني أقول لا على سبيل المن والافتخار ولكن على سبيل الاحتساب والتشرف بالقيام بالواجب: إن أجدادي قد أحسنوا صنعاً في انضمامهم إلى فرنسا قبل أن تصل إلى بلادنا، وقبل أن تحتل جيوشها الكريمة ديارنا)[٣].

ومعلوم مما ورد في تاريخ وأهداف الجمعيات القومية العربية أن أبرز من أنشأ الجمعيات القومية العربية في الأمة الإسلامية هم النصارى العرب، وكذلك حاملو الشهادات الفرنسية والفكر الفرنسي.

---

(١) جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية، مازن مطبقاني، ١٣٨، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

(٢) Centre d'information et d'etudes no. 82:note sur Ie biock des organizations musuimanes de Tiemcen. Oran ie 12 juin 1936 (9h46) نقلاً عن كتاب: (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ١٤٠).

(٣) مجلة الأزهر، محرم ١٣٧٧هـ، الموافق يوليو ١٩٥٧م، المجلد ٢٩، ص: ٧ - ٨.

٢. علماء منعزلون عن واقع الأمة:

وقد ابتليت الأمة بعلماء ماتت فيهم روح العقيدة الصحيحة، وانطفأت لديهم جذوة عقيدة التوحيد، ورضوا بالطقوس والأذكار البدعية من علماء التصوف وأصحاب المصالح، فقد ابتليت الأمة - فضلاً عن ذلك - بعلماء فيهم صلاح وخير، فلم يتلبسوا بلباس الطقوس الصوفية، ولكنَّ هؤلاء العلماء الصالحين رضوا بالعزلة عن الواقع، وأحجموا عن الخوض في بيان انحرافات الأمة، والرد على المنحرفين، وأصبح خيرهم قاصراً غير مُتَعّدٍ.

انتقد شيخ الإسلام في عصره الشيخ مصطفى صبري[١]، أصحاب هذا القسم إذ يقول منكراً عليهم اعتزالهم عن واقع الأمة ومبيناً الأضرار الناتجة عن ذلك الاعتزال: (الذين جردوا الدين في ديارنا عن السياسة كانوا هم وإخوانهم لا يرون الاشتغال بالسياسة لعلماء الدين، بحجة أنه لا ينبغي لهم وينقص من كرامتهم، ومرادهم حكر السياسة وحصرها لأنفسهم، ومخادعة العلماء بتنزيلهم منزلة العجزة، فيقبلون أيديهم ويخيلونهم بذلك أنهم محترمون عندهم، ثم يفعلون ما يشاؤون بدين الناس ودنياهم محررين عن احتمال أن يجيء إليهم من العلماء أمرٌ بمعروف أو نهيٌ عن منكرٍ إلا ما يعد من فضول اللسان أو يكمن في القلب، وذلك أضعف الإيمان)[٢].

---

(١) نشرت جريدة أخبار اليوم بعددها الصادر بتاريخ ١٣/ ٣/ ١٩٥٤م، نبأ وفاة الشيخ مصطفى صبري، ومما قالت عنه: «لم تحل غربته دون مواصلة الجهاد في سبيل الإسلام، فكتب المقالات الفياضة في بيان أحكامه الصحيحة وتفنيد المزاعم المضادة له، وألف الكتب الخالدة في مختلف نواحيه، وكان له أكبر الأثر في إيقاف تيار التحلل والفساد والإباحية والإلحاد، وترك من خلفه تلامذة مخلصين، قد استمدوا منه القوة في العقيدة، والجرأة في الحق».

(٢) النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة، مصطفى صبري، ٨٠.

واستدل الشيخ مصطفى صبري بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾(١)، قال الشيخ عن دلالة هذه الآية: «في الآية عظة للعلماء المعتزلين والمحايدين، ودلالة على أن جهادهم إنذار قومهم»(٢).

وهذا الموقف السلبي من العلماء، انتقده أيضاً الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، حينما بيّن مكانة العالم في الأمة ووظيفته، قال الشيخ: (لا توجد في الإسلام وظيفة أشرف قدراً، وأسمى منزلة، وأرحب أفقاً، وأثقل تبعة، وأوثق عهداً، وأعظم أجراً عند الله، من وظيفة العالم الديني، ذلك لأنه وارث لمقام النبوة وآخذ بأهم تكاليفها، وهو الدعوة إلى الله، وتوجيه خلقه إليه وتزكيتهم وتعليمهم، وترويضهم على الحق حتى يفهموه ويقبلوه، ثم يعملوا به ويعملوا له. فالعالم بمفهومه الديني في الإسلام قائد، ميدانه النفوس، وسلاحه الكتاب والسنة وتفسيرهما العملي من فعل النبي ﷺ وفعل أصحابه، وعونه الأكبر على الانتصار في هذا الميدان أن ينسى نفسه ويذوب في المعاني السامية التي جاء بها الإسلام، وأن يطرح حظوظها من الاعتبار، وأن يكون حظه من ميراث النبوة أن يزكي ويعلم، وأن يقول الحق بلسانه ويحققه بجوارحه، وأن ينصره إذا خذله الناس، وأن يجاهد في سبيله بكل ما آتاه الله من قوة(٣).

إن قول العالم له تأثير في نفوس الأمة، والحاجة ماسة إلى الاسترشاد بقوله، فقد وقفت هذه الطائفة من العلماء الصالحين موقف الانزواء والإحجام، ومعالجة الانحرافات التي صدرت من أعضاء الجمعيات القومية، مع أن مبادئ الجمعيات القومية ظاهرة البطلان والتحلل من الدين.

---

(١) سورة التوبة، رقم الآية (١٢٢).

(٢) النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة، مصطفى صبري، ٨٨.

(٣) مجلة المنهل، المجلد ١٣، ١٣٧٢هـ، ص: ٢، بعنوان: وظيفة علماء الدين.

تم لقاء صحفي مع شيخ جامع الأزهر، وكان مما قال فيه: (لقد رأيت الكثيرين من إخواني خدمة العلم في منصب المشيخة، فوجدتهم أبعد الناس عن الاشتغال بالسياسة، أشدهم فراراً من مظاهر الدنيا الباطلة، كانوا ينقطعون لخدمة العلم ويجلسون للتدريس كسائر العلماء لا يميزهم إلا فضلهم الباهر، وذكرهم العاطر).

وينتقد شيخ جامع الأزهر فعل بعض علماء عصره بقوله: (إن من العلماء من ينزل وهو في موقف الخدمة للعلم الشريف إلى دلالة الطلبة على جريدة فلان ليقرؤوها، أو مجلة فلان ليتصفحوها، ومثل هذا في تاريخ الأزهر من قبل ما سمعت ولا رأيت)[1].

بمثل هذا الموقف السلبي في معاجلة انحراف الأمة والانطواء على الذات من ورثة الأنبياء، أصبح الميدان مفتوحاً أمام أصحاب المدارس المنحرفة قومية كانت أم اشتراكية أم ماسونية، صاغهم الاستعمار والغزو الفكري، فأخذوا يطالبون بحقوق الجماهير، يطالبون أن تكون (الأمة مصدر السلطات)، وأن يكون للحاكم حدود يلتزم بها ولا يتجاوزها، وأن يكون هناك (دستور) يحدد اختصاص كل من السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية والسلطة القضائية، (وبرلمان) يجمع (ممثلي الأمة) ويكون له وحده حق إصدار القرار.

وينادون في الوقت ذاته (بالإصلاح) في كل المجالات: في مجال التعليم، في مجال الاقتصاد، في مجال الخدمات الصحية، في مجال المرافق العامة، وينادون بإزالة التخلف الذي وقعت فيه الأمة في كل ميدان، التخلف العلمي والحضاري والفكري والمادي.

وباختصار يقومون بمهمة (القيادة) التي تقاعس عنها علماء الدين، بالإضافة إلى عنصر آخر - يفتقده علماء الدين في ذلك الوقت - هو اطلاعهم على أحوال العالم

(١) تاريخ الأستاذ الإمام، محمد رشيد رضا، ١/ ٥٠٣، مطبعة المنار، القاهرة.

الحاضرة، وإلمامهم بثقافة العصر، وتمرسهم ببعض الخبرات العملية على الأقل في بعض المجالات[1].

٣. العلماء العاملون الصالحون:

هم الذين لهم مواقف مشرفة تجاه الجمعيات القومية، ولعل من أهم ما يفيد الباحث ويساعده على التقويم الصحيح لآراء ومبادئ الجمعيات، مواقف أولئك العلماء المعاصرين للجمعيات القومية، ولكن للأسف بعد البحث تبين لي ندرة تلك المواقف الحاسمة والفتاوى القاطعة بشأن مبادئ الجمعيات.

وذلك لفشو تيار القوميات وتعاونهم فيما بينهم على إسقاط كل من يعارضهم غالباً، ولقيام دول تتبنى هذه المذاهب وكثير من الناس يسايرهم أو يغض الطرف عنهم رغبة أو رهبة.

ولكن الحق لا يضيع بالكلية كما قال رسول الله ﷺ: [لا يَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ][2]، وقال البخاري: (وَهُمْ أَهْلُ الْعِلْمِ)[3]. فقد أبقى الله العلماء رغم قلتهم وكانوا شوكة في حلوق القوميين كما سيتضح في ثنايا البحث.

لقد وقف العلماء الربانيون - على قلتهم - في القرن الرابع عشر الهجري أمام الأفكار، وزاحموا القيادات المنحرفة، وهذا الصنف من العلماء الصالحين ممن قال

---

(١) واقعنا المعاصر، محمد قطب، ٣٢٩.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، بَاب قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ يُقَاتِلُونَ، رقم الحديث (٦٧٦٧).

(٣) المصدر السابق، بَاب قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ يُقَاتِلُونَ وَهُمْ أَهْلُ الْعِلْمِ.

فيهم الرسول ﷺ: [مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا] - الحديث -[1].

ففي هذا الحديث شبه الرسول ﷺ السامعين له بالأرض المختلفة التي ينزل بها الغيث، فمنهم العالم العامل المعلم، فهو بمنزلة الأرض الطيبة شربت فانتفعت في نفسها وأنبتت فنفعت غيرها..[2].

نهض علماء ربانيون بمهمة الدعوة والمنافحة عن الدين ونذروا أنفسهم لله تعالى، واقتحموا ميداناً أحجم عنه كثير من العلماء، سلاحهم الكتاب والسنة، وغايتهم: ﴿قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[3]، فأقاموا ما اعوج من أمر المسلمين، وكشفوا عن دسائس أصحاب المبادئ المنحرفة والمعتقدات الباطلة.

لقد اتخذت هذه الطائفة موقفها من الجمعيات القومية، وأصدروا الفتاوى التي ترد على مبادئها ومعتقداتها، وبينوا أن المبادئ القومية فيها مخالفة صريحة لأحكام الدين الإسلامي، وأن ما قدمته هذه الجمعيات من نظم وقوانين إنما هي محاربة صريحة لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ودعوة جاهلية غايتها تحكيم الكفر في أموال ورقاب وأعراض المسلمين، وإقصاء الحكم الإلهي والشريعة العادلة، على رغم ما كانوا يزعمونه فيها من خير وإصلاح.

وأعلن العلماء عن مواقفهم في الكتب والصحف اليومية وفي الدروس وخطب الجمع، قائمين على الحق، لا يخافون في الحق لومة لائم، جعلوا الله كل غايتهم.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب العلم، بَاب فَضْلِ مَنْ عَلِمَ وَعَلَّمَ، رقم الحديث (٧٧).

(٢) فتح الباري، ابن حجر، ١/ ٢١٢.

(٣) سورة الأعراف، رقم الآية (١٦٤).

ورحم الله الإمام ابن بطة - وهو من علماء القرن الثالث الهجري -، بعد أن ذكر أقوال السلف في ردهم على المعتقدات والفرق الضالة، قال: «إخواني فاستمعوا إلى كلام هؤلاء السادة من الماضين والأئمة العقلاء من علماء المسلمين والسلف الصالح من الصحابة والتابعين، هذه أقوالهم والإسلام في طرافة ومطاوعة وعنفوان قوته واستقامته، والأئمة راشدون، والأمراء مقسطون، فما ظنكم بنا وبزمان أصبحنا فيه وما نعانيه ونقاسيه، ولم يبق من الدين إلا العكر، ومن العيش إلا الكدر، ونحن في دردى الدنيا وثمادها!؟»(١).

ولا ريب في أن ما جاء به أعضاء الجمعيات القومية العربية من قضايا تعتبر من الأمور المستحدثة في الدين، وظهرت في عصر كانت الغلبة والقوة فيه للدول الصليبية، هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن الوعي الإسلامي الصحيح - المستمد من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ - كان ضعيفاً.

ولزم لهذا الأمر وجود حماسة علماء الأمة في القرن الرابع عشر الهجري، إذ اندفعوا مخلصين في الكتابة والرد على أعضاء الجمعيات القومية، وأجلوا الشبه التي أثارها أعضاؤها، وأبطلوا حججهم الواهية، وكان لهذا الجهد الأثر الواضح في واقع المسلمين، وعزوف جماعة من الأمة عن ضلالات مبادئ تلك الجمعيات، وانحصر تأثيرها وظهرت آثارها على من تشرب قلبه وعقله فتنة الفكر الوافد النصراني.

إن الله قد كتب العصمة للأنبياء والمرسلين، وأما غير الأنبياء فقد يخطئ ويصيب، وبعض ما ذكرته عن العلماء المصلحين لا يعني التسليم بجميع مناهجهم ووسائلهم، فقد يكون على آحادهم بعض الأخطاء في مسائل العقيدة كأن يكون - مثلاً - من

---

(١) الإبانة عن شريعة الفرق الناجية ومجانبة الفرق المذمومة، ابن بطة، ١/ ١٨٦.

شيوخ الصوفية ولكن هاله الانحراف الخطير الذي رمت إليه الجمعيات، فلم يرض عن المبادئ القومية، فإيراد قول هذا العالم أو ذاك ممن له مخالفات في العقيدة لا يعني أني مؤيد له في جميع أقواله وفتياه، ومن أولئك العلماء:

أولاً) الشيخ عاطف أفندي(١): وهو من علماء الدولة العثمانية وتولى التدريس في جامع الفاتح بعد تخرجه من كلية الإلهيات التابعة لجامعة إستنبول، وأتيح له أن يؤدي دوره في الدعوة إلى الله وجلاء الحقائق، من على منبر الوعظ وكرسي التدريس، وفي صفحات المجلات الدينية كمجلة (بيان الحق)، ومجلة (صراط مستقيم)، وهما من أشهر المجلات الإسلامية في الدولة العثمانية، نادى الشيخ عاطف بنقد المبادئ والنظم المخالفة لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وقد شاهد الشيخ عاطف أفندي التعدي الصريح على مقام الخلافة الإسلامية وإسقاطها، ثم استبدل بها نظام الحكم الدستوري، من قبل أعضاء الجمعيات القومية، فقال مبيناً مقام الخليفة والخلافة في الشريعة: (واجب على عموم المسلمين وغير المسلمين الذين يقبلون التبعية للحكومة الإسلامية إطاعة أوامر الخليفة التي تتفق

---

(١) مما ينبغي ذكره عن سيرة الشيخ عاطف، أنه ألف كتاباً ذكر فيه حكم لباس القبعة فاستدعي للمحاكمة عام ١٩٢٦م، وطلب القاضي من الشيخ إعداد دفاعه ليقرأه على المحكمة التي حكمت عليه بالسجن ثلاث سنوات على الأقل، وإلا سيكون الحكم الإعدام. فجلس الشيخ بعد صلاة العشاء وأخذ يكتب دفاعه عن نفسه كما طلب منه القاضي، وأثناء الكتابة أغفى الشيخ عاطف قليلاً بعد أيام لم يذق فيها طعم النوم، وفجأة فتح الشيخ عينيه وارتسمت على وجهه ابتسامة عميقة، فمزق الورقة التي فيها الدفاع عن نفسه، فسأله طلابه في السجن، فقال: لقد رأيت في رؤياي الرسول ﷺ يقول لي: [يا عاطف أتشغل نفسك بالدفاع عن نفسك ولا تريد الالتحاق بنا؟!] فقال الطلاب: وماذا تفسر هذا؟ قال الشيخ: سيعدمونني، وسألتحق بحبيب الله. وفي الغد وقف أمام المحكمة ولم يقدم ما يعتذر به فحكم عليه بالإعدام، وطبق الحكم. انظر: المظلومون من الإسلاميين في العهد الأخير، نجيب فياض. والعثمانيون في التاريخ والحضارة، محمد حرب.

والشريعة الإسلامية، وأن يكونوا جنوداً، وأن يدفعوا الضرائب، وأن لا يعصوه ولا يقوموا ضده.

أما الذين لا يخضعون لأوامره المتفقة والشريعة والذين لا يكونون جنوداً، يكونون عصاة مذنبين، ولكن تنفيذ أوامره التي تخالف الشريعة فحرام)[١].

إن طاعة الخليفة - بالأمور التي تتفق والشريعة الإسلامية - من أقوى أسباب دفع الشر وتحقيق قوة المسلمين، وقد كان أصحاب النبي ﷺ يوجهون الأمة إلى هذا الأمر، كما ثبت في الحديث؛ عَنْ جُنَادَةَ بْنِ أَبِي أُمَيَّةَ، قَالَ: دَخَلْنَا عَلَى عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ وَهُوَ مَرِيضٌ، قُلْنَا: أَصْلَحَكَ اللَّهُ حَدِّثْ بِحَدِيثٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهِ سَمِعْتَهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: دَعَانَا النَّبِيُّ، فَبَايَعْنَاهُ فَقَالَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا، وَأَثَرَةً عَلَيْنَا، وَأَنْ لا نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ، إِلا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ][٢].

والشيخ بهذا التوجيه يرد على أعضاء الجمعيات القومية الذين قضوا على الخلافة الإسلامية، بحجة دفع ظلم السلطان العثماني، كما سبق بيان ذلك.

ويدعو الشيخ عاطف أفندي إلى التمسك بعقيدة أهل السنة والجماعة ومجابهة دعاة التحرر من الدين، فيقول الشيخ: (مذهب أهل السنة والجماعة هو الحق، وكل ما عدا هذا باطل، واعتقاد أهل السنة والجماعة هو الطريق الحق المستقيم، والذي بينه الله في القرآن الكريم، والذي ذكره الرسول بأحاديثه الشريفة، وليس في اعتقاد من اتبع هذا أي اعوجاج.

---

(١) طريق الإسلام، عاطف أفندي، ٧٧ - ٧٩. نقلًا عن «العثمانيون في التاريخ والحضارة»، محمد حرب، ٢٢٤.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الفتن، بَاب قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: سَتَرَوْنَ بَعْدِي أُمُورًا تُنْكِرُونَهَا، رقم الحديث (٦٥٣٢).

وفرض على كل مسلم كل على حسب قدرته، تنفيذ أوامر الدين ونواهيه، بدفاعه وبمواجهة الذين يعملون على إزالة شعيرة من شعائر الإسلام أو أركانه أو إلغائها)[1].

كما أوضح الشيخ عاطف حقيقة البناء الحضاري للأمم، وهي الأخذ بالجوانب المادية والتمسك بأحكام الدين، وقد قال راداً على مقلدة الغرب من المسلمين: إن على الأمة الإسلامية ألا تقلد الغرب تقليداً أعمى يأخذ بالسطحيات، وأن على المسلمين الأخذ بما ينفعهم فقط في المدنية الغربية، وأن على المسلمين أن يطوروا أنفسهم دون التنازل عن أخلاقهم ومقدساتهم، ولا تفريط في الأخلاق الإسلامية، ولا تنازل عن الدين في سبيل التطور المادي[2].

ثانياً) الشيخ أحمد نعيم بابان زاده: من أبرز ما تميز به الشيخ أحمد في الدولة العثمانية معرفته لمخططات الصليبية، وإجادته للغة العربية، وقد شغل مناصب تعليمية في الدولة من أبرزها مديراً لجامعة إستنبول.

لقد عُرِف الشيخ أحمد نعيم بعمق الفكرة وقوة الحجة وسلامة المنطق، وفي أثناء هجوم الفكر الوافد على الأمة الإسلامية بصورة الدعوة إلى القوميات، كان الشيخ أحمد نعيم من العلماء اللامعين الذين تولوا الرد عليها وتعرية مبادئها.

إن تغريب الأمة عن دينها، وتأصيل رابطة اللغة دون الدين، كان من أهداف الجمعيات القومية العربية، ولذا أكد الشيخ أحمد نعيم على حقيقة الرابطة بين المسلمين، وهي الرابطة الدينية، حيث قال: (كان العرب - وهم أول من دخلوا في

---

(١) تستر شرعي، محمد عاطف أفندي، ١، ١٦، إستنبول، ١٩٢٣م. نقلًا عن «العثمانيون في التاريخ والحضارة»، محمد حرب، ٢٢٨.

(٢) رسالة تقليد الفرنجة والقبعة، عاطف أفندي، نقلًا عن «العثمانيون في التاريخ والحضارة»، محمد حرب، ٢٣٠. ورسالة الشيخ عاطف مطبوعة باللغة التركية، ونسخة منها في مكتبة الملك فهد الوطنية بالرياض.

دين الله أفواجاً ونشروه - كانوا يعيشون على هيئة قبائل مختلفة. كانوا يتلاعبون بحياة بعضهم بعضاً وهم تحت تأثير فكرة الثأر وفكرة الحصول على الغنائم، فجمعهم فيض الإسلام حول كلمة واحدة، كما أن هذا الفيض الإسلامي قد حول هذه القبائل المتفرقة إلى قوة مجتمعة، ثم دفعتهم الغيرة الدينية والقوى المعنوية إلى التضحية والفداء)(١).

إن الرابطة الدينية هي الرابطة التي جمعت بين المسلمين؛ العرب منهم والعجم، وهذا المبدأ الذي ذكره الشيخ أحمد نعيم، هو الذي بينه الصحابي الجليل جعفر بن أبي طالب أمام النجاشي، أثناء الهجرة الأولى إلى الحبشة(٢).

وتناول الشيخ أحمد نعيم القومية بالنقد المبني على كتاب الله وسنة رسوله، وللقيمة العلمية وبيان الدور الهام الذي قام به الشيخ أحمد نعيم - في عصر سمي (عصر القوميات) خاصة - أنقل هذا النص مفصلاً له في نقد القومية، ويقول فيه: «بدعة أجنبية مهلكة بالدرجة التي أرى فيها أنه يمكن أن نطلق عليها اسم: داء السل في جسم الأمة الإسلامية، كما أنها بدعة مضرة استعرناها من أوروبا بدافع من الجهل.

والواقع الفعلي أن القومية تعتبر من أعظم مصائبنا التي تشد الانتباه، وأكثر ما يشد الانتباه في ذلك أننا لا نأخذ عن أوربا إلا أسوأ ما عندها، القضية القومية مذمومة ومرفوضة شرعاً، وهي بالتعبير الشرعي [دعوى الجاهلية](٣)، وهي أفظع ضربة لقوام الأمة الإسلامية ولبقائها ولرفاه المسلمين ولسعادتهم)(٤).

يلاحظ أن الشيخ أشار إلى أخطار تلك الدعوة، وحكم الشرع فيها، فهي بدعة

(١) قضية القومية، أحمد نعيم، نقلًا عن: العثمانيون في التاريخ والحضارة، محمد حرب، ٢٤٤.
(٢) انظر الخبر وهو في مسند الإمام أحمد بن حنبل، ١/ ٢٠١ - ٢٠٢.
(٣) انظر الحديث وقول النبي ﷺ: [مَا بَالُ دَعْوَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ.. دَعُوهَا فَإِنَّهَا خَبِيثَةٌ]. صحيح البخاري، كتاب المناقب، بَاب مَا يُنْهَى مِنْ دَعْوَةِ الْجَاهِلِيَّةِ، رقم الحديث (٣٢٥٧).
(٤) قضية القومية، أحمد نعيم، نقلًا عن: العثمانيون في التاريخ والحضارة، محمد حرب، ٢٤٤.

ضلالة، وصار معلوماً أن الجمعيات القومية العربية لم تؤسس إلا للدعوة إلى مبادئ ونظم كانت سبباً في تمزيق وحدة الأمة التي كانت متمسكة بوحدتها الدينية، ولذا لم يمض على تأسيس تلك الجمعيات في البلاد الإسلامية سوى سنوات حتى رضخت البلاد للاستعمار الصليبي.

ثالثاً) الشيخ علوي بن أحمد السقاف[1]: عاصر الشيخ علوي فترة تأسيس الجمعيات القومية العربية، إذ كانت وفاته سنة (١٣٣٥هـ - ١٩١٦م)، وشهد الانحراف الذي وقع به أعضاء الجمعيات القومية العربية في قضية عقيدة الولاء والبراء، والأخذ بالقوانين الكافرة، فأنكر عليهم هذا الانحراف.

فكان من أقواله مستنكراً عليهم موالاة الكفار والأخذ بقوانينهم: (إن الرزية كل الرزية والداهية الدهياء الشيطانية ما وقع فيه بعض هذه الأمة المحمدية من الانتماء والانتساب إلى بعض الدول الكفرية والاحتماء بها والالتجاء إلى أبوابها والرضا بأحكامها الطاغوتية، مع عدم شعورهم بما صاروا إليه من الخزي والنكار، وما ترتب على ذلك من الخذلان والوبال، وترديهم في مهاوي الهوى والهوان والإذلال، وخلعهم خلعة الإسلام، وترديهم برداء الكفر والضلال، بنص قوله تعالى: ﴿**لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ**﴾)[2].

---

(١) علوي بن أحمد بن عبدالرحمن السقاف: نقيب السادة العلويين بمكة، وأحد علمائها. ولد بمكة سنة (١٢٥٥هـ، ١٨٣٩م)، ولي النقابة سنة ١٢٩٨م. وهاجر بعائلته إلى (لحج) سنة ١٣١١هـ، بدعوة من أميرها فأقام إلى سنة ١٣٢٧هـ، وعاد إلى مكة، فاستمر إلى أن توفي سنة (١٣٣٥هـ، ١٩١٦م). وله من الكتب ما يلي: (ترشيح المستفيدين)، و(فتح العلام بأحكام السلام)، و(الأنبياء الذين يجب الإيمان بهم). الأعلام، الزركلي، ٤/ ٢٤٩.

(٢) سورة المجادلة، رقم الآية (٢٢).

وبعد هذا الإنكار من الشيخ علوي السقاف حث عامة المسلمين على تفهم الآيات الواردة فيمن يوالي المشركين، فقال بعد عرض الآيات: (فانظروا يا معاشر المسلمين، في أقطار الأرض أجمعين، ما أنزله رب العالمين، في كتابه المبين، في حق هؤلاء الذين أشربوا حب النصارى في قلوبهم واستحضروا عظمة ملكهم وصولتهم، ولاحظوا توفر الدنيا بأيديهم التي هي حظهم في الدنيا والآخرة)[١].

وبتدبر آيات القرآن الحكيم الواردة في تقسيم الناس، قال الشيخ علوي السقاف: (اعلم أن الناس قسمان: الذين آمنوا، وليهم الله تعالى لا غيرهم، فليس لهم مولىً من دون الله ورسوله. والذين كفروا: أولياؤهم الطاغوت؛ فلا وسط، فمن اتخذ الطاغوت ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً، وارتكب خِطْئاً جسيماً.

فليس إلا ولي الله أو ولي الطاغوت، وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[٢]، وقد حكم الله أن لا نتولى الكفار بوجه، فمن خالف، ولم يحكم فأنى يكون له إيمان وقد نفى الله إيمانه، وأكد النفي بأبلغ الوجوه والأقسام).

أكد أعضاء الجمعيات على مبدأ إدخال مشرفين وخبراء من الدول النصرانية لهم حق الحكم والفصل والقضاء، واستدل أعضاء الجمعيات القومية العربية على تحكيم المستشارين الأجانب بأنهم يعدلون ولا يظلمون، ومن أجل مقابلة رد الظلم والعدوان التركي[٣].

---

(١) تحذير من ينتمي إلى الإسلام عن الاحتماء بأعداء الملك العلام، والوقوع فيمن أقامه الله تعالى للمسلمين إمام، علوي بن أحمد السقاف، مخطوطة بمكتبة جامعة الملك سعود، قسم المخطوطات، تحت رقم ١١٥٠م/ ٢.

(٢) سورة النساء، رقم الآية (٦٥).

(٣) انظر الفصل الثالث، الباب الأول، من الرسالة ص: (٢٥٧).

ولمخالفة هذا الأمر لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ أكد الشيخ علوي السقاف - أن ما طالبت به الجمعيات هو مبدأ جاهلي - قائلاً: (تأمل في حال من خوصم وطُلب إلى حكم الشريعة، قال: أنا من رعية النصارى، فوالله لقد زاغ عن طريق الهدى، وتردى في مهاوي الردى، وشابه المنافقين الذين قال الله في حقهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾[1]، فـ(الصّادُّ): أي المعرض عن الشريعة المحمدية، استحق عنوان النفاق والتسمي به لفعله ما يخالف المؤمنين المسلمين.

ومن يقول عن الكفار أنهم أهل عدل، فإن أراد أن الأمور الكفرية التي منها أحكامهم القانونية عدل، فقد كفر، والله سبحانه وتعالى ذمها وشنّع عليها وسماها عتواً وعناداً وطغياناً وكفراً وإثماً مبيناً.. والعدل إنما هو شريعة الله التي حواها كتابه وسنة نبيه ﷺ، إن الله يأمر بالعدل)[2].

وتناول الشيخ علوي السقاف مكانة الخليفة الشرعي، وتصدى للرد فيمن قدح في الخلافة الإسلامية، وقابل ذلك مدحاً وثناءً على السياسة النصرانية، كما فعلت الجمعيات القومية العربية، فقال الشيخ رحمه الله: (من أهان السلطان، ورفع قدر الكفر وأربابه، أهانه الله، ومن يهن الله فما له من مكرم، فإن أهان السلطان من حيث رعاية الإسلام، ومدح النصارى من حيث رعاية الكفر، كفر وصار مرتداً، والعياذ بالله.

وإن مدح النصارى من حيث الرعاية الدنيوية، وضبطها، وحماية الرعية عن المظالم وبذل الأموال في إقامة الناموس الدنيوي، فنسب السلطان إلى القصور،

---

(١) سورة النساء، رقم الآية (٦١).

(٢) تحذير من ينتمي إلى الإسلام عن الاحتماء بأعداء الملك العلام والوقوع فيمن أقامه الله تعالى للمسلمين إمام، علوي بن أحمد السقاف.

والنصارى إلى القيام بذلك كان المادح المذكور ممن غلب عليه حب العاجلة على الآجلة، وأشرب قلبه حب الحطام، وبعد مرماه عن مراعاة سمة الإسلام، فهو بدنياه مغرور، وبحب العاجلة مفتون[١].

رابعاً) الشيخ سليمان بن سحمان الحنبلي: من علماء القرن الرابع عشر الهجري، تتبع المعتقدات الدخيلة على المسلمين وقام بالرد عليها. ومن هذه الردود رد الشيخ سليمان على جميل الزهاوي[٢]، الذي قال عنه أعضاء الجمعيات القومية العربية: (من طلائع نهضة الأدب العربي في العصر الحاضر)[٣]، فهو يعد واحداً من أبرز الوجوه في عصر النهضة الحديثة، وممن يشارك في أنشطة الجمعيات القومية العربية[٤].

إن ردود الشيخ سليمان بن سحمان لا تحصر في شخص الزهاوي فقط، وإنما شملت الردود من كان على شاكلته، ومما قال الشيخ عن مبادئ أعضاء الجمعيات القومية: (لقد ظهر مكنون ما لديهم، ومحصول ما انطوت عليه ضمائرهم، من الميل إلى أعداء الله، وأعداء رسوله ودينه، وهذا الملحد المفتري من جملتهم، ومن أنصارهم وأعوانهم).

هذا من جانب عقيدة الولاء والبراء، وأما عن قضايا تحكيم الشريعة، ودعوة الجمعيات القومية العربية إلى ما سموه بحرية الأديان، قال الشيخ سليمان بن سحمان: عن إظهار الله لما - (أظهروه واجتمعوا عليه من الدستور، وما أعلنوه من الكفر

---

(١) تحذير من ينتمي إلى الإسلام عن الاحتماء بأعداء الملك العلام والوقوع فيمن أقامه الله تعالى للمسلمين إمام، علوي بن أحمد السقاف.

(٢) انظر الترجمة رقم (١٧).

(٣) الأعلام، الزركلي، ٢/ ١٣٧.

(٤) انظر مشاركة الزهاوي في مؤتمر المرأة، والذي عقده أعضاء الجمعيات القومية، فتاة الشرق في حضارة الغرب، محمد جميل بيهم.

والفجور سنة ١٣٢٦هـ فصرحوا فيه أنها عيسوية، موسوية، عثمانية، عربية، وأن كل الطوائف المتباينة في أديانها تكون إخواناً، وأنها تجتمع على حرب من خرج عن حكم هذا الدستور، ونصبوا في كل الأماكن من ديارهم مدارس يعلمون الناس دين النصرانية، وجعلوا قاضياً عاماً من الإنكليز الكفار يحكم بين الناس، لأنه بزعمهم أعلم بالسياسات).

وعما صدر عن الجمعيات القومية العربية من مبادئ مخالفة لكتاب الله وسنة رسوله، وما قاموا به من تقرير الباطل في واقع الأمة، قال الشيخ سليمان بن سحمان: (هم الذين سعوا بهذا إلى الفساد وولجوا به في الغواية والعناد، قال الله تعالى: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾[1].

وأنهم هم الذين مرقوا عن طاعة أميرهم وسلطانهم حتى عزلوه، وجعلوا الأمر شورى بين من نزع إلى أعداء الله ورسوله، واتخذوهم أولياء وجعلوهم إخواناً وأخداناً)[2].

خامساً) الشيخ سعد بن عتيق[3]: تناول الشيخ سعد بن عتيق موضوعات عدة وأصل قضايا عقائدية، يظهر فيها بطلان مبادئ ونظم الجمعيات القومية والرد عليها، والشيخ سعد بن عتيق عاصر تأسيس الجمعيات القومية حيث عاش بين تاريخ (١٢٧٧

---

(١) سورة المائدة، رقم الآية (٨٠ - ٨١).

(٢) الضياء الشارق في رد شبهات الماذق المارق، سليمان بن سحمان، ٦٨٠، ٦٨١

(٣) سعد بن حمد بن عتيق، قاض من علماء نجد، ولد في مدينة «الأفلاج» عام ١٢٧٧هـ، ورحل إلى الهند يطلب العلم، فاتصل بصديق حسن خان، كانت له جهود مثمرة في نشر العقيدة السلفية، توفي في الرياض عام ١٣٤٩هـ. انظر: الإعلام، خير الدين الزركلي، ٣/ ٨٤.

- ١٣٤٩هـ - ١٨٦٠ - ١٩٣٠م)، كما كانت له رحلات إلى الهند، التي كانت مستعمرةً للدول الصليبية آنذاك.

أنكر الشيخ سعد بن عتيق على من اتخذ الكافرين أولياء، فقال الشيخ: (أعظم أنواع الإعراض وأكبر أسباب الفتنة في الأرض والفساد الكبير ما صدر من بعض الخُلوف[١] من موالاة المشركين واتخاذ الولائج من دون الله ورسوله والمؤمنين، إنهم صاروا فتنة للمفتونين ومحنة على المؤمنين..، واعتقدوا الباطل حقاً والخطأ صواباً، واستحسنوا موالاة أهل الكفر والارتياب، وعموا عما تضمنته نصوص الكتاب، وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وقد حرم الله موالاة الكافرين في غير موضع من كتابه).

ومما ذكره الشيخ من الآيات قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾[٤]. وقال الشيخ سعد عن هذه الآيات وغيرها: «وهذه الآيات وأشباهها تدل على التغليظ والتشديد في موالاة من كفر بالله.

وقد ذكر بعض العلماء أن بعض هذه الآيات تتناول من ترك جهادهم وسكت عن عيبهم وألقى إليهم السلم، فإن انضم إلى ذلك إظهار الثناء عليهم ونشر فضائلهم

---

(١) يقصد الشيخ بكلمة خُلوف، ما ثبت في صحيح مسلم، كتاب الإيمان، بَاب بَيَانِ كَوْنِ النَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ مِنَ الإِيمَانِ وَأَنَّ الإِيمَانَ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ، رقم الحديث (٧١)، وقد سبق تخريجه.

(٢) سورة المائدة، رقم الآية (٥١).

(٣) سورة المائدة، رقم الآية (٥٧).

(٤) سورة هود، رقم الآية (١١٣).

والدخول في طاعتهم وإعانتهم على أهل الإسلام وحماية حماهم فالأمر أشد وأعظم»[1]، وهذا ما عمله أعضاء الجمعيات القومية العربية.

ومن حرص الشيخ سعد بن عتيق على رابطة الأخوة الدينية، ونبذ الروابط الجاهلية، نبه إلى ما يدعو إليه دعاة القوميات، فقال الشيخ سعد: (مما ينبغي التنبيه عليه ما يقع من كثير من الناس من الحمية والتناصر على مجرد العصبية التي يحصل بسببها حدوث الشر والشقاق والاختلاف بين أهل الإسلام، فإن ذلك ليس من شأن أهل الدعوة الإسلامية المتبعين للسنة، إنما ذلك من شأن أهل الجهالة والانتماء إلى القبائل والعشائر، كما هو شأن أهل الجاهلية الأولى، وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: [لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا إِلَى عَصَبِيَّةٍ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ قَاتَلَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ مَاتَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ][2]، وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: [... مِنَ الْعَصَبِيَّةِ أَنْ يَنْصُرَ الرَّجُلُ قَوْمَهُ عَلَى الظُّلْمِ][3][4].

وحذر من الانتماء القبلي والتناصر الجاهلي، وبيّن الطريق المستقيم والمنهج السديد في التآخي، فقال: (مما أمر الله به في كتابه المبين، وأوحاه إلى رسوله الأمين الحث على الاجتماع على الدين، والاعتصام بحبله المتين، واتباع سبيل المؤمنين، واجتناب ما ذمه الله سبحانه من أخلاق من ذمهم في كتابه من أهل التفرق والاختلاف والمشاقة له ولرسوله ﷺ ومخالفة أهل الصراط المستقيم، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ

---

(١) مجموعة رسائل الشيخ سعد بن عتيق، ١٠٠- ١٠١، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٧٩م.

(٢) سنن أبي داود، كتاب الأدب، بَاب فِي الْعَصَبِيَّةِ، رقم الحديث (٤٤٥٦).

(٣) مسند الإمام أحمد، ٤/ ١٠٧.

(٤) مجموعة رسائل الشيخ سعد بن عتيق، ١٠٦.

وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾[(١)][(٢)].

لقد عاصر الشيخ سعد بن عتيق تسلل أعضاء الجمعيات القومية العربية متعاونين مع أعضاء الجمعيات الماسونية الأخرى، على مقام الخلافة الشرعية والقضاء على مبدأ الخلافة الدينية، بقوة السنان وسطوة اللسان، حيث قام أعضاء الجمعيات بالنيل والقدح من مقام الخلافة الشرعية، والدعوة إلى تطبيق الحكم الجاهلي،كما بينت ذلك في مباحث الرسالة.

ولذا تناول الشيخ قضية الخلافة الشرعية وأنكر على من سعى في إلغائها، فقال الشيخ: (ومما انتحله بعض هؤلاء الجهلة المغرورين الاستخفاف بولاية المسلمين، والتساهل بمخالفة إمام المسلمين والخروج عن طاعته. وهذا من الجهل والسعي في الأرض بالفساد بمكان، يعرف ذلك كل ذي عقل وإيمان.

وقد علم بالضرورة الإسلامية أنه لا دين إلا بجماعة، ولا جماعة إلا بإمامة، ولا إمامة إلا بسمع وطاعة، وأن الخروج عن طاعة أولي أمر المسلمين من أعظم أسباب الفساد في البلاد والعباد، والعدول عن سبيل الهدى والرشاد[(٣)].

سادساً) الشيخ مصطفى صبري: لقد عاصر الشيخ مصطفى صبري ثلاث مراحل متغيرة في واقع الأمة: فقد عاصر المشروطية الأولى، فحكم الاتحاديين أصحاب جمعية الاتحاد والترقي - وخلال هذه المرحلة أُسّست الجمعيات القومية العربية - ثم العهد الجمهوري[(٤)]، وإلغاء الخلافة الإسلامية.

---

(١) سورة الشورى، رقم الآية (١٣).

(٢) مجموعة رسائل الشيخ سعد بن عتيق، ٦٢.

(٣) مجموعة رسائل الشيخ سعد بن عتيق، ٦٤.

(٤) الشيخ مصطفى صبري وموقفه من الفكر الوافد، مفرح بن سليمان القوسي، ١/ ١.

عاصر الشيخ مصطفى صبري هذه المراحل الثلاث - التي تعتبر بما قدمته من مبادئ ونظم مختلفة اختلافاً كلياً - وكان قريباً من مجلس صانعي القرار، كما اشترك الشيخ في مجلس المبعوثان سنة ١٣٢٦هـ - ١٩٠٨م[١].

قال الشيخ رحمه الله في مقدمة كتابه (موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين) وهو يخاطب روح والده: (لو رأيتني وأنا أكافح سياسة الظلم والهدم والفسوق والمروق، في مجلس النواب وفي الصحف والمجلات قبل عهد المشيخة والنيابة وبعدهما، وأدافع عن دين الأمة وأخلاقها وآدابها وسائر مشخصاتها، وأقضي ثلث قرن في حياة الكفاح)[٢].

كما شغل الشيخ منصب شيخ الإسلام في الدولة العثمانية، ويعد هذا المنصب أعلى المناصب العلمية الدينية في الدولة العثمانية والذي ألغي على أيدي دعاة التحرر من الدين[٣].

ولما كانت منزلة الشيخ مصطفى صبري على ما ذكرته، فسيكون لديه العلم الواسع بتفاصيل مؤامرة الجمعيات القومية على عقيدة الأمة الإسلامية، ولذا اعتذر الشيخ نفسه عن أعضاء الجمعيات القومية بعد أن أعلنوا عن الدستور، بأنه «يتعذر عليهم التأليف بين الدستور وبين الشرع الإسلامي، إذ لا تستوعب عقولهم - كعقول الأوربيين - أنه كيف يمكن التوفيق بين الحرية وبين الدين (المقيد)؟ وقيوده مستثقلة عندهم من جهة عدم موافقته للحكومات الزمنية الأوربية، ومن جهة معارضته لأهوائهم ومظالمهم في داخل المملكة. فالدين يشق عليهم، ويثقل أعناقهم دائماً، لأنهم في تاراتهم وتطوراتهم

---

(١) المصدر السابق، ١/ ٥٥ - ٥٦.

(٢) مقدمة كتاب موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين، مصطفى صبري، ١/ ٢.

(٣) انظر: دائرة المعارف الإسلامية، ١٣/ ٤٧٣، ٤٧٩، مادة (شيخ الإسلام).

إذا خضعوا لحكم الحرية، وحاولوا أن يسيروا بسيرها فالدين لا يخليهم، لما أن الحرية والحضارة عندهم عبارة عما يرى في أوربة بمحاسنها ومساوئها حذو النعل بالنعل، وإذا خلوا إلى طباعهم الطاغية فالدين بكل قوته يمنعهم عن طغيانهم وعدوانهم، فهو مانع يمنعهم في حريتهم واستبدادهم»[١]، ويلاحظ أنه اعتذر عنهم لذمهم وكشفهم.

ورغبة في تحقيق توحيد كلمة المسلمين فقد عارض المؤتمر العربي سنة ١٩١٣م، الذي عقده أعضاء الجمعيات من أجل الإعلان عن فصل البلاد العربية عن الدولة العثمانية، فنبه الشيخ مصطفى صبري إلى مدى ما في هذا الفصل من أخطار على مستقبل تلك البلاد[٢].

لقد وقع ما حذر منه الشيخ مصطفى صبري ونبه عليه، عندما قامت الثورة العربية بقيادة أعضاء الجمعيات القومية العربية، وانفصلت البلاد العربية عن الدولة العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٦م. وينقل أعضاء الجمعيات القومية تأييد الدول الصليبية للثورة العربية، ذكرت (جريدة القبلة) عن النهضة العربية وموقف فرنسا منها أن قادة الجيش الفرنسي قالوا: «إننا نحن معاشر الفرنسيين وكل حلفائنا مسرورون بنهوض العرب والمسلمين للضرب على أيدي الأعداء، وقد حق لهم علينا أن نعضدهم بكل ما في وسعنا»[٣]. وهذا السرور لإقصاء البلاد العربية عن مجموع الأمة حتى قامت الدول الصليبية باستعمار البلاد سنة ١٩٢١م[٤] [فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذِّئْبُ من الغنم الْقَاصِيَةَ].

---

(١) النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة، مصطفى صبري، ٩ - ١٠.

(٢) ترجمة حياة الشيخ مصطفى صبري، إبراهيم صبري، ١٤٠١هـ. نقلًا عن: الشيخ مصطفى صبري وموقفه من الفكر الوافد، مفرح بن سليمان القوسي، ٢/ ٥٢٣.

(٣) جريدة القبلة، السنة الأولى، العدد ٤١، تاريخ ٩/ ٣/ ١٣٣٥هـ، ص:٣.

(٤) انظر: الفصل الثاني، الباب الثاني من الرسالة ص: (٥٠٧).

ومن على منابر الإعلام بيّن الشيخ موقفه من مبادئ الجمعيات القومية - الصحف والمجلات الدورية - وكان له سلسلة مقالات بعنوان (الدين والقومية) نشرها في جريدة (يارين)[(١)]، وهي جريدة إسلامية فكرية مستقلة تصدر باللغة العثمانية.

في هذه السلسلة انتقد الشيخ التيارات القومية ورد على القوميين الذين أحلوا قومياتهم الضيقة محل العقيدة الإسلامية، وقدموا الأخوة في التراب والوطن والمشاركة في اللسان على الأخوة في الدين. وشدد على بيان أخطار القومية العنصرية وذلك لإيقاظ المسلمين الغافلين من غفلتهم لكي يتدبروا ما يحاك ضدهم وما يدبر لدينهم[(٢)].

كما صنف الشيخ كتباً تناولت الرد على أعضاء الجمعيات القومية العربية، منها كتاب (القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون)، قال طلاب الشيخ مصطفى صبري: «لما ألف الدكتور محمد حسين هيكل كتابه (حياة محمد) جاء بعض طلاب العلم إلى الشيخ مصطفى صبري يشكون إليه ما فيه من إنكار معجزات نبينا محمد، وما تضمنه من الطعن في كتب الحديث والسيرة، وفي أمانة رواتها ومؤلفيها اعتماداً على أقوال المستشرقين فطلبوا منه الرد عليه ونقده، فألف الشيخ كتابه (القول الفصل)[(٣)]، وقد سبق إيراد فقرات من كتاب (حياة محمد) في مبحث: «موقف الجمعيات القومية من السيرة النبوية».

---

(١) كلمة (يارين) تركية وتعني الغد.

(٢) جريدة يارين، ابتداء من العدد ٦٢، ١٥/ ١١/ ١٣٤٨هـ. نقلًا عن: الشيخ مصطفى صبري وموقفه من الفكر الوافد، مفرح بن سليمان القوسي، ١/ ٢٥٢.

(٣) مقابلة مع الشيخ علي علوي، أحد تلامذة الشيخ مصطفى صبري. نقلًا عن: الشيخ مصطفى صبري وموقفه من الفكر الوافد، مفرح بن سليمان القوسي، ٢/ ٥٦١.

وفي مسألة القضاء على مقام الخلافة الشرعية ألف الشيخ مصطفى صبري كتاب (النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة)، بين الشيخ مصطفى صبري أن موقف الأحزاب العلمانية من الخلافة إلغاؤها سواء من الملغين في تركيا أو المؤيدين لأفعالهم من خارج تركيا، وهي الخلافة عن رسول الله المعول عليها في تنفيذ ما أتى ﷺ من شرعة الإسلام[1]. وليس المقصود بالإلغاء شخص السلطان نفسه.

سابعاً) الشيخ أحمد شاكر: تناول الشيخ أحمد شاكر مبادئ وأهداف الجمعيات القومية العربية بالنقد، وقد اشتدت الخصومة بين الشيخ أحمد شاكر وبين أعضاء الجمعيات القومية، وذلك أن (مصر) كانت ولا تزال من أهم المحاضن الفكرية لأعضاء الجمعيات القومية العربية.

لقد قام الشيخ أحمد شاكر بواجب الدعوة إلى دين الله تعالى، وبيان طرق الضلال والانحراف في الأمة والتحذير منها، ونادى بوجوب قول كلمة الحق، فكان مما قال في أحد مقالات (مجلة الهدي النبوي): (نريد أن نقول كلمة الحق في شؤون المسلمين كلها، نريد أن ننافح عن الإسلام ما استطعنا، بالقول الفصل، والكلمة الصريحة، لا نخشى فيما نقول أحداً إلا الله).

ثم استعرض الشيخ أحمد شاكر المجالات التي يجب فيها إنكار الانحرافات الواقعة على الأمة، والتي منها: (نريد أن نحارب الوثنية الحديثة والشرك الحديث، اللذين شاعا في بلادنا وفي أكثر بلاد الإسلام، تقليداً لأوربة الوثنية الملحدة، كما حارب سلفنا الصالح الوثنية القديمة والشرك القديم.

---

(١) موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين، مصطفى صبري، ٤/ ٣٦٣. وانظر: النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة، ١٢٢.

نريد أن ننافح عن القرآن، وقد اعتاد ناس أن يلعبوا بكتاب الله بين أظهرنا، فمن متأول لآياته غير مؤمن به، يريد أن يفسرها على ما أشربته نفسه من عقائد أوربة ووثنيتها وإلحادها، أو يقربه إلى عاداتهم وآدابهم، ليجعل الإسلام ديناً عصرياً في نظره ونظر ساداته الذين ارتضع لبانهم، أو رُبِّيَ في أحضانهم.

نريد أن نثابر على ما دعونا وندعو إليه من العودة إلى كتاب الله وسنة رسوله في قضائنا كله، في كل بلاد الإسلام، وهدم الطاغوت الإفرنجي الذي ضُرب على المسلمين في عقر دارهم في صورة قوانين.

نريد أن نتحدث في السياسة، السياسة العليا للأمم الإسلامية، التي تجعلهم (أمة واحدة)، كما وصفهم الله في كتابه، نسمو بها على بدعة القوميات، وعلى أهواء الأحزاب..، ونريد أن نعمل على تحرير عقول المسلمين وقلوبهم من روح التهتك والإباحية، ومن روح التمرد والإلحاد، وأن نريهم أثر ذلك في أوربة وأمريكا، اللذين يقلدانهما تقليد القردة، وأن نريهم أثر ذلك في أنفسهم وأخلاقهم ودينهم)[1].

هذه بعض الانحرافات التي نهض الشيخ أحمد شاكر في الرد عليها وبيان بطلانها، فكانت له مواقف في معالجات هذه الانحرافات، وسوف أذكر بعض مواقفه المتعلقة بمبادئ الجمعيات القومية العربية.

من مواقفه الرد على (جريدة الهلال) وما تبثه من عقائد منحرفة، - وهي من أهم الصحف القومية -، فمن ردوده رسالة أرسلها الشيخ أحمد شاكر إلى رئيس تحرير جريدة الهلال، قال فيها: (إن المجلة تعرض بالسخط لأحكام الشريعة الإسلامية في

---

(١) كلمة الحق، أحمد شاكر، ٣، ٩، دار الكتب السلفية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ (بتصرف يسير).

بلد أهله مسلمون ودين الدولة الرسمي الإسلام، وقد لاحظت مراراً في صحفكم (الهلال، وكل شيء، والفكاهة) كتابات تمس الدين الإسلامي وتهزأ بعلماء الإسلام، ولاحظ هذا غيري كثير من الناس، وآلمنا أشد الألم لصدوره من جرائد مسيحية ليس لها أن تتعرض لدين الإسلام)[١].

وتعتبر مسألة وجوب تحكيم الشريعة ونبذ القوانين الجاهلية، من أبرز المسائل التي تناولها الشيخ أحمد شاكر في البيان والتقرير، ذكر الشيخ رحمه الله بداية خط الانحراف في استبعاد الشريعة وتحكيم القوانين الجاهلية عوضاً عنها، بأن ذلك كان بعد أن: (ربى لنا المستعمرون طبقة مثقفة، أرضعوهم لبان هذه القوانين، حتى صار منهم فئات عالية الثقافة، واسعة المعرفة - في هذا اللون من الدين الجديد الذي نسخوا به شريعتهم - ونبغت فيهم نوابغ يفخرون بها على رجال القانون في أوربة، فصار للمسلمين من أئمة الكفر، ما لم يبتل به الإسلام في أي دور من أدوار الجهل بالدين في بعض العصور.

وصار هذا الدين الجديد هو القواعد الأساسية التي يتحاكم إليها المسلمون في أكثر بلاد الإسلام ويحكمون بها. سواء منها ما وافق في بعض أحكامه شيئاً من أحكام الشريعة وما خالفها. وكله باطل وخروج، لأن ما وافق الشريعة إنما وافقها مصادفة، لا اتباعاً لها، ولا طاعة لأمر الله وأمر رسوله. فالموافق والمخالف كلاهما مرتكس في حمأة الضلالة، يقود صاحبه إلى النار، لا يجوز لمسلم أن يخضع له أو يرضى به)[٢].

لقد سعت الجمعيات القومية العربية إلى تطبيق قوانين وأنظمة الدستور، وطالبت أن يكون مصدراً للأحكام، وقد قال مؤسسو حزب البعث: إن الحزب قد أصدر قانوناً للأحوال

---

(١) مجلة الفتح، رقم العدد ٧٢، الصادر ٣٠/ ٥/ ١٣٤٦هـ، الموافق ٢٤ نوفمبر، ١٩٢٧م.
(٢) عمدة التفسير، ابن كثير، ٣/ ٢١٤ - ٢١٥، تحقيق أحمد شاكر.

الشخصية أنصف المرأة وساواها في الإرث مع الرجل، مؤكداً حقها الموازي للرجل في الطلاق، وحدد سن الزواج بثمانية عشر عاماً، ومنع تعدد الزوجات إلا في الحالات الاستثنائية، وقررت القيادة القطرية الإبقاء على القانون باعتباره منصفاً للمرأة حامياً لها[1].

لقد وقف الشيخ أحمد شاكر موقف العالم الرباني من هذه المبادئ الجاهلية من خلال تعليقاته على كتاب (مسند الإمام أحمد بن حنبل)، وكتابي (تفسير الطبري، وعمدة التفسير من تفسير ابن كثير)، فكان رحمه الله يعلق ويبين على بعض الآيات أو الأحاديث، فعند قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[2]؛ قال الشيخ أحمد شاكر مبيناً موقف القوميين من تطبيق الشريعة عامة ومن حكم قطع يد السارق خاصة: (إن المبشرين المستعمرين، لعبوا بديننا، وضربوا علينا قوانين وثنية ملعونة مجرمة، نسخوا بها حكم الله وحكم رسوله. ثم ربوا فينا ناساً ينتسبون إلينا، أشربوهم في قلوبهم بغض هذا الحكم، ووضعوا على ألسنتهم كلمة الكفر: أن هذا حكم - حكم قطع يد السارق - قاس لا يناسب هذا العصر الماجن، عصر المدنية المتهتكة، وجعلوا هذا الحكم موضع سخريتهم وتندرهم، والمسألة - عندنا نحن المسلمين - هي من صميم العقيدة، ومن صميم الإيمان)[3].

وبين الشيخ أحمد شاكر أن القضاء في الأموال والأعراض والدماء بقانون مخالف لشريعة أهل الإسلام، وإصدار قانون ملزم لأهل الإسلام، بالاحتكام إلى حكم غير حكم الله في كتابه وعلى لسان نبيه، إعراضٌ عن حكم الله، ورغبة عن دينه، وإيثار لأحكام أهل الكفر على حكم الله سبحانه وتعالى، وهذا كفر لا يشك أحد من أهل القبلة على اختلافهم في تكفير القائل به والداعي إليه.

---

(١) أوكار الهزيمة تجربتي في حزب البعث العراقي، هاني الفكيكي، ١٢٩.

(٢) سورة المائدة، رقم الآية (٣٨).

(٣) عمدة التفسير، ابن كثير، ٥/ ١٤٦- ١٤٧، تحقيق أحمد شاكر. (بتصرف يسير).

ثم استعرض الشيخ أحمد شاكر واقع الأمة الإسلامية، فقال: (والذي نحن فيه اليوم، هو هجر لأحكام الله عامة بلا استثناء، وإيثار أحكام غير حكمه في كتابه وسنة نبيه، وتعطيل لكل ما في شريعة الله، بل بلغ الأمر مبلغ الاحتجاج على تفضيل أحكام القانون الموضوع على أحكام الله المنزلة، وادعاء المحتجين لذلك بأن أحكام الشريعة إنما نزلت لزمان غير زماننا، ولعلل وأسباب انقضت، فسقطت الأحكام كلها بانقضائها)[١].

وقد أنكر الشيخ أحمد شاكر على موقف المدرسة العقلانية من معجزات الرسول ﷺ قائلاً: (لقد صار من كتابنا من ينكر المعجزات النبوية عامة - لأنها لم ترد في القرآن - زعموا! ثم يحرفون المعنى فيما ثبت منها في القرآن أو السنة المتواترة، ثم كشفوا عن وجوههم فضربوا على المسلمين قوانين أوربة الوثنية المجرمة الملعونة. وصاروا ينبزون الشرائع الإسلامية والأخلاق الكريمة التي هدانا الله إليها ورسوله - بالتقاليد وبالرجعية - لينفروا الناس منها)[٢].

وأنكر الشيخ أحمد شاكر على أعضاء الجمعيات القومية الذين ينكرون الدجال، فقال: (لعب المجددون، أو المجردون، في عصرنا الذي نحيا فيه، بهذه الأحاديث الدالة صراحة على نزول عيسى ابن مريم عليه السلام، في آخر الزمان، قبل انقضاء الحياة الدنيا، بالتأويل المنطوي على الإنكار تارة، وبالإنكار الصريح أخرى، ذلك أنهم - في حقيقة أمرهم - لا يؤمنون بالغيب، أو لا يكادون يؤمنون. وهي أحاديث متواترة المعنى في مجموعها، يعلم ما فيها من الدين بالضرورة. فلا يجديهم الإنكار ولا التأويل)[٣].

---

(١) عمدة التفسير، ابن كثير، ٥/ ١٥٧، تحقيق أحمد شاكر.

(٢) المصدر السابق، ١/ ٢٢٧.

(٣) مسند الإمام أحمد، تحقيق أحمد شاكر، ١٢/ ٢٥٧، التعليق على الحديث رقم (٧٢٦٧).

أوضحت مباحث الرسالة أن الجمعيات القومية قد سلكت في منهج الكفار، ونادت كما نادى الكفرة بتوحيد الأديان، وهذا التشبه بهم كما قال الرسول ﷺ: [لَيَحْمِلَنَّ شِرَارُ هَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى سَنَنِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلِ الْكِتَابِ حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ](١).

وعند تحقيق الشيخ أحمد شاكر الحديث الذي يرويه عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو رضي الله عنهما: [أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَى عَلَيْهِ ثَوْبَيْنِ مُعَصْفَرَيْنِ، قَالَ: هَذِهِ ثِيَابُ الْكُفَّارِ لا تَلْبَسْهَا](٢). علق الشيخ أحمد شاكر على الحديث ونبه على ما يدل عليه، فقال: (هذا الحديث يدل بالنص الصريح على حرمة التشبه بالكفار في اللبس وفي الهيئة والمظهر، ولم يختلف أهل العلم منذ الصدر الأول في هذا، حتى في هذه العصور المتأخرة، فنبتت في المسلمين نابتة ذليلة مستعبدة، هجيراها وديدنها التشبه بالكفار في كل شيء، والاستخذاء لهم والاستعباد..، فأصبح أمر التشبه بالكفار في اللباس والهيئة والمظهر والخلق وكل شيء، حتى صرنا في أمة ليس لها من مظهر الإسلام إلا مظهر الصلاة والصيام والحج على ما أدخلوا فيها من بدع، بل من ألوان التشبه بالكفار)(٣).

لقد أكد الشيخ أحمد شاكر على الهوية الصحيحة للمسلم، والرابطة الجامعة للمسلمين جميعاً، فقال: «إن الإسلام جنسية واحدة - بتعبير هذا العصر - وهو يلغي الفوارق الجنسية والقومية بين متبعيه، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾(٤)، والأدلة على ذلك متواترة متضافرة، وهو شيء معلوم من الدين

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل، ٤/ ١٢٥، ومعنى كلمة (الْقُذَّة): قطع أطراف الريش على مثال الحذف والتحذيف، وكذلك كل قطع نحو قذوة الريش. انظر: تهذيب اللغة، الأزهري، ٨/ ٢٧٣ (قذذ).

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل، ١٠/ ١٩. وانظر صحيح مسلم، كتاب اللباس والزينة، بَاب النَّهْيِ عَنْ لُبْسِ الرَّجُلِ الثَّوْبَ الْمُعَصْفَرَ، رقم الحديث (٣٨٧٢).

(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل، ١٠/ ١٩، تحقيق أحمد شاكر.

(٤) سورة المؤمنون، رقم الآية (٥٢).

بالضرورة، ولا يشك فيه أحد من المسلمين، ولم يتشكك فيه إلا الذين رباهم الإفرنج منا واصطنعوهم لأنفسهم حرباً على دينهم وعلى أمتهم من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون[١].

وهذا التأكيد من الشيخ أحمد شاكر ردٌّ على المبادئ الجاهلية التي دعت إليها الجمعيات القومية، بشأن تقديم الأخوة القومية على الأخوة الدينية، بل كما صرح مؤسسوها: «أن الحركة القومية التي ظهرت قد بنيت أساساً على المبدأ القومي»[٢]، وأن «الرابطة الدينية قد عجزت - كما يقول أعضاؤها - دائماً عن إيجاد الوحدة السياسية»[٣].

ثامناً) الشيخ محمد بن إبراهيم: لمكانة الشيخ محمد بن إبراهيم العلمية في العالم الإسلامي عامة، وفي الجزيرة العربية خاصة، فقد تولى منصب المفتي العام للمملكة العربية السعودية، ورئيس القضاء، وولي رئاسة رابطة العالم الإسلامي. وكانت هذه المكانة من أهم أسباب اطلاع الشيخ على بعض المبادئ القومية وقيامه بالرد عليها.

وفي ردود الشيخ يأتي جوابه على استفسار جامعة الدول العربية، عن موضوع اتحاد البلاد العربية في صيام شهر رمضان والفطر والحج، قال الشيخ رحمه الله: «إن هذه قضية مسلّمة والحق فيها معروف كالشمس، والفصل في ذلك قوله ﷺ: [صُومُوا لِرُؤْيَتِهِ وَأَفْطِرُوا لِرُؤْيَتِهِ، فَإِنْ غُبِّيَ عَلَيْكُمْ فَأَكْمِلُوا عِدَّةَ شَعْبَانَ ثَلاثِينَ][٤].

---

(١) كلمة الحق، أحمد شاكر، ١٥٢.

(٢) نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ٣٨ - ٣٩. وانظر: ما هي القومية؟ ساطع الحصري، ٢١٠.

(٣) المؤتمر العربي الأول، خطبة عبدالحميد الزهراوي، ٢٠

(٤) صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب إِذَا رَأَيْتُمُ الهلال فَصُومُوا، رقم الحديث (١٧٧٦).

إن الأمر الهام هو النظر في الأصول العظام التي يؤدي الإخلال بها إلى هدم الدين من أساسه، ومن تلك الأصول مسائل توحيد الله تعالى؛ بإثبات ما أثبت لنفسه في كتابه وأثبته له رسوله من الأسماء والصفات..، وكذلك توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية، وكذا توحيد الاتباع، وفي النزاع بين الناس لا يحتكم إلا إلى الكتاب والسنة، ولا يُحكم إلا بما جاء فيهما. وهذا هو مضمون الشهادتين اللتين هما أساس الملة..، وهذا هو التحقيق الذي عليه المعول، وعليه تعقد المجالس وتسعى المجتمعات لتحقيقه وتطبيقه. ولا أرى ولا أوافق على هذا المجتمع الذي يدعو إلى النظر فيما يتعلق بتوحيد (الأهلة) الصوم والفطر ونحوهما[1].

يقول طلاب الشيخ محمد بن إبراهيم: إن الشيخ كان له الإشراف التام على جميع الشؤون الإسلامية داخل المملكة وخارجها[2]، ومن اهتمامات الشيخ محمد بن إبراهيم دعوته إلى تأسيس جمعيات لتكون منابر إصلاح وتوجيه للأمة، يقول الشيخ رحمه الله: (مما يسرنا ويسر كل مسلم غيور على دينه أن يتكون من الجمعيات العامة، التي تهدف إلى إصلاح الأوضاع، والتمسك بأصل الدين وتعاليمه الشريفة، ومحاربة كل ما خالف الشريعة الإسلامية من البدع والخرافات والدجل، وكذلك ما هو أهم من ذلك ما يدخله الملحدون والزنادقة والمستشرقون وغيرهم، في أفكار بعض المسلمين من تشكيكهم في أصل دينهم وتضليلهم عن سنة نبيهم وشريعته، وتحكيم القوانين الوضعية المخالفة للشريعة الإسلامية، وأهم ذلك معرفة أصل التوحيد الذي بعث الله به رسوله محمداً وتحقيقه علماً وعملاً، ومحاربة ما يخالفه من الشرك الأكبر الذي يخرج من الملة أو من أنواع الشرك الأصغر، وهذا هو تحقيق معنى (لا إله إلا

---

(١) فتاوى الشيخ محمد بن إبراهيم، ٤/١٥٦، مطبعة الحكومة، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ.. (بتصرف في الصياغة).
(٢) المصدر السابق، ١/ ٢٠ (المقدمة).

الله)، وكذلك تحقيق معنى (محمد رسول الله) من تحكيم شريعته، والتقيد بها، ونبذ ما خالفها من القوانين والأوضاع وسائر الأشياء التي ما أنزل الله بها من سلطان[١].

والذي تحدث عنه الشيخ محمد بن إبراهيم ذكره غيره من علماء القرن الرابع عشر، قال الشيخ المعصومي عن الجمعيات الإصلاحية في العالم الإسلامي: (لقد رأينا الآن جماعة موحدين خالصين، يدعون الناس إلى التوحيد، ويجاهدون في الله حق الجهاد، ويحاربون المقلدين والخرافيين والدجالين، وقد أسست لهذا الغرض جمعيات للتعاون على نشر التوحيد وبثه، وهم في الحجاز ومصر والسودان وغيرها)[٢].

ومن القضايا التي حرص الشيخ محمد بن إبراهيم على تبليغها وأكد على لزوم الأخذ بها بعد تحقيق التوحيد ونبذ الشرك، قضية تحكيم الشريعة ونبذ القوانين الجاهلية. وهذه القضية أجمع علماء القرن الرابع عشر على التأكيد عليها والتحذير من مخالفتها.

فبين الشيخ أن الدين الإسلامي جاء بالخير والصلاح الدنيوي والأخروي، وهو صالح لكل زمان ومكان، ومتى تمسك الناس به واهتدوا بهديه وحكموه في جميع أمورهم، ولم يجدوا في أنفسهم حرجاً من أحكامه، وسلموا وانقادوا لذلك، فقد آمنوا حقاً، وسلكوا طريق النجاة والفلاح والفوز في الدنيا والآخرة.

وإذا أعرضوا عنه واستبدلوا به تشريعات جديدة وقوانين وضعية وضعها أعداء الشريعة وخصوم الإسلام، ودخلت على المسلمين باسم الحضارة والمدنية وجعلوها

---

(١) المصدر السابق، ١٠/ ٨ - ٩.

(٢) هل المسلم ملتزم باتباع مذهب معين من المذاهب الأربعة؟ محمد سلطان المعصومي، ٣٩، دار المعرفة، دمشق، حلبوني، الطبعة الثالثة، ١٣٩٨هـ.

المرجع لهم عند النزاع، والدستور المقدس في جميع شؤونهم واعتقدوها أحكم وأكفل لمصالحهم مما شرعه الله ورسوله، فإنهم إلى خسران مبين[1].

وحذر الشيخ محمد بن إبراهيم الأمة من فئة تريد الضلال للأمة، قال فيهم: (الذين لا يحترمون الشرائع ولا يعظمون الله، أرادوا إضلال الناس بالقوانين الملعونة الإفرنجية، فهم يقعون في أهل الشريعة، ويقولون: إن الشريعة لا يحصل بها قطع النزاع وليس فيها بيان الحق).

إن هذه الشبهة التي أثارها من لا يحترم الشريعة ولا يعظم الله، هي في الحقيقة كما قال الشيخ محمد بن إبراهيم: (روح المصادمة والمحاربة لما جاء به الرسول ﷺ من الشرع المطهر، ووضع شبه تصد عن الصراط المستقيم - وهو عبادة الله وحده -، فهم سعوا في أن يصدوا عن تحكيم الرسول ﷺ فيما جاء به، والله يقول: ﴿**فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾[2]، ثم السلامة من النزاع الذي زعموه هو لازم لهم فيما وضعوه، وهذا يلزمهم لزوماً لا محيد لهم عنه، ولهذا يبدلون دائماً)[3].

وفي معرض الحديث - عن الآيات التي اعتقد أعضاء الجمعيات القومية أن لهم فيها دليلاً على موالاة النصارى، وهي قوله تعالى: ﴿**لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ**﴾[4] - قال الشيخ: (لم يرد به جميع النصارى لأنهم في عداوتهم للمسلمين كاليهود في قتلهم

---

(١) فتاوى الشيخ محمد بن إبراهيم، ٦/ ٥٤.
(٢) سورة النساء، رقم الآية (٦٥).
(٣) فتاوى الشيخ محمد بن إبراهيم، ٢/ ٦.
(٤) سورة المائدة، رقم الآية (٨٢).

المسلمين، وأسرهم، وتخريبهم بلادهم، وهدم مساجدهم، وإحراق مصاحفهم، لا ولا كرامة لهم، بل الآية فيمن أسلم منهم مثل النجاشي وأصحابه.

وأما عن جواز لعن من لم يؤمن بمحمد ﷺ من النصارى فلا يحصى ما جاء به من الأدلة القطعية عليه، منها ما ورد عَنْ عَائِشَةَ رَضِي اللَّه عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي مَرَضِهِ الَّذِي لَمْ يَقُمْ مِنْهُ: (لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ)[1].

ثم قال الشيخ محمد بن إبراهيم: والخلاصة: أن الآيات لا تعني جميع النصارى، بل إنما تعني طائفة منهم استجابت للحق بعدما عرفته ولم تستكبر عن اتباعه، وأن لعنة النصارى جائزة مثل لعنة اليهود)[2].

تاسعاً) مصطفى صادق الرافعي: اتخذت الجمعيات القومية العربية أسماءً أدبية، وسلك كثير من أعضائها المجالات الأدبية، واتخذ الأدب العربي عند أولئك الأعضاء ستاراً للتّحلُّل من الدين.

وقد وقف علم من أعلام الأدب العربي، أمام المخالفات العقائدية باسم الأدب عند أعضاء الجمعيات القومية، وعرّف مقاصدهم والأهداف التي يسعون إليها، وقد قال عن أهداف ومبادئ الجمعيات القومية العربية: (إنهم مهما عملوا فإنهم لا يعدون أن يجتذبوا إليهم طائفة من ضعاف شبابنا المتفرنجين يناصرونهم بما تعده الأمة خذلاناً، ويزيدون فيهم بما لا تشعر به الأمة زيادة أو نقصاناً، وذلك أنهم يغفلون عن الروح الدينية التي ينشأ عليها المسلمون - أهل هذه العربية - في جهات الأرض، وأن هذه الروح قائمة على نفي العصبية والوطنية كالمصرية وغيرها، فقد كانت هذه

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، بَاب مَا جَاءَ فِي قَبْرِ النَّبِيِّ وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، رقم الحديث (١٣٠١).
(٢) فتاوى الشيخ محمد بن إبراهيم، ١/ ٦٨.

العصبية عامة في قبائل العرب حتى محاها الإسلام، فأنزل الله سكينته على رسول الله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وجعلهم أخوة، ثم نفاها النبي ﷺ ونفى المؤمنين بها بقوله: [ليس منا من دعا إلى عصبية].

فإن شذ عن الجماعة فئة من شبابنا قد أخذوا بغير أخلاق هذا الدين ونشؤوا في غير قومه وعلى غير مبادئه، فرأوا فيه بظنونهم، وقالوا برأيهم، ورضوا ما لا يرضاه لأهله، فهؤلاء مهما كثروا لا يستطيعون أن يحدثوا حدثاً، بل يفنون والجماعة باقية، وينقصون والأمة نامية[١].

كما تنبه مصطفى صادق الرافعي إلى مقصد الجمعيات القومية من إطفاء الروح الدينية وتربية الناشئة على التعصب للمبادئ الجاهلية، وحذر من قضيتين سعى إليها أعضاء الجمعيات القومية، وهما:

١) **استغلال الأدب لهدم الدين**: فقال: (يريدون هدم الأمة في لغتها وآدابها، خدمة لمبدأ الاستعمار الأوربي، ومنهم من لا يحاول هدم الأمة بلغتها وآدابها لا حباً باللغة والآداب، ولكن علماً باستحالة تنصل العرب من لغتهم وآدابهم، ولذلك ترى هؤلاء دعاة إلى اللغة والآداب على شرط أن لا يكون ثمة قرآن ولا حديث، وأن تكون الصبغة لا دينية، وحجتهم في ذلك حب التجديد، وكون القرآن والحديث وكلمات السلف، كلها من القديم الذي لا يتلاءم مع الروح العصرية في شيء..، وإن روح القومية هي السائدة في هذا العصر، فالدين والمعاصرة نقيضان لا يجتمعان)[٢]، لذا يُهجر الدين ويُتمسك بالمبادئ القومية.

---

(١) تحت راية القرآن، مصطفى صادق الرافعي، ٦٥ - ٦٦. دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة السابعة، ١٣٩٤هـ.
(٢) تحت راية القرآن، مصطفى صادق الرافعي، ٣٧.

٢) الاستغناء بالقوانين عن الدين: (قد يقال: إن الحكومات والقوانين تغني عن الدين في ذلك أو تغني غناءه، وهذا وهم جربته الإنسانية لعصرنا في حكومة البلشفيك - روسيا - فأسقطت الدين وأقامت القوانين، فلم يكن من ذلك إلا سقوط الإنسانية نفسها. وصارت القوانين لحماية الرذائل بعد أن كانت للحماية منها، وما فشا الإلحاد في أمة من الأمم إلا مسخ من نفوس أهلها، فنزل بها حالة بعد حالة..، والدين الإسلامي خاصة، بما فيه من الأعمال والآداب التي لا تقوم الإنسانية على أفضل، ولا أثبت، ولا أقوى منها، يجعل لعلمائه من الشأن ما لا يستطيع إنكاره إلا أحمق مدخول العقل، أو مفسد مدخول النية)[١].

عاشراً) علي حامبة[٢]: لقد عاصر الشيخ علي حامبة المؤامرة التي حبكت خيوطها ضد مقام الخلافة، التي سعى إلى إلغائها أعضاء الجمعيات القومية العربية مع القوميات الأخرى، ولهذا كان الشيخ يؤكد على حماية مقام الخلافة، قائلاً: (إن الانتماء إلى الخلافة هو نتيجة حتمية لأن التماسك الديني الشديد بين المسلمين يشدهم جميعاً إلى الخلافة رافعة لواء الرسول الأعظم، وإن الآستانة ما هي في نظر المسلمين إلا مركز للإسلام كما هي روما بالنسبة للكاثوليكيين).

كما ناهض الجامعة القومية عندما أكد أن التونسيين ينتمون إلى الجامعة الإسلامية كما ينتمون في نفس الوقت إلى الخلافة، وإنه لا يخطر على بال أحدهم

---

(١) تحت راية القرآن، مصطفى صادق الرافعي، ٣٥٩.

(٢) علي بن مصطفى بن علي الشريف باش حامبة التونسي المولد، التركي الأصل، منشئ حزب (تونس الفتاة) سنة ١٩٠٧م، تعلم في جامع الزيتونة، ودرس الحقوق بباريس. عمل على توحيد المغرب العربي في الكفاح، أصدر صحفاً أولها (التونسي) بالعربية والفرنسية، واعتقله الفرنسيون ونفوه من البلاد، فتوجه إلى الآستانة ودخل في الوظائف الحكومية بها، فكان مستشاراً لوزارة الخارجية سنة ١٩١٦م، توفي بالآستانة سنة ١٩٢٦م (١٣٣٦هـ)، ونقل رفاته إلى تونس سنة ١٩٦٢م. انظر: الأعلام، الزركلي، ٥/ ٢٢، وتراجم المؤلفين التونسيين، محمد محفوظ، بيروت، دار المغرب الإسلامي، ١٩٨٤م.

أمر زوال السيادة العثمانية، وأنهم يحتفظون بتعاطف كبير تجاه إخوانهم في جميع البلدان الإسلامية[1].

الحادي عشر) محمد حامد الفقي: بينت الدور القومي الذي قام به (حسين بن علي) في احتواء أعضاء الجمعيات القومية، ومكاتبة الدول الصليبية وطلب الحماية منهم، كما ذكرت سعي أعضاء الجمعيات القومية العربية وتنسيقهم مع (فيصل بن الحسين) من أجل تنصيب الحسين بن علي خليفة للبلاد العربية، لتتحقق أماني أعضاء الجمعيات القومية في الاستقلال عن الدولة العثمانية.

وبعد أن كشفت الدول الصليبية عن حقيقتها ومقصدها، أرسل الملك الحسين بن علي رسالة إلى عموم الشعب البريطاني، وذكر في رسالته الأعمال الجليلة التي قدمها مع جيشه لدول الحلفاء، ثم بين النهاية المخزية للعرب من جراء هذا التعاون حيث يقول: «..كانت وثائق رجال السياسة المكتوبة والموجودة بيدي وسائر تصريحاتهم الرسمية والخاصة في كل مجلس وناد، مجمعة على القول بأن العرب سيكافؤون على إخلاصهم هذا باستقلالهم ووحدتهم وزوال ما كان يساورهم من محنة اعتماداً وثقة بالمجد والسؤدد البريطاني».

ثم قال الملك الحسين بن علي: «أناشد الأمة البريطانية إلى ما وقع على حلفائها العرب - على قلة ما في العالم من حلفاء اليوم - فقد أصبحت وحدتهم ممزقة، وبلادهم محتلة متفرقة، مما جعل العالم الإسلامي خصوصاً بل أكثر أقوامي أيضاً يرميني بأنني بعت البلاد لبريطانيا وحلفائها..، ورجائي إلى الأمة البريطانية العزيزة

(١) الحزب الحر الدستوري التونسي (١٩١٩، ١٩٣٤م)، يوسف مناصرية، ٢٣٠، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

إنصاف العرب حلفائها الأوفياء ومعاهديها الأمناء، ولأن يكون لها حليف مخلص قوي له وحدته واستقلاله أفضل من تركه ممزقاً ذليلاً كما هي حالة العرب اليوم. ولا يعلم إلا الله أين ينتهي بهم اليأس والقنوط فقد طفح الكيل وبلغ السيل الزبى، (مكة المكرمة - القصر الهاشمي - ١٥/ ٤/ ١٣٤٢هـ)[١].

لم تُتْرك هذه الثورة تقرر واقع الأمة دون نقد من علمائها العاملين، فقد جاءت رسائل نقد وتوجيه من بلاد الهند[٢] تخطئ ثورة الحسين بن علي، كما أنكرها عدد من العلماء لموالاتها للكفار، ومن هؤلاء الشيخ محمد حامد الفقي الذي بيّن بقوله: (إنه ما وهن أمر المسلمين ولا ضل سعيهم إلا يوم عميت عليهم السبيل. وأفلت من أيديهم حبل الله المتين، وخرج من بين نواجذهم سنة الله وسنة رسول الله وهداه، حين عادت ظلمات الجاهلية تخيم على القلوب، ورجعت وثنياتها تحطم المعاقل، وتدك الحصون، وتفرق الأمة شيعاً وأحزاباً كل حزب بما لديهم فرحون).

ولما كان هذا حال المسلمين وواقعهم، وابتعادهم عن كتاب الله وسنة رسوله، كانت النتيجة التي ذكرها الشيخ: (تمكن العدو من أن يتخذ من تلك الأحزاب غذاء له، ولشهواته وأهوائه مدداً، حتى غرس في جنوبهم أشواكه، وأنشب في قلوبهم مخالبه وأنيابه، يمتص من عصارات حياتهم ليقوى، يأكل من أشلائهم ليزداد تمكناً، ولو شاء ربك ما فعلوه، وكان أمر الله قدراً مقدوراً. ولو أن الحسين بن علي - شريف مكة -، لم يسمع ويخنع للإنجليز، ويجيش العرب لحرب العثمانيين - الذين كان لهم الفضل الأكبر عليه، وكانوا على دينه وإسلامه -، طمعاً بجاهلية، في أن تمكن له الإنجليز من تحقيق أحلام وخيالات..، وما كان ذلك كله ولا تكون أمثاله، إلا بسبب ما خيم

---

(١) جريدة القبلة، السنة الثامنة، العدد ٧٥٤، بتاريخ ٨/ ٦/ ١٣٤٢هـ، ١٤/ ١/ ١٩٢٤م.

(٢) انظر: المصدر السابق، السنة الأولى، العدد ٢٦، بتاريخ ١٧/ ١/ ١٣٣٥هـ، ص: ٢.

على القلوب من ظلمات الجهل، والإعراض عن هدي الله وهدي رسول الله، ففي طواية هذه الظلمات استطاع العدو أن يعيث بالمسلمين الجاهليين الغافلين ما شاء، وأن يخدعهم عن دينهم)[1].

وأثناء فترة الحرب وإعلان الحسين بن علي الثورة العربية ضد الدولة العثمانية، ذكر جمال باشا في مذكراته أن الشيخ بدر الدين الحسني قد أفتى فيمن ناصر الدول الصليبية، بقوله: (لقد جعل الله عز وجل لمن يعمل لإيجاد الشقاق والفوضى في صفوف المؤمنين والسعي بالفساد في الأرض ثلاث عقوبات: القتل والصلب، وتقطيع الأيدي والأرجل من خلاف، والنفي من الأرض، فقال جل ثناؤه: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾[2].

فالعقوبة تكون مناسبة لحال الجريمة، وما يترتب عليها من الضرر بالمسلمين ومن في حكمهم، والفساد والاضطراب اللذين يلحقان بالأمة والدولة، ونحن الآن نخوض مع العالم الإسلامي غمار حرب، تطحن الناس طحناً، وما القوم الذين يكيدون للإسلام والمسلمين، ويدسون الدسائس، لتمزيق الجماعة، وتفريق الكلمة، وشق عصا الاتحاد، وإضعاف الأمة، وكسر الشوكة، ويعصون الله ورسوله بإيجاد الفتنة بين المسلمين حتى يقتل بعضهم بعضاً، إلا وراءه خطر يجب درؤه)[3].

---

(١) مقدمة مختصر سيرة الرسول، عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب، ٦، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض.

(٢) سورة المائدة، رقم الآية (٣٣).

(٣) مذكرات جمال باشا، ٢٤٠. مع الملاحظة أن بعض من كتب عن هذه المرحلة التاريخية من القوميين، قال: «إن فتوى الشيخ بدر الدين منسوبة إليه، وأخذها جمال باشا حجة لتبرير إعدامه لمجموعة من أعضاء الجمعيات القومية». انظر: الإسلام وحركات التحرر العربية، شوقي أبو خليل، ١٤٦، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ.

الثاني عشر) الشيخ أبو الأعلى المودودي: القضايا التي أثارتها الجمعيات القومية العربية في واقع الأمة لا تخص العرب دون غيرهم، فالقضايا تمس العقيدة والدين الإسلامي. ولهذا وقف العلماء الربانيون في مختلف أجزاء العالم الإسلامي في وجه الباطل، ومن هؤلاء العلماء الشيخ أبو الأعلى المودودي الذي عاصر آثار الجمعيات القومية العربية في الأمة الإسلامية، فقد ولد المودودي عام (١٣٢١هـ - ١٩٠٣م)[١].

بيّن الشيخ المودودي سبب نشأة الجمعيات القومية العربية، وأنها متفقة مع التيار القومي، الذي يعيشه العالم الإسلامي كما عاشه العالم النصراني، بقوله: (إن الزعامة التركية تنزع نزع القومية التركية، وتنطبع بالفكرة العلمانية التي جاء بها الشبان الأتراك المتعلمون من الغرب، وإن أعداء الإسلام أنشؤوا كذلك جواباً على القومية التركية حركة القومية العربية. ونتيجة لذلك بدلاً من أن يكون المسلمون أتراكاً وعرباً يداً واحدة في الحرب الكونية الأولى صاروا على طرفي نقيض).

عاصر الشيخ المودودي قرار إلغاء الخلافة والدعوة إلى الحكم العلماني، فقال الشيخ: (ما أحمق الأتراك الذين حاولوا تغيير وجهة الخلافة إلى اللادينية! وحاولوا إقامة الدولة على أساس القومية التركية، وكذلك ما أجهل الزعماء العرب الذين وقعوا في مكيدة النصارى واليهود! واتخذوا القومية العربية ديناً لهم، وعاضدوا الإنجليز في الحرب، وبالتالي مكنوهم من السيطرة على البلاد العربية ومنها الأماكن المقدسة)[٢].

إن حقيقة الانتماء بين المسلمين هي الأخوة الإيمانية، دون اعتبار لرابطة اللغة أو اللون أو العوامل التاريخية، وهذا ما نادى به المودودي في الأمة الإسلامية منكراً

---

(١) أبو الأعلى المودودي حياته وفكره العقدي، حمد الجمال، ٧٧، دار المدني، جدة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

(٢) مجلة أضواء الشريعة، العدد الحادي عشر، مجلة دورية تصدرها كلية الشريعة بجامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية، سنة ١٤٠٠هـ، ص ٥٠٤ وما بعدها: مقال: خليل أحمد الحامدي.

مبادئ الجمعيات القومية العربية، بقوله: (إن المسلمين ليسوا عبارة عن قومية، بل هم عبارة عن أمة عقائدية غايتها التي أخرجت لأجلها الدعوة إلى الخير وقمع المنكر وترويج المعروف)[١].

الثالث عشر) الشيخ محمد ناصر الدين الألباني: لقد خدم الشيخ محمد ناصر الدين الألباني السنة النبوية، من جانب تمييز صحيحها من ضعيفها، وكذلك نشرها، وتأصيل مبدأ أنها المصدر الثاني من مصادر التشريع لهذا الدين[٢].

وقد كان للشيخ الألباني تعليقات مفيدة على بعض الأحاديث، ضمنها نقده للمبادئ التي أرادت الجمعيات القومية العربية نشرها في الأمة.

فمن هذه التعليقات قوله عند نقده لحديث: [أنا عربي، والقرآن عربي، ولسان أهل الجنة عربي] قال الشيخ الألباني: (ومما يدل على بطلان نسبة هذا الحديث إليه ﷺ أن فيه افتخاره بعروبته، وهذا شيء غريب في الشرع الإسلامي لا يلتئم مع قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[٣]، وقوله ﷺ: [لا فضل لعربي على عجمي... إلا بالتقوى] ولا مع نهيه عن الافتخار بالآباء في قوله ﷺ: [إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخْرَهَا بِالآبَاءِ، مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ، أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ، لَيَدَعَنَّ رِجَالٌ فَخْرَهُمْ بِأَقْوَامٍ، إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ مِنْ فَحْمِ جَهَنَّمَ، أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الْجِعْلَانِ الَّتِي تَدْفَعُ بِأَنْفِهَا النَّتِنَ][٤].

---

(١) مجلة أضواء الشريعة، العدد الحادي عشر، سنة ١٤٠٠هـ، ص ٥٠٤ وما بعدها.

(٢) انظر: حياة الألباني وآثاره وثناء العلماء عليه، محمد الشيباني، الدار السلفية، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

(٣) سورة الحجرات، رقم الآية (١٣).

(٤) سنن أبي داود، كتاب الأدب، بَاب فِي التَّفَاخُرِ بِالأَحْسَابِ، رقم الحديث (٤٤٥٢).

فإذا كانت هذه توجيهاته ﷺ لأمته فكيف يعقل أن يخالفهم إلى ما نهاهم عنه؟[1] هذا تأكيد من الشيخ الألباني على نقد الاعتزاز بالقومية العربية والدعوة إليها، لأن الاعتزاز والافتخار بها من مخالفات الشريعة.

إن أهم مبدأ قررته الجمعيات القومية العربية الافتخار بالعروبة والدعوة إلى القومية العربية، ورغبة في قبول هذا الأمر لدى الأمة نادت الجمعيات: إن عز الإسلام محصور بعز العرب، وإن ذل الإسلام ذل العرب.

في هذه القضية تحدث الشيخ الألباني عند نقده لمبادئ الجمعيات القومية، قائلاً: (إن الإسلام لا يرتبط عزه بالعرب فقط، بل قد يعزه الله بغيرهم من المؤمنين، كما وقع ذلك زمن الدولة العثمانية؛ لا سيما في أوائل أمرها، فقد أعز الله بهم الإسلام حتى امتد سلطانه إلى أواسط أوربا، ثم لما أخذوا يحيدون عن الشريعة إلى القوانين الأوربية (يستبدلون الأدنى بالذي هو خير) تقلص سلطانهم عن تلك البلاد وغيرها، حتى لقد زال عن بلادهم، فلم يبق فيها من المظاهر التي تدل على إسلامهم إلا الشيء اليسير، فذل بذلك المسلمون بعد عزهم، ودخل الكفار بلادهم واستذلوهم إلا قليلاً منها، وهذه وإن سلمت من استعمارهم إياها ظاهراً، فهي تستعمرها بالخفاء تحت ستار المشاريع الكثيرة كالاقتصاد ونحوه.

فثبت أن الإسلام يعز ويذل بعز أهله وذلهم سواء كانوا عرباً أم عجماً، [ولا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى][2].

وعند حديث الرسول ﷺ: [إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ إسماعيل، وَاصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إسماعيل بَنِي كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي كِنَانَةَ قُرَيْشًا، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي

(١) سلسلة الأحاديث الضعيفة، ١/ ١٩٣، التعليق على حديث رقم ١٦١.
(٢) مسند الإمام أحمد، ٥/ ٤١١.

هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ][1] علق الشيخ قائلًا: «لا ينبغي أن يحمل العربي على الافتخار بجنسه، لأنه من أمور الجاهلية التي أبطلها نبينا محمد العربي ﷺ».

والذي أكده الشيخ الألباني استحقاق العرب للأفضلية التي أشار إليها الحديث السابق بأنها (ما اختصوا به في عقولهم وألسنتهم وأخلاقهم وأعمالهم، الأمر الذي أهّلهم لأن يكونوا حملة الدعوة الإسلامية إلى الأمم الأخرى، فإنه إذا عرف العربي هذا، وحافظ عليه، أمكنه أن يكون مثل سلفه عضواً صالحاً في حمل الدعوة الإسلامية، أما إذا هو تجرد من ذلك فليس له من الفضل شيء، بل الأعجمي الذي تخلق بالأخلاق الإسلامية هو خير منه دون شك ولا ريب، **إذ الفضل الحقيقي إنما هو اتباع ما بعث به محمد** ﷺ من الإيمان والعلم، فكل من كان فيه أمكن كان أفضل.

إن دليل الأفضلية لمن اتبع ما بُعث به الرسول ﷺ قول الرسول ﷺ فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ**﴾[2]، قَالَ: [يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ - أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا - اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ، لا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ لا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِالْمُطَّلِبِ لا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ لا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا][3].

وقد حدد الشيخ الألباني مجال التفاضل بأنه (الأسماء المحددة في الكتاب والسنة، مثل الإسلام والإيمان، والبر والتقوى، والعلم والعمل الصالح، والإحسان

---

(1) مسند الإمام أحمد، ٤/١٠٧، وسنن الترمذي، كتاب المناقب، بَاب فِي فَضْلِ النبي ﷺ، رقم الحديث (٣٥٣٨) وقال الترمذي: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(2) سورة الشعراء، رقم الآية (٢١٤) وانظر: تفسير الطبري، ١٩/١١٨. وأسباب النزول، السيوطي، ٢٠٨.

(3) صحيح البخاري، كتاب الوصايا، بَاب هَلْ يَدْخُلُ النِّسَاءُ وَالْوَلَدُ فِي الأَقَارِبِ؟ رقم الحديث (٢٥٤٨).

ونحو ذلك، لا بمجرد كون الإنسان عربياً أو أعجمياً)[١].

الرابع عشر) الشيخ أبو الحسن الندوي: لم يكن التصدي لمواقف ومبادئ الجمعيات القومية قاصراً على أرض العرب وعلمائها، بل امتدت ساحة المواجهة إلى أرض الهند وعلمائها، وأثناء بحثي في أعداد متفرقة من جريدة القبلة، كنت أجد الرسائل العديدة، الصادرة عن علماء الهند والمرسلة لرئيس تحرير الجريدة، تنتقد فيها مبادئ الدعوة إلى القومية العربية.

ويسجل التاريخ المعاصر مخلداً الموقف الإيجابي الذي وقفه مسلمو الهند من قضية الخلافة، إذ وصل بهم الحرص على الخلافة أن الإنجليز، - وهم المسيطرون على أرجاء الهند[٢] - قد عجزوا أن يجدوا في مسلميها من يقبل التطوع في صفوفهم لقتال الدولة العثمانية، أثناء الحرب العالمية الأولى، لأنها في يقينهم تمثل الخلافة التي لا يجوز لمسلم الخروج عليها، حتى اضطر الإنجليز لتوسيط زعماء العرب لإقناعهم بما يريدون فلم يجدوا منهم إلا الصد والنقد[٣].

ومن علماء الهند الذين كان لهم موقف من مبادئ الجمعيات القومية العربية، الشيخ أبو الحسن الندوي وهو من أسرة عربية عريقة، قال الشيخ عبدالعزيز بن باز، أثناء عرض موقف الندوي من مبادئ الجمعيات القومية العربية: (لقد أحسن الكاتب الإسلامي الشهير أبو الحسن الندوي في رسالته المشهورة (اسمعوها مني صريحة أيها العرب)، وقال الشيخ ابن باز بعد أن استعرض بعض آرائه: (فتأمل أيها القارئ كلمة هذا العالم العربي الحسني الكبير، الذي قد سبر أحوال العالم وعرف نتائج الدعوة إلى

(١) سلسلة الأحاديث الضعيفة، ١/ ١٩٦، التعليق على حديث رقم (١٦٣).

(٢) انظر: كفاح المسلمين في تحرير الهند، عبدالمنعم النمر، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٨٣هـ.

(٣) علماء ومفكرون عرفتهم، محمد المجذوب، ١/ ١٤٠، دار الشواف، الرياض، الطبعة الرابعة، ١٩٩٢م.

القوميات وسوء مصيرها)[(١)].

إن أقوال الشيخ الندوي وتقريراته في مسألة القومية العربية، يدل على اطلاعه ومعرفته لخطط المستعمرين، ولذلك قال عن أصل تأسيس الجمعيات على مبدأ القومية العربية: (كان تقرير هذا الوثن - القومية - من أقوال بعض المسلمين أو النصارى العرب، حيث أصبح العرب المسلمون في ذلك فريسة سهلة لدهاء الأقلية غير المسلمة في الشرق العربي التي يتوقف مصيرها على انتشار فكرة القومية العربية، وحلولها محل الدين الإسلامي، والتي تستطيع أن تصل عن طريقها إلى مركز الزعامة والقيادة والتوجيه في العالم العربي[(٢)]. ودليل هذا أن الأسماء البارزة في الجمعيات القومية العربية التي تولت التنظير والتخطيط كانت من نصارى العرب، كما سبق بيانه.

ذكر الشيخ الندوي أن النصر والغلبة والسيادة في الأرض - وهي من الأمور التي تزعم أنها تسعى لتحقيقها الجمعيات القومية العربية - هو وعدٌ من الله العزيز الحكيم كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[(٣)]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾[(٤)].

وبين الشيخ الندوي أن وعد الله بالانتصار وبالغلبة وبالعلو وبالسيادة في الأرض لن يكون إلا للذين تحققت فيهم صفة الإيمان، وتجلت فيهم حقيقته، فقال: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[(٥)].

---

(١) نقد القومية العربية على ضوء الإسلام والواقع، عبدالعزيز بن باز، ١٨.

(٢) العرب والإسلام، أبو الحسن الندوي، ٢٠، مكتبة المنارة، مكة المكرمة، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ.

(٣) سورة محمد، رقم الآية (٧).

(٤) سورة الصافات، رقم الآيات (١٧١ - ١٧٣).

(٥) سورة آل عمران، رقم الآية (١٣٩).

هدي الرسول ﷺ وسيرته يعكسان حقيقة هذا المبدأ، قال الندوي عن سيرة الرسول ﷺ: «إنه لم يعد بشيء من ذلك - من النصر والفتح والظفر والغلبة والعلو والسيادة - على الأهواء والنزعات، والطموح والكبرياء وحب المجد - الفردي أو القومي - وشرف الدماء والأنساب والبلاد، والعصبيات والقوميات. فلم يتقدم الرسول ﷺ بشيء من ذلك إلى العالم ولم يطلب به النصر، مع أنه ﷺ من أشرف الأمم، وأفضل البيوتات، وأقدس البلاد.

إنما تقدم ﷺ بدعوة دينية، ومنهج خاص للحياة، لا غنى للأمم وطوائف البشر عنه، على اختلاف أوطانها وألوانها ولغاتها، فمن نتائج الدعوة المبنية على الدين دون الأمور الأخرى أن القبائل والأمم كما قال الندوي: قد خضعت لدعوته ولم تعقها عن ذلك عصبية أو قومية، لأنه لم يكن من دعاة عصبية أو جاهلية وإنما كان داعي دين للإنسانية، وداعي عقيدة ومبدأ فاضل للحياة، ونصره الله على قلة وضعف وفقر، ونصر كل من قام بهذه الدعوة الدينية[1].

الخامس عشر) الأستاذ عبدالله التل: تناول المؤامرة التي تُكاد ضد الدين الإسلامي، والتي توجهها المنظمات الصليبية أو الجمعيات اليهودية، وكانت له جهود في تعرية جذور البلاء التي غرست في الأمة الإسلامية ومنها الجمعيات القومية العربية.

كما قام بالرد على ما تنادي به مجلات الجمعيات القومية، فقد انتقد[2] مقالة أحمد زكي في مجلة العربي، الذي قرر ما قررته مبادئ الجمعيات القومية بأن للناس أن تسلك إلى الله أي طريق تشاء، وأن الناس عباد الله وكل سالك إليه سبيلاً[3].

(١) رسالة مسجد الجامعة، ٣/ ١٨٦.

(٢) انظر: جذور البلاء (القسم الأول)، عبدالله التل، ٢٦٢، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥هـ.

(٣) مجلة العربي، العدد الأول، ديسمبر ١٩٥٨م، مقال أحمد زكي، افتتاحية العدد.

ولما كان الأستاذ عبدالله التل قد اطلع على كثير من جذور البلاء في الأمة، فقد ضرب أمثلة على هذا البلاء، ومنها الأحزاب والجمعيات القومية، التي قال عنها: (الأحزاب والحركات العربية العلمانية الملحدة أخفقت في جميع أعمالها - في كثير من أعمالها - لأنها كانت منذ نشأتها وما تزال تعمل بمعزل عن الشعوب العربية المؤمنة، وعجزت تلك الأحزاب والحركات عن إدراك الاختلاف الكبير بين الإسلام الذي هو دين ودنيا، وبين الكهانة التي أرغمت حكومات الغرب على اتباع العلمانية).

وعن مساعي الجمعيات القومية العربية لتحقيق أهدافها قال: (لقد ثبت أن تلك الأحزاب والحركات العلمانية كانت - ببعدها عن الإسلام - تبني على رمل، وسرعان ما انهار بنيانها، وغدت اليوم موضع سخرية الأمة، وعامل تخريب وتعويق لحركة التطور العربي، والوحدة العربية).

وسبب انهيار أهداف الجمعيات العربية يعود كما قال الأستاذ إلى: (السبب الرئيس في ذلك هو أن الأحزاب والحركات العلمانية، التي تنتشر اليوم في الوطن العربي من المحيط إلى الخليج، قد تخرجت في مدارس الغزو الثقافي الغربي التي استطاعت أن تفصل بين ضحاياها من العرب وبين أصولهم العريقة المجيدة، وعلى رأس تلك الأصول القرآن الكريم.

وجاءت دساتير تلك الأحزاب والحركات المكتوبة وغير المكتوبة، خالية من أية إشارة إلى الجانب الروحي في حياة الأمة، وما انطوى عليه ذلك الجانب من قوة كامنة جبارة، وأصبح آلاف الشباب العرب ممن استهوتهم تلك الأحزاب والحركات، يعيشون في متناقضات عجيبة، ألسنة حداد وقلوب فارغة، فبينما هم يتشدقون بالقومية العربية ومقومها الأول اللغة العربية، نجدهم يثقفون أنفسهم بالتهام قصص الجنس من

المجلات الرخيصة، وينفرون من ذكر القرآن الكريم الكتاب الذي حفظ اللغة العربية، ويعدونه أثراً من آثار الماضي).

وبعد نقده للجمعيات القومية العربية ذكر طريق الخلاص، وهو العودة إلى الدين، فقال الأستاذ عبدالله: (ولا يمكن تحقيق الوحدة العربية إلا بعودة المسلمين إلى دينهم، والقضاء على موجة الإلحاد والفساد التي تعم شباب العرب في كل مكان، والقضاء نهائياً على الأحزاب والحركات العلمانية التي مزقت الأمة العربية)(١).

السادس عشر) المؤتمر العالمي للدعوة وإعداد الدعاة: كانت من توصيات المؤتمر العالمي للدعوة وإعداد الدعاة، المنعقد في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ٢٤ - ٢٩/ ٢/ ١٣٩٧هـ: اعتبار القومية من الدعوات والاتجاهات المضادة للإسلام: كالباطنية، والبهائية، والقاديانية، والتبشير، والاستشراق، والرأسمالية الطاغية..، واليهودية العالمية، والعلمانية، والإباحية(٢).

السابع عشر) المجلات والدوريات الإصلاحية: من أبرز المنابر الإعلامية التي اتخذها العلماء المصلحون للرد على مبادئ الجمعيات القومية العربية، منبر الصحافة والدوريات، وكان لهؤلاء العلماء جهد يذكر ويشكر في هذا المجال.

سبق الحديث عن استغلال الجمعيات القومية للصحافة في نشر مبادئها، وأكدت بعض المجلات الإصلاحية هذا الأمر، جاء في مجلة (الأزهر): (إن كثيراً من أنهار بعض الصحافة، يسيطر عليها طائفة من المتحللين والملحدين والمتفسخين في

---

(١) خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية، عبدالله التل، ٤٠٤، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٣٩٩هـ.

(٢) أبحاث المؤتمر، المجلد الخامس: بحث المذاهب والاتجاهات الإلحادية والمعادية للإسلام والفرق المرتدة والزائغة في هذا العصر وموقف الإسلام والمسلمين منها، ٤٠ - ٤١.

أخلاقهم وعقائدهم، الذين يتخذون الصحافة مرتعاً خصيباً وميداناً رحيباً لبث دعاواهم الإلحادية، وإذاعة مبادئهم التحللية، وهم ينشرون وباءهم في جرأة، ويتواصون بإذاعة المنكر في عزيمة، ويتعاونون على الإثم والضلال في قوة، ويستغلون بعض الظروف، ويتسترون وراء بعض الحواجز والأستار، ويبثون ما يبثون بلا وازع أو رادع.

وإذا اعترض عليهم أحد في ذلك قالوا: إن هذا الاعتراض عدوان على حرية الرأي وحرية الفكر وحرية النقد؟ ولماذا لا تظهر حريتهم أو جرأتهم في نقد العتاة الفاسقين من البشر؟! لماذا تكون أيها الحر المتحلل جريئاً وقحاً في هجومك على حرمات الله وحدها؟!(١).

ومن أمثلة بيان موقف العلماء في المجلات الإصلاحية، ما ذكرته مجلة (لواء الإسلام) عند المطالبة بتأسيس جمعيات إسلامية، حيث قالت المجلة: (ليس كالإسلام دين يدعو إلى الوحدة، ويحث على جمع الكلمة..، نريد جمعيات إسلامية تبشر بتعاليم الإسلام، وتتنقل بين الديار والأقطار لتعلم الناس ما في هذا الدين من أخلاق واجتماع، وفضائل وآداب، وتعلم أبناءه الجاهلين بأمورهم التي يصلحون بها دنياهم وآخرتهم، وتخرجهم من ظلمات الجهل إلى نور العرفان).

وأوضحت المجلة بأن الأمم الكافرة قد سعت في تأسيس الجمعيات باذلةً الغالي والرخيص، جاء في المجلة: (وهل لنا أن نقلد أبناء الأديان الأخرى في إنشاء الجمعيات الدينية، ورصد الأموال الطائلة لها، ووقف الأغنياء منا الأوقاف السخية عليها، ونخصص رجالاً يكرسون جهودهم وعقولهم، على تعليم أبناء دينهم، واحتمال الاغتراب والسفر والرحلات، في سبيل نشر مبادئ الإسلام)

---

(١) مجلة الأزهر، السنة ١٣٧٧هـ، المجلد ٢٩، ص: ٣٣ - ٣٤. المقال: أحمد الشرباصي، المدرس بالأزهر.

إن تحقيق تأسيس جمعيات إصلاحية كما قالت المجلة: (لن يتيسر هذا إلا إذا كانت بين الشعوب الإسلامية وحدة دينية واتصالات دائمة، وبعوث من مختلف البلاد تبعث إليها لتؤدي هذا الواجب الذي يفرضه عليها الدين، ويجزي عليه رب العالمين)[1].

كما سعى العلماء في بيان مبادئ الدين وإزالة ما أثير حول مبادئه من شبه على منابر الإعلام المقروءة، فأكدت مجلة (الأزهر) على (أن الإسلام دين ودولة، أدب وسياسة، عبادة ومعاملة، نظام يربط العبد بربه، ويصل الإنسان بأخيه الإنسان صلة كريمة لا بغي فيها ولا عدوان.

وهذا التأكيد يزيل الشبهة التي أثيرت حول مبادئ الدين، كما قالت المجلة: (ليس الإسلام كما يصفه بعض المفتونين، ضعاف العقول قصار النظر ممن راجت عندهم شبه الباطل، ونفقت لديهم وساوس المضلين من أن الإسلام لا شأن له بالدنيا، ولا ينبغي له أن يدخل في نظام الاجتماع.

وقدمت مجلة (الأزهر) صوراً من معالم هذا الدين، وقالت عن أصحاب الشبه: «ولو أتيح لهؤلاء حظ من التعقل والإنصاف، ولو تجردوا ساعة من شهواتهم وأهوائهم، لأدركوا أن الإسلام في أجمل صوره، وأقدس مظاهره ليس من هدفه إلا أن يكون العبد قوياً بربه، عظيم الثقة في خالقه، وأن يكون مع ذلك في هذه الأمة عضواً من جسم واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى، فلينظر هؤلاء ما سنه القرآن من أحكام تصلح كل مظهر من مظاهر الحياة..، لقد كان الإسلام ديناً ودولة، يقدس الناس قوانينه ويحترمون نظامه، ويرهبون القائم عليه، ويأخذون أنفسهم

(١) مجلة لواء الإسلام، العدد الثامن، ربيع أول ١٣٦٧هـ، الموافق فبراير ١٩٤٨م، ص٤، بعنوان: (وحدة الشعوب الإسلامية)، أحمد حمزة.

بطاعته ولو كان عبداً حبشياً..، الإسلام نظام للدين والدنيا، وشريعة تهذب أمور الناس في حياتهم، وتهديهم إلى الفوز والنجاة في آخرتهم، ولقد تهدد المولى جل شأنه من يحيد عن سننه، وينأى عن شريعته بالعذاب الأليم والشر الدائم المقيم، بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[١]، ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾[٢][٣].

وأوردت مجلة (الأزهر) الحديث الذي رواه أبو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: [لا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ][٤]. وعن معاني هذا الحديث الصحيح كتُب في المجلة: (كان لهذه التوجيهات النبوية السديدة أثرها البالغ في حياة المسلمين، ولكننا ويا للأسف لم نستفد بها في حاضرنا، فلدغنا من الجحر الواحد مراراً، وتكالبت علينا الحوادث وتوالت النكبات فلم نتعظ بها، وما كان أجدر بنا – معاشر المسلمين – أن نكون ذوي كياسة وفطنة!.

ومن الأمثلة الدالة على اللدغ الذي أصاب المسلمين، قالت المجلة: (لقد تداعت علينا قوى الشر والاستذلال قبل الحرب العالمية الأولى، وأذاقونا الأمرين، ثم قامت قيامة هذه الحرب فوعدونا الوعود البراقة ومنونا الأماني المعسولة، ثم لما وضعت الحرب أوزارها تكشفت الوعود عن الخداع والكذب، وذهبت الأماني أدراج الرياح، وعادوا إلى سيرتهم الأولى.

---

(١) سورة البقرة، رقم الآية (٢٢٩).
(٢) سورة الطلاق، رقم الآية (١).
(٣) مجلة الأزهر، الجزء السادس، المجلد الحادي والعشرون، بتاريخ ١٩٤٩م، ص: ٥٥٨ - ٥٦١، بعنوان: الدين والسياسة، عبدالمنعم علي أبو سعيد.
(٤) صحيح البخاري، كتاب الأدب، بَاب لا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ، (٥٦٦٨).

ثم قامت الحرب العالمية الثانية فكرروا الوعود ومنّونا الأماني، وانقضت الحرب العالمية الثانية فإذا الوعود والأماني سرابٌ بِقيعةٍ يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، وجوزي المسلمون جزاء سِنمّار، وكانت المأساة التي لم يشهد لها التاريخ مثيلاً، مأساة فلسطين الشهيدة، فشرد أهلها، وسيموا العذاب ألواناً، وأتى الحلفاء بشذاذ الآفاق - وهم اليهود - فأسكنوهم فيها، وأغدقوا عليهم من مالهم، على مرأى ومسمع، وبيد أدعياء الحرية والديمقراطية الزائفة.

وكان هذا بعض ما جوزي به المسلمون والعرب على مساعدتهم للحلفاء في الحربين الماضيتين مساعدة مثمرة باعترافهم، وصدق الحق تبارك وتعالى حيث يقول في أسلافهم وأمثالهم: ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاً وَلَا ذِمَّةً﴾[١]، أليس من المؤسف حقاً أن نرى في يومنا بعض المسلمين والعرب لا يزالون يخدعون بوعود هؤلاء الكذابين الفجرة وكلامهم المعسول ودجلهم المكشوف؟ وينسون أو يتناسون لدغاتهم القاتلة المميتة[٢].

لقد أفزعَ العلماءَ المصلحينَ نشرُ وتعظيمُ سير أعلام المعتقدات الباطلة، واغترارُ أعضاء الجمعيات القومية بسيرهم، فمن ذلك ما كتبته صحيفة (القبلة) عن وفاة (كرومر)، قالت الصحيفة: «اشتهر بإصلاحاته العظيمة في مصر مدة ربع قرن، وقد عرف (كرومر) بأنه رجل التعقل والحزم والإصلاح، ولم يكن يدخر وسعاً في العمل على ترقية المدارك، ورفع المستوى الأدبي في القطر المصري - كما تقول الصحيفة - ونرى من الحق علينا أن نذكره بالخير لا سيما وقد برهن بأعماله على أنه من خيرة الرجال[٣].

---

(١) سورة التوبة، رقم الآية (٨).

(٢) مجلة الأزهر، السنة ١٣٧٧هـ، المجلد ٢٩، ص: ١٣٦ - ١٣٨. المقال: محمد محمد أبو شهبة.

(٣) صحيفة القبلة، السنة الأولى، العدد ٤٩، ٨/ ٤/ ١٣٣٥هـ، ص: ٣.

وفي مقابل نشر هذه السير في صحف المجلات القومية، نفر العلماء المصلحون لنشر سيرة الرسول ﷺ وتوضيحِ معالم سيرته الشريفة ﷺ، فمما ذكرته مجلة (الأزهر)، عن السيرة قولها: (إن الدارس لهذه الرسالة المحمدية، والمتفهم لتشريعاتها السماوية، لا يسعه إلا أن يعلن بملء فيه: أن محمداً اختاره ربه ليجليَ صفة التوحيد في جميع مظاهرها..، وهي الغاية التي تتجلى في استقرار عقيدة التوحيد، وتمكين أصحابها من إقامة شعائر دينهم دون خوف من وعيد أو تهديد، ونشر ألوية السلام بين ربوع العالمين، وتساوي الناس جميعاً أمام الحق والقانون، دون نظر إلى جنس أو لون، فالكل عند الله سواء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[1]. وقال رَسُول اللَّهِ ﷺ: [.. لا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلا لأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلّا بِالتَّقْوَى][2].

وواجب على المسلمين حاكمين ومحكومين أن ينظروا إلى تعاليم دينهم، وإلى ما شرع لهم من مبادئ ومقومات يتميز بها المجتمع الإسلامي، ويتماسك بها بنيانه سليماً قوياً، ويقارنوها بما عليه مجتمعهم اليوم، وما يطبقونه في شؤونهم من تعاليم. فقد صارت جمهرة المسلمين لا يحسون لتلك المبادئ السامية وجوداً في نفوسهم - اللهم إلا كرجع الصدى - ثم هم لا يجدون لهذا الصدى أثراً فيما يزاولونه في واقع الحياة من أعمال[3].

---

(١) سورة الحجرات، رقم الآية (١٣).

(٢) الحديث سبق تخريجه، انظر ص: (٧٦٠)

(٣) مجلة الأزهر، السنة ١٣٧٧هـ، المجلد ٢٩، ص: ٢٢٣، المقال: محمد أبو المكارم، الواعظ العام.



خاتمة البحث

وأهم نتائج الدراسة



الخاتمة

عرّفت هذه الدراسة بعدد من القضايا المهمة، بل الخطيرة في حياة الأمة الإسلامية في تاريخها الحديث والمعاصر، ومن خلال طرح تلك القضايا، وبيان عللها ومعالجتها انتهت الدراسة إلى النتائج التالية:

١) الكشف عن حقيقة الجمعيات القومية العربية، بذكر مبادئها وأهدافها مع الإشارة إلى مكان النشأة وتاريخها، وبيان التطور الذي رافق تأسيس تلك الجمعيات؛ حيث بدأت بالدعوة إلى اللغة العربية وآدابها، ثم تدرجت إلى المطالبة بحكومة علمانية جاهلية.

٢) إن غياب مفهوم شمولية (الدين)، والجهل بحقيقة كلمة (التوحيد)، أمران جوهريان لوحظا على واقع بعض المسلمين في القرن الرابع عشر الهجري عامة، وعلى (المثقفين) و(المتنورين) منهم خاصة، فغدت عبادة القبور من المناظر المألوفة، وحُرِّفت مفاهيمُ عددٍ من مسائل العقيدة: كالتوكل على الله، والولاء والبراء، وتحكيم الشريعة الربانية، ورافق هذا كله ظهورُ عقيدة الفكر الإرجائي.

٣) التعريف بأعضاء الجمعيات القومية العربية، بإيراد ترجمة موجزة لكل عضو من أعضائها - الوارد ذكرُهم في ثنايا البحث - مع ذكر دوره في تأسيس الجمعيات، ثم بيان المنصب القيادي الذي تبوأه في البلاد العربية بعد القضاء على الحكومة العربية الأولى في دمشق (١٣٣٨هـ - ١٩٢٠م)، وتوزع أعضاء الجمعيات القومية العربية في الدول العربية، لنشر مبادئ وأهداف الجمعيات القومية، والمشاركة في تأسيس نظام الحكم في الدول حديثة النشأة.

٤) إن رابطة الدين هي العروة الوثقى، واستبدال غيرها بها دعوى من دعاوى الجاهلية التي ارتضتها الجمعيات القومية العربية، فحل بالمسلمين البلاء واستعمار البلاد نتيجة نبذ عقيدة التوحيد ظهرياً، وتحكيم النظم الكافرة.

٥) الاعتبار والاتعاظ بحال الأمة في ظل قيادة الجمعيات القومية، بتدرج العقوبة الإلهية عليها - بعد استبدالها بالشرع الإلهي القانون الوضعي الجاهلي - فبدأت العقوبة عندما قُسِّمت دولهم وجُعل بأسهم بينهم فاستعمرت بلادهم، ثم تمكن أفراخ النصارى والعلمانيون في سدّة الحكم، ومنابر التوجيه، ليسلكوا بهم إلى سنة اليهود والنصارى.

٦) تَتَبُّعُ مواقف الجمعيات القومية العربية، التي اتخذتها من مصادر التشريع وأصول العقيدة، ومناقشتها وبيان مخالفتها لأحكام الشرع الحنيف، وتوضيح أن مواقفهم - مما ذكر - نابعة من فساد عقيدة بعضهم، وتأثر البعض الآخر منهم بالمبادئ والدعوات الإلحادية، وقد اتخذت الجمعيات القومية أسماءَ ظاهرها السلامة والصلاح، وباطنها الكفر البواح، فهي تعلن أنها إصلاحية؛ ولكن على المنهج الجاهلي، أو أنها أدبية؛ ولكن على المبدأ الإلحادي.

٧) كشف تآمر الدول الصليبية على تغريب المسلمين، وتعاونهم وتكاتفهم للقضاء على أصل وحدتهم (الإسلامية)، وتم استبدال شعاراتٍ قومية بها، فأمد الصليبيون الجمعيات القومية بالأموال، ودعموا الثورة العربية بالسلاح والرجال، مع الإغراء والأماني الكاذبة، والتي تحقق فيهم قول الله جل ذكره ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[١].

---

(١) سورة النساء، رقم الآية (١٣٩).

٨) لمّا خلت الساحة من العلماء الربانيين - إلا من رحم ربُّك -، والدعاةِ المخلصين، الذين يفقهون أبعاد مبادئ وأهداف تلك الجمعيات، انفسح المجال للشر أن يستفحل، فأحدثت النظمُ والقوانين الجاهلية في واقع المسلمين، مما ساهم في دعم أهداف الجمعيات القومية، ونشرها وتطبيع المسلمين بها، وهذا من السنن الكونية، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾[1].

٩) إن وجود نصارى العرب في عناصر تأسيس الجمعيات القومية العربية وأعضائها أمرٌ لافت للنظر ساعدَ على قبول هيمنة الدول الصليبية، ونشر مبادئها، واستعمار بعض البلاد العربية.

١٠) أصبحت الجمعيات القومية العربية منابر إعلامية للأفكار والمبادئ الماسونية العالمية، وتُعَرِّفُ بأعلام ودعاة هذه الأفكار عبر وسائلها المختلفة، وإظهارهم للناس بصورة: (دعاة الإصلاح) و(شهداء الحرية)، كما أوضحت الدراسة عن هذه القضية: بذكر أسماء محافل الماسونية في بعض البلاد العربية، وتزعم أعضاء الجمعيات لرئاستها، مما أظهر مبدأ التوافق بين وسائلها وأهدافها مع الجمعيات القومية العربية.

١١) إن الفرق المعادية لأهل السنة: كالرافضة، والدروز، والنصيرية، ازداد نشاطها في تأسيس وتنظيم الجمعيات، وكان تعاونها مع الاستعمار وعملها لحسابه سبباً في سيطرتها على كثير من مراكز التوجيه، والتأثير في بعض الدول الإسلامية، وقد غُيِّب ذكر معتقد الأعضاء في تنظيم الجمعية.

١٢) إن عقيدة الولاء والبراء - لدى أعضاء الجمعيات القومية العربية من المسلمين -، قد تحطمت في نفوسهم، تحت تأثير مبادئ الجمعيات والشعارات

(١) سورة الأنعام، رقم الآية (٦٥).

الوثنية والرايات الجاهلية، حتى قال قائلهم: (الدين لله والوطن للجميع، نحن عرب قبل موسى وعيسى ومحمد، إن محمداً لعربي قبل أن يكون مسلماً)، ودون النظر إلى عقيدة الأعضاء تولى أصحاب العقائد الفاسدة - من نصارى وباطنيين وعلمانيين - رئاسة بعض الدول، وسيطر آخرون منهم على مراكز التوجيه، فكان منهم: قادةُ الجيش، ووزراء التعليم والثقافة، ووزراء الإعلام والتربية، والمستشارون والخبراء، وكان فيهم المدرسون وقادة الرأي.. إلخ.

١٣) البعثات (العلمية) للدول الصليبية؛ كانت من أهم العوامل المساعدة في تأثر أعضاء الجمعيات القومية من المسلمين بمبادئ الثورة الفرنسية، وتقبل أفكار زعمائها ودعاتها، ونشرها في واقع المسلمين، ولذا كانت بداية تأسيس بعض الجمعيات القومية العربية في بلاد أوربا.

١٤) إن تأسيس الجمعيات القومية العربية على (مبدأ قومي)، هو امتداد للجمعيات النصرانية في الدول الصليبية، وتحقق فيهم ما حذر منه الرسول ﷺ بقوله: [لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ، شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: فَمَنْ].

١٥) كان للجمعيات القومية العربية دورٌ بارزٌ، في القضاء على مفهوم (الخلافة الإسلامية) واستبدال حكومة علمانية بها، يحكمها الدستور تحت شعار الديمقراطية، ثم الاتفاق مع الدول الصليبية (الحلفاء) للقضاء على الدولة العثمانية، ودعم هذا الدور كتابات (الكواكبي) و (رفيق العظم) و (عبدالحميد الزهراوي) ممن تم تصنيفهم - لدى أعضاء الجمعيات - من كتاب التوجه الإسلامي، وبمواقف علماء الصوفية وأصحاب المصالح الشخصية.

١٦) إن تاريخ الدولة العثمانية خلال تأسيس الجمعيات القومية العربية، يعتبر دليلاً على السنة الكونية (أن تتأثر الأمة المتأخرة بغيرها من الأمم المتقدمة، وأن تحاكيها وتحاول الاقتداء بها). وما حصل في الدولة العثمانية - كما يقول من كتب عنها - يندرج في مقتضى هذه السنن؛ فقد تأخرت الدولة لما أهملت جوانب تقدم الأمة، ولم تهتم بما كان يوليه الغرب للعلوم والمعارف، ولكن الغريب في الأمر أن الذين تولوا زمام أمور البلاد في تركيا منذ فترة بدايات الإصلاحات وابتعاث الطلاب إلى الغرب، لم يتحرروا من ظاهرة انبهارهم بكثير من مظاهر الحضارة الغربية، فقلدوها دون أن يتبصَّروا أنه ليس في تلك المظاهر البراقة ما ينفع البلاد والعباد، وكان أولى بهم أن يفرقوا في الأخذ مما عند الغرب بين اللباب والقشور.

١٧) إن انتشار الفكر القومي على أيدي أعضاء الجمعيات القومية العربية، لم يكن خصيصاً بأرض العرب فحسب، بل كانت هناك دعوات تنادي بقوميات أخرى كالتركية، أو الإندونيسية أو الألبانية.. إلخ، فقد فرقتهم الشعارات الزائفة، بعد أن جمعهم الدين الواحد.

١٨) إن الباطل لا يدوم، وإن الحقَ ظاهرٌ لا محالة، وإنّ الله قد حكم في كتابه: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[1]، ومن لوازم التمكين في الأرض، وتولي قيادة الأمة بالمنهج الرباني، كشف عورات المبادئ والشعارات الجاهلية، وفضح الداعين لها.

(١) سورة الزمر (١٠٥).



فهرس:

تراجم أعضاء الجمعيات القومية العربية



تراجم أعضاء الجمعيات القومية العربية

(١) **أحمد عزت الأعظمي**: ولد ببغداد عام ١٢٩٧هـ (١٨٨٠م)، ونشأ في الحلة حيث كان أبوه موظفاً، فدرس على مصطفى الواعظ، ثم توجه إلى الآستانة حيث درس الحقوق وتخرج منها. وأصدر الأعظمي في الآستانة مجلة (المنتدى الأدبي) ثم مجلة (لسان العرب) فكانتا ترجمان اليقظة العربية في العاصمة العثمانية، وله دور بارز في نشأة الجمعيات القومية، فهو عضو في جمعية المنتدى الأدبي، وجمعية العربية الفتاة.وفي سنة ١٩١٥م أوقف عن العمل الصحفي والنشاط الحزبي وسجن في دمشق. ثم سيق إلى الديوان العرفي في عالية مع مجموعة من أعضاء الجمعيات العربية، وبعد المحاكمة برئت ساحته، ثم عاد إلى بغداد يتابع عمله الصحفي وأنشأ مجلة (المعرض) وانتخب نائباً عن بغداد مرتين في مجلس النواب العراقي. وفي سنة ١٩٣٤م رأس تحرير جريدة (الثبات)، وألف كتاباً في (القضية العربية - أسبابها - مقدماتها - تطوراتها - نتائجها) يتكون من ستة أجزاء، طبع في بغداد بمطبعة الشعب سنة ١٩٣٢م، ويعتبر أهم كتاب تاريخي للجمعيات القومية. وتوفي أحمد الأعظمي مفلوجاً ببغداد سنة ١٣٥٥هـ.

□ مصادر الترجمة:

١. الأعلام - خير الدين الزركلي - ١/ ١٧٠.

٢. مصادر الدراسة الأدبية - يوسف أسعد داغر - ٤/ ٥٩.

٣. أعلام اليقظة الفكرية في العراق الحديث - مير بصري - ١٠٧ - ١٠٩.

٤. معجم المؤلفين - كوركيس عواد - ١/ ٩٠.

(٢) **أحمد قدري**: أحمد بن عبدالقادر بن يحيى الترجمان، ولد في دمشق عام ١٣١٠هـ (١٨٩٣م)، وتعلم بها وبالآستانة ثم بباريس، وكان من زملاء عوني عبد الهادي في الرحلة إلى باريس، وكان من مؤسسي جمعية العربية الفتاة، وتخصصه في مجال الطب، وفي أواخر الحرب العالمية الأولى لحق بالشريف فيصل قبيل دخوله دمشق، وصحبه في أكثر رحلاته وعين طبيباً خاصاً له، وكان محل ثقته، ثم عين أستاذاً في كلية الطب بدمشق. ولما احتل الفرنسيون سورية حكم الفرنسيون بإعدامه غيابياً، ولجأ إلى العراق ثم مصر، وعمل فيها قنصلاً عاماً للعراق سنة ١٩٣٠م، وأسس المفوضية العراقية بباريس ١٩٣٥م، وتولى إدارة الكلية الطبية ببغداد ١٩٣٦م، ثم عاد إلى دمشق وعين فيها أميناً للصحة ١٩٤٣م، وتوفي سنة ١٣٧٨هـ، ١٩٥٨م.

☐ مصادر الترجمه:

١. مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى - أحمد قدري.

٢. الرعيل العربي الأول - خيرية قاسمية - ١٥٧.

٣. الأعلام - خير الدين الزركلي - ١/ ١٥٤.

(٣) **أديب الشيشكلي**: أديب بن حسن الشيشكلي، من أعضاء الجمعيات القومية الذين تولوا رئاسة الدولة بسورية، ولد سنة ١٣٢٧هـ - ١٩٠٩م، في حماة من المدن السورية، تعلم بها وتخرج بالمدرسة الزراعية في سلمية، ثم بالمدرسة الحربية في دمشق. انتسب إلى المحافل الماسونية والجمعيات القومية، شارك في حرب التحرر من الفرنسيين سنة ١٩٤٥م، وكان مساعد حسني الزعيم في ثورته العسكرية، وبعد أن اختلفا صرفه الزعيم من الخدمة سنة ١٩٤٩م، وفي عهد سامي الحناوي عاد برتبة (عقيد) وانتفض مع بعض زملائه على الحناوي أواخر سنة ١٩٤٩م، فاستولوا على الحكم وتولى الشيشكلي رئاسة الأركان العامة، ثم رئاسة الجمهورية السورية سنة

١٩٥٣م، اعتقل الدروز بعد ثورتهم سنة ١٩٥٤م، وكانت بداية حوادث الانقلاب عليه، ولما شعر أن زمام الحكم أفلت من يده سلم نائبه في رئاسة حركة التحرير كتاب استقالته من رئاسة الجمهورية، بوصفه رئيس مجلس النواب، صدر في حقه من دمشق (حكم القتل) بتهمة (الخيانة)، هرب إلى السعودية لاجئاً سياسياً ومكث إلى سنة ١٩٥٧م، ثم سافر إلى باريس ومنها إلى البرازيل، أنشأ فيها مزرعة وانقطع عن كل اتصال سياسي، فباغته رجل من الدروز وأطلق عليه النار من مسدسه فقتله سنة ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

☐ مصادر الترجمة:

١. الأعلام - خير الدين الزركلي - ١/ ٢٨٥.

٢. أوراق جميل مردم بك - سلمى مردم بك - ٢٣٣.

٣. الماسونية والماسونيون في الوطن العربي - حسين حمادة - ١٦٨.

(٤) **أسعد داغر**: أسعد بن مفلح داغر من نصارى العرب، ولد عام ١٣٠٣هـ (١٨٨٦م) في مدينة تنورين بلبنان، وكان والده مفلح داغر يعمل محامياً، وتعلم أسعد ببيروت في مدرسة (عينطورا) التي دخلها عام ١٨٩٥م، وغادرها منهياً الثانوية عام ١٩٠٨م. وتعتبر هذه المدرسة من مدارس التنصير، ويحدث داغر في مذكراته أن الأساتذة كانوا يحذرونه من المسلمين، فكان يقول: إن المنصرين يقولون: (المسلم في بيروت هو الذي يطعن المسيحي بالخنجر من خلف)، وقصد الآستانة لدراسة الحقوق، وكانت الآستانة تشهد أحداث المطالبة بإعلان الدستور، واطلع على بوادر الخلاف في تقسيم تركة الدولة بين الترك والعرب، وانتسب في جمعية المنتدى الأدبي ونمت العلاقة بينه وبين أعضاء الجمعيات القومية العربية، وكاتب جريدة (المقطم) بمصر. وخلال الحرب العالمية الأولى صدر فيه حكم الإعدام إلا أنه هرب إلى مصر

ومكث فيها بين عام ١٩١٤ - ١٩١٩م، وخلال هذه الفترة ألف كتابه (نهضة العرب) وإليه ينسب كتاب (ثورة العرب). عاد بعد الحرب إلى سورية وأصدر جريدة (العقاب) وكانت لسان حال جمعية العهد والقحطانية، وخرج من دمشق ليلة دخول الفرنسيين وتوجه داغر إلى مصر ورأس القسم الخارجي لجريدة الأهرام قرابة ربع قرن. وعمل مديراً لشؤون الصحافة في الأمانة العامة، وقد سعى من خلال منصبه الإعلامي دعوة أعضاء الجمعيات القومية إلى العمل في الجامعة، وأن يمدوا الجامعة بآرائهم وأفكارهم، فقد كتب إلى نبيه العظمة عام ١٩٤٦م (١٣٦٦هـ)، ومما قال له: (إذا كنتم تعتقدون أن جامعة الدول العربية هي الأمل الوحيد لنا، - وأنا أعتقد ذلك - [الكلام لداغر] فأرجو أن تقوموا بالواجب نحوها). ومات داغر في القاهرة عام ١٣٧٨هـ (١٩٥٨م)، ونقل جثمانه إلى لبنان.

□ مصادر الترجمة:

١. الرعيل العربي الأول (حياة وأوراق نبيه العظمة) - جمع خيرية قاسمية - ١٣٤.

٢. مذكرات على هامش القضية العربية - أسعد داغر.

٣. مجلة المنار - السنة السابعة - العدد ٦٧ - نيسان ١٩٩٣م - بعنوان: (رواد العروبة في لبنان).

٤. الأعلام - خير الدين الزركلي - ١/ ٣٠١.

(٥) **إسكندر البارودي:** طبيب لبناني، ولد في صيدا سنة ١٨٥٦م، تعلم في مدرسة دير الشير في بمكين، كما تعلم في المدرسة الإنجليزية في سوق الغرب، ثم في الجامعة الأمريكية ببيروت، ونال شهادة البكالوريا سنة ١٨٧٥م، والشهادة الطبية عام ١٨٨٢م، عمل في المجال الصحفي وقد أسس مجلة (الطبيب) عام ١٨٧٨م، وساهم في

تحرير أعضاء الجمعيات القومية العربية كاليازجي، وشميل وخليل سعادة، وكانت له مساهمات وأبحاث في مجلة الجمعيات القومية العربية مثل: (المقتطف) و(الهلال). وقال عنه أعضاء الجمعيات: إن البارودي قد تولى مسألة التربية والتعليم، فقد درس في مدرسة صيدا الأمريكية، وفي معاهد ومحافل الماسونية. توفي سنة ١٩٢١م.

□ مصادر الترجمة:

١. الماسونية ذلك العالم المجهول - عبدالحليم إلياس الخوري - ٥٣.

٢. معجم المطبوعات - سركيس - ٥١٢.

٣. مجلة المقتطف - لعام ١٩٢٢م - عدد ٦٠/ ٩٧.

٤. مصادر الدراسة الأدبية - يوسف أسعد داغر - ٢/ ١٥٩.

(٦) **إسكندر عمون**: إسكندر بن أنطون بن يوسف عمون، من نصارى العرب، ولد بلبنان سنة ١٢٩٢هـ - ١٨٥٧م، سكن مصر فتقلب في المناصب وولي وكالة المحكمة الأهلية، تولى منصب وكيل حزب اللامركزية، ورئاسة الاتحاد اللبناني، وقدم ورقة عمل أثناء المؤتمر العربي الأول المنعقد في باريس وعنوانها: (الإصلاح على قاعدة اللامركزية)، وبعد تأسيس الحكومة العربية الأولى دُعي للمشاركة في تأسيسها فتولى وزارة العدلية، ومرض، فاستقال وعاد إلى القاهرة، فتوفي فيها سنة ١٣٣٨هـ - ١٩٢٠م.

□ مصادر الترجمة:

١. مذكرات سليم علي سلام - ١٧٣.

٢. الأعلام - خير الدين الزركلي - ١/ ٣٠٣.

٣. المؤتمر العربي الأول - ٩٨ - ١٠٤.

٤. الحركة العربية القومية في مائة عام - ناجي علوش - ٩٥.

(٧) **أمين أرسلان**: أمين بن مجيد بن ملحم بن حيدر أرسلان، من الأسرة الأرسلانية الدرزية، ولد في الشويفات بلبنان، وتعلم عند (اليسوعيين) النصارى ببيروت، ورحل إلى باريس فأصدر جريدة (كشف النقاب) بالعربية، واشترك مع خليل غانم (النصراني) في إصدار جريدة (تركيا الفتاة) بالعربية والفرنسية، عينته حكومة السلطان عبدالحميد قنصلاً عاماً في (بروكسل)، واستقال بعد الدستور العثماني (١٩٠٩م) فعين قنصلاً عاماً في الأرجنتين، ثم عاد إلى الصحافة ونشر معتقدات وأفكار الثورة الفرنسية إلى البلاد الإسلامية. ويعتبر من مهاجرة العرب، وممن كتب في الصحف النصرانية بتموين يهودي مع قرينه (خليل غانم النصراني). توفي سنة ١٣٦٢هـ - ١٩٤٣م.

☐ مصادر الترجمة:

١. الأعلام - خير الدين الزركلي - ١/ ١٩.

٢. موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية - حسان حلاق - ٢٣٧.

٣. تاريخ الصحافة العربية - ٤/ ٤٥٨.

(٨) **أمين الريحاني**: أمين بن فارس بن أنطون بن يوسف بن عبدالأحد البجاني، المعروف بالريحاني، ولد بلبنان سنة (١٢٩٣هـ - ١٨٧٦م) وهو من نصارى العرب، سافر صغيراً إلى أمريكا مع عمه وقد أولع بالتمثيل، ودخل في كلية الحقوق ولم يستمر، وعاد إلى لبنان سنة ١٨٩٨م، فدرس شيئاً من قواعد اللغة العربية، شارك في القضايا العربية، وساهم بالاشتراك في كثير من الجمعيات الأدبية، وانتخب عضواً مراسلاً في المجمع العلمي العربي بدمشق، انتقل في كثير من البلاد العربية، فزار نجداً وكتب تاريخاً

عنها، كما زار العراق ومصر وفلسطين، ويعتبره القوميون من شعراء المهجر، ودعاة الإصلاح والتجديد. ومن أشهر كتبه: (الريحانيات) و(ملوك العرب) و(قلب لبنان) و(قلب العراق) و(فيصل الأول) و(ابن سعود وتاريخ نجد). مات الريحاني في قريته التي ولد فيها سنة (١٣٥٩هـ - ١٩٤٠م).

☐ مصادر الترجمة:

١. أمين الريحاني: تاريخ حياته وحفلات تكريمه في مصر - توفيق الرافعي.

٢. أمين الريحاني: تآليفه، وحياته - ألبرت ريحاني.

٣. أمين الريحاني - مارون عبود.

٤. الأعلام - خير الدين الزركلي - ٢/ ١٨.

٥. مصادر الدراسة الأدبية - يوسف أسعد داغر - ٢/ ٣٩١.

(٩) **أمين بك نخلة:** أمين رشيد نخلة، أديب وشاعر عربي لبناني. ابن رشيد نخلة، ولد عام ١٩٠١م في لبنان، وهو من نصارى العرب، وكان والده مديراً لناحية العرقوب العليا في الشوف، ورجل القانون في لبنان، وتعلم طقوس المذاهب النصرانية في دير مارون على يد القس طوبيا المبارك. كما تعلم في دير القمر، ومن أساتذته فيها كمال شمعون، وأخذ عن أبيه تعمقه في القانون والشعر وتضلعه في اللغة العربية. وأتم دراسته في الكلية البطريركية في بيروت، ودرس الحقوق في دمشق، دخل المعترك السياسي، فقد تعاون مع أعضاء الجمعيات القومية بإصدار جريدة (الشعب). ويعتبره القوميون ممن أسس مدرسة في الشعر بمساعدة أعضاء الجمعيات القومية كخليل مطران، وشبلي الشميل. من آثاره الشعرية: «دفتر الغزل» (١٩٥٤م) و«الديوان

الجديد» (١٩٦٢م)، ومن آثاره النثرية: «المفكّرة الريفية» (١٩٤٥م) و «ذات العماد» (١٩٥٧م). وتوفي عام ١٩٧٦م.

□ مصادر الترجمة:

١. نفسية الرسول العربي - لبيب الرياشي - ٢١.

٢. مصادر الدراسة الأدبية - يوسف أسعد داغر - ٤/ ٦٩٩.

٣. شعراء من لبنان: «أمين نخلة» - علي إبراهيم - ٧٢ - ٨٧.

٤. أمين نخلة الفنان - فوزي سابا.

(١٠) **بشارة الخوري**: بشارة بن خليل بن بشارة الخوري الماروني اللبناني، ولد ببيروت عام ١٣٠٧هـ - ١٨٩٠م، وتعلم بها ثم في باريس حيث حصل على شهادة الحقوق سنة ١٩١٢م، واحترف المحاماة. ولجأ إلى مصر في أوائل الحرب العالمية الأولى بسبب تآمره مع أعضاء الجمعيات القومية من النصارى بتقديم عريضة يطالبون فيها استقلال لبنان، وقدم الطلب إلى الحكومة الفرنسية، وشارك بشارة في كثير من الجمعيات القومية، كما أسس حزب (التقدم السياسي)، وقد انتخب رئيساً للجمهورية (١٩٤٣ - ١٩٥٢م). ويعتبر أول رئيس لجمهورية لبنان بعد استقلالها. اعتقله الفرنسيون هو ورئيس الوزراء رياض الصلح، عام ١٩٤٣م، فثارت البلاد احتجاجا على ذلك، مما أكره الفرنسيين آخر الأمر على الإفراج عنهما والاعتراف باستقلال لبنان (٢٢ نوفمبر ١٩٤٣م). اضطر إلى الاستقالة تحت ضغط من المعارضة (عام ١٩٥٢م). اعتزل السياسة؛ وأصدر جزأين من مذكراته باسم (حقائق لبنانية). وتوفي عام (١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م).

☐ مصادر الترجمة:

١. حقائق لبنانية - بشارة الخوري.

٢. الأعلام - خير الدين الزركلي - ٢/ ٥٣.

٣. الموسوعة العربية - منير البعلبكي.

٤. رؤساء لبنان - فؤاد مطر - ٧٧ - ٩٤.

(١٠) **تحسين العسكري**: تحسين بن مصطفى بن عبدالرحمن العسكري، من أهل بغداد ولد سنة (١٣٠٩هـ - ١٨٩٢م)، تخرج من المدرسة الحربية بالآستانة، دخل في جمعية العهد، واشترك في حرب طرابلس الغرب، والتي كانت بين العثمانيين والإيطاليين، كما اشترك في ثورة العراق على الإنجليز أوائل سنة ١٩٢٠م، وكان قائد فرقة بحلب خلال تأسيس جيش الحكومة العربية الأولى، ثم تولى مناصب أخرى منها: وزارة الداخلية ببغداد، وعين وزيراً مفوضاً للعراق بمصر، وتوفي بالقاهرة سنة (١٣٦٦هـ - ١٩٤٧م)، وهو أخو جعفر العسكري.

☐ مصادر الترجمة:

١. مذكرات تحسين العسكري.

٢. العراق في الوثائق البريطانية (١٩٠٥ - ١٩٣٠م) - فؤاد قزانجي - ١٢١.

٣. الأعلام - خير الدين الزركلي - ٢/ ٨٤.

(١١) **توفيق البساط**: توفيق بن أحمد البساط، ولد بصيدا، وتعلم ببيروت ثم بالآستانة، كان من أعضاء المنتدى الأدبي، ومن أعضاء جمعية (العربية الفتاة)، وعين مأمور معية في ولاية دمشق، وقبض عليه في الحرب العالمية الأولى مع مجموعة من

أعضاء الجمعيات القومية وهم يريدون الهرب إلى المدينة والمكوث عند الحسين بن علي، وحكم عليهم جميعاً بالقتل، ونفذ فيهم سنة ١٣٣٤هـ - ١٩١٦م.

☐ مصادر الترجمة:

١. الأعلام - خير الدين الزركلي - ٢/ ٩٠ - ٩١.

٢. مؤتمر الشهداء - عصبة من الكتاب الأحرار - مهد له: يوسف إبراهيم - ١٣٧.

(١٢) **توفيق السويدي**: توفيق بن يوسف بن نعمان السويدي، زعيم عراقي، ولد سنة ١٣٠٨هـ - ١٨٩١م، ولد وتعلم ببغداد، ودخل كلية الحقوق بإستنبول وتخرج بالحقوق في باريس سنة ١٩١٤م، ودخل في الجيش العثماني (ضابط احتياط) بفلسطين، وبعد الحرب زاول المحاماة في دمشق، ودرّس بها في كلية الحقوق. وعاد إلى بغداد سنة (١٩٢١م) فكان فيها عميداً لكلية الحقوق، فمديراً للعدلية، فوزيراً للمعارف سنة ١٩٢٧م، فرئيساً للوزارة ثلاث مرات. انتسب إلى الجمعيات القومية العربية، فكان من أعضاء جمعية العهد، وهو الممثل والمتحدث الرسمي عن الجمعيات القومية في العراق أثناء انعقاد المؤتمر العربي الأول في باريس. وبعد ثورة عبدالكريم قاسم في العراق سنة ١٩٥٨م، اعتقل ثلاث سنوات، وانزوى بعدها في منزله حتى مات سنة ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م في بيروت ونقل إلى بغداد.

☐ مصادر الترجمة:

١. مذكراتي: نصف قرن من تاريخ العراق والقضية العربية - توفيق السويد.

٢. وجوه عراقية عبر التاريخ - توفيق السويدي.

٣. مصادر الدراسة الأدبية - يوسف أسعد داغر - ٤/ ٣٧٤.

٤. معجم المؤلفين العراقيين - كوركيس عواد - ١/ ٢١٧.

٥. الأعلام - خير الدين الزركلي - ٢/ ٩٣.

٦. المؤتمر العربي الأول المنعقد في باريس - ٧٥ - ٧٦.

(١٣) **جبران التويني**: جبران بن أندراوس التويني (أبو الوليد)، كاتب لبناني ولد سنة ١٣٠٧هـ - ١٨٩٠م، تعلم ببيروت وابتدأ حياته منضّد حروف. وأقام بباريس ٣ سنوات، وبمصر ١٢ سنة، وعاد إلى بيروت سنة ١٩٢٣م، فاشترك في إنشاء جريدة (الأحرار) اليومية. وولي وزارة المعارف والفنون الجميلة سنة ١٩٣٠م، ثم أصدر جريدة (النهار) اليومية، وما زالت تصدر، وكان من أعضاء مجلس النواب اللبناني سنة ١٩٣٧م، توفي بالأرجنتين سنة ١٣٦٧هـ - ١٩٤٧م.

☐ مصادر الترجمة:

١. الأعلام - خير الدين الزركلي - ٢/ ١١٠.

٢. مذكراتي خلال قرن - فؤاد غصن - ٢٤٠.

(١٤) **جرجي زيدان**: جرجي زيدان: صحافي ومؤرخ وروائي من نصارى العرب ولد في بيروت سنة ١٢٧٨هـ - ١٨٦١م. انخرط عام ١٨٨١م في القسم الطبي في الجامعة الأميركية، ثم هاجر وهو بعد في صدر الشباب إلى مصر حيث أنشأ مجلة (الهلال) (عام ١٨٩٢م) التي كان لها أثر عظيم في نشر الفكر القومي، وإثارة الشبه. وضع (سلسلة روايات تاريخ الإسلام) والتي تعتبر من أخطر كتبه التي فيها حقد دفين على أبطال الإسلام، وألف (تاريخ التمدن الإسلامي) و(تاريخ آداب اللغة العربية). ومن آثاره أيضاً: (تراجم مشاهير الشرق)، و(تاريخ العرب قبل الإسلام). وتعرف إلى أكثر خريجي الكلية الأمريكية، ورجال الصحافة، مما سهل له الانتظام في المحافل

الماسونية مثل جمعية (شمس البر) الماسونية، التي أنشئت ببيروت مع يعقوب صروف وفارس نمر وسليم البستاني، وبطرس البستاني. مات جرجي في القاهرة سنة ١٣٣٢هـ - ١٩١٤م

□ مصادر الترجمة:

١. جرجي زيدان (حياته، أعماله، ما قيل عنه) - نظير عبود.

٢. جرجي زيدان في الميزان - شوقي أبو خليل.

٣. جرجي زيدان - إدارة الهلال - مصر.

٤. الأعلام - خير الدين الزركلي - ٢/ ١١٧.

٥. مصادر الدراسة الأدبية - يوسف أسعد داغر - ٢/ ٤٢٨.

٦. وقفة مع جورجي زيدان - عبدالرحمن صالح العشماوي.

(١٥) **جعفر العسكري**: جعفر (باشا) بن مصطفى بن عبدالرحمن العسكري، قائد عراقي، ولد ببغداد سنة ١٣٠٢هـ - ١٨٨٥م، تخرج بالمدرسة الحربية بالآستانة، ثم ببرلين، حارب مع الترك في القصيم سنة ١٩٠٥م، واشترك في حرب البلقان، ولدى بروزه في القوى المسلحة التركية والألمانية أرسله أنور باشا على ظهر غواصة لتنظيم مجندي الشيخ السنوسي، وقد جعل من المجندين قوة عسكرية ذات شأن وأظهر مقدرة تكتيكية في معركتين خاضهما ضد القوات البريطانية، ثم وقع أخيراً أسيراً في قبضة الإنكليز سنة ١٩١٦م، ونقل إلى القاهرة واعتقل في قلعتها مع ضباط آخرين، وبعد ثورة الحسين بن علي على الدولة العثمانية أفرج البريطانيون عن جعفر العسكري، ولحق بالثورة، فجعله فيصل بن الحسين حاكماً على عمان، فكبيراً لمرافقيه حين نودي به ملكاً على سورية، وخرج معه من دمشق يوم احتلها الفرنسيون، وعاد إلى

بغداد فكان وزيراً للدفاع، وولي رئاسة الوزراء سنة ١٩٢٤م، وانتسب إلى الجمعيات القومية كجمعيتي العهد والقحطانية. وأثناء ثورة بكر صدقي سنة ١٩٣٥م قصده جعفر العسكري لإطفاء الفتنة بالإقناع، فلم يقترب من مقر الثورة حتى تلقاه بضعة ضباط من رجالها فقتلوه رمياً بالرصاص، سنة ١٣٥٥هـ - ١٩٣٦م. قال عنه لورانس: (كنا نعرف أن جعفر العسكري هو من أولئك الرجال القلائل الذين اجتمعت لديهم الخبرة، والسمعة الطيبة، والشخصية القوية، وإنه لقادر على أن يصنع من هذه القوات المتنافرة جيشاً).

□ مصادر الترجمة:

١. العراق في الوثائق البريطانية - فؤاد قزانجي - ١٢١.

٢. أعلام السياسة في العراق الحديث - مير بصري - ٨٥.

٣. جعفر العسكري ودوره السياسي والعسكري في تاريخ العراق - علاء جاسم محمد.

٤. الأعلام - خير الدين الزركلي - ٢/ ١٢٩ - ١٣٠.

٥. أعمدة الحكمة السبعة - لورانس - ١١٥.

٦. معجم المؤلفين العراقيين - ١/ ٢٥٠.

(١٦) **جميل المدفعي**: جميل محمد آغا، عراقي من الموصل ولد سنة ١٨٩٠م، كان والده ضابطاً أمياً في الجيش العثماني، وهو من أصل كردي، أما أمه فهي عربية من عشيرة (البوفرج)، مات والده وهو صغير لا يتجاوز ست سنوات، وكفله زوج أخته ونشأ في كنفه، ولما أكمل دراسته سافر إلى إستنبول ودخل المدرسة الحربية وأكمل الدراسة فيها، وتخرج برتبة ملازم مدفعي، شارك في الحروب التي خاضتها

الدولة العثمانية، ثم اشترك في الثورة العربية، وهو من أعضاء جمعية العهد وعضو في الحكومة العربية، دخل دمشق مع فيصل وعهد إليه منصب قائد موقع دمشق، وعند سقوط سورية عاد مع فيصل بن الحسين إلى العراق، واتصل بأعضاء الجمعيات القومية في العراق واتفق معهم على أعمال قومية ضد الجيش البريطاني، عين وزيراً للداخلية في وزارة نوري السعيد، وفي سنة ١٩٤١م، عندما فشلت ثورة الجيش وحكومة رشيد عالي طلب إلى جميل المدفعي أن يؤلف وزارته ففعل، وفي عهده دخل الشيوعيون إلى العراق.

□ مصادر الترجمة:

١. مع الرعيل الأول - خيرية قاسمية - ١٥٨.

٢. الحكومة العربية الأولى في دمشق - خيرية قاسمية - ٧٩.

٣. أعلام السياسة في العراق الحديث - مير بصري - ١٥٤.

٤. وجوه عراقية عبر التاريخ - توفيق السويدي - ٩٥.

٥. العراق في الوثائق البريطانية (١٩٠٥ - ١٩٣٠م) - فؤاد قزانجي - ١٢١.

(١٧) **جميل صدقي الزهاوي**: جميل صدقي الزهاوي: شاعر عراقي، أصله من أسرة بابان الكردية، ونسبة الزهاوي إلى زهاو وهي إحدى المدن الإيرانية، ولد سنة (١٢٧٩هـ - ١٨٦٣م)، وحبب إليه التحلي بالعلوم الكونية العصرية، ولضعف تحصيله في هذه العلوم ظهرت عليه مخالفات في أمور قطعية، وقد عاتب أباه أن جعله في مدرسة (صومعية)، ولم يرسله إلى إحدى جامعات الغرب ليكوِّن منه الفيلسوف. وقد قال عنه معاصروه: «قال قصائد فيها حط من الأديان، وقال أقوالاً إلحادية، فمن

أقواله: «إن للإنسان رجعة إلى الدنيا بعد مئة ألف عام بالصورة التي يختارها إنساناً، أو حيوناً»، ومما يضاف إلى سيرته أن الزهاوي من أنصار حرية المرأة، وكتب يرد على دعوة ومبادئ الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ورد عليه الشيخ سليمان بن سحمان. وتقلد وظائف علمية في إستنبول، وألحق بالبعثة العلمية الإسلامية إلى اليمن، وقد ناصر مبادئ الجمعيات القومية العربية، توفي سنة (١٣٥٤هـ - ١٩٣٦م.

□ مصادر الترجمة:

١. الموسوعة العربية - منير البعلبكي.

٢. المعاصرون - محمد كرد علي - ١٤٨.

٣. الأعلام - خير الدين الزركلي - ٢/ ١٣٧.

٤. ملوك العرب - الريحاني - ٢/ ٣٨١ - ٣٨١.

٥. معجم المؤلفين - ٣/ ١٥٩.

٦. مصادر الدراسة الأدبية - يوسف أسعد داغر - ٢/ ٤١٥.

(١٨) **جميل مردم بك**: جميل بن عبدالقادر مردم بك، ولد في دمشق عام ١٣١١هـ - ١٨٩٣م، وبدأ دراسته فيها، وبعد أن أنهى تحصيله الثانوي قصد فرنسا للاختصاص في العلوم الزراعية، وقد انتسب في الوقت نفسه إلى العلوم السياسية في باريس، وأسس بالاشتراك مع مجموعة من العرب جمعية العربية الفتاة في باريس، وكان لجميل دور بارز في المؤتمر العربي الأول، فهو أحد الثمانية الذين وجهوا الدعوة للمؤتمر وشغل فيه وظيفة أمين السر العام المساعد، وكانت مهمته تنسيق الجهود وتصنيف المطالب الوطنية للعرب، وفي أثناء الحرب العالمية الأولى كان جميل مردم في فرنسا، وقد

صدر عليه الحكم بالإعدام غيابياً، وبعد أن أعلنت الثورة العربية انضم إلى صفوفها وناصرها، وأصبح المستشار الخاص للأمير فيصل بن الحسين في دمشق، وبعد أن دخل الفرنسيون إلى دمشق انضم إلى جيش المقاومة وكان من أتباع سلطان الأطرش الدرزي، وحكم عليه مرة أخرى بالقتل غيابياً فأقام في القاهرة ١٢ عاماً، وعاد إلى دمشق وانتسب إلى الكتلة الوطنية فكان في عهد القوتلي وزيراً للخارجية. وفي سنة ١٩٥٤م نشر جميل مردم تصريحاً أعلن فيه رسمياً اعتزاله الحياة السياسية، وتوفي بالقاهرة سنة ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠ ونقل إلى دمشق.

□ مصادر الترجمة:

١. أوراق جميل مردم بك - سلمى مردم بك.

٢. الأعلام - خير الدين الزركلي - ٢/ ١٣٨.

٣. المؤتمر العربي الأول في باريس - ١٤ - ١٦.

٤. عوني عبدالهادي - أوراق خاصة - إعداد خيرية قاسمية.

(١٩) **حسني الزعيم**: حسني ابن الشيخ رضا بن محمد بن يوسف الزعيم، ولد في سورية سنة ١٣١٥هـ - ١٨٩٧م، قائد عسكري، حكم سورية حكماً مطلقاً مدة (١٣٦) يوماً، تلقى تعليمه في المدرسة الحربية بالآستانة، وقبل أن يتم دراسته جُعِل من ضباط الجيش العثماني ثم الجيش الفرنسي أيام احتلال سورية، وترقى في عهد استقلال سورية إلى رتبة كولونيل، وتولى رئاسة أركان الحرب في عهد الرئيس شكري القوتلي، كان مناصراً ومؤيداً للقضايا القومية، وثار في دمشق متفقاً مع بعض الضباط فاعتقل رئيس الجمهورية ورئيس وزرائه وجميعهم من أعضاء الجمعيات القومية وذلك عام ١٩٤٩م، وقبض حسني الزعيم على زمام الدولة، ودعا إلى انتخاب نفسه،

واعترفت الدول به وبحكومته، وظهر بمظهر الحاكم المطلق، فساء بمنهجه بعض أنصاره من العسكريين، فقتلوه عام ١٣٦٨هـ - ١٩٤٩م.

□ مصادر الترجمة:

١. الأعلام - خير الدين الزركلي - ٢/ ٢٢٩.

٢. ذكريات حسني الزعيم.

٣. أيام حسني الزعيم (١٣٧) يوماً هزت سوريا - نذير فنصه - دار الآفاق - الطبعة الأولى - ١٤٠٢هـ.

٤. حزب البعث - سامي الجندي - ٥١.

٥. مذكرات عادل أرسلان.

(٢٠) الحسين بن علي: الحسين بن علي بن محمد بن عبدالمعين بن عون، من أحفاد أبي نمي بن بركات الحسني الهاشمي، ولد سنة ١٢٧٠هـ بالآستانة، وهو أول من قام في الحجاز بإعلان استقلال العرب عن الترك والدخول مع الحلفاء في الحرب العالمية الأولى. وآخر من حكم مكة من الأشراف الهاشميين. وقد احتواه أعضاء الجمعيات القومية العربية. ويذكر نبيه العظمة - أحد أعضاء الجمعيات القومية العربية - في مذكراته أن الشريف حسين كان يقول لنا: (أنا خاتم في إصبعكم). ومات سنة ١٣٥٠هـ، ودفن في المسجد الأقصى.

□ مصادر الترجمة:

١. الرعيل العربي الأول: جمع خيرية قاسمية - ٣٢.

٢. الأعلام - خير الدين الزركلي - ٢/ ٢٤٩ - ٢٥٠.

٣. ملوك العرب - أمين الريحاني.

٤. جريدة القبلة - العدد ٣١ - السنة الأولى - يوم الخميس ٤/ ٢/ ١٣٣٥هـ.

(٢١) **حسين بيهم**: حسين بن عمر بن حسين العيتاني بيهم البيروتي، ولد في بيروت عام ١٢٩٢هـ (١٨٣٣م)، من الشعراء المعروفين في بيروت، وتولى رئاسة الجمعية العلمية السورية، التي أنشأت في سنة ١٨٥٧م، وبلغ أعضاؤها ١٥٠ عضواً. وقد اشترك فيها زعماء عرب من مختلف العقائد، وكان من أعضاء مجلس إدارتها الدرزي الأمير محمد أرسلان الذي بقي عدة سنوات رئيساً لها، وحسين بيهم. كما ناب عن أهل بيروت في مجلس النواب العثماني. ولحسين بيهم رواية وطنية مثلت في بيروت، وتوفي عام ١٢٩٨هـ (١٨٨١م).

□ مصادر الترجمة:

١. يقظة لعرب - جورج أنطونيوس - ١١٩.

٢. تاريخ الآداب - جرجي زيدان - ٤/ ٢٣٩.

٣. الأعلام - خير الدين الزركلي - ٢/ ٢٥٠.

(٢٢) **حقي العظم**: حقي بن عبدالقادر المؤيد العظم، ولد في دمشق سنة ١٢٨٢هـ - ١٨٦٥م، وتعلم فيها، وأجاد العربية والتركية والفرنسية، كان له نشاط مع الدولة العثمانية، وعين في وظائف في دمشق والآستانة وانتقل إلى القاهرة فكان مدرساً للغة التركية في مدرسة المعلمين التوفيقية سنة ١٨٩٤م. وفي سنة ١٩٠٩م سافر إلى مصر وحمل على سياسة جمعية الاتحاد والترقي، وندد بسياسة تتريك العناصر، عين سكرتيراً لحزب اللامركزية في مصر، وراسل أعضاء الجمعيات القومية لبث فكرة ومبادئ جمعية اللامركزية في بلاد الشام، ولما احتل الفرنسيون سورية راسلوه

وأتاهم ثم عينوه حاكم دولة دمشق، وأثناء زيارة الجنرال غورو الفرنسي إلى القنيطرة أطلق مجهول الرصاص على القائد الفرنسي وكان معه حقي العظم وأصيب برصاصة وعوفي واستمر حاكماً خمس سنوات، وبعد أن وحدت أجزاء سورية سنة ١٩٢٥م، أزيل منصب حقي العظم فنقل إلى رئاسة مجلس الشورى ورئاسة مجلس الوزراء، ثم عاد إلى القاهرة سنة ١٩٣٨م، وأقام بها إلى أن توفي سنة ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م.

☐ مصادر الترجمة:

١. الأعلام - خير الدين الزركلي - ٢/ ٢٦٦.

٢. إيضاحات عن المسائل السياسية - جمال باشا.

٣. نشأة الحركة العربية الحديثة - محمد عزة دروزة - ٢٩٧.

(٢٣) **خليل غانم**: خليل غانم، نصراني من لبنان، ولد سنة ١٨٤٦م، انتخب نائباً عن سوريا في مجلس المبعوثان عام ١٨٧٨م، تولى إثارة قضايا في المجلس مما جعل الحكومة العثمانية تصدر أمر القبض عليه، فالتجأ إلى السفارة الفرنسية، وبعد أن ألغى السلطان عبدالحميد مجلس المبعوثان هرب خليل غانم إلى أوروبا حيث أصدر جريدة (الهلال) في جنيف، وعندما ذهب إلى باريس أسس صحيفة عربية هي (البصير)، وكان يكتب في عدة صحف أجنبية وبتموين يهودي، وبعد أن تكونت مجموعة ممن تأثر بأفكار الثورة الفرنسية من مهاجرة الدولة العثمانية أصدر صحيفة باسم (تركيا الفتاة) عام ١٨٩٥م، وكانت تصدر باللغة العربية والفرنسية، ونادى خليل غانم بضرورة تقسيم الواجبات، والمساواة في الحقوق في الدولة العثمانية، توفي سنة ١٩٠٣م قبل تأسيس الجمعيات القومية.

☐ مصادر الترجمة:

١. الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث - أنيس المقدسي - ١٠٥.

٢. الاقتصاد السياسي - خليل غانم.

٣. موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية - حسان حلاق - ٢٨٨.

(٢٤) **خير الدين الزِّرِكْلي**: خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي، الدمشقي، ولد في بيروت عام (١٣١٠هـ - ١٨٩٣م)، نشأ وتعلم في دمشق، ودرس في المدرسة الهاشمية، ودرّس فيها، وأولع بكتب الأدب، وأصدر مجلة الأصمعي الأسبوعية، ثم انتقل إلى بيروت وتعلم في المدرسة العلمانية لدراسة الفرنسية، ثم مدرساً فيها لمادة التاريخ والأدب العربي. انتسب إلى كثير من الجمعيات القومية العربية، ومن أبرزها جمعية الفتاة وحزب الاستقلال، كما شارك في إصدار المجلات القومية كمجلة المفيد، وشارك في تأسيس الحكومة العربية الأولى في دمشق، حيث تولى منصب المفتش العام للمعارف، ثم رئيساً لديوان رئاسة الحكومة، ثم انتقل إلى العمل في المملكة العربية السعودية بتوصية من عضو الجمعيات القومية يوسف ياسين، وقد كتب له يوسف ياسين رسالة يدعوه فيها للعمل في السعودية، وقال يوسف في نهاية الرسالة: «وأعتقد أنك في قبولك العمل معنا ستكون أعظم عضد لنا في إتمام ما نسير إلى إتمامه من برنامجنا في خدمة القضية العربية». فكانت أول أعمال الزركلي في السعودية: مستشاراً للوكالة المفوضية السعودية بالقاهرة، كما انتدب مرات عديدة لأعمال وزارة الخارجية بجدة، ولما أنشئت جامعة الدول العربية في القاهرة وقع ميثاقها مع يوسف ياسين، وكان يحضر اجتماعات الجامعة العربية برتبة وزير مفوض. ثم عين سفيراً للمملكة في المغرب. وفي عام ١٩٦٣م أصيب بمرض على أثره اختار الإقامة ببيروت، ومات سنة (١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م) في مدينة القاهرة.

□ مصادر الترجمة:

١. الأعلام - خير الدين الزركلي - ٨/ ٢٦٧.

٢. ما رأيت وما سمعت - الزركلي.

٣. عامان في عمان - الزركلي - مذكراته خلال إقامته في عمان للعمل مع عبدالله ابن الحسين.

٤. شبه الجزيرة العربية - الزركلي - ١/ ٣٦٩.

٥. مصادر الدراسة الأدبية - يوسف أسعد داغر - ٤/ ٣١٥.

٦. الشعر العربي المعاصر - أنور الجندي - ١٨٣.

(٢٥) **رستم حيدر**: محمد رستم بن علي حيدر، ولد ببعلبك عام ١٣٠٦هـ (١٨٨٩م) وتعلم بدمشق ثم بالمدرسة الملكية في الآستانة، وأتم دراسته في السوربون ومدرسة العلوم السياسية بباريس. شارك في تأسيس جمعية العربية الفتاة، كما انتظم في جمعية العهد العراقية في أواخر الحرب العالمية الأولى، خرج من دمشق متخفياً مع بعض القوميين فلحقوا بجيش فيصل بن الحسين، ودخل دمشق وشارك في تأسيس الحكومة العربية الأولى، ثم سافر إلى أوربا فحضر مؤتمر فرساي مندوباً عن الحجاز، وأقام مدة في باريس، ولما ولي فيصل بن الحسين عرش العراق سنة ١٩٢١م جعل رستم حيدر سكرتيراً خاصاً له ورئيساً للديوان الملكي، ثم كان وزيراً مفوضاً بإيران فوزيراً للمالية، وبينما هو في مكتبه دخل عليه ضابط وأطلق عليه الرصاص فمات عام ١٣٥٨هـ.

□ مصادر الترجمة:

١. الأعلام - خير الدين الزركلي - ٦/ ١٢٤.

٢. خبراتي في الحكم - حسن الحكيم - ٤٠.

٣. أعلام السياسة في العراق الحديث - مير بصري - ١٩٣.

٤. وجوه عراقية عبر التاريخ - توفيق السويدي - ١٣٥.

٥. نشأة الحركة الحديثة - دروزة - ٤٨٥.

(٢٦) **رشدي بن صالح ملحس**: رشدي بن صالح ملحس، ولد في نابلس سنة ١٣١٧هـ - ١٨٩٩م، وتعلم بها وفي إستنبول، من أعضاء الجمعيات القومية، فقد كان أمين سر جمعية العهد، كما أسس جمعية العروبة في تركيا، وكتب في الصحافة بدمشق، ولما عقد المؤتمر العربي الأول في باريس سنة ١٩١٣م كان رشدي من الأعضاء المؤيدين لقرارات المؤتمر، ثم عمل في السعودية، وقد دعاه يوسف ياسين ليحل محله في تحرير جريدة أم القرى بمكة، ثم جعله نائباً عنه في رئاسة الشعبة السياسية بالديوان الملكي، ملازماً للملك ٣٠ عاماً. فكان معه في حله وترحاله، توفي في جدة سنة ١٣٧٨هـ، ١٩٥٩م.

□ مصادر الترجمة:

١. مجلة المنهل - ٦/ ١٧٣ - ١٧٦.

٢. المؤتمر العربي الأول المنعقد في باريس - ١٦٧.

٣. قصر الحكم في الرياض أصالة الماضي، وروعة الحاضر - عبدالرحمن الرويشد - ٦٥.

٤. الأعلام - خير الدين الزركلي - ٣/ ٢١.

(٢٧) **رفيق التميمي**: رفيق بن راغب التميمي، ولد في نابلس عام (١٣٠٥هـ - ١٨٨٨م) بفلسطين، وفيها تلقى دراسته الأولى الابتدائية وقسماً من الإعدادية، والتحق عام ١٩٠٢م بإعدادية مرجان في الآستانة، ثم دخل الكلية الملكية، ثم أرسلته وزارة المعارف في الآستانة في بعثة إلى فرنسا فدخل جامعة السوربون، وانتسب إلى كلية الأدب وحصل على الشهادة، ثم عين معلماً للتاريخ في مكتب سالونيك، ثم مديراً لنادي الاتحاد والتركي بدمشق، ثم أخذ يتنقل من إدارة إلى أخرى حتى تأسيس المدرسة التجارية وأصبح مديراً لها، ثم عين أستاذاً للتاريخ بكلية الصلاحية ببيت المقدس، ورفيق عضو بارز من أعضاء الجمعيات القومية. ومن أبرز نشاطه المشاركة في تأسيس جمعية العربية الفتاة، وشارك في ثورة الحسين بن علي، وكان من أعضاء حكومة الملك فيصل بن الحسين، وتقلد منصب كرسي النيابة في المؤتمر السوري عن مدينة الخليل، وعضواً في مجلس الشورى السوري، ومندوباً سياسياً عن الملك فيصل في جميع مناطق الساحل السوري التي كانت تحت الاحتلال الفرنسي، وقد حكم الفرنسيون عليه بالإعدام بعد موقعة ميسلون، ثم عاد إلى فلسطين وتولى إدارة الكلية الإسلامية بالقدس، ورجع إلى دمشق بعد نكبة فلسطين، فتولى أعمال مكتب الهيئة العربية العليا لفلسطين إلى أن توفي عام ١٣٧٦هـ - ١٩٥٦م.

□ مصادر الترجمة:

١. الأعلام - خير الدين الزركلي - ٣/ ٣٠.

٢. مصادر الدراسة الأدبية - يوسف أسعد داغر - ٤/ ١٣٢.

٣. معجم المؤلفين - عمر كحالة - ٤/ ١٧٠.

٤. أعلام الفكر والأدب لفلسطين - يعقوب العودات - ٧٩ - ٨١.

٥. الرعيل العربي الأول - خيرية قاسمية - ١٥٩.

(٢٨) **رفيق سلوم**: رفيق بن موسى رزق سلوم، ولد بحمص عام ١٣٠٨هـ (١٨٩١م)، وتعلم بالمدرسة الروسية فيها، ثم بالمدرسة الإكليركية بدير البلمند، وهو من نصارى العرب، ودخل الكلية الأمريكية ببيروت فأقام سنة، ورحل إلى الآستانة فتعلم الحقوق. اتصل رفيق بأعضاء الجمعيات القومية وشارك في إنشاء المنتدى الأدبي، وانتسب إلى جمعية العربية الفتاة. ونشر له عدة مقالات وأشعار في المجلات القومية العربية، كمجلة (الحضارة) و(المقتطف) و(المقتبس)، وألف كتاب (حياة البلاد في علم الاقتصاد) و(حقوق الدول)، وكان يحسن اللغات الروسية والإنكليزية والفرنسية والتركية، اعتقل خلال الحرب العالمية الأولى وأعدم شنقاً مع مجموعة من أعضاء الجمعيات القومية العربية، عام ١٣٣٤هـ (١٩١٦م).

□ مصادر الترجمة:

١. الأعلام - خير الدين الزركلي - ٣/ ٣٠ - ٣١.

٢. عصر الانبعاث - محمد أسعد طلس - ٥١.

٣. الإيضاحات - جمال باشا - ١٠.

٤. مؤتمر الشهداء - عصبة من الكتاب الأحرار - مهد له: يوسف إبراهيم - ١٣١.

٥. المؤتمر العربي الأول - محب الدين الخطيب - ١٦٦.

(٢٩) **سعيد الجزائري**: محمد سعيد بن علي بن عبدالقادر بن محيي الدين الحسيني الجزائري، حفيد الأمير عبدالقادر الجزائري، ولد في دمشق عام ١٢٩٨هـ

(١٨٨١م)، وتعلم فيها، كما تعلم في الآستانة. ناصر الاتجاه القومي وأيد انفصال العرب عن الترك، وكانت له مقالات تدعو إلى هذا الأمر، كما أعلن استقلال سورية قبل دخول الجيشين العربي والبريطاني، وألف حكومة وطنية مؤقتة، ونفاه الإنكليز إلى مصر، ثم عاد إلى دمشق بعد الاحتلال الفرنسي فأقام إلى سنة ١٩٦٦م، ورافق جثمان جده الأمير عبدالقادر يوم نقله من دمشق إلى الجزائر، فاستقر بالجزائر إلى أن مات عام ١٣٩٠هـ (١٩٧٠م).

☐ مصادر الترجمة:

١. مذكرات محمد سعيد الجزائري - أنور الرفاعي.

٢. الأعلام - خير الدين الزركلي - ٦/ ١٤٥.

٣. معجم أعلام الجزائر - عادل نويهض.

(٣٠) **سعيد حليم باشا:** سياسي عثماني. حفيد محمد علي باشا، مؤسس الأسرة العلوية بمصر. ولد في القاهرة عام ١٢٧٩هـ، وأكمل فيها دراسته الأولية، وألم بعدة لغات، ثم سافر إلى سويسرا لدراسة العلوم السياسية فيها. وذهب إلى إستنبول (١٨٨٨م) فعين عضواً في مجلس شورى الدولة. اضطر إلى الرجوع إلى مصر ثم السفر إلى أوربا لعلاقته بحزب تركيا الفتاة، ورجع إلى إستنبول بعد خلع السلطان عبدالحميد الثاني، فأصبح رئيس شورى الدولة (١٩١٢م)، ثم تولى منصب الصدارة العظمى (رئاسة الوزراء) من عام ١٩١٣ - ١٩١٧م. اتهم بجر الدولة إلى الحرب العالمية الأولى فنفي إلى جزيرة (مالطة) سنة (١٩١٩م)، ثم أخذ براءته، فسافر إلى (رومانيا) عام (١٩٢١م) فقتل عام١٣٤٠هـ برصاصة أرمني. له كتيبات في النظرات السياسية الإسلامية كتبها باللغة الفرنسية، يعد سعيد حليم باشا من أوائل من نادى

بضرورة التجديد والاستفادة من الحضارة الغربية.

□ مصادر الترجمة:

١. الموسوعة العربية - منير البعلبكي.

٢. نشوء الفكر الإسلامي في تركيا - إسماعيل قارا - ١/ ٧٥ - ٧٦.

(٣١) **سليم الجزائري بكباشي**: سليم بن محمد بن سعيد الحسني الجزائري أصله من الجزائر ولد في دمشق عام ١٢٩٦هـ (١٨٧٩م)، وهو ابن شقيق طاهر الجزائري، الذي له في تهذيبه اليد الطولى. كما يقول أعضاء الجمعيات القومية. وتعلم في المدرسة الحربية ومدرسة الهندسة البرية في الآستانة، بلغ رتبة قائم مقام أركان حرب في الجيش العثماني، وأولع بالرياضيات. يحسن من اللغات العربية والتركية والفارسية، وعمل أستاذاً في المدرسة الحربية بالآستانة. وخاض حروباً كثيرة، وأسر في اليمن، وكانت له مواقف في حروب البلقان. وسليم الجزائري يعتبر من مؤسسي جمعيتي العهد والقحطانية، وكان يلقي الخطب في جمعية المنتدى الأدبي مبيناً الأدلة التاريخية في قوام الحركة العربية. وتم القبض عليه عام ١٣٣٤هـ، ١٩١٦م، ونفذ فيه مع مجموعة من أعضاء الجمعيات القومية العربية حكم الإعدام شنقاً. ولشدة نقمة الشيخ طاهر على أعضاء جمعية الاتحاد والترقي، لم يقبل الشيخ طاهر العزاء في ابن أخيه، إلا بعد أن دخل الجيش العربي والفرنسي بلاد الشام وإعلان الحكم العربي فيها سنة ١٩١٨م فاستراحت نفسه وبدا عليه السرور.

□ مصادر الترجمة:

١. مؤتمر الشهداء - عصبة من الكتاب الأحرار - مهد له: يوسف إبراهيم يزبك - ١٤٠.

٢. عصر الانبعاث - محمد أسعد أطلس - ٥٢ - دار الأندلس - بيروت.

٣. الأعلام - خير الدين الزركلي - ٣/ ١٢٠.

٤. مجلة الهلال - مجلد ٢٨ - الجزء ٥ - ١١/ ٦/ ١٣٢٨هـ، المقال: عيسى المعلوف - ص: ٤٥١.

٥. الشيخ طاهر الجزائري رائد النهضة العلمية في بلاد الشام - عدنان الخطيب - ٨٦.

(٣٢) **سليمان البستاني**: سليمان بن خطار بن سلوم البستاني، من نصارى العرب ولد سنة ١٢٧٣هـ - ١٨٥٦م في لبنان، تعلم في بيروت، انتقل إلى البصرة وبغداد فأقام ثماني سنين، ورحل إلى مصر والآستانة، ثم عاد إلى بيروت. انتخب البستاني نائباً عن بيروت في مجلس النواب العثماني، وأوفدته الدولة إلى أوربة مرات ببعض المهام، ونصب عضواً في مجلس الأعيان كما أسندت إليه وزارة التجارة والزراعة، ناصر القضايا العربية، ولما قامت الحرب العالمية الأولى قدم استقالته فأقام في سويسرة مدة الحرب، ثم سكن مصر. يعتبر كتابه (عبرة وذكرى) من أوائل الكتب التي تناولت مسألة تأسيس الجمعيات، وبيان حال الدولة - في نظر القوميين - بعد تطبيق الدستور، كما نشر كتبه وآراءه في المجلات القومية كمجلة (المقتطف) و(الهلال)، مات سنة ١٣٤٣هـ - ١٩٢٥م في أمريكة، وحمل إلى بيروت.

□ مصادر الترجمة:

١. مجلة المقتطف - عدد ٦٧ - ص: ٢٤١.

٢. الأعلام - خير الدين الزركلي - ٣/ ١٢٤.

٣. عبرة وذكرى - سليمان البستاني.

٤. دائرة المعارف - بطرس البستاني.

(٣٣) **سيف الدين الخطيب**: سيف الدين بن أبي النصر الخطيب، ولد في دمشق سنة ١٣٠٦هـ (١٨٨٨م) وتعلم في الآستانة، وتخرج بالحقوق، شارك في تأسيس الحركة العربية الأولى ونشر الفكر القومي، فكان من مؤسسي جمعية المنتدى العربي، وهو من ضمن من اعتقلهم جمال باشا، وحكم عليهم بالقتل شنقاً ونفذ سنة ١٣٣٤هـ (١٩١٦م).

□ مصادر الترجمة:

١. الإعلام - خير الدين الزركلي - ٣/ ١٤٩.

٢. إيضاحات عن المسائل السياسية - جمال باشا - ١٠.

٣. شهداء الحرب - عصبة من الكتاب الأحرار - مهد له: يوسف إبراهيم يزبك - ١٣٠.

(٣٤) **شاهين مكاريوس**: شاهين بن مكاريوس، من نصارى العرب، ولد في قرية إبل السقي من قرى لبنان، وذلك سنة ١٢٦٩هـ - ١٨٥٣م، نشأ يتيماً فقيراً، فقد قتل والده في الحرب التي وقعت بين النصارى والدروز سنة ١٨٦٠م، حملته أمه إلى بيروت ورباه المنصر فانديك، تعلم شاهين فنون الطباعة، وانتسب إلى الجمعيات القومية العربية كجمعية بيروت السرية، وانتسب إلى المحافل الماسونية وخدمها خدمة جليلة، حيث أصدر الكتب العديدة عن آدابها ومشاهيرها، وفي سنة ١٨٦٩م (١٢٨٦هـ) أسس في بيروت محفلاً ماسونياً، تحت رعاية الشرق الأعظم الفرنسي، عرف [بشرق لبنان]، وكانت لغته الرسمية هي العربية، وتولى شاهين كاتب أسراره، كما أصدر مع قرينه في العقيدة والفكر يعقوب صروف مجلة المقتطف وتولى إدارتها. مات في حلوان، ودفن بالقاهرة.

□ مصادر الترجمة:

١. الماسونية والماسونيون في الوطن العربي - حسين حمادة - ١٧٨.

٢. مقدمة كتاب الآداب الماسونية - شاهين مكاريوس.

٣. الأعلام - خير الدين الزركلي - ٣/ ١٥٣.

٤. نشوء القومية العربية - زين نور الدين - ٥٥.

(٣٥) شبلي شميل: شبلي بن إبراهيم شميل، من نصارى العرب، ولد في قرية كفر شيما على مقربة من بيروت إلى الجنوب، عام ١٢٦٩هـ (١٨٥٣م)، ونشأ في بيت قيل عنه: إنه بيت أدب وصحافة، تعلم شبلي في الجامعة الأمريكية ببيروت، وتخرج من معهد الطب فيها وزامل يعقوب صروف أحد أعضاء الجمعيات العربية، ثم ذهب شبلي إلى فرنسا للتخصص، ثم عاد إلى مصر وسكن طنطا لمدة عشر سنوات ممارساً فيها الطب، ثم انتقل إلى القاهرة عام ١٨٨٥م، وفيها أصدر مجلة (الشفاء). ويعتبر شبلي من أوائل ناشري فكرة النشوء والارتقاء في العالم العربي، وألف فيها ودافع عنها. كما يعتبر من دعاة العلمانية، فقد قال: (إن أوربا أصبحت قوية عندما حطمت الثورة الفرنسية الإصلاح الديني سيطرة رجال الدين على المجتمع)، كما دعا إلى الفكر الاشتراكي، فقال: (إن الاشتراكية نتيجة لازمة لمقدمات ثابتة لا بد من الوصول إليها لو بعد تذبذب طويل. الاشتراكية كالاجتماع نفسه ذات نواميس طبيعية تدعو إليها). وشبلي من مؤسسي جمعية اللامركزية، وتوفي فجأة في القاهرة عام ١٣٣٥هـ(١٩١٧م).

□ مصادر الترجمة:

١. العرب والعثمانيون ١٥١٦ - ١٩١٦م - عبدالكريم رافق - ٥١٨.

٢. آراء الدكتور شميل - ٤٤.

٣. رواد النهضة الحديثة - مارون عبود - ١٩٨.

٤. الأعلام - خير الدين الزركلي - ٣/ ١٥٥.

٥. المعاصرون - محمد كرد علي - رقم الترجمة (٢٣) - ٢٤١.

٦. مصادر الدراسة الأدبية - يوسف أسعد داغر - ٢/ ٤٨٤ - ٤٨٧.

٧. مجلة لسان العرب - حقي العظم - بعنوان: شبلي شميل(مولده، مؤلفاته، مبادئه) - ١٣٣١هـ - ١/ ٢٥٠.

(٣٦) شفيق المؤيد العظم: شفيق [بك] بن أحمد المؤيد العظم: ولد في دمشق عام ١٢٧٣هـ (١٨٥٧م) وتعلم ببيروت، سافر إلى الآستانة، وتقلب بمناصب الدولة، وقد انتخب نائباً عن دمشق، وانضم إلى حزب الحرية والائتلاف العثماني، وشارك في عدد من الجمعيات القومية ومن أوائلها جمعية الإخاء العربي العثماني، وضبطت عليه الحكومة الاتحادية خلال الحرب العالمية الأولى بعض التهم وحقق معه فيها، فكان مما قال في التحقيق عن علاقته بالسفارة الفرنسية - وهي طرف في الحرب العالمية ضد الدولة العثمانية - من أجل استقلال العرب عن الدولة العثمانية، فقال شفيق: علاقاتي بالسفارات، مخابراتي السياسية فكلها صحيحة، كما هي مكتوبة بين أيديكم وأزيدكم علماً بما لا تعلمونه. ثم أخذ يقص عليهم مداخلاته السياسية السرية التي لم تكتب بالوثائق. وبعد هذا الاعتراف حكم عليه بالموت شنقاً عام ١٣٣٤هـ.

☐ مصادر الترجمة:

١. مؤتمر الشهداء - عصبة من الكتاب الأحرار - مهد له: يوسف إبراهيم - ١٤٩.

٢. الأعلام - خير الدين الزركلي٣/ - ١٦٨ - ١٦٩.

٣. الإيضاحات - جمال باشا - ١١٦.

(٣٧) **شكري الأيوبي**: شكري باشا الأيوبي، ولد في دمشق عام ١٢٦٧هـ (١٨٥١م)، ودرس العلوم العسكرية بالكلية الحربية في إستنبول وتخرج منها، وتولى عدة وظائف عسكرية في العهد العثماني، وكان على اتصال بأعضاء الجمعيات القومية كما يقول سليم علي سلام، وأثناء الحرب العالمية الأولى اتهم بالخروج على سياسة الدولة العثمانية فسجن بدمشق، وبعد انتهاء الحرب وتأسست الحكومة العربية الأولى في دمشق عينه الملك فيصل حاكماً عاماً على بيروت وجبل لبنان، ولم يرض عنه الفرنسيون فعاد إلى دمشق، وعين حاكماً عسكرياً في حلب إلى أن توفي عام ١٣٤٠هـ (١٩٢٢م).

□ مصادر الترجمة:

١. مذكرات سليم علي سلام - ٢٠٤.

٢. الأعلام - خير الدين الزركلي - ٣/ ١٧١ - ١٧٢.

٣. الحكومة العربية الأولى في دمشق - خيرية قاسمية.

(٣٨) **شكري العسلي**: شكري (بك) بن علي بن محمد بن عبدالكريم بن طالب العسلي، ولد في دمشق سنة ١٢٨٥هـ - ١٨٦٨م، وتعلم في مدارس دمشق والآستانة، وعين قائم مقام في قضاء قاش، وانتخب نائباً عن دمشق في مجلس النواب العثماني، انضم إلى الحركة العربية وأصبح من زعمائها، أصدر جريدة (القبس) اليومية وهي من الجرائد القومية، نادى بالحكم اللامركزي، وبتسليم العرب حقوقهم وتمكينهم من سلطة بلادهم، فلما نشبت الحرب العالمية الأولى قبض على شكري العسلي وحكم

عليه بالإعدام، ونفذ الحكم بدمشق سنة ١٣٣٤هـ - ١٩١٦م.

□ مصادر الدراسة:

١. الأعلام - خير الدين الزركلي - ٣/ ١٧٢.

٢. معجم المؤلفين - عمر كحالة - ٤/ ٣٠٤.

٣. مذكرات - محمد كرد علي - ١/ ١٥٣.

٤. مصادر الدراسة الأدبية - يوسف أسعد داغر - ٤/ ٥٠٢.

(٣٩) **صادق المؤيد العظم**: صادق بن صالح المؤيد العظم، قائد عسكري في الجيش العثماني، مولده ومنشؤه في دمشق، أرسله السلطان عبدالحميد مندوباً عنه إلى ملك الحبشة سنة (١٣١٣هـ)، وانتدب إلى مهمات أخرى لها صلة بالعمل الحكومي، وألف كتاب رحلة الحبشة بالتركية، ترجمه إلى العربية رفيق العظم. انتسب صادق العظم إلى جمعية الإخاء العربي العثماني، والتي يعتبرها القوميون عصر الانفتاح والحرية الفكرية والعقائدية. كانت وفاة صادق العظم عام ١٣٢٩هـ (١٩١١م).

□ مصادر الترجمة:

١. الأعلام - خير الدين الزركلي - ٣/ ١٨٥.

٢. معجم المطبوعات.

٣. نشأة الحركة العربية الحديثة - محمد عزة دروزة - ٣٥٠.

(٤٠) **عادل أرسلان**: هو عادل بن حمود بن حسين بن يونس أرسلان: ولد عام ١٣٠٤هـ (١٨٨٧م) في بيروت، وتعلم فيها كما تعلم في الآستانة، وهو أخو شكيب أرسلان، كان من أعضاء مجلس النواب العثماني. دخل في جمعيتي العهد والعربية

الفتاة، ومن بعدهما حزب الاستقلال، كما ساهم في كل الحركات التحررية والثورية في المشرق العربي وجبل الدروز، وعين مساعداً لرئيس الحكومة السورية بدمشق في عهد الحكومة العربية الأولى، ونزح عنها عند الاحتلال الفرنسي لها وحكم عليه الفرنسيون غيابياً بالإعدام، وانتقل إلى سويسرا، ثم عاد إلى البلاد العربية حيث أصبح مستشاراً لحكومة شرقي الأردن، ودخل في ثورة سلطان الأطرش الدرزي وناصره سنة ١٩٢٤ - ١٩٢٦م، حيث كان عادل أرسلان الزعيم الثاني بعد الأطرش، وبعد الثورة ظل بعيداً عن وطنه وعاد سنة ١٩٣٧م وتولى بعض الوزارات بعد تحرر بلاد الشام من الاستعمار الفرنسي، وأصبح نائباً لرئيس حكومتها في عهد حسني الزعيم. وبعدها اعتزل الأعمال السياسية واستقر في بيروت ومات فيها سنة ١٣٧٣هـ. ويعتبر من شعراء الجمعيات القومية، وينعت بأمير السيف والقلم.

□ مصادر الترجمة:

١. الأعلام - خير الدين الزركلي - ٣/ ٢٣٤.

٢. مذكرات الأمير عادل أرسلان - دار التقدمية للنشر - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى.

٣. الرعيل العربي الأول - خيرية قاسمية - ١٦١.

٤. سيرة ذاتية - شكيب أرسلان.

٥. ما رأيت وما سمعت - خير الدين الزركلي - ٤٨.

(٤١) **عبدالحميد الزهراوي**: عبدالحميد بن محمد بن شاكر بن إبراهيم الزهراوي، ولد بحمص عام ١٢٧٢هـ (١٨٧١م)، وفيها تلقى تعليمه الابتدائي، ثم تنقل في البلاد طلباً للعلم، ويعتبر أول أعماله السياسية إصدار جريدة سماها (المنير)، وكان يوزعها

سراً. وساعد وهو في الآستانة بتحرير جريدة (معلومات) التركية، فنفي إلى دمشق، فأقام يكتب إلى جريدة (المقطم) فعلم به والي دمشق (ناظم باشا) فأرسل مخفوراً إلى الآستانة. وتوسط في أمره أبو الهدى الصيادي، فأعيد إلى حمص، ثم فر إلى مصر عام (١٩٠٢م) وأخذ يحرر جريدة (المؤيد). ولم يرجع إلى دمشق إلا بعد إعلان الدستور العثماني (١٣٢٧هـ - ١٩٠٨م) وانتخب مبعوثاً عن حماة، فذهب إلى الآستانة. واشترك في تأسيس حزب (الحرية والاعتدال)، وحزب (الائتلاف) المناوئين لجمعية الاتحاد. ثم عاد إلى حمص وأنشأ فيها جريدة (الحضارة) التي ساعده في تحريرها رفيق سلوم، ولما ظهرت الحركة القومية العربية أصبح الزهراوي من أبرز المنظرين والمؤسسين لها، وتولى رئاسة المؤتمر العربي الأول المنعقد في باريس ولما نشبت الحرب العالمية الأولى تم القبض على مجموعة من أعضاء الجمعيات القومية وإعدامهم وكان الزهراوي منهم عام (١٣٣٤هـ - ١٩١٦م).

☐ مصادر الترجمة:

١. تاريخ الآداب العربية في الربع الأول من القرن العشرين - شيخو - ٥١.

٢. شهداء الحرب العالمية الأولى - أدهم الجندي - ٩٨ - ٩٩.

٣. الأعلام - خير الدين الزركلي - ٣/ ٢٨٨.

٤. مجلة المنار - المجلد ١٩/ ١٦٩ - ١٨١.

٥. مصادر الدراسة الأدبية - يوسف أسعد داغر - ٢/ ٤١٣.

(٤٢) **عبدالرحمن الشهبندر**: عبدالرحمن بن صالح الشهبندر، ولد بدمشق سنة ١٢٩٩هـ - ١٨٨٢م، مات والده وعمره ست سنوات فربته أمه، تلقى تعليمه في دمشق والتحق بالمكتب الرشدي العسكري، ودخل الجامعة الأمريكية ببيروت ١٨٩٦م،

ونال البكالوريا، ثم أحرز شهادة الطب عام ١٩٠٦م، واشتغل بالتدريس حيناً، ثم انتقل إلى دمشق عام ١٩٠٧م، فاتجه إلى النشاط السياسي، فانتسب إلى جمعية تركيا الفتاة، ثم إلى جمعية الاتحاد والترقي، وانفصل عنها بعد ثلاث سنوات (١٩٠٩م)، وهو بداية تأسيس الجمعيات القومية العربية، وسافر إلى أوربا، وعاد منها إلى سوريا بعد إعلان الحرب العالمية الأولى، ثم هرب إلى مصر وأقام فيها إلى ما بعد الحرب، وعاد إلى سورية، وكان من أعضاء الحكومة العربية، ونال منصب وزير الخارجية، وبعد احتلال الفرنسيين فر إلى القاهرة وعاد بعد عام إلى دمشق، وأسس في دمشق حزب الشعب، ولما قامت الثورة السورية سافر الشهبندر إلى بغداد، وانتسب إلى كثير من الجمعيات القومية ومن أهمها جمعية «العربية الفتاة»، وحدث خلاف بين أعضاء الجمعيات القومية، وكان من آثاره أن استقر الشهبندر في دمشق وعمل في مجال الطب، ودخل عليه ثلاثة أفراد وقتلوه في عيادته عام ١٣٥٩هـ - ١٩٤٠م، وقد ناصر الفكر القومي في مقالات وصحف الجمعيات القومية قرابة ثلث قرن من الزمان.

☐ مصادر الترجمة:

١. الأعلام - خير الدين الزركلي - ٣/ ٣٠٨.

٢. مصادر الدراسة الأدبية - يوسف أسعد داغر - ٢/ ٤٨٨.

٣. يوميات هادئة - سلمى الحفار.

٤. مذكرات عبدالرحمن الشهبندر - حسن الحكيم.

٥. الرعيل العربي الأول - خيرية قاسمية.

(٤٣) **عبدالغني العريسي**: عبدالغني بن محمد العريسي، صحافي من أهل بيروت ولد سنة ١٣٠٨هـ - ١٨٩١م، اشترك مع فؤاد حنتس في إصدار جريدة (المفيد)

الجريدة القومية اليومية، وتعتبر من أوائل الجرائد في نشر الفكر القومي في البلاد الشامية، سافر العريسي إلى باريس لتعلم الصحافة، ومع دراسته تلقى أفكار الثورة الفرنسية والتي طرحها أثناء انعقاد المؤتمر العربي الأول في باريس تحت موضوع (حقوق العرب في المملكة العثمانية)، وتولى المشاركة في تأسيس الجمعيات القومية كجمعية المنتدى والفتاة واللامركزية، وأثناء الحرب العالمية الأولى طلبت الحكومة مجموعة من أعضاء الجمعيات القومية وكان من ضمنهم العريسي الذي فر مع مجموعة إلى جهة الجوف ومنه إلى المدينة، ولكن اكتشف أمرهم وقبض عليهم، وحكم على العريسي بالقتل الذي نفذ سنة ١٣٣٤هـ - ١٩١٦م، بعد أن أخبر عن جميع أعضاء الجمعيات القومية كما يقول بشارة الخوري: «إن عبدالغني ملأ ثماني وتسعين صحيفة من الورق الأبيض الكبير ذكر فيها تاريخ الحركة العربية وكيفية ظهورها وانتشارها».

☐ مصادر الترجمة:

١. مؤتمر الشهداء - عصبة من الكتاب - مهد له: يوسف إبراهيم يزبك - ١٣٧.

٢. مؤتمر العربي الأول - جمع محب الدين الخطيب - ٤٢ - ٥٠.

٣. الثورة العربية الكبرى - أمين سعيد - ١/ ٨٦.

٤. الأعلام - خير الدين الزركلي - ٤/ ٣٤.

٥. إيضاحات عن المسائل السياسية - جمال باشا - ١١٦.

(٤٤) **عبدالقادر العظم**: عبدالقادر بن أسعد (باشا) ابن عبدالله بن فارس بن إبراهيم العظم، ولد في دمشق سنة ١٢٩٨هـ - ١٨٨١م، تخرج من المدرسة الملكية بالآستانة، عين قائم مقام في دوما، انتسب إلى الجمعيات القومية العربية ومنها جمعية

الفتاة، نفي خلال الحرب العالمية الأولى إلى بروسة، وبعد تأسيس الحكومة العربية الأول عاد وتولى إدارة معهد الحقوق، ومدرساً للاقتصاد فيه، وولي وزارة المالية، فرئاسة الجامعة السورية، أسس حزب الاستقلال مع مجموعة من أعضاء الجمعيات القومية، توفي سنة ١٣٨٠هـ.

□ مصادر الترجمة:

١. الأعلام - خير الدين الزركلي - ٤/ ٣٨.

٢. خبراتي في الحكم - حسن الحكيم - ٤٦.

٣. الأسرة العظمية - عبدالقادر العظم - ١٠٨.

(٤٥) **عبدالكريم الخليل**: عبدالكريم بن قاسم الخليل، ولد في بلدة الشياح، إحدى ضواحي بيروت الجنوبية عام ١٣٠١هـ (١٨٨٤م)، وهو من عائلة هاجر جدها الأول من الهند ونزحت إلى جبل عامل في عهد إبراهيم باشا، وهو من شيعة لبنان، تلقى تعليمه في مدارس بيروت، وتعلم الحقوق وتخرج في إستنبول، واحترف المحاماة، وأسس المنتدى الأدبي في الآستانة وانتخب رئيساً له فاشتهر أمره في الأوساط القومية، وتوثقت صلاته بوزراء الدولة وعظمائها، وحمل فكرة انفصال العرب عن الدولة العثمانية. وأوثق جمال باشا قائد الجيش الرابع العلاقة به خلال الحرب العالمية الأولى، ثم ألقى القبض عليه وصدر فيه حكم القتل شنقاً عام ١٣٣٤هـ (١٩١٥م).

□ مصادر الترجمة:

١. شهداء الحرب العالمية الأولى - أدهم آل الجندي - ٧٥.

٢. مصادر الدراسة الأدبية - يوسف أسعد داغر - ٤/ ٢٦٨ - ٢٧٠.

٣. الإيضاحات - أحمد جمال باشا - ١١٨.

٤. الأعلام - خير الدين الزركلي - ٤/ ٥٤.

٥. أعيان الشيعة - ٤٥/ ٣٤٦.

(٤٦) **عبدالوهاب الإنكليزي:** عبدالوهاب بن أحمد الإنكليزي المليحي، من أسرة عربية في دمشق تعرف بآل الإنكليزي وتنسب إلى المليحة من قرى الغوطة، ولد في دمشق سنة ١٨٧٨م، وتعلم فيها كما تعلم في الآستانة بالمدرسة الملكية، ونصب قائم مقام في حلب واستقال، فاشتغل بالمحاماة في دمشق مدة، ثم نصب مفتشاً للإدارة الملكية في ولاية بيروت، ونقل منها إلى ولاية بروسه، انتظم عبدالوهاب في الجمعيات القومية العربية، كجمعية المنتدى الأدبي، وجمعية العربية الفتاة. وبعد الحرب البلقانية الثانية (١٩١٣م) عين مفتشاً للملكية في ولاية بيروت، ومن خلال منصبه تولى الدعاية للقومية العربية، إضافة إلى أنه كانت له مقالات ومحاضرات قومية، في السياسة والاجتماع والتاريخ، فقبض عليه وحكم عليه بالشنق مع مجموعة من أعضاء الجمعيات القومية، وشنق عام ١٩١٦م (١٣٣٤هـ) مع المجموعة الثانية.

☐ مصادر الترجمة:

١. الأعلام - خير الدين الزركلي - ٤/ ٢٨١.

٢. الإيضاحات - أحمد جمال باشا.

٣. مؤتمر الشهداء - عصبة من الكتاب الأحرار - مهّد له: يوسف إبراهيم - ١٤٩.

٤. مصادر الدراسة الأدبية - يوسف أسعد داغر - ٤/ ٤٩١.

٥. شهداء الحرب العالمية الأولى - أدهم آل الجندي - ١٠٢.

(٤٧) **عزة الجندي**: الدكتور عزة بن محمد بن سليمان الجندي العباسي، من بيت كبير له وجاهته ونفوذه في مدينة حمص، ولد عام ١٢٩٩هـ، وكان في الصف الرابع في المدرسة بالآستانة، ودرس الطب في المعهد الطبي العثماني بدمشق، وعلى وشك إنهاء دراسته حينما وشى به أحد الجواسيس فهرب إلى أوروبا، ثم عاد إلى الآستانة بعد إعلان الدستور وأكمل تحصيله ونال الشهادة، ثم انغمس في ميدان العمل السياسي والجمعيات القومية العربية، وأخذ يكتب ويخطب دفاعاً عن حقوق العرب. وأرسل من قبل جمعية العهد إلى اليمن لمقابلة الإمام يحيى بن حميد الدين، ثم اشترك في الحرب الطرابلسية مع أنور وعزيز علي المصري، ومكث في مصر واشترك في حزب اللامركزي، وعاد إلى سورية قبيل الحرب العالمية الأولى، وفي أوائل الحرب العالمية أمر جمال باشا بالقبض عليه ونفاه إلى الأناضول، ولما أراد أن يهرب في الطريق قتله الجنود المحافظون عليه، نحو عام ١٣٣٤هـ.

- ☐ مصادر الترجمة:

١. الأعلام - الزركلي - ٤/ ٢٣٠.

٢. العرب والترك في العهد الدستوري - توفيق برو - ٢٦٥.

(٤٨) **عزيز علي المصري**: عزيز علي المصري بكباشي: قائد عسكري، أصل أسرته من البصرة وتعرف بآل عرفات، ولد عزيز في مصر عام ١٢٩٦هـ (١٨٧٩م)، تعلم بالقاهرة ثم بالمدرسة الحربية في إستنبول، ففي مدرسة أركان الحرب، وتخرج منها ١٩٠٤م، دخل في جمعية تركيا الفتاة، توسط بعقد صلح بين جيوش الأتراك والإمام يحيى في اليمن، أسس جمعيتي العهد والقحطانية، دعا إلى استقلال البلاد العربية عن

الجيش التركي، واعتقلته الحكومة التركية عام ١٩١٤م، وحكمت بإعدامه، وتدخلت السفارات الأجنبية وألغي الحكم وسافر إلى القاهرة. عمل مع الشريف حسين نحو ثلاثة أشهر ثم عاد إلى القاهرة وكلف بإدارة مدرسة البوليس، ثم عين مفتشاً على الجيش المصري عام (١٩٣٧م)، وعين سفيراً في مصر بموسكو، (١٩٥٣ - ١٩٥٤م) ومات بالقاهرة عام ١٣٨٥هـ. ويعتبر من طلائع رجال الحركة العربية.

□ مصادر الترجمة:

١. عزيز علي المصري وصحبه بناء الوحدة العربية والإسلامية (١٩٠٠ - ١٩١٦م) - صبري أبو المجد.

٢. بطل لا ننساه عزيز علي المصري - محمد صبيح.

٣. عزيز المصري والحركة العربية (١٩٠٨ - ١٩١٦م) محمد عبدالرحمن برج.

٤. عزيز المصري والحركة الوطنية المصرية - محمد عبدالرحمن برج.

٥. الأعلام - خير الدين الزركلي - ٤/ ٢٣١.

(٤٩) **علي رضا باشا الركابي**: علي رضا باشا ابن محمود بن أحمد بن سليمان الركابي، ولد في دمشق عام ١٢٨٢هـ (١٨٦٦م)، وتعلم فيها، انتظم في السلك العسكري بعد تخرجه من المدرسة الحربية في الآستانة، وتولى وظائف عسكرية في القدس فالمدينة فبغداد والبصرة. يعتبره القوميون من حملة الفكرة العربية قيل الحرب العالمية الأولى، فدخل في جمعية العهد وجمعية العربية الفتاة، واضطر في خلال الحرب إلى مداراة الترك فخدمهم فيما لا يضر بلاده، تولى رئاسة الوزراء في الحكومة العربية الأولى في دمشق، وبعد دخول الفرنسيين إلى سوريا لزم بيته، حتى أنشئت

حكومة شرق الأردن في عمان فقصدها سنة ١٩٢٢م، وتولى رئاسة الوزارة فيها مرتين، وكان له ولاء للحكومة البريطانية، وتابع لسياسة عبدالله بن حسين ومطاوع له في قراراته في مسألة اليهود والقضية الفلسطينية، وبعد إنهاء توليه وزارة حكومة شرق الأردن عاد إلى دمشق وانقطع عن أكثر الناس إلى أن توفي سنة ١٣٦١هـ (١٩٤٢م).

□ مصادر الترجمة:

١. الرعيل العربي الأول - خيرية قاسمية - ١٨٢.

٢. الأعلام - خير الدين الزركلي - ٤/ ٢٨٨ - ٢٨٩.

٣. مذكراتي - عبدالله الحسين - ٤٧ - ٤٩.

(٥٠) **علي عبدالرازق:** علي بن حسن بن أحمد عبدالرازق، ولد بأبي جرج بمصر (من أعمال المنيا) سنة ١٣٠٥هـ (١٨٨٨م)، وتعلم بالأزهر، ثم ابتعث إلى أكسفورد، وتعلم فيها العلوم السياسة وهي الفترة بين ١٩١٢ - ١٩١٤م، وهي فترة تأسيس الجمعيات. ثم عين قاضياً في المحاكم الشرعية. وأصدر كتاب (الإسلام وأصول الحكم) سنة ١٩٢٥م، وبما قرره من مبادئ علمانية في كتابه المذكور أصدر العلماء الغيورون في الأزهر بسحب شهادة الأزهر منه وعزل عن القضاء. وعمل في المحاماة وانتخب عضواً في مجلس النواب، فمجلس الشيوخ. وعين وزيراً للأوقاف. وقد انضم علي عبدالرازق إلى حزب الأحرار الدستوريين، وتولى تدريس طلبة الدكتوراه بجامعة القاهرة، في مصادر الفقه الإسلامي، لمدة عشرين عاماً. توفي سنة ١٣٨٦هـ (١٩٦٦م).

□ مصادر الترجمة:

١. الإسلام والخلافة - ضياء الريس - ٣٦.

٢. الأعلام - خير الدين الزركلي - ٤/ ٢٧٦.

٣. نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم - محمد الخضر حسين - المكتبة السلفية - القاهرة.

٤. نظام الحكم في الإسلام - محمد يوسف موسى - دار المعرفة.

٥. الإسلام وأصول الحكم نقد وتعليق - ممدوح حقي.

(٥١) **عوني عبدالهادي**: عوني بن عبدالهادي من آل عبدالهادي، ولد عام ١٣٠٥هـ (١٨٨٨م)، تعلم ببيروت والآستانة، وأنهى دراسة الحقوق بفرنسا خلال الحرب العالمية الأولى، كان من مؤسسي جمعية الفتاة العربية، ومن أعضاء المؤتمر العربي في باريس، اهتم بسير الشرق؟ وشارك في أعمال الوفد العربي لمؤتمر الصلح ١٩١٩م، وكان من أعضاء الحكومة العربية الأولى في دمشق، عين سفيراً للأردن بمصر (١٩٥١، ١٩٥٥م)، تولى وزارة الخارجية الأردنية سنة ١٩٥٦م، ثم كان رئيساً للجنة القانونية في جامعة الدول العربية سنة ١٩٥٨م، إلى أن توفي. أملى مذكراته وفيها تفصيل عن الحركة العربية وتأسيس الجمعيات القومية. وكانت وفاته عام ١٣٩٠هـ (١٩٧٠م).

□ مصادر الترجمة:

١. أوراق عوني عبدالهادي - خيرية قاسمية.

٢. الرعيل العربي الأول - خيرية قاسمية - ١٦٢.

٣. الأعلام - خير الدين الزركلي - ٥/ ٩٨.

(٥٢) **فؤاد حمزة**: فؤاد بن أمين بن علي حمزة، أبو سامر، ولد ١٣١٧هـ (١٨٩٩م)، وتعلم في (عبية) في لبنان، وهي من أوائل المدارس التي أنشأها المبشرون وقد اهتم

المبشرون بمدينة عبية لأنها بعيدة عن مراقبة الحكومة في بيروت، ولأنها في وسط يكثر فيها الطوائف والفرق الدينية. وقد تعلم فؤاد حمزة في بعض المدارس الحكومية بدمشق والقدس وكان يحسن الإنجليزية. وهو من أسرة درزية معروفة بلبنان. شارك في سياسة الدولة السعودية الثالثة قرابة ربع قرن، حيث التحق بالخدمة منذ سنة ١٩٢٦م. ويقول نبيه العظمة عضو جمعية العهد: (وقد أرسلت فؤاد حمزة ليستخدم في الخارجية أو مجلس الشورى كمترجم لوضعه قوانين). وقد عين وكيلاً للشؤون الخارجية، وأرسل إلى باريس وزيراً مفوضاً، ومنها إلى أنقرة، ومنح لقب سفير دولة، وهو أحد الشخصيات التي أوكل لها تأسيس النظام الداخلي والخارجي للدولة السعودية الثالثة. وتوفي في بيروت سنة ١٣٧١هـ (١٩٥١م). وله عدة كتب، منها: قلب جزيرة العرب، وكتاب بلاد عسير، وكتاب البلاد العربية السعودية.

□ مصادر الترجمة:

١. شبه الجزيرة العربية في عهد الملك عبدالعزيز - خير الدين الزركلي - ١/ ٣٦٩.

٢. قصر الحكم في الرياض - عبدالرحمن الرويشد.

٣. الرعيل العربي الأول - خيرية قاسمية - ١٦٢.

٤. البلاد العربية السعودية - فؤاد حمزة.

٥. الأعلام - خير الدين الزركلي - ٥/ ١٥٩و٢/ ٢٧٩.

(٥٣) فؤاد غصن: فؤاد غصن، ولد سنة ١٣٠٦هـ - ١٨٨٩م، طبيب لبناني بيروتي، تخرج بالجامعة الأميركية، أصدر (المجلة الطبية العلمية) مدة عشرين عاماً. انتسب إلى المحافل الماسونية، ويقول: اتفقت جماعة البنّائين الأحرار على تأسيس جريدة كبرى تنطق بلسانهم وتعبر عن أمانيهم بالاتحاد والتعاون في سبيل دعم النهضة

الجديدة، فكان أن استقر رأيهم على أن يؤسس لهذه الغاية شركة مساهمة لجريدة أطلق عليها اسم (الأحرار). توفي سنة ١٣٩١هـ - ١٩٧١م.

☐ مصادر الترجمة:

١. مذكراتي خلال قرن - فؤاد غصن.

٢. الأعلام - خير الدين الزركلي - ٥/ ١٦١.

(٥٤) **فارس الخوري**: فارس بن يعقوب بن جبور بن يعقوب بن إبراهيم الخوري، ولد في قرية الكفير سنة ١٢٩٠هـ - ١٨٧٣م، تعلم في حاصبيا وفي المدرسة الأمريكية بصيدا، ثم بالجامعة الأمريكية ببيروت، استقر في دمشق ترجماناً للقنصلية البريطانية قبل تأسيس الجمعيات القومية العربية، وانتخب نائباً عن دمشق في مجلس المبعوثان سنة ١٩١٢م، دخل في الجمعيات القومية العربية، وفي خلال الحرب العالمية اتهم بالتآمر على الدولة وسجن، وبعد الحرب عين أستاذاً في معهد الحقوق، وانتخب عضواً في المجمع العلمي سنة ١٩١٩م، وعين وزيراً للمالية في الدولة العربية الأولى، وبعد دخول الفرنسيين سوريا نفي خارج سوريا، ثم أعادوه وولوه وزارة المعارف سنة ١٩٢٦م، مثل سورية لدى منظمة الأمم المتحدة مرات، وتوفي في دمشق سنة ١٣٨١هـ - ١٩٦٢م.

☐ مصادر الترجمة:

١. فارس الخوري - حياته وعصره.

٢. الأعلام - خير الدين الزركلي - ٥/ ١٢٨.

(٥٥) **فارس نمر**: فارس [باشا] بن نمر بن فارس أبي ناعسة: ولد في حاصبيا بلبنان عام ١٢٧٢هـ (١٨٥٦م)، وقتل أبوه في الفتنة المعروفة بحادثة ١٨٦٠م بين

نصارى العرب والدروز، فحملته أمه إلى بيروت ثم إلى القدس، وقد تلقى بعض مبادئ العلوم في المدارس الإنكليزية. وقصد بيروت ثانية ودرس في الكلية السورية وتخرج منها، وعمل في المرصد الفلكي مع المنصر (فانديك) ثم تولى إدارته. وهو من نصارى العرب وشارك في تنظير كثير من الجمعيات القومية العربية، كما كان أحد مؤسسي جمعية بيروت السرية. وقد انتسب نمر إلى المحافل الماسونية، وكان يقول عن نفسه: (فيا طالما سهرنا الليالي وبذلنا الرخيص والغالي لإعداد أبناء سورية لقبول المبادئ الحرة والنظامات الدستورية). شارك يعقوب صروف في إنشاء (مجلة المقتطف)، وانتقل إلى مصر في أواخر ١٨٨٤م، فصدرت المجلة في القاهرة سنة ١٨٨٥م، كما أنشؤوا جريدة (المقطم) اليومية بمصر. منح لقب (دكتور) في الفلسفة من جامعة نيويورك سنة ١٨٩٠م، وجعل من أعضاء مجلس الشيوخ المصري، وترجم كتاب (الظواهر الطبيعية). مات في القاهرة عام ١٣٧١هـ (١٩٥١م).

□ مصادر الترجمة:

١. نشوء القومية العربية - زين نور الدين زين - ٦٠، ١٩٦.

٢. مجلة المقتطف المجلد ٣٦/ مارس ١٩١٠م - ص: ٢٥٠ - ٢٧٠.

٣. الأعلام - خير الدين الزركلي - ٥/ ١٣٧.

٤. تاريخ الصحافة العربية - ٢/ ١٤٢.

(٥٦) **فخري محمود البارودي**: فخري محمود البارودي، من الأدباء السوريين، ولد بدمشق سنة ١٨٨٥م، وتعلم في مدارسها فنال علوم الابتدائية والثانوية، ثم سافر إلى فرنسا عام ١٩١١م، والتحق بمدرسة الزراعة ثم عاد إلى دمشق. اشترك في الجمعية العربية الفتاة، انخرط في الحرب العالمية الأولى برتبة ملازم ثانٍ في الجيش العثماني،

أسر وأرسل إلى مصر، ثم التحق بالجيش العربي وناصر ثورة الشريف وعين مديراً للشرطة وقائداً لموقع المقر الأميري، ورافق الأمير فيصل في تنقلاته، ومن مساعيه في تصعيد ثورة العرب أن زار الهند لتأليف فرقة من المتطوعة لمعاونة الثورة العربية على الحكم العثماني، إلا أنه عاد خائباً لاعتبار أن الدولة العثمانية هي دولة الإسلام. عمل في مجال الصحافة محرراً في المقتبس زميلاً لمحمد كرد علي، توفي سنة ١٩٦٦م.

□ مصادر الترجمة:

١. مذكرات - محمود فخري البارودي.

٢. مصادر الدراسة الأدبية - يوسف أسعد داغر - ٤/ ٧٨.

٣. أعلام الأدب الفني - أدهم آل الجندي - ١/ ٢٨٢.

(٥٧) **قاسم أمين**: قاسم بن أحمد أمين المصري، كردي الأصل، ولد بالقاهرة عام (١٢٦٩هـ - ١٨٦٥م)، وتعلم وتثقف بها، وبعد أن انتقل والده الضابط أمير ألاي محمد بك أمين إلى الإسكندرية تعلم بها، ثم أُرسل إلى فرنسة لدراسة الحقوق في (مونيليه)، وعاد إلى مصر سنة ١٨٨٥م، وعين وكيلاً للنائب العمومي الحكومي بالمحكمة المختلطة، فمستشاراً بمحكمة المختلطة، عُرِفَ عند العلمانيين والقوميين بنصير المرأة والمدافع عن حقوقها وذلك من خلال كتابيه (تحرير المرأة) و(المرأة الجديدة)، وقد تولى الرد عليه مجموعة من العلماء الفضلاء، توفي بالقاهرة عام (١٣٢٦هـ - ١٩٠٨م).

□ مصادر الترجمة:

١. الموسوعة العربية - منير البعلبكي.

٢. رواد النهضة - مارون عبود.

٣. مشاهير الشرق - جرجي زيدان - ٢/ ٣٣٥.

٤. الأعلام - خير الدين الزركلي - ٥/ ١٨٤.

٥. مصادر الدراسة الأدبية - يوسف أسعد داغر - ٢/ ١٤٢.

(٥٨) **محب الدين الخطيب**: محب الدين بن أبي الفتح محمد بن عبد القادر بن صالح الخطيب، ولد بدمشق عام ١٣٠٣هـ (١٨٨٦م)، يتصل نسبه بعبد القادر الجيلاني الحسني، تعلم بدمشق وبالآستانة. شارك في تأسيس عدد من الجمعيات القومية، ومن أهمها جمعية الفتاة، وجمع قرارات المؤتمر العربي الأول، وسعى لدى حاكم اليمن لتأسيس جمعية قومية باليمن، زار القاهرة ١٩٠٩م، وعمل في تحرير جريدة (المؤيد)، وانتدبته الجمعيات القومية في أوائل الحرب العالمية الأولى للاتصال بأمراء العرب، فاعتقله الإنكليز في البصرة سبعة أشهر. ناصر ثورة الشريف حسين وشارك في تأسيس الحكومة العربية الأولى وتولى تحرير جريدة (القبلة)، وحكم عليه الأتراك بالإعدام، وبعد الحرب عاد إلى دمشق وتولى إدارة جريدة العاصمة، وبعد دخول القوات الفرنسية لها سنة ١٩٢٠م فر إلى القاهرة واستقر بها، وعمل محرراً في (الأهرام)، وأصدر مجلة (الزهراء) و(الفتح)، وأنشأ المطبعة السلفية، وأشرف على طباعة عدد كبير من كتب التراث. توفي بالقاهرة عام ١٣٨٩هـ (١٩٦٩م).

□ مصادر الترجمة:

١. محب الدين الخطيب - حياته بقلمه - تقديم: مدير جمعية ومجلة التمدن الإسلامي - دمشق.

٢. الأعلام - خير الدين الزركلي - ٥/ ٢٨٢.

٣. جمعية العربية الفتاة السرية دراسة وثائقية - سهيلة الريماوي.

٤. مجلة الأوقاف الإسلامية - دمشق - المجلد(١)، سنة ١٩٤٦م.

(٥٩) **محمد المحمصاني**: محمد بن مصباح المحمصاني، ولد في بيروت سنة ١٣٠٥هـ - ١٨٨٨م، تعلم في الكلية العثمانية، وحصل على شهادة الدكتوراه في الحقوق من باريس سنة ١٩١٢م، وفي باريس كان التخطيط لتأسيس جمعية الفتاة مع مجموعة من العرب، كما شارك في تأسيس الجمعية الإصلاحية، وشارك في المؤتمر العربي الأول الذي عقد في باريس، وذكر عنه أعضاء الجمعيات أنه من الخطباء الفصحاء. تم القبض عليه مع مجموعة من أعضاء الجمعيات القومية العربية بتهمة الانفصال عن الدولة العثمانية، وتمت محاكمتهم وحكم عليهم بالإعدام، وتم ذلك سنة ١٩١٥م.

□ مصادر الترجمة:

١. الإيضاحات - أحمد جمال باشا - ١١٨.

٢. الأعلام - خير الدين الزركلي - ٧/ ٩٨.

٣. ما رأيت وما سمعت - خير الدين الزركلي.

(٦٠) **محمد جميل بيهم**: من أبرز المنظرين للفكر القومي، ولد سنة (١٣٠٤هـ - ١٨٨٧م) وتلقى تعليمه في بيروت، واستكمل دراسته في مدرسة أوليفيا الفرنسية، التي كانت نواة البعثة العلمانية، وحصل على درجة الدكتوراه للأطروحة بعنوان (الانتدابات)، وهو من دعاة تحرير المرأة من الدين، وقد وضع أربعة كتب وقفها على قضية المرأة. رأس المؤتمر الماسوني العام الذي عقد بدمشق سنة ١٩٢٢م، وهو عضو في المؤتمر السوري الذي بايع الملك فيصل بن الحسين بدمشق. عمل من أجل استقلال سوريا ولبنان، ودافع عن عروبة فلسطين. توفي سنة (١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م).

من مؤلفاته:

(المرأة في التاريخ والشرائع، ترجم إلى عدة لغات)، و(المرأة في التمدن الحديث)، و(كتاب حقوق المرأة السياسية في التمدن الحديث)، و(كتاب الوحدة العربية بين المد والجزر)، و(كتاب فتاة الشرق في حضارة الغرب)، و(العروبة والشعوبيات الحديثة).

□ مصادر الترجمة:

١. مصادر الدراسة الأدبية أعلام النهضة - يوسف أسعد داغر - ٤/ ١٢٦.

٢. مجلة العرفان - شباط ١٩٧٩م - عدد ٦٧ ص: ١٥٨ - عمر فورخ.

٣. موسوعة المورد العربي - منير البعلبكي.

٤. المؤرخ العلامة محمد جميل بيهم - حسان حلاق.

(٦١) **محمد عزة دروزة**: محمد عزة بن عبدالهادي بن درويش بن إبراهيم بن حسن دروزة، ولد في نابلس الفلسطينية سنة ١٣٠٥هـ - ١٨٨٧م، وأسرته فرع لعشيرة عربية تسمى (الفريحات)، ويحتمل أن لقب (دروزة) الذي عرف به جاء من (الدرازة) بمعنى الخياطة الذي لقب به أحد أجداده، تلقى دروسه الأولى في مدارس نابلس الحكومية الابتدائية والرشيدية، تخرج من الإعدادية وعمل في دائرة البرق والبريد العثمانية من عام ١٩٠٣م وحتى سنة ١٩١٨م، التي أتقن فيها مهمة إرسال واستقبال البرقيات وسواها من أعمال البريد، وقد استغل هذه المهنة في كشف مخططات ورسائل أعضاء جمعية الاتحاد والترقي ضد البلاد العربية كما ذكر ذلك عن نفسه، انتسب دروزة لجمعية الاتحاد والترقي في نابلس، ثم انتقل منها إلى جمعية الحرية والائتلاف، وتسلم سكرتيرية الفرع العربي، ثم أسس مع مجموعة من رجال نابلس

(الجمعية العلمية العربية) سنة ١٩١١م، والتي تهدف لتنشيط المدارس العربية، اندمج دروزة في حركة المطالبة الإصلاحية التي قامت سنة ١٩١٢م، وتزعمها أعضاء الجمعيات القومية، كما شارك في المؤتمر العربي المنعقد في باريس ١٩١٣م، وفي سنة ١٩١٣م سعى مع مجموعة من شباب العرب من ذوي النزعة القومية، لإنشاء فرع لحزب اللامركزية، وبعد أن التقى بأعضاء الجمعية العربية الفتاة السرية، واطلع على نظامها انضم إلى الجمعية، كما كان له دور بارز في الحركات القومية التي ظهرت أثناء وبعد تأسيس الحكومة العربية الأولى، وتم تأسيس حزب الاستقلال في فلسطين سنة ١٩٣١م، وكان الهدف المعلن عن تأسيس الحزب مقاومة التواجد والاستيطان اليهودي في فلسطين. ويعتبر من أكثر القوميين الذي قدم للفكر القومي عن تاريخ الحركة القومية، وسجلاً حافلاً عن أحداث المؤتمرات والقرارات، كما كانت له جهود في تأصيل الفكر القومي بالدين، وكتب في هذا المجال مجموعة من المباحث التي قام مركز دراسة الوحدة العربية بنشر كثير منها، توفي دروزة سنة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

□ مصادر الدراسة:

١. محمد عزة دروزة - صفحات من حياته وجهاده ومؤلفاته - حسين عمر حمادة.

٢. الرعيل الأول - خيرية قاسمية - ١٦٢.

٣. نشأة الحركة العربية الحديثة - محمد عزة دروزة.

٤. القضية الفلسطينية - محمد عزة دروزة.

(٦٢) **محمد كامل القصاب:** محمد كامل بن أحمد بن عبدالقادر القصاب، أصله من حمص، انتقل أبوه إلى دمشق، فولد بها سنة ١٢٩٠هـ - ١٨٧٣م، يعتبر من زعماء الحركة الاستقلالية في سورية، أنشأ مدرسة الكاملية التي تخرج منها أبرز رجال

الحركة في دمشق، ودرس فيها عبدالوهاب الإنكليزي، وعارف الشهاب، والزركلي، وأسعد الحكيم. وهو من أعضاء جمعية الفتاة العربية، ومن أعضاء حزب اللامركزية، وممن أسس حزب الاتحاد السوري. وقد قام بدور ضابط الاتصال ١٩١٥م بين جمعية الفتاة والشريف حسين. تسلم بعد إعلان الثورة إدارة المعارف الحجازية، فنظمها طبقاً للأنماط الحديثة المتبعة في سورية ومصر، فلم يرق ذلك للحسين الذي يفضل البقاء على الأساليب التقليدية القديمة، ففضل القصاب السفر إلى القاهرة في أواخر سنة ١٩١٧م للعمل في المجال القومي في الخارج، فتولى في الدولة السعودية إدارة المعارف، بتاريخ ١٥/ ٤/ ١٣٤٥هـ، بعد الشيخ صالح شطا، وبعد إعفائه استقر في فلسطين وأنشأ مدرسة، وعين رئيساً لجمعية العلماء مدة ثم استقال، وانزوى في بيته إلى أن توفي سنة ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م.

☐ مصادر الدراسة:

١. الأعلام - خير الدين الزركلي - ٧/ ١٣.

٢. مع الرعيل الأول - خيرية قاسمية - ١٦٢.

٣. حول الحركة العربية الحديثة - محمد عزة دروزة - ١/ ٣٣و٩٨.

٤. أسرار الثورة العربية - أمين السعيد - ٢٣٥.

٥. تطور الحكم والإدارة في المملكة العربية السعودية - محمد توفيق صادق.

(٦٣) **محمد كرد علي**: محمد بن عبدالرزاق بن محمد كرد علي، ولد في دمشق عام ١٢٩٣هـ (١٨٧٦م)، وأصله من أكراد السليمانية، تعلم في المدرسة الرشدية، وتوفي والده وهو في الثانية عشرة من عمره، وأحسن التركية والفرنسية، وحفظ أكثر شعر المتنبي ومقامات الحريري، تولى تحرير جريدة الشام الأسبوعية الحكومية

سنة ١٣١٥هـ، وكان يلتزم السجع في مقالاته، وتولى الكتابة في كثير من مجلات الجمعيات القومية، وأصدر مجلة المقتبس التي حاربت جمعية تركيا الفتاة، وكانت له علاقات مع كثير من المستشرقين (يهود ونصارى)، وقد ربطت به علاقة مع الشيخ طاهر الجزائري ولازمه، كما أكدت بعض المصادر أن القنصلية الفرنسية حرصت على الاستفادة منه، إلا أنه خضع تحت مراقبة شديدة من جمال باشا، وبعد انتهاء الحرب انقطع إلى المجمع العلمي بعد إنشائه بدمشق، سنة ١٩١٩م أيام الحكومة العربية الأولى، كما ولي وزارة المعارف مرتين، وفي عهد الاحتلال الفرنسي، له من الكتب (خطط الشام)، (تاريخ الحضارة)، (القديم والحديث). وتوفي في دمشق عام ١٣٧٢هـ، (١٩٥٣م).

☐ مصادر الترجمة:

١. الأعلام - خير الدين الزركلي - ٦/ ٢٠٢ - ٢٠٣.

٢. مذكرات كرد علي.

٣. مصادر الدراسة الأدبية - يوسف أسعد داغر - ٢/ ٦٣٣.

٤. محمد كرد علي - عثمان الكعاك.

٥. محمد كرد علي - جمال الدين الآلوسي.

(٦٤) **محمود تيمور**: محمود بن أحمد بن إسماعيل تيمور، ولد في القاهرة سنة (١٣١١هـ - ١٨٩٤م)، أسرته كردية الأصل، تعلم محمود بالمدارس المصرية والتحق بعد إتمامه الدراسة الثانوية بمدرسة الزراعة العليا، أصيب بمرض التيفوئيد وسافر إلى سويسرة من أجل العلاج، وفي سويسرا درس الأدب الفرنسي والروسي، برز في الكتابات الأدبية وبكتابة القصة بصفة الخصوص، ناصر الحركة القومية وانضم

إلى مجمع اللغة العربية عام ١٩٤٩م، وكانت القصة أهم وسيلة للتعبير عن آرائه، وكان من جلسائه رشيد رضا، وطاهر الجزائري، ومحمود سامي البارودي. له من الكتب أكثر من خمسين كتاباً، وقد كتب عن السيرة النبوية بعنوان: (النبي الإنسان). توفي تيمور في لوزان بسويسرة وذلك عام (١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م).

□ مصادر الترجمة:

١. الأعلام - خير الدين الزركلي - ٧/ ١٦٥.

٢. الأدب العربي المعاصر - شوقي ضيف - ١/ ٢٦٣.

٣. مصادر الدراسة الأدبية - يوسف أسعد داغر - ٤/ ١٥١.

٤. قصة محمود تيمور - أنور الجندي - القاهرة - دار إحياء الكتب العربية.

٥. محمود تيمور رائد القصة العربية - نزيه الحكيم - القاهرة - ١٩٤٤م.

(٦٥) **محمود شوكت:** محمود شوكت بن سليمان طالب، ولد في بغداد (١٢٧٣هـ - ١٨٥٦م)، وولي رئاسة الوزراء في الدولة العثمانية، وعلت شهرته في الدستور العثماني، كان من أعضاء جمعية تركيا الفتاة السرية، ومن أعضاء المحافل الماسونية والجمعيات القومية، زحف محمود شوكت - وكان قائداً على الفيلق الثالث بسالونيك - على إستانبول فدخلها. ولما خلع السلطان عبدالحميد وتألفت وزارة جديدة كان محمود شوكت وزيراً للحربية فيها، ثم تولى منصب الصدر الأعظم، وأخيراً قتل أمام نظارة الحربية، سنة (١٣٣١هـ - ١٩١٣م).

□ مصادر الترجمة:

١. معجم المؤلفين العراقيين في القرن (١٩و٢٠) - كوركيس عواد - ٣/ ٢٧٦.

٢. الأعلام - خير الدين الزركلي - ٧/ ١٧٤.

٣. مذكرات جمال باشا - ٤٦.

(٦٦) **مصطفى الشهابي**: مصطفى بن محمد سعيد بن جهجاه الشهابي، الأمير، من أمراء الأسرة الشهابية، ولد عام ١٣١١هـ (١٨٩٣م) في حاصبيا (سورية)، وبدأ دراسته فيها ثم في بعلبك ودمشق، حيث كان أبوه يتنقل. وسافر مع أخيه عارف الشهابي - وهو أحد أعضاء الجمعيات القومية العربية - إلى الآستانة عام ١٩٠٧م فأقام سنتين في مدرسة فرنسية. وعاد إلى دمشق، ثم أرسل إلى فرنسا ودخل المدرسة الزراعية فيها، وحصل على شهادة مهندس زراعي. انتسب إلى الجمعيات القومية العربية ومن هذه الجمعيات جمعية العهد حيث كان من ضمن الأعضاء المدنيين فيها. وجمعية المنتدى الأدبي. وتولى عدة وزارات في عهد الانتداب الفرنسي، فقد أصبح وزيراً للمعارف، ووزيراً للمالية، ووزيراً للعدل، ووزيراً مفوضاً في مصر، كما كان من أعضاء المجامع العلمية العربية الثلاث في دمشق، والقاهرة، وبغداد. ألف عدة كتب في المجال الزراعي ككتاب (الأشجار والأنجم المثمرة)، و(معجم الألفاظ الزراعية)، كما ألف كتابه عن القومية العربية حيث ذكر تاريخ الحركة القومية، وأهم عوامل نشرها، وكانت وفاته في دمشق عام ١٣٨٨هـ (١٩٦٨م).

☐ مصادر الترجمة:

١. الأمير مصطفى الشهابي - عدنان الخطيب.

٢. القومية العربية - تاريخها وقوامها ومراميها مصطفى الشهابي.

٣. مجلة العرب - العدد ٢/ ٩٤٩.

٤. فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام - صالح العبود - ٤٦.

٥. الأعلام - خير الدين الزركلي - ٧/ ٢٤٥.

(٦٧) **منصور فهمي**: منصور فهمي بن علي فهمي بن عبدالمتعال، من آل البقلي، ولد في مصر سنة (١٣٠٣هـ - ١٨٨٦م) مغربي الجنسية، تعلم بالمنصورة والقاهرة، أرسل في بعثة إلى باريس لدراسة الفلسفة سنة ١٩٠٨م، وهي فترة تأسيس الجمعيات القومية العربية، مكث في فرنسا خمس سنوات، قدم أطروحته لنيل الدكتوراه بعنوان: (حالة المرأة في التقاليد الإسلامية وتطوراتها)، أشرف عليها المستشرق اليهودي (ليفي بريل) Leve - Bruhl. عاد بعد بعثته واشترك في المحافل العربية،وكان كاتب السر للمجمع اللغوي المصري إلى آخر حياته. ودرّس في جامعة القاهرة، وتدرج في المناصب حتى أصبح عميداً لكلية الآداب، ثم مديراً لجامعة الإسكندرية إلى سنة ١٩٤٦م، وتولى نشر الفكر العلماني عن المرأة في واقع المجتمع المسلم، توفي سنة (١٣٧٨هـ - ١٩٥٩م).

□ مصادر الترجمة:

١. الأعلام - خير الدين الزركلي - ٧/ ٣٠٢.

٢. المعارك الأدبية في مصر - أنور الجندي - ٣٢٩.

(٦٨) **نبيه العظمة**: نشأ نبيه العظمة في أسرة برزت في المجال العسكري في العهد العثماني، وتلقى علومه الابتدائية في مدرسة (الرشدية) العسكرية في دمشق، ثم رافق والده إلى اليمن حين عين متصرفاً في لواء الحديدة (١٨٩٨م) والتحق نبيه بـ(رشدية) صنعاء العسكرية، وبعد استقالة والده من الحديدة واختياره الإقامة في إستنبول التحق نبيه بالمدرسة الحربية عام ١٩٠٥م، وقد تخرج من المدرسة الحربية برتبة (ملازم ثان - مشاة) في عام ١٩٠٧م، ومن هذا التاريخ بدأت حياته العملية في

الدولة العثمانية، وقد اشترك في حرب إيطاليا وذلك سنة ١٩١١م، وتولى قيادة فوج المتطوعين، وقائد فصيلة المدفعية. ونقل نبيه العظمة إلى ولاية دمشق. وقد انتسب إلى الجمعيات القومية العربية فكان من أعضاء جمعية العهد وجمعية الفتاة العربية، وحزب الاستقلال. وقد سعى نبيه العظمة لإيجاد تفاهم بين الملك عبدالعزيز والملك علي بن الحسين، في حدود تاريخ ١٩٢٤م، ولما فشلت هذه المحاولات غادر نبيه العظمة إلى القاهرة وظل فيها حتى دعي للعمل في التنظيم الإداري في المملكة العربية السعودية، فقد كتب إليه فؤاد حمزة (مستشار الخارجية) بتاريخ ١٩٢٩م يدعوه للعمل حيث تولى مدير الأمور العسكرية وتعين عام ١٣٤٩هـ (١٩٣٠م)، وكلف نبيه العظمة بدورة تفتيشية على القطاعات العسكرية، وكان مرجعه النائب العام للملك الأمير فيصل بن عبدالعزيز، ولم يدم طويلاً فتنقل في البلاد العربية حتى وافته المنية في دمشق ١٩٧٢م.

☐ مصادر الترجمة:

١. تنظيمات الدولة في عهد الملك عبدالعزيز (١٣٤٣ - ١٣٧٣هـ) - ٣٩٩ - إبراهيم العتيبي.

٢. جريدة أم القرى - عدد ٣٠٠ بتاريخ ١٢/ ٤/ ١٣٤٩هـ.

٣. الرعيل العربي الأول - حياة وأوراق نبيه العظمة - جمع: خيرية قاسمية.

٤. حول الحركة العربية الحديثة - محمد عزة دروزة - ١/ ٨٦.

٥. مذكرات فوزي القاوقجي (١٩١٢ - ١٩٣٢م) - إعداد: خيرية قاسمية.

(٦٩) **نوري السعيد**: نوري بن سعيد بن صالح بن الملاطة، من عشيرة القرة غولي البغدادية، ولد ببغداد عام ١٣٠٦هـ، (١٨٨٨م)، تعلم بالمدارس العسكرية في

بغداد والآستانة، وتخرج من المدرسة الحربية في الآستانة عام ١٩٠٦م، وحضر حرب البلقان. وهو سياسي عسكري انتسب في جمعيتي العهد والقحطانية، ناصر ثورة العرب الحسين بن علي، فكان من قادة جيش الشريف فيصل بن الحسين في زحفه إلى سورية. آمن بسياسة الإنكليز فكان المؤيد لها في سوريا والعراق. تولى رئاسة الوزراة العراقية مرات كثيرة في أيام فيصل بن الحسين وأبنائه من بعده، وائتلف مع عبدالإله بن علي الوصي على عرش العراق في أيام فيصل الثاني، ولما قامت الثورة في بغداد عام ١٩٥٨م كان من قتلاها نوري السعيد. وهي الثورة التي قادها عبدالكريم قاسم وبقايا القوميين العرب. ومن نتائج هذه الثورة إلغاء الحكم الملكي في العراق وإقامة جمهورية.

□ مصادر الدراسة:

١. نوري السعيد ودوره في السياسة العراقية - سعاد رؤوف شير محمد.

٢. سياسة نوري السعيد الخارجية - فاضل حسين.

٣. نوري السعيد ودوره في السياسة العراقية - عبدالرزاق النصيري.

٤. الأعلام - خير الدين الزركلي - ٨/ ٥٣.

(٧٠) **هاشم الأتاسي:** هاشم بن خالد بن محمد بن عبدالستار الآتاسي، ولد في حمص سنة ١٢٩٢هـ - ١٨٧٥م، تعلم بحمص ثم بالمدرسة الملكية بالأستانة سنة ١٨٩٤م، وتدرج في مناصب الإدارة في العهد العثماني، انتسب إلى الجمعيات القومية العربية ومنها: جمعيتا العهد والفتاة، كما انتخب رئيساً للمؤتمر السوري ١٩٢٠م، ورأس الوزارة السورية وفي عهده كانت وقعة ميسلون ودخول الفرنسيين إلى بلاد الشام، فاستقال وعاد إلى حمص، وفي أواخر الثورة السورية ١٩٢٦م اعتقله الفرنسيون ثم تركوه، تزعم رئاسة الكتلة الوطنية التي ضمت الأحزاب والجماعات

السورية سنة ١٩٢٨م، انتخب رئيساً للجمهورية السورية سنة ١٩٣٦م، وبعد أن ألغى الفرنسيون النظام الجمهوري ترك منصبه إلا أنه أعيد في عهد (الحناوي) سنة ١٩٥١م، توفي بحمص سنة ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م.

□ مصادر الترجمة:

١. أعلام العرب - ١/ ١٩٤.

٢. الأعلام - خير الدين الزركلي - ٨/ ٦٥.

٣. القومية بين النظرية والتطبيق - مصطفى محمد طحان - ٢٠١.

٤. خبراتي في الحكم - حسن الحكيم - ١٦ - ٢٨.

(٧١) **ياسين الهاشمي**: ياسين حلمي (باشا ابن سلمان الهاشمي، ولد ببغداد عام ١٢٩٩هـ (١٨٨٢م)، وتعلم بها ثم تعلم بالآستانة وبرلين، وتخرج ضابط أركان حرب سنة ١٩٠٥م، كان زميلاً لأتاتورك على مقاعد الدراسة العسكرية، وخاض الحرب البلقانية، دخل جمعية العهد مع عزيز علي المصري، ونقل إلى الموصل ثم إلى دمشق، فاتصل في دمشق بالشريف فيصل بن الحسين سنة ١٩١٦م، ودخلا معاً في جمعية العربية الفتاة، كما انتسب إلى حزب الاستقلال فيما بعد، ونقل إلى رومانيا وظهرت مواهبه العسكرية فيها، وأعيد إلى سورية، وأثناء ثورة الشريف حسين تولى ياسين الهاشمي قيادة فيلق للترك ضد العرب، إلا أنه لحق بالعرب، وعند إقامة الحكومة العربية الأولى تولى رئاسة ديوان الشورى الحربي، وثار العراق ضد الإنكليز فأيد الهاشمي هذه الثورة، مما جعل القوات البريطانية تحتجزه ستة أشهر، فأقام بالقاهرة، ثم عاد إلى سورية حتى دخلها الفرنسيون، وتألفت الدولة العراقية عام ١٩٢١م، فتولى عدداً من وزاراتها، كما تقلد رئاسة الوزارة مرتين، ووضع الاتفاقية بين السعودية

واليمن، وتسمى (اتفاقية الحلف العربي)، وعاش يحرك سياسة العراق كيف شاء، إلى أن قامت ثورة بكر صدقي في عهد وزارته الثانية سنة ١٩٣٦م، فرحل إلى بيروت، فتوفي بها ودفن في دمشق عام ١٣٥٥هـ (١٩٣٧م).

□ مصادر الترجمة:

١. الأعلام - خير الدين الزركلي - ٨/ ١٢٨.

٢. ملوك العرب - جرجي زيدان - ٢/ ٣٧٠

٣. الرعيل العربي الأول - خيرية قاسمية - ١٦٤.

٤. أعلام السياسة في العراق الحديث - مير بصري - ٩٤.

٥. تأسيس الجيش العراقي وتطور دوره السياسي من ١٩٢١ - ١٩٤١م - رجاء الخطاب - ١١٩.

□ مصادر الترجمة:

١. تاريخ الصحافة العربية - طرازي - ٢/ ١٢٤.

٢. معجم المطبوعات العربية - سركيس - ١٢٦.

٣. مجلة المقتطف - عدد ٧١ - ص:١٨٣.

٤. مصادر الدراسة الأدبية - يوسف أسعد داغر - ٢/ ٥٢٤.

٥. الأعلام - خير الدين الزركلي - ٨/ ٢٠٢.

٦. الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة - أنيس المقدسي - ٢٣٩.

(٧٣) **يوسف ياسين**: سوري من اللاذقية، ولد سنة ١٣٠٩هـ - ١٨٩٢م، وكان من التلاميذ البارزين لدى الشيخ محمد عبده والشيخ رشيد رضا. مكث عامين في مدرسة رشيد رضا ثم سكن عمان في حكم عبدالله بن الحسين، وتسلم جريدة (الصباح)، دخل كلية الحقوق وكان من أعضاء جمعية الفتاة السرية. قال نبيه العظمة: (أُرسل من قبل شكري القوتلي - أول زعيم قومي تولى رئاسة الجمهورية السورية، وهو دمشقي المولد، وأحد أعضاء جمعية العربية الفتاة السرية وكاتم سر الجمعية - إلى المملكة العربية السعودية ليصدر جريدة باسم الرياض، وليكون مقدمة لإرسال غيره من الشباب السوريين للعمل في الدولة العربية الجديدة). ووصل يوسف ياسين إلى نجد في أواخر سنة ١٣٤٣هـ (١٩٢٤م)، وكتب يوسف ياسين رسالة إلى خير الدين الزركلي - أحد أعضاء الجمعيات - يدعوه للعمل في السعودية، وقال في نهاية الرسالة: «أعتقد أنك في قبولك العمل معنا، ستكون أعظم عضد لنا في إتمام ما نسير إلى إتمامه من برنامجنا في خدمة القضية العربية»، ويعتبر يوسف ياسين من كبار العاملين في خدمة الدولة السعودية، وشهد موقعة السبلة، وتولى رئاسة الشعبة السياسية، وهي تختص بالأمور السياسية - وعلى الأخص ما كان منها عائداً للشؤون الخارجية -. وهو في نفس الوقت السكرتير الخاص للملك. وبتاريخ ١٣٦٤هـ (١٩٤٥م)، صدر مرسوم ملكي بتعيينه وزيراً للدولة، ونائباً لوزير الخارجية، إضافة إلى رئاسته للشعبة السياسية في الديوان الملكي، أهدت إليه الحكومة العراقية وسام تاج إيطاليا من رتبة كومندور، والحكومة الفرنسية وسام جوقة الشرف من رتبة أوفيسيه، وكان عضواً في مجلس الوكلاء، ومجلس الشورى في عهد الملك، أصدر جريدة أم القرى. وكانت وفاته في الدمام سنة ١٣٨١هـ (١٩٦٢م).

□ مصادر الترجمة:

١. قصر الحكم في الرياض - عبدالرحمن الرويشد - ٦٤.

٢. البلاد العربية السعودية - فؤاد حمزة - ٣١ - ٤٤.

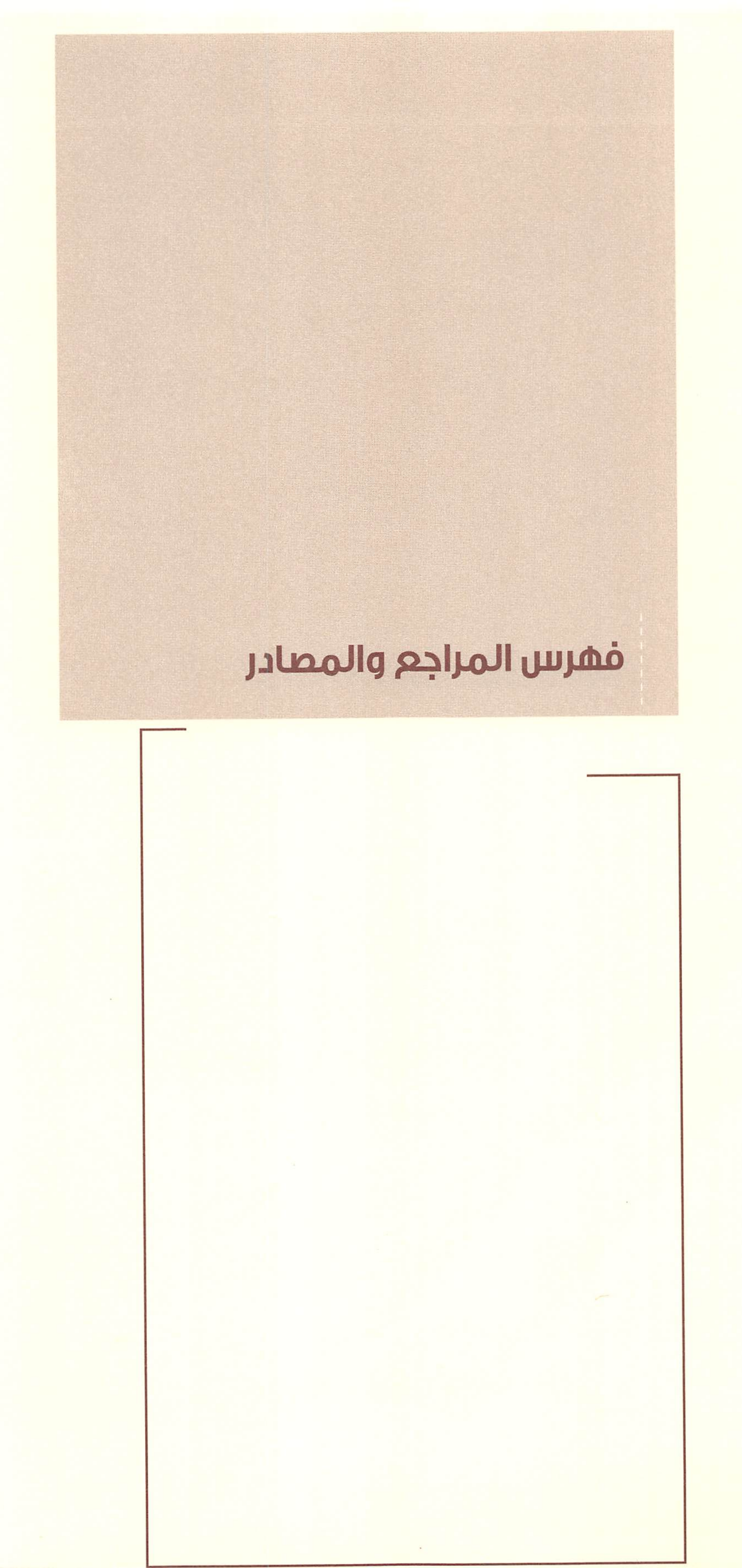
٣. الأعلام - خير الدين الزركلي - ٨/ ٢٥٣.

٤. حول الحركة العربية الحديثة - محمد عزة دروزة - ١/ ٨٦.

٥. الرحلة الملكية - يوسف ياسين.

٦. شبه الجزيرة العربية - خير الدين الزركلي - ١/ ٣٦٧. ٤/ ٩٨٢.





فهرس المراجع والمصادر



فهرس المراجع والمصادر

١) الآجـري: الشريعة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.

٢) إبراهيم إبراش: البعد القومي للقضية الفلسطينية، مركز دراسات الوحدة العربية.

٣) إبراهيم اليازجي: رسائل اليازجي، مطبعة اليوسفية، مصر، ١٩٢٠م.

٤) إبراهيم هاشم الفلالي: لا رق في القرآن، دار القلم، القاهرة.

٥) أبو إسلام أحمد عبدالله: الماسونية في منطقة ٢٤٥، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

٦) أبو الأعلى المودودي: الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة، دار القلم، الكويت، الطبعة الثالثة، ١٣٩٨هـ.

٧) أبو بكر الإسماعيلي: كتاب اعتقاد أهل السنة والجماعة، دار الريان، الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.

٨) أبو الحسن الأشعري: مقالات الإسلاميين، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الأولى.

٩) أبو الحسن الندوي:

» العرب والإسلام، مكتبة المنارة، مكة المكرمة، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ.

» ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، دار السلام، حلب، بيروت، الطبعة الحادية عشرة، ١٣٩٨هـ.

١٠) أبو عبيد بن سلام: غريب الحديث، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٨٧هـ.

١١) أحد أعضاء الجمعيات: ثورة العرب مقدماتها أسبابها نتائجها، مطبعة المقطم، مصر، ١٩١٦م.

١٢) إحسان الهندي: معركة ميسلون، مطابع وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي، ١٩٦٧م.

١٣) أحمد الخنساء: تاريخ العلاقات الدولية منذ الثورة الفرنسية حتى الحرب العالمية الأولى، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

١٤) أحمد السعيد سليمان: التيارات القومية والدينية في تركيا المعاصرة، دار المعرفة، القاهرة.

١٥) أحمد المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار صادر، بيروت.

١٦) أحمد بن حنبل:

» المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد بن حنبل في العقيدة، جمع وتحقيق عبد الإله الأحمدي، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

» المسند، دار الفكر العربي.

١٧) أحمد جلي: دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين، مركز الملك فيصل، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

١٨) أحمد حسن فرحات: الأمة في دلالتها العربية والقرآنية، دار عمار، عمان، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.

١٩) أحمد شاكر: كلمة الحق، دار الكتب السلفية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

٢٠) أحمد شلبي:

» المسيحية، النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الثامنة، ١٩٨٤م.

» اليهودية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة السابعة، ١٩٨٤م.

٢١) أحمد شوقي: ديوان شوقي، دار نهضة مصر، القاهرة.

٢٢) أحمد عبد الغفور عطار: محمد بن عبد الوهاب، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٣٨٧هـ.

٢٣) أحمد فوزي: عبد الكريم قاسم وساعاته الأخيرة، دار الحرية للطباعة، العراق، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

٢٤) أحمد قدري: مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى، ١٩٥٦م.

٢٥) أرنست أ.رامزور: تركية الفتاة وثورة ١٩٠٨م، ترجمة صالح أحمد العلي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٠م.

٢٦) الأزهري: تهذيب اللغة، دار الكتاب العربي، مطابع سجل العرب، القاهر، ١٩٦٧م.

٢٧) أسعد داغر: مذكراتي على هامش القضية العربية، دار القاهرة، ١٩٥٩م.

٢٨) أسعد داغر: مصادر الدراسات الأدبية، المكتبة الشرقية، بيروت لبنان، ١٩٨٣م.

٢٩) أسعد رستم: بشير بين السلطان والعزيز (١٨٠٤م – ١٨٤١م)، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٦٦م.

٣٠) إسماعيل الأنصاري: القول الفصل في حكم الاحتفال بمولد خير الرسل، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، ١٤٠٥هـ.

٣١) الأصبهاني: الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة، دار الراية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

٣٢) الإعلان العالمي للأمم المتحدة بشأن القضاء على التعصب الديني، طيبة للدراسة والنشر.

٣٣) أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ.

٣٤) الألباني:

» تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد، المكتب الإسلامي، الطبعة الرابعة، ١٤٠٢هـ.

» سلسلة الأحاديث الضعيفة، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

٣٥) إلياس فرح:

» تطور الأيديولوجية العربية الثورية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة السابعة، ١٩٧٩م.

» في الثقافة والحضارة، العراق وزارة الثقافة والفنون، دار الرشيد، ١٩٧٩م.

» المرأة في فكر ونضال حزب البعث العربي الاشتراكي، سلسلة الثقافة الثورية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٦م.

٣٦) إلياس مرقص: نقد العقلانية العربية، دار الحصاد، دمشق، ١٩٩٧م.

٣٧) آمنة محمد نصير: الإمام محمد بن عبد الوهاب ومنهجه في مباحث العقيدة، دار الشروق، بيروت.

٣٨) أميرة جبر: الرحالة الفرنسيون في موطن الرز، مؤسسة خليفة، البوشرية، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م.

٣٩) أميلي إبراهيم: الحركة النسائية اللبنانية، دار الثقافة، بيروت، لبنان.

٤٠) أمين الريحاني:

» الريحانيات، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٢م.

» نجد وملحقاته، منشورات الفاخرية، الرياض، الطبعة الخامسة، ١٩٨١م.

٤١) أمين بن حسن الحلواني: نبش الهذيان من تاريخ جرجي زيدان، تقديم محمد السيد الوكيل.

٤٢) أمين سعيد:

» أسرار الثورة العربية الكبرى ومأساة الشريف حسين، دار الكاتب العربي.

» تاريخ الدولة السعودية، دار الكاتب العربي، بيروت، ١٩٦٤م.

» الثورة العربية الكبرى، مطابع عيسى البابي الحلبي، مصر.

٤٣) أندريه جيد:

» أوديب ثيسيوس، ترجمة طه حسين، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة، ١٩٨٥م.

» مدرسة الزوجات، تعريب صبري فهمي، دار الكتاب المصري، الطبعة الأولى، ١٩٤٧م.

» مزيفو النقود، ترجمة بهيج شعبان، عويدات، بيروت، لبنان، ١٩٨٤م.

» قوت الأرض والقوت الجديد، ترجمة شكيب الجابري، عويدات، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٦٥م.

٤٤) أنور الجندي:

» شخصيات اختلف فيها الرأي، دار الأنصار، مصر.

» العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٣م.

» عقبات في طريق النهضة، أنور الجندي، دار الاعتصام.

» المخططات التلمودية اليهودية الصهيونية، دار الاعتصام، مصر، الطبعة الثانية، ١٣٩٧هـ.

» المرأة المسلمة في وجه التحديات، دار الاعتصام، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ.

» المعارك الأدبية في مصر، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٣م.

» اليقظة الإسلامية في مواجهة التغريب، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٩١م.

٤٥) أنور الرفاعي: جهاد نصف قرن، مذكرات (سعيد الجزائري)، دمشق.

٤٦) أنيس المقدسي: الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة الثامنة، ١٩٨٨م.

٤٧) أنيس النصولي:

» أسباب النهضة العربية في القرن التاسع عشر، دار ابن زيدون، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.

» عشت وشاهدت، دار الكتاب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٥١م.

٤٨) أنيس صايغ: الهاشميون والثورة العربية الكبرى، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٦م.

٤٩) ابن أبي العز:

» شرح العقيدة الطحاوية، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ.

» شرح العقيدة الطحاوية، مكتبة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

٥٠) ابن الأثير:

» الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤٠٥هـ.

» النهاية في شرح غريب الحديث والأثر، أنصار السنة المحمدية، باكستان.

٥١) ابن باز:

» مجموع فتاوى الشيخ عبد العزيز بن عبدالله بن باز، شركة العبيكان، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ.

» نقد القومية العربية على ضوء الإسلام والواقع، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، ١٤٠٠هـ، الطبعة الرابعة.

٥٢) ابن بطة: الإبانة عن شريعة الفرق الناجية، دار الراية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

٥٣) ابن تيمية:

» اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، شركة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.

» بيان تلبيس الجهمية، مؤسسة قرطبة.

» الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

» الرد على المنطقيين، مكتبة السنة المحمدية، القاهرة، ١٣٧٠هـ.

» شرح العقيدة الأصفهانية، مطبعة الاعتصام، القاهرة، ١٣٨٥هـ.

» العبودية، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٣٩٩هـ.

» الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الرابعة.

» مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، مكتبة المعارف، الرباط، المغرب.

» مختصر الفتاوى المصرية، دار ابن القيم، السعودية، الدمام، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ.

» منهاج السنة النبوية، تحقيق محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة، الطبعة الأولى.

» النبوات، دار القلم، بيروت.

٥٤) ابن الجوزي:

» أحكام القرآن، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

» زاد المسير في علم التفسير، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ.

٥٥) ابن حجر:

» تقريب التهذيب، دار المعرفة، بيروت لبنان، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ.

» فتح الباري بشرح صحيح البخاري، المكتبة السلفية، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٤٠٨هـ.

٥٦) ابن حزم:

» الإجماع، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

» الفصل في الملل والأهواء والنحل، دار عكاظ للنشر، جدة، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ.

» المحلى، دار الآفاق الجديدة، بيروت.

٥٧) ابن خلدون: المقدمة، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م.

٥٨) ابن رجب الحنبلي: جامع العلوم والحكم، رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض.

٥٩) ابن رشد: بداية المجتهد ونهاية المقتصد، المكتبة العصرية، مصر، ١٩٧٥م.

٦٠) ابن سعد: الطبقات الكبرى، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٠٠هـ.

٦١) ابن سلامة أبي النصر: الناسخ والمنسوخ، مكتبة المتنبي، القاهرة.

٦٢) ابن عبد البر:

» التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب.

» جامع بيان العلم وفضله، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.

٦٣) ابن عربي: الفتوحات المكية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٣٩٤هـ.

٦٤) ابن العربي:

» عارضة الأحوذي لشرح صحيح الترمذي، دار الكتاب العربي.

» نواسخ القرآن، الجامعة الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.

٦٥) ابن قدامة: المغني، مكتبة الرياض.

٦٦) ابن قيم الجوزية:

» أحكام أهل الذمة، دار العلم للملايين، الطبعة الثانية، بيروت، ١٤٠١هـ.

» إعلام الموقعين عن رب العالمين، دار الجيل، بيروت، لبنان.

» تهذيب معالم السنن بحاشية مختصر سنن أبي داود، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

» الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي.

» زاد المعاد في هدي خير العباد، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ.

» مختصر الصواعق المرسلة، دار الندوة الجديدة، بيروت، لبنان، ١٤٠٥هـ.

» مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٣٩٢هـ.

» هداية الحيارى في الرد على اليهود والنصارى، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان.

٦٧) ابن كثير:

» البداية والنهاية، دار الريان للتراث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

» تفسير القرآن العظيم، مطبعة الشعب.

» عمدة التفسير، تحقيق أحمد شاكر، تراث الإسلام.

» شمائل الرسول، دار القبلة، المملكة العربية السعودية، جده، الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ.

٦٨) ابن المنذر: الإجماع، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ.

٦٩) ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت.

٧٠) ابن هشام: السيرة النبوية، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض.

٧١) ابن الوزير: العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ.

٧٢) أد.انكلهارد: تركيا والتنظيمات في تاريخ إصلاحات الدولة العثمانية.

٧٣) ألبرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة، دار النهار، بيروت، لبنان.

٧٤) بدر الدين الزركشي: الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٠هـ.

٧٥) بدوي أحمد طبانة: معروف الرصافي (دراسة أدبية لشاعر العراق وبيئته السياسية والاجتماعية)، القاهرة، ١٩٤٦م.

٧٦) بطرس البستاني: دائرة المعارف، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

٧٧) بطرس فهد: بطاركة الموارنة وأساقفتهم في القرن التاسع عشر، ١٩٩٠م.

٧٨) البغوي: شرح السنة، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.

٧٩) البيهقي:

» دلائل النبوة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.

» معرفة السنن والآثار، جامعة الدراسات الإسلامية، كراتشي، باكستان، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

٨٠) بيير كربتيس: إبراهيم باشا، ترجمة: محمد بدران، لجنة التأليف والترجمة، ١٩٣٧م.

٨١) تشارلز آدمس: الإسلام والتجديد في مصر، مطبعة الاعتماد، مصر، ١٣٥٣هـ (١٩٣٥م).

٨٢) توفيق برو: العرب والترك، طلاس، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩١م.

٨٣) توفيق السويدي: مذكراتي نصف قرن من تاريخ العراق والقضية العربية، دار الكتاب العربي.

٨٤) الجامع الفريد: طبع في مطبعة المدينة، الرياض. من المؤلف؟)

٨٥) الجبرتي: عجائب الآثار، دار الجيل، الطبعة الثانية، ١٩٧٨م.

٨٦) جرجي زيدان:

» تاريخ آداب اللغة العربية، دار الهلال.

» تاريخ التمدن الإسلامي، مكتبة الحياة، بيروت، لبنان.

» تاريخ الماسونية العام، مطبعة المحروسة، مصر، ١٨٨٩م.

» تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان.

» فتاة غسان (١)، بيروت، دار الأندلس، بعد ١٣٨٠هـ.

٨٧) الجصاص: أحكام القرآن، دار الكتاب العربي، بيروت.

٨٨) جلال السيد: حزب البعث العربي، دار النهار، بيروت، ١٩٧٣م.

٨٩) جمال باشا:

» إيضاحات عن المسائل السياسية التي جرى تدقيقها بديوان الحرب العرفي المتشكل بعاليه، طنين، ١٣٣٤هـ.

» مذكرات جمال باشا، مطبعة دار البصري، بغداد، ١٩٦٣م.

٩٠) جمال الشاعر: سياسي يتذكر تجربة في العمل السياسي، دار الريس، لندن.

٩١) جميل عطية: صك المؤامرة، دار الفتى العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩١م.

٩٢) جورج أنطونيوس: يقظة العرب، دار العلم للملايين، ترجمة ناصر الأسد، إحسان عباس، بيروت، لبنان، ١٩٦٦م.

٩٣) جوزيف إلياس:

» تطور الصحافة السورية في مائة عام (١٨٦٥م - ١٩٦٥م)، دار النضال، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٢م.

» عفلق والبعث، دار النضال، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩١م.

٩٤) الجويني: الغياثي غياث الأمم في التياث الظلم، مطبعة نهضة مصر.

٩٥) حافظ الحكمي: معارج القبول، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.

٩٦) الحاكم: المستدرك على الصحيحين، الحاكم، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

٩٧) محمد فهمي عبد الوهاب: الحركة النسائية وصلتها بالاستعمار، دار الأنصار، القاهرة.

٩٨) حسان حلاق: موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية، جامعة بيروت العربية، بيروت، ١٣٩٨هـ.

٩٩) حسن الحكيم:

» خبراتي في الحكم، مجلة الشريعة، عمان، الطبعة الأولى، ١٣٩٨هـ.

» عبد الرحمن الشهبندر، حياته وجهاده، الدار المتحدة للنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.

١٠٠) حسن السندوبي:

» أعيان البيان من صبح القرن الثالث عشر الهجري إلى اليوم، المطبعة الجمالية، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٣٢هـ (١٩١٤م).

» تاريخ الاحتفال بالمولد النبوي من عصر الإسلام الأول إلى عصر فاروق الأول، الطبعة الأولى، الاستقامة، القاهر، ١٣٦٧هـ.

١٠١) حسين الجبوري: عوارض الأهلية عند الأصوليين، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

١٠٢) حسن الشلاة: طالب النقيب، دوره في تاريخ العراق الحديث، القاهرة جامعة القاهرة، ١٩٧٠م.

١٠٣) حسين بن غنام: تاريخ نجد، مطابع الشرق الأوسط، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ.

١٠٤) حسين حمادة: محمد عزة دروزة: نشأته وحياته ومؤلفاته، دار قتيبة، دمشق، الطبعة الثانية، ١٩٨٣م.

١٠٥) حسين عمر حمادة: الماسونية والماسونيون في الوطن العربي، دار قتيبة، دمشق.

١٠٦) حسين مجيب المصري: معجم الدولة العثمانية، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٧م.

١٠٧) حمد الجمال:

» أبو الأعلى المودودي: حياته وفكره العقدي، دار المدني، جدة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

» اتجاهات الفكر المعاصر في مصر في النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري، دار عالم الكتب، الرياض، ١٤١٤هـ.

١٠٨) حمد بن علي عتيق: إبطال التنديد باختصار شرح التوحيد، مكتبة التوفيق، الرياض، الطبعة الرابعة، ١٤٠٠هـ.

١٠٩) حمود التويجري: الرد القوي على الرفاعي والمجهول وابن علوي وبيان أخطائهم في المولد النبوي، دار اللواء، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.

١١٠) حنا أبي راشد: دائرة المعارف الماسونية المصورة، مكتبة الفكر العربي، لبنان، بيروت، ١٩٦٠م.

١١١) الخطابي: غريب الحديث، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، مركز البحث العلمي، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.

١١٢) خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٧هـ.

١١٣) خير الدين التونسي: أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ.

١١٤) خير الدين الزركلي:

» الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة السابعة، ١٩٨٦م.

» شبه الجزيرة العربية في عهد الملك عبد العزيز، الطبعة الثالثة، ١٩٧٧م.

» ما رأيت وما سمعت، مكتبة المعارف، الطائف.

١١٥) خير الله خير الله: معضلة الشرق، أو الأقطار العربية المحررة، تعريب عارف النكدي، بيروت، ١٩١٩م.

١١٦) خيرية قاسمية:

» الحكومة العربية في دمشق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٢م.

» الرعيل العربي الأول (حياة وأوراق نبيه العظمة)، رياض الريس للكتب والنشر.

» عوني عبد الهادي، أوراق خاصة.

١١٧) ذوقان قرقوط: ميشيل عفلق (الكتابات الأولى)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٣م.

١١٨) رئيف الخوري: الفكر العربي الحديث أثر الثورة الفرنسية في توجيهه السياسي والاجتماعي، دار المكشوف، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٧٣م.

١١٩) الراغب الأصفهاني: مفردات القرآن، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

١٢٠) رجاء حسين الخطاب: تأسيس الجيش العراقي، الدار العربية، بغداد، الطبعة الثانية، ١٩٨٢م.

١٢١) رشيد رضا:

» تاريخ الأستاذ الإمام، مطبعة المنار، القاهرة.

» حقوق النساء في الإسلام، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٤هـ.

» الخلافة، مطبعة المنار، سنة ١٣١٤هـ.

» الوحي المحمدي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة العاشرة،١٤٠٥هـ.

١٢٢) رفيق العظم:

» أشهر مشاهير الإسلام، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، الطبعة السادسة، ١٤٠٣هـ.

» تنبيه الأفهام إلى مطالب الحياة الاجتماعية والإسلام، مطبعة الموسوعات، مصر، ١٣١٨هـ (١٩٠٠م).

» الدروس الحكمية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠٩هـ.

» مجموعة آثار رفيق بك العظم، الجامعة العثمانية، مطبعة المنار، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٤٤هـ.

١٢٣) زكي النقاش: دور العروبة في تراثنا اللبناني، دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٠٠هـ.

١٢٤) زهير المارديني: الأستاذ (قصة حياة ميشيل عفلق)، الريس، لندن.

١٢٥) زين نور الدين زين:

» الصراع الدولي في الشرق الأوسط ولادة دولتي سوريا ولبنان، دار النهار، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٧٧م.

» نشوء القومية العربية، دار النهار، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٧٩م.

١٢٦) ساطع الحصري:

» أبحاث مختارة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ١٩٨٥م.

» تقرير عن حالة المعارف في سورية واقتراحات لإصلاحها، دمشق، دار الهلال، ١٩٤٤م.

» البلاد العربية والدولة العثمانية، معهد الدراسات العربية العالمية، ١٩٥٧م.

» ثقافتنا في جامعة الدول العربية، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٦٢م.

» ساطع الحصري، مجموعة من الكتاب، ١٢، (سلسلة نوابغ العرب)، دار العودة، بيروت، ١٩٨٥م.

» اللغة والأدب وعلاقتهما بالقومية، دار الطليعة، بيروت، ١٩٦٦م.

» ما هي القومية، أبحاث ودراسات على ضوء الأحداث والنظريات، العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٢م.

» محاضرات في نشؤ الفكرة القومية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٨٥م.

» مذكراتي في العراق، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٨م.

» يوم ميسلون، صفحة من تاريخ العرب الحديث، دار الاتحاد، بيروت.

١٢٧) سامي الجندي: حزب البعث، دار النهار، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٩م.

١٢٨) سعد بن عتيق: مجموعة رسائل الشيخ سعد بن عتيق، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٧٩م.

١٢٩) سعيد الجزائري: الماسونية ما لها وما عليها من ماضيها وحاضرها، مؤسسة النوري، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

١٣٠) سعيد الغامدي: حزب البعث تاريخه وعقائده، دار الوطن، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

١٣١) سفر الحوالي: العلمانية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، مركز البحث العلمي، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ.

١٣٢) سلسلة تراث الإنسانية، مجموعة من الأساتذة، الهيئة العامة للكتاب، مصر.

١٣٣) السلطان عبد الحميد الثاني: مذكراتي السياسية، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٢هـ.

١٣٤) سليم علي سلام: مذكرات سليم علي سلام، قدم لها وحققها حسان علي حلاق، ١٤٠١هـ.

١٣٥) سليمان البستاني: عبرة وذكرى، مطبعة الأخبار، أكتوبر، ١٩٠٨م.

١٣٦) سليمان العودة: عبدالله بن سبأ وأثره في أحداث الفتنة في صدر الإسلام، دار طيبة، الطبعة الأولى.

١٣٧) سليمان بن سحمان:

» الضياء الشارق في رد شبهات الماذق المارق، دار البحوث العلمية والإفتاء، الطبعة الخامسة، ١٤١٤هـ.

» الهدية السنية والتحفة الوهابية النجدية، مطبعة المنار، مصر، الطبعة الثانية، ١٣٤٤هـ.

١٣٨) سليمان بن عبد الوهاب: تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤٠٢هـ.

١٣٩) سليمان فيضي: مذكرات سليمان فيضي، بغداد، ١٩٥٢م.

١٤٠) سليمان موسى: الحركة العربية (١٩٠٨م - ١٩٢٤م)، بيروت، ١٩٧٠م.

١٤١) سهيل صابان: الأوضاع الثقافية في تركيا في القرن الرابع عشر الهجري، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كلية الشريعة، ١٤١٥هـ. (رسالة دكتوراه لم تطبع).

١٤٢) سهيلة الريماوي: جمعية العربية الفتاة السرية دراسة وثائقية، دار مجدلاوي، عمان، الأردن.

١٤٣) سيار الجميل: العثمانيون وتكوين العرب الحديث، مؤسسة الأبحاث التاريخية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٩م.

١٤٤) السيد صبري: مبادئ القانون الدستوري، مكتبة عبدالله وهبة، مصر، الطبعة الثالثة، ١٣٦٥هـ.

١٤٥) سيد قطب:

» في ظلال القرآن، دار العلم للطباعة والنشر، جدة، الطبعة الثانية عشرة، ١٤٠٦هـ.

» مقومات التصور الإسلامي، دار الشرق، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

١٤٦) السيوطي:

» تاريخ الخلفاء، دار الجيل، بيروت، ١٤٠٨هـ.

» الدر المنثور في تفسير المأثور، دار الفكر، لبنان، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.

١٤٧) الشاطبي:

» الاعتصام، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

» الموافقات في أصول الشريعة، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

١٤٨) الشافعي:

» الأم، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ.

» الرسالة، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر.

١٤٩) شاكر الخوري: مجمع المسرات، مطبعة الاجتهاد، بيروت، ١٩٠٨م.

١٥٠) شاكر مصطفى: دولة بني العباس، وكالة المطبوعات، الكويت، الطبعة الأولى، ١٩٧٣م.

١٥١) شاهين مكاريوس: الحقائق الأصلية في تاريخ الماسونية العملية، مطبعة المقتطف، مصر، ١٨٩٧م.

١٥٢) شبلي شميل: حوادث وخواطر (مذكرات الدكتور شبلي شميل)، دار الحمراء، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩١م.

١٥٣) شبلي العيسمي: رسالة الأمة العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٠م.

١٥٤) شمس الدين الرفاعي: تاريخ الصحافة السورية، دار المعارف، مصر.

١٥٥) الشنقيطي: أضواء البيان تفسير القرآن بالقرآن، عالم الكتب، بيروت.

١٥٦) الشهرستاني:

» الملل والنحل، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٤٠٠هـ.

» موسوعة الملل والنحل، مؤسسة ناصر للثقافة، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨١م.

١٥٧) شوقي أبو خليل:

» الإسلام في قفص الاتهام، دار الفكر، دمشق، الطبعة الرابعة، ١٤٠٠هـ.

» الإسلام وحركات التحرر العربية، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ.

» جرجي زيدان في الميزان، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣هـ.

١٥٨) الشوكاني:

» شرح الصدور بتحريم رفع القبور، السنة المحمدية، مصر.

» فتح القدير، الشوكاني، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

» نيل الأوطار، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

١٥٩) صابر طعيمة: الماسونية ذلك العالم المجهول، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨١م.

١٦٠) صالح الأشقر: مهرجان عبد الرحمن الكواكبي، أثر الكواكبي في النهضة العربية، ٨٥، القاهرة، ١٩٦٠م.

١٦١) صالح العبود: فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام، دار طيبة، الرياض.

١٦٢) صبحي العمري: ميسلون نهاية عهد، دار الريس للكتب والنشر، لندن، قبرص، الطبعة الأولى، ١٩٩١م.

١٦٣) صبحي المحمصاني:

» الأوضاع التشريعية في الدول العربية، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٨١م.

» تراث الخلفاء الراشدين في الفقه والقضاء، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م.

١٦٤) صديق حسن خان: الروضة الندية شرح الدرر البهية، دار الندوة الجديدة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.

١٦٥) صديق الدملوجي: مدحت باشا، بغداد، ١٩٥٣م.

١٦٦) صلاح الدين المختار: تاريخ المملكة العربية السعودية، مكتبة الحياة، بيروت.

١٦٧) ضابط تركي سابق: الرجل الصنم، ترجمة (عبدالله عبد الرحمن)، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٢هـ.

١٦٨) طاهر الجزائري:

» أشهر الأمثال، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

» الجواهر الكلامية في إيضاح العقيدة الإسلامية، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

١٦٩) الطبري:

» تاريخ الأمم والملوك، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

» جامع البيان (تفسير الطبري)، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤٠٨هـ.

١٧٠) طه الهاشمي: مذكرات طه الهاشمي، (١٩١٩م – ١٩٤٣م)، منشورات دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٧م.

١٧١) عارف أبو عيد: السيادة في الإسلام، مكتبة المنار، الأردن، الزرقاء، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

١٧٢) عباس محمود العقاد:

» روح عظيم، «المهاتما غاندي"، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

» المرأة في القرآن، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٩٦٩م.

١٧٣) عبد الجليل التميمي:

» الأمير عبد القادر الجزائري في السنوات الأولى من إقامته بدمشق، جامعة دمشق، كلية الآداب، مطبعة الطرابيشي، ١٩٧٩م.

» تحية تقدير للأستاذ شار روبير آجرون، منشورات التميمي للبحث العلمي والمعلومات، ١٩٩٦م.

١٧٤) عبد الحليم إلياس الخوري: الماسونية ذلك العالم المجهول، دار العلم للجميع، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٥٤م.

١٧٥) عبد الحميد متولي: الشريعة الإسلامية، منشأة المعارف بالإسكندرية، الطبعة الأولى.

١٧٦) عبد الرحمن البرج:

» عزيز المصري والحركة العربية (١٩٠٨م - ١٩١٦م)، مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام، مصر، ١٩٧٩م.

» ساطع الحصري، (سلسلة أعلام العرب)، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٨٨م.

١٧٧) عبد الرحمن الدوسري:

» الأجوبة المفيدة، دار الأرقم، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ.

» صفوة الآثار والمفاهيم، دار الأرقم، الكويت، ١٤٠١هـ.

» اليهودية والماسونية، دار السنة، الخبر، ١٤١٤هـ، الطبعة الأولى.

١٧٨) عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية، مصر، ١٩٢٧م.

١٧٩) عبد الرحمن السديس: الحاكمية في تفسير أضواء البيان، دار طيبة، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

١٨٠) عبد الرحمن السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، الرياض، ١٤٠٤هـ.

١٨١) عبد الرحمن الشهبندر: مذكرات عبد الرحمن الشهبندر، دار الإرشاد، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٨٦هـ.

١٨٢) عبد الرحمن الصابوني: عقيدة السلف أصحاب الحديث، الدار السلفية، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.

١٨٣) عبد الرحمن القاسم:

» الدرر السنية، دار العربية، بيروت لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ.

» الدرر السنية في الأجوبة النجدية، الطبعة الخامسة، ١٤١٦هـ.

١٨٤) عبد الرحمن الكواكبي:

» أم القرى، الشرق العربي، بيروت، لبنان.

» طبائع الاستبداد، مطبعة الدستور، مصر.

١٨٥) عبد الرحمن بن حسن:

» فتح المجيد، دار الفيحاء، دمشق، ١٤١٤هـ.

» قرة عيون الموحدين، دار الإفتاء، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ.

١٨٦) عبد العزيز العبد اللطيف: دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب عرض ونقض، دار طيبة، الرياض، ١٤٠٩هـ.

١٨٧) عبد العزيز نوار: تاريخ العرب المعاصر (مصر والعراق)، دار النهضة العربية، بيروت.

١٨٨) عبد الغني العريسي: مختارات المفيد، دار الطليعة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٨١م.

١٨٩) عبد القادر عودة: الإسلام وأوضاعنا القانونية، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٨٦هـ.

١٩٠) عبد القاهر البغدادي:

» أصول الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ.

» الفرق بين الفرق، دار المعرفة، بيروت.

١٩١) عبد القديم زلوم: كيف هدمت الخلافة؟ ١٣٨٢هـ.

١٩٢) عبد الكريم رافق عثمان: العرب والعثمانيون (١٥١٦م – ١٩١٦م)، أطلس، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٧٤م.

١٩٣) عبد الكريم زيدان: أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٣٩٦هـ.

١٩٤) عبد الكريم مشهداني: العلمانية وآثارها على الأوضاع الإسلامية في تركيا، المكتبة الدولية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.

١٩٥) عبدالله التل:

» جذور البلاء (القسم الأول)، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥هـ.

» خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٣٩٩هـ.

» كارثة فلسطين، مطبعة مصر، ١٩٥٩م.

١٩٦) عبدالله الدميجي: الإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

١٩٧) عبدالله الطريقي: الاستعانة بغير المسلمين في الفقه الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

١٩٨) عبدالله العثيمين: الشيخ محمد بن عبد الوهاب حياته وفكره، دار العلوم، الرياض، ١٩٩٣م.

١٩٩) عبدالله بن سعد الرويشد: الإمام محمد بن عبد الوهاب في التاريخ، القاهرة، البابي الحلبي، ١٣٩٢هـ.

٢٠٠) عبدالله بن محمد بن عبد الوهاب: مختصر سيرة الرسول، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض.

٢٠١) عبد المنعم النمر: كفاح المسلمين في تحرير الهند، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٨٣هـ.

٢٠٢) عبد الوهاب أحمد: بريطانيا والخلافة الإسلامية، وثيقة تاريخية سياسية، جامعة الإمارات، العين، ١٩٨٠م.

٢٠٣) عبد الوهاب أحمد عبد الوهاب: تاريخ العرب الحديث، دار القلم، دبي، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

٢٠٤) عثمان العامر: مقومات النهضة في الفكر القومي العربي، دراسة نقدية في ضوء الإسلام، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كلية الشريعة، (رسالة دكتوراه لم تنشر).

٢٠٥) عجاج نويهض: مذكرات عجاج نويهض (ستون عاماً مع القافلة العربية)، دار الاستقلال، بيروت، ١٩٩٣م.

٢٠٦) عدنان الخطيب: الشيخ طاهر الجزائري (رائد النهضة العلمية في بلاد الشام)، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧١م.

٢٠٧) علوي السقاف: تحذير من ينتمي إلى الإسلام عن الاحتماء بأعداء الملك العلام والوقوع فيمن أقامه الله تعالى للمسلمين إمام، مخطوطة بمكتبة جامعة الملك سعود، قسم المخطوطات، تحت رقم ١١٥٠م/ ٢.

٢٠٨) علي الخربوطلي: الإسلام وأهل الذمة، إصدار المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٣٨٩هـ.

٢٠٩) علي الزهراني: الانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين، دار الرسالة، مكة المكرمة.

٢١٠) علي العلياني:

» أهمية الجهاد، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.

» حقيقة الكفر بالطاغوت، دار التربية والتراث، مكة، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.

» الرقى على ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة، دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

٢١١) علي المحافظة: الاتجاهات الفكرية في عصر النهضة (١٧٩٨ - ١٩١٤م)، الأهلية للنشر، بيروت، ١٩٨٣م.

٢١٢) علي حسون:

» تاريخ الدولة العثمانية، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٥هـ.

» العثمانيون والبلقان، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ.

٢١٣) علي عبد الرازق: الإسلام وأصول الحكم، الطبعة الثانية، مصر، ١٣٤٤هـ.

٢١٤) علي ناصر الدين: قضية العرب، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٦٣م.

٢١٥) عمر فاخوري: كيف ينهض العرب؟ دار الأفاق الجديدة، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ.

٢١٦) عمر فروخ: التبشير والاستعمار في البلاد العربية، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٩٨٢م.

٢١٧) عيسى إسكندر معلوف: تاريخ المشايخ اليازجيين، المطبعة المخلصية، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٤٥م.

٢١٨) عيسى ميخائيل سابا: ناصيف اليازجي، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٨٠م.

٢١٩) الغزالي: المستصفى.

٢٢٠) فؤاد أفرام البستاني: الروائع، المعلم بطرس البستاني، المقدمة، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٢٩م.

٢٢١) فؤاد العطار: النظم السياسية والقانون الدستوري، دار النهضة العربية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٦٦م.

٢٢٢) فؤاد غصن: مذكراتي خلال قرن، دار الريحاني، بيروت.

٢٢٣) فؤاد قزانجي: العراق في الوثائق البريطانية، (١٩٠٥ - ١٩٣٠م)، دار المأمون، بغداد، ١٩٨٩م.

٢٢٤) فخري محمود البارودي: مذكرات البارودي، بيروت، دار الحياة، ١٣٧١هـ.

٢٢٥) فهد الرومي: منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.

٢٢٦) فيليب حتي: العرب تاريخ موجز، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٨٠م.

٢٢٧) فيليب دي طراز: تاريخ الصحافة العربية، بيروت، المطبعة الأدبية، ١٩١٣م.

٢٢٨) القاضي عياض: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ١٩٧٧م.

٢٢٩) قدري قلعجي: مدحت باشا أبو الدستور العثماني وخالع السلاطين.

٢٣٠) القرطبي: الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، مكتبة الحرمين، الرياض.

٢٣١) القرطبي: جامع أحكام القرآن، دار الكتب المصرية، الطبعة الثانية، ١٣٧٢هـ.

٢٣٢) قيس جواد العزاوي: الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، مركز دراسات الإسلام والعالم، تامبا، الولايات المتحدة الأمريكية، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

٢٣٣) ألكسيس كاريل: الإنسان ذلك المجهول، ترجمة شفيق سعيد، الطبعة الثالثة.

٢٣٤) اللالكائي: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى.

٢٣٥) لبيب الرياشي: نفسية الرسول العربي، دار الكشاف، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٩٤٩م.

٢٣٦) لوثروب ستؤارد: حاضر العالم الإسلامي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٣٩٤هـ.

٢٣٧) لورانس: أعمدة الحكمة السبعة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٧٩م.

٢٣٨) لويس شيخو اليسوعي:

» تاريخ الآداب العربية، منشورات الدار المشرق، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٩١م.

» السر المصون في شيعة الفرمسون، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩١٠م.

» مذبحة الجبل (حسر اللثام عن نكبات الشام)، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٣م.

٢٣٩) مازن مطبقاني: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

٢٤٠) مالك بن أنس: الموطأ، دار النفائس، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٠هـ.

٢٤١) الماوردي:

» الأحكام السلطانية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.

» أدب الدنيا والدين، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.

٢٤٢) مجدي الصافوري: سقوط الدولة العثمانية وأثره على الدعوة الإسلامية، دار الصحوة، مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

٢٤٣) مجموعة من العلماء: رسالة مسجد الجامعة، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ.

٢٤٤) مجموعة من المستشرقين: دائرة المعارف الإسلامية، دار المعرفة، بيروت.

٢٤٥) مجيد خدوري: عرب معاصرون، الدار المتحدة للنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٣م.

٢٤٦) محب الدين الخطيب:

» أوراق محب الدين الخطيب في القاهرة.

» سيرة جيل، (مخطوط)، مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية.

» المؤتمر العربي الأول، جمع محب الدين الخطيب، القاهرة، ١٣٣١هـ - ١٩١٣م.

٢٤٧) محماس الجلعود: الموالاة والمعاداة في الشريعة الإسلامية، دار اليقين، المنصورة، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

٢٤٨) محمد أبو زهو: الحديث والمحدثون، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٤٠٤هـ.

٢٤٩) محمد أبو شهبة: السيرة النبوية في ضوء الكتاب والسنة، دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ.

٢٥٠) محمد أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية، دار الفكر العربي.

٢٥١) محمد أحمد الخطيب: الحركات الباطنية في العالم الإسلامي، مكتبة الأقصى، عمان، الأردن، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ.

٢٥٢) محمد أسعد طلس، عصر الانبعاث، دار الأندلس، بيروت، ١٩٦٣م.

٢٥٣) محمد أنور شاه الكشميري: التصريح بما تواتر في نزول المسيح، المطبوعات الإسلامية، حلب.

٢٥٤) محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربي (١٥١٤هـ - ١٩١٤م)، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٥م.

٢٥٥) محمد البهي: الإسلام والرق، دار التراث العربي، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ.

٢٥٦) محمد الخضر حسين: نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم، المكتبة السلفية، القاهرة.

٢٥٧) محمد الشيباني: حياة الألباني وآثاره وثناء العلماء عليه، الدار السلفية، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

٢٥٨) محمد العجلان: ندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر، ٣، ٦/ ٦/ ١٤٠٥هـ، مكتب التربية العربي لدول الخليج، بحث بعنوان: حركة التجديد والإصلاح في نجد.

٢٥٩) محمد الغزالي: عقيدة المسلم، دار الكتب الحديثة، مصر، ١٩٧٦م.

٢٦٠) محمد المجذوب: علماء ومفكرون عرفتهم، دار الشواف، الرياض، الطبعة الرابعة، ١٩٩٢م.

٢٦١) محمد الناصر النفزاوي: محمد كرد علي (المثقف وقضية الولاء السياسي)، دار الجنوب، تونس، ١٩٩٣م.

٢٦٢) محمد النجار: القول المبين في سيرة سيد المرسلين، دار اللواء، الرياض، ١٤٠١هـ.

٢٦٣) محمد بن إبراهيم:

» تحكيم القوانين، دار المسلم، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

» فتاوى الشيخ محمد بن إبراهيم، مطبعة الحكومة، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ.

٢٦٤) محمد بن أحمد السفاريني: لوامع الأنوار البهية، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان.

٢٦٥) محمد بن عبدالله عرفة: حقوق المرأة في الإسلام، الطبعة الأولى، ١٣٩٨هـ.

٢٦٦) محمد بن عبد الوهاب: مجموعة مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، أسبوع الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

٢٦٧) محمد بن عثمان الشاوي: القول الأسد في الرد على الخصم الألد، مخطوط بجامعة الملك سعود، رقم ٣٤٢١.

٢٦٨) محمد توفيق صادق: تطور الحكم والإدارة في المملكة العربية السعودية، معهد الإدارة، الطبعة الأولى.

٢٦٩) محمد جميل بيهم:

» الحلقة المفقودة في تاريخ العرب، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٦٩هـ.

» فتاة الشرق في حضارة الغرب، محمد جميل بيهم، الدار العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٥٢م.

» فلسفة تاريخ محمد ﷺ، الدار الجامعية، بيروت.

» قوافل العروبة ومواكبها خلال العصور، بيروت، ١٩٥٠م.

» المرأة في التاريخ والشرائع، الدار العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٢١م (مصور).

» الوحدة العربية بين المد والجزر، الدار العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٣٩٣هـ.

٢٧٠) محمد حرب: العثمانيون في التاريخ والحضارة، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

٢٧١) محمد حسين هيكل:

» حياة محمد، دار المعارف، القاهرة، الطبعة السادسة عشر.

» في منزل الوحي، دار المعارف، القاهرة، الطبعة السابعة، ١٩٧٩م.

٢٧٢) محمد خضر: المنحة المحمدية في بيان العقائد السلفية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

٢٧٣) محمد زعيتر: المارونية في لبنان قديماً وحديثاً، الوكالة الشرقية، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

٢٧٤) محمد سرور: دراسات في السيرة النبوية، دار الأرقم، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

٢٧٥) محمد سعيد الباني: تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر، الحكومة العربية السورية، (١٣٣٩هـ - ١٩٢٠م).

٢٧٦) محمد سلطان المعصومي: هل المسلم ملتزم باتباع مذهب معين من المذاهب الأربعة؟ دار المعرفة، دمشق، حلبوني، الطبعة الثالثة، ١٣٩٨هـ.

٢٧٧) محمد صالح المراكشي: تفكير محمد رشيد رضا من خلال مجلة المنار، (١٨٩٨هـ - ١٩٣٥م)، الدار التونسية، تونس، ١٩٨٥م، الطبعة الأولى.

٢٧٨) محمد ضياء الرحمن الأعظمي: اليهودية والمسيحية، مكتبة الدار، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

٢٧٩) محمد عبد السلام: السنن والمبتدعات المتعلقة بالأذكار والصلوات، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٠هـ.

٢٨٠) محمد عبد الغني حسن: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، سلسلة أعلام العرب، الجزء ٩٠.

٢٨١) محمد عبد اللطيف البحراوي: حركة الإصلاح العثماني في عصر السلطان محمود الثاني، (١٨٠٨م - ١٨٣٩م)، دار التراث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٩٨هـ.

٢٨٢) محمد عزة دروزة:

» حول الحركة العربية الحديثة، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت.

» الدستور القرآني في شؤون الحياة، إحياء الكتب العربية، ١٣٧٦هـ.

» سيرة الرسول ﷺ، المكتبة العصرية، بيروت.

» مختارات قومية، (الكتاب الجامعي)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م.

» المرأة في القرآن والسنة، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ.

» نشأة الحركة الحديثة، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩١هـ.

٢٨٣) محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية العثمانية، دار النفائس، بيروت، الطبعة السادسة، ١٤٠٨هـ.

٢٨٤) محمد فريد وجدي:

» دائرة معارف القرن العشرين، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٩٧١م.

» السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة، دار المصرية اللبنانية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.

» المدنية والإسلام، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ١٣٥٣هـ.

٢٨٥) محمد قربان نيازملّا: السلطان عبد الحميد الثاني وأثره في نشر الدعوة الإسلامية، مكتبة المنارة، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

٢٨٦) محمد قطب:

» قضية تحرير المرأة، مكتبة السنة، القاهرة، ١٤١١هـ.

» مذاهب فكرية معاصرة، دار الشروق، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ.

» مفاهيم ينبغي أن تصحح، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ.

» واقعنا المعاصر، مؤسسة المدينة للصحافة، جدة، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

٢٨٧) محمد كاظم: العراق في عهد عبد الكريم قاسم دراسة في القوى السياسية والصراع الأيديولوجي، (١٩٥٨م – ١٩٦٣م)، مكتبة اليقظة العربية، العراق، بغداد.

٢٨٨) محمد كرد علي:

» خطط الشام، مكتبة النوري، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣هـ.

» كنوز الأجداد، دار الفكر، سورية، دمشق، ١٤٠٤هـ.

» المعاصرون، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٤٠١هـ.

٢٨٩) محمد لبيب السنوسي: الرحلة الحجازية، الشركة التونسية، ١٤٠١هـ.

٢٩٠) محمد محفوظ: تراجم المؤلفين التونسيين، بيروت، دار المغرب الإسلامي، ١٩٨٤م.

٢٩١) محمد محمد حسين:

» الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة السادسة، ١٤٠٣هـ.

» الإسلام والحضارة الغربية، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤٠٢هـ.

» حصوننا مهددة من داخلها، دار الرسالة، السعودية، الطبعة الثانية عشرة، ١٤١٣هـ.

٢٩٢) محمد مخزم: أزمة الفكر ومشكلات السلطة السياسية في المشرق العربي في عصر النهضة، معهد الإنماء العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م.

٢٩٣) محمد يوسف موسى: نظام الحكم في الإسلام، دار المعرفة.

٢٩٤) محمود أبو رية: أضواء على السنة المحمدية، مطبعة الأشراف، لاهور، باكستان، ١٤٠٢هـ.

٢٩٥) محمود الشاذلي: الماسونية عقيدة المولد وعار النهاية، مكتبة وهبة، مصر، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

٢٩٦) محمود ثابت الشاذلي: المسألة الشرقية، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

٢٩٧) محمود حافظ: كتاب الوجيز في النظم السياسية والقانون الدستوري، دار النهضة العربية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٧٦م.

٢٩٨) محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.

٢٩٩) محمود شكري الآلوسي: تتمة سليمان بن سحمان على تاريخ نجد، الطبعة الثالثة، ١٤١٥هـ.

٣٠٠) محمود منسي: حركة اليقظة العربية في الشرق الآسيوي، دار الفكر العربي، ١٩٧٨م.

٣٠١) مروان القسي: المرأة المسلمة بين اجتهادات الفقهاء وممارسات المسلمين، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، الرباط، المغرب، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

٣٠٢) المروزي: اختلاف العلماء، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ.

٣٠٣) المزي: تهذيب الكمال في أسماء الرجال، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

٣٠٤) مصطفى السباعي: المرأة بين الفقه والقانون، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة السادسة، ١٤٠٤هـ.

٣٠٥) مصطفى الشهابي: القومية العربية تاريخها وقوامها ومراميها، جامعة الدول العربية، الطبعة الثانية، ١٩٦١م.

٣٠٦) مصطفى دندشلي: حزب البعث العربي الاشتراكي، الطبعة الأولى، ١٩٧٩م.

٣٠٧) مصطفى صادق الرافعي: تحت راية القرآن، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة السابعة، ١٣٩٤هـ.

٣٠٨) مصطفى صبري:

» موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين، إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤١٣هـ.

» النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة، دار القادري، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

٣٠٩) مصطفى محمد الطحان: القومية بين النظرية والتطبيق، دار الوثائق، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

٣١٠) مطيع النونو: دولة البعث وإسلام عفلق، مطبعة الأهرام، مصر، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م.

٣١١) مفرح القوسي: الشيخ مصطفى صبري وموقفه من الفكر الوافد، كلية الشريعة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، (رسالة ماجستير)، ١٤٠٩هـ.

٣١٢) المقريزي: الخطط.

٣١٣) ممدوح الروسان: العراق وقضايا الشرق العربي القومية، (١٩٤١-١٩٥٨م)، بيروت، ١٩٧٩م.

٣١٤) منير البعلبكي: الموسوعة المورد، الطبعة الأولى، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٠م.

٣١٥) منير محمد نجيب: الحركات القومية في ميزان الإسلام، مكتبة الحرمين، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ.

٣١٦) منيف الرزاز: الأعمال الفكرية والسياسية، مؤسسة منيف الرزاز للدراسات القومية، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م.

٣١٧) ميشال جحا: سليم البستاني، سلسلة الأعمال المجهولة، رياض الريس للكتب والنشر.

٣١٨) ميشيل عفلق:

» في سبيل البعث، الطبعة الأولى، ١٩٥٩م.

» في سبيل البعث، دار الطليعة للطباعة والنشر، الطبعة الخامسة، ١٩٧١م.

٣١٩) نادية شريف العمري: اجتهاد الرسول ﷺ، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥هـ.

٣٢٠) ناصيف اليازجي: ديوان الشيخ ناصيف اليازجي (النبذة الثالثة وهي المعروفة بثالث القمرين)، المطبعة الأدبية، بيروت، سنة ١٩٠٣م.

٣٢١) نجدة فتحي صفوة: خواطر وأحاديث في التاريخ، مطبعة إشبيلية الحديثة، بغداد، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م.

٣٢٢) نجيب عازوري: يقظة الأمة العربية، تعريب أحمد بو ملحم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

٣٢٣) ناصر الدين الأسد: محمد روحي الخالدي، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧٠م.

٣٢٤) نقولا زيادة: لبنانيات تاريخ وصور، دار الريس، لندن، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م.

٣٢٥) نور الدين حاطوم: تاريخ الحركات القومية، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية، ١٩٧٩م.

٣٢٦) النووي:

» شرح صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

» المجموع شرح المهذب، دار الفكر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

٣٢٧) هـ.س. مسترونج: الذئب الأغبر، مصطفى كمال، نشر دار الهلال.

٣٢٨) هاني الحوراني: الأحزاب السياسية في الأردن، مركز الأردن للدراسات، عمان، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م.

٣٢٩) هاني الفكيكي: أوكار الهزيمة تجربتي في حزب البعث العراقي، دار الريس، لندن، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م.

٣٣٠) الواقدي: المغازي، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ.

٣٣١) وجيه كوثراني:

» الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي، منشورات بحسون الثقافية، ١٩٨٦م.

» بلاد الشام، (قراءة في الوثائق)، معهد الإنماء العربي.

٣٣٢) وليم الخازن: الشعر والوطنية في لبنان والبلاد العربية، دار المشرق، بيروت، ١٩٧٩م.

٣٣٣) وليم سليمان قلادة: التسامح الديني والتفاهم بين المعتقدات، سلسلة حوار الشهر، مركز اتحاد المحامين العرب للبحوث والدراسات القانونية، القاهرة.

٣٣٤) وهبة الزحيلي:

» آثار الحرب في الفقه الإسلامي، دار الفكر، الطبعة الثالثة، ١٤٠١هـ.

» الفقه الإسلامي وأدلته، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ.

٣٣٥) ياسين سويد: مؤامرة الغرب على العرب، المركز العربي للأبحاث والتوثيق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م.

٣٣٦) يحيى إسماعيل: منهج السنة في العلاقة بين الحاكم والمحكوم: دار الوفاء، المنصورة، ١٤٠٦هـ.

٣٣٧) يحيى بن الحسين: رسائل العدل والتوحيد، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

٣٣٨) يوسف أسعد داغر: مصادر الدراسة الأدبية.

٣٣٩) يوسف البستاني: تاريخ حرب البلقان الأولى والثانية، مطبعة الهلال، القاهرة، ١٩١٣م.

٣٤٠) يوسف الدبس: الجامع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصل، دار لحد خاطر، الطبعة الثالثة، ١٩٨٢م.

٣٤١) يوسف القرضاوي: غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ.

٣٤٢) يوسف مناصرية: الحزب الحر الدستوري التونسي، (١٩١٩م - ١٩٣٤م)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

المجلات والدوريات

١) جريدة أخبار العالم الإسلامي، تاريخ ١١/ ٦/ ١٣٩٩هـ.

٢) جريدة أخبار اليوم بعددها الصادر بتاريخ ١٣/ ٣/ ١٩٥٤م، نبأ وفاة الشيخ مصطفى.

٣) جريدة الأهرام، ١٠٥٧٨ في ١٧/ ١٢/ ١٩١٢م.

٤) جريدة الأهرام، عدد ١٠٦٧٦، بتاريخ ١٥/ ٤/ ١٩١٣م.

٥) جريدة القبلة، العدد ٥٢، السنة الأولى، بتاريخ ١٩/ ٤/ ١٣٣٥هـ.

٦) جريدة المؤيد، عدد ٦٩٦٣، بتاريخ ١٦/ ٤/ ١٩١٣م.

٧) جريدة المحروسة، مقالة بقلم شبلي شميل بتاريخ ٢٥/ ١٩١٣، بعنوان اللامركزية والعمران.

٨) جريدة المفيد، ١٢٤٨، بتاريخ ٩/ ٤/ ١٩١٣م.

٩) جريدة المفيد برقم ١٣٧٩ وتاريخ ١٨/ ٩/ ١٩١٣م.

١٠) جريدة المقتطف الجزء ٣٦-٢٥٠-٢٧٠، مارس ١٩١٠م.

١١) القبس، العدد الأول، ٣٠ أيلول ١٩١٣م.

١٢) مجلة أضواء الشريعة، العدد الحادي عشر، مجلة دورية تصدرها كلية الشريعة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، سنة ١٤٠٠هـ، ص: ٥٠٤ وما بعدها، مقال خليل أحمد الحامدي.

١٣) مجلة الأزهر، السنة ١٣٧٧هـ، المجلد ٢٩، ص: ٣٣-٣٤، المقال: أحمد الشرباصي، المدرس بالأزهر.

١٤) مجلة الأزهر، مجلد ٢٥، محرم ١٣٧٣هـ، الجزء الثاني، ص: ١٧٣-١٧٤.

١٥) مجلة الإخاء، العدد التاسع والعشرون، ٢٠ أيلول ١٩١٠م، السنة الأولى.

١٦) مجلة الحديث، حلب، السنة ٢٦، العددان ٩ -١٠ أيلول وسبتمبر ١٩٥٢م، ٥٤٨-٥٤٩، عبد الرحمن الكواكبي، أسعد الكواكبي.

١٧) مجلة الرسالة، العدد ١٠٣٧، بتاريخ ١٢/ ٧/ ١٣٨٣هـ، ١٩٦٣م، السنة الحادي والعشرون، ص: ٦.

١٨) مجلة الرسالة، العدد١٢٣، بتاريخ ١٤/ ٨/ ١٣٥٤هـ، ١٩٣٥م، السنة الثالثة، ص: ١٨٣٦.

١٩) مجلة الزهراء، محب الدين الخطيب، المجلد ٣ ربيع الأول ١٣٤٥هـ، ص: ٢٠١.

٢٠) مجلة العالم العربي، عدد ٢٧١٠، بعنوان (النثر والقومية العربية)، محمود تيمور.

٢١) مجلة العربي الكويتية، العدد الأول ديسمبر ١٩٥٨م، ٢٤ مقال محمد أحمد خلف (القومية العربية كما ينبغي أن نفهمها).

٢٢) مجلة العربي، العدد ٢٢، الكويت، كاتب المقال: محمد جميل بيهم.

٢٣) مجلة العربي، العدد الأول، ديسمبر ١٩٥٨م، مقال أحمد زكي، افتتاحية العدد.

٢٤) مجلة العربي، العدد ١٥١، يونيو ١٩٧١م، ص: ٥٢، مقال جمعية العربية الفتاة، سليمان موسى.

٢٥) مجلة العربي، عدد يناير ١٩٥٩م.

٢٦) مجلة الفتح، رقم العدد ٧٢، الصادر ٣٠/ ٥/ ١٣٤٦هـ الموافق ٢٤ نوفمبر ١٩٢٧م.

٢٧) مجلة القضاء العراقية، السنة الثانية، العددان الأول والثاني، صفر سنة ١٣٥٥هـ.

٢٨) مجلة المجتمع الكويتية، العدد ١١٢٣، ٢٧/ ٥/ ١٤١٥هـ.

٢٩) مجلة المجمع العلمي العربي، المجلد ١، الجزء ١٠ بتاريخ ٢١/ ٤/ ١٣٣٩هـ، ص: ١٩.

٣٠) مجلة المستقبل العربي، العدد الأول، السنة الخامسة، ١٩٧٨م، ص: ٧٨.

٣١) مجلة المعرفة، العدد العشرون، ذو القعدة لعام ١٤١٧هـ، ص: ١٦١.

٣٢) مجلة المقتطف، ج ٣٦، مارس ١٩١٠م، ص: ٢٥٠- ٢٧٠.

٣٣) مجلة المقتطف، الجزء الثالث، المجلد ٣٦، سنة ١٣٢٨هـ - ١٩١٠، مقال (النهضة الدستورية – فارس نمر).

٣٤) مجلة المقتطف، الجزء السابع من المجلد التاسع والعشرين، ١٧/ ٤/ ١٣٢٢هـ، الموافق يوليو سنة ١٩٠٤م، ص: ٥٦١.

٣٥) مجلة المنار، السنة العاشرة، العدد العاشر، ١٩٠٨م، ص: ٧٢٧.

٣٦) مجلة المنار، المجلد السادس عشر، الجزء الثالث، ٨ مارس سنة ١٩١٣م.

٣٧) مجلة المنار، رشيد رضا، المجلد السادس عشر، الجزء الرابع، ص: ٢٨٠.

٣٨) مجلة المنهل، الجزء السابع، مجلد ٢٧، السنة ٣٢ لعام ١٣٨٦هـ، ص: ٧٦٤.

٣٩) مجلة الهلال، الجزء الثاني، السنة السابعة عشرة، ٧/ ١٠/ ١٣٢٦هـ، ص: ٨٩، القانون الأساسي.

٤٠) مجلة دراسات تاريخية، لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق، العدد ١١، سنة ١٤٠٣هـ، مفهوم اللامركزية، سهيلة الريماوي.

٤١) مجلة دراسات تاريخية، مقال سهيلة الريماوي، العدد الحادي عشر، ربيع الثاني، ١٤٠٣هـ، ص: ١٥٢.

٤٢) مجلة دراسات تاريخية، السنة الرابعة، العدد الحادي عشر، ربيع الأول ١٤٠٣هـ، مقال بعنوان تطور مفهوم اللامركزية عند العرب العثمانيين، سهيلة الريماوي.

٤٣) مجلة دراسات تاريخية، العددان الخامس عشر والسادس عشر، ١٩٨٤م، مقال سهيلة الريماوي.

٤٤) مجلة قضايا عربية، العدد (٣/ ٤)، السنة الثانية، ١٩٧٥م، ص: ١٢٠.

٤٥) مجلة لواء الإسلام، العدد الثامن، ربيع أول ١٣٦٧هـ، الموافق فبراير ١٩٤٨م، ص٤، بعنوان (وحدة الشعوب الإسلامية)، أحمد حمزة.

٤٦) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، الجزء٣، المجلد ٤٥، ربيع الآخر سنة ١٣٩٠هـ، ص: ٥٩٥.

٤٧) مواقف عربية من التفاهم مع الصهيونية]١٩١٣ - ١٩١٤م[، شؤون فلسطينية، بيروت، العدد ٣١ بتاريخ ١٩٧٤م، ص: ١٣٥.

٤٨) نضال البعث، ١/ ١٧٢-١٨١، منشورات دار الطليعة، بيروت، ١٩٦٣م.

٤٩) نضال البعث، منشورات دار الطليعة، بيروت، ١٩٦٣م، ٤/ ١٨٧.





فهـــارس الموضـــوعات



فهـــارس الموضـــوعــات